



رُسَايَا رُؤُوسِ الصُّلَحِ

والنضال من أجل الاستقلال العربي

باتريك سسيل

ولد باتريك سيل في إيرلنده الشمالية وتلقى علومه في كليتي باليول وسانت أنتوني، أكسفورد. عمل لوكالة رويترز للأنباء لمدة ست سنوات، ثم لاثنتي عشر سنة في طاقم الأوبزرفر كمراسل في الشرق الأوسط، وباريس وكمراسل متجول في أفريقيا وشبه الجزيرة الهندية. يكتب حالياً مقالات أسبوعية لعدة صحف كما يدير مكتباً استشارياً حول شؤون الشرق الأوسط.

تضم مؤلفاته: «النضال من أجل سورية» (1965، طبعة محدثة، 1986، مع مقدمة من ألبرت حوراني)، «الثورة الفرنسية» (1968 مع مورين ماكونفيل)، «فيلبي، الطريق الطويل إلى موسكو» (1973 مع مورين ماكونفيل)، «مهمّة هلتون» (1973، مع مورين ماكونفيل)، «الأسد، الصراع على الشرق الأوسط» (1988، 1989، 1990)، «أبو نضال، بندقية للإيجار» (1992، 1993)، كما ساعد في إعداد كتاب «مقاتل من الصحراء» 1995.

«عبر التركيز على شخصية رياضي
الصلاح المتميزة وسيرته المؤثرة،
يستحضر باتريك سيل العالم المثير
والمنسي للسياسة العربية في مطلع
القرن العشرين.

لا شك أن كتابه هذا سيبقى لعقود قادمة
بمثابة المرجع الأساسي لدارسي هذه
الحقبة».

- إدوارد موتيمر

نائب رئيس حلقات سالزبرغ الدراسية العالمية

يدور موضوع هذا الكتاب حول نشوء الشرق الأوسط الحديث. وقد تكوّنت منطقة الشرق الأوسط، كما نعرفها اليوم، خلال سنوات العنف والاضطراب التي شهدتها النصف الأول من القرن العشرين، عندما استولت بريطانيا وفرنسا على المناطق العربية وفصلتها عن الإمبراطورية العثمانية، إثر هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، عندها أنشأت دول بديلة: تركيا وسوريا ولبنان والأردن والعراق وإسرائيل - وقُضي على فلسطين العربية.

ويمكن تقصّي جذور الكثير من الصراعات والأزمات التي تعاني منها المنطقة اليوم، وردّها إلى تلك المرحلة من الحروب والتوترات وإعادة رسم الخرائط.

يقدم باتريك سيل، المؤرخ البارز لهذه المنطقة من العالم، هذه القصة عبر سرد حياة رياض الصلح، السياسي اللبناني الذي تحوّل إلى رجل الدولة العربي المبرز في زمانه، واستمرّ حتى اغتياله في العام 1951، وكان في طليعة الأحداث والكفاح الذي أسس للوضع الحالي في المنطقة، حيث انتزع استقلال لبنان من فرنسا وأصبح رئيس وزرائه الأول لمرحلة ما بعد الاستقلال، مع جميع تحديات ومآسي تلك المرحلة.

إنه كتاب مبهّر يربط تاريخ الكفاح العربي من أجل الاستقلال ربطاً مباشراً بحياة الشخصيات المعنية، مستعيناً على ذلك بالسجلات العثمانية والبريطانية والفرنسية، وعلى مقابلات عدة. إنه مرجع قيّم للدارسين والباحثين، يحمل أهمية مؤثرة لكل من يحاول أن يتعرّف أكثر على منطقة ودول الشرق الأوسط.



ISBN 978-9953-87-774-7

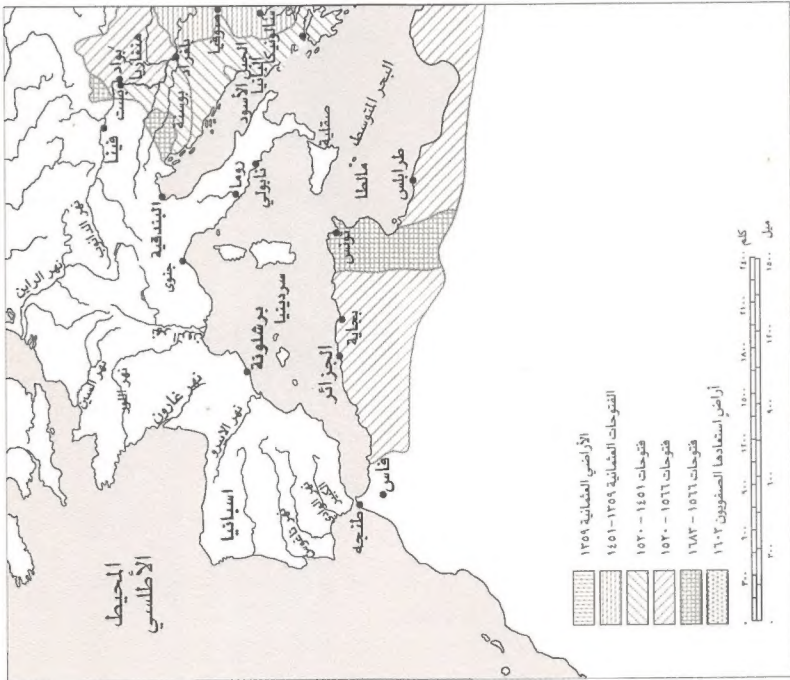
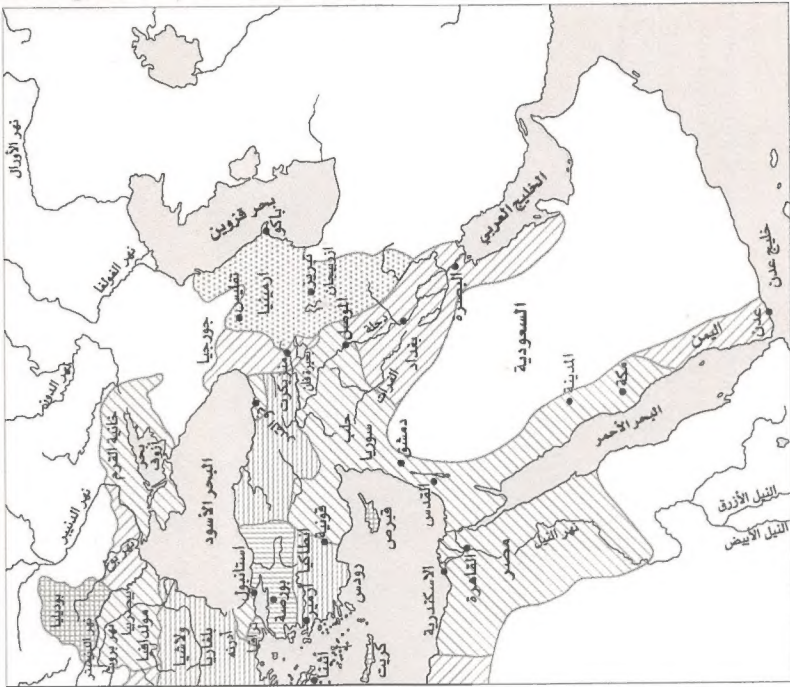


9 789953 877747

رِزْكَائِضُ الصَّلَاحِ
والنضال من أجل الاستقلال العربي

الخرائط مقدمة دار جامعة كامبردج

مع الشكر



توسّع الإمبراطورية العثمانية

رِيسَاةُ الصُّلَحِ والنضال من أجل الاستقلال العربي

تأليف

باتريك سيل

نقله إلى العربية

عمر سعيد الأيوبي

التدقيق اللغوي

أحمد الرفاعي



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. ١٩٨١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Struggle for ARAB INDEPENDENCE: RIAD EL-SOLH

and the Makers of the Modern Middle East

حقوق الترجمة العربية مَرَّصَ بها قانونياً من المؤلف

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2010, Patrick Seale

All rights reserved

Arabic Copyright © 2010 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-774-7

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.

التتصيد وفرز الألوان: أجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

9.....	لائحة بالخرائط
11.....	مقدمة
15.....	الفصل الأول: كبير من كبراء الإمبراطورية
37.....	الفصل الثاني: طفولة عثمانية
55.....	الفصل الثالث: التعلّم في ظلّ الثورة
91.....	الفصل الرابع: في ظلال المشانق
121.....	الفصل الخامس: فيصل والفجر الكانب
163.....	الفصل السادس: هارب من الفرنسيين
199.....	الفصل السابع: الثورة السورية الكبرى
229.....	الفصل الثامن: عودة البطل
255.....	الفصل التاسع: رجل الشعب
277.....	الفصل العاشر: رياض الصلح والصهيونية والحاج أمين الحسيني
303.....	الفصل الحادي عشر: بن غوريون والعرب
331.....	الفصل الثاني عشر: ولادة وطني لبناني
369.....	الفصل الثالث عشر: الهويات المتنافسة: الصراع على عقول الناس
391.....	الفصل الرابع عشر: سياسة الشارع
405.....	الفصل الخامس عشر: تغيّر رياح الحرب
437.....	الفصل السادس عشر: رشيد عالي والحملة على سوريا ولبنان
455.....	الفصل السابع عشر: رياض بك والجنرال سبيرز
477.....	الفصل الثامن عشر: التحدي الانتخابي
501.....	الفصل التاسع عشر: تسوية الميثاق الوطني
513.....	الفصل العشرون: المعركة الحاسمة

549.....	الفصل الحادي والعشرون: الصحوة المؤلمة.....
581.....	الفصل الثاني والعشرون: وداعاً للفرنسيين.....
605.....	الفصل الثالث والعشرون: سيد الساحة المحلية.....
623.....	الفصل الرابع والعشرون: الحرب غير المرغوبة.....
665.....	الفصل الخامس والعشرون: التحدي الذي فرضه الثوار.....
701.....	الفصل السادس والعشرون: جريمة في عمان.....
741.....	خاتمة.....
749.....	الجدول الزمني للأحداث.....
777.....	مصادر مختارة (باللغة العربية).....
779.....	مصادر مختارة (باللغات الأوروبية).....
789.....	الفهرس.....

الخرائط

1. توسع الإمبراطورية العثمانية.....1
2. متصرفية جبل لبنان العثمانية سنة 1861 وتوسعها إلى لبنان الكبير كما أنشأه الفرنسيون سنة 1920.....132
3. الجمهورية اللبنانية.....502
4. الشرق الأوسط المعاصر.....518
5. خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين في 1947.....636
6. دولة إسرائيل بعد اتفاقات الهدنة عام 1949.....637

الحی و قری ہے
حالیہ اور اصلاح

مُقَدِّمَة

طالما فتنتني حياة رياض الصلح، رجل الدولة القومي العربي البارز، وأول رئيس وزراء للبنان بعد نيله الاستقلال. لذا لم أتردد في تأليف كتاب عنه عندما حتّني علياء، كبرى كريمات رياض الصلح الخمس، التي تربطني بها صداقة قديمة، منذ أن التقينا في جامعة أكسفورد في خمسينيات القرن الماضي. وقد أصبت بصدمة كبيرة عندما توفيت علياء فجأة في 26 نيسان/أبريل 2007، قبل أن أتم كتابة هذا العمل. فهي الملهمة الأولى لهذا الكتاب الذي أقدمه لذكرها الطيبة.

لم أتعامل مع هذا العمل كمؤرخ أكاديمي رسمي بقدر ما تعاملت معه كرواية يرويها شخص عاش نصف قرن في الشرق الأوسط، وأحبّه، وكتب عنه. أردت أن أظهر كيف ناضل ذلك الجيل الأول من القوميين العرب من أجل الاستقلال العربي في وجه الطموحات الغربية الشرسة - والآلام التي كابدوها، واليأس الذي اعتراه في الغالب، والصعوبات الجمة التي واجهوها دائماً - ومع ذلك لم تفتر عزيمتهم أو تضعف شجاعتهم.

أرجو أن يساعد هذا الكتاب في الكشف عن جذور العديد من الصراعات والأزمات التي تعصف بالمنطقة اليوم. يمكن العودة بهذه الجذور إلى النصف الأول من القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت العنف والحروب والمذابح وإعادة رسم الخرائط بتعجرف فادح. في تلك الفترة، ظهرت الجمهورية التركية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية المهزومة والممزقة؛ وفرض الانتداب الاستعماري البريطاني والفرنسي على الولايات العربية للإمبراطورية؛ وولدت دول جديدة - الجمهوريتان اللبنانية والسورية ومملكتا العراق والأردن - ودمّر مجتمع عربي قديم في فلسطين وهجر سكانه؛ وظهرت في قلب المنطقة الدولة اليهودية، التي منحها شكلها الرعاية البريطانية الثابتة في فترة ما بين الحربين العالميتين، وألحقت هزيمة نكراء بجيرانها العرب الأضعف أو المنقادين سرّاً.

شارك رياض الصلح بنشاط في صناعة تاريخ هذه الحقبة، وهو تاريخ نسيه الرأي العام إلى حدّ كبير حتى في المنطقة نفسها. كانت حياته سلسلة من البذل والجهد السياسي المتواصل منذ سنّ مبكّرة. انغمس في الأحداث والنقاشات والنضالات التي أرسّت دعائم الشرق الأوسط الحديث. ولعل فهم ما حاول أن يفعله وما استطاع تحقيقه - وأين فشل أيضاً - يعني فهم التحديات العسيرة التي لا تزال تواجه المنطقة. فقد انتزع استقلال لبنان من الفرنسيين، ويمكن اعتباره من أبرز السياسيين في زمانه، لأسباب أشرحها في هذا الكتاب.

كان رياض الصلح صاحب رؤيا عن شرق أوسط مُتحد وديمقراطي، وهي رؤيا كرّس لها حياته بأكملها. ومن ثمّ يقدم نموذجاً ملهماً لجيل اليوم، الذي أصبحت الوحدة والديمقراطية والاستقلال الحقيقي بالنسبة إليه أهدافاً أبعد منالاً من ذي قبل. استفدت كثيراً في وضع هذا الكتاب من نصيح وصداقة وعلم أحمد بيضون، ووليد الخالدي، وجيرارد خوري، وهنري لورنس، ونادين معوشي، وروجر أوين، وإليزابيت بيكار، ونادين بيكادو، وآفي شلايم، ورغيد الصلح، وغسان تويني. كما أنني مدين بالشكر لوفيق سعيد الذي ما كان لهذا المشروع أن يبدأ لولا المساعي التي بذلها. لاستقاء معلومات عن حياة رياض الصلح الباكورة وعائلته، اعتمدت على روايات من أفراد عائلة الصلح، بالإضافة إلى آخرين عرفوه جيداً وكانوا على قيد الحياة عندما أجريت أبحاثي. لم يكن من الممكن جمع القصة من السجلات العربية لأنها غير موجودة إلى حدّ كبير، أو لا تزال غير متاحة، أو أتلفت بصورة متعمّدة. لذا اضطررت إلى الاعتماد كثيراً على المصادر العثمانية، والمصادر الثانوية، والمقابلات، بالإضافة إلى الوثائق الدبلوماسية البريطانية والفرنسية التي ظهرت أهميتها الكبيرة في كشف ما كانت تعتزم القوى الغربية فعله في ذلك الوقت. ولم أكن لأستطيع إنجاز هذا الكتاب دون مساعدة ألن رَش، الذي قام بإخلاص وبمهارة بإيجاد مئات الوثائق الدبلوماسية التي كنت بحاجة إليها في الأرشيف البريطاني والفرنسي والسويسري. وساعدني مصطفى كولو في إيجاد مواد عن آل الصلح في الأرشيف العثماني، في حين بحث فادي شاكر في مجموعة الجرائد في الجامعة الأميركية عن كل المواد ذات الصلة. وأدين بالشكر في فرنسا إلى كونستانس أرمنجون، وإينس-ليلي دخلي، وسومبول كايا،

وفائزة القاسم، وأوراس زياوي، وفي جامعة أكسفورد، إلى ديورا أشر التي تعمل في أرشيف مركز الشرق الأوسط في كلية سانت أنطوني. كما ساعدتني مهارات ديفيد جي التقنية في إنتاج النسخة الإلكترونية من المخطوطة.

وعملت رنا قباني على إعادة النظر في الكتاب مراراً بقلمها الرائع، وكانت ناقدتي البارعة إن لم أقل القاسية. ولقد حالفني الحظّ خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية بأن أستمتع بصحبتها وبحديثها المشوّق وعمواهبها الكثيرة التي تذكّرني، بصورة يومية، بالعالم العثماني العظيم الذي يقَدِّم القسم الأول من هذا الكتاب وصفاً له، هذا العالم الذي تُشكّل فيه دون شك آخر "خائم" راقية.

الفصل الأول

كبير من كبراء الإمبراطورية

كان أحمد باشا أحد رجال الإمبراطورية العثمانية الكبار في القرن التاسع عشر، وهو مؤسس دعائم نجاحات آل الصلح السياسية؛ والجد الذي منحهم المكانة التاريخية التاريخية التي تبوّوها. ويبدو أن آل الصلح ربما حصلوا على هذا الاسم بسبب دورهم كصناع سلام في مجتمع يقتقر إلى المحاكم في الغالب ويقدر دور المصلح بين الأطراف المتنازعة تقديراً عالياً. أما جد أحمد باشا، فهو خضر الصلح الذي كان قد سافر، وفقاً لما تنقله قصص العائلة التقليدية، إلى الهند في القرن الثامن عشر لدراسة السيمياء [الكيمياء القديمة]. وعلى الرغم من أن سعيه وراء حجر الفلاسفة (مادة تحوّل المعادن الخسيسة إلى ذهب) لم يكن ناجحاً، فإنه يقدم دليلاً مبكراً على روح المغامرة لدى العائلة. من ناحية أخرى، لا يبدو أن والد أحمد باشا، محمود الصلح، قد غادر موطنه على الإطلاق، لكنه عاش حياة هادئة فيه كوجيه ومالك للأراضي إلى أن أودى به خلاف مع الحاكم المحلي العثماني إلى السجن. أرادت زوجة محمود الصلح تجنب ابنها أحمد المصير الذي لقيه زوجها، فقررت إرساله إلى إستانبول⁽¹⁾. هناك تعلم أحمد الصلح التركية وعُيّن، عند عودته إلى الوطن بعد سنوات عدة، مترجماً في الجيش العثماني. وهكذا بدأ صعوده المنتظم في الإدارة العسكرية والمدنية للإمبراطورية.

ولد أحمد عام 1810 في مدينة صيدا على ساحل البحر المتوسط. وكانت في ذلك الوقت ميناء للأراضي الداخلية الجبلية، وتقع بين مناطق نفوذ أمراء جبل لبنان إلى الشمال، وتلك التي تتبع الولاة العثمانيين في عكا ودمشق إلى الجنوب والشرق، وأهلها الجانبان إلى حد كبير. كانت صيدا مجتمعاً ريفياً مغلقاً على ذاته تسيطر عليه عائلات ملاك الأراضي الذين تقع قصورهم على قمم التلال وتشرف على الطرق

(1) مقابلة مع يسر الصلح، حفيدة أحمد باشا وآخر من بقي من أحفاده، لندن، 10 كانون الثاني/يناير 2004.

المؤدية إلى القرى والأراضي التي يملكوها، وكذلك على طرق القوافل التي تمر بقرهم من الساحل إلى الداخل. وتعود أصول آل الصلح، مثلهم مثل العائلات الرئيسية الأخرى في جنوب لبنان - أو جبل عامل - إلى القبائل العربية اليمنية. ويعتقد أفراد العائلة أنه عندما طُرد أسلافهم من الأندلس في نهاية القرن الخامس عشر بعد أن استولى العاهلان الكاثوليكيان فرديناند (ملك أرغون) وإيزابيلا (ملكة قشتالة) شبه الجزيرة الأيبيرية، كانوا ينوون العودة إلى اليمن التي ينحدر منها أجدادهم. لكنهم استقرّوا بدلاً من ذلك في لبنان، على إحدى تلال صيدا التي تشرف على البحر المتوسط. لبث آل الصلح أجيالاً بعد ذلك، ينون بيوهم وتهدم ويعيدون بناءها على قطعة الأرض ذاتها. ويتم حالياً ترميم آخر هذه المنازل لتحويله إلى متحف إحياء لذكرى رياض الصلح.

كبرت طموحات أحمد الصلح وتعاظمت، فانتقل إلى بيروت مع شقيقه الأصغر، عبد الرحيم. وقد التحق عبد الرحيم بهيئة البريد السلطانية العثمانية وعمل في دمشق، ونابلس، وبيروت، وعكا، وأضنة. وفي سنة 1900 عمل مديراً للبريد والتلغراف في كوسوفو⁽¹⁾. أما أحمد فبدأ حياته العملية كجندي شارك في العديد من الحروب العثمانية، وبخاصة في البلقان، وارتقى السلم العسكري حتى وصل إلى رتبة لواء. انتقل بعد ذلك إلى الإدارة المدنية العثمانية حيث أصبح متصرف عكا، ثم اللاذقية. وقد عُرف في فترة ثمانينيات القرن التاسع عشر باسم "أحمد أفندي".

كانت الإمبراطورية العثمانية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مكوّنة من 29 ولاية على رأس كل منها وال يعينه الباب العالي في إسطنبول. وكانت كل ولاية مؤلفة بدورها من عدد من السناجق يرأس كلاً منها متصرف، وتتكوّن هذه السناجق بدورها من عدد من الأقضية التي يدير كلاً منها قائم مقام. بعد ذلك تأتي الناحية أو مجموعة من القرى والبلدات التي يشرف على إدارتها موظف برتبة مدير.

(1) للحصول على نبذة عن حياة عبد الرحيم الصلح كما تظهر في الأرشيف العثماني، انظر:

BOA. SAID d 71/93; 168/49, and BOA. DH. EUM 4şb 20/35; 6/17; and BOA DH EUM SSM 23/22. تحتوي مديريةية الأرشيف العثماني على سجلات وزارة الداخلية (BOA)، التي تقسم بدورها إلى سجل أول (SAID)، يقسم بدوره إلى ملفات أو دفاتر (d). للاطلاع على وصف لنظام السجل الأول (SAID) انظر Mehmet İpşirli, 'The Sicill-i Ahvâl Commission and its Registers,' in *Die Biographie in der Osmanischen Geschichte Quellen-Probleme-Methoden*, October 1993.

كانت الإمبراطورية العثمانية، في زمانها، من أكثر الإمبراطوريات اتساعاً وتعددية. وعندما بلغت أوجها في القرنين السادس عشر والسابع عشر، امتدَّ حكمها من الجزائر إلى شبه الجزيرة العربية، إلى المجر والقوقاز. لكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر، بدأ التصدّع يظهر في هذا الصرح الذي دام خمسمئة سنة. ومن الخسائر المبكرة خانية التتار في القرم التي ضمتها روسيا عام 1783. وفي السنوات الحاسمة الأربع بين الهزيمة العثمانية أمام روسيا في سنة 1878 والاحتلال البريطاني لمصر في سنة 1882، فقدت الإمبراطورية البلاد التالية: صربيا، والجبل الأسود، ورومانيا، والبوسنة والمهرسك، وقبرص، وتونس، ومصر. وقد شجعت الجاذبية الرومانسية للحركة القومية اليونانية ونجاحها الفعلي قوميات أخرى على التخطيط للانفصال عن الإمبراطورية. ورداً على هذه الخسائر المهمة اتخذت الإمبراطورية قراراً بإحكام قبضتها على آسيا الصغرى وما تبقى من الولايات العربية.

في منتصف القرن المذكور، عزّز أحمد أفندي مكانته الاجتماعية عندما اقترن بكريمة مفتي دمشق، حسن تقي الدين الحصري⁽¹⁾، في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر. كانت عائلة الحصري من الأشراف الحسينيين الذين ينتسبون إلى النبي محمد ﷺ من خلال حفيده الحسين. وقد أمنت لهم صلة النسب هذه مكانة رفيعة في المجتمع الدمشقي. بالإضافة إلى ذلك، كان حسن تقي الدين الحصري نقيباً للأشراف، أي ممثلاً لسلالة النبي ﷺ في تعاملهم مع السلطات العثمانية.

أنجبت كريمة المفتي لأحمد ثلاثة ذكور: كامل ومنح اللذين ولدا في نهاية أربعينيات القرن التاسع عشر، ورضا الذي أبصر النور في سنة 1861 أو 1863 (السجل غير واضح)⁽²⁾. وكان أحمد، بين حين وآخر، يقطع الجبال من بيروت إلى دمشق لتفقد عائلة زوجته والقيام بزيارة محاملة للوالي ووجهاء آخرين يعملون في الإدارة العثمانية

Linda Schatkowski-Schilcher, *Families in Politics: Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Centuries*, Stuttgart 1985, p.206.

تولى ابن أخت حسن تقي الدين الحصري، الشيخ محمد تاج الدين الحسيني، منصب رئاسة الوزراء عدة مرات في سوريا ومنصب رئيس الجمهورية خلال الانتداب الفرنسي في فترة ما بين الحربين.

(2) يحدد تاريخ ولادة رضا الصلح عادة بسنة 1262 هجرية (الموافقة لسنة 1860-61 ميلادية). لكن إشارة في ملفه في وزارة العدلية العثمانية تغير هذا التاريخ إلى 1863.

هناك. وتلك رحلة شاقة تستغرق أياماً عدة عبر طرق وعرة. وقد بدأ العمل بشقّ طريق للعربات بين المدينتين - بواسطة تبرعات من التجار وأصحاب الأملاك في دمشق وبيروت وحلب - في سنة 1859، ولكنها لم تُنجز حتى سنة 1863. بعد ذلك، أصبحت العربة التي تجرها الجياد تقطع الرحلة في 13 ساعة، بينما تستغرق الرحلة ذاتها أربعة أيام على ظهور البغال. وكانت ألف دابة تقريباً تُستخدم على هذا الطريق في الاتجاهين لنقل بضائع من كل الأنواع. (لم يكن ذلك غريباً في تلك الأيام، حتى في أوروبا الغربية. فكما أشار غراهام روب Graham Robb في كتابه "اكتشاف فرنسا" *The Discovery of France*, London 2007، كانت البغال وقوافل البغال تستأثر بثلاثي إجمالي حركة المرور على الطرق الفرنسية حتى منتصف القرن الثامن عشر.) كانت الحركة على طريق بيروت - دمشق كثيفة جداً بحيث دُرس إنشاء خط للسكة الحديدية. لكن لم يفتح خط بيروت - دمشق، الذي بلغ طوله 147 كيلومتراً، إلا بعد ثلاث سنوات من العمل، في آب/أغسطس 1895، فانخفض وقت الرحلة إلى تسع ساعات.

صديق أحمد: الأمير عبد القادر الجزائري

لعل أحمد التقى، في إحدى هذه الزيارات المبكرة إلى دمشق، بواحد من أبرز الشخصيات العربية في القرن التاسع عشر، الأمير عبد القادر الجزائري، وتوطدت عرى الصداقة بينهما⁽¹⁾. استقرّ هذا الأمير الجزائري والثوري الكبير في دمشق عام 1855 مع عائلته وعدد كبير من حاشيته بعد أن نفاه الفرنسيون. وسيكون له تأثير بارز في حياة أحمد. كان الأمير مقاتلاً وصوفياً في الوقت عينه. ولد قرب بلدة مسكرة في شمال غرب الجزائر عام 1808، وقد رباه والده، محي الدين، أمير مسكرة وشيخ الطريقة الصوفية القادرية، على التقى والورع. أظهر عبد القادر موهبة مبكرة في تعلم الفلسفة وتفسير القرآن الكريم، ودرس مع العلماء المحليين وحرص على جمع الكتب والمخطوطات. وعندما وطأت القوات الفرنسية أرض الجزائر في حزيران/يونيو 1830 عازمة على السيطرة على بلاده بأكملها بالقوة، كان أول من عبّأ السكان ضد الغزاة.

لُصِّبَ عبد القادر أميراً عند وفاة والده عام 1832، فأعلن الجهاد على الفرنسيين. وبحلول منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان الأمير الشاب قد نجح في تنظيم جيش مكون من 20 ألف جندي من المشاة و15 ألف حصان. بل إنه أنشأ أول دولة إسلامية دفاعية وأدارها، بتعبئة القبائل وجمع الضرائب وبناء الحصون والمسالك ومعاملة الأسلحة ومطاحن الدقيق والمدارس. وقام الأمير مع مساعديه بشن حرب عصابات على الجيش الفرنسي، فنصبوا له الكمائن، وهاجموا قوافل تموينه الضخمة، ومنعوا عنه الأغذية والأعلاف. في سنوات الحرب الأولى، احترم الجانبان المحاملات الحربية. فلقي الأسرى معاملة حسنة وتم تبادلهم. ووُقِّعت اتفاقيات هدنة، وحمل سعاة البريد الرسائل جيئة وذهاباً بين عبد القادر والجنرالات الفرنسيين الذين يجاهدونه.

لكن فرنسا عقدت العزم في سنة 1841 على أن تضع حداً نهائياً للثورة الجزائرية. عيّن الجنرال توماس بوجو Thomas Bugeaud حاكماً عاماً لمستعمرة الجزائر. قسّم بوجو جيشه المؤلف من 100 ألف جندي إلى فرق تدمير ومطاردة جابت البلاد واتبعت سياسة الأرض المحروقة، فأضرمت النار في قرى وبلدات بأكملها، ودُمّرت المحاصيل وقضت على قطعان الماشية، وحاصرت القبائل وجوّعتها حتى الموت، وعذّبت الأفراد وقطّعت آذانهم. وأصدر الجنرال بوجو أوامره بقتل كل الأولاد الذكور فوق الخامسة عشرة. ونقل آلاف النساء والأطفال المقيدين بالسلاسل بحراً إلى جزر الماركيز، وهي جزر بركانية مقفرة في جنوب المحيط الهادئ، حيث قضى معظمهم بسبب المناخ القاسي والجوع. انتقدت وحشية بوجو الفظيعة بشدة حتى في فرنسا. وفي سنة 1847 استدعي أخيراً وحلّ مكانه أحد أبناء الملك نفسه دوق دوماال Duc d'Aumale.

لم يشأ عبد القادر تعريض شعبه لمزيد من المعاناة. وبعدما حصل على وعد من الدوق الفرنسي المعيّن حديثاً بالسماح له بمغادرة الجزائر إلى الإسكندرية، قرّر الاستسلام في 23 كانون الأول/ديسمبر 1847. لكن سرعان ما تراجع الفرنسيون عن الوعد الذي قطعوه له. فصودرت ممتلكات الأمير، بما فيها كتبه المفضلة التي لا تقدر بثمن ومكتبة مخطوطاته الخاصة بأكملها، وبيعت بأبخس الأثمان. ونُقل بالقوة، مع عائلته ومئات من أفراد حاشيته الأوفياء إلى فرنسا. وهناك سجنوا في قلعة رطبة وكئيبة في طولون، ثم في بو Pau وأمبواز Amboise، والأخيرة قلعة كئيبة شديدة البرودة

يوجد على جانبيها برجان قصيران واسعان، وقد بنيت على صخرة ناتئة فوق نهر اللوار وسط فرنسا. كانت قلعة أمبواز تستخدم كسجن منذ أيام الملك هنري الرابع. سُجنَ عبد القادر هناك منذ تشرين الثاني/نوفمبر 1848 حتى كانون الأول/ديسمبر 1852. مات عشرات من عائلته وحاشيته في القلعة بسبب البرد، ودفنت جثثهم في أرضها، وبقيت حتى هذا اليوم في قبور بلا شواهد، ولا تزال الدولة الفرنسية التي تدير القلعة حالياً تمعن في إهمالها. أصر الحزب الاستعماري الفرنسي على إبقاء عبد القادر مسجوناً خوفاً من أن يصبح أداة في يد الإنكليز إذا سُمح له بالذهاب إلى مصر، كما كان ابن الملك قد وعده.

انتُخب لويس-نابليون بونابرت، ابن أخ نابليون الأول، في كانون الأول/ديسمبر 1848 رئيساً للجمهورية الفرنسية. وفي سنة 1852 اتخذ لقب نابليون الثالث مفتحاً بذلك عهد الامبراطورية الفرنسية الثانية التي استمرت حتى سنة 1870، بعد أن قام بانقلاب في السنة السابقة وسحق المقاومة التي وقفت في وجهه. كان الإمبراطور يدرك أن الأمير الجزائري عومل معاملة ظالمة، وقد تأثر بالالتماسات المقدمة من كونت باريس وغيره من الفرنسيين والبريطانيين ذوي الأصول الرفيعة، فقرر الإفراج عنه. أحضر إلى باريس واستقبله الإمبراطور في مقصورته في الأوبرا خلال عرض أوبرا روسيني "موسى" Moïse. وفجأة، أصبح الأمير من المشاهير في المجتمع الفرنسي، فزاره العديد من العلماء، والأساقفة والأمراء والجنرالات، وحظي بالإعجاب لعلمه وكياسته وسلوكه النبيل، وأغدقت عليه الأوسمة، ودعي ليشهد عرضاً عسكرياً كبيراً قُدِّمت له التحية في حدائق تويلري وهو يمتطي صهوة جواد أبيض رائع أهده له الإمبراطور. وبهذه الخطوات تصوّر الفرنسيون أنهم بيّضوا صحيفتهم من الخيانة والظلم.

في 21 كانون الأول/ديسمبر 1853، بعد مرور خمس سنوات على قبوله التخلي عن القتال في الجزائر، غادر عبد القادر ورفاقه أخيراً ميناء مرسيليا الواقع في جنوب فرنسا متجهين إلى الشرق. كانت محطّتهم الأولى عاصمة السلطنة العثمانية إستانبول. من هناك انتقلوا إلى مدينة بورصة. وفي تشرين الثاني/نوفمبر أبحروا إلى بيروت، ومنها انتقلوا براً إلى دمشق. كانت الحكومتان الفرنسية والعثمانية قد اتفقتا على أن تكون تلك المدينة العريقة المنفى الأخير للأمير الجزائري. وصل عبد القادر ومرافقوه إلى هناك

وحظي باستقبال كبير في 6 كانون الأول/ديسمبر. لم يكن عدد سكان دمشق في ذلك الوقت يزيد على 100 ألف نسمة، تسيطر عليهم نخبة من الرعماء الدينيين (كثير منهم شيوخ طرق صوفية) وعائلات ملاك الأراضي ورؤساء العشائر. وكان الأخيرون، في غياب الشرطة النظامية، يحافظون على النظام في مختلف أحياء المدينة، ويوفرون الحماية من لصوص قوافل الحج المتجهة إلى مكة المكرمة.

أحدث وصول الأمير مع عائلته الكبيرة إلى دمشق ضجة واسعة. وكانت شهرته قد سبقته فلقى الترحيب على الفور من قبل نخبة المدينة. فهو في النهاية بطل النضال ضد الاستعمار الأوروبي، ويتحدّر من سلالة الرسول ﷺ، وشيخ الطريقة القادرية الصوفية. والآن أصبح غنياً أيضاً بفضل المعاش الذي يتقاضاه من الفرنسيين والبالغ 300 ألف فرنك سنوياً. وسرعان ما أمّن حراسه الجزائريون الحماية لعائلته في مختلف بيوتها ومزارعها ومجمعاتها. وعمور السنين، أجرى ترتيباً مع السلطات العثمانية والفرنسية كي يجلب إلى سوريا عدة آلاف آخرين من الجزائريين الذين حاربوا معه في المعارك ضد الفرنسيين، بالإضافة إلى أولادهم. استقرّ هؤلاء في أراضي قرى بعيدة وصلت حتى صفد وشواطئ بحيرة طبريا جنوباً. وبحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، شكّل الجزائريون نحو نصف سكان تلك المنطقة⁽¹⁾. كانت السلطات الفرنسية في الجزائر راغبة في التخلص منهم، فوافقت على الخطة بمرور.

سمع أحمد الصلح بوصول عبد القادر، فأسرع من بيروت إلى دمشق للسلام عليه والاستماع إلى دروسه. كان الأمير يُحاضر في الفلسفة الإسلامية والفقه والتصوّف في "دار الحديث"، وهي مدرسة تقع في حارة العسرونية في دمشق. إلا أن ما وثّق العلاقة الحقيقية بين الأمير وأحمد الصلح اهتمامهما المشترك، بصفتهم مسلمين خيبرين ويتمتعان بمبادئ خلقية رفيعة، بإنقاذ أرواح المسيحيين خلال بعض الأشهر المأسوية في سنة 1860. ففي ربيع تلك السنة الرهيبة وقعت اشتباكات وأعمال قتل متبادلة بين المسيحيين والدروز في جبل لبنان وبلغت حدّ الحرب الأهلية الوحشية. وقعت أعمال نهب واغتصاب وتشويه؛ سقط بنتيجتها أعداد كبيرة من القتلى ولحق دمار واسع في

الممتلكات⁽¹⁾. كان اللوم يقع على الطرفين في اندلاع هذا العنف اللاعقلاني الذي يعود بجذوره إلى الصدامات الطائفية التي حصلت بين أتباع الديانتين قبل عقدين من الزمن. سرعان ما دانت الغلبة للدروز، الذين كانوا أكثر تنظيماً وتسليحاً من المسيحيين. فأحرقت البلدات ذات الأكثرية المسيحية مثل حاصبيا وراشيا وزحلة ونُجت بعدما سقطت في أيدي الدروز. بدأ آلاف اللاجئين المعدمين والخائفين بالهرب للنجاة بحياتهم، ولجأ الكثير منهم إلى الأحياء المسيحية في دمشق.

على الرغم من أن الدروز والمسيحيين في جبل لبنان أمّوا حرمهم بمعاهدة سلام في 6 تموز/يوليو، فإن أنباء الفظائع وتدفق أعداد كبيرة من اللاجئين زادت من حدة التوتر في دمشق. فقد أخذ عداء المسلمين للأقلية المسيحية المحلية يتصاعد منذ عدة سنوات، حيث أذكى الاستياء السياسي والاقتصادي نوعاً بغيضاً من التعصب الديني. فانتشرت الشكوك في أن بعض المسيحيين أصبحوا فرقة استطلاع للقوى الأوروبية التي تخطط لغزو الإمبراطورية العثمانية والسيطرة عليها وتقسيمها. وكان المسلمون قد شعروا بالإهانة بعد هزيمة العثمانيين أمام روسيا في حرب القرم 1853-1856، لذا ليس من المستغرب أن تشكّل القنصلية الروسية في دمشق الهدف الأول الذي أشعلت فيه النيران عندما تصاعدت الاضطرابات.

كما أن الاستياء من الازدهار المتزايد بسرعة للتجار المسيحيين المحليين، الذين حصلوا على حقوق الاتجار مع أوروبا بشروط مواتية جداً حرم منها ما تبقى من طبقة التجار، ربما لعب دوراً، وكذا الدعم المالي الكبير الذي قدّمه القناصل الأجانب إلى المدارس المسيحية، ما أدى إلى نشوء نخبة مسيحية أفضل تعليماً من نظرائهم المسلمين. ولعل المصدر الأهم لإحباط المسلمين هو وثيقة الإصلاحات السلطانية الجديدة المعروفة باسم "الخط الهمايوني" التي صدرت في 18 شباط/فبراير 1856، وأعلنت المساواة التامة بين الرعايا العثمانيين بصرف النظر عن دينهم. وقد أصدر السلطان العثماني هذه الوثيقة تحت الضغط الأوروبي، فألغت مفهوم "أهل الذمة"، وهو المكانة الثانوية ولكن المصانة، التي طالما حصل عليها غير المسلمين تحت الحكم الإسلامي. وقد انتزع

(1) Leila Tarazi Fawaz, *An Occasion for War: Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860*, London 1994.

هذا الإصلاح على الفور من الأغلبية المسلمة مكانتها التقليدية المميّزة وما صاحبها من شعور بالتفوق السياسي والاجتماعي.

كان بعض القناصل الأجانب قد حذّروا من أن الحرب الأهلية في لبنان قد تنتقل بسهولة إلى دمشق. فتوجّس الأمير عبد القادر خيفةً، وأمن أموالاً من فرنسا، وحصل على إذن من الوالي العثماني بتسليح ألف من الجزائريين. ولكن قبل أن يتم ذلك، وفيما كان في قرية تبعد عدة أميال عن دمشق، قام حشد من الغوغاء المتعصّبين الغاضبين بمهاجمة أحد الأحياء المسيحية في المدينة، في 9 تموز/يوليو، وارتكبوا أعمال قتل وحرق ونهب استمرت ثمانية أيام. عندما وصلت هذه الأنباء الفظيعة إلى الأمير، أسرع عائداً إلى دمشق ووصلها في الوقت المناسب لإنقاذ القنصلين الروسي واليوناني من القتل، إلى جانب نحو 11 ألف مسيحي احتشدوا في حالة يرثى لها في مجتمعاته. نُقل الآلاف منهم إلى بيروت بأمان بحماية رجال الأمير. ولكن آلافاً آخرين (تتراوح التقديرات بين خمسة وعشرة آلاف شخص) دُبحوا. وآوت عائلات مسلمة عديدة بينها عائلات الحلبي، والحسيبي، والتيناوي، والنابلسي، والعمادي، والشربجي، والقطار المسيحيين في بيوتهم لإنقاذهم من الرعا ع المائجين. وقد أنقذ هؤلاء المسلمون حوالي 16 ألف مسيحي، واستمروا في توفير المأكل والمأوى للاجئين عدة أشهر بعد ذلك.

لقي تصرف الأمير عبد القادر الجزائري الإنساني امتنان أوروبا واستحسانها. فقام موفد من قبل نابليون الثالث بزيارته لمنحه وسام "جوقة الشرف" الفرنسي.

في لبنان حظي أحمد الصلح، الذي ظل على اتصال مستمر بالأمير خلال الاضطرابات، بالاحترام والشهرة بسبب المساعدة التي قدّمها - بصفته الشخصية وكمتمصرف عكا العثماني على السواء - إلى الموجات المتتابعة من اللاجئين الجائعين واليائسين الهاربين نحو الساحل. وقدّمت عائلات لبنانية جنوبية بارزة أخرى، مثل عائلي عسيران والزين، الملجأ للمسيحيين الهاربين، مما أرسى القواعد لعلاقات طيبة على المدى البعيد مع الطوائف المسيحية. وقد اتفق الأمير عبد القادر وأحمد أفندي الصلح أيضاً على ضرورة تبييض صفحة دينهم من الجرائم الوضيعة التي ارتكبتها الدهماء. وأصبحت أعمال أحمد الإنسانية - أي حماية المسيحيين العزل في وقت الحرب - جزءاً من الإرث الأخلاقي لحفيده رياض الصلح. فشكّل تفهم المخاوف

المسيحية والتسامح مع آمال المسيحيين عنصريين بارزين في مسيرة رياض السياسية⁽¹⁾.

أحدثت أزمة 1860 تأثيراً مزدوجاً، وإن كان متناقضاً. استطاعت السلطات العثمانية أن تستعيد سلطتها في دمشق والأراضي الداخلية السورية وتجنب التدخل الأجنبي. وقد وصل فؤاد باشا، وزير الخارجية العثماني القدير (الذي سيشغل بعد الأزمة بقليل منصب الصدر الأعظم) إلى المنطقة حاملاً تفويضاً كاملاً بإعادة النظام. فأمر بإعدام والي دمشق، عزت باشا، لإهماله واجباته، بالإضافة إلى 56 مسؤولاً ومجرماً مدنياً آخر. وأعدم رمية بالرصاص أكثر من مئة ضابط وجندي تركي ممن تبين أنهم شاركوا في ذبح المسيحيين.

أما في جبل لبنان، فقد نجحت القوى الأوروبية في فرض شروط قاسية عن طريق دبلوماسية البوارج الحربية. وطالب الرأي العام الفرنسي بحماية المسيحيين اللبنانيين، وبخاصة الموارنة، أصدقاء فرنسا التقليديين. وبناء على ذلك، نزلت القوات الفرنسية في بيروت في آب/أغسطس 1860. فاضطر الباب العالي إلى قبول تسوية تم التفاوض عليها لمدة عدة أشهر، أصبح بموجبها جبل لبنان منطقة تتمتع بالحكم الذاتي، أو متصرفية تحت حماية القوى الأوروبية ويحكمها مسيحي عثماني. عُيّن داود أفندي، وهو أرمني كاثوليكي من إستانبول، متصرفاً يعاونه مجلس إداري تُمثّل فيه كل الطوائف الدينية، ولكن يحظى فيه المسيحيون (موارنة وروم أرثوذكس وروم كاثوليك) بالأرجحية.

خلّفت أحداث 1860 لدى المسيحيين آثاراً عميقة ومديدة. فقد ساعدت في نشوء فكرة الخصوصية المارونية، التي انتشرت من جبل لبنان لتشمل السكان الموارنة الذين يعيشون خارج الجبل. وأصبح الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية - ولاحقاً إقامة الاستقلال اللبناني - من الأهداف السياسية المسيحية الأساسية.

تعرّزت مكانة أحمد أفندي الصلح في لبنان وخارجه بعد أزمة 1860 وتداعياتها. فقد رفع القناصل الأجانب تقارير بأنه منح المساعدة والحماية إلى المسيحيين المحتاجين. وفي الباب العالي، وبخاصة في مكتب الصدر الأعظم - المركز الحقيقي لسلطة الحكومة

(1) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

العثمانية - كان هناك شعور بالامتنان للمسؤولين العثمانيين في الولايات العربية الذين وقفوا في وجه الدهماء ودعموا سمعة الإمبراطورية الطيبة إلى حد ما. وبرز هذا التصرف الشجاع بجلاء مقابل موقف والي دمشق الذي سمح بحدوث المذبحة، بسبب إهماله الإجرامي، أو تواطئه مع مثيري الشغب.

فكرة نابوليون الثالث عن إنشاء مملكة عربية

أدى تقدير أحمد الصلح الكبير للأمير عبد القادر الجزائري وتعاونيه معه خلال الأزمة، إلى إيقاعه في ورطة لاحقاً. فقد أحدث الأمير تأثيراً كبيراً في باريس، فتكوّنت جماعة ضغط - مكوّنة من ضباط فرنسيين خدموا في الجزائر، بالإضافة إلى عدد من المستثمرين ورجال الأعمال - كانت تعتقد أن قيام الأمير بأداء دور سياسي بارز في المشرق، ربما على رأس مملكة عربية، سيعود بالنفع على المصالح الاستراتيجية والتجارية الفرنسية. من البديهي القول بأن مثل هذه الأفكار أثارت في نفس السلطان أعظم الشكوك عندما وصلت إلى مسامعه، لأنها اعتُبرت مخططات أوروبية ترمي إلى إضعاف السلطنة في إستانبول.

في تلك الأثناء كانت فرنسا وبريطانيا منشغلتين بكيفية تعزيز طموحاتهما المتنافسة في الولايات العربية. أراد الفرنسيون بقاء جبل لبنان (معقل أصدقائهم الموارنة) منفصلاً عن سائر المناطق السورية قدر الإمكان. أما بريطانيا، التي طالما كانت مهتمة بأمن الطرق البحرية والبرية للهند، فرأت في أزمة 1860 فرصة لإعادة بناء الإدارة العثمانية في سوريا ووضعها تحت السيطرة المحكمة للوكلاء السياسيين الأوروبيين. كانت لدى نابوليون الثالث فكرته الخاصة: فقد أمل في تنصيب صديقه، الأمير عبد القادر، على عرش مملكة عربية تمتد من سوريا إلى بلاد ما بين النهرين فشبه الجزيرة العربية. وستكون هذه الدولة بمثابة فاصل بين مصر وإستانبول العثمانية. وستوفّر مثل هذه الدولة، تحت الرعاية الفرنسية، الحماية لمشروع قناة السويس من التدخل العثماني وتمنح فرنسا السيطرة التامة على تجارة الحرير⁽¹⁾. فقد كانت صناعة

Marcel Emerit, 'La Crise syrienne et l'expansion économique française en 1860', in (1) *Revue historique*, 207 (janvier-mars 1952), pp. 211-32

الأقمشة الفرنسية في ليون تعاني نقصاً في المواد الخام وتحتاج إلى الحرير الخام المستورد من سوريا. بقي هذا المشروع الجيوسياسي يخامر الإمبراطور حتى سقوطه في أعقاب الحرب الفرنسية - البروسية عام 1870.

بقيت ذكرى مخطط الإمبراطور الفرنسي راسخة في الأذهان في المشرق. وفي ما بعد حمل المعجبون العرب بالأمير، وفي مقدّمتهم أحمد الصلح، لواء مشروع الدولة العربية برئاسة عبد القادر. وقد استمد أحمد الشجاعة من علاقته الشخصية بالأمير، وعلاقات عائلته المؤثرة في دمشق، وسمعته الشخصية الممتازة، فقاد حركة تحررية عربية مقرّها بيروت. يروي أحد أحفاده، عادل الصلح (ابن منح)، بأن أحمد كان يعضي، في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر، وقتاً طويلاً في اجتماعات سرية لكسب التأييد لمشروعه⁽¹⁾. توجّه أحمد، برفقة بعض مساعديه الأوفياء، إلى مسقط رأسه في مدينة صيدا ليتشاور مع وجهاء العائلات الكبرى في جنوب لبنان. ثم انتقل مع مساعديه إلى دمشق لسبر آراء وجهاء المدينة ومفكريها قبل أن يتوجّهوا إلى دُمُر، كانت في ذلك الوقت قرية بعيدة معتدلة الطقس على ضفاف نهر بردى، حيث كان الأمير يعضي الصيف مع عائلته. لم يكشف أحمد ومساعدوه عن أفكارهم الحقيقية بل سعوا إلى الاستماع إلى آراء الأمير حول أوضاع الإمبراطورية. وعندما استبقاهم ثلاثة أيام في ضيافته، أحسّوا بالشجاعة الكافية المستمدة من حسن الضيافة ليعقدوا في ما بعد مؤتمراً سرياً في دمشق اتفقوا فيه على دعوة الأمير لتولي قيادة سوريا الكبرى المستقلة. وانتدب أحمد للعودة إلى مقرّ الأمير الصفيي وتقديم العرض له.

لكن هؤلاء المتحمسين أخطؤوا قراءة ما يجول في فكر الأمير. فلم يعد ذلك الشاب الذي أنشأ بالدم والحديد دولة إسلامية في الجزائر، في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، لمحاربة الفرنسيين الشرسين. فهو الآن يفضل الاستمتاع بمكانته كأحد الشخصيات العالمية، فيسافر إلى باريس لحضور المعرض العالمي لعام 1867، ومكة المكرمة لتأدية فريضة الحج، ثم إلى بور سعيد (التي كانت في ذلك الوقت قيد الإنشاء) لتفقد العمل في القناة بدعوة من صديقه فرديناند دي ليسبس (Ferdinand De Lesseps).

(1) عادل الصلح، سطور من الرسالة: تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة 1877، بيروت 1966، ص 91-102.

جاء دي ليسبس العالم لحشد الدعم لمشروعه بإنشاء قناة مائية تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر. في سنة 1854 حصل على امتياز لبناء قناة السويس من الخديوي المصري سعيد باشا، لكن السلطان العثماني تأخر في التصديق على المشروع لأنه كان يخشى أن ترسخ مثل تلك القناة المصالح الغربية في مصر وشبه الجزيرة العربية (كما حدث من دون شك). كان دي ليسبس قد عمل لمدة سبع سنوات قنصلاً لفرنسا في الإسكندرية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وكان من أوائل الأصدقاء الفرنسيين للأمير عبد القادر، بل إنه زاره في سجنه في سنة 1848 في قلعة بو. وعندما قدم الأمير عبد القادر إلى دمشق ولقي استقبالاً رائعاً في سنة 1855، بمباركة نابوليون الثالث، أوحى ذلك إلى دي ليسبس بأن الأمير قد يساعده في كسب الدعم الدولي لمشروعه الضخم، وذلك ما حصل فعلاً.

في سنة 1869 حضر عبد القادر الافتتاح الرسمي لقناة السويس إلى جانب الأمراء ورجال الدولة والأميرالات والسفراء الأوروبيين والإمبراطورة أوجيني Eugénie شخصياً. فقد أرسل نابوليون الثالث فرقاطة فرنسية لتنقل الأمير وحاشيته من بيروت إلى بور سعيد إلى السويس ثم إلى بيروت.

كان قد مضى أكثر من خمس عشرة سنة على وجود عبد القادر في منفاه في سوريا عندما فاتحه أحمد الصلح بمشروعه في سبعينيات القرن التاسع عشر. وخلال هذه الفترة اعتاد عيشة الرفاهية في مزارعه الجميلة، وتعلق بمن تبقى من عائلته، وبشهرته التي تجلب الزوار المميزين إلى داره، وبكمية الرسائل الكبيرة التي تصله، وبتكاثر أعداد مريديه وأصدقائه. وفوق كل ذلك، ازداد انغماس الأمير الشيخ في دراساته الدينية والصوفية. وكان يكتب التعليقات على الكتب الإسلامية ويعلم وينظم الأشعار ويمارس التأمل. وكما قال، في وقت سابق، لأحد المسؤولين الفرنسيين "لقد انتهت حياتي السياسية. لا أطلب المزيد من الناس أو من مجد هذا العالم، كل ما أريده الاستمتاع بالأوقات العذبة التي أمضيها مع عائلتي، والصلاة والعيش في سلام..."⁽¹⁾. وعلى أي حال، كان حريصاً على المحافظة على الجسور التي تربطه بإستانبول بعدم توريط نفسه بأي شيء يمكن أن يزعج السلطان العثماني لأنه يعتبر نفسه ضيفاً عنده.

سقوط أحمد الصلح وصعوده لاحقاً

في 1 أيلول/سبتمبر 1876، تولّى السلطان عبد الحميد الثاني العرش وأصبح السلطان الرابع والثلاثين للسلطنة العثمانية⁽¹⁾. لم يكن عند تبوّئه العرش في سن الثالثة والثلاثين معروفاً، ومن ثم لم يكن أحد يعرف هل سيكون ليبرالياً أم طاغية. لكن سرعان ما انكشف أمره. علّق عبد الحميد العمل بالدستور وحلّ البرلمان، وأحكم السيطرة على الجيش والقصر. وانتزع السلطة الفعلية من بيروقراطية الباب العالي، وفرض المركزية في الإمبراطورية التي أصبحت تستعصي على الحكم، كما صرف مدحت باشا، الصدر الأعظم الفعّال وصاحب الرؤية الإصلاحية، الذي كان يعتبر بطلاً في نظر الكثيرين، ونفاه بسبب اتجاهاته الليبرالية. وسعى عبد الحميد إلى احتواء الأزمة الناجمة عن خسارة الأراضي والتتائج الدبلوماسية السيئة الناجمة عن هزيمة الجيوش العثمانية أمام روسيا في حرب 1877-1878.

أثارت الهزيمة الساحقة للجيوش العثمانية مشاعر قوية في العالم الإسلامي. وساد شعور بعدم الأمان في الولايات العربية. ماذا سيحلّ بهم إذا ما حدث ما يخشونه وانهارت الإمبراطورية العثمانية؟ بدت إستانبول نفسها على وشك السقوط أمام الجيوش الروسية. ولم يكن الوضع في سوريا أقل سوءاً. قضى آلاف الرجال على الجبهة. وفرغت الخزينة العثمانية وأصبحت الإمبراطورية مفلسة. كان قسم كبير من إيرادات الدولة تحت سيطرة مدرء "الدّين العام العثماني" الأجانب. واضطر الموظفون الحكوميون والمعلّمون والضباط إلى الانتظار شهوراً قبل أن تُدفع رواتبهم. وعندما تُدفع يتبيّن أنّها عديمة القيمة بسبب التضخم الجامح. تمرّدت القوات العسكرية احتجاجاً على عدم دفع رواتبها. ولم تلقِ التماسات المساعدة المالية التي تقدّمت بها عواصم الولايات الفقيرة، مثل دمشق، آذاناً صاغية في إستانبول التي تزايد عجزها.

شعر السلطان بالقلق من تصاعد الوعي القومي السوري نتيجة الأزمة السياسية والاقتصادية. وفي هذه الأوقات المريبة، وصلت أنباء إلى إستانبول عن محاولات أحمد الصلح السرية إنشاء مملكة عربية بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري. وعندما تأكّدت

السلطات العثمانية من أن الأمير رفض تلك الفكرة تماماً، انقضت على أحمد وأصدقائه. أرسل بعضهم إلى السجن، وبعضهم الآخر إلى المنفى. نُفي أحمد إلى جزيرة رودس، التي كانت خاضعة للسيطرة العثمانية في ذلك الوقت. وأمضى فيها عدة سنوات صعبة.

شهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر توسعاً استعمارياً عدوانياً للقوى الأوروبية المتنافسة والمتلهفة لتقاسم غنائم الإمبراطورية العثمانية الضعيفة. وأجبرت خسارة الولايات العثمانية في أوروبا السلطان على إيلاء الولايات العربية المتملمة مزيداً من الاهتمام. فقد العزم على توثيق ارتباطها بإستانبول. ولهذه الغاية جند الشبان السوريين في حرس بلاطه، وعيّن أفراداً من العائلات السورية البارزة في مراكز إدارية مهمة في أنحاء الإمبراطورية. فقبلوا بدورهم هذه المناصب لتعزيز مركزهم الاجتماعي ونفوذهم في الطبقة العليا.

قرّر السلطان بعد ذلك استدعاء الصدر الأعظم السابق، مدحت باشا، من منفاه الأوروبي، وأرسله إلى دمشق والياً على سوريا. كان مدحت باشا يحظى باحترام كبير كإداري متمرس، شغل أعلى المراكز في إستانبول والولايات المختلفة. شرع مدحت باشا على الفور بتبديد الجو القائم الذي يسيطر على سوريا، فأطلق برنامجاً ضخماً من الأعمال العامة الضرورية، بما في ذلك شقّ طريق يربط حمص بطرابلس. وفتح مدارس نموذجية، وحسّن شبكة التلغراف ووسّعها، وأعاد تنظيم مالية الولاية التي تعمّها القوضى. كما رعى الفنون. وتحت رعايته المتنورة أنشأ المسرحي الموهوب أبو خليل القبّاني أوّل مسرح في العالم العربي. حضر مدحت باشا افتتاح المسرحيات التي أقامها أبو خليل وفرقة، وبذلك أعطى المسرح الغنائي مكانة واحتراماً في مدينة محافظة لا تنظر تقليدياً إلى الفنانين بعين الرضا، أو ربما أسوأ من ذلك.

كان مدحت باشا بحاجة إلى إداريين أكفاء، فأقنع السلطان بالعفو عن أحمد الصلح وإعادته من المنفى في رودس. بل إن مدحت باشا لبّى دعوة أحمد الصلح إلى العشاء في منزله في بيروت، وهي الزيارة التي عزّزت صداقتهما والاحترام المتبادل بينهما. وكان من عادة السلطان توزيع الهدايا والألقاب والمراكز الإدارية على الموظفين العامّين غير المواليين، لذلك عيّن أحمد الصلح مكتوبجي سنحق بيروت. وقد جعله ذلك

بمثابة اليد اليمنى للمتصرف. فهناك مسؤولان كبيران يديران الأمور تحت سلطة الوالي الاسمية في كل ولاية: المكتوبجي، وهو المسؤول عن المراسلات الرسمية؛ والدفتردار، وهو المسؤول المالي الأول.

أراد مدحت باشا أن يمنحه السلطان الصلاحيات الواسعة نفسها الذي كان يتمتع بها كحاكم للولايات العثمانية في أوروبا، بغية دفع إصلاحاته قدماً في سوريا، لكن السلطان عبد الحميد رفض ذلك. واثارت شكوكه عندما قام السفير البريطاني في إسطنبول، السير هنري لايارد Henry Layard، بزيارة إلى دمشق في تشرين الثاني/نوفمبر 1879 وعقد عدة اجتماعات مع مدحت باشا. هل كان البريطانيون يتآمرون لإقامة دولة عربية برئاسة الباشا؟ ونظراً لأن السلطان يتوجس خيفة دائماً من أي إشارة إلى استقلالية الولايات، فإنه حرص على قمع أي إيماءة إلى ظهور نزعة وطنية استقلالية في الولايات السورية.

ألصقت على الجدران في شوارع مدينة بيروت ملصقات تحريضية تدعو الناس إلى الثورة على الأتراك في ثلاث مناسبات منفصلة في أوائل صيف 1880. وفي التقرير الذي رفعه القنصل العام البريطاني، جون ديكسون John Dickson إلى لندن لإعلامها بالحدث غير المألوف، أفاد عن الاعتقاد السائد بأن مدحت باشا نفسه يقف وراء تلك الاحتجاجات. وأدرجت في رسالته الرسمية العاجلة مذكرة من ج. أبكاريس J. Abcarius، ترجمان القنصل، يوحى فيها بأن دوافع مدحت باشا ربما تكون:

"ترهيب الباب العالي والحصول على السلطات غير المحدودة التي يسعى إلى تأمينها... أو أن يُظهر للقوى الأوروبية، وخصوصاً لإنكلترا، أنّ روح الثورة قد ظهرت في سوريا، ما يزيد كثيراً من متاعب تركيا... ويحفزهم [الأوروبيين] على تأييد قضيتهم وإعلاء شأنه، إماً بفصل سوريا وتعيينه على رأسها، وإما بوضعه على رأس الوزارة في العاصمة، حيث يعتقد أنه يستطيع تنفيذ مخططاته الإصلاحية بشكل أفضل".

لم يكن ديكسون يشارك ترجمانه التقييم نفسه، لاعتقاده أن تلك "مكيدة أخطر" من أن يفكر بها مدحت باشا. لكنه أضاف: "لا شك في أنه خلال السنوات الخمس الماضية نشأت في سوريا جمعية سرّية... هدفها... الحصول على نوع من الاستقلالية

الإدارية للولاية مع الاعتراف بالسلطان كحاكم اسمي. وإذا تعذر ذلك فيجب القيام بإضراب للمطالبة بالاستقلال الكلي. وقد تكون هذه الملصقات صادرة عن تلك الجمعية⁽¹⁾.

أيا يكن الأمر، نُقِلَ السلطان في سنة 1880 مدحت باشا، ذا الشعبية الواسعة، إلى إزمير، وخلال سنة، أمر باعتقاله ومحاكمته وصدر عليه حكم بالإعدام، ثم النفي مدى الحياة. فقيّد بالسلاسل ووضِعَ على متن باخرة متجهة إلى شبه الجزيرة العربية، حيث نقل إلى قلعة الطائف الجبلية، وسُجِنَ في ظروف قاسية جداً أمل السلطان أن تؤدي إلى موته. وعندما لم يحصل ذلك، قُتِلَ في سجنه في أيار/مايو 1884 تنفيذاً لأوامر شبه مؤكدة من السلطان.

لوحق كل من أسهم مدحت باشا في تعزيز مساراتهم المهنية أو صقل مواهبهم. فهاجم الرّعاع مسرح أبي خليل القبّاني وأحرقوه. نجا القبّاني بأعجوبة، فترك كل شيء وراءه وهرب مع عائلته إلى مصر، وهو يعاني من الإحباط والإفلاس، لكنه لم يفقد شجاعته وإبداعه. وتمكّن في نهاية المطاف من بناء مسرح آخر في العاصمة المصرية حيث توجد دار الأوبرا حالياً.

قبل ذلك بسنة، توفي الأمير عبد القادر في دمشق. ودُفِنَ وسط حزن شديد الذي فاضت به قلوب العديد من أفراد عائلته وأصدقائه ومريديه والمعجّين به. وبعد ثمانين عاماً، في سنة 1963، نُقِلَ رفاته بمرافقة عبد العزيز بوتفليقة، وزير خارجية الجزائر في ذلك الوقت، ورئيسها في ما بعد، إلى بلده الأم، وأعيد دفنه في مدينة الجزائر؛ وليس في مسقط رأسه مسكرة، ومما يبعث على الصدمة أن الزاوية القادرية هناك سوّيت بالأرض فور استقلال الجزائر في سنة 1962. وفي سنة 2005، أطلق عمدة باريس برنارد ديلاو Bernard Delano اسم عبد القادر الجزائري على أحد شوارع العاصمة الفرنسية.

عانى أحمد الصلح من فقدان هذين الصديقين، لكنه عمّر وأصبح رجلاً عجوزاً. ويُقال بأن حمدي باشا الذي شغل منصب الوالي العثماني في سوريا في ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان يزور أحمد الصلح وليس العكس، كما كان يقتضي البروتوكول،

J. Dickson to Secretary of State, 3 July 1988, (PRO F) 195/1306 14475). (1)

وذلك عندما يأتي إلى بيروت قادماً من دمشق. وفي سنة 1891 منح أحمد لقب باشا تقديراً لأهميته. وفي تلك السنة نُشرت مجموعة من 35 قصيدة في مديحه هو وعائلته في لبنان. جمع تلك القصائد المؤرخ محمد جابر آل صفا - وهو من جنوب لبنان - وكتب عدداً منها شعراء شيعة من عائلات دينية في الجنوب. وتروي إحدى هذه القصائد التي نظمها محمد حسن جابر⁽¹⁾، كيف تجاهل أحمد باشا الرصاص المتطاير حوله، في إحدى المناسبات، وتدخل للفصل بين قريين متخاصمين هما علي بك الأسعد، سيد قلعة تبين، وتامر بك الحسين، سيد قلعة هونين كانا يخوضان معركة قبلية. وقد نجح في ترتيب وقف لإطلاق النار وعقد مصالحة بينهما. لم يكن أحمد يتسم بالشجاعة فحسب، بل يهتم أيضاً بمصالح الناس الذين يتولّى مسؤوليتهم. وفي مقدمة مجموعة القصائد تلك، روى محمد علي فرحات أن أحمد باشا عندما كان متصرف اللاذقية، جمع خمسين طفلاً مميّزاً من من الريف الفقير وأرسلهم إلى إستانبول لإكمال تعليمهم.

في سنة 1935، احتفل المؤرخ اللبناني الجنوبي نفسه، محمد جابر آل صفا، بذكرى أحمد باشا في مقالة في جريدة العروبة التي لم تعمّر طويلاً. فروى كيف كان من عادة أحمد باشا الانتقال من بيروت إلى الجنوب سنوياً لتفقد ممتلكاته. وفي إحدى تلك الزيارات وجد أن محاصيل الحبوب والقطن ممتازة وأن المواشي وفيرة. وأقام أمين غبريس، أحد الوجهاء المحليين في النبطية مأدبة على شرفه. وعندما جلس أحمد باشا ليتناول الطعام، بسط مضيفه قطعة قماش بيضاء أمامه على الطاولة وأفرغ عليها كومة من الليرات الذهبية. اندهش الباشا من ذلك التصرف الغريب، وسأل عما يعنيه. فأجاب المضيف بأن ذلك يشهد على الازدهار الذي تنعم به المنطقة تحت رعاية أحمد باشا السلمية!

شهد أحمد باشا في حياته تغييرات كبيرة، معظمها إلى الأفضل. في أوائل القرن التاسع عشر، لم تكن بيروت أكثر من قرية صغيرة متفوقة خلف أسوارها. وكانت تغلق أبوابها كل ليلة لمنع اللصوص من الدخول. وخلال نصف قرن، طرأ تغيير

(1) محمد حسن جابر، "سلاف الأفكار في مديح حضرة المختار"، في محمد علي فرحات (محرر)، آل الصلح، بيروت، 1891.

كبير⁽¹⁾. أصبحت بيروت مدينة مفتوحة وجذابة بعد أن كانت منغلقة على نفسها. أخذت السفن من جميع أنحاء العالم ترسو في مرفئها. في سنة 1830 كان المرفأ يستقبل 30 ألف طن من البضائع في السنة. وفي سنة 1860 ارتفع الرقم إلى 600 ألف طن. وازداد عدد السكان من 19 ألف نسمة في سنة 1846 إلى 115 ألفاً في سنة 1893. وبحلول 1859 رُبِطت بيروت ببقية العالم بواسطة التلغراف، ما ساعد في تطوّر تجارتها الدولية. فشهدت أسواقها فضلاً من البضائع المحلية إلى جانب بضائع مستوردة من الأراضي الداخلية ومن أوروبا. قدّم التجار الأجانب إلى بيروت للعيش فيها، ولحق بهم القناصل لحماية مصالحهم التجارية. فتكاثرت فيها المباني الجديدة - مستودعات، وفلل على الطراز الإيطالي، ومطاعم وفنادق. وفتح أول مصرف في العالم العربي أبوابه في بيروت، وصدرت أول صحيفة هناك في سنة 1858. وفي سنة 1862 أنعم السلطان على المدينة ببعض الآثار الشريفة المهمة؛ ثلاث شعرات يقال إنها من لحية الرسول ﷺ.

أنشئت أولى مؤسسات التعليم العالي في المنطقة في بيروت، وتحديدًا "الكلية الإنجيلية السورية" في سنة 1866 (سمّيت لاحقاً الجامعة الأميركية في بيروت). وفي سنة 1875 افتتحت "الكلية اليسوعية"، (جامعة القديس يوسف لاحقاً). وقبل ذلك بثلاث سنوات، في 1872، أنشئ مجلس بلدي فشرع في مدّ المجاري، وشقّ الطرقات في وسط المدينة وتعبيدها (بواسطة مذحلة بخارية تمّ شراؤها من الولايات المتحدة الأمريكية بقيمة 3000 دولار). وعُهِدَ إلى شركة بريطانية بنقل المياه من نهر الكلب بالأنابيب، وفي سنة 1875 وصلت المياه إلى بعض المنازل والمباني العامة، على الرغم من أن معظم السكان اكتفوا بخنفيات الماء العامة. وبحلول سنة 1888، أضيئت شوارع بيروت بغاز البوتان، وأصبحت من المدن العثمانية القليلة التي تتمتع بتلك الميزة.

في 1887-1888، اعترف الباب العالي بأهمية بيروت كمدينة ساحلية رئيسية وجعلها عاصمة لولاية جديدة اقتُعت من سوريا الجغرافية، وضمت خمسة سناجق:

Nicolas Zaide, 'Beyrouth, des années soixante du XIXe siècle à 1908,' in Zahida (1) Darwiche Jabbour (ed.), *Les Villes Cosmopolites Arabes 1870-1930, Beyrouth, Alexandria, Alep, Beirut*, 2004, pp. 13-44.

اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس وبيروت نفسها. وافق السلطان على الفكرة لتمكين إستانبول من إحكام سيطرتها، والحد من النفوذ الأوروبي. وكان الفرنسيون، خصوصاً، قد تمكنوا من تعميق وجودهم في المشرق من خلال الرهبانيات والمدارس التي تُعلّم جيلاً بعد جيل من الطلاب المحليين وتؤثر فيهم.

جاء إنشاء ولاية بيروت بعد عمليات اقتطاع سابقة جرت في سوريا. ففي سنة 1861، مُنح جبل لبنان، كما رأينا، وضعية خاصة كمتصرفية مستقلة يحكمها متصرف عثماني مسيحي. وبعد مرور عقد من الزمن، أي في سنة 1872، تم فصل القدس عن ولاية سوريا لتشكيل متصرفية أخرى تعتمد بشكل مباشر على الباب العالي.

ربما كان مساء أحد أيام شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1898 من المحطات الاجتماعية المهمة في حياة أحمد باشا عندما قدم القيصر فلهم الثاني بصحبة زوجته لتناول طعام العشاء في ضيافته في صيدا. ووفقاً لما ترويّه العائلة، تمّ على عجل شراء أدوات مائدة فضية فاخرة من أجل المناسبة. امتدت زيارة القيصر الألماني للإمبراطورية العثمانية شهراً، وجاءت بمثابة نصر دبلوماسي مميّز للسلطان عبد الحميد. وأظهرت هذه الزيارة للعالم أنه ما زال بوسعه الاعتماد على صداقة ألمانيا، حتى إذا كانت إنكلترا وفرنسا وروسيا تطمع في الاستيلاء على أراضيه. فخدم الضباط الألمان في الجيش العثماني وعملوا على تدريب تلامذة الضباط. وفكّر المصرفيون الألمان في الاستثمار في شبكة سكة الحديد في الأناضول، بما فيها مشروع "بغدادبان" الذي كان سيربط إستانبول ببغداد.

بدأت الزيارة الإمبراطورية في إستانبول، حيث وصل القيصر وزوجته في 18 تشرين الأول/أكتوبر على متن اليخت هوهنزولرن Hohenzollern. فأنزلا في جناح بُني خصيصاً لتلك الغاية في باحة قصر السلطان، أي قصر يلدز. وأُغدقت عليهما الهدايا وزارا المدينة وهما يمتطيان صهوة حصانين، وحضرا حفلة استقبال أقامها السلطان على شرفهما. وبعد أسبوع أبحرا إلى حيفا في طريقهما إلى القدس التي دخلها القيصر على صهوة حصان أبيض، يرافقه أصحاب المقام الرفيع من العثمانيين بالزي الرسمي. فزار قبة الصخرة وكنيسة القيامة وحائط البراق، واستقبل ممثلين عن مختلف الطوائف الدينية. وعند العودة عن طريق البر من فلسطين إلى سوريا، حلّ القيصر

وعقيلته ضيفين على العشاء إلى مائدة أحمد باشا قبل أن يتوجّها إلى دمشق، حيث زارا الجامع الأموي وضريح صلاح الدين الأيوبي.

كان أحمد باشا مسلماً سنياً متديناً، ووجهاً من وجهاء العرب، وأحد المسؤولين المخلصين للإمبراطورية العثمانية التي امتد عمرها 500 سنة، وكانت أكبر إمبراطورية إسلامية منذ أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين. ولكن، خلال العقد الأخير من عمره، بدأت تسري أفكار رهيبة عن احتمال سقوط الإمبراطورية العثمانية، وتقاسم أراضيها بين القوى الأوروبية. كان الخوف من تمزيقها يجول في جميع الأذهان. من سيحكم الولايات العربية عندئذ؟ لذا شعر الوجهاء العرب من أمثال أحمد باشا بقلق عميق. هل سيعانون من المصير نفسه الذي حلّ بمصر بعد أن احتلها البريطانيون، أو الذي حلّ بالولايات في شمال إفريقيا التي رزحت تحت الاستعمار الفرنسي؟ لقد ضعف مركز الإمبراطورية فأخذت الأطراف بالاهتزاز.

توفي أحمد باشا في بيروت عام 1902، كان شيخاً جليلاً مكرماً ذاع صيته واحترامه لا في لبنان وإستانبول فحسب وإنما في دمشق والقدس وفي أنحاء الولايات العربية أيضاً. وكان عند وفاته صاحب ثروة ونفوذ، يمتلك أربع قرى في جنوب لبنان: تول، وثمره، والشرقية، وأرنون. كما حصل أحمد باشا على قطعة من ساحل بيروت، كانت تقع بعيداً عن المدينة في ذلك الوقت. ومع أن ملكيتها لا تعود اليوم إلى عائلة الصلح، فإنها توجد اليوم في منطقة من المدينة، وتمتد من فندق الكارلتون إلى المنارة. وتبرز عند الشاطئ في تلك المنطقة، صخرتان مميّزتان تسميان الروشة (تعريب للكلمة الفرنسية rocher التي تعني صخرة)، وكانت تُعرف في ذلك الوقت باسم "صخرة الصلح".

شاركت حشود كبيرة في تشييع جثمان أحمد باشا إلى مثواه الأخير. وكانت تلك من أكبر الجنازات التي شهدتها المدينة. تلقت العائلة الكثير من رسائل التعزية، منها واحدة من أشرف القدس الذين امتدحوا "أخلاقه ومزايه الإسلامية الحميدة". وكان من المشيعين حفيده رياض الذي بلغ الثامنة من عمره في ذلك الوقت.

الفصل الثاني

طفولة عثمانية

بدا والدا رياض الصلح غير متوافقين بسبب الاختلاف الكبير بينهما في السن والطباع. فوالده رجل جدّي سريع الغضب، بينما والدته رومانسية حاملة. لذا لم يكن بينهما انسجام كبير. وقَلَّما رافقت نظيرة زوجها رضا الصلح في مهامه المختلفة في الإمبراطورية العثمانية. ومع أنها أنجبت خمسة أولاد، لم يتمتع أي منهم بذلك النوع من العاطفة القوية التي كانت تكنها لولدها البكر رياض. وغالباً ما كانت تصطحبه لمفرده لزيارة مصر العليا أو الجزر اليونانية. وكانت تنوِّق إلى حيزٍ تختلي فيه بنفسها، لتقرأ وتشغل نفسها عن زواج غير قائم على الحب. لكن بالرغم من هذه الغربة، ظلَّ زوجها شغوفاً بها، بل يبدو أنها كانت نقطة ضعفه الوحيدة.

وُلد رضا الصلح في بيروت عام 1861، فيما المنطقة لا تزال ترزح تحت شبح الحرب الأهلية الدرزية - المسيحية التي هزت جبل لبنان. وهو أصغر أبناء أحمد باشا، وكان مختلفاً عن كامل ومنح، أخويه اللذين يكبرانه سنّاً. كانا طويلين، جذابين، وسمحين، في حين كان رضا حازماً وأقل منهما وسامة وطولاً. أصبح كامل قاضياً عثمانياً وخدم في ليبيا والبلقان. وترأس لاحقاً محكمة الاستئناف في دمشق. أما منح، الذي كان شاعراً ومحباً للموسيقى، فبقي في المنزل لإدارة أملاك العائلة وتوفي شاباً. اتسم رضا بالوقار والهيبة، وكان متحذلقاً، شديد التمسك بالنظام، وبيروقراطياً بالفطرة. دخل الخدمة العثمانية في عمر العشرين وتركها بعد ثمان وعشرين سنة. أقسم سكرتيره الذي بقي في خدمته مدة طويلة أنه طيلة السنوات التي عمل معه لم يره يتسم سوى أربع مرات⁽¹⁾.

(1) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو 5-6 تشرين الأول/أكتوبر 2004. إنني مدين لها ولسلسلة من المقالات التي كتبها في الجريدة لو جور *Le jour* اللبنانية التي كانت تصدر في بيروت، بالكثير من التفاصيل عن طفولة رياض الصلح.

الحياة المهنية لرضا الصلح

حرص العثمانيون منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى سنة 1922 على تدوين كل التفاصيل المتعلقة بالحياة المهنية لكل موظفي الحكومة. وتوجد 92,137 سيرة ذاتية للموظفين المدنيين في 201 ملف في أرشيف وزارة الداخلية التركية. لذا يمكن تتبع الحياة المهنية لرضا الصلح بدقة معقولة. وتحت اسم حسن رضا صلح أفندي، تم تدوين كل مركز عمل فيه منذ عام 1880 إلى حين تقاعده سنة 1913⁽¹⁾. هكذا نعلم بأنه بعد إتمام دراسته في بيروت، حيث حصل على شهادة إنهاء الدراسة، شهادة، توجه في سن التاسعة عشرة إلى مدينة اللاذقية، على الساحل السوري المتوسطي الشمالي

(1) دُوت وظائف حسن رضا الصلح أفندي في الأرشيف العثماني DH. SAID 18/167، 18/168 و80/489 كآتي:

- 13 أيار/مايو 1880 اللاذقية، "كاتباً أول" في تحريرات قلم.
 - 16 أيار/مايو 1883 الشقيف (صيدا)، مدير ناحية الشقيف.
 - 28 كانون الثاني/يناير 1885، اللاذقية (مرقب) قائم مقام قضاء مرقب.
 - 14 أيلول/سبتمبر 1889، بيروت (مرجعون) قائم مقام قضاء مرجعون.
 - 17 أيلول/سبتمبر 1888، بيروت (صافيتا)، قائم مقام قضاء صافيتا.
 - 17 كانون الأول/ديسمبر 1890، بيروت (صافيتا)، قائم مقام قضاء صافيتا.
 - 6 حزيران/يونيو 1892 بيروت (صور)، قائم مقام قضاء صور.
 - 6 كانون الثاني/يناير 1896 أضنة (إصلاحية)، قائم مقام قضاء إصلاحية.
 - 23 تموز/يوليو 1898 صيدا، قائم مقام قضاء صيدا.
 - 9 تشرين الأول/أكتوبر 1900، بعلبك، قائم مقام قضاء بعلبك.
 - 12 أيار/مايو 1902، نجد، متصرف في نجد.
 - 16 تشرين الأول/أكتوبر 1902، جبل البركة، متصرف في سنحج جبل البركة، (وهو يعرف اليوم بالعثمانية ويقع جنوبى الأناضول).
 - 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1905، كربلاء، متصرف سنحج كربلاء.
 - 31 كانون الثاني/يناير 1906، بولو، متصرف سنحج بولو.
 - 11 نيسان/أبريل 1907، بريفيزا، متصرف سنحج بريفيزا.
- في العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر 1908، وبعد ثورة تركيا الفتاة التي أجبرت السلطان على إعادة العمل بالدستور. انتخب رضا الصلح مبعوثاً عن بيروت في البرلمان العثماني أو مجلس المبعوثان الذي أعيد انعقاده في إستانبول وخدم فيه إلى أن حل المجلس في 18 كانون الثاني/نوفمبر 1912. (انظر الفصل الثالث). وفي 14 شباط/فبراير 1913 تقاعد من خدمة الدولة بتعويض بلغ 1666 قرشاً، وفقاً لملاحظة دوتت في وثائق مجلس المبعوثان.

لدراسة فن الخط والكتابة في "تحريرات قلم". كان الخط، مثل العمارة، فناً قدّره العثمانيون تقديراً كبيراً وبرزوا فيه. وكانت الرسائل الرسمية والتقارير، من الولايات البعيدة إلى الباب العالي، بمثابة الجهاز العصبي للإمبراطورية وتشكّل إنجازاً مهماً.

بعد أن أتم رضا تدريبه، عُيّن كاتباً أولاً في المركز الحكومي نفسه في اللاذقية في 13 أيار/مايو 1880. استقال من منصبه في 13 تشرين الأول/أكتوبر 1881 وعيّن في أيار/مايو 1883، وهو في الثانية والعشرين، مدير ناحية في منطقة صيدا. بلغ راتبه 450 قرشاً (يعادل كل 100 قرش ليرة عثمانية ذهبية واحدة). وكانت الليرة الذهبية العثمانية تعادل الجنيه الإنكليزي في ذلك الوقت). ومن إنجازات رضا كمدير، إنشاء مدرسة عثمانية رسمية في البنتية غير البعيدة عن صيدا، كجزء من محاولات الباب العالي لتحديث الإمبراطورية. وقد استُقدم المدرّسون من بيروت وطرابلس، وشكّل ذلك خطوة متقدمة عن المدارس التقليدية الدينية، أو "الكتاب"، التي يقتصر فيها التعليم على القواعد والمنطق وتفسير القرآن الكريم⁽¹⁾.

ترقّى رضا الصلح بشتات، وإن لم يكن على نحو مبهر، في خدمة الإمبراطورية. كان إدارياً حازماً يتسم بالكفاءة والإخلاص، من النوع الذي يحظى بتقدير السلطان. وخلال الخمس عشرة سنة ما بين 1885 و1900 شغل رضا وظيفة قائم مقام في ثمانية مواقع: قضاء المرقب التابع لسنجق اللاذقية براتب بلغ 1250 قرشاً؛ وفي صافيتا، في الجبال جنوب حلب براتب 1750 قرشاً؛ وفي مرجعيون، في جنوب لبنان، بالراتب نفسه؛ وفي صافيتا ثانية بالراتب نفسه، وفي صور، على شاطئ لبنان الجنوبي، بالراتب نفسه؛ في إصلاحية في جنوب الأناضول براتب بلغ 2500 قرش. وقد خُفّض هذا الراتب المثير للإعجاب إلى 2250 قرشاً، عندما مرض وعاد إلى بيروت في 20 كانون الأول/ديسمبر 1897. وعندما تعافى عُيّن ثانية قائم مقام في منطقة صيدا بموجب أمر خطي صادر عن السلطان بتاريخ 23 تموز/يوليو 1898. تبع ذلك تعيينه في بعلبك في وادي البقاع اللبناني في 9 تشرين الأول/أكتوبر 1900.

Tamara Chalabi, *The Shi'is of Jabal Amil and the New Lebanon*, New York 2006, (1) p. 30

بعد ذلك رقي بأمر خطي صادر عن السلطان أيضاً، وشغل منصب متصرف خمس مرات بين عامي 1902 و1907. كانت أولى وظائفه القيام بمهمة في نجد في شمال وسط شبه الجزيرة العربية حيث أمضى خمسة أشهر بين أيار/مايو وتشرين الأول/أكتوبر 1902 براتب 6750 قرشاً. وقد أرسل إلى هناك لتقييم أهمية الأمير عبد العزيز ابن سعود. ففي وقت سابق من تلك السنة استعاد عبد العزيز الرياض، العاصمة السعودية القبلية القديمة، من أيدي خصومه القبليين، ليؤسس في ما بعد المملكة العربية السعودية^(*).

شغل رضا بعد ذلك منصب متصرف سنح "سبيلي بركة"، العثمانية في جنوب الأناضول حالياً، براتب 5670 قرشاً؛ ثم متصرف كربلاء في العراق براتب 5400 قرش حيث قدّمته معرفته للغة العربية على مرشح عثماني آخر. لكن عندما مرض واحتاج إلى عملية جراحية، أرسل إلى دياره ليتماثل للشفاء براتب أقل وتم استبداله. وعندما تعافى عُيّن متصرف بولو Bolu في منطقة البحر الأسود الغربية في تركيا، وهي منطقة بحيرات و غابات صنوبر تقع في منتصف الطريق تقريباً بين إستانبول وأنقرة.

عائلة الصلح في سالونيك

لم يُذكر في الأرشيف العثماني أن رضا الصلح خدم في سالونيك، ومع ذلك يعتقد بأنه تبادل المراكز مع حاكم مقاطعة في سالونيك وعمل في المدينة. ووفقاً لأدلة شفوية نُقلت عن عائلته (وعن مربية تذكر أنهم أقاموا هناك)، يبدو أنه خدم متصرفاً في سالونيك، على الأقل لمدة سنة في أوائل القرن العشرين.

كانت سالونيك في ذلك الوقت المدينة الثانية في الإمبراطورية، وتضمّ جالية يهودية كبيرة ومزدهرة، كثير منها متحدّر من اليهود الإسبان الذي هربوا إلى البلقان في نهاية القرن الخامس عشر عندما أصدر الملوك الكاثوليك مرسوماً يجبر كل اليهود على اعتناق الكاثوليكية أو التعرض إلى الطرد. بقي 50 ألفاً منهم، وتمّ تعميدهم بالقوة، وعرفوا بالمتحولين. وعانوا كثيراً بعد ذلك، وخصوصاً من محاكم التفتيش. إلا أن 250 ألفاً آخرين اختاروا النفي. فرّ الكثير منهم إلى فرنسا وإنكلترا وهولندا، لكنّ

(*) على الرغم من أهمية هذه المهمة، فإنني لم أجد في الأرشيف العثماني أي إشارة أخرى إليها.

غالييتهم فضّلت مدن الإمبراطورية العثمانية الأكثر ترحاباً ودفعاً، حيث استقبلوا بحرارة وعوملوا معاملة حسنة بناء على أوامر من السلطان بايزيد الثاني. اختار نحو 20 ألفاً منهم مدينة سالونيك، وأحدثوا دفعاً كبيراً للتجارة والتعليم والثقافة. وسرعان ما لحق هؤلاء اليهود السفارديم موجات من اليهود المضطهدين الآخرين من صقلية والبرتغال، وجلبوا معهم مهارات وتقنيات جديدة، من بينها الحياكة. وبحلول سنة 1515، على سبيل المثال، كان صنّاع النسيج اليهود في سالونيك يزودون الجيش العثماني بمعظم الأقمشة اللازمة لصنع البزات العسكرية. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونتيجة تنامي العداء للسامية في أوروبا، استمر وصول موجات جديدة من اللاجئين اليهود القادمين من فرنسا وبولندا والمجر. وسرعان ما فاق عدد اليهود أعداد السكان المسلمين والمسيحيين.

كان أفراد الطبقة العاملة من اليهود الأرثوذكس يعيشون في ظروف بائسة في سالونيك، لكنّ البورجوازيين اليهود الناجحين، من محامين وأطباء ومعلمين وتجار من جميع الأنواع، كانوا من دعاة الاندماج في المجتمع الذين يميلون إلى الثقافة الفرنسية لأنهم نتاج التعليم في مدارس الأليانس الإسرائيلية الجديدة. وقد عاش هؤلاء حياة رغيدة. وفي سنة 1854 أقامت عائلة اللاتيني اليهودية الإيطالية أوّل مؤسسة صناعية حديثة لطحن الدقيق. وفي سنة 1865 صدرت أول جريدة يمتلكها اليهود في المدينة وهي جريدة "اللونر" *El Lunar*. ولكنّ قضية دريفوس Dreyfus في فرنسا وجهت صفة قوية إلى يهود سالونيك الليبراليين المعجبين بكل ما هو فرنسي. فبدأ تيار أيديولوجي جديد - الصهيونية - في اجتذاب المتطوعين بشكل شبه سري، وخصوصاً في صفوف الفقراء.

في سالونيك، اكتشف رضا الصلح أن اليهود يعترهم الخوف الناتج عن عدم اليقين الذي يفاقمه انتشار الأفكار الثورية والصهيونية، على الرغم من أنهم الحالية الأكثر ازدهاراً⁽¹⁾. وكان ذلك بداية احتكاكه بمصر اليهود وعرب فلسطين الذي سيصبح الشغل الشاغل له - ولولده رياض.

(1) Albertos Nar, "Social Organization and Activity of the Jewish Community in Thessaloniki", and Basil C. Gounaris, "Thessaloniki, 1830-1912: History, Economy and Society" in I. K. Hassiotis (ed.) *Thessaloniki: History and Culture*, Athens 1997.

واجه المجتمع اليهودي في سالونيك أسوأ الأقدار في السنوات اللاحقة. فشب حريق مدمر عام 1917، شرد 54 ألف شخص ودمر ثلاثين كنيساً، ومكاتب المحاماة الأكبر، وقضى على عدد من مدارس الأليانس والكثير غير ذلك. ووجه ضربة موجعة إلى الجالية لم يستفيقوا منها تماماً. لكنّ الأسوأ جاء لاحقاً. بعد أيام من دخول الألمان إلى سالونيك في 9 نيسان/أبريل 1941، صدر العديد من الممتلكات اليهودية أو سُلِب. وفي سنة 1942 اقتيد كلّ الذكور اليهود ما بين 18 و45 سنة إلى معسكرات الأشغال الشاقة النازية. وفي سنة 1943 جُمع من تبقى من السكان اليهود في عربات نقل المواشي وأرسلوا إلى أوشفيتز وبيركنو Birkenau. وهناك قتل بالغاز نحو 45 ألفاً من يهود سالونيك، وهم من أكثر الجاليات تنوعاً، التي سيطرت على حياة المدينة نحو 400 سنة⁽¹⁾.

بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب الروسية التركية في 1877-1878، ضُمَّت ولاياتها المقدونية الثلاث إلى بلغاريا بموجب اتفاقية سان ستيفانو في آذار/مارس 1878. إلا أن معاهدة برلين التي وقعت بعد ثلاثة شهور، أعادتّها إلى الحكم العثماني. عاش في تلك الولايات الأتراك والألبان واليونان والصرب والبلغار واليهود والرومانيون جنباً إلى جنب، لكن لم يكن الانسجام دائماً فيما بينهم. فقد كان الصرب والبلغار واليونان يتنازعون على هذه الأرض، فيما تراقبهم عن كثب الإمبراطورية النمساوية-المجرية وروسيا، وهما القوتان الخارجيتان الأكثر اهتماماً بشؤون البلقان. في نهاية القرن التاسع عشر بدأت منظمات ثورية مختلفة بمهاجمة القطارات واختطاف الرهائن طلباً للقدية، وإحراق المساجد والكنائس ومهاجمة القرى وذبح أهلها.

في نيسان/أبريل 1903، فجر المتمرّدون سفينة فرنسية في مرفأ سالونيك، فضلاً عن أنابيب الغاز، ومحطة السكة الحديدية والمركز الرئيسي للبنك العثماني. وبعد بضعة أشهر، في آب/أغسطس، أطلقت قوة ثورية مؤلفة من نحو 25 ألف شخص عصياناً شاملاً في كل أنحاء مقدونيا ما تسبّب بوقوع حمام دم. كان هدف المتمردين في الظاهر

(1) Mark Mazower, *Salonica, City of Ghosts: Christians, Muslims, and Jews*, London, 2004.

استفزاز العثمانيين للقيام بأعمال انتقامية، على أمل أن يؤدي ذلك إلى تدخل القوى الأوروبية. لكن لم يكن أحد في أوروبا يفكر ذلك الوقت في طرد العثمانيين من مقدونيا لسوء حظ الضحايا وحسن حظ السلطان⁽¹⁾.

مع ذلك، تبين أن استعادة الأمن والنظام مكلفة جداً. فعانت الولايات الثلاث عجزاً كبيراً، ولم تعد قادرة حتى على دفع رواتب الجنود والموظفين. اقترحت الإمبراطوريتان النمساوية-المجرية والروسية أن يعهد بالإدارة المالية إلى البنك العثماني فيجبي الضرائب ويدفع رواتب الموظفين بإشراف لجنة مالية دولية. ولكن ذلك يعني الخضوع للوصاية الأجنبية، وهو المصير الذي طالما سعى السلطان عبد الحميد إلى تجنبه. فحاول كسب الوقت، ولكن عندما احتشدت السفن الحربية التابعة لخمسة دول على مقربة من ميناء بيرايوس (بيريه) Piraeus واستعدت للإبحار باتجاه المضيقيين التركيين، أُجبر على الرضوخ، واحتلت المسألة المقدونية الصفحات الأولى للصحف في أوروبا وأميركا.

خلال الفترة التي أمضاها رضا الصلح متصرفاً في سالونيك وقع حادث هزّ حياته العائلية وكان له أثر كبير في حياة ابنه رياض. فقد انضمت زوجته، نظيرة مفتي زاده، برفقة أولادهما الخمسة إليه في مركزه في سالونيك لتمضية الإجازة الصيفية. فاجتمع هناك رياض، الابن البكر، مع شقيقته بلقيس وعلياء وشقيقه أحمد ودرويش. وفي أحد الأيام، أخذ رياض وأحمد يلعبان على الشاطئ. وكان بعض الصبية اليونانيين يتسابقون جيئة وذهاباً ويقومون بجمع الخشب العائم على سطح الماء لينوا المتاريس ويلعبوا لعبة الحرب وهم يهتفون ويصيحون. كانوا يمثلون معركة ميسولونغي Missolonghi التي جرت عام 1823، في السنوات الأولى من حرب استقلال اليونان، حيث هزم البطل اليوناني بوتساريس Botsaris جيشاً عثمانياً مؤلفاً من أربعة آلاف مسلم ألباني.

أراد رياض وأخوه الانضمام إليهم، لكن الصبية اليونانيين رفضوا ذلك. وصاحوا في وجهيهما، "لا يمكنكما ذلك. أنتما عريان! والعرب عبيد للأتراك!" تألم رياض من ذلك فحطّم المتاريس التي بناها الصبية وحمل الأخشاب إلى البحر لرميها في المياه

العميقة. لحق به شقيقه أحمد، لكنه لم يكن يحسن السباحة، فحملته موجة إلى المياه العميقة وغرق. وعندما نُقلت جثته إلى البيت، واجه رياض والده قائلاً وهو يبكي: "أنت السبب! أنت تعمل لحساب الأتراك! لهذا مات أخي".

حزن رضا على ولده أحمد حزناً شديداً. وقيل إنه لزم الفراش لمدة أسابيع متأثراً بمصابه. ولأن أحاسيسه جُرحت في الصميم باتهام ابنه رياض له، فقد حاول لاحقاً إقناع ابنه بالحجة. فقال له: "حاول ألا تحكم على الناس بقسوة... لقد حاول أبي أن ينقلب على الأتراك، لكنهم نفوه إلى جزيرة رودس. وطالما حاولت أن أعمل في البلاد العربية لتحسين أوضاعها. يجب ألا نتمرد إلا عندما نكون مستعدين". دُفن أحمد في سالونيك. وفي وقت لاحق، زار رياض قبر أخيه، ووعد والدته بإعادة رفاتة إلى بيروت لكنه لم يتمكن من القيام بذلك.

بعد هذه الحادثة بوقت قليل طلب السلطان عبد الحميد مثول رضا الصلح أمامه. فقد أصبح السلطان، في السنوات اللاحقة من حكمه، يميل إلى تجاوز بيروقراطية الباب العالي والتواصل شخصياً مع ولايته. فشجعهم ذلك على رفع التقارير إليه شخصياً بواسطة شيفرة القصر. على أي حال، طلب السلطان من رضا الصلح أن يصطحب معه ولده البكر، ربما كبادرة تعزية بوفاة أحمد. ظل السلطان في جانب كبير من عهده حبس قصر يلدز المطل على البوسفور. وكان القصر مجمعاً كبيراً من الأبنية التي يضيف إليها المزيد من الأجنحة الجديدة بشكل مستمر، وسط حديقة كبيرة يحيط بها سور مرتفع.

عانى السلطان من كل أنواع المخاوف المرضية، مثل الخوف من التجمعات، والمؤامرات، والاغتيال. ولم يكن يثق بأحد. وكان أعضاء الحرس السلطاني يقيمون في ثكنات مجاورة؛ وهم خط الدفاع الأول عن سلامته ويتكوّنون من نحو 15 ألف جندي ألباني وبوسني وعربي. ويجوار القصر نشأت ضواحي عمرانية جديدة بنيت خصيصاً لإسكان الموظفين الرسميين والمساعدين وأفراد حاشية السلطان وجيش صغير من خدم القصر.

كان السلطان ورضا متشابهين من ناحية الشكل، مع أن رضا أصغر حجماً بقليل. وقد وصف الزوار الأجانب السلطان أنه قصير القامة، ونحيف، ومحدود

قليلاً. بدا رأسه الكبير متوازناً على جسم يعاني من سوء التغذية. وكان ذا جبهة عريضة تعلو فوق حاجبين كثيفين مقوسين، وعينين داكنتين غائرتين، وأنف كبير معقوف، ولحية مشدبة ومصبوعة بالأسود. كان صوته خفيضاً مع زواره، ويتغير إلى حادّ ومتغطرس مع الرؤوسين. ويتمتع بذاكرة مذهلة، لاسيما للوجوه. وكان يفضل أن يعيش حياة بسيطة في أجنحة قصره المريحة ولكن البعيدة عن الترف.

لا نعرف عن الحديث الذي دار بين السلطان ورضا، ولكن عندما فرغا من الحديث الجدي، دُعي الطفل رياض للانضمام إليهما. قرّبه السلطان إليه، وحاول أن يجلسه على حضنه، فيما يمد يده ليضع فنجان القهوة الذي يحمله جانباً. فقلب رياض بحركة مفاجئة فنجان القهوة التركية الصغير من يد السلطان على العباءة السلطانية وظهرت بقعة على مقبض سيفه. وعندما روى رياض الصلح الحادثة لأولاده لاحقاً - وما من شك في أنه بالغ في قصّته - أبدى اعتقاده أن تلك البقعة كانت إرهاباً بتمردّه على العثمانيين في ما بعد.

بعد سالونيك، ومعاناة ثانية من المرض، عُيّن رضا الصلح في 11 نيسان/أبريل 1907 في بريفيزا Preveza، وهي منطقة ذات طقس معتدل على الشاطئ الأيوني. كانت بريفيزا في ذلك الوقت مرفأً ألبانياً صغيراً في القسم الأوروبي من الإمبراطورية، يقع عند لسان مائي في البحر الأيوني في ولاية يانيا. وعندما أصبح رضا متصرفاً فيها كان عدد سكاتها 6500 نسمة، أربعة أخصائهم من المسيحيين الألبان واليونان وخصائهم من المسلمين. كانت المدينة محاطة بأشجار الزيتون وتباهي بينابيعها الساخنة المعروفة بفوائدها العلاجية. وكان مرفأها صغيراً لا يستقبل المراكب الكبيرة، إلا أن العديد من المراكب الصغيرة المحملة بمنتجات الألبان والجلود والصوف والزيتون وزيت الزيتون تتردّد عليه باستمرار. وبالرغم من المحيط الريفى ونسيم البحر وسحر العالم القلم، فإن متصرف بريفيزا لم يكن منصباً من دون عمل لأن السنجق يغلي بالتوترات العنيفة. فمقدونيا تقع إلى شمال السنجق وشرقه مباشرة، حيث يوجد تمرد قومي. كان ذلك المنصب الأخير الذي تولاه رضا كإداري في السلطنة. وبعد سنوات قليلة، في العام 1912، سقطت سالونيك وبريفيزا في أيدي اليونانيين.

الأم وابنها

لم تكن والددة رياض الصلح، نظيرة مفتي زاده، امرأة عربية. فقد ولدت لأب أوزبكي وأم شركسية، ولعلها واحدة من الشرَكَس الذين استقروا في سوريا الجنوبية ابتداء من العقد الثامن من القرن التاسع عشر ولعبوا دوراً مهماً في الاقتصاد والترتيبات الأمنية. كانت تُعتبر من الجميلات حيث ورثت بشرتها الفاتحة، وشعرها الأشقر، وعينيها الزرقاوين عن والدتها، في حين أخذت شكل العينين اللوزيتين الواسعتين ووجهها المسطح عن والدها. كان هذا النوع من الخليط العرقي مألوفاً في السلطنة العثمانية. فمنذ نهاية القرن الثامن عشر، أجبر التوسع الروسي في البحر الأسود والقوقاز وآسيا الوسطى السكان المسلمين على الهرب إلى السلطنة طلباً للأمان. قدم إلى السلطنة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909) أكثر من مليوني مهاجر من البلقان وروسيا، أي نحو عشرة بالمئة من عدد سكان الإمبراطورية بأكملها. ولعل تحدر والددة السلطان من أصول شركسية، وحبّه الشديد لها جعله حساساً جداً لمصير هؤلاء السكان النازحين. ففعل كلّ ما في وسعه لمساعدة المهاجرين، أنشأ قرى بأكملها، حتى سُمي بعضها "الحميدية" باسمه. وبنى لهم المدارس والمساجد من ماله الخاص. وفي نهاية القرن التاسع عشر، قدّم أحد المسافرين الإنكليز، وهو السير وليم رامزي William Ramsay، وصفاً لأحد تلك الأماكن في شرقي الأناضول، حيث كان ينتمي سكانها إلى سبع ديانات مختلفة ويتكلمون ما لا يقلّ عن أربع عشرة لغة⁽¹⁾.

كانت والددة نظيرة تدعى فريدة، وهي ابنة الأمير حجي باسلان القائد الشرَكسي الذي حارب الروس وهُزم. وعندما هرب من القوقاز استقر أولاً في مصر. يُقال إنه لم ينجُ في تلك الرحلة الطويلة والخطرة سوى هو وابنتيه، فريدة وصفوت، وجاريته الشرَكسيّتان، بوران وفريال. رحّب الخديوي إسماعيل بالأمير وأكرم وفادته، فأهداه الأمير فريال عرفاناً بالجميل. وفي الوقت المناسب، قدّمت هذه الجارية إلى ابن الخديوي، الأمير توفيق. فولدت فؤاد، الذي أصبح، في ما بعد، الملك فؤاد الأول.

(1) Sir William Mitchell Ramsay, "The Intermixture of Races in Asia Minor, Some of its Causes and Effects", Proceedings of the British Academy, vol. VII, London, H. Milford, 1917 quoted in Georgeon, *Abdülhamid II*, p. 320.

وقد أنجب الملك فاروق، ابن الملك فؤاد، بنتاً سُميت فريال باسم جدتها الشركسية.

بعدما لبث الأمير حجي باسلان بضعة أشهر في مصر، سافر إلى إستانبول، وعهد بابنتيه الاثنتين إلى السلطان نفسه قبل وفاته بقليل. تزوجت الفتاتان في نهاية المطاف من شقيقين أوزبكيين، شريف وأمين رحيم خان، اللذين كانا مثلهما من ضحايا التوسّع الروسي الإمبريالي. كان أمين قائداً لجيش محمد رحيم كول، أحد آخر خانات خيفا Khiva، عاصمة خانية أوزبك في آسيا الوسطى قبل أن تحتاحها القوات الروسية. أجبر على التراجع بعدما هُزمت القوة الصغيرة التي يقودها. فشج محارب قوزاقي أعلى رأسه بالسيف، ولو لم يضمّد شقيقه الأكبر، شريف، الجرح بالعسل، الذي كان يستعمله المغول بمشاباة بلسم، ويخطّ الجرح بخيط مصنوع من جلد الماعز، ويربطه على ظهر جواده للقيام بالرحلة المضنية، لما نجا من موت محقق. كان عليهما أن يقطعا الصحاري والسهوب والجبال والوديان ليصلا إلى الأناضول، حيث سبقهم لاجئون أوزبكيون.

وصل أمين إلى تركيا معافى جسدياً لكنّه تغيّر روحانياً. غيّره رحلته الطويلة الشاقّة، فتحوّل المحارب الباسل إلى متصوّف. تعمق في العلوم الدينية وأصبح مفتياً لمدينة أزرينغان Azrangan الصغيرة في الأناضول واكتسبت سلالته اسم "مفتي زادة" نسبة إلى لقبه. وعندما مات، ترك وراءه زوجته فريدة مع طفلين صغيرين، صبي وبنت. كان عمر الفتاة، نظيرة، سنتين في ذلك الوقت.

كان شريف، شقيق أمين، أكثر تعلقاً بالدنيا ومتاعها. فتابع رحلته إلى إستانبول ودخل الخدمة في قصر السلطان، وارتقى في النهاية ليصبح دفتردار، أي مسؤولاً مالياً، يسافر إلى الولايات العربية في السلطنة في مهمات مختلفة. جاء بأرملة شقيقه فريدة وابنة شقيقه نظيرة وشقيقها ليعيشوا معه في إستانبول. وفي الوقت الملائم عيّن دفتردار ولاية بيروت، وكانت في ذلك الوقت مدينة أكثر انفتاحاً على العالم، وبالتالي مكاناً أفضل لجمع المعلومات لصالح السلطنة العثمانية من مدينة دمشق التي تقع في الداخل.

في بيروت، بنى شريف منزلاً كبيراً في حي ميناء الحصن البحري الراقي المواجه للبحر، مقابل موقع فندق السان جورج اليوم. في هذا البيت عاش مع عائلته وعائلة شقيقه المتوفى أمين. في غضون ذلك، كبرت نظيرة لتصبح شابة مثقفة. بعدما ارتادت

مدرسة "الأخوات الروسيات" في بيروت، أنهت تعليمها في مؤسسة إسلامية، "جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية"⁽¹⁾. فأتقنت العربية والألمانية إلى جانب اللغة التركية. وكانت مولعة بالموسيقى. علّمها موسيقي يهودي، اسمه مُراد، العزف على آلة القانون بينما علمتها ابنة شقيقة مراد، ليلي، الغناء والرقص. ولأن عمّها الطموح، شريف، أراد الظهور بمظهر متميّز في المجتمع اللبناني، فقد قرّر أن يزوّجها بأحد الوجهاء العرب. فوقع اختياره على رضا أفندي، الابن الأصغر لأحمد باشا الصلح. كانت نظيرة في السادسة عشرة، بينما يكبرها رضا بمثل سنّها. وكان يشغل آنذاك منصب قائم مقام قضاء صور في جنوب لبنان.

لم ترَ نظيرة زوجها قبل الزواج. وتروي العائلة أنّها طلبت إعادتها إلى البيت عندما وقع نظرهما عليه! ويبدو أنّها كانت معجبة بضابط تركي شاب ووسيم في الحرس السلطاني يدعى صفوت بك، قدم زائراً إلى بيروت من إسطنبول. ربما جذبها سلوكه المهدّب وكفّيتاه المذهبتان وحزمته اللماعة، وأملت في الاقتران به. وقد تقدم لخطبتها بالفعل، لكن عمها رفض طلبه إذ كان يرغب في أن يختار لها زوجاً من العائلات الرفيعة المقام في بيروت.

بعد الزواج، انتقل رضا ونظيرة ليعيشا في بيت عمها في ميناء الحصن. وفي ذلك البيت ولد رياض الصلح في 17 آب/أغسطس 1894. ورياض لغة جمع روضة، أي الحديقة. وكان هذا الاسم مألوفاً بين الأقباط المصريين فقط في القرن التاسع عشر، وغير معروف في أي مكان آخر في العالم العربي. أراد أحمد باشا أن يُسمي حفيده علي وصفي، تيمناً بالإمام علي، ابن عم النبي ﷺ ورابع الخلفاء الراشدين، و"وصفي" باسم أحد أصدقائه. ولكن رضا الصلح كان يفضل اسم "رياض". فكتب إلى والده ليبلغه أنه يوافق على اسم علي ورجاه أن يمنحه اسم رياض. لذا تمّ التوافق

(1) انظر مقابلة مع نظيرة مفتي زاده في مجلة أوراق لبنانية رئيس التحرير يوسف إبراهيم يزبك، الجزء الرابع، نيسان/أبريل 1955. تم إنشاء مدرستين للمقاصد للبنين واحدة في بيروت والأخرى في صيدا في تموز/يوليو 1875، تبعها إنشاء مدرستين للبنات بعد شهرين فقط. تبنت هذه المدارس المناهج والأساليب التعليمية نفسها التي أتبعها مدارس الإرساليات المسيحية. وفي 1882، أغلقت الحكومة العثمانية مدارس المقاصد وأدخلت مدارسها في النظام الرسمي، ولكن عندما تدق المستوى بشكل فظيع، استعادت الجمعية نشاطها في 1908.

على أن يُسمّى الصبي "علي رياض". لكن سرعان ما أسقط اسم علي وبقي اسم رياض، وأصبح اسماً معروفاً في المنطقة. ويبدو أن كل من حملوا اسم رياض في لبنان، ولدوا بعد ولادة رياض الصلح.

نشأ رياض في منزل تغلب عليه النساء. فقد كان والده غائباً عن البيت في الغالب، فضلاً عن أنه متحفّظ ومرهوب الجانب. ولم يكن رياض ينسجم مع عالم الأساطير الذي ملأ حياة والده رياض، نظيرة؛ وجدته فريدة، وعمته زهية التي تقيم معهم أيضاً؛ ومريته السوداء الأفريقية دادا تفاحة. كان لدى كل منهن قصص طويلة تخبرها، وكل منهن تضرر أحزاناً مريرة، وتتوق إلى الانتصاف ممن ظلمها. وهكذا كانت تدور حروب تحرير حماسية على مائدة العشاء. وشكّلت الأحلام الأوزبكية والشركسية بالانتقام من الروس البغيضين جزءاً من حياتهم اليومية. كانت جدته فريدة تغني له أغاني شركسية، وتعلمه الرقص بالسيف، وتلبسه الملابس الشركسية مع أحزمة الخرطوش وتحثه على الذهاب لتحرير الجبال الشركسية. وعندما تغضب منه كانت تشتمه بأسوأ شتيمة في قاموسها فتنتعته "بالمسكوفي البائس". وفي أوقات أخرى، كانت ترسل شعرها الذهبي، الذي يصل إلى كاحليها، ويخالطه الشيب كلما تقدّم بها العمر، وتستعرض معه أرجاء المنزل - تمثّل دور الملكة وهو الوصيف حاملاً شعرها المتدلّي كأنه ذيل ثوبها. كانت هذه الاستعراضات تقام دائماً تكرّماً لشخص واحد - والدها المتوفى الأمير حجي باسلان. وطالما أخبرت رياض أن قامة والدها كانت منتصبة ومستقيمة كالرمح. وأنه لم يخفض بصره قط، فلم يكن يعرف لون الأرض. وكانت عباءته تظهر في روايتها دائماً مزينة بالخیوط الذهبية فيما تمتلئ خيامه بالنساء المتعطّرات. وفي الولاثم المسائية كان يجلس فريدة على ركبته ويمسك يديها الصغيرتين ويستمتع بمتابعة إيقاع الموسيقى. وفي إحدى الليالي اجتاح فرسان القيصر مساكنهم وأشعلوا فيها النيران. هربت مجموعة من مئة شخص من جورجيا إلى مصر، لكن لم ينج سوى خمسة أشخاص فقط من هذه الرحلة الطويلة من جورجيا إلى مصر. وعلى الرغم من أن رياض الصلح لم يتعلّم أيّاً من اللغات الشركسية، فقد كان باستطاعته ترديد بعض العبارات التي تعلّمها من جدته على طريقة الببغاوات. وقد أخبر ابنته علياء في ما بعد أنه كلما هتّفت له الحشود أو حملته على أكفائها، كانت تلك العبارات الشركسية ترد إلى ذهنه ويردّدها في سره بصوت خفيض.

ولكي لا تغلب الوالدة على ابنتها بأقاصيصها، كانت نظيرة، ابنة القائد الأوزبكي أمين رحيم خان، ترفع ثوبها أحياناً وتنزل جوربها وتضع رياض على فخذيها وتؤرجحه إلى أعلى وأسفل كأنه يمتطي حصاناً من دون سرج مثل فارس حقيقي من بلدها الأم. ثم تصيح، "عندما يعدو الحصان بأقصى سرعة! بوم! ويسقط روسي آخر صريعاً!" أخبرته أن جدّه أمين كان يصيد النمر، ويسمى "نمر النمر" إذ قيل إنه يروّض النمر بنظراته الثاقبة. لم تكن تمل من إخبار ابنتها أن "منطقة خيفا ما كانت لتسقط في أيدي الروس لو لم يصب والدي بجرح بليغ". أمّا عمّة رياض، زهية، فكانت حازمة مثل شقيقها رضا، وعُرفت بشخصيتها القوية. وكانت قد تزوجت لمدة قصيرة من شخص من آل شمبور من طرابلس - يقال إنه متحدّر من الكونت دي شامبور الصليبي. وعند وفاة زوجها خلف لها كل أراضيها ما جعلها غنية ومستقلة. وكانت تمتلك مفتاحاً قديماً لبيت في قرطبة طُرد منه أسلافها العرب. وعند موتها، تركت لرياض جميع ممتلكاتها بما فيها ذلك المفتاح. وكانت دادا تفاحة، مربية رياض المحبوبة، تريد استرجاع موطن ضائع أيضاً. فقد اختطفها تجار العبيد في مكان ما في شرق إفريقيا، وقُدّمت إلى سلطان زنجبار. وقُدّمت بدورها إلى أحمد باشا، لكنها ظلّت تحنّ إلى جذورها سنوات بعد ذلك. إذاً هؤلاء هنّ النسوة الأربع اللواتي أشرفن على تربية رياض، وأسهمن بطريقة ما في تحديد طبيعة حياته السياسية المتنوعة والدراماتيكية.

لم يكن رياض الصلح حتى وقت متقدّم من سني مراهقته يعرف الكثير عن العالم الخارجي، سوى ما روته تلك النسوة عنه. وبما أنّه تعلّم في البيت معظم الوقت، فقد كان لمن تأثير كبير فيه. وما من شك في أنّ علّمته الحماسة للتحرّر. وساعدت الأساطير التي ملأن مخيلته بما في إقناعه أن مهمته في الحياة أن يصبح محرراً وأن يعتق المظلومين. لم يكن يهمه المال أو المكانة كثيراً، وبدا أنه لا يعرف الخوف. ولعله لم يُواجه الحياة الواقعية، وربما كان ذلك من الأسباب التي مكّنته من تحدّي الأتراك والفرنسيين في وقت لاحق بشجاعة فائقة.

من بين تلك النساء النساء الأربع، كان لوالدته نظيرة، بطبيعة الحال، أعظم الأثر فيه. فعلى الرغم من وفاة أربعة من أولادها الخمسة في أثناء حياتها، فإنّها لم تسمح بأن تمزقها الحياة إذ إنّها علّقت آمالها على رياض. كانت معلمته الأولى وزرعت فيه حب

القراءة والتاريخ والشعر وعلم النبات. في سن السادسة، تعلّم كيف يحلّل الأزهار ويصنّفها في فصائل. ولم يكد يهتم بمجادول الضرب أو الجمع أو الطرح، لأن والدته كانت تعتقد أن الأرقام "تفسد الروح". وقد لازمه موطن ضعفه هذا طوال حياته، وربما شجّع ذلك على أن يبدّد من دون حساب ثروة حرصت عائلته على جمعها عبر الأجيال.

لم يُرسل رياض إلى المدرسة إلا في وقت متأخر من طفولته، وبصورة متقطعة. عندما بلغ التاسعة، قرّر والده أن الوقت قد حان لإنهاء عطلة الطويلة وتعاقّد مع معلمين اثنين لتعليمه في المنزل ومرافقة العائلة في أثناء أسفارها. أحدهما حسني الجندي، وهو سوري مسلم من دمشق علمه العربية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم. والآخر جوزيف خوري، وهو لبناني مسيحي علّمه اللغة الفرنسية بالإضافة إلى العناصر الأساسية للغات التركية والفارسية واللاتينية. لا شك في أن هذا المنهاج التعليمي كان طموحاً بالنسبة إلى ولد بدأ التعلّم في سن متأخرة. كان حسني الجندي شغوفاً بالبلاغة والخطابة. وكان يحب أن يوقف رياض أمام المرأة ويطرح عليه موضوعاً قائلاً، "تخيل أن حشداً غاضباً اقتحم قصر الحاكم. فماذا يفعل الحاكم؟" فيجيب الصبي عاقداً حاجبيه: "يجب أن يُظهر غضبه ويتحدّى الجموع ليكسب احترامها".

فيقول المعلّم، "جيد! لكن هذا لا يكفي. بعد إظهار غضبه، يجب أن يهدئ الحشود، ويغيّر الجوّ السائد ويتسم. عليه أن يغدق عليهم الوعود بكلمات رنانة، وينتهي كلامه بتعليق بارع أو بحادثة عاطفية، وعليه أن يتظاهر بأنه يرويها لأول مرة". بعد سنوات طويلة، عندما شاهدت علياء، ابنة رياض، والدها وهو يلقي خطاباً أمام البرلمان اللبناني في سنة 1950، أدركت أنه يعيد أداء سيناريوهات تدرّب عليها جيداً مع معلّمه.

في سنة 1905، أدخل رضا الصلح ابنه رياض الكلية العثمانية الإسلامية. وهي مؤسسة شهيرة أنشأها الشيخ أحمد عباس الأزهرى في بيروت في سنة 1895. وكان الطلاب يفدون إليها من جميع أنحاء المنطقة لدراسة العلوم الدينية، والأدب العربي، وقواعد اللغة والبرهان والمنطق. أضيفت اللغة الفرنسية لاحقاً وكذلك بعض

الموضوعات الأخرى المأخوذة من المدارس الأجنبية. وقد تخرّج فيها كثير من أعضاء الجمعيات القومية العربية التي قامت في ما بعد. كتب رضا إلى زوجته، التي اصطحبت ولدها معها إلى أسوان في مصر العليا، ليُعلمها بقراره إدخال رياض إلى تلك الكلية.

عزيزتي أم رياض،

أدركت أسباب حزنك، وأخّرت إرسال ولدك رياض إلى المدرسة، ولكنني أرى أن ذلك لا يمكن أن يستمر. س يلتحق ابننا الصغير بالكلية العثمانية. إنها مدرسة ممتازة، ويمكن الحكم على ذلك أن اليسوعيين يقبلون تلامذتها من دون امتحان خاص. مديرها هو الشيخ أحمد عبّاس، الذي كان أستاذاً في المدرسة الوطنية. وسيكون بمثابة الأم والأب لولدك رياض.

لا تخافي بهذا الخصوص، وتذكرّي أنه كلما أردت رؤية ابنك فسيُرسل إليك مع مبعوث خاص يتركه عندك بضعة أيام قبل إرجاعه إلى المدرسة. سيعدك الشيخ بأن لا يُسمح لأحد بزيارة رياض أو أخذه خارج المدرسة حتى بأوامر من جدته أو عمته.

الإمضاء

حسن رضا

أمضى رياض بعد ذلك مدة قصيرة في مدرسة العازارية في عينطورة في جبل لبنان - وهي أول مؤسسة فرنسية للتعليم العالي في لبنان، وقد أنشئت في سنة 1734 - قبل أن يمضي بضع سنوات في الكلية اليسوعية في بيروت، حيث أتقن الفرنسية واكتسب المعرفة بالديانة المسيحية. يقال إنّ صورة العذراء الباكية سقطت ذات يوم في قاعة الطعام في الكلية من كتاب الصلاة لطالب زميل، شارل قرم⁽¹⁾، اتفق أنه كان يجلس بقربه. فالتقطها رياض وتأثر بالصورة ورغب في معرفة المزيد، وتعلّم ما يكفي لربح الجائزة الأولى في الإجابة عن أسئلة ملخص تعاليم الدين! ولكنه تمرّد أيضاً على التعاليم الدينية التقيّفية التي لا تلائم طبيعته. كان الآباء في المدرسة يلبسون أردية

(1) أصبح شارل قرم (1895-1963) المدافع الأول عن الهوية اللبنانية المسيحية. أسس "المجلة الفينيقية" *Revue Phénicienne* ونشر ثلاثة دواوين شعرية مجمداً مزايا جبل لبنان.

سوداء ويعلمون الأولاد التواضع ونكران الذات والابتعاد عن كل المتع الحسية واللذات الدنيوية. بالمقابل، كان رياض يُقبل على الحياة فاتحاً ذراعية وينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي يغادر فيه المدرسة.

كان منزل العائلة في ميناء الحصن يقع بالقرب من المتنزه البحري لمدينة بيروت، حيث تنتشر النساء جيئة وذهاباً في عربات مكشوفة للمسيحيات وعربيات مغطاة بالستائر للمسلمات. وفي أيام الأحاد، يخرج تلامذة اليسوعية في نزحات طويلة ويتوقفون للراحة على صخور الشاطئ أسفل الطريق. وهناك كانت نظيرة الصلح تنظم الألعاب وتقدم الطعام إلى رياض ورفاقه. وذات مرة استطاعت أن تجمع خمس أو ست آلات أورغ برميلية لعزف الألحان الرائجة. وفي مناسبة أخرى جمعت ثمانية من "صناديق الفرجة" لتسلية الأولاد، بينما كان خدامها يوزعون الوجبات الخفيفة التي يسهل تناولها بمقدار ما تسهل تحببها. وكان رياض ينجح دائماً في مغافلة المراقبين بضع دقائق ليعانق والدته، ويطلب منها برنامج تسلية جديداً للأحد القادم.

بقي رياض قريباً جداً من والدته طوال حياته. وعندما أصبح رجلاً ناضجاً، ظلَّ يقبل يدها كل يوم وينتظر بركتها. وكان يستأذنها كلما أراد أن يخرج من البيت، بصرف النظر عن عدد مرات خروجه. وعندئذ كانت تضع يدها على كتفه وتسأله إذا كان سيخرج باتجاه اليمين أو اليسار. وعندما يعلمها بأي اتجاه سيسير، تقف خلف المشربية في الطابق الثاني من المنزل وتتلو آية الكرسي:

«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ».

ثم تنفخ ببطء حتى يحمل نفسها العناية الإلهية باتجاه ابنها لتحيطه بالحماية. كانت تكبره بسبع عشرة سنة فقط. وعندما توفيت في أوائل سنة 1951، لم يشعر رياض بفداحة الخسارة فحسب، بل كان مقتنعاً أن الحظ فارقته. لا شك في أن شعوره كان في محله، فلم تمضِ على وفاتها ثلاثة أشهر حتى اغتيل.

كانت الوفاة المبكرة أو الإعاقة التي أصابت أخويه وأختيه، تعني أن رياض الصلح نشأ كأثمة ولد وحيد. توفيت شقيقته بلقيس التي تزوجت من ابن عمها سامي الصلح في عمر الخامسة والعشرين. أما شقيقته علياء فقضت بداء السل في الثامنة عشرة تاركة وراءها مجموعة من القصائد غير المنشورة. وأصيب شقيقه درويش بالإعاقة بعد مرضه بالتهاب السحايا في طفولته. لذلك كانت كل آمال العائلة معقودة على رياض. ومن الواضح أن وجود والدته التي أغدقت عليه الاهتمام، وعززت ثقته بنفسه، ودعمته بحبها كان ذا أهمية حاسمة في تطوره. وكذا تحدّره من عائلة من الموظفين الحكوميين والسياسيين والكتاب والشعراء. لم يكن في آل الصلح رجال أعمال أو أطباء أو مهندسون أو معماريون. لذا فإن نشأته في مثل هذه البيئة جعلت الخدمة العامة الخيار الواضح أمامه.

الفصل الثالث

التعلم في ظل الثورة

وصل آل الصلح إلى إستانبول في نهاية صيف 1908، أي بعد عدة أسابيع من انتهاء ثورة 23 تموز/يوليو على حكم السلطان عبد الحميد. كان رياض في الرابعة عشرة من عمره. وشكّل السفر إلى عاصمة الإمبراطورية في أثناء تلك الفوضى الثورية مصدر قلق لوالديه، رضا الصلح، النائب المنتخب حديثاً عن بيروت، وزوجته نظيرة. ساد المدينة جوّ من الاضطراب والهياج، مع أنه لا يمكن أيضاً إنكار تراجع العنف وانعدام الأمن. بقي السلطان، الذي عمّل رضا الصلح في خدمته طيلة حياته العملية، في قصر يلدز، لكن انتزع كثير من صلاحياته من قبل الانقلابيين الأتراك الذين لا تعرف أصولهم على وجه اليقين ولديهم نيات دخيلة. فمن أهداف ثوار تركيا الفتاة إحلال نظام دستوري برلماني على النموذج الغربي محل حكم السلطان المطلق⁽¹⁾. بدا ذلك بالنسبة إلى الكثيرين كأنه قفزة في المجهول. فمثل هذا التغيير الجذري لا يمكن أن يحدث من دون آلام أو بين ليلة وضحاها. لذا كان لا بد من فترة انتقالية تسودها الفوضى حيث قاتل النظام الجديد لتثبيت أقدامه، فيما رفض النظام القديم الاعتراف بالهزيمة وتابع التآمر والتخطيط لإعادة نظام السلطنة.

كانت المدينة التي اكتشفها آل الصلح في أوائل القرن العشرين عاصمة مكتظة بالسكان، تعدّ نحو 900,000 نسمة. وكان شارع بيرأ الرئيس فيها، يطلق عليه اليوم اسم جادة الاستقلال، مليئاً بالفنادق والمسارح والمتاجر العصرية واستديوهات التصوير والسفارات الأجنبية، وجميعها بنيت بأساليب معمارية مختلفة، تتراوح بين الكلاسيكية

(1) اعتمدت على تسلسل الأحداث في هذا الفصل على Aykut Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey, 1908-1913*, (Leiden 2000); Hasan Kayali, *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism and Islamism in the Ottoman Empire, 1908-1918*, Berkeley 1997; and on Feroz Ahmad, *The Young Turks*, Oxford, 1969.

الجديدة والروكوكو والفن الحديث⁽¹⁾. لكن ثمة إستانبول أخرى - مفرطة الازدحام، تفوح منها الروائح الكريهة وتحتاحها الحرائق باستمرار. هناك، كان يمضي الفلاحون النازحون من الريف إلى المدينة حياتهم البائسة، ويعيشون على الصدقات أو الطعام الذي يقدم في المساجد. وانضم إليهم اللاجئون المعدمون الآتون من البلقان وروسيا. بما أن رضا الصلح نشأ في بيروت، الميناء التي تحولت إلى حاضرة عالمية تضج بالحياة في أواخر القرن التاسع عشر، فقد كان مطلعاً على الأفكار الغربية، والمدارس الإرسالية، والتجارة والقناصل الأجانب الذين ساهموا في نمو اقتصاد المدينة. لذا فإنه كان مراقباً ناقداً للوضع العثماني. واستفاد من تجربته المباشرة في العديد من الولايات فاطلع عن كثب على مقدار تدهور الحكم العثماني في عهد عبد الحميد، والركود والتخلف الذي أصاب الإمبراطورية مقارنة بالاجتماعات الأوروبية. فاعتقد في بادئ الأمر أن الثورة التركية تطوّر واعد؛ إلى أن دفعته الأحداث إلى تغيير رأيه لاحقاً.

تركيا الفتاة تقتحم مسرح الأحداث

لم يكن أعضاء تركيا الفتاة قوميين أتراكاً بالمعنى الحرفي؛ أو على الأقل لم يكونوا كذلك بعد. فالجمعية السرية التي شكّلوها في سالونيك باسم "جمعية الاتحاد والترقي" لم تكن تقتصر على الأتراك. فقد كتب المؤرخ البريطاني ر. و. سيتون واتسون R.W. Seton-Watson في كتاب نشر عام 1917، أي بعد أقل من عشر سنوات على حدوث الثورة، "منذ البداية، لم تكد تجدد أحداً بين قادتها الحقيقيين من أصول تركية صافية"⁽²⁾. كان معظم المنتمين إلى تركيا الفتاة من المسلمين العثمانيين. بمن فيهم الألبان والشركس، بالإضافة إلى اليهود والدوغة (اليهود الذين اعتنقوا الإسلام)، والبلغاريين المسيحيين والأرمن واليونانيين. وكان معظم قادتها من الماسونيين. وجاءت ثورتهم تتويجاً لسنوات من التحريض شبه السري والتخطيط، لاسيما في باريس

(1) Georgeon, *Abdülhamid II*, p. 333.

(2) Robert Wilson Seton-Watson, *The Rise of Nationality in the Balkans*, London 1917, pp. 135-6, quoted in Zeine, *Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism*, Beirut 1958, p. 77.

والقاهرة، بغية كبح الصلاحيات المطلقة للسلطان وتجنب دمار الإمبراطورية الذي خشيت تركيا الفتاة حدوثه. وقد رفعوا شعارى "الحرية" و"الدستور"⁽¹⁾. حدثت نقطة التحول الحاسمة عندما انضم إلى تركيا الفتاة عدل السلطان، داماد محمود جلال الدين باشا صاحب الثروة والجاه. وأصبح ابنه الأمير صباح الدين من المنظمين الرئيسيين لأول مؤتمر لتركيا الفتاة في سنة 1902 في باريس. كان يوجد في ذلك الوقت تياران أساسيان في الحركة. الأول بقيادة صباح الدين، وقد دعا إلى إجراء تغييرات جذرية في المجتمع العثماني، عن طريق اللامركزية والتجارة الحرة. والثاني بقيادة أحمد رضا بك، وقد اجتذب إلى صفوفه ضباطاً عسكريين طموحين، وبدا بوضوح أنه قومي تركي لا يطبق العثمانية، شكّل القوة الرئيسية خلف المؤتمر الثاني لتركيا الفتاة في سنة 1907. كان الهدف الرئيسي لهذا المؤتمر توحيد المعارضة في مواجهة نظام السلطان⁽²⁾. دعا هؤلاء الراديكاليون إلى التمرد المكشوف على السلطان لإنقاذ الإمبراطورية من الطغيان و"القوى الحاقدة الجشعة التي تقبض عليها"⁽³⁾. فقد أغضبتهم سيطرة القوى الأوروبية على اقتصاد الإمبراطورية واستغلاله، حيث تخضع سوق الأسهم في إستانبول للسيطرة الأجنبية، وكذلك خطوط الشحن الأساسية، وشركات التأمين ومنشآت الاستيراد والتصدير. وكانت إدارة الدين العام العثماني والبنك الإمبراطوري العثماني الجهتين الرئيسيتين المسؤولتين عن السيطرة المالية الأجنبية. كما أن الامتيازات الأجنبية الكريهة - التي تُذكر باسمها ونطاقها بتلك التي فرضها الملوك الكاثوليك على مسلمي الأندلس المهزومين - قيّدت السيادة العثمانية وكبّلتها. ومنحت امتيازات واسعة للأوروبيين وربائبهم المحليين وللطوائف المسيحية التي يحميها القناصل الأجانب.

انتشرت الأفكار الثورية في ولايات الإمبراطورية النائية، عن طريق الضباط والمسؤولين والطلاب المعارضين الذين نفى عبد الحميد مجموعات كبيرة منهم إلى الحجاز واليمن وشرق الأناضول، بل حتى إلى صحراء فزان في ليبيا التي كانت

(1) للاطلاع على تقييم علمي لتركيا الفتاة، انظر Erik J. Zürcher, *Turkey: A Modern History*, London 1993.

(2) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 44.

(3) Zeine N. Zeine, *Arab-Turkish Relations* p. 63.

للسلطان بمثابة "سييريا صحراوية"⁽¹⁾. وساد شعور بالتململ في أوساط القوات في كل أنحاء الإمبراطورية. فشهدت سنوات ما قبل الثورة مباشرة تمرّدات متكررة للجيش ناجمة في الغالب عن إرسالهم للقتال والموت من دون جدوى في مناطق موحشة، وفوق ذلك تحتجز رواتبهم. ففي سنة 1907 مثلاً، ثار أكثر من ألف جندي لدى عودتهم من اليمن إلى بيروت، فاحتجزوا الحاكم العثماني، وأمين الصندوق، والقائد العسكري المحلي ولم يوافقوا على إطلاق سراحهم إلا بعد تسلّم رواتبهم المتأخرة. كانت التقاليد العثمانية تدلّل الضباط، لكنها تعامل الجنود بقسوة. ففي تموز/يوليو 1908 كانت الإمبراطورية تضم 50,000 ضابط و250,000 عسكري، أي ضابط لكل خمسة جنوداً وقد مُنح كثير من الضباط في الجيش رتبهم بسبب حظوتهم لدى السلطان وقرابتهم إليه بغضّ النظر عن كفاءتهم أو حاجة المؤسسة العسكرية الفعلية إلى خدماتهم⁽²⁾.

عند اعتلاء عبد الحميد العرش في سنة 1876 وهو في الثالثة والثلاثين، أقنعه الصدر الأعظم مدحت باشا، باعتماد دستور للسلطنة ودعوة البرلمان إلى الاجتماع. ونصحه بمنح حكام الولايات قدراً أكبر من الاستقلال الذاتي، واستكمال الإصلاحات الجذرية التي أدخلها السلطان عبد المجيد الأول في سنة 1839، ثمّ وسعها في سنة 1865، واشتهرت باسم "التنظيمات". سعت هذه الإصلاحات إلى إعادة تشكيل المؤسسات العثمانية على النموذج الغربي، لاسيما العلاقة بين السلطان وبيروقراطية الدولة، بالإضافة إلى المساواة بين جميع الرعايا العثمانيين من دون تمييز عرقي أو ديني.

قَبِلَ عبد الحميد نصيحة مدحت باشا إلى حدّ كبير لأنه يواجه خطر حرب وشيكة مع روسيا. وربما تصوّر أنه باعتماد دستور وتشكيل برلمان يكسب مكاناً بين ملوك أوروبا المتنوّرين، ويعزل القيصر ويتفادى نزاعاً يلوح في الأفق. لذا عندما اجتمع البرلمان العثماني في 18 آذار/مارس 1877، بدا كأنّ عصراً جديداً قد بدأ، تُحكم فيه الإمبراطورية بواسطة ثلاث قوى متوازنة تقريباً، وهي السلطان والبرلمان وبيروقراطية الباب العالي. لكن وقعت الحرب مع روسيا، وسرعان ما صدّت الهزيمة العثمانية المنكرة في 1877-1878 عبد الحميد عن أي توجه ديمقراطي. فاختر أن ينظر

(1) Georgeon, *Abdülhamid II*, p. 159.

(2) Muçafir, *Notes sur la Jeune Turquie*, Paris 1911, p. 26.

إلى الكارثة كدليل قاطع على فشل التنظيمات. وتخلّص من القيود المعتمدة حديثاً على صلاحياته المطلقة، وحل البرلمان في 14 شباط/فبراير 1878، أي بعد أقل من سنة من انعقاده، ونفى النواب الأكثر جرأة في التعبير عن آرائهم عن إستانبول. بعد سحق التجربة الديمقراطية الوجيزة، شرع السلطان في تعزيز حكمه الشخصي بمساعدة جيش من الجواسيس وحكم إداري يدين بالولاء له وحده. مع ذلك استمرّ مثال النظام الدستوري في عقول الرجال طوال ما تبقى من سنوات حكم عبد الحميد المطلق.

وفي 23 تموز/يوليو 1908 ثار قادة تركيا الفتاة وحلفاؤهم العسكريون في موناستير Monastir باسم البرلمان والدستور. وسرعان ما هبّت المدن الأخرى دعماً لهم. أرسلت برقيات صارمة إلى السلطان (كان مكتب التلغراف في سالونيكاً بإدارة طلعت بك، أحد الوجوه البارزة في تركيا الفتاة) تحذّره من أن الجيش الثالث سيحتاج العاصمة لم تتم إعادة العمل بدستور 1876. وحمل مزيد من البرقيات الأخبار إلى المدن في مختلف أنحاء الإمبراطورية. ولما كان عبد الحميد يخشى من الاغتيال، ولا يغيب عن باله مصير السلطان عبد العزيز (سلفه قبل المباشر) الذي قُتل في انقلاب دبره ضباط الجيش وبعض رجال القصر المدنيين المؤيدين لإصلاحات التنظيمات، فقد وافق مكرهاً على عودة رجال تركيا الفتاة إلى العاصمة. كما وافق على إعادة العمل بالدستور الذي علّقه قبل ثلاثين عاماً.

شرع رجال تركيا الفتاة بتنظيم انتخابات برلمانية فور إحكام سيطرتهم على إستانبول. وتعهّدوا بإحلال نظام برلماني دستوري محل حكم عبد الحميد الاستبدادي. وأعلنوا أن كل رعايا الإمبراطورية، أياً كانت عرقهم أو دينهم، "مواطنون من الدرجة الأولى" متساوون في الحقوق كما في الواجبات، مثل دفع الضرائب، والخدمة في الجيش. لم تعد هناك امتيازات للأقليات أو الأجانب أو الأشخاص الآخرين الذين يتمتّعون بالحرّية. كان مثلهم الأعلى إنشاء دولة مركزية حديثة موحّدة ومتعددة الثقافات، قادرة على حماية الإمبراطورية من الانتهاكات الخطيرة للقوى الأوروبية. لقيت ثورة 1908 ترحيباً حماسياً واسعاً في جميع أنحاء الإمبراطورية، وفتحت الأبواب أمام تدفّق التعبير عن الاعتداد بالنفس. فاحتفل المسلمون والمسيحيون واليهود في جميع المدن الكبرى بنهاية الاستبداد العثماني. وظهرت التجمعات السياسية الإسلامية

واليونانية والأرمنية، وتشكّلت أولى الاتحادات العمّالية والجمعيات النسائية، وأُطلق سراح السجناء السياسيين ورفّعت الرقابة، ووجد جواسيس القصر ومخبروه أنفسهم مجبرين على الحرب والاختباء. وعاد العديد من المنفيين الذين أبعدهم السلطان إلى ديارهم.

كان الشعور الجديد بالحرية أكثر ما يميّز هذه الحالة الجديدة. فأضرب عمّال تحميل السفن وتفرغها وموظفو شركة الغاز في بيروت، كما توقّف عمّال سكة حديد دمشق - حماة، عن العمل مطالبين برفع أجورهم وتحسين ظروف العمل⁽¹⁾. وعقدت اجتماعات سياسية لا عدّ لها، فيما جرت نقاشات لاذعة في أعمدة الصحف الصاخبة، وصدر في بضعة أشهر ما لا يقل عن 353 مجلة وصحيفة⁽²⁾، بالإضافة إلى خمس وثلاثين أخرى في سوريا كما نشر في بيروت نحو ضعف هذا العدد في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى⁽³⁾.

نائب في مجلس المبعوثان العثماني

كان رضا الصلح في سنته الأولى في إستانبول لا يزال شاباً نسبياً في السابعة والأربعين من العمر⁽⁴⁾، على الرغم من اعتلال صحّته. وقد أُحيل إلى التقاعد بعد ثمان وعشرين سنة في الخدمة العثمانية، بما في ذلك خمس سنوات تولّى فيها منصب متصرف، وعاد إلى لبنان ليُنتخب عضواً في البرلمان العثماني - مجلس المبعوثان الذي عاود الاجتماع حديثاً، كأحد نائبين عن بيروت. كان النائب الآخر الوجيه كامل الأسعد، رأس إحدى أبرز العائلات السياسية المالكة للأراضي في جنوب لبنان، وهي من قرية الطيبة ومقلهم تبين. كان آل الأسعد من الموالين للحكم العثماني، وقد شغل خليل بك، والد كامل بك، منصب متصرف نابلس. عاش آل الصلح وآل الأسعد جنباً إلى جنب لأجيال، على وئام حيناً وتنافس وخصام أحياناً.

(1) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 59.

(2) المصدر نفسه، ص 53.

(3) Rashid Khalidi, 'Abd al-Ghani al-Uraisi and Al-Mufid' in Marwan R. Buheiry (ed.) *Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939*, Beirut 1981.

(4) أو 45، إذا كنا سنوافق على تصحيح تاريخ ميلاده كما ورد في الأرشيف العثماني. انظر الحاشية 4 في الفصل الأول.

أقام آل الصلح في الحي السكاني الجديد شمال "ساحة تقسيم" كسائر النخبة في إستانبول، وكان يقطنه في ذلك الوقت الأوروبيون والأتراك الأغنياء والعرب المشرقيون والأرمن واليونان واليهود. في بداية القرن الماضي، كان هذا المجتمع العالمي، الذي يتحدّث الفرنسية بمعظمه، يضمّ الباشوات والبكوات والدبلوماسيين الأجانب والتجار الأغنياء وكبار المسؤولين والضباط الذين يجتمعون في النوادي ويشاهدون المسرحيات الفرنسية ويستمتعون بالسينما، الصرعة الجديدة في ذلك الوقت. لكن لم يعد أحد واثقاً مما يخبّئه المستقبل.

بحوار آل الصلح، سكن عزمي بك، أصبح في ما بعد الحاكم العثماني في بيروت خلال الحرب العالمية الأولى. ونشأت صداقة بين أولاد الأسرتين عبر حائط الحديقة حيث شكّلت أغصان شجرة ليمون موقعاً مرتفعاً مفيداً. وسرعان ما أغرم الشاب رياض بممدوحة، ابنة عزمي بك المراهقة، وأخذوا يتبادلان الرسائل السريّة المكتوبة على ورق يلفّ حول ليمونة ويرمى من جانب الحديقة إلى الآخر. كان رياض يتسلّق الجدار بجمرة ليختبئ في بعض الأحيان مع حبيبته تحت درج بيتها. وفي أحد الأيام، تعرّض عزمي بك، الذي كان يعاني من الربو، لنوبة أشدّ من المعتاد. ولما كان رياض في المنزل في ذلك الوقت، فقد أسرع لاستدعاء الطبيب، وأنقذت حياة البك في الوقت المناسب. (سيكون لهذه الحادثة أهمية كبيرة في وقت لاحق)⁽¹⁾.

لم يُنتخب نواب مجلس المبعوثان الأول في 1877 عن طريق التصويت الشعبي، بل ستمتّهم المجالس الإدارية في مختلف الولايات. لكن بموجب قانون الانتخابات لسنة 1908، انتُخب النواب بالاقتراع على مرحلتين. في الاقتراع الأول، انتخب المواطنون الذكور من دافعي الضرائب فوق سن الخامسة والعشرين الناخبين الثانويين، الذين انتخبوا بدورهم نواب البرلمان، بحسب العدد المحدد لكل سنجق. لم تكن هذه العملية الانتخابية أمراً مألوفاً بالنسبة إلى رضا الصلح، بل عالماً جديداً من الأحزاب السياسية والاجتماعات العامة والحملات الصحافية، بالإضافة إلى المناقشات البرلمانية العاصفة.

أجريت تغييرات كبيرة في المناصب الرفيعة للبيروقراطية العثمانية. فطُرد نحو 3000 مسؤول عثماني بحلول منتصف آب/أغسطس، واستُبدل جميع السفراء وحكّام

(1) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 6 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

الولايات خلال عشرين شهراً. وصُرف الكثير من الأشخاص الذين عرفهم رضا أو تواصل معهم خلال سنين عمله الطويلة.

واجه عدد من العرب الذين شغلوا مراكز بارزة في قصر يلدز أو حوله الكثير من الصعوبات. قبض الثوار على نجيب باشا ملحمة، وهو ماروني من لبنان، والرئيس غير الرسمي لشرطة السلطان السرية والمسؤول عن أمن عبد الحميد الشخصي، وهو يحمل وثائق سرية وما لا يقل عن 63,000 ليرة عثمانية نقداً. وكان السوري عزت باشا العابد، أمين السر الثاني للسلطان، والمستشار المقرب منه، ورئيس كتاب العربية في الباب العالي⁽¹⁾. بعد أن تعلّم اللغتين العربية والفرنسية وأتقنها في مدارس الآباء العازارين، استدعي للعمل في خدمة السلطان في سنة 1895. واكتسب على مرّ السنين نفوذاً كبيراً، وترأس عدة لجان في القصر. كما كان الوسيط الرئيسي بين السلطان والشخصيات البارزة في الولايات العربية. بمن فيهم عائلات دمشق البارزة التي ينتمي إلى إحداها. وقد حتمّ ذلك تعامله طويلاً مع رضا الصلح. ولكنه هرب إلى خارج البلاد عندما استولت تركيا الفتاة على السلطة. لم يكن ذلك فالاً حسناً على النواب العرب مثل رضا، أو المسؤولين العرب الذين لا يزالون في مناصبهم، وسيستبعد كثير منهم عما قريب.

يُذكر عزت باشا اليوم للدور الرئيسي الذي لعبه في إنشاء سكة حديد الحجاز؛ وهي خط بطول 2000 كيلومتر أحدث ثورة في الرحلة بين دمشق والمدينة المنورة. فقد شكّلت الطريق عبر سوريا صلة الوصل المهمة بين إستانبول والمدينتين المقدستين في شبه الجزيرة العربية على مدى قرون عديدة. وكانت الطريق المفضّل لأعضاء أسرة السلطان وكبار المسؤولين العثمانيين والتجار، وللحجاج الذين يقصدون الديار المقدسة للحج سنوياً. قبل بناء سكة الحديد، كان الحجاج يعانون من رحلة برية شاقة تستغرق 40 يوماً. وغالباً ما يتعرضون للكمان والسرقة التي تقوم بها القبائل السلاية. لذا اضطر السلاطين العثمانيون إلى بذل جهود كبيرة في تنظيم قافلة الحج وحمايتها⁽²⁾. وكان عزت باشا قد شهد في شبابه في دمشق الصعوبات التي يكابدها الحجاج في

(1) Georgeon, *Abdülhamid II*, pp. 364-5, 387.

(2) Elizabeth Sirriyeh, *Sufi Visionary of Ottoman Damascus: 'Abd al-Ghani al-Nabulsi*, 1641-1731, London 2005, p. 39.

الذهاب إلى مكة، والمشكلات التي تواجهها السلطات العثمانية في نقل القوات والمؤن إلى الحجاز. وفي وقت لاحق درس الطريقة التي اتبعها الروس في بناء سكة الحديد عبر سيبيريا واستفاد من دروسها. وبناء على إلحاحه، أصدر السلطان أمراً ببناء السكة الحديدية في 2 أيار/مايو 1900.

اقترح عزت باشا فكرة تمويل المشروع من تبرعات المسلمين في كل أنحاء العالم. تعهّد السلطان بتقديم 45,000 جنيه إسترليني من ماله الخاص. ويحتوي أرشيف الصدر الأعظم في إستانبول اليوم على ستة مجلدات تضم أكثر من 20,000 اسم، ما يشهد على نجاح حملة التبرعات⁽¹⁾. ويتوفّر وسيلة أسرع وأكثر أمناً وأقل تكلفة للسفر إلى الحجاز، تمكّن السلطان عبد الحميد من إظهار ثقاه واهتمامه بالأماكن المقدسة. واكتسب مكانة سياسية بمجارة الإنجازات الصناعية الأوروبية بمشروع كبير خاص به. في سنة 1908 وصلت سكة الحديد إلى المدينة المنورة حيث افتتحت المحطة في الأول من أيلول/سبتمبر⁽²⁾. غير أن تركيا الفتاة كانت قد استولت على السلطة في ذلك الوقت، فأثر عزت باشا المغادرة بسرعة.

كره الباشوات العثمانيون، مثل عزت باشا، ووجهاء النظام القديم الآخرين المشهد السياسي الجديد وغير المألوف. ولم يكن لديهم خبرة في الحياة السياسية سوى المناورة للحصول على السلطة والنفوذ داخل بيروقراطيات الباب العالي والقصر. فتعهّدوا منذ اليوم الأول تقريباً بإسقاط نظام تركيا الفتاة الاتحادي. ومع أن سيطرتهم استمرت على مجلس الشيوخ في البرلمان الجديد، فقد شغل المجلس الأدنى "رجال جدد" - ألبان وعرب وسلافيون وأرمن ويونانيون ويهود يتوقون إلى إسماع أصواتهم في مناخ الحرية الجديد، على الرغم من إعلائهم الولاء للسلطان والخلافة الإسلامية. على سبيل المثال، أراد اليونانيون والأرمن أن تصبح لغاتهم من لغات الدولة.

إلى جانب رضا الصلح، قدم إلى إستانبول لافتتاح مجلس المبعوثان في سنة 1908 نوّاب عرب من بينهم نافع باشا الجابري، نائب حلب وابن مفتي المدينة. وقد شغل

(1) James Nicholson, 'The Hejaz Railway', *Journal of the Society for Asian Affairs*, 37 (1), November 2006, p. 322.

(2) للاطلاع على رواية مفصلة انظر W. Ochsenwald, *The Hijaz Railway*, Charlottesville, VA, 1980.

عضوية البرلمان العثماني في سنة 1877 قبل ثلاثين عاماً، وهو لا يزال في العقد الثالث من عمره، ليصرف إلى دياره عندما علق السلطان العمل بالدستور. وكان النائب الوحيد من برلمان 1877 الذي جلس في برلمان 1908، ما منحه وزناً ومكانة مميزين⁽¹⁾. وقد بادر إلى تشكيل مجموعة برلمانية عربية ترمي إلى الحصول على تمثيل نسبي للعرب في البرلمان الجديد وبيروقراطية الدولة⁽²⁾. وبعد عدة سنوات من وفاة الجابري، تزوج رياض الصلح من ابنته فائزة في سنة 1930.

ومن زملاء رضا الصلح العرب أيضاً عبد الحميد الزهراوي، وهو ابن عائلة دينية في حمص. رجع إلى دياره بعد سفره إلى القاهرة وإستانبول عند إعادة العمل بالدستور، حيث انتُخب نائباً عن حمص في البرلمان العثماني⁽³⁾. كما كان من بين زملائه الآخرين ثلاثة نواب من دمشق، جميعهم من عائلات معروفة: شفيق مؤيد العظم، ورشدي الشمعة، وعبد الرحمن اليوسف. لكن اشتبه أن اليوسف، وهو تاجر غنم ومالك أراضٍ كردي ثري، موالٍ للفرنسيين ومعاد للعرب، وهو ما تبين صحته لاحقاً، فهُزِمَ في الانتخابات الفرعية في سنة 1911 في دمشق أمام شكري العسلي، الذي انتقل عندئذٍ إلى إستانبول وانضم إلى النواب العرب.

وجدد رضا الصلح في إستانبول جالية عربية كبيرة، يبلغ تعدادها عدة آلاف، وتتكوّن من طلاب ومسؤولين ورجال أعمال وضباط. وفي أيلول/سبتمبر 1908، أنشأ العديد من هؤلاء العرب جمعية الإخاء العربي العثماني، فأقامت حفلاً كبيراً صاحباً ترحيباً بالنواب العرب⁽⁴⁾.

لكن خلف واجهة الابتهاج الكبير، ساد كثير من القلق والترقب لدى النواب العرب بشأن ما يمكن أن تعنيه نتائج ثورة تركيا الفتاة في الواقع. فتوخّوا الحذر في بادئ الأمر وفضلوا مراقبة اتجاه الرياح السياسية. ولكنهم شعروا منذ البداية بأنهم لم يعطوا نسبة عادلة من التمثيل. فمن مجموع 288 نائباً في المجلس، حصل العرب على

(1) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 27.

(2) المصدر نفسه، ص 70.

(3) Ahmad Tarabein, 'Abd al-Hamid al-Zahrawi: The Career and Thought of an Arab Nationalist', in Rashid Khalidi et. al. (eds.), *The Origins of Arab Nationalism*, New York, 1991.

(4) Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 67.

60 نائباً مقابل 147 نائباً تركيا. وعلى الرغم من أن العرب في الإمبراطورية أكثر عدداً من الأتراك، فقد بقي عددهم في المجلس ونفوذهم ضعيفاً جداً. وأصبح ذلك مصدر ألم دائم. ومن بين جميع المناصب الوزارية المتاحة، لم يُمنح العرب سوى وزارة الأوقاف ذات النفوذ السياسي الضئيل، إذا كان لها نفوذ أصلاً.

كانت مشكلة العرب الرئيسية في تلك الأوقات التي تكتنفها الريبة عدم وجود صوت مسموع لهم في إستانبول. وقد تغيّر ذلك الواقع تدريجياً مع مجيء نظام برلماني ملائم، حيث تمكّن العرب عندئذ من المشاركة في الحياة السياسية للعاصمة العثمانية لأول مرة. ومن المفارقة أن البرلمان العثماني منحهم فرصة كافية للتعبير عن شكواهم كعرب، والنضال من أجل قضاياهم الخاصة. ومن القضايا الرئيسية التي شغلتهم آنذاك: عدم إعطائهم الفرصة العادلة لتولّي مناصب مهمّة؛ وإحلال اللغة التركية محل اللغة العربية، التي حظيت تقليدياً بتقدير العثمانيين إن لم يكن إجلالهم، باعتبارها لغة القرآن؛ وتساهل قيادة جمعية الاتحاد والترقي بشأن الاستيطان الصهيوني في فلسطين، بل بدا أنها تحبّذه سراً.

عُقدت أول جلسة للبرلمان في 17 كانون الأول/ديسمبر 1908⁽¹⁾. ضجّت إستانبول بالحركة في ذلك الصباح. اصطفت الجنود على الطرقات، وانتشر الفرسان وضباط الصف بيدلاتهم الزاهية عند تقاطع الطرقات. واندفعت الجماهير المبتهجة إلى المدينة عبر الجسور فوق القرن الذهبي. وانتظر حارس شرف أمام مبنى البرلمان في ظلّ مسجد آيا صوفيا. كان رياض ووالدته نظيرة هناك يرافقهما بعض الخدم. في صبيحة ذلك اليوم غمرت الفرحة آل الصلح، عندما أُقِلّ رضا إلى البرلمان، بعد ارتدائه لباسه الرسمي لهذه المناسبة.

قرر السلطان، بعد تردد كبير، حضور مراسم الافتتاح. فحيتّه الجماهير الموالية بالغناء والحتاف عند وصوله في العربة الملكية في الساعة 12:30 يرافقه ابنه الأمير برهان الدين والصدر الأعظم. وحلّت الراية السلطانية محل العلم التركي فوق البرلمان. جلس السلطان، مرتدياً زياً عسكرياً بسيطاً، على منصة مواجهة لمثني نائب يرتدون معاطف

Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, pp. 24-28; Georgeon, *Abdülhamid II*, (1) pp. 415-416; *The Times*, 18 December 1908, 'Opening of Parliament by the Sultan: Scenes in Stambul'.

سوداء ويعتَمرون طرايش حمراء - وهي مجموعة كنيية قلّت من راتبها عمائم علماء الدين البيضاء والخضراء والبدرات الزرقاء لنحو اثني عشر نائباً من العسكريين. وإلى أقصى اليمين جلس أعضاء مجلس الشيوخ: المارشالات والجنرالات بلباسهم الرسمي الكامل، بالإضافة إلى الوزراء الذين ارتدوا السترات المطرزة بخيوط الذهب.

وقف علي جاويد، أمين السر الأول للسلطان، لقراءة الخطاب السلطاني الذي أعلن فيه السلطان أن الدستور من عمله وأنه علّق العمل به سابقاً تبعاً لنصيحة المسؤولين الذين اعتبروا أن الشعب ليس لديه النضج لتقبّله. أما وقد انتشر التعليم الآن بفضل المدارس التي أنشأها بنفسه، فمن الطبيعي أن يقرر إعادة دعوة مجلس المبعوثان للانعقاد! وقد علّق مؤرخ تركي أن ذلك كان "بالتأكيد أغرب تبرير يقدمه مستبد عن أسباب قمع الحرية"⁽¹⁾. وختم بالتأكيد على نيته "المطلقة وغير القابلة للتغيير" بالمحافظة على الحياة الدستورية، فصقّ النواب عندئذ وأقسموا بيمين الولاء له وللدستور. تبع هذا التصريح تحية من مئة طلقة نارية. وتعالّت هتافات الجماهير حينما عزّفت الفرق المجتمعة النشيد الدستوري. وصلت صوت مقاطع من النشيد إلى المجلس، واختلط مع المتأففات الصاخبة، عندما شق السلطان يتبعه الوزراء والنواب والسفراء طريقهم إلى خارج المبنى.

دعا السلطان جميع النواب ورضا الصلح من بينهم بعد نحو أسبوعين إلى مأدبة في قصر يلدز⁽²⁾. وقد تابع بنفسه كل تفاصيل هذه المناسبة، حيث اختار قائمة الطعام، وأمر الموسيقيين بعزف ألحان وطنية خلال المأدبة، وأشرف على تنسيق الموائد على شكل حدوة حصان ضخمة، وازعاً مقعده في الوسط تماماً. اختار السلطان الظهور بلباس رسمي، وجلس إلى يمينه الصدر الأعظم وإلى يساره عدوّه السابق أحمد رضا بك، الذي كان يرأس إحدى فئات تركيا الفتاة قبل استيلائها على السلطة، وانتخب رئيساً للمجلس بعد عودته من منفاه الطويل في باريس. تحدّث أحمد رضا بك مع السلطان بمودّة، فأخبره أنه تعلّم الطهو في منفاه بفرنسا، لأنه يفضل الطعام التركي على المطبخ الفرنسي. ألقى علي جاويد خطاب السلطان ثانية، وفيه كرّر الوعود التي أعلنها في

Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, p. 26. (1)

Georgeon, *Abdülhamid II*, pp. 416-417. (2)

المجلس. استُقبل الخطاب بتصفيق مطوّل ومُتافات "عاش السلطان". حتى إن أحد النواب ولشدة حماسته، وقف على كرسي وهتف "أهلاً بالسلطان! أهلاً بدولتنا الجديدة!" وقف السلطان احتراماً لأحمد رضا بك عندما أجاب بخطاب بليغ أن شعوب الشرق لم تعرف حجم هذا الفرح منذ قدوم الإسلام قبل ثلاثة عشر قرناً! بعد انتهاء المأدبة، انتقل النواب إلى الصالون الكبير حيث قدّمهم أحمد رضا بك إلى السلطان. قبل بعضهم يده، وحاول أحدهم تقبيل قدميه. تظاهر السلطان بالسرور بهذه بالمناسبة، على الرغم من الكراهية الشديدة التي يضرها لهؤلاء الثوريين الحديثي النعمة. أما رجال تركيا الفتاة، فقد شعروا الآن أنهم كبخوا سلطة السلطان، ولم يعودوا يعتبرونه تهديداً ومن ثم يمكنهم أن يظهروا الفروسية.

الشكاوى العربية

عاش رياض الصلح الشاب مع والديه في إستانبول بين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة (1908-1913) من عمره، وهي فترة تكوينية مهمة اكتسب فيها ثقافة سياسية جيّدة. فقرأ الانتقادات الغاضبة في الصحافة، وتابع المبارزات الخطابية في البرلمان، وأعمال التمرد، والحروب، والمؤامرات، وجرائم القتل، والثورات والثورات المضادة التي حصلت في تلك الفترة. باختصار، شهد احتضار إمبراطورية عظيمة. ولعلّ النقاشات على مائدة والده شكّلت مدرسة بحّد ذاتها. انتُخب معظم النواب العرب، بمن فيهم رضا الصلح، تحت راية جمعية الاتحاد والترقي. ولكن خلال عام واحد، ابتعد كثير منهم عنها وأصبحوا أقرب إلى المعارضة الموالية للنظام القديم.

نجم التوتر بين النواب العرب وجمعية الاتحاد والترقي عن مجموعة من الشكوك والشكاوى غير المعلنة. ولم يكن النواب العرب يثقون تماماً بقيادة تركيا الفتاة، بسبب نشوئها في المحافل الماسونية في سالونيك التي اشتبهوا بخضوعها للنفوذ الصهيوني. وكان رضا الصلح خاصة قد لاحظ دينامية المجتمع اليهودي في سالونيك خلال عمله هناك قبل بضع سنوات، وشهد بصورة مباشرة انتشار الأفكار الصهيونية في صفوفه⁽²⁵⁾. كما

(25) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

تخوَّف العرب من أن تؤدي سياسات إضفاء المركزية والديمقراطية التي اتبعتها جمعية الاتحاد والترقي إلى تقويض النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي السائد في الولايات العربية. فمعظم النواب العرب، مثل رضا الصلح نفسه، ينتمون إلى عائلات ملاّكين أو عائلات دينية بارزة طالما أدّت دور الوسيط التقليدي بين السكان المحليين والسلطات العثمانية⁽¹⁾.

بعد إصلاحات "التنظيمات" في القرن التاسع عشر، انضم هؤلاء الوجهاء إلى المجالس الإدارية والمحاكم والهيئات البلدية الأخرى للاحتفاظ بقدر من النفوذ المحلي. ففي سوريا مثلاً، سعت عائلتا العظم ومردم بك، وسواهما، إلى الحصول على مناصب إدارية عثمانية للحفاظ على مكانتها الرفيعة، وحققت مرادها. لكن أفكار جمعية الاتحاد والترقي بشأن المساواة الاجتماعية بين المواطنين، وسياستها المركزية التي تقوم على الحكم المباشر من إسطنبول، كانت تهدد موقع هؤلاء الأشخاص المهمين في الولايات ومكانتهم. وخشي الملاكون في دمشق وحماة وحلب وبيروت وجنوب لبنان، ومنهم من يملك عدة قرى بأكملها، من فقدان سلطتهم على فلاحهم. ورأى بطارقة الطوائف المسيحية المتعددة، الذين اعتادوا السيطرة على رعيّتهم، أن برنامج جمعية الاتحاد والترقي يشكّل خطراً على امتيازاتهم. وخافوا من انهيار نظام الملة الذي طالما تمتعوا به، وكان هذا النظام قد منح الطوائف غير المسلمة في الإمبراطورية حقّ إدارة شؤونها بنفسها وجعل من البطارقة قادة سياسيين مهمّين لهم مصالحهم الثابتة⁽²⁾.

كانت فكرة "القومية" في الإمبراطورية في القرن التاسع عشر، بالمعنى الأوروبي الغربي الرومانسي، لا تزال نادرة. لذا فإن الهوية السياسية لرعايا السلطان غير المسلمين هي الهوية العثمانية فقط، لكنهم يدينون بالولاء "القومي"، إذا صحّ التعبير، للملّة الدينية التي ينتمون إليها.

(1) انظر 'Ottoman Reform and the Politics of Notables' in Albert Hourani, *The Emergence of the Modern Middle East*, London 1981.

(2) Kayali, *Arabs and Young Turks*, pp. 63, 82.

مسألة اللغة العربية

لعل الشكوى الرئيسية التي حملت أبعاداً كبيرة منذ سنة 1909 تزايد اقتناع العرب بأنهم أصبحوا ضحايا التمييز الثقافي واللغوي، وأن لغتهم تواجه خطر استبدال اللغة التركية بها في النظام التعليمي، والحكم الإداري، والمحاكم. وقد حاولت جمعية الاتحاد والترقي فرض استعمال اللغة التركية العثمانية في جميع مجالات الحياة العامة (وفشلت). ويبدو أن هذه القضية، أكثر من أي قضية أخرى، دفعت بعض العرب إلى التفكير في أن عليهم الآن التحرّض للحصول على استقلال ذاتي داخل الإمبراطورية. وكان من المحتم أن يشعر العرب بشيء من التفوق الثقافي على الأتراك الذين يسعون الآن إلى تهميشهم، وبخاصة أن الوحي نزل على النبي محمد ﷺ باللغة العربية. كما أن العرب هم الذين نشروا الدين الإسلامي في العالم وأقاموا في أثناء ذلك حضارة عالمية عظيمة. وقد شكّل الارتباط العضوي للغة العربية بالثقافة الإسلامية أساس الهوية العربية حتى عند المسيحيين العرب⁽¹⁾. فالإسلام هو الذي حافظ على ترابط الإمبراطورية معاً طوال قرون عديدة، ووجد بين شعوب متباينة في أماكن واسعة الانتشار. ولا شك في أنه كان العامل الرئيسي في العلاقات العربية التركية على مدى أربعة قرون تقريباً، منذ أن هزم السلطان سليم الأول المماليك وفتح مصر وسوريا في 1516 - 1517. فجميع رعايا السلطان المسلمين "إخوة في الإسلام" - أي أنهم مسلمون قبل أن يكونوا عرباً أو أتراكاً⁽²⁾. لكن العرب تعرضوا لصدمة نفسية عظيمة، في أعقاب ثورة 1908، عندما أدركوا أن هذه المعطيات التاريخية المهمة لم تعد صالحة فحسب، بل أخذت تُعكس بسرعة أيضاً.

لم تبلغ هذه الشكاوى الكبيرة حدّ الدافع إلى الانفصال بعد. فقد بقي الرأي العربي في السنوات الأولى من البرلمان العثماني مندفعاً في اتجاه الوحدة داخل إطار الإمبراطورية. لذا لم يفكر رجال من أمثال رضا الصلح وزملائه العرب في البرلمان العثماني في انفصال العرب عن الإمبراطورية. بل تابعوا تمسّكهم بالأيديولوجية العثمانية التقليدية لدولة متعددة الأعراق والأديان، ولم يتوصّلوا في ذلك الوقت إلى تصوّر "أمة عربية" قائمة على إقليم محدّد. كل ما أرادوه مزيداً من النفوذ والاعتراف داخل نظام خبروه وجربوه.

(1) المصدر نفسه، ص 38.

(2) Zeine, Arab-Turkish Relations, pp. 29, 36-37.

خلع السلطان

وقعت مشادات لفظية حادة، منذ الأيام الأولى للبرلمان الجديد، بين النواب الموالين للسلطنة والاتحاديين، ووجدت هذه الخلافات صدى خارج المجلس في إشاعات عن مؤامرات حاكتها المعارضة وأحبطتها الشرطة. وعندما بدأ الصدر الأعظم الضعيف كامل باشا يميل نحو معسكر المعارضة، طالب الاتحاديون بتصويت فوري على حجب الثقة عنه وإسقاطه. واستبدل به حسين حلمي باشا، وهو رجل يشاطرهم اهتماماتهم. قرر رضا الصلح وأغلبية النواب العرب دعم كامل باشا على الرغم من أنهم انتخبوا تحت راية جمعية الاتحاد والترقي - وكان ذلك أول عمل مشترك يقوم به التكتل البرلماني العربي بقيادة نافع باشا الجابري.

تبين أن تلك الخطوة لم تكن حكيمة، إذ أسقط كامل باشا بالتصويت على حجب الثقة في 13 شباط/فبراير 1909. كانت غلظته الإساءة إلى الجيش الذي يوالي جمعية الاتحاد والترقي إلى حد كبير. ففي وقت سابق من ذلك الشهر، طرد وزير الحربية علي رضا باشا عقاباً له على رفض إخراج القوات الموالية لجمعية الاتحاد والترقي من إستانبول واستبدال قوات موالية للسلطان بها. وعين السلطان محله ناظم باشا، قائد الفيلق العسكري الثاني في أدرنة، وهو ضابط عربي معروف بعدائه لضباط الجمعية. لكن عندما عين حسين حلمي باشا - المرشح الذي تفضله جمعية الاتحاد والترقي - في منصب الصدر الأعظم، فإنه عمد على الفور إلى طرد ناظم باشا وإعادة تعيين علي رضا باشا وزيراً للحربية. أدت التغييرات السريعة في الوزارة، بالإضافة إلى تحركات الفرق العسكرية واغتيال المحرّر الموالي للسلطان حسن فهمي أفندي في 6 نيسان/أبريل، إلى إحداث مناخ عاصف من النزاع المدني. فخرج عشرات الآلاف من المعارضين للجمعية لحضور جنازة المحرّر.

هتماً المناخ لثورة مضادة موالية للسلطان ابتداءً من ليل 12-13 نيسان/أبريل 1909⁽¹⁾، حين تمرد الآلاف من عناصر الحرس السلطاني والوحدات الأخرى، واحتجزوا ضباطهم وتجمّعوا في الساحة الرئيسية أمام البرلمان. وبعد أن ألهب المحرّضون مشاعرهم،

(1) يشار إليها أحياناً في التقويم القديم بمحادثة "31 آذار/مارس".

طالبوا بفرض الشريعة الإسلامية، لأنهم أبلغوا - كما زُعم لاحقاً - بأن جمعية الاتحاد والترقي تنوي إجبار جميع المسلمين على اعتناق المسيحية! استولوا على مبنى البرلمان ووزارة الحربية حيث أطلقوا النار على وزير الحربية علي رضا باشا وأصابوه. وقتلوا نائب اللاذقية الأمير محمد أرسلان بك خطأً، معتقدين أنه حسين جاهد، النائب الاتحادي البارز عن إستانبول (جاء إلى السفارة الروسية). كما قتلوا وزير العدل ناظم باشا الذي ظنوا خطأ أنه رئيس المجلس أحمد رضا بك.

قبض طاقم مدرّة على قائدهم وأعدموه من دون محاكمة شنعاً على شجرة في باحة القصر. وهكذا سقطت جميع مظاهر القانون والنظام. وقامت جماعات من المتمرّدين بقتل طلاب الكلية العسكرية أينما وجدوا في جميع أنحاء المدينة. واقتحمت مكاتب جمعية الاتحاد والترقي وسُلبت. ودُمّرت مطابع الصحف الاتحادية، وبُعِثَت الحروف الطباعية في الشوارع. سيطر خوف شديد على المجلس فلم يجتمع. قيل لاحقاً بأن القصر خُطّط لهذا الانقلاب، وأنّه كل جندي حصل على 5 ليرات نظير أعماله. أما قادة جمعية الاتحاد والترقي فاختبئوا خوفاً على حياتهم. استعاد السلطان صلاحياته، فأصدر عفواً عن المتمرّدين، وأضفى الشرعية على الانقلاب. وعيّن توفيق باشا في منصب الصدر الأعظم بعد استقالة حسين حلمي باشا. وبدا كأن نظام السلطان الاستبدادي قد استعيد ثانية. لكن ذلك لم يأخذ في الحسبان الفرق العسكرية في الولايات.

ما إن وصلت أخبار الانقلاب المضاد الذي نفذه المواليون للسلطان إلى سالونيك، حتى تطوّر عشرات الآلاف من المتظاهرين لمحاربة المتمرّدين. وهبّت جمعية الاتحاد والترقي وحلفاؤها العسكريون إلى العمل. واتخذ قائد الفيلق العسكري الثالث، محمود شوكت باشا، استعدادات فورية لسحق الانقلاب المضاد. وهو ضابط عثماني من عائلة بغدادية ذات جذور جورجية، كان والده قد عمل متصرفاً في الولايات. بل إنه ارتقى إلى الصدارة خلال خدمة الإمبراطورية.

في 16 نيسان/أبريل وصل قطاران عسكريان يحملان 15,000 جندي إلى شتلة على بعد 70 كم من إستانبول، حيث انضمت إليهم فرق أخرى من أدرنة. وزحفت على إستانبول قوة مشتركة تضم سلاح الفرسان والمدفعية. فجاء الآن دور الموالين

للسلطان في الاختباء. هرب عدة باشاوات مع عائلاتهم بجرأ، بالإضافة إلى اليونانيين والأرمن الأغنياء، الذين رحبوا بعودة النظام السلطاني. وهرب الجنود المتمردون إلى الأراضي التركية الداخلية سيراً على الأقدام. وفي إستانبول، بدأ آلاف من الطلاب والعسكريون يعلنون تأييدهم لجمعية الاتحاد والترقي. وهرب القاطنون قرب قصر يلدز خوفاً من الهجوم عليه. أرسل محمود شوكت باشا إنذاراً إلى حكومة توفيق باشا بمنحها فيه أربعاً وعشرين ساعة لكي تستقيل. دُعر السلطان، فأصدر الأوامر للسفن الحربية في البوسفور بإطلاق النار على السفارات الألمانية والروسية والنمساوية والفرنسية إذا دخلت قوات جمعية الاتحاد والترقي العاصمة. ربما ظن أن مثل هذه الخطوة اليائسة تطلق تدخلاً أجنبياً فوراً لإنقاذه. لكن أوامره لم تُنفذ.

اجتمع حوالى مئة نائب من جمعية الاتحاد والترقي بقيادة أحمد رضا بك في يسيلكوي Yesilköy حيث قرروا الدعوة إلى جلسة مشتركة لمجلسي الشيوخ والنواب - المجلس الملي - لمناقشة مسألة خلع السلطان. في 24 نيسان/أبريل دخلت فرق عسكرية من سالونيك إلى إستانبول وسيطرت على وزارة الحربية. جُرح أو قُتل عشرات العناصر من الجانبين في معركة للاستيلاء على مبان حكومية أخرى للباب العالي. حاصرت القوات الاتحادية قصر يلدز حيث بقي حوالى 4000 من عناصر السلطان العسكرية صامدين. في هذا الوقت، هرب خَدَمُ السلطان وطباخوه وخصيان الحريم وحرّاسه وموظفو القصر تاركين قصر يلدز مهجوراً تقريباً. ولم يبق سوى النساء في جناح الحريم. بدا البوسفور في تلك الليلة داكناً من كثرة السفن المحملة بأنصار السلطان الفارين إلى الأمان النسبي في الساحل الآسيوي⁽¹⁾.

استسلم السلطان عصر يوم 25 نيسان/أبريل 1909 واضعاً نفسه بتصرف الجيش، بعد أن أمر الحرس السلطاني بإلقاء سلاحه. من العواقب المخيفة لمحاولة الانقلاب المضاد بحزرة الأرمن في أضنة، حيث ذبح حوالى 17,000 شخص بين 14 و16 نيسان/أبريل⁽²⁾. وقد زُعم لاحقاً أن السلطان أصدر الأوامر بقتل الأرمن وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي المحليين. صدر بحق حاكم أضنة جواد باشا، الذي تغاضى عن أعمال

Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, p. 114; Georgeon, *Abdülhamid II*, p. 423. (1)

Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, p. 122. (2)

القتل، حكم بالإعدام بسبب إهماله الكبير في أداء واجباته. لم تكن هذه المجزرة، للأسف، أول أو آخر مجزرة للأرمن. فقبل عقد من الزمن، في أواسط تسعينيات القرن التاسع عشر، أدّت تحركات معادية للأرمن أثارها وجهاء بارزون وزعماء العشائر الكردية وعلماء سيّو السمعة في شرق الأناضول، إلى مقتل نحو 37,000 أرمني وتشريد 300,000. وفي كلتا الحالتين ثار الرعاع خوفاً من استقلال الأرمن، ظناً أنّ ذلك سيُعيي نهاية الإسلام في شرق الأناضول. وكان مئات الآلاف من هؤلاء الأشخاص قد طردوا من أراضيهم بعد هزيمة 1877-1878 وبعد الخسارات الإقليمية في الأناضول والبلقان⁽¹⁾. وقد يقدّم ذلك تفسيراً جزئياً للأجواء الحرجة التي تمّت فيها المجزرة المروّعة. وبالرغم من مأسوية هذه المجازر، فإنّها بدت صغيرة قياساً على عمليات الترحيل والقتل الجماعي التي تعرّض لها الأرمن في سنة 1915.

أصبح محمود شوكت باشا، قائد الفيلق العسكري الثالث، الرجل القوي في نيسان/أبريل 1909، وأهم شخصية في العاصمة. عرض عليه السلطان منصب الصدر الأعظم، لكنّه رَفَضَهُ مدركاً، بحق، أنّ قيادته للجيش تعطيه نفوذاً أكبر بكثير. وقد أعلن الأحكام العرفية وعيّن نفسه مفتشاً عاماً للفيالق الثلاثة الأولى في الجيش، وأطلق حملة لملاحقة المعارضين المشبوهين، تلتها موجة كبيرة من الاعتقالات. احتُجز حوالي 5000 سجين في مخيمات على طول القرن الذهبي. وألقي القبض على بعض موظفي السلطان الشخصيين، ونُفي المحظوظون منهم. اعتُقل الأمير صباح الدين في ضيعته، وهو من أوائل ملهمي حركة تركيا الفتاة ثم اختار لاحقاً موالاة السلطان، ولكن سُمِحَ له بمغادرة البلاد بعد تدخّل السفيرين البريطاني والفرنسي.

اجتمع مجلسا الشيوخ والنواب في جلسة مشتركة وصوّتا على خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش واستبدال أخيه محمد رشاد به. بعد ذلك بفترة وجيزة، في ليلة 27 نيسان/أبريل، اقتيد عبد الحميد وعائلته إلى قطار خاص أقَلَّهم إلى سالونيك حيث احتجزوا في أحد أفخم بيوت المدينة، فيلا اللاتيني Alatini العائدة إلى عائلة يهودية ثرية تعمل في الصناعة. وهكذا تمكّن الاتحاديون، بدعم من الفيلق العسكري الثالث، من إعادة النظام الدستوري بعد فترة انتقالية دموية استمرّت أسبوعين.

قدّم محمود شوكت باشا، بصفته الحاكم العسكري الرئيسي، إلى المحاكمة جميع المتورّطين في انقلاب 13 نيسان/أبريل، بمن فيهم الناطق الرسمي الأكثر صخباً باسمها درويش وحدي. أدين ثلاثة عشر منهم وشُنقوا علناً في 3 أيار/مايو في إستانبول. تلت ذلك عمليات إعدام أخرى في 12 و17 و19 تموز/يوليو. ونُفي 64 من أنصار السلطان إلى جزيرة رودس. وحكم على العديد من الباشاوات والوزراء السابقين وأقطاب النظام القديم بالسجن، بمن فيهم شخصيات عربية مرموقة مثل عزت باشا العابد (غياياً) والأخوين سليم ونجيب ملحمة. ونفي العديد من الباشاوات إلى جزر ليمنوس وبوضروم وميتيلين وخيوس على طول الساحل الإيجي.

استقال توفيق باشا في 3 أيار/مايو 1909. وتم تعيين حسين حلمي باشا مرة أخرى صدرًا أعظم. انضم إلى هذه الوزارة اتحاديان بارزان وهما جاويد بك، وزيراً للمالية وطلعت بك وزيراً للداخلية. شكّل ذلك نقطة تحوّل بالنسبة إلى جمعية الاتحاد والترقي، إذ إنَّها المرة الأولى منذ ثورة 1908 التي يتولّى فيها قادتُها مناصب رئيسية في السلطة.

بعد هزيمة أنصار السلطان، تشكّل في تشرين الثاني/نوفمبر 1909 حزب آخر مناهض لجمعية الاتحاد والترقي باسم الليبراليين المعتدلين. كان أعضاؤه أشبه بشباب تركيا الفتاة الذين تجمّعوا في باريس قبل سنة 1908، ومن بينهم العديد من غير الأتراك. كان رئيس الحزب ألبانياً، لكن النواب العرب لعبوا دوراً بارزاً فيه. ومن بين مؤسسيه نافع باشا الجابري الذي عُيّن لاحقاً نائب رئيس الحزب، بالإضافة إلى شفيق مؤيد العظم ورشدي الشمعة. وكان الحزب من دعاة العثمانية المتحمسين، وقد تلقّى دعماً خارجياً من الحزب الراديكالي العثماني الذي تأسس في أيلول/سبتمبر 1909 ومولّه كل من الأمير صباح الدين وشريف باشا، الذي كان سفيراً للسلطان في ستوكهولم.

وفي الوقت نفسه تقريباً، عمل الدكتور رضا نور، وهو مناصر سابق للسلطان، على إقناع النواب العرب بالانضمام إلى مجموعته في البرلمان. في البداية أعلن عبد الحميد الزهراوي، وهو من قادة النواب العرب في البرلمان، أنهم يفضلون في هذا المناخ المتقلّب من الانقلاب والانقلاب المضادّ البقاء كتلة عربية محايدة سياسياً؛ تعارض

الاتحاديّين من حيث المبدأ لكنها غير راغبة في الانضمام إلى الليبراليين المعتدلين أو أي جهة. غير أن بعض النواب العرب انضمّوا في ما بعد إلى مجموعة رضا نور. ولا يظهر السجل موقف رضا الصلح في ذلك الوقت.

العرب يُسمعون صوّتهم

بدءاً من سنة 1910، اعتمد النواب العرب في البرلمان العثماني، ومن بينهم رضا الصلح، موقفاً أشدّ قوة في الدفاع عن القضايا العربية. فعندما ناقش المجلس ما سُمّي "مسألة لينش" - وهي خطة لدمج شركة ملاحية تملكها الدولة وتعمل في نهر الفرات مع شركة لينش البريطانية، ما يمنح البريطانيين احتكاراً للملاحة النهرية - هاجم النواب العرب الخطة بشدّة، خوفاً من أن تؤدّي إلى توسيع النفوذ البريطاني في بلاد ما بين النهرين. وكان من بين أكثرهم جرأة شفيق مؤيد العظم، نائب دمشق، وانضم إليه محمد شوكت بن رفعت باشا، نائب الديوانية، ولطفي أفندي، نائب دير الزور. وقد اشتدّت حماسة النقاش في البرلمان، ما أدّى إلى تأجيل الجلسة.

يبدو أن محمود شوكت باشا مال إليهم لأنه اختار دعم الألمان الذين فضّلوا تأجيل مسألة لينش إلى ما بعد نجاح مفاوضاتهم بشأن إنشاء سكة حديد تربط بين بغداد وإستانبول. لذا تقرّر تعليق المسألة بانتظار قرار يصدر عن الحكومة العثمانية لاحقاً.

في كانون الثاني/يناير 1910، برز النواب العرب ثانية عندما عبّروا عن رفضهم استبدال حقّي بك، السفير التركي في روما، بالصدر الأعظم حسين حلمي باشا لأنهم اعتبروه مقرباً جداً من الاتحاديّين. عبّر نافع باشا وأعضاء آخرون من حزب الليبراليين المعتدلين عن تحفظهم بوضوح وحماسة شديدة. مع ذلك تولّى حقّي بك المنصب زمّح لقب باشا، وعيّن محمود شوكت باشا وزيراً للحربية (يبدو ذلك إلى حد كبير وسيلة للحدّ من نفوذه الهائل). واحتفظ القائدان الاتحاديان، طلعت وجاويد، بمنصبيهما في الداخلية والمالية.

دار نقاش حادّ آخر اهتمّ به النواب العرب كثيراً حول التقارير السريّة المرسلة إلى السلطان من قبل جواسيسه ومُخبريه، وقد وجد عدد كبير منها في قصر يلدز عندما

احتلّه الجيش. افتتح النقاش في 9 أيار/مايو 1910 شفيق مؤيد العظم فعبر عن غضبه لاثامه من قبل الصحف الاتحادية أنه كان أحد جواسيس السلطان. وحثّ الحكومة على نشر التقارير لتبرئته وربما تجرم آخرين⁽¹⁾. رفض جاويد بك، وزير المالية، اتهامات العظم، غير أن اعتراضه أثار عاصفة في صفوف النواب العرب، وطالب العظم بإجراء تحقيق رسمي. عندئذ دخلت إحدى الصحف الاتحادية المتهم، "طنين"، المعركة مدعية أن لدى المحاكم دليلاً يدين العظم ونائباً عربياً آخر بالتجسس لمصلحة السلطان. وطالبت بإلغاء انتخابهما، واقترحت أن تُنشر التقارير السرية التي كتبها النواب العرب فقط. أثار اقتراحها العنصري غضباً عربياً عارماً ما اضطر رئيس المجلس إلى تعليق الجلسة. شعر رضا الصلح في ذلك الوقت بخوف شديد. ففي سنوات توليه منصب متصرف في العديد من المواقع، أرسل العديد من التقارير الخاصة إلى السلطان مستعملاً شيفرة القصر، إذ كان عبد الحميد قد شجّع حكامه على ذلك لتجاوز بيروقراطية الباب العالي.

بعد شهر تقريباً، في حزيران/يونيو 1910، استرعى رضا الصلح انتباه المجلس، وكانت المناسبة مقتل أحمد صميم بك، محرر صحيفة "صدى الملة" المعارضة. وكان قد أسس هذه الصحيفة قبل عدة أشهر بتثليون كوزميدس Pantoleon Cosmidis، النائب اليوناني عن إستانبول المؤيد للسلطنة، الذي اتهم الاتحاديين بارتكاب الجريمة⁽²⁾. طالب رضا الصلح بإجراء تحقيق فوري بشأن مزاعم تورط جمعية الاتحاد والترقي. ومما أثار قلقه رسالة كتبها أحمد صميم بك قبيل مقتله، يدّعي فيها أن الاتحاديين "حكموا عليه بالموت". وثمة شبه كبير بين هذه الحالة واغتيال صحفي آخر موالٍ للسلطنة قبل أربعة عشر شهراً، حسن فهمي أفندي، في 6 من نيسان/أبريل 1909.

حصلت نقاشات عنيفة في البرلمان على خلفية الاضطرابات في إستانبول وولاياتها. ففي ربيع 1910، ثار الألبانيون ضد اقتراح إجراء إحصاء للسكان خوفاً من أن يكون ذلك مقدمة لضرائب جديدة والتجنيد الإلزامي وفرض اللغة التركية عليهم. ولكن أخذت ثورتهم بوحشية كبيرة. وأثار جلد القادة الألبان المذلل والمؤلّم أمام زوجاتهم، المرارة والغصة.

(1) Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, pp. 190-191.

(2) المصدر نفسه، ص 192-3.

كان المناخ محموماً في أيلول/سبتمبر 1910، عندما التحق رياض الصلح، وهو في السادسة عشرة في ذلك الحين، بكلية الحقوق في إستانبول التي أسّسها السلطان في سنة 1878. كان تلميذاً جاداً ومجتهداً، لكنه لم يستطع منع نفسه من الانغماس في السياسة الطلابية. ومن بين أصدقائه المقربين سعد الله الجابري (الأخ الأصغر لنافع باشا)، وكان يدرس في إستانبول، وأصبح في ما بعد سياسياً وطنياً لامعاً في سوريا. في ذلك الوقت، اكتسب رياض شغفاً بالسياسة، وحرص على متابعة كل النقاشات التي دارت بين زملاء والده وفي الصحافة المحلية. وكانت المعركة بين الاتحاديين والمعارضة تثير اهتمامه الشديد، بالإضافة إلى دور الجيش بقيادة محمود شوكت باشا. وحصل رياض على روايات مفصلة عن مداخلات والده في البرلمان، وكان يتمّ التدرّب عليها وتحليلها وتمحيصها في البيت.

أنهى البرلمان العثماني عطلة الصيف في 14 تشرين الثاني/نوفمبر 1910، فقامت المعارضة فوراً بمهاجمة حكومة حقي، حيث أدّى شفيق مؤيد العظم دور الناطق البارز باسم المعارضين. ومن خارج البلاد، شنّ شريف باشا هجوماً عنيفاً على قادة جمعية الاتحاد والترقي، داعياً الجيش إلى قلب "نظامهم الشرير". ووجدت الشخصيات الاتحادية البارزة، مثل طلعت بك وجاويد بك، نفسها عرضة لهجوم عنيف. وعندما بدا أن جمعية الاتحاد والترقي أخذت تضعف يوماً بعد يوم، قرر النواب العرب التقرب أكثر من المعارضة.

في بيروت ودمشق، التفّ الحلفاء السابقون لجمعية الاتحاد والترقي حول منبر عربي واحد، وعبروا عن دعم المعارضة على صفحات صحفيي المفيد في بيروت والمقتبس في دمشق⁽¹⁾. وفي بداية سنة 1911، كان عبد الحميد الزهراوي وشفيق مؤيد العظم ورضا الصلح من أبرز النواب العرب في المجلس وانضمّ إليهم شكري العسلي في شهر شباط/فبراير (بعد انتصاره على عبد الرحمن اليوسف). شكّل النواب الأربعة حزباً عربياً لم يُعَمَّر طويلاً (الحزب العربي)، ولم يكن أكثر من تجمع برلماني غير رسمي للنواب العرب. كانت مطالبهم مدروسة جيداً: تحقيق المساواة الكاملة للعرب، واعتماد العربية لغة للتعليم في المدارس، وتأمين الحماية لموظفي الحكومة العرب

المصروفين، والإصرار على أن يتقن الموظفون الرسميون العثمانيون المرسلون إلى الولايات العربية اللغة العربية⁽¹⁾.

أثار شكري العسلي عاصفة في المجلس، في 5 نيسان/أبريل 1911، عندما أشار في كلمة صريحة إلى إقصاء العرب عن المناصب الرفيعة في الوزارات الأساسية. فدافع عنه رضا الصلح بحماسة في النقاش الحاد الذي تلا ذلك. ولقي خطاب العسلي في دمشق وببيروت وفي أوساط الجالية السورية الكبيرة الوافدة في القاهرة، ترحيباً كبيراً كنقطة بارزة في إثبات الذات العربية. أمّا في إسطنبول، فاتهمت الصحافة التركية شكري العسلي بالغدر، وأجبر على الرد بأنه لا يضر عدم الولاء للسلطان أو الإمبراطورية. وأعلن أن الرباط الذي يصل بين الأتراك والعرب "رباط أبدي".

النقاش حول الصهيونية

ربما تكون الصهيونية القضية الرئيسية التي حرّضت النواب العرب على جمعية الاتحاد والترقي في ربيع 1911⁽²⁾. فقد كان النواب العرب يتوجّسون رية من النفوذ الصهيوني في جمعية الاتحاد والترقي، ويشعرون أن الحزب لا يولي مشكلة توسّع الاستيطان الصهيوني في فلسطين الاهتمام الذي تستحق. كما تسارعت وتيرة الهجرة منذ أن أقام "أحباء صهيون" أوّل مستوطنة زراعية يهودية في فلسطين، سنة 1882. وبحلول سنة 1908، كان نحو ثمانين ألف يهودي من روسيا وأوروبا الشرقية والوسطى قد أنشؤوا حوالي خمسين مستوطنة صهيونية هناك. عارض السلطان هذا التدفق الصهيوني، خوفاً من أن يمنح هؤلاء الأوروبيون القوى الأوروبية ذريعة إضافية للتدخل في شؤون السلطنة، وهذا ما حصل.

حاول السلطان عبد الحميد وضع حدّ للهجرة اليهودية إلى فلسطين لكنه فشل. وحين حصلت ثورة تركيا الفتاة، كان العرب يدركون تماماً المخاطر التي يشكّلها هذا الوضع الجديد على منطقته. وعبر السياسيون والصحافيون والمفكّرون في القاهرة

(1) Semir Seikaly, 'Shukri al-'Asali: A case Study of a Political Activist' in Rashid Khalidi et al (eds.), *The Origins of Arab Nationalism*, New York, 1991, pp. 85-86.

(2) Kayali, *Arabs and Young Turks*, pp. 102-5; Neville Mandel, *The Arabs and Zionism before World War I*, Berkeley 1976.

ودمشق وبيروت عن عدائهم الشديد لهؤلاء المهاجرين الأجانب، وما يقومون به من شراء مخطّط بعناية ومستمرّ للأرض العربية. كما أرسل الفلسطينيون العرب برقيات إلى البرلمان العثماني تلتمس وقف هذه الهجرة. وكشفت تقارير مقلقة من بيروت والقدس بأنّ بعض ملاك الأراضي الغائبين، ومن بينهم عبد الرحمن اليوسف، لا يتورّعون عن بيع ممتلكاتهم للصهاينة، الذين يدفعون أعلى من قيمتها للحصول على أكبر قدر من الأرض.

قبل أن يفوز شكري العسلي في الانتخاب الفرعي في دمشق في سنة 1911، عمل لمدة سنتين قائم مقام في الناصرة، ثم في ولاية بيروت. وقد شهد الاستعمار الصهيوني مباشرة، ووصل إلى إستانبول تسبقه سمعته بأنه الأكثر اطلاعاً على المشروع الصهيوني في فلسطين والأكثر إصراراً على مواجهته. وفي إحدى المناقشات في البرلمان العثماني، أفاد أن ثلاثة أرباع طبريا وربع حيفا أصبحت ملكاً لليهود الأوروبيين، واتهم جمعية الاتحاد والترقي بعدم الاكتراث لخسارة هذه المواقع الاستراتيجية. فردّ عليه وزير الداخلية طلعت بك باقتضاب قائلاً إنّ لليهود الحقّ بشراء الأملاك في كل أنحاء الإمبراطورية ما عدا الحجاز، وعندئذ عبّر رضا الصلح عن استيائه من سياسة عدم التدخل القصيرة النظر. وعندما اتهم عبّيد الله، وهو نائب تركي عن أيدين في الأناضول، العرب بأن الكراهية هي دافعهم، وقف رضا الصلح مستكراً - وأيده عبد الحميد الزهراوي، نائب حمص، وخالد البرازي، نائب حماة، وعبد المهدي الحافظ، نائب كربلاء - وهذّب بالمغادرة إذا لم يسحب عبّيد الله كلامه. وقال رضا "سنغادر المجلس حتى تتمكنوا من توجيه المزيد من الإهانات إلى لعرب"⁽¹⁾!

في 16 أيلول/سبتمبر 1911، ألقى روجي الخالدي، نائب القدس الحسيب والمثقف الواسع الاطلاع، محاضرة طويلة عن الصهيونية. فتحدّث عن الفرق بين الصهيونية والسامية والأصول المختلفة لليهود، وعن تأسيس أولى مستعمرات اليهود الروس في يافا، ونظريات هرتزل Herzl ومندلسون Mendelsohn، وعن قضايا أخرى كثيرة. وقرأ أيضاً برقيات من قادة عثمانين يهود شجبوا الصهيونية لأنها تشكّل تهديداً لوضعهم. وتكلّم من بعده سعيد الحسيني الذي حثّ الحكومة على اتخاذ تدابير

فعالة ضد التملك اليهودي الواسع للأراضي في القدس. غير أن النائب الألباني جافز إبراهيم سخر من الاعتقاد بأن "المئة ألف يهودي الذين قدموا إلى القدس سيفتحون سوريا والعراق". ورأى أن اليهود يسيطرون على الاقتصاد وليس على الأرض، كما فعلوا في إنكلترا نفسها. كما أنهم يتحكمون بتجارة سالونيك بأكملها. فتدخل رضا الصلح ليدكره أن يهود سالونيك ليسوا أجنبياً خلافاً لليهود الأوروبيين المهاجرين إلى فلسطين. لكن جافز إبراهيم رفض هذا النوع من النقاش مشيراً إلى أن التجارة في بيروت، مدينة رضا، يتحكم بها الأجنب أيضاً. وأعلن بتفضّل أن على العرب أن يحاولوا الارتقاء إلى مستوى الأجنب بدلاً من رفض تواجدهم.

في هذا الوقت تقريباً أثار هجوم مباشر شنه الشيخ رشيد رضا، المفكر الإسلامي المتنوّر البارز، على الاتحاديين، الحماسة في أوساط المجتمع العربي في إستانبول. وكان رضا الصلح والنواب العرب آنذاك مطلعين جيداً على كتاباته وقد قابله خلال زيارته إلى إستانبول. في 4 تموز/يوليو 1911، نشرت إحدى الصحف مقالاً مطوّلاً ومترجماً إلى التركية لرشيد رضا، كان قد نُشر في القاهرة في مجلته الشهرية المنار. شكّل هذا المقال هجوماً ساحقاً على جمعية الاتحاد والترقي، أظهر إلى العلن كثيراً من الشكوك العربية. اتهم الشيخ رشيد أعضاء الجمعية البارزين بالانتماء إلى الماسونية التي تخضع محافلها للتأثير الصهيوني المباشر. واتهمهم بالعمل لمصلحة الصهيونية ومساعدة الرأسمال اليهودي في استغلال سوريا وفلسطين. وأكد رشيد رضا أن أهداف الماسونية هي التخلص تدريجياً من الشريعة الإسلامية، و"تتريك" الإمبراطورية، وإحلال اللغة التركية محلّ العربية في كل الولايات. شكّل هذا المقال والضجة التي نتجت عنه أول انقسام علني بين النواب العرب وجمعية الاتحاد والترقي.

في ليلة 10 تموز/يوليو، قُتل صحافي بارز آخر مناصر للمعارضة، زكي بك، على يد الاتحاديين على ما زُعم. وكان قد نشر مقالات أخرى مترجمة من مجلة المنار تتحدث عن الأنشطة الخبيثة للمحافل الماسونية. أدّى مقتل هذا الصحافي الثالث المعارض خلال عامين إلى نشر الذعر في صفوف النخبة السياسية في العاصمة. في غضون ذلك، لم تعد العلاقات جيدة بين جمعية الاتحاد والترقي ومنقذها العسكري محمود شوكت باشا، إذ ساورتها الشكوك أنه ينوي إقامة نظام ديكتاتوري عسكري.

فدبّ بينهما نزاعٌ غير معلن على السلطة. شعر العديد من الضباط الاتحاديين بالخوف على مناصبهم، فبدؤوا يميلون إلى جانب محمود شوكت. أُجبر طلعت بك على الاستقالة من وزارة الداخلية في شباط/فبراير 1911، تبعه بعد عدة أسابيع استبدال جاويد بك ووزير الثقافة إسماعيل حقي بك بابان زاده. وهكذا خسر أبرز أعضاء جمعية الاتحاد والترقي مناصبهم المهمة في الحكومة، واحداً بعد الآخر.

في تلك الفترة جرت محاولة للقضاء على الاتحاديين. وكان من بين المحرضين العقيد صادق بك، وهو من قيادات الاتحاد والترقي سابقاً ثم انقلب على زملائه معتقداً أنهم ذهبوا بعيداً في التطرف. لذلك حاول حشد الضباط للقيام بانقلاب بذريعة أن العناصر الماسونية والمعادية للدين في جمعية الاتحاد والترقي تشكل خطراً على الإسلام. كما نظم "الحزب الجديد" المعارض داخل جمعية الاتحاد والترقي الذي طالب باستقالة حقي باشا، وبإبعاد طلعت بك، واستقالة حسين جاهيد من البرلمان، وهو محرر الجريدة الاتحادية "طنين". كانت تلك محاولة واضحة للقضاء على الجمعية من الداخل. وقد ثارت شكوك قوية أن البريطانيين يؤيدون المؤامرة، لأن جيرالد هـ. فيتز موريس Gerald H. Fitzmaurice، الترجمان الأول في السفارة البريطانية، كان على اتصال مع النواب المعادين للاتحاديين⁽¹⁾.

تمكّنت الجمعية، بعد نقاشات حادة، من إقناع محمود شوكت باشا بالتوقيع على أمر إبعاد العقيد صادق بك إلى سالونيك، لكن استقبله هناك عدد من الضباط المناصرين "الذين رافقوه مظفراً إلى مقر إقامته"⁽²⁾. وبعدما أُجبر العقيد صادق على الاستقالة من الجيش في أيار/مايو 1911، وُضع اسمه على لائحة المتقاعدين، عاد إلى إستانبول متحدياً حيث جدّد محاولاته تخريب الجيش على الحكومة. فأسس حزب الوحدة العثمانية، وقدم طلباً للحصول على رخصة لإنشاء جريدة سياسية، وأمل باجتذاب حوالي خمسين نائباً اتحادياً إلى قضيته.

تعرّضت حكومة حقي باشا لهجوم من قبل العرب والألبان واليونانيين والبلغار والأرمن، إذ اعتُبرت مسؤولة عن الارتفاع الحاد للإيجارات وأسعار الأغذية والفحم.

(1) للاطلاع على رواية عن حياته، انظر: G.R. Berridge, *Gerald Fitzmaurice (1865-1930): Chief Dragoman of the British Embassy in Turkey*, Martinus Nijholt Publishers, Leiden & Boston 2007

(2) Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey*, p. 238.

وكانت قد شَبَّت الحرائق في المدينة، فدمّرت أحياء سكنية بأكملها، مخلفة عشرات الآلاف من المشرّدين. فزاد ذلك من متاعب الحكومة واستياء الشعب منها. في هذه الأجواء التعمّسة، انتظر الجميع نتائج مؤتمر جمعية الاتحاد والترقي الذي سيعقد في سالونيك في آخر يوم من شهر أيلول/سبتمبر 1911. لكن حدث عندئذ تطوّر فظيع أوقع الطبقة السياسية كلها في حالة من الفوضى الكاملة، وزجّ البلاد في حماقة الشجارات التافهة والاستغراق في الشؤون الذاتية.

الهجوم الإيطالي على ليبيا

في 28 أيلول/سبتمبر 1911، سلّم القائم بأعمال السفارة الإيطالية في إستانبول الحكومة التركية إنذاراً قاطعاً: نتيجة عدم قيام الحكومة التركية بتلبية مطالب الحكومة الإيطالية، فإن القوات الإيطالية ستستولي على طرابلس وبنغازي. مُنحت الحكومة العثمانية 24 ساعة لتبليغ الحاميات المعنية. اتضح على الفور أن الإذعان للهزيمة من دون قتال سيفتح الطريق أمام تفكّك أوصال الإمبراطورية. وفي عصر اليوم التالي، أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا واستقالت حكومة حقي باشا. ولكن لم تودّ حالة الطوارئ في شمال أفريقيا إلى وضع حد للقتال الداخلي في إستانبول.

في 4 تشرين الأول/أكتوبر 1911، تمكّن سعيد باشا، وكان في ذلك الوقت مسناً ومريضاً، من تشكيل حكومة جديدة، ولكن بصعوبة بالغة. وبقي محمود شوكت باشا وزيراً للحربية. رحّبت الصحافة الاتحادية بهذه الحكومة، بينما لم يُبدِ معارضو الاتحاديين أي ردّ فعل تجاهها. وواصل الفيلق العسكري الثالث في سالونيك وموناستير دعم جمعية الاتحاد والترقي، لكن انقسم ما تبقى من الجيش على نفسه. وعند افتتاح دورة المجلس الرابعة في 15 تشرين الأول/أكتوبر، نال الاتحاديون حوالي 130 صوتاً انتخابياً - من بينها 40 صوتاً للحزب الجديد المعارض. ونالت المعارضة مئة صوت. وضم النواب الباقون الخمسة والثلاثون عدداً من العرب الذين لم يحددوا ولاءهم، بالإضافة إلى سبعة أو ثمانية أعضاء من الحزب الثوري الأرمني.

عرض الاتحاديون منصب نائب رئيس مجلس النواب على عبد الحميد الزهراوي في محاولة لاجتذاب العرب. قبل الزهراوي بالمنصب وتمّ انتخابه، لكنه سرعان ما

استقال عندما رفضت المعارضة (وهي ائتلاف من الليبراليين المعتدلين والمستقلين واليونانيين وبعض الأرمن غير الاتحاديين وبعض النواب الألبان والصرب والبُلغارين) مركزاً مماثلاً لأحد أعضائها. وفي 20 تشرين الأول/أكتوبر، مُنح سعيد باشا الثقة، لكن موقفه بقي مهزوزاً.

كانت الحال كذلك عندما تشكّل في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1911 حزب معارض جديد كثر الحديث عنه باسم "حزب الحرية والائتلاف"، وهو حزب محافظ وملكي بطبيعته. ومن مؤسسيه داماد فريد باشا، وهو عضو عثماني معروف في مجلس الشيوخ، والعقيد السابق صادق بك، زعيم الحزب الجديد، وإسماعيل حقي باشا، زعيم الليبراليين المعتدلين، وعبد الحميد الزهراوي، النائب العربي عن حمص⁽¹⁾. كان لكل من هؤلاء برنامج سياسي مختلف، لكن الأمر الوحيد الذي اجتمعوا عليه عداؤهم لجمعية الاتحاد والترقي. تسلّم شكري العسلي المجلس الإداري للحزب. كما انضم إليه الشيخ بشير الغزي نائب حلب، وكامل الأسعد، النائب الاتحادي عن ولاية بيروت. وهكذا تمكّن حزب الائتلاف والحرية من جمع نحو سبعين نائباً من الأتراك العثمانيين، والعرب من سوريا والعراق، والألبان، واليونانيين، والبُلغار وبعض المحافظين من الحزب الأرمني الديمقراطي الاجتماعي. استاءت مثل هذه الأقليات الوطنية من سياسات جمعية الاتحاد والترقي التي سعت إلى "التتريك"، وأملت أن تتمكن من إسقاطها.

كان الفريق الاتحادي، في الجهة المقابلة، يضمّ الأتراك، واليهود، والصرب، والأرمن من المنظمة السياسية الأرمنية الثورية المعارضين لإخوانهم المحافظين، بالإضافة إلى بعض المنشقين العرب من العراق واليمن وطرابلس. دان الاتحاديون خصومهم واعتبروهم خطراً عاماً. وحصلت مناقشات عنيفة في البرلمان كاد أن يشتبك فيها الطرفان. وفي إحدى الجلسات العاصفة، غادر رئيس المجلس بسبب عدم قدرته على احتمال الضجيج. في 19 كانون الأول/ديسمبر، كتبت جريدة "طين" بلهجة استفزازية أن المعارضة أشدّ ضرراً على النظام الدستوري من المتمردين في مقدونيا والإيطاليين الذين يوجد حرب بينهم وبين تركيا.

(1) المصدر نفسه، ص 287.

استقال سعيد باشا لعدم قدرته على احتمال المزيد من الفوضى، لكن السلطان أصرَّ على إعادة تكليفه بتشكيل حكومة جديدة. وفي 31 كانون الأول/ديسمبر 1911، ناشد كلَّ من نافع باشا، نائب حلب، وشفيق مؤيد العظم، نائب دمشق، السلطان بأن يعيد النظر في قراره، ولكن تدخلهم لم يجد نفعاً. استطاع سعيد باشا أن يشكل حكومة وصفت بحكومة تصريف أعمال محايدة. لكن الخلافات المستمرة بين الاتحاديين والمعارضة كانت حادة جداً بحيث بدا أن النظام البرلماني بأكمله معرض للانهيار. فقد كانت المعارضة ترمي إلى القضاء على جمعية الاتحاد والترقي والنظام الليبرالي الديمقراطي معاً. في هذا الجو السياسي القائم، الذي ازداد سوءاً نتيجة الحرب في شمال أفريقيا وموجة من الحوادث الإرهابية في مقدونيا، أبلغ السلطان مجلس الشيوخ في 15 كانون الثاني/يناير أنه قرَّر حلَّ البرلمان. وبدأت التحضيرات لانتخابات جديدة.

لم يشارك رضا الصلح في الانتخابات عام 1912. هل كان سبب ذلك عدم اليقين بشأن الاتجاه الذي سيسلكه؟ أم بسبب وضعه الصحي المتدهور؟ كانت جمعية الاتحاد والترقي آنذاك قوية، لكن لا تزال هناك فرصة لعودة المعارضة. ولم يشأ العديد من العرب، شأنهم في ذلك شأن معظم الأقليات، الاختيار بين أحد المعسكرين خوفاً من تحمّل عواقب سوء الاختيار. وربما ضاق رضا ذرعاً بالمعارك البرلمانية، والعنف داخل المجلس وخارجه، وأراد العودة إلى داره في بيروت. غير أن عائلة الصلح قرَّرت البقاء فترة أطول في إستانبول، بسبب متابعة رياض دراسته في كلية الحقوق هناك.

حصل المستقلون في الانتخابات على مئة وخمسين مقعداً، وحصلت جمعية الاتحاد والترقي على مئة وسبعة مقاعد، وحزب الحرية والائتلاف على واحد وعشرين مقعداً والاتحاد الثوري الأرمني على ثلاثة مقاعد. اجتمع المجلس الجديد في إستانبول في 12 أيار/مايو 1912. وسرعان ما أدرك المعارضون أن النتيجة التي حققوها في الانتخابات لا تسمح لهم بالوصول إلى السلطة بالوسائل البرلمانية فقرروا محاولة القيام بانقلاب جديد. خططوا لزعزعة الحكومة بإشعال ثورة في ألبانيا متزامنة مع تمرد عسكري في موناكو في أوائل أيار/مايو. أمل المتمردون بإخراج جمعية الاتحاد والترقي من ميدان السياسة ككل، ومحكمة قادماً، لا بل إعدامهم. لم يستطع محمود شوكت باشا مواجهة هذه التهديدات العنيفة المتصاعدة، فاستقال من وزارة الحرية في 9 تموز/يوليو،

وتبعه الصدر الأعظم سعيد باشا في السابع عشر من الشهر عينه. تشكلت حكومة جديدة في 21 تموز/يوليو برئاسة الغازي أحمد مختار، لكنها لم تكن تتمتع بغالبية برلمانية وبدأت ضعيفة جداً. غير أنها نالت الثقة، وفي محاولة لكسب دعم المعارضة، رفعت حالة الطوارئ وعفت عن المتمردين. أصدر السلطان، تحت ضغط المعارضة، مرسوماً يقضي بحلّ البرلمان، وعندئذ أعادت الحكومة فرض حالة الطوارئ وحظرت جميع النشاطات السياسية. في 2 أيلول/سبتمبر، انعقد المؤتمر السنوي لجمعية الاتحاد والترقي في إستانبول، متحدّياً الحظر المفروض، وانتخب الأمير سعيد حلمي باشا من مصر أميناً عاماً للحزب.

الضربة القاضية في حرب البلقان

بعد أقل من شهر، وفيما استمر الصراع بين الاتحاديين والمعارضة، وصلت أخبار إلى إستانبول أن القوات المسلحة البلغارية والصربية وُضعت في حالة تأهب. سيطرت أجواء الحرب على العاصمة ثانية، وتظاهر الطلاب أمام الباب العالي مطلّقين هتافات "لتسقط الحكومة" و"نريد الحرب". وفي 8 تشرين الأول/أكتوبر، أعلنت مونتنيغرو الحرب على السلطنة العثمانية، وفي 13 تشرين الأول/أكتوبر، طالبت الحكومات البلغارية والصربية واليونانية في مذكرة جماعية إستانبول بمنح الاستقلال الذاتي الكامل للولايات المقدونية بقيادة حكام بلجيكيين أو سويسريين - وإلا فإن عليها أن تتحمّل العواقب. ردّت إستانبول على هذا الإنذار في 15 تشرين الأول/أكتوبر، بقطع العلاقات الدبلوماسية مع البلدان الثلاثة، وإعلان الحرب بعد يومين على بلغاريا وصربيا. وفي اليوم نفسه، أعلنت اليونان الحرب على الإمبراطورية. وهكذا بدأت حرب البلقان، وتبيّن أنها سددت ضربة قاضية للعثمانيين.

في 29 تشرين الأول/أكتوبر، حلّ كامل باشا صدراً أعظم محلّ الغازي أحمد مختار، الأمر الذي أَرْضَى المعارضة. لكن لم تدم فرحة هؤلاء طويلاً. ففي اليوم التالي وصلت معلومات عن هزيمة الجيوش العثمانية في معركة لوليرغاز Lüleburgaz في تراقيا. أدى ذلك إلى انسحاب العثمانيين على كل الجبهات أمام تقدم القوات البلغارية والمونتنيغرية والصربية واليونانية. ناشدت الحكومة القوى الكبرى التدخل لوضع حدّ

للنزاع بعدما لم يتبق سوى الجيش العثماني الشرقي الذي حاول تنظيم خطوط الدفاع في شتلة على بعد سبعين كيلومتراً عن إستانبول. ردّت القوى الكبرى بأنها توافق على الوساطة شرط أن تضع الحكومة العثمانية نفسها تحت تصرفها بشكل كامل. قبلت إستانبول العرض في 4 تشرين الثاني/نوفمبر - ما يعني عملياً الموافقة على الاستسلام غير المشروط. لكن الجيش وجمعية الاتحاد والترقي رفضا هذا الاستسلام المذل. وعندما عقد كامل باشا اجتماعاً للقادة العسكريين، عبّروا عن تأييدهم الاستمرار في المقاومة، ما أدى إلى استئناف القتال مجدداً.

استولى اليونانيون على سالونيك في 8 تشرين الثاني/نوفمبر، فوجّهوا ضربة قاسية للاتحاديين الذين يعتبرون المدينة قاعدتهم الأساسية. وقبيل سقوط سالونيك، نُقل السلطان السابق عبد الحميد الثاني، الذي كان منفياً هناك، إلى إستانبول واحتجز في قصر بايلرباي على البوسفور، وبقي هناك حتى وفاته في 10 شباط/فبراير 1918.

في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1912، التمتت حكومة كامل باشا السلام وبدأت المحادثات بين المتفاوضين. ولإسكات المنتقدين المحرّضين على القتال، عمدت الحكومة إلى إلقاء القبض على أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بتهمة التآمر عليها. تمكّن طلعت وجاويد من الهرب، ولكن تم القبض على نحو ستين عضواً آخرين. تواصلت الاعتقالات والأحكام الصادرة عن المحكمة العسكرية حتى كانون الأول/ديسمبر. وفي الخامس من الشهر نفسه جرى التوقيع على الهدنة، وعقد مؤتمر سلام في لندن في 16 كانون الأول/ديسمبر. لكن استمرت النقاشات الحادة في السنة الجديدة بشأن مستقبل أدرنة - وهي ذات قيمة رمزية كبيرة للأتراك إذ كانت في السابق عاصمة للإمبراطورية - بالإضافة إلى مصير جزيرة كريت والجزر الإيجية وحدود ألبانيا. طلبت القوى العظمى من تركيا أن تترك لها مسألة الجزر الإيجية وتعطي أدرنة للبلغار.

دعا كامل باشا إلى عقد اجتماع للمجلس الكبير للإمبراطورية لمواجهة الأزمة. تألف المجلس من أعضاء مجلس الشيوخ وكبار العلماء ومجلس الدولة ووزارة العدل، ووزارة البحرية ووزارة الحرب. انعقد المجلس في 22 كانون الثاني/يناير 1913 في جلسة مغلقة وخلص إلى أن المقاومة لن تُجدي نفعاً. فأصدر بياناً يعلن فيه عن ثقته "بعدالة

القوى العظمى". كان ذلك استسلاماً غير مشروط لمطالب دول البلقان المتمردة التي تدعمها القوى الغربية بطبيعة الحال.

جاء الرد المحلي سريعاً ودموياً على قرار المجلس. ففي 23 كانون الثاني/يناير 1913 ، توجّهت مجموعة صغيرة من الضباط الاتحاديين إلى الباب العالي. شكّل وصولهم إشارة لحملة منسّقة من قبل مجموعات مختلفة من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تنتظر في مكان قريب. دخل أنور بك وجمال بك مقرّ الباب العالي وطلبا مقابلة الصدر الأعظم، وتبعهما طلعت بك وزعماء اتحاديون آخرون. عندما خرج ناظم باشا، وزير الحربية، من قاعة المجلس، أطلق عليه أحد أعضاء المجموعة النار وأرداه قتيلاً. كما قتل مساعده، وكذا نظيف بك الضابط المساعد للصدر الأعظم، لكن بعد أن أطلق النار على قاتل ناظم باشا. دخل أنور بك بعد ذلك قاعة المجلس، وأبلغ كامل باشا بأن عليه أن يستقيل أو يقسم على متابعة الحرب. فاختار كامل باشا الاستقالة.

انتقل القادة الاتحاديون إلى القصر حيث حصلوا على موافقة السلطان على تعيين محمود شوكت باشا صدراً أعظم، وتشكّلت الحكومة الجديدة في اليوم ذاته. لم تكن حكومة اتحادية تماماً، لكنها أشارت، نظرياً على الأقل، إلى إعادة العمل وفق النظام الدستوري بعد انتكاسة دامت ستة أشهر. غير أنّها أبرزت في الواقع الظهور القوي لثلاثة سياسيين متمرسين في القتال من جمعية الاتحاد والترقي وهم: أنور، وزير الحربية، منذ أوائل سنة 1914، وجمال، حاكم إستانبول العسكري الذي أصبح لاحقاً وزير البحرية، وطلعت، وزير الداخلية والصدر الأعظم منذ سنة 1917. شرع هؤلاء على الفور بتوقيف خصومهم، وأمسكوا بشؤون الدولة منذ ذلك الحين وحتى انهيار الإمبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى.

ثقافة رياض الصلح السياسية

تأثّر رياض الصلح كثيراً بسيل الأحداث العنيفة الدراماتيكية التي أحاطت بسني شبابه في إستانبول. ومنحته بالإجمال ثقافة مميّزة حول خطورة الحياة السياسية وقساوة الانتقام السياسي. في تلك الفترة تعلّم أن الأفكار النبيلة - مثل وقوف تركيا الفتاة في

البداية في وجه الاستبداد والتزامها الحكم الدستوري - تميل إلى الاختفاء عند الممارسة الفعلية للسلطة والصراع الدموي للمحافظة عليها.

في إستانبول أيضاً، شُغف رياض بالسياسة البرلمانية وإجراءاتها كما تبين لاحقاً عندما أصبح نائباً في البرلمان اللبناني. غالباً ما يفترض في الغرب بتكبر أن السياسيين العرب في جيله اكتسبوا مهاراتهم البرلمانية من معلّميهم الأوروبيين في الانتدابات ما بين الحربين، أو من مراقبة السياسيين الفرنسيين في الجمهورية الثالثة في فترة العشرينيات والثلاثينيات. لكن البرلمان العثماني كان مدرستهم الفعلية في الواقع. وقد استفاد رياض من أخبار والده اليومية عما يدور داخل ذلك المجلس من مناقشات ومواقف حادة.

كذلك تأثر رضا ورياض الصلح، مثلهما مثل كثير من العرب في ذلك الوقت، بأفكار محمد عبده الإصلاحية، وآرائه المتنوّرة عن الإسلام. كما جذبتهم الأفكار والنقاشات التي جرت في المنتدى الأدبي والسياسي الذي تأسس في إستانبول في سنة 1909. وقد لعب هذا المنتدى دوراً رائداً في إعادة إحياء الثقافة العربية والمساعدة في خلق معنى جديد للهوية العربية التاريخية.

بالإضافة إلى ذلك، اطلع رياض أيضاً في تلك السنوات في إستانبول على الخطة الصهيونية لاستعمار فلسطين، والخطر الذي بدأت تشكله لا على الفلسطينيين فحسب، بل على المنطقة العربية بأكملها. وقد تطوّرت المعلومات التأسيسية التي اكتسبها حول هذه القضية في شبابه في إستانبول إلى فهم أعمق للمشكلة مما كان لدى معظم معاصريه السياسيين. وقاده ذلك أيضاً إلى التزام دام العمر كله بالقضية الفلسطينية.

في سنة 1949، عندما أثار حسني الزعيم الرعب في دمشق بأول انقلاب عسكري سوري بعد فترة وجيزة من حرب فلسطين، عبّر رياض الصلح - وكان رئيساً لوزراء لبنان في ذلك الحين - عن استيائه الواضح من الاستيلاء العسكري الوحشي على السلطة. وربما يجب تتبّع جذور عدائه لتدخل العسكريين في السياسة - وهو شعور يتقاسمه معظم العرب اليوم - إلى أنه شهد مبكراً انقلابات محمود شوكت باشا المتكررة في تموز في تموز/يوليو 1908 وشباط/فبراير 1909، وإلى إجهاز جمعية الاتحاد

والترقي على خصومها دون رحمة في كانون الثاني/يناير 1913. فقد ألقت حراب تركيا الفتاة ظلالها الطويلة على الحكم البرلماني منذ بداية ثورتها⁽¹⁾. كما أن السنوات التي أمضاها رياض في إستانبول زودته بدروس في السياسة الدولية. فقد كثرت إيطاليا أولاً، ثم دول البلقان عن أنيابها أمام الرجل المريض، وتجذّرت على قضم أجزاء كبيرة من جسد الإمبراطورية. وبات من الواضح أنه لم يعد باستطاعة الدولة العثمانية الدفاع عن نفسها أمام القوى الأوروبية الكبرى أو حتى أمام الدول الأقل شأناً التي كانت تخضع لسيطرتها في السابق. وقد أزعجه أن يشهد احتضار هذه الإمبراطورية الإسلامية التي كانت عظيمة ذات يوم، وخدمها أبوه وجده طويلاً وبإخلاص - فيما القوى الغربية تتفرّج وتفرك أيديها وتتطلّع إلى فرصتها بجمع دفع تقلص الإمبراطورية وتزايد القلق بشأن المخططات الأوروبية في الولايات العربية رياض الصلح وزملاءه العرب للاهتمام بالشكاوى والقضايا والتطلعات العربية. وأخذت تخامرهم فكرة الحكم الذاتي العربي الجديدة ضمن دولة تركية عربية - أي باختصار اعتناق "مفهوم العروبة" الحديث. كانت ولاءاتهم منقسمة وهم يتصارعون مع ما سُمّي "بمشكلة الثنائية الثقافية بين الذات العربية والمحيط العثماني"⁽²⁾. لكن بعد عدة سنوات، حطمت الحرب الكبرى عالمهم العثماني بصورة نهائية، ما دفعهم للانتقال من العروبة إلى القومية العربية.

(1) المصدر نفسه، ص 315.

(2) Muhammad Muslih, 'The Rise of Local Nationalism in the Arab East,' in Rashid Khalidi et al (eds.), *The Origins of Arab Nationalism*, New York, 1991, p. 177.

الفصل الرابع

في ظلال المشانق

عاد آل الصلح من إستانبول على عجل في وقت ما من سنة 1913. ويرجح أنهم غادروا العاصمة العثمانية بعدما اغتيل محمود شوكت باشا، الصدر الأعظم والمناصر العسكري لجمعية الاتحاد والترقي، في 24 حزيران/يونيو. وقد أطلق اغتياله موجة من الإرهاب ضد الحزب العثماني الليبرالي والمعارضة. ومنذ تلك اللحظة، أصبح الجو السياسي في العاصمة عنيفاً وشديد الاضطراب، ولم يعد يشعر بالأمان كل من له علاقة بالمعارضة، وإن كانت غير مباشرة.

على الرغم من أن محمود شوكت باشا لم يكن متفقاً في الرأي مع قادة الاتحاديين، فإنهم استخدموا اغتياله (الذي اعتبره بعضهم من تدبيرهم) لسحق من تبقى من معارضيه. وبعدما أصبحت إستانبول تحت الحكم الصارم لجمال باشا، طورد الليبراليون البارزون، وزجوا في السجون، وحوكموا أمام محاكم عسكرية. أعدم 12 شخصاً اتهموا بتدبير عملية الاغتيال، ونفي 350 آخرون إلى منطقة البحر الأسود. قضت هذه الإعدامات وأحكام النفي على الحزب الليبرالي كمعارضة منظمة، وكانت بمثابة نذر للتدابير الإجرامية التي اتخذها جمال باشا نفسه في ما بعد ضد القوميين العرب عندما أصبح حاكماً على سوريا خلال الحرب العالمية الأولى، ما أكسبه لقب "السفاح".

يُظهر السجل أن رضا الصلح تقاعد من الخدمة الحكومية في 14 شباط/فبراير 1914 بمعاش قدره 1666 قرشاً. وعلى غرار العديد من النواب والوجهاء العرب، كان يُعتبر مرتبطاً بالحزب الليبرالي المعارض. غير أن ذلك الحزب دُمّر وشُتت واعتُبر خارجاً على القانون. ولم يعد من الممكن تصوّر قدرته على العودة إلى السلطة. وبدلاً من ذلك، أحكمت جمعية الاتحاد والترقي سيطرتها على الحكم بقيادة الثلاثي أنور وطلعت وجمال. وعندما نظمت الجمعية الانتخابات في كانون الثاني/يناير 1914 لإضفاء الشرعية على

حكمها، لم يكن للمعارضة أي وجود على الإطلاق. فقد أصبحت إستانبول بالنسبة إلى رضا الصلح وأصدقائه، مكاناً غير ديمقراطي وعدائياً، بل مخفوفاً بالمخاطر.

ربما كان بعض العرب بطيئين في استيعاب التحول نحو القومية التركية الضيقة الذي حدث داخل حركة تركيا الفتاة في الستين الحاسمتين اللتين سبقتا الحرب العالمية الأولى. فقد استمر العرب، وبخاصة المنتمون إلى الجيل القديم، في تعليل النفس بالأمل الضعيف بعودة عقارب الساعة إلى الوراء، واستعادة شكل من أشكال الشراكة العربية التركية. لم يكن ذلك غير منطقي تماماً، لأن تركيا الفتاة بذلت جهوداً مضنية للإيحاء بأن مثل هذه الفكرة تبدو معقولة. كانوا يخشون من أن يميل العرب إلى اتباع مثال البلقان والانفصال عن الإمبراطورية، لذا شرعوا في كسب ودّهم، بل إنهم أخذوا يشددون على أهمية الإسلام كرابط بين العرب والأترك. لقي ذلك الأسلوب استحساناً لدى رجال بارزين مثل الأمير شكيب أرسلان الذي بقي ملتزماً باستمرار بقاء الإمبراطورية الإسلامية، باعتباره أحد مريدي محمد عبده. على أي حال، أعيد شحذ الحساسيات الإسلامية بعد خسارة ليبيا أمام الإيطاليين وثورة دول البلقان بدعم من الغرب، والضربات التي وجهتها أوروبا "المسيحية" إلى الإمبراطورية العثمانية.

شرعت جمعية الاتحاد والترقي بالتخفيف من تدابير "التتريك" السابقة التي حاولت جعل اللغة التركية اللغة المسيطرة في الإمبراطورية. على سبيل المثال، عندما نُقل كامل الصلح، شقيق رضا الأكبر الذي كان يعمل قاضياً عثمانياً منذ مدة طويلة، من موناستير إلى دمشق لرأس محكمة الاستئناف في تلك المدينة، استدعي أولاً إلى إستانبول، ليبلغه نجم الدين ملاّ بك، وزير العدل، أن لغة محكمته أصبحت التركية من الآن فصاعداً⁽¹⁾. وصدرت الأوامر أيضاً بتغيير أسماء الشوارع في دمشق من العربية إلى التركية، فآثار هذان التدبيران استياء مدينة تفتخر بتراتها الأدبية العربي العظيم. وهكذا أصبحت معرفة التركية إلزامية فجأة لرفع دعوى أمام المحكمة⁽²⁾. وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه التدابير الجديدة المكثرة إلى إثارة سخط العرب. وعندما أدرك

(1) مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الثورة الوطنية، دمشق، 1933، ص 2-3، نقلًا عن

.Zeine, Arab-Turkish Relations, pp. 84-85

Seikaly, "Shukri al-'Asali", p. 85. (2)

الأتراك ذلك في سنة 1913، بدأوا بالتراجع عن سياستهم. وفي محاولة واضحة لإرضاء العرب، سُمح بإعادة استخدام العربية في الإدارة الحكومية والمحاكم وكلغة التعليم الأولى في مدارس الولايات العربية ما عدا مدارس النخبة المعروفة بالمدارس "السلطانية". إضافة إلى ذلك، أصبح على الموظفين الأتراك الذين يتولون مناصب في الولايات العربية أن يتقنوا اللغة العربية، ويخضعوا لامتحان في هذه اللغة قبل تسلمهم مناصبهم.

بدأ الاتحاديون مستعدين للتراجع بشأن القضايا الخلافية مثل اللامركزية، وقدموا وعوداً إصلاحية بعيدة الأثر على أمل استعادة ولاء العرب. وقد ساهم عاملان آخران في استرضاء العرب: أحدهما تعيين سعيد حلمي باشا في منصب الصدر الأعظم، وهو أحد أفراد العائلة الخديوية في مصر، وحفيد محمد علي باشا، وأحد المثقفين من ذوي الميول الإسلامية التحديثية. وعلى الرغم من أنه شغل منصب وزير الخارجية في حكومة محمود شوكت باشا، فإن نشأته العثمانية التقليدية بدت كأنها تدلّ على ميل نحو العرب الذين خدموا في الإدارة العثمانية وأصابهم الاضطراب بسبب الإجراءات القاسية الجديدة التي كان قد اتخذها الاتحاديون. والثاني أن كثيراً من العرب البارزين تجتذهم الألقاب والمناصب المرموقة. وقد عيّن العديد منهم، حتى قبل انتخابات 1914، أعضاء في مجلس الشيوخ مثل يوسف سرسق ومحمد يهّهم من بيروت، وأحمد الكيخيا من حلب، وعبد الحميد الزهراوي من حمص، وعبد الرحمن اليوسف من دمشق، ومحي الدين الكيلاني من بغداد. وعيّن اثنان من الدعاة البارزين إلى الإصلاح وهما شكري العسلي وعبد الوهاب الإنكليزي مفتشين في ولاية سورية. وكان شكري العسلي قد رحّب في سنة 1908 بثورة تركيا الفتاة ووصفها بأنها فجر "دولة جديدة" تسود فيها الوحدة والمساواة. لكنه غيّر رأيه من دون شك بحلول سنة 1912. ومن الواضح أن تعيينه مفتشاً قُصد به إعادته إلى دائرة الولاء⁽¹⁾.

جاذبية الجمعيات السرية

فضّل العرب المتقدمون في السن، مثل رضا الصلح الذين أمضوا حياتهم في الخدمة العثمانية، الاطمئنان إلى هذه الإيماءات، لكن لا يمكن قول ذلك عن الشباب العربي الذين تزايدت شكوكهم في نوايا جمعية الاتحاد والترقي. بدلاً من ذلك، تقاطر العرب

المستعلمون في العشرينيات والثلاثينيات من العمر إلى العديد من الجمعيات والأحزاب السرية التي تشكّلت لحماية الحقوق العربية والدفاع عن القضايا العربية. ومن المفارقة أن هذا المخطط وضعته جمعية الاتحاد والترقي نفسها، لأنها بدأت جمعية سرية ثم استولت على السلطة وفرضت حكمها على جميع أنحاء الإمبراطورية. بحلول نهاية سنة 1912، أصبحت الجمعيات السرية العربية شائعة ومتنوعة.

أهم تلك الجمعيات هي "العربية الفتاة" الفائزة السرية، وهي منظمة عربية إسلامية أسسها خمسة طلاب عرب في باريس في 14 تشرين الثاني/نوفمبر 1909. وكان هدفها حصول العرب على الحكم الذاتي في إطار إمبراطورية ثنائية القومية - عربية وتركية - على غرار الإمبراطورية النمساوية المجرية. كما كانت تطمح إلى النهوض بالأمة العربية إلى مصاف الغرب. بعد مرور عام أو نحو ذلك على تأسيسها، سمع رياض الصلح همسات عن وجودها، فكتب إلى جميل مردم في دمشق، وهو أحد مؤسسيها على ما يقال، طالباً دخولها. وظل عضواً في الجمعية حتى حُلّت بعد الحرب العالمية الأولى. بل إن رياض اتصل قبل ذلك بجمعية سرية أخرى هي "القحطانية"، التي تأسست في إستانبول بقيادة ضابط مصري من أصل شركسي، يدعى عزيز علي المصري.

طبقاً لسجلات عائلة الصلح، فإن رياض ذهب في بداية سنة 1913 لتأدية بيمين الولاء للقحطانية، يرافقه رجل أكبر منه سناً هو نوري السعيد. وكان سعيد قد قدم من بغداد إلى العاصمة العثمانية بمنحة للدراسة في الكلية العسكرية. كانت مراسم الانتساب إلى الجمعية قصيرة. فبعد أن قرأ أحدهم ما وُصف بأنه "الملف الوطني" لرياض ونوري، أعلن أن الرفيقين "فوق الشبهات"، وأصبحا من فورهما عضوين في الجمعية. أعطيا شارة وكلمة سر، وأبلغا عن الوسائل السرية للتعرف إلى الأعضاء الآخرين. وبعد ذلك أنشدا معاً شعار الجمعية: "أيها العرب! يا أبناء قحطان...". وعلى غرار الجمعيات الأخرى في ذلك الوقت، لم يكن برنامج القحطانية ثورياً بحق. وإنما يرمي إلى السعي لتحقيق الحكم الذاتي العربي ضمن إمبراطورية عثمانية، يضع فيها السلطان تاجاً تركياً عربياً مزدوجاً.

لم يُعجب ذلك رياض الصلح، وسأل وهو يعيد شعار الجمعية على الفور، "كيف لنا أن نرفع رؤوسنا عالياً إذا كان يحكمنا تاج أجنبي؟" لذا لم تتجاوز عضويته في

القحطانية عشر دقائق. وقال لنوري السعيد: "الحرية ليست بطيخة تشتري حوزاً. إما الكل وإما فلا!" فأجابه نوري: "ستوصلك مثل هذه الأفكار إلى المشنقة قبل أن تبلغ الثامنة عشرة". فرد رياض بسرعة: "أتساءل عن نوعية الموت الذي ستلقاه. هل أحلى الميتات في سن المئة؟"

روى نوري السعيد هذه القصة لعائلة الصلح عندما جاء ليقدم واجب العزاء بعد اغتيال رياض في سنة 1951. في ذلك الوقت، كان نوري السعيد يهيمن على السياسة العراقية منذ أمد طويل. لكنه واجه ميتة رهيبة بعد ذلك بسبع سنوات. عندما اندلعت ثورة 1958، حاول الهرب من بغداد متخفياً بنقاب امرأة، لكن الغوغاء تعرّفوا إليه وقتلوه.

ظهرت جمعية "العهد"، وهي الصنو العسكري لجمعية الفتاة، من ثنايا "القحطانية". وقد أسسها عزيز علي المصري في تشرين الأول/أكتوبر 1913، واتخذت لها فروعاً في بغداد والموصل، وربما انخرط في صفوفها ما يقرب من 250 ضابطاً عربياً. ظل عزيز، الذي خدم بامتياز في الجيش العثماني، وبخاصة في ليبيا، موالياً للعثمانية. لكن بعد شجاره مع أنور باشا في ربيع 1914 (لأن الأخير عندما أصبح وزيراً للحربية، قام بتسريح أكثر من 300 ضابط)، غادر إستانبول وعاد إلى القاهرة. ويُقال إنه جسّ نبض المسؤولين البريطانيين هناك حول فكرة إقامة دولة عربية مستقلة تحت رعايتهم. من الواضح أن عزيز، مثله مثل الكثيرين في تلك الفترة الانتقالية المحيرة، كانت تتنازعه ولاءات متعارضة ومتنافرة⁽¹⁾.

كانت "العربية الفتاة" و"العهد" جمعيتين سريتين، في حين أن "حزب اللامركزية الإدارية العثماني"، الذي أسس في القاهرة في نهاية سنة 1912 بعلم الحكومة التركية الستام، كان حزباً سياسياً مفتوحاً أمام كل المواطنين العثمانيين العرب وغير العرب ما داموا يؤيدون أهدافه⁽²⁾. غير أن أعضائه كانوا من المهاجرين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين الذين توافدوا على مصر في ظل مناخ الاستقرار السياسي النسبي الذي ازدهر لفترة قصيرة بعد الاحتلال البريطاني في سنة 1882.

(1) Kayali, *Arabs and Young Turks*, pp. 177-178, 186.

(2) Zeine, *Arab-Turkish Relations*, pp. 2-3.

بروز الحركة الإصلاحية

شعر الباب العالي بالقلق من هذه النزعة لإثبات الذات - أو حتى من تمرّد وشيك - في الولايات العربية، فقرّر السماح للوجهاء العرب بتقديم اقتراحاتهم للإصلاح المحلي. كانت بيروت السبّاقة إلى ذلك، وتقدّمت حركة سرعان ما انتشرت في الأماكن الأخرى. في كانون الثاني/يناير 1913، أنشأ وجهاء مسلمون ومسيحيون "جمعية الإصلاح لولاية بيروت". ومن أعضائها المؤسسين البارزين، كامل الصلح، عم رياض الصلح الذي عمل قاضياً عثمانياً في دمشق. كانت بيروت مهيمّة جداً لمثل هذا التطور. فقد أنشأت تجارها الخارجية الواسعة طبقة تجارية وسطى تنوّق إلى التخلص من نير سيطرة إستانبول. وكانت الطبقة العمالية الناشئة أكثر قوة وتنظيماً في بيروت مما هي عليه في أي مدينة عربية أخرى. وفي وسع هذه المدينة أن تفاخر باحتضانها حياة ثقافية ناشطة بفضل انتشار المدارس - التابعة للدولة والخاصة منها والتبشيرية - ومؤسسات التعليم العالي الشهيرة. ولعبت مطابع الجامعات دوراً فعالاً في تمكين بيروت من أن تصبح مركزاً لنشر الكتب العربية. ومن الأمثلة المهمة عما طُبّع موسوعة المعارف التي صنّفها بطرس البستاني (1819-1883) وتابعتها عائلته بعد وفاته. ووفق ذلك كله، تدين المدينة بتفوقها الثقافي إلى الانتشار الواسع للصحف والمجلات، بما في ذلك صحيفة المفيد الجريئة، لسان حال جمعية "العربية الفتاة" التي اشترك في تأسيسها وملكيتهما مع فؤاد حنتس، شاب لامع في أوائل العشرينيات من عمره يدعى عبد الغني العريسي⁽¹⁾. ومن الصحف البارزة الأخرى التي حملت لواء القضية العربية المُقتبس الدمشقية لصاحبها ومحررها محمد كرد علي.

ساهمت نخضة اللغة العربية في الكتب والمنشورات الحديثة في نخضة العرب القومية. ففي ظل الاضطراب الثقافي في ذلك الوقت، سادت أفكار الخوف من السيطرة الغربية، والعداء لاستيلاء الصهيونية الأوروبية على الأرض في فلسطين،

Rashid Khalidi, "Ottomanism and Arabism", in Khalidi et al. (eds), *The Origins of* (1)

Arab Nationalism, p. 56؛ انظر أيضاً مقالته عن عبد الغني العريسي والمفيد. في ولاية بيروت التي

شملت معظم الشاطئ المتوسطي من شمال يافا إلى شمال اللاذقية ارتفع عدد المدارس الحكومية من 153

عام 1886 إلى 359 عام 1914.

والارتباط العميق بالإسلام فضلاً عن الرغبة في الإصلاح الإسلامي، والاعتقاد المتزايد بضرورة استقلال العرب عن السيطرة التركية التي اشتدت تعصباً. اتحدت هذه الأفكار مع مفاهيم الوطنية، وحرية التعبير وحقوق الإنسان، التي تشكل جزءاً من الإرث العالمي. وأيقظت تلك السنوات الأمل بالتغيير بين المفكرين في كل مكان في المنطقة، بما في ذلك في هذا المرفأ المتنامي في شرق المتوسط.

عقدت جمعية الإصلاح، التي تألفت من 86 عضواً من كل "مجالس الملل" التي تمثل جميع الطوائف في المدينة، اجتماعها الأول في 12 كانون الثاني/يناير 1913 برئاسة كل من محمد بيهم ويوسف سرسق. وفي محاولة للتوسط بين الإصلاحيين النافذين الصبر والحكومة العثمانية المترددة، صاغت لائحة إصلاحية أملت أن ترضي الطرفين.

تم الإعلان عن هذه اللائحة الإصلاحية بعد مرور أيام قليلة فقط على انقلاب 23 كانون الثاني/يناير 1913 الذي أعاد "جمعية الاتحاد والترقي" إلى السلطة، وقد تم إقرارها في اجتماع الجمعية الثالث في 31 من الشهر عينه. تألفت اللائحة من 15 مادة، نصت المادة الأولى منها على بقاء شؤون الولاية الخارجية، بالإضافة إلى كل ما يتعلق بالجيش، والرسوم الجمركية، والضرائب، والبريد والتلغراف، في يد حكومة إستانبول. أما شؤون الولاية الداخلية فيعهد بما إلى مجلس الولاية المنتخب محلياً. وإذا حصلت خلافات لا يمكن حلها بين المجلس والوالي العثماني، يكون لدى المجلس صلاحية عزل الوالي بأغلبية ثلثي الأعضاء. ونصت المادة 14 على الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للولاية.

لم يكن من المفاجئ ألا ينظر حكام إستانبول الجدد بعين الرضى إلى مبادرة جمعية الإصلاح الجريئة، وأن يعتبروها تحدياً لسلطتهم التي انتزعوها بصعوبة. وكانوا يكرهون صحيفة المفيد والآراء القومية العربية لكتابها ومن بينهم رياض الصلح. وعلى الرغم من أن جمعية الاتحاد والترقي قدّمت بعض التنازلات في مجال اللغة المستخدمة - العربية أو التركية - فقد اعتُبر أي اقتراح يشير إلى الرغبة في الانفصال غير مقبول على الإطلاق.

بعد وقت قصير من استيلاء الاتحاديين على السلطة في كانون الثاني/يناير، عاد حازم باشا إلى منصبه والياً على بيروت وحل محل أدهم باشا الذي عينته في ذلك المنصب حكومة "الحرية والائتلاف" السابقة. كان حازم باشا مصمماً على القضاء

على اللائحة الإصلاحية، فبدأ بإغلاق صحيفتين من صحف بيروت. وقد أفاد مراسل جريدة "الأزمة" *Le Temps* الباريسية من بيروت في 12 آذار/مارس 1913 أن الوالي استدعى شكري العسلي، نائب دمشق السابق وأحد الإصلاحيين البارزين ليعرض عليه منصب متصرف اللاذقية. ويقال إن العسلي أجابه: "نحن العرب لا نفتش عن مناصب مربحة ولكن عن إصلاحات جدية تنفذها وتضمنها حكومة السلطنة العثمانية"⁽¹⁾. لكن حازم باشا لم يتراجع، بل حلّ "جمعية الإصلاح"، وألقى القبض على قادتها وأغلق أبواب ناديها - وكلها تدابير تعسفية أثارت رد فعل قوي جداً واحتجاجاً شديداً، ما اضطره إلى التراجع والإفراج عن المعتقلين من دون شروط. وفي الوقت ذاته، أغلقت السلطات التركية في دمشق الفرع المحلي لحزب اللامركزية الإدارية العثماني.

المؤتمر العربي في سنة 1913

عندما أسكتت الحركة الإصلاحية في بيروت، علا صوتها في باريس. فقد دعا ثمانية شبان عرب - مسلمين ومسيحيين - وفوداً من كل الولايات العربية. إلى مؤتمر عربي عامّ يعقد في العاصمة الفرنسية. وتولّى أمانة سرّ اللجنة التحضيرية عبد الغني العريسي رئيس تحرير صحيفة المفيد، الذي كان في ذلك الوقت في باريس يدرس الصحافة. عُقد المؤتمر في 18 حزيران/يونيو 1913. كانت تلك المرة الأولى منذ سقوط دول الخلافة العربية المبكرة التي يجتمع فيها مندوبون عن كل الولايات العربية بالإضافة إلى مهاجرين من أوروبا والأميركتين لمناقشة معضلة أمتهم والتخطيط لمستقبلها. جاء عدة مندوبين من بيروت من بينهم سليم علي سلام. وكان قد شغل رئاسة بلدية بيروت ومؤسسة المقاصد التربوية المهمة⁽²⁾ التي زوّدت مدارسها عدة أجيال من الطلاب بتعليم ممتاز باللغة العربية. وجاء مندوبون آخرون من حزب اللامركزية الإدارية العثماني في القاهرة بالإضافة إلى ممثلين عن الجالية السورية في باريس. ترأس الجلسات عبد الحميد الزهراوي، ممثلاً حزب اللامركزية. وكان ذا مكانة مرموقة لا

(1) Zeine, *Arab-Turkish Relations*, note 54, p. 95.

(2) Ziadé, 'Beyrouth', p. 64.

لأنه نائباً بارزاً في البرلمان العثماني فحسب، وإنما أيضاً لأنه أصدر في إستانبول جريدة الحضارة التي كانت واسعة الانتشار في كل الولايات العربية⁽¹⁾.

تمحورت وقائع الجلسات حول أفكار الحقوق العربية ضمن الإمبراطورية، والعداء للاحتلال الأوروبي واللامركزية الإدارية. لم يأت أي ذكر للانفصال عن إستانبول⁽²⁾. بل شدد كل الخطباء - خلافاً لذلك - على الرغبة العامة في المحافظة على سلامة الإمبراطورية، شرط أن يعترف الأتراك بالعرب شركاء لا تابعين. وقد تزامن اغتيال محمود شوكت باشا في إستانبول، وهو عراقي المولد، مع يوم انتهاء جلسات المؤتمر العربي في 24 حزيران/يونيو، وأثار ذلك المشاعر.

فشلت جمعية الاتحاد والترقي في منع انعقاد المؤتمر، فأرسلت وفداً إلى باريس للتفاوض مع أعضائه. وبعد مناقشات طويلة، جرى التوقيع على اتفاق يحقق عدة مطالب عربية بما في ذلك اللامركزية الإدارية، وتحديد حصص العرب من الولاية والمتصرفين وأعضاء مجلس الشيوخ، واستخدام العربية في إدارة الولايات العربية وفي مدارسها على جميع المستويات، وأن تكون الخدمة العسكرية محلية، وما إلى ذلك. لكن ظهرت عقبة خطيرة بعد ذلك. فقد كشف جواسيس جمعية الاتحاد والترقي فجأة عن أن عضوين مسيحيين في الوفد البيروتي - وهما الدكتور أيوب ثابت و خليل زينية - عقدا اجتماعات سرية مع مسؤولين فرنسيين قبل الانجاء إلى باريس.

تلقت الحكومة الاتحادية في إستانبول هذه المعلومات لتدمير صدقية حركة الإصلاح في بيروت واتهامها أنها مؤامرة مسيحية⁽³⁾. وجد المندوبون المسلمون، الذين لم يكونوا على علم بهذه الاجتماعات، أنفسهم محرجين ومعرضين للشبهة، فقرروا تسوية مسائل الإصلاح من الآن فصاعداً مع الحكومة العثمانية مباشرة. ولهذا الغرض، توقف ثلاثة أعضاء من الوفد البيروتي، وهم سليم علي سلام وأحمد مختار بيهم وأحمد طّبارة، في إستانبول في طريق العودة وأقسموا بيمين الولاء للخليفة والدولة العثمانية عند اجتماعهم بالسلطان محمد رشاد. وذهب عبد الحميد الزهراوي إلى إستانبول أيضاً

Khalidi, "Ottomanism and Arabism", p. 60. (1)

Kayali, *Arabs and Young Turks*, pp 135-138, Tarabein, 'Abd al-Hamid al-Zahrawi', (2) p. 104.

Kayali, *Arabs and Young Turks*, p. 141. (3)

للتفاوض مع جمعية الاتحاد والترقي على تنفيذ الإصلاحات المتفق عليها. وفي محاولة واضحة لكسب ولائه سمي عضواً في مجلس الشيوخ، إلى جانب ست شخصيات عربية أخرى، بموجب مرسوم سلطاني. اختار الزهراوي أن يرى في تعيينه دليلاً على حسن نية الاتحاديين، لكن الشبان العرب الأصغر سناً رأوا في قبوله المنصب نوعاً من الخيانة لقضيتهم. ومن سوء حظ الزهراوي أن الباب العالي لم يكن لديه ما يدعوه للتعجيل في تنفيذ الإصلاحات التي وعده بها. وقد شعر بالإحباط من تأجيل التنفيذ المتكرر، فغادر إلى القاهرة حيث مكث عدة أشهر قبل العودة ثانية إلى إستانبول⁽¹⁾.

في أعقاب المؤتمر العربي غير الناجح، بدا أن حركة الإصلاح في سوريا قد تلاشت. بل إن بعض الوجهاء من أمثال الأمير شكيب أرسلان وعبد الرحمن اليوسف ومحمد فوزي باشا العظم، والشيخ أسعد الشقيري ذهبوا إلى حد إعلان معارضتهم للمؤتمر العربي، وأكدوا أنه لا يمثل الرأي العام. وسادت حالة من الارتباك الحقيقي في ذلك الوقت. ظلت الغالبية الساحقة من الجيل القديم عثمانية الولاء، وفضّلت المحافظة على الروابط العربية مع الإمبراطورية. واعتقد آخرون أن الحل هو إقامة خلافة يتولاها خديوي مصر عباس حلمي أو أحد أعضاء العائلات العربية الحاكمة. شعر بعضهم أن الخطر الأعظم مصدره الشوفينية العرقية واللغوية للاتحاديين، بينما اعتقد آخرون أن المطامع الأوروبية الاستعمارية هي التي تمثل الخطر الأشد. وخاف بعضهم من حصول انهيار عثماني، وآخرون من انتصار عثماني. وأولى موارد لبنان ثقتهم لفرنسا، بينما مال بعض الوجهاء المسلمين نحو بريطانيا. وشعر التجار بالقلق من احتمال أن يضع الباب العالي يده على الغذاء والوقود، ويرفع الضرائب، ويجمع القروض بالإكراه لسداد تكاليف حروب البلقان الكارثية. وظن كثيرون أن الحكم الذاتي العربي لا يمكن تحقيقه إلا بمساعدة أجنبية، مع أنه هدف يشترك فيه الجميع.

في خضم كل هذه الفوضى أخذت نواة متشددة من الشبان العرب المسيّسين ترى أن الهدف يجب ألا يكون الحكم الذاتي، بل الاستقلال التام. وفي نهاية سنة 1913، اتضح للعديد منهم أن جمعية الاتحاد والترقي لن تنفذ أيّاً من الإصلاحات التي طالب العرب بها. لم تكن فكرة الاستقلال العربي الكامل لتخطر على بال هؤلاء الرجال

لو لم يدفعها إلى ذلك الاتجاه سلوك الاتحاديين الوحشي الأحق الذي يتسم بالغباء السياسي⁽¹⁾. فقد أدى القمع الذي مارسوه على جمعية الإصلاح في بيروت وفرع حزب اللامركزية في دمشق، إلى تحريض "العربية الفتاة" على توجيه طاقاتها الكبيرة نحو العمل السري. أصبحت بيروت المركز الرئيسي لأنشطتها في نهاية سنة 1913 وافتتح فرع لها في دمشق أيضاً⁽²⁾. وصار أفرادها في ذلك الوقت يعرفون بعضهم بعضاً بصورة جيدة، واكتسبوا فهماً أعمق للمشاكل الخاصة بكل ولاية عربية. وبدؤوا العمل لتحقيق هدفهم في سرية عالية.

عائلة الصلح والحرب الكبرى

عندما اندلعت الحرب بين القوى الأوروبية في آب/أغسطس 1914، لم يكن سوى قلة قليلة تتوقع أن يمتد الصراع إلى الشرق الأوسط. لكن في 2 آب/أغسطس وقّع العثمانيون معاهدة سرية مع ألمانيا ترمي إلى حد كبير إلى حماية إمبراطوريتهم من روسيا، عدوهم التقليدي. ثم دخلوا في مفاوضات مع بريطانيا وفرنسا لبحث سبل التوصل إلى أساس يمكنهم من الوقوف على الحياد في الحرب. كان شرطهم الأساسي إلغاء الامتيازات الكريهة التي أبقت الإمبراطورية رهيبة المصالح الأوروبية لعدة قرون. عندما رفضت قوى الوفاق الثلاث - بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا - تقديم تنازل في هذه المسألة، قامت الحكومة العثمانية بإلغاء الامتيازات، من جانب واحد، ابتداء من أول تشرين الأول/أكتوبر. بعد أقل من شهر، في 29 تشرين الأول/أكتوبر، دخلت الإمبراطورية الحرب إلى جانب دول الحلف الثلاثي المكوّن من ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية وإيطاليا. فأسفر ذلك عن فتح جبهة جديدة في الشرق الأوسط.

ثمّة أسباب مقنعة دفعت العثمانيين للوقوف إلى جانب الألمان ضد قوى الوفاق الثلاثي المكوّن من روسيا وبريطانيا وفرنسا. ولعل أهم هذه الأسباب تعهّد ألمانيا، في حال النصر، بإعادة العديد من الأراضي التي كانت الإمبراطورية العثمانية قد خسرتها في أوروبا، بالإضافة إلى قبرص ومصر اللتين احتلّهما البريطانيون. وبما أن الضباط

(1) Khalidi, "Ottomanism and Arabism", p. 43.
 (2) Muslih, "The Rise of Local Nationalism", p. 168.

الألمان يدربون الجيش العثماني منذ ثلاثة عقود، فإنه كان معتاداً على الطرق الألمانية ومقتنعاً بانتصار ألمانيا. كان محمود شوكت باشا، القائد العسكري القدير الذي قضى على الثورة المضادة في 13 نيسان/أبريل 1909، نتاج التدريب العسكري الألماني، كما أن أنور باشا، وزير الحربية، خدم كملحق عسكري عثماني في برلين.

كان الجيش العثماني في ذلك الوقت يتوق للثأر من هزيمته في حروب البلقان. وعندما استولت الحكومة البريطانية على سفينتين حربيتين تبنيان في أحواض السفن البريطانية لحساب البحرية العثمانية، قدّمت ألمانيا للعثمانيين سفينتين بدلاً منهما، غوبان Goeben وبرسلو Breslau. تمكنت هاتان السفينتان من مراوغة الأسطول البريطاني ووصلتا إلى الدردنيل. وعلى الرغم من أنهما مزودتان بأطقم ألمانية ويقودهما ضباط ألمان، فقد أصبحتا رسمياً ملكاً لتركيا، وانضمتا في نهاية تشرين الأول/أكتوبر 1914 إلى بقية قطع الأسطول العثماني في قصف الموانئ الروسية على البحر الأسود. فأعلنت دول الوفاق الثلاثي الحرب على الإمبراطورية العثمانية.

بعد ذلك بأسبوع، احتشدت فرقة من الجيش البريطاني الهندي في البحرين استباقاً للأعمال العدائية، فاحتلت الفاو على مصب شط العرب، حيث يلتقي نهر دجلة والفرات، وبدأت تقدمها البطيء والصعب شمالاً في مواجهة مقاومة تركية شديدة. وبعد ذلك أصيب البريطانيون بنكسة كبيرة في نيسان/أبريل 1916 عندما تم تطويق عشرة آلاف جندي من قوات الحملة الهندية وأُجبروا على الاستسلام للأتراك في كوت العمارة (في العراق). ولم يستطع البريطانيون أن يشنوا هجوماً مضاداً جديداً إلا في بداية سنة 1917، وقد أدى إلى احتلال بغداد في آذار/مارس من العام نفسه.

أرسلت حكومة الهند البريطانية قوة عسكرية إلى العراق بالنيابة عن لندن لحماية الخليج العربي من تسلل العملاء الألمان إليه. فقد كان يُخشى من أن يهدد الألمان الكويت، ويحوّلوا إيران وحقوقها النفطية الحيوية إلى الجانب الألماني، بالإضافة إلى مصفاة النفط الجديدة التي بنتها شركة النفط البريطانية الإيرانية في عبادان. وإذا سقطت إيران في أيدي العدو، فإن أفغانستان والطريق إلى الهند ستصبحان عرضة لهجوم ألماني خطير. لذا نوقشت على عجل في لندن ودلهي مسألة ضمّ البصرة وربما بغداد إلى الإمبراطورية البريطانية.

أثارت الحرب لدى الوجهاء العرب مثل آل الصلح معضلة رهيبة: إلى أي طرف ينحازون؟ كان رضا الصلح قد خدم الإمبراطورية كحاكم ناحية وعضواً في البرلمان، وهو الآن يتقاضى معاشاً تقاعدياً من الدولة العثمانية. كما أنه عضو بارز في النخبة العثمانية الحاكمة، مثله مثل الأعيان العسكريين والمدنيين والدينيين. ولم يكن يشعر بتعارض بين هوياته العثمانية والإسلامية والعربية المتداخلة. مع ذلك فإن الإمبراطورية التي طالما خدمها بإخلاص شهدت تغيراً جذرياً. وقد رأى بأم العين كيف استولت مجموعة من الرجال القساة على السلطة في إسطنبول، وسُحق الحزب الليبرالي - أي حزب الحرية والائتلاف - الذي انتمى إليه، ورُفضت اقتراحات العرب بشأن الإصلاح واللامركزية والحكم الذاتي بصلف، وكيف أخذ التفوق التركي الضيق، بل العرقي، يحل محل "الأمة الإسلامية" العظيمة - التي طالما مثلتها الإمبراطورية المتعددة الأعراق. لقد تقلّصت مكانة العرب السياسية والاجتماعية وانحدرت بسرعة. كان رضا يدرك جيداً أن ولده رياض، مثله مثل الشبان الآخرين في عمره، يميلون إلى جانب الثوار العرب الذين انخرطوا في جمعيات سرية، ويحلمون بالاستقلال عن الأتراك تماماً. لكن هل يكفي ذلك للانقلاب على التزام دام طوال العمر؟ أولاً تزال هذه الإمبراطورية الإسلامية التي كانت جبارة ذات يوم تمثل الدرع الفعالة الوحيدة في وجه بريطانيا وفرنسا وروسيا وخطرها الداهم على العالم الإسلامي بأكمله؟ الإمبراطورية في حالة حرب الآن، أوليس من واجبه الإسراع إلى الدفاع عنها؟ إن جمعية الاتحاد والترقي، بالرغم من كل أخطائها، هي الحكومة السلطانية الآن. ومن المخيف تصوّر هزيمتها، لأن ذلك سيفتح الباب أمام الهيمنة الأوروبية المباشرة والخسارة المحتومة للأرض، وعنف وفوضى لا يمكن توقّع أشكالهما.

لذا لم يكن مفاجئاً أن يختار رضا الصلح وأصدقاؤه وزملاؤه الكثير في بيروت ودمشق وحلب والقدس ومدن عربية أخرى كبت شكوكهم وتعليق المطالبة بالإصلاح والإعلان عن تأييدهم للحكومة العثمانية التي أصبحت الآن صورية فحسب. كانت المفارقة المريرة، أن إسطنبول لم تبال بهم كثيراً لأن اندلاع الحرب قلّص نفوذ العرب السياسي كثيراً. ونظراً لأن جمعية الاتحاد والترقي كانت تستبعد دائماً ولاء العرب وتشكّك بوفائهم، فقد مال زعماءها الثلاثة، طلعت وأنور وجمال، إلى مزيد من تكميم أفواه الناشطين - لاسيما الذين دعوا إلى الإصلاح في السابق.

لم يكن الموقف الاتحادي العدائي والقصير النظر من دون أساس البتة. فقد وصلت معلومات إلى إستانبول أن بعض المنفيين العرب في القاهرة، المرتبطين بحزب اللامركزية، اتصلوا بمسؤولين فرنسيين وبريطانيين. كما أن بعض الزعماء في بيروت أثاروا مع القنصل البريطاني إمكانية توسيع الحكم المصري (وهي عبارة ملطّفة تفيد الحكم البريطاني) إلى سوريا. لذلك جاء رد فعل إستانبول سريعاً وحازماً. ففي 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1914، وفي محاولة لحشد المسلمين المترددين حول القضية العثمانية، أمر السلطان شيخ الإسلام في الإمبراطورية بإصدار فتوى تعلن الجهاد على الحلفاء، ما جعل نخوض المسلمين كافة للدفاع عن الأماكن المقدسة في الحجاز والقدس فريضة دينية.

في كانون الأول/ديسمبر، عُيّن جمال باشا حاكماً لدمشق على رأس 100 ألف جندي من الجيش الرابع، وهو وزير البحرية الذي أعدم العديد من أعضاء حزب "الحرية والائتلاف" المعارض بصفته حاكماً عسكرياً لإستانبول. وكانت مهمته القضاء تماماً على كل حركة انفصالية وفرض النظام بصرامة شديدة. وتقرّر أن يتصدّى لأي محاولة بريطانية للدخول إلى الولايات العربية ويدحرها. فبدأ مهمته بفرض اللغة التركية في كل المعاملات الرسمية. ونقل القوات العربية - التي اعتبرها غير جديرة بالثقة - إلى ميادين الحرب البعيدة والأشد خطورة. وفي شباط/فبراير 1915، شن هجوماً بنحو 25 ألف جندي تركي على قناة السويس بغية استنقاذ مصر من البريطانيين، الذين كانوا قد عزلوا الخديوي عباس حلمي الثاني وأحكموا قبضتهم الحديدية على البلاد. وعلى الرغم من نجاح القوات البريطانية والهندية البريطانية في رد الهجوم، بمساعدة مدفعية السفن الحربية الفرنسية والبريطانية المتمركزة في قناة السويس (وهي القناة التي اعتقد السلطان عبد المجيد محقاً أنها ستشكل ثغرة في الدفاع العثماني)، فإن البريطانيين أدركوا الأهمية الاستراتيجية لفلسطين وقناة السويس في الدفاع عن مصر. وفي آب/أغسطس 1916، شن جمال باشا هجوماً ثانياً، غير أنه هُزم مرة أخرى.

في محاولة لإظهار أن للحكومة العثمانية حلفاء أقوياء في الولايات، أمر جمال باشا بتعبئة القوى المحلية التي يمكن الاعتماد عليها لمساندة القوات التركية: قوة بدوية بقيادة الأمير علي بن الشريف حسين أمير مكة؛ ووحدة عسكرية درزية بقيادة الأمير شكيب

أرسلان؛ ووحدة كردية بقيادة عبد الرحمن اليوسف، وخليط من الوحدات الأخرى، يتكوّن كل منها من 300 مقاتل قدمها المسلمون البلغار والشركس⁽¹⁾. ولكن لم تشارك سوى القليل من هذه الوحدات عملياً في القتال، فقد كان القصد من إنشائها الدعاية السياسية المحلية أكثر من أي شيء آخر.

حاول البريطانيون من جهتهم، إثارة القلاقل والثورات لشلّ حركة القوات العثمانية. فسعوا لإقناع عزيز علي المصري بدفع الضباط العرب المتذمرين في الجيش التركي في العراق للالتحاق بجيشهم. ولعل الأهم من ذلك بالنسبة إلى أحداث المستقبل الاتصالات التي أجراها الأمير عبد الله بن الشريف حسين، مع البريطانيين قبل نشوء الحرب. فقد كان يرغب في معرفة ما سيكون عليه موقف بريطانيا إذا ما قرّر الثورة على الأتراك.

تحددت هذه الاتصالات بوتيرة أسرع بُعيد ابتداء الحرب. رأى المخططون الاستراتيجيون البريطانيون أن الطريق الواضحة لتوجيه ضربة عسكرية إلى تركيا تمر بالأراضي العربية. لذا من الضروري استمالة العرب إلى جانب الحلفاء. وكان يُعتقد أن نسب الشريف حسين الذي يعود إلى النبي محمد ﷺ وسيطرته على الأماكن الإسلامية المقدسة، يعطيان نفوذاً هائلاً بين العرب. بدا ذلك أمراً ملحاً بعد كارثة عملية غاليلي. ففي شباط/فبراير 1915، هاجمت السفن البريطانية والفرنسية الدردنيل لفتح الطريق أمام الهجوم على إسطنبول، لكنها رُدّت على أعقابها وأُجبرت على التراجع متكبدة خسائر كبيرة. ثم نزلت القوات في غاليلي في نيسان/أبريل، إلا أنها انسحبت في نهاية السنة عندما واجهت مقاومة تركية عنيفة عزّزها وصول قوات جديدة من سوريا. وبحلول كانون الثاني/يناير 1916 تم التخلّي عن عملية غاليلي. في ذلك الوقت، برزت في لندن وباريس الفكرة الشيطانية بأن دفع العرب للثورة على الأتراك في تلك اللحظة الحرجة بالذات، يمكن أن يلحق الهزيمة بالإمبراطورية العثمانية.

لعب الحسين شريف مكة أوراقه بحذر. فحرص على الاحتفاظ بعلاقاته مع إسطنبول التي تعتمد عليه في تأييد القضية العثمانية بينما كان يتبادل الرسائل السرية مع البريطانيين. وفي حركة تمويهية خبيثة، أرسل راية الرسول ﷺ - التي احتفظت بها

عائلته الهاشمية على مدى قرون - في جولة إلى الولايات العربية. وقد استقبلها يوم وصولها إلى دمشق في 1 كانون الثاني/يناير 1915 أكبر حشد شهدته المدينة على الإطلاق.

بما أن الشاب رياض الصلح يتكلم التركية بطلاقة، فقد عهد إليه رفاقه في "العربية الفتاة" بمهمة التجسس على جمال باشا وأركان حربه. أفاد رياض أن الأتراك يعلقون آمالاً كبيرة على وجود الراية لتعبئة الناس إلى جانبهم. وكان جمال باشا قد ركع أمام الراية وقبّلها قائلاً لمساعديه "لن يجرؤ أحد الآن على التخلّي عن معسكرنا أو حتى الوقوف على الحياد إلا إذا كان منافقاً وقحاً"⁽¹⁾.

في أيار/مايو 1915 أرسل الشريف حسين ابنه الثاني، الأمير فيصل، كان في الثلاثين من العمر، إلى سوريا من الحجاز ليجتمع بجمال باشا في مقره العام في دمشق ويطلب السلاح والمال. لم يكن الشريف حسين يتوقع أن تستجيب الحكومة العثمانية لطلبه. بل لقد وقعت بين يديه وثائق تظهر وجود خطط تركية لخلعه. لذا أمر ابنه أن يستغل فرصة زيارته إلى دمشق للاتصال بالقوميين العرب أعضاء "العربية الفتاة". والواقع أن الأمير فيصل أرسل مرتين إلى دمشق لهذه الغاية. اعتذر فيصل عن قبول دعوة جمال باشا للإقامة في مقره، ونزل بدلاً من ذلك في منزل صديقيه نسيب وفوزي البكري، حيث ظنّ أنه سيكون بمنأى عن المراقبة التركية.

اجتمع أكثر من عشرة ثوار شبان في منزل البكري سرّاً لمقابلته. وبينما كانوا مجتمعين ذات ليلة في انتظار الأمير وهم يشوون الكستناء، قفزوا مذعورين عندما فرقت حبة كستناء فاعتقدوا أنها طلقة رصاص! وكان الأخوان البكري يقيمان ولائم حاشدة كل مساء في الطابق السفلي من منزلهما بغية إخفاء المداورات السرية الجارية في الطابق العلوي. في البداية كان الشبان القوميون حذرين من فيصل معتقدين أن رصيد عائلته الديني سيجعلها تقف تلقائياً إلى جانب العثمانيين. لكن سرعان ما اطمأنوا.

أخير رياض الصلح ابنته علياء، في ما بعد، أنه كُلف بعد أحد هذه الاجتماعات السرية بنقل رسالة من فيصل إلى وجهاء صيدا وصور والبلدات والقرى الأخرى في جنوب لبنان. وعندما غادر دمشق في طريقه إلى الجنوب، أوقفته دورية تركية. فاستل

خنجرًا شركسيًا صغيراً من جزمته - وهو هدية ثمينة من والدته - وأغمده في ذراع الشاويش التركي الذي حاول اعتقاله وفرّ هارباً. لكن سرعان ما قبض عليه وتلقّى ضربة أفقدته الوعي وأسقطت طربوشه عن رأسه. كان ذلك من حسن التقادير، لأن رسالة الأمير فيصل إلى وجهاء جنوب لبنان مخيطة داخل بطانة الطربوش. عندما استعاد رياض وعيه، وجد نفسه مقيداً في خندق. تمكّن من تحرير إحدى يديه، وبذل جهداً كبيراً لانتزاع الرسالة السريّة التي تدينه من طربوشه. ثم وضعها في فمه ومضغها وابتلعها. بعد قليل، ظهرت عربة ألقاه بها سجانوه وشموه بأنه "كلب عربي"، وترافق ذلك مع الركل والضرب بأعقاب البنادق. وفي اليوم التالي وجد نفسه في زنزانة مظلمة داخل السجن الخاص الذي أنشأه جمال باشا في بلدة عاليه اللبنانية، وهو يعاني من الكدمات والرضوض. كان ذلك المكان الكتيب الذي يُعْتَقَل فيه المعارضون العرب في انتظار المحاكمة أمام الديوان الحربي العربي. أمضى رياض شهوراً طويلة في هذا السجن. وقد دُهِش عندما علم من قريب له، تمكّن من إيصال بعض الملابس إليه خفية، أن والده العجوز رضا مسجون في زنزانة أخرى من السجن نفسه.

شهداء جمال باشا

بين عامي 1915 و 1916 قرر جمال باشا سحق أي ثورة عربية في مهبها وبالقوة نفسها التي قضى بها على الليبراليين في إستانبول. لذلك اعتقل مئات من الشخصيات العربية البارزة - من الإداريين والنواب العثمانيين السابقين، وملّاك الأراضي، ومحري الصحف، والوجهاء من جميع الأنواع - الذين ظن أنهم غير موالين لإستانبول بطريقة أو بأخرى. وكان مقتنعاً أنهم سيتحولون إلى طابور خامس خطير إذا ما نزل الحلفاء على شواطئ المتوسط.

بعض المعتقلين في عاليه احتجزوا لأن أعداءهم الشخصيين أو السياسيين وشوا بهم. وآخرون أخذت أسماؤهم من مستندات وجدت في القنصليتين الفرنسيّتين في بيروت ودمشق اللتين دخلتهما السلطات العثمانية عنوة بعد إعلان الحرب. وعُثر على العديد من المستندات في القنصلية الفرنسية في بيروت في غرفة خلف باب خفي بعدما

أرشد أحد التراجمة الأتراك إليها. كانت الأسماء التي تظهرها المستندات لشخصيات لبنانية وسورية على اتصال بالفرنسيين. وبعضهم لم يفعل ما يدينه سوى التوقيع على عريضة في أثناء الدعوة إلى الإصلاح في فترة سابقة. لكن ذلك كان دليلاً كافياً لإقناع جمال باشا أن تركيا تواجه خطراً داهماً من انتفاضة قومية تدعمها القوى الأجنبية وتحرض عليها.

قبل ذلك بوضع سنوات، بعدما عادت عائلة الصلح إلى بيروت من إستانبول، كان رضا، يرافقه عادة ابنه رياض، يمضي كثيراً من الوقت في جنوب لبنان للتشاور مع الوجهاء المحليين في صور وصيدا والنبطية ومرجعيون. كانوا يناقشون بقلق المسار الذي يتوجب على العرب اتباعه في ضوء الاتجاه المتشدد للسياسة التركية. ومن الرجال الذين التقيا بهم في هذه الرحلات عبد الكريم الخليل، وهو مسلم شيعي شاب ذو آراء قومية عربية راديكالية. وقد عرفاه في إستانبول، حيث ساهم في إنشاء "المنتدى الأدبي" ذي النزعة القومية. تعلم عبد الكريم في بيروت في مدرسة الشيخ أحمد عباس الأزهرى المشهورة (التي كان رياض قد التحق بها أيضاً)، ثم حصل على شهادة الحقوق في إستانبول. كما حضر المؤتمر العربي الأول في باريس في سنة 1913⁽¹⁾. لم يمضِ وقت طويل حتى وصل خبر اجتماعه مع رضا ورياض الصلح في جبل عامل إلى السلطات التركية.

لعل كامل الأسعد، الوجه البارز في جنوب لبنان والنائب السابق في البرلمان العثماني، هو الذي أبلغ السلطات التركية عنهم. فقد كتب إلى الشيخ أسعد الشقيري، مفتي الجيش التركي الرابع وأحد الموالين المشهورين للعثمانيين، مدّعياً أن رضا الصلح وعبد الكريم الخليل، يعملان على تنظيم حركة قومية تحريرية في صيدا ذات ارتباط بالحلفاء.

في ذلك الوقت، كان كامل الأسعد أقوى رجل في جنوب لبنان من دون شك. وكان قد التحق في إستانبول بحزب الحرية والائتلاف، مثله مثل رضا الصلح. لكنه عندما عاد إلى جبل عامل رأى أن الحكمة تقتضي الوقوف في صف السلطات العثمانية المحلية. وقد عركته المسؤوليات التي ينوء بها كزعيم لعائلة الأسعد الإقطاعية في جبل

عامل، التي تسيطر على السكان الشيعة الذين يبلغ عددهم 140 ألف شخص في أقضية صيدا وصور ومرجعين. وهذه المنطقة الواسعة يحدها نهر الأوّل شمالاً، ورأس الناقورة جنوباً، وجبل لبنان وبحيرة الحولة شرقاً والبحر الأبيض المتوسط غرباً⁽¹⁾. كان الأسعد على علاقة تنافسية مع آل الصلح دائماً لأسباب شخصية أو حتى طائفية، وربما اعتبر أن المثقفين والبيروقراطيين والوجهاء المدنيين والريفيين الذين يتشاور معهم الآن رياض الصلح وعبد الكريم الخليل في إقطاعيته، يشكّلون خطراً كبيراً على قاعدته السياسية التقليدية.

عندما وصلت الأنباء المزعومة عن التحريض على العصيان إلى جمال باشا، أمر حاكم صيدا بالتحقيق في الأمر على الفور⁽²⁾. فاعتقل رضا الصلح، وعبد الكريم الخليل وعشرات آخرون ونقلوا إلى عاليه بانتظار المحاكمة⁽³⁾. تجاوزت شبك جمال باشا الدموية جنوب لبنان كثيراً. فبدأ بإعدام قسيس ماروني، هو الأب يوسف الحايك، الذي اتهم بالتآمر مع فرنسا. وتلت هذه البداية البائسة سلسلة من المحاكمات وأحكام الإعدام التي أصدرتها محكمة عاليه ترأسها جمال باشا بنفسه. كان المحكومون كلهم تقريباً من أصدقاء آل الصلح أو زملائهم. أعدم أحد عشر شخصاً من قادة بيروت، بينهم عشرة مسلمين، في 21 آب/أغسطس 1915 في الساحة الرئيسية للمدينة - سُميت في ما بعد ساحة الشهداء. بعد ذلك أمر جمال باشا باعتقال شكري العسلي وعبد الوهاب الإنكليزي المفتشين العثمانيين المعيّنين حديثاً. وقد أتبع إعدامهما بجولة أخرى من الإعدامات في 6 أيار/مايو 1916 ضمّت واحداً وعشرين عريباً - سبعة عشر مسلماً وأربعة مسيحيين - كلهم تقريباً من عائلات سورية ولبنانية وفلسطينية مرموقة. وكان من بينهم عبد الحميد الزهراوي الذي اعتقل في إستانبول ونقل إلى

General Staff Intelligence, *General Report on Western Syria (occupied Enemy Territory West)* Chapter 18 on Sidon, Beirut, July 1919.

(2) هلال الصلح، رجل وقضية: رياض الصلح 1894-1951، ص 28. وفيه يذكر أن مصدر هذا الاتهام كتاب محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 210-219. اعتقل محمد جابر في عاليه في ذلك الوقت لكنه بُرئ وأُفرج عنه. للحصول على رواية مفصلة عن مجريات محكمة عاليه العسكرية ووشاية كامل الأسعد برضا الصلح وعبد الكريم الخليل، انظر علي الزين، من أوراقي، بيروت د. ت، ص 11-61.

(3) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 210-219.

سوريا للمحاكمة، وشفيق مؤيد العظم، ورشدي الشمعة، وحافظ السعيد، وعبد الغني العريسي محرر جريدة المفيد الوطنية الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره. نفذت أحكام الإعدام في بيروت وفي ساحة المرجة في دمشق. وكان من بين الضحايا الذين حُكم عليهم بالإعدام وشُنقوا صديق رضا الصلح وصلة وصله في جنوب لبنان عبد الكريم الخليل، الذي وشى به كامل الأسعد كما وشى برضا الصلح. تبع ذلك مزيد من الإعدامات في سوريا ولبنان. وحُكم على واحد وسبعين وجيهاً بالإعدام غيابياً. وأبعد عدد كبير من السوريين - 5000 شخص وفقاً لمصادر معاصرة - إلى مناطق نائية في الأناضول وصودرت أملاكهم، وأدى ذلك على الفور إلى إفقار العديد من العائلات الغنية والبارزة. كان الخوف التركي من اندلاع ثورة عربية وراء هذه الإجراءات الإجرامية. كما أن هذا الخوف التركي المماثل في الوقت نفسه، من اندلاع انتفاضة أرمنية بدعم من روسيا في نحو ذلك الوقت، دفع إلى ترحيل وقتل مئات الآلاف من الأرمن في سنة 1915. وقد نقل الناجون من تلك الإبادة الجماعية للأرمن الذين تمكّنوا من بلوغ بعض المدن السورية حكايات مرعبة عن الموت من الجوع والعطش، والاعتصاب والتعذيب، والمجازر. فبدأ السوريون يخشون من أن يكونوا التاليين.

ترددت في كل الولايات العربية أصداء الصدمة الهائلة من التدابير الإجرامية التي اتخذها جمال باشا السفاح، وهزّت أركان المجتمع السوري. اتسمت المشاعر السائدة بالذعر والخيرة بشأن المستقبل، بالإضافة إلى تنامي الرغبة في الأخذ بالثأر. فبين ليلة وضحاها، تمّ القضاء على كل قيادة الحركة القومية العربية الناشئة. ومنذ تلك اللحظة، لم تعد فكرة الحكم الذاتي العربي في إطار إمبراطورية إصلاحية لامركزية أمراً وارداً. وأصبحت القطيعة مع الأتراك نهائية بالنسبة إلى كثير من العرب في بيروت ودمشق.

انتقلت الشعلة القومية الآن إلى الجيل الأصغر، لاسيما الضباط العرب الذين لا يزالون في القوات المسلحة العثمانية. فقد تمكّن جمال باشا ببطشه من أن ينفّر العالم العربي بأكمله. ولا شك أنه ألحق بمفرده أعظم الضرر بقضية الإمبراطورية العثمانية. فسحق حركة وطنية ناشئة لا يزال فيها الجيل الأكبر المعتدل يتودّد إلى الدولة العثمانية. وأدى انغماسه في القتل إلى توحيد الحركة حول أهداف عربية قومية، وإيقاظ روح

جديدة عازمة على الثورة. بعد المشائق أصبح الاستقلال السياسي العربي ضرورة لا بد منها - لمجرد البقاء إذا لم يكن لأسباب أخرى⁽¹⁾.

كيف أفلت رضا الصلح وابنه رياض من الموت؟ ثمة رأي أن مكانة رضا وخدمته الطويلة في إدارة الدولة العثمانية أنقذتهما من حبل المشنقة، لكن ذلك لا يفسر لماذا واجه أشخاص آخرون لا يقلون عنه مكانة وسنوات خدمة مئة رهبة على أعواد المشائق. وثمة رأي آخر أن كامل، شقيق رضا الأكبر، وكان قاضياً عثمانياً بارزاً، توسط لدى أنور باشا، وزير الحرية في ذلك الوقت، لإقناع جمال باشا بإنزال عقوبة النفي بشقيقه وابنه بدلاً من الإعدام⁽²⁾. في حين أن يُسر الصلح، آخر حفيدة على قيد الحياة لأحمد باشا، وكريمة كامل الصلح نفسه، أبلغت المؤلف أن الوجيه الدرزي، ملحم بك حمادة، هو الذي تمكن من إنقاذ رضا ورياض بوضع اسميهما في آخر قائمة المحكومين⁽³⁾. ويقول آخرون إن تهمة "خيانة الإمبراطورية" لم تثبت على رضا، وإن ذلك هو السبب وراء الحكم عليه بالنفي مع ولده رياض، بدلاً من الإعدام. ويُعتقد أن جمال باشا كان يرغب في نفي الوالد والولد إلى مكانين مختلفين، لكن سليم علي سلام تدخل بنجاح لترتيب نفيهما معاً⁽⁴⁾.

قدّمت علياء، كريمة رياض الصلح، تفسيراً آخر لنجاتهما من الموت. فقد روت أنه عندما وصلت الأنباء إلى زوجة رضا، نظيرة، أن زوجها وابنها المحبوب، رياض، محبوسان في عاليه ويواجهان خطر الإعدام، أسرع في عربتها إلى منزل والي بيروت، عزمي باشا، الذي كان جار العائلة في إستانبول قبل الحرب، لتُناشده الإبقاء على حياتهما. استقبلتها في قسم الحريم بمنزل عزمي باشا، كريمة الوالي، ممدوحة، وهي الفتاة نفسها التي كان رياض يتودّد إليها من خلف سور الحديقة قبل سنوات عديدة. ذكّرت ممدوحة والدها أن رياض الصلح هو الذي أنقذ حياته حين أسرع

(1) Zeine, *Arab-Turkish Relations*, p. 104.

(2) هلال الصلح، رجل وقضية، ص 29.

(3) مقابلة مع يسر الصلح، لندن، 10 كانون الثاني/يناير 2004.

(4) سليم علي سلام، مذكرات، 1868-1938، بيروت 1982، ص 227؛ نقلاً عن، Ahmad Beydoun,

D. Khoury (ed.), *Sélim in Gérard élections législatives de 1943* 'Riad el-Solh et les Paris, indépendance du Liban à Une contribution Takla, 1895-1945

.and Beirut 2004, p. 406

لإحضار طبيب له عندما أصيب بأزمة ربو حادة. أثار ذلك في الوالي - الذي كان رجلاً شريفاً - الشعور الإسلامي التقليدي أنه مدين بحياته لرياض. فسافر ليلاً إلى دمشق حيث نجح في إقناع جمال باشا بنفي رضا الصلح وابنه بدلاً من إعدامهما. قيّداً بالسلاسل كالمساجين العاديين، وشرعاً في النهاية بالسير مشياً على الأقدام إلى منفاهما في الأناضول. وتقول عائلة الصلح إن كاحلي رياض ظلاً يحملان علامات سلاسل الحديد الثقيلة هذه طوال ما تبقى من حياته⁽¹⁾.

عندما وصلت قافلتهم إلى حلب، أصر رضا الصلح على مقابلة حاكم المدينة. وتمكّن بطريقة ما من إقناع زميله السابق في الخدمة العثمانية بالسماح له بالذهاب إلى إزمير بدلاً من الأناضول البعيدة الموحشة⁽²⁾. وهكذا في إزمير، تلك المدينة المتوسطة الجميلة التي كان أغلب سكانها من اليونانيين، وكان مرفأها يضجّ بالحركة وتردان أسواقها المزدحمة بالسجاجيد الجميلة، أمضى الأب والابن أعوام 1916-1918 تحت نظام الإقامة الجبرية المتهاون بين مغيب الشمس وبزوغ الفجر. وظلت نظيرة، في غضون ذلك، في بيروت في ظروف الحرب القاسية مع ابتها عليها، الفتاة الحساسة التي تعاني من اعتلال صحتها، وابنتها المتخلف عقلياً، درويش.

جذور الثورة العربية

بعد فترة قليلة من النفي، سمع رضا ورياض الصلح بأخبار الثورة في الحجاز على الأثر. فقد أعلن الشريف حسين وأبناؤه الحرب على تركيا في 5 حزيران/يونيو 1916، وهاجموا الحاميات التركية في جدة ومكة والطائف. جاءت الثورة تنويجاً لثمانية أشهر من المفاوضات السرية بين الشريف حسين والبريطانيين، اتفقا فيها على إقامة تحالف عسكري. ولعل قرار البريطانيين دعم الشريف يعود جزئياً إلى شعورهم بالحاجة إلى شخصية إسلامية تواجه نفوذ السلطان - الخليفة في إستانبول. ولا شك في أنهم أملوا أن يلتف المسلمون المهتود حوله. لكن لم تتضح ما هي الترتيبات السياسية والجغرافية التي ستلي انتصار الحلفاء. يستطيع المرء القول، عند النظر إلى الماضي بحكمة الحاضر، بأن الثورة ضد

(1) Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut) 5 September 1965.

(2) هلال الصلح، رجل وقضية، ص 29.

الأتراك ألحقت بالقضية العربية والإسلامية ضرراً أكبر مما تصوّره في ذلك الوقت أي مشارك أو مراقب محلي، ولعلها وضعت العرب على مسار التراجع السياسي الكارثي. بين 14 تموز/يوليو 1915 و10 آذار/مارس 1916، تم تبادل عشر رسائل بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون، المندوب السامي في القاهرة الذي كان يمثل الحكومة البريطانية. ولعل حكم الإرهاب الذي مارسه جمال باشا في بيروت ودمشق هو ما حفز الشريف حسين إلى التوصل إلى اتفاق مع البريطانيين، لكن وضعه الاستراتيجي الذاتي دفعه لذلك أيضاً. فالحصار الذي ضربه البريطانيون والفرنسيون على جميع الحدود البحرية للإمبراطورية العثمانية - بغية إبعاد السكان عن العثمانيين واستمالتهم إليهم - أدى إلى وقوع معاناة شديدة. فقد كان الشريف تحت رحمة البحرية الملكية في البحر الأحمر، بل إن الحصار البريطاني لموانئه أحدث نقصاً خطيراً في الأغذية في الحجاز. وكان أعضاء العربية الفتاة وجمعية العهد الهاربون من الجيش العثماني قد ناشدوه قيادة الثورة العربية. ومما أُنفع الأمير بالثورة المسلحة طموحه بإقامة دولة عربية مستقلة تحت حكمه الهاشمي.

في 14 تموز/يوليو 1915 أرسل إلى مكماهون رسالة يطلب فيها من بريطانيا العظمى "أن توافق على إعلان خليفة عربي على المسلمين" في منطقة واسعة "من مرسين وأضنة... حتى الحدود الفارسية شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً، من المحيط الهندي للجزيرة جنوباً ويستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي، ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غرباً". رد السير هنري مكماهون في 24 تشرين الأول/أكتوبر 1915 بأن "بريطانيا العظمى مستعدة للاعتراف باستقلال العرب ودعمه في كل المناطق ضمن الحدود التي طلبها الشريف مكة".

غير أن هذا التعهد الواسع خضع لعدد من "التعديلات" التي أوضحها السير هنري مكماهون. أولاً، "إن ولايتي مرسين والإسكندرونة وأجزاء بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال إنها عربية محض. وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة".

ثانياً، "أما من خصوص (كذا) ولايتي بغداد والبصرة، فإن العرب تعترف (كذا) أن مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة (كذا) لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي... ثالثاً، اشترط مكماهون أن الوعد

بالاستقلال لا يمكن تقديمه إلا "بخصوص الأقاليم التي تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفها فرنسا"⁽¹⁾. بعبارة أخرى - وبالرغم من تعمد إبقاء ذلك غامضاً - استثنى لبنان والعراق وجنوب شرق الأناضول من المنطقة التي وُعد بها الشريف حسين، وكذلك فلسطين، كما ادعت بريطانيا لاحقاً، مع أن فلسطين تقع إلى جنوب خط ولايات دمشق، حمص، حماة، حلب، الذي حُدّد بوضوح.

بما أن الأتراك كانوا لا يزالون موجودين في المشرق، فقد اتّسم رد فعل السكان المحليين على ثورة الحجاز بالحذر والتناقض. لم يجرؤ سوى قليلين على تأييدها، حتى سراً. بل إن علماء دمشق البارزين أصدروا، بضغط من الأتراك، حكماً بالإعدام على الشريف حسين بتهمة الخيانة. كان على أفراد النخبة العربية التفكير مرتين قبل تبني القومية العربية - في العلن على الأقل. فقد كانت العقوبات قاسية جداً. وعندما أعلن الشريف نفسه "ملكاً على الحجاز" ثم "ملك العرب" في تشرين الثاني/نوفمبر، قامت محكمة عسكرية عثمانية في دمشق بمحاكمة العديد من السوريين غيابياً بتهمة التآمر معه، بمن فيهم فارس الخوري، نائب دمشق المسيحي، وتوفيق الحلبي، رئيس تحرير جريدة الرأي والأخوان البكري اللذان كانا يستضيفان الأمير فيصل في زيارته إلى دمشق، وقد آثر هؤلاء الحكمة، وغادروا دمشق عندما وصلتهم أنباء الثورة⁽²⁾.

تابع رضا ورياض الصلح أخبار الحرب من منفاهما في إزمير. وهناك علما في نيسان/أبريل 1917 أن الولايات المتحدة دخلت الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية. وفي إزمير أيضاً سمعاً لأول مرة عن وعد بلفور - الذي تعهّدت فيه بريطانيا أن تبذل "غاية جهدها" لتسهيل "إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين" - وقد نُشرت هذه الوثيقة في الصحافة البريطانية والمصرية في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1917. أدرك رضا الصلح على الفور، وهو الذي كان يتابع الاستعمار الصهيوني لفلسطين بقلق، وأثار هذه القضية في البرلمان العثماني، أن إعلان بلفور ضربة قاضية للحقوق العربية. فقد استطاع الصهاينة انتزاع تأييد بريطانيا العظمى، القوة الإمبريالية الأبرز في ذلك الوقت.

J.C. Hurewitz, *Diplomacy in the Near and Middle East*. 2 vol, Princeton, 1956, II (1) pp. 14-15.

Kayali, *Arabs and Young Turks*, pp. 198-199. (2)

أرسل المنفيون العرب في مصر، وهم بقية النخبة العربية السياسية الذين استطاعوا الهرب من مذبحه جمال باشا، رسائل غاضبة إلى السلطات البريطانية. بدا وضع العرب يائساً، إذ وقعوا بين الإمبراطورية العثمانية المحاصرة والقوى الأوروبية المعادية والطموحات الصهيونية.

حققت قوات الشريف حسين تقدماً ملموساً، لكن الأتراك حافظوا على سيطرتهم على المدينة المنورة، حيث تنتهي سكة حديد الحجاز. كانت المدينة جيدة التحصين وتدافع عنها حامية تركية قوامها نحو 25 ألف جندي. غير أن تزويد الحامية بالمؤن أصبح شديد الصعوبة لأن خط سكة الحديد يتعرض لهجمات كروفر عديدة من قوات فيصل القبليّة غير النظامية التي تقدّم إليها المشورة نفر من الضباط البريطانيين، بمن فيهم الكولونيل الإمبريالي المتحمّس ت. إ. لورنس T.E. Lawrence. وكان قد وصل إلى الحجاز في منتصف تشرين الأول/أكتوبر 1916 "مستشاراً" لفصل وضابط ارتباط بينه وبين البريطانيين. وبدفع من البريطانيين، جرت معظم العمليات الحربية التي قام بها رجال الشريف حسين على طول محور سكة حديد الحجاز، وهو صلة وصل حيوية بين مدن المنطقة، ساهم المسلمون الأتقياء في كل أنحاء العالم في تمويله، وكان مصدر فخر للعثمانيين.

في تلك اللحظة كان البريطانيون يخشون من احتمال خروج الأتراك من المدينة المنورة وإعادة الاستيلاء على مكة المكرمة، واستخدام سكة الحديد لنقل حاميتهم وتعزيز الجيش التركي الرئيسي في فلسطين وسوريا. وذلك قد يعني انهيار "الثورة العربية" التي يدعمها البريطانيون. لذا قامت الاستراتيجية البريطانية على التضييق على الأتراك في المدينة من دون الضغط عليهم بشدة، لجعل محاولة كسر الحصار والخروج سبيلهم الوحيد للبقاء. كتب لورنس بدهاء: "يجب ألا نحتل المدينة. التركي عدم الضرر هناك، أما في السجن في مصر فسيكلفنا الغذاء والحراسة"⁽¹⁾

(1) Hugh Leach, "Lawrence's Strategy and Tactics in the Arab Revolt" in *Journal of the Royal Society for Asian affairs*, 36 (3) (November 2006), pp. 337- 341.

للاطلاع على رأي عربي لاذع بشخصية لورنس الملتوية والإمبريالية انظر Rana Kabbani, *Imperial Fictions*, London 1986 (new edn., London 2008)

بحلول نهاية سنة 1916، كان البريطانيون قد اجتازوا شبه جزيرة سيناء وأعدّوا العدة لمزيد من الاحتلالات. في 9 كانون الثاني/يناير 1917 سيطروا على رفح على الحدود الفلسطينية بعد معارك ضارية. ثمّ تطلّعوا إلى احتلال غزة، لكنهم فشلوا في ذلك على الرغم من شنّ هجومين، أحدهما في آذار/مارس والثاني في نيسان/أبريل، وخسروا 10,000 جندي بين قتل وجريح وأسير. ولم يتمّ التغلب على الأتراك ودفعهم للتراجع إلا بعد تعيين الجنرال السير إدموند أَلنبي Edmond Allenby قائداً عاماً للقوات البريطانية في حزيران/يونيو. ظنّ الأتراك أن أَلنبي سيحاول احتلال غزة ثانية، لكنه هاجم الداخل بدلاً من ذلك وسيطر على بحر السبع في 31 تشرين الأول/أكتوبر وبالتالي اخترق الجبهة الفلسطينية. في غضون ذلك، احتلت القوات العربية العقبة في تموز/يوليو 1917. وفي 9 كانون الأول/ديسمبر احتُلت القدس ودخلها أَلنبي راجلاً بعد يومين، لإظهار احترامه للأماكن المقدسة على ما يظنّ، وربما لعقد مقارنة مؤثرة بالطريقة المتباهية التي دخل فيها الإمبراطور الألماني فلهم الثاني ركباً فرساقبل عقدين من الزمن.

بعد ذلك جاءت الضربة القوية الثانية. ففي أعقاب قيام الثورة الروسية وقرار البلاشفة الانسحاب من الحرب وتوقيع هدنة مع الأتراك في كانون الأول/ديسمبر 1917، وصلت أنباء إلى آل الصلح في إزمير عن معاهدة سايكس - بيكو السرية التي عقدتها بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية في أيار/مايو 1916. أكدت هذه المعاهدة، التي نشرها البلاشفة بعدما اكتشفوها في أرشيف القياصرة، أسوأ المخاوف العربية: كانت فرنسا وبريطانيا تخططان لتقسيم الولايات العربية في ما بينهما. ولإظهار غدر الحلفاء، أرسل الأتراك نص معاهدة سايكس - بيكو إلى الأمير فيصل، على أمل أن يدفعه ذلك للانفصال عن الحلفاء بعقد سلام منفصل. لكن الأوان قد فات وسبق السيف العذل، فقد كان غارقاً حتى أذنيه في المخطط البريطاني للمنطقة.

أرادت بريطانيا الحصول على ولايتي البصرة وبغداد، بينما أرادت فرنسا الشاطئ السوري وكليكيّا وولاية الموصل. وفي مكان ما بين هاتين المنطقتين، في فكرة لاحقة إلى حدّ كبير، تنشأ دولة عربية أو "اتحاد" عربي غامض في الداخل السوري، يخضع بدوره لدائرتي النفوذ البريطاني والفرنسي. وتوضع فلسطين تحت الإدارة الدولية. لم يكن

هذا التقسيم للمنطقة يحمل أي شبه قط بالمملكة العربية الكبيرة المستقلة التي وعد بها البريطانيون كذباً الشريف حسين، وحلم بإقامتها القوميون العرب، بعد التخلص من حكم جمعية الاتحاد والترقي.

بدأت المعارك الحاسمة التي قصمت ظهر الجيش العثماني للسيطرة على ما تبقى من فلسطين في أيلول/سبتمبر عام 1918. قبيل الهجوم البريطاني، قامت قوة عربية، يديرها لورنس وضباط بريطانيون آخرون ويمولونها، برحلة في الصحراء امتدت ثلاثة أسابيع حول الجناح الأيسر للجيش التركي لمهاجمة التقاطع الرئيسي لسكة حديد الحجاز خلف الخطوط التركية. وقد اعتمد النبي على نحو ملائم ومتزايد على قوات الأمير فيصل غير النظامية لتأمين جناحه الشرقي. ولولاهم لاضطر إلى القتال في منطقة معادية له تماماً. وخلافاً لذلك، وجد الأتراك أنفسهم يحاربون في ظروف صعبة ومعاكسة. بعد ذلك ضربت القوات البريطانية - العربية في الشمال، ودحرت القوات العثمانية وأجبرتها على التراجع. سقطت حيفا في 23 أيلول/سبتمبر ودمشق في 1 تشرين الأول/أكتوبر وببيروت في 8 تشرين الأول/أكتوبر وحلب في 26 تشرين الأول/أكتوبر. وفي نهاية الشهر تم "تحرير" المنطقة بأكملها. لكن مشاكلها كانت في بدايتها، كما تبين لاحقاً!

استسلم الباب العالي للقوى الحليفة قبل أسبوعين تقريباً من استسلام ألمانيا. وبعد خروج روسيا من الحرب بقيت بريطانيا قوة الوفاق الوحيدة التي تمتلك قوات مقاتلة في الشرق الأوسط. لذا وضعت هي، باسم الحلفاء، شروط الهدنة مع العثمانيين التي تم توقيعها في 30 تشرين الأول/أكتوبر 1918، بعد أسبوع من المفاوضات على متن السفينة الحربية البريطانية، أغاممنون HMS Agamemnon في مرفأ مودروس Mudros في جزيرة لمنوس Lemnos شمال بحر إيجه. توقفت الأعمال العدائية بين الحلفاء وتركيا عند الظهر بالتوقيت المحلي في 31 تشرين الأول/أكتوبر 1918⁽¹⁾. اتضح للجميع أن الحكم التركي للعرب قد زال. بل إن إستانبول نفسها احتلتها القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية. ولكن العرب سلبوا إرثهم الذي توقعوا الحصول عليه مقابل وقوفهم إلى جانب البريطانيين. وبدلاً من ذلك قدّموا المساعدة بتهور في القضاء على آخر إمبراطورية إسلامية عظيمة.

المجاعة في بيروت وجبل لبنان

مع اقتراب نهاية الحرب العالمية الأولى، أسرع رضا ورياض الصلح بالعودة إلى ديارهما حيث مشاهد البؤس الفظيع. سُمح لرضا بالعودة مباشرة إلى بيروت، لكن جمال باشا أصرَّ على بقاء رياض في دمشق تحت مراقبة السلطات العسكرية التركية. وقد انضم إلى والده في بيروت بعد بضعة أشهر، عندما استُدعي جمال باشا إلى إسطنبول عشية الهزيمة التركية⁽¹⁾. لقد عانى المشرق من الخراب، لكن لم تسلم تركيا نفسها (مثلما يُفهم من وصف عرفان أورغا Irfan Orga المؤثر والمؤلّم للعذابات التركية خلال الحرب العالمية الأولى، كما شوهدت عبر أعين إحدى العائلات التركية)⁽²⁾.

وجد رضا ورياض لبنان في أسوأ الأحوال. فقد لحق الخراب بالجبال عندما أتت أسراب الجراد في سنة 1915 على كل ما هو أخضر. وبدأ لبنان الذي تحتله فرقة تركية يعاني من المجاعة في سنة 1916. عاش جميع الصبية فوق سن الخامسة عشرة بخوف مما كان يسمى سفر برلك، وهو التجنيد الطويل والقاسي في القوات التركية الذي اتبعت أساليب عنيفة في فرضه. وفي العامين التاليين عانت المنطقة بمجملها من المجاعة. أرسلت الحكومة التركية بعض الحبوب لإغاثة السكان، لكن المتصرفين والقائم مقامين الفاسدين وسواهم استولوا عليها وتلاعبوا بها، وعمدوا في كثير من الحالات إلى بيعها بأسعار مرتفعة جداً. وبما أن المنطقة لا تنتج الحبوب، أو تنتج القليل منها، ولا يمكن استيرادها من الخارج، فقد كانت السنوات الأخيرة من الحرب مأسوية. وساهم في البؤس الفظيع الذي عاناه الشعب الحصار البحري الذي فرضته قوات الحلفاء على الشواطئ السورية، وتخزين الحبوب من قِبَل التجار والمسؤولين الذين لا يحفلون بالقيم، ومصادرة الجمال والبغال والأحصنة من قبل الجيش التركي، وغياب وسائل النقل لجلب المواد الغذائية من الداخل، وقطع الأشجار لتوفير الطاقة لتسيير القطارات، وتفشي الكوليرا، مثلما ساهمت في ذلك الحرب بحد ذاتها. وهكذا قضى نحو نصف مليون شخص من المجاعة في تلك السنوات، بما في ذلك المئات في شوارع بيروت

(1) خلال الصلح، رجل وقضية، ص 31.

(2) Irfan Orga, *Portrait of a Turkish Family*, London 1950.

وبعض المدن الساحلية في الأسابيع الأخيرة من الحرب⁽¹⁾. وقد أفاد مراقبون فرنسيون عن المشاهد المحزنة لأطفال ذوي بطون منتفخة يزحفون للحصول على قطعة من قشر البرتقال، ونساء يشبهن المياكل العظمية يعضن كسراً من الخبز اليابس، وعربات البلدية التي تقوم بجولات ليلية لرفع جثث الموتى الذين قضوا من الجوع⁽²⁾.

روّع رضا وابنه رياض (وكان قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره) من هول ما رآياه وكانا يتوقان إلى النضال من أجل الاستقلال. فخلال العامين اللذين أمضياهما في المنفى، أصبحا قوميين عربيين متحمسين، على الرغم من وجود بعض الاختلاف بالضرورة بين الأب وابنه، الذي يعود من دون شك إلى العمر، والخبرة العملية، والطباع الشخصية.

Consul R.A. Fontana to The Earl of Curzon, Beirut, 21 December 1920 (FO (1)
.372/6453).

Gérard D. Khoury, *La France et L'Orient Arabe: Naissance du Liban moderne* (2)
1914-1920, Paris 1993 (new edn 2009, with a preface by Henry Laurens), pp. 79-82

الفصل الخامس

فيصل والفجر الكاذب

تابع رضا ورياض الصلح، إلى جانب عشرات الآلاف من الأشخاص، تقدّم قوات الجنرال أَللنبسي وهي تدفع الجيوش العثمانية بلا هوادة إلى شمال غزة، في أيلول/سبتمبر - تشرين الأول/أكتوبر 1918. وكانت معظم الآمال العربية معلّقة على الأمير فيصل وقواته التي أصبح النصر الآن في متناولها. فبعد سنتين من القتال الصعب على الجناح الداخلي للقوات الحليفة، وبعد احتلال فلسطين، أصبحت دمشق هدفاً. قبل أن يسارع جمال باشا إلى الخروج من المدينة، سلّم السلطة إلى الأميرين الجزائريين عبد القادر الثاني، وسعيد، حفيدي الأمير عبد القادر الجزائري. لكن سرعان ما أقصيا عندما دخلت القوات العربية وقوات الحلفاء دمشق في 1 تشرين الأول/أكتوبر. وبعد مرور شهر أصدر الأمير فيصل أمراً بإلقاء القبض عليهما عندما أشيع أنهما يسعيان إلى إقامة حزب معارض بمساعدة الفرنسيين. اعتُقل سعيد، وقُتل قوات فيصل عبد القادر عندما حاول الهرب.

لكي يظنّ العرب بأن النصر نصرهم أيضاً، طلب لورنس، المستشار البريطاني للأمير فيصل، من الجنرال أَللنبسي أن يسمح للقوات العربية بدخول دمشق قبل القوة البريطانية الرئيسية. وقد فعلت القوات العربية ذلك على عجل عند نحو الساعة السادسة صباحاً، على الرغم من أن قوة من فرقة الحَيّالة الأسترالية الخفيفة، كانت تطارد القوات التركية الماربة باتجاه حمص، ربما تكون قد سبقتها إلى ذلك عبر الحارات الشمالية الغربية للمدينة قبل الفجر بقليل⁽¹⁾.

كان رضا ورياض في المدينة، عندما دخلها فيصل قادماً بالقطار من درعا في 3 تشرين الأول/أكتوبر، واستقبله سكّانها استقبالاً حاشداً. قاد الأمير موكباً من 1500 فارس، وهو يمتطي فرساً عربياً أصيلاً ويحيط به ضباط الثورة العربية

(1) Khoury, *La France et l'Orient arabe*, pp. 118-19.

العراقيون والسوريون والحجازيون، ويرافقه لورنس، عبر الشوارع المكتظة بالجماهير الفرحة، والحشود التي ترقص وتحتف. وكان الفرسان يطلقون النار في الهواء، والنساء يرششن عليهم ماء الزهر من نوافذ المنازل. بعد ذلك بقليل، دخل أَللنبسي المدينة بوقار في سيارة رولس رويس رمادية مكشوفة تتبعه هيئة أركانه. ثلثت الصلوات في المسجد الأموي الكبير باسم الشريف حسين (الذي اعتمد لقب "ملك العرب"، متحدياً الفرنسيين والبريطانيين)، وباسم ابنه ونائبه في سوريا الأمير فيصل. كانت تلك لحظة مجيدة في كتب التاريخ. بدا أن حلم العرب بالاستقلال يوشك أن يتحقق. لكن الحشود المبتهجة لم تكن تعلم البتة بأن الغيوم المندرة بالشر بدأت تتجمّع.

رضا الصلح ينضمّ إلى فريق فيصل

في 3 تشرين الأول/أكتوبر، أبلغ أَللنبسي الأمير فيصل بوضوح تام عن حدود سلطته العربية. باستطاعته أن "يحكم" سوريا الداخلية، لكن عليه أن يأخذ بمشورة فرنسا ودعمها المالي، لأنها ستصبح "القوة الحامية" لسوريا. فيما ستكون فلسطين وجبل لبنان والساحل السوري مناطق خارج سلطته. شعر الأمير بالصدمة والغضب، واحتجّ بأن لورنس وعده بأن تخضع لحكمه سوريا بأكملها، باستثناء فلسطين. ورفض بشدة مساعدة المستشارين وضباط الارتباط الفرنسيين، لكنه أظهر استعداداً لقبول المساعدة البريطانية عند الضرورة المطلقة⁽¹⁾.

في 4 تشرين الأول/أكتوبر، أعلنت جريدة لسان العرب الموالية لفيصل في دمشق، عن تشكيل حكومة دستورية لسوريا بأكملها. فأسرعت حشود من الفرسان عبر الجبال لمساعدة مؤيدي فيصل في بيروت، حيث رفع العلم الشريف على المباني العامة. وكان ممتاز بك، آخر الولاة العثمانيين، قد سلّم المدينة إلى عمر الداعوق، رئيس البلدية. ولكن عندما نزلت القوات الفرنسية في بيروت في 7 تشرين الأول/أكتوبر 1918، واتخذت مواقعها في جبل لبنان، لم يعد فرسان فيصل موضع ترحاب، وسرعان ما أجبروا على العودة إلى دمشق.

(1) Vincent Cloarec, *La France et la question de Syrie, 1914-18*, Paris 1988, pp. 209-210

كان الجنرال أَلنبي يأمل، بعدما طرد الأتراك من المنطقة، في أن توضع الترتيبات الخاصة بما دون تدخله. لكن في ضوء نزول القوات الفرنسية على الساحل، وطموحاتهم العاجلة، قرّر تقسيم المشرق إلى ثلاث مناطق عسكرية: فلسطين بإدارة ضابط بريطاني؛ وجبل لبنان والساحل المتوسطي من عكا إلى الإسكندرونه بإدارة ضابط فرنسي؛ والمنطقة الداخلية السورية وشرق الأردن بإدارة الأمير فيصل، وبوجود قوات احتلال بريطانية. وقد شكّل يوم 15 تشرين الأول/أكتوبر نقطة مضيئة في الوفاق بين العرب والبريطانيين عندما زار أَلنبي وضباط أركانهم مقر الحكومة في دمشق، حيث رحب بهم علي رضا باشا الركابي، الضابط السابق في الجيش العثماني الذي كان قد عينه فيصل، بموافقة أَلنبي، حاكماً عسكرياً للمنطقة الداخلية السورية، والمسؤول الإداري الأول عنه. حضر الاحتفال كبار الضباط والمسؤولين، بالإضافة إلى علماء الدين المسلمين ورجال دين من الطوائف المسيحية الرئيسية ووجهاء الدروز وحاخامات الطائفة اليهودية. لم يُدعَ ممثلون عن فرنسا، الأمر الذي لاءم العرب والبريطانيين على حد سواء.

كان أَلنبي يريد تأكيد سلطة بريطانيا المطلقة، في حين أصبح الشريفيون أكثر عداء للفرنسيين منذ وصولهم إلى دمشق. فاستنتج سكان المدينة المتحمسون على سذاجتهم أن بريطانيا تقدّم الدعم للعرب في لحظة تاريخية من يقظتهم القومية. رُفع علم جديد فوق بلدية دمشق، كانت ألوانه هي الأبيض والأسود والأخضر والأحمر⁽¹⁾. وفي دمشق، أخذت الحركة القومية، التي ضعفت كثيراً بسبب إعدامات جمال باشا في عامي 1915-1916، تستعيد حيويتها وتكتسب مزيداً من الرجال. كما أن هزيمة الإمبراطورية العثمانية لم تحدث اضطراباً غير ملائم في ممارسة السلطة المحلية. فقد واصل الوجهاء في كل المدن الرئيسية ممارسة سلطاتهم كما كانوا يفعلون دائماً. وفي معظم الأحيان، ظل الرجال المهمون في الشؤون المحلية في ظل الحكم العثماني نافذين في سوريا ما بعد الفترة العثمانية، واحتفظوا هم أو أبنائهم بنفوذ سياسي كبير. فقد ظلت القيادة الحضرية لبنة البناء الأساسية في السياسة في منطقة لا تزال فيها الجماهير

(1) كما استُلهِم من بيت شعر لصفي الدين الحلي:
بيض صناعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا.

أمية إلى حد كبير⁽¹⁾. اعتمد فيصل على مثل هؤلاء الوجهاء، لكن بدأت قوة جديدة بالبروز إلى جانبهم على شكل جمعيي "العربية الفتاة" و"العهد" السريتين اللتين نالتا التقدير الذي تستحقانه، فشغل أعضاؤهما المتمرسون مناصب رئيسية في إدارة فيصل. وشكّل هؤلاء العصب السياسي لحكومة فيصل العربية. وقد تمتعت هذه القوة الجديدة بنفوذ كبير في علاقاتها مع فيصل، بحيث كان من الصعب في بعض الأحيان معرفة أي منهما الحاكم.

كان معظم هؤلاء الرجال قد ثاروا على الأتراك بغية هدف واحد فقط: تحقيق الاستقلال ووحدة الولايات العربية. لكنهم شعروا بقلق شديد من النتائج المحتملة لاتفاق سايكس - بيكو ووعد بلفور، وبثّ شبح الاحتلال الأوروبي والاستعمار الصهيوني الرعب في قلوبهم. لكنهم واصلوا ثقتهم، في هذه المرحلة على الأقل، بالوعود التي قطعتها بريطانيا للشريف حسين في عامي 1915-1916. ففي ذلك الوقت، لم تكن المساومات البريطانية الفرنسية السرية بشأن مغامرات الإمبراطورية العثمانية معلومة لديهم سوى على نحو جزئي، كما أنهم لم يكونوا يدركون المجال الفعلي للطموحات الصهيونية.

عندما دخل الأمير فيصل دمشق، بعث برسائل إلى كل المدن والبلديات في سوريا معلناً انتهاء الحكم العثماني، بالإضافة إلى اعترامه تشكيل حكومة عربية في دمشق. وقد شرع في ذلك على الفور. كان كبير إداريه علي رضا باشا الركابي (50 سنة)، قد فرّ من الجيش العثماني وانضمّ إلى الجانب البريطاني ثم التحق بالشريف حسين. وكان معادياً للفرنسيين، ومؤيداً قوياً للاستقلال التام، وعضواً في الفرع العراقي من "جمعية العهد"، و"سيداً سابقاً في أساليب التآمر التركية" وفقاً لما جاء في قطعة ساخرة من تقرير استخباراتي بريطاني⁽²⁾.

جمع الركابي حوله فريقاً سياسياً مثيراً للإعجاب. سُمّي رضا الصلح وزيراً للدخلية. ويقال إن الأمير فيصل استدعاه قائلاً: "لديك صفتان أحْتَاج إليهما. أنت

(1) Philip S. Khoury, 'Syrian Urban Politics in Transition', in Albert Hourani, Philip S. Khoury and Mary C. Wilson (eds), in *The Modern Middle East*, London 1993, p. 430

(2) *Who's Who in Damascus*, July 1919. Compiled by General Staff Intelligence, Beirut؛ انظر أيضاً PRO FO 371/6454 Consul Palmer to Earl Curzon

رجل مستقيم، ولستَ دمشقياً⁽¹⁾. أصبح رضا أحد رجال الأمير الخلّص خلال الشهور الصعبة اللاحقة. لذا وجد رياض الصلح نفسه، من خلال منصب والده، وسط مسرح الأحداث، وعلى علاقات ودية مع الرجال المحيطة بالأمير، وبعضهم عرفه منذ أن كان في إستانبول. يمكن اعتبار ذلك دخوله الأول في معترك السياسة الحقيقية. وكان رأيّه في ذلك الوقت: "كل شيء يبدأ من اليوم. لقد أخذت دمشق تستيقظ بعد 800 سنة من النوم"⁽²⁾. كان رياض في سنّ متقدّمة بالقدر الكافي لتمنحه خبرة مباشرة عن العالم العثماني، ومع ذلك شاباً بالقدر الكافي لتسخير كل طاقاته في خدمة النضال الجديد في سبيل الاستقلال العربي. وأصبح الآن مستعداً للخروج من عباءة والده وبلوغ النضج كشخصية سياسية مستقلة.

شغل ياسين باشا الهاشمي (40 سنة) منصب رئيس أركان قوات فيصل العربية، وهو ضابط بغداد ذي سمعة عسكرية ممتازة. وقد كان أمر الفرقة التركية العشرين في رومانيا، وبعد ذلك قوة المدفعية في الجيش الثامن، ثم الجيش الثامن بأكمله. وانحاز إلى جانب الشريف حسين عندما بدأ الانهيار التركي محتوماً. وكان أيضاً عضواً في الفرع العراقي لجمعية العهد، ومؤمناً باستقلال العرب التام، ما جعل البريطانيين يعتبرونه مصدر خطر محتمل. ومن الضباط الآخرين من بغداد، الذين خدموا في الجيش التركي، نوري السعيد (35 سنة)، وقد تعرّف إليه رياض الصلح في إستانبول. واشتهر نوري السعيد كواحد من أكثر الضباط كفاءة في الثورة العربية، وقاد القوات العربية إلى دمشق في 1 تشرين الأول/أكتوبر. وكانت المخابرات البريطانية تعتبره "أهلاً للثقة، ومولعاً بالطرق البريطانية" - بعبارة أخرى، مطواعاً لأهدافها.

كان هاشم الأتاسي (53 سنة) قومياً من الرعيل الأول، وهو يتحدّر من عائلة بارزة مالكة للأراضي في حمص. وقد شغل لاحقاً منصب رئيس الجمعية التأسيسية ورئيس الوزراء في عهد فيصل، وتولى لاحقاً منصب رئيس الجمهورية السورية في حياته السياسية الطويلة والمميزة⁽³⁾. ومن المقرّين أيضاً إلى فيصل وزير المالية، المحامي

(1) مقابلة مع يسر الصلح، لندن، 10 كانون الثاني/يناير 2004.

(2) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

(8) يوسف الحكيم، سورية والعهد الفيصلي، ص 93، 144، 159. نقلاً عن

Beydoun, 'Riad el-Solh et les élections législatives de 1943', p. 404, n. 4

فارس الخوري (48 سنة)، وهو ابن عائلة أرثوذكسية من حاصبيا في لبنان. تعلّم في الكلية الإنجيلية السورية في بيروت واعتنق البروتستانتية بتأثير من المبشرين البريطانيين، وكان يجيد الإنكليزية، وعمل مترجماً لدى القنصلية البريطانية في دمشق بين سنتي 1899 و1909. واشتهر بأنه محام بارع وخطيب مفعّو، وشغل لاحقاً منصب رئيس الوزراء في سوريا المستقلة، وهو المسيحي الوحيد الذي تقلّد هذا المنصب.

كان شكري القوتلي (31 سنة)، من عائلة دمشقية مرموقة، وخريج جامعة إستانبول، ووطنياً بحق. عمل أمين سرّ عند والي دمشق، علاء الدين الدروبي، وكلف لاحقاً بإعادة تنظيم ولاية دمشق ثم رُقّي ليصبح رئيس قسم المخابرات في الحكومة العربية. وكان قد نجا من الموت بعد أن حكمت عليه محكمة عسكرية بالإعدام. فضّل قطع أوردّة معصمه في السجن لكي يتجنّب الإفشاء بأسرار جمعية العهد السرية التي ينتمي إليها تحت التعذيب. لكن أحد زملائه في السجن، الطبيب أحمد قدرى، أنقذه قبل أن ينزف حتى الموت⁽¹⁾. وحظي لاحقاً بمكانة مرموقة في السياسة السورية كقائد قومي ملتمز، وأول رئيس للجمهورية يُنتخب بطريقة ديمقراطية. ويعتبر أبا الاستقلال السوري.

تولّى ساطع الحصري (40 سنة)، منصب وزير التعليم في أثناء حكم فيصل، وهو من أصول حلبية ومن خريجي جامعة إستانبول. تولى التدريس في هذه الجامعة بعد ذلك، ثم أرسل إلى أوروبا لدراسة مناهج التعليم، قبل أن يُعيّن رئيساً لدار المعلمين في إستانبول في سنة 1916. بعد انتهاء الحرب عاد إلى سوريا، حيث تولى وزارة التربية والتعليم، وبرز نجمه كمنظرّ رائد للقومية العربية. عندما طرده الفرنسيون من سوريا، رافق ساطع الحصري الأمير فيصل إلى بغداد، حيث انهمك في إعادة تشكيل نظام التعليم في العراق. وتولّى إحسان الجابري رئاسة ديوان الأمير فيصل في دمشق، وهو نائب حلب السابق في البرلمان العثماني، والضابط المعاون للسلطان عبد الحميد الثاني لمدة من الوقت. كان إحسان شقيق سعد الله الجابري، صديق رياض، وأصبح بعد

(1) PRO FO 371/6454.

كان شكري القوتلي واحداً من أحد عشر عضواً من جمعية "العهد" وقعوا على عريضة مرسلة إلى وزارة الخارجية البريطانية في 12 أيار/مايو 1921 تطالب بريطانيا بمساعدة السوريين ضد "القمع الفرنسي".

ذلك من أقرب المقرّبين إلى رياض في فترة ما بين الحربين، حيث تعاونوا معاً للتأثير على عصابة الأمم في جنيف لصالح القضية العربية. وتولّى نسيب البكري منصب أمين السر الأول للأمير فيصل، وهو قومي عربي متحمس، وكان مع أخيه الأكبر فوزي يستضيف الأمير في منزل العائلة في أثناء زيارته السابقة إلى دمشق تحت الحكم العثماني. وكان نسيب وفوزي ابني عطا بك البكري، كبير عائلة كريمة من مالكي الأراضي، تعود بنسبها إلى الخليفة أبي بكر الصديق.

تنافس الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (39 سنة) مع نسيب البكري على الخطوة لدى الأمير فيصل، وهو طبيب حاد الذكاء وسياسي ناشط، لعب دوراً بارزاً في الدعوة لعقد المؤتمر العربي الأول في باريس في سنة 1913. تخرج في الكلية الإنجيلية السورية ودرّس فيها مدة قصيرة، ثم فتح عيادة في دمشق وتزوج ابنة عبد القادر مؤيد العظم، وهو مالك أراضٍ ثري أعدم الأتراك شقيقه شفيق مؤيد العظم في أثناء الحرب لأنه قومي عربي. وعلى الرغم من أن جمال باشا وضع الشهبندر تحت الرقابة المشددة، فإنه تمكّن من الهرب عبر الصحراء إلى العراق في سنة 1916 ومن هناك إلى القاهرة حيث عمل جراحاً في المستشفى العسكري، وحرر جريدة، وأنشأ حزباً سياسياً ضم منفين سوريين. اتصل بمسؤولين بريطانيين في أثناء وجوده في القاهرة، فأثّمهم لاحقاً، دون إثبات، بأنه على صلة بالمخابرات البريطانية. وعندما عاد إلى دمشق، منعه نسيب البكري، الذي كان يشكّ في أمره، من دخول الدائرة المحيطة بالأمير فيصل ثانية. ظلّ الأمر كذلك حتى صيف 1920، عندما دخل فيصل في المنازلة الأخيرة مع الفرنسيين، حيث استطاع الشهبندر أن يقنع الأمير بتعيينه وزيراً لخارجيته.

ومن الموجودين في دمشق في ذلك الوقت أيضاً، صهر رياض الصلح، سامي الذي كان يبلغ من العمر 31 عاماً آنذاك. وهو ابن عبد الرحيم الصلح، شقيق أحمد باشا، وقد تزوج من بلقيس شقيقة رياض. بعد دراسة الحقوق في إستانبول وباريس، عاد سامي الصلح إلى سوريا في سنة 1913 وفتح مكتباً للمحاماة، وكُلّف برعاية مصالح سكة حديد بغداد - خط سكة الحديد بين إستانبول وبغداد الذي فاز الألمان بامتيازته في سنة 1903. وعندما اندلعت الحرب في سنة 1914، عين مفتشاً عسكرياً لسكك الحديد في جنوب الأناضول، لكنه استدعي إلى إستانبول في سنة 1916 عندما

اشتبّه بأنه يضمّر تعاطفاً مع الحلفاء. وبعدهما رُدّ إليه اعتباره في السنة التالية، عُيّن مديراً لسكة حديد الحجاز في دمشق، وهو منصب استطاع أن يحافظ عليه خلال حكم الحلفاء أيضاً، الذين اعتبروا أنه خدم قضيتهم⁽¹⁾. وقد ارتبطت مسيرته المهنية اللاحقة، بما في ذلك توليه منصب رئيس وزراء لبنان، ارتباطاً وثيقاً بمسيرة ابن عمه رياض.

كان هؤلاء، إذاً، بعض الأشخاص الذين تردّد عليهم رياض في دمشق في الفترة 1918-1920. لم يكونوا جميعاً مؤيدين متحمسين لفیصل، لكنهم على العموم مجموعة مميزة من الرجال المتعلمين، والمتقنين، والحازمين، وذوي النظرة العالمية، لكنهم شديدي التمسك بعروبتهم. وقد شهدوا في سنوات تكوينهم انخيار العالم العثماني المتعدد الإثنيات والأديان، على وقع ضربات قوميات البلقان، وشوفينية تركيا الفتاة، والإمبريالية الأوروبية، والحرب العالمية الأولى. لم تكن قوميتهم العربية مجرد عاطفة عابرة، بل تكونت تحت الخطر في الجمعيات السرية، أو في محكمة عاليه العسكرية، أو في المنفى أو في ظلال المشانق، حيث قضى الكثير من أصدقائهم الأحياء. تكونت القومية لديهم أيضاً في الأندية الأدبية والجامعات، ومن قراءة الصحف، حيث جرى إعادة اكتشاف أجداد اللغة العربية في مرحلة اختبار فكري. ولم يكن من قبيل المصادفة، أن يُفتتح في ظل حكم فيصل القصير في دمشق مكتبة عربية ومتحف للآثار العربية، بالإضافة إلى مجمع اللغة العربية في 8 حزيران/يونيو 1919 برئاسة محمد كرد علي، رئيس تحرير جريدة المقتبس القومية.

لم يشعر الجميع بفرح غامر عند وصول الأمير فيصل إلى دمشق. فقد وجد بعض وجهاء المدينة ذوي الأصول الرفيعة أنه ورجاله البدو أجلاف متسلطون. ونظراً لأنهم يعملون تقليدياً وسطاء بين السلطات العثمانية والسكان المحليين، فإنهم لم يجدوا سبباً للخضوع لحكم أمير آت من أراضي الحجاز البعيدة أو لفريقه المتنافر، والدائم الشجار، من الضباط والمسؤولين والطفيليين من العراقيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين. ومن بين الوجهاء المسلمين الدمشقيين، وربما الأكثر نفوذاً في ذلك الوقت، محمد فوزي باشا العظم (60 سنة) الذي وصفته الاستخبارات البريطانية بأنه "ثري،

(1) Archives du ministère des Affaires étrangères (MAE), Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série B, carton 4 (dossier 55).

وطموح، وعدم المبادئ، وذو هوى تركي". لقد شعر رجال من أمثال العظم، الذي حكم أسلافه دمشق منذ القرن الثامن عشر، بالأسف لضياع النظام القديم. ومن الوجهاء البارزين الآخرين الذين لم يتقبلوا نظام فيصل تماماً بك الأيوبي (45 سنة)، الذي ربما تتحدر عائلته من سلالة صلاح الدين الأيوبي. وقد عمل حاكم ولاية في عهد الأتراك. ومنهم أيضاً سامي باشا مردم بك (50 سنة) المثقف والدمث، الذي ورث ثروة من الأراضي في دمشق، وسمّا جمال باشا عضواً في البرلمان العثماني عن دمشق.

وهناك أيضاً وجيه نافذ آخر هو عبد الرحمن باشا اليوسف (45 سنة) الذي كان يعتبر زعيماً للأكراد. أصبح من أغنى مالكي الأراضي في سوريا، واشترى عقارات واسعة أخرى في وادي البقاع وسواه. كان يفضل حكم الأتراك أو الفرنسيين على إدارة فيصل العشوائية. وكان زميلاً لرضا الصلح في البرلمان العثماني. وباعتباره أمير الحج في معظم سنوات حياته بعد البلوغ، فقد قاد قافلة الحج إلى مكة سنيناً طويلة. وكان ذا طموح اجتماعي، أقام صلات مع بعض أعضاء الأسر المالكة الأوروبية مثل إمبراطور النمسا السابق وملك بلغاريا السابق. وقد أرسل أبناءه إلى بريطانيا للدراسة في كلية الزراعة في سايريسستر Cirencester، على أمل أن يعودوا لإدارة أراضيهم بطريقة حديثة متبعة.

تعيين رياض حاكماً على صيدا

عندما شكّل فيصل حكومته في دمشق، عُرف رياض به، بواسطة والده رضا الصلح على الأرجح. ولا بد أن رياض أثار إعجاب الأمير، لأنه أرسل في أواخر عام 1918 لإدارة صيدا، البلدة التي تنحدر منها عائلته في جنوب لبنان، ولا يزال لديها فيها أملاك وأقرباء وأصدقاء. عند وصوله إليها، حُمل على الأكتاف إلى السراي التي بناها والده عندما كان قائم مقام هناك في سنة 1898. كانت الحرب قد خلّفت الدمار وضيق العيش والجمود التجاري في صيدا. فهل يمكن إعادة الحياة إلى سابق عهدها؟ وما هي السلطة التي تخضع إليها والحدود الوطنية التي تنتمي إليها؟ كان الغموض الشديد يكتنف تلك الأوقات، ويوجد خطر حقيقي من الوقوع في الفوضى. لذا كان أمام الحاكم الشاب عمل كثير يضطلع به.

كانت البلدة التي أرسل رياض لإدارة شؤونها تضم 18 ألف نسمة، منهم 13 ألف مسلم سني و3500 روم كاثوليك وقليل من البروتستانت والموارنة واليهود. وكان يسكن في القرى المحيطة بما نحو 25 ألف فلاح مسلم شيعي يتزعمهم راشد عسيران، وهو كبير عائلة عسيران الشيعية المالكة للأراضي التي يرجع تاريخها في صيدا إلى نهاية القرن السادس عشر. وكان حكام إيران القاجار قد عينوا آل عسيران قناصل في صيدا⁽¹⁾. وقد وقعت خصومة مريرة بين راشد عسيران وكامل الأسعد زعيم الشيعة في جبل عامل. قبل الحرب، كانت البلدة والقرى المحاورة لها تشكل منطقة زراعية مزدهرة تنتج القمح والشعير والذرة والتبغ والتين وزيت الزيتون وشرانق الحرير وما لا يقل عن 80 مليون برتقالة. وكانت المعاملات المصرفية تتم عن طريق البنك العثماني وبنك خاص تديره أسرة عودة (لا يزال قائماً حتى اليوم)، وتتكون بصورة رئيسية من مدفوعات ترسل إلى أصحاب الأراضي ثمناً لصادرات البرتقال وتحويلات نقدية يرسلها السوريون العاملون في الأميركيتين إلى عائلاتهم، بالإضافة إلى المعاملات التجارية بين سوريا ومصر⁽²⁾.

وقبل أن يتمكن رياض من العمل على إعادة الازدهار إلى صيدا، وجد نفسه فجأة من دون عمل. وقد روت ابنته علياء الصلح أنه حينما وصل الجنرال هنري غورو، وكان عملاقاً ملتحمياً ذا ذراع واحدة (بترت الذراع الأخرى عندما أصابها قذيفة في غاليبولي) إلى صيدا في سنة 1919 على رأس القوة الفرنسية، ذهب إليه الحاكم الشاب على فرس أبيض. تبادل الرجلان كلمات قليلة وهما يمتطيان جواديهما. رحب رياض بالجنرال قائلاً: "نرحب بكم زواراً عابرين لا غزاة!" ويقال إن الجنرال أجاب: "لقد وقفت فرنسا دائماً إلى جانب الإخاء والمساواة" فردّ رياض: "الحرية خاصة أيها الجنرال". أمضى الجنرال الذي تقلد كثيراً من الأوسمة معظم حياته العسكرية في قمع رعايا الإمبراطورية الفرنسية في أفريقيا⁽³⁾. غير أنه كسب شهرته

(1) Chalabi, *The Shi'is of Jabal 'Amil*, p. 24

(2) General Staff Intelligence, *General Report on Western Syria (Occupied Enemy Territory- West)*, Chapter 18 on Sidon, Beirut, July 1919

(3) كتب الجنرال غورو تحت عنوان "مذكرات أفريقي"، *Souvenirs d'un Africain* سلسلة من الكتب عن مآثره العسكرية في غرب أفريقيا ووسطها وأفريقيا جنوب الصحراء. انظر على سبيل المثال *Mauritanie Adrar*, Paris 1945

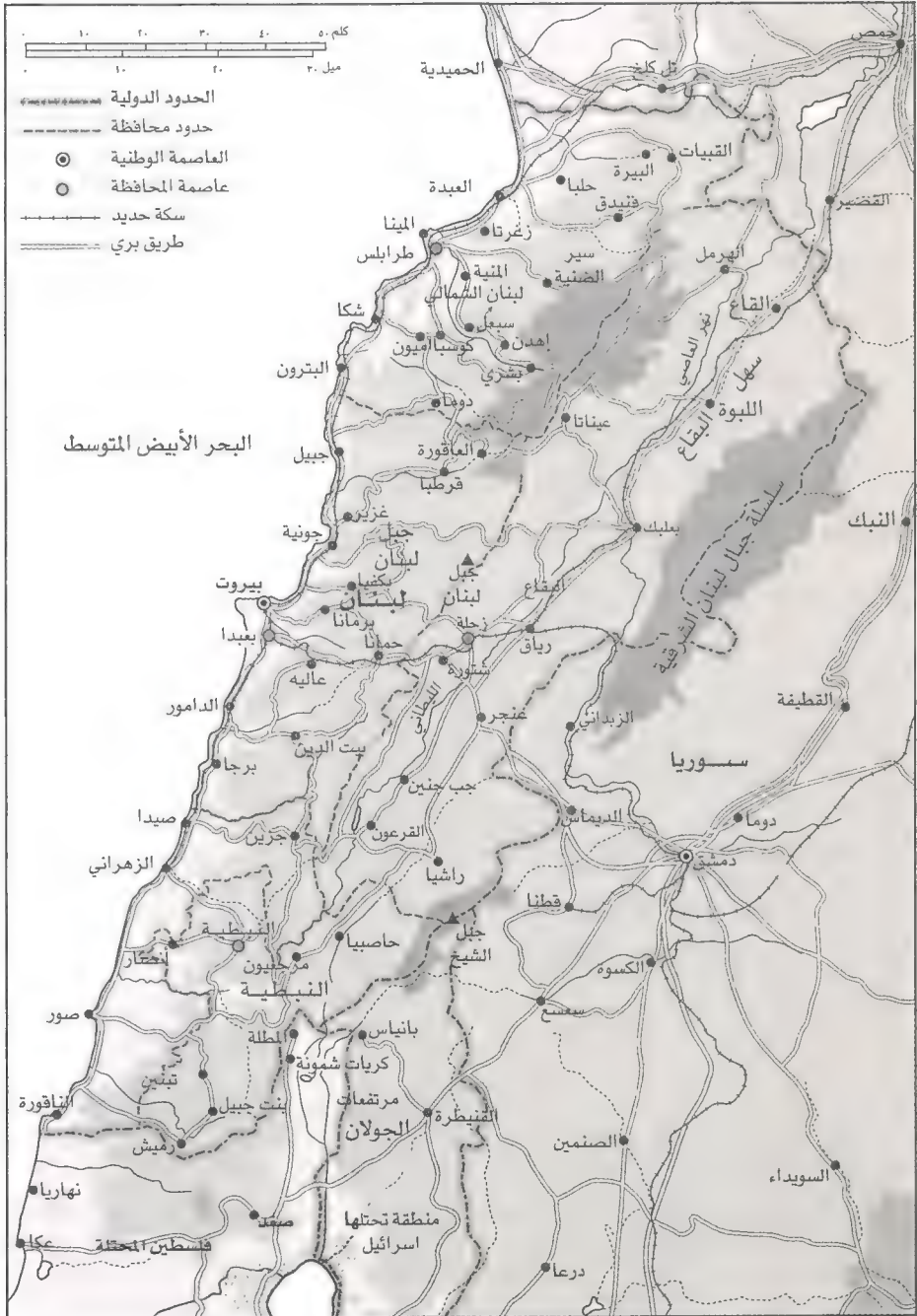
لاحقاً في سنة 1918، عندما هزم الألمان في ميادين المعارك في شامبانيا Champagne شرقي فرنسا. وقد علّق بعد مقابلته رياض أنه "فتى غير عادي! نادراً ما رأيت مثل نظراته الشجاعة. سُجن في العشرين، وأصبح حاكماً في الرابعة والعشرين! سيكون له شأن عظيم! إنه يذكرني بساموري توريه Samori Touré"⁽¹⁾. كان غورو يشير إلى القائد العسكري الشهير لقبيلة ديولا Dioula الذي أقام دولة على الجانب الشرقي من نهر النيجر الأعلى، وقاتل الفرنسيين مدة تزيد على عشرين سنة إلى أن قبض عليه غورو بنفسه في غوليمو Guelemou في شاطئ العاج سنة 1898.

حُل مجلس صيدا البلدي بضغط من الفرنسيين، وأجبر رياض على التنحي، ما سبّب له خيبة أمل عميقة. ويمكن القول إن إرادته القوية في محاربة الحكم الفرنسي في المشرق ترجع إلى تلك اللحظة. استقال رياض من منصبه عندما استولى الكولونيل فيجيرل Feygerl، القائد العسكري الفرنسي المحلي، على صيدا وجوارها. وبعدما طُرد من صيدا، توجه إلى دمشق، حيث كان العديد من السياسيين العرب الكبار ينتظرون بقلق بالغ ما يجتبه لهم الفرنسيون. في ذلك الوقت أصبح رياض قومياً مقاتلاً يعارض الفرنسيين معارضة مطلقة. لقد خبر السجون العثمانية، وعمرّس في جمعية العربية الفتاة، ونضج في المنفى. وبدأ في تكوين هالة القائد بفضل ذكائه المتوقّد وشخصيته القوية. أما والده رضا، فكان أكثر ميلاً إلى الحذر، بعد أن أنهكه المرض والقلق مما يحمله المستقبل، وعلته الكآبة من التفكير في أنه أفنى حياته في خدمة ما أصبح الآن إمبراطورية زائلة. وهو كمسؤول كبير في حكومة فيصل العربية، كان ينصت الأمير إليه، ويدرك أكثر من ابنه الذي لا يزال غراً المشاكل الحادة التي يجب على النظام الجديد التعامل معها.

المصالح الاستعمارية لبريطانيا وفرنسا

ربما لم يدرك رياض الصلح، وآخرون من أمثاله، في ذلك الوقت أنهم في مواجهة مع أكبر قوتين استعماريّتين في العالم، وقد خاضتا للتوّ أول "حرب شاملة" في التاريخ وانتصرتا فيها مقابل توضّحيات هائلة بالمال والرجال. لذا كانت الآمال السياسية العربية

بايّن خاص من Cambridge University Press



متصرفية جبل لبنان العثمانية سنة 1861 وتوسّعها إلى لبنان الكبير كما أنشأه الفرنسيون سنة 1920.

في أدنى لائحة أولوياتهما، هذا إذا ظهرت في تلك اللائحة أصلاً. لقد قُتل أكثر من 10 ملايين أوروبي - جيل كامل من الشباب تقريباً. وتحطّم نظام العلاقات الدولية القائم قبل الحرب، كما حُطمت مجتمعات أوروبية بأكملها. وزالت الإمبراطوريات النمساوية المجرية والألمانية والعثمانية إلى غير رجعة، في حين سقطت إمبراطورية القيصرية الروس في أيدي البلاشفة. لحق الدمار بفرنسا على وجه الخصوص: خسرت ربع رجالها الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و27 سنة، ودمّرت منطقتها الصناعية الشمالية بأكملها. ولأنها تخشى من هوض ألمانيا ثانية طلباً للثأر، فقد سعت إلى تقييدها بتعويضات عقابية عن أضرار الحرب في مؤتمر السلام الذي عُقد بعد الحرب. وفي الإطار الجديد الناشئ للقوى في الشرق الأوسط والبحر المتوسط، كان اهتمام بريطانيا وفرنسا، اللتين أنهكتهما الحرب وتواجهان القوة الصاعدة للولايات المتحدة، منصباً على حماية مصالحهما أكثر من أي شيء آخر. وعندما تحدثنا عن "استقلال" العرب فإنما كانتا تعنيان "تحريرهم" من الهيمنة العثمانية، لا حرّيتهم في حكم أنفسهم بأنفسهم. وعلى الرغم من أن بريطانيا وفرنسا حاولتا أن تقدما تأييداً لفظياً لمبادئ الرئيس وودرو ويلسون بشأن حق تقرير المصير، فإنهما كانتا تنويان في الواقع إعادة رسم خريطة الولايات العربية العثمانية بما يلائم مصالحهما.

كانت المصالح الفرنسية في المناطق التي احتلها أَللنبي كبيرة وذات جذور طويلة. فقد انتزع ملك فرنسا من السلطان العثماني في القرن السادس عشر حق حماية كل الأوروبيين في الإمبراطورية. وبحلول القرن السابع عشر، استطاعت دول أوروبية أخرى الحصول على ترتيبات مماثلة عرفت بالامتيازات. وحيث إنه لم يكن للمقرّ البابوي علاقات دبلوماسية مع الباب العالي، فقد أخذت فرنسا على عاتقها مسؤولية حماية كل رجال الدين اللاتين في الشرق، وهو "حق" وسّعه في القرن الثامن عشر لتكون "حامية الكاثوليك". وفي عهد الجمهورية الثالثة، طرأ مزيد من التوسّع على هذه الحماية لتشمل كل المسيحيين في الشرق، أيّاً تكن مذاهبهم. لم يكن هناك، بطبيعة الحال، أي أساس قانوني لمثل هذه المحميات، لكن العثمانيين كانوا أضعف من أن يواجهوا فرنسا في ذلك الوقت.

فجأة، أعطى تدخل فرنسا العسكري في جبل لبنان بعد المذبحة التي تعرّض لها المسيحيون في سنة 1860 معنى لفكرة الحماية الفرنسية، وثبت أن الموارنة أتباع فرنسا الرئيسيين. وكما ذكرنا سابقاً، فإن القوى الأوروبية استحصلت في سنة 1861 على وضع مميز لجبل لبنان كمتصرفية ذات حكم ذاتي على رأسها حاكم عثماني كاثوليكي غير لبناني. وكان يساعد هذا المتصرف مجلس إدارة مكون من 12 عضواً يمثلون الطوائف الرئيسية الست في الجبل. وهكذا أعطيت التعددية الطائفية اللبنانية شكلها المؤسسي الأول واتخذت من عدة نواحٍ سمة مؤسسية منذ ذلك الوقت، استمرت من دون تغيير إلى حد ما، وربما خلقت بعض المشاكل المستعصية التي لا يزال يواجهها لبنان اليوم. أقام الممثلون الفرنسيون علاقات وثيقة مع رجال الدين المسيحيين المحليين، وظهر البطريرك الماروني بمثابة الشخصية المركزية في شبكة أتباع فرنسا. وقد طرأ مزيد من التوسّع على النفوذ الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر من خلال الاستثمارات الكبيرة في الطرق، وسكك الحديد، والمرافئ، وشركات النقل البحري؛ وفي شركات الخدمات العامة مثل الماء والغاز والكهرباء؛ وفي المصارف وغيرها من المؤسسات التجارية؛ وكذلك في الشبكة الواسعة من المدارس والمستشفيات ودور الأيتام التي تموّلها فرنسا، وتوجد في مدن الإمبراطورية الرئيسية مثل إستانبول وسالونيك وإزمير وبيروت والقدس. وعشية الحرب العالمية الأولى كان ما يقرب من 90 ألف تلميذ عثماني، من غير المسلمين أو من أبناء النخبة المسلمة - الولاة، والإداريين، والضباط، والوجهاء - يدرسون الفرنسية ويتشربون الأفكار الفرنسية في المدارس الفرنسية⁽¹⁾. كما شاركت بريطانيا وفرنسا في إدارة الدّين العثماني العام.

كانت الامتيازات في الأصل معاهدات تجارية تفضيلية وقّعها الباب العالي مع القوى الأوروبية، لكن جرى توسيع هذه الامتيازات، تحت حماية القناصل والسفراء الأجانب ورعايتهم، لتشمل بمرور الوقت العائلات المسيحية واليهودية المحلية. وهكذا تمكّنت جاليات غير مسلمة بأكملها من استخدام الامتيازات لتأمين الحصانة من العدالة العثمانية، وكذلك الإعفاء غير العادل من دفع الضرائب العثمانية التي كانت تثقل كاهل المواطنين المسلمين. وأصبحت الامتيازات بالنسبة إلى الحكومة العثمانية تعبيراً

كربهاً عن السيطرة الغربية. وهكذا عندما اندلعت الحرب، أسرع الباب العالي إلى إلغاء الامتيازات على الفور في 1 تشرين الأول/أكتوبر 1914، كما ألغى "الحماية الكاثوليكية" لفرنسا وأرسل قوات مسلحة لاحتلال جبل لبنان. لذا كان أحد أهداف فرنسا في الحرب استعادة الامتيازات والأفضليات والنفوذ التي كانت تتمتع بها سابقاً في الإمبراطورية العثمانية، وهو هدف شاركتها فيه بريطانيا. وكلما بدت الإمبراطورية مهددة بمزيد من التفكك، ازداد عزم القوى الأوروبية على التمسك بالامتيازات التي تمتعت بها منذ زمن طويل.

شكّلت سوريا محور "السياسة الشرقية" لفرنسا. وكان التدخل الفرنسي في المنطقة كبيراً جداً بحيث فكرت السلطات الفرنسية خلال الحرب في تحويل سوريا بأكملها من جبال طوروس في الشمال إلى حدود مصر في الجنوب إلى "فرنسا الشرقية". في 29 كانون الأول/ديسمبر 1918، قبيل بدء أعمال مؤتمر السلام، حدّد وزير الخارجية الفرنسي ستيفان بيشون Stéphane Pichon موقف فرنسا أمام الجمعية الوطنية في باريس كالتالي: "لدينا حقوق لا يمكن التصرف فيها في إمبراطورية الأتراك. لدينا مثل هذه الحقوق في سوريا ولبنان وكيكلية وفلسطين. وهي تقوم على أسس واتفاقيات تاريخية... وعلى تطلعات السكان الذين كانوا دوماً أتباعاً لنا ورغبتهم... إننا مصممون على جعل هذه الحقوق معترفاً بها"⁽¹⁾.

لذا ما إن علمت فرنسا بالعهود التي قطعتها بريطانيا للشريف حسين في مراسلات الحسين - مكماهون، حتى تحركت لإضعاف أثر الثورة العربية وتأمين سيطرتها على سوريا. لم يكن بوسع البريطانيين معارضة ذلك بصورة جدية. فهم يقرّون أن للفرنسيين مصلحة في سوريا منذ أيام لويس الرابع عشر - بل منذ الحروب الصليبية⁽²⁾. وعلى أي حال، كانت القوتان تريدان تقسيم المنطقة في ما بينهما.

كانت مصالح بريطانيا تختلف عن مصالح فرنسا من الناحية التقنية، ولكنها لا تقل عنها حجماً وعمقاً. ولم يكن هناك مصلحة من بينها أهم من السيطرة على المواصلات

Mahafzah, 'La France et le mouvement nationaliste arabe de 1914 à 1950', in (1) *Relations internationales*, no. 19 (autumn 1979), p. 300, quoting P. Huvelin, *Que vaut la Syrie?* Paris 1921, p. 4-6.

.Elizabeth Monroe, *Britain's Moment in the Middle East, 1914-71*, London 1981, p. 28 (2)

البرية والبحرية والجوية بين حوض المتوسط والمحيط الهندي⁽¹⁾. فالهند البريطانية - تجارتهما واحتياطيهما الهائل من القوة العسكرية البشرية - تحتل مكانة رفيعة في التفكير الاستراتيجي البريطاني واستمرت كذلك خلال حربين عالميتين حتى حصول الهند على استقلالها في سنة 1947⁽²⁾.

ثمة طريقان إلى الهند، بري وبحري، تجب السيطرة عليهما وحمايتهما: طريق قناة السويس إلى البحر الأحمر وما ورائه، والطريق من البحر المتوسط عبر الصحراء السورية الشمالية حتى الفرات والخليج العربي، حيث أحرزت بريطانيا مكانة مميزة عن طريق المعاهدات المختلفة التي عقدتها مع الشيوخ المحليين. وهكذا كانت المنطقة من قناة السويس إلى الخليج العربي، كما تراها لندن، منطقة مركزية بريطانية حيوية. ثمة مصلحة بريطانية مهمة أخرى، طالبت فرنسا بتصيب فيها أيضاً، هي السيطرة على إنتاج النفط الإيراني والعراقي والتصرف فيه، بالإضافة إلى حماية منشآت شركة النفط الإنكليزية الإيرانية في عبادان. وكانت بريطانيا قد أنزلت قوة عند مدخل شط العرب في الأيام الأولى من الحرب لمنع تغلغل العملاء الألمان شرقاً، وكذلك لأن 25 ألف طن من النفط شهرياً تصدر من الحقول النفطية الجديدة في جنوب إيران لتزويد البحرية البريطانية بالوقود، بعد أن تحولت من الفحم الحجري إلى النفط سنة 1912. وقد تأكدت الأهمية الحاسمة للنفط في الحرب العالمية الأولى، حيث نُقلت في معركة فرنسا في سنة 1918 وحدات عسكرية كبيرة بالشاحنات من قطاع إلى آخر جيئة وذهاباً.

وثالث المصالح البريطانية السيطرة على فلسطين - كمنطقة فاصلة للدفاع عن قناة السويس ومصر، ولأن آرثر بلفور، وزير الخارجية البريطانية في ذلك الوقت، وعد بأن تقدم بريطانيا الدعم من أجل "إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين". وكانت لندن تأمل في أن تؤدي إقامة فلسطين أنكلو يهودية إلى إضعاف الموقف الفرنسي على حدود مصر. وهناك عناصر أخرى أيضاً للمصلحة الذاتية، إذ كانت بريطانيا تأمل في أن يؤثر اليهود الأميركيون على موقف الولايات المتحدة لصالح

PRO FO 371/27308 Report on the Relations of France and Great Britain with the Arab World and with Each other in the Eastern Mediterranean, 4 November 1940 (1)

.Monroe, *Britain's Moment in the Middle East*, pp. 11-12 (2)

المجهود الحربي للحلفاء، وأن يساعد اليهود الروس في أن تواصل حكومة ألكسندر كيرنسكي Alexander Kerensky المؤقتة القتال على خط الجبهة مع ألمانيا. غير أن البلاشفة أزاحوا كيرنسكي عن السلطة بعد أربعة أشهر فقط.

يمكن فهم الوعود المتناقضة التي قطعتها بريطانيا للعرب والفرنسيين واليهود على التوالي في سنوات 1915 و1916 و1917، برغبتها الجارحة في ربح الحرب ضد ألمانيا وحلفائها، دون أن يشكّل ذلك تبريراً لها. ومن نافلة القول إنه لا عذر للوعود المتكررة الكاذبة التي أعطيت للعرب في سنة 1918، بالاعتراف باستقلالهم وسيادتهم عندما يُهزم الأتراك. فقد أصدر الحلفاء عدة بيانات منافقة لتسكين المخاوف العربية. ففي 4 كانون الثاني/يناير 1918، أمرت الحكومة البريطانية ديفيد جورج هوغارث D.G. Hogarth مدير المكتب العربي البريطاني في القاهرة بتسليم رسالة إلى الملك حسين في الحجاز تؤكد أن وعد بلفور لا يتناقض مع الوعود التي أعطيت للعرب من قبل. وقالت الرسالة "في ما يتعلق بفلسطين فإننا مصممون على ألاّ يخضع أي من الشعبين للآخر". وبعد ذلك بعدة شهور، في حزيران/يونيو 1918 أعلن المندوب السامي البريطاني في مصر السير ريجينالد وينغيت Sir Reginald Wingate رداً على سؤال رسمي وجهه سبعة منفين عرب في القاهرة، أن الحكومة البريطانية ترغب في أن يقوم حكم المناطق المحررة من الأتراك على أساس مبدأ موافقة المحكومين. وبعد ذلك في 7 تشرين الثاني/نوفمبر، أي قبل ثلاثة أيام من الهدنة التي وضعت نهاية للحرب الكبرى، أعلنت الحكومتان البريطانية والفرنسية، في موقف وُصف بأنه ذروة النفاق السياسي⁽¹⁾، بأن هدفهما الوحيد من تقديم الدعم والمساعدة للعرب هو ضمان "انتظام عمل الحكومات والإدارات التي ينتخبها السكان أنفسهم"⁽²⁾.

كانت صيغة هذه التوكيدات متأثرة بوضوح بالأفكار الجديدة التي ظهرت خلال الحرب عن حق الشعوب في تقرير مصيرها. لكن لم تكن فرنسا وبريطانيا في الواقع تتصوران تسليم مصالحهما الواسعة في المنطقة لأحد - وليس إلى الحكومات المحلية بالتأكيد. وعندما اشتبه بعض العرب بأنهم خدعوا، شعروا بالندم للتسرّع في الثورة

(1) المصدر نفسه، ص 48.

(2) انظر Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 29-30 for the Hogarth Message, January للاطلاع على رسالة هوغارث، كانون الثاني/يناير 1918؛ والإعلان الموجه إلى السبعة، 16 حزيران/يونيو 1918؛ والإعلان الإنكليزي الفرنسي، 7 تشرين الثاني/نوفمبر 1918.

على العثمانيين، إذ إن البديل هو الخضوع للحكم الأوروبي والاستيطاني اليهودي. ولكن مرّ وقت طويل قبل أن يدرك العرب حسامة أوهامهم. واليوم أخذ قطاع كبير من المفكرين العرب، بمن فيهم الجيل الشاب من المسلمين في العالم أجمع، يتأملون في تلك الفترة بأنها كارثة، ويرون أن تفكّك الإمبراطورية العثمانية بداية المآسي السياسية للعرب، التي لا يبدو أنها ستنتهي قريباً.

دبلوماسية فيصل غير المجدية

حكم الأمير فيصل في دمشق مدة 22 شهراً فقط، من 3 تشرين الأول/أكتوبر 1918 حتى 25 تموز/يوليو 1920، وهو اليوم الذي سقطت فيه المدينة في أيدي القوات الفرنسية، بعد موقعة ميسلون التي ذُبح فيها المدافعون البواسل في القوات السورية غير المسلحة عملياً بقيادة وزير الدفاع البطل يوسف العظمة.

ربما تكون كلمة "حكم" قوية جداً لوصف السلطة الضعيفة التي سُمح لفيصل بممارستها. على أي حال، أمضى الأمير فترتين طويلتين من الوقت في أوروبا، يحاول الدفاع عن القضية العربية، من كانون الأول/ديسمبر 1918 حتى نيسان/أبريل 1919 ومن أيلول/سبتمبر 1919 حتى كانون الثاني/يناير 1920. وقد بذل أخوه الصغير غير الشقيق الأمير زيد، وهو الابن الرابع للشريف حسين، وكان لا يزال في العقد الثالث من عمره، ما بوسعه لإخفاء الإحباط المرير الذي شعر به السكان المحليون، بعدما بدأت الحقيقة تتكشف تدريجياً بأنه لن يسمح للعرب بإدارة شؤونهم بأنفسهم.

كانت مشكلة فيصل الحقيقية وقوعه بين مطرقة الفرنسيين المصمّمين على السيطرة على سوريا، وسندان حلفائه القوميين، لا سيما أعضاء جمعيتي الفتاة والعهد القدامي في إدارته، المصمّمين على تأكيد الاستقلال العربي المطلق. ولم تسفر محاولات فيصل اليائسة لإيجاد تسوية بين هذين الموقفين عن إرضاء أي من الطرفين.

خاف فيصل من التقسيم المقترح "للدولة العربية الموحدة" التي كان يعتقد أن والده وُعد بها، فذهب إلى لندن للمرة الأولى في 10 كانون الأول/ديسمبر 1918، سعياً وراء توضيح التيات البريطانية. كان في ذلك الوقت في الثالثة والثلاثين من عمره تعوزه الخبرة ولا يحسن الإنكليزية. ونتيجة لذلك، وقع تحت رحمة الكولونيل لورنس،

الذي صحبه كمترجم ومستشار. وقد تم ترتيب رحلته عن طريق لورنس والصهاينة من دون استشارة الفرنسيين، فغضب هؤلاء واستقبلوا فيصل ببرود عندما نزل في مرسيليا مبحراً من بيروت في طريقه إلى إنكلترا.

عندما وصل فيصل إلى لندن، علم أن رئيس الوزراء الفرنسي المسن جورج كليمنصو George Clemenceau، "أبو النصر"، كان قد زار لندن قبل عشرة أيام، ولقي استقبلاً عسكرياً وشعبياً عظيماً في العاصمة البريطانية. وتلك أول زيارة إلى لندن يقوم بها زعيم الحرب المحتفى به منذ الهدنة في 11 تشرين الثاني/نوفمبر، وكان في السابعة والسبعين في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أن المدينة كانت لا تزال تضج بذلك الحدث، فإنه لم يكن بوسع فيصل أن يعرف ما الذي دار بين كليمنصو ولويد جورج Lloyd George، رئيس الوزراء البريطاني، عندما اجتمعا معاً على انفراد في السفارة الفرنسية.

ليس هناك سجل رسمي مكتوب عن هذا الاجتماع الخطير، لكن موريس هانكي Maurice Hankey، سكرتير وزارة الحرب البريطانية، دون في مذكراته ما قاله له لويد جورج بعد فترة قصيرة من اللقاء. وهناك رواية أخرى، مطابقة تقريباً، وردت في مذكرة حول اتفاقية سايكس - بيكو كتبها اللورد بلفور بنفسه، وأعاد فيها بعد مرور ثمانية أشهر على الحدث، سرد الحوار الذي دار في السفارة الفرنسية، وقد جاء على النحو التالي كما زعم:

كليمنصو: ما الذي سنبحثه؟

لويد جورج: بلاد ما بين النهرين وفلسطين.

كليمنصو: قل لي ما الذي تريده.

لويد جورج: أريد الموصل.

كليمنصو: ستكون لك. هل من شيء آخر؟

لويد جورج: نعم، أريد القدس.

كليمنصو: ستكون لك، لكن بيشون Pichon (وزير خارجية فرنسا) سيثير مشاكل بشأن الموصل⁽¹⁾.

(1) Stephen Roskill, *Hankey, Man of Secrets*, vol. II, pp. 28-29. للاطلاع على إعلان بلفور انظر E. L. Woodward and Roham Butler (eds), *Documents on British Foreign Policy, 1919-39*, Series I, vol. IV, London 1952, document 242 of 11 August 1919, pp. 340-1.

على الرغم من أن الفرنسيين لم يشاركوا كثيراً في القتال في الشرق الأوسط، فقد أرادوا أن تطلق يدهم في سوريا. غير أنهم يواجهون مشكلة خضوع سوريا الجغرافية بأكملها، بما في ذلك لبنان وفلسطين، للاحتلال العسكري البريطاني. كان تفكير كليمنصو في ذلك اللقاء منصباً على ألمانيا، التي سيتقرر مصيرها في مؤتمر الصلح. فقد شكّلت ألمانيا حاجساً له، إذ كادت أن تحزم بمفردها بريطانيا وروسيا وفرنسا معاً. فكيف تضمن فرنسا ألا تتمكّن ألمانيا بعد هزيمتها من أن تشنّ حرباً ثانية؟ فقد قاد كليمنصو بلده منذ خريف 1917 في صراع الحياة أو الموت في الحرب الكبرى، لكنه شهد أيضاً هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية في 1870-1871. لذا كان جل اهتمامه منصباً على ضمان أمن فرنسا أمام جارها الأكثر قوة.

كان يدرك أن مسألة المشرق تفسد العلاقات الفرنسية البريطانية، ويتطلع إلى اتفاق مع بريطانيا العظمى لتعزيز موقفه بشأن مسألة ألمانيا قبل وصول الرئيس الأميركي المثالي وودرو ويلسون Woodrow Wilson، الذي يعتقد بأن العناية الإلهية والتخطيط السليم مكّن الولايات المتحدة من تجنّب الفوضى القاتلة التي وقعت فيها أوروبا. لذا تخلّى كليمنصو عن الموصل وعن حصّة فرنسا في منطقة دولية في فلسطين، لكنه أمّن في المقابل اعتراف لويد جورج بنفوذ فرنسا الحصري في سوريا، وهي منطقة تشمل لبنان وتمتد شمالاً حتى ولاية كيليكيا التركية. وحصل على حصّة في نفط العراق وإيران، وهو أمر لم يطرح في اتفاقية سايكس - بيكو. وبذلك وضع كليمنصو، في سعيه لتحقيق استقلال فرنسا في مجال الطاقة، أساس الاستراتيجية الاقتصادية الكبرى للحكومات الفرنسية في مرحلة ما بعد الحرب⁽¹⁾. وآلت الأمور في النهاية إلى حصوله هو ولويد جورج على ما يريدان. ويستطيع المرء أن يجزم أنهما لم يشيرا البتة في مباحثاتهما إلى "الخيار الحرّ للشعوب المعنية".

وهكذا وصل فيصل إلى لندن بعد أن اتفقت بريطانيا وفرنسا على تقاسم المنطقة. وفي 11 كانون الأول/ديسمبر 1918، حاول اللورد بلفور، وزير الخارجية في ذلك الوقت، أن يطمئنه بشأن نيات فرنسا، لكن لورنس الذي رافق الأمير شرح له بصراحة أن البريطانيين لن يشنوا حرباً على فرنسا لمصلحته. وإذا ما أصرت فرنسا على

(1) Henry Laurens, *La Question de Palestine*, Tome I: 1799-1922, pp. 432-3.

مطالبها، فإن البريطانيين سيذعنون. وأشار لورنس على فيصل بأن يسعى للحصول على الدعم الأميركي، ولتحقيق ذلك فإن عليه أن يكسب ودّ الصهاينة. ربما يكون لورنس في ذلك الوقت قد تأثر بالحجج الصهيونية، كما تشير بعض الدراسات الحديثة. ولا شك في أن ذلك هو ما أقنع فيصل، في وقت لاحق من اليوم نفسه، بالاجتماع بالدكتور حايم وايزمن Chaim Weizmann، الزعيم الصهيوني وعالم الكيمياء المقيم في مانشستر، وهو المهندس الأول لوعده بلفور. وقد وصفه المؤرخ الفرنسي هنري لوران Henry Laurens بأنه "أول اعتراف رسمي من قوة عظمى بوجود شعب يهودي وبداية المواجهة بين اليهود والعرب على ملكية فلسطين"⁽¹⁾.

كان فيصل قد عقد اجتماعاً سابقاً مع الزعيم الصهيوني في حزيران/يونيو 1918، عندما أشار وايزمن إلى أن فلسطين اليهودية تستطيع تقديم مساعدة ثمينة إلى المملكة العربية في سعيها للتوسع شمالاً إلى سوريا. وكان مشهوراً عنه أنه يخبر محاوريه بما يريدون سماعه بالضبط. وقد مكّنته جهوده الدؤوبة من كسب تأييد العديد من السياسيين البريطانيين البارزين للقضية الصهيونية، بمن فيهم اللورد بلفور المعادي للسامية، بالإضافة إلى العديد من الصحفيين النافذين، مثل ش. ب. سكوت C.P. Scott، رئيس تحرير صحيفة مانشستر غارديان Manchester Guardian المقرب من ديفيد لويد جورج.

حقّق وايزمن نجاحاً كبيراً في تسخير بريطانيا لدعم الطموحات الصهيونية. وبرزت عبقريته السياسية في إقناع البريطانيين بأنه يمكن الاستفادة من الأهداف الصهيونية في فلسطين لخدمة مصالح بريطانيا في العالم⁽²⁾. لكن الحساب جاء لاحقاً بالنسبة إلى بريطانيا. فقد ترتّب على الوفاء بوعده بلفور تحميلها كثيراً من المشاكل المؤلمة التي تستعصي على الحل حتى يومنا هذا. ووفقاً لما قاله أحد المراقبين البريطانيين: "لقد كان أحد أعظم الأخطاء في تاريخنا الاستعماري، مقيساً بالمصالح البريطانية وحدها"⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 366.

(2) المصدر نفسه، ص 366.

(3) Monroe, *Britain's Moment in the Middle East*, p. 45.

في ذلك الاجتماع، طلب فيصل من وايزمن توضيح أهداف الصهيونية. فأخبره وايزمن وهو يفيض ثقة في النفس في تعامله مع الأمير الشاب، أن اليهود يريدون من فيصل ومؤتمر السلام الاعتراف بالحقوق القومية التاريخية لليهود في فلسطين. وقال إن بريطانيا ستكون القوة الراعية، وإن الإصلاح الزراعي سيأخذ الأرض من الأفندية. وسيسمح التطور الاقتصادي السريع باستيطان 4 - 5 ملايين يهودي. ويمكن بحث حدود فلسطين ومستقبل الأوقاف الدينية في وقت لاحق بعد التسوية السلمية. وتعهّد بأن يحترم اليهود الأماكن الإسلامية المقدسة. أقرّ فيصل بأن هناك متسعاً من الأرض في فلسطين للشعبيين، ووافق على دعم المطالب اليهودية. لكنه آثر ألا يُعلم والده أو أخاه زيد بهذه المحادثة.

بعد ذلك بأيام قليلة، في 21 كانون الأول/ديسمبر، أقام اللورد روتشيلد Lord Rothschild حفل عشاء على شرف الأمير. أعلن فيصل في خطاب ألقاه بعد العشاء أنه "سمع من أناس يعتبرون أنفسهم متحضرين أن اليهود يريدون تحويل مسجدنا في القدس إلى معبد، ويريدون طرد الفلاحين من فلسطين. أما أنا فأعرف أنه ما من يهودي حقيقي يمكن أن تكون لديه مثل هذه النيات... إن مثل الدكتور وايزمن العليا هي مثلنا". وعلى العرب واليهود التعاون لأن "روابط الدم تجمع بينهما"⁽¹⁾.

للاستفادة من الفرصة، عمد وايزمن بعد ذلك إلى ترتيب لقاء آخر مع الأمير في 3 كانون الثاني/يناير 1919. وطلب منه عندئذ التوقيع على نص يحدد المبادئ التوجيهية للعلاقات بين الدولة العربية المستقبلية وفلسطين ذات الوضع غير المحدد - لكن الزعيم الصهيوني كان يتصوّرها يهودية بالفعل. ووفقاً للنص، فإن دستور فلسطين يقدّم أوسع الضمانات الممكنة لتنفيذ وعد بلفور. وبموجبه يتم تشجيع الهجرة اليهودية على نطاق واسع إلى فلسطين وتقدّم إليها المساعدة بكل الوسائل الممكنة. وقّع فيصل، غير أنه أضاف تحفظاً بخط يده باللغة العربية: إذا لم يحصل العرب على استقلالهم، فإن هذا الاتفاق يعتبر لاغياً. ولم يتضح ما إذا كان فيصل على علم بما يوقع عليه، أم جرى التحايل عليه.

بعد انتقال الأمير فيصل إلى باريس، قدّم مذكرة إلى المجلس الأعلى للقوى المنتصرة في مؤتمر السلام في 6 كانون الثاني/يناير. أعلن في مذكرته أن "هدف

الحركات القومية العربية هو توحيد العرب في النهاية في أمة واحدة... وأنهم يتوقعون من القوى الكبرى أن تعتبرهم شعباً واحداً متمسكاً بلغته وحرية، وألا تتخذ أي خطوة لا تتفق مع وحدة هذه المناطق في النهاية في دولة واحدة ذات سيادة... باختصار، إننا نطلب منكم ألا تفرضوا علينا حضارتكم كلها. ولكن أن تساعدونا على أخذ ما ينفعنا من خبرتكم"⁽¹⁾. وقدّمت المنظمة الصهيونية، بدورها، حجتها لإقامة فلسطين "يهودية" في مذكرة مفصلة في 3 شباط/فبراير، بينما رتب الفرنسيون، الراغبون في إضعاف التماس فيصل الحصول على الاستقلال، دعوة سوري مسيحي موالٍ لفرنسا، اسمه شكري غانم، ليطالب أن تمنح فرنسا انتداباً على سوريا المتحدة. وقدّم داود عمون، رئيس مجلس إدارة جبل لبنان، الحجة لإقامة لبنان "لبناني" وطالب بإنشاء دولة لبنانية مستقلة ضمن "حدودها التاريخية والطبيعية".

فيما كانت كل هذه المشاريع المتراخمة تتنافس لجذب اهتمام القوى الكبرى، أخذ فيصل يرى أن تفاؤله في غير محله. فستقسّم سوريا بين فرنسا وبريطانيا، من دون موافقة أهلها. وفي محاولة يائسة لتجنّب حدوث ذلك، دعا فيصل إلى إرسال لجنة تحقيق دولية للنظر في رغبات السكان، وكانت النجاح الوحيد الذي حققه - على الرغم من أن ذلك انقلب ضده وجعل مهمته أكثر صعوبة بكثير.

لجنة كنغ - كرين

اقترح الرئيس ويلسون في 20 آذار/مارس 1919 أن تزور لجنة مشتركة من الحلفاء سوريا "للاطلاع على الرأي العام والتعرف إلى الأرض التي ستحاول العمل عليها أي قوة منتدبة" وترفع هذه اللجنة تقريراً عن نتائجها إلى مؤتمر السلام. ورأى الرئيس الأميركي أن مثل "هذه اللجنة المؤلفة من أعضاء ليس لهم صلة سابقة بسوريا ستقنع العالم بأن المؤتمر بذل ما بوسعه لإيجاد أفضل أساس علمي ممكن للوصول إلى تسوية". وافق المجلس الأعلى على اقتراحه في 25 آذار/مارس 1919. لكن فرنسا رفضت تعيين ممثلين لها في اللجنة، وانسحبت منها بريطانيا أيضاً رغبة في أن تؤمن

(1) يوجد نص مذكرة الأمير فيصل إلى المجلس الأعلى في 1 كانون الثاني/يناير 1920 في:

Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 38-39.

لنفسها حرية الحركة في فلسطين. لذلك أعد الوفد الأميركي برئاسة الدكتور هنري كينغ King والسيد تشارلز كرين Crane العدة للمغادرة بمفردهما. في نهاية نيسان/أبريل 1919، عاد فيصل إلى الشرق الأدنى. كانت سلطته وصديقه لا تزالان غير منقوصتين إلى حد ما رغم أن الرأي العام المحلي ازداد صلابته في غيابه بسبب الشائعات المستمرة عن الخطط الصهيونية تجاه فلسطين والاحتلال العسكري الفرنسي لسوريا في نهاية المطاف. بدأ بعض العرب يتأسفون علناً على رحيل النظام العثماني، واتهموا الأمير فيصل ببيع فلسطين لليهود من أجل حفنة من الذهب⁽¹⁾. لكن عندما طلب فيصل في خطاب عند عودته، ثقة الأمة، وقف إلى جانبه العديد من الوجهاء. وتعهّد رضا الصلح بتأييده، بينما أعلن ابنه رياض أنه ينوي التطوع كجندي في جيش الأمير⁽²⁾.

لذلك تلقى العرب نبأ قرار مؤتمر السلام في باريس وضع الولايات العربية العثمانية السابقة تحت انتدابات أوروبية بغضب وخوف كبيرين. وفي 28 نيسان/أبريل وافق المؤتمر على ميثاق عصبة الأمم الذي تنصّ الفقرة الرابعة من المادة 22 الشهيرة منه على ما يلي:

إن بعض الشعوب التي كانت في ما مضى تابعة للإمبراطورية العثمانية قد بلغت مرحلة من التقدم بحيث يمكن الاعتراف بها بلداناً مستقلة اعترافاً مؤقتاً على أن تتلقى العون والمشورة في المسائل الإدارية من قبل دول متتدة إلى أن يحين الوقت الذي تستطيع فيه هذه الشعوب أن تستغني عن مثل هذا العون والمشورة ويجب أن تؤخذ رغائب هذه الشعوب بعين الاعتبار عند اختيار الدولة التي ستولى الانتداب عليها⁽³⁾.

وضعت نظم الانتداب كإجراء وسط بين الاستقلال القومي والاستعمار الأوروبي، واعتُبرت "تسوية" بين الآمال العربية والمصالح الإمبريالية للقوى الكبرى، على الرغم من أنه لم يكن هناك شيء من ذلك. فلم يكن التعبير اللفظي عن "رغبات"

(1) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. I, p. 470.

(2) Eliezer Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, London 1995, p. 40.

(3) النص موجود في Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 61-2. انظر أيضاً A.H. Hourani, *Syria and Lebanon*, Oxford 1945, chaps 9-13.

السكان المحليين أكثر من إشارة فارغة إلى أفكار الرئيس ويلسون عن حق تقرير المصير الذي أصبح المبدأ الجديد اللامع في العلاقات الدولية، وحظي بانتهاكه باحترام أكبر مما حظي به باحترامه.

وصلت لجنة كنف - كرين إلى يافا في 10 حزيران/يونيو 1919، وأجرت في الشهرين التاليين استقصاءات واسعة في فلسطين وسوريا وزارت 36 بلدة، واجتمعت بممثلي 1500 قرية، وتلقت ما لا يقل عن 1863 عريضة⁽¹⁾. وبعد عشرة أيام فقط من وصولها أرسلت مذكرة إلى الرئيس ويلسون تقول فيها إن فلسطين على وشك الانفجار، وإنه سيكون هناك حاجة إلى جيش قوامه 50 ألف جندي لفرض البرنامج الصهيوني بالقوة ضد إرادة السكان المحليين، بغض النظر عن الدولة التي ستصبح منتدبة عليها.

أدى وصول اللجنة والاهتمام الشديد الذي أثارته إلى جعل العرب يتصورون بسذاجة أن بوسعهم الاعتماد على الدعم الأميركي. ولكن في 29 حزيران/يونيو، أي بعد أربعة أيام فقط من وصول كنف - كرين إلى دمشق، وبعد يوم واحد من توقيع معاهدة فرساي، أبحر الرئيس ويلسون عائداً إلى الولايات المتحدة. فقد رفض مجلس الشيوخ الأميركي معاهدة فرساي وانسحبت أميركا من مؤتمر السلام. وبعد مغادرة ويلسون، أصبح موقف الأمير فيصل شديد الضعف مع أنه ربما لم يدرك هذا الأمر في ذلك الوقت.

آل الصلح والمؤتمر السوري

أوجدت أنشطة لجنة كنف - كرين موجة من التصلب في الآراء في دمشق. وحرّضت ناشطي "الفتاة" و"العهد" على الدعوة إلى عقد المؤتمر السوري العام في تموز/يوليو 1919، بغية صياغة مطالبهم وتقديمها إلى اللجنة. وسرعان ما انضم موفدون من لبنان وفلسطين إلى رفاقهم في سوريا. ومن شارك في الضغط لعقد المؤتمر أيضاً، حزب الاستقلال العربي الذي شكّله جمعية الفتاة قبل أربعة أشهر في شباط/فبراير،

(1) انظر Khoury, *La France et l'Orient arabe*, p. 243، للاطلاع على تفاصيل عن عضوية اللجنة والأنشطة المحمومة خلال الأسابيع الستة التي أمضتها في المنطقة.

وانضم إليه رياض الصلح على الفور. ونظراً لأنه أدرك أهمية محاولة التأثير على لجنة كنج - كرين، فقد بدأ بالكتابة في صحيفة الإخاء، للدعوة إلى تطبيق نقاط الرئيس ويلسون "الأربع عشرة" الشهيرة.

حضر ثلاثة أعضاء من عائلة الصلح المؤتمر السوري العام وكانوا نشطاء في أعماله: مثل رياض صيدا ومثل والده رضا بيروت (مع جميل بيهم وسليم علي سلام والشيخ أحمد رضا وجورج حروفش وفريد قصاب)⁽¹⁾، بينما مثل ابن عمه عفيف، صور⁽²⁾. اعتمد المؤتمر في جلسته الرسمية الأولى المنعقدة في 2 تموز/يوليو قراراً لا يدع مجالاً للشك في شعور أعضائه. فقد طالبوا "باستقلال سوريا السياسي التام"؛ ورفضوا الاعتراف "بأي حق تطالب به الحكومة الفرنسية بأي جزء من البلاد السورية"؛ ورفضوا قبول "مساعدة فرنسا تحت أي ظرف من الظروف، وفي أي مكان"؛ وعارضوا "مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود"⁽³⁾.

كرّر الأمير فيصل القرار الذي اعتمده المؤتمر السوري، بعبارات أقل حدة، عندما استقبل اللجنة في اليوم التالي. وأوضح أن هناك وحدة طبيعية بين سوريا وفلسطين، وأن انفصالهما غير مقبول. وأضاف أنه كان مستعداً قبل أشهر لقبول برنامج محدود للهجرة اليهودية إلى فلسطين، لكن المطالب الصهيونية المبالغ بما أرعبت العرب الذين يرفضون الآن مثل هذا التدفق. أكدت النتائج التي توصلت إليها لجنة كنج - كرين آراء المؤتمر السوري العام وسرّعت اليقظة السياسية للمنطقة. كتبت اللجنة: "إننا نوصي بالإبقاء على وحدة سوريا بما يتفق مع العرائض النزيهة للأغلبية العظمى من سكان سوريا". وفي ما يتعلق بلبنان، "فإن مصلحته تتحقق في أن يكون عضواً تأسيسياً

(1) انظر هلال الصلح، رجل وقضية، ص. 42.

(2) عفيف هو ابن كامل الصلح أحد أبناء أحمد باشا الثلاثة. وكان لكامل الصلح خمسة أولاد من زوجتين. أنجب ولدتين (منيف ومنيفة) من زوجته الأولى من عائلة العطار. أما زوجته الثانية من عائلة المالكي، فأنجبت ثلاثة أولاد (عفيف وعفيفة وبسر). ولد عفيف في طرابلس، ليبيا، حيث كان والده يعمل قاضياً عثمانياً. درس في إستانبول وحصل على شهادة الدكتوراه هناك. كان رجلاً وسيماً معروفاً بأناقته. وضابطاً سابقاً في الجيش العثماني. أصبح في ما بعد أمين سر الكتلة الوطنية في دمشق ونائباً في البرلمان السوري.

(3) النص موجود في Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 62-63.

في الدولة (السورية) لا في استقلاله عنها". أما المطالبة الصهيونية بأرض فلسطين "بناء على احتلالها قبل ألفي سنة مضت فإنه لا يمكن أخذها بجديّة". وأوصت اللجنة بأنه "لا يمكن الشروع سوى ببرنامج صهيوني محدود جداً... وبشكل تدريجي فحسب. وسيعني ذلك وجوب تحديد الهجرة اليهودية والعدول نهائياً عن الخطة التي ترمي إلى جعلها دولة يهودية". ورأت اللجنة بدقّة كبيرة أن تنفيذ الخطة الصهيونية المتطرّقة "سيزيد من حدة مشاعر العداء لليهود في فلسطين وفي كل أنحاء العالم التي تنظر إلى فلسطين "كأرض مقدّسة". ولاحظت أن "مشاعر العرب في الشرق معادية جداً لفرنسا. وأن هناك سبباً كبيراً للاعتقاد أن محاولة فرض انتداب فرنسي بالقوة ستؤدي إلى قيام حرب بين العرب والفرنسيين"⁽¹⁾.

قدّمت اللجنة تقريرها إلى الوفد الأميركي في باريس في 28 آب/أغسطس، لكن مرّ شهر طويل آخر قبل أن يصل ذلك التقرير إلى البيت الأبيض في 27 أيلول/سبتمبر. بعد ذلك بخمسة أيام، أصيب الرئيس ويلسون بسكتة أصابته بالشلل، فوُضع التقرير على الرف. ولم تُعره الولايات المتحدة أو القوى الأوروبية أي اهتمام بعد ذلك. أصيب فيصل وآل الصلح، الذين كرّسوا أسابيع من الجهد للعمل مع اللجنة، بخيبة أمل مريرة. فقد كانوا يأملون بانتداب أميركي، أو بمساعدة أميركية على الأقل في صدّ الفرنسيين والصهاينة. وشعر أصدقاء العرب البريطانيون القليلون بخيبة أمل أيضاً، لأنهم كانوا يأملون في أن تتمكّن الولايات المتحدة من كبح الأطماع الفرنسية في سوريا بأكملها.

ثار الرأي العام في دمشق على الحلفاء، فقرر فيصل العودة إلى لندن في صيف سنة 1919 في محاولة أخيرة للتأثير على الوضع واستعادة سلطته التي انتابها ضعف خطير. وصل إلى لندن عن طريق مرسلينا في 18 أيلول/سبتمبر، وقابل في اليوم التالي رئيس الوزراء لويد جورج ومعه اللورد كيرزون Lord Curzon (الذي سيخلف اللورد بلفور وزيراً للخارجية عما قريب) والمارشال أَلنبي في مقر رئيس الوزراء. لكن، على غرار ما حصل في شهر كانون الأول/ديسمبر السابق، قوِّضت مهمة فيصل بسبب

(1) يوجد نص توصيات لجنة كنج كرين المرفوعة في 28 آب/أغسطس 1991 في Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, pp. 66-74.

حدوث تطور سابق لم يكن يعرف عنه شيئاً. كانت بريطانيا قد اتخذت قراراً بسحب قواها من سوريا وكيلىكيا ابتداءً من 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1919، تحت ضغط تزايد الأعباء في أيرلندا والهند ومصر، واضطرابها للتعامل مع أعمال التمرد في الجيش وسواها من مشاكل تسريح القوات ما بعد الحرب. وكان من المنتظر أن تحل محلها القوات الفرنسية في المنطقة الغربية، والقوات العربية في المنطقة الداخلية السورية.

وصل فيصل إلى لندن يوم أعلن عن الاتفاق الفرنسي البريطاني. فأطلعه لويد جورج على ما اتفق عليه مع الفرنسيين بشأن انسحاب القوات العسكرية. وذلك يعني أن بريطانيا تمنح فرنسا حرية الحركة التامة في سوريا وتتخلى بخفة عن العرب ليواجهوا مصيراً استعمارياً. كما أن نصف المعونة المالية التي كان يتلقاها الأمير من البريطانيين، سيدفعها الفرنسيون من الآن فصاعداً، وأن على الأمير طلب هذه المساعدة المالية منهم. لم يكن بوسع فيصل سوى الاحتجاج بأن هذا الترتيب مناقض لمبادئ عصبة الأمم، لأنه يعني "العودة غير العادلة إلى سياسة الطموحات الاستعمارية". فهو يعرف تمام المعرفة أن العديد من السياسيين والمسؤولين الفرنسيين يعتبرون إنشاء نظام قومي عربي في المنطقة الداخلية السورية خطراً على المصالح الفرنسية ويجب إيقافه بكل الوسائل. لذا أعلن، بتحدٍّ أنه لن يوافق البتة على مثل هذا التقسيم لسوريا.

عندما وصل الخبر إلى دمشق بأن القوات البريطانية توشك على الانسحاب، تصاعد الضغط الشعبي للتعبة العامة لمحاربة الفرنسيين. وشكل الشيخ كامل القصاب والدكتور عبد الرحمن الشهبندر لجنة للدفاع الوطني بغية تجنيد المتطوعين وجمع الأغذية والمال والسلاح لعمليات المقاومة غير النظامية⁽¹⁾. وحرّض ياسين باشا الهاشمي، رئيس الأركان، على تجنيد قوة من 12 ألف رجل. فطالب الفرنسيون باعتقاله على الفور، مع أن البريطانيين تردّدوا في قبول ذلك في البداية. لكن عندما بدأت المجموعات المسلحة التي أرسلتها جمعية الفتاة ولجنة الدفاع بشن هجمات "كثيرة" على القوات الفرنسية في أنحاء متفرقة من سوريا، أمر الجنرال ألبنسي باعتقال ياسين باشا في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1919. ولزيادة الطين بلة، علّقت المعونات المالية التي

(1) للاطلاع على رواية مفصلة عن لجنة الدفاع الوطني، Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, pp. 68-78.

تقدّمها بريطانيا إلى حكومة فيصل العربية أيضاً. فشكّل ذلك ضربة قوية لمكانة الأمير وسلطته.

في نفس الوقت، كان الرأي العام القومي العربي في سوريا يتابع باهتمام الثورة القومية التركية في الأناضول بقيادة مصطفى كمال، الذي قيل إنه جمع جيشاً هائلاً قوامه 200 ألف مقاتل. وبحلول منتصف صيف 1919، كان مصطفى كمال قد أنشأ هيئة قومية مهمتها حماية سيادة الأناضول وتراقيا الشرقية وسلامة أراضيها. وتعالّت أصوات في سوريا للانضمام إلى الكمالين بدلاً من الخضوع للإملاءات الأوروبية. وسرت إشاعات بأن مصطفى كمال اتصل بحكومة دمشق، وبأن الأمير زيد أرسل له دعماً مالياً لمهاجمة الفرنسيين في كيكيا. في ذلك الجو المتأزم، كان العديد من السوريين يفضلون إقامة تحالف مع الأتراك بدلاً من القبول بما اعتبروه تسوية غير عادلة يفرضها عليهم المسيحيون الأجانب بوسائل مخادعة.

وجد الأمير فيصل نفسه مجرداً تماماً من الأصدقاء الأقوياء. فقد تخلى عنه البريطانيون، وسحب الأمير كيون مساعدتهم. ولم يعد أمامه من خيار سوى التوصل إلى تسوية مع الفرنسيين أو قيادة ثورة مسلحة ضدهم. لكن الخيار الأخير متهور طائش في ضوء فراغ خزينته وصغر حجم جيشه - 7000 رجل وبضعة آلاف من الجياد وعدة مئات من مركبات النقل موزعة بين دمشق وبلبك ودرعا وحلب⁽¹⁾. فأدرك أنه لا يستطيع تحمّل مخاطر صراع مسلح مع فرنسا، وأنّ عليه التوصل إلى اتفاق معها.

سقوط اتفاقية فيصل - كليمنصو

غادر فيصل لندن وهو يشعر بانزعاج شديد ووصل إلى باريس في 19 تشرين الأول/أكتوبر 1919 حيث اجتمع بالزعيم الفرنسي جورج كليمنصو بعد ذلك بيومين. تبادل الرجلان عبارات المجاملة. كان رئيس الوزراء الفرنسي يعارض شخصياً توسع الاستعمار الفرنسي في المشرق. ولم يكن يحب لعب سياسة الأقليات القائمة على استخدام العملاء الدينيين والإقليميين في الخارج، ولديه قناعة بأن على فرنسا أن

ترسم سياسة عربية قابلة للبقاء بدلاً من الاستراتيجية التي اتبعتها تجاه الإمبراطورية العثمانية البائدة. وكان يميل إلى التفكير بأن على فرنسا تأييد الحركة القومية العربية، بعد أن ساعدتهم في التحرر من العثمانيين. وقد أكد المستشرق الفرنسي البارز لويس ماسينيون Louis Massignon له أن هذه هي الطريقة الفضلى لحماية المصالح الفرنسية في المشرق وشمال أفريقيا، وتطابق رأيه مع موقف كليمنصو⁽¹⁾.

كان على كليمنصو أن يخطو بحذر، لأن غالبية البرلمان تضم حزباً استعمارياً صغيراً لكن ذا صوت مرتفع⁽²⁾. ولإسكات مثل هؤلاء النقاد اليمينيين الصخائين، قرر في 9 تشرين الأول/أكتوبر 1919 إرسال الجنرال غورو، البطل الفرنسي العسكري الاستعماري، للحلول محل فرنسوا جورج بيكو مفوضاً سامياً في بيروت. منح غورو لقبى القائد العام للجيش الفرنسي في الشرق والمندوب السامي في سوريا ولبنان وكيليكيا. وفي 21 تشرين الثاني/نوفمبر، وصل غورو إلى لبنان فلقى ترحيباً كبيراً من المسيحيين. وكانت الفرس التي امتطاه في موكب النصر في باريس بعد الحرب العالمية الأولى قد شحنت بحراً إلى لبنان خصيصاً لهذه المناسبة. فامتطاه وسط الجماهير المحتشدة إلى ساحة المدافع [ساحة البرج أو الشهداء لاحقاً]. غير أن الجو العام كان مختلفاً جداً في دمشق. فقد أطلقت أنباء وصوله مظاهرات عنيفة في الشوارع. وواجه الأمير زيد والضابط الشاب نوري السعيد صعوبة هائلة في الحفاظ على النظام في المدينة الغاضبة.

في غضون ذلك في باريس، انهمك فيصل بين منتصف تشرين الأول/أكتوبر ونهاية كانون الأول/ديسمبر بمفاوضات طويلة مع المسؤولين الفرنسيين، لا سيما فيليب بيرتلو Philippe Berthelot، مدير الشؤون السياسية والتجارية في وزارة الخارجية، الذي كان يقدم له المشورة والمساعدة لويس ماسينيون أيضاً. انتهت هذه الاجتماعات بالتوصل في 6 كانون الثاني/يناير 1920 إلى اتفاقية مؤقتة، اتفق الجانبان على إبقائها طي

(1) للاطلاع على آراء ماسينيون بشأن القومية العربية وسياسات بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط في 1917 - 40، انظر 'L'Arabie et le problème arabe', in Louis Massignon, *Ecrits*, Mémorables, Paris 2009, vol. 1, pp. 541-61.

(2) المصدر نفسه، ص 339 نقلاً عن A.M. Andrew and S. Kanya-Forstner, 'The French Colonial Party and French Colonial War Aims, 1914-1918', in *the Historical Journal*, XVII, I (1974), p. 106.

الكتمان، لمنح الأمير فيصل فرصة تسويقها في دمشق. وكان من المقرر أن تستبدل بها في الوقت الملائم "اتفاقية نهائية ومفصلة" توضع عليها اللمسات الأخيرة وتوقع عند عودة الأمير إلى باريس التي ينتظر حدوثها خلال أسابيع. وبموجب الاتفاقية المؤقتة⁽¹⁾، فإن الحكومة الفرنسية "تؤكد اعترافها بحق الشعوب الناطقة بالعربية من كل الطوائف التي تعيش في الأراضي السورية بالاتحاد معاً لحكم أنفسها كأمة مستقلة". وألزم الأمير بدوره بالاعتراف بأن للسكان السوريين "مصلحة عظيمة" في طلب مساعدة المستشارين والمعلمين والفنيين الفرنسيين "لتحقيق وحدتهم وتنظيم أداء أمتهم". وسيشرف مستشار مالي فرنسي على إعداد الميزانية السورية ومستشار في الأشغال العامة على إدارة سكك الحديد. وسيكون للحكومة الفرنسية "الأولوية الكاملة" في اختيار الشركات العاملة في سوريا، وجمع "القروض" الضرورية لرفاه البلاد. وستقدم المساعدة في تنظيم قوة الجندرية والشرطة والجيش. وسيمثل المسؤولون الدبلوماسيون والقناصل الفرنسيون سوريا في الخارج. وستكون اللغة العربية اللغة الرسمية، لكن اللغة الفرنسية ستدرّس بطريقة "إلزامية ومميزة". وألزم الأمير أيضاً بالاعتراف باستقلال لبنان وسلامة أراضيه تحت الانتداب الفرنسي. وهكذا قدّم فيصل تنازلات رئيسية للتوصل إلى الاتفاق الوحيد المتاح في الظروف المفروضة عليه.

عاد الأمير إلى دمشق في 16 كانون الثاني/يناير، فاتهمه القوميون بالخيانة حين عرفوا بشروط العرض. وأبدى الرأي العام عداً شديداً لأيّ تسوية مع فرنسا حتى إن فيصل لم يجرؤ على الاعتراف بأنه وقع على اتفاقية مؤقتة مع كليمنصو. ولم تعد عودته إلى باريس مسألة واردة الآن. لم يكن هناك أي استعداد البتة في دمشق لقبول تقسيم سوريا، أو استقلال لبنان، أو "وطن قومي" لليهود في فلسطين أو فرض أي شكل من أشكال الرعاية الأجنبية. استخدم أعضاء "الفتاة" و"العهد" الذين يسيطرون على إدارة الأمير كل ما أوتوا من قوة لمنع مثل هذه النتيجة. وقد رأى الأمير أنهم مخطئون، لكن لم يكن لديه أي خيار سوى الانحناء أمام رغباتهم. وتلقّى فيصل ضربة أخرى في ذلك الوقت عندما علم أن كليمنصو اللين العريكة سيتقاعد من العمل السياسي وسينسحب

(1) للاطلاع عن صورة طبق الأصل عن الاتفاق، انظر Khoury, *La France et l'Orient arabe*, pp. 312-318.

من الحياة العامة للعيش في مقاطعته البعيدة قرب شاطئ البحر. كان هذا الزعيم الفرنسي القلم الذي اقترب من سن الثمانين قد رشّح نفسه لرئاسة الجمهورية الفرنسية، لكنه هزم أمام بول دوشانيل Paul Deschanel. فاستقال من منصبه كرئيس للوزراء وحل محله ألكسندر ميلران Alexander Millerand، وهو سياسي قريب من الحزب الاستعماري والمتحدث باسمه الشديد النشاط، روبير دو كيه Robert de Caix، الذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب الأمين العام للمفوضية الفرنسية العليا في بيروت⁽¹⁾.

كانت سياسات دو كيه الاستعمارية مناقضة تماماً لسياسات بيرتلو وماسينيون. وهي تقوم على إضعاف الحكومة الوطنية في دمشق، بدلاً من مساندتها، عن طريق تقسيم سوريا إلى عدة مناطق تتمتع بالحكم الذاتي؛ على أن يعتمد نفوذ فرنسا على الأقليات التابعة - الموارنة في جبل لبنان، والعلويين والدروز. كما كانت شديدة العداء للأغلبية السنية ونخبته التقليدية المحنكة. ووضع دو كيه نظرية خيالية مفادها أن سوريا مثل نافذة ذات زجاج ملون، تزودها فرنسا بالأطر المنحنية التي تجمع أجزائها معاً. وفي شطحة أخرى من شطحات الاستعلاء المتفضل، شبه سوريا "بالعجينة الطرية" التي تشكلها فرنسا. ورأى أن فرنسا لن تنشئ أمة واحدة في سوريا بل مجموعة من الكاثونات التابعة التي لا يربط بينها سوى ممثل فرنسي. وفي الوقت نفسه، لإعطاء لبنان عمقاً أكبر وإضعاف التماسك الداخلي للدولة العربية في دمشق، لا بد من ضم وادي البقاع إلى لبنان⁽²⁾. لقد كان روبير دو كيه عازماً على إفراغ اتفاق 6 كانون الثاني/يناير 1920 الموقت الذي توصل إليه فيصل مع كليمنصو من مضمونه. وهكذا أصبح فيصل معزولاً وضعيفاً في مواجهة التحدي الفرنسي في باريس وتحدي القوميين في الوطن.

(1) كان روبير دو كيه (1869-1970) داعية سبي السمعة و"خبيراً" في شؤون شمال أفريقيا، أصبح منذ 1910 وما يليها القوة المحركة للحزب الاستعماري. للاطلاع على رواية مفصلة عن حياته ولائحة بأعماله السياسية انظر: Gérard D. Khoury, *Une Tutelle Coloniale: Le Mandate Français en*

Syrie et au Liban, écrits politiques de Robert de Caix, Paris, 2006

(2) Khoury, *La France et l'Orient Arabe*, pp. 301-302

المؤتمر السوري العام ومؤتمر سان ريمو San Remo

في هذه الظروف، وفي جوٍّ من التحدي والحماسة، عقد القوميون العرب المؤتمر العربي العام الثاني برئاسة هاشم الأتاسي، وقد حضره ثلاثة من آل الصلح: رضا ورياض وعفيف. في الجلسة العامة في دمشق، اتخذ المؤتمر قراراً تاريخياً أذيع في اليوم التالي، أي 8 آذار/مارس 1920. وفيه أعلن استقلال سوريا "بحدودها الطبيعية" - تشمل المنطقة الداخلية والساحلية وفلسطين والأراضي الواقعة شرقي الأردن ولبنان (على الرغم من السماح له لاحقاً بإدارة ذاتية ضمن حدود المتصرفية العثمانية).

ورفض المؤتمر مشروع الوطن القومي لليهود في فلسطين ونادى بالأمير فيصل ملكاً على سوريا⁽¹⁾. كان فيصل يعرف أن مثل هذا القرار سيدفع الفرنسيين إلى استخدام القوة ضده، فحاول جاهداً إقناع القوميين بعدم عقد المؤتمر أو الامتناع عن إعلان الاستقلال إذا ما عقده. لكنه فشل في ثنيهم عن عزمهم، إذ أصبح التيار المعادي لفرنسا جارفاً. وهكذا أظهر اختيار فيصل ملكاً مقدار ضعفه بدلاً من أن يكرّس سلطته⁽²⁾. والأسوأ من ذلك، من وجهة نظر فيصل، أن المؤتمر قرّر إبقاء جلساته مفتوحة لفترة غير محددة وطلب أن يكون فيصل وحكومته مسؤولين أمامه عن أعمالها.

جاء رد الفعل الفرنسي فوراً وقوياً. أرسلت تعزيزات عسكرية فرنسية بسرعة إلى المشرق. وأمر رئيس الوزراء، ألكسندر ميلران، الجنرال غورو بإبلاغ فيصل أن الحكومة الفرنسية لن تعترف بحق المؤتمر السوري في دمشق في تقرير مصير الأراضي العربية وأنه هو والحكومة البريطانية مضطران لإعلان قرارات المؤتمر "باطلة ولاغية". وبعد ذلك قرر المجلس الأعلى للحلفاء - يتكوّن من لويد جورج وميلران وزملائهما - عقد اجتماع في سان ريمو على الريفيرا الإيطالية في 24-25 نيسان/أبريل 1920، ودعوا الأمير فيصل للمجيء إلى أوروبا للتباحث معهم. ولكن رفض المجلس قبول إعلان الاستقلال الصادر في 8 آذار/مارس، جعل من المستحيل على

André Raymond, 'La Syrie du Royaume arabe à l'indépendance (1914-1946)', in (1)
André Raymond (ed.), *La Syrie d'aujourd'hui*, Paris 1980, p. 63

.Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, p. 45 (2)

فيصل الحصول على تفويض من المؤتمر السوري بالحضور. مع ذلك، كان لا يزال متمسكاً ببصيص أمل بأن الاتفاقية المؤقتة التي توصل إليها مع كليمنصو ما زالت صالحة، فتوسّل إلى باريس إصدار إعلان يعترف باستقلال سوريا. لكن الحكومة الفرنسية الجديدة لم تكن في مزاج يسمح بالاستجابة له. لذا قرّر المجلس الأعلى للحلفاء في سان ريمو مصير الأراضي العربية، في غياب أي ممثل عربي. وفي تجاهل تام لرغائب السكان المحليين الواضحة، وضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي وفلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني.

كان لهذه القرارات وقع النعيّ في دمشق. فهي تنتهك التعهدات التي قدّمها الحلفاء في سنة 1918 بالإضافة إلى وعود سابقة قدّمت للعرب، وأثارت مخاوف رهبة من أن تواجه سوريا مصيراً شبيهاً بمصير المغرب وتونس. بل إن بعض القوميين المستهوّرين طالبوا الأمير فيصل بإعلان الحرب على فرنسا! وفي محاولة لتهدئة الرأي العام، قام فيصل باستبدال رئيس الوزراء علي رضا باشا الركابي، وعيّن محله هاشم الأتاسي الأكثر شعبية وميلاً إلى القتال. وأدخل خصوم فرنسا المتشدّدين إلى الحكومة، لا سيما يوسف العظمة الشجاع والوسيم وزيراً للحربية وعبد الرحمن الشهبندر وزيراً للخارجية. ومع ذلك اندلع تمرد عفوي على الرغم من هذه الإجراءات. فهاجمت مجموعات غير نظامية القوات الفرنسية في شمال المنطقة الساحلية وأوقعوا في صفوفها بعض القتلى، بدعم من ضباط فيصل أنفسهم في بعض الأحيان. وهاجمت القرى المسيحية التي تعتبر معاقل عسكرية فرنسية في جبل لبنان ونُهبَت. وهدّد مقاتلون شيعة من جبل عامل المستعمرات اليهودية في الجليل. وكان التطور الأخطر على الإطلاق من وجهة نظر الجنرال غورو - وهو الأمر الذي لا يمكن أن يسمح به - أن الأمير فيصل (أو بالأحرى الوطنيين الملتزمين الذين لا يزالون يدعمونه) رفض اعتباراً من شباط/فبراير 1920 أن يسمح للفرنسيين باستخدام سكة حديد رياق - حلب. وذلك امر ضروري لإرسال التعزيزات والمؤن إلى القوات الفرنسية التي تحارب القوميين الأتراك بقيادة مصطفى كمال في كيليكيا، حيث حوصرت المعاقل الفرنسية وهُزمت. لذا اضطر غورو إلى إرسال المؤن والتعزيزات عن طريق البحر، وذلك مكلف وبطيء وصعب.

في هذا الوقت، حدث انقلاب حاسم للرأي العام السوري على فيصل، إذ اعتُبر على نطاق واسع أنه أضعف من أن يتصدى للأزمة المتصاعدة مع فرنسا. وفي محاولة لحشد الرأي العام حول الأمير - الذي أصبح الآن ملكاً على سوريا بالاسم فحسب - اقترح رضا الصلح، وزير الداخلية، أن يذهب فيصل في جولة على المحافظات تبدأ في حلب. أرسل رياض وصديقه سعد الله الجابري شمالاً ليطلبا من شقيق سعد الله الأكبر، نافع باشا الجابري، الوجه الحلبسي البارز والنائب السابق في البرلمان العثماني، استقبال فيصل في دارته في أثناء قيامه بزيارة عاصمة سوريا الثانية. لكن نافع باشا رفض ذلك رفضاً قاطعاً، متمرداً على تقاليد الضيافة العربية. وتحول الأمر إلى خلاف سياسي كبير. فصاح بأن على "الملك" أن ينسى لقبه ويتصرف كقائد ثورة حقيقي - حتى يتأكد من حدود "مملكته" على الأقل. وأن هذا البدوي الذي كان صلباً في ما مضى تغير وتغير وليت رفاهية السلطة عريكته. وأضاف أن الملك والثوري لا يجتمعان مثلما يتعذر أن يكون للفيل جناحان.

في أثناء هذه المناقشة الحامية غير المجدية، كانت فائزة، ابنة نافع باشا التي يبلغ عمرها ست سنوات، جالسة في حضن أبيها، فحاولت اجتذاب رياض لكي يلعب معها. لكنه شدّها من شعرها لمعايظتها، فخرجت من الغرفة باكية. كان ذلك اللقاء الأول والوحيد قبل أن تصبح عروسه بعد ذلك بنحو عشر سنوات.

حزن رضا الصلح لأن نافع باشا رفض بشدة استقبال فيصل، لكن زيارة حلب ساعدت في تزايد حدة خيبة أمل ابنه رياض من الأمير. وفي 22 حزيران/يونيو 1920 التقت مجموعة من الثائرين الشبان، من بينهم رياض، في بيت البكري في دمشق القديمة، حيث كان يجري التخطيط في أوقات سابقة للانقلاب على الأتراك. وهناك قرروا الاستعداد للقتال ضد الفرنسيين. وفي أعقاب الاجتماع، ذهب رياض لمقابلة والده في وزارة الداخلية.

قال الابن بالحاح: عليك الاستقالة.

أجاب الوالد: وأتركه بمفرده؟

رد الابن: نعم، لقد تسرّعتم جداً في منحه العرش.

بعد مزيد من النقاش، أدرك رضا، في ضوء الخطط العنيفة للثوار، بمن فيهم ابنه، أن موقفه كوزير للداخلية في حكومة فيصل أصبح ضعيفاً. نقل رياض إلى رئيس

الوزراء، المماثل له في العقلية، هاشم الأتاسي، رسالة استقالة والده فقبلها على الفور من دون أن يهتم باستشارة فيصل⁽¹⁾. فقد انتقلت السلطة في دمشق إلى القوميين الأكثر تشدداً، بسبب السياسة الخرقاء التي اتبعها الحلفاء في سان ريمو. واشتدّ تصلّب مزاج السلطات الفرنسية في باريس وبيروت، وأصبحت الآن عازمة على تحطيم نظام فيصل العربي بالقوة العسكرية، وهكذا أصبح الصدام لا مفرّ منه.

مبادرة رياض الصلح الجريئة

بالنسبة إلى قوميّ عربيّ مثل رياض، كان فصل لبنان عن سوريا، كما يعترّم الفرنسيون، ظلماً تاريخياً للمجتمعين اللذين طالما اعتقد أن كلا منهما ينتمي للآخر. وقد اعتبر استعداد فيصل للاعتراف باستقلال لبنان - ولو تحت الضغط الفرنسي - محيراً جداً وقصير النظر. فلبنان منفذ سوريا إلى البحر والعالم الأوسع، في حين أن سوريا بوابة لبنان إلى المناطق العربية الداخلية. وتشكّل السلاسل الجبلية التي تشرف على ساحل المتوسط والمدن والسهول الزراعية والصحاري الداخلية منطقة واحدة يسكنها شعب واحد يتكلم لغة واحدة، وطالما اتجر بعضه مع بعض وتزواج بعضه من بعض عبر القرون. كان رياض يدرك جيداً أنّ مسيحيي لبنان - وبخاصة الموارنة من بينهم - يتطلّعون إلى فرنسا لحمايتهم، بسبب ارتباطهم بأوروبا بعلاقة تمتد على مدى أجيال، وتشربهم الثقافة واللغة الفرنسية وخوفهم من محيطهم الإسلامي. كان ذلك واضحاً بالنسبة إلى كل من نشأ في بيروت بين أصدقاء مسيحيين، ودرس في مدارس تبشيرية فرنسية مثل رياض الصلح.

في 19 شباط/فبراير 1919، قدم أحد الأعضاء الموارنة في مجلس إدارة جبل لبنان، داود عمّون، التماساً إلى مؤتمر السلام في باريس يدعو فيه إلى استقلال لبنان وأن يحكم نفسه بنفسه تحت الحماية الفرنسية. لم يكن لبنان الذي طالب به يتكوّن من جبل لبنان التقليدي فحسب، وإنما بلداً موسعاً في "إطار حدوده التاريخية والجغرافية" يضمّ بيروت كعاصمة له وطرابلس والشمال وصيدا والجنوب ووادي البقاع في الشرق. كان عمّون واحداً من كثير من مثل هؤلاء الملتهمسين، وأكثرهم نفوذاً البطريك الماروني إلياس

(1) Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut), 26 September 1965

بطرس الحويّك. وهو موال متحمّس لفرنسا، دعا لأسباب تاريخية وسياسية ولغوية إلى "استقلال لبنان الكامل عن أي دولة عربية قد تقام في سوريا. ورأى في خطابه المتطاول أن لبنان هو المركز الرئيسي للتعليم والثقافة الغربية في المنطقة، وأنه مختلف كثيراً عن سوريا "التي يشكّل العنصر البدوي جزءاً مهماً من سكانها"⁽¹⁾. وهو رأي تبسيطي أثار ضحك الدمشقيين والحليين المتحضّرين دون شك!

أثارت مثل هذه الآراء المتطرفة سؤالا خطيراً: كيف يمكن إيجاد قاسم مشترك بين القوميين اللبنانيين المعادين للعرب، الذين طالما رأوا خلاصهم في ارتباطهم بفرنسا، والقوميين العرب في سوريا، بمن فيهم مسلمي لبنان الذين يتخذون موقفاً حازماً مناهضاً لفرنسا؟ كانت تلك أحجية شغلت جانباً كبيراً من حياة رياض الصلح السياسية، ونجح أكثر من أي سياسي آخر في جيله في إيجاد حل لها في نهاية المطاف. كان يؤمن بوجوب احترام حساسيات اللبنانيين المسيحيين - لأنهم جزء من المشهد السياسي - لكنه كان يؤمن أيضاً بأنه من غير المسموح أن يستخدم الفرنسيون لبنان قاعدة تشكّل تهديداً استعمارياً دائماً لحكومة عربية في الداخل.

قام رياض بأول محاولة لحل هذه المشكلة المعقدة في أوائل تموز/يوليو 1920، أي قبل نحو شهر من عيد ميلاده السادس والعشرين. وفي دمشق، كان فيصل يتعرض لضغوط كبيرة من الفرنسيين والقوميين. فقد أخذ غورو يعزّز قواته لتمكينه من الإطاحة بحكومة فيصل. فثمة لواء سنغالي في الطريق إليه بعد أن سُحب من الراين، إلى جانب ثلاث كتائب سنغالية من تراقيا، وخمس سرايا من السباهية المغاربة من إستانبول، ووحدة مدفعية من مدغشقر. كانت أوامر غورو تقضي بالإعداد لعمليات عسكرية ضد دمشق، بسبب "الموقف الوقح والخطير الذي اتخذته حكومة فيصل الشريفة".

في ذلك الوقت توصّل رياض الصلح إلى خطة طموحة. إذا استطاع استمالة مجلس إدارة جبل لبنان إلى جانب فيصل، فسَيُظهر ذلك أن أعضاءه، بمن فيهم الموارنة، يفضلون الارتباط بسوريا على الانفصال تحت حكم الفرنسيين. وعندئذ يُتضح بأن دور فرنسا "كحامية" للمسيحيين، وهو العذر الذي تثيره دائماً لتبرير وجودها

الاستعماري، غير ضروري البتة. كانت تلك أول مبادرة سياسية مهمة يطرحها رياض وتشكّل تحدياً مباشراً للقوة الفرنسية الحاكمة.

أجرى رياض أول اتصال سري بعدد من أعضاء مجلس الإدارة واستطاع، بمساعدة اثنين من أقرب أصدقائه - عارف النعماني، أحد أغنى وجهاء المسلمين السنة وأوسعهم اطلاعاً على الثقافة الفرنسية، والوجيه الدرزي الأمير أمين أرسلان (وكلاهما عضو في المؤتمر السوري العام) - إقناع سبعة منهم "بالانشقاق" عن الفرنسيين والانتقال إلى جانب فيصل، من دون إثارة انتباه الأعضاء المتشدددين المواليين لفرنسا أمثال داود عمّون. لا شك أنه استطاع كسب تأييدهم بسبب خوفهم من نتائج السياسة الفرنسية على المدى الطويل، ولأنه والنعماني وأرسلان، ومحاورون دمشق وبارعون بالفرنسية والعربية. كان هؤلاء المسيحيون اللبنانيون مستعدين للانتقال إلى جانب فيصل ما دام الأمير مستعداً لمنح "لبنان الكبير" حكماً ذاتياً داخل مملكته العربية. وخلافاً لبعض زملائهم في مجلس الإدارة، فإنهم لا يجذبون الانفصال التام عن سوريا. وهكذا صاغوا مشروع قرار يُجمل آراءهم التي تعادل الاستعداد للخروج من دائرة النفوذ الفرنسي لصالح إقامة علاقات أوثق مع سوريا⁽¹⁾.

كانت خطة رياض تقضي بذهاب الأعضاء السبعة المنشقين - بمن فيهم نائب رئيس مجلس الإدارة، سعد الله الحويك، شقيق البطريك الماروني الشديد الولاء لفرنسا - إلى دمشق لمبايعة الملك فيصل. وبعد ذلك ينتقلون بحراً عبر حيفا إلى أوروبا (اعتقدوا أن الفرنسيين لن يسمحوا لهم بالإبحار من بيروت) لإعلان رفضهم الانتداب الفرنسي في مؤتمر السلام في باريس، والمطالبة باستقلال لبنان وتكامله الاقتصادي مع سوريا. بل إنهم كانوا مستعدين، إذا اقتضت الضرورة، لحمل قضيتهم إلى الولايات المتحدة الأميركية. وأبدى عارف النعماني المعروف بوطنيته وسخائه العظيم، استعداده لتمويل تكاليف سفرهم بأكملها، وهو عرض استخدمه الفرنسيون ضده في محاكمته في ما بعد. ادّعى غورو باستهزاء في تقرير أرسله إلى باريس في 18 تشرين الأول/أكتوبر

(1) Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, pp. 60-63. كان الموقعون على

القرار: سعد الله الحويك، و خليل عقي، وسليمان كنعان، وإلياس شويري، ومحمود جنبلاط، وفؤاد

عبد الملك، ومحمد محسن، انظر: Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut) 3 October 1965.

1921 أن أعضاء مجلس الإدارة "اشترُوا" بدفعة أولى قدرها عشرة آلاف جنيه مصري توزع في ما بينهم، ووعدوا بمبلغ ثلاثين ألف جنيه آخر عند حضورهم إلى دمشق. لكن المؤرخ زين زين أشار في ما بعد إلى أن الأمير عادل أرسلان، ابن عم أمين أرسلان، نفى في مقابلة أجريت معه هذه الفرية الفرنسية نفياً قاطعاً⁽¹⁾. تقدّم هذه الحادثة بأكملها مثلاً باكراً على جرأة رياض الصلح السياسية، وتُظهر الجهود التي بذلها طوال حياته لاسترضاء المسيحيين اللبنانيين المترددين وحشدهم لدعم القضية القومية العربية.

سرعان ما علم الفرنسيون بالأمر عن طريق أحد مخبريهم. وفي 10 تموز/يوليو أوقفت القوات السنغالية في قرية صوفر الجبلية القطار الذي كان يقل الوفد إلى دمشق. وكان فيصل قد أرسل رئيس ديوانه، إحسان الجابري، لاستقبال الوفد ومرافقته إلى دمشق. وقد وصل في الوقت الملائم لأخذ الوثائق التي تدينهم، بما في ذلك نسخ من القرار الذي يطالب بالحكم الذاتي للبنان ضمن سوريا. اعتُقل أعضاء الوفد، واعترفوا تحت التعذيب. كان رياض يرفقهم في القطار، لكنه تمكّن من تجنّب الاعتقال بالاختباء في عربة الدرجة الثالثة، حيث أصاب في توقّعه بأن الفرنسيين المتعجرفين لن يُفكّروا البتة في تفتيشها.

في 12 تموز/يوليو، أصدر غورو القرار رقم 273 بحل مجلس الإدارة. وفي 19 تموز/يوليو، اقتيد أعضاء الوفد السبعة ومساعدوهم إلى محكمة عسكرية فرنسية، حيث اتُهموا بالتآمر على حكومة الاحتلال، وتلقّي الرشاوى، وخيانة لبنان. وحُكِمَ عليهم بالنفي بين ست وعشر سنوات، ودفع غرامات مالية كبيرة، وتجريدهم من حقوقهم المدنية. ثم نقلوا إلى جزيرة أرواد على الساحل السوري، ومنها إلى جزيرة كورسيكا. لكن في أعقاب ضغوط مارسها السياسيون والرأي العام الفرنسي، سمح لعدد منهم بالعودة إلى لبنان إذا عبّروا عن الندم على ما قاموا به. أما الذين رفضوا ذلك، مثل عارف النعماني، فظلوا في المنفى حتى نهاية سنة 1922⁽²⁾. كُشف دور رياض الصلح في هذه القضية في أثناء المحاكمة⁽³⁾. لكنه كان قد فرّ إلى دمشق، حيث تحتشد النخبة السياسية العربية. لكن سرعان ما كدّر الإنذار الذي وجهه الفرنسيون إلى فيصل إقامته هناك.

Khoury, *La France et l'Orient Arabe*, p. 375. (1)

.Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, pp. 62-3 (2)

.Centre des archives diplomatiques de Nantes (CADN), Fonds Beyrouth, carton 1583 (3)

معركة فيصل الأخيرة

أرجأ الجنرال غورو التحرك ضد دمشق لأن جزءاً من قواته العسكرية مقيد في كيليكيا، كما أنه لا يريد خوض حرب على جبهتين. لكن عندما تمكن روبير دو كيه من التوصل إلى هدنة مع مصطفى كمال، صار غورو العدواني متلهّفاً لفرض نظام الانتداب على سوريا بالقوة. في 9 تموز/يوليو، أعلن فيصل الذي استبدّ به اليأس أنه ينوي السفر ثانية إلى أوروبا لعرض قضيته أمام مؤتمر السلام. لكن عندما ذهب نوري السعيد إلى بيروت للإعداد لرحلته، أخبره غورو بشروط الإنذار الذي أبلغ رسمياً إلى الحكومة السورية في 14 تموز/يوليو. تضمن الإنذار خمسة شروط تجب الموافقة عليها خلال أربعة أيام: الموافقة على الانتداب الفرنسي؛ وإلغاء التجنيد وخفض عديد الجيش السوري إلى المستوى الذي كان عليه في سنة 1919؛ وحق القوات العسكرية الفرنسية المطلق باستخدام سكة حديد رياق - حلب واحتلال مدينة حلب؛ وإدخال عملة "ورقية" سورية مرتبطة بالفرنك الفرنسي، يصدرها بنك سوريا ولبنان الذي يسيطر عليه الفرنسيون؛ ومعاقبة كل المذنبين بارتكاب أعمال عدائية ضد فرنسا.

عندما وصلت هذه الشروط إلى دمشق، قوبلت بغضب شعبي، وانطلقت المظاهرات في الشوارع. لكن ميزان القوى لم يكن لصالح سوريا. فقد نشر غورو 80 ألف جندي في سهل البقاع وحده، تدعمها الدبابات والمدفعية والطائرات. وبعد لحظات حرجة من الدراسة، نصح أعضاء الحكومة السورية الأمير فيصل بقبول إنذار غورو، باستثناء يوسف العظمة الشجاع، الذي واصل الدعوة إلى المقاومة المسلحة. وطلب فيصل مشورة اللورد ألباني فنصحته بقبول الإنذار أيضاً. أجري مزيد من الاتصالات مع غورو، فوافق على تأجيل اتخاذ أي خطوة حتى 21 تموز/يوليو، لإفساح المجال أمام الحكومة العربية لنقل موافقتها الرسمية على الإنذار وبدء تنفيذ مطالبه.

في 20 تموز/يوليو، قبل فيصل شروط غورو وشرع في تنفيذها. سرح بعض وحدات الجيش، وصُرف المؤتمر السوري العام. وعندما واجه كامل القصاب ومجموعة من أعضاء لجنة الدفاع الوطني الأمير فيصل بغضب، أمر بحبسهم في سجن القلعة. فاندلع الشغب في دمشق، ودعت الجماهير الغاضبة إلى قتل الخائن فيصل. اقتحمت مجموعة من الغوغاء القلعة، ونهبت مخازن السلاح القديمة وأطلقت سراح القصاب.

استطاع الأمير الشاب زيد، يعاونه ياسين الهاشمي وبعض القوات القليلة الموالية، إخماد التمرد، ولكن أعداد القتلى والجرحى بلغت المئات.

على الرغم من استسلام فيصل للمطالب الفرنسية، فإن برقية قبول الإنذار لم تصل إلى غورو في الوقت الملائم. وقد ادعى الفرنسيون أن التأخير نتج عن العقبات التي وضعها القوميون في دمشق، أو لأن الثوار قطعوا خطوط التلغراف بين دمشق والسبقاع. على أي حال، استأنفت القوات الفرنسية تقدمها. وأجري مزيد من مفاوضات الدقائق الأخيرة بين ساطع الحصري والضباط الفرنسيين في بلدة عاليه اللبنانية، أسفرت عن إرجاء إضافي مقابل مطالب فرنسية جديدة، أهمها إقامة بعثة فرنسية في دمشق للإشراف على تنفيذ الإنذار وتهيئ الطريق لإقامة نظام الانتداب. عاد الحصري إلى دمشق مقتنعاً تماماً بأن الفرنسيين مصممون على احتلال البلاد بصرف النظر عما يقوله فيصل أو يفعله. وفي حين كان فيصل قد أبدى استعداده لتنفيذ الإنذار الأصلي، فإنه عرف أن تقدم أي تنازلات أخرى من جانبه سيؤدي إلى إثارة حرب أهلية وإزاحته فوراً عن السلطة. كان ذلك مضمون الرسالة التي بعث بها إلى غورو في 23 تموز/يوليو.

غير أن القوات الفرنسية كانت قد وصلت إلى ميسلون على بعد 30 كيلومتراً من دمشق، حيث يعسكر جيش سوري صغير قوامه 600 جندي نظامي و2400 متطوع. وقد أسرع هؤلاء الوطنيون إلى الجبهة من دمشق "مسلّحين بالبنادق القديمة والسيوف وحتى المقاليع"⁽¹⁾. وقع الصدام الحاسم صبيحة 24 تموز/يوليو، وفي غضون بضع ساعات هُزمت القوات السورية متكبدة خسائر جسيمة في الأرواح. سقط يوسف العظمة، وزير الحربية المقدم، وهو يصارع المستحيل لوقف تقدّم الجيش الفرنسي. ولتجنّب استمرار المذبحة، أعلن فيصل دمشق مدينة مفتوحة، ما سمح للقوات الفرنسية بدخولها في 25 تموز/يوليو من دون مقاومة. وفي غضون بضعة أيام سقطت سوريا تحت الاحتلال العسكري الفرنسي.

انسحب فيصل إلى الكسوة على مشارف دمشق، حيث كان لا يزال يحذوه أمل بالتوصل إلى تفاهم مع الفرنسيين. وقبل أن يغادر دمشق، شكّل حكومة برئاسة علاء

الدين الدروبي، وهو شخص مسالم لا يحظى بتأييد شعبي كبير، اعتقاداً منه أن الفرنسيين قد يقبلون به. لكن في 27 تموز/يوليو، أبلغ الأمير بوضوح بأن الفرنسيين يصرون على مغادرته الأراضي السورية في اليوم التالي. لم يكن لدى الأمير خيار سوى الامتثال، فغادر المدينة وهو يشعر بالمرارة والخيبة، في قطار خاص مع أتباعه، ووصل إلى درعا في 28 تموز/يوليو. في الشهر التالي انتقل إلى حيفا، ومن هناك إلى أوروبا. وكانت تلك النهاية الكارثية لمملكته العربية التي تفتقر إلى الدراسة وحسن الطالع.

خصّص قطار ثانٍ للقادة القوميين الذين لا يرغبون في البقاء في دمشق تحت الاحتلال الفرنسي. كان رياض الصلح على متن هذا القطار الثاني الذي توجه إلى درعا ثم إلى حيفا. وفي 9 آب/أغسطس 1920، أصدرت محكمة عسكرية فرنسية في دمشق حكماً عليه وعلى نحو عشرين آخرين بالإعدام غيابياً لدعمهم نظام فيصل. وفي 29 تشرين الأول/أكتوبر، أصدرت محكمة عسكرية فرنسية أخرى في بيروت حكماً غيابياً ثانياً على رياض بالحبس لمدة خمس سنوات وتغريمه مبلغ 1,400,000 فرنك فرنسي. كانت "جرمته" هذه المرة محاولة تجنيد أعضاء مجلس إدارة جبل لبنان ضد الفرنسيين. اتُهم بالخيانة العظمى للتآمر على دولة لبنان الكبير. ووصفه غورو بأنه "مدبّر المؤامرة"⁽¹⁾. وهكذا بدأت المسيرة المشحونة للمحارب البارز بين أبناء جيله في سبيل الحرية.

(1) هلال الصلح، رجل وقضية، ص 43.

هارب من الفرنسيين

في صيف 1920 أصبح رياض الصلح مطلوباً للمحاكمة، وفاراً من "عدالة" الاحتلال الفرنسي للمرة الأولى في حياته، وإن لن تكون الأخيرة. فقد هزمت قوات الجنرال غورو الجيش السوري الصغير، ودخلت دمشق، وقضت على حكومتها، ونفت الأمير فيصل في 27 تموز/يوليو. وفي اليوم نفسه غادر رياض ونحو سبعين آخرين من القوميين العرب المدينة بالقطار، قبل أن تتسنى للفرنسيين فرصة التعرف إليهم واعتقالهم. انتقلوا من دمشق إلى درعا، يملؤهم الشعور بخيبة الأمل من فيصل والكراهية لمضطهدهم الفرنسيين. وهناك أمضوا أياماً يتفكرون بغضب في انهيار آمالهم بالوحدة العربية والاستقلال. ما الخطأ الذي حصل؟ وعلى من تقع اللائمة؟ وكيف يمكن رفع الظلم الذي فرضه الانتداب ما بعد الحرب؟

عندما تفرّق الجمع، ذهب بعضهم إلى القاهرة، وبعضهم إلى شرق الأردن، ورجع آخرون إلى بلادهم وتواروا عن الأنظار. كان ذلك بداية انقسام الحركة القومية إلى ثلاث شعب: ظلّ فريق منهم موالياً للهاشميين، وبخاصة بعدما أصبح فيصل ملكاً على العراق، وشقيقه عبد الله أميراً على شرق الأردن. واجتمع نفر حول خصم الهاشميين، عبد العزيز ابن سعود، سلطان نجد في شبه الجزيرة العربية. ولجأ فريق ثالث إلى مصر.

اتجه رياض شمالاً نحو بيروت. كان في السادسة والعشرين من عمره، عاطلاً عن العمل، وغير متزوج، ومن دون آمال سوى ما يحدو المنفي الذي سيدخل معترك السياسة، وليس لديه هدف سوى مواصلة القتال. ومن المدهش أن ثقته في نفسه لم تتأثر على الرغم من النكسات الكبيرة التي عاناها في دمشق. وقد سمحت له جراته ودهاؤه السياسي بالبروز والتميز.

كانت والدته تمّني النفس في أن يبقى معها في منزل العائلة في ميناء الحصن، لكنها تدرك مثله أن وجوده هناك سيلفت الأنظار على الفور دونما حاجة. لذلك تقرّر

أن يُحتبى رياض في منزل شقيقته بلقيس وزوجها وابن عمه سامي الصلح، إلى أن تتضح نيات المفوضية الفرنسية العليا تجاهه. وكان سامي قد انسحب من معترك السياسة ليدخل القضاء. وفي سنة 1922 أصبح المدعي العام في محكمة لبنان الكبير⁽¹⁾. لم يدم اختباء رياض في منزل صهره سوى أسبوع. فقد عاد سامي على عجل من قصر العدل ذات يوم، ونقل إلى رياض أخباراً مقلقة بأن محكمة عسكرية فرنسية في دمشق حكمت عليه بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى في 9 آب/أغسطس. وأن مذكرة بالقبض عليه ستصدر قريباً، وإذا تم اعتقاله فسيعدم في اليوم نفسه رمياً بالرصاص.

فكر رياض للهولة الأولى بأن يستقل سيارة ويهرب إلى فلسطين، لأنها قرية ولا تخضع للولاية القانونية الفرنسية. ويمكنه من حيفا الانتقال بإحدى السفن إلى بر الأمان في أوروبا. فقرر أن يغادر على الفور. اتفق أن ابن مربية أولاد شقيقته بلقيس، ويدعى محمد خطار، يمتلك شركة نقل صغيرة تسيّر سيارات أجرة بين لبنان وفلسطين مرتين يومياً. فاستدعى الرجل واستأجرت سيارة تكسي. وافق رياض، بعد تردد كبير، على أن يلف نفسه بملاية، وهي غطاء شاشي أسود للوجه كانت ترتديه معظم النساء في ذلك الوقت. فلو ضُبط متكرراً بهذا اللبس فسيُعرض للمذلة والمهانة. لكن في أثناء مغادرة المدينة، مرت السيارة بجوار بيت صديقه خير الدين الأحذب، وكان مطلوباً أيضاً من الفرنسيين لتأييده حكومة فيصل في دمشق. فلاحظ رياض أن الشرطة تطوق منزل الأحذب، وأدرك عندئذ الخطر الذي يحيط به، وخلص إلى أن الأوان قد فات لعبور الحدود بواسطة السيارة.

اقترحت أم محمد عندئذ أن تخبئه في بيتها رقم 11 (الآن رقم 72) في شارع عمر ابن الخطاب في رأس النبع. وهي منطقة مكتظة بالسكان يقطنها أبناء الطبقة العاملة في بيروت، وتتمثلها أزقة ضيقة يصعب على رجال الشرطة إيجادها فيها. لجأ إلى غرفة الغسيل الصغيرة في أسفل الحديقة. ووضع سلم صغير على الجدار الخلفي للحديقة حتى يتمكن من الهرب بسرعة إذا ما حضرت الشرطة إلى البيت من المدخل الأمامي. وكان

(1) ملاحظة في الأرشيف الفرنسي حول حياة سامي الصلح الوظيفية في MAE Fonds Beyrouth (amb); Série B, Carton 4 (dossier 55). French High Commissioner in Syria and Lebanon, February 1941, and Délégation de la France Combattante au Levant, Damas, 17 Août 1942.

على رياض، إذا أراد أن يقابل أم محمد، أن يتسلق أحد الجدران، ثم جداراً ثانياً، ويقفز إلى أرض خلاء إلى جانب الطريق العام. لكن أم محمد خشيت أن يُفتضح أمره بسبب ضحكته المجلجلة ومرحه الدائم، فاقترحت عليه الهرب عن طريق البحر.

سألها: ماذا عن رجال الشرطة في المرفأ؟

فأجابت مازحة: لن تسافر على متن "الخديوي إسماعيل"! وكانت تشير إلى الباحرة المصرية الفخمة في عشرينيات القرن العشرين.

أجرت أم محمد الترتيبات اللازمة كي يسافر إلى فلسطين بحراً في قارب صيد صغير سيغادر في الليلة التالية من مرفأ صيد صغير قرب مسجد عين المريسة على واجهة بيروت البحرية (رُدم في وقت لاحق لتوسيع الكورنيش البحري). اختبأ رياض في كوخ معتم ورطب يقطنه خادم المسجد. وعلم هناك أن خير الدين الأحذب وأمين أرسلان يعتزمان الهرب معه أيضاً. لكن بما أنهما محتبسان خارج بيروت، فقد وجدا مشقة كبيرة في تفادي دوريات الشرطة الفرنسية على الطرقات المؤدية إلى المدينة. مع ذلك، أصبح رياض الآن ملزماً بانتظارهما.

اختبأ رياض بعيداً عن الأنظار، وارتدى سروال الصيادين الأسود وعمامة بدلاً من نقاب النساء. لكن المكان معتماً جداً لا يتيح له القراءة. وقد سدّت الشقوق في جدران الكوخ المهلهلة بالألواح من الخشب والخرق، حتى لا يفضح أمره أي ضوء منبعث من الكوخ. كان يتنصت محاولاً سماع أي صوت قادم من خارج الكوخ، لكنه لا يسمع سوى صوت أمواج البحر، والمؤذن الذي يدعو الناس إلى الصلاة في المسجد المجاور. وكان منزله في ميناء الحصن على بعد خطوات فقط، حيث والدته وشقيقته هناك، وتشعران بالقلق عليه. اضطر للانتظار في ذلك الكوخ أسبوعاً عصياً آخر، وفي النهاية أنقذه من تلك المحنة محيي صياد يدعى عبد الله المغربي. اقترب منه الصياد من دون أن يقول أي كلمة، وربط خصره بحبل وشده جيداً، ثم دفعه نحو حافة حاجز البحر. فظهر في أسفله وميض البحر الخافت.

قال له: "تدلّ عن الحافة وارك لي الباقي". أنزل الصياد رياضاً على مهل إلى الشاطئ، وقال، "انتظري خلف الصخرة. وإذا مرّت دورية انبطح في القارب. ستجد هناك بعض الأكياس لتغطي نفسك".

وصل صديقاً رياض في النهاية، وانطلق الجميع. كان خير الدين الأحذب وأمين أرسلان منهكين ومتوترين من جراء هذه الرحلة المخيفة، فناما في قاع القارب. وعندما انطلق ربان السفينة في محاذة الشاطئ، لامس رياض المياه بيده لكي يبقى مستيقظاً⁽¹⁾. هكذا بدأت حياة رياض في المنفى، واستمرت ثلاث سنوات ونصف. ولم يُسمح له بالعودة إلى سوريا ولبنان إلا في كانون الثاني/يناير عام 1924. كانت تلك سنوات يأس وخمول تتخللها بعض الأوقات من العمل الجدي. من فلسطين توجه إلى القاهرة التي كانت آنذاك المركز الرئيسي للعرب الذين عقدوا العزم على محاربة الإنكليز والفرنسيين. وبعد بضعة أسابيع، سافر من القاهرة إلى روما للإقامة مع بعض أصدقاء الطفولة في فيا أيا أنتيكا Via Appia Antica. وهناك تعرف إلى الكونت غالتزو سيانو Galeazzo Ciano الذي كان في السابعة عشرة من عمره، وأصبح في ما بعد صهر بينيتو موسوليني ووزير خارجيته.

في أحد أيام تشرين الثاني/نوفمبر 1920 تسلّم رياض رسالة من والده مرفقة بورقة تحمل الرقم 395. كانت تلك نسخة عن الحكم الذي أصدرته بحقه غياياً محكمة عسكرية في 29 تشرين الأول/أكتوبر في بيروت، ويقضي بسجنه خمس سنوات وتغريمه 1,400,000 فرنك، وتجريمه من حقوقه المدنية. فأصبح الآن هارباً من العدالة، هائماً على وجهه، وغير قادر على العودة إلى وطنه. غير أن رسائل أمه كانت توفر له بعض الراحة، مع ذلك لم تكن تخلو من الإزعاج عندما تصف له رحلاتها إلى منزلهم القديم في صيدا حيث تزهّر أشجار الليمون. وفي إحدى الرسائل كتبت، شقيقك صنع لنفسه رحماً، وأخذ يصيح مثل محارب من الزولو، ويقفز حول خروف يُشوى على السيخ. ورقصت لنا شقيقتك علياء على رؤوس أصابعها كما تعلمت في المدرسة البروسية، ولكنها أصبحت تنشد الوحدة، ويبدو أنها تكتب الشعر. لكن أولاد عمك أبلغوا والدك بذلك للأسف - وأنت تعرف مقدار صرامته - فصادر كل كتاباتها. ولكن دعني أتابع أخبار رحلتنا إلى صيدا. كنا في غاية السعادة... ولكن رياض الصلح لم يستطع متابعة القراءة. كان يفتقد إلى الوطن كثيراً ويتوق إلى دفء العلاقات الإنسانية. فانغمس في دوامة العلاقات الاجتماعية، وعندما شعر

(2) Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut) 7 November 1965، استناداً إلى ذكريات والدها.

بالمثل في روما، توجه إلى فيينا، ولندن، والقدس، والإسكندرية، والقاهرة. وفي القاهرة التقى بفتاة جذابة، معروفة بجمالها وتحريها، وتُدعى قوت القلوب الدمرداشي. كانت ابنة الدمرداشي باشا، وهو سياسي بارز، وشيخ إحدى الطرق الصوفية. وخلافاً لمعظم نساء عصرها، كان يُسمح لها بحضور اجتماعات والدها السياسية، والظهور في العلن من دون حجاب. والأكثر جرأة من ذلك، أنها نشرت بعض القصص القصيرة اللاذعة في باريس. أعجب بها رياض كثيراً وقرّر الزواج منها. وأصرّ على قدوم عائلته إلى القاهرة على الفور لترتيب الأمر، من دون أن يفكر في الصعوبة التي قد يواجهها والده بالاتصال بابنه الخارج على القانون. وفي النهاية قدمت والدته نظيرة بمفردها، وأدركت فوراً أنها تواجه منافسة هائلة. رأت أن هذه الفتاة الشابة ستجلب الشقاء إلى ولدها، فقررت أن تقوّض العلاقة بينهما. شعر رياض بالحيرة بين والدته التي يحبها كثيراً، ومحبوته قوت القلوب فاعتراه بعض التردد. أثار ذلك غضب الحسنة المصرية، ورفضت بعد ذلك حتى رؤيته. وفي وقت لاحق، نشرت قصة صغيرة بطلتها سيدة شريرة اسمها نظيرة، كي تنتقم من والدته.

واجه رياض، عندما انقطع الاتصال بينه وبين عائلته، نقصاً في الأموال. فباع مجوهراته الشخصية، أزرار قمصانه، وخواتمه وأزرار ياقات القمصان التي كان المتأنقون يضعونها في تلك الأيام. واستدان من أصحابه ووصل به الأمر إلى الاستدانة من المرايين. حاول والده، الذي فقد معاشه بزوال الإمبراطورية العثمانية، مساعدته بين الحين والآخر، كما يظهر مثلاً، من رسالة بتاريخ 6 تموز/يوليو 1923 من بنك التوفير في الإسكندرية يعلمه بحالة قيمتها 40,000 قرش مصري. ولكن لم تكن مثل تلك المساعدة كافية لتسديد ديونه المتزايدة التي أصبحت نغماً لحياته المالية. فعلى الرغم من أنه كان يفتقر إلى المال على الدوام، فإنه واصل الصرف بسخاء. وفي وقت لاحق، باع أراضيّه، وأنفق ميراثه لتمويل حملاته السياسية، وقد أدى موقفه غير المبالي بالمال إلى إثارة قلق عميق لدى عائلته.

بعدما نفدت الأموال التي كان ينفقها لإبراز شخصيته في المجتمع، بدأ يمضي مزيداً من الوقت في المطالعة، واقتنى مجموعة من الكتب التي استمرت بالتزايد طوال عمره. واعتاد زيارة بائعي الكتب في الموسكي في القاهرة القديمة، حاملاً معه لوائح الكتب

والمخطوطات التي يرغب في شرائها، ويأمل أن تصل إلى السوق من المبيعات الخاصة. كان يقرأ كثيراً ويدون الملاحظات، بل إنه قرّر أن يكتب عن تاريخ العرب. وتمويل شراء عدد أكبر من الكتب لتحقيق مشروعه، باع ساعته الذهبية. وسكن في حي قلعة محمد علي، بجوار دار الكتب الوطنية وجامع الأزهر، وانكب على العمل. لا يزال عدد كبير من دفاتره، مجموعة في غلاف من قماش مخملي ومليئة بكتابه بخطه الجميل بقلم الرصاص، موجوداً بحوزة العائلة. لكن مشروعه لم يكتمل، كما أنه لم يكن مؤرخاً دقيقاً. كان يميل إلى تضخيم أبعاد الماضي للتعويض عن المذلة الحالية المؤلمة⁽¹⁾.

لم يبدد رياض تلك الفترة من حياته سدى، وهو يقترب من الثلاثين من العمر. ففي صيف سنة 1921، حضر الاجتماع التأسيسي "للمؤتمر السوري - الفلسطيني" في جنيف، وهو هيئة ارتبط بها رياض ارتباطاً وثيقاً في الأعوام اللاحقة. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، دفعته الرغبة في الوقوف على مدى الطموحات الصهيونية إلى السفر إلى لندن للاجتماع بالقائد الصهيوني الدكتور حاييم وايزمن. وأتبع ذلك بعد شهر بمقابلة السير هربرت صموئيل Sir Herbert Samuel، المندوب السامي البريطاني في فلسطين. واجتمع في عمان بالأمر عبد الله، الابن الثالث للشريف حسين، بعيد قيام البريطانيين بإنشاء إمارة في شرق الأردن وتعيينه أميراً عليها.

في القاهرة، رافق الكتاب واخرين البارزين والناشطين السياسيين. وأقام في برلين وباريس صلات مهمة استثمرها في وقت لاحق لخدمة القضية العربية. واكتسب خبرة دولية بتنقله الدائم ذهاباً وإياباً بين أوروبا والشرق الأوسط. وتعلّم تدريجياً كيف يصبح لاعباً فاعلاً في اللعبة الكبرى التي ستقرر بعد وقت قصير مصير المنطقة.

من المفارقات أنه كان في وسع رياض المشتاق إلى دياره العودة في وقت أبكر من الوقت الذي عاد فيه بالفعل. ففي 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1921، وقّع الجنرال غورو أمراً عاماً يسمح لخمسة وعشرين شخصاً، حكم عليهم بالإعدام غيابياً في آب/أغسطس 1920 وصادرت أراضيهم، بالعودة إلى سوريا. كان رياض واحداً منهم⁽²⁾. ألح الجنرال غورو في خطاب ألقاه في دمشق في 20 حزيران/يونيو 1921 إلى اعتزامه العفو

(1) Alia el-Solh, *Le Jour* (Beirut) 10 October 1965

(2) MAE Fonds Beyrouth, Mandat Syrie- Liban, Dossier 17/1579, Service des renseignements, Beyrouth 23 November 1921.

عنهم. ووجهت إليهم الدعوة للمثول أمام السلطات المحلية التي طلب منها التأكد من هوياتهم وإعلامهم بالعفو عنهم. وبذلك تُلغى الأحكام الصادرة بحقهم بشكل رسمي، ويستطيعون التنقل بحرية في سوريا ولبنان⁽¹⁾.

ولكن، كما أبلغ الجنرال ويغان، المفوض السامي الفرنسي في لبنان والقائد العام للقوات الفرنسية، وزارة الحربية الفرنسية في باريس في كانون الثاني/يناير 1924، لم يُذع الأمر العام الذي أصدره الجنرال غورو عن عمد، ولم يعلم بأمره الأشخاص المعنيون. سمع بعضهم عن العفو بطرق أخرى، ومن بينهم كامل الأسعد، منافس آل الصلح في جنوب لبنان الذي كان له عيون في المعسكر الفرنسي، فعادوا إلى سوريا واستعادوا أملاكهم الخاصة. ولكن معظم الآخرين، ومنهم رياض، لم يعلموا بتلك التدابير الفرنسية ولبثوا في الخارج. وأخيراً طلب من العائلة والأصدقاء التدخل لدى السلطات الفرنسية للعفو عنه. فكتب ابن عمه سامي الصلح إلى الجنرال ويغان في كانون الأول/ديسمبر 1923 طالباً العفو عن رياض، وتعهّد والده بأن يضمن سلوك ولده. فأرسل ويغان إلى وزير الحربية في باريس:

سمحت في هذه الظروف بعودة رياض الصلح إلى سوريا، بموجب الإشعار رقم 12.717/1 بتاريخ 20 كانون الأول/ديسمبر 1923 وقرّرت تنفيذ التعليمات المتعلقة به في الأمر العام الذي صدر في 23 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1921.

ويشرفني أن ألفت انتباهكم إلى أنه على الرغم من أن رياض الصلح يستطيع الاستفادة من تعليق الجنرال غورو بالحكم الصادر عليه في 20 آب/أغسطس 1920 في دمشق، فإنه يبقى خاضعاً للحكم بالسجن لمدة خمس سنوات، وتغريمه مبلغ 1,400,000 فرنك الذي صدر في تشرين الأول/أكتوبر 1920 في قضية مجلس الإدارة.

نتيجة لذلك، بالنظر إلى إذعان رياض الصلح، وإلى أن والده قدّم كل الضمانات الأخلاقية التي طلبتها منه؛ وبالنظر إلى أنه يستفيد من العفو من حكم الإعدام الذي صدر بحقّه؛ وبما أن أحكام النفي والغرامة قد رُفعت عن جميع أعضاء مجلس الإدارة اللبنانيين (باستثناء سليمان بك كنعان، الذي يتطلب نشاطه السياسي بعده عن سوريا) بموجب الفقرة الأخيرة من رسالتكم التي تحمل رقم 26634-2/10 بتاريخ 9 تشرين

(1) Consul-General Satow to Foreign Secretary, Beirut, 19 August 1921 (FO 371/6461)

الأول/أكتوبر 1923، فإنه يشرفني أن أطلب منكم تعليق تنفيذ الإجراءات بحق رياض الصلح بخصوص الأدلة التي ذكرت ضده في الحكم الذي أصدرته المحكمة العسكرية بحقه غايياً في 29 تشرين الأول/أكتوبر 1920 في بيروت.

وافق الوزير، وعاد رياض في أواخر سنة 1923 إلى حيفا، حيث حصل على العفو من السلطات الفرنسية. وعاد إلى بيروت في أوائل العام 1924 بعد غياب ثلاث سنوات ونصف مزوداً بشهادة حسن سلوك موقعة من الجنرال ويغان شخصياً. وثمة صورة فوتوغرافية له في ذلك الوقت تظهر شاباً نحيلاً متوسط الطول، أنيق الملبس، يتطلع بجرأة نحو العالم، ولكن بتعبير استفهامي لا يخلو من الدعابة، تبرزه عادته اعتمار الطربوش المائل.

وقعت كثير من الأحداث بينما كان رياض في الخارج. فقد طرأ تغير جذري على المشهد السياسي للمنطقة بأكملها. فرضت بريطانيا وفرنسا انتداباًهما بالقوة على الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية. وسارع الصهاينة إلى تنفيذ وعد بلفور، على الرغم من معاداة السكان العرب المحليين الذين يفوقون السكان اليهود الجدد عدداً بعشرة أضعاف.

في تموز/يوليو 1920، وهو الشهر نفسه الذي احتلت فيه الجيوش الفرنسية دمشق وقضت على حكومة الأمير فيصل العربية، واجهت بريطانيا تمرداً عنيفاً في منطقة الفرات الأسفل في العراق. كان السنة والشيعية العراقيون يريدون وضع حدٍّ للاحتلال البريطاني مرة واحدة وإلى الأبد فأخذوا يقيمون الصلاة معاً في الأشهر التي سبقت الثورة. شكّلت تلك الانتفاضة حدثاً أساسياً في تشكيل الوطنية العراقية، وتحولاً في النضال من أجل الاستقلال. انتشرت الانتفاضة شمالاً إلى المناطق المحيطة ببغداد، وعبّأت في ذروتها أكثر من 100 ألف مقاتل، فواجهت بريطانيا أكبر تحدٍّ وأكثرها إراقة للدماء في العالم الإسلامي. لم تستعد القوات البريطانية السيطرة إلا في شباط/فبراير 1921، بعد أن تكبدت الكثير من الخسائر العسكرية وبتكلفة بلغت 40 مليون جنيه (وهو مبلغ ضخم جداً في ذلك الوقت). قُتل ما لا يقل عن 6000 عراقي، و500 بريطاني وهندي يخدمون في الجيش البريطاني الاستعماري⁽¹⁾.

(1) حول وجهة النظر العراقية من الصراع، انظر: Pierre- Jean Hizard, *La vie de l'Ayatollah* Mahdi al Khalisi, Paris 2005. وهذه ترجمة إلى الفرنسية لكتاب الشيخ محمد الخالصي، بطل الإسلام، عن حياة والده الذي كان مجتهداً ثورياً شيعياً في العراق في أيام ثورة 1920.

دفع سحق انتفاضة بهذا الحجم، فيما تواجه بريطانيا قيوداً مالية شديدة في فترة ما بعد الحرب، وزير المستعمرات البريطاني المعين حديثاً، ونستون تشرشل، إلى الدعوة إلى مؤتمر لمدة أسبوع في آذار/مارس 1921 في القاهرة، بغية تحديد السياسة التي يجب اعتمادها في العالم العربي. كان يميل إلى إنشاء دول عربية تابعة، يديرها قادة محليون، وتشرف على أمنها جيوش محلية يمكن الاعتماد عليها لتأمين المصالح البريطانية، من دون الحاجة إلى تعريض القوات الاستعمارية للخطر، أو صرف مبالغ مالية طائلة.

بعدما طرد الفرنسيون الأمير فيصل من سوريا، حافظ الأمير على علاقة طيبة مع البريطانيين، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى "مشاركتهم" في ثورته العربية. كان يُعتقد أنه لا يزال منقاداً إلى "المشورة" البريطانية، وأن تقدم مساعدة مالية له أوفر بكثير من تحمل المسؤولية الكاملة في الدولة العراقية. لذلك، تقرّر تنصيبه ملكاً على العراق في حزيران/يونيو بدعم من اثنين من قدامى المحاربين معه في الثورة العربية. عُيّن جعفر العسكري وزيراً للدفاع، بينما عُيّن نوري السعيد - صهر العسكري - رئيساً لأركان الجيش العراقي الجديد، وظلّ شخصية أساسية في النظام الملكي في السنوات السبع وثلاثين التالية. تكوّن سلك الضباط من 600 من الضباط القدامى في الجيش العثماني من أصل عراقي، ومعظمهم من السنّة الذين لحقوا بفيصل إلى بغداد. وبما أن السلطة البريطانية بقيت راجحة في العراق، فقد أصبح فيصل "ملكاً على دولة لا سيادة لها"⁽¹⁾. وأخيراً فرض "النظام" وجُيبت ضرائب عقابية بعدما شنّ سلاح الجو الملكي البريطاني، الذي أنشئ حديثاً، غارات متعدّدة بالأسلحة الكيميائية على القبائل المتمردة، بناء على أوامر تشرشل.

بحلول عشرينيات القرن العشرين، لم يعد في وسع بريطانيا وفرنسا الانغماس في الإمبريالية التوسّعية الصريحة التي كانتا تتبعانها في القرن التاسع عشر، بعدما تعاضم رفضها في المناخ السائد في ذلك الوقت. لكن احتلالهما الأراضي العربية وإخضاعها كان مدفوعاً بتأمين مصالحهما الذاتية الإمبريالية، ويجب النظر إليه بمثابة امتداد لتقليد التغلغل السياسي والاقتصادي للإمبراطورية العثمانية منذ عدة قرون. بدأ ذلك أولاً تحت غطاء الامتيازات، ثم اكتسب عمراً جديداً في أعقاب إفلاس الإمبراطورية في سنة

1876، عندما تولّت أوروبا إدارة الدين العام للدولة العثمانية⁽¹⁾. لقد شكّلت الانتدابات، للبريطانيين على الأقل، نموذجاً جديداً للعلاقات بين العالمين المتقدم والنامي، لكنه نموذج تشوبه بقوة المواقف الاستعمارية القديمة.

ربما تساعد الانتفاضة العارمة التي واجهتها بريطانيا في العراق في بداية انتدابها في تفسير سبب اختيارها اعتماد نظام الحكم غير المباشر في الظاهر. بالمقابل، قرّر الفرنسيون، في انتهاك واضح للمادة 22 من ميثاق عصبة الأمم، أن يفرضوا حكماً مباشراً أكثر صراحة على سوريا على غرار نموذج المحميتين اللتين أنشؤوهما في تونس في سنة 1881 وفي المغرب في سنة 1912. وتدعو المادة 22 القوى المنتدبة إلى تهئية الشعوب التي عُهد بها إليها للاستقلال، بتقديم المشورة والمساعدة إليهم. غير أن الفرنسيين شرعوا بتنفيذ العكس تماماً.

إنشاء لبنان الكبير

وسط حلع السوريين، قام الجنرال غورو، بناء على نصيحة خبيثة من روبير دو كيه، الأمين العام للمفوضية الفرنسية العليا الواسع النفوذ، بتقسيم بلادهم تبعاً لخطوط إقليمية ومذهبية. وكان الرأي السائد في الدوائر الاستعمارية في باريس وجوب تحويل المشرق إلى فسيفساء من المذاهب والأقليات. فسياسة "فَرِّقْ تَسُدْ" هي الطريقة الأمثل لحماية المصالح الاستراتيجية الفرنسية هناك. فاستُبعدت تطلعات العرب إلى الاستقلال والوحدة وغيرها من المشاعر التي أثارها البريطانيون بغاية التخريب على الفرنسيين! وقد أظهر المسؤولون الفرنسيون المعينون في المشرق وقادتهم السياسيون في فرنسا خوفاً مستمراً من البريطانيين طوال فترة ما بين الحربين العالميتين. وفي مثال واحد من عدة أمثلة: في 30 كانون الأول/ديسمبر 1920، عندما كان مجلس الشيوخ الفرنسي يناقش موضوع الموازنة القروض المالية إلى سوريا، صرخ السناتور دومينيك ديلاهي Senator Dominique Delahaye (ربما خارج الموضوع): "لتحذر إنكلترا من إثارة الكراهية لفرنسا!... في القرن الماضي سيطرت بريطانيا على الأراضي المصرية.

Jean-David Mizrahi, 'La France et sa politique de Mandat en Syrie et au Liban, (1) 1920-1939', in Nadine Méouchy (ed.) France, Syrie et Liban, 1928-1946: *Les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire*, Damascus 2002, pp. 38-9

واستولت الآن على أراضي النينوين والبابليين، وتركت لفرنسا نوعاً من البونديتشي على المتوسط!" كان ذلك إشارة إلى الجيب الفرنسي الصغير في جنوب الهند، حيث أنشأت شركة الهند الشرقية الفرنسية مركزاً للتبادل التجاري في سنة 1673، وبقي خاضعاً للسيطرة الفرنسية حتى خمسينيات القرن العشرين⁽¹⁾.

لمواجهة الطموحات الكبيرة للقوميين العرب، وتأمين التفوق الفرنسي، قُسمت المنطقة الخاضعة للسيطرة الفرنسية عمداً وبطريقة منظمة. وقد شكّل نجاحاً لسياسة روبر دو كيه التقسيمية الذي رأى أن "طبيعة" المجتمع السوري تتطلب تقسيمه إلى كانتونات تؤدي فيها فرنسا دور الحكم بين الكانتونات المختلفة، أو "الكيانات المترابطة"، وهو التعبير الألف الذي كان دو كيه يفضل استخدامه.

كان لبنان واحداً من تلك "الكيانات المترابطة". وبقيت خلفية إنشاء لبنان الكبير موضوعاً مثيراً للخلاف في العقود التالية. فكما أسلفنا، أنشئت متصرفية جبل لبنان العثمانية التي حظيت بحكم ذاتي، بعد تدخل القوى الكبرى عقب المجازر التي تعرض لها المسيحيون في سنة 1860. وصفت رقعة المتصرفية دون إحكام في القانون العضوي الصادر في 6 أيلول/سبتمبر 1864. لكن ظلت حدودها غير واضحة لأن المسح الذي أجري في سنة 1861 لم يعرفها بطريقة صحيحة. وبما أن المتصرفية كانت صغيرة جداً لا توفر سبل العيش لسكانها الذين يعمل معظمهم في الزراعة، فقد هاجر كثير منهم إلى الولايات المجاورة. وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر استقر نحو 20,000 لبناني في تلك الولايات، لا سيما في أقضية بعلبك، وصور، وصيدا، وطرابلس، بالإضافة إلى مدينة بيروت، التي لم تكن جزءاً من المتصرفية التي تتمتع بالحكم الذاتي.

عندما عرض الأمير فيصل قضيته أمام اللجنة العليا في مؤتمر السلام في 6 شباط/فبراير 1919، لم يشير إلى أي اقتراح بتوسيع الأراضي اللبنانية. بل أبدى استعداده لقبول استقلال لبنان، لكنه أضاف بأن وجود نوع من الوحدة الاقتصادية مع دولته العربية في الأراضي السورية الداخلية ضروري للمصلحة التنموية المتبادلة. وأعرب عن أمله بأن يقرر اللبنانيون من تلقاء أنفسهم الاتحاد الفيدرالي مع سوريا.

Lord Hardinge (British ambassador in Paris) to the Foreign Secretary, Earl Curson, (1) 1 January 1921 (FO 371/6453)

في الأسبوع التالي، في 15 شباط/فبراير، قدّم داود عمّون، رئيس مجلس إدارة جبل لبنان، مرافعة عن لبنان الموسّع - ضمن "حدوده الطبيعية والتاريخية" - أمام اللجنة العليا. وقال عمّون: "إن الأراضي المشار إليها ضمن الحدود المذكورة ضرورية لوجودنا". فمن دونها لا تعود الزراعة والتجارة ممكنتين لنا، وسيضطر سكاننا إلى الهجرة. إن مجرد إقفال حدودنا بتدابير إدارية سيدفعنا إلى المجاعة الفعلية، كما حدث خلال هذه الحرب.

كما أن أغلبية سكان هذه الأراضي يطلبون الالتحاق بلبنان. وقد عُبر عن رغبتهم في عرائض موجهة إلى الحكومة الفرنسية. وبضمهم إلينا، يقيم المؤتمر العدل ويقدم التعويض، فيما يُطبق حق تقرير المصير.

علينا أن نقول شيئاً عن علاقتنا بسوريا. إن المصالح بين البلدين مرتبطة ارتباطاً وثيقاً. فسوريا تحتاج إلى موانئنا وجبالنا، ونحن نحتاج إلى سهولها. الانفصال التام سيضرّ بمصلحة البلدين، مع ذلك يمكن أن يتحد لبنان مع سوريا مع الاحتفاظ بشخصيته المستقلة، شرط استفادة سوريا من التعاون الفرنسي نفسه.

بعبارة أخرى، قال عمّون إن على سوريا القبول بالوصاية الفرنسية إذا كانت ترغب في إقامة صلة وثيقة مع لبنان!

اعترف فيصل باستقلال لبنان تحت الانتداب الفرنسي في 6 كانون الثاني/يناير 1920 بموجب اتفاق سري مع الحكومة الفرنسية. وترك المؤتمر السلام تسوية الحدود، على أن يؤخذ بالحسبان الحقوق التاريخية والمصالح الاقتصادية والرغبات الحرة للسكان. في غضون ذلك، جدد مجلس إدارة جبل لبنان حملته الدعائية من أجل توسيع الأراضي. وعندما أعلن المؤتمر السوري في دمشق - الذي نادى بفصل ملكاً على سوريا في آذار/مارس 1919 - أنه سيعترف بالحكم الذاتي للبنان ضمن حدوده السابقة، اعترض مجلس الإدارة لدى المفوض السامي الفرنسي. وأصدر في ما بعد بياناً أعلن فيه أن المؤتمر السوري لا يملك صلاحية مناقشة الشؤون التي تتصل بلبنان المستقل، وأصرّ على الاستقلال المطلق للبلاد ضمن "حدودها الطبيعية والتاريخية".

عندما منح المجلس الأعلى في سان ريمو فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان في نيسان/أبريل 1920 أرسل الوفد اللبناني إلى مؤتمر السلام مذكرة إلى القوى الكبرى

مطالباً بضمّ أفضية بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا الأربعة، على أساس الحدود التاريخية والأغلبية السكانية المسيحية، والضرورة الاقتصادية. هذه هي خلفية قرار الحكومة الفرنسية لمصلحة "الحدود الطبيعية" للبنان. في آب/أغسطس 1920 ألقى الجنرال غورو، المفوض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان، خطاباً أعلن فيه بلسان حكومته: إن أفضية بعلبك، والبقاع، وحاصبيا، وراشيا الأربعة تعتبر من الآن وصاعداً متحدة مع لبنان.

وعلى هذا الأساس، أعلن في 1 أيلول/سبتمبر 1920 عن إنشاء جمهورية لبنانية منفصلة ضمن حدود موسّعة أو "دولة لبنان الكبير". وقد شكّلت بإلحاق المدن والمناطق المحيطة بالتصرفية العثمانية التي تتمتع بالحكم الذاتي (أي "جبل لبنان" القديم لسنة 1861)، وتحديدًا صيدا في الجنوب وأراضيها الداخلية في جبل عامل، وطرابلس في الشمال وأراضيها الداخلية في عكار، وسهل البقاع الغني في الشرق، وبيروت التي أصبحت الآن عاصمة الدولة الجديدة. وأعلن أن الدولة الجديدة ستمتد من النهر الكبير إلى حدود فلسطين، ومن البحر حتى سلسلة جبال لبنان الشرقية. وأكد ميلران، رئيس الوزراء الفرنسي ووزير الخارجية، هذا القرار في رسالة منشورة وجهها إلى البطريرك الماروني.

وهكذا تم تأمين قدرة "لبنان الكبير" على البقاء من الناحية الاقتصادية بمنحه واجهة على البحر المتوسط وسهلاً داخلياً يُزرع فيه القمح. وضمن للموارنة، أنباع فرنسا المحليين الرئيسيين، أرجحية سياسية فيه. وهكذا اعتُبرت الدولة الجديدة ملاذاً للمسيحيين، وربما الأهم من ذلك، لصانعيه الفرنسيين، قاعدة تستطيع فرنسا السيطرة منها على الأراضي السورية الداخلية، وتبسط قوتها في شرقي المتوسط. (في السنة نفسها، 1920، أنشأ السير بيرسي كوكس Sir Percy Cox، المفوض السامي البريطاني في العراق، دولة العراق الحديثة. ومثلما فضّلت فرنسا الموارنة في لبنان، فإن بريطانيا فضّلت الأقلية العربية السنية في العراق. وأصبح هذان الترتيبان مصدراً لمشاكل لاحقة كثيرة).

ظلت الأراضي التي اقتطعها الجنرال غورو من سوريا وضمّها إلى جبل لبنان موضع خلاف طويل. كان القوميون العرب المسلمون يرغبون في إعادتها إلى سوريا،

في حين كافح الانفصاليون المسيحيون اللبنانيون بقوة للاحتفاظ بها. كانت هذه المناطق تضم الكثير من المسلمين السنة والشيعية، الذين شكّلوا في ذلك الوقت نحو نصف عدد سكان الدولة الموسّعة الجديدة. ومع أن المسيحيين احتفظوا بالسيطرة، فقد تضاءلت أغليبتهم⁽¹⁾. وعندما شنّ المسيحيون حملة من أجل إقامة لبنان الكبير المستقل تحت الحماية الفرنسية، كان الخوف من تفوّق الغالبية المسلمة في سوريا الجغرافية شاغلهم الأول.

تابعت فرنسا، سياسة "فرّق تسد"، فأنشأت في ما بعد منطقة تتمتع بحكم ذاتي للعلوين في شمال سوريا، بإدارة ضابط فرنسي. وفي سنة 1922، أصبحت هذه المنطقة "دولة" بإدارة حاكم فرنسي. وفي الجنوب أنشئت أيضاً "دولة" جبل الدروز في آذار/مارس 1921، بينما قسّمت الأراضي الداخلية السورية إلى "دولتي" دمشق وحلب المنفصلتين. وكانتا تخضعان اسمياً لإدارة حاكمين محليين. عيّن الفرنسيون حقّي بك العظم حاكماً على دمشق يساعده مديرون يختارون من العائلات السورية القليلة المستعدة للتعاون مع الفرنسيين.

أما في شمال غرب سوريا، فإن لواء الإسكندرونة الذي كان يسكنه خليط من السكان العرب والأتراك، فقد أعطي حكماً ذاتياً مع امتيازات خاصة للأتراك بعد الاتفاق الفرنسي - التركي في سنة 1921. وفي الوقت نفسه، أعادت فرنسا توطين عدد كبير من اللاجئين الأرمن الناجين من المجازر التركية عام 1915 في مدن سوريا ولبنان الرئيسية، بينما شجّع السكان غير العرب، أو غير المسلمين - الأشوريين، والكلدان، والأتراك والأكراد وسواهم - على الاستيطان في منطقة الجزيرة في شمال شرق سوريا.

أثارت هذه السياسة التقسيمية، وإعطاء الأفضلية للأقليات على حساب الأغلبية استياءً شديداً في أوساط القوميين العرب، فاضطرت فرنسا، في حزيران/يونيو 1922، في محاولة لإخفاء احتكارها للسلطة، إلى تجميع "حكومات" دمشق وحلب والعلوين

(1) كانت نتيجة إحصاء 1921 كالتالي: الموارنة: 199,181؛ السنّة: 124,786؛ الشيعة: 104,947؛ الروم الأرثوذكس: 81,409؛ الدروز: 43,632؛ الروم الكاثوليك: 42,462؛ البروتستانت: 4215؛ طوائف متفرقة: 8436.

في "فيدرالية الدول السورية". انسحب العلويون من هذا الفيدرالية في كانون الثاني/يناير 1924 وحُلت رسمياً في نهاية العام نفسه. واستعادت الدولة العلوية حكمها الذاتي بالكامل. ثم اتحدت حكومتا حلب ودمشق لتشكيل دولة سوريا⁽¹⁾. لإيضاح اضطراب السكان المحليين والصداع الذي أحدثه ذلك في باريس، تجدر الإشارة إلى أنه جرى إعادة رسم خريطة سوريا في سنوات 1922-1925، و1925-1936، و1936-1939، و1939-1942، و1942-1942⁽²⁾.

ترأس المفوض السامي الفرنسي هذا الصرح المتداعي من الدول والأراضي التي تتمتع بحكم ذاتي والحكومات المحلية الضعيفة، متسلحاً بسلطة سياسية وتشريعية وعسكرية مطلقة. وكان مساعده الرئيس الأمين العام للمفوضية العليا (تجدر الإشارة إلى أن روبر دو كيه أول من تسلّم هذا المنصب) الذي عُهد إليه بتنسيق العمل ما بين المديريات المدنية العديدة التي تدير كل أوجه الحياة تحت الانتداب. ويأتي في صلب هذا النظام إدارة خدمات المعلومات، وهي مديرية للمخابرات تضم ضباطاً من الأجهزة الخاصة ينتشرون في كل أنحاء البلاد ويتصرفون مثل صغار الطغاة، ويثرون الكثير من العداة والكراهية.

كانت الخزينة الفرنسية تمول ميزانية المفوضية العليا وجيش الشرق، في حين تمول ميزانيات الدول العديدة التي تعاني من عجز كبير ومن التضخم المصطنع بفعل تكرّر البيروقراطيات، من عائدات الضرائب المفروضة على السكان المحليين، وبخاصة الضريبة الزراعية. أما عائدات الجمارك التي تشكل نحو 40 بالمئة من الموارد المحلية، فكانت تخضع لإدارة المفوضية العليا المباشرة باعتبارها "مصالح مشتركة"؛ وتشكل بنداً معقداً وغامضاً على نحو متعمد، يقع بين ميزانيّ المفوضية العليا والجيش من جهة، وميزانيات الدول المحلية من جهة أخرى⁽³⁾.

أدى تقسيم سوريا إلى إضعاف الاقتصاد، وإلحاق الضرر بالتجارة والصناعة. وفقدت دمشق على وجه الخصوص الكثير من أهميتها المالية والتجارية. قبل الحرب،

(1) Consul Satow to Foreign Secretary, 13 March 1921. (FO 371/7846)

(2) للرجوع إلى قرارات المندوب السامي ذات الصلة، انظر A Mahafzah, "La France et le mouvement nationaliste arabe de 1914 à 1950", pp. 301-302, n. 36

(3) Mizrahi, 'La France et sa politique de Mandat', p. 44

كانت مصر وفلسطين والحجاز وشرق الأردن وبلاد ما بين النهرين وكيليشيا والأناضول، تستورد ما قيمته 1.5 مليون ليرة تركية من القماش والحرير السوري في السنة، وهي منتجات مصانع البلاد القديمة والأساسية التي تستخدم أكثر من 30 ألف عامل. ولكن العوائق التي فرضتها بريطانيا وفرنسا في الأراضي التابعة لهما دمرت تلك التجارة. كما انخفضت الصادرات السورية الزراعية من الحبوب والسمن والقطن والصوف ومرى المشمش والجوز. وبعد أن أصبحت التجارة محصورة بالسوق المحلية، كسد مخزون التجار، وتوقفت المصانع عن العمل، وازدادت البطالة وعمّ الفقر.

كان المغتربون السوريون في أميركا يرسلون إلى عائلاتهم نحو 300 ألف ليرة تركية سنوياً، لكن أصبح الوضع في سوريا سيئاً جداً ما اضطر العديد من العائلات إلى السفر للانضمام إلى أقربائهم عبر الأطلسي، فحرم ذلك البلد من مصدر آخر للدخل. كانت دمشق نقطة بداية خط سكة حديد الحجاز الذي يربط العالم الإسلامي بالمدينة المنورة وبالتالي مكة، ويبلغ طوله ألفي كيلومتر. وكان آلاف الحجاج القادمين من الهند وإيران وتركيا وأفغانستان وما ورائها يجتمعون كل سنة في دمشق للانتقال إلى المدينتين المقدستين، فينفقون نحو 500 ألف ليرة تركية في أسواقها لتجهيز أنفسهم للحج. لكن بعد الانتدابين الفرنسي والبريطاني، لم يعد يمرّ في سوريا سوى 150 كيلومتراً فقط من خط سكة الحديد، وخضع ما تبقى من الخط للولايات القانونية المنفصلة لشرق الأردن وفلسطين والحجاز. دفعت هذه الحواجز الجمركية الجديدة وصعوبات المواصلات العديد من الحجاج إلى تغيير مسار رحلتهم التقليدي، الذي كان المفضل لعدة قرون، والسعي إلى بلوغ مكة عبر مرفأ جدة على البحر الأحمر بدلاً من ذلك⁽¹⁾.

شكّلت العملة الورقية التي أصدرها بنك سوريا ولبنان الفرنسي مصدراً آخر للشكوى السورية. فهي غير مدعومة بالذهب، كانت قيمتها تتقلب بشدة مع تقلب العملة الفرنسية التي ترتبط بها. فأصبحت الليرة التركية الذهبية تعتبر الأساس الثابت الوحيد للتبادل، بدلاً من القرش السوري الذي لا يعول عليه. في مثل هذه الظروف

(1) تقرير سري صادر عن فرع بنكو دي روما في دمشق إلى المركز الرئيسي في بيروت في 21 آذار/مارس 1922 يصف الوضع في سنة 1921 (FO 371/9053).

التي يكتنفها انعدام اليقين، لم يكن سوى القليل من رجال الأعمال مستعدين لإقراض المال، ما زاد من الشلل الذي تعانیه التجارة. ارتفعت قيمة الذهب عندما ثارت الشكوك على نطاق واسع - وهي صحيحة إلى حد بعيد - بأن الفرنسيين يشحنون كميات كبيرة منه إلى خارج البلاد لزيادة احتياطياتهم في فرنسا. بل إن القنصل بالمر Palmer كتب في تقرير إلى لندن: "يزعم أن العاملين في الإدارة الفرنسية يشترون الذهب سرّاً للمضاربة الخاصة"⁽¹⁾.

لم يكن الوضع في لبنان أفضل حالاً. فقد هاجر عدد كبير من اللبنانيين إلى أميركا قبل الحرب، ودفعت الجامعة التي تفتتت في أثناء الحرب المزيد منهم إلى السفر، ولم يبقَ في البلاد سوى ثلث السكان. وعندما تراجعت التجارة مع المناطق الداخلية إلى أدنى مستوى لها، أخذت المصارف في بيروت تتردّد في منح القروض. ووفقاً للقنصل البريطاني في بيروت، كانت مصلحة الجمارك التي يديرها الفرنسيون في بيروت فاسدة من أعلاها إلى أسفلها: اتهم الضباط والمسؤولون الفرنسيون بتلقي الرشاوى مقابل الخدمات التي يقدمونها. واشتهر أحد ضباط الجمارك الفرنسيين بأنه غادر حلب بعد أن زادت ثروته بمقدار 50 ألف فرنك بعد ثلاثة أشهر من إقامته فيها!

من الأسباب الرئيسية للشكوى تعيين مستشارين فرنسيين في كل أقسام الإدارة المحلية، وعدم القدرة على اتخاذ أي قرار من دون موافقتهم. كما أثار الغضب استخدام الفرنسيين الجنود السنغاليين وإعطاؤهم أوامر صارمة باتباع القسوة وخلع الأبواب واستباحة حرمة البيوت، وكذلك تعامل الفرنسيين باستعلاء وازدراؤهم السكان المحليين، بمن فيهم النخب. وكما ذكر القنصل البريطاني، "أصبح الضباط الفرنسيون مكروهين لدى سيدات المجتمع المحلي الرفيع في بيروت... واعتُبرت كلمات 'السوري القذر' أو 'السورية القذرة' التي كان يتفوه بها الفرنسيون إهانة وطنية"⁽²⁾. بل إن الوجيهاء المدنيين القلائل الذين نجح الفرنسيون في استمالتهم، مثل آل العظم أو اليوسف، أدركوا بأنهم كانوا ينعمون بقدر أكبر من الحرية والاحترام في ظل الحكم العثماني.

(1) Consul Palmer to Foreign Secretary, Damascus, 3 May 1921 (FO 371/6454).

(2) Consul R.A. Fontana to the Foreign Secretary, Earl Curzon, 21 December 1920 (FO 372/6453).

مع ذلك، وعلى الرغم من تصرفات الفرنسيين المقيتة، فإنهم لم يواجهوا مصاعب كبيرة في سوريا ولبنان في أوائل عشرينيات القرن العشرين (في البداية على الأقل) كتلك التي واجهها البريطانيون في العراق. ويرجع ذلك دون ريب إلى طريقة تقسيم الأراضي السورية، وإلى مغادرة معظم القادة الوطنيين البلاد مع الأمير فيصل.

لكن التحدي الحقيقي لحكم الفرنسيين جاء لاحقاً، مع اندلاع الثورة السورية الكبرى في سنة 1925. وبقيت المقاومة متفرقة حتى ذلك الحين. كانت كتائب المهجانة - وهي قوات تركب الجمال - ترسل لإخضاع القبائل المتمردة دائماً في الصحراء الشرقية المحيطة بدير الزور. وفي بلاد العلويين، أهدمت انتفاضة وحيدة بقيادة الشيخ صالح العلي في تشرين الأول/أكتوبر 1921. وقد مال العلويون على العموم إلى قبول الإدارة العسكرية الفرنسية التي صمّمت لتشجيع الخصوصية العلوية المتميزة عن ما تبقى من سوريا ذات الأغلبية السنية.

في ذلك الوقت نفسه تقريباً، أهدمت القوات الفرنسية انتفاضات في حوران، واحتلت جبل الدروز في جنوب البلاد. وفي آب/أغسطس 1920، اغتيل الوجهية الكردي، عبد الرحمن اليوسف، الذي أيد الفرنسيين وانضم إلى الإدارة التابعة لهم في دمشق برئاسة علاء الدين الدروبي، بسبب ميوله الفرنسية المعادية للوطنية السورية. فقد هاجمت مجموعة مسلحة قادمة من حوران القطار الذي كان يستقله عند وصوله إلى محطة خربة الغزالة. وقُتل الدروبي وأحد ضباط الارتباط الفرنسيين في الوقت نفسه. فعمد الفرنسيون إلى تدمير القرية بأكملها انتقاماً لمقتلهم. وفي منطقة حلب، ثار الزعيم الوطني إبراهيم هنانو على الفرنسيين في الأشهر الأخيرة من سنة 1920 وبداية سنة 1921. وما لبث أن لجأ إلى شرق الأردن عندما طارده الفرنسيون، لكن البريطانيين سلّموه إلى الفرنسيين فحوكم وصدر حكم بحقه. وأفرج عنه في النهاية بسبب شعبيته الكبيرة.

عندما وُقعت الهدنة الفرنسية - التركية في تشرين الأول/أكتوبر عام 1921، شطرت الحدود الجديدة ولاية حلب العثمانية السابقة إلى قسمين. ففصلت الحواجز الجمركية المدينة عن أراضيها الداخلية ومركز تجارتها التقليدية في جنوب ووسط الأناضول. ربما كان هنانو يفضل أن تنضم حلب إلى تركيا الناشئة حديثاً بقيادة

مصطفى كمال على أن تصبح جزءاً من محمية يديرها الفرنسيون. ولو مُنح أهالي حلب حرية الاختيار لفضّل بعضهم الارتباط بتركيا الكمالية، أو حتى الحصول على المواطنة في دولة تضم شمال سوريا والعراق، بدلاً من الخضوع المذلّ لانتداب استعماري مركزه دمشق. بل إن حلب وافقت على مفض في أواخر عشرينيات القرن العشرين على أن تكون المدينة الثانية في الجمهورية العربية السورية، بعد مدينة دمشق، منافستها التقليدية⁽¹⁾.

في 27 حزيران/يونيو 1921، نجح الجنرال غورو بصعوبة من محاولة لاغتياله. كان متجهاً إلى القنيطرة في مرتفعات الجولان في موكب مكون من 4 سيارات، عندما اقترب منه أربعة رجال يمتطون الجياد، ويرتدون لباس الجندرية، وأطلقوا النار على سيارته من على مسافة قريبة. انحنى الجنرال بسرعة، لكن ثلاث رصاصات اخترقت ملابسه. وقُتل مترجمه الملازم برانيه Branet. من المؤكّد تقريباً أن المهاجمين كانوا دروزاً من إمارة شرق الأردن، الأمر الذي زاد من سوء العلاقات البريطانية - الفرنسية. وعندما قام القنصل البريطاني، بالمر، بزيارة غورو لتهنئته بالنجاة من محاولة الاغتيال، انتظر مدة نصف ساعة، ثمّ أبلغ أن الجنرال لا يستطيع رؤيته لكثرة انشغاله⁽²⁾.

انتقم الفرنسيون من القرى التي اعتُقد أنها تؤوي الثوار انتقاماً وحشياً. ولاسترضاء الفرنسيين، كتب ونستون تشرشل، وزير المستعمرات البريطاني، إلى الجنرال غورو في 31 آذار/مارس سنة 1921:

إنني شديد الاهتمام بأن أقدم لك حماية فعّالة من الغارات وكل ما يثير الانزعاج. لقد أجريت ترتيباً مؤقتاً وغير رسمي مع عبد الله [في شرق الأردن] يستخدم بموجبه كل ما لديه من نفوذ لمنع أي اضطراب في المنطقة الفرنسية... الصعوبة الرئيسية التي سيواجهها هي السوريون المنفيون الذين يجوبون شرق الأردن مشرّدين وجائعين.

(1) Peter Sluglett, "Will the Real Nationalists Stand up? The Political Activities of the Notables of Aleppo, 1918-1946," in Méouchy, *France, Syrie et Liban*, pp. 282-4

(2) Consul Palmer to Foreign Secretary, Damascus, 27 June 1921 (FO 371/6461) and 4 July 1921 (FO 371/6455).

لم يتسلّم تشرشل أي ردّ على فرط اهتمامه، ولا يخلو ذلك من مغزى. لذا عندما قدّمت وزارة الخارجية الفرنسية، في مناسبة أخرى، شكوى إلى لندن بشأن غارة انطلقت من شرق الأردن على السويداء، عاصمة الدروز، طلب من اللورد هاردنج Hardinge، السفير البريطاني في باريس، أن يرد باقتضاب: تدرك الحكومة الفرنسية، أن حكومة صاحب الجلالة تشعر بأنها ملزمة بالبيانات التي قدّمت إلى ملك الحجاز دعماً للتطلّعات القومية العربية في أثناء الحرب، وبالإعلانات السياسية مثل إعلان اللورد ألبيني في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1918 ببذل أقصى الجهود في بلاد ما بين النهرين والأراضي العربية شرق نهر الأردن، التي تقع ضمن منطقة انتدابه لإقامة شكل من أشكال الحكم الذي يقبل به الشعب. وبما أن حكومة جلالته الملك تعمّدت رعاية نموّ المشاعر القومية من خلال قناة الشريف (حسين) ضدّ الأتراك، فإنها لا تستطيع عدم الاهتمام بهذه المشاعر بعد نهاية الحرب. إن الحكومة الفرنسية... اعتبرت نفسها، غير ملزمة بما قدّمته حكومة صاحب الجلالة من التزامات في علاقاتها مع القوميين العرب وقياداتهم الشريفة... وهذا التباعد في الرأي... والسياسة... هو السبب الذي يفسّر لماذا أصبحت منطقة شرق الأردن... ملجأ لعدد كبير من العرب المنفيين من سوريا... الذين يكتنّون مشاعر العداء المير لفرنسا⁽¹⁾.

لقد أشار هاردنج إلى أن فرنسا جلبت المتاعب لنفسها، بزعمه أن طريقة تعامل بريطانيا مع القومية العربية تختلف عن الطريقة التي اتبعها الفرنسيون. لكن البريطانيين كانوا يتباهون ببلاتهم في هذا الموقف. فلا شك أنهم لم يكونوا في وضع أفضل من الفرنسيين من حيث الشعبية. فقد خانت بريطانيا العرب بالتخلي عن الأمير فيصل ودعمت استيلاء الصهاينة على فلسطين.

سياسة المنفى في القاهرة

تلك هي الصورة القائمة التي واجهها رياض الصلح ورفاقه العرب في المنفى عندما

تجمّعوا مكتئبين في أوائل عشرينيات القرن العشرين في القاهرة، بعدما تبخّرت كل آمالهم بتحقيق الاستقلال. لقد وثقوا بالضمانات التي قدّمها لهم البريطانيون، وانضموا إلى قوات الحلفاء ضدّ العثمانيين، معرّضين أنفسهم للخطر الشديد. فدفعوا ثمناً باهظاً مقابل تغيير ولائهم بحماقة وقصر نظر. عذّب قادهم بوحشية في سجن جمال باشا الرهيب في القلعة في دمشق، وفي سجن عاليه. ومات المئات شفقاً، أو عانوا من النفي والفقر. واتضح الآن أن تلك التضحيات القاسية ذهبت سدى. كوفئ العرب، الذين حاربوا إلى جانب البريطانيين في سيناء وفلسطين وسوريا، بتقسيم أراضيهم والقضاء على الحكومة العربية في دمشق، وفرض الحكم الاستعماري الفرنسي والبريطاني عليهم بالقوة، وتسليم فلسطين إلى الصهاينة. بل إن الفرنسيين اعتمدوا في سوريا ممارسات جمال باشا القاسية بقتل الوطنيين أو نفيهم. واعتُقل معظم أعضاء الحكومتين اللتين شكّلهما الأمير فيصل، في وقت من الأوقات، وقدّموا أمام المحاكم العسكرية، أو صدرت بحقهم الأحكام غيائياً. دفع هذا القمع الذي مارسه الفرنسيون العديد من السوريين إلى الفرار إلى أوروبا، وأميركا، والقاهرة. بدا المناخ السياسي في القاهرة أقلّ قسوة مما هو عليه في العواصم العربية الأخرى. ولم يكن رياض الصلح الوحيد المحكوم عليه بالإعدام بين الوافدين الجدد إلى القاهرة.

وجد هؤلاء الرجال المجتهدون في القاهرة جالية سورية راسخة، لها مؤسساتها التجارية، وصحفها، وقد فتحت لهم بيوتها ونواديهها. ولكن إذا استثنينا هذه الميزة الحسنة الصغيرة، فإن حلمهم العظيم بالحرية للعرب تحوّل إلى كابوس. كانت المناقشات التي تجري في صالونات القاهرة السياسية التي يتردد عليها رياض تتسم بالمرارة. وقد وجد أنه الأصغر سناً في مجتمع من المنفيين السياسيين، حيث الشخصيات البارزة فيه تكبره بعشر وعشرين وأحياناً ثلاثين سنة. كان هؤلاء رجالاً أثرياء وموهوبين، اكتسبوا التقدير في المهام المختلفة التي مارسوها، لكن الحظ خذلهم. كان الوضع بائساً بالنسبة إلى هؤلاء الرجال الأكبر منه سناً - وكثير منهم، مثل والده، كانوا مسؤولين في الإمبراطورية العثمانية. فاضطروا إلى التأقلم مع انهيار الإمبراطورية التي كانت عظيمة ذات يوم، وتوقّف مساراتهم المهنية البارزة، وخسارة المعاشات الكبيرة التي كانوا يتقاضونها. وعليهم الآن التكيف مع التقسيم المضّر لبلادهم، فضلاً

عن إملاءات الأسياد الاستعماريين الجدد، بعدما أزيلت بالقوة المؤسسات والرموز التي طالما عرفوا بها عن أنفسهم⁽¹⁾.

وكما هو الحال دوماً في مثل هذه الأوضاع، لم يكن هذا المجتمع المهاجر جسماً واحداً، بل تمزقه الطموحات والخلافات الإيديولوجية، والتحالفات المتنافسة، والعداوات الشخصية الحادة. ومن أبرز الصالونات المرموقة في القاهرة في ذلك الوقت صالون ميشال لطف الله، وهو من نجوم المجتمع السوري - اللبناني في مصر. كان ميشال وشقيقاه أبناء حبيب باشا، وهو تاجر أرثوذكسي كبير، ومراب، استثمر الكثير من المال في زراعة القطن في وادي النيل، وأصبح من أكبر مالكي الأراضي في مصر وأغناهم. وقد منحه الحكومة المصرية لقب "باشا"، بينما منحه الشريف حسين لقب "أمير" بعدما عمل مستشاراً ومصرفياً له في أعقاب ثورة تركيا الفتاة في سنة 1908.

ولد ميشال لطف الله في سنة 1880 وورث عن والده ثروة كبيرة استخدمها في تحقيق طموحاته السياسية الكبيرة. في سنة 1910، في الثلاثين من عمره، انتخب في أول مجلس تشريعي في مصر، ممثلاً عن الجالية السورية. كان ناشطاً في "حزب اللامركزية" إلى أن تم حله في الحرب العالمية الأولى. وفي كانون الثاني/يناير 1919، حشد أعضاء حزب اللامركزية القدامى في أوساط الجالية السورية لتأسيس "حزب الاتحاد السوري". أرسلت نسخة من النظام الأساسي للحزب ولائحة بالواحد والعشرين عضواً في لجنته المركزية إلى وزارة الخارجية الفرنسية في باريس. ويقال بأن الأمير لطف الله أمل سراً أن يعتبره الفرنسيون مرشحاً لعرش دمشق، أو جعله على رأس إمارة لبنانية على الأقل، إذا تعذر ذلك.

أيد لطف الله أيضاً المعسكر الهاشمي، ودعم الشريف حسين، كما فعل والده من قبله. فقد أعلن الشريف نفسه "ملك العرب"، إلى جانب حكم مملكة الحجاز التي أنشأها عند الثورة العربية في سنة 1916. ومثل شقيق ميشال لطف الله الأصغر، وهو حبيب الصغير، مملكة الحجاز في مؤتمر السلام، وأنشأ في سنة 1923 سفارة لها في روما - أول سفارة عربية تفتتح في أوروبا. لم تدم مملكة الشريف حسين إلا إلى

William L. Cleveland, *Islam Against the West: Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism*, London and Austin, TX 1985, p. 47

كانون الأول/ديسمبر 1925 عندما سقطت في أيدي مقاتلي ابن سعود بعدما تخلى عنه البريطانيون. وقد نجحت خلال سنواتها التسع في كسب اعتراف دولي، وأصبحت حليفاً لقوى الوفاق، وأحد الأعضاء المؤسسين في عصبة الأمم. غير أن الشريف حسين لم يصدّق على معاهدة فرساي زاعماً بحق أن الحقوق العربية انتهكت في المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم التي شرّعت الانتداب.

من حلفاء ميشال لطف الله الرئيسيين في القاهرة الدكتور عبد الرحمن الشهنندر، وهو طبيب درس في الكلية الإنجيلية السورية في بيروت [الجامعة الأميركية لاحقاً]. أيد الشهنندر "تركيا الفتاة" في البداية، لكنه استاء من سياسات "الترريك"، فانتقل إلى الدعوة إلى المساواة بين العرب والأتراك. وعندما شعر أنه معرض لخطر الإعدام، هرب إلى القاهرة في سنة 1916. وهناك أقام صداقات مع العديد من ممثلي الهاشميين والمسؤولين البريطانيين في "المكتب العربي"، خلال الحرب، ما أثار الشكوك بأن البريطانيين جنّده جاسوساً لهم. وعندما "تحررت" سوريا من الأتراك، عاد الشهنندر إلى دمشق حيث عينه الأمير فيصل ضابط الاتصال الرئيسي مع قوات أللنبي. ثم عينه وزيراً للخارجية في الأسابيع الأخيرة من عمر المملكة العربية، لتهدئة القوميين المتشددين الذين يتوقون لمحاربة فرنسا، ولكن دون جدوى. في أعقاب معركة ميسلون، وقيل أن يصدر الفرنسيون على الشهنندر حكماً بالإعدام، فرّ ثانية من دمشق إلى القاهرة، حيث انضم إلى لطف الله وآخرين في مناقشة ما يجب عليهم فعله لمتابعة النضال.

كان رياض الصلح دائم التردّد على قصر لطف الله، حيث تعرّف عن قرب إلى الأمير ميشال والدكتور الشهنندر. غير أنه كان أكثر ميلاً إلى المعسكر المنافس بقيادة السياسي الأرستقراطي الأمير شكيب أرسلان، الذي أثر فيه كثيراً. وُلد أرسلان في سنة 1869، وهو من عائلة درزية مرموقة في لبنان، أقل ثراء من عائلة لطف الله ولكن أعرق منها نسباً وأكثر تميّزاً. وكان مفكراً محنكاً وناشطاً سياسياً، برزت مواهبه الفكرية وهو لا يزال تلميذاً - في مدرسة مارونية في بيروت أولاً، حيث تعلّم اللغتين الفرنسية والعربية؛ ثم في المدرسة "السلطانية" الرسمية، حيث تعلّم اللغة التركية. تأثر بالشيخ البارز والمصلح الإسلامي المصري محمد عبده. كان ذلك خلال السنوات التي أمضاها عبده في المنفى في بيروت، بعد الاحتلال البريطاني لمصر في سنة 1882.

بين سنتي 1913 و1918، شغل الأمير شكيب أرسلان مقعداً في البرلمان العثماني نائباً عن جبل لبنان. وأصبح من مؤيدي الوحدة العربية - التركية تحت راية الإسلام. ولأنه مقرب أيضاً من "تركيا الفتاة"، فقد استحسن دخول تركيا الحرب إلى جانب الألمان وأمضى وقتاً كبيراً في برلين. بالمقابل، ساند ميشال لطف الله الشريف حسين وفضل التودّد إلى بريطانيا وفرنسا.

اتخذ شكيب أرسلان طوال حياته موقفاً معادياً للإمبريالية البريطانية والفرنسية، وبالتالي للهاشميين، إذ اعتقد - مصيياً كما تبين لاحقاً - أن "الثورة العربية" التي أطلقها الشريف حسين ليست سوى خطأ غادر ومكلف. ورأى أنه لا يمكن التصدي للتهديدات الغربية للعرب إلا ببروز قوة إسلامية تقوم على تراث إسلامي قوي، وهي فكرة تلاقي صدى كبيراً في العالم الإسلامي اليوم. وأن الخلاص يكمن في إعادة إحياء العالم الإسلامي، وأن الرابطة الإسلامية التي توحد العرب والأتراك هي الحاجز الفعال الوحيد الذي يقف في وجه جشع القوى الأوروبية التي تأمرت لتفكيك الإمبراطورية العثمانية، وترغب الآن في تقاسم المغام. وما الانتداب البغيض سوى برهان آخر على الغدر الأوروبي⁽¹⁾.

كان إحسان الجابري حليف شكيب أرسلان الرئيسي في القاهرة. وُلد في سنة 1882، وبعد حصوله على شهادة عالية في الحقوق من باريس، عمل موظفاً في الإدارة العثمانية وحقّق نجاحاً. وكان شقيقه الأكبر، نافع باشا، عضواً في البرلمان العثمانيين الأول والثاني، في حين أصبح شقيقه الأصغر، سعد الله - رفيق رياض الصلح منذ كانا في إسطنبول - سياسياً وطنياً بارزاً في سوريا، ورئيساً للوزراء لاحقاً. وكانت عائلة الجابري من أرقى عائلات حلب وأكثرها نفوذاً سياسياً في تلك الفترة⁽²⁾. ونظراً لدراية إحسان ومعرفته بأوروبا، عينه الأمير فيصل رئيساً لديوانه في سنة 1918. كما عُيّن محافظاً لمدينة حلب، ولكن عندما احتل الفرنسيون سوريا، غادر أيضاً إلى القاهرة وحُكِم عليه بالإعدام غيابياً. اشترك إحسان الجابري في الرأي مع شكيب أرسلان

(1) المصدر نفسه، ص 8 وما يلي.

(2) عن عائلة الجابري ومناخ حلب السياسي في ذلك الوقت، انظر Keith David Waterpugh, *Being Modern in the Middle East: Revolution, Nationalism, Colonialism and the Arab Middle Class*, Princeton, 2006.

بوجوب التحالف مع الأتراك ضد الإمبريالية الغربية، لا سيما أن مصطفى كمال كان يحارب الفرنسيين في كيليكيا في 1920 - 1921، ودأب على تزويد الثوار المناوئين للفرنسيين في شمال سوريا بالسلاح⁽¹⁾.

ومن الشخصيات السورية التي برزت في القاهرة في ذلك الوقت الشيخ رشيد رضا. وُلد في سنة 1865، وأصبح من تلامذة الشيخ محمد عبده، ومدافعاً مخلصاً عن أفكاره. في سنة 1897، غادر رشيد رضا سوريا إلى القاهرة، وفي السنة التالية أصدر العدد الأول من مجلته المنار التي واصل إصدارها بانتظام إلى حد ما حتى وفاته في سنة 1935. وأصبحت المنار الوسيلة الرئيسية لنشر أفكار محمد عبده عن الإصلاح الإسلامي وتفسيرها.

لم يكن رشيد رضا عالم دين فحسب، بل ناشطاً سياسياً أيضاً. وقد أدّى دوراً كبيراً في النضال السياسي السوري منذ ثورة "تركيا الفتاة" وما تلاها. انضم إلى حزب اللامركزية قبل سنة 1914 وشارك في المفاوضات الصعبة مع البريطانيين إبان الحرب، وترأس المؤتمر السوري العام الذي أعلن استقلال سوريا في دمشق في 8 آذار/مارس 1920، وهو المؤتمر الذي شارك فيه رياض الصلح ووالده وابن عمه عفيف⁽²⁾.

لم يكن رشيد رضا في معسكر لطف الله والشهبندر، فهو لا يشاركهما تعاطفهما مع الهاشميين. لكنه لم يكن راضياً أيضاً عن تحالف أرسلان والخابري. بل إنه تخاصم مع شكيب أرسلان بشأن العلاقات العربية التركية. ففي حين واصل أرسلان الدعوة إلى الوحدة بين العرب والأتراك بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، فإن رضا أصرّ على انفصالهما وحمل العثمانيين مسؤولية تدهور العالم الإسلامي. لكنه كان من دعاة قوامة العرب في العالم الإسلامي الكبير.

شكّل أعضاء "حزب الاستقلال العربي" مجموعة أخرى من الناشطين في القاهرة في ذلك الوقت، وكان هذا الحزب قد أنشئ بمثابة جبهة سياسية لجمعية "العربية الفتاة" السرية. اتخذ أعضاء هذا الحزب مواقع مختلفة، تبعاً للسنّ، ما بين جيل

(1) Philip S Khoury, 'Factionalism among Syrian Nationalists During the French Mandate,' *International Journal of Middle Eastern Studies*, 13 (1981) pp. 441-469.

(2) انظر الفصل المتعلق برياض الصلح في Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age*, 1798-1939, Oxford 1962, pp. 222-44.

شكيب أرسلان وجيل رياض الصلح. وكان من أبرز الاستقلاليين في القاهرة، عادل أرسلان، وهو الشقيق الأصغر لشكيب أرسلان، والوجيه الدمشقي شكري القوتلي. وُلد عادل في سنة 1882، وعمل لدى الدولة العثمانية قائم مقام لمنطقة الشوف في لبنان في 1915 - 1916، وعندما تولّى فيصل الحكم، رُقّي إلى متصرف جبل لبنان، وهو المنصب الذي شغله إلى أن طرده منه الفرنسيون. وُلد شكري القوتلي في سنة 1886، وصنع شهرته كواحد من أوائل القوميين الملتزمين وعضو في جمعية "العهد". انضم إلى إدارة فيصل، لكنه توجه إلى القاهرة بعدما أقصي فيصل.

كان رياض أقرب إلى الاستقلاليين وسط كل هذه المجموعات المتنافسة في القاهرة. فهم مناوئون للبريطانيين، والفرنسيين، والهاشميين، ومن دعاة القومية العربية المفوهين، ومؤيدون لمخلصون للقضيتين العربية والقومية والفلسطينية⁽¹⁾. تلك هي المشاعر التي تشاركها معهم، بل إنه كان قد انضم إلى حزب الاستقلال في دمشق. فسَهّل له ذلك الاتصال بشكري القوتلي وشكيب أرسلان الذي عمل معه عن قرب لاحقاً في جنيف.

المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف

كانت الدعوة إلى اجتماع عدد كبير من القوميين العرب في جنيف من بنات أفكار الأمير ميشال لطف الله. فقد بادر حزب الوحدة السورية - وهو الحزب الذي أسسه في سنة 1919 وترأسه - إلى دعوة كلّ المؤيدين البارزين للاستقلال والوحدة السورية إلى الاجتماع. وقد تحمّل ميشال وشقيقه جورج، معظم الأعباء المالية الكبيرة. اختيرت جنيف مكاناً للاجتماع لأن الجمعية العمومية الثانية لعصبة الأمم، ستعقد اجتماعها هناك بين 5 أيلول/سبتمبر و5 تشرين الأول/أكتوبر، لمناقشة مسألة الانتدابات.

أصبحت جنيف بين الحريين منتدى السياسة الدولية دون منازع، حيث قصدوها ممثلون عن اثني عشرة قضية وطنية لعرض حالاتهم أمام عصبة الأمم، ولم يكن أحد منهم أكثر إصراراً ومواظبة من العرب، في عشرينيات القرن العشرين. رأى لطف الله

أن المؤتمر الذي دعا إليه سيوحد الحركة الوطنية السورية، ويخرج بموقف موحد من الانتدابات، ويطلع عصبة الأمم على الظلم الكبير الذي لحق بالعرب. وظن أن من غير المعقول أن تبرر عصبة الأمم الطريقة التي فرضت بها الانتدابات.

افتتح المؤتمر التأسيسي - عُرف في البدء باسم المؤتمر السوري لكن أشير إليه باسم المؤتمر السوري الفلسطيني - في 25 تموز/يوليو 1921، وحضره مندوبون من شتى أنحاء العالم. وقد شكّل أول تعبير منظم عن احتجاج العرب على الانتدابات⁽¹⁾. جاءت مجموعة كبيرة من الممثلين من القاهرة، منهم الأمير ميشال لطف الله نفسه، والشيخ رشيد رضا، وكان رياض الصلح أحد ممثلي حزب الاستقلال. وحضر الأمير شكيب أرسلان وشكري القوتلي قادمين من برلين، حيث كانا في ذلك الوقت. وجاء عدد من المندوبين من بيروت، والأراضي الداخلية السورية، لكن أسماءهم بقيت طي الكتمان لحمايتهم من العقاب القاسي الذي هدّدت المفوضية الفرنسية العليا أن تنزله بكل من يحضر. مثل أحد المندوبين أعضاء مجلس إدارة جبل لبنان السابق الذين نفوا إلى كورسيكا لأنهم وافقوا، بتشجيع من رياض الصلح، على الوقوف إلى جانب الأمير فيصل ضد فرنسا. وأرسل الفلسطينيون في القدس ومصر مندوبين عنهم، كما فعلت جمعيات السوريين في المنفى في نيويورك وبوسطن، وتشيلي، والأرجنتين.

كانت أولى مهام المندوبين انتخاب ثلاثة من بينهم لشغل المناصب الأساسية في اللجنة التنفيذية للمؤتمر. انتُخب الأمير ميشال لطف الله رئيساً، ورشيد رضا نائباً للرئيس، والأمير شكيب أرسلان أميناً عاماً. ومع قدوم العديد من الصحافيين الأجانب إلى جنيف لتغطية أعمال الجمعية العمومية لعصبة الأمم، اغتنم لطف الله الفرصة للدعوة إلى مؤتمر صحافي⁽²⁾ يرمي إلى إطلاع عصبة الأمم والسويسريين والعالم على "حقيقة المسألة السورية": أن الانتدابات تناقض مبادئ الحلفاء والعهود التي

Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945*, London and Princeton 1987, pp. 220-27; Marie-Renée Mouton, 'Le Congrès syro-palestinien de Genève (1921)', in *Relations Internationales*, no. 19, (autumn 1979), pp. 313-328; Antoine Fleury, 'Le mouvement national arabe à Genève durant l'entre-deux-guerres', in *Relations Internationales*, no. 19, (autumn 1979), pp. 329-354; W.L. Cleveland, *Islam Against the West*, p. 49.

Mouton, 'Le Congrès syro-palestinien', p. 49 (2)

قطعوها، وأن الشعب السوري يرفضها، ويطالب بحقه الطبيعي باستشارته بشأن مستقبله، ويريد استقلاله بضمانات دولية.

شجب عملاء الاستخبارات الفرنسية، في السفارة الفرنسية في بيروت، اجتماع جنيف ووصفوه بأنه "مكيدة إنكليزية - سورية ضد فرنسا"، لكن لطف الله استبعد هذه الاتهامات المغلوطة قائلاً: "إننا نريد الحفاظ على علاقاتنا التقليدية مع فرنسا. لكننا نرفض أي سيطرة أجنبية. لا نريد أن يكون الفرنسيون أسيادنا". ودعا لطف الله عدداً من الصحفيين إلى عشاء فاخر كرّر فيه الرسالة نفسها. وأنكر تماماً الإشاعات عن وجود يد بريطانية خفية وراء المؤتمر. وقال إن السوريين صدّقوا ذات يوم مهمة فرنسا التحريرية، لكنهم وجدوا أنفسهم خاضعين لنظام استعماري قمعي.

شجب أعضاء آخرون في المؤتمر القسوة العسكرية الفرنسية: القصف التمشيطي للقرى النائية، وأحكام الإعدام التي صدرت غيابياً، والأحكام العرفية التي يفرضها جيش احتلال يبلغ عدده 80,000 جندي؛ وكشفوا رداءة نوعية المسؤولين الفرنسيين الذين أرسلوا لحكم سوريا، ومعظم السوريين أكثر تعليماً ورقياً منهم.

كان الشاغل الرئيسي لمندوبي القدس النضال ضدّ الصهيونية. وكانوا قد قدموا إلى جنيف من لندن، حيث حاولوا في محادثاتهم مع المسؤولين البريطانيين إلغاء وعد بلفور، الذي وصفه الكونت برنادوت بعبارة لا تُنسى، أنه وعد "تعهدت فيه أمة لأمة أخرى بمنحها بلاد أمة ثالثة". كانوا يريدون الإلغاء الكلي لمبدأ إقامة "وطن قومي" لليهود على أرضهم. ونزولاً عند طلب الفلسطينيين، تمّ تغيير اسم المؤتمر إلى المؤتمر السوري - الفلسطيني، للدلالة على خطورة ما يحدث على الأرض. ولكن ذلك لم يحظَ بتأييد من الجميع، ما أُنذر بالانقسام الذي وقع في سنة 1922، عندما انسحب المندوبون الفلسطينيون غاضبين من المؤتمر، احتجاجاً على عدم إيلائه الاهتمام الكافي بقضيتهم الملحة.

على الرغم من الجهود الكثيفة التي بذلها المؤتمر، فإنه واجه خيبة أمل مريرة. فقد قرّر مجلس عصبة الأمم عدم البحث في مبدأ الانتداب أو في إلغاء أي من القرارات العليا المتخذة في سان ريمو. بل لم يُمنح المندوبون السوريون واللبنانيون والفلسطينيون

الفرصة لعرض قضيتهم على المجلس! بعد هذه النكسة، علّق المجلس اجتماعاته من 9 إلى 20 أيلول/سبتمبر، ثم عقد جلسة ختامية في 21 أيلول/سبتمبر صدر عنها خمسة قرارات بالإجماع وهي كما يلي:

1. الاعتراف باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين وسيادتهما.
2. حق هذه البلدان في الوحدة في ظلّ حكومة برلمانية مدنية، والاتحاد الفيدرالي مع الدول العربية الأخرى.
3. الإنهاء الفوري للانتداب.
4. جلاء القوات الإنكليزية - الفرنسية عن سوريا ولبنان وفلسطين.
5. إلغاء وعد بلفور.

قُدِّمت هذه القرارات بعد ذلك إلى عصبة الأمم مع تحديد الطلب بإجراء "تحقيق نزيه لكشف الأوضاع الحقيقية السائدة في البلاد، والتأكد من أن هذه القرارات الختامية تعكس تطّعات الشعب بحق". من الواضح أن هذه القرارات كانت عروبية في معناها، ما يشير إلى أن غالبية المندوبين في المؤتمر تجاوزوا تطلّعات حزب الاتحاد السوري بزعامة لطف الله إلى إقامة "سوريا الكبرى"، باتجاه القومية العربية الشاملة للاستقلّالين وشكري القوتلي، التي أضاف إليها شكيب أرسلان نبرة إسلامية مثيرة. فقد حظي نجاح مصطفى كمال في ذلك الصيف في طرد اليونانيين من الأناضول، بإعجاب العرب، ما أحيأ آمال أرسلان بالتحالف مع الكماليين، الذين لم يجربوا بعد، لطردهم الفرنسيين من سوريا.

لم ينجح المؤتمر في وضع حدّ للخلافات العميقة بين أعضائه البارزين سوى على السورق. فلم يكن من السهل التوفيق بين ميشال لطف الله المسيحي المتعلّم في الغرب، أو عبد الرحمن الشهبندر الطبيب العلماني، وبين شكيب أرسلان ورشيد رضا، الإسلاميين ذوي الثقافة العثمانية.

كان الشريف حسين يتابع من مكة النقاشات بين المنفيين السوريين في القاهرة، ويعرف تماماً من منهم يمكنه الاعتماد عليهم كموالين له، ومن يعتبرهم أخصاماً له. وعندما قدم شقيق ميشال لطف الله، جورج، إلى جدة في 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1921 لطلب المساعدة للمؤتمر، أقام حسين مأدبة على شرفه، ولكنه اعتذر عن عدم

المساعدة لأن اثنين من أعضاء المؤتمر، الشيخ رشيد رضا وشكيب أرسلان، يكتّان العداء له شخصياً وللحجاز⁽¹⁾.

فيما حاول الفلسطينيون والعراقيون واللبنانيون التأقلم مع القيود التي فرضتها عليهم الانتدابات في بلادهم، بدأت تظهر ولايات وطنية مميزة. لكن الخسائر توالى على السوريين. فقد أدى سلب لبنان وفلسطين عن سوريا الجغرافية، بتأمر أوروبي، وتقسيم ما تبقى منها إلى "دويلات" صغيرة، إلى جعل مشاعرهم الوطنية من دون هدف محدد. نتيجة لذلك، اتجهت القومية "السورية" إلى الخارج، وحلت محلها قومية عربية أوسع. وسادت الفكرة المفرطة في التفاؤل بأن تحقيق الوحدة مع البلدان العربية الأخرى قد يكون أسهل من إعادة توحيد سوريا الجغرافية على الفور، وربما الخطوة الضرورية الأولى لتحقيق ذلك الهدف⁽²⁾.

أنهى المؤتمر عمله بقرار إنشاء لجنة تنفيذية مقرها القاهرة (لقي ترحيباً باعتباره خطوة على الطريق لإحياء الآمال العربية) بالإضافة إلى مكتب تمثيلي في جنيف. وأصبح هذا المكتب يُعرف باسم البعثة الدائمة للمؤتمر السوري - الفلسطيني إلى عصبة الأمم، وكان يديره الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري، وهما الرجلان اللذان أصبحا من أوثق زملاء رياض الصلح في السنوات التالية.

سُمح لصحافي واحد، سويسري من أصل مصري، يدعى علي الغاياتي، بمتابعة جلسات المؤتمر من داخل قاعة المؤتمرات. وكان قد أُجبر على الهرب من مصر في سنة 1910 بعدما نشر مجموعة من القصائد الوطنية التي لم يرضَ عنها البريطانيون ولا الخديوي. استقرّ الغاياتي في جنيف وتزوج من ابنة مدّع عام سويسري، وقد ساعده ذلك في توطيد مكانته في المجتمع السويسري. فأصبح محرراً في صحيفة "لا تريبيون دي جنيف" *La Tribune de Geneve*، ومراسل "كورسبوندنس دورينت" *Correspondence d'Orient* في جنيف، وهي مجلة تصدرها مرة، كل شهرين، اللجنة السورية المركزية في باريس. وقد نشر في هاتين الصحيفتين، في السنوات اللاحقة، العديد من الرسائل والعرائض، والمذكرات والتلغرافات التي وجهتها اللجنة التنفيذية

Jiddah report by Major W.E. Marshall, British Agent and Consul, October- (1)
November 1921 (FO 371/6255)

Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age*, p. 317. (2)

للمؤتمر السوري الفلسطيني إلى عصبة الأمم - وحمل العديد منها توقيع شكيب أرسلان، وإحسان الجابري ورياض الصلح - فضلاً عن تقارير لجنة الانتدابات، والخطابات التي أُلقيت في الجمعية العمومية لعصبة الأمم.

لكن هذا السيل من الاعتراضات والعرائض لم يحقق أي نتيجة. لم تكن فرنسا وبريطانيا مستعدتين للتراجع. بل إن عصبة الأمم ذهبت إلى حدّ إقرار نصوص الانتدابات ذاتها في سنة 1922. وعلى الرغم من الجهود الهائلة التي بذلها المؤتمر، فإنه لم يجتذب إلا القليل من الاهتمام الدولي. بدت هذه الجهود على نحو متزايد أنها محاولة يائسة لتغيير نتيجة معركة خاسرة. ومع اقتراب نهاية المؤتمر، نشرت صحيفة "لو تن" *Le Temps* الفرنسية خبراً هامشياً قصيراً في 19 أيلول/سبتمبر تحت عنوان: "ما يسمى الوفد السوري". وفي الجمعية الوطنية الفرنسية، أعلن رئيس الوزراء، أريستيد بريان *Aristide Briand*، بصوت رنان أن التعاطف مع فرنسا في ازدياد في سوريا، وأن فرنسا أمة كريمة ومتسامحة تحمل الإصلاحات إلى الشعوب الموالية. وسخر من المندوبين في جنيف ووصفهم بأنهم مجموعة من المحرّضين والمتآمرين الذين يفتقرون إلى الجذور، ويتلقون المال من أعداء فرنسا.

عاد رياض الصلح إلى القاهرة بعد انتهاء المؤتمر. وقد تردّت أوضاعه المالية دون المستوى المنخفض المعتاد، واستبدّ به الحنين إلى الوطن. وعلى الرغم من أنه لم يبلغ الثلاثين من العمر بعد، فإنه ترك بصماته في جنيف، واستطاع أن يثير إعجاب رجال أكبر منه سناً وأكثر منه خبرة. لقد حان الوقت للعودة إلى الوطن والتفكير في الخطوة التالية.

في كانون الأول/ديسمبر 1923، استقبل أخبار إلغاء الحكمين الصادرين بحقه بارتياح كبير. وبعد بضعة أسابيع، في أوائل سنة 1924، عاد إلى بيروت لأول مرة منذ أربع سنوات تقريباً، مزوّداً بشهادة حسن سلوك من المفوض السامي الفرنسي، الجنرال ويغان. وعند وصوله، شعر بخيبة أمل عندما اكتشف أن والده أُجبر على تقديم ضمانات إلى السلطات الفرنسية بأن ولده سيبتعد عن السياسة. لكن ذلك القيد، بالنسبة إلى رجل مثل رياض الصلح، كان مستحيلاً تماماً فقرر عدم الالتزام به أياً تكن النتائج.

مغامرة رياض الصحافية

طالما حلم رياض بامتلاك صحيفة، إذ شعر أنها أداة ضرورية في الكفاح الذي انخرط فيه. كان يحب أن يداعب ابنته الكبرى علياء قائلاً إن الصحافة تشبه "زوجة الحكومة"، فعليها يتوقف السلام في المنزل. عندما ترضى الزوجة يسود السلام، وإذا غضبت تحولت الحياة إلى جحيم. وكان يقول إن "للصحافة ميزة تتفوق بها علينا نحن السياسيين. فبإمكانها مخاطبة جمهور واسع بسرعة وانتظام. كما أن قراءة الصحف يومياً يمكن أن تؤثر في عقلية المرء بطريقة لا يستطيع أن يحلم بها أي سياسي⁽¹⁾!

بعد عودة رياض إلى لبنان في سنة 1924، سارع إلى إنشاء صحيفة تعبّر عن تطّعات العرب. وقد شاركه في هذا المشروع خير الدين الأحذب، وهو من عائلة مسلمة سنية أصلها من مدينة طرابلس، إلا أنها استقرت في بيروت. وكان جدّ الأحذب قاضياً عثمانياً. درس خير الدين الرياضيات في جامعة السوربون، وعند عودته إلى بيروت، وجد عملاً في المفوضية الفرنسية العليا. كما عمل مدة من الزمن في أملاك عمه في وادي البقاع حيث تعرّف إلى أولغا مسلم وتزوجها، وهي فتاة مسيحية من عائلة بارزة في زحلة. كان شاباً يتوق إلى النجاح السياسي والاجتماعي في هذه المدينة الكبيرة، وربما اعتقد أن تحرير جريدة يساعده في تحقيق ذلك. وكان قومياً عربياً بكل معنى الكلمة، شديد الانتقاد للسياسيين الموارنة في جبل لبنان الذين تتباين نظرتهم الضيقة، وتحيزهم ضد العرب، مع التعايش بين المسلمين والمسيحيين في بيروت والمدن السورية الساحلية الأخرى.

لإطلاق الصحيفة، باعت نظيرة، والدّة رياض، عقاراً تمتلكه في بيروت، ما مكّن الشابين من استئجار غرفتين في الطابق السفلي من بناية تقع خلف مدرسة اللبسيه الفرنسية القديمة على طريق الشام. اختارا لصحيفتهما اسم العهد الجديد، وهو يرمز إلى العهد الجديد من الحرية يتطلّعان إليها.

عقد اتفاق بين الرجلين ينصّ على ما يلي:

يُصدر الفريقان جريدة سياسية من أربع صفحات، ثلاث منها باللغة العربية، وواحدة باللغة الفرنسية، باسم العهد الجديد. وتكون الملكية مشتركة بينهما، كما يتقاسمان النفقات والعائدات بالتساوي.

يُسمى خير الدين الأحذب مؤسس الصحيفة والمدير المسؤول عنها، لكن ذلك لا يعطيه أي ميزة على شريكه، رياض الصلح، الذي يمكنه، في أي لحظة، وضع اسمه أيضاً كمؤسس ومالك للصحيفة.

تتخذ كل القرارات المتعلقة بالصحيفة (إدارتها، ومحتواها، وطباعتها، وتوزيعها، وعقودها، والاتفاقات التي تعقدها من أي نوع مع الأطراف الثالثة) بالتوافق في ما بينهما.

يجب أن تُكشف كل النفقات والواردات إلى الفريق الآخر وأن يوافق عليها.

يحدّد الاتجاه السياسي للصحيفة في العدد الأول، ولا يحق لأي فريق تغييره أو تعديله من دون موافقة الفريق الآخر.

إذا أغلقت السلطات الصحيفة، أو علّقت صدورها، وإذا قرّر الفريقان إصدار صحيفة أخرى، أو الصحيفة نفسها باسم آخر، أو بشكل آخر، أو نقل مكاتبها من بيروت، فإن هذه الاتفاقية تطّبق على الصحيفة الجديدة، أينما صدرت وبأي اسم.

لا يحق لأي فريق أن ينفصل عن الآخر لتأسيس صحيفة أخرى، أو مشاركة مالك آخر، أو الاستفادة بأي طريقة من المشتركين في العهد الجديد، إلا بموافقة الفريق الآخر.

يسري هذا العقد لمدة سبع سنوات من تاريخ التوقيع. وعندما تنتهي مدته يحق للفريقين تجديده، أو تعديله، أو إلغاؤه.

إن بنود هذا العقد ملزمة للفريقين. وفي حال حدوث أي انتهاك لها، يدفع الفريق المخلّ غرامة قيمتها ألف ليرة ذهبية للتعويض على الفريق الآخر."

وكما أشر، اتفق الطرفان على أن يظهر اسم خير الدين الأحذب وحده في رأس الصحيفة، وأن يوقع بمفرده المقالات الافتتاحية. فإبراز اسم رياض لن يخدم مصالحهما في هذه المرحلة، لأن مكتب الصحافة في المفوضية العليا لن يسمح بإصدارها. فقد اصطدم رياض كثيراً بالفرنسيين، وكانوا يمحّتون. وفي غضون ذلك، واصلت نظيرة تسديد الفواتير المتزايدة. تكون فريق العمل من خير الدين الأحذب، رئيس التحرير؛

وررياض الصلح، خبير الشؤون العربية (والمراسل في الخارج عندما يكون في المنفى أو يجبر على الفرار إلى الخارج)؛ وأحمد دمشقية، السكرتير ومنضد الحروف؛ وأبو علي السردوك، البواب والحمال. وكان السردوك يحمل الصفحات المنضدة على ظهره كل ليلة إلى مطبعة "المعرض" التي يملكها ميشال زكّور، صديق رياض الذي كان يقدم لهما أسعاراً مخفضة، بل يقوم بذلك أحياناً من دون أي مقابل.

لم يكن بالإمكان تجتّب انقطاع صدور الصحيفة أو تعليقه. كان التاجر الذي يزود الصحيفة بالورق يمتنع عن التسليم بسبب التأخر في الدفع، أو يضرب أبو علي عن العمل بسبب أجره. وفي بعض الأحيان توقف المفوضية العليا الصدور بضعة أيام، أو بضعة أسابيع. وفي إحدى المناسبات، قرّرت المفوضية أن الصحيفة مفرطة في الثورية فأغلقتها كلياً، وختمت باب مكتبها بالشمع الأحمر. لكن الصحيفة كانت تعاود الصدور بطريقة أو بأخرى. على سبيل المثال صدر العدد 475 (الذي يملكه المؤلف) يوم الاثنين في 14 أيار/مايو 1928 في السنة الرابعة من نشرها.

كانت كلفة النسخة الواحدة من الصحيفة قرشاً سورياً واحداً، ويكلف الاشتراك السنوي في بيروت ليرة تركية ذهبية واحدة. أما الاشتراك في الخارج فيكلف جنيهين إسترلينيّين. لكن جمع الأموال من أجل الاستمرار في الصدور ظلّ مشكلة دائمة. وذكر الأمن العام الفرنسي في بيروت، في تقرير رفعه إلى باريس في 2 حزيران/يونيو 1927 أن رضا الصلح، والد رياض، وصل إلى بيروت، واتصل بعدد من أعضاء جمعية الشبان المسلمين، وتحديدًا الإخوة جبر وعبد الرحمن ومحمد علي بيهم لزيادة الاشتراك في العهد الجديد.

كانت الصحيفة رائدة لصحف أخرى كرّست لقضية الاستقلال عن فرنسا. ومنها صحيفة الشعب التي أسست في سنة 1927 برعاية جميل مردم، وكانت تابعة للكتلة الوطنية السورية. وتأسست صحيفة القبس الأكثر راديكالية بعد ذلك بسنة، وقد خلفت الجريدة الوطنية الشهيرة المقتبس، وكان يصدرها ويحررها عادل كرد علي ونجيب ومنير الرئيس.

سرعان ما أمّدت الثورة السورية الكبرى في 1925-1926 صحيفة العهد الجديد بموضوع رئيسي. فقد جاهرت بعدائها للفرنسيين، وزجّت بنفسها قلباً وقالباً في

النضال، ما أدى إلى إغلاقها مرات عديدة. ودفعت الثورة رياض الصلح إلى المسرح الدولي، إذ سرعان ما سافر إلى الخارج باذلاً أقصى ما يستطيع لتنبيه الرأي العام العالمي إلى ما يحدث في سوريا. فأطلقت الثورة مدافعاً عالمياً عن القضية العربية. وسرعان ما أدرك أن الهزيمة المأسوية التي لحقت بالوطنيين تتطلب إدخال تغيير جذري في التكتيكات المتبعة. بدلاً من الدخول في معركة غير متكافئة مع الجيش الفرنسي في جبل الدروز وفي القرى المجاورة لدمشق - وتلك محاولة انتحارية كما تبين - فإن الحكمة تقتضي السعي إلى كسب قلوب الفرنسيين وعقولهم في العاصمة الفرنسية نفسها. فلن تتغير سياسة الحكومة الفرنسية في سوريا إلا بإقناع الرأي العام الفرنسي بأخطائها. وعلى الوطنيين خوض معركتهم في فرنسا بدلاً من خوضها في سوريا.

رأى رياض أن على الوطنيين السعي لوضع الحكومة الفرنسية في قفص الاتهام أمام الرأي العام العالمي. ويمكن القيام بذلك على أفضل وجه بممارسة الضغوط على عصبة الأمم التي أنشئت حديثاً في جنيف، لا سيما لجنتها الدائمة للانتداب. وبناء على ذلك، وجّه رياض الصلح وزميله الأكبر منه سنأ، الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري، من مكتب أنشئ في جنيف في النصف الثاني من عشرينيات القرن العشرين، سيراً من العرائض والرسائل والمذكرات المتعلقة بموضوع الاستقلال السوري. لم يكتسب رياض الصلح سمعته في حمل راية القومية العربية في دمشق وحلب وبيروت فحسب، وإنما أيضاً في قاعات الانتظار في الجمعية الوطنية الفرنسية، وفي مكاتب الأنباء في الصحف الفرنسية، وفوق ذلك كله، في مكتب جنيف الذي يمارس الضغوط على عصبة الأمم. فما من قومي عربي من أبناء جيله كان أكثر منه مثابرة في السعي للدفاع عن القضية العربية في أوروبا. وفي غضون ثلاث سنوات فقط، شهدت مكانة رياض الصلح وسمعته تغيراً جذرياً. ففي سنة 1924 لم يكن اسمه معروفاً كثيراً خارج دوائر المنفيين العرب، لكنه أصبح شخصية شهيرة في العالم العربي بحلول سنة 1927. وهكذا لم يعد موضع اهتمام متزايد من السياسيين ووسائل الإعلام فحسب، وإنما من أجهزة الأمن في فرنسا والبلدان الأوروبية الأخرى أيضاً.

الفصل السابع

الثورة السورية الكبرى

بدأت ثورة 1925 - 1926 ضد الفرنسيين، التي يسميها السوريون "الثورة الكبرى"، في جبل الدروز في جنوب البلاد، وانتشرت في ما بعد إلى دمشق وحماة ومناطق أبعد في الشمال. وعلى الرغم من أن إخمادها أوقع خسائر كبيرة في الأرواح ودماراً واسعاً، فإنّها أصبحت معلماً بارزاً في الكفاح السوري لنيل الاستقلال. وتحوّلت إلى ملحمة وطنية لا تقل أهمية عن انتفاضة 1920 - 1921 في العراق على البريطانيين. وبوقوف هاتين الثورتين الشعبيتين في وجه المزاغم الإمبريالية الفرنسية والبريطانية، فإنهما أحدثتا تأثيراً كبيراً - لا يزال قائماً حتى اليوم - في الهوية الوطنية لكل من سوريا والعراق.

كان دروز سوريا، ولا يزالون، يشكلون مجتمعاً صغيراً ميّالاً إلى القتال، ينحدر إلى حدّ كبير من أصول عربية مع بعض العناصر الكردية والفارسية. وهم يعتنقون ديناً يفهمه الخاصّة من الناس يرتبط بشكل من أشكال التشيع. وبالإضافة إلى الاعتقاد بالجنّية وتناسخ الأرواح، فإن الدروز يعتبرون الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله التجسيد الإلهي الأخير في شكل بشري. أسس هذا المذهب الغامض قبل نحو ألف سنة رجل يدعى دَرَزِي، وهو من أصول تركية - فارسية. وتمتع أتباعه بنوع من العزلة والاستقلالية في جبال سوريا الجنوبية حتى الأزمنة الحديثة، وعاشوا في مجتمعات قروية صغيرة تحت سلطة "العقلاء" المحليين، حماة العقيدة، الذين يخضعون بدورهم لأمير أو أكثر⁽¹⁾. وتوجد الطائفة الدرزية اليوم في سوريا ولبنان وفلسطين.

وصل النفوذ الدرزي إلى ذروته في أوائل القرن السابع عشر، في ظلّ الأمير فخر الدين الثاني، (1585-1635)، وهو شخصية ذات مكانة أسطورية، تمكّن من بسط

(1) انظر Philip K. Hitti, *The Origins of the Druze People and Religion, with extracts from their sacred writings*, New York, 1928

نفوذه على معظم أنحاء سوريا. وعندما أرسل العثمانيون جيشاً لإخضاعه، هرب ولجأ إلى بلاط آل مديتشي في فلورنسا. وفي وقت لاحق، في أثناء الحرب الأهلية في سنة 1860 في جبل لبنان، قتل الدروز أكثر من عشرة آلاف مسيحي في زحلة، ودير القمر، وحاصبيا وغيرها من البلدات والقرى اللبنانية، ما أدى إلى تدخل أوروبي قوي.

عندما سيطر الفرنسيون على سوريا في سنة 1920، أصدروا ما أسمى "ميثاق استقلال الدروز" وأقاموا دويلة درزية تخضع في الظاهر لسلطة حاكم درزي يعاونه مجلس منتخب. لكن عندما رابطت حامية فرنسية في السويداء، عاصمة الدروز، أصبح المجتمع الدرزي بأكمله خاضعاً للرقابة الفرنسية. عيّن الفرنسيون سليم الأطرش حاكماً، وهو ينتمي إلى عشيرة ذات مكانة محلية بارزة. لكن عشيرة الأطرش لم تكن تجمع على رأي واحد، بل توجد خلافات كبيرة في ما بينها. برزت هذه الخلافات على وجه الخصوص بين سليم، الموالي للعثمانيين، وابن عمه الأكثر قوة وحضوراً سلطان. فبعدما شق الأتراك والد سلطان، انضم إلى الثورة العربية وأصبح مؤيداً ملتزماً للهاشميين، ومؤمناً كما تبين لاحقاً بسداجة بنوايا البريطانيين الشريفة.

نظم سلطان الأطرش ثورة محلية على الأتراك، في حوران وجبل الدروز، بالتعاون مع نسيب البكري. لذا، عندما احتل الفرنسيون سوريا لم يتعاون الأطرش معهم، ولم يبال "بميثاق استقلال الدروز" الزائف، الذي قدّم الكثير للفرنسيين أنفسهم. وعندما اندلعت الثورة السورية الكبرى في سنة 1925، أصبح شخصية رئيسية تخلق حولها مختلف قادة الثورة⁽¹⁾.

كان معظم السوريين يعارضون الانتداب لأنه أسس لوجود فرنسي غير شرعي في بلادهم. وقوبل الحكم الفرنسي على الطريقة الاستعمارية بكرهية شديدة، وكذلك سلخ أجزاء كبيرة من الأراضي السورية وضمّها إلى جبل لبنان لإنشاء لبنان الكبير. كما أن فصل فلسطين عن سوريا، والدعم البريطاني السخي للمشروع الصهيوني، أثارا مزيداً من الشكاوى السورية الرئيسية. لذا كان الهدف الأول للقوميين الوحدة

Michael Provence, *The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism*, (1) Austin, TX 2005, pp 12, 189

السورية بمفهومها الواسع - بما في ذلك إلغاء الحدود المصطنعة التي رسمها البريطانيون والفرنسيون. وكانوا يريدون إخراج الفرنسيين من جميع أنحاء سوريا. وقد اعتنق تلك الآراء رجال ونساء في جميع فئات المجتمع السوري، لا سيما غالبية السكان السنة.

عندما زار اللورد بلفور دمشق في 8 نيسان/أبريل 1925، على سبيل المثال، واجه عشرة آلاف متظاهر احتشدوا في الجامع الأموي وهم يهتفون بشعار "فليسقط وعد بلفور". وأصبح ذلك الشعار الحثاف الذي ردّده المتظاهرون منذ ذلك الحين. اضطر بلفور إلى الهرب، بمرافقة فرنسية، والتوجّه إلى بيروت. على الرغم من أن الفرنسيين كانوا بحرين على حمايته، فقد سرّهم هذا العرض الغاضب للشعور المعادي للبريطانيين. لكن المشاعر تجاه فرنسا لم تكن أقلّ عدائية. ولم يشذّ عن العداء الجماعي الإقليمي لفرنسا سوى الطائفة المارونية في لبنان التي اختارت التطلّع نحو باريس من أجل الحماية الدينية والثقافية.

خلافًا لسوريا التي تزايد فيها الاضطراب تحت السيطرة الفرنسية، تمتع لبنان بقدر من الهدوء والازدهار في أوائل عشرينيات القرن العشرين. ففي صيف 1924، على سبيل المثال، قدم نحو خمسة عشر ألف زائر مصري وفلسطيني وعراقي إلى لبنان للتمتع بهواء جبال لبنان العليل. قدّم العراقيون بأعداد لم يسبق لها مثيل بعد افتتاح الطريق الصحراوي الجديد. وأعيد بناء الأجزاء التي هدمها الوالي التركي عزمي بك في بيروت خلال الحرب، بتشجيع فرنسي - وباستخدام اليد العاملة الرخيصة التي وفّرها اللاجئين الأرمين البائسون⁽¹⁾.

لم يكن الموارنة الوحيدين المؤيدين للفرنسيين. فقد تمكّن المسؤولون الفرنسيون من كسب تأييد عدد صغير من الأشخاص في أنحاء متعدّدة من سوريا - ملاك الأراضي، وشيوخ بعض العشائر ووجهاء من جميع الفئات - الذين اعتمدوا على نفوذ الانتداب لدعم نظام اجتماعي واقتصادي يواصل منحهم مكانة اجتماعية مرموقة ومداخل مرفوعة. كانوا يخشون من تعرّض مركزهم الاجتماعي ومصالحهم المادية للخطر إذا انتصر القوميون "المتطرفون". فوافق بعض الوجهاء في دمشق وحلب وبيروت، وفي الدويلات البعيدة التي أنشأها الفرنسيون، على تولي مناصب في الحكومات التابعة التي شكّلت تحت الوصاية الفرنسية. لذا فإن أي اقتراح بمواجهة

(1) British Consulate, Beirut, to Foreign Office, July 1924 (FO371/21914).

الفرنسيين كان يملأ هؤلاء المتعاونين رعباً، فكيف بالثورة المسلحة عليهم. وفضل كثير من الدروز والعلميين والأقليات الأخرى التعاون مع الفرنسيين، بخلاف الأكثرية السنية التي سادها في ذلك الوقت مزاج وطني شامل.

لذا لم يكن من المتوقع أن تندلع الثورة في جبل الدروز. وشكّل ذلك للفرنسيين صفة لا تقلّ إبلاماً عن تلك التي عانوا منها، في الوقت نفسه تقريباً في المغرب، حيث أشعل هناك شيخ قبيلة يدعى عبد الكريم ثورة في الريف في أواسط عشرينيات القرن العشرين. وتمكّن من الصمود حتى أيار/مايو 1926 عندما أُجبر على الاستسلام بعدما حاصره المارشال فيليب بيتان، على رأس جيش قوامه ربع مليون فرنسي وإسباني ومغربي. اقتيد مكبلاً بالسلاسل إلى جزيرة "ريونيون" Réunion الفرنسية، حيث بقي هناك حتى فراره في سنة 1947.

شكّل الثوار السوريون تحدياً أكبر للفرنسيين. وكانت الشرارة التي أشعلت الثورة اعتقال أدهم خنجر في تموز/يوليو 1922، وهو شيعي لبناني، اتهمه الفرنسيون بالمشاركة في محاولة اغتيال الجنرال غورو قبل ذلك بعام. كان أدهم خنجر قد لجأ إلى منزل سلطان الأطرش، فاعتُقل هناك في غياب الأخير. عندما سمع سلطان الأطرش بما حدث، عاد على الفور واتجه إلى مقرّ القيادة العسكرية الفرنسية في السويداء، وطالب بتسليم السجين كما تقتضي أصول الضيافة الدرزية. عندما رفض الفرنسيون، هاجم سلطان ورجاله القافلة التي ظنوا أنها تنقل خنجر إلى دمشق. (تبيّن أنه نُقل بالطائرة إلى هناك). ردّ الفرنسيون بقصف منزل سلطان بالطائرات وإعدام خنجر على الفور. حاول سلطان عندئذٍ حثّ الدروز على الثورة ولكن دعوته لم تلقَ قبولاً واسعاً، ما دفعه للهرب عبر الحدود إلى شرق الأردن. ومن هناك، شنّ بين الحين والآخر غارات على الأراضي الخاضعة للسيطرة الفرنسية. فمارس الفرنسيون الضغط على البريطانيين لإبعاده. وعندما شعر بأنهم يوشكون القيام بذلك، رأى سلطان أن من الأفضل له تسليم نفسه. فصدر عفو عنه، وسُمح له بالعودة إلى دياره.

عندما توفي ابن عمه سليم الأطرش في أيلول/سبتمبر 1923، تجاهل الفرنسيون المطالب المحلية بانتخاب حاكم محلي خلفاً له، وعيّنوا ضابطاً فرنسياً، النقيب غابرييل كاربيله Gabriel Carbillet، مكانه بموافقة مجلس من المشايخ الدروز الثانوين. كان

كاربيله الذي خدم في المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا، حاكماً مستبداً متعجرفاً، وتحديشياً نافذ الصبر، يرى أنه يمثل فرنسا الثورية. فلم يكتفِ بشقّ الطرقات وقنوات الريّ وبناء المدارس في جبال المنطقة الوعرة، وإنما عمد أيضاً إلى مهاجمة البنية الإقطاعية القديمة للدروز، مانحاً الفلاحين حق تملك الأراضي التي تعتبر مشاعاً. فثارت نائرة شيوخ عشيرة الأطرش.

لم تكن عشيرة الأطرش وحدها التي شعرت بالإساءة. فقد شعر الدروز بمجملهم بالغضب من أساليب كاربيله - استخدام السخرة في الأشغال العامة، وطريقة تدخّل "المستشارين" الفرنسيين في جميع أوجه الحياة الدرزية، والوجود التخويفي للحامية الفرنسية في السويداء. بل إن الأشخاص الذين يتسمون ببعد النظر والوعي السياسي منهم رفضوا إنشاء دويلة درزية مستقلة، فصلت عمداً عن دمشق.

في ربيع 1925، أرسلت عشيرة الأطرش وفداً لمقابلة الجنرال موريس ساراي، المفوض السامي الفرنسي الجديد، للتقدّم بشكوى من سلوك النقيب كاربيله. طالب الوفد بتعيين حاكم محلي، كما حدّدت المعاهدة التي أبرمها مع فرنسا. لكن ساراي رفض صرف كاربيله، واكتفى بمنحه إجازة مؤقتة. وفي 11 تموز/يوليو، توجه ثلاثة زعماء من عشيرة الأطرش إلى دمشق بدعوة من ساراي لبحث شكاواهم. تبين أن تلك الدعوة لم تكن سوى شركٍ بشع وغير شريف. فقد طلب ألقاء القبض عليهم على الفور ونقلهم إلى السجن الفرنسي القاسي في تدمر، حيث غالباً ما كان يصاب السجناء بأمراض خطيرة أو حتى مميتة. علّق القنصل البريطاني في دمشق و.أ. سمارت على ذلك بجفاء قائلاً، "غالباً ما كان الحكام الأتراك يمارسون مثل هذه الأساليب من الخداع بنجاح، لكنها لم ترتبط على العموم في عقل السكان المحليين بالحكام الأوروبيين"⁽¹⁾.

أشعلت هذه الحادثة الغادرة الغضب في جبل الدروز. وقد كانت النيران كامنة تحت الرماد: الاستياء من الحدّ من تقويض السلطة الدرزية التقليدية، وطبيعة الحكم الفرنسي الخرقاء، واللجوء إلى السخرة، وانحياز العملة الورقية السورية التي رُبّطت بالفرنك الفرنسي المتقلّب، والتضخم الجامح الذي أتى على مداخيل الناس. كما أن حدوث جفاف حادّ في تلك السنة دمر المحاصيل في كل أنحاء جنوب سوريا. ففشلت المحاصيل تماماً في حوران، ما

(1) W.A. Smart, Damascus, to Foreign Office, 12 July 1925 (F0371/10850)

أدى إلى هجرة قرى بأكملها. وعانى سهل دمشق من نقص غير مسبوق في المياه. وأجبر البدو الرحل العطشى على انتهاك حرمة الأراضي الزراعية في شرق دمشق، حيث التهمت قطعان الجمال والخراف العطشى والجائعة ما تبقى من المحاصيل القليلة. وفوق ذلك كله أحدث قدوم موجة حادة متأخرة من الصقيع مزيداً من الضرر، لا سيما بأشجار المشمش التي طالما وفرت صادرات قيمة على شكل مشمش مجفف أو مربى المشمش. وأذكى اجتماع مصادر الاستياء والصعوبات نار الثورة.

يروي مايكل بروفنس Michael Provence، وهو مؤرخ للثورة السورية الكبرى، أنّ المهاجرين من جبل الدروز استقروا في سهل حوران في القرن التاسع عشر، وتمكّنوا من تحويله إلى مخزن حبوب سوريا بتمويل من تجار دمشق. وأسهمت زراعة الحبوب وتمويلها وتصديرها في إقامة علاقات تجارة وصدقة بين المزارعين الدروز والتجار السنّة - وكان الآخرون يقطنون أساساً في حي الميدان القديم في دمشق الواقع على الطريق المؤدية جنوباً إلى جبل الدروز. تركّز العمل الرئيسي لحي الميدان على توزيع الحبوب المنتجة في حوران وتصديرها. أفادت هذه العلاقات التجارية على سبيل المثال، عندما أمدّت منطقة حوران جيش الأمير فيصل العربي الذي يموّله البريطانيون بالخبز في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الأولى. وفي سنة 1925، سلك التحريض المعادي للفرنسيين هذه القنوات نفسها. ووفقاً لقول بروفنس: "شكّلت تجارة الحبوب محور الثورة"⁽¹⁾.

في تموز/يوليو 1925، حاصر رجال العشائر الدروز بقيادة سلطان الأطرش الحامية العسكرية الفرنسية في السويداء. فحاول رتل فرنسي مكون من 3000 جندي، بقيادة الجنرال روجيه ميشو كسر الحصار، لكنّه وقع في كمين وألحقت به هزيمة منكرة وتكبّد خسائر كبيرة في الأرواح. استولى الدروز على 2000 بندقية، وكانت تلك ضربة موفّقة جعلت رجال العشائر يتقاطرون للقتال تحت راية سلطان. وسرعان ما نما جيشه ليصل إلى نحو عشرة آلاف رجل، يضايقون الفرنسيين ويغيرون عليهم أينما وجدوهم. وفي غضون بضعة أسابيع امتدّت الثورة إلى الغوطة، منطقة بساتين الأشجار المثمرة الكثيفة في واحة دمشق.

(1) T. A. Spring Rice, Memorandum on Provenance, *The Great Syrian Revolt*, p13 (1) .the trouble in the Jabal Druze, 12 August 1925 (FO 371/10850)

غضب الفرنسيون من هذه المباغته فبالغوا في ردّ الفعل كما هي عادتهم. أُحرقت القرى التي اعتُقد أنها تؤوي الثوار، وفُرضت غرامات قاسية على سكانها، واقتيدوا للعمل بالسخرة، أو قتلوا رمياً بالرصاص. وفي أواخر آب/أغسطس 1925، انضم القوميون في دمشق إلى الثورة الدرزية، وتعهدوا على نقلها إلى العاصمة. وفي 23 آب/أغسطس وزّعت المناشير التي تدعو إلى الثورة المسلحة ليلاً في جميع أنحاء المدينة، ما يشير إلى الاعتقاد الجريء بإمكانية هزيمة فرنسا وإخراجها من البلاد.

إلى السلاح! إلى السلاح يا أحفاد العرب الأجداد... ولنطلب الموت توهب لنا الحياة...

أيها العرب السوريون، تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي. تذكروا أن يد الله مع الجماعة، وأن إرادة الشعب من إرادة الله... لقد استلنا سيوفنا ولن نغمدنا قبل تحقيق مطالبنا، ومطالبنا هي:

وحدة البلاد السورية، ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً.

قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.

سحب القوى المحتلة من البلاد السورية، وتأليف جيش وطني لصيانة الأمن.

تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء.

إلى السلاح، ولنكتب مطالبنا هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها أجدادنا من قبلنا.

إلى السلاح والله معنا.

ولتحيا سوريا العربية حرة مستقلة.

سلطان الأطرش

قائد عام جيوش الثورة الوطنية السورية⁽¹⁾.

كان ذلك التحدي الذي واجه المفوض السامي الفرنسي الجنرال موريس ساراي.

(1) Provenge, *The Great Syrian Revolt*, pp 81-83 The declaration was published in

الإعلان مترجماً في الجريدة الفرنسية الشيوعية "لومانيتيه" *L'Humanité* في 9 أيلول/سبتمبر 1925.

محنة موريس ساراي

لفهم الأزمة التي تكشّفت، لا بدّ من التحدّث باختصار عن الجنرال ساراي. فهو محارب قديم ذو آراء متتوّرة وطباع حادة، لكنّه ميّز نفسه في الأشهر الأولى من الحرب العالمية الأولى عندما قاد الجيش الفرنسي الثالث في حرب المارن. لكن ذلك لم يشفع له من إعفائه من قبل الجنرال جوفر Joffre في تموز/يوليو 1915 بسبب الخلاف العميق بينهما بشأن استراتيجية الحرب التي أحدثت انقساماً بين السياسيين الفرنسيين والقادة العسكريين في ذلك الوقت. كان دعاة "التركيز على الغرب" من أمثال جوفر - ومعظم هيئة الأركان الفرنسية - مقتنعين بأنه يمكن صدّ ألمانيا وهزيمتها بحرب استنزاف على الجبهة الغربية، وأنّ العمليات العسكرية في أمكنة أخرى مجرد عرض جانبي لا جدوى منه. بالمقابل، اعتقد "دعاة التركيز على الشرق"، وكان ساراي واحداً منهم، أنّ الحرب على الجبهة الغربية أصبحت بمثابة مأزق مكلف، وأنّه لا يمكن تحقيق اختراق إلاّ بشن عمليات عسكرية في أماكن أخرى. ورأى أن توجيه ضربة عسكرية إلى البلقان، أو إلى الولايات العربية ستُسقط حلفاء ألمانيا العثمانيين، وألمانيا نفسها في الوقت المناسب. قضت خطة ساراي بإنزال حملة عسكرية في سالونيك على شاطئ البحر المتوسط شمال شرقي اليونان. فذلك يساعد المجهود الحربي الصربي، ويشجع اليونان ورومانيا على الانضمام إلى الحلفاء، ويُلحق هزيمة عسكرية بلغاريا العثمانية، ويقطع بالتالي قنوات الاتصال بين قوى المحور والإمبراطورية العثمانية. بعد جدل كبير، اعتمدت استراتيجية ساراي العسكرية على مضض، وعيّن قائداً لقوة مشتركة فرنسية وبريطانية وصربية وإيطالية وروسية. ولكن نظراً لارتياح البريطانيين والإيطاليين من الطموحات الفرنسية، فقد بقي الدعم الذي قدّموه إلى الحملة فاتراً، ما دفع ساراي إلى الشكوى من قلة عدد القوات الموضوعة بتصرّفه وعدم كفاية المدفعية. وعندما فشل ساراي في تحقيق نصر حاسم على بلغاريا، أعفاه رئيس الوزراء جورج كليمنصو من القيادة في كانون الأول/ديسمبر 1917، لأنّه كان من أنصار الخطة "الغربية"⁽¹⁾. ومنذ ذلك الوقت أضمر ساراي نقمة حادة على الحكومة الفرنسية وقادتها العسكريين.

William Fortescue, *The Third Republic in France, 1870- 1940*, London and New York 2000, pp 125-6; General M Sarraill, *Mon Commandement en Orient*, 1916-1918, Paris 1920, pp 297-301

كان الجنرال ساراي ماسونياً وملحداً ويسارياً. ولهذه الأسباب قرّر رئيس الوزراء، إدوار هريو Edouard Herriot، وهو نفسه عضو في الحزب الراديكالي، إرساله إلى بيروت مفوضاً سامياً في كانون الأول/ديسمبر 1924 للحلول محل الجنرال ويغان، الذي كان كاثوليكياً يمينياً مناصراً للملكية، ومؤمناً متعصباً بفكرة فرنسا المشرقية الصليبية⁽¹⁾. اعتقد ويغان أن المسيحية "رسالة تمدينية"، وأن رعاية الموارد تعود بالنفع على فرنسا⁽²⁾. انتشر "الجنود المسيحيون" من أمثال ويغان في جميع أنحاء الشرق الأدنى، في وحدات المشاة والفرسان، وفي أوساط القناصل، والملحقين والمترجمين الفرنسيين الذين خدموا في المنطقة في ظلّ الحكم العثماني، وفي أوساط رجال الدين، ورجال الأعمال، بالإضافة إلى العائلات الفرنسية التي تعمل في التجارة ولديها جذور عميقة في المشرق تمتد عدة أجيال. غير أن الجنرال ساراي جاء من خلفية مختلفة تماماً. كان ثائراً على النظام الديني، يحتقر رجال الدين، ويعتبر المفوضية العليا في بيروت والمجتمع المحلي الفرنسي رجعيين خاضعين لليسوعيين وربائبهم المواردية.

منحت الثورة السورية الكبرى في سنة 1925 فرصة للمواجهة الحادة بين هذين المعسكرين الفرنسيين: الكهنوتي والمعادي للكهنوت. لكن لم تُحسم النتيجة محلياً، بل اعتمدت إلى حدّ كبير على التوجهات السياسية للحكومات في باريس. وفي باريس كانت هناك أمور كثيرة غير الدين في الميزان. ففي أثناء الحرب العالمية الأولى وما تلاها مباشرة، انقسم السياسيون الفرنسيون وكبار مسؤوليهم بين من يريد اعتماد "سياسة عربية" - أي من يسعون إلى مدّ اليد إلى العرب والمسلمين وتجاوز أتباع الفرنسيين التقليديين المسيحيين - ومن يدعون إلى اعتماد سياسة مختلفة تماماً وضيقة الأفق تمنح الأفضلية للمواردية، بالإضافة إلى النشاطات الثقافية والدينية التي تمارسها شبكة المدارس والرهبانيات المسيحية الواسعة التابعة لفرنسا.

كان رئيس الوزراء جورج كليمنصو، وهو مناهض للكهنوت والاستعمار، يؤيد بقوة الرأي الذي ينادي بأن تعتمد فرنسا سياسة عربية واسعة. وفي مؤتمر السلام في باريس كان أكثر اتصالاً بالأمر فيصل من اتصاله بممثلي المواردية. ولكن عندما فاز

(1) Pierre Fournié, "Le Mandat à l'épreuve des passions françaises: l'affaire Sarrail" (1925) in Nadine Méouchy (ed), *France, Syrie et Liban, 1918-1946*, pp. 125-168.

(2) المصدر نفسه، ص 133-134.

اليمين بالانتخابات التشريعية في سنة 1919، أثر كليمنصو الابتعاد عن السياسة تماماً، فاستقر في بيته المتواضع (الذي يخلو من التمديدات الصحية) على شاطئ البحر، بعيداً عن باريس. وهكذا خلت الساحة للمناهضين للعرب، ما أدى إلى الإطاحة بالملكة العربية بزعامة فيصل في تموز/يوليو 1920، وتقسيم سوريا إلى دويلات صغيرة بئسة، وإنشاء لبنان الكبير في 1 أيلول/سبتمبر 1920. سرّت الدوائر الكاثوليكية لأنّ هذه السياسة "اللبنانية" عوّضت إلى حدّ ما عن خسارة الأراضي المقدسة أمام البريطانيين، والتخلي الرسمي في سان ريمو عن "الحماية الدينية" الفرنسية لجميع المسيحيين في الشرق.

عندما انتصر التحالف اليساري في الانتخابات الفرنسية في أيار/مايو 1924، انتقل الاتجاه إلى المعسكر الآخر ثانية. فأصبحت السياسة الحكومية مناهضة الكهنوت. وعندئذ طلب رئيس الوزراء الجديد أدوار هريو، إعادة الجنرال ساراي إلى الخدمة - "الجنرال الجمهوري الوحيد"، كما كان يدعو مؤيدوه. عندما وصل ساراي إلى بيروت، في أوائل كانون الأول/ديسمبر 1925، استقبله القوميون العرب بحفاوة، متوقعين منه منح الحريات السياسية وتعزيز وحدة سوريا. وأقام أعضاء المحافل الماسونية السورية قوس نصر تكريماً له، بينما أقام له المحفل الماسوني في بيروت حفل استقبال كبير.

في الوقت نفسه، تعرّض ساراي لهجوم حادّ في الصحافة اليمنية باعتباره ملحداً وماسونياً. وذهب المعسكر الكهنوتي إلى حدّ إعلان "حرب مقدسة" عليه. بل قيل إن المبشرين اليسوعيين طلبوا الوقوف دقيقة صمت في المدارس اللبنانية التابعة لهم احتجاجاً على تعيينه. أثار هذا الصدام بين الثقافتين السياسية والدينية سؤالاً جوهرياً عن فرنسا التي ستقود دول المشرق إلى الاستقلال. هل يُعهد بالانتداب إلى أبناء الصليبيين، أو أبناء الثورة الفرنسية؟⁽¹⁾

شجعت التطورات السياسية في باريس ساراي على ممارسة قناعاته الليبرالية. وعلى الرغم من إسقاط رئيس الوزراء إدوار هريو، بعد أزمة مالية في نيسان/أبريل 1925، فقد خلفه بول باينلوف Paul Painlevé، أحد أشدّ الداعمين للجنرال ساراي.

تشجّع ساراي بمثل هذا الدعم فسارع إلى رفع حالة الطوارئ التي فرضت على سوريا في سنة 1922، وعفا عن آخر المعتقلين السياسيين، ومنح الحرية للصحافة والجمعيات، كما أعطى السوريين الحق في تشكيل الأحزاب السياسية تحضيراً للانتخابات الوطنية. بل إنه شجّعهم على إطلاق حركة سياسية شعبية تبرز مطالبهم بالوحدة السورية وتعبّر عنها.

في هذا المناخ الذي يتسم بمزيد من الليبرالية عن ذي قبل، وبعد أشهر من النشاط شبه السري، عقد حزب الشعب بقيادة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر اجتماعاً تأسيسياً في 5 حزيران/يونيو 1925 حضره أكثر من خمسة آلاف شخص. وكان قد أفرج عن الشهبندر نفسه حديثاً بعدما أمضى ثمانية عشر شهراً في السجن من حكم بالسجن لمدة 20 عاماً لمجرّد الجهر بمعارضة الانتداب. كان حزب الشعب، الذي موّله الأمير ميشال لطف الله، أول حزب وطني شرعي يتشكّل تحت الانتداب الفرنسي. فانضم إليه قادة وطنيون في دمشق، بالإضافة إلى مجموعة قوية من حلب، من بينهم شخصيات بارزة مثل إبراهيم هنانو وإحسان الجابري وعبد الرحمن الكيالي.

كانت أهداف الحزب المعلنة استقلال سوريا ووحدتها ضمن حدودها "الطبيعية" - ما يعني كل شرق الأردن، وفلسطين وسوريا، بالإضافة إلى الأراضي التي سُلمت عن سوريا وأُلحقت بجبل لبنان. وقد رفع القنصل البريطاني في دمشق تقريراً إلى لندن يفيد بأن "هذه الحركة باتجاه الوحدة، وأن تكون دمشق مركز سوريا الموحدة، باستثناء "لبنان الصغير"، قوية وحقيقية. وهي تركز إلى منطق اقتصادي وإداري. ويوجد خلفها تقليد جليل ذو جاذبية عاطفية للجماهير المسلمة"⁽¹⁾. وأضاف أن الوطنيين يريدون من الفرنسيين الالتفات إلى "صرخة الأقضية والنواحي والقرى التي سُلمت رغماً عنها عن سوريا الأم"⁽²⁾. ولاحظ القنصل أن اسم الحزب الجديد هو الاسم نفسه الذي حمله حزب مصطفى كمال في تركيا⁽³⁾.

(1) W.A. Smart, Damascus, to Foreign Office, 25 March 1925 (FO371/10850)

(2) W.A. Smart, Damascus, to Foreign Office, 9 April 1925 (FO371/10850)

(3) المصدر نفسه.

بعد النجاحات العسكرية التي حققها الثوار الدروز، وضعت جانباً كل الأفكار عن القيام بحملات للانتخابات السياسية والمستقبل السياسي السلمي. شعر الشهبندر بنشوة تلك الانتصارات، فعمد على الفور إلى تغيير استراتيجيته من التعبئة السياسية إلى الثورة المسلحة⁽¹⁾. فما إن سمع بمزيمة قافلة الجنرال ميشو، حتى دخل في تحالف سرّي مع سلطان الأطرش، وأرسل نسيب البكري لتبادل حلف اليمين معه، والتعهد بالانضمام إلى حمل الفرنسيين على الخروج من سوريا⁽²⁾. وكانت دعوة سلطان البليغة اللاحقة إلى حمل السلاح ثمرة واضحة لهذا التعاون.

عندما قدّم نسيب البكري تقريره عن اجتماعه مع سلطان الأطرش، أرسل الشهبندر رسالة إلى الدروز تدعوهم إلى الزحف على دمشق. فهاجمت قوة مشتركة من جبل الدروز وحوران والعشائر البدوية، قوامها نحو ألف مسلّح، المدينة في 24 آب/أغسطس 1925. لكن طائفة فرنسية رصدتهم فشنت عليهم غارات جوية، وهاجمهم الفرسان المغاربة في القوة الاستعمارية الفرنسية وأجبروهم على الفرار. تعلّم الثوار السوريون درساً أليماً أنه مهما بلغ تصميمهم وعزيمتهم فإنهم لا يستطيعون هزيمة الجيش الفرنسي في وضح النهار وفي أرض مكشوفة. وكان لا بد من اعتماد استراتيجية الإغارات التي تُشنّ ليلاً.

الفرنسيون يردون الضربة

في ليلة 27 آب/أغسطس، أغارت الشرطة الفرنسية على منزل عثمان الشرباتي في دمشق، حيث كان يُعقد اجتماع سرّي لحزب الشعب. وكان بين من اعتُقلوا الشرباتي وفارس الخوري، ونزيه مؤيد العظم. واعتُقل وطنيون بارزون آخرون، بمن فيهم الصحافي نجيب الريس والхамّي الشابّ اللامع فوزي الغزي، في منازلهم. وكان قد رُجّ بفخري البارودي في السجن قبل ذلك. واضطر جميل مردم إلى الفرار إلى حيفا، وشكري القوتلي إلى عمّان ثم إلى القاهرة. حُكم على بعض من اعتُقلوا بالسجن في قلعة أرواد الرطبة والفظيعة، وهي تقع في جزيرة نائية ومعزولة قبالة الشاطئ

(1) Khoury, "Factionalism", p 455.

(2) Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate*, p 163.

السوري. وتمكّن الدكتور الشهبندر والأخوان نسيب وفوزي البكري من الهرب إلى جبل الدروز، حيث أعلن الشهبندر في 9 أيلول/سبتمبر 1925 ثورة سورية عامة وتشكيل حكومة وطنية. وفي 18 تشرين الأول/أكتوبر، تسلّلت مجموعة من نحو ستين ثائراً بقيادة حسن الحارّاط إلى دمشق. ولحقت بها مجموعات أخرى، فاحتلت المدينة من دون مقاومة جدية. استولوا على مركز الشرطة في منطقة الشاغور، وأحرقوا جزءاً من قصر العظم. وعندما جاب هؤلاء الثوار الأشدءاء في أنحاء المدينة، تخلّى رجال الشرطة والدرك عن أسلحتهم وفروا من مراكزهم⁽¹⁾.

عند ذلك نفذ صير الجنرال ساراي. وشعر بالخيانة لا سيما من قبل الشهبندر وحزب الشعب الذي شجّع على قيامه. لقد ارتدّت عليه سياسته الليبرالية، فحطّمت آماله بالتوصّل إلى تسوية سياسية مع الوطنيين. وخلص بمرارة إلى أن القوة هي خياره الوحيد الآن.

وبدءاً من ليلة 18 تشرين الأول/أكتوبر، قصفت المدفعية الفرنسية دمشق وأمطرتها الطائرات الفرنسية بالقنابل طوال يومين كاملين، قبل التمكن من إعلان هدنة ظهر العشرين من الشهر نفسه. في غضون ذلك، دُمّرت أحياء بأكملها وقُتل ما يقرب من 1500 شخص. وأفاد تقرير إخباري أعدّه المراسل الخاص لجريدة "التائمز" اللندنية أن

"المنطقة الواقعة بين سوق الحميدية وشارع القادومية دُمّرت بأكملها... وُسف السقف المصّلع لشارع القادومية على امتداد مئة ياردة... ودُمّرت المحلات التجارية واحداً تلو الآخر بالمدافع الرشاشة للدبابات، أو بالقذائف أو الحرائق... وتعرّض سوق الخلوى، البازورية، لأضرار جسيمة، ولحق الدمار الكامل بدكان دلال الشهير... وأصيب قصر العظم بخسائر لا تعوّض... إن الكلام يعجز عن الوصف المناسب للمشهد المائل حالياً في تلك المدينة العريقة. تقدر مختلف المراجع الخسائر المادية بين مليون ومليون ليرة تركية ذهبية... لن ينسى أحد ممن عاشوا تلك الأيام الفظيعة (18 - 20 تشرين الأول/أكتوبر) تلك التجربة، وبخاصة ليلي القصف المتواصل اللتين تحولتا إلى رعب حقيقي، نتيجة الحرائق المروعة التي اندلعت في كلّ الأنحاء".

ناشد وفد من الوجهاء القيادة الفرنسية إنهاء الهجوم. قاد الوفد سعيد الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر، وضمّ أعضاء من عائلة العظم، بالإضافة إلى شخصية دينية بارزة وهو الشيخ محمد تاج الدين الحصري، من أحوال والد رياض الصلح. لم تكن هذه النخبة الدمشقية من الجيل القدام متحمّسة للسياسة الشعبية، أو الثورة المسلحة. ورجحاً تجار الحبوب، الذين تضرّروا كثيراً من الثورة، الثوّار مغادرة المدينة قبل أن يدمّرها الفرنسيون بأكملها. فقد تعذّر على التجار استرجاع السِّلَف التي قدّموها إلى المزارعين في حوران وجبل الدروز، وتقدر بنحو 300,000 ليرة ذهبية تركية. أدّى هذا القصف الوحشي لدمشق إلى وضع حدّ للمزيد من التعبئة على الثورة في دمشق، وأجبر الناشطون في حزب الشعب الذي يقوده الشهبندر على الفرار من المدينة.

أحدث هذا الهجوم صدمة في الخارج. وأدّى الاستهجان الدولي للسلوك الفرنسي إلى هزّة سياسية في باريس، حيث أصبح ساراي هدفاً لحملة صحفية شرسة. فذمه اليسار ووصفه أنه "طاغية مقيت" واتهمه "بتصفية سوريا". بالمقابل، توقع اليمين أن تؤدّي "سياسته الغادرة" إلى انتشار التمرد إلى شمال أفريقيا. وكشفت إخفاقاته أمام الرأي العام. وأزال سقوط حكومة باينلوف في 26 تشرين الأول/أكتوبر 1925 آخر عقبة أمام استدعائه. كان ساراي يأمل، من وجهة نظره، بتنفيذ سياسة جورج كليمنصو التي ترمي إلى عقد صفقة مشرّفة مع القوميين العرب. لكن الثورة الدرزية التي تعجّل حزب الشعب بقيادة الشهبندر في الانضمام إليها، سحبت البساط من تحت قدميه. هلّل خصومه الكهنوتيون في بيروت. بل إن بعض الإيجاعات تشير إلى أن بعض مسؤولي الاستخبارات في المفوضية العليا في بيروت تعمّدوا التخريب على ساراي⁽¹⁾.

تمكّن مراسل خاص لصحيفة "بتي باريسيان" Le Petit Parisien من إجراء مقابلة مع ساراي على متن سفينة "سفينكس" في ميناء الإسكندرية، فيما كان المفوض السامي الذي لحقت به المهانة يستعد للإبحار إلى فرنسا. تساءل "ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ هل أسلم المدينة إلى قطاع الطرق؟ أو أحاول محاربتهم في الشوارع؟ لو فعلت ذلك لأريقّت الدماء. هل كان عليّ أن أطل على الشرفة وأخاطب الحشود؟ أو هل كان عليّ ألا أفعل شيئاً وأسمح بذبح المسيحيين كما حدث في سنة

1860؟⁽¹⁾ وصل ساراي إلى باريس ليواجه أزمة عويصة. فقد اعتاد المتظاهرون اليمينيون المرور أمام منزله وهم يهتفون، "قاتل! يجب سوقه إلى المقصلة!". توفي بعد ذلك عدة قصيرة، في آذار/مارس عام 1928، ودفن من دون أن يبالي به أحد.

دخول رياض الصلح مسرح الأحداث

كان رياض الصلح في مصر عندما سمع بانتفاضة الدروز على الفرنسيين. فاستقل أول سفينة متوجهة إلى حيفا، وتمكّن من تفادي المراقبة الفرنسية ودخول الأراضي السورية والاتصال بقيادة الثورة. لم يُعرف الكثير عن تحركاته بالضبط في ذلك الوقت العصيب، سوى أنّه انضمّ إلى صحفية فرنسية جريئة، كلارا كاندياني Clara Candiani، كان قد التقى بها في فرنسا، وجاءت لتغطية الثورة. دخل الاثنان معاً المناطق التي كان يسيطر عليها الثوار. وذات مرة، أو هكذا تقول الرواية، اضطرّا إلى المبيت في الخيمة نفسها في حوران، لا يفصل بينهما سوى مصحف وسيف.

أصبحت كلارا من زوّار الشرق الأوسط الدائمين. وبعد بضعة سنوات، عندما لم تعد الثورة سوى ذكرى أليمة، وصفت في إحدى المقالات الصحفية كيف حضرت اجتماعاً للقادة الوطنيين في فندق قصر الشرق في دمشق. روى فخري البارودي نكات باللغة الفرنسية، بينما كان رياض الصلح يستمع بانسجام إلى الحديث الحيوي الدائر حوله، ويدخّن الترجيلة بين الحين والآخر. وقد حضر الاجتماع الزعيم الكبير سعد الله الجابري، بالإضافة إلى جميل مردم، وفارس الخوري، والشاب الواسع المعرفة فوزي الغزي. هؤلاء هم النخبة المعادية للفرنسيين، وكانوا في ذلك الوقت "الوطنيين الخطرين" الذين سمعت عنهم الكثير⁽²⁾.

عندما اندلعت الثورة السورية، ارتأى الداعمون المتحمسون لها في القاهرة ضرورة تعبئة الرأي العالمي من أجل الضغط على فرنسا، وإخطار عصبة الأمم بما يجري في سوريا. قرّر الشيخ رشيد رضا طلب المساعدة من الأمير شكيب أرسلان. بعد استسلام الإمبراطورية العثمانية أمام الحلفاء في تشرين الثاني/نوفمبر 1918، توجه

(1) Le Petit Parisien, 10 November 1925.

(2) المعرض، بيروت.

أرسلان إلى المنفى، ولبت هناك 28 سنة. فقد شعر بأن جذوره اقتلعت بعد هزيمة العثمانيين. فتنقل بين أوروبا الغربية والشرقية - من لوزان إلى موسكو، ومن روما إلى استانبول - وثبت على موقفه الإسلامي المعادي للإمبريالية. لم يكن يشعر بالاستعداد للالتزام بحركة سياسية عربية صرف. لكن رشيد رضا أقنعه على الأقل، بمغادرة مدينة مرسين في تركيا حيث استقر، والعودة بسرعة إلى سويسرا لإعادة تنشيط الوفد الدائم للمؤتمر السوري- الفلسطيني. وافق أرسلان، وفي غضون وقت قصير، عاد إلى العمل إلى جانب إحسان الجابري. استأجرا مكتباً لهذه الغاية في 21 غلاسي دو ريف Glacis de Rive 21 في جنيف.

بعد ذلك كتب أرسلان إلى رياض الصلح، وأرسل إليه بعض الصور المزعجة التي تُظهر رجالاً ونساء يفرون من قراهم التي التهمت النيران، وأطفالاً يبكون على حطام منازلهم، وجثثاً متناثرة من دون أن تدفن. وقال أرسلان: "مكانك هنا في جنيف في عصابة الأمم لا في الجبل. هناك كثير من الرجال الذين يستطيعون حمل السلاح ولكن لا أحد غيرك يستطيع إفحام الفرنسيين بلغة بليغة ومقنعة". وأوضح أرسلان لصديقه الشاب أن وطنيته لا تحتاج إلى مزيد من الإثبات. فقد نُفي وسُجن واقترب من الموت على جبل المشنقة. وذلك يكفي من دون شك! وأضاف، بقليل من المزاح، أن على رياض أن يتوخى عدم إثارة غيرة صديقهما المشترك إحسان الجابري، الذي يتوق إلى إثبات جدارته بالطريقة نفسها.

هكذا بدأت مسيرة رياض في ممارسة الضغط السياسي. عمل في جنيف إلى جانب أرسلان والجابري، بشكل متقطع، طوال معظم الأربع سنوات التالية. وانهمك في الكتابة، وإلقاء المحاضرات العامة، والقيام بالحملات السياسية، واكتساب سمعة عالمية، وإرسال المذكرات والعرائض الكثيرة إلى اللجنة الدائمة للانتداب. لم يقتصر نشاطه على ذلك البتة. فقد شغلته الكتابة أيضاً، مغفل الاسم في الغالب، إلى جريدته في بيروت. وقام برحلات عديدة إلى فلسطين ومصر وفرنسا وبلجيكا، وسعى إلى لقاء البابا بيوس الحادي عشر ونجح في ذلك. وفي الفاتيكان نقل نداءً خاصاً من الثوار السوريين إلى البابا، فوعد بأن يستخدم نفوذه لدى الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية لمصلحة السلام⁽¹⁾.

تتبعت الاستخبارات الفرنسية كل خطوات رياض. وفي إحدى زياراته إلى بيروت، اعتقلته السلطات العسكرية الفرنسية ووجهت إليه تهمة التحريض على الثورة السورية. واحتُجز بموجب الأمر رقم 274 الصادر في 27 حزيران/يونيو 1926 في قلعة جزيرة أرواد على مقربة من الشاطئ السوري. لكنه تمكن بعد وقت قصير من الفرار من الجزيرة، ربما برشوة أحد الحراس. وبعد ذلك انضم إلى الوفد في جنيف بالسفر عبر القدس والقاهرة، فذهبت الحماسة ثانية في رفيقيه بعد وصوله البطولي.

في تموز/يوليو، لبث في المكتب في جنيف بمفرده، بينما أمضى رفيقه شكيب أرسلان وإحسان الجابري أربعين يوماً في باريس وهما يحاولان التأثير في السياسة الفرنسية تجاه سوريا، أو التخفيف من حدتها على الأقل. لكن المسؤولين الفرنسيين لم يستجيبوا لهما البتة، حيث كان اليمين الفرنسي يتخذ موقفاً حاداً من الثوار السوريين. كتب أرسلان والجابري، عند عودتهما إلى جنيف، تقريراً مطولاً إلى اللجنة الدائمة للانتدابات الدائمة التابعة لعصبة الأمم عدداً فيه أسباب الثورة: الحكم الفرنسي المباشر، وتقسيم البلاد إلى دويلات صغيرة، وضم أجزاء من سوريا إلى لبنان ضد إرادة سكانها. ووصفاً كيف قُتل 14,000 شخص في خمسة عشر شهراً من القتال فقط، إلى جانب عدد كبير من الإصابات في صفوف النساء والأطفال، وتدمير "مدن تاريخية وقرى مزدهرة". وناشداً عصبة الأمم التدخل لإنقاذ سوريا من الدمار وطالبا بإرسال بعثة تحقيق إلى البلاد⁽¹⁾.

تمكن شكيب أرسلان وإحسان الجابري ورياض الصلح كفريق عمل من وضع أنفسهم في صدارة الناشطين في سبيل القضية العربية وفي عقول القادة الأوروبيين ومواطنيهم العرب. ولم يؤت على ذكر أحد آخر من البلدان الواقعة تحت الانتداب الأوروبي أكثر من هؤلاء الثلاثة في محاضر اللجنة الدائمة للانتدابات في عشرينيات القرن العشرين. وتمكنوا من كثرة العرائض التي قدموها، والمثابرة والإلحاح في طلب المواعيد مع المسؤولين، من إجبار اللجنة على إيلاء الاهتمام بوفد المؤتمر السوري

Petition of 11 September 1926 to Permanent Mandates Commission. Archives (1)
 .SDN. Geneva, Commission permanente des Mandats, 444-499, tome M 1926, v. 423
 Petitions of 10 and 19 November 1926, Archives SDN. Geneva, C.P.M. انظر أيضا
 .500-548, Tome 12, 1926-27, v.424

الفلسطيني. وعلى الرغم من ذلك منحوا الأولوية لما يجري في سوريا فقط في أثناء سنوات الثورة الكبرى، فإنهم سرعان ما وسعوا دائرة اهتمامهم لتشمل "سوريا الجنوبية" - أي فلسطين. وأصبح إرسال الجابري والصلح أول من عرض من العرب القضية الفلسطينية على العالم بأسره⁽¹⁾. ولكن كل جهودهم الجريئة لم تؤثر في السياسة الفرنسية.

انهيار الثورة

عين هنري دي جوفنيل Henry de Jouvenel مكان الجنرال ساراي مفوضاً سامياً في بيروت، وهو سياسي وصحفي ذو آراء ليبرالية، عمل محرراً في صحيفة "لوماتان" Le Matin، وتزوج من الكاتبة كوليت في سنة 1912. خلال الحرب العالمية الأولى، حوّلت كوليت منزل زوجها في سان مالو St. Malo إلى مستشفى لمعالجة جرحى الحرب. ولكن في عشرينيات القرن العشرين، تباعد الزوجان أحدهما عن الآخر. فازداد اهتمامها بعالم الكتابة والمسرح والرسم، وذاع صيتها من خلال الكتب التي نشرتها مثل "الشاردة" La Vagabonde و"أعشاب الكروم" Le Blé en herbe. وانتهى زواجهما في 1924 بعد أن أقامت علاقة مع ابنه.

كان هنري دي جوفنيل أول مدني يُعين مفوضاً سامياً في ظل الانتداب. وصل إلى بيروت في أوائل كانون الأول/ديسمبر 1925، ولكنه بقي في منصبه ثمانية أشهر فقط. اتبع سياسة إخماد الثورة بالعفو عن الثوار العاديين، وإجراء مفاوضات مع الوطنيين "المعتدلين" الذين لم يشاركوا في أعمال العنف مباشرة. لكن كانت الهوة واسعة جداً بين ما طالب به هؤلاء الوطنيين، وما كانت فرنسا مستعدة لتقديمه، فلم يحقق جوفنيل نجاحاً أكبر مما حققه أسلافه.

قبل أن يتسلم جوفنيل مركزه الجديد، دعا الأمير شبيب أرسلان إلى باريس للتباحث معه. لبي أرسلان الدعوة لكنه ارتكب خطيئتين فادحتين: أولاً، افتراضه أنه مخوّل التفاوض نيابة عن المجتمع السوري- اللبناني بأكمله، فتجاوز بذلك الدكتور الشهبندر في جبل الدروز والأمير ميشال لطف الله في القاهرة. فاعتبر هذان

الرجلان الشديدا الارتياب أرسلان الآن عدوًّا يجب إسقاطه. ثانياً، تقديمه تنازلات لا يملك صلاحية تقديمها. فقد وافق، على سبيل المثال، على أن لفرنسا الحق في إنشاء لبنان الكبير بضم مناطق تتبع سوريا تقليدياً إلى جبل لبنان - وذلك ابتعاد خطير عن المبادئ الوطنية، ما وجّه إليه تهمة السعي لحماية قاعدة نفوذه في لبنان قبل كل شيء.

بل إن أرسلان ذهب إلى أبعد من ذلك. فقد وافق على مبدأ التحالف بين سوريا وفرنسا لمدة ثلاثين عاماً، وعلى حصر المستشارين العسكريين الأجانب بالفرنسيين دون سواهم، وعلى أن تكون الفرنسية اللغة الأجنبية التي تدرس في المدارس السورية. لقد كان يعتقد فعلاً أن تلك التنازلات ضرورية للحصول على استقلال سوريا ولبنان عن الفرنسيين الجشعين، وربما كان محقاً. لذا أصيب بالدهشة والحرج عندما قطع جوفنيل المحادثات معه فجأة، دون عذر أو تفسير، بتأثير من منافسيه الوطنيين على الأرجح⁽¹⁾.

عندما وصل هنري دي جوفنيل إلى بيروت لاستلام منصبه، تعهّد بأن ينحوّ الثّوار الذين يستسلمون قبل 6 كانون الثاني/يناير 1926 من الإعدام، وإن ليس من السجن. ووسط مديح حظي به من الصحافة المسيحية، أعلن أنه سيحارب الذين يريدون الحرب، لكنه يمدّ يده للسلام لمن يريدون السلام. عند حضوره قدّاس الأحد - وهو أمر نادراً ما فعله سلفه ساراي، وإذا ما حصل ذلك فبامتعاض شديد - أبلغ عند درج المذبح بأن الرهبانيات المسيحية، والمؤسسات التعليمية الدينية تتطلع إلى فرنسا كحامية لها.

وجّه جوفنيل دعوة إلى من اعتقد أنهم معتدلون، من أمثال لطفي الحفار وفارس الخوري، لمناقشة بنود السلام. ولكنه سرعان ما اكتشف أن هؤلاء أيضاً يرفضون التسوية في البنود الأساسية في الأجندة الوطنية. فقد طالبوا بعفو عام عن الثوار، وتوحيد سوريا بما في ذلك المنطقة العلوية بالإضافة إلى الأراضي التي ضُمَّت بصورة مصطنعة إلى لبنان، ومجلس تشريعي لصياغة دستور جديد، وسلطة حقيقية للحكومة الوطنية، وجدول مواعيد لإنهاء الانتداب الفرنسي، مثل الذي وضعه البريطانيون في

(1) المصدر نفسه. ص 54-58.

العراق. وذلك يعني عملياً المطالبة بخروج الفرنسيين وتفكيك لبنان الكبير. وتلك مطالب ترفضها الحكومة الفرنسية في باريس وقيادتها العليا رفضاً تاماً بطبيعة الحال⁽¹⁾. استمر ضغط الثوار طوال شتاء سنة 1925 وامتدّ إلى ربيع السنة التالية. وتمكّنت مجموعات المقاتلين، التي قدّر الفرنسيون عددهم بنحو 5000 رجل، من السيطرة على قسم كبير من الغوطة وهي المنطقة الزراعية الخضراء المحيطة بدمشق. وامتدّت الانتفاضة إلى المناطق الدرزية من لبنان، حيث تمكّن الفرنسيون، بعد دفاع شرس عن راشيا، من منع الثوار من السيطرة على أجزاء كبيرة من الجنوب، بل حتى تهديد بيروت.

اضطر الفرنسيون إلى طلب تعزيزات، وشنّ هجوم مضادّ بغية سحق الانتفاضة باستخدام القوة المفرطة. فتعرّضت القرى التي سيطر عليها الثوار لقصف وحشي يومي وبهذه الطريقة فقط استعاد الفرنسيون السيطرة عليها. قُتل القرويون الذكور ونُسفت منازلهم. وأحرقت القرى التي رفضت دفع الغرامات، أو لم تستطع ذلك، ما دفع أهاليها المصدومين والمُعذّبين إلى التدفّق على دمشق، فأثار ذلك غضب سكانها وقلقهم. وعمد الجنود الفرنسيون بوقاحة إلى بيع الغنائم التي نهبوها من البيوت في الأسواق. وأعدم السجّاء الذكور رمياً بالرصاص في ساحة المرجة علناً. وفي إحدى المرات، تُركت ست عشرة جثة معروضة طوال النهار، ما أحدث صدمة لدى السكان، وشكّل انتهاكاً فاضحاً للعادات الإسلامية التي تقضي بالإسراع في دفن الموتى. وفي أيار/مايو 1926، قصف الفرنسيون دمشق للمرة الثانية وذلك لتصفية الثوار تماماً.

في منتصف أيلول/سبتمبر، وصل الجنرال موريس غاملان Maurice Gamelin على رأس مزيد من التعزيزات، بما في ذلك الفيلق الأجنبي الذي يتسم بالوحشية، فرحف على السويداء في 24 أيلول/سبتمبر، ورفع الحصار عن الحامية الفرنسية التي احتمت في القلعة. وبعد شهرين من القصف، عمد الفرنسيون بصورة منهجية إلى إحراق أي مبنى لا يزال قائماً. ونُشر عشرة آلاف جندي في مناطق الثوار بين جبل الدروز ودمشق، وعدد مماثل داخل المدن الرئيسية وحولها.

احتاجت فرنسا إلى أكثر من سنة لاستعادة السيطرة التامة على ريف دمشق. ولتحقيق ذلك، لجأت إلى العقاب الجماعي والإعدام بالجملة، ونسف المنازل، واستخدام الدبابات والمركبات المدرعة في المناطق المبنية، ونقل السكان من منطقة إلى أخرى، والقصف المتواصل للأماكن السكنية. ووفقاً لتعبير مايكل بروفنس، "تعرض السكان المدنيون لقصف جوي يومي منظم".⁽¹⁾ تلك كانت الوسائل المروعة التي استخدمت "لإحلال السلام" في أرض عهدت عصبة الأمم برعايتها إلى فرنسا، بغية إعادتها للاستقلال الوطني.

في ذلك الوقت، انتقل الاهتمام إلى جبهة جديدة في حماة. فقد تمرد فوزي القاوقجي، وهو نقيب في القوات المحلية التابعة لفرنسا، مع مجموعة الفرسان التي يقودها بأكملها. وبعد أن حشد قوة من المقاتلين البدو، احتل المدينة، وهاجم المباني الفرنسية فيها. كانت خطته الاستراتيجية ترمي إلى فصل القوات الفرنسية بعضها عن بعض وإفكاكها، لإجبار فرنسا على التخلي عن الانتداب. لكن الفرنسيين ردوا دون رحمة في حماة أيضاً. فقصفوا المنطقة التجارية القديمة فيها، وأمروا القوات السنغالية الاستعمارية بإضرام النيران في بيوت الناشطين الوطنيين المحليين، ما أحدث دماراً واسعاً، وخسائر كبيرة في الأرواح. وكما حصل في دمشق بالضبط، عقد بعض وجهاء حماة في ذلك الوقت اتفاقاً مع الفرنسيين وحصلوا على تعهد بأن يتوقف القصف الفرنسي للمدينة ما إن يغادرها القاوقجي وقواته البدوية.

بعد مدة من الوقت، تمكن الفرنسيون من دفع المقاتلين الدروز إلى منطقة حوران، وبحلول سنة 1927 أجبروهم على عبور الحدود إلى شمال شرق الأردن. وهناك استقرّ العديد منهم، بمن فيهم سلطان الأطرش وعائلته، في مخيم بانس للاجئين في منطقة الأزرق. وكانت بعض العائلات قد انتقلت إلى هناك في أثناء القتال. لكن الدروز أجبروا على الانتقال ثانية. ففي صيف 1927، طردهم البريطانيون من الأزرق إلى وادي سرحان، وهو وادٍ قاحل ذو طقس غير معتدل يبعد نحو 150 كلم جنوب شرق عمان، ويخضع لسلطة عبد العزيز ابن سعود. ولم يسمح لهم بالدخول إلا بعد أن توسّط لهم أعضاء المؤتمر السوري الفلسطيني المنفيون. بقي هؤلاء الوطنيون الشجعان الأباة عقداً من الزمن، حتى

(1) المصدر نفسه، ص 26، 28.

عام 1937، يعيشون في خيم غير ملائمة ويعيشون على الهبات التي يجمعها لهم المؤتمر من المتعاطفين معهم في سوريا ولبنان، ومن المهاجرين العرب في أميركا. صدر عفو عن سلطان الأطرش في نيسان/أبريل 1937. فعاد إلى سوريا وانضم إلى الكتلة الوطنية من دون حماسة، على أمل أن تنتعش حظوظه، مثلما حدث مع شريكه السابق الدكتور الشهبندر⁽¹⁾. في غضون ذلك، في أثناء غيابه في المنفى، برز ابن عمه حسن الأطرش ليصبح زعيم جبل الدروز من دون منازع.

انشقاق الصف الوطني

أصدرت محكمة عسكرية فرنسية حكماً غيائياً بالإعدام على الأمير شبيب أرسلان نظير دوره في الثورة. وكان قد أصبح في المنفى في سويسرا معلقاً مرجعياً على الشؤون العربية والإسلامية. وأصبح مكتب وفد المؤتمر السوري الفلسطيني الذي يديره، مع إحسان الجابري ورياض الصلح، محط آمال العرب في سنوات ما بين الحربين⁽²⁾. كان أرسلان طوال حياته من دعاة الوحدة الإسلامية. لكنه لم يستطع أن يبنّي قاعدة سياسية بسبب عدم قدرته على العودة إلى لبنان أو سوريا حتى صدور عفو عنه في سنة 1937، لذا لم يُمنح أي دور سياسي. كما هُتمش الدكتور الشهبندر، رئيس حزب الشعب، عدة سنوات. وعندما انتقل إلى القاهرة، تحالف مع فئة ميشال لطف الله داخل اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، واتخذ موقفاً موالياً للهاشميين وداعياً إلى مبدأ القومية العلمانية.

لقبي نسيب البكري، أوثق حلفاء سلطان الأطرش في دمشق إبان الثورة، نصيباً أفضل. فقد كان مجلس الثوار الذي أنشأه، من ضباط عثمانيين سابقين وأشخاص يعملون في تجارة الحبوب في حوران، من أكثر مراكز قيادة الثورة فعالية⁽³⁾. وعلى غرار كثير غيره، نُفي من البلاد، لكن بعد مرور أقل من عام، في آذار/مارس 1928

(1) المصدر نفسه.

(2) Cleveland, *Islam against the West*, p 60.

(3) Provence, *Islam against the West*, p 145. إلى جانب نسيب البكري نفسه، كان المجلس يتكوّن من محمد عز الدين الحلبي، وعلي الأطرش، وزيد العمر (درزي من الجنوب)، ونزيه مؤيد العظم، وسعيد العاص، وزكي الحلبي، وزكي الدروبي، وأمين سر المجلس فائق العسلي (معظمهم من دمشق وحماة) (المصدر نفسه، ص 133).

كثير غيره، نُفي من البلاد، لكن بعد مرور أقلّ من عام، في آذار/مارس 1928 صدر عفو عنه وأعيدت إليه أملاك عائلته. وكان الوحيد الذي سُمح له بالعودة إلى سوريا خلال ذلك العقد من بين قادة الثورة البارزين. ولم يتضح سبب ذلك. ربما اعتقد الفرنسيون، أنه ذو علاقات واسعة تمكنهم من التعامل معه.

هرب مئات من الثوار السابقين إلى حيفا ويافا والقدس والقاهرة. اختار فوزي القاوقجي، الذي أمضى عقداً من الزمن هارباً من حكم الإعدام، بغداد منفى له، حيث ساعد في تدريب جيش الملك فيصل الناشئ. وكان الصحفيون من أكثر الثوار نشاطاً، ومن أبرز هؤلاء نجيب الرّيس. فقد قاتل في الثورة السورية حتى سنة 1927، ثم قاتل في فلسطين في سنة 1936 وفي العراق عام 1941، وكان في كل مرة إلى جانب فوزي القاوقجي. وعاد معظم الجنود المشاة العاديين في صفوف الثورة إلى بلادهم ليحاولوا إعادة بناء مزارعهم وقراهم المدمّرة.

شكّل سحق الثورة السورية الكبرى بشراسة، وسقوط عدد كبير من الإصابات في صفوف المدنيين والدمار الواسع الذي لحق بالمتلكات في دمشق وحماة وفي القرى البعيدة وفي جبل الدروز، صفقة كبرى لرياض الصلح، والمعسكر الوطني بأكمله. فقد انتهت الثورة المسلحة إلى فشل ذريع، وأضيفت كارثة أخرى إلى قائمة طويلة. وشملت تلك القائمة قيام جمال باشا بشنق قادة الحركة القومية العربية الأوائل، واتفق سايكس- بيكو الذي قسّم الولايات العربية، ووعد بلفور الذي منح فلسطين للصهاينة، وخيانة البريطانيين للثورة العربية، وقضاء الفرنسيين على مملكة فيصل العربية، وفرض الانتداب الفرنسي والبريطاني البغيضين.

الحقيقة المرّة هي أنّ ذلك الجيل من القوميين العرب، الذي شبّ عن الطوق في الحرب العالمية الأولى مع انخيار الإمبراطورية العثمانية، لم يكن أفضل حالاً من جيل أسلافه. كتب فيليب خوري في تاريخه الانتداب الفرنسي في سوريا:

شكّلت الثورة الكبرى (1925-1927) نقطة تحوّل كبرى في تاريخ سوريا الحديث والنضال الوطني للاستقلال عن الفرنسيين. وكانت تشبه في أسلوبها وحدتها ومدتها ونطاقها والطرق التي استخدمتها، حركات المقاومة الأخرى التي بدأت تترك أثرها في بلاد المشرق العربي بعد الحرب العالمية

الأولى، لا سيما ثورة 1919 المصرية، ولاحقاً الثورة في فلسطين في الفترة 1936 - 1939.

تمتعت الثورة الكبرى بالشعبية بقدر ما كان المشاركون الناشطون فيها من كل طبقات المجتمع في سوريا: من الريف والمدن، ومن المسلمين والمسيحيين، ومن الأغنياء والفقراء. وقد صاغت قيادتها وُلجأت إلى الاصطلاحات الوطنية الجديدة في ذلك الوقت. وسمحت الثورة نفسها بانتشار هذه العاطفة الوطنية الجديدة بسرعة واتساع وعمق أكبر من ذي قبل، ما مكّنها من أن تصبح المبدأ الناظم المسيطر على الحياة السياسية في عهد الانتداب⁽¹⁾.

مع ذلك، وعلى الرغم من هذا التغيير الواسع في العاطفة السياسية والشعور الوطني، فقد تبين أن نتائج الثورة المباشرة كارثية. لقد أدت هزيمة الثورة أمام الفرنسيين إلى ظهور انقسامات عميقة في الصف الوطني، ولم يكن الشجار العلني بين الشهبندر وأرسلان سوى الأكثر إثارة فيها. كان الشهبندر يكره أرسلان - وهو شعور متبادل بينهما. فهو علماني حرّ الفكر، ورجل أفعال مندفع، قاد حزب الشعب إلى الانضمام إلى الثوار الدروز من دون تفكير ملي في العواقب السياسية لذلك. أما أرسلان، فكان مثقفاً حذراً وثائراً متردداً، بعيداً عن اعتناق فكرة القومية العربية، ومدافعاً قبل الحرب وبعدها عن تحالف العرب مع العثمانيين، حتى لو كان ذلك باسم الوحدة الإسلامية فحسب. ذهب الشهبندر إلى حدّ اتهام أرسلان، والتشهير به بصورة جائرة، بأنه نصّح جمال باشا بإعدام القوميين العرب خلال الحرب، ووصفه بأنه خائن وعميل للأتراك. واتهم أرسلان بدوره الشهبندر، ظلماً، بأنه عميل بريطاني خائن وداعية للهاشميين. واستمرت الأمور على هذه الحال.

وُجّهت إلى الأمير ميشال لطف الله مهمة الاستعداد لاستغلال تضحيات الشهداء السوريين لغاياته الخاصة المخادعة. وأُشيع أنه كان مستعداً للتعاون مع الفرنسيين لتحقيق طموحه الشخصي بإمارة في سوريا أو لبنان. كان متهوراً إلى حدّ أنّه قال

لمراسل صحيفة المعرض البيروتية أنه مستعد لقبول حدود لبنان الكبير الموسعة - وتلك خيانة واضحة للمبادئ الوطنية في ذلك الوقت. ومن المفارقات، كما تبين في خريف 1927، أن لطف الله خطط لطرد شكيب أرسلان من الوفد في جنيف، على أساس أنه تجاوز صلاحياته في المحادثات التي أجراها في باريس مع هنري دي جوفنيل، في تشرين الثاني/نوفمبر 1925.

لا شك في أن هناك سبباً أعمق وراء هذه الانقسامات. فقد أصبح بعض من حاربوا في الثورة السورية الكبرى مستعدين الآن لإجراء تسوية مع فرنسا. ومن أبرز هؤلاء الأخوان نسيب وفوزي البكري. لقد أظهرّا جدارتيهما في القتال بالمشاركة في هجوم الثوار على دمشق في تشرين الأول/أكتوبر 1925. ولكنهما كانا مستعدين للوصول إلى اتفاق مع فرنسا، رغم أنهما لم يبديا أي تعاطف معها.

بالمقابل، لم يكن بعض المتشددين في القاهرة، مثل الشيخ رشيد رضا، صاحب ومحرر مجلة المنار، مستعدين حتى للتفكير في مثل تلك التسوية. ويقال إن رشيد رضا انزعج جداً من التقارير التي تحدّثت عن تقرب ميشال لطف الله من فرنسا. يجب ألا يغيب عن البال أن هؤلاء كانوا ممن يسعون إلى تطبيق النظريات بعيداً عن خط المواجهة. كما أنهم لم يعانون من أضرار الحرب الفعلية، أو مخاطرتها أو أهوالها.

في 19 تشرين الأول/أكتوبر 1927، صوّت رشيد رضا ورفاقه⁽¹⁾ على عزل لطف الله من رئاسة اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني. فردّ لطف الله بالدعوة إلى اجتماع عاجل انتخب فيه الدكتور الشهبندر عضواً في المؤتمر. وهكذا نشأت فجأة فئتان متنافستان تدّعي كلّ منهما تمثيل اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني⁽²⁾. وأدى الخلاف المرير والمدّمّر بين الشخصيات الوطنية الرئيسية، لطف الله، وأرسلان، ورشيد رضا والشهبندر، إلى انقسام السوريين في المنفى. كما أنه شلّ فعالية المؤتمر.

(1) أسعد داغر، وخير الدين الزركلي، وجمال الحسيني.

(2) Neville Henderson, Acting High Commissioner in Palestine, to Sir Austen Chamberlain, 29 Oct 1927 (FO 371/12304)

رياض يغتتم الفرصة

لم يكن رياض مستعداً للتعاون مع الفرنسيين، لكنّه لم يكن في نفس الوقت من الرافضين المتشدّدين. كان معارضاً تماماً للسياسة الفرنسية الخارجية في المشرق، وملتزماً بالعمل على تغييرها، لكن ليس في وسعه أن يناصب فرنسا نفسها العداء المطلق. فهو في النهاية مطلع على الثقافة الفرنسية، وعاش في فرنسا، ويتكلم الفرنسية بطلاقة ويكتبها بأسلوب مميّز. وهو على الصعيد الشخصي لّين العريكة ومتساهل، وليس لديه كره للأجانب بالتأكيد. ولعل هذا الموقف جعل قضيته مقنعة لدى الفرنسيين، وساعد في منحه نوعاً من الحصانة السياسية. صحيح أن الفرنسيين منعه من دخول لبنان بين حين وآخر، وسارعوا إلى اعتقاله في بعض المناسبات، لكن ذلك لم يمنعه من السفر إلى فرنسا كلما أطلق سراحه. كان الفرنسيون بحاجة إلى قادة عرب يمكنهم التباحث معهم في مختلف المسائل، واضطروا في نهاية المطاف إلى اعتباره مقياساً للآراء الوطنية.

أصبح رياض خبيراً بشؤون السياسة الفرنسية، نتيجة زيارته المتعددة إلى باريس. وأدرك أهمية التأثير في عملية اتخاذ القرار السياسي في العواصم الأوروبية. ولعله الوحيد من بين السياسيين العرب من أبناء جيله الذي أقام صلات واسعة جداً مع السياسيين وكبار المسؤولين الفرنسيين، أو مع الصحفيين النافذين. شنّ رياض هجومه من داخل الإمبراطورية الفرنسية. كان يريد أن يكسب الحزب الراديكالي بالذات إلى جانبه - الحركة العلمانية المعادية للكهنوت التي شكّلت العمود الفقري للجمهورية الثالثة. أنشئ الحزب الراديكالي في 21 حزيران/يونيو 1901 باندماج بعض اللجان الانتخابية، وأجزاء من عصبة حقوق الإنسان، والمحافل الماسونية، ومجموعات أخرى، وسيطر على الحياة السياسية الفرنسية مدة نصف قرن تقريباً. ومع أن رياض الصلح أولى اهتمامه إلى الحزب الراديكالي، فإنه لم يهمل الحزبين الشيوعي والاشتراكي اللذين افترقا في سنة 1920 في مؤتمر تور.

في أواخر عشرينيات القرن العشرين، أوجد رياض الصلح لنفسه مكاناً فريداً في المعسكر الوطني. فقد قُتل العديد من شاركوا في الثورة السورية الكبرى في أثناء القتال، أو حُكم عليهم بالإعدام غيابياً، أو نُفوا عشر سنوات أو أكثر، ولم يتمكنوا من العودة إلى سوريا إلا في أواخر الثلاثينيات. وأبعدهم سحق الثورة الكبرى بشراسة عن

المسرح السياسي المحلي. كما تعرّض القيايدون الأكبر سنّاً، مثل الأمير شكيب أرسلان، والدكتور الشهبندر، لضربات خطيرة أثّرت في سمعتهم بسبب استمرار العداوة المضرة المتبادلة بينهم. فلم يعد يُعتدّ بأرسلان في السياسة - وهو أكبر سنّاً من رياض بخمسة وعشرين عاماً، ومُنِع من دخول سوريا ولبنان من سنة 1926 إلى سنة 1937. وتضرّر الشهبندر بدوره من الانتقادات التي وُجّهت إليه بسبب الاستراتيجية المتهوّرة التي اتبعها في أثناء الثورة. فمعركة ميسلون في سنة 1920، على الرغم من إيلامها وإثارتها للعواطف وما اتسمت به من شجاعة على وجه الخصوص، أظهرت بوضوح عدم جدوى مواجهة جيش فرنسا القوي. ومع ذلك اتبعت استراتيجية المواجهة العسكرية نفسها في الثورة السورية الكبرى في سنتي 1925 و1926، ولكن على نطاق أوسع بكثير ومن دون أي تنظيم.

أتاح انحسار شهرة أرسلان والشهبندر فرصة انتهزها رياض الصلح الآن. فكثّف نشاطه على عدة جبهات - في باريس مع الصحفيين والسياسيين الفرنسيين، وفي جنيف مع أرسلان نفسه ومع إحسان الجابري، وفي بيروت مع خير الدين الأحّوب وصحيفة العهد الجديد التي يصدرها معاً، وفي المفاوضات المتقطعة مع الصهاينة، وفي سوريا ولبنان مع أصدقائه في الكتلة الوطنية الوليدة. بعد سحق الثورة، أصبح رياض رائداً لاستراتيجية وطنية جديدة أكثر براغماتية، تدعو إلى التحاور مع الفرنسيين بدلاً من محاربة الجيش الفرنسي في مواجهة عسكرية مفتوحة، يعرف أنّها لن تكون متكافئة لأن العرب يفتقرون إلى السلاح والتدريب إلى حدّ كبير.

يقدم الاقتباس التالي فكرة عن أنشطته في تلك الفترة. ففي 25 شباط/فبراير 1927 مثّل سوريا في مؤتمر لرابطة الشعوب المضطهدة في بروكسل. وكالمعتاد، ظلّت المخابرات الفرنسية يقظة في مراقبته. وفي أوائل آذار/مارس 1927، أورد أحد ضباطها في بيروت في تقرير رفعه إلى باريس ملاحظات السياسي اللبناني أحمد الداعوق:

علينا الاعتراف بأن رياض الصلح يقدم خدمة جلّى. ففي الشهرين الماضيين، أرادوا [المؤتمر السوري الفلسطيني] استدعاءه إلى القاهرة. لكننا كتبنا إلى بعض الأصدقاء راجين منهم إبقائه في باريس. إنه نشيط جداً بحيث نظّم بمفرده خدمة للمعلومات والصحافة. وهو يزود الصحف

السورية والفرنسية بالمعلومات. اقرؤوا المقالات المنشورة في صحيفة النهار! ستلاحظون أنّ هذه الصحيفة واسعة الاطلاع لأنّ رياض الصلح مصدر أخبارها⁽¹⁾.

بين آذار/مارس وآب/أغسطس 1927، أمضى رياض الصلح وإحسان الجابري ستة أشهر في باريس في محاولة للتأثير في السياسة الفرنسية تجاه سوريا. انتقدا التقرير بشأن سوريا الذي رفعته فرنسا في سنة 1926 إلى اللجنة الدائمة للانتدابات في عصبة الأمم، وكانا محقين في وصفه بأنه لا يمت بصلة إلى الوقائع الفظيعة على الأرض. وبذلا كثيراً من الوقت والجهد لعرض قضيتهما على كلّ من أبدى استعداداً للاستماع إليهما، وأرسلا، عند عودتهما إلى جنيف، تقريراً مفصلاً في 1 أيلول/سبتمبر 1927 إلى السيد فيلغاس Villegas، رئيس الجمعية العامة الثامنة لعصبة الأمم، بشأن العلاقات السورية- الفرنسية المزرية. تلى ذلك رسالة أخرى في 21 تشرين الأول/أكتوبر 1927، إلى السير إريك درومند Sir Eric Drummond، الأمين العام للعصبة، وكثير من العرائض الأخرى بنفس الروحية أبرزها تلك التي قدمت في 8 آذار/مارس و8 حزيران/يونيو 1928⁽²⁾.

في أيار/مايو 1927، بادر رياض إلى إنشاء رابطة في باريس للطلاب العرب من سوريا والعراق وفلسطين وتونس والجزائر والمغرب. وُضع النظام الأساسي للرابطة، وخُصّصت غرفة لها في فندق سوسيتيه سافنت Sociétés Savantes في الحيّ اللاتيني. وقبل ذلك ببضعة أشهر، في شباط/فبراير 1927، شارك في تشجيع الطلاب السوريين في جامعة جنيف على تأسيس الرابطة السورية العربية، وإرسال التماس إلى المفوض السامي الفرنسي في بيروت، هنري بونسو Henri Ponsot. وقد ذكر تقرير للشرطة السويسرية أسماء الأعضاء الثلاثة للجنة الرابطة: عدنان الأتاسي (المولود في سنة 1904) وناظم القدسي (المولود في سنة 1905) وممدوح الأميري (المولود في 1906). وقال تقرير الشرطة إنّ "هؤلاء الشبان اجتمعوا على انتهاج سياسة وطنية ترمي إلى إنشاء إمبراطورية عربية أو كونفيدرالية تتكوّن من الحجاز

(1) MEA, Fonds Beyrouth, Série B, Carton 20.3 March 1927

(2) انظر Archives SDN, Geneva, CPM, 700-754. tome 16, 1928, v.428, and Archives

SDN, Geneva, CPM. 755 -814, tome 17, 1928,v.429

والعراق وسوريا، متحررة من كل انتداب أو حماية أوروبية... سنبقيهم تحت المراقبة"⁽¹⁾.

كانت أنشطة رياض السياسية تكلف أموالاً، وهو دائم الافتقار إليها. وقد لاحظت المخابرات الفرنسية في بيروت أن: "الشبان المسلمين أفادوا أن رياض الصلح أرسل إلى أهله وأصدقائه طلباً للمال. وبما أن والده لم يعد قادراً على إرسال المال إليه، فقد تدخل لدى المفوضية العليا سعياً للسماح بعودته إلى بيروت"⁽²⁾. وفي حزيران/يونيو تكررت القصة نفسها.

وفقاً لمصادر إسلامية، كتب رياض الصلح الموجود الآن في باريس ويعاني من صعوبات مادية، إلى الأخوين جبر طالباً الحصول على قرض قيمته 40 جنيهاً مصرياً، وقد أرسل إليه في الظاهر. ويذكر أن رياض طلب قبل بضعة أشهر قرضاً بقيمة 30 جنيهاً مصرياً أرسله إليه كمال جبر، حينما كان في رحلة إلى فلسطين. وجدت الحوالة معه عند الناقورة⁽³⁾.

في تشرين الثاني/نوفمبر، نقلت الاستخبارات الفرنسية أن رياض الصلح صرح مؤخراً لجريدة عربية في باريس قائلاً:

طالما تمسك الوفد بالرأي الوارد في المذكرة التي أرسلتها إلى عصبة الأمم في آذار/مارس عام 1927، وهو أنه مستعد لقبول أي حل متوافق مع المطالب الوطنية. لقد تمكنا من منح القضية السورية هويتها الحقيقية ودحض الاتهامات التي وجهها إليها خصومها. كما تمكنا من القضاء على بعض الطموحات المضرة بالقضية السورية. وستابع جهودنا مع الرأي العام الفرنسي لأننا مقتنعون بأن الشعب الفرنسي ينظر إلى المسألة السورية بطريقة مختلفة عن نظرة حكومته، ويرغب في إقامة علاقات ودّية مع سوريا موحدة ومستقلة⁽⁴⁾.

(1) Federal Archives, Berne, E2001 (D), S A 138, 21 April 1927

(2) MEA, Fonds Beyrouth, Série B, Carton 20, 10 February 1927

(3) MEA, Fonds Beyrouth, Série B, Carton 20, 17 June 1927. Service des renseignements,

.Damas ville. Délégation française de l'État de Syrie, 14 November 1927

(4) المصدر نفسه.

هنا إذاً توجد القضية التي كرس رياض لها نفسه الآن.

لاحظ رياض في رحلاته في فرنسا وسويسرا كيف كان الناس يعيشون حريتهم السياسية. وتعلم الكثير في سويسرا على وجه الخصوص وتأثر فيها جداً. وأشار إلى أن فيها عدة مجموعات عرقية مختلفة، تتحدث لغات مختلفة، وتعيش معاً بانسجام ظاهر. ويتكوّن لبنان أيضاً من مثل هذه الفسيفساء. أفلا يمكن تقليد النموذج السويسري هناك؟ لقد لفت أيضاً أن التمتع في الحرية في سويسرا لا يقتصر على المجتمعات المختلفة وإنما ينعم به الأفراد أيضاً. لم تتح للعرب، الذين رزحوا قروناً تحت السيطرة الأجنبية، فرصة العيش بحرية، فكيف يعيشون أحراراً؟ هذا هو التحدي الأخلاقي الكبير الذي كانوا يواجهونه. وفي حياته المهنية اللاحقة، استحوذت عليه فكرة أن العرب، عندما يتحرّرون من الحكم الأجنبي، يميلون من دون مبالاة في الغالب إلى تسليم حريتهم إلى محرّريهم الذين ينتهجون أساليب قمعية⁽¹⁾.

(1) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول 2004.

عودة البطل

في يوم دافى في منتصف أيار/مايو 1928، أقام رضا الصلح مأدبة غداء في منزله في صيدا في جنوب لبنان. أعدت طاولة طويلة تحت عريشة على الشرفة الواسعة. كان عدد الضيوف الذين يتوقع حضورهم يزيد على اثني عشر شخصا. فقد بلغ رضا أن السلطات الفرنسية توشك أن تسمح بعودة ابنه رياض إلى الديار بعد التشدد في نفيه لمدة سنتين. لذا أقيم الغداء بغية التحضير للحملة السياسية التي يأمل رياض في إطلاقها عند عودته.

كان رضا الصلح في أواخر الستينيات من العمر في ذلك الوقت، ويعاني من اعتلال صحته. وبعد أن صدم مرتين بالهيار الإمبراطورية العثمانية وفرض الانتدابين الفرنسي والبريطاني، شعر أن قدر العرب أن يتحملوا فترة طويلة ثانية من الخضوع السياسي. وبدا له الاستقلال حلمًا بعيداً، بعدما وقعت سوريا ضحية الحدود المصطنعة التي شوّهت بها القوى الإمبريالية الخريطة العربية. فطالما كانت صيدا، دار أجداد آل الصلح، جزءاً من ولاية سوريا العثمانية السابقة. غير أن الفرنسيين رأوا أن من المناسب ضمها إلى جبل لبنان في سنة 1920 - إلى جانب طرابلس في الشمال، ووادي البقاع في الشرق - لإنشاء لبنان الكبير. وكان رضا، مثله مثل القوميين العرب الآخرين، يريد عودة تلك الأراضي إلى سوريا. تلك هي القضية الساخنة التي ستسيطر على السياسة اللبنانية في العقود العديدة التالية.

في ذلك اليوم، في أوائل الصيف، دعا رضا الصلح عدة سياسيين بارزين، مسلمين ومسيحيين، إلى مأدبة الغداء. وقد أطلعت الاستخبارات الفرنسية، اليقظة دائماً في ما يتعلق بآل الصلح، باريس على من حضر والأمور التي بُحثت. وأفاد أحد عملائها أن من بين المدعوين ثلاثة أعضاء في البرلمان؛ إميل آده، شغل لاحقاً منصب رئيس الجمهورية اللبنانية بين سنتي 1936 و1941، وصبحي حيدر من بعلبك، وإيلي

سكاف من زحلة؛ وعضوين سابقين في البرلمان، سليم علي سلام، وعبد الله بو خاطر؛ وجورج خوري، وهو محام في بلدية بيروت؛ وشخصيات عديدة أخرى من بيروت وصيدا. رحّب رضا الصلح بضيوفه وناشدهم وأدّ خلافتهم والعمل بجدّ في سبيل "الوحدة الوطنية".

ورأى أنّ الطائفية لم تجلب على لبنان سوى الضرر، وأنّ على أبناء الوطن الواحد، مسلمين ومسيحيين، السعي للعيش معاً في وئام وانسجام. ردّ سليم علي سلام، وهو شخصية سنية بارزة، وقومي عربي، كان قد مثّل بيروت في البرلمان العثماني، فشكر رضا الصلح على "كلامه الجميل" وأثنى كثيراً على ما يقدمه ولده رياض من خدمة للقضية العربية. وقال سلام إن رياض الصلح أعطى الحركة الوطنية زهماً حقيقياً، وإن كل وطني ينتظر عودته بفارغ الصبر⁽¹⁾.

على الرغم من أنّ رضا الصلح دعا إلى إنهاء الخلافات الطائفية، فإنه كان يدرك جيداً أنّ لدى الضيوف المجتمعين حول مائدته آراء متناقضة إن لم تكن متنافرة تماماً. ففي حين أنّ المسلمين اللبنانيين يريدون التخلص من السيطرة الفرنسية، وإنهاء الانتداب، واستعادة "وحدة" سوريا، فإن المسيحيين اللبنانيين، الذين أصبحوا يشكلون الآن أكثرية طفيفة، يعتقدون أنّهم بحاجة إلى الحماية الفرنسية من "المتعصبين" الدينيين في الأراضي الداخلية السورية⁽²⁾. وكان إميل إده، ضيف رضا الأبرز، يؤيد تماماً لبنان الكبير، الذي أنشئ تحديداً لتأمين النفوذ الفرنسي والسيطرة المارونية. وقد أظهرت الثورة السورية الكبرى في فترة 1925 - 1926 لإميل إده والموارنة الآخرين، الأهمية الاستراتيجية الكبرى لسلسلة جبال لبنان الشرقية، كحاجز طبيعي يحول دون أي هجوم على جبل لبنان من الأراضي الداخلية السورية. فاعتقد هؤلاء أنّه لولا الحماية التي وفّرتها بلدات مثل الجديدة وحاصبيا وراشيا، لتمكّن الثوار الدروز من غزو جبل لبنان، وإحراق منطقة الشوف بأكملها. لذا لم يكن من المفاجئ البتة، بالنظر إلى هذا التفكير، أن يعتبر الموارنة، ورعاثم الفرنسيون، رياض الصلح محرّضاً خطيراً. كما أنّه

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb), Série 199A4, carton 20, Service des renseignements, Beyrouth, 14 Mai 1928

(2) Acting Consul-General Norman Mayers to Austen Chamberlain, Beirut, 14 December 1925 (FO 871/10853)

أصبح أكثر خطورة، باعتباره مؤيداً "للوحدة" السورية، بسبب العلاقات الرفيعة التي أقامها في باريس.

راقبت الاستخبارات الفرنسية باحتراس تحركات رياض في رحلة عودته إلى الوطن. وكان عملاؤها قد اعترضوا رسالة عنه بعث بها نبيه العظمة، وهو قومي عربي بارز مقيم في القاهرة، إلى نجيب الريس محرر جريدة القيس الوطنية الجديدة في دمشق. وعلى غرار العديد من الوطنيين الآخرين، التحق نبيه العظمة بالمدرسة الحربية العثمانية في دمشق ومكتب الإعدادية العسكرية، ثم تابع دراسته في إستانبول. وكان قد انضم إلى الثورة العربية في سنة 1916 وعمل في إدارة فيصل. تنقل رسالته الإحساس بالقلق والاكتئاب في صفوف الوطنيين بعد سحق الثورة السورية الكبرى. وقد ورد في رسالته:

بعد بضعة أيام سيكون أخونا رياض الصلح معك وسينقل إليك كل الأخبار. لا تيأس... لديك داخل البلاد وخارجها إخوة وأخوات يشاركونك متاعبك. فهناك رجال مخلصون في أمتنا لا تستطيع أي قوة على الأرض أن تحرمهم من حقوقهم... اتحد مع إخوانك الوطنيين! ولن يتنصر الرجعيون والخائنون على الوطنيين المخلصين.

سيلغك رياض بك بكل شيء. أطلب منك أن تتخذ كل التدابير اللازمة لتأمين نجاحه. اهتم به لحظة وصوله، وقدم إليه كل ما تستطيع من مساعدة".

يكفي الأمة قوة أن يكون في عدادها هذه المجموعة من الرجال الأفاضل من أمثال عفيف الصلح، ومصطفى النحاس، وسعد الله الجابري وإبراهيم هنانو، وهاشم الأتاسي، وفوزي الغزي، وفارس الخوري، وإحسان الشريف، وبمجت الشهابي والعديد غيرهم. هؤلاء هم دعامة فيلق الشباب من أمثالك.

حافظ على الاتصال بخير الدين الأحذب، صاحب صحيفة العهد الجديد في بيروت...⁽¹⁾.

وصل رياض، واستقبل بحفاوة بالغة يوم الأحد 20 أيار/مايو، بعد مرور أسبوع على مأدبة الغداء التي أقامها والده. انتقل من فلسطين إلى صيدا عبر بوابة الناقورة الحدودية، لكن لم يستطع والداه إقناعه بالبقاء في المنزل مدة طويلة، ما حثّب آمالهما. كان في الثالثة والثلاثين، يفيض حيوية ويتلهّف إلى مغادرة صيدا على الفور تقريباً إلى بيروت ودمشق للقاء حلفائه الوطنيين الآخرين. لم يكن من السهل إقناع الفرنسيين بالسماح له بالعودة إلى سوريا ولبنان. فقد رفع هنري بونسو، المفوض السامي الجديد، توصية إلى رؤسائه في باريس بإبقاء هذا المثير للشغب في الخارج. بل إنه أوعز إلى قناصل فرنسا في القدس وحيفا ويافا، في 3 نيسان/أبريل، "برفض منح رياض الصلح تأشيرة دخول إلى الأراضي الخاضعة للانتداب حتى إشعار آخر". وأوضح غاضباً قراره في رسالة عاجلة إلى وزير الخارجية الفرنسي في باريس: كالتالي:

لقد تكرّمتم بإبلاغي أنّ رياض الصلح تمكّن من تجديد جواز سفره، وأنه تعهد ألا يعود إلى سوريا، بل السفر إلى مصر فقط. غير أن رياض الصلح عبر مصر ووصل في 2 نيسان/أبريل إلى حيفا، المدينة الأقرب إلى أراضيها. وهو يعيش هناك منذ ذلك الوقت. وقد طلب مني أصدقاؤه مرات عدة السماح له بالعودة، لكنّه أبلغ جميع مؤيديه المتطرفين في دمشق بأنّه سيعود عما قريب، دون انتظار نتيجة وساطتهم.

بناءً على ذلك، أوعزت إلى قنصلنا برفض منحه تأشيرة دخول. ويجب أن توضح هذه الوقائع للوزارة مقدار الثقة بالتعهدات التي يقدمها رياض الصلح وأمثاله⁽¹⁾.

استطاع هنري بونسو إبقاء رياض في حيفا عدة أسابيع أخرى. وانتظر حتى 10 أيار/مايو كي يرسل برقية إلى القنصل الفرنسي في حيفا ليقول: "يمكنك إصدار تأشيرة إلى رياض الصلح". وفي اليوم نفسه وقّع مرسوماً يحمل الرقم 1144 يلغي بموجبه المرسوم رقم 274 الصادر في 27 حزيران/يونيو 1926 بنفي رياض إلى جزيرة أرواد⁽²⁾.

(1) Fonds Beyrouth (Amb), Série 199A4, carton 20, Haut-Commissaire H. Ponsot à (1) Ministre des Affaires Etrangères, Beyrouth, 13 Avril 1928

CADN, Fonds Beyrouth, carton 421, décision no 1144, Haut-Commissaire, (2) Beyrouth, 10 Mai 1928

وكان تعهّد رضا الصلح بأنّ ولده لن يعمل في السياسة بعد الآن، هو ما أقنع بونسو بتليين موقفه.

من نافلة القول إن رياض الصلح لم يكن يعتبر التعهّد الذي قطعه والده للفرنسيين ملزماً له. كان واثقاً من نفسه بعدما أقام علاقات على مستوى عالٍ في باريس. فقد نجح في التأثير في الحزب الراديكالي الاشتراكي بحيث أصدرت لجنته التنفيذية بياناً يعلن أنه "لا يمكن إيجاد حلّ للمسألة السورية إلا بالتفاهم التام مع الوطنيين السوريين... وتطالب اللجنة بتلبية مطالب الشعب السوري المشروعة بالوحدة والاستقلال". بعث مراسل صحيفة الكشف السورية في باريس بهذا البيان المهم إلى جريدته وأعيد نشره في عدة صحف في بيروت⁽¹⁾. وكان رياض يعلم أن المفوض السامي الفرنسي لا يستطيع الابتعاد كثيراً عن المزاج السياسي في العاصمة الفرنسية. لذا كان مصمماً على الاستفادة من تلك الميزة بأقصى سرعة وبكل ما أوتي من قوة.

لكنه كان يفتقر إلى الأموال على عادته. فرحلاته المتعدّدة، وإقامته الطويلة في باريس وجنيف والقاهرة، وحاجته إلى استضافة الصحافيين والسياسيين، وكرمه مع الطلاب العرب وأصدقائه الفلسطينيين، تتطلّب تدفقاً نقدياً منتظماً. وفي ذلك الوقت أصبح وفد المؤتمر السوري الفلسطيني نفسه يعاني من نقص التمويل، وحافظ على بقائه بفضل الهبات غير منتظمة من داعميه المتضائلين في القاهرة. فقد كان للانقسام في صفوفه (وبخاصة الجفاء بين الأمير شكيب أرسلان من جهة والأمير ميشال لطف الله والدكتور شهنندر من جهة أخرى) أثر كارثي على صورة المؤتمر وأوضاعه المالية.

لم يكن لدى رياض الصلح أي إيراد. فقد اعتمد في عيشه على الدين إلى حدّ كبير، وتراكت عليه ديون كبيرة على مرّ السنين، لم يعد في وسع والده تسديدها. كان موقف رضا من ولده المميّز والمتألّق معقداً: كان فخوراً بشهرته، وقلقاً من عاداته الإنفاقية، وربما يشعر ببعض الاستياء الضمني من أن نهج رياض السياسي الأكثر جرأة وراديكالية أبعده عن الساحة السياسية. وفي غضون ذلك، واصلت العائلة بيع أراضيها، وهي أساس ثروتها المتضائلة. وروى أحد أصدقاء العائلة، يوسف يزبك، أنه

MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb), Série 1994A, carton 20, revue de la presse, (1)
Beyrouth, 13 Mars 1928

سافر في سنة 1928 إلى طرابلس مع رياض، حيث تدبّر بيع بستان برتقال مقابل 8000 ليرة ذهبية، بغية تسديد بعض الديون للمقرضين الذين يلاحقونه⁽¹⁾.

من هنري دو جوفنيل إلى هنري بونسو

عندما عاد رياض إلى المشرق في ربيع 1928، وجد أن فرنسا لا تزال تواجه العواقب المفجعة لسحق الثورة السورية الكبرى. كانت الكآبة تلفّ السكان، والمدن تفيض باللاجئين المعدمين، كما تعطلت حركة التجارة، ودمّرت الكثير من الممتلكات. كانت بيروت، وهي في ذلك الوقت الميناء الرئيسي للأراضي السورية الداخلية، مدينة تضمّ نحو 130,000 نسمة، 20,000 منهم من الناجين الأرمن من الإبادة الجماعية التي وقعت في سنة 1915، يسعون بشجاعة وجدّ إلى إعادة بناء حياتهم المخطمة. فيما كان يقطن نحو 300,000 نسمة في كل من دمشق وحلب.

على الجبهة السياسية، كانت فرنسا عالقة بين المطالب العنيدة للقوميين العرب الذين ينادون "بالوحدة السورية"، والوطنيين اللبنانيين الذين يصرّون على المحافظة على سلامة أراضي "لبنان الكبير" الذي أنشأه الفرنسيون. وفي تلك الظروف، تعذّر على المفوض السامي، هنري دو جوفنيل، تشكيل أي حكومة يمكن أن ترضي كلا الطرفين.

في 26 نيسان/أبريل 1926، في انتظار الخيار الذي يتخذه البرلمان المنتخب، فكّر دو جوفنيل في تجنّب المخاطر بتعيين عضو من الأرستقراطية العثمانية القديمة، الداماد أحمد نامي بك، على رأس الدولة السورية. وُلد أحمد نامي بك في بيروت في سنة 1878 من أمّ شركسية وأب يدعى فخري بك، عمل مساعداً للخديوي إسماعيل في مصر. و"الداماد" مصطلح تركي يعني صهر السلطان. والواقع أنّه تزوج من إحدى بنات السلطان عبد الحميد الذي منحه لقب "معالي" أيضاً. لاحظ القنصل العام البريطاني في تقريره الذي رفعه إلى لندن بإيجابية أن الداماد "لم يكن من جمهور المتملقين الذين يسعون إلى منصب ما، والذين برزوا كثيراً منذ وصول الفرنسيين"⁽²⁾.

(1) يوسف يزبك، أوراق لبنانية، 3 مجلدات، بيروت 1955، 1956، 1957، المجلد 3، ص 552.

(2) Consul-General Satow to Austin Chamberlain, Beirut, 28 April 1926. (FO 371/11516 File 113809)

ولكن السوريين لم يستقبلوه بحماسة، كما أن إصراره على إحاطة نفسه بقواعد التشريفات الملكية أثار سخرية الشعب الذي ازداد قسوة وصلابة.

عند تعيين الداماد، كانت الجيوش الفرنسية قد نجحت في استرجاع عاصمة الدروز، السويداء، من الثوار. ولعل النتيجة التي حاول هنري دو جوفنيل نقلها إلى الرأي العام المتشكك إلى حد بعيد، أن النجاحات العسكرية الفرنسية يمكن قراءتها أيضاً بمثابة نقطة تحول سياسية وبداية عهد جديد. ولأنه كان يتوق إلى إنهاء الثورة وإعادة الحياة السياسية الطبيعية إلى البلاد، فقد سعى إلى العثور على وطنيين معتدلين يعتقد بأن فرنسا تستطيع التوصل إلى نوع من التفاهم معهم. فشكّل حكومة سورية في 5 أيار/مايو 1926 تضم ثلاثة منهم - حسني البرازي، وهو مالك أراضٍ ثري من حمص، وشغل منصب وزير الداخلية، وأسندت إليه مهمة تنظيم الانتخابات المقبلة؛ والمحامي المسيحي فارس الخوري، وزيرا للتعليم؛ ولطفي الحفار، نائب رئيس غرفة التجارة في دمشق، وزيراً للأشغال العامة. كانت استراتيجية دو جوفنيل ترمي إلى تأمين انتخاب برلمان يصوغ دستوراً، ويقبل بعقد معاهدة لمدة ثلاثين عاماً تحافظ على دور فرنسا المتفوق في البلاد. ولإرضاء الوطنيين، ذهب إلى حد التلميح بأنه قد يكون مستعداً لتسوية مسألة "الوحدة السورية" الشائكة بإعادة بعض الأراضي التي فصلت عن سوريا عند إنشاء لبنان الكبير.

لكن هذه الأفكار اتّسمت بالكثير من الراديكالية بالنسبة إلى الجنرال غاملان، القائد الأعلى لجيش المشرق، ورئيس جهاز المخابرات العقيد كاترو، وكلاهما منشغلان "بتنظيف" القرى المحيطة بدمشق، بكثير من الوحشية، من بقايا الثوار. وأصرّاً على وجوب ذبح الثوار ومؤيديهم من الوطنيين، لا التفاوض معهم ومكافأهم! فخلال خمس سنوات بين سنة 1920 وسنة 1925، فقد الجيش الفرنسي 6722 رجلاً في سوريا ما بين قتل ومفقود. وبلغت نفقاته العسكرية 2500 مليون فرنك فرنسي، وهو مبلغ كبير جداً، ما يستبعد بالنسبة إلى عسكريين صريحين مثلهما أي احتمال لتسوية سياسية⁽¹⁾.

(1) The Marquess of Crewe (Eric Phipps) To Sir Austen Chamberlain, Paris 23 October and 7 November 1925, reporting on information given to the French Chamber of Deputies on 21 October and 5 November 1925. (FO 371/10871 File 114692)

ومثلما خرب أعداء الجنرال ساراي، في الجناح اليميني الكاثوليكي المتطرف، سياساته الليبرالية، فقد تعمّدت التقارير التي أرسلها قادة الجيش إلى باريس وحذّروا فيها من إعادة اندلاع الثورة إضعاف هنري دو جوفنيل. كما وقع أحمد نامي بك ضحية السياسات العسكرية الفرنسية. فعندما أجبر في حزيران/يونيو على إجراء تعديل في حكومته بسبب الخلافات بين الوطنيين والمعتدلين، اعتقلت قوات الأمن الفرنسية على الفور وزراء الوطنيين الثلاثة، حسني البرازي وفارس الخوري ولطفي الحفار، لأنهم أرادوا إرسال مواد إغاثة لضحايا الثورة من المدنيين. وأرسلوا على عجل بمرافقة عسكرية إلى لبنان وسجنوا في قصر بيت الدين. أدّت هذه الخطوة الفرنسية إلى تعميق الاستياء من أحمد نامي بك. وعلى أي حال، لم ينسّ الوطنيون قط أنه وافق على تسلّم رئاسة البلاد في أثناء ثورتهم الكبرى.

كان حكم هنري دو جوفنيل في سوريا فاشلاً بكل الأحوال. أما في لبنان فكان أكثر نجاحاً بقليل. فتحت إشرافه، اعتمد دستور جديد في 23 أيار/مايو 1926، ينص على انتخاب رئيس للجمهورية، ومجلس تمثيلي تكون الحكومة مسؤولة أمامه. وفي حزيران/يونيو، شكّلت حكومة برئاسة الماروني أوغست أديب باشا، بينما عيّن ماروني آخر، الشيخ بشارة الخوري، وزيراً للداخلية. وفي 1 أيلول/سبتمبر تمّ الإعلان عن الجمهورية اللبنانية بدلاً من دولة لبنان الكبير. وتحول المجلس التمثيلي عندئذ إلى مجلس للنواب، فقام بانتخاب السياسي الأرثوذكسي شارل دباس رئيساً للجمهورية، وبقي في منصبه حتى سنة 1932. وقد أمل الفرنسيون باختياره المحافظة على توازن معقول بين المعسكرين المسلم والماروني المتخاصمين.

كان دستور 1926 المستوحى من الفرنسيين بعيداً جداً عن تحقيق الاستقلال الحقيقي الذي كان يطالب به الوطنيون. فقد منحت المادة 90 المفوض السامي الفرنسي السيطرة على السياستين الخارجية والدفاعية. وكان قادراً على إلغاء أي تشريع يُعتبر مناقضاً للاتحاد، بل إن بإمكانه، إذا شاء، أن يعلّق الدستور بأكمله! ونصّت المادة 9 على ملء الحقائق الوزارية، ووظائف القطاع العام على أساس طائفي "منصف". وهذه المادة، بالتحديد، هي التي رسخت الطائفية في الحياة العامة في لبنان.

وقد رحّبت بها بعض الطوائف، لكن اللبنانيين دفعوا غالباً بسببها وما زالوا إلى يومنا هذا⁽¹⁾.

استقال هنري دو جوفنيل، بعد أن ثبتت عزيمته في صيف عام 1926 وحل محله في تشرين الأول/أكتوبر هنري بونسو الذي بذل جهداً كبيراً لاستعادة الحياة السياسية الطبيعية في سوريا. فأعلن عن عفو وسمح بحريات أكبر. ترك معالي الداماد أحمد نامي باشا منصبه غير مأسوف عليه في 9 شباط/فبراير 1928. بعد ذلك شكّل الشيخ تاج الدين الحسيني ما سماه القنصل البريطاني في دمشق "وزارة خاضعة تماماً"⁽²⁾. أجريت انتخابات الجمعية التأسيسية في نيسان/أبريل، ففاز الوطنيون في المدن والمعتدلون في الريف. وانتخب القائد الوطني الحمصي هاشم الأتاسي رئيساً للمجلس. ذلك باختصار الوضع السياسي الذي كان سائداً عند عودة رياض الصلح إلى الديار في أيار/مايو 1928.

رياض والجبهة الوطنية السورية

قبل ذلك بعام، في سنة 1927، بدأ وطنيون بارزون في دمشق وحلب وبيروت، ومدن أخرى في سوريا ولبنان الاتصال بعضهم ببعض لبحث إمكانية الحوار مع الفرنسيين. ففي أعقاب صدمة الثورة السورية الكبرى، أدركوا متأسفين أن المواجهة العسكرية مع فرنسا لم تنجح في خدمة قضيتهم، بل إنهما، على العكس من ذلك، ألحقت بها ضرراً مؤلماً. لقد حان الوقت للنظر في إيجاد طريق آخر يقودهم إلى الأمام. وعندما أشارت فرنسا إلى أنها ترغب في تنظيم وجودها في سوريا عن طريق معاهدة ثنائية، بدأ بعض الوطنيون يفكرون في أن ذلك قد يكون في النهاية أحد طرق الوصول إلى هدف الاستقلال المنشود.

كان رياض رائد استراتيجية السعي للتأثير على السياسيين الفرنسيين في باريس، ومحاولة استمالة الرأي العام الفرنسي مباشرة. لقد أبدى الوطنيون من

Mizrahi, "La France et sa Politique de Mandat p 47 ; George Corn, *Le Liban contemporain*, Paris 2005, pp. 91-92

Consul E. C. Hole to Sir Austen Chamberlain, Damascus, 23 February 1928. (FO 371/13074)

أمثاله تعاطفاً شديداً مع الثورة، وحيّوا شهداءها واعتبروهم أبطالهم، لكنهم لم يحملوا السلاح بأنفسهم. بل ربما ساورتهم الشكوك بشأن حكمة محاولة طرد الفرنسيين بالقوة، أو جدواها. وبذلك ظهر تباين صارخ بين موقفهم ومواقف رجال مثل سلطان الأطرش، والدكتور الشهبندر، ونسيب البكري حاملي لواء الثورة المسلحة. كما كانوا مختلفين تماماً عن العسكريين المحترفين مثل فوزي القاوقجي، أو عشائر جبل الدروز وحواران الذين لديهم استعداد تقليدي للقتال، أو تجار الميدان والشاغور وقرويي الغوطة الذين تحملوا عبء القتال وقدموا الدعم اللوجستي إلى الثوار، وبالتالي عانوا من الرد الانتقامي الفرنسي الوحشي عليهم وعلى بيوتهم وأرزاقهم.

لا يمكن الطعن هؤلاء القادة الوطنيين الذين بدؤوا يبحثون عن طرق للتعامل مع الفرنسيين، وأقامهم بالتعاون معهم. فمعظمهم ينحدرون من عائلات ميسورة من مالكي الأراضي، وينتمون إلى النخبة التقليدية الحاكمة في سوريا، وأبناء المؤسسة العربية العثمانية. وأدى سحق الثورة ونفي قادتها إلى الدفع بهم إلى الواجهة كمحاورين محتملين مع الفرنسيين. وقد درس العديد منهم في "مكتب عنبر" وهي المدرسة الابتدائية المدنية الراقية التي كانت تشغل مبنى دمشقاً كبيراً يضم العديد من الباحات المزخرفة، وشكلت مدرسة النخبة السورية في فترة ما بين الحربين⁽¹⁾. لم يكن هؤلاء الرجال، الذين أكملوا دراستهم في استانبول أو باريس، مستعدين للخضوع لإملاءات الفرنسيين، ولكنهم على استعداد للتحديث مع فرنسا. لكن يجب عدم الخلط على أي مستوى بينهم وبين حفنة من الوجهاء الذين مالوا بطريقة مدروسة منذ بداية الانتداب الفرنسي. وتضم هذه المجموعة عبد الرحمن اليوسف، وتاج الدين الحسيني، وصبحي بركات من دمشق، وعائلة المدرّس من حلب، وعائلة كنج من اللاذقية، وشارل دباس وإميل آده في لبنان.

بدأ هنري بونسو، المفوض السامي الجديد، بإصدار مراسيم بإلغاء حالة الطوارئ، والعفو عن بعض الثوار السابقين. فرحبت دمشق بعودة الأخوين بكري، فوزي ونجيب (خالي زوجة شكري القوتلي لاحقاً)، وحملتهما الحشود على الأكتاف. كما سُمح

(1) Michael Provence, *The Great Syrian Revolt*, p. 39.

بالعودة لوطنيين بارزين آخرين، لم يحملوا السلاح ولم يشاركوا في الثورة، ومنهم فارس الخوري، وفوزي الغزّي، وسعد الله الجابري، وعارف النعماني. وهم أوثق أصدقاء رياض الصلح. وقد شكّلوا مجموعة صغيرة من السياسيين البارزين المتعلمين والمتحدثين من أصول عريقة، الذين يتقاسمون الأفكار الوطنية نفسها وتجمع بينهم أواصر الألفة والمحبة. كان مثل هؤلاء الأشخاص الذين يتسمون بالعقلية نفسها يتقلون كثيراً، في ذلك الوقت، بين سوريا ولبنان وفلسطين. كما كانوا يتواصلون كثيراً عن طريق الرسل، رغم تكرّر اعتراض رسائلهم من قبل الفرنسيين، والعواقب المؤسفة التي تعود على حاملها.

كان رياض قد كتب رسالة من حيفا في سنة 1926 إلى الوجيه الطرابلسي عبد الحميد كرامي، ليهنّئه على دعم القضية الوطنية، ويطلب منه أيضاً إرسال بعض المال إلى الوفد في جنيف. وعلى الحدود اللبنانية قُتِلَ حامل الرسالة، كمال جبر - وهو من عائلة بيروتية ثرية متعاطفة جداً مع الوطنيين، كما أنه أرسل بشجاعة وسخاء المال عدة مرات إلى رياض عندما احتاج إليه - ووجدت رسالة رياض معه. فاعتقل على الفور هو وشقيقه، بشير، ونُفِيَ إلى قدموس في الدويلة العلوية في شمال غرب سوريا. واعترض الفرنسيون رسالة أخرى في الوقت نفسه، أرسلها رياض إلى الشيخ تاج الدين الحسيني، وهو من عائلة جدة رياض لأبيه، وفيها يحتج غاضباً على تعاون الشيخ تاج الدين مع الفرنسيين⁽¹⁾.

تأثر رياض، على غرار معظم أصدقائه وزملائه في دمشق وجنيف، تأثراً عميقاً بالثقافة الفرنسية، والقيم السياسية والأخلاقية لأوروبا الليبرالية. وكان يتوق إلى أن يطبّق الفرنسيون هذه المبادئ في المشرق. لكن بدلاً من ذلك، ذمّ الرجال أمثاله، واعتقلوا وأودعوا السجون، وطرّدوا من بلادهم. فقد تشرّبت الحكومتان الفرنسية والبريطانية العقلية الاستعمارية والعنصرية التي سادت في أوروبا ما بين الحربين، ولم يكن في وسعهما أن تتصوّرا الديمقراطية إلا لمصلحتهما التي يفترض أن تأتي في المقام الأول⁽²⁾.

Consul-General H. E. Satow to Secretary of State, Beirut, 6 December 1926. (1)
(FO 732/22/3)

.Fleury, 'Le Mouvement national arabe', p. 354 (2)

في 27 تشرين الأول/أكتوبر 1927، اجتمع الوطنيون من مختلف المدن السورية في بيروت، فشكّل اجتماعهم المؤتمر الأول للكتلة الوطنية السورية. ولم يكن الاجتماع ممكناً إلا بعد الاتفاق المسبق بين قيادات المدينتين المتنافستين حلب ودمشق، اللتين تطمح كل منهما إلى أن تصبح العاصمة السورية. كان الحلبي القوي، ابراهيم هنانو، قوة دافعة مبكرة لتشكيل الكتلة، حيث وفر التنظيم الواسع الذي قام به في الشمال مضمونها الأولي. لم يستطع رياض حضور المؤتمر، لأن الفرنسيين لم يسمحوا له في ذلك الوقت بالعودة إلى المشرق. انتُخب هاشم الأتاسي من حمص رئيساً "للكتلة". ومن بين الأعضاء البارزين الآخرين جميل مردم من دمشق، وسعد الله الجابري من حلب. وكان فارس الخوري، المحامي البروتستانتي من دمشق، عضواً مؤثراً. حظيت الكتلة بدعم من مجموعة الاستقلال بقيادة شكري القوتلي، ومن العديد من التجار الوطنيين (مثل توفيق القباني الذي سجنه الفرنسيون عدة مرات) الذين دعوا إلى إضرابات عامة في السوق دعماً للوطنيين. وضمت اللجنة التنفيذية للكتلة سبعة أعضاء من بينهم ابن عم رياض، عفيف الصلح.

على الرغم من أن الكتلة لم تكن حزباً سياسياً، بل تحالفاً غير ثابت بين أفراد بارزين، فإنها نجحت بحلول سنة 1928 في أن تصبح التشكيل السياسي الأبرز في سوريا. وقد عقد العديد من اجتماعاتها في حديقة منزل توفيق قباني الوارفة التي تفوح منها رائحة الياسمين، في حي الشاغور المناهض للاستعمار بحماسة. وتوفيق القباني من الوطنيين الدمشقيين الملتزمين، ووالد الشاعر نزار قباني (الذي يمكن رؤيته في الصور الفوتوغرافية كطفل جميل بين مجموعة السياسيين البارزين، الذين غالباً ما كان يخاطبهم فوزي الغزي)⁽¹⁾. كان مطلب الكتلة الأساسي إعادة المدن الساحلية والأقضية الأربعة التي سلّحت عن سوريا وضمت إلى لبنان الكبير. وقد أنشئت فروع للكتلة في هذه "المناطق المتنازع عليها".

ولكي تؤكد الكتلة التزامها بقضية "الوحدة السورية"، فإنها أضافت في نهاية المطاف ثمانية من الوطنيين العرب اللبنانيين إلى أعضائها الذين بلغ عددهم ثمانية وثلاثين: رياض الصلح وعبد الرحمن بيه من بيروت والأميرين أمين أرسلان وشكيب

(1) صور فوتوغرافية في حوزة المؤلف.

أرسلان من جبل لبنان، وسعيد حيدر من بعلبك، وعبد الحميد كرامي ومحمد عارف الحسن وعبد اللطيف البيسار من طرابلس⁽¹⁾. اتفق أعضاء الكتلة الوطنية على التحدث مع الفرنسيين على أمل "تحقيق طموحاتهم والاعتراف بسيادتهم الوطنية"⁽²⁾. وراقب الفرنسيون بدورهم هذه التطورات باهتمام شديد، لأنهم يدركون حاجتهم إلى نخبة يمكنهم التوصل إلى تسوية معها.

انضم رياض إلى الكتلة الوطنية، لكنه ربما لم يكن جزءاً لا يتجزأ منها. فهو من بيروت لذا نأى بنفسه عن الخصومات السياسية بين دمشق وحلب. وقد رأى نفسه صوتاً لسوريا في الخارج، ونصيراً لقضية الاستقلال العربي. فقدّم صياغة رائعة للأهداف الوطنية: إزالة الحكم الفرنسي، واستعادة وحدة سوريا، وانتمائها إلى الأسرة العربية الكبرى. وأصبح شخصية معروفة عالمياً إلى حد ما. وعُلقت آمال وطنية كبيرة على التأثير الذي يمكن أن يمارسه في باريس. ففي تلك الأيام، عندما كانت النخبة فقط تستطيع التعلّم في الغرب والسفر إليه، بدت العواصم الأوروبية مثل لندن وباريس، وهما مركزا القوة الإمبريالية في ذلك الوقت، بعيدة المنال. لذا فإن التصرف فيها على السجّية، كما كان حال رياض، يمنح المرء سلطة وشيئاً من البريق أيضاً.

بالإضافة إلى الكتلة الوطنية التي تتعامل مع القضايا السورية، أنشأ الوطنيون العرب اللبنانيون منتدى آخر في بيروت عُرف باسم مؤتمر الساحل، كان محور اهتمامه "الأراضي المتنازع عليها". دعا إلى هذا المنتدى سليم علي سلام، وعبد الحميد كرامي، ورياض الصلح واجتمع ثلاث مرات في سنة 1928 ومرتين في سنة 1933. وكانت شكواه الرئيسية توسيع الفرنسيين "لبنان الصغير" بصورة اعتباطية وتقسيم ما تبقى من مملكة فيصل العربية إلى دويلات صغيرة. لكن تلك المبادرة لقيت معارضة شديدة من الطائفة المارونية المسيطرة التي سعت بكل الطرق، حتى منتصف الثلاثينيات، إلى استبعاد الوطنيين اللبنانيين العرب من الحياة السياسية في البلاد⁽³⁾.

Raghiid el-Solh, Lebanon and Arabism: National Identity and State Formation, (1) London 2004, p. 53, n. 51

.Mahafzah, 'La France et le mouvement nationaliste arabe de 1914 à 1950'. p. 301 (2)

.Raghiid el-Solh, Lebanon and Arabism, pp. 8-9 (3)

رحلة رياض بك الناجحة

استُقبل رياض في صيدا استقبال الأبطال قبل أن يغادر للاجتماع بمؤلاء الوطنيين الذين ينتظرونه بشوق في سوريا. وتوجت الاحتفالات التي أقيمت على شرفه بحفلة شاي أقامها والده في الأسبوع الأخير من أيار/مايو 1928. ودُعي إليها الأعضاء الوطنيون المنتخبون حديثاً في البرلمان السوري الذين يمثلون دمشق وحلب وحمص وحمّة، بالإضافة إلى عدد من الصحفيين البارزين. توخى رياض قدراً معقولاً من الحذر في البداية استرضاء لوالده، ولكي لا يستعدي المفوضية الفرنسية العليا. لكنه في هذه المناسبة السعيدة، اندفع وألقى خطاباً بليغاً رَحّب فيه بانتصار الوطنيين في انتخابات نيسان/أبريل في سوريا. وصاح قائلاً، "لقد فزنا في المنافسة أخيراً، وعلينا الآن تعزيز مكاسينا. علينا تأمين استقلال سوريا وسيادتها التامة! إنني لم أعد من المنفي لأتخلى عن النضال من أجل تحقيق كلّ خططنا... ولدي أمل في أن تستجيب فرنسا ومن يمثلها في سوريا إلى مطالبنا". لاحظ الفرنسيون أنّ تلك الكلمات تركت أثراً كبيراً في الحاضرين. فأوردت المفوضية العليا القلقة في تقرير رفعته إلى باريس أن حلم الوطنيين هو:

تحرير كلّ الأراضي الواقعة تحت الانتداب، وتوحيدها معاً لتشكيل قوة مشرقية كبيرة... وهذا هو المبدأ الوحيد الذي يُلهم نشاط رياض الصلح في لبنان... يأمل الوطنيون أن يكون لبنان أول دولة تحت الانتداب تستقل عن فرنسا، وتطالب بالانضمام إلى سوريا، مع الاحتفاظ بقدر محدّد من الاستقلال الذاتي الإقليمي... ومن الصعب تهدئة نفاد صبر المسلمين في طرابلس وجنوب لبنان والبقاع. وقد عُقد اجتماع في بعلبك حضره رياض الصلح، وفوزي الغزّي وآخرون بدعوة من آل حيدر. وهتف المتظاهرون هناك مطالبين بالوحدة مع سوريا قبل أن تفرقهم الشرطة⁽¹⁾.

في أوائل حزيران/يونيو رفعت المفوضية العليا تقريراً إلى باريس يفيد أن الحكومة اللبنانية يساورها القلق من أنشطة رياض الصلح منذ عودته، ومن المتظاهرين المؤيدين له في صيدا وبعلبك وبيروت. وقد أحدثت لقاءاته مع

الوطنيين في دمشق وخطاباته الملهبة للمشاعر أثراً في العناصر المسلمة، وحتى المسيحية، التي تجذب الوحدة السورية لكنها تقبلت النظام الحالي وأيدت الجمهورية اللبنانية، حالياً على الأقل. المسلمون في بيروت وطرابلس مندهشون من الصراحة التي يعبر فيها الشاب رياض عن نفسه. وقد شجّعهم حياد سلطات الانتداب تجاهه على المطالبة بالوحدة مع سوريا. أضافت المفوضية العليا الفرنسية أيضاً أن هذه التحركات الوطنية أثارت استياء كبيراً لدى العديد من الوزراء اللبنانيين الذين عقدوا اجتماعاً سرّياً حضره النائب إميل إده.

بحثوا التدابير التي يجب اتخاذها للدفاع عن سلامة أراضي لبنان في وجه هذه المناورات التخريبية. وتقرّر الدعوة إلى جلسة استثنائية للمجلس، وتقديم مشروع قانون فوري يسمح باتخاذ إجراءات قانونية ضدّ أي شخص يعمل على الإطاحة بالنظام القائم وتقسيم الأراضي اللبنانية. سيحظر القانون أيضاً عقد أي اجتماع يعتقد أنه تخريبي. يتوقع أن تكون المناقشات عاصفة، لكن الغالبية المحيطة بإدّه ستضمن نجاح الحكومة في وطنيين من أمثال عمر بيهم وأحمد الداعوق.

لقد أصبح موقف رياض الصلح مثيراً للاستفزاز. في الليلة الماضية، استمعت إليه مجموعة من الأشخاص في المطعم الفرنسي وهو يناقش نزع سلاح فرنسا ويصف مظهر الجيش الفرنسي بأنه غير منظم مقارنة بالمظهر اللائق للجيش الإيطالي الذي يعطي الانطباع بالقوة والتفوق. وهو يؤكد في كل الأماكن العامة حرّيته في الانتقاد، ويزعم أن ما من أحد يمكنه رده لأن أصدقاءه النافذين في باريس وعصبة الأمم سيدافعون عنه⁽¹⁾.

ولكن لم يكن الأمر كذلك تماماً. أصبح رياض الآن مصدر خطر رئيسياً للحكومة الفرنسية في باريس، والحكومة المدعومة من الفرنسيين في بيروت. فقد أثار حماسة شعبية كبرى، ولم يعد من السهل كبّحه. وبما أن السلطات الفرنسية المحلية لم

تكن تعرف على وجه اليقين مقدار الدعم الذي يحظى به رياض بالفعل في الدوائر السياسية الفرنسية، فإنها قرّرت أن تتعامل معه بحذر، واتبعت المفوض السامي الفرنسي، هنري بونسو، سياسة عدم التدخل، بل عدم الاكتراث. أثار ذلك حفيظة الضباط الفرنسيين الذين كانوا يتوقون لردّ أكثر قوة على "استفزازات" رياض. وأفاد القنصل البريطاني هول E.C. Hole في تقرير رفعه إلى لندن أن المسؤولين الفرنسيين فسروا عدم اكتراث بونسو بأنه "عجز تام عن حسم قراره"^(١). من الواضح أنه لم يكن أحد يعرف ماذا يفعل مع رياض.

دخل رياض دمشق ظافراً في 20 حزيران/يونيو 1928 في موكب مكوّن من عدة مئات من السيارات ولقي ترحيباً من حشد كبير. وقد خرج عدد من أعضاء البرلمان السوري لملاقاته على طريق بيروت، إلى جانب وفود من الطلاب والوجهاء والتجار. لكن لم يكن الجميع سعداء بهذا المنظر. استاء الأخوان البكري، على سبيل المثال، من الترحيب الشعبي الذي حظي به. فقد حاربوا في الثورة السورية الكبرى، وخاطروا بحياتيهما، ودُمّر منزلاهما وصدورت أراضيها الخصبة، بينما حظي هو بالجائزة! وما ينذر بالشرّ، أن قنبلة صغيرة محلية الصنع سقطت عَرَضاً من شاب، يُشتبه في أنه يعمل لحساب الفرنسيين، قبيل وصول رياض إلى فندق قصر الشرق، فانفجرت ومزقت ثيابه، وألقي القبض عليه على الفور. وألقيت قنبلة أخرى، مصنوعة من مزيج من الحصى الصغيرة والمتفجرات وملفوفة بقطعة قماش، على الوطني البارز فوزي الغزي، لكنها لم تصبه بأذى.

كان الوضع متوتراً جداً في دمشق لأن الوطنيين قرّروا استعراض قوّتهم. فبعد مرور شهرين فقط على انتخابات نيسان/أبريل، كلّفت لجنة برلمانية سورية برئاسة إبراهيم هنانو بوضع دستور للبلاد. فصاغه فوزي الغزي. تعمّد النص عدم الإشارة البتة إلى الانتداب أو المصالح الفرنسية. وحدّدت المادة 2 منه، سوريا بأنها كيان "لا تنقسم عراه" يضم فلسطين وشرق الأردن ولبنان. ونصّ على رئيس مسلم للبلاد، ومجلس نواب منتخب لمدة أربع سنوات بالاقتراع العام، ونحوّل توقيع المعاهدات وتسمية الممثلين في الخارج؛ وحكومة

Consul E.C. Hole to Sir Austen Chamberlain, Damascus, 2 June 1928, (١)
(FO 371/13076).

مسؤولة أمام البرلمان؛ وضمان الحريات الدينية والمساواة بين جميع المواطنين أمام القانون، بغض النظر عن إنتميتهم. ومنحت النساء السوريات حقوقاً لا مثيل لها في أي دستور عربي آخر. ونصّ أيضاً على إنشاء جيش وطني. رفضت فرنسا تماماً كل ما جاء في هذا الدستور وسعت غاضبة إلى تخريبه. وكان فوزي الغزي، الكاتب المتنوّر لهذا النص الرائد، قد حظى باحترام كبير لتصديه بشجاعة للفرنسيين الذين عملوا كل ما في وسعهم للضغط عليه لإدخال تعديلات لمصلحتهم، لكنهم فشلوا في استمالته.

هكذا كان الجو السياسي المحتدم في سوريا في صيف 1928 عندما كرم رياض بإقامة عدد من حفلات الاستقبال الضخمة التي أشادت بالجهود التي بذلها في أوروبا للتصدي للانتداب، وردّ عليها بخطابات حماسية - راقبها عن كثب عملاء الأمن العام الفرنسي. في 30 حزيران/يونيو، أقام له عبد الكريم العائدي حفل استقبال في دمشق، حضره 700 شخص، بمن فيهم جميع الأسماء البارزة في الحركة الوطنية. وفي 3 تموز/يوليو، حلّ ضيفاً على مأدبة أقامها محمد علي العابد. وفي 4 تموز/يوليو، قام بزيارة النائب لطفي الحفار في منزله في حي الشاغور في دمشق، الذي يفخر بصموده في وجه الفرنسيين. وهناك، اجتمع نحو 30 شخصاً للقائه. وبعد ذلك اصطحبه لطفي الحفار إلى منزل الشيخ سليم الطيبي المجاور - وهو وطني آخر وأحد أقرباء توفيق القباني - حيث كان في انتظاره 400 من الشخصيات البارزة والشبان، فاستقبل على وقع التصفيق المتواصل وهتافات "عاش رياض الصلح". فردّ بامتداح شجاعة أهالي الشاغور وروح التضحية لديهم، وحيّا ذكرى حسن الحارّاط، الذي كان قائداً لمجموعة من المقاومين في الثورة السورية الكبرى. وفي 9 تموز/يوليو، حضر مأدبة في فندق فكتوريا أقامها ميخائيل إيلان، وهو وطني مسيحي من حلب.

في 10 تموز/يوليو، أقام هاشم الحكيم مأدبة على شرفه في منزله في حيّ الميدان وحضرها 200 شخص. وقد اشتهر سكان حيّ الميدان على الخصوص بكرمهم الشديد، وبراعة نسائهم في تحضير أشهى المأكولات. وكان رجاله أشداء يفعلون ما يحلو لهم. ويتنذر عليهم الساخرون السوريون بالقول "خذ منهم ولا تُعطهم، تزوج من بناتهم لكن لا تزوج بناتك لأبنائهم. على أي حال، دفع الحيّ غالباً في الأرواح والأرزاق خلال الثورة.

ألقي وحيد بن هاشم بك، كلمة ترحيبية قال فيها: "نحتفل الليلة بقدوم حامل راية الوطنية، وشعلة الحرية والاستقلال، رياض بك الصلح. إن هذا الرجل الذي اختار الإخلاص مبدأه والوطنية ديدنه يستحق أن يرحّب به هذا الجمع الكريم". وقارن وحيد في شطحة من شطحات المبالغة رياض بالقائد الألماني بسمارك، والزعيم الوطني المصري سعد زغلول باشا، والقائد التركي مصطفى كمال، ودعاه إلى حشد الوطنيين الذين غالباً ما يفرّق بينهم سوء التفاهم والصراعات الشخصية. وبهذه الطريقة يمكن أن يُسمع صوت سوريا في عصبة الأمم وتُعرف المآسي التي تعيشها في كل أنحاء العالم⁽¹⁾.

اعتلى رياض المنصة، وسط تصفيق حاد، وبدأ خطابه بالكلمات التالية: "خلال التاريخ، تقفز الأمم فرحة عندما تقال بعض الكلمات. الإيطاليون على سبيل المثال لا يستطيعون أن يضبطوا شعورهم بالحماسة عندما تتحدث أمامهم عن روما، مدينتهم الخالدة. أما بالنسبة إليّ فإن مجرد ذكر كلمة "الميدان" يثير لديّ عواطف لا يمكنني وصفها. فكل ما أقوله عن هذا الحي أو عن هذه المدينة ككل، التي لا يستطيع أحد أن يدخلها من دون الشعور بالتقدير للذكريات التي تثيرها - وكل ما أقوله عن الميدان لا يمكن أن ينصف نقاءه ونبله. لقد ذاع صيته وانتشر، حتى إنه وصل إلى فلسطين، التي تبقى سورية رغم كل شيء. وإخواننا هناك يستلهمون أعمال أهل الميدان البطولية. المجد لكم، يا أبناء الميدان الأعزاء!

إننا نمرّ في مرحلة حاسمة من نضالنا. وإنني أدعوكم أن تقفوا وقفة رجل واحد حول رايتنا - راية الكتلة الوطنية.

كان الشاغور، موطن العديد من سياسيي الكتلة الوطنية وناشطيهامناصريهم من حزب الاستقلال، لاسيما شكري القوّتلي، وقد فعل ذلك بسخاء. وكان رياض يأمل من دون شك أن يدفع هذا الإطار، حيّ الميدان الذي لا يزال متردداً على أن يحذو حذوه.

أعلن رياض، من خلال مثل هذه الخطابات، مرّة تلو أخرى أن على الوطنيين كافة الاتحاد حول الكتلة الوطنية. فهذه هي الطريق للانتصار على المؤامرات التي يحوكمها أعداؤهم. وغالباً ما كان يذكر الحزب الراديكالي الفرنسي، "الحزب الأغني والأقوى في كل فرنسا"، الذي دعا إلى عقد اتفاق مع الوطنيين السوريين. وأشار إلى أنه سيعود قريباً إلى أوروبا لمتابعة النضال هناك.

بمذه اللقاءات الاجتماعية المتعدّدة والخطابات العامّة، بثّ رياض الروح في حركة المقاومة، التي لا تزال تحصى خسائرها وتضمّد جراحها في أعقاب هزيمة الثورة السورية الكبرى. وفي مثل هذه الاجتماعات، غالباً ما أجبر رجال أعزّاء كانوا موسرين ذات يوم، وهم يشعرون بالألم، على طلب المساعدة لإعادة بناء منازلهم التي دمرّت وأحرقت نتيجة الأعمال الانتقامية الفرنسية. لكن ظهرت في الجو أيضاً روح جديدة من التحدي. وعندما خرج الضيوف من منزل الحكيم وسط تصفيق سكان الحي، صاح فخري البارودي: "قبل مدة قصيرة لم نكن نستطيع النطق بكلمة 'وطن' من دون أن يشجب كلامنا أحد الجواسيس البائسين. اليوم لم نعد نخشى الجواسيس، أو المتزلفين للفرنسيين!"

المال ومشكلات أخرى

شغلت ثلاث قضايا رياض خلال زيارته المظفّرة إلى سوريا في ربيع وصيف سنة 1928. الأولى هي الحاجة إلى جمع الأموال لتمويل حملته المستمرة في أوروبا. وتشير سجلات الشرطة الفرنسية بصورة متكرّرة إلى طلبه جمع التبرّعات لتمكينه من متابعة عمله في باريس وجنيف. وقيل إنه يسعى إلى جمع 3000 جنيه مصري. كان حتى الآن يمول نفسه ذاتياً إلى حدّ كبير، لكن أموال العائلة وأمواله الشخصية بدأت بالنفاد. والثانية رغبته في أن يشرح للرأي العام السوري طبيعة عمله في الخارج، والثالثة مساهمته في النقاش بشأن كيفية حكم سوريا ومن يحكمها.

قبل عودته إلى أوروبا في شهر أيلول، أقام له أحمد الداعوق مأدبة وداعية في داره في بيروت. اختار رياض هذه المناسبة لتقديم موجز عن الموارد للوفد السوري الفلسطيني في جنيف وقال، "إنني، مثل رفاقي في الوفد، أدرك أهمية المسائل الاقتصادية،

لكن عليّ أن أعترف أن الاقتصاد ليس موضوعي المفضل". وأوضح أن الوفد أنفق خلال سنوات وجوده الثماني نحو 15,000 جنيه مصري، استمدّت إلى حدّ كبير من الموارد الخاصة للأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري وموارده. ولا يشمل ذلك مصاريف الإقامة والسفر. وقال إن الوفد ليس لديه مصدر دخل منتظم، وإن إجمالي الهبات التي تسلمها بلغت 1687 جنيهًا مصرياً، من بينها 653 جنيهًا ساهم بها آل لطف الله. وتبرعت جمعية التجار السوريين في القاهرة بمبلغ 100 جنيه، وحزب الاستقلال السوري في الأرجنتين بمبلغ 100 جنيه، وشخص سوري مغفل الاسم بمبلغ 100 جنيه، وجمعت الرابطة العربية في أستراليا والمجموعة العربية في نيويورك معاً مبلغ 190 جنيهًا. كان المغزى الواضح لهذه الملاحظات الحاجة إلى توفير أموال جديدة على وجه السرعة من أجل استمرار عمله.

في ما يتعلّق بطبيعة العمل، حرص رياض على أن يوضح أنه ليس لديه صلاحية التفاوض مع الحكومة الفرنسية نيابة عن سوريا. فذلك دور الكتلة الوطنية "التي كان موقفها الوطني مشرقاً للبلاد". وإذا ما أرسلت الكتلة وفداً إلى فرنسا، فإنه سيبدل كل ما في وسعه لمساعدته. وأعلن رياض أن "هناك إشاعات كثيرة عن طبيعة مهمتي في أوروبا. يقول بعضهم إنني ذاهب لأستطلع رأي وزارة الخارجية الفرنسية بشأن زيارة سيقوم بها وفد من الجمعية التأسيسية في سوريا إلى باريس". لكنّه شدّد على أن الدبلوماسية ليست دوره، وأن مهمته تقديم المعلومات السياسية. إنها تقوم على إقناع السياسيين الفرنسيين والرأي العام الفرنسي أن الانتداب ليس لمصلحة فرنسا على المدى البعيد، وأنه يجب التخلي عنه بأسرع وقت ممكن.

يوحي تأكيدده على هذه النقطة أنه شعر بالألم من ملاحظات سعيد محاسن الذي اتهم رياض الصلح في إحدى المقالات بإجراء مفاوضات حول مستقبل بلاد "لا يمتلك فيها قطعة أرض واحدة". لم يكن هذا الاتهام غريباً بربطه الولاء الوطني بملكية الأراضي، بل غير دقيق أيضاً، لأن رياض من عائلة نصفها من سوريا، وكان في تلك المرحلة يعتبر نفسه سورياً من الناحية السياسية والاجتماعية. وأعلن رياض، "سأتابع المهمة التي بدأتها وتقتصر على العمل بلا كلل لتحقيق آمالنا الوطنية". لم يكن الرأي العام الفرنسي يعلم حقيقة الوضع بعد. وثمة عمل كبير لا بد من إنجازه. كان يريد أن

يطلب من الحزبين الاشتراكي والراييكالي في فرنسا تنفيذ وعودهما المتعلقة باستقلال سوريا⁽¹⁾. واتفق في 30 تشرين الثاني/نوفمبر أن عضواً من الحزب الاشتراكي في مجلس النواب الفرنسي اقترح التخلي عن الانتداب على سوريا. فأسكته رئيس الوزراء على الفور⁽²⁾.

مع ذلك كان هناك شيء من الغموض الفرنسي بشأن مستقبل سوريا. كيف ستحكم؟ وكيف يحظى الانتداب بقبول شعب رافض له؟ ما هي التغييرات التي يجب إدخالها لتحقيق ذلك؟ ربما كان لدى المفوض السامي هنري بونسو بعض الأفكار الإصلاحية، لكن الجهات الاستعمارية والعسكرية في باريس التي لا تزال تتشقى بسحق الثورة السورية الكبرى كبحتة وأضعفته، مثلما حدث مع أسلافه من قبل. في أعقاب أوامر صارمة من باريس، طلب بونسو إزالة البنود المسيئة من الدستور الذي وضعه فوزي الغزي. لكن عندما لم يوافق فوزي الغزي ولا البرلمان السوري على التراجع في هذه القضية، وهي قضية حيوية للكرامة الوطنية، ردّ بونسو بسرعة بإيقاف عمل البرلمان السوري بموجب مرسوم لمدة ثلاثة أشهر، ثم حله.

في تشرين الثاني/نوفمبر، أفاد القنصل هول في تقرير أرسله إلى لندن أن رفض الدستور

خلق جواً من التوتر مماثلاً لما ساد في فترة الثورة. القوات الفرنسية في حال استنفار للتحرك على الفور... ويلزم سكان بعض القرى منازلهم خوفاً من إطلاق النار عليهم، ويتعذر عليهم ربي أراضيهم. وقد نقل العديد من القرويين الخائفين متاعهم إلى دمشق... والدروز في الجبل يعانون من الفقر الشديد... انتقلت أعداد كبيرة من الأشخاص إلى المدينة للعمل مياومين.

بعد عدة أشهر، توفي فوزي الغزي مسموماً ما أثار صدمة الرأي العام في المدينة. اتهمت الأوساط الوطنية العملاء الفرنسيين بقتله. وتبين لاحقاً أن أحدهم عبث بالأدوية، التي كان يعدّها ابن عم له يعمل صيدلاناً، وهي في طريقها إلى منزله. صوّرت حادثة الاغتيال السياسي شبه المؤكّد لهذا الرجل الصامد أنّها جريمة قتل

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, 12 Septembre 1928

(2) Sir W Tyrrell to Sir Austin Chamberlain, Paris 3 December 1928 (FO 371/13074)

عاطفية، فأنحمت زوجة الغزيّ التي سيطر عليها التوتر والحيرة، لطفية الياني، بالجريمة وسُجنت سنوات في قلعة دمشق، بالرغم من أنها ظَلَّت تُقسم أنها بريئة، بما في ذلك اليمين الذي أقسمته على القرآن أمام كل أفراد عائلتها وهي على فراش الموت بعد سنوات طويلة⁽¹⁾.

أثارت وفاة فوزي الغزيّ الغامضة، عقب الإجراءات الاستعمارية الوحشية، شكوكاً كبيرة ولا تزال حتى اليوم. وقد حرم موته سوريا من قائد، حارب الانتداب الفرنسي، ووضع مسودة نظام ديمقراطي دستوري أمل أن يرى النور بعد الاستقلال على الفور - وهو أمل لم يتحقق حتى الآن.

في هذه الفترة البائسة والمشوشة، أعلن عن كل أنواع الأفكار بشأن مستقبل حكم سوريا. هل ستكون جمهورية، أو ملكية؟ فضل معظم الوطنيين النظام الجمهوري في ذلك الوقت. ويُقال بأن رياض سعى لانتخاب زميله وصديقه الأمير شكيب أرسلان رئيساً للبلاد. غير أن تقارير أخرى أوحى أنه ربما كان يدعم ترشيح الأمير زيد، الأخ الأصغر للملك فيصل عاهل العراق، لاعتلاء العرش في سوريا، وأنه تسلم دفعة أولى تبلغ 3000 ليرة ذهبية لدعم قضية الهاشميين⁽²⁾. مع ذلك ذكرت إشاعة أخرى أن رياض الصلح يفضل أميراً سعودياً، الأمير فيصل، أحد أبناء عبد العزيز ابن سعود. وضمت لائحة المرشحين بعيدي الاحتمال أيضاً ابن باي تونس، أو أحد أعضاء العائلة الحسينية في المغرب.

سعى القناصل البريطانيون المحليون جاهدين لتابعة هذه المكائد المعقدة. وفي زيارة إلى دمشق في كانون الثاني/يناير 1929، أفاد مفتش في وزارة الخارجية الفرنسية يدعى السيد هول هول Hall-Hall في تقرير أرسله إلى لندن أن القنصل إ. س. هول يعاني من فرط الإجهاد:

لكن... غالباً ما يرى المرء المسؤولين... الفرنسيين في منزل هول. ربما يكون الرجال منجذبين إلى زوجة هول الفرنسية التي كانت تتمتع بالحيوية وحسن

(1) افتتاحية تحمل مسؤولية وفاة فوزي الغزي إلى المفوض السامي، هنري بونسو، في مجلة الحديث، حلب، 8 آب 1929؛ مقابلة مع حفيده الدكتور حسن الغزي، 27 تشرين الأول/أكتوبر 2007.

(2) MAE-Nantes (Amb.), série 199 A4, carton 20, Sûreté Générale, Damas, 4 juillet 1928

الاستقبال، رغم أنها تفتقر إلى بعض الوقار المرغوب في زوجات القناصل... اللغات التي يتحدث بها السيد هول (مرتبة وفقاً لإجادتها) هي الفرنسية، واليونانية، والإيطالية، والألمانية، والتركية، والعربية، بالإضافة إلى قليل من الإسبانية، والفارسية، والروسية، والهولندية، والبرتغالية، والرومانية! السيد بار، نائب القنصل، يتلقى حقنة بمادة الستيروئيد كل ثلاثة أيام. ويبدو السيد بوت، الموظف قيد التجربة، شاباً ذكياً رغم أنه يعاني من نوع من المرض العصبي. فهو مصاب بالخلل الشديد ولذلك يتجنب صحبة الآخرين⁽¹⁾.

زيارة رياض الناجحة إلى حلب

في ذلك الوقت، عاد رياض إلى باريس لمتابعة عمله في نشر المعلومات، وتشير رسائله إلى أنه حقق نجاحاً كبيراً لدى الحزبين الاشتراكي والراдикаلي. في نيسان/أبريل 1929، أسرع بالعودة إلى لبنان بعد أن تسلم برقية من والده مفادها "إن صحي ليست على ما يرام". وعند وصوله إلى بيروت، أراد أحد مراسلي جريدة القبس أن يعرف منه كيف يُنظر إلى المسألة السورية في باريس. فأجاب رياض "لن يكون هناك حل مرضٍ ما لم يتم التسليم بمبدأ الاستقلال"⁽²⁾. لكنه كان متفائلاً ومقتنعاً بأن الرأي العام الفرنسي يقف إلى جانبه.

بعد ذلك انهمك رياض في نشاطاته المعتادة في إلقاء الخطب والصحافة، وكان يمضي وقتاً طويلاً في مكاتب جريدة العهد الجديد، حيث شن حملة صحفية على روبير دو كيه، أمين عام سابق للمفوضية العليا في بيروت أدت سياسته إلى التقسيم البغيض لسوريا، وعُيّن لاحقاً مندوباً لفرنسا في لجنة الانتدابات الدائمة. وعندما وقعت مواجهات عنيفة بين العرب واليهود الأوروبيين في فلسطين في سنة 1929، بادر رياض إلى تنظيم التظاهرات الداعمة لعرب فلسطين في بيروت. وقد وصفه تقرير للشرطة الفرنسية بأنه محرّض وطني عنيد. أعلن رياض في خطاب ألقاه في فندق جبيلي في قرية

Report by Mr. Hall-Hall, a Foreign Office inspector, January 1928 (FO 369/ (1)
2110,2111)

MAE-Nantes, Beyrouth (Amb.), série 199 A4, carton 20, Service de presse du (2)
.Haut-commissariat, 11 avril 1929

عاليه الجبلية اللبنانية: "قامت المظاهرات رداً على الاضطهاد الذي يعاني منه عرب فلسطين. وقد منحنا الفرصة لنظهر للفرنسيين والعالم أن اللبنانيين والسوريين ينتمون إلى الأسرة العربية نفسها، وأنهم يعرفون كيف يقفون صفاً واحداً في وجه أعدائهم"⁽¹⁾. وقد وصف مراسل جريدة الأحرار الوطنية رياض الصلح، بعدما أجرى مقابلة معه في منزله الكائن مقابل البحر في عين المريسة في بيروت، بأنه "روح الحركة الوطنية"⁽²⁾.

في تشرين الثاني/نوفمبر، شرع رياض في زيارة مظفّر أخرى إلى سوريا، وهذه المرة إلى حلب، حيث رحّب به القادة الوطنيون - سعد الله الجابري، والدكتور عبد الرحمن الكيالي، وإبراهيم هنانو، والدكتور ناظم القدسي - بالإضافة إلى الوجهاء المسيحيين، ميخائيل إليان، وإدمون حمصي، ونعيم انطاكي، وإدمون رباط. أفادت المخابرات الفرنسية أن زيارته ترمي إلى جمع التبرعات للوفد السوري في أوروبا ولصحيفته البيروتية، العهد الجديد. وكان يأمل أيضاً في رأب الصدع بين القادة الوطنيين الذين لم يكونوا دائماً على وئام. فقد كان مناصرو سعد الله الجابري على خلاف مع مناصري إبراهيم هنانو وعبد الرحمن الكيالي. فرأى رياض بأن عليه إصلاح ذات البين.

عُقد اجتماع في مقهى الإمبريال Café Imperial في 26 تشرين الثاني/نوفمبر تكريماً لرياض وكان ممثلاً لكثير من التجمّعات التي حضرها. افتُتح الاجتماع بكلمة ألقاها الدكتور عبد الرحمن الكيالي الذي أشاد بدور رياض الريادي في قضية استقلال سوريا، وعدّد التوضيحات التي قدّمها لإيصال المطالب الوطنية إلى الدوائر الحاكمة في الغرب. تلا ذلك قصيدة حماسية ألقاها عمر زيني، ثم كلمة ألقاها ميخائيل إليان، ثم قصيدة أخرى ألقاها يوسف حصير ترثي الشهداء الذين سقطوا على يد الأتراك (أفادت المخابرات الفرنسية أنها "أثرت في الحضور كثيراً"). تبع ذلك خطاب طويل ألقاه الدكتور الكيالي عن عمل الوفد السوري في الخارج، وكيف عانى من الأكاذيب التي حاكها المتآمرون ضدّ مهمته. ثم ألقى عمر زيني قصيدة أخرى تدور حول الحرية، استمع إليها الحضور بحماسة كبيرة.

MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199 A4, carton 20, note de (1)
l'Inspecteur-Général des Polices, Beyrouth, 31 Août 1929

(2) الأحرار، بيروت، 22 تشرين الأول 1929.

وقف رياض ليخبر الحضور أنه يحمل رسالة من الحزب الاشتراكي الفرنسي يقرّ فيها بأن سوريا أصبحت مهياة للاستقلال وعضوية عصبة الأمم. وقال إن سوريا تريد استقلالاً على الطريقة الغربية، لا استقلالاً على الطريقة "الشرقية". وقارن السياسة الفرنسية في سوريا على نحو سلبي بالسياسة البريطانية في العراق، حيث يجري التخلي عن الانتداب. وهاجم روبر دو كيه. ودعا إلى الوحدة بين المسيحيين والمسلمين التي قال إنها ضرورية لإحباط المحاولات الغربية الرامية إلى تقسيمهم. وقد أحدث خطابه وقعاً في نفوس الحاضرين. وضع الأمن العام الفرنسي عشرة رجال شرطة احتياطيين في مركز قريب، لكن لم تدع الحاجة إليهم إذ لم يحدث إخلال بالأمن بعد الاجتماع⁽¹⁾.

في اليوم التالي، في 27 تشرين الثاني/نوفمبر، أقام القائد الوطني المخضرم إبراهيم هنانو حفلة شاي أعلن فيها رياض أن "الوفد السوري تعهد ألا يتوقف عن المطالبة باستقلال سوريا، ما بقي أي من أعضائه على قيد الحياة". وتطرق ثانية إلى الحاجة إلى التفاهم بين المسيحيين والمسلمين. ولاحظ أن التفاهم التام يسود الآن العلاقات بين المسيحيين والمسلمين في الساحل اللبناني. إنهم إخوة يجمع بينهم رابط مشترك ببلدهم. وأعلن أن "علينا أولاً إرضاء المسيحيين الذين يعيشون بيننا". الوحدة تتطلب التضحيات وعلى المسلمين أن يكونوا سباقين في تقديمها. وقد شكّل هذا الموضوع أساس سياسته في لبنان من الآن فصاعداً.

وحياً مدينة حلب قائلاً إنه لن ينسى أولئك الذين واسوه عند مروره في المدينة في طريقه إلى المنفى في سنة 1916. وفي الأسابيع التي أمضاها في حلب، تردد رياض على منزل آل الجابري، حيث أصبح بالفعل من أفراد العائلة. وقد أفادت المخابرات الفرنسية أنه خطب فائزة ابنة البرلماني العثماني الراحل نافع باشا الجابري، وهو شخصية سنية بارزة. وكانت إحدى وراثت ثروته الطائلة التي قدرت بنحو 200,000 ليرة ذهبية⁽²⁾. وتزوج رياض الصلح من فائزة الجابري بعد بضع سنوات.

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth, Série B, carton 20, Sûreté Général, Aleppo, 28 novembre 1929

(2) MAE, Fonds Beyrouth, série B, carton 20, deuxième bureau, Beyrouth, 26 décembre 1929

كانت الشقاكات في المعسكر العربي عديدة أيضاً. ففي لبنان، كان السياسيون الموارنة الموالون لفرنسا يخططون لإبعاد الوطنيين العربيين عن السياسة كلياً. وفي سوريا، ساد انقسام عميق الحركة الوطنية: الأخوان البكري يهاجمان آل الصلح، والشهبندر يتأمر على شكيب أرسلان، والأمير ميشال لطف الله يشعر بالمرارة لتبخر آماله بإقامة إمارة مشرقية، والجمهوريون يخشون من طموحات الهاشميين الملكية، وحلب تنافس دمشق. وخلفت الثورة السورية الكبرى ندوباً عميقة. بل إن الفرنسيين أنفسهم لم يكونوا واثقين من الطريق الذي ينتهجونه. لقد سحقوا الثورة بوحشية، لكنهم فشلوا في إيجاد أي تسوية سياسية. وكان الجيش الفرنسي المتمركز في بيروت أو الحزب الاستعماري في باريس يُسقط كل مفوض سامٍ يحاول إجراء مفاوضات سياسية خلاقة.

مع ذلك، تابع رياض الصلح بطريقة ما التعبير عن حماسة الوطني الملتزم والأمل بأن تتحقق الأهداف المرجوة بالوحدة والاستقلال ذات يوم. وبحلول 1928-29، أصبح واحداً من أبرز الشخصيات السياسية المسلمة في لبنان وسوريا. وحظيت حملاته الجريئة بلا كلل في باريس وجنيف باهتمام أكبر مما حظي به أي من معاصريه. وقد تعهّد بمواصلة القتال في مرحلة اتسمت بالغموض واليأس الكبيرين، عندما بدأ بعضهم يشعر بأنه ربما ليس أمامهم خيار سوى الخضوع للحكم الفرنسي.

الفصل التاسع

رجل الشعب

كانت أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن العشرين أوقات صعبة على رياض الصلح والحركة القومية العربية التي كرس حياته لها. فقد عانت سوريا ولبنان من بؤس شديد، وحلّف الركود العالمي أثراً كارثياً على مستويات المعيشة. وأدى الانكماش في لبنان بين سنتي 1929 و1930 إلى تراجع الأجور نحو 50 بالمئة. في سنة 1932، بلغ متوسط أجر العامل غير الماهر 11 فرنكاً في يوم من 10 ساعات (6 فرنكات للنساء و3 للأطفال). وكانت قيمة العملة قد انخفضت في دول المشرق بنسبة 500 بالمئة منذ سنة 1914⁽¹⁾. إذا وضعنا جانباً العسر الذي تعاني منه الطبقة العاملة، وهو ما كان رياض حساساً تجاهه، فقد أصاب الضعف القضايا التي يحارب من أجلها. وساد إحساس عام بالهزيمة والتشاؤم المعسكر الوطني. بدا الوجود الفرنسي في لبنان وسوريا راسخاً لا يتزعزع، فيما يقدم البريطانيون المساعدة للصهيانية في إقامة "وطن قومي" لهم في فلسطين، وسط المعاناة الكبيرة للسكان العرب المحليين. راقب رياض الموقف بقلق، فيما صديقه، الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين، يجاهد يائساً للتصدي للموجة المتعازمة لهجرة اليهود الأوروبيين إلى فلسطين.

كان العزاء الوحيد الذي شعر به رياض في تلك الأيام الصعبة عزاء شخصياً، حيث تعازمت سمعته كقائد بارز بين أبناء جيله. ففي سنة 1929، ففي الخامسة والثلاثين من العمر، اكتسب رياض سمعة عالمية كمنافس للوجود الفرنسي والبريطاني في المشرق، ومدافع مفعّوه عن تحرير العرب. وكان ديناميكياً، ذا حضور كاريزمي، وسريع البديهة، وفي ذروة حيوية الشاب، فلم تحتف به الدوائر الوطنية في سوريا ولبنان وفلسطين فحسب، وإنما اشتهر كناشط سياسي في باريس وجنيف أيضاً. أقام علاقات جيدة مع الصحفيين والبرلمانيين الفرنسيين، وكان بمثابة شوكة في خاصرة بعثة

(1) Jacques Couland, *Le Mouvement Syndical au Liban 1919-1946*, Paris 1970, p. 137

اللجنة الدائمة للانتدابات في عصبة الأمم، التي ألفت سيل الرسائل والعرائض الحماسية التي يوجّهها إليها رياض الصلح وزميلاه النشيطان في الوفد السوري الفلسطيني، شكيب أرسلان وإحسان الجابري.

لكن لم يكن كل شيء على ما يرام وراء هذا المظهر الشجاع الذي طالما حرص رياض على الظهور به. فقد حاصرت فرنسا وحلفاؤها المحليون على هامش الحياة السياسية في مسقط رأسه في بيروت. ولأنه قائد سني ذو آراء قومية عربية قوية، استبعد عمداً عن الحياة السياسية السائدة، التي اقتصرت على السياسيين المستعدين للتعاون مع الفرنسيين. واعتبرته المفوضية العليا الفرنسية القوية وأجهزة الاستخبارات الاستعمارية محرراً خطيراً وأبقت تحت المراقبة الشديدة. اقتصر مؤيدو رياض في ذلك الوقت على الشارع وفي الصحافة المعارضة ونقابات العمال الوليدة. ولم يكن لديه حتماً مؤيدون في البرلمان أو المؤسسات الأخرى التي تخدم الفرنسيين في لبنان الكبير، أو في السرايا، أي مقر الحكومة الذي تحوم حوله الشبهات.

في سوريا، بقي رياض، باعتباره لبنانياً، عضواً مشاركاً وليس عضواً كاملاً العضوية في الكتلة الوطنية على الرغم من علاقته الوثيقة بقادتها وتقديرهم له وتكريمه. وفي المؤتمر الذي عقد في حمص في سنة 1932، شكّلت الكتلة مكتباً يتكوّن من سبعة أعضاء منتخبين: هاشم الأتاسي، رئيساً؛ وإبراهيم هنانو، زعيماً؛ وسعد الله الجابري نائباً للرئيس؛ وفارس الخوري، عميداً؛ وجميل مردم وشكري القوتلي وعبد الرحمن الكيالي، أعضاء. وسُمّي رياض وشخصيتان لبنانيتان بارزتان، عبد الرحمن بيهم وعبد الحميد كرامي، مشاركين.

وداعاً جنيف

بحلول سنة 1930، شعر رياض أن محاولته المستمرة التأثير في عصبة الأمم في جنيف عمل مرهق وغير مجد في نهاية المطاف، لم يحقق سوى القليل من الفائدة السياسية. تبين أن تقديم العرائض إلى اللجنة الدائمة للانتدابات في عصبة الأمم مضيعة مكلفة للوقت، إذ تمّ تجاهل كل المناشدات الموجهة إليها بفضاظة. وفي أوروبا، في فترة

ما بين الحرين، حيث كانت القوى الإمبريالية تتنافس في ما بينها على دوائر نفوذها، لم يكن هناك سوى قليل من التعاطف مع النضال العربي لطرد الحكم الاستعماري في المشرق وشمال أفريقيا.

لقد تأثر رياض كثيراً بعلاقته بالأمير شكيب أرسلان، وهو شاعر وأديب ونائبيل يكبره بنحو خمس وعشرين سنة، ويعامله كأخ أصغر أو ابن. وكان الأمير يعلم أن رياض دائم الافتقار إلى المال وأنه يمول نفسه ببيع أراضي العائلة وممتلكاتها. وفي إحدى رسائله، حث رياض راجياً إياه عدم تبديد كل ما يملك من دون أي تفكير في المستقبل:

لا أريد أن تكون كلماتي الأبوية عبئاً عليك، لكنني أحثك على ألا تبيع كل ما تبقى لك من أملاك وتحرم نفسك من كل ممتلكاتك، حتى إذا كانت القضية قضيتنا.

إذا وجدت نفسك - لا قدر الله - في حاجة ذات يوم، فلن يتذكر أحد الخدمات التي قدمتها للعرب أو المصاريف التي تكبدتها. حاول التمسك بما بقي لديك حتى تعيش حراً ومستقلاً عن الآخرين⁽¹⁾.

لم تسمح سعية رياض له بأن يأخذ بتلك النصيحة، فتراكمت عليه الديون بسرعة على نحو العادة. وحافظ على صلته وولائه لشكيب أرسلان وإحسان الجابري طوال حياتهما، لكن سنة 1930 كانت السنة الأخيرة التي يمضي فيها رياض وقتاً طويلاً معهما. وفي شهوره الأخيرة في جنيف، ساعد في تحرير مجلة "الأمة العربية" *La Nation Arabe* التي تصدر باللغة الفرنسية، وهي "مجلة شهرية تعنى بالشؤون السياسية، والأدبية، والاقتصادية والاجتماعية" توصف بأنها "أداة الوفد السوري الفلسطيني إلى عصبة الأمم التي تخدم مصالح البلدان العربية والمشرقية". نشرت هذه المجلة مذكرات عديدة بتوقيع أرسلان والجابري والصلح، موجهة إلى عصبة الأمم وهيئات أخرى، تتحدث عن الأعمال الاستعمارية المسيئة للبريطانيين في فلسطين والفرنسيين في سوريا ولبنان. كانت المجلة تحرر في مكاتب الوفد في 16 بولفار هلفتيك، جنيف، وهناك كان رياض يمضي الأيام الطويلة منكباً على العمل. صدر 38 عدداً من مجلة "الأمة العربية" ما بين

سنّي 1930 و1938⁽¹⁾. وفي أيلول/سبتمبر 1931، تغيّر عنوانها وأزيلت الإشارة إلى الوفد، لكن في ذلك الوقت استرعت الأحداث الجارية على الأرض في سوريا ولبنان اهتمام رياض.

تابع شكيب أرسلان وإحسان الجابري العمل بمفردهما. وأشار تقرير للمخابرات السويسرية بتاريخ 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1933 إلى أن "جميع اتجاهات الشؤون العربية تمرّ عبر جنيف بفضل شكيب أرسلان ورفيقه الحميم إحسان الجابري"⁽²⁾. لكن وزارة الخارجية البريطانية كان لها رأي أقل استبشاراً حيث وصفت المجلة بأنها "مثيرة للفتن وصيبانية"⁽³⁾. ومن الواضح أن وجود مجلة في جنيف تروّج لقضية الاستقلال العربي لم يكن موضع ترحاب من قبل قوة استعمارية مثل بريطانيا.

مع تقدّم ثلاثينيات القرن العشرين، تكرّر اتهام المجلة ومحريها بالوقوف إلى جانب الفاشيين، مع أن نضالهما من أجل تحرّر العرب سبق بروز موسوليني وهتلر بوقت طويل. لا شك في أن بعض الوطنيين العرب لجؤوا إلى طلب المساعدة من إيطاليا أو ألمانيا على أمل أن تضع هاتان القوتان حدّاً للقمع الكبير الذي يفرضه عليهم البريطانيون والفرنسيون. لكنهم كانوا قلة. فقد وجد الوطنيون العرب الذين يناضلون من أجل الاستقلال - سواء أكانوا مصريين أم سوريين أم تونسيين أم جزائريين أم مغربيين - دعماً من اليسار يفوق كثيراً ما وجدوه لدى اليمين. ففي فترة ما بين الحربين، أصبحت منظمات الجبهة الشيوعية، مثل رابطة الشعوب المضطهدة، شديدة الارتباط بقضية التحرّر من الاستعمار، بحيث أدين الوطنيون العرب بانتظام بأنهم "محرزون شيوعيون".

من المستغرب جداً (وهو أمر شوهد بانتظام أيضاً في أوساط الشيوعيين الإيطاليين ذوي الخلفيات الأرستقراطية) أن يتطلّع المناضلون الوطنيون العرب المتحدّرون من عائلات وحيّة، مثل رياض الصلح وشكيب أرسلان وإحسان الجابري، إلى دعم

(1) Fleury, "Le Mouvement national arabe à Genève durant l'entre-deux-guerres", pp 329-354. صدرت الأعداد الثمانية والثلاثين من مجلة *La Nation Arabe* في سنة 1988 في أربعة مجلدات طبق الأصل عن Archives Editions, Farnham Common, Buckinghamshire, UK.

(2) المصدر نفسه، ص 345.

(3) Foreign Office Records of Leading Personalities in Syria and Lebanon, 14 March 1938 (FO371/21914-115136).

الحركات الثورية التي كانت أهدافها تتعارض مع المصالح الفعلية لعائلاتهم. فقد سعى أرسلان إلى الحصول على دعم لقضيته آنى وجده، من اليسار واليمين. كان صديقاً شخصياً للإمبراطور الألماني السابق فلهم الثاني. وحلّ ضيفاً على الحكومة السوفياتية في سنة 1927، فضلاً عن مختلف الولايات الأميركية. عقد اجتماعات مع موسوليني، لكنه دُعي لحضور المؤتمر الاشتراكي في بروكسل في سنة 1928 حيث شارك قبل عام، في اجتماع مناهض للإمبريالية. وكان على معرفة بالسنانور الفرنسي الشيوعي مارسيل كاشين ومحرر صحيفة "لومانيتيه" غابرييل بيري. وقد نقل العديد من تلك العلاقات إلى رياض الذي كان معجباً كثيراً بتفانيه السياسي واستقامته الشخصية.

وكلما اتهم أرسلان أنه عميل للبلشفية أو الفاشية، ردّ قائلاً: "إننا نكره كل أشكال الديكتاتورية من دون استثناء سواء أكانت فاشية أم كمالية أم بلشفية أم عسكرية فرنسية في سوريا وشمال أفريقيا، أو أي نظام من هذا النوع. وإننا نصنّفهم جميعاً في الفئة نفسها ونناشد الضمير العالمي أن يحكم عليهم بما يستحقون." (1) كان ذلك موقف رياض الصلح إلى حدّ كبير أيضاً.

عرض عضلات لصالح رياض

وقعت حادثة غريبة في ذلك الوقت تقريباً، ورغم أنها لا تعدو أن تكون زوبعة في فنجان، فإنها سلّطت الضوء على مجرى الحياة العامة في بيروت وشعبية رياض غير العادية. يجب أن نذكّر أن سامي الصلح، الذي أصبح الآن قاضياً في محكمة الاستئناف، كان متزوجاً من شقيقة رياض، بلقيس. وهو ابن عبد الرحيم الصلح شقيق أحمد باشا وابن عم رياض وصهره أيضاً. كان سامي معروفاً بسرعة غضبه، وغالباً ما يُقحم نفسه في نزاعات مع المسؤولين الفرنسيين. في إحدى المناسبات حصل شجار عنيف بينه وبين ضابط فرنسي وجّه إليه إهانة، فصفعه سامي الصلح على وجهه. كان الإقدام على مثل هذه الفعلة أمراً خطيراً جداً في ظل الحكم الفرنسي. فسارع إلى البيت وطلب من زوجته أن تحزم أغراضها على الفور، وصاح، "ستغادر هذا المكان، علينا الرحيل من هنا". لكن بلقيس كانت تعرف زوجة المفوّض

السامي الفرنسي التي كانت قد التقتها في مناسبة اجتماعية في أحد صالونات بيروت. فقررت زيارة السيدة بونسو في الحال.

بادرت بسؤالها، "ماذا تفعلين إذا وجّه أحدهم أهانة إليك وإلى بلدك؟" أجابتها السيدة بونسو الجريئة، "أصفعه على وجهه". وهكذا سوّيت المسألة هناك.

وفي مناسبة أخرى، في كانون الأول/ديسمبر 1932، غضب سامي الصلح عندما علم أن ألفريد ثابت، وهو قاضي موال لفرنسا في محكمة الجنايات، استجوب شقيقه الأصغر ممتاز بقسوة. وكان لذلك علاقة بفضيحة عقارية زُعم أن ممتازاً متورط فيها. ذهب سامي الصلح لمقابلة ثابت في مكتبه وبعد مناقشة حادة بينهما، سارع إلى تقديم شكوى إلى الرئيس شارل دباس بشأن ما اعتبره إهانة متمدة لعائلة الصلح بأكملها. وحرصاً على تهدئة الأمور، استقبل دباس رياض الصلح في منزله بعد ظهر ذلك اليوم لسماع وجهة نظر آل الصلح، ثم استدعى ألفريد ثابت لسماع روايته للمسألة. وبعد ذلك أقنع ثابت بزيارة رياض لإبلاغه أنه لم يقصد إهانة ممتاز البتة. صدّق رياض كلامه وسوّيت المسألة في ما يتعلق به.

لكن الأمر لم يكن كذلك لدى آخرين. ففي اليوم التالي، اتفق أن كان رياض في قصر العدل يتحدث إلى رفاقه ومجموعة من المحامين في انتظار انضمام سامي إليهم، اتجه نحوه شاب وصاح، "من منكم رياض الصلح؟ يبدو أنّ آل الصلح يريدون القتال! سنريهم! سنكسر أكبر رأس فيهم". ردّ رياض بابتسامة على ذلك التصرف غير اللائق وسأل الشاب إذا كان "تكسير الرؤوس سيتم في قصر العدل". وبعد بعض الشجار، تم التغلب على الشاب وطرده من قصر العدل، وتبيّن أنّه جورج، شقيق ألفرد ثابت الأصغر. وفي غضون ساعات انتشر خبر هذه الواقعة في جميع أنحاء بيروت.

بدأ حشد في التجمّع خارج مكتب رياض الصلح في شارع أَلنبي في وسط بيروت. وقدم الأصدقاء والمعارف لتقديم الدعم وأسرع الصحفيون إلى مسرح الحدث. وعندما عاد رياض إلى منزله في ذلك المساء، علم بحدوث تطوّر مشووم آخر في تلك القضية. فقد تعرّض ألفريد ثابت للضرب في الشارع من قبل اثنين من

آل الصلح، حسيب وعماد الصلح، وقد بلغت بما المرأة إلى حدّ التوجّه إلى البيت لتناول الغداء قبل التفكير في تسليم نفسيهما إلى الشرطة.

استدعى قائد الشرطة، عز الدين العمري، رياض الصلح إلى مقر قيادة الشرطة. وعندما انتشر خبر وجود رياض في مركز الشرطة في ساحة الشهداء، بدأت أعداد كبيرة من مؤيديه تتجمّع خارج المبنى. وكان في وسعهم، من الرصيف المقابل، مشاهدة رياض وهو يمشي جيئةً وذهاباً في مكتب قائد الشرطة. وكان بين الحين والآخر يتجه إلى النافذة ويلوّح بيده وكأنه يطمئنهم إلى أن كلّ شيء على ما يرام.

لكن في غضون ذلك، انتشرت أخبار تلك الواقعة خارج بيروت إلى مدن وبلدات أخرى في لبنان وسوريا، حيث فُسّرت بأنها مواجهة بين الوطنيين والفرنسيين. بدأت وفود المؤيدين بالتدفق إلى بيروت قادمة من مناطق بعيدة في لبنان وسوريا مثل طرابلس ودمشق وحماة. وقاد الشيخ يوسف الخازن، وهو عميد عائلة مارونية مهمة، وفداً كبيراً من منطقة كسروان شمالي بيروت. أدى ذلك إلى زحمة سير خانقة، وغصّ منزل رياض الصلح بالحشود التي تريد الاطمئنان عليه. أوردت صحيفة النداء القومي - وهي صحيفة يملكها ويرأس تحريرها كاظم الصلح، أحد أولاد عم رياض - تغطية كاملة لهذه الأحداث من وجهة نظر تميل لصالح رياض، فأقدمت السلطات على إغلاقها⁽¹⁾. استغلت الصحف الوطنية في دمشق هذه الفرصة لشنّ هجوم عنيف على سلطة الانتداب القمعية والدفاع عن رياض⁽²⁾. اتهم نجيب الريس، محرّر جريدة القبس السلطات "بمحاصرة" البطل القومي. كتب "أن من يريد كسر رأس رياض الصلح لم يولد بعد، لا في بيروت ولا في دمشق"⁽³⁾.

نتجت عن هذه الحادثة ثلاث دعاوى قضائية على الأقل: دعوى رياض الصلح على ألفرد وجورج تابت؛ ودعوى ألفريد تابت على الشاين المعتدين عماد وحسيب الصلح؛ ودعوى الحكومة على صحيفة النداء القومي ومالكها كاظم الصلح. تطوّع أكثر من مئة محامٍ من لبنان وسوريا للدفاع عن آل الصلح. وحضر ضعف هذا العدد

(1) النداء القومي، 27 كانون الأول 1932.

(2) انظر القبس والأيام من 25 كانون الأول 1932 حتى نهاية كانون الثاني 1933.

(3) القبس، 26 كانون الأول 1932.

جلسة الاستماع لإظهار تضامنهم معهم في 27 كانون الثاني/يناير 1933. وقد حكمت المحكمة لصالح آل الصلح على الرغم من أن لجنة تأديبية وجهت اللوم إلى سامي الصلح لأنه أثار المشكلة أصلاً. علّق إصدار النداء القومي حتى آذار/مارس. وأخلي سبيل عماد وحسيب الصلح بموجب غرامة أصرّ الناس على دفعها بدلاً منهما. وقد استقبلهما المؤيّدون بالترحاب عند أبواب السجن، وحيوا رياض وسامي الصلح، وأنشدوا السلامين الوطنيين السوري واللبناني قبل أن يتفرّقا.

رياض يفتح مكتباً للمحاماة

في أوائل سنة 1933، قرّر رياض أن يكسب عيشه بنفسه. فقد كان يعاني من صعوبات مالية كالعادة، حيث رُهنّت معظم ممتلكاته أو بيعت، وصُرفت الأموال على النشاطات السياسية والمغامرات الصحفية. ولم يكن يرّد الملتسمين دون أن يقدم لهم هدية. وقد أدّى سخاء رياض المفرط إلى إضعاف علاقته بوالده منذ بضع سنوات، ولم تعد إلى سابق عهدها تماماً. انتقل رضا إلى العيش في بيروت في سنواته الأخيرة، لكن زوجته نظيرة كانت تتركه هناك في أغلب الأحيان وتقيم مع ابنها المحبوب.

شعر رياض أنه بدّد ثروة العائلة، فرأى أن الوقت حان ليتحمل بعض المسؤولية المادية تجاه والديه وشقيقاته. ومن المرجّح أن صراعه القانوني مع آل ثابت جعله يفكر أخيراً في بدء العمل في المحاماة. وكان قد حصل قبل عشرين عاماً على شهادة مرموقة في الحقوق من استانبول، والتحق بنقابة المحامين عندما استقرّ في بيروت، وأبلغ رسمياً بحقه في مزاوله المهنة. بيد أنه أثر عدم القيام بذلك حتى الآن. لكن بالنظر إلى نفوذه وفصاحته، واتساع دائرة أصدقائه ومؤيديه، فقد شعر أن في وسعه النجاح على الرغم من قَدَم معلوماته القانونية. سأله والده ذات يوم، "هل تحب مهنتك الجديدة؟" فأجاب، "لا أحبها، بل أستفيد منها! ليس لدي طموحات قانونية، لقد انتقلت إلى نقابة المحامين مثلما يهاجر أي شخص إلى أميركا؛ لجني المال".

بدا أن إنشاء مكتب محاماة هو السبيل إلى ذلك. باعت والدته سواراً من الزمرد لتأمين فرش المكتب - ألواح من خشب الورد لكسوة الجدران وفرش من المخمل الأخضر. ووضعت على قاعدة في مكان بارز من الغرفة نسخة رخامية من "أسد

بلفورت"، قدّمها له طلاب لبنانيون في باريس تقديرًا لدفاعه كالأسد عن الوطن العربي (الأسد الأصلي، وهو نصب حجري كبير، مقام في بلفورت شرقي فرنسا تخليدًا لذكرى المقاومة الباسلة للمدينة في أثناء الحصار البروسي في حرب 1870 - 1871). في البداية كان رياض شديد الحماسة. فوظف محامين شايين ليساعده وشرع بالعمل. لكنه ترك لهما إدارة المكتب بعد بضعة أشهر. ولم يبقَ ما يدل على وجوده هناك سوى اللوحة النحاسية اللامعة التي تحمل اسمه على الباب.

غير أن ثمة حادثة تشهد على مكانته الشعبية، إن لم يكن نجاحه كمحام. عندما حاول المدعي العام الفرنسي إبعاد رياض عن نقابة المحامين، هدّدت النقابة بالإضراب على الفور. دُهِش الفرنسيون من هذا الموقف التضامني، فقرروا التراجع بحكمة⁽¹⁾.

نصير العمال

من الأسباب المهمة لشعبية رياض الكبيرة في أوساط الفقراء في لبنان دفاعه القوي عن حقوق الطبقة العمالية. ولعله أول من استوعب من السياسيين الوطنيين من أبناء جيله أن النضال من أجل حقوق العمال جزء حيوي من النضال من أجل الاستقلال. وربما تأثر بما عرفه عن نقابات العمال في أوروبا. على أي حال، لقد سبق معظم معاصريه في هذا الشأن، ولكنه واجه تحديات صعبة هنا أيضاً. اعتبرت المفوضية العليا الفرنسية أي محاولة يقوم بها العمال للانتظام دفاعاً عن حقوقهم بمثابة "تحريض وطني" أو "تخريب شيوعي". وكان قد صدر مرسوم في تشرين الثاني/نوفمبر 1930 يعاقب على "الدعاية الثورية" بالسجن خمس سنوات مع الأشغال الشاقة؛ كما صدر مرسوم آخر في حزيران/يونيو 1931 يحظر كل الاجتماعات العامة؛ وصدر مرسوم ثالث في أيلول/سبتمبر 1932 يُلزم بمقاضاة أي مالك يسمح بعقد "اجتماعات غير شرعية في منزله"⁽²⁾.

لم تردع هذه التدابير القاسية 400 عامل من شركة بيروت للتراموي والإنارة، وهي شركة امتيازية فرنسية، من الإضراب بين 1 و17 تموز/يوليو للمطالبة بزيادة

(1) Alia el-Solh, *Le Jour*, 12 December 1965.

(2) إنني مدين لـ كولان Couland, *Le Mouvement syndical* بالمعلومات المذكورة عن الحركة العمالية في لبنان.

أجورهم وتحسين شروط العمل، ودعوة العمال الآخرين للانضمام إليهم. وشارك عمال الطباعة وصانعو الأحذية وعمال الخشب والتبغ في التوقف عن العمل. ردّ الفرنسيون بإنزال العقوبات على الفور. فاعتقل اثنا عشر من "قادة الإضراب"، وأبعد ثلاثة أعضاء من "لجنة نقابات العمال" الحديثة التكوين إلى قلعة جزيرة أرواد، حيث كان رياض الصلح قد سجن ذات مرة. ولبثوا هناك مدة سنتين رهيبتين إلى أن أصدر المفوض السامي هنري بونسو العفو عنهم في سنة 1928.

كانت شركات امتيازية فرنسية تدير المصالح العامة الرئيسية في بيروت، مثل مصالح المياه، والكهرباء، والنقل العام والبريد والبرق، وإدارة المرفأ، بإشراف المفوضية الفرنسية العليا التي عيّنت نفسها وريثاً شرعياً للدولة العثمانية. وظلّت المفوضية العليا الفرنسية مسؤولة عن المواطنين الأجانب وحماية مصالحهم التجارية والمالية حتى بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية. وقد ألحق مكتب خاص باسم "إدارة خدمات الامتيازات والأشغال العامة" بالمفوضية العليا الفرنسية وانضم في ما بعد إلى ما عرف باسم "إدارة الخدمات العامة"، وهي هيئة تدير المرافق العامة وغيرها من المصالح المشتركة بين لبنان وسوريا⁽¹⁾.

ربما كان لا مفر من أن تصبح الشركات الامتيازية الفرنسية أهدافاً رئيسية لحركة النقابات العمالية الوليدة. وفي تحدٍّ للقمع الفرنسي، أعيد إنشاء لجنة نقابات العمال سرّاً بمساعدة وتوجيه الحزب الشيوعي السوري، الذي كانت لجنته المركزية تتكوّن من فؤاد الشمالي وأرتين مدويان وهيكازون بويادجيان وفريد طعمه. ولا شك في أن الشمالي، الذي مثل الحزب الشيوعي السوري في المؤتمر الشيوعي الدولي الرابع الذي انعقد في موسكو في سنة 1928، كان العضو الأبرز في الحزب. في سنة 1929، نشر كتاباً مهماً باسم نقابة العمال وأسس جريدة صوت العمال التي صدر منها أربعة أعداد فقط قبل أن تغلقها السلطات.

في أواخر عشرينيات القرن العشرين، انتقل مركز ثقل حركة العمال العرب من حيفا إلى بيروت، وترسّخت جذوره في صناعة التبغ، حيث أدت مكنته تصنيع السجائر، في القطع واللف والتوضيب، إلى حرمان آلاف الرجال والنساء من مورد

(1) Carla Eddé, "La Mobilization 'populaire' à Beyrouth à l'époque du Mandat, le cas des boycotts des trams et de l'électricité", in Méouchy, France, Syrie et Liban, p. 350.

رزقهم، ما أجبرهم على الانتقال من قراهم الجبلية إلى البلدات الساحلية بحثاً عن عمل. في أيار/مايو 1930، تظاهر مئات من عمال التبغ أمام مقر الحكومة في بيروت، ما دفع السلطات إلى الرد باعتقالات وأحكام سجن قاسية غير عادية.

وفي نيسان/أبريل 1931، أطلقت "لجنة شعبية" أخرى حملة مقاطعة أخرى، لشركة بيروت للتراموي والإنارة، بعد أن قالت بلدية بيروت إنها تجني أرباحاً مفرطة. فضجت المدينة كلها وتعالّت الأصوات. قدّمت العديد من الشركات المحلية عروضاً بتزويد الكهرباء بأسعار أقل بكثير. وامتدت مقاطعة الكهرباء والتراموي إلى دمشق وحلب وحمص وحماه، مع أنها تلاشت قبل الحصول على تنازلات كبيرة من الشركة. غير أن مثل هذه المقاطعة أشارت إلى بروز العمال الحضريين كقوة جديدة في السياسة العربية. كان ذلك مختلفاً جداً عن دفاع الوجهاء التقليديين الذين كانوا إبان العهد العثماني وما يليه الوسطاء الرئيسيين بين السلطات والشعب⁽¹⁾. اتهمت السلطات الفرنسية رياض وكاظم وتقي الدين الصلح بأنهم المحرضون البارزون على المقاطعة، على الرغم من انتمائهم إلى إحدى العائلات التقليدية البارزة.

في غضون ذلك، امتدت تلك الحركة إلى عمال الطباعة الذين بدؤوا في سنة 1929 بإصدار مجلة شهرية تدعى *اليقظة*، وكانت ذات تطلعات عروبية واضحة. وصفت المجلة نفسها أنها "أداة العمال العرب في كل مكان"، لا سيما عمال الطباعة في سوريا ومصر والعراق وفلسطين. وفي لبنان شنت *اليقظة* حملة على تعليق صدور الصحف الوطنية بصورة متكررة من قبل المفوضية العليا، حيث كان يدوم التعليق عدة أشهر في بعض الأحيان، ما يؤدي إلى الطرد التعسفي لعمال الطباعة من دون تعويضات. في العدد الثالث من مجلة عمال الطباعة، انبرى رياض إلى الدفاع عنهم، معلناً أن نقابتهم تلعب دوراً أساسياً في النضال ضد الشركات الامتيازية التي يمتلكها الفرنسيون - وضد الانتداب الفرنسي نفسه.

كانت نقابة سائقي سيارات الأجرة، التي تشكلت في سنة 1929 وعُرفت باسم جمعية تعاضد السواقين، مركزاً مهماً آخر للنشاط النضالي. فقد انضم إليها مئات الأعضاء، والآلاف في نهاية المطاف، بمن فيهم السائقون المالكون للسيارات الخاصة،

(1) المصدر نفسه، ص 364.

والسائقون المأجورون، وميكانيكيو السيارات، بل حتى أصحاب ورش تصليح السيارات. أضرب أعضاء تلك الجمعية في أوائل سنة 1929، ثم في آب/أغسطس 1930 مطالبين بتعديل الضرائب المرتفعة والغرامات، وقوانين المرور التمييزية. وفي 28 كانون الثاني/يناير 1932، انتقل عدد كبير من سائقي سيارات الأجرة في موكب كبير إلى بكركي، مقر البطريك الماروني، أنطون عريضة، على أمل الحصول على دعمه لهم، لكنهم فشلوا في ذلك.

تحوّلت جمعية تعاضد السوّاقين، بتشجيع من رياض الصلح إلى حدّ كبير، من مجرد هيئة مهنية صرف إلى منظمة تسعى لتحقيق أهداف اقتصادية وطنية. ومن علامات هذا التطوّر احتجاجها على منافسة سكّة الحديد التي يملكها الفرنسيون وشركة "لوتوروتيه" l'Autoroutière، وهي شركة نقل يملكها الفرنسيون. في 6 آذار/مارس 1933، دعت جمعية تعاضد السوّاقين إلى إضراب عام استجاب له 8000 سائق في لبنان وسوريا. وانضم إليهم أصحاب المحال التجارية في المدن الساحلية، ما أوقف الحركة في البلاد.

في 19 آذار/مارس، وافق المونسنيور أغناطيوس مبارك، رئيس أساقفة بيروت للموارنة، على الظهور علناً إلى جانب رياض الصلح في إيماءة تضامنية مع المضربين، فتعرّض لتوبيخ من البطريك عريضة والرئيس دبّاس، وكلاهما متحالقان مع الفرنسيين. ألهم التحدي الذي أظهره سائقو سيارات الأجرة، عمال الطباعة للدعوة إلى إضراب بشأن شكواهم الرئيسية، أي إيقاف صدور الصحف بموجب مراسيم إدارية وما يترتب على ذلك من عسر يلحق بعمال الطباعة. ففي 22 آذار/مارس توقف 400 عامل طباعة في بيروت عن العمل لمدة 24 ساعة، ما دفع الحكومة إلى دفع تعويض إلى الطابعين الذين فقدوا أعمالهم، بلغ مئة ليرة فقط في تلك الحالة. وفي آب/أغسطس، أضرب عمال الطباعة ثانية، وتقَدّموا هذه المرة بمطالب أكثر طموحاً: زيادة الأجور بنسبة 50 بالمئة، وثماني ساعات عمل يومياً، وصندوق حكومي للبطالة، والتأمين ضد حوادث العمل، وتحسين الظروف الصحية، وحظر عمالة الأطفال.

انتشر النضال في أوساط الطبقات العمالية بأكملها. فبدأ الطهاة، والندلاء، وعمّال حياكة الحرير، وعمال الخشب، والصيادون، وموظفو المصارف، وعمال الأسمنت في شكا، والعمال الذين يبنون المطار في طرابلس، بل حتى المحامون والأطباء

والصيادلة، بتنظيم أنفسهم في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، وإن من دون أن يرجع كل منهم إلى الآخر.

كان رياض الصلح من القادة الوطنيين القلائل الذين دعموا تلك الحركة العمالية الواسعة. ولا شك في أنه رأى في الإضرابات، التي كانت تقع أحياناً في تنافس مع الشيوعيين وبالتنسيق معهم في أحيان أخرى، فرصة لكسب منبر شعبي يعبر فيه عن آرائه. وكان من الطبيعي أن يتطلع المضربون بدورهم إلى المساعدة من سياسي بارز مثله. كما أدرك، على سبيل المثال، أهمية محاولة اجتذاب البطريك الماروني أنطوان عريضة الواسع النفوذ - وهو مناصر للوجود الفرنسي في لبنان وغير متعاطف مع الحركة العمالية - إلى هذا النضال، وإلى جانب العمال.

عندما وقع خلاف بين المفوض السامي داميان دو مارتيل والبطريك الماروني بشأن قرار الأول منح احتكار بيع التبغ في جبل لبنان إلى شركة فرنسية تدعى الشركة السورية-اللبنانية للتبغ، اغتنم رياض هذه الفرصة. فانطلق مسرعاً إلى دمشق وأقنع قادة الكتلة الوطنية الرئيسيين بزيارة البطريك. وبناء على ذلك انتقلت مجموعة بارزة تضم شكري القوتلي، وجميل مردم، وفخري البارودي، ولطفي الحفار، ونسيب البكري، وقادة بارزون آخرون إلى لبنان، حيث انضم إليهم رياض الصلح واتجهوا إلى مقر البطريك في بركي. تحولت الزيارة إلى مهرجان وطني شجب فيه البطريك الانتداب بشكل مفاجئ ودعا الفرنسيين إلى مغادرة البلاد. وكان لهذا التغيير الكبير وقع شديد على الرأي العام.

تمكّن رياض، عبر هذا الانقلاب الكبير، من استمالة قسم من الطبقيين العليا المتوسطة - بمن فيهم الموارنة، حلفاء فرنسا التقليديون - إلى جانب العمال. وحول الحركة الاحتجاجية إلى حملة سياسية واسعة على سلطة الإنتداب. فقد أدرك كيف يمكن تحويل الإضرابات والمقاطعات، التي تجمع مختلف الطوائف اللبنانية معاً للمشاركة في معارضة احتكار المرافق العامة من قبل فرنسا، إلى معالم مهمة على طريق الاستقلال.

ثارت ثائرة المفوضية العليا. وفي 15 نيسان/أبريل 1935، أمر داميان دو مارتيل بإغلاق مكتب نقابة السواقين وإبعاد رياض إلى القامشلي، وهي بلدة نائية في شمال شرقي سوريا حيث وُضع قيد الإقامة الجبرية. أثار ذلك موجة عارمة من الاحتجاجات. وتدفّق على المفوضية العليا سيل من البرقيات من جميع أنحاء سوريا

ولبنان تحمل كل منها عشرات التوقيعات. أشارت العديد من العرائض إلى أن إبعاد رياض يناقض قانون حقوق الإنسان وأن هذه الخطوة العنيفة ستؤدي إلى مزيد من العنف. وبعثت رابطة الطلاب العرب في تولوز، على سبيل المثال، رسالة شديدة اللهجة تقول فيها إن الشباب السوري سيواجه موقف فرنسا غير القانوني "بكل الوسائل القانونية وغير القانونية"⁽¹⁾. بل إن وزارة الخارجية الفرنسية في باريس وعصبة الأمم في جنيف أجبرتاً على أخذ العلم بتلك المسألة.

بعد شهرين، تراجع داميان دو مارتيل، وأمر بإعادة رياض إلى بيروت. وقد ذكر في تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية في فرنسا:

في رسالتي بتاريخ 21 حزيران/يونيو، رأيت أن الوقت ليس مناسباً لإعادة رياض الصلح من القامشلي بسبب الخطر الذي قد يحدثه وجوده فيما لم نكن نعرف على وجه اليقين إذا كانت المقاطعة [الشركة دمشق للتراثماوي والإنارة التي دامت ثلاثة أشهر] ستمتدّ إلى بيروت.

بما أن ذلك لم يحدث، في الوقت الحاضر على الأقل، فقد أمرت بإعادة رياض الصلح إلى بيروت. بقي الأمر طيّ الكتمان وعاد إلى بيروت ليل الأحد في 30 حزيران/يونيو من دون أن يتمكن الحرضون المحترفون من تنظيم استقبال حافل له.

أقيمت احتفالات لمدة عدة أيام متتالية، في ذكرى المولد النبوي في عدة مساجد في البسطة (وهو حيّ مسلم في بيروت) احتفاءً بعودته... وتمّ التعبير عن الفرح الغامر بإطلاق الألعاب النارية والمفرقات..⁽²⁾.

فشل فرنسا في البحث عن معاهدة

سيطرت مسألتان متناقضتان في الظاهر على النقاش السياسي الذي أعقب الثورة السورية الكبرى: ما المؤسسات التي تعدّ سوريا ولبنان على أفضل وجه للحكم الذاتي؛ وفي الوقت نفسه، كيف تستطيع فرنسا أن تؤمّن مصالحها في المنطقة على المدى

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), Série 199A4, carton 20, 17 Mai 1935

(2) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), Série 199A4, carton 20, Damien de Martel
au Ministre des Affaires Etrangères, 5 juillet 1935

الطويل. كان العديد من المسؤولين الفرنسيين مقتنعين بأن الطريقة الفضلى لإدامة السيطرة الفرنسية هي عقد معاهدتين ثنائيتين مع البلدين تربطهما بفرنسا وتعزز شروط الانتداب والتزاماته. غير أن الوطنيين مثل رياض الصلح ورفاقه في الكتلة الوطنية طالبوا باستقلال "سوريا الكبرى" كخطوة أولى نحو وحدة عربية أكثر اتساعاً. وكان من الصعب ردم الهوة بين هذين الموقفين.

كان المفوض السامي هنري دو جوفنيل أكثر ليبرالية، أو أكثر واقعية من رؤسائه في باريس. ولا شك في أنه كان أكثر انفتاحاً من سلفيه العسكريين، الجنرال غورو والجنرال ساراي. أدرك عدم وجود أي فرصة لتأمين إذعان الوطنيين من دون معاهدة تتجاوز شروط الانتداب، بل تحل محلها جميعاً. لكنه لم يستطع إحراز أي تقدم في مواجهة مسؤولين أقوياء مثل روبير دو كيه، الذي احتفظ، باعتباره ممثل فرنسا في اللجنة الدائمة للانتداب، بنفوذه في شؤون المشرق في وزارة الخارجية الفرنسية. وعندما فشل هنري دو جوفنيل في إقناع باريس بوجهة نظره، استقال في تموز/يوليو 1926 بعد ثمانية أشهر فقط من توليه منصبه.

استُبدل به هنري بونسو الذي حلّ البرلمان السوري في شباط/فبراير 1929، بعد أن رفضت باريس الدستور الوطني الذي وضعه فوزي الغزي، وفيه رفض قاطع لتقسيم المنطقة بين الحلفاء. رأت فرنسا أن دستور الغزي الذي تعمد إغفال أي ذكر للانتداب، يشكل تهديداً لا لسيطرتها على سوريا فحسب وإنما أيضاً لهيمنتها على لبنان الكبير المصطنع. كما يشكل تهديداً لفصل فلسطين عن سوريا، وهو ما اتفق عليه الفرنسيون مع البريطانيين. ولعل فوزي الغزي وقّع على أمر إعدامه بكتابة تلك الوثيقة الشجاعة - الشنيعة جداً بنظر الفرنسيين.

في أعقاب ذلك بسنة تقريباً، في أيار/مايو 1930، بعد وفاة الغزي الغامضة التي أراححت الفرنسيين من معارض رئيسي، أعلن هنري بونسو من جانب واحد عن تشريعين دستوريين للبلدين المشرقيين. وقد صاغ التشريع الخاص بسوريا على منوال دستور عام 1928، لكنه ألغى المادة الثانية التي تنص بوضوح على وحدة سوريا الكبرى. وأضاف المادة 116 التي أكدت عدم جواز تعارض أي شيء في الدستور مع "الالتزامات" التي اتفقت عليها فرنسا مع عصبة الأمم في ما يتعلق بسوريا. ضمنت

هذه التورية الغريبة للاحتلال استمرار موقع فرنسا كسلطة انتداب. وقد أفاد السيد ميد Meade، القنصل البريطاني بالوكالة في حلب، في تقرير رفعه إلى لندن أن الظرفاء المحليين سخروا من دستور بونسو بتسميته "إمساك" (*). وأضاف بأن المادة 116 اعتبرت مناقضة تماماً لما تبقى من النص⁽¹⁾.

أعلن بونسو أيضاً عن تسويات دستورية للواء الإسكندرونة وأرض العلويين وجبل الدروز. وتصور عبثاً أن تلك التدابير توفر أساساً للتفاوض على معاهدة، إن لم يكن مع الوطنيين "المتطرفين"، فمع "المعتدلين" منهم على الأقل. وقد عبر السفير البريطاني في باريس، لورد تايريل Tyrrell، في 23 أيار/مايو 1930 عن اعتقاده بأن فرنسا مهتمة أساساً بتجاوز الفحص الذي تجريه عصبة الأمم أكثر من اهتمامها بتحقيق أي تقدم سياسي حقيقي⁽²⁾.

في سنة 1931، أجرى بونسو محاولة أخرى لإقناع السوريين بقبول معاهدة تؤسس لخضوعهم. فقد تركت المعاهدة الانكليزية-العراقية في حزيران/يونيو 1930، انطباعاً عظيماً لديه. فقد تمكنت في النهاية من إقامة "تحالف وثيق" بين بريطانيا والعراق، ونصت على إجراء "مشاورات كاملة وصريحة بشأن جميع قضايا السياسة الخارجية"، بالإضافة إلى "التعاون المتبادل" في حالة الحرب. ومنح العراق بريطانيا حق استخدام قواعد جوية قرب البصرة وفي الحبانية، فضلاً عن حق تحريك قواتها بحرية في البلاد. وأُتفق على أن هذه المعاهدة صالحة لمدة 25 سنة وتصبح نافذة عند قبول عضوية العراق في عصبة الأمم، وهو ما حصل في 3 تشرين الأول/أكتوبر 1932.

في زيارة قام بها هنري بونسو إلى بغداد في أواخر نيسان/أبريل 1931، أبلغ المفوض السامي البريطاني، السير همفريز Humphreys، باعتقاده أن المعاهدة "مسعى

(*) تلاعب على الألفاظ بالإنجليزية أو الفرنسية حيث الدستور يعني constitution والإمساك يعني constipation.

(1) Acting Consul Meade to Foreign Secretary, Aleppo, 6 June 1930 (FO 371/14554) 17 FO 371/14553.

Sir F H Humphrys, High-Commissioner in Iraq, to Foreign Secretary. Baghdad, 18 May 1931 (FO 369-2111 371/15364).

Mizrahi, "La France et sa politique de Mandat", p. 52 19 Alia el-Solh, *Le Jour*, 25 July 1965 20.

كريم يتسم بالحنكة السياسية لتلبية آمال العراقيين في الاستقلال". فسارع همفريز، الذي شعر بالإطراء والدهشة، إلى إرسال تقرير إلى لندن يقول فيه:

إن بونسو كان مقتنعاً بأن السياسة البريطانية صحيحة ويجب اتباعها على العموم في سوريا... لم يعد لديه أي شك في أن المحافظة على الانتداب بالقوة العسكرية سياسة سلبية، لا يرجى منها أمل بتحقيق حل مرضٍ. ما البديل بالنسبة إلى سوريا؟ استعمال القوة المفرطة لإخماد شعب غاضب مستعد للثورة للمطالبة بحقوقه كلما سنحت الفرصة له لذلك؟ ورأى أن منح تلك الحقوق بسلام ومن دون إثارة أي أحقاد - مثلما يفعل البريطانيون - أفضل من السماح بانتزاعها في نهاية المطاف عن طريق التهديدات والقتال... غير أن من الصعب إقناع وزارة الخارجية الفرنسية بوي جهة النظر نفسها...

على الرغم من معارضة باريس، قرّر هنري بونسو أن يحدو في أعماله حذو السياسة البريطانية في العراق. في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1931، أقال رئيس الوزراء تاج الدين الحسيني من دون ضجّة، وأعلن عن إجراء انتخابات بين شهري كانون الأول/ديسمبر وكانون الثاني/يناير 1931 و1932، وتولّى بنفسه مهام رئيس البلاد في المرحلة الانتقالية. في أعقاب الانتخابات، شكّلت حكومة موالية للفرنسيين وتمت "الموافقة" على بنود مشروع المعاهدة. ثم عُرض مشروع المعاهدة على البرلمان لإقراره في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1933. نصت المعاهدة على تحالف لمدة خمس وعشرين سنة مع فرنسا، وأن تصبح نافذة عندما تقبل عضوية سوريا في عصبة الأمم، ومنح فرنسا حق التواجد العسكري في مواقع معينة - كما هو حال بريطانيا في العراق - وانتقال السلطة من الفرنسيين إلى السوريين بعد فترة انتقالية مدتها أربع سنوات. غير أن باريس أصرت بعناد على بقاء الدولتين العلوية والدرزية كيانين مستقلين، حيث واصل حاكماهما الفرنسيان تشجيع المشاعر الانفصالية. لكن بما أن الوطنيين في دمشق يرفضون تقسيم سوريا، فقد بقيت المعاهدة حبراً على ورق.

لم يحقق بونسو نجاحاً أكبر في لبنان. فالدستور الذي وضعه لم يكن سوى نسخة معدّلة عن دستور 1926 الذي قيّد السيادة اللبنانية لصالح سلطة الانتداب. رفض

الوطنيون اللبنانيون العرب من أمثال رياض الصلح هذا الدستور لأن فرنسا احتفظت بسيطرتهما على السياسة الخارجية والدفاعية، في حين كرست المادة 95 مبدأ الطائفية في النظام السياسي في لبنان. ورغب العديد من اللبنانيين الذين يتحلون ببعد النظر في إنهاء النظام الطائفي، وكان رياض من بين هؤلاء. وقد عقد اجتماعات عديدة مع هنري بونسو بشأن ذلك الموضوع وشعر في بعض الأحيان أنه أحرز تقدماً. لكن تبين أن الاجتماعات مشوشة على نحو مكدر: كان بونسو يعطي الانطباع بأنه منفتح، لكنه يتكتم عندما لا تمنحه التوجيهات الصارمة القادمة من باريس مجالاً كبيراً للمناورة.

بعد ذلك، عمدت الاستراتيجية الفرنسية إلى استخدام التعديلات الدستورية للحد من صلاحيات البرلمان والحكومة، وهما الهيئتان اللتان تواجه معارضة فيهما، وتعزيز صلاحيات الرئيس شارل دباس الذي كان من الأسهل السيطرة عليه. وهكذا في نيسان/أبريل 1929، مدّد بونسو ولاية الرئيس من ثلاث إلى ست سنوات وأعطاه حق اختيار الوزراء مستقلاً عن مجلس النواب، وحلّ مجلس النواب من دون موافقة الحكومة. وفي 9 أيار/مايو 1932، علّق العمل بالدستور وتركزت كل السلطة الرسمية في يدي الرئيس (وهو وضع استمر حتى كانون الثاني/يناير 1934). غير أن جميع الصلاحيات الحقيقية بقيت مع بونسو نفسه. فأعلن عن اعترامه إصلاح المؤسسات اللبنانية والتخلص من شبكات المحسوبية لإنهاء الفساد وتوزيع المغام الذي طالما شجع عليها النظام الطائفي القائم. لكن كان من الواضح للعديد من اللبنانيين أن هدفه الحقيقي الخوول دون أي تقدّم سياسي نحو تحقيق الحكم الذاتي، ناهيك عن الاستقلال. شعر رياض بخيبة أمل شديدة نتيجة محادثاته، إذ لم تسفر نوايا بونسو المفترض أن تكون متوّرة سوى عن مزيد من الجمود السياسي.

غير أن بونسو قدّم إحصاء يظهر أن المسيحيين، بمن فيهم اللبنانيون في المهجر واللاجئون الأرمن الذين قدموا حديثاً إلى لبنان، يشكلون غالبية طفيفة فقط تبلغ 52.5 بالمئة من إجمالي عدد السكان البالغ 861,000 نسمة. ونظراً لأن معدّل المواليد أكثر ارتفاعاً لدى المسلمين الذين تبلغ نسبتهم 46.2 بالمئة، فقد بدا مؤكداً أن يتجاوز عددهم عدد المسيحيين في وقت قصير نسبياً. كان ذلك الإحصاء الأخير من نوعه

الذي يجري في لبنان. بل أصبح تحديد الأعداد الدقيقة لمختلف الطوائف موضوعاً سياسياً ينطوي على مخاطر كبيرة بحيث لم يتم التفكير فيه ثانية.

من هنري بونسو إلى الكونت داميان دو مارتيل

ترك هنري بونسو منصبه في أواخر صيف 1933، بعدما عجز عن تحقيق تقدم سياسي في سوريا أو لبنان، ووقع في شرك جوّ غاضب تتخلله الإضرابات والمظاهرات. أصبح المشرق مقبرة سياسية للمفوضين الساميين الفرنسيين. أوصى بونسو خلفه، الكونت داميان دو مارتيل - بمرارة وتهور - أن يتجاوز الوطنيين تماماً. فشرع دو مارتيل عند وصوله في تشرين الأول/أكتوبر 1933، بالابتعاد عن سياسة سلفه، كما نصحه بونسو نفسه! فأعلن عن دستورين لسوريا ولبنان. وحاول إجبار البرلمان السوري على الموافقة على معاهدة لم تكن سوى شكل جديد من تشريع 1930. لكنه واجه غضباً شديداً في الشارع ومعارضة قوية في البرلمان فاضطر إلى وقف عمل البرلمان وسحب المشروع في كانون الأول/ديسمبر 1933. في 2 كانون الأول/ديسمبر 1934، أصدر قراراً يعهد بموجبه بالسلطات التنفيذية في سوريا إلى شخصية يعيّنهما المفوض السامي الفرنسي مباشرة ويكون مسؤولاً أمامه وحده.

نُظّمت انتخابات لمجلس نواب جديد قلّص عدد أعضائه إلى 25 عضواً، منهم سبعة معينين. فنجح المرشّحون الذين يحظون بتأييد المفوض السامي. وفي آذار/مارس 1934، أعاد داميان دو مارتيل تعيين الشيخ تاج الدين الحسيني السهل الانقياد على رأس حكومة انتقالية، وفي تشرين الثاني/نوفمبر علّق عمل البرلمان إلى أجل غير محدد. وفي لبنان، عُيّن حبيب باشا السعد، وهو ماروني متقدّم في السن، رئيساً بدلاً من شارل دباس الذي تقاعد بعد سبع سنوات ونصف من ولايته. كان يعاون الرئيس، باعتباره المسؤول عن السلطة التنفيذية، حكومة برئاسة عبد الله بيهم في ذلك الوقت. لكن الفرنسيين، كما لاحظ المسؤولون في القنصلية البريطانية، كان لديهم ميل في سوريا ولبنان إلى تجاوز الحكومات، حتى التابعة لهم، وممارسة مزيد من السيطرة المباشرة. وبعد مرور 10 سنوات، لم يتحقّق أي تقدّم في بناء المؤسسات أو نحو إبرام

معاهدة. وارتدّ الوضع إلى ما كان عليه في سنة 1926، لكنه ازداد سوءاً بسبب الأزمة الاقتصادية المستفحلة والأحداث في فلسطين.

زواج رياض الصلح

تزوَّج رياض قبل بضعة أشهر من قيام الفرنسيين بنفيه إلى القامشلي. وكان زواجاً استغرق إعداده مدة طويلة. فقبل سنوات عديدة، في سنة 1912، فيما كان آل الصلح يعيشون في استانبول، ذهب رياض في رحلة على متن قارب في البوسفور مع صديقيه، سعد الله الجابري ورغيد كيخيا. مرّت باخرة فأحدثت خضربة أدت إلى انقلاب القارب فجأة. لم يكن سعد الله يحسن السباحة، فأخذ يصرخ طلباً للنجدة. وعندما نجح رياض ورغيد أخيراً في انتشاله وإعادته إلى القارب مبلّلاً وذاهلاً، وعدهما شاكراً أن يزوجهما لابنتي أخيه، أحمل فتاتين في حلب.

في سنة 1928، عندما بلغ رياض الرابعة والثلاثين، رأى والداه أن الوقت حان لزواجه. فاختارا له عروساً من عائلة العظم الثرية في دمشق، وهم معروفون بالتكبر على المستوى الشخصي وعدم الحماسة للقضية الوطنية (باستثناء واحد أو اثنين بارزين). كان لرياض تحفظات على ما ينطوي عليه هذا الزواج. في 8 تموز/يوليو 1928 كتب إلى والديه من باريس مبدئياً قلقه وإن بدبلوماسيّة:

قلت إنني لن أعصيكما في ما يتعلق بزواجي. وأنا مستعد للتخلّي عن العمل السياسي طوال مدة خطوبتي، بل لبعض الوقت بعد الزواج. أمّا بشأن المكان الذي أقيم فيه، فإنني أفضل بيروت، لأسباب لن أخفيها. لديّ اعتقاد راسخ بأن العيش في بيروت ضرورة مطلقة لي، وللبنانيين، لعدة سنوات قادمة.

مع ذلك، إذا كنتما معجيين حقاً بالفتاة من آل العظم، وتعتقدان أنها تستحق التضحية، فسأوافق على الإقامة في دمشق مدة من الوقت، وأוכל أمر المستقبل إلى الله".

لم يتم ذلك الزواج البتة. فقد أصرّت الفتاة وعائلتها على أن يتخلّى رياض الصلح عن العمل السياسي لكي يعيش معها حياة رغدة في دمشق. لكنه كان شديد

الالتزام بالنضال لتحرير العربي فلم يستطع تصوّر هذا المصير، وبيروت قاعدته الأساسية بصرف النظر عما قاله في رسالته المطيعة لوالديه. بعد هذه المحاولة الفاشلة الأولى لإيجاد عروس لرياض، رأى أن الحكمة تقضي أن يقدم لوالديه توجيهات أوضح لأي بحث آخر. فكتب إليهما:

بصرف النظر عنم تختاران، يجب أن تشرحا لعروس المستقبل بأن الحياة معي لن تكون رحلة ممتعة على متن سفينة، وإنما رحلة برية شاقة وطويلة. لا أستطيع أن أعدها بالمجوهرات أو الرحلات، وإنما بأنها ستفخر بي في يوم من الأيام. يجب أن تتحلّى بقدر كاف من الذكاء لتدرك ذلك، وقدر كاف من الطموح لتنضمّ إلى النضال، وقدر كاف من المرح لتسليني. وفوق كل ذلك، يجب أن تكون يتيمة، لأنني لا أريد أن أواجه منافسين دائمين. الآباء هم همّي الحقيقي.

كانت فائزة الجابري، ابنة أخ سعد الله، مثل هذه اليتيمة، إذ إنها فقدت والدها وأمها أيضاً. توفيت أمها وهي تلدها، ورحل والدها نافع باشا الجابري بعد ذلك ببضع سنوات. وربما يرر غياب والديها ميلها إلى الكآبة بعض الشيء. تولّى تربيتهما أخ غير شقيق تزوج شقيقة والدتها. وكانت في الواقع واحدة من سبعة عشر أختاً وأخاً من زيجات والدها الثلاثة. أرسلت وهي طفلة إلى مدرسة داخلية للراهبات الألمان في حلب حيث تعلمت الألمانية وعزف البيانو. وكانت فتاة مثقفة تجيد الفرنسية والتركية والعربية.

رأت فائزة رياض الصلح مرتين فقط قبل زواجهما، الأولى عندما كانت طفلة صغيرة، والثانية وهي في سن المراهقة. في المناسبة الثانية، أقامت عائلتها حفلة مكافأة لها على حفظ الجزء الأول من القرآن الكريم. وقُدّم لها حجاب حريري شفاف جميل التطريز كي ترتديه يوم زفافها. لكن زيارة رياض المظفرة إلى حلب في سنة 1928 طغت على احتفالاتها. أقيمت له الأقواس في الطريق تقديراً للسمعة الكبيرة التي اكتسبها كمدافع عن القضية العربية في أوروبا. وأقام له صديقه سعد الله، أصغر أشقاء آل الجابري وعمّ فائزة، حفلاً كبيراً في منزل والد فائزة الراحل، العميد السابق لعائلة الجابري. وقد حضر هذا الحفل أبرز القادة الوطنيين في المدينة. استقبل رياض عند

وصوله بالتصفيق وبالأحاديث الحيوية التي ملأت المكان بالضجيج. ونتيجة لكل هذا المهرج، نسي الجميع حفلة فائزة. وفي جناح النساء في الطابق الثاني، شعرت بغضب شديد حتى إنها عندما لمحت في باحة المنزل في الأسفل، بصقت عليه من إحدى الشرفات. كانت في السابعة عشرة من عمرها عندما تزوجت رياض الصلح في سنة 1930، فيما يبلغ هو السابعة والثلاثين.

رياض الصلح والصهيونية والحاج أمين الحسيني

في سنة 1918، التقى رياض الصلح في دمشق بالحاج أمين الحسيني ونشأت صداقة بينهما. وهو شاب فلسطيني انضم إلى الأمير فيصل - على غرار الصلح - وسرعان ما لعب دوراً مركزياً في السياسة الفلسطينية. لا شك في أن كلا منهما وجد في الآخر مزايا الهمة والقيادة. وكلاهما ينحدران من عائلة مرموقة، ومتعلمان وشديداً الاهتمام بالسياسة. وبعدما انتقلا من النزعة العثمانية إلى التوجه القومي العربي، وجدا نفسيهما في مواجهة الواقع المرير للقوة الاستعمارية البريطانية والفرنسية والطموح الصهيوني. وُلد الحاج أمين نحو سنة 1897 وتلقى التعليم التقليدي الذي يتلقاه أي فلسطيني من عائلة مرموقة: الدراسات الإسلامية والعربية في مدرسة دينية مسلمة، واللغة التركية في مدرسة حكومية، والفرنسية في مدرسة يديرها مبشرون كاثوليك؛ ثم أمضى فترة في القاهرة حيث التحق بالأزهر ودرس أيضاً على الشيخ رشيد رضا، أحد أبرز الإسلاميين المصلحين في عصره. وبعد ذلك حج إلى مكة ما أكسبه لقب "حاج" الذي اختار الاحتفاظ به منذ ذلك الحين.

كان الحاج أمين، بصفته الأخ غير الشقيق لمفتي القدس، أبرز عالم دين مسلم في المدينة. في سنة 1914، التحق بالجيش العثماني كضابط صغير، وخدم في سنوات الحرب الأولى في الأناضول، لكنه ترك الجيش في سنة 1917 حين كان في إجازة في القدس. تأثر بالثورة العربية الكبرى، فجمع بعض المتطوعين الفلسطينيين للانضمام إلى قوات الأمير فيصل وكان في دمشق عندما شكّل الأمير حكومته في سنة 1918. عاد لاحقاً إلى القدس حيث أنشأ الفرع المحلي للنادي العربي؛ وهو الواجهة

السياسية العلنية لجمعية الفتاة السرية⁽¹⁾.

في سنة 1921، بعدما وطّدت بريطانيا حكمها في فلسطين، عيّن المندوب السامي السير هربرت صاموئيل الحاج أمين في منصب المفتي الأكبر للقدس وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من العمر. وفي السنة التالية، عيّن رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى الذي أنشئ حديثاً للإشراف على ممتلكات الوقف والمحاكم الشرعية الإسلامية. بالتالي أحرز موقعاً قيادياً في مركز الحياة الروحية والزمنية والسياسية للمجتمع الفلسطيني المسلم، ونهض بهذه المسؤولية. كان شغله الشاغل طوال حياته حماية الحرم القدسي الشريف من السقوط في أيدي الصهاينة.

يوجد داخل سور الحرم الشريف مسجدان عظيمان، المسجد الأقصى وقبة الصخرة، بالإضافة إلى العديد من القباب والمحاريب والمباني الأصغر حجماً. وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين، بعد الحرم المكي والحرم المدني. وكان ثمة شكوك في أن المتعصّين اليهود يخطّطون لتدمير المسجدين بغية بناء هيكل فوق الحرم. لمواجهة هذا التهديد، استخدم الحاج أمين مهندسين بريطانيين وأتراكاً بغية ترميم الموقع وشرع يجمع التبرعات من المسلمين في شتى أنحاء العالم، وبالتالي جعل نفسه الممثل الأبرز في فلسطين للأمتين العربية والإسلامية.

يوجد في قلب الحرم مسجد قبة الصخرة، أول مثال كبير على العمارة الإسلامية وأحد أكثر الأماكن قداسة عند المسلمين. وهو مبنى مثمن يميّز بتصميمه البيزنطي وزخرفته الإسلامية، بناه الحرفيون السوريون بين سنتي 685 و 691 في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. وغايته الأساسية حماية الصخرة التي عرج منها النبي ﷺ إلى السماء بعد أن أسري به من مكة، وهي كتلة صخرية مستطيلة يبلغ طولها 18 متراً وعرضها 14 متراً. وقد ذكر أن الخليفة عبد الملك استخدم في زمانه اثنين وخمسين

(1) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. 1, pp. 425-6. للاطلاع على سيرة الحاج أمين، انظر أيضاً إبراهيم أبو شقرا، الحاج أمين الحسيني منذ ولادته حتى ثورة 1936؛ اللاذقية، 1998؛ J. C. Hurewitz, *The Struggle for Palestine*, New York 1950; Francis R. Nicosia, *The Third Reich and the Palestine Question*, Texas 1985; David Hirst, *The Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East*, London 1977 (rev. expanded edn New York 2003); Maurice Pearlman, *Mufti of Jerusalem: The Story of Haj Amin al-Husseini*, London 1947; Joseph Schechtman, *The Mufti and the Führer: The Rise and Fall of Haj Amin al-Husseini*, New York 1965

شخصاً لغسل الصخرة بماء الورد المزوج بالزعفران والمسك والعنبر. وكانت خمسة آلاف مصباح تضاء بزيت الياسمين لتعطير المسجد. أصبح الشكل المثمن لقبة الصخرة نموذجاً للمزارات المقبية وأضرحة الأولياء من المغرب إلى الصين، بل تأثرت به هندسة أجران العمودية التقليدية.

لعل التراث اللغوي والديني ونمط الحياة المشترك، بالإضافة إلى الأحداث السياسية المثيرة التي شهدتها الحاج أمين ورياض الصلح وشاركا فيها، جعلتهما يتقاسمان في سن مبكرة الإحساس أنهما قائدان محتملان للحركة القومية العربية الناشئة التي كانت تناضل في ذلك الوقت لصياغة أهدافها. إذا كان هناك اختلاف بينهما فهو أن الحاج أمين يميل إلى التوجه الإسلامي، في حين أن رياض، الذي نشأ في لبنان حيث التأثير الغربي عميق الجذور، يميل إلى التوجه العلماني.

أحسّ رياض والحاج أمين، مثل غيرهما من الوطنيين، بالظلم الشديد لأن مصر منطقتهما تقرره بريطانيا وفرنسا في تجاهل تام لرغبات سكانها المحليين. فقد قُسمت الولايات العربية السابقة في الإمبراطورية العثمانية بوحشية. وهكذا، فإن الحدود المصطنعة والاعتباطية للانتدابيات قطعّت أوصال ما كان يشكل كياناً جغرافياً واقتصادياً وثقافياً واحداً، يمتد من جبال طوروس شمالاً إلى شبه جزيرة سيناء في الجنوب، وتوجد دمشق في مركزه. وكان وعد بلفور قد تعهد بتقديم الدعم البريطاني لإنشاء "وطن قومي يهودي" في فلسطين - أي في جنوب سوريا - في حين أن إنشاء لبنان الكبير سلخ عن سوريا قسماً كبيراً من ساحلها على البحر المتوسط، بما في ذلك موانئ طرابلس وبيروت وصيدا المهمة. وقسم ما تبقى إلى دويلات عمل الفرنسيون على تشجيع المشاعر الانفصالية فيها لدى الأقليات مثل الدروز والعلويين.

لذا لم يكن من المفاجئ أن يتحد رياض والحاج أمين معاً في مواجهة الانتدابين البريطاني والفرنسي، والتصدي للتهديد المصاحب لوعد بلفور. فهما يعتبران فلسطين جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي، ويحظى استقلالها بأهمية مركزية للأمال العربية مثل استقلال سوريا ولبنان. فإذا سقط هذا الجسر البري الحيوي بين جناحي العالم العربي في آسيا وأفريقيا في أيدي أجنبية، فسيلحق ضرر لا يمكن إصلاحه بأمن الأمة العربية بأكملها. ولا تكون أي رواية عن حياة رياض الصلح منذ عشرينيات القرن

الماضي فصاعداً كاملة من دون الإشارة إلى مخاوفه من المشروع الصهيوني في فلسطين التي تنمّ عن بصيرة ثاقبة.

قدّم البريطانيون للصهاينة الحماية التي مكّنتهم من الاستيلاء على فلسطين شيئاً فشيئاً، ما ولد إحساساً بالضيق والكرب لدى سكانها العرب. كان رياض يعرف، حتى في ذروة مواجهته مع الفرنسيين، أن سيطرتهم الاستعمارية على سوريا ولبنان مؤقتة بحكم طبيعتها؛ فليس هناك مستوطنون فرنسيون يشترون الأراضي في سوريا، ولا تشريد أو تدمير للفلاحين العرب، ولا مشروع استعماري طويل الأمد تخطط له فرنسا وتموّلّه. فعلى الفرنسيين الرحيل عاجلاً أم آجلاً، وكان رياض عازماً على تعجيل رحيلهم. لكن فلسطين قضية أكثر إلحاحاً وصعوبة بكثير. فطابعها العربي القديم يتعرّض للتدمير من أجل استيعاب مصطنع لسكان أوروبيين دخلاء. كما لم يكن أي تطوّر في أي مكان في المنطقة يثير قلقاً وجودياً لدى القوميين العرب بقدر ما يثيره ما يجري فلسطين، ويدفعهم إلى اتخاذ تدابير أكبر وأكثر استماتة.

عرف رياض اليهود في نشأته وتعلم الكثير عن الصهيونية. فعندما كان يافعاً في بداية القرن العشرين، غالباً ما كانت أمه تصطحبه لتمضية الشتاء في مزرعة يملكها آل الحسيني في أريحا؛ وهم أصدقاء مقربون إلى والدته. وهناك التقى رياض بموسى شرتوك، الذي أصبح موسى شاريت لاحقاً، وتولّى منصب وزير خارجية إسرائيل من سنة 1948 إلى سنة 1956، ورئيس الوزراء من سنة 1954 إلى سنة 1955. هاجر والدها شرتوك إلى فلسطين قادمين من روسيا في سنة 1906؛ وعمل والده مزارعاً صغيراً في مزرعة عائلة الحسيني حيث أمضى موسى شرتوك طفولته، واختلط بالأولاد العرب وتعلم اللغة العربية. التقى رياض وموسى، وكلاهما من مواليد سنة 1894، في ذلك الوقت، والتحقا بكلية الحقوق عينها في جامعة استانبول في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى.

من الشبان اليهود الآخرين الذين درسوا الحقوق أيضاً والتقى بهم رياض في استانبول، ديفيد بن غوريون الذي أصبح في ما بعد أول رئيس للوزراء في إسرائيل. لكن لم تنشأ بينهما سوى معرفة عابرة إذ كان رياض في السابعة عشرة من العمر في ذلك الوقت، فيما كان بن غوريون في العشرينيات وشديد الانغماس في السياسة

الصهيونية. وُلد بن غوريون في بولندا في سنة 1886 وقدم إلى فلسطين في سنة 1906، أي في السنة نفسها التي وصلت فيها عائلة شرتوك. أُرسل للدراسة في استانبول عقب ثورة تركيا الفتاة في سنة 1908. كان لديه طموح سياسي كبير ويأمل في أن يصبح عضواً في البرلمان العثماني، بل حتى وزيراً في الحكومة التركية، بغية تحقيق هدفه البعيد بأن يصبح مدافعاً عن الصهيونية في أوساط الحكام الأتراك الجدد المتعاطفين مع اليهود على العموم.

يتحدث بن غوريون، في كتابه "محادثاتي مع القادة العرب" *My talks with Arab Leaders*، عن علاقاته مع الطلاب الأتراك والعرب خلال السنوات التي أمضاها في استانبول. في صيف 1914، عاد بن غوريون مع طالب حقوق آخر، إسحاق بن زفي Yitzhak Ben-Zvi، إلى فلسطين لتمضية الإجازة الصيفية. لكنهما لم يتمكنا من البقاء هناك فترة طويلة، إذ ما إن اندلعت الحرب في شهر آب/أغسطس، حتى اكتُشف اسمهما في لائحة بالمسوفدين إلى المؤتمر الصهيوني. استجوبتهما السلطات التركية وأبعدتهما عن الإمبراطورية العثمانية بموجب أوامر من جمال باشا، القائد العام الجديد للجيش والحاكم الشرس لولاية دمشق، الذي كان مصمماً على إخماد أي تعبير عن قومية محلية، سواء أكانت يهودية أم عربية أم أرمنية⁽¹⁾.

أدرك رياض التهديد الصهيوني لفلسطين في سني مراهقته. ونبّه والده، رضا الصلح، أمام البرلمان العثماني إلى الخطر الذي يشكّله الاستيطان اليهودي المتسارع الذي يميّز بحسن التمويل والتنظيم. لذا منذ أن أعلن عن النظام الجديد للانتخابات ما بعد الحرب، اهتم رياض بمعرفة ما يريد الصهاينة من فلسطين، وما مدى الدعم الذي تنوي بريطانيا تقديمه إليهم. هذه هي التساؤلات التي كانت تدور في خلد رياض عندما سافر، وهو في الثامنة والعشرين من العمر، إلى لندن في تشرين الثاني/نوفمبر 1921، لعرض خدماته ومعرفته بالشؤون الدولية على موسى كاظم الحسيني، رئيس بلدية القدس سابقاً، الذي كان يجري محادثات مع الزعيم الصهيوني الدكتور حاييم وايزمان تحت رعاية بريطانيا. عقدت المحادثات على خلفية توّثر شديد، إذ تكرّرت الاشتباكات بين العرب واليهود في القدس مع اقتراب ذكرى وعد بلفور في ذلك

الشهر. لفت رياض الصلح انتباه وايزمان باعتباره ابن وزير الداخلية السابق في حكومة الملك فيصل، وسياسي صاعد. ومن الواضح أنه أثار اهتمامه بالقدر الكافي ليعقد معه محادثات خاصة⁽¹⁾.

عُقد اجتماع في 7 تشرين الثاني/نوفمبر، حضره من الجانب الصهيوني إلى جانب وايزمان، جيمس دو روتشيلد وإيتامار بن آفي Itamar Ben-Avi، محرر صحيفة "دوار هايوم" والناشط في أوساط المستوطنين اليهود في فلسطين (الياشوف). وقد أعد بن آفي وثيقة بعنوان "اتفاق مقترح بين العرب واليهود" كأساس للمباحثات، وهي تقوم على مقايضة مقترحة: يقدم الصهاينة للعرب "دعماً مادياً ومعنوياً" لتحقيق "طموحاتهم القومية المشروعة"، مقابل أن يقدموا الدعم لليهود في إنشاء "وطن قومي" في فلسطين. كان هدف رياض الرئيسي من قبول الاجتماع بوايزمان معرفة إمكانية تعبئة النفوذ السياسي للصهاينة للحؤول دون أن تقرّ عصبة الأمم الانتداب على سوريا ولبنان. فقد كان يريد، على غرار القوميين العرب الآخرين في تلك الفترة، إلغاء الانتدابات وإحلال دولة عربية اتحادية محلها. فإذا وافق الصهاينة على مساعدة العرب في تأمين هذا الهدف الحيوي، فإنه مستعد للموافقة على هجرة يهودية محدودة إلى فلسطين. لكن المحادثات باءت بالفشل. أصرّ رياض على أن تضم وثيقة بن آفي فقرة تستبعد إنشاء دولة يهودية في المستقبل. ولم يكن من المستغرب أن يصرّ وايزمان، الذي كرّس كل طاقاته السياسية لتحقيق تلك الغاية، على أن من الأفضل ترك الأمور وشأنها في هذه القضية بالتحديد. وقال مراوفاً إنه لا يستطيع تقديم التزام عن الأجيال القادمة للمهاجرين اليهود. فردّ رياض معبراً عن اعتقاده في أن هدف وايزمان النهائي هو إقامة دولة يهودية⁽²⁾.

لم يشعر رياض بالرهبة أمام القائد الصهيوني الذي يبدو أنه استمع إليه باحترام، على غير عادته بعض الشيء. فقد كان وايزمان يميل، في تعاملاته مع العرب، إلى التكبر، بل الصلف، كما لو أنه يخاطب عدواً مهزوماً. ويبدو أن شعوره بالتفوق ينبع من إنجازاته الشخصية، على الصعيدين العلمي والاجتماعي - وهي إنجازات كان

(1) Neil Caplan, *Futile Diplomacy*, Vol. I, London 1983, pp. 54ff

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, Vol. I, p. 592

فخوراً بما أشد الفخر - فضلاً عن نجاحه الملحوظ في كسب دعم القوة الإمبريالية العظمى في ذلك الوقت للطموحات الصهيونية. وكان ينتظر من بريطانيا أن تُجبر العرب على قبول البرنامج الصهيوني، سواء أأحبوا ذلك أم كرهوه. مع ذلك، كان حريصاً دائماً على عدم إثارة عداة العرب، لذا نادراً ما كشف البعد الكامل لطموحاته، وهي على حدّ قوله جعل فلسطين يهودية مثلما إنكلترا إنكليزية وأميركا أمريكية.

استؤنفت اتصالات رياض بالصهانية في القاهرة في آذار/مارس 1922، ثم بعد ذلك بشهر، حين انضم إلى الشيخ رشيد رضا وكامل القصاب وإميل خوري، الذين وصفوا أنفسهم بأنهم اللجنة التنفيذية لحزب الاتحاد السوري، لعقد جولة أخرى من المحادثات⁽¹⁾. لكن هذه المحادثات وصلت في حزيران/يونيو إلى طريق مسدود أيضاً، لأن الصهانية خافوا من تنفير رعايق البريطانيين الذين سعوا جاهدين للحصول على صداقتهم. ولم يكن لديهم أي نية لإلغاء انتدابات عصبة الأمم، كما طلب العرب، لأنهم بحاجة إلى حماية الانتداب في فلسطين لمصلحة مشروعهم الخاص. كما لم يكن باستطاعتهم، في تلك الظروف، إغضاب الفرنسيين بتحدي انتدابهم على سوريا ولبنان. بل إنهم رأوا أن مجرد الاتصال بالوطنيين العرب من أمثال رياض الصلح، يهدد بتصنيفهم في المعسكر المناهض لفرنسا، فراجعوا.

في ذلك الوضع الغامض، حين كان يجري رسم خريطة الشرق الأوسط الجديدة، وقع جدال حاد بين الوطنيين من أمثال رياض الصلح والحاج أمين حول موضوع اعتماد موقف المعارضة التامة لسلطات الانتداب في دمشق وبيروت والقدس أو محاولة التعاون معها لمصلحة العرب. لم يقدم رياض طوال سنوات ما بين الحربين أي تنازل لمسيرة اللعبة السياسية الفرنسية في سوريا ولبنان. غير أنه كان مستعداً دائماً لعقد مباحثات مع المسؤولين والسياسيين الفرنسيين، وحريصاً على التأثير في الرأي العام الفرنسي بكل الوسائل الممكنة. لكن موقف الحاج أمين كان مختلفاً بعض الشيء. فقد عيّنه البريطانيون في منصب المفتي الأكبر واشتروا صراحة أن يستخدم نفوذه للمحافظة على النظام العام في القدس. ومع أنه عرّف نفسه كقومي عربي ووطني

فلسطيني، فقد وافق على الدخول في نوع من التعاون مع سلطة الانتداب. وبقي ملتزماً بالجزء المتعلق به من الاتفاق، لكن الهجرة اليهودية الواسعة وشراء الأراضي جعلته في موقف لا يُطاق، فثار على البريطانيين.

محاولة احتواء الصهاينة

في أوائل العشرينيات، بدا كأن الأمير عبد الله، الابن الثالث للحسين ملك الحجاز، قدّم للفلسطينيين عكازاً يتوكّون عليه. فقد قدم إلى شرق الأردن عبر سكة حديد الحجاز وأقام إدارة متواضعة في عمان. ومن هناك هدّد بالزحف على دمشق لاسترجاع عرش أخيه فيصل المفقود من الفرنسيين. وإقناعه بالاستكانة، قدّم له البريطانيون إعانة مالية صغيرة، ولكن غير كافية لإبعاده عن الخطط الصهيونية. كان عبد الله يطمح إلى تسميته ملكاً على شرق الأردن وسوريا وفلسطين أيضاً، لمجارة إنجلترا فيصل الذي عينه البريطانيون على عرش العراق بعد أن أطاح به الفرنسيون في سوريا. وفي مقابل ذلك، أبدى استعداداً للموافقة على مشروع "الوطن القومي لليهود" في فلسطين - أو عدم معارضته على الأقل. وقد اشتبه على نطاق واسع بأنه قبل أموالاً من الصهاينة، بعد أن عقد عدة لقاءات سرية مع وايزمان في لندن في تشرين الأول/أكتوبر 1922.

كان عبد الله مستعداً لمنح الصهاينة حقوقاً واسعة، تصل إلى حدّ السماح لهم بشراء الأراضي في شرق الأردن، إذا ما اعترفوا بسلطته وقدموا له إعانات مالية. غير أن البريطانيين اعترضوا على مثل هذه الصفقات في نهاية المطاف⁽¹⁾. وربما كان والده الملك حسين، عاهل الحجاز، يشاركه أفكاره لأنه حين زار عمان في 18 كانون الثاني/يناير 1924 وطلب منه السير هربرت صاموئيل استقبال وفد صهيوني، قلّد الحاخام الأكبر المرافق للوفد الوشاح الأكبر من رتبة الاستقلال العربي⁽²⁾.

(1) انظر Mandel, *The Arabs and Zionism*; N. Weinstock, *Le Sionisme contre Israël*, Paris 1969; Avi Shlaim, *Collusion Across the Jordan: King Abdallah, the Zionist Movement, and the Partition of Palestine*, Oxford 1988; Henry Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, 1922-1947: *Une mission sacrée de civilization*, pp. 289- 290

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p.52

كان رياض على علم بهذه الاتصالات، وأراد أن يستطلع إذا كان عقد اتفاق بين الهاشميين والصهيانية يحمي مصالح العرب الأساسية، أو يضرّ بها. فسافر إلى عمان عدة مرات في أوائل العشرينيات محاولاً معرفة ما يمكن أن ينطوي عليه مثل هذا الاتفاق. وكان يميل إلى الاعتقاد بأنه ربما يوجد مجال لجيب يهودي يحظى باستقلال ذاتي إذا قدّم الصهيانة الدعم لإنشاء اتحاد عربي يضمّ سوريا وفلسطين وشرق الأردن. بل إنه وافق، بناء على ذلك، على العمل وسيطاً إذا اقتضى الأمر بين عبد الله والصهيانة⁽¹⁾. وربما في تلك الفترة، اتصل به كالفارسكي Kalvarisky، رئيس الدائرة العربية في الوكالة اليهودية الذي عهدت إليه القيادة الصهيونية بمهمة إيجاد محاورين عرب مستعدين للتباحث معها. تعرّف رياض إلى كالفارسكي وعقدا عدة اجتماعات على مرّ السنين لم تسفر عن شيء يذكر، لأن موقفيهما السياسيين متباعدان تماماً.

كان حاييم وايزمان يميل إلى فكرة عقد اتفاق مع الهاشميين، لكن أراد بطبيعة الحال تضمينه طموحاته البعيدة جداً. فأوضح أنه مستعد لتقدم المساعدة الاقتصادية والسياسية إلى اتحاد عربي محتمل، إذا قدّم العرب في المقابل حيزاً واسعاً لإقامة "وطن قومي لليهود". لكن هذه المقايضة المقترحة يشوبها عيب أساسي. فقد طُلب من العرب التخلي عن مساحة واسعة من الأرض للصهيانة مقابل وعود وهمية بتقديم المساعدة إلى اتحاد عربي مفترض.

على أي حال، لقي الهاشميون انتكاسة مدمرة بعد بضعة أشهر بتعرّض الملك حسين لهزيمة نكراء. فعندما ألغى مصطفى كمال، رئيس الجمهورية التركية الجديدة، الخلافة العثمانية في 3 آذار/مارس 1924، وجد الحسين الفرصة سانحة ليعلن نفسه خليفة للمسلمين، وطلب من العالم الإسلامي ذكر اسمه في الدعاء في المساجد. لكن هذا الادعاء أغضب المسلمين في الهند، بالإضافة إلى الملك فؤاد عاهل مصر (ربما كانت لديه طموحاته الخاصة في هذا الاتجاه)، وكذلك ابن سعود، القائد الصاعد لشبه الجزيرة العربية. حتّ ابن سعود الحسين على نبذ الخلافة وأي محاولة لفرض هيمنته على العرب. وفي نهاية المطاف، أرسل قواته البدوية المقاتلة، "الإخوان"، لمهاجمة

الحجاز. فألحقت به هزائم متتالية أسفرت عن بسط عبد العزيز حكمه على الحجاز بأكمله وطرد الحسين في نهاية العام التالي.

على الرغم من الضربة القاسية التي تلقتها العائلة، ظل الأمير عبد الله عدة سنوات يأمل في توحيد المشرق تحت عرشه، لكن مناهضة ابن سعود والمصريين والفرنسيين والسوريين الوطنيين، وبرود البريطانيين، بالإضافة إلى التقدم الكبير الذي أحرزه الصهاينة، أفرغت هذا الطموح من أي مصداقية حقيقية. كما أن العديد من القوميين العرب، ومن بينهم الحاج أمين، نأوا بأنفسهم في ذلك الوقت عن الهاشميين وعلقوا آمالهم على ابن سعود. ظل فيصل، ملك العراق، يحظى بقدر من الاحترام، لكن ذلك لم يعد ينطبق على أخيه عبد الله، أو والدهما الحسين، ربما بسبب استعدادهما للتقارب مع الصهاينة. تردّد رياض الصلح في الانضمام إلى أي من معسكر الهاشميين أو السعوديين، لكنه أدرك تماماً أن صراعهما المرير يضعف موقف العرب كثيراً ولا يفيد إلا القضية الصهيونية.

في أوائل سنة 1924، استأجر رياض غرفة في نزل عائلي في جبل الكرمل في حيفا، بانتظار صدور عفو فرنسي يتيح له العودة إلى سوريا ولبنان. فزاره موسى شرتوك، بعدما عرف بوجوده من خلال عائلة الحسيني، وأقنعه بمرافقته إلى القدس للقاء الدكتور وايزمان ثانية. وفي الطريق إلى هناك، لفت شرتوك انتباه رياض إلى المستوطنات اليهودية التي تنمو بسرعة، وتبنيها في السهول فرق ناشطة من الرجال والنساء والأطفال. أقيمت الرحلة إلى القدس، والاجتماع مع وايزمان، رياض بتصميم اليهود الأوروبيين الجامح على السيطرة على فلسطين العربية، وعجز العرب المأسوي عن التصدي لهذا التهديد⁽¹⁾. وأدرك الآن أن الطموحات الصهيونية أكبر بكثير مما كان يتصور: إنهم يريدون فلسطين بأكملها، وضمّني لهر الأردن، أو قدر ما يستطيعون الاستيلاء عليه على الأقل. وفي 28 شباط/فبراير 1928، فصلت بريطانيا شرق الأردن عن فلسطين بموجب معاهدة تعترف بالأولى كدولة مستقلة في إطار الانتداب.

شهدت الفترة ما بين سنتي 1924 و1927 موجة الهجرة اليهودية الرابعة، حيث تدفّق آلاف اليهود المهاجرين من أوروبا وروسيا إلى فلسطين، بالإضافة إلى موارد مالية

(1) Alia el- Solh, *Le Jour* 14 November 1965

ضخمة للمساعدة في توطينهم. في ذلك الوقت، لم يكن بالإمكان ردم الهوة التي تفصل بين العرب واليهود بسهولة. غادر هربرت صاموئيل فلسطين في 1 تموز/يوليو 1925، أي قبل بضعة أسابيع من اندلاع الثورة السورية الكبرى التي أطاحت بنظيره الفرنسي في دمشق، الجنرال ساراي. وكان على رياض، طوال تلك السنوات، أن يعيش في صراع بين إعلان معارضته التامة لفكرة إقامة "وطن قومي لليهود"، كما عملي عليه فطرته، أو اعتماد نهج أكثر حذراً وتعقلاً من الناحية السياسية، يقوم على حقائق القوة. كان لديه ما يكفي من البراغماتية ليدرك أن المشروع الصهيوني المدعوم من البريطانيين أصبح في أواسط العشرينيات عميق الجذور بحيث من الصعب على العرب، وهم على ما هم عليه من انقسام، إن لم يكن من المستحيل، اقتلعه من جذوره. فبين نهاية الحرب العالمية الأولى وسنة 1925، تضاعف عدد اليهود في فلسطين ثلاث مرات من 55,000 نسمة إلى ما يفوق 150,000 نسمة. وأصبحوا يشكلون 16 بالمئة من السكان. وبما أنه لم يعد يمكن إلحاق الهزيمة بالصهاينة، فقد رأى رياض أن المهمة الملحة هي محاولة احتوائهم. واتضح ذلك على نحو محزن حين أعادت بريطانيا تأكيد التزامها بوعده بلفور، عند التصديق على شرعة الانتداب على فلسطين في 22 تموز/يوليو 1922.

أصبحت استراتيجية رياض بعد ذلك محاولة حماية مصالح العرب الأساسية عن طريق تقييد طموحات الصهاينة في إطار عربي. وهكذا، فإن النضال ضد تنامي الوجود الصهيوني، بالإضافة إلى الأحداث المثيرة مثل الثورة السورية وثورة عبد الكريم في المغرب ضد فرنسا وإسبانيا، دفعته هو والحاج أمين للتظاهر ضد بريطانيا وفرنسا، والدعوة إلى المقاومة وتنظيم تحركات التضامن الدولي، ما أكسبهما شهرة كحامليين لراية القضية العربية. وكان حلمهما إقامة أمة عربية موحدة قوية ولديها القوة الكافية للتصدي للقوى الغربية والصهاينة على الفور. وهذه الرؤية تتجاوز الحدود المصطنعة التي أنشأتها الانتدابات وتصل إلى العالم العربي بأكمله. لقد كان رياض الصلح شديد الإعجاب بالأمير شكيب أرسلان، رئيس المؤتمر السوري الفلسطيني، وعمل إلى جانبه عدة سنوات، لا بسبب وطنية أرسلان الثابتة والتزامه الشخصي فحسب، وإنما لأنه هو أيضاً يعتبر البلدان العربية، بل العالم الإسلامي، جسماً واحداً يواجه التهديد نفسه.

في العقد التالي، كانت حجة رياض تقوم على أنه إذا تمكّن من إقناع الصهاينة بوضع ثقلهم السياسي والمالي خلف قضية استقلال عربي يجمع سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، فإنه سيتمكّن من التوصل إلى "وعد بلفور عربي" يمنح بموجبيه اليهود "وطناً" داخل هذا الكيان العربي الواسع والواثق. فعرض ذلك على ديفيد بن غوريون وموسى شرتوك في سنة 1934، وعلى حاييم وايزمان نفسه في سنة 1936، معتقداً أن في وسعه إقناع عرب فلسطين بقبوله. لكن الصهاينة كانت لديهم أهدافاً أبعد من ذلك بكثير. كانوا يريدون فلسطين بأكملها، لا جيباً صغيراً داخل اتحاد عربي، أو كياناً يعتمد بقاؤه على صداقة العرب⁽¹⁾.

ظل رياض مقتنعاً طوال العشرينيات والثلاثينيات بأن الحوار أفضل وسيلة للتوصل إلى معادلة للتعايش بين العرب والصهاينة. لكن سرعان ما اتضح له بجلاء أن ليس للصهاينة مصلحة في التوصل إلى تسوية مع العرب، على الرغم من خطابهم الذي يبدي استعداداً ظاهرياً لذلك. وعندما اندلعت الثورة الفلسطينية الكبرى في سنة 1936 - وقد قمعها البريطانيون بوحشية بالغة - كان الوضع قد تدهور إلى حدّ يتعذر إصلاحه. ولم تعد الطموحات الصهيونية الواسعة خافية على أحد. غير أن رياض الصلح أدرك آسفاً، عن طريق هذه الاتصالات العقيمة، مقدار تمكّن الصهاينة من استقطاب الرأي العام الأوروبي والأميركي لصالحهم، ومقدار ضعف العرب في إيصال قضيتهم إلى العالم. ومع ذلك، ظل يأمل بإمكانية إصلاح هذا الاختلال في التوازن. وتعلم الكثير عن ممارسة التأثير السياسي من مراقبة الأساليب الصهيونية. فقد حصل حاييم وايزمان على الدعم البريطاني، الذي تكلّل في وعد بلفور في سنة 1917، بتقديم حجّته في لندن لا في فلسطين، وعلى أعلى مستوى. ولم يغب هذا الدرس عن انتباه رياض البتة.

"فلسطين الكبرى" كما رآها وايزمان

من القضايا التي شغلت رياض الصلح على وجه الخصوص الطموح الصهيوني إلى إنشاء مستعمرات يهودية خارج حدود فلسطين في سوريا وجنوب لبنان. فطالما كان

(1) Laura Zittrain Eisenberg, *My Enemy's Enemy: Lebanon in the Early Zionist Imagination, 1900- 1948*, Detroit 1994, p. 66; Beydoun, 'Riad el- Solh et les elections legislatives de 1943', p. 405, n 10

وايزمان يسعد بفكرة "فلسطين الكبرى"، وحاول مراراً إقناع الفرنسيين بالسماح بإنشاء مستوطنات يهودية في الجولان وحوران، بالإضافة إلى لبنان وصولاً إلى نهر اللبطين. وقد سعى بعض اليهود السوريين الأثرياء المتتمين إلى الصهيونية إلى شراء الأراضي في تلك المناطق، وطالبت الصحافة الصهيونية بضمها.

في باريس، عرض وايزمان حجته على هنري دو جوفنيل، المفوض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان، عندما اجتمع به في تشرين الثاني/نوفمبر 1925 في منزل القائد الاشتراكي الفرنسي، ليون بلوم Leon Blum، اليهودي المتعاطف مع الصهيونية. وفي نيسان/أبريل 1926، عقد وايزمان اجتماعاً آخر مع جوفنيل، في بيروت هذه المرة، في أعقاب زيارة رسمية قام بها المفوض السامي الفرنسي إلى فلسطين قبل شهر. حاول وايزمان إقناع جوفنيل بالموافقة على الاستيطان اليهودي في الأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. ولكن الفرنسيين الذين كانوا يجهدون لإخماد الثورة السورية الكبرى، ترددوا في تقديم تنازلات للصهيانية تثير مزيداً من الغضب لدى العرب. ترك جوفنيل منصبه في تشرين الأول/أكتوبر 1926، فأسقط خلفه تلك الفكرة. لكن وايزمان لم يكن مستعداً للتخلي عنها.

انبثقت فكرة توسيع الاستيطان اليهودي عبر الحدود داخل سوريا ولبنان من قيام المؤسسات الصهيونية، مثل الصندوق القومي اليهودي وشركة تطوير أراضي فلسطين، بشراء أراضي واسعة في شمال فلسطين. وقد وجدت بائعين لأنها مستعدة لدفع أسعار أعلى من سعر السوق، والأهم من ذلك أن الحدود الاصطناعية التي أقامها الانتدابان البريطاني والفرنسي عزلت مالكي الأراضي السوريين واللبنانيين عن أراضيهم في فلسطين. بل إن غالبية مبيعات الأراضي في السنوات الرئيسية الأولى، 1920 - 1927، قام بها مالكون غائبون غير فلسطينيين. ومن الصفقات الكبيرة شراء الصهيانية نحو 240,000 دونم في المنطقة الممتدة بين حيفا ووادي الأردن⁽¹⁾. وفي وقت لاحق، أي في ثلاثينيات القرن العشرين، أصبح البائعون من صغار الفلاحين الذين أرهقتهم الديون وأجبرتهم على البيع. وتسارعت وتيرة الشراء عندما هرب رأس المال اليهودي من ألمانيا إلى فلسطين، وهو ما سهّله اتفاقية "هافارا" التي عقدت بين النازيين

والصهاينة⁽¹⁾. وقدّم المحسنون اليهود مثل عائلي روتشيلد ومونتيفوري، قسماً كبيراً من الأموال، بينما قدّمت بريطانيا الأمن المادي والغطاء السياسي. وهكذا أخذت فكرة "الوطن القومي اليهودي" تتحول بسرعة إلى واقع ملموس.

شجّع الارتفاع الذي شهدته الهجرة اليهودية في الثلاثينيات وايزمان على إعادة إحياء فكرته بشأن "فلسطين الكبرى" التي تضم أجزاء من سوريا. فتوجّه إلى باريس في حزيران/يونيو 1933 لإقناع الحكومة الفرنسية بتخفيف معاناة اليهود الأوروبيين بالسماح باستيطان اللاجئين اليهود في الجانب السوري من بحيرتي طبرية والحولة. وكبدل عن ذلك، اقترح تقديم "المساعدة" كي "تسفر" فرنسا عرب فلسطين إلى هذه المناطق السورية، لإفساح مجال أوسع لليهود الأوروبيين في فلسطين! وبعد فترة قصيرة، عاد إلى باريس للحصول على دعم ليون بلوم لهذه الفكرة. فصحه بلوم سرّاً بشراء أكبر قدر ممكن من الأراضي في سوريا ولبنان لفرض الواقع على الأرض⁽²⁾. لكن وزارة الخارجية الفرنسية ظلّت غير مقتنعة بذلك. وحين زار داميان دو مارتيل، المفوض السامي في بيروت، فلسطين في كانون الثاني/يناير 1934، أبلغ نظيره البريطاني أن الفرنسيين لن يسمحوا لليهود الأوروبيين بالاستيطان في سوريا، لأن السكان المحليين لن يتقبلوا ذلك البتة. أما بشأن تهجير الفلاحين الفلسطينيين الذين فقدوا أراضيهم إلى سوريا ولبنان، فإن ذلك سيؤدي إلى إثارة غضب العرب على نحو مبرّر. وفي 18 كانون الثاني/يناير 1934، أصدر داميان دو مارتيل مرسوماً بالرقابة الإدارية على جميع مبيعات الأراضي على الحدود السورية واللبنانية مع فلسطين، تجاوباً مع مخاوفه من مثل هذه المخططات، بالإضافة إلى مخاوف السكان المحليين.

غير أن وايزمان رفض أن يهزم بسهولة. وفي أوائل سنة 1934، اهتمك في جمع الأموال لشراء أرض سورية كبيرة قرب الحدود الفلسطينية، وأعلن أن السلطات الفرنسية وافقت على هذه الصفقة. وعندما شكك المفوض السامي الفرنسي في بيروت في آذار/مارس 1934 في ذلك، ادّعى وايزمان عدم النظر في هذه الصفقة. غير أنه أبلغ

(1) Edwin Black, *The Transfer Agreement: the Dramatic Story of the Pact between the Third Reich & Jewish Palestine*, Washington 1984 (new edn 1999); Nicosia, *The Third Reich and the Palestine Question*; N. Weinstock, *Le Sionisme contre Israël*. Laurens, *La Question de Palestine*, vol. 11, p. 268 (2)

القنصل الفرنسي في القدس في الشهر نفسه، أن المستعمرات اليهودية القوية في سوريا توفر الأمن للهجرة اليهودية إلى شرق الأردن، حيث يستطيع اليهود أن يستوطنوا في مجموعات تضم 10,000 نسمة في كل مرة. أثار إصرار وايزمان على الترويج لخططه استياء وزارة الخارجية الفرنسية في باريس والمفوض السامي الفرنسي في بيروت، فاعتُبر شخصاً غير مرغوب فيه.

فيما كان الصهاينة يوسعون حيازاتهم في فلسطين باطراد، حاولوا إقناع القادة العرب بأن تمول الوكالة اليهودية إعادة توطين المزارعين العرب الذين فقدوا أراضيهم وعائلاتهم، خارج فلسطين. وهكذا أثبتت فكرة "التهجير" للمرة الأولى، حيث رأى الصهاينة أن شرق الأردن والعراق يشكّلان احتياطياً يمكن استخدامه لإيواء الفلاحين الفلسطينيين الذين فقدوا ممتلكاتهم. بل إن كالفارسكي، الذي كانت مهمته سير آراء العرب في مثل هذه القضايا، اتصل برياض الصلح وحاول إقناعه "بفوائد" مثل هذا التعاون بين العرب واليهود. لكن رياض الصلح اعترض بشدة على هذه المقولة. أدرك الحاج أمين أنه يخوض معركة خاسرة في فلسطين، فكتب إلى رياض في بيروت، يحثه على التدخل لمنع التوسع الصهيوني في سوريا ولبنان. وورد في إحدى هذه الرسائل التي تم حفظها حتى اليوم:

صاحب السعادة، الوطني العظيم والمحترم، رياض بك الصلح،
علمنا أن بعض الكفرة يعرضون بيع قطعة أرض واسعة عند المنارة وحنين في منطقة الحولة، ناقلين حقوق الملكية من العرب إلى اليهود.
إذا حصلت هذه الصفقة - لا قدر الله - فستعرض المنطقة إلى خطر شديد جداً لأنها ستغير طابعها العربي وتعطيها مظهراً يهودياً، وستسبب في الوقت عينه بخروج مئات العائلات العربية التي تعيش هناك وتزرع الأرض.
لذا نرجو منكم أن تبذلوا قصارى جهدكم لإحباط هذه المحاولة التي يقوم بها اليهود وأعدائهم، والمحافظة على بقاء هذه الأراضي بأيدي العرب. ولدينا أمل كبير في أن تنمر جهودكم وتؤدي إلى حماية هذه الأرض.

رئيس المجلس الإسلامي الأعلى

محمد أمين الحسيني

أزمة حائط البراق

ثمة قضية ملتهبة أخرى جمعت بين الحاج أمين ورياض الصلح أيضاً، وهي الخلاف على وضع الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف، أو البراق، آخر أثر للهيكل الثاني، على ما يزعم اليهود، حيث يتوافد اليهود للصلاة منذ أواخر العصور الوسطى. ويشكل هذا الحائط للمسلمين جزءاً لا يتجزأ من حرم المسجد الأقصى، لأنه أنشئ في عهد صلاح الدين الأيوبي بمثابة وقف إسلامي لصالح الحجاج المغاربة. وقد اندلع العنف في تلك البقعة في سنة 1929 نتيجة تزايد غضب العرب وإحباطهم من الهجرة اليهودية الواسعة النطاق، وشراء الأراضي التي تحرم الفلسطينيين من ممتلكاتهم. يمكن القول إن الأزمة بدأت في شهر آب/أغسطس السابق، حين نظم الحاج أمين احتفالاً ضخماً بمناسبة اكتمال المرحلة الأولى من إعادة ترميم المسجدين في الحرم القدسي، حضره مسلمون بارزون من جميع أنحاء العالم. اعتبر الصهاينة ذلك الاحتفال مسيئاً واختاروا تلك اللحظة للمطالبة بالحائط. وكانت سلطات الوقف الإسلامي قد سمحت لليهود بالصلاة عند الحائط منذ قرون عدة، ولكنها لم تصرّح لهم بإحضار حواجز أو مقاعد أو أشياء أخرى يمكن أن ينظر إليها بمثابة إقامة كنيس، وبالتالي تمنحهم حقاً دائماً في الموقع.

في 23 أيلول/سبتمبر 1928، في عيد الغفران، وفي تحدٍّ متعمّد لهذا الترتيب القديم، وضع اليهود الأوروبيون حاجزاً عند الحائط لفصل النساء عن الرجال. أبلغ السكان العرب المحليون السلطات الدينية المسلمة على الفور بهذا الإجراء، فأمر الحاكم البريطاني الشرطة بإزالة الحاجز بالقوة. طالب الصهاينة سلطات الانتداب بأن تصدر حارة المغاربة المحيطة بالحائط (حاول إدmond دو روتشيلد شراءها بأكملها في 1918)، مدعين بأن إزالة الحاجز يهدد مشروع "الوطن القومي اليهودي" بأكمله.

رد الحاج أمين بعقد مؤتمر إسلامي في القدس في تشرين الثاني/نوفمبر، صدر عنه قرار يؤكد أن الفلسطينيين حماة الأراضي المقدسة في القدس نيابة عن الأمة الإسلامية في جميع أنحاء العالم. وقد حضر المؤتمر العديد من الوطنيين السوريين، فيما قدم له رياض الصلح ورفيقاه في الوفد السوري الفلسطيني، الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري، من مقرهم في جنيف، دعماً قوياً. وأشاروا في رسالة أرسلوها في 7 تشرين

الثاني/نوفمبر إلى عصبة الأمم إلى القلق الشديد الذي عبّر عنه المؤتمر الإسلامي إزاء قانون أقرته الحكومة الفلسطينية في سنة 1924 يسمح بمصادرة الممتلكات للمصلحة العامة. فهل يسمح هذا القانون لليهود بتملّك الأماكن الإسلامية المقدسة؟ لذا طالب المسلمون بتعديل القانون وتعيين "مدّع عام نزيه يلتزم التمسك بمبدأ الحياد الديني المطلق"⁽¹⁾.

حين وصل المندوب السامي البريطاني الجديد، السير جون تشانسلر John Chancellor، إلى القدس في كانون الأول/ديسمبر، انحالت عليه العرائض الصهيونية المطالبة بمصادرة الوقف بأكمله. فأصدر الخراء القانونيون البريطانيون حكماً بأنه لا يمكن اعتبار الحائط "مكاناً مقدساً إسلامياً صرفاً" لأن لليهود الحق بالصلاة هناك. عندئذ عرض الحاج أمين قراراً عثمانياً صدر في سنة 1912، يمنع اليهود من إحضار أي شيء معهم إلى الحائط. منذ البداية، اعتبر المسلمون أن محاولات اليهود توسيع حقوقهم عند الحائط خطوة أولية ترمي إلى الاستيلاء على الحرم القدسي، وهدم المسجدين وبناء هيكل يهودي في ذلك الموقع. وازداد تأجّج مشاعر العرب بالإعلان عن إنشاء الوكالة اليهودية في حزيران/يونيو 1929، كمؤسسة شبه حكومية لتعزيز قضية "الوطن القومي اليهودي" تحت الانتداب البريطاني؛ وقد صدّق على القرار رسمياً بعد شهر واحد في المؤتمر الصهيوني السادس عشر في زيوريخ، الذي شكّل ذروة مسيرة حايم وايزمان السياسية. والواقع أن وجود الوكالة اليهودية يرجع إلى سنة 1923 على ما يبدو، إذا لم يكن قبل ذلك، عندما تولّت مهمة تمثيل الجالية اليهودية المتنامية وإدارتها من المفوضية الصهيونية.

على أي حال، أدّت المكاسب الصهيونية المستمرة في السياسة وحيازة الأراضي، وما قابلها من خوف لدى العرب وفقدان ممتلكاتهم، إلى تدمير أي أمل في التعايش السلمي بينهم وبين اليهود إلى حدّ كبير. وهكذا تهيأ المناخ المناسب لاندلاع الحريق في أواسط آب/أغسطس، خرج شبان يهود ينتمون إلى حركة "بيطار" المتطرّفة في مظاهرة صهيونية عند الحائط، تلاها في اليوم التالي مظاهرة مضادة سار فيها نحو 2000 مسلم عند قبة الصخرة في الحرم القدسي. وانتشرت في الوقت نفسه تقريباً إشاعات

خبيثة عن مذبحه يوشك أن يرتكبها المسلمون بحق اليهود، وعن هجوم اليهود على الحرم. وفي أعقاب صلاة الجمعة في 23 آب/أغسطس، هاجم حشد غاضب حارة اليهود فقتل بعض العابرين ودُمرت العديد من الممتلكات. في الوقت نفسه، قتل شبان يهود بعض المواطنين العرب. وسرعان ما وجدت الشرطة نفسها عاجزة عندما امتد العنف إلى الخليل، حيث قُتل 67 يهودياً؛ ثم إلى صفد، حيث قُتل 20 يهودياً آخرين؛ ثم إلى حيفا. قال المسلمون إن الصهاينة افتعلوا المشاكل للحصول على ذريعة للاستيلاء على الحرم. وقد شهد الأسبوع الواقع بين 23 و30 آب/أغسطس أعمال قتل مروعة. وقد قُتل في الإجمال 135 يهودياً و136 عربياً، علماً أن الشرطة البريطانية هي التي قتلت العدد الأكبر من العرب، فيما جُرح 340 يهودياً و240 عربياً آخرين⁽¹⁾.

ثارت المشاعر في كل أنحاء العالم العربي. فخرجت مظاهرة في دمشق في 26 آب/أغسطس تضامناً مع الفلسطينيين، ردّد المتظاهرون خلالها "فليسقط وعد بلفور"، وانتهت بصدامات مع الشرطة الفرنسية أسفرت عن سقوط بعض الضحايا. وفي القدس، خلص المندوب السامي، السير جون تشانسلر، إلى أن المصدر الرئيسي للتوتر هو بيع الأراضي لليهود. فأراد أن يصدر قانوناً يحدّ من الشراء، لكنه واجه معارضة شرسة من نورمان بنتويش Norman Bentwich، النائب العام اليهودي المتعاطف جداً مع الصهاينة. وقد لجأ الفلاحون العرب، الذين أخرجوا من أراضيهم، إلى الأحياء الفقيرة في حيفا، حيث شنّ المناضلون من بينهم هجمات متفرقة على المستوطنات اليهودية الجديدة.

بددت أعمال القتل المتبادلة التي وقعت في سنة 1929 الأوهام بشأن التعايش السلمي بين اليهود الأوروبيين والعرب في فلسطين. وبطبيعة الحال، بدأ اليهود الشرقيون في الدول العربية يواجهون بالشك والعداوة الصريحة. عندما دعا اليهود في فلسطين يهود العالم إلى الوقوف إلى جانبهم، قابل ذلك تأكيد على التضامن الإسلامي والهوية القومية العربية. وهكذا بدأت المواجهة بين العالم اليهودي والعالم الإسلامي التي لا تزال مستمرة بشراسة حتى اليوم.

(1) للاطلاع على تقرير معاصر عن العنف الذي اندلع في سنة 1929 كُتبه المراسل الخارجي الأميركي المميّز جيمس فنسنت شيان، انظر James Vincent Sheean, *Personal History*, New York 1935.

أبلغ وايزمان - الذي يستطيع الوصول إلى رجال الدولة الغربيين أكثر مما يستطيع القادة العرب مجتمعين - البريطانيين أن حلّ هذه الأزمة يكمن في ترحيل عرب فلسطين إلى شرق الأردن. وفي اجتماع في لندن مع رئيس الوزراء البريطاني، رامزي مكدونالد، طالب وايزمان بتشكيل لجنة تحقيق مستقلة لتحديد الجهة المسؤولة عن الاضطرابات ومعاقبة الفاعلين. بل طالب بوقاحة بمزيد من تأشيرات الهجرة، ودور أكبر لليهود في الإدارة الفلسطينية، وطرد جميع المسؤولين المعادين للصهيونية. فخضع البريطانيون لمطالبه. وفي 17 حزيران/يونيو 1930، أُعدم ثلاثة عرب لجرائم ارتكبت في آب/أغسطس 1929، فيما مُنح عفو عن اليهودي الوحيد الذي حُكم عليه بالإعدام. فخرجت مظاهرات غاضبة تكريماً "لشهداء الإسلام".

استغل الحاج أمين، الذي كان على اتصال دائم مع رياض الصلح وغيره من القوميين العرب، هذه الأزمة لتعزيز موقعه في الساحة السياسية الفلسطينية والعربية. فاعتمد لغة معادية لبريطانيا، وأعلن أن الاستقلال لن يتحقق إلا باتحاد البلدان العربية، وتوقع أن يتحقق ذلك قريباً. فالاستقلال لا ينتزع سوى بالقوة. ومثلما حقق رياض الصلح شهرة واسعة بفضل نضاله ضد الانتداب الفرنسي، ذاع صيت الحاج أمين خارج الحدود الفلسطينية بفضل دفاعه عن الحرم الشريف في القدس. ولمواجهة التهديد الصهيوني، دعا إلى دفن كبار الشخصيات الإسلامية في الحرم الشريف. ورأى أن جنازات هؤلاء تتيح فرصاً لمجيء القادة المسلمين إلى القدس للاجتماع وتبادل الآراء. وهكذا حضر عشرون ألف شخص في سنة 1931 جنازة الأمير محمد علي الهندي، وفي السنة نفسها دُفن في الحرم القدسي الشريف حسين، ملك الحجاز السابق.

المؤتمر الإسلامي العام وفشل انعقاد المؤتمر العربي

في ذلك العام أيضاً، فكّر الحاج أمين ورياض الصلح في عقد مؤتمر إسلامي كبير؛ لتركيز انتباه المسلمين على الوضع المتفجّر في فلسطين بسبب استمرار الهجرة اليهودية. ولتفادي إثارة عدااء الهنود المسلمين، وافق الجنرال السير أرثر واكسوب Arthur Wauchope، المندوب السامي البريطاني الجديد الذي استلم منصبه في تشرين الثاني/نوفمبر 1931، على عقد هذا المؤتمر. توجه رياض إلى القاهرة لبحث المشروع مع

أعضاء من اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني وغيرهم من الشخصيات البارزة، وإعداد جدول أعمال المؤتمر.

افتتح المؤتمر الإسلامي العام في القدس في 7 كانون الأول/ديسمبر 1931، في ذكرى الإسراء والمعراج، ودامت جلساته عشرة أيام. وقد حضره نحو 130 مندوباً من 22 بلداً، يجمع بينهم التضامن الإسلامي. قَدِمَ العديد منهم من فلسطين وسوريا، وجاء آخرون من العراق وإيران والهند. ووصف مؤرخ فلسطين الفرنسي، هنري لورنس، المؤتمر بأنه "لحظة حاسمة في تاريخ الإسلام في القرن العشرين"⁽¹⁾. رأى المندوبون العرب في هذا المؤتمر فرصة للاحتفال بإنجازات القومية العربية - وقسم كبير منها ثمرة الحملات المستمرة التي قام بها ثلاثي الوفد السوري الفلسطيني في جنيف. لكن لم يتمكن زميلا رياض، شكيب أرسلان وإحسان الجابري، من السفر إلى القدس، ولكن رياض مثلهما كما كتب في ملاحظة ألحقت بقائمة المندوبين⁽²⁾.

كانت الأهداف المعلنة للمؤتمر الدفاع عن الحائط الغربي وغيره من الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس، وتأسيس شركة لحماية الأرض الفلسطينية، وإنشاء جامعة الأقصى الإسلامية (رداً على الجامعة العبرية التي افتتحت حديثاً في جبل المشارف)، وترميم سكة حديد الحجاز، ورفض سياسة بريطانيا المؤيدة للصهيونية، واستمرار النضال ضد الهجرة والاستيطان اليهوديين. وقد لعب رياض دوراً مهماً في جلسات المؤتمر. وعُهد إليه بمهمة "الدعاية الخارجية"، أي التعريف بالمخاطر التي تواجهها فلسطين وسكانها العرب⁽³⁾. أما الحاج أمين، مفتي القدس

(1) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 227.

(2) في نهاية لائحة طويلة من المندوبين، توجد الملاحظة التالية باللغة الفرنسية:

Nous avons été invités, nous deux, membres de la Délégation syro-palestinienne, à prendre part à ce congrès, mais pour certaines raisons et à notre grand regret, nous n'avons pas pu nous y rendre; et avons prié notre collègue Riad Bey Solh de représenter la délégation, ce qu'il a fait avec toute la dignité et la capacité qui ne lui ont jamais fait défaut.

(نُحِن [شكيب أرسلان وإحسان الجابري]، عضوا الوفد السوري الفلسطيني، دعينا للمشاركة في هذا المؤتمر، لكننا للأسف الشديد لم تتمكن من الحضور لأسباب معينة. فطلبنا من رفيقنا رياض بك الصلح أن يمثل الوفد، وقد فعل ذلك بشرف وكرامة على عادته).

(3) Alia el-Solh, *Le Jour*, 14 November 1965.

الأكبر، فقد لقي استحساناً شخصياً واكتسب هالة قومية إسلامية تتخطى الحدود الفلسطينية.

من القرارات التي اتخذت، قرار يدعو إلى عقد مؤتمر عربي، يرمي إلى التصدي للسيطرة الصهيونية على فلسطين. لكن أين سيعقد هذا المؤتمر الثاني؟ لن تسمح بريطانيا وفرنسا بانعقاده في البلدان الخاضعة لسيطرتكما، مثل فلسطين نفسها وسوريا ولبنان. واستبعدت مصر لأنها لا تزال مترددة في السير على طريق العروبة، ولأن قيادتها عاجزة بسبب الصراع الدائر بين القصر وحزب الوفد الوطني. اعتُبر العراق مكاناً محتملاً لأنه يوشك أن يستقل عن بريطانيا، وكثير من الرجال المحيطين بالملك فيصل كانوا قوميين عرباً مناضلين. وفي أواسط سنة 1932، قدم سياسي عراقي بارز، وهو ياسين الهاشمي، إلى القدس حاملاً معه الخبر السار بأن العراق وافق على استضافة المؤتمر.

وعندما زار الملك فيصل أخاه عبد الله في تلك السنة، أسرع رياض إلى عمان للقاء الملك والحصول على موافقته الشخصية. وتواصلت التحضيرات للمؤتمر في الثمانية عشر شهراً التالية. فأرسل مبعوثون لطمأنة السعوديين بأن خصومهم الهاشميين لن يجنوا فائدة سياسية من المؤتمر، وفي أوائل شتاء سنة 1932-1933، أعطى ابن سعود موافقته على المؤتمر. فحدد موعد المؤتمر في ربيع 1933. لكن عُرف عندئذ أن الملك فيصل يعتزم السفر إلى الخارج للمعالجة. فأرجئ المؤتمر، ثم صُرف النظر عنه تماماً عندما توفي فيصل في سويسرا في أيلول/سبتمبر 1933. على أي حال، كان البريطانيون قد أوضحوا في ذلك الوقت أنهم لن يسمحوا بانعقاد مثل هذا المؤتمر في بغداد.

شكل موت فيصل، ثم إلغاء المؤتمر، إحدى الهزائم وخيبات الأمل الكثيرة التي عانى منها القوميون، مثل رياض الصلح، منذ الحرب العالمية الأولى. وعندما وصل جثمان فيصل إلى حيفا على متن باخرة لإكمال رحلة العودة براً إلى بغداد، حضرت أعداد غفيرة من الناس تكريماً لذكراه ومساهمة في القضية القومية.

العرب يعلقون آمالهم على ألمانيا

رحّب العديد من العرب ببروز هتلر في كانون الثاني/يناير 1933، إذ بدا أنه يعد بإحداث تغيير في ميزان القوى الدولي⁽¹⁾ واعتُقد أن باستطاعة ألمانيا النازية أن تؤمّن ثَقلاً موازناً لبريطانيا وفرنسا. بل إن بعضهم أمل أن تُضعف حرب جديدة في أوروبا القوى الإمبريالية، وتسمح للعرب بالحصول على استقلال حقيقي، وتجرد الصهاينة من الحماية البريطانية، وبالتالي تضع حداً لفكرة "الوطن القومي لليهود". وأعرب الحاج أمين في عدة اجتماعات عقدها مع هنريش وولف Heinrich Wolff، القنصل العام الألماني في القدس، عن دعمه السياسات النازية، لا سيما المقاطعة المناهضة لليهود.

توجّه زميل رياض الصلح، الأمير شكيب أرسلان، إلى برلين في تشرين الثاني/نوفمبر 1934 في محاولة لكسب دعم ألمانيا للقضية العربية⁽²⁾. وطلب فوزي القاوقجي، الضابط العربي الذي قاد لاحقاً المتطوّعين العرب في فلسطين، من فريتز غروبا Fritz Grobba، السفير الألماني في بغداد، تقديم أسلحة ألمانية⁽³⁾. وسافر رياض نفسه إلى أنقرة في أواسط الثلاثينيات للاجتماع بالسفير الألماني، والاستعلام عن الدعم الذي يمكن أن ينتظره العرب من الألمان في كفاحهم لنيل الاستقلال⁽⁴⁾.

كانت حجة العرب، في طلبهم مساعدة ألمانيا، أن الدولة العربية المستقلة في فلسطين ستكون حليفة لألمانيا، فيما الدولة اليهودية المستقلة ستكون عدواً لها. بيد أن العرب تفاجؤوا وخاب ظنهم لأنهم لم يحرزوا أي تقدم يذكر مع الألمان. وأدركوا متأخرين أن النازيين يتوخّون الحذر الشديد من فعل أي شيء يمكن أن يستعدي بريطانيا أو يضعف أمن الإمبراطورية البريطانية. بل إن مساندة بريطانيا العظمى كانت حجر الزاوية في حسابات هتلر الاستراتيجية والإيديولوجية منذ بداية الحركة النازية، وبقيت كذلك حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وكان من أولى أولويات هتلر إخلاء

(1) Nicosia, *The Third Reich*, pp. 85 ff.

(2) المصدر نفسه، ص 88.

(3) المصدر نفسه، ص 101 - 102؛ انظر أيضاً خيرية قاسمية (محررة) فلسطين في مذكرات القاوقجي، بيروت 1975.

(4) مقابلة مع علياء الصلح، موني كارلو، 5-6 تشرين الأول 2004.

ألمانيا من اليهود، لا معارضة السيطرة الفرنسية أو البريطانية على الأراضي العربية. لذا شجعت الهجرة اليهودية من ألمانيا إلى فلسطين بدلاً من وقفها⁽¹⁾.

لم يعارض القادة الصهاينة هذه الناحية من السياسة النازية لأنها تساعدهم في تعزيز الوجود اليهودي في فلسطين. بل إن اتفاقية هافارا بين الحكومة النازية والصهاينة أدت إلى تحويل ما يزيد عن 100 مليون مارك من الممتلكات اليهودية المجمدة إلى فلسطين على شكل صادرات ألمانية مبيعة محلياً، والهجرة المقابلة لنحو 8000 يهودي سنوياً بين سنتي 1933 و1939 (على الرغم من أن هذا الرقم انخفض إلى النصف في سنتي 1937 و1938)⁽²⁾. وأدى صعود الرعب النازي إلى جعل فلسطين بالنسبة إلى اليهود في أوروبا الشرقية - ولا سيما في بولندا - الملاذ الذي يتوقون إلى بلوغه أكثر من أي وقت مضى. وتمكّن نحو 30,000 يهودي من دخول فلسطين في سنة 1933 وحدها، سواء أكان ذلك بطريقة قانونية أم سرية.

شعرت اللجنة التنفيذية العربية باليأس من تصاعد الهجرة اليهودية من أوروبا، فنظمت المظاهرات ودعت في 13 تشرين الأول/أكتوبر 1933، إلى إضراب عام مما أدى إلى وقوع اشتباكات مع الشرطة. وتوجّه الغضب الفلسطيني إلى بريطانيا، القوة الاستعمارية العظمى التي شعروا أنها خانتهم تماماً. ولم يتم الاعتداء على أي يهودي في تلك المظاهرات. وأدت مظاهرة أخرى في 27 تشرين الأول/أكتوبر إلى صدامات أكثر خطورة، وإطلاق النار بكثافة على المتظاهرين العرب العزل. وقد سقط نحو 30 قتيلاً فلسطينياً وجرح المئات في الفترة التي سبقت رفع الإضراب في 3 تشرين الثاني/نوفمبر. ووصل الغضب إلى شرق الأردن وأدى إلى احتجاجات غاضبة في سوريا وغيرها من الدول العربية.

لم يكن الحاج أمين في فلسطين خلال تلك الأحداث، لكن حثّ السير أرثر واكهوب، عندما اجتمع به في 3 كانون الأول/ديسمبر، على إصدار أمر بوقف الهجرة اليهودية وشراء الأراضي. وأشار إلى أن إطلاق النار على المتظاهرين خطأً سياسياً فادح وجريمة، ونصح بتمنح تعويضات إلى عائلات الضحايا على الفور. ويجب أيضاً

Nicosia, *The Third Reich*, p. 122; Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, (1) pp. 259- 260

(2) Nicosia, *The Third Reich*, app. 7 and 8

منح المجلس الإسلامي الأعلى الموارد لإعادة إسكان الفلاحين الذين جُردوا من أرضهم. وأبلغ المندوب السامي البريطاني أن المشروع الصهيوني سيعتبر منجزاً عاجلاً أم آجلاً. وقدم موسى العلمي، وهو قائد فلسطيني بارز آخر من عائلة مشهورة في القدس، نصيحة مماثلة إلى واكهوب⁽¹⁾. وكان موسى العلمي من جيل الحاج أمين نفسه، وقد خدم في الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى، ثم درس في جامعة كامبردج قبل أن يعود إلى فلسطين في 1924، حيث عمل في الدائرة القانونية في الحكومة الفلسطينية. وفي سنة 1933، عينه المندوب السامي البريطاني مساعداً خاصاً مسؤولاً عن الشؤون العربية. وقد جمعت بين موسى العلمي ورياض صلة نسب، إذ تزوجا من فتاتين من عائلة الجابري الحلبية الميسورة. فقد تزوج موسى من ابنة إحسان الجابري، صديق رياض الصلح ورفيقه في الوفد السوري الفلسطيني.

كثر الحديث في ذلك الوقت عن تقسيم فلسطين إلى كاتونين عربي ويهودي. فقدّم موسى العلمي نصيحة براغماتية إلى واكهوب تقضي بأن يصبح جزء من الساحل الفلسطيني - حيث استوطنت أعداد كبيرة من اليهود - كاتوناً يهودياً يحظى باستقلال ذاتي، وتتم الهجرة إليه بحرية. وأن يوضع ما تبقى من فلسطين، تحت حكومة عربية، يحظى فيها اليهود بتمثيل نسبي. من نافلة القول إن الصهاينة عارضوا بشدة أي اقتراح قد يحد من توسعهم. وكانت الفضيحة الحقيقية في تلك الفترة التواطؤ البريطاني مع المخططات الصهيونية. فاستبعد المسؤولون البريطانيون الذين أرادوا اتخاذ موقف أكثر حيادية أو تم التخلّص منهم، وتركوا الساحة للذين لديهم ميول صهيونية. بل إن توماس إدوارد لورنس، الذي طالما اعتُبر إلى جانب العرب، وُصف مؤخراً بأنه مال نحو الصهيونية⁽²⁾. فقد كان فاعلاً في إقناع الشريف حسين بالموافقة على مبدأ "الوطن القومي لليهود" في فلسطين في مقابل خدمات سياسية بريطانية (لم يتحقق معظمها).

(1) Geoffrey Furlonge, *Palestine is my Country, the Story of Musa Alami*, London 1969; Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, pp. 266-7

(2) مقابلة مع مارتن جيلبرت Martin Gilbert بشأن كتابه *Churchill and the Jews*, New York 2007, *Jerusalem Post*, 23 February 2007.

السياسات الفلسطينية الحزبية

انحسرت رياض الصلح كثيراً في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات في تسوية النزاعات بين القادة الفلسطينيين المتخاصمين. ففي ذلك الوقت - كما هو الحال اليوم - أدت آفة الصراع الحزبي الداخلي إلى إضعاف الحركة الفلسطينية الوطنية. فقد ثارت منذ سنوات خصومة سياسية بين العائلتين الفلسطينيتين البارزتين، الحسيني والنشاشيبي، على وجه الخصوص. فعملت عائلة النشاشيبي ما في وسعها لمنع عقد المؤتمر الإسلامي في سنة 1931، لأنها تدرك جيداً أنه سيعطي خصمهما، الحاج أمين الحسيني، تأييداً كبيراً. بل إن مكانة المفتي المتصاعدة تحققت على حسابهم. وفي المجتمع الفلسطيني، استندت مكانة عائلة الحسيني إلى حد كبير إلى تحدرها من سلالة النبي ﷺ، في حين أن عائلة النشاشيبي، ذات الأصل الأقل عراقية، أصبحت ثرية بفضل الالتزام الضريبي في أواخر الحكم العثماني. ومن الناحية السياسية، كانت عائلة النشاشيبي أكثر اعتدالاً من عائلة الحسيني، وتعاونت مع السلطات البريطانية كما أيدت فكرة إنشاء مملكة هاشمية تدعمها بريطانيا على فلسطين وشرق الأردن. وشكّل ذلك برنامج حزبا السياسي، حزب الدفاع الوطني، الذي عارض المفتي بشدة.

كان ثمة صراع آخر بين الحاج أمين ومجموعة من الناشطين الفلسطينيين بقيادة عوني عبد الهادي، أحد معاوني الأمير فيصل في دمشق، حيث التقى به رياض لأول مرة. استاء عبد الهادي من المنافسة الحادة بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي، فأسس حزباً سياسياً، أسماه حزب الاستقلال، وشنّ حملة فاعلة على هجرة اليهود واستيطانهم ودعا إلى عصيان مدني سلمي على طريقة غاندي. وأعلن أن فلسطين دولة عربية محورية وجزء لا يتجزأ من سوريا. رأى الفرنسيون المرتابون دائماً أن حزب الاستقلال صنيعة المخابرات البريطانية. ولإقصاء الحزب من الساحة السياسية الفلسطينية، شكل آل الحسيني الحزب العربي الفلسطيني في مؤتمر عقد في القدس في 26 و27 آذار/مارس 1935، وشكّلت مناهضة الصهيونية المبدأ الرئيسي في برنامج السياسي. تلك بعض الأحزاب التي حاول رياض الصلح أن يجمع بينها. فزار فلسطين مرات عدة في أوائل الثلاثينيات في محاولة التوفيق بينها ولكن دون نجاح دائم.

في الوقت نفسه تقريباً، انهمك رياض في التوسط بين القادة الوطنيين السوريين المتنازعين أيضاً. فعندما عاد إلى بيروت في سنة 1935 بعد فترة الإقامة الجبرية في القامشلي، دُعي لتسوية خلاف في طرابلس بين مناصري عبد الحميد كرامي ومناصري الدكتور عبد اللطيف البيسار، أدى إلى حدوث اشتباكات بين الفئتين. فقد اعتدى أربعة رجال من آل البيسار بالضرب على عبد الحميد حين كان عائداً إلى منزله بعد اجتماعه بفخري البارودي الذي كان في زيارة لطرابلس في ذلك الوقت. قاد رياض وفداً للتوسط بين العائلتين. وكما كتب إلى صديقه نبيه وعادل العظمة في 27 تموز/يوليو 1935، "عدت للتو من طرابلس حيث أمضيت ليلتين لم أذق فيهما طعم النوم وأنا أحاول حل المصاعب الكبرى للمهمة. وبعد عودتي الآن، أعتقد أن باستطاعتي التوصل إلى حل خلال أسبوع"⁽¹⁾. ولعل أقل ما يقال في هذه الخلافات المستمرة في فلسطين وسوريا إنما لم تعد بأي فائدة على القضية العربية بأي شكل من الأشكال.

(1) خيرية قاسمية (محررة)، الرعيل العربي الأول. حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة، لندن 1991، ص. 268.

الفصل الحادي عشر

بن غوريون والعرب

في أواسط الثلاثينيات، استُدرج رياض الصلح وعدد من أبرز الشخصيات الفلسطينية والعربية إلى مباحثات مع ديفيد بن غوريون، الذي انتخب حديثاً عضواً في "اللجنة التنفيذية الصهيونية"، وهي الهيئة الحاكمة للحركة الصهيونية. تولّى بن غوريون مع زميله موشيه شرتوك - عرفه رياض في صباه - المسؤولية عن الشؤون السياسية. ففي سنة 1934، حين ارتفع عدد اليهود في فلسطين إلى نحو 400,000 نسمة، قرّر بن غوريون أن الوقت قد حان لاستكشاف إمكانية عقد اتفاق مع العرب، بعدما رأى أنه يستطيع الآن مواجهتهم بالأمر الواقع. كما أن المندوب السامي البريطاني الجنرال آرثر واكهوب عقد النية، بناءً على نصيحة مستشاريه المتصلّين والمؤيدين للصهيانية، على اتخاذ إجراءات صارمة ضد المعارضة العربية، مثلما فعل الفرنسيون في سوريا. فظنّ بن غوريون أن العرب قد يكونون مستعدين لعقد اتفاق.

لكن مع من يتكلم؟ فليس هناك قائد واحد قوي قادر على تمثيل جميع العرب. كان الحاج أمين الشخصية الأكثر نفوذاً في أواسط الفلسطينيين، ولكن نظراً إلى اتساع المهوة التي تفصل بين العرب واليهود في فلسطين، رأى بن غوريون أن من الأفضل عدم مفاخته بالأمر. وقرّر بدلاً من ذلك الاتصال بست شخصيات عربية بارزة ومؤثرة تمثل الرأي الوطني المثقف وتنتمي إلى عائلات عريقة، متصوراً أن باستطاعته استمالتها إلى طريقة تفكيره. هذه الشخصيات هي موسى العلمي، ورياض الصلح، وعوني عبد الهادي، والأمير شكيب أرسلان، وإحسان الجابري، وجورج أنطونيوس. واللافت أن اثنين منهم فقط، موسى العلمي وعوني عبد الهادي، فلسطينيان محليان. ففي تلك الفترة، لم يكن الشعور بالقطرية قد ظهر بعد، ومن الطبيعي أن يشعر القوميون العرب البارزون، على غرار رياض الصلح، وشكيب أرسلان وإحسان الجابري، بأنهم مخوّلون بحث مستقبل فلسطين، ومن الطبيعي أيضاً أن يحاول بن غوريون معرفة آرائهم.

وضع بن غوريون لكل واحد منهم، ولكن بصيغة مختلفة بعض الشيء، خطة من مرحلتين أمل أن تحظى بقبولهم، بل بدعمهم. المرحلة الأولى من هذه الخطة هي إنشاء دولة يهودية، ما إن يصبح اليهود أغلبية في فلسطين وشرق الأردن. وتوقع في المرحلة الثانية إقامة صلة بين هذه الدولة اليهودية واتحاد سوري عراقي، بغية طمأنة عرب فلسطين، الذين سيكونون أقلية في الدولة اليهودية، أنهم لا يزالون جزءاً من الغالبية العربية في المنطقة.

في 20 آذار/مارس 1934، التقى بن غوريون بموسى العلمي في منزل موشيه شرتوك في القدس. وكتب بن غوريون لاحقاً⁽¹⁾:

طرحْتُ عليه السؤال الحاسم، "هل هناك أي احتمال للتوصل إلى تفاهم بخصوص إنشاء دولة يهودية في فلسطين، بما في ذلك شرق الأردن؟" أجاب بسؤال: لِمَ يجب على العرب الموافقة؟ ربما يستطيع اليهود تحقيق ذلك حتى من دون قبول العرب، لكن لِمَ عليهم الموافقة على ذلك؟ أجبت أننا سنوافق بالمقابل على دعم إنشاء اتحاد عربي في البلدان المجاورة، ونحالف بين الدولة اليهودية والاتحاد، كي لا يصبح عرب فلسطين في موقف الأقلية، حتى إذا شكلوا أقلية في البلد، لأنهم سيرتبطون بملايين العرب في البلدان المجاورة.

ثم سأله بن غوريون هل سيقبل العرب بالمساواة في المجلس التشريعي الفلسطيني الذي يفكر البريطانيون في إنشائه؟ فرفض موسى العلمي الفكرة من أساسها وسأل، "لِمَ يقلون بذلك؟ ألا يشكل العرب أربعة أخماس سكان البلد؟ أليسوا السكان المحليين؟ لِمَ عليهم تقديم مثل هذا التنازل؟"

في 26 آذار/مارس، وبعد مرور أقل من أسبوع على هذا النقاش العقيم، توفي موسى كاظم الحسيني، رئيس اللجنة التنفيذية العربية - الذي حاول رياض مساعدته في مفاوضاته مع وايزمان في لندن في سنة 1921 - عن عمر يناهز 83 عاماً. فشكت جنازته في الحرم الشريف، الذي نجح الحاج أمين في جعله مكاناً لدفن كبار

الشخصيات المسلمة، مناسبة لمظاهرة شعبية ضخمة. لكن بالنظر إلى الخلاف بين آل الحسيني وآل النشاشيبي، والمزايدة القومية لحزب الاستقلال، فإنه لم يتمكن أحد من الحلول مكانه على رأس اللجنة التنفيذية العربية. لكن الحقيقة هي أن العرب الذين أضعفتهم المشاحنات الداخلية كثيراً، ويواجهون تنامي القوة الصهيونية المنظمة جداً، أخذوا يخسرون النضال من أجل فلسطين.

كانت تلك خلفية لقاء بن غوريون مع رياض الصلح في 15 حزيران/يونيو، وهو اللقاء الذي مهد له موشيه شرتوك بزيارة رياض في لبنان. وعلى الرغم من أن رياض، كان في ذلك الوقت شديد الارتياب من النيات الصهيونية، فإنه أظهر استعداداً لاستكشاف إذا كان يمكن حماية أي من مصالح العرب الأساسية عبر تفاهم اللحظة الأخيرة مع اليهود. أراد أن يعرف بالتفصيل ما نوع الاتفاق الذي كان يريده بن غوريون. وقد عرض عليه الزعيم الصهيوني خطة أكثر تفصيلاً من تلك التي عرضها على موسى العلمي، وأجملت هذه المرة في خمس مراحل متتالية:

- الحرية غير المحدودة لليهود بالهجرة إلى فلسطين وشرق الأردن.
- بقاء الفلسطينيين العرب في البلد، وتقديم المساعدة إليهم لتحسين وضعهم الاقتصادي والثقافي.
- مشاركة اليهود والفلسطينيين في الحكومة على أساس المساواة خلال فترة الانتداب.
- إنشاء دولة يهودية مستقلة في فلسطين.
- إقامة صلة بين هذه الدولة اليهودية واتحاد عربي مستقل للبلدان المجاورة.

أكدت نقاط بن غوريون الخمس ما كان يخشاه رياض الصلح: نية الصهاينة تحويل فلسطين بأكملها وشرق الأردن إلى دولتهم اليهودية المستقلة. لكن كيف يمكن إحباط هذا المشروع المدمر للمصالح القومية العربية، أو صدّه على الأقل؟ فطلب رياض نسخة خطية من اقتراحات بن غوريون، وأخذ على عاتقه بحثها مع قادة عرب آخرين. وأبلغ الزعيم الصهيوني أن فرنسا، المعنية بسيطرتها على سوريا، ستعارض انضمام ذلك البلد الخاضع للانتداب إلى أي اتحاد عربي، لا سيما إذا كانت

ستسيطر عليه بريطانيا. وأشار بشيء من التبصّر إلى الحاجة إلى حرب عالمية لتغيير الوضع وإنهاء الانتدابات⁽¹⁾.

كان المحاور العربي التالي لبن غوريون رئيس حزب الاستقلال، عوني عبد الهادي، الذي اجتمع به في 18 تموز/يوليو، وعرض عليه مرة أخرى رؤيته لدولة يهودية واسعة على ضفتي الأردن، ذات صلة باتحاد عربي. بيد أن هذه الرؤية لم تلقَ إعجاب عبد الهادي. فقال لبن غوريون، "اليهود يشترطون أفضل الأراضي ويجردون العرب من ممتلكاتهم. وطالما أعلن وايزمان وآخرون عن نيّتهم الحسنة تجاه العرب، لكن أين هي هذه النيّة الحسنة؟... أتعتقد أنكم تستطيعون خداعنا بإعلاناتكم المعسولة...؟ الاستيطان اليهودي يقوّض وجود العرب ولا يفيدنا في شيء...". وسأل عبد الهادي بن غوريون إذا كان الصهاينة سيساعدون العرب في التخلص من القوى الإمبريالية، فاعترف بن غوريون بصراحة أن التحرير السياسي للعرب سينتظر إلى وقت لاحق. فالصهاينة لن يقاتلوا البريطانيين المتعاونين جداً معهم نيابة عن العرب⁽²⁾.

في اجتماع آخر مع موسى العلمي في 14 آب/أغسطس، أجمل بن غوريون ثانية خطبته بشأن دولة يهودية مرتبطة باتحاد عربي يتم إنشاؤه في نهاية المطاف. فأجابه العلمي أن العرب لن يوافقوا على الهجرة اليهودية غير المحدودة، أو إنشاء دولة يهودية من دون ضمانات أكيدة بخصوص الاتحاد. لكنه رأى أن من الأفضل عرض مقترحات بن غوريون على المفتي الأكبر الحاج أمين. وفي لقاء آخر في 27 آب/أغسطس، طرح العلمي، بعدما تشاور مع المفتي، عدداً من الأسئلة. إذا أصبح اليهود الأوروبيون الأكثرية وأعلنت فلسطين دولة يهودية، من سيضمن أمن المسجد الأقصى وقبة الصخرة في الحرم الشريف، أقدس الأماكن الإسلامية خارج الحجاز؟ وأوضح أن هذه المسألة هي الشاغل الرئيسي للمفتي. سعى بن غوريون إلى طمأنته، وأبلغ العلمي أن اليهود المتشدّدين فقط يؤمنون بوجوب إعادة بناء الهيكل، ولكن بعد مجيء المسيح فحسب. ويمكن تقديم ضمان لأمن المكان، إذا طلب العرب ذلك.

(1) المصدر نفسه، ص 17 - 18.

(2) المصدر نفسه، ص 18 - 21.

سأل العلمي بعد ذلك إذا كان بن غوريون يوافق على أن تشكل فلسطين وشرق الأردن والعراق دولة واحدة. فأجاب بن غوريون بالرفض القاطع. وأصرّ على أنه لا يمكن تصوّر استقلال الشعب اليهودي من دون دولة سياسية مستقلة خاصة به. يجب أن تكون فلسطين وشرق الأردن جزءاً من الدولة اليهودية، فيما يكون العراق الشريك الآخر في الاتحاد. فسأل العلمي إذا كان بن غوريون يوافق على تقييد هجرة اليهود مدة عقد من الزمن حتى لا يزيد عدد السكان اليهود في نهاية تلك الفترة على مليون نسمة. فرفض بن غوريون ثانية لأن الهجرة غير المحدودة هي الدعامة المركزية التي تقوم عليها سياسته⁽¹⁾.

بعد ذلك، تحدث بن غوريون مع الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري، زميلي رياض في الوفد السوري الفلسطيني، اللذين التقى بهما في جنيف في 23 أيلول/سبتمبر. فكرر أمامهما أيضاً، في محادثات امتدّت حتى الفجر، إيمانه بضرورة - بل حتمية - إنشاء دولة يهودية في فلسطين وشرق الأردن. وادّعى أن اليهود سيصبحون الأغلبية في فلسطين عما قريب، وتلك حقيقة لا يمكن تجنّبها. لكن من الضروري التوصل إلى اتفاق مع العرب. فإذا كانت الدولة اليهودية جزءاً من اتحاد عربي أوسع، لن يشعر الفلسطينيون العرب بأنهم أقلية. فوجئ أرسلان بهذا الطموح السافر، إذ لم تكن مسألة الغالبية اليهودية أو الدولة اليهودية واردة في ذهنه. بل إنه لم يكن مستعداً حتى للنظر في عقد مباحثات جادة مع الصهاينة، ما لم يضمنوا السماح ببقاء العرب أكثرية في فلسطين. وقال إن العرب لن يهتموا البتة أن تتحول فلسطين إلى دولة يهودية، كما ليس لليهود أي حق في الاستيطان في شرق الأردن التي ليس لديهم أي ادعاءات محتملة فيها على الإطلاق. حاول إحسان الجابري أن يكون أقلّ تصلباً من أرسلان، لكنه لم يستطع كبح نفسه طويلاً أمام تباهي بن غوريون بالانتصار⁽²⁾.

بعد مرور يومين على اللقاء، أعلن بن غوريون، الذي لا يعرف الكلل، في خطاب يتسم بالغرور ألقاه في وارسو أن ثمة اتفاقاً يوشك أن يعقد مع العرب على

(1) المصدر نفسه، ص 24 - 33.

(2) المصدر نفسه، ص 35 - 37.

أساس خطته. غضب أرسلان والجابري من تسريب هذه المعلومات المضلّة. فبادرا على الفور، حرصاً على سمعتهما، إلى نشر روايتهما عن "تبادل وجهات النظر" مع الزعيم الصهيوني في مجلة "الأمة العربية" *La Nation Arabe* ⁽¹⁾. وكانا قد سألا بن غوريون عن عدد المهاجرين الذين ينوي الصهاينة جلبهم إلى فلسطين، وعن تقديره لقدرة البلاد القصوى على الاستيعاب. فأجاب بن غوريون أن فلسطين وشرق الأردن تستوعبان ستة إلى ثمانية ملايين يهودي. وسأل عن التعويض الذي يطلبه العرب للموافقة على إنشاء دولة يهودية في أراضيهم. وقال إن باستطاعة العرب الذين لا يريدون الهجرة البقاء، ولن تؤخذ أراضيهم منهم.

لم يسعنا الامتناع عن الابتسام من هذه المبالغات الفاحشة... ومع ذلك سألنا بن غوريون عن التعويض الذي سيقدمه اليهود للعرب مقابل تضحياتهم. فأجاب: "سندعم للعرب العون السياسي والاقتصادي. وسيشمل العون السياسي تعبئة القوة اليهودية لصالح العرب في سوريا؛ أما بالنسبة إلى العون الاقتصادي، فسيشتمل على استثمار رؤوس أموال في بلاد الرافدين والسعودية واليمن من أجل الإسهام في نموها الاقتصادي".

أجبنا قائلين: "أنت تطلب باختصار إخلاء بلد... مقابل عرض تقديم مساعدة سياسية غير مؤكدة، ومساهمة مالية ليس لأي بلد عربي حاجة ملحة إليها".

ذكر أرسلان والجابري بن غوريون أن فرنسا بدأت تعترف بقدره سوريا على حكم نفسها بنفسها؛ وأن العراق استعاد استقلاله، وأنه يتوسّع اقتصادياً بفضل موارده النفطية؛ وأن ليس لدى الحجاز واليمن النية لقبول رأسمال أجنبي، لا سيما رأس المال اليهودي. وأبلغنا بن غوريون أن عرضه لا يكفي البتة لإقناع مليون ونصف مليون عربي بالتخلي عن أراضيهم - أرض أجدادهم المقدسة - والهجرة إلى الصحراء؛ ودفع الأمة العربية التي تعدّ نحو عشرين مليون نسمة إلى قبول عار التصديق على إخلاء هذه الأرض المقدسة التي تختبئ تراها بدماء أجدادهم... وعلى بن غوريون ألا يفكر في السعي للحصول على موافقة خصومه حاملاً مثل هذه الأفكار الفاحشة والوقحة. ومن الأفضل أن يعتمد الصهاينة على حراب البريطانيين لإنشاء مملكتهم اليهودية بدلاً من السعي لعقد اتفاق مع العرب.

وخلص أرسلان والجابري في روايتهما عن تفاصيل اللقاء، إلى أن التشجيع البريطاني الناشط، بالإضافة إلى السبات العربي، منح بن غوريون الجسارة على تقديم مثل هذه المقترحات "الصبيانية والخيالية". وقد كشف لهجه الهدف الصهيوني الفعلي، وهو تحقيق غالبية يهودية في فلسطين. وتوقع أرسلان بدقة ما سيحصل لاحقاً: "عندما يصبحون الأكثرية، سينتهي أمر العرب"⁽¹⁾.

في نيسان/أبريل 1936، بعدما انتعشت آمال بن غوريون بقدوم 65,000 يهودي في السنة الماضية، وذلك رقم قياسي في عدد اليهود المهاجرين إلى فلسطين، عقد ثلاث جلسات مطوّلة مع شخصية عربية بارزة أخرى. كان محاوره هذه المرة، جورج أنطونيوس، وهو مفكر أرثوذكسي لبناني مصري المولد، درس في جامعة كامبريدج. حصل على الجنسية الفلسطينية في سنة 1925 وعمل في حكومة الانتداب البريطاني، لكنه استقال في سنة 1930، احتجاجاً على التحيز البريطاني الفاضح لمصلحة الصهاينة. وفي 1938، فيما كانت فلسطين تضع من بين أيدي العرب، نشر كتاباً مهماً بعنوان *يقظة العرب* *The Arab Awakening*؛ فاعتبر على الفور بمثابة تاريخ للقومية العربية.

رأى بن غوريون في الحجة المركزية التي قدّمها إلى أنطونيوس أنه لا يوجد تناقض أساسي بين الطموحات القومية للعرب واليهود. فاليهود لا تعنيهم سوى "أرض إسرائيل" التي عرفها بأنها "الأرض الواقعة بين البحر المتوسط في الغرب والصحراء في الشرق، وبين سيناء في الجنوب ومنبع نهر الأردن في الشمال"، وهي منطقة تضم شرق الأردن وأجزاء من سوريا ولبنان. وإذا وجد العرب أنفسهم أقلية في هذه المنطقة، فإنهم سيظلّون جزءاً من الأمة العربية الأوسع. وقال إنه لا يقبل الحدّ من الهجرة اليهودية، لكنه دعا بدلاً من ذلك إلى توقيع "اتفاق فاعل" بين العرب واليهود. وأعلن بتفضّل، "سنساعد الشعب العربي للوصول إلى إنتاجيته القصوى. سنقدم إليه العون المعنوي والسياسي والمالي والتنظيمي. وسيساعدنا العرب في تنمية أرض إسرائيل إلى أقصى حدّ، ليحظوا بحياة كريمة في هذا البلد، ونجلب أقصى عدد ممكن من اليهود"⁽²⁾.

(1) Cleveland, *Islam Against the West*, p. 78.

(2) Ben-Gurion, *My talks with Arab Leaders*, pp. 42-4.

في السنة نفسها، أي سنة 1936، اجتمع رياض الصلح بمندوب صهيوني بارز آخر. هذه المرة، لم يكن محاوره ديفيد بن غوريون المشاكس، بل ناحوم غولدمان، الصهيوني الأكثر اعتدالاً الذي ساهم للتوّ في تأسيس المؤتمر اليهودي العالمي، وترأسه سنوات عديدة. جرى اللقاء في باريس، حيث كان رياض يقدم المشورة آنذاك إلى الوفد السوري في مفاوضاته مع حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم. كان رياض في مزاج غاضب. فقد كرّس كل حياته لقضية الاستقلال العربي، ليعلم في آخر الأمر أن حاييم وايزمان حثّ بلوم سراً على عدم منح سوريا الاستقلال. فأبلغ غولدمان أن على اليهود إذا أرادوا التفاهم مع العرب، أن يعلنوا أولاً على الملأ دعمهم حركة التحرر العربية. وعندئذ فقط يمكن بحث أي شيء⁽¹⁾.

في باريس، لم يكن رياض يدرك أن وايزمان ضغط أيضاً على ليون بلوم لمقاومة أي محاولة يقوم بها السوريون لتغيير الحدود الموسّعة للبنان الكبير، كما رسمتها فرنسا سنة 1920. وكان وايزمان يأمل في أن يتمكن الصهاينة والموارنة من التعاون للوقوف في وجه "الحشود المسلمة المتعصبة" في الأراضي الداخلية⁽²⁾. كما أراد أن يسمح بلوم باستيطان آلاف اليهود بين الحدود الفلسطينية وبيروت. وبناء على طلبه، سافر محام فرنسي يدعى كادمي - كوهين Cadmi-Cohen إلى بيروت ليعرض فكرة عقد "اتفاق شرف" بين اليهود واللبنانيين يقوم على السماح بالاستيطان اليهودي في جنوب لبنان. وسيعترف اليهود بالحدود الدولية الموسّعة للبنان، فيما يعترف لبنان بحق اليهود في شرق الأردن وشبه جزيرة سيناء. لم يتم التوصل إلى اتفاق، على الرغم من أن الفكرة حظيت بتعاطف مجموعة مارونية هامشية جذبتها فكرة إنشاء "وطن قومي مسيحي" في لبنان.

في ذلك الوقت، فقد رياض أي أمل في التوصل إلى تسوية مقبولة مع الصهاينة، لأن مطالبهم فظيعة لا تطاق. وكانوا يتمتعون بدعم بريطاني صلب، بينما ابتلي العرب بالشجار والانقسام، واهتمّوا بإسكات بعضهم بعضاً أكثر من اهتمامهم بمحاربة الصهاينة. فما هي النصيحة التي قدّمها إلى أصدقائه الفلسطينيين؟ كان يدرك تماماً أن

(1) المصدر نفسه، ص 70.

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 326.

الأحداث تدفع الحاج أمين باتجاه مزيد من التطرف. فهناك قوى في المعسكر الفلسطيني، بل في العالم العربي على العموم، تفضّل اللجوء إلى السلاح ضد البريطانيين والصهاينة في آن معاً. بل إن أنطونيوس نفسه أبلغ بن غوريون أن استمرار تدفق اليهود الأوروبيين على البلاد دون قيود، لا يترك للعرب أي خيار سوى القتال. فإذا كان الصهاينة يريدون "دولة يهودية مئة في المئة"، فلا مجال للتوصل إلى أي تفاهم معهم⁽¹⁾.

شعر رياض بتشاؤم شديد. فقد رأى الطريقة الوحشية التي اتبعتها فرنسا للقضاء على السوريين في ميسلون في سنة 1920، ثم قمع الثورة السورية الكبرى في سنتي 1925 و1926. ولن تستأنف قوة استعمارية وحشية مثل بريطانيا عن استخدام القوة المفرطة ضد المواطنين المتمردين. ومن المرجح ألا يكون ردّها على أي اضطراب في فلسطين مختلفاً عن رد الفرنسيين في سوريا. بدلاً من المجازفة بحصول صدام مسلح آخر مع الفرنسيين، دعا رياض إلى إطلاق حملة دعاية وإقناع واستمالة الرأي العام الفرنسي من خلال اتصالاته بالسياسيين والصحافيين في باريس. وقد بدأت جهوده تؤتي ثمارها. فوافق الفرنسيون على الدخول في مفاوضات مع دول المشرق على أمل إنهاء الانتدابات وتحقيق الاستقلال. لكن الوضع مختلف في فلسطين. فبينما كان العرب يتنازعون في ما بينهم، كان الصهاينة يسعون بإصرار وعزم شديدين للسيطرة على البلد بأكمله. وأصبحوا يعدّون نحو نصف مليون يهودي، أغلبهم من أصول أوروبية، ويتفوقون على العرب من الناحيتين التعليمية والاقتصادية، ويزدادون عدداً وثروة وتوسع الأراضي التي يملكونها يوماً بعد يوم. فما الذي يجب عمله؟

قدّم بن غوريون إلى محاوريه العرب العرض نفسه أساساً: أعطونا فلسطين وشرق الأردن لإقامة دولة يهودية، وسنساعدكم في وضع البلدان العربية الأخرى على طريق التنمية ونوع من الاتحاد. لكن رياض يدرك تماماً أن العرض السياسي الذي قدموه ليس سوى عرض أجوف، نظراً لاعتماد الصهاينة على بريطانيا، وخوفهم من إثارة استياء الفرنسيين. بل إنه مجرّد ذرّ للرماد في العيون. وكان بن غوريون، يدرك، من جهته، أن العرب لن يقبلوا البتة "بيع" فلسطين لليهود. وخلص الآن أنه لا يمكن الحصول على الدولة اليهودية إلا بعرض حاسم للقوة العسكرية.

الثورات الفلسطينية 1936 - 1939

في أوائل الثلاثينيات، قررت مجموعة من الشبان العرب تشكيل جمعية سرية باسم الجهاد المقدس بغية الإعداد لثورة مسلحة. فأنشئت الخلايا بقيادة عبد القادر الحسيني، ابن موسى كاظم الحسيني، الرئيس السابق للجنة التنفيذية العربية، وجمعت الأموال والتبرعات. أبلغ المفتي فتحهم على ألا يقدموا على أي عمل حتى يصبحوا مستعدين تماماً. في الوقت نفسه تقريباً، أسس عز الدين القسام منظمة مماثلة في شمال فلسطين. كان القسام شيخاً سورياً من منطقة اللاذقية، درس في الأزهر في القاهرة، وعلم في مدرسة دينية، وقاتل الفرنسيين وحُكم عليه بالإعدام غيابياً. فهرب إلى حيفا، حيث أسس مدرسة ليلية للأمين وبدأ بإلقاء الخطب والمواعظ، وكسب أتباعاً بين الفلاحين المشردين⁽¹⁾. فنظمهم في شبكة من الخلايا السرية المسلحة، وأعد لإعلان الجهاد على الصهاينة والبريطانيين والعرب المتعاونين معهم.

كان الشعور العميق بالوطنية والتضحية بالذات القوة الدافعة للرجال من أمثال القسام. وكانوا يردون أيضاً على الإشاعات المتواترة بأن الصهاينة يشكلون قواتهم السرية الخاصة ويسلحونها. ففي تشرين الأول/أكتوبر 1935، كشفت الشرطة البريطانية عن عملية تهريب كبيرة عبر ميناء حيفا لأسلحة ألمانية بيعت للصهاينة بموافقة النازيين. فقررّ العرب مثل عز الدين القسام الحصول على الأسلحة واستخدامها. وانخرط مع أحد عشر من أتباعه في العمل السري وشنّ عمليات عسكرية. لكن سرعان ما حُدّد مكائهم وحوصروا. فقتل القسام في معركة بالأسلحة مع الشرطة في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1935. وتحوّلت جنازته في حيفا إلى مناسبة لمظاهرة سياسية ضخمة تليق ببطل وطني. وبعد أكثر من سبعين عاماً على وفاته، أطلق اسمه على الصواريخ البدائية المحلية الصنع التي أطلقها الفلسطينيون الياثسون المحاصرون في غزة على إسرائيل، متحدّين الحصار وإن كانت غير فعّالة.

استمرت حركة القسام بعد موته. ففي 15 نيسان/أبريل 1936، أوقفت مجموعة من الثوار الفلسطينيين حافلة على الطريق بين نابلس ويافا وقتلت راكبين يهوديين.

(1) Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, p. 199

وسرعان ما انتقم اليهود لهذه الحادثة. فُقتل عريبان في بستان للموز، واصطدم ثلاثون ألف يهودي من تل أبيب مع الشرطة. شكّل الناشطون في نابلس لجنة وطنية لتنسيق المقاومة الفلسطينية المحلية، فحذت حذوها بلدات وقرى عربية أخرى. ولقيادة الحركة الناشئة بأكملها، شكّل الحاج أمين هيئة عربية عليا تمثلت فيها الأحزاب السياسية الفلسطينية الرئيسية الخمسة برئاسته، وانضم إليها قادة حزب الاستقلال لاحقاً. دعت اللجنة إلى إضراب عام وأعلنت أنه لن يُرفع حتى تتوقف الهجرة اليهودية وشراء الأراضي، وتحل حكومة وطنية محل الانتداب. من المفارقة أن الإضراب جاء لمصلحة الاقتصاد اليهودي بتمكينه من أن يصبح مكتفياً ذاتياً. فحل العمال اليهود محلّ العمال العرب في بساتين الحمضيات التي يملكها اليهود، وأنشئت مرافق ميناء في مدينة تل أبيب اليهودية، ووُسّعت لتقليص الاعتماد على ميناء يافا العربي القديم.

عندما رفضت المندوبية السامية البريطانية الخضوع للمضربين، اندلعت أعمال عنف متفرقة، وسرعان ما تصاعدت لتتحول إلى ثورة مفتوحة. فهاجم المسلحون المستعمرات اليهودية، ونصبوا كمانن للقوات البريطانية. وزُرعت الألغام في الطرقات، وأُخرجت القطارات عن سككها، وقُطعت خطوط الهاتف وأُعيقت حركة المرور بين المدن برصاص القنّاصين. وجمع الأموال والأسلحة للثوار، شكّلت "لجان الدفاع عن فلسطين" في جميع أنحاء العالم العربي - في سوريا والعراق ومصر وشرق الأردن والكويت ولبنان، وشارك فيها رياض الصلح بنشاط ملحوظ. وبدأ المتطوعون العرب يتسلّلون إلى فلسطين، وينتظمون في وحدات شبه عسكرية بقيادة فوزي القاوقجي، الذي أصبح الآن من قادة الثورة الفلسطينية. ويشمل سجل القاوقجي المتنوع محاربة الفرنسيين في سوريا، وتقديم المشورة إلى ابن سعود في الشؤون العسكرية، والتعليم في الأكاديمية العسكرية في بغداد. وقد انخرط الحاج أمين مع التيار فتحول دوره من شخصية تقليدية بارزة، يُلجأ إليها عادة للتهدئة والتوسط مع السلطات، إلى قائد عام لثورة مسلحة⁽¹⁾.

في 2 أيلول/سبتمبر، قررت الحكومة البريطانية قمع الثوار بالقوة. فأرسلت فرقة من القوات البريطانية إلى فلسطين. وسمح السير آرثر واكهوب، تحت إلحاح الصهاينة

ومستشاريه المؤيدين لهم، بتوقيف المتمردين المشتبه فيهم من دون مذكرات، واعتقال قادة الإضراب وترحيلهم، ومصادرة الأبنية والسيارات، وإنزال العقاب الجماعي بالقرى المعادية. وسُمح للمستوطنين الصهاينة بالتسلّح بصورة قانونية، فيما جُنّد 3000 شرطي يهودي إضافيين ودرّبوا. ولحماية المستوطنات اليهودية المتفرقة، بدأ البريطانيون يتعاونون مع الجيش السري اليهودي، "الهاغاناه"، الذي أصبح بحلول صيف 1936 قوة عسكرية كبيرة. شعر الوزراء في حكومات الدول العربية المجاورة وغيرهم من الشخصيات القيادية بالقلق من هذه التطورات الخطيرة، فحاولوا إقناع الهيئة العربية العليا بإلغاء الإضراب، لكن الحاج أمين والمجاهدين أصروا على وجوب وقف الهجرة اليهودية أولاً. غير أن الصهاينة رفضوا ذلك تماماً. بل إن موشيه شرتوك أبلغ موسى العلمي أن الهجرة اليهودية مقدّسة لدى الصهاينة بقدر قداسة قبة الصخرة لدى المسلمين.

كيف يمكن السيطرة على الوضع؟ هل يوجد دور لوسيط خارجي؟ كان رياض الصلح على اتصال مستمر مع الحاج أمين، واشتدّ قلقه من أن يؤدّي العنف إلى عكس النتائج المرجوة، ففكّر في التدخل لدى المندوب السامي البريطاني. كما خشي من أن تزيد الثورة الفلسطينية من ارتقاء البريطانيين في أحضان الصهاينة - وهو ما حصل بالفعل - وتدفعهم لقمع العرب بمزيد من الوحشية. وودّ لو أن الفلسطينيين يعتمدون تكتيكات الإقناع والحوار التي سعى إلى استخدامها مع الفرنسيين. فنصحهم بالعمل بقوة على استمالة الرأي العام البريطاني، بدلاً من السماح للصهاينة باحتكار هذا المجال تماماً. لكن، في هذه الفترة الحاسمة، استدعي رياض الصلح إلى باريس لتقديم المشورة إلى الوفد السوري في مفاوضاته مع الفرنسيين. فتم التوقيع على مشروع اتفاق بين الفرنسيين والسوريين في 9 أيلول/سبتمبر 1936. وقد اعتُبر ذلك انتصاراً عظيماً للكتلة الوطنية السورية، ولرياض الصلح نفسه.

كان رياض الصلح من العرب القلائل في تلك الفترة الذين أدرّكوا وجوب بذل جهود عظيمة للتأثير في الرأي العام الدولي واستمالاته، إذا أراد العرب أن تلقى حاجتهم أذاناً صاغية. وكان زميله الأمير شكيب أرسلان، استثناءً نادراً آخر أيضاً. فقد دافع أرسلان دون كلل عن المصالح العربية والإسلامية طوال ثلاثينيات القرن الماضي، عن

طريق الدعوة الشخصية وعلى أعمدة مجلته "الأمة العربية". لكن العمل كان شاقاً، إذ لم تكن قضية التحرر العربي تحظى بشهرة في أوروبا. ولم يحاول عرب فلسطين التأثير في الرأي العام في أي بلد غير عربي. بل لم تكن أي دولة عربية ممثلة في اللجنة الدائمة للانتدابات. فمعظم البلدان العربية كانت واقعة تحت سيطرة القوى الغربية، على الرغم من تحقيقها بعض التقدم المتواضع نحو الاستقلال السياسي.

بالمقابل، كان للوكالة اليهودية مكاتب دائمة في لندن وجنيف منذ فترة طويلة، فنجحت في استقطاب جمع من الشخصيات النافذة. وكان القادة الصهاينة يجرون اجتماعات منتظمة مع رجال الدولة الأوروبيين. كما عبأت الفروع الصهيونية في العديد من البلدان الرأي العام لمصلحة "الوطن القومي لليهود"، وجمعت مبالغ مالية ضخمة لتحقيق هذا الهدف بالتحديد. ولم يُفتح مركز إعلامي فلسطيني في لندن إلا في سنة 1936، لكنه كان صغيراً وتأثيره محدوداً للغاية. فقد أصبح الصهاينة من الناحية السياسية والمالية أكثر نفوذاً بكثير مما يمكن أن يأمل العرب بالتوصل إليه ذات يوم⁽¹⁾.

كان يمكن أن يؤدي القادة السياسيون المصريون دور الوطاء المحتملين، لكن الحكومة الوفدية، على غرار الوفد السوري في باريس، لم يكن لديها وقت للاهتمام بفلسطين، إذ كانت مستغرقة في المرحلة الأخيرة من التفاوض على المعاهدة البريطانية المصرية في 26 آب/أغسطس 1936. في ذلك دخل مسرح الأحداث وزير خارجية العراق نوري السعيد، أحد ركائز السياسة البريطانية منذ الثورة العربية الكبرى. لا شك في أنه اعتقد أن بإمكانه وضع علاقته الطيبة مع بريطانيا في خدمة الفلسطينيين في تلك المرحلة الحرجة. فعرض نفسه كوسيط وقدم إلى القدس في شهر آب/أغسطس من ذلك العام لبحث إمكانية التوصل إلى تسوية. وقبل الانتقال إلى فلسطين، تشاور مع رياض الصلح - صديقه منذ شبابهما في إستانبول - لأن الحل الذي يريد عرضه يقوم على الحل الذي دعا إليه رياض طوال عقد من الزمن، أي إنشاء اتحاد عربي كبير، يمكن إيجاد مكان فيه "لوطن قومي لليهود" على شكل كانتون في المناطق الساحلية الفلسطينية التي استوطن فيها معظم اليهود. توجه نوري السعيد إلى القاهرة لطمأنة المصريين أن إنشاء مثل هذه الدولة العربية الكبيرة لن يهدد مكانة القاهرة في شرق المتوسط.

وفي القدس، التقى نوري السعيد عدة مرات مع السير آرثر واكهوب الذي بدا كأنه يشجع جهوده، وكذلك مع موشيه شرتوك من اللجنة التنفيذية الصهيونية. وأبلغ السعيد الأخير أن الإضراب سُرِّفَع إذا عُلِّقت الهجرة اليهودية للسماح بإجراء محادثات بشأن جميع المسائل المثيرة للنزاع. لكن شرتوك رفض ذلك البتة. وأجاب بحدة أن الهجرة حق يهودي مطلق⁽¹⁾. وعندما سمح البريطانيون لنوري السعيد بلقاء قادة "حزب الاستقلال" في معسكر اعتقالهم، تسرّع بالإيحاء لهم أن بريطانيا مستعدة لتعليق الهجرة اليهودية، ومنح عفو عام عن الثوار إذا أبدوا استعداداً لوضع حدٍّ لثورتهم.

تلقى الصهاينة معلومات عن هذه المحادثات، فشعروا بقلق شديد دفعهم للتصرف بسرعة لإبطال مساعي نوري السعيد. ففي لندن، تمكّن وايزمان من إقناع ويليام أورمبسي - غور William Ormsby-Gore، وزير المستعمرات البريطاني، بإصدار بيان رسمي يوضح فيه أن المندوب السامي في فلسطين، والحكومة البريطانية لم يوافقا على تعليق الهجرة اليهودية، أو على وساطة عراقية دائمة في الشؤون الفلسطينية، ما وضع نوري السعيد في موقف حرج. فقد وجد فيه العرب مثلاً آخر على غدر البريطانيين وقدرة الصهاينة على التلاعب بهم. وعلى أي حال، وقع انقلاب عسكري في العراق في 29 تشرين الأول/أكتوبر 1936 بقيادة بكر صدقي، رئيس هيئة الأركان العامة بالوكالة، أطاح بحكومة ياسين الهاشمي القومية. فأثر نوري السعيد البقاء في المنفى، وبذلك انتهت سطاته البائسة.

في غضون ذلك، نجحت القوات البريطانية في فلسطين التي قارب عددها 20,000 جندي، في كسر المقاومة العربية المنظمة. ونزولاً عند إلحاح القادة العرب المستمر، وافقت الهيئة العربية العليا بقيادة المفتي على رفع الإضراب الذي دام 176 يوماً وأدى إلى مقتل نحو ألف عربي و37 بريطانياً و69 يهودياً⁽²⁾. وسُمح لجميع متطوعي فوزي القاوقجي بمغادرة البلاد، فعبروا إلى شرق الأردن ومنه إلى العراق حيث تفرقوا. بالمقابل، رفض اليهود التخلي عن أسلحتهم.

(1) المصدر نفسه، ص 70.

(2) David Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, p. 209.

لجنة بيل والمرحلة الثانية للثورة

مع أن رياض الصلح لم يلعب دوراً بارزاً في الأحداث الفلسطينية، فإنه بقي خلال تلك الفترة على اتصال وثيق مع شخصياتها الرئيسية. فلم يكن مصر عرب فلسطين، الذين جرّدهم الصهاينة من أراضيهم، وقمعهم البريطانيون بقسوة، أمراً يستطيع تجاهله البتة. فقد أوقد إنشاء "وطن قومي يهودي" بالقوة، في بيئة عربية معادية له وضدّ رغبة السكان المحليين، نار القوميات المتضادة المستعرة. وألقى بظلال داكنة على مسيرة رياض الصلح بأكملها، وكذلك على مسارات كل زعيم عربي منذ ذلك اليوم فصاعداً.

قرّرت الحكومة البريطانية تعيين لجنة ملكية "للتحقيق في أسباب الاضطرابات" في فلسطين. تكوّنت اللجنة من ستة أعضاء بارزين، برئاسة اللورد بيل، وهو وزير سابق في وزارة شؤون الهند، وحفيد السير روبرت بيل Robert Peel، السياسي البريطاني الكبير في النصف الأول من القرن التاسع عشر ومؤسس حزب المحافظين. وصلت اللجنة إلى فلسطين في 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1936. غضبت الهيئة العربية العليا بقيادة الحاج أمين لأن بريطانيا لم تعلق إصدار تأشيرات الدخول لليهود الأوروبيين على الرغم من وصول اللجنة، فقررت بحماقة أن تقاطعها، لكن ذلك جاء في غير مصلحة الفلسطينيين إلى حدّ كبير. ونزولاً عند إلحاح القادة العرب، رُفعت المقاطعة في كانون الثاني/يناير 1937، ولكن بعدما عقدت اللجنة خمساً وخمسين جلسة. وخلافاً للصمت العربي، قدّم وايزمان عرضاً متقناً استغرق ثلاث ساعات، "صوّر فيه معاناة اليهود عبر التاريخ بحماسة ممثّل عظيم وثقته"⁽¹⁾. وشنّ هجوماً لاذعاً على العرب قائلاً إن قوميّتهم استعارة فجّة من أوروبا، وتعبير عن القوة من دون مضمون روحي أو ثقافي، في حين أن المصالح الصهيونية تتطابق مع مصالح الإمبراطورية البريطانية.

بينما كانت اللجنة مستمرة في تدارس تقريرها، توجه الحاج أمين إلى المملكة العربية السعودية في شباط/فبراير 1937 للقاء ابن سعود وأداء فريضة الحج. وقد رافقه عزة دروزة، وهو ناشط فلسطيني بارز من نابلس ومشارك في الحركة الوطنية العربية

(1) Christopher Sykes, *Crossroads to Israel*, London 1965, p. 197.

منذ الحرب العالمية الأولى⁽¹⁾. توجهًا بالطائرة إلى القاهرة، وقبل ركوب السفينة للانتقال من السويس إلى الحجاز، أجريا محادثات مطوّلة مع رياض الصلح ونوري السعيد (كان لا يزال في منفاه الاختياري)، بعد أن انتقل الأخيرين إلى السويس لهذه الغاية. كان الأربعة أصدقاء منذ أيام حكم فيصل في دمشق، قبل نحو عشرين عاماً. نصّح رياض المفتي بأن يلجأ إلى الدبلوماسية بدلاً من الحرب. لكن الحاج أمين كان مقتنعاً أن العدالة لا ترجى من البريطانيين، وأن لا خيار أمام الفلسطينيين سوى اللجوء إلى السلاح⁽²⁾. وفي مكة، طلب من ابن سعود الأسلحة والأموال، فوافق الملك على تزويده بما إذا استؤنف القتال، بشرط السرية التامة. وقد اندلعت أعمال العنف في شهر شباط/فبراير نفسه، بإلقاء القنابل، ووقوع الكثير من عمليات القتل المتبادلة.

نُشر تقرير لجنة بيل في 7 تموز/يوليو 1937. وقد توصّل إلى استنتاج متجهّم إنما واقعي، وهو أن استمرار العمل بالانتداب على فلسطين غير ممكن. وأن الصراع بين العرب واليهود غير قابل للتسوية، بل من المرجح أن يزداد سوءاً. فلن يقبل أي من الطرفين أن يصبح أقلية. العرب في فلسطين يريدون الاستقلال ويكرهون، فكرة "الوطن القومي لليهود" ويخشونها. كما أن التقدم نحو الاستقلال الذي تحرزه الدول العربية المجاورة يزيد من إحباطهم. أما اليهود، فإن تزايد وضعهم سوءاً في أوروبا سيؤدي إلى مزيد من الضغط حتماً على فلسطين. الأمل الوحيد لحل سلمي يكمن في التقسيم.

وبناء على ذلك، أوصت اللجنة أن تُقسّم فلسطين إلى ثلاثة أجزاء: دولة يهودية مستقلة تبلغ مساحتها نحو 5000 كلم مربع، وتضمّ الجليل ومرج ابن عامر وقسماً كبيراً من السهل الساحلي - ولكنها لا تضمّ الأحياء اليهودية في القدس حيث يعيش نحو 70,000 يهودي، من مجموع يقارب نصف مليون نسمة؛ ودولة عربية مستقلة تبلغ مساحتها 12,500 كلم مربع، منها 6000 كلم مربع تشكّل صحراء النقب، وتتحّد مع شرق الأردن؛ وأخيراً، منطقة انتداب بريطاني - وهي في الحقيقة ممر على شكل إحصاءة يمتد من القدس وبيت لحم وصولاً إلى نقطة على ساحل البحر المتوسط

(1) محمد عزة دروزة، مذكرات، المجلدان 1 و2، 1993.

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, pp. 338-9

جنوب يافا مباشرة. وستحتفظ بريطانيا أيضاً بالمطارات الاستراتيجية ومينائي حيفا والعقبة، اللذين سيُسمح لكل من اليهود والعرب باستخدامهما.

لم يرضَ العرب ولا اليهود عن هذه المقترحات. تأكدت أسوأ مخاوف العرب. فالمنطقة الساحلية التي كانت محور التنمية العربية مدة قرن من الزمن، وهي القسم الجليل للغاية من فلسطين، ستُعطى لليهود، ولن يبقى في أيدي العرب سوى يافا وغزة فقط. وستوضع القدس في ممر خارج الدولة العربية المقبلة. وستُشتت الطبقة السياسية الفلسطينية، إذ ستنتقل القيادة إلى الأمير عبد الله وشرق الأردن المتخلف. لقد كان عبد الله المستفيد الرئيسي من خطة بيل.

رفضت الهيئة العربية العليا بقيادة الحاج أمين خطة التقسيم، ودعت رؤساء الدول العربية إلى رفضها أيضاً. طالبت بدلاً من ذلك بالاستقلال الكامل لفلسطين، وإلغاء الانتداب، وإنهاء تجربة "الوطن القومي اليهودي". غير أن الفلسطينيين انقسموا في ما بينهم، إذ مال منافسو الحاج أمين النشاشيبيون إلى قبول التقسيم، على أن تدمج فلسطين مع شرق الأردن تحت حكم عبد الله. تلك كانت طريقتهم الحمقاء لإحراق الهزيمة بالمفتي.

في المعسكر اليهودي، أصر التصحيحون بقيادة فلاديمير جابوتنسكي Vladimir Jabotinsky على "حق اليهود الثابت غير القابل للتصرف" بكامل فلسطين، وشرق الأردن أيضاً. غير أن وايزمان وبن غوريون كانا أكثر براغماتية. فاختاراً اعتبار الخطة فرصة أخرى تعرضها عليهما بريطانيا، فوافقا على مبدأ التقسيم على مضض، ولكن على أن توسع الدولة اليهودية المقترحة كثيراً. طالبا بالساحل الفلسطيني بأكمله من غزة إلى الحدود اللبنانية، الجليل والمنطقة الشمالية بأسرها، بالإضافة إلى جزء من الصحراء الجنوبية، أي نحو 10,500 كلم مربع بالإجمال. وشكّل ذلك تراجعاً كبيراً عن مطلب الصهاينة في مؤتمر السلام في سنة 1919، بفلسطين التي تمتد شمالاً إلى نهر الليطاني في لبنان، وتشمل الجولان وحموران في سوريا، والمنطقة الأكثر خصوبة في شرق الأردن، وجزءاً من سيناء، أي نحو 50,000 كلم مربع بالإجمال! وطالما سعى الصهاينة للحصول على موطن قدم في سوريا ولبنان، ولم يكبحهم سوى نقطة سلطات الانتداب الفرنسية التي اعتبرتهم امتداداً للمؤامرات البريطانية.

في أوائل صيف 1937، توجه الحاج أمين إلى سوريا لعقد مزيد من اللقاءات مع رياض الصلح والكتلة الوطنية الحاكمة في دمشق في ذلك الوقت. وفي غيابه، هاجمه موشيه شرتوك والأمير عبد الله، كل على حدة، لدى البريطانيين ووصفاه بأنه مثير خطير للمتاعب. بل إن وايزمان أرسل برقية إلى ليون بلوم يحذّره فيها من أن المفتي يخطط للقيام بثورة في فلسطين بمساعدة سورية⁽¹⁾. وحثّ شرتوك بريطانيا على ترحيله. فقد اعتقد الصهاينة أن إبعاد الحاج أمين عن الساحة، سيتيح للأمير عبد الله وآل النشاشيبي قبول التقسيم، والموافقة على إعادة رسم خريطة فلسطين لمصلحة الصهاينة. وأصبحت وزارة المستعمرات البريطانية مقتنعة بدورها - تحت الضغط الصهيوني المتواصل - أن الحاج أمين هو العقبة الحقيقية أمام تنفيذ خطة بيل.

هروب الحاج أمين إلى لبنان

علم المفتي أن البريطانيين يوشكون على اعتقاله وترحيله، فانتقل مع عائلته إلى الحرم القدسي الشريف، حيث لا تستطيع القوات البريطانية الدخول. وواصل، من ذلك الملاذ، تنظيم الحملة ضد التقسيم. اندلعت أعمال العنف مجدداً في شهر آب/أغسطس، ووردت تقارير مستمرة عن تهريب السلاح وتشكيل عصابات مسلحة في الريف، لا سيما في شمال فلسطين، حيث لا يزال رجال القسام المقاومون ناشطين. في المرحلة الأولى من الثورة، تمكّنت لجان الدفاع عن فلسطين في العراق وسوريا ولبنان ومصر من إرسال الأموال والمتطوعين إلى فلسطين، لكن ما إن سحق الجيش البريطاني المقاومة العربية، حتى همدت هذه اللجان. وفي صيف 1937، دبّت فيها الحياة ثانية وتركّز نشاطها على مشروع تنظيم مؤتمر قومي عربي يؤمل أن يحشد الحكومات والرأي العام العربيين لمصلحة القضية الفلسطينية. كانت الخطة تقضي بأن يعقد المؤتمر في فلسطين نفسها، لكن السلطات البريطانية رفضت السماح بذلك. فاتّحت لجنة دمشق الفرنسيين في الأمر فوافقوا على انعقاد اللقاء في سوريا، ولكن تحت شروط صارمة: عدم مشاركة الحكومة السورية، وعدم إثارة مسائل تتعلق بالانتداب الفرنسي، أو وضع الإسكندرونه، أو الحدود الموسّعة للبنان الكبير.

على الرغم من هذه الشروط التقييدية، فقد شكّل المؤتمر نقطة الذروة في الاهتمام القومي العربي بفلسطين. كان ثورة حقيقية على القوة الاستعمارية الكريهة التي احتلت مصر، وغدرت بالشريف حسين، وفتحت الطريق أمام الهجرة اليهودية. كما أنه استحوذ على خيال العرب. بالتالي، اجتمع نحو 400 مندوب، تحت مراقبة فرنسية مشددة، في حفل الافتتاح في 8 أيلول/سبتمبر 1937، في منتجع بلودان الجبلي، على مسافة ساعة بالسيارة من دمشق. ترأس الوفد الفلسطيني عزّة دروزة، الناشط البارز من نابلس. وقاد رياض الصلح مجموعة كبيرة من السياسيين اللبنانيين السنّة. ومثّل العراق بقوة، بعدما عاد نوري السعيد والوطنيون العرب إلى السلطة. انتُخب رئيس الوزراء العراقي السابق توفيق السويدي رئيساً للمؤتمر، والوزير المصري السابق علّوبة باشا نائباً للرئيس. وكان المصريون أكثر حضوراً في بلودان مما كانوا عليه في المؤتمر الإسلامي العام في القدس في سنة 1931. وحضر مؤتمر بلودان أيضاً الأمير شكيب أرسلان. وفلسطين في فكره الملتزم هي البوتقة التي تُختبر فيها العزيمة العربية الإسلامية، وهي مقياس استعداد الأمة العربية للتحوّل عبر التضحية - كي تستعيد في المستقبل ما كانت عليه في الماضي⁽¹⁾.

في 10 أيلول/سبتمبر، صدرت القرارات بالإجماع معلنة أن فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، لا يمكن التصرف بأي قسم منها أو فصله. ورفض تقسيم فلسطين ومقاومة إنشاء دولة يهودية فيها. وتأييد طلب وقف الهجرة وبيع الأراضي، وإلغاء وعد بلفور، وإبطال الانتداب وإحلال معاهدة بريطانية - فلسطينية محلّه تضمن استقلال فلسطين العربية وسيادتها. غير أن الأقلية اليهودية ستحتلّ بالحقوق نفسها التي تتمتع بها الأكثرية العربية. وأبلغت بريطانيا بأن عليها الاختيار بين العرب واليهود. فإذا لم تغيّر سياستها في فلسطين، سيكون العرب أحراراً في طلب المساعدة من قوى معادية لها. ففي ذلك الوقت، كانت ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية تسعيان لإضعاف نفوذ بريطانيا وفرنسا في منطقة البحر المتوسط.

على الرغم من شهرة رياض الصلح كشخصية قومية مقاتلة بارزة، فإنه سعى في بلودان إلى تقديم النصح بشأن فضائل الإقناع والدبلوماسية؛ لكنه كان يتجه عكس

التيار ولم يكن باستطاعته الوقوف في وجه مدّة دعاء اللجوء إلى العنف. ولم يكذب بمضي أسبوعان على تفرّق المندوبين حتى اغتال أربعة أعضاء من مجموعة القسام لوياس أندروز Lewis Andrews، حاكم لواء الجليل بالوكالة في 26 أيلول/سبتمبر. وكان أندروز شديد الارتباط بخطة لورد بيل للتقسيم. جاء ردّ الفعل البريطاني على الفور. اعتُبرت الهيئة العربية العليا التي يقودها الحاج أمين خاروجة على القانون، واعتُقل العديد من أعضائها، ورُحّلوا مقيدين بالسلاسل إلى جزر سيشيل. فشعر الصهاينة بالفرح. تمكّن المفتي المختبئ في الحرم من الهروب قبل اعتقاله، ولكنه جرّد من جميع مناصبه. ففي ليلة 13-14 تشرين الأول/أكتوبر، تنكّر بزي بدوي وتسلسل عبر النطاق المحيط بالحرم، وهرب في مركب صيد إلى ساحل لبنان⁽¹⁾. كان مسار رحلته عكس تلك التي قام بها رياض من لبنان إلى فلسطين في سنة 1920، حين حكم عليه الفرنسيون بالإعدام. ومن لبنان، حاول الحاج أمين عبور الجبال إلى سوريا، ولكن الشرطة الفرنسية اعترضته واستجوبه م. كولومباني M. Colombani، مدير الأمن العام النافذ، الذي وضعه تحت الإقامة الجبرية في قرية الزوق الساحلية، وهي منطقة مسيحية تقع شمال بيروت⁽²⁾.

ومن هناك، سمح له الفرنسيون بمواصلة توجيه حركة المقاومة الفلسطينية، ما أثار انزعاج البريطانيين الشديد. لا شك في أن الفرنسيين سرّهم أن يردّوا بالمثل على البريطانيين بسبب موقفهم خلال الثورة السورية في سنتي 1925 و1926، عندما شنّ الثوّار السوريون غارات على المواقع الفرنسية من مركزهم الآمن في شرق الأردن الخاضع للاحتلال البريطاني. وعلى أي حال، فإن باريس استخفّت بخطة التقسيم التي أعدتها لجنة بيل واعتبرتها مناورة بريطانية. ورأوا أن البريطانيين يسعون من خلال إثارة احتمال إنشاء اتحاد عربي إلى صرف انتباه العرب عن خسارتهم الفادحة في فلسطين. ولا شك في أن فكرة الاتحاد العربي أثارت غضب الفرنسيين، إذ اعتبروها مخططاً بريطانياً لإخراجهم من سوريا، وهو أمر صحيح إلى حدّ ما. وثمة اعتبار فرنسي آخر. فقد أصبح المفتي بطلاً مسلماً، ينظر إليه على نطاق واسع أنه ضحية المكيدة

(1) أمين الحسيني، مذكرات الحاج أمين الحسيني، دمشق، 1999، ص 32.

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 374; Hurewitz, *Diplomacy*, vol. II, p. 82.

الصهيونية والنفاق البريطاني. وكان يحظى بدعم القادة المسلمين مثل رياض الصلح في بيروت والكتلة الوطنية في دمشق، التي حرص الفرنسيون في ذلك الوقت على استرضائها. لذا لم يكن في مصلحة فرنسا أن تسعى إلى تقييده. غير أن إقامة المفتي في لبنان خلال أشهر الأزمة التي أدت إلى نشوب الحرب في أيلول/سبتمبر 1939، أصبحت مصدراً متزايداً للاحتكاك في العلاقات الفرنسية البريطانية.

المرحلة الثانية من الثورة

في فلسطين، تفجّر العنف بقوة أشدّ من ذي قبل في تشرين الأول/أكتوبر 1937، حين شنت مجموعات مسلّحة هجمات على القوات البريطانية، والمستوطنات اليهودية، بالإضافة إلى العرب المتعاونين مع بريطانيا من بينهم آل النشاشيبي، وغيرهم من العرب المناهضين للحاج أمين. بالتالي، وهكذا كانت الثورة في جزء منها حرباً أهلية بين العرب، وهو ما يثير الصدمة. وتحوّلت في السنتين التاليتين إلى نزاع دموي فتاك بين الفلسطينيين، شبيه بما وقع بين الفلسطينيين في السنوات 2007 - 2009. فقد سقط نحو ربع الفلسطينيين الذين قُتلوا في أواخر الثلاثينيات على يد أبناء جلدتهم⁽¹⁾. في هذه المرة، رفض الحسنيون طلب مساعدة قائد المقاومة المخضرم فوزي القاوقجي، الذي اعتُبر في ذلك الوقت قريباً جداً من الأمير عبد الله وأعدائهم النشاشيبيين. وتعاون أتباع الحاج أمين، الذين يديرون عملياتهم في منطقة القدس بصورة رئيسية، مع مجموعات القسام. وقد قام عزة دروزة - الذي عهد إليه الحاج أمين بقيادة العمليات العسكرية - بتقسيم فلسطين إلى مناطق عمليات مختلفة وحاول إقامة قيادة مركزية.

وجد الجيش البريطاني نفسه يواجه حرب عصابات مستمرة يشنّها نحو ثلاثة آلاف نائر في الريف ونحو ألف في المدن. وكان هناك ستة آلاف ريفي مجاهد آخر قادرين ومستعدين للانضمام إليهم عند الاقتضاء⁽²⁾. ضاعفت لجان دعم فلسطين في دمشق والقاهرة وبغداد وغيرها من المدن جهودها لجمع التبرعات، وتزويد الأسلحة إلى داخل البلاد. وبحلول صيف 1938، تمكّن الثوّار من السيطرة إلى حدّ ما على

(1) Christopher Sykes, *Crossroads to Israel*, p. 218

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 388; Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, p. 212 يعتبر أن عدد الثوار وصل إلى 15,000 رجل.

المنطقة الجبلية الوسطى من الجليل، وعلى مدن رئيسية، وإن على نحو غير متواصل، مثل الخليل ونابلس وبئر السبع ويافا وطبرية والقدس القديمة.

ردّت بريطانيا بحملة شرسة من الإرهاب المضادّ: الاعتقالات الجماعية من دون محاكمة، وهدم منازل المشتبه فيهم، والضرب، والتنكيل، والعقوبات الجماعية. وأنشئت المحاكم العسكرية، واقتيد المواطنون الأبرياء إلى معسكرات الاعتقال. وأصدر قانون يعاقب بالإعدام كل من يحمل قبلة أو يطلق النار. وقد صُدم السكان العرب عندما حوكم وأُعدم أحد قادة مجموعة القسام، الشيخ المسنّ والمحبوب فرحان السعدي، أحد 112 عربياً شنقهم البريطانيون قبل قمع الثورة في نهاية المطاف⁽¹⁾. في المقابل، شنق البريطانيون يهودياً واحداً بتهمة "الإرهاب"، ما أظهر بوضوح في أي جهة يقفون في لعبة المشانق الشنيعة. وتزايد القمع البريطاني مع تصاعد العنف، وأصبح التعذيب منهجياً. وعمد البريطانيون إلى ممارسة مرعبة حيث كانوا يربطون الريفين المذهولين في مقدّمة المركبات "كدروع بشرية" ضد الألغام والكمائن. وهكذا أخذت القوة الاستعمارية الحاكمة ثورة الفلاحين العفوية بقسوة شديدة وسفك الدماء. لقد دُفع الفلسطينيون إلى اليأس بسبب الهجرة اليهودية غير المقيّدة وشراء الأراضي المستمر، بالإضافة إلى تحييز بريطانيا الفاضح لمصلحة الصهاينة. لكن تبين أن تحديّ القوة العسكرية البريطانية خطأً استراتيجي، لا يقلّ فداحة عن الثورة السورية المسلحة على الجيش الفرنسي قبل نحو عقد من الزمن. وثبت أن رياض الصلح كان محقاً في تشاؤمه. لقد كانت الثورة الفلسطينية، كما عبّر عنها بأسى جون مارلو John Marlowe، "زقافاً آخر من أزقة القومية العربية ذات النهاية المسدودة... والمحكوم عليها بالفشل"⁽²⁾.

فيما كان العرب يتعرّضون للقمع بقسوة، تزايدت أعداد الشرطة الريفية اليهودية من 3500 شرطي في 1936 إلى 5000 في سنة 1938. وجُنّد 1000 حارس متطوّع آخرين في القدس. وتكثّف التعاون البريطاني مع الهاغاناه، التي أصبحت الآن جيشاً سرياً ضخماً قوامه 15,000 رجل وامرأة. فأخذ البريطانيون يعتمدون على المستوطنين المسلّحين، وغضّوا الطرف عن عمليات "الدفاع الهجومى" التي تنفّذها الهاغاناه، وتقوم

(1) Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, p. 216

John Marlowe, *The Seat of Pilate: An Account of the Palestine Mandate*, London (2)

.1959, pp. 137- 8

على شن حرب استباقية على العرب بدلاً من الاكتفاء بالدفاع عن المستوطنات اليهودية - وهي سياسة دأبت إسرائيل على اعتمادها منذ ذلك الوقت. وقد توسّعت هذه الاستراتيجية الهجومية وازدادت قسوة بفضل النقيب أورد وينغيت Orde Wingate، عميل الاستخبارات البريطاني الشاب المولع بالصهيونية، الذي درّب "الفرق الليلية الخاصة" للهاغاناه والقوات البريطانية وقادها. وقد تخصّصت هذه الفرق بنصب الكمائن للمقاتلين والقادة العرب وقتلهم. وكان موشيه دايان أحد الضباط الإسرائيليين العديدين الذين تعلموا، تحت قيادة وينغيت، الاستبسال، وسرعة الحركة، والاختراق العميق، وهي الخصائص التي شكّلت الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية في المستقبل⁽¹⁾.

أصبحت الهجمات المباشرة التي تنفّذها مجموعات الكوماندوس اليهودية، واغتيال القادة العرب، والمعاملة الوحشية للمواطنين العرب السمة المميّزة للممارسات الإسرائيلية منذ ذلك الوقت فصاعداً⁽²⁾. تصاعد العنف في أواسط صيف 1938، عندما بدأت منظمة الإرعون الإرهابية اليهودية، بشنّ هجمات انتقامية على المدنيين العرب، مثل التفجيرات المتكررة في سوق الفاكهة في حيفا، التي قتلت مئات الأشخاص وشوّهتهم. ودمّرت الثورة والقمع الوحشي الذي واجهته الاقتصاد الفلسطيني. وقد سقط أكثر من 5000 قتيل عربي وجرح 14,000 آخرين⁽³⁾. وهرب عدة مئات آخرون من البلاد، لا سيما المقدرون مادياً. وقتل 101 بريطاني و463 يهودياً. في هذه الظروف التي تسودها الفوضى والموت، أصبحت خطة بيل للتقسيم، ضحية بائسة أخرى من ضحايا فلسطين.

بريطانيا تغيّر مسارها

علت صرخات الغضب والاستهجان في جميع أنحاء العالم العربي احتجاجاً على القمع الوحشي في فلسطين. أصبح الرأي العام في بلدان مهمة مثل مصر والعراق شديد المعاداة لبريطانيا. وذكرت الهيئة العربية العليا في القدس إلى أن اختبار القوة أخذ

(1) Hirst, *The Gun and the Olive Branch*, p. 228.

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, p. 392.

(3) Walid Khalidi, *From Haven to Conquest*, Beirut 1971, pp. 846-9.

يتحوّل إلى أكبر ثورة على الاستعمار تواجهها بريطانيا منذ الحرب العالمية الأولى. في لندن، اشتدّ خوف وزارة الخارجية من تأثير ذلك على مركز بريطانيا في المنطقة. وأخيراً، حرصاً على المحافظة على بعض الصداقة مع العرب والمسلمين، تزايدت انتقادات وزير الخارجية أنتوني إيدن Anthony Eden لتحيز وزير المستعمرات ويليام أورمسبي - غور لمصلحة الصهاينة. فقد أصبحت فلسطين منطقة ضعف شديد للبريطانيين ولم تعد تؤمّن الحماية لمصر - وهو السبب الرئيسي وراء احتلال فلسطين في الحرب العالمية الأولى. وأصبحت مصر مهدّدة بثورة عربية من الداخل وبالقوة الجوية والبحرية الإيطالية من الخارج. فقد بدأت إيطاليا الفاشية تشكّل تحدياً مزعجاً للهيمنة البريطانية - الفرنسية على البحر المتوسط. وكانت إذاعة باري Bari قد بدأت تبثّ الدعاية باللغة العربية منذ آذار/مارس 1934، في محاولة لاستمالة الرأي العام المسلم إلى جانب موسوليني⁽¹⁾. استقبل موسوليني الأمر شكيب أرسلان، صديق رياض الصلح، في سنة 1934. وكان أرسلان واحداً من العديد من العرب الذين اعتبروا أن إيطاليا الفاشية أقل خطورة بكثير على مصالح العرب الأساسية من بريطانيا أو فرنسا.

في لندن، أصبحت الاعتبارات الجيوسياسية على رأس أولويات السياسيين، لا سيما الحاجة إلى تأمين موارد الشرق الأوسط النفطية، والقواعد العسكرية، وخطوط المواصلات مع الهند وما خلفها. فقد كان خط أنابيب شركة النفط العراقية ينقل النفط الضروري للإمبراطورية إلى حيفا على البحر المتوسط. وكان يُخشى أن تنهار القوة البريطانية في الشرق الأوسط بأكمله إذا سقطت فلسطين. ومن المخاوف الفورية أن الجيش البريطاني المرهق أخذ يجد صعوبة في تعزيز قواته في فلسطين. وبعد قيام ألمانيا بضمّ النمسا في آذار/مارس 1938، بلغ التهديد بوقوع حرب أوروبية حداً أجبر بريطانيا على البدء بإعادة قواتها إلى الوطن من فلسطين.

كانت تلك بعض العوامل التي سلبت أهمية خطة تقسيم فلسطين. كان إيدن يعارض التقسيم، لكن معارضة خطة بيل استمرت بالاتساع حتى عندما استقال إيدن

Callum A. MacDonald, 'Radio Bari, Italian Wireless Propaganda in the Middle East and British Countermeasures 1934-38', in *Middle Eastern Studies*, 17, (1977)

في شباط/فبراير 1938، احتجاجاً على التسامح السياسي الانتهازي الذي أبداه نيفيل تشميرلين Neville Chamberlain تجاه إيطاليا الفاشية، وتسارعت وتيرتها بعد التعديلات التي أجريت في المناصب العليا. ففي 1 آذار/مارس، تم استبدال السير أرثر واكهوب في القدس وحل محله هارولد مكمايكل Harold McMichael، وهو حاكم سابق لتنجانيقا؛ وفي لندن استقال أورميسي - غور - المناصر الرئيسي للتقسيم - في أيار/مايو وحل محله في وزارة المستعمرات مالكو لمكدونالد Malcolm MacDonald، ابن رئيس الوزراء السابق. بالإضافة إلى ذلك، رفعت لجنة بريطانية أرسلت إلى فلسطين لدراسة كيفية تطبيق التقسيم، تقريراً توصي فيه بنذ الخطة. لذا قررت الحكومة البريطانية التخلص منها على الفور، وبحلول صيف 1938 لفظت خطة التقسيم أنفساها الأخيرة. وأصبحت لبريطانيا الآن أولويات أخرى أكثر إلحاحاً.

للخروج من هذا المأزق - وبغية تقوية الدفاعات الاستعمارية في الشرق الأوسط دون الإعلان عن ذلك - دعت الحكومة البريطانية إلى عقد مؤتمر طاولة مستديرة في لندن افتتحه رئيس الوزراء نيفيل تشميرلين في 7 شباط/فبراير 1939. وقد حضره عرب فلسطين والوكالة اليهودية، بالإضافة إلى ممثلين عن مصر والعراق وسوريا وشرق الأردن واليمن. غير أن قصرَ نظر بريطانيا حال دون حضور المفتي. وكانت العلاقات بين العرب واليهود قد أصبحت، في ذلك الوقت، سيئة إلى حدٍّ أنهم رفضوا الجلوس معاً في الغرفة نفسها. وأعلن البريطانيون أن ما مجموعه 75,000 يهودي فقط سيُسمح لهم بدخول فلسطين في خمس سنوات ابتداء من 1 نيسان/أبريل 1939. وستُتخذ تدابير لمنع الهجرة غير الشرعية، في حين ستُنظَّم عمليات شراء الأراضي لليهود، بل ستُمنع تماماً في بعض المناطق. لم يكن من الممكن في الواقع تنفيذ أي من هذه الاقتراحات بالنسبة إلى الصهانية، وتم خرقها كلّها بشكل فاضح. وقد انتهى المؤتمر في 17 آذار/مارس دون التوصل إلى أي اتفاق.

بعد مرور شهرين، في 17 أيار/مايو، نشرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض الذي وجّه ضربة موجعة إلى الطموحات الصهيونية، على الرغم من أنه يدعو لحماية "الوطن القومي اليهودي" بالإعلان أنه "ليس من ضمن السياسة [البريطانية] أن تصبح فلسطين دولة يهودية". لقد كان هذا الإعلان المطلق باهراً في الغش والكذب، إذ إن

بريطانيا بذلت كل ما في وسعها لتمهيد الطريق أمام نشوء دولة يهودية بسرعة بعد الحرب العالمية الثانية من خلال القمع الوحشي للثورة العربية، وقتل مجاهديها ونفي أهم قادتها، وتشجيع الشقاق في الصفوف الفلسطينية.

لم يكن لمقترحات الكتاب الأبيض الصادر في سنة 1939 صلة كبيرة بالوقائع على الأرض. فقد اقترح إنشاء دولة فلسطينية بالتدريج، خلال عقد من الزمن، يحكمها العرب واليهود معاً. وأكد أن الاستقلال التام يتوقف على العلاقات الحسنة بين المجتمعين. لكن الوكالة اليهودية شجبت الكتاب الأبيض ووصمته بالخيانة، وتعمّدت بالتصدي له بحزم. وعمد الصهاينة الغاضبون من هذا الانقلاب في السياسة البريطانية "لصالح" العرب، إلى زيادة سرعة البناء العسكري اليهودي، الذي استخدم في نهاية الأمر ضد البريطانيين - الذين أسسوه وأمدّوه بالقوة في المقام الأول - بقدر ما استخدم ضد العرب. وفي سنة 1939، أدركت بريطانيا فجأة أنها ستشغل قريباً في القتال دفاعاً عن بقائها كأمة وإمبراطورية. لذا أصبح هدفها الأساسي في الشرق الأوسط الشدّيد الأهمية، كبح الشعور المؤيد للمحور وعكسه، والسعي في الوقت نفسه إلى تعبئة العرب لمساعدتها في مجهودها الحربي. فالانتصار في تلك الحرب يتفوق على جميع الاعتبارات الأخرى.

رفضت الهيئة العربية العليا بقيادة الحاج أمين الكتاب الأبيض لأنه لم يستجب بشكل كافٍ لمطالبات العرب. وانتقل الحاج أمين في تشرين الأول/أكتوبر 1939 من لبنان إلى بغداد، حيث اكتسب نفوذاً واسعاً، وقاد النشاطات المؤيدة للمحور، وحاول التحريض على المزيد من التمرد على البريطانيين في فلسطين. وكان يأمل بأن يحقق الانتصار الألماني مكاسب ضخمة للفلسطينيين، بل ربما أن يضعه على رأس دولة عربية كبيرة. لكن عندما أخذت حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق في سنة 1941، اضطر المفتي إلى الفرار أولاً إلى إيران ثم إلى إيطاليا. في تشرين الثاني/نوفمبر، التقى بهتلر في برلين وانضم إلى مساعي المحور لنشر الدعاية السياسية كمدير لمكتب عربي خاص، يث البرامج إلى العالم العربي⁽¹⁾.

بقي الحاج أمين الحسيني ورياض الصلح بطليين قوميين عربيين، كل على طريقته، لكن أجبرتهما الأحداث الضاغطة على تركيز نضالهما على نطاق أضيق بكثير، حيث ركّز الحاج أمين على فلسطين وانصبت جهود رياض الصلح على سوريا ولبنان. ظلّا يعيـشان قضية الاستقلال والوحدة العربية ويحلمان بـمما، لكنهما افرقا سياسياً حين راهن الحاج أمين رهاناً تاماً على ألمانيا النازية، على أمل القضاء على المدّ الصهيوني في فلسطين. فيما اختار رياض التطلّع إلى بريطانيا للمساعدة في تحرير المشرق من قبضة فرنسا. وعلى الرغم من شجاعة الأول ووطنيته، فإنه أنهى حياته في المنفى وألصقت به أشنع التهم بسبب تحالفه مع هتلر. بالمقابل، كُرمّ الثاني باعتباره المهندس الرئيسي لاستقلال لبنان.

الفصل الثاني عشر

ولادة وطني لبناني

في أواسط ثلاثينيات القرن الماضي، برز رياض الصلح قائداً فعلياً للطائفة السنية في لبنان دون منازع. ولم يكن من السهل البتة تبوؤ مثل تلك المكانة. فأن تكون قومياً عربياً في لبنان الكبير في فترة ما بين الحربين يعني الشعور بالغربة في بلد يجد المرء صعوبة كبيرة في الاعتراف بحدوده، ولا يسعه سوى النفور من إيديولوجية دولته، وتعمد استبعاده من حياتها السياسية. لقد كانت دولة تحدّد هوية المرء بأكملها. لم يكن المسلمون السنة يستسيغون اعتبار أنفسهم "لبنانيين"، لأن وطنهم الحقيقي هو العالم العربي الكبير. ولم يرتضوا أن يجدوا أنفسهم مواطنين - بل مواطنين من الدرجة الثانية - في دولة مسيحية تحت جناح فرنسا، اقتطعها الجنرال غورو في 31 آب/أغسطس 1920 من قلب سوريا "الجغرافية"، وأعلنها على الملأ حقيقة واقعة في اليوم التالي.

كان رياض ينتمي إلى عائلة من الوجهاء المالكين للأراضي، الذين عملوا أجيالاً عديدة في خدمة الحكم العثماني. وعلى الرغم من أن جذور العائلة تعود إلى صيدا، فإنهم كانوا يشعرون بالارتياح في المناطق السورية الداخلية، كما في الساحل. والواقع أن المسلمين السنة في صيدا، على غرار أقرانهم في بيروت وطرابلس، اعتبروا أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من الغالبية السنية في سوريا التي تربطهم بها علاقات عائلية وتجارية وسياسية وثيقة. على سبيل المثال، تزوج جدّ رياض، أحمد باشا، من ابنة مفتي دمشق؛ وخدم والده الإمبراطورية متصرفاً، وعضواً في مجلس المبعوثان أو البرلمان العثماني، وعندما انهارت الإمبراطورية عيّن وزيراً للداخلية في حكومة الأمير فيصل في دمشق. بل إن رياض نفسه تزوّج من عائلة الجابري الحلبية البارزة. وكان في مشاعره ورؤيته وإحساسه الوطني، عربياً بقدر ما هو "لبناني"، بل ربما أكثر بكثير.

لكن الجنرال غورو أدخل بجرّة قلم - أي عند توقيع المرسوم رقم 318 الذي أنشأ لبنان الكبير - تغييراً على حياة رياض الصلح، من عضو في الغالبية السنية المسيطرة في

العالم العربي إلى عضو في أقلية سنّية في دولة جديدة تسيطر عليها غالبية مارونية. وبالتالي، وهكذا بين عشية وضحاها تحوّل الحاكمون إلى محكومين. ووجد أعضاء النخبة السنّية الحضرية - وهم الوسطاء التقليديون بين الدولة والمجتمع - أنفسهم الآن أقلية تابعة. وأصبح عليهم الآن أن يتعلّموا العيش تحت حكم مسيحي، مثلما تعلّم المسيحيون أن يعيشوا تحت حكم إسلامي إلى أن قلب التدخّل الاستعماري الفرنسي الأمور⁽¹⁾. لذا أقلّ ما يقال إن السنّة وجدوا هذا التغيّر المفاجئ في مكانتهم التقليدية مزعجاً جداً وغير مرحّب به.

قضية "الأراضي المتنازع عليها"

جاء قرار إنشاء لبنان الكبير ضمن حدود موسّعة نتيجة مباشرة لانتصار الجنرال غورو على الأمير فيصل. كما أنه حمل بصمات روبر دو كيه، الأمين العام للمفوضية الفرنسية العليا في بيروت، ونصير رسالة فرنسا الاستعمارية. كان دو كيه يجنّد سياسة "فرّق تسدّ" القائمة على استغلال الأقليات الإثنية والدينية. وجاء في مقدمة هذه الأقليات أتباع فرنسا الموارنة المخلصين في جبل لبنان، لكن لم يكن العلويون في شمال غرب سوريا، ودروز جنوب سوريا، وأكراد الجزيرة يقلّون عنهم أهمية بالنسبة إلى الاستراتيجية الفرنسية. وقد كره المسلمون السنّة في سوريا ولبنان الطريقة التي تعاملت فيها فرنسا مع هذه الأقليات ونفروا منها. ورأوا على وجه الخصوص أن مطالبة الموارنة بدولة مسيحية مستقلة موسّعة تحت الحماية الفرنسية طموح غير مشروع، بل مؤامرة فرنسية لرفض منح العرب استقلالهم الوطني⁽²⁾. وهكذا ألقى الصدع الناشئ بين القوميين العرب والقوميين اللبنانيين بظلاله على حياة رياض في جانب كبير من الفترة ما بين الحربين. وأصبح السعي لردم هذه الهوة إحدى مساهماته الرئيسية في الحياة السياسية الحديثة في لبنان.

وتجدر الإشارة إلى أنه حين رسم غورو الحدود الموسّعة للبنان الكبير، رأى من المناسب أن يضمّ إلى جبل لبنان أجزاءً كبيرة من الأراضي السورية، بما فيها قسم كبير

Hanna Ziadeh, *Sectarianism and Intercommunal Nation-Building in Lebanon*, (1) London 2006, p. 108

.Meir Zamir, *The Formation of Modern Lebanon*, New York, 1988, p. 59 (2)

من ساحل البحر المتوسط. وقد أدخل هذا الإجراء الأحادي تحولاً جذرياً على متصرفية جبل لبنان العثمانية في القرن التاسع عشر إلى لبنان الكبير. ففي تموز/يوليو 1920، لم تكن مساحة جبل لبنان تزيد على 4500 كلم مربع؛ وبعد شهر واحد فقط، أصبحت مساحة لبنان الكبير ضعف ذلك، أي 10452 كلم مربعاً. شملت الأراضي التي ضُمَّت سنحوق بيروت في الوسط، وسنحوق صيدا في الجنوب (فُصل عن منطقته الجنوبية التي ضُمَّت إلى فلسطين)، وسنحوق طرابلس ومناطقه الداخلية في الشمال. كما فُصلت أفضية البقاع وبعبلق وحاصبيا وراشيا في شرق وجنوب شرق جبل لبنان عن ولاية دمشق وأُلحقت بالدولة الجديدة.

قبل الحرب العالمية الأولى، كان موارد جبل لبنان أكثرية واضحة، يشكّلون 58 بالمئة من مجموع السكان، مقارنةً بنحو 12 بالمئة للأرثوذكس، و11 بالمئة للدروز، و8 بالمئة فقط للسنة والشيعية معاً. لكن طرأ على التركيبة الطائفية تغيير كبير في سنة 1921. فبإضافة الأراضي الجديدة، أصبح الموارنة الذين يعدّون 176,000 نسمة يشكّلون 31.3 بالمئة من إجمالي السكان. وشكّلت الطوائف المسيحية مجتمعة، التي بلغ عددها 300,000 نسمة، 53.4 بالمئة من إجمالي السكان، أي بزيادة قليلة على المسلمين (السنة والشيعية والدروز) الذين بلغ عددهم 262,000 نسمة، ونسبتهم 46.6 بالمئة⁽¹⁾.

رفض غالبية المسلمين السنة والشيعية المقيمون في المدن الساحلية، والأفضية الأربعة الداخلية الانتداب الفرنسي، وتمردوا على دمجهم قسراً في لبنان الكبير، مطالبين بإعادة توحيدهم مع الوطن السوري. ومما يشير على موقفهم العدائي أنهم قاطعوا إلى حدّ كبير المشاورات التي أدت إلى وضع مسودة الدستور اللبناني في سنة 1926، واعتبروا أنه يقنّن انفصالحهم عن سوريا. وفي 9 كانون الثاني/يناير 1926، أرسل مفتي بيروت السني، الشيخ مصطفى نجّا، رسالة إلى موسى تّمور، رئيس اللجنة الدستورية، يبلغه فيها رسمياً أن المسلمين يرفضون أي صلة بالترتيبات المؤسسية الجديدة⁽²⁾.

Jacques Seguin, *Le Liban Sud: Espace périphérique, espace convoité*, Paris 1989, (1) pp. 42-44.

Nadine Méouchy, "Le Pacte national 1943-1946: Les ambiguïtés d'un temps (2) politique d'exception", in Khoury (ed.) *Sélim Takla*, p. 467.

سيطرت قضية "الأراضي المتنازع عليها" التي ألحقت بـجبل لبنان سنوات عدة على النقاش السياسي في المشرق. فهل ستُعاد إلى سوريا، كما طالب القوميون العرب، أم أنها أصبحت جزءاً غير قابل للتصرف من الدولة الجديدة، كما أصرّ الموارنة، وأكدت المادة الثانية من دستور 1926 التي تنصّ على أنه "لا يجوز التخلي عن أحد أقسام الأراضي اللبنانية أو التنازل عنه"؟

كانت معضلة رياض الصلح، بصفته زعيم الطائفة السنية في لبنان في ثلاثينيات القرن العشرين، كيف يوفق بين قوميته العربية - وهي أساس وجوده منذ سنواته الأولى - والشعور الجديد بالوطنية اللبنانية الذي نما بصورة حتمية وتجدّر داخل الحدود الجديدة. فانصبت جهوده في العقد التالي على استقطاب التأييد لاقتراح عدم وجود تنافر أو تناقض بين الوطنية اللبنانية والقومية العربية؛ وأن الوفاء لدولة لبنان الكبير الجديدة يمكن أن يتوافق مع الإيمان باستقلال العرب ووحدتهم؛ وأن الاستقلال اللبناني خطوة ضرورية نحو الغاية العربية الكبرى. غير أن أقل ما يقال إن هذه الفكرة لم تلقَ قبولاً لدى المتشددین في الجانبين.

في تلك الفترة، كان انفصال لبنان عن سوريا خيالاً إلى حد كبير. فقد بقيت سياسة البلدين متشابكة، وارتبط اقتصادهما معاً باتحاد جمركي، وصلات تجارية ومالية وعائلية عديدة. وكانت المفوضية العليا الفرنسية نفسها في بيروت تحكمهما معاً، والشركات الامتيازية الفرنسية نفسها تمدهما بالكهرباء، وتدير الترامواي والسكك الحديدية فيهما. كما أصدر مصرف فرنسي واحد، بنك سوريا ولبنان، عملتهما الورقية الواحدة ذات السعر المتقلب. وغالباً ما تبادل القوميون العرب اللبنانيون السوريون، الزيارات. وكان رياض يشعر بالراحة في دمشق وحلب بقدر راحته في بيروت. بالتالي، لقد كان البلدان أشبه بوعائين مستطريقين: ما يحدث في أحدهما يؤثر في الآخر على الفور.

وفاة هنانو وإضراب الأربعين يوماً

سرعان ما ظهر هذا الارتباط من خلال حدث بالغ الأهمية في سوريا: وفاة إبراهيم هنانو، قائد الكتلة الوطنية من دون منازع في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1935،

وكان رياض الصلح على علاقة وثيقة به منذ سنوات عدة. نشط هنانو من مقره كقائد بارز للثورة السورية الكبرى 1925 - 1926، لكن بعد القمع الوحشي لهذه الثورة، انتهج موقفاً أكثر اعتدالاً - على غرار رياض الصلح - وأكد على ضرورة الحوار مع سلطة الانتداب بغية تحقيق الاستقلال المرجو.

حدّد ذلك الموقف نبرة الخطاب في جنازته، التي حضرها وفود من جميع أنحاء سوريا، بمن فيهم وفد كبير من بيروت بقيادة رياض. وقد تميزت الجنازة باشتراك العلماء المسلمين ورجال الدين المسيحيين، واستخدام رموز إسلامية ومسيحية في تصميم أكاليل الزهور التي حُملت في الموكب الحاشد الذي ضمّ 30,000 شخص، وامتدّ على طول كيلومترين تقريباً⁽¹⁾.

لم ينتهز المفوض السامي المتسلط، الكونت داميان دو مارتيل، فرصة وفاة هنانو للاتصال بالقوميين العرب. واختار بدلاً من ذلك اتخاذ تدابير قاسية لإخماد الاحتقان الذي ظهر آنذاك في جميع أنحاء البلاد. فتسلّح بالسلطات التشريعية الكبيرة، وهذّب بنفي كل من يتجرأ على أن يتحداه بقول أو عمل. غير أن حياته الخاصة المسترخية والغنية تفوّقت على سلطته الصارمة إلى حدّ ما. فغالباً ما كان يشاهد في حانات بيروت وملاهيها الليلية، كما كان معروفاً أنه يقيم علاقة عاطفية مع الزوجة الروسية لموظف قنصلي أجنبي. وبدت زوجته الكونتيسة دو مارتيل، التي وصلت إلى بيروت ذلك الشتاء، أكثر اهتماماً بالخيل من اهتمامها بغراميات زوجها، وأشبعَت شغفها بحضور سباقات الخيل الأسبوعية المحمومة في بيروت.

في 10 كانون الثاني/يناير 1936، أي بعد مرور أربعين يوماً على وفاة هنانو، خرجت مظاهرات حاشدة في دمشق سرعان ما امتدت إلى جميع المدن السورية، وتبعها فوراً إضراب عام. كان ذلك التحرك يرمي إلى الضغط من أجل إقامة دولة سورية موحّدة، تُحكم من دمشق، وتضمّ الأقليات التي سعى الفرنسيون إلى التعامل معها بصورة منفصلة؛ الدروز والعلويون والأتراك (في سنجق الإسكندرون)، والأكراد (في الجزيرة). فردّ المفوض السامي بإرسال الشرطة للإغارة على مقرّ قيادة الوطنيين،

Robert Parr, British Consul in Aleppo, to Sir Samuel Hoare, 29 November 1935 (1)
(FO 371/19022).

ونفي فخري البارودي، "منظر" الكتلة الوطنية والمفكر القومي البارز، إلى القامشلي في شمال شرق سوريا. وقد تميّز البارودي الذي أفلت بصعوبة من عقوبة الإعدام خلال الثورة السورية الكبرى، بموهبة خطابية ملحوظة في إلهاب حماسة الجماهير، وهو ما وجده المفوض السامي الفرنسي مثيراً للغضب.

قصد الكونت دو مارتيل دمشق لمعالجة الموقف. لكن اجتماعه مع وطنيين معتدلين انتهى بمشادة غاضبة. وقد وجّه تحذيراً متعجرفاً إلى فايز الخوري، نقيب المحامين في دمشق، وشقيق فارس الخوري، السياسي المخضرم في الكتلة الوطنية، أنه ما عليه سوى أن يأمر الحارس السنغالي الواقف عند الباب حتى يُرسل الخوري لينضمّ إلى البارودي في أقصى الشمال⁽¹⁾. باءت كل محاولات المصالحة بالفشل. وأعلن التجار الوطنيون، واضعين مصالحهم الخاصة جانباً، عن إصرارهم على المضي في الإضراب حتى النهاية. وحذا الحرفيون وعمال المصانع حذوهم. فبدأت الأسعار بالارتفاع ما زاد من معاناة الفقراء. وسرعان ما أصبحت المظاهرات عنيفة. فقتل العديد من المتظاهرين في اصطدامات مع الشرطة والجنود في دمشق. وفي حماة، هاجم حشد من الناس قوة من الفرسان الفرنسيين الذين ردّوا بالذخيرة الحية، فقتلوا سبعة من المهاجمين، وجرحوا العشرات غيرهم.

في 10 شباط/فبراير، عُهد بمهمة استرجاع النظام إلى الجنرال شارل هنتزيغر Charles Huntziger، قائد الجيش الفرنسي في المشرق، فأنشأ مقرّ قيادته في فندق قصر الشرق قرب سكة حديد الحجاز، أفضل فندق في دمشق في ذلك الوقت. وعمل حراس سنغاليون، مسلّحون بخرايب طويلة معقوفة على إبعاد المشاة عن الرصيف أمام المبنى، فآثار ذلك الغضب في نفوس الدمشقيين الأباة. فرض هنتزيغر الأحكام العرفية على المدينة، وحذّر الشعب من أن جنوده متأهبون لرد الصاع صاعين. أغلقت الصحف والمدارس وجامعة دمشق نفسها. وألقي القبض على وطنيين بارزين، بمن فيهم جميل مردم ونسيب البكري، وأرسلوا إلى المنفى.

لكن الفرنسيين هالهم امتداد التظاهرات إلى بيروت وصيدا وطرابلس، حيث أغلقت الدكاكين، وأضرب الطلاب تضامناً مع إخوانهم السوريين. كما جمعت

(1) Consul Gilbert Mackereth to Anthony Eden, 21 January 1936 (FO 371/20065)

الأموال والمواد الغذائية وأرسلت من لبنان إلى سوريا. بالطبع، لم يعد من الممكن تجاهل هذا التطور، إذ إنها المرة الأولى التي يلجأ فيها المناهضون للوضع الراهن الذي فرضه الفرنسيون في لبنان إلى الشوارع للتظاهر ضد الانتداب الفرنسي⁽¹⁾.

في 19 شباط/فبراير، دعا المفوض السامي الفرنسي رئيس غرفة التجارة في دمشق، عارف الحلبي، للاجتماع به مع وفد من التجار، متوقعاً أن يطلبوا منه مساعدة الفرنسيين في قمع الوطنيين. وبدلاً من ذلك، اشترط التجار الغاضبون للعودة إلى مزاولة أعمالهم تنفيذ مطالب الوطنيين بأكملها: إطلاق سراح جميع السجناء الذين أوقفوا في الاضطرابات على الفور؛ وإزاحة الشيخ تاج الدين الحسيني، رئيس الوزراء المتعاون الذي عيّنه الفرنسيون، عن منصبه في الحال (صُرف بعد أربعة أيام فسارع إلى الهرب إلى باريس)؛ وإعادة دستور فوزي الغزي؛ وإعادة فتح البرلمان السوري؛ والتفاوض على معاهدة على نسق المعاهدة البريطانية العراقية لسنة 1931. وبهذا الموقف القوي المثير للإعجاب - والمفاجئ للفرنسيين - دخل الحلبي تاريخ سوريا كبطل وطني.

في 28 شباط/فبراير، أي في اليوم الأربعين للإضراب العام، نظم الوطنيون الملتزمون مظاهرة ضخمة أدت مرة أخرى إلى صدامات عنيفة مع الشرطة، فقتل العديد من المتظاهرين برصاص الفرنسيين. أبلغ القنصل البريطاني لندن أن الفقراء كانوا على شفير المجاعة، لكنهم طوّروا ما وصفه بشكل غريب "درجة خطيرة من التقشف المتطرف". وقد تبين أن تلك المظاهرة كانت نقطة التحول.

الفرنسيون يقرّرون التفاوض أخيراً

في باريس، تعرّضت الحكومة الفرنسية إلى ضغوط من المسؤولين الاستعماريين والضباط العسكريين الذين ظلّوا يحلمون بالإمبراطورية، ويخشون من خسارة مناصب مربحة من جهة، ومن جماعات الضغط اليسارية التوّاقة إلى إراحة دافعي الضرائب الفرنسيين من العبء غير المربح للاستمرار في حكم سوريا التي يتزايد تمردّها. لذا قرّرت الخروج من الأزمة المتفاقمة عن طريق المحادثات، وأرسلت تعليمات بهذا المعنى

إلى المفوض السامي. في 1 آذار/مارس 1936، أُجبر دو مارتيل على إصدار تعهد بإعادة الحياة الدستورية، ومنح الإذن أيضاً بسفر وفد إلى باريس للتفاوض على معاهدة معها. لا شك في أن الفرنسيين عمدوا إلى تغيير مسارهم في سوريا بسبب تصاعد الأخطار في أوروبا، والتوسع الاستعماري لإيطاليا، وتوقيع المعاهدة البريطانية المصرية في تموز/يوليو 1936. في لقاء مع مجموعة من الوطنيين تضم هاشم الأتاسي (الذي حل محل إبراهيم هنانو رئيساً للكتلة الوطنية في كانون الثاني/يناير 1936) والدكتور عبد الرحمن الكيالي، وفايز الخوري وعفيف الصلح، ابن عم رياض، وافق المفوض السامي على إعلان عفو عن جميع الأشخاص الذين اعتقلوا أو نُفوا لصلتهم بالاضطرابات، فيما وافق الوطنيون على رفع الإضراب.

اتفق حلول عيد الأضحى في اليوم التالي، 2 آذار/مارس، فشكّل ذلك مناسبة للاحتفال وتنظيم استعراضات متواصلة في دمشق لمدة أربعة أيام، فسارت مواكب تمثل كلّ نقابة وحيّ من أحياء المدينة. وقد قدّم القنصل البريطاني تقريراً عن مشاهد الابتهاج العارم. وجرى بطبيعة الحال تكريم القادة الوطنيين "الذين قادوا الأمة إلى الانتصار". ولاحظ القنصل، بإعجاب، قدرات الزعماء الوطنيين التنظيمية والقيادية في السيطرة على الحشود، في أوقات غضبها وفرحها على حدّ سواء.

اتُفق على التفاوض الفوري في باريس على معاهدة لا تقل موثاقاً لسوريا عن المعاهدة البريطانية العراقية بالنسبة إلى العراق. اختار الوطنيون هاشم الأتاسي وفارس الخوري وجميل مردم، وسعد الله الجابري ممثلين عنهم. وهؤلاء أصدقاء رياض المقربين، ورفاق النضال لتحقيق الاستقلال. ولتلطيف حماسهم الوطنية المتقدة، أصرّ المفوض السامي الفرنسي على إضافة وزيرين "معتدلين" إلى الوفد: إدمون الحمصي، وهو مصري مسيحي من حلب درس في جامعة أكسفورد، والأمير مصطفى الشهابي، وهو عالم اقتصاد زراعي درس في فرنسا. وأُلحق بالوفد أيضاً أمينان للسُر، إدمون رباط ونعيم أنطاكي، وهما محاميان تعلّما في أوروبا وينتميان إلى عائلتين مسيحيتين بارزتين في حلب⁽¹⁾.

(1) Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 464; Consul Gilbert Mackereth to Foreign Office, Damascus 17 March 1936 (FO 371/20065).

وُلد هاشم الأتاسي في سنة 1865 تقريباً في كنف عائلة مالكة للأراضي في حمص في وسط سوريا. وكان الأتاسي قومياً شجاعاً ونبلاً، تسلم منصب رئيس الوزراء وترأس الجمعية التأسيسية في عهد الأمير فيصل، وكان أحد الوسطاء الثلاثة في الصراع بين الإمام يحيى في اليمن وابن سعود. وقد كان لأصوله العريقة واعتداله تأثير إيجابي لصالح الوفد السوري في باريس.

طُلب من رياض الصلح الذهاب قبل الوفد السوري إلى باريس لتلمس المناخ السياسي هناك والإعداد لقدمه. وقد أدى دور المستشار الرئيسي للوطنيين في مفاوضاتهم مع فرنسا. لكنه على طريقته الحيوية المعتادة، لم يحرر إلى فرنسا مباشرة، بل توجه إلى فلسطين أولاً، في واحدة من محاولاته المستمرة للتوسط بين الفئات الفلسطينية المتخاصمة. كان الوضع هناك على شفا الانفجار، حيث توشك ثورة 1936 على البريطانيين على الاندلاع. وبدلاً من أن تؤدي الثورة إلى تسوية الخلافات بين الفئات الفلسطينية، فإنها أجمعت التناحر بين الحسينيين المقاتلين والنشاشيبين المتعاونين.

ومن فلسطين توجه رياض إلى استانبول للوقوف على المخططات التركية بشأن الإسكندرونه، وهي منطقة تقع شمال غرب سوريا وتسعى حكومة أنقرة إلى ضمها لأن الأتراك يشكلون قسماً من سكّانها. فقد ساورت الشكوك رياض الصلح في أن تكون فرنسا مستعدة للتخلي عنها من دون استشارة السوريين. في استانبول، زار رياض المنتدى الأدبي، وهو من الأمكنة التي كان يُكثر التردد عليها قديماً، كما أنه أسهم، في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، في اليقظة القومية للولايات العربية وإعادة إحياء اللغة العربية. ف شعر بالإهانة حين اكتشف أن الأتراك الذين ازداد عداؤهم للعرب حولوا المنتدى إلى معهد لتعليم اللغة الأردية!

في الطريق إلى باريس أخيراً، توقف القطار الذي يستقله مدة قصيرة في لوزان، حيث استطاع أن يمضي بضع دقائق مع زميله السابقين في الوفد السوري الفلسطيني، الأمير شبيب أرسلان وإحسان الجابري. أخيراً، بما يحدث في فلسطين وسوريا. بعد هذه المخططات المختلفة، أكمل رياض طريقه إلى العاصمة الفرنسية، فوصلها في 12 آذار/مارس 1936، أي قبل نحو 10 أيام من وصول الوفد السوري الذي انطلق من بيروت في 21 آذار/مارس، وسط حماسة شعبية عظيمة.

إميل إده مقابل بشارة الخوري

عندما شرع رياض في رحلاته، ترك خلفه ساحة سياسية لبنانية يسيطر عليها الموارنة سيطرةً كاملة. في 20 كانون الثاني/يناير 1936، أي في أوج الاضطرابات الوطنية في سوريا، انتُخب المحامي اللبناني البارز إميل إده رئيساً للبنان، متغلباً على منافسه الماروني بشارة الخوري.

كان إميل إده على علاقة ودية برياض الصلح وغيره من الشخصيات البارزة في المعسكر المسلم والقومي العربي، لكنه يمثل كل ما يكرهونه في السياسة. فقد كان من المناصرين المخلصين للبنان كدولة مسيحية تحت حماية فرنسا؛ ومعارضاً شديداً للوحدة السورية والعربية، بل إنه كان يطمح إلى جعل الفرنسية لغة الدولة الرسمية، ويتلهّف لفصل لبنان عن الثقافة والرابطة السياسية العربية. ومنذ إنشاء الدولة في سنة 1920 حتى نهاية 1935، تمكّن إميل إده وأمثاله، بدعم قوي من السلطات الفرنسية، من استبعاد القوميين العرب عن أي دور في الحياة السياسية اللبنانية. لم يُطبّق هذا الاستبعاد على رياض وحده، بل على غيره أيضاً من الوجهاء المسلمين السنّة البارزين ذوي القناعات القومية العربية، مثل عائلي سلام في بيروت وكرامي في طرابلس.

غير أن امتداد الاضطرابات المناهضة لفرنسا من سوريا إلى لبنان بحلول سنة 1936، بالإضافة إلى الصلات الاجتماعية والروابط التجارية الحيوية المتزايدة بين الوجهاء من جميع الطوائف، جعل الدفاع عن هذا التمييز أمراً صعباً نوعاً ما. وفي محاولة متأخرة لتوكيد الذات أمام الموارنة المسيطرين منذ مدة طويلة، بدأ المسلمون السنّة والشيعية على السواء يطالبون بأن يكون لهم صوت ومكان في الساحة السياسية اللبنانية.

كان المجتمع اللبناني في الثلاثينيات، ولا يزال حتى اليوم، يدور حول عشرين عائلة تقريباً، تقوم مكانة كل منها على شهرتها في طائفتها؛ أو ثروتها أو ملكية الأراضي؛ أو وظائفها الدينية الموروثة؛ أو نشاطاتها في مجال الأعمال والتجارة والصيرفة والوساطة بين الموردين الغربيين والأسواق العربية، كما هو حال النخب البرجوازية في الساحل اللبناني. وكانت أسماؤهم في تلك الفترة، كما اليوم، معروفة لدى الجميع.

كانت نخبة بيروت المسيحية والمسلمة، التي تدين بتميزها إلى الثروة والممتلكات العقارية والأنشطة التجارية، تضمّ عائلات سرسق، وفرعون، وبيهم، والداعوق، والحص، وسلام، والنعماني وغندور. وثمة عائلات سنية تنبع مكانتها الاجتماعية من وظائفها الدينية التقليدية، ومنها طيارة، وفاخوري، ونجا، والياقي في بيروت، وكرامي، والجسر، والأحدب في طرابلس. على سبيل المثال، كان عبد الحميد كرامي مفتي طرابلس، وهو منصب شغله والده وجده من قبله. وفي الطائفة الشيعية برزت عائلة الأسعد في جبل عامل في جنوب لبنان، وشرف الدين في صور، وحماة في البقاع الشمالي⁽¹⁾. أما الطائفة الدرزية، فقد قادتها عائلتان متنافستان، جنبلاط وأرسلان.

منح النظام الطائفي أهمية لرؤساء العائلات الأكثر شهرة وبروزاً، فأصبحوا زعماء تدين لهم طوائفهم بالاعتراف. هؤلاء هم الشخصيات البارزة في المجتمع اللبناني الذين كان على عائلة الصلح أن تقيم علاقات معهم وتنافسهم. ومن المعروف أن آل الصلح من مالكي الأراضي في جنوب لبنان، انتقلوا إلى بيروت في أواخر القرن التاسع عشر، واكتسبوا الاحترام في خدمة الإمبراطورية العثمانية. واكتسب رياض الصلح شهرة كبيرة من خلال السمعة العالمية التي حققها في النضال لصالح القضية العربية في جنيف وباريس؛ ومناصرته الطبقة العاملة والحركة النقابية الناشئة في لبنان؛ ونشاطاته القومية العربية في سوريا وفلسطين، بل في شمال أفريقيا. فعندما حاول الجنرال فرانكو تعبئة المغاربة في محاولته الانقلاب على الحكومة الجمهورية الإسبانية، أصدر رياض نداء حماسياً شجب فيه الفاشية ودافع عن الجمهورية الإسبانية. وأعلن أن "العرب لم يكونوا يوماً مرتزقة. ولا يمكنهم المشاركة في ذبح شعب يكافح للدفاع عن حريته واستقلاله. ولا يمكنهم الدفاع عن فرانكو الفاشي الذي خان وطنه الأم وتآمر مع هتلر وموسوليني".

غير أن إنجازات رياض العالمية الكبيرة لم تكن كافية لحرق حصن التفوق الماروني في بلده. ففي لبنان، صاغ دستور 1926، الذي أوحى به الفرنسيون، الإطار المؤسسي للحياة السياسية؛ ووضع رئيس الجمهورية الذي مُنح سلطات تنفيذية كاملة، في قلب النظام. وكان هذا الرئيس مارونياً دائماً، باستثناء أول شاغل للمنصب، شارل دباس (

(1) قاسمية (محررة)، الرعيل العربي الأول، ص 272.

1926 - 1932)، الذي كان ينتمي إلى طائفة الروم الأرثوذكس. فباستطاعة الرئيس أن يسمّي الوزراء ويقيّلهم، وأن يحلّ البرلمان، وأن يحكم عن طريق المراسيم إذا شاء. كانت سلطته مطلقة على الورق، لكنّه يخضع لإرادة المفوض السامي الفرنسي من الناحية العملية.

أعلن دستور 1926، الذي صيغ على نسق دستور الجمهورية الثالثة في فرنسا لسنة 1875، لبنان الكبير جمهورية مستقلة عاصمتها بيروت. وفي اعتراف بالطوائف والمجموعات المتنوعة في البلاد، أقرّت المادة 95 أنه "بصورة مؤقتة... تُمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وفي تشكيل الحكومة". وقد أبقت هذه المادة على النظام الطائفي الموروث من المتصرفية العثمانية، لكنها لم تفعل الكثير للحدّ من الهيمنة المارونية التي تدعمها فرنسا. ولم يبدأ المسلمون بانتزاع قدر من السلطة التنفيذية من الموارنة إلا عندما عُيّن رئيس وزراء سني في 1937، على الرغم من أن رئيس الوزراء، على غرار جميع الوزراء الآخرين، معرّض دائماً لخطر الإقالة الاعتبارية من قبل رئيس الجمهورية⁽¹⁾.

نتيجة لهذه المعطيات، كانت السياسة اللبنانية تقوم على الصراع بين القادة الموارنة المتنافسين ومناصري كل منهم، وهي منافسة استبعدت الطوائف الأخرى إلى حدّ كبير. لم يكن هناك صراع أشدّ من ذلك الذي دار بين إميل إده وبشارة الخوري، إذ إن هذين المتنافسين على الرئاسة متشابهان جداً ومرتبطان ارتباطاً وثيقاً. فقد ولد إده في دمشق في سنة 1883، حيث كان والده يعمل مترجماً في القنصلية الفرنسية. أما الخوري فولد في قرية رشميا اللبنانية في سنة 1880. وكان والده، الشيخ خليل، رئيس السكرتاريا العربية الخاضعة للمتصرّف العثماني.

تلقى إده والخوري التعليم في مدرسة الآباء اليسوعيين في بيروت، ثم درسا الحقوق في فرنسا، حيث حصل إده على الدكتوراه من جامعة إكس أن بروفانس Aix-en-Provence، بينما حصل الخوري على شهادة من جامعة باريس. عندما عاد الخوري إلى لبنان، التحق متدرّجاً بمكتب إده للمحاماة، ولبث فيه حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى في سنة 1914. وعندما دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، فرّ إده والخوري إلى مصر هرباً من القمع التركي. فمارسا المحاماة في القاهرة والإسكندرية،

(1) Méouchy, "Le Pacte national", p. 464, n. 8.

قبل العودة إلى لبنان في سنة 1919، حيث عيّنه إده بشارة الخوري رئيساً لمكتب المحاماة الخاص به، وهو الأشهر في بيروت في ذلك الوقت.

دخل كل من الرجلين معترك السياسة، وصاهرا عائلتين مسيحتين لبنانيتين مرموقتين، حشد أعضاء كل منهما، سواء أكانوا إخوة أو أقرباء أو شركاء، الدعم لهما وساعدوا في تمويل مسيرتهما السياسية. تزوج إده من لودي سرق في سنة 1912، فيما تزوج الخوري من لور شيحا في سنة 1922. ولور هي شقيقة ميشال شيحا الكاتب والشاعر والمنظر الإيديولوجي للقومية اللبنانية، وصاحب جريدة، وشريك في بنك فرعون وشيحا، وهو من المصارف اللبنانية البارزة في عهد الانتداب والسنوات الأولى للاستقلال. كما كان شيحا أمين سر اللجنة التي وضعت مسودة دستور سنة 1926، واعتبر أكثر الأعضاء نشاطاً فيها⁽¹⁾.

بينما كان إده يزاوّل مهنته في نقابة المحامين اللبنانيين في العشرينيات، "حيث أصبح مرتبطاً بالوجود الفرنسي الواسع في المنطقة"⁽²⁾، دخل بشارة الخوري السلك القضائي، ترقى حتى أصبح رئيس محكمة الاستئناف، ومن ثم مدير إدارة العدل. وعندما اعتمد دستور الجمهورية اللبنانية في سنة 1926، عيّنه الخوري وزيراً للداخلية في مجلس الوزراء الأول برئاسة أوغست باشا أديب. وما لبث أن دبر إسقاط حكومة أديب باشا، فاستدعاه الرئيس دباس ليشكل الحكومة الثانية للجمهورية. ومن أول قراراته كرئيس للوزراء تعيين أخيه، سامي الخوري، مدير إدارة العدل. فشغل سامي ذلك المنصب منذ سنة 1926 حتى سنة 1939، وأتاح له ذلك مساعد بشارة في مشاريعه التجارية المختلفة، ومنها منح مجموعة شيحا - فرعون امتيازاً لمدة خمسين سنة في منطقة ساحة الشهداء، وهي الساحة الرئيسية في بيروت، كان تابعاً لشركة طريق الشام الفرنسية السابقة، وسرعان ما بنيت عليها عقارات مربحة⁽³⁾.

(1) للاطلاع على تحليل مفصل لدستور 1926، انظر: Edmond Rabbath, *La Formation historique du Liban politique et constitutionnel*, new edn Beirut, 1986, pp. 379-400;

.Ziadeh, *Sectarianism and Intercommunal Nation-Building*, pp. 86-101

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 14 ff; Micheal Johnson, *Class and Client in Beirut: The Sunni Muslim Community and the Lebanese State, 1840-1985*, London 1986, p. 119

(3) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Note de Beyrouth, 25 Aout 1941

إذا كان ثمة اختلاف بين إده والخوري، فهو التزام الأول التام بارتباط لبنان بفرنسا والثقافة الفرنسية بشكل عام، بينما كان الثاني أقل تعلقاً بكثير بفكرة التحالف الدائم مع فرنسا. ولأن بشارة الخوري اختار أن يتقن اللغة العربية، فقد كان لديه ميل إلى الثقافة العربية واحترام للإسلام. كما إنه أدرك الحاجة إلى التواصل مع المواطنين اللبنانيين خارج طائفته المارونية الضيقة. وعندما أصبح رئيساً للجمهورية عام 1943، اشترك مع رياض الصلح في النضال لتحقيق الاستقلال.

في صباح 20 كانون الثاني/يناير 1936، في جلسة استثنائية للبرلمان اللبناني، هزم إميل إده بشارة الخوري في السباق على رئاسة الجمهورية، على الرغم من الحملة الانتخابية القوية التي أدارها الأخير ومولها إلى حد كبير ابن عمته زوجته، هنري فرعون. منح الاقتراع الأول 14 صوتاً لإده و11 صوتاً لبشارة الخوري، ولكن بما أن إده لم يحصل على أكثرية الثلثين، أُجري اقتراع ثانٍ نال فيه إده الأكثرية المطلقة بحصوله على 15 صوتاً مقابل 10 لخوري⁽¹⁾. في هذه المنافسات، يستطيع كل زعيم الاتكال على مجموعة حرة من المؤيدين البرلمانيين. عُرف أصدقاء إده باسم الكتلة الاتحادية أو كتلة إده، بينما شكّل أصدقاء خوري مجموعة باسم الكتلة الدستورية. وكان أعضاء المجموعتين من الموارنة إلى حد كبير ويتبعون النهج الكيان، أي أنهم كانوا ملتزمين بالكيان الجغرافي والسياسي للبنان الكبير.

من المستغرب أن إده فاز برئاسة الجمهورية بفضل الجهود الحثيثة لأحد المسلمين. كان ذلك خير الدين الأحذب الذي تمكن، بعدما انتُخب نائباً في سنة 1934، من استقطاب العديد من النواب الحائزين إلى معسكر إده. وما إن أصبح إده رئيساً، حتى أخذ بدوره بمهّد الطريق كي يصبح خير الدين رئيساً للوزراء - وهو ما حدث بالفعل في كانون الثاني/يناير 1937، فأصبح أول مسلم يشغل ذلك المنصب. كان خير الدين الأحذب شريك رياض في مشروعه الصحافي - إطلاق صحيفة العهد الجديد وتحريرها في العشرينيات. في ذلك الوقت، كان خير الدين قومياً عربياً مخلصاً. لكن ما إن وضع نصب عينيه أن يصبح رئيساً للوزراء، حتى ابتعد عن رياض الصلح، وتخلّى عن التزامه السابق بالعروبة والوحدة العربية. ولعلّ صلاحيات رئاسة الوزراء

(1) Consul-General Havard to Mr. Eden, Beirut, 23 January 1936 (FO 3711 20065)

وامتيازاتها، وما انطوت عليه من تعاون وثيق مع الفرنسيين آنذاك، كانت شديدة الإغراء للأحدب. ولم يكن من المفاجئ أن يعتبر رياض ذلك خيانة شخصية وسياسية.

مؤتمر الساحل

في 10 آذار/مارس 1936، عقد مسلمون بارزون، من المدن الساحلية في لبنان، مؤتمرًا في بيروت، باسم "مؤتمر الساحل"، للمطالبة بإعادة بيروت وطرابلس وصيدا، والأقضية الأربعة التي ألحقت بلبنان في سنة 1920 إلى سوريا - أي ما يسمى "بالأراضي المتنازع عليها". باختصار، دعا المؤتمر إلى تفكيك لبنان الكبير الذي أنشأته فرنسا. وكان ذلك تكرارًا لمؤتمرين سابقين عقدهما قادة الساحل في سنتي 1928 و 1933، مع الأهداف الاتحادية نفسها تقريباً⁽¹⁾. لم يحضر رياض الصلح اجتماع سنة 1936، إذ كان في طريقه آنذاك إلى فرنسا، تشغله المفاوضات بشأن المعاهدة التي يوشك الوطنيون السوريون على إجرائها مع الفرنسيين.

يبد أن ثمة سبباً أكثر أهمية دفعه إلى عدم حضور المؤتمر. فقد أخذ يتوصل تدريجياً إلى أن لبنان الكبير أصبح أمراً واقعاً بعد مرور خمسة عشر عاماً على إنشائه، ولم يعد بالإمكان الاعتراض على حدوده بشكل واقعي. كان رياض سياسياً براغماتياً، ذا إحساس حاد بما يمكن تحقيقه وما لا يمكن. عندما أنشئ لبنان الكبير في العشرينيات، عارضه رياض تماماً، مثل غيره من المسلمين. ولكن بعد عدة سنوات، بدأت آراؤه بالتغير. وفي سنة 1928، نُقل عنه أنه يفضل "العيش في كوخ داخل وطن لبناني مستقل، على أن يعيش في إمبراطورية عربية تحت حكم استعماري"⁽²⁾. وتوحي مثل هذه الملاحظة أن أولوياته أخذت تتبدل. لم يتخل بأي شكل من الأشكال عن غاية عمره بتحقيق الاستقلال والوحدة العربية، لكن أصبح الاستقلال اللبناني أولى الأولويات في حياته السياسية.

روى مراقب قديم لمسيرة رياض السياسية، أنه حين عاد من القامشلي، حيث نفاه الفرنسيون في سنة 1935 بسبب دعمه الحركة النقاوية المناضلة، بدا رجل دولة أكثر

Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 22 ff; Johnson, *Class and Client*, p. 25; (1)

هلال الصلح، تاريخ رجل وقضية، ص 274.

(2) باسم الجسر، ميثاق 1943، لماذا كان ولماذا سقط؟، بيروت، الطبعة الثانية، 1997، ص 81.

من مثير للاضطرابات⁽¹⁾. وبحلول أواسط الثلاثينيات، أدرك أن الوطنية اللبنانية قوة لا يستهان بها وينبغي التصالح معها بدلاً من مواجهتها، مهما احتقرها القوميون العرب وهزئوا منها باعتبارها من صنع الفرنسيين. وذلك ما دفعه للسعي إلى تقوية علاقاته مع قادة الطوائف الأخرى، لا سيما البطريرك أنطوان عريضة، الشخصية السياسية والروحانية المركزية في المعسكر الماروني. وقد سبق رياض في ذلك، كما في كثير من الأمور الأخرى، الرأي العام المسلم في لبنان، ونظراءه في الطائفة السنية بأشواط. لذا كان عليه التقدم بحذر.

كان سليم علي سلام، الذي انعقد مؤتمر الساحل في منزله وبرئاسته، أحد وجهاء الستة وقومياً عربياً تقليدياً ذا سجلٍ سياسي طويل جدير بالثناء. وقد حضر المؤتمر العربي الأول في باريس في سنة 1913 مندوباً عن لجنة بيروت للإصلاح، ومثل ولاية بيروت في البرلمان العثماني في سنة 1914. وعند سقوط الإمبراطورية، شارك في المؤتمر السوري العام الذي عُقد في دمشق في سنة 1919، في أثناء حكم فيصل الوجيهز (حضره أيضاً رياض ووالده رضا وابن عمه عفيف). ومن الوجهاء الذين شاركوا سلام عواطفه الوحدية وحضروا مؤتمر الساحل عبد الحميد كرامي من طرابلس، وعادل عسيران من جنوب لبنان، وناجي الفاخوري وثلاثة أعضاء من عائلة بيهم البيروتية.

دعا سلام وزملاؤه القوميون العرب إلى عقد المؤتمر بسبب قلقهم من المفاوضات التي تعتزم سوريا ولبنان إجراؤها مع فرنسا. كانوا يخشون من أن توقيع أي معاهدة والتصديق عليها، سيثبت الحدود القائمة أصلاً، وبالتالي سيقضي على أي أمل بعودة الأراضي المتنازع عليها إلى سوريا. لكن هؤلاء الوجهاء والقوميين صُدموا حين ضرب أحد أعضاء المؤتمر، كاظم الصلح، على وتر نشاز، بل مخالف.

تمرد كاظم الصلح

كاظم ابن عم رياض الصلح. وهو محام ومفكر ومالك صحيفة النداء اليومية، التي أطلقها في سنة 1931 مع ثلاثة من إخوته، عادل وتقي الدين وعماد. وبصفته ابن

(1) هلال الصلح، تاريخ رجل وقضية، ص 274.

منح الصلح، وحفيد أحمد باشا، فقد حضر مؤتمر الساحل كممثل سني عن جنوب لبنان. وكان كاظم الصلح وأخوه تقي الدين قد شكّلا مع غيرهما من الشبان المتشددين، مثل فريد زين الدين وشوقي الدندشي، الحزب القومي العربي في السنة السابقة، أي في سنة 1935.

بتحريض من رياض، بالإضافة إلى القناعة الشخصية، عبّر كاظم عن رأيه الجديد أن الدعوة لتفكيك لبنان الكبير قد تضرّ بقضية القومية العربية. فكلما أصّر القوميون العرب على مطالبتهم بإعادة الأراضي المتنازع عليها إلى سوريا، ازداد لجوء المسيحيين إلى أحضان الفرنسيين، ما يلحق ضرراً شديداً باحتمال حصول أي وحدة في المستقبل بين لبنان وسائر العالم العربي. لذا تقتضي الحكمة السعي لإقناع الموارنة والمسيحيين الآخرين بالانضمام إلى أشقائهم المسلمين في النضال لتحقيق استقلال لبنان، وتلك مرحلة أولى ضرورية نحو وحدة الوطن العربي الأوسع واستقلاله.

بعبارة أخرى، رأى كاظم أنه ينبغي التوصل إلى تسوية بين مسلمي الساحل مثلهم، من صيدا وطرابلس، الراغبين في الوحدة مع سوريا والمسيحيين اللبنانيين الذين يسعون للحصول على حماية فرنسا للدولة التي يسيطرون عليها. وحذر أن مثل هذه السياسة لن تكون بلا ثمن، بل تقتضي من المسلمين تقلم تنازلات كبيرة من دون شك. وأعلن أن الطريقة الوحيدة لاستمالة المسيحيين لصالح القضية العربية هي التخلي عن المطالبة بعودة الأراضي المتنازع عليها إلى الوطن السوري الأم.

كانت وجهة نظر كاظم تعارض تماماً مع رأي غالبية المسلمين، حيث أوضح أن مهمة المؤتمر هي تسريع تعاون لبنان مع العالم العربي، بدلاً من المخاطرة بتصلّب مواقف الجانبيين عبر المطالبة بتفكيك لبنان الكبير⁽¹⁾. تلك كانت الفرضية المذهلة التي أصبحت أساس نص كاظم الشهير، "بين الاتصال والانفصال في لبنان" الذي نُشر أولاً في صحيفة النهار البيروتية في آذار/مارس 1936، ثم صدر ككتيّب في نيسان/أبريل 1937⁽²⁾.

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 33.

(2) Ziadeh, *Sectarianism and Intercommunal Nation-Building*, p. 104, and p. 199, n. 65.

انظر أيضاً مقالة كاظم الصلح في عدد خاص من صحيفة النهار (بيروت)، كانون الثاني 1975، ص 67 وما يليها، "La Constitution, le pacte nationale, la formule libanaise".

رفض كاظم - انسجماً مع معتقداته - التوقيع على الإعلان الختامي للمؤتمر الذي دعا، كما هو متوقع، إلى إعادة الأراضي المتنازع عليها إلى سوريا. ولم يغير، بالطبع، آراءه التي رفضتها الأوساط المسلمة في بيروت بغضب. ولكنه أطلق نزعته الجديدة اكتسبت تدريجياً زحماً كبيراً، على الأقل بين النخبة المثقفة، قبل أن تنتشر بين الجمهور المسلم.

صَفَّق رياض له من بعيد بمُدوء. فقد كان ابن عمه الشجاع حارسه المتقدم، بل الستار الذي يَحْتَبِي خلفه. ومع اقتراب موعد إجراء مفاوضات المعاهدة السورية في باريس، أدرك رياض أن الوقت غير مناسب لإزعاج الفرنسيين باعتماد موقف عربي متشدد. ورأى من الحكمة أن ينأى بنفسه - وبالوفد السوري أيضاً - عن الموقف العَقْدِي الذي اتخذهُ مؤتمر الساحل.

بذل رياض الكثير من الوقت والجهد في التودّد إلى السياسيين الفرنسيين من الحزبين الاشتراكي والراديكالي. ولم يكن يريد أن يخسر حسن النية الفرنسية التي اكتسبها بالإعلان عن مطالب متطرّفة في تلك اللحظة الحساسة. والجدير بالذكر أن بعض الأعضاء البارزين في الكتلة الوطنية السورية شاركوه في هذا التحليل البراغماتي. ففي طريقهم إلى باريس لإجراء المفاوضات التي طالما سعوا إليها، أدركوا أن الوقت غير مناسب لاستفزاز الفرنسيين، أو البطريك اللبناني الذي لديه نفوذ واسع في باريس⁽¹⁾.

في لبنان، أخذت تحدث بعض التغيّرات التي جعلت صيغة رياض الصلح أكثر قبولاً في نهاية المطاف. فقد بدأ الشبان في البرجوازية السنيّة والمسيحية، يكتشفون أن القواسم المشتركة بينهم أكثر مما كانوا يعتقدون. فهم ينتمون إلى العالم نفسه من الناحية الاجتماعية، بل إن بعض الزيجات المختلطة تحدث بينهم؛ وهو أمر لم يكن يُسمع به قطّ من قبل. وبدأ رجال الأعمال المسيحيون يدركون حماسة السعي لفصل لبنان عن الأراضي الداخلية العربية، حيث لديهم مصالح تجارية ومالية مهمة. ولم يعودوا يقبلون دون جدال بعلاقة التبعية مع فرنسا التي حرّض عليها آبائهم، لأنهم اكتشفوا أنها تقيّد علاقاتهم التجارية مع البلدان الغربية الأخرى. بل إنهم بدؤوا بالاستياء من ممارسات

الانتداب الفرنسي، لا سيما الجشع المكشوف للشركات الامتيازية الفرنسية، التي تريد الحق الحصري في السيطرة على الأسواق السورية واللبنانية. وأدرك رجال الأعمال المسلمون، بدورهم، أن هناك إمكانية لاستغلال الصلات المتينة التي تربط اللبنانيين المسيحيين بأوروبا لمصلحتهم أيضاً. فبدؤوا ينظرون في التعاون مع المسيحيين في إطار "لبناني" لا سوري. وهكذا تطوّر في المعسكرين ميل إلى بناء الجسور فوق الانقسام الطائفي.

على سبيل المثال، كتب زعيم سنّي شاب يدعى صلاح بيّهم، في تموز/يوليو 1936، بعد مرور أربعة أشهر فقط على عمله كأمين سر مؤتمر الساحل، رسالة لصحيفة لوريان *L'Orient* البيروتية الناطقة بالفرنسية يدعو فيها إلى إنشاء "اتحاد فعّال بين جميع الطوائف، ضروري لأمن وجودنا الوطني"⁽¹⁾. كانت تلك فكرة جريئة آنذاك بالنسبة إلى معظم مسلمي الساحل، لا سيما في مناطق مثل صيدا وطرابلس، حيث كانت سوريا، لا لبنان، تعتبر الوطن الأم.

في باريس، مع الوفد السوري

افتُتحت المحادثات الفرنسية السورية رسمياً في باريس في 2 نيسان/أبريل 1936، لكنها أُرجئت على الفور تقريباً بعد وصولها إلى طريق مسدود. فقد استحوذت الانتخابات الفرنسية العامة الوشيكة، التي أُجريت على مرحلتين في 26 نيسان/أبريل و3 أيار/مايو، على اهتمام رئيس الوزراء ألبير سارو Albert Sarraut، بل الطبقة السياسية الفرنسية بأكملها. لذا لم يكن باستطاعة وزير الخارجية بير - إتيان فلانندان Pierre-Etienne Flandin، الذي ترأّس الفريق الفرنسي في المحادثات، القيام بأي شيء سوى التعبير عن موقف حازم ومتصلّب. فلم يكن في وسع الحكومة الفرنسية تصوّر أي تغيير جذري في السياسة المتبعة في المشرق بسبب الغموض الشديد لنتيجة الانتخابات.

سرعان ما أدرك السوريون أن المفاوضات ستكون أصعب بكثير مما توقّعوا. فقلّلت هذه النكسة المبكرة من عزيمتهم. لم يكن لدى الوفد كثير من الأصدقاء النافذين في باريس، فاتكل على صلات رياض الصلح الواسعة، لا سيما مع اليسار.

فقد أدرك الصلح أنه ليس هناك أمل يرجى من الجناح اليميني الاستعماري والعسكري والكاثوليكي، فأقام علاقات مع الاشتراكيين والشيوعيين منذ وقت طويل. لذا عاد الآن إلى العمل ثانية على تعبئة الصحافة وتنظيم الاجتماعات مع سياسيين فرنسيين يساريين بارزين. وتمكّن من تأمين طاولة له في مكاتب صحيفة "لومانتيه" اليومية الشيوعية وشرع في تزويد محرريها بسيل منتظم من النصائح والمعلومات عن القضية السورية. في ذلك، في 7 نيسان/أبريل، أرسل رياض رسالة من باريس إلى نبيه وعادل العظمة، وهما اثنان من أصدقائه السوريين كانا في فلسطين آنذاك، يلخّص فيها الوضع المعقد حسبما رآه:

وصلت إلى باريس صباح يوم الاثنين، أي قبل ستة وعشرين يوماً، ومنذ وصولي وأنا أدرس المحادثات بين السوريين والفرنسيين وأبحث فيها وأتابعها.

لاحظت أن القضية السورية لم توضع جانباً على الرغم من انشغال الناس هنا بالمسائل السياسية الكبرى عشية الانتخابات البرلمانية. فهي تحظى ببعض الاهتمام، على الرغم من أنني لاحظت أيضاً المكائد في وزارتي الخارجية والحربية، وفي أعماق دوائر الرأي الديني والمالي الخفية. ليس من المستغرب حدوث هذه المكائد وإنما بعدها عن الأنظار... فهذه المكائد تعمل بصورة مبهمة وسريّة. إنها دليل على ضعفهم، لكنها دليل أيضاً على أن معظم من يتعامل في الجانب الفرنسي مع هذه المسألة، إن لم يكن جميعهم، يريدون التوصل إلى حل.

هذا هو الجانب الظاهر من المسألة السورية. ويمكن من هذا الجانب استنتاج أمور أخرى، ربما أمور رسمية بطبيعتها، إنما مهمة. ربما يكمن الحل الحقيقي، أكثر مما قد يعتقد المرء، في التفاصيل، أي في "شكل" المفاوضات. من سيفاوض عن الفرنسيين؟ هل تعلق المحادثات [في باريس] وتستأنف في سوريا؟ هل على المرء انتظار نتائج الانتخابات البرلمانية؟

قبل وصول الوفد، خلصت إلى أن وزارة الخارجية، التي لا تزال أسيرة الأفكار والعادات القديمة، تميل إلى إبقاء المفاوضات داخل إطار بيروقراطي،

وتقييد عدد الأشخاص القليلين المعنيين - المفوض السامي في سوريا وعدد قليل من زملائه أساساً. كما تريد التوصل إلى نهاية سريعة. رأى نواب في البرلمان - لا سيما رئيس لجنة الشؤون الخارجية - أن [المفوض السامي] دو مارتيل ينبغي ألا يشارك في المحادثات، وأن توجّل على أي حال إلى ما بعد الانتخابات.

هذان هما الرأيان اللذان وجدتهما عند وصولي. أشعر أن الحل الأفضل، إذا وافقت الوزارة على مطالبنا، إنهاء المحادثات بسرعة والعودة على الفور. في تلك الحالة، ستكون مشاركة دو مارتيل في المحادثات أمراً مقبولاً.

لكن إذا لم تكن الوزارة ولا دو مارتيل على استعداد لقبول مطالبنا، فعلى انتظار الوقت المناسب، وإيجاد أفضل السبل للعمل، وسير غور الطرف الآخر] من دون قطع الاتصال معه، وفرض أنفسنا من دون تسرع. وقد بدأت أميل نحو هذا الحل الأخير وأتصور أن الأحداث ستحسم الأمور. وهذا ما حصل بالفعل.

كان دو مارتيل والوزارة في حالة من الشلل في انتظار ذروة الانتخابات التي قد تحدث تغييراً في الأشخاص والأساليب. وربما يكونان ضحيّتي هذا التغيير. ويبدو أن المباحثات [التي أجريتها] تسير في هذا الاتجاه...

أحمد الله أن أشقاءنا [في الوفد السوري] موحدون ويتحلّون باليقظة والحكمة. إننا نجتمع بانتظام ويعبر كل واحد عن رأيه. إنهم يتبعون المسار الصحيح فيما أعمل على جمع المعلومات. وأعتقد أن عملي سيقبل عمّا قريب. لديّ آمال عظيمة بنتيجة الانتخابات، على الرغم من أن النقطة الأساسية بالنسبة إلينا، كما تعلمان، هو ما قلته قبل عشرين عاماً ويدور اليوم على شفاه جميع إخواننا: "من الأسهل على فرنسا أن تغادر البلاد (سوريا) من أن تحرّمها من حريتها واستقلالها، وهو مسار سيجلب العار على ممثليها على الأرض".

إن وضع هؤلاء الممثلين، باختصار، هو نقطة الخلاف: إنهم يمارسون الضغط هنا في هذا البلد، ويرسلون تقارير كاذبة، ويخدعون الناس. ولا أعتقد أن

المفاوضات القائمة على تقاريرهم ستوصلنا إلى أي نتائج. تقول الأحزاب اليسارية إنها ستغير هذه الطريقة في التصرف، لكن فرنسا ما زالت عالقة في أساليبها القديمة والبالية. أرجو منكما عرض هذه الرسالة على سعادة الحاج أمين، لكن لا تعرضاها على الصحافة⁽¹⁾.

ليون بلوم والجهة الشعبية

كان تقييم رياض الصلح للوضع في فرنسا دقيقاً وثاقباً، كما أظهرت الأحداث لاحقاً. فقد أوصلت الانتخابات العامة الجهة الشعبية إلى السلطة، وهي ائتلاف يساري يضم الاشتراكيين الراديكاليين، والاشتراكيين والشيوعيين، برئاسة زعيم الحزب الاشتراكي، ليون بلوم، البالغ من العمر 64 عاماً في ذلك الوقت. ولأسباب دستورية، لم تتمكن الحكومة الجديدة من تسلم الحكم إلى أن استقالت حكومة سارو في 1 حزيران/يونيو. وكانت هذه الحكومة الجديدة أفضل من سابقتها بكثير، من وجهة النظر السورية. غير أن رياض لم يكن مطمئناً، لاعتقاده أن ما من سياسي فرنسي من التيار السائد يستطيع أن يتخلى بسهولة عن المصالح الفرنسية في المشرق. كان بلوم مهتماً في التحول الاجتماعي والاقتصادي الذي أمل في تحقيقه في فرنسا عبر مجموعة كبيرة من الإصلاحات الجذرية، ولا يكاد يولي المسائل الاستعمارية اهتمامه⁽²⁾.

ولد ليون بلوم في الألزاس لعائلة من التجار اليهود. وكان يتعرض لضغط مستمر من الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان كي لا يمنح الاستقلال للوطنيين السوريين المناهضين للصهيونية، والتركيز بدلاً من ذلك على السماح باستيطان اليهود في الأراضي السورية واللبنانية المتاخمة لفلسطين⁽³⁾. وعلى نحو مماثل، خشي الوطنيون

(1) بحيرة قاسية (محررة)، الرعيل العربي الأول، ص 272.

(2) W.B. Cohen, 'The Colonial Policy of the Popular Front', in *French Historical Studies*, 7 (Spring 1972), pp. 369, 388, quoted in. Khoury, *Syria and the French Mandate*, note 2 to page 485

(3) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. II, pp. 326, 341

اللبنانيون في بيروت من أن يقدم بلوم تنازلات إلى سوريا على حساب لبنان. فسارع مطران بيروت الماروني، موسى مبارك، إلى باريس وطالب في اجتماع عقده مع بلوم في 27 أيار/مايو، بضمانات لحدود لبنان الموسعة. وعلى الرغم من أنه لم يحصل على التعهد الحازم الذي سعى إليه، فقد طمأنه بلوم أنه لن يقدم أي التزام إلى السوريين، من دون أن يدرس المسألة اللبنانية بعناية أولاً. وقد عُقِلَت المفاوضات مع السوريين طيلة شهر أيار/مايو، بانتظار تسلم الحكومة الجديدة مهامها.

انتهز الوفد السوري الفرصة فتوجه إلى جنيف، يرافقه رياض الصلح، لبحث الوضع مع الحكيمين الوطنيين، الأمير شبيب أرسلان وإحسان الجابري. وعادوا إلى باريس في الوقت المناسب لاستئناف المحادثات ما إن شكّل بلوم حكومته في 4 حزيران/يونيو وحصل في اليوم التالي على الثقة في الجمعية الوطنية. كوفت محاولات رياض الدؤوبة لكسب ود اليسار بتلقيه دعوة لإلقاء كلمة أمام مؤتمر الحزب الاشتراكي المنعقد في باريس بين 30 أيار/مايو و 1 حزيران/يونيو احتفالاً بانتصار الجبهة الشعبية. فدافع رياض الصلح بنصاحة عن قضية الاستقلال والوحدة السورية، ولقي استحساناً كبيراً ووعداً بتقدم الدعم، على الرغم من أن اهتمام فرنسا كان منصباً تماماً على مكان آخر.

انتصر ائتلاف بلوم اليساري خلال ذروة موجة آمال الطبقة العاملة الفرنسية، وفي إطار دولي يسوده التوتر الشديد. فقد وصل هتلر وحزبه النازي إلى السلطة في 30 كانون الثاني/يناير 1933، وفرض الحكم الفاشي في جميع أنحاء ألمانيا. وبعد عام واحد، في 6 شباط/فبراير 1934، زحف الفاشيون الفرنسيون على الجمعية الوطنية، على أمل تكرار التجربة الألمانية، فأخلّوا بالأمن، وأجبروا رئيس الوزراء، إدوار دلاديه Edouard Daladier على الاستقالة. رد اليسار بإضراب عام أغلق 12000 مصنع، احتل المضربون 9000 منها. تلا ذلك مظاهرات ضخمة خرج فيها عشرات الآلاف إلى الشوارع يمثلون جميع الأحزاب والفئات اليسارية. وقد شكّل هذا العرض الهائل للقوة الولادة الحقيقية للجبهة الشعبية، على المستوى الشعبي على الأقل، إن لم يكن في أوساط السياسيين.

في 27 تموز/يوليو 1935، أبرم الاشتراكيون والشيوعيون ميثاقاً مناهضاً للفاشية، تبعه في 14 تموز/يوليو تجمع شعبي ضخم، للاشتراكيين والشيوعيين والراдикаليين،

والحركتين النقابيتين الرئيسيتين: الاتحاد العام للعمل، والاتحاد العام للحدوي للعمل. في 13 شباط/فبراير 1936، وقع اعتداء شخصي على ليون بلوم نجا منه بصعوبة، بعد أن كان أصلاً هدفاً لحملة معادية للسامية نظمتها الصحافة اليمينية بعناية. فقد أوقف حشد من مجرمي "حركة العمل الفرنسي" Action Française سيارته وحطّموها في جادة سان جرمان، في أثناء انتظارهم مرور موكب جنازة المورخ المؤيد للملكية جاك بينفيل Jacques Bainville. فأخرج من سيارته، وضرب وأهين، لكن تمكّن بلوم من الاحتماء في مبنى قريب. وقد مكث في المستشفى عدة أسابيع بعد هذا الاعتداء البشع⁽¹⁾.

لكن في 7 و8 حزيران/يونيو، أي بعد بضعة أيام من تشكيل الحكومة، توصل بلوم إلى اتفاق تاريخي مع أصحاب العمل والنقابات العمالية بشأن سلسلة من التدابير الثورية - عُرف باسم اتفاقات ماتينيون Matignon. وقد أقرّت الجمعية الوطنية هذه الاتفاقات في قانون حظي بغالبية كبيرة. أحدثت تلك الاتفاقات تغييراً جذرياً في حياة الطبقات العاملة الفرنسية: أسبوع عمل من أربعين ساعة، وإجازات مدفوعة الأجر، وعقود عمل جماعية، وتأمين صناعات الأسلحة، وتمديد التعليم الإلزامي، وقانون للمصرف المركزي الفرنسي، وحلّ الروابط اليمينية، في 19 حزيران/يونيو، التي أدت مسيراتاً إلى نشر الفوضى والاضطرابات في الطرقات، بل شكّلت تهديداً لبقاء الجمهورية نفسها.

بعد نحو شهر، في 17 و18 تموز/يوليو، أدى استيلاء الجنرال فرانكو على السلطة إلى إطلاق شرارة الحرب الأهلية الإسبانية، فانغمس اليسار الفرنسي في جدال مؤلم بشأن المسارعة إلى وحدة الجمهوريين الإسبان أم لا. لكن عندما قرّرت بريطانيا عدم الاكتراث - كما فعل وزراء الاشتراكيين الراديكاليين في حكومة بلوم - اضطّر الأخير، بأسف بالغ، إلى الموافقة على سياسة "عدم التدخل".

في تلك الأجواء المتوترة، حاول أعضاء الوفد السوري التفاوض على استقلال بلدهم عن فرنسا. وقد ابتهجوا عند تعيين إيفون دلبوس Yvon Delbos وزيراً للخارجية الفرنسية وبيار فينو Pierre Viénot وكيلاً لوزارة الخارجية، لأنهما أكثر انفتاحاً على

الطموحات السورية من سابقيهما. وقد عُهد إلى فينو بإجراء المحادثات. غير أن تلك التعيينات أثارت ثانية مخاوف الوطنيين اللبنانيين الذين ساورتهم الظنون أن حكومة بلوم قد تقتنع بإعادة "الأراضي المتنازع عليها" إلى سوريا. لكن السوريين آثروا عدم طرح موضوع الأراضي عندما استؤنفت المحادثات في حزيران/يونيو بعدما خفّضت الجولة الأولى معنوياتهم. مع ذلك، فإن حدوث المفاوضات في جوٍّ من الثقة المتبادلة، بالإضافة إلى التقارير التي نشرت عن خطاب رياض الصلح في مؤتمر الحزب الاشتراكي، حثّت الرئيس إميل إده على إرسال برقية احتجاج إلى الحكومة الفرنسية. فشعرت حكومة بلوم أن من الضروري استرضاءه.

بناءً على ذلك، أرسل فينو برقية إلى إده ذكره فيها أن شرعة الانتداب منحت سوريا ولبنان "فرصة متماثلة للاستقلال"، مُعززة بضمانات دولية. وتشمل هذه الضمانات "النظام الأساسي للأراضي... التي تمّ تحديدها، في حالة لبنان، بتاريخ 31 آب/أغسطس 1920". واقترح فينو التفاوض على معاهدة مع لبنان تنصّ على ارتقائه إلى "المكانة الدولية لدولة مستقلة"⁽¹⁾. عندئذٍ وجّه هاشم الأتاسي، رئيس الوفد السوري، رسالتين إلى الكونت دو مارتيل، احتفظ فيهما بحق إثارة قضية الأراضي المتنازع عليها في تاريخ لاحق. غير أنه حرص على تفادي طرح أي مطالب محددة⁽²⁾. فقد كان الوطنيون السوريون حريصين على استرجاع الأراضي، لكنهم لا يريدون المخاطرة بانحياز محادثاتهم مع فرنسا في هذه المرحلة. كما لا يريدون التقدّم بمطالب في لبنان، فيما لا يزالون يواجهون صعوبة حمة في إقناع الفرنسيين بالموافقة على بسط السلطة السورية على أراضي العلويين وجبل الدروز الخاضعين للإدارة الفرنسية.

إذا كانت برقية فينو إلى إده قد طمأنت الوطنيين اللبنانيين، فإنه لا يمكن قول الشيء نفسه عن القوميين العرب. فقد استشاطوا غضباً من تقارير تفيد أن الوفد اللبناني الذي يجري تشكيله للتفاوض على معاهدة مع فرنسا، يستبعد على ما يبدو دعاة الوحدة مع سوريا في لبنان. وفي إشارة إلى غضب المسلمين السنّة، سارت مظاهرات عنيفة في صيدا في 12 تموز/يوليو، وتمّ تفريقها بالذخيرة الحية. ثمّ دُعي إلى

(1) Mizrahi, 'La France et sa politique de mandat', p. 61

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 43

إضراب عام سرعان ما انتشر إلى مدن لبنانية أخرى. وفي بيروت، توجه وفد للاحتجاج أمام المفوض السامي الفرنسي على وحشية الدرك.

توقيع المعاهدة الفرنسية السورية

أخيراً، بعد أسابيع من المحادثات، وصياغة العديد من الرسائل التي ألحقت بالوثيقة النهائية، وقّعت في 9 أيلول/سبتمبر 1936 معاهدة "صداقة وتحالف" فرنسية سورية لمدة خمسة وعشرين عاماً في قاعة الساعة Salon de l'Horloge في مقر وزارة الخارجية الفرنسية في باريس⁽¹⁾. وكان هدفها المعلن "تحديد العلاقات المستمرة بين البلدين بعد انتهاء الانتداب، على أساس الحرية التامة والسيادة والاستقلال". وقد نصت على أن يتشاور البلدان في كل مسائل السياسة الخارجية التي قد تمس بمصالحهما المشتركة. وتعهّد البلدان أن يساعد كل منهما الآخر في حال وقوع صراع مع بلد ثالث. وإذا أوشكت الحرب على الوقوع، فإن سوريا ستزوّد فرنسا بجميع التسهيلات الممكنة على أراضيها، بما في ذلك استخدام السكك الحديدية والأنهار، والمرافئ والمطارات، وغيرها من وسائل المواصلات.

اتفق على أن يلي تصديق البرلمانيين السوري والفرنسي على المعاهدة فترة تمهيدية تمتد ثلاث سنوات، تُتقل خلالها السلطات تدريجياً. وفي نهاية تلك الفترة، ستصبح المعاهدة نافذة في يوم قبول عضوية سوريا في عصبة الأمم. ألحق بالمعاهدة اتفاقية عسكرية، تقدّم فرنسا بموجبها بعثة عسكرية لتدريب الجيش والدرك والقوات البحرية والجوية السورية، إنما على حساب سوريا نفسها. تخضع القوات المحلية لسيطرة وزارة الدفاع السورية، لكن يحصر المدربون والمعدات بفرنسا فقط. ويُمنح لفرنسا الحق بالاحتفاظ بقاعدتين جويتين في سوريا في موقعين يتفق عليهما، على أن تبعدا 40 كلم على الأقل عن المدن السورية الرئيسية الأربع.

اعترف بإلحاق جبل الدروز والعلوين بسوريا من حيث المبدأ فقط. فقد استمر تمسّع المنطقتين بدرجة من الاستقلالية على نسق سنحق الإسكندرونه، لكن عهد إلى المفوض السامي الفرنسي بتحديد مداها بمرسوم يصدر عنه. في غضون ذلك، يتم

(1) للاطلاع على نص المعاهدة، انظر Hourani, *Syria and Lebanon*, pp. 313-333.

تقاسم إدارة المنطقتين، في السنوات التمهيديّة الثلاث، بين مندوب المفوض السامي الفرنسي، ومتصرف تعينه دمشق. وستحتفظ فرنسا بقواها في جبل العلويين وجبل الدروز لمدة خمس سنوات، تبدأ من يوم نفاذ المعاهدة.

في رسالة عاجلة من دمشق إلى وزارة الخارجية في 27 تشرين الأول/أكتوبر، قال القنصل البريطاني ماكيريث Mackereth، "ما زال المسلمون مرتابين بشأن الاتفاقية العسكرية التي يعتبرها المسيحيون خيط أملهم الوحيد". فقد بدا أن المعاهدة تزيد من وثاقة ارتباطات سوريا بفرنسا، بدلاً من أن ترخيها. وقبل أن يكون هناك أي شبه بالاستقلال الحقيقي، ينبغي التخلص من عقبة التصديق على المعاهدة، وتخطي مدة الثلاث السنوات الاختبارية بنجاح.

مع ذلك، لقي الوفد السوري ترحيباً صاعباً عند عودته إلى دمشق في 29 أيلول/سبتمبر. فأقيمت أقواس النصر على الطريق الممتدة من محطة السكك الحديدية إلى السراي، حيث كان الكونت دو مارتيل بانتظاره. لكن حين وصل القطار، غمرت الحشود الجاححة والمتحمسة للغاية أعضاء الوفد ومن كانوا باستقبالهم على الرصيف وخارج المحطة. وتحول الموكب نحو السراي إلى حشد مائج من الغوغاء⁽¹⁾.

مع ذلك، كانت المعاهدة مفتوحة على العديد من التأويلات المختلفة، فلم تهدئ كثيراً من حدة التوترات بين الطوائف. ولم يحصل القوميون العرب ولا الوطنيون اللبنانيون على ما أرادوا في النهاية. فشل الأولون في تأمين إعادة الأراضي المتنازع عليها إلى سوريا - لم تأت المعاهدة على ذكرها البتة - فيما خشي الآخرون من أن التنازلات الفرنسية التي قدّمت إلى سوريا تعرّض ارتباط فرنسا التاريخي بلبنان للخطر. ومن المؤسف أن أعمال الشعب اندلعت بين المسلمين والمسيحيين في حلب، بعد بضعة أيام على عودة الوفد، مخلّفة ثمانية قتلى ونحو 150 جريحاً⁽²⁾.

عاد رياض إلى بيروت عن طريق البحر، إذ لم يكن يحب ركوب الطائرة، فلقي استقبالاً حافلاً أيضاً، وثُرت عليه الزهور في أثناء مغادرته المرفأ. نُشر نص المعاهدة في الصحافة اللبنانية، وسرت شائعات بأن محي الدين نصولي، مالك صحيفة بيروت،

(1) Acting Consul J.C. Ogden to Foreign Office, 3 October 1936. (FO 371/20066)

(2) Consul Robert Parr to Mr. Eden, Aleppo, 13 October 1936. (FO 371/20066)

اختلس الوثيقة من حقيبة رياض في أثناء الرحلة. سرّ رياض من هذا التسريب، على الرغم من أنه أبدى خلاف ذلك. فقد كان يريد بالتأكيد أن تُعرف شروط المعاهدة على أوسع نطاق وبأسرع وقت ممكن.

رحب معظم السوريين بالمعاهدة واعتبروها إنجازاً عظيماً للكتلة الوطنية، التي فازت بأغلبية ساحقة في انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر. فأصبح جميل مردم رئيساً للوزراء، وشكّل حكومة تتكوّن من سعد الله الجابري (وزيراً للشؤون الداخلية والخارجية) وشكري القوتلي (وزيراً للمالية وللدفاع) وعبد الرحمن الكيالي (وزيراً للعدل والتعليم)، وأصبح فارس الخوري رئيساً للجمعية الوطنية. وكان جميع هؤلاء الرجال في أواسط الأربعينيات من عمرهم في ذلك الوقت، وقد تصدّروا الحركة الوطنية السورية منذ سنوات. وثابروا على غرار رياض الصلح، صديقهم الوثيق في لبنان، على مناوأة الانتداب وبذلوا قصارى جهدهم لإنجائه. بعد ذلك بشهر، في 21 كانون الأول/ديسمبر 1936، انتُخب زعيم الكتلة الوطنية، هاشم الأتاسي، رئيساً للجمهورية. وفي 27 كانون الأول/ديسمبر، أقرّت الحكومة الجديدة المعاهدة، وفي اليوم التالي صدّق عليها البرلمان السوري بالإجماع، في اجتماع طال انتظاره بعدما علّق الفرنسيون أعمال المجلس لمدة 25 شهراً.

تخضيراً لهذه الجلسة التاريخية في قاعة البرلمان، خُصّص مكان بارز لأعضاء السلك الدبلوماسي. لكن نُقل مكان الوفد الفرنسي من مقاعد الحكومة إلى مقصورة جانبية⁽¹⁾. ربما كان انتصار القوميين جزئياً وغير واضح، لكنهم أصرّوا على الاحتفاء به قدر المستطاع. فقد دفع إنشاء حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا، وتوقيع المعاهدتين البريطانية - المصرية والبريطانية - العراقية، العديد من الوطنيين السوريين للاعتقاد أن استقلالهم لن يتأخر كثيراً.

غير أن رياض الصلح عرف أن المعركة لم تُحسم بعد. وخاب أمل دعاة الوحدة مع سوريا في لبنان من المعاهدة، فيما اتهم القوميون العرب المتطرفون في سوريا - لا سيما مناصرو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر المنفي - أعضاء الكتلة الوطنية بالخيانة واعتبروهم متعاونين مع فرنسا. دعا رياض، الباحث دائماً عن تسويات عملية، إلى

السهب في علاقات لبنان مع سوريا وفرنسا عن طريق الحوار لا الإكراه. وفي بحثه عن صيغة يمكن أن يوافق عليها الموارنة، توصل إلى فكرة انضمام سوريا ولبنان معاً في اتحاد كونفدرالي. وكان يأمل في أن يلقي ذلك قبولاً أكثر لدى الموارنة والفرنسيين من الوحدة الصريحة مع سوريا. لكن بعض الوطنيين اللبنانيين نظروا إلى هذه الفكرة المتواضعة برية وحذر، فيما انقسم القوميون العرب بين دعاة الوحدة المتشددون في طرابلس (كرامي وعبد اللطيف البيسار وأصدقائهما) ودعاة الكونفدرالية الأكثر اعتدالاً في بيروت (آل الصلح وسلام ويهم).

للترويج لفكرة الاتحاد الكونفدرالي، نظمت المجموعة الأخيرة المؤتمر القومي الإسلامي الذي انعقد لمدة أسبوع بين 23 و28 تشرين الثاني/نوفمبر في منزل عمر بيهم، وبرئاسة سليم علي سلام. أكدت المذكرة النهائية الصادرة عن المؤتمر رغبة المشاركين في انضمام سوريا ولبنان إلى "اتحاد بأوسع ما يمكن من أشكاله"، شرط أن تضمن المعاهدة الفرنسية اللبنانية اللامركزية الإدارية للقطرين، والمساواة بين المجتمعين⁽¹⁾. وفي خطاب أمام المؤتمر، وجه رياض الصلح ملاحظاته إلى الوطنيين اللبنانيين: "إننا لا نجرّكم على الدخول في اتحاد، لكن على أي أساس تصوّرون على وجوب أن يقبل الحدوديون بلبنان منفصل، بما أنهم لا يقرّون عدداً عنكم؟"⁽²⁾. وقاد رياض وفداً اجتمع بالمفوض السامي الفرنسي، لترويج فكرة الاتحاد الكونفدرالي، وطلب مشاركة قوميين عرب في المفاوضات الفرنسية اللبنانية. لكن مطالبه لم تلقَ آذاناً صاغية.

المعاهدة الفرنسية - اللبنانية ومعارضوها

تبين أن إبرام المعاهدة الفرنسية اللبنانية مسألة سهلة. فقد بدأ الكونت دو مارتيل ووفد لبناني برئاسة الرئيس إميل إده محادثات في بيروت في 20 تشرين الأول/أكتوبر 1936، من دون مشاركة أي من الوطنيين العرب. بالتالي، تم التوقيع على المعاهدة بالأحرف الأولى في 13 تشرين الثاني/نوفمبر، وصدّق عليها البرلمان اللبناني في 17 من

(1) Méouchy "Le Pacte national", p. 468

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 46

انشهر نفسه. وخلافاً للمعاهدة مع سوريا، كانت المعاهدة اللبنانية قابلةاً للتجديد لمدة 25 سنة أخرى، ولم يحدّد وقت لبقاء القواعد الفرنسية في لبنان. عكست السرعة التي تمّت فيها تسوية الأمور انسجام وجهات نظر الوطنيين اللبنانيين والغالبية في فرنسا التي رأت أن لبنان يجب أن يبقى مركزاً لنفوذ فرنسا، وقاعدة لقوات فرنسا المتوسطة في المستقبل المنظور. وكانت حكومة الجبهة الشعبية ومعارضوها اليمينيون مقتنعين جداً بذلك.

في زيارة إلى باريس بعد عدة شهور كضيف على الحكومة الفرنسية، أعلن إده عن رأيه قائلاً: "عرف اللبنانيون أن استقلالهم الوطني غير ممكن سوى في إطار التحالف مع فرنسا وضمانته" فلبنان هو البؤرة الرئيسية لإشعاع فرنسا في الشرق الأدنى وآسيا الوسطى. وقال إده لصحيفة "إكو دو باري" *Echo de Paris* إن "اللبنانيين يعتبرون اتفاقهم رابطاً تاريخياً جديداً بفرنسا. لقد أبرموا معاهدة نافذة لمدة خمسة وعشرين عاماً، لكنهم يرغبون في معاهدة دائمة في الواقع". وعندما سُئل عما إذا كان يحد أي اعتراض على قاعدة بحرية فرنسية في المشرق، أجاب أنه يمكن اعتبار الساحل اللبناني بأكمله قاعدة بحرية فرنسية⁽¹⁾.

وهكذا سُرّ المسيحيون في لبنان بالمعاهدة، لكن المسلمين استقبلوها استقبالاً عاصفاً. فأغلقت طرابلس شهراً كاملاً احتجاجاً على إبقاء المدينة داخل لبنان، ورُفعت الأعلام السورية على جوامعها. قُتل ستة معارضين على الأقل وأصيب العديد غيرهم بجروح بليغة. وألقي القبض على الزعماء المسلمين الرئيسيين الثلاثة، بمن فيهم كرامي، وسجنوا في بيروت. لكن هناك أيضاً، اصطدم المسلمون الساخطون مع المسيحيين بصورة متكررة. فقد حمل المصلّون المسلمون السلاح، بعد خروجهم من مسجد البسطة، وزحفوا نحو وسط بيروت. وهناك فرقتهم القوات الفرنسية، لكن بعدما حطموا ميدان المدينة، ومزقوا العلم اللبناني، وهاجموا عدداً من العابرين المسيحيين. وقد خلّفت المعارك المتواصلة بين المتظاهرين والشرطة أربعة قتلى ومئات آخرين من الجرحى.

وانتقاماً من المسلمين، هاجم المسيحيون الأرمن الأحياء المحيطة بمنطقة البسطة، فدافع عنها سكانها بشراسة. ووقعت خارج بيروت عدة هجمات على أملاك تعود للمسيحيين⁽¹⁾. شعر الوجهاء من جميع الطوائف بالقلق من هذا العنف الطائفي، فحاولوا تهدئة المتهورين والتوسط في ما بينهم. ولعب رياض الصلح دوراً بارزاً، إلى جانب زملائه السنة: سليم علي سلام وعمر بيهم وعمر الداعوق. وانضم إليهم بشاره الخوري (ماروني)، وهنري فرعون (روم كاثوليك)، وحبيب طراد وجان تويني وحبيب أبي شهلا (روم أرثوذكس)⁽²⁾.

اجتمع إبرام المعاهدتين، والاضطرابات الطائفية التي تلتها، واقترح تشكيل اتحاد كونفدرالي الذي دعا إليه رياض الصلح، وتضافرت معاً لإحداث بعض التطور في الرأي العام المسلم في لبنان. فقد ركّز القوميون العرب حتى نهاية عام 1936 على قضية الأراضي المتنازع عليها، لكن بعد إبرام المعاهدتين مع سوريا ولبنان، أدرك المسلمون أن هذه القضية لم تعد ذات أهمية ملحة سواء في باريس أو في دمشق. بل إن اللبنانيين السنة اضطروا إلى الاعتراف بمرارة أنه لم يعد في وسعهم الاعتماد على "أشقائهم" السوريين، في هذه القضية على الأقل. فرغبة من الكتلة الوطنية في حماية معاهدتها مع فرنسا، أرسلت إلى طرابلس وفداً يتكوّن من جميل مردم، وسعد الله الجابري، وعفيف الصلح، لتهدئة الأوضاع وتعليق الإضراب. وكانت النتيجة أن اللبنانيين المسلمين تقبّلوا تدريجياً وجود لبنان كدولة عربية بين غيرها من الدول، وواصلوا الأمل في أن ينضم لبنان، عندما يحصل على استقلاله التام، إلى جيرانه في نوع من التفاهم القائم على المبادئ القومية العربية وغير الطائفية⁽³⁾.

تدمير المعاهدة السورية

أعطت فترة السنوات التمهيدية الثلاث التي اتفق عليها المتفاوضون الفرنسيون والسوريون الحزب الاستعماري الوقت الكافي ليتحرك ضد المعاهدة. فأطلقت حملة

Acting Consul General G.W. Furlong to Mr. Eden, Beirut, 17 November 1936 (FO 371/20067); Consul General G.T. Havard to Mr. Eden, Beirut, 24 November 1936 (FO 371/20066). Pierre Rondot, *Les Institutions politiques du Liban*, Paris 1947, p. 15

.Johnson, *Class and Client*, p. 19 and footnote p. 22 (2)

.Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 50 (3)

صحفية دعمتها نحو ستين شركة تجارية وصناعية فرنسية تعمل في سوريا ولبنان، منها "مصرف سوريا ولبنان" وشركات الامتيازات التي تدير سكك الحديد والقرام، وتزوّد دمشق وبيروت وحلب بالكهرباء. فأعيد الآن صياغة كل المقولات البغيضة المعروفة منذ الحرب العالمية الأولى وأحييت من جديد. على فرنسا البقاء في سوريا للمحافظة على نفوذها في المنطقة؛ والبقاء قوة عظمى في العالم الإسلامي؛ ومنع انتشار القومية العربية إلى شمال أفريقيا؛ وحماية لبنان من سوريا، والأقليات الدينية من "استبداد" الأكثرية المسلمة؛ وحماية على المصالح الفرنسية من البريطانيين الغادرين⁽¹⁾.

ولزيادة الطين بلة، سرعان ما وجدت حكومة بلوم نفسها في مأزق. كثيراً ما كان يُنعت بلوم نفسه بأنه خائن وشاذ جنسياً ويهودي بغية التشهير به. ومن استهدفتهم هذه الحملة أيضاً وزير الداخلية، والعمدة الاشتراكي لمدينة ليل Lille، روجيه سالينغرو Roger Salengro، الذي لم يساعده اليمين المتطرف لأنه حلّ المنظمات اليمينية. فشنت عليه حملة شرسة اتهمته كذباً بالفرار من الجيش في الحرب العالمية الأولى، ما أحدث لديه احتلالاً، فأقدم على الانتحار بالغاز في شقته.

أجبر هروب رؤوس الأموال وتراجع الإنتاج الصناعي وتجدد الإضرابات، بلوم على أن يعلن في 13 شباط/فبراير وقف إصلاحاته مؤقتاً. وأصبح ائتلافه اليساري فريسة للصراعات الداخلية ومعرضاً لخطر السقوط. حاول بلوم في نيسان/أبريل التعامل مع سيل من الأخبار السيئة، فطلب من البرلمان منحه صلاحيات اقتصادية كاملة، لكن مجلس الشيوخ رفض طلبه - بعد أن خسر بلوم أغليبيته فيه. استقال بلوم في 21 حزيران/يونيو 1937، ثم عاد إلى السلطة بعد نحو ثمانية أشهر في 13 آذار/مارس 1938، ليستقيل نهائياً بعد أقل من شهر، في 8 نيسان/أبريل. فتخلى إدوارد دلادييه، وحزبه الراديكالي الذي صعد إلى السلطة على أنقاض الجبهة الشعبية، عن سياسات بلوم تدريجياً.

قضى اختيار الجبهة الشعبية الفرنسية على المعاهدة السورية وشجّع جميع الراغبين في استمرار الانتداب - الحزب الاستعماري، والإداريين الاستعماريين، وشركات الامتيازات، ورجال الدين - أي الطاقم المتنوع الذي زعم الاهتمام بسلامة الأقليات

المشرقية. وانضم إليهم في هذا المفصل الاستراتيجي ضباط الجيش الذين تزايد قلقهم في ذلك الوقت من مواجهة إيطاليا التوسعية، بالإضافة إلى التهديد الوشيك بوقوع حرب أوروبية شاملة. فالمشرق في النهاية ميزة عسكرية رئيسية للفرنسيين لا يمكن التخلي عنه في مثل هذه الظروف الخطيرة.

توجه جميل مردم إلى باريس مرتين في محاولة يائسة لإنقاذ المعاهدة؛ الأولى في تشرين الثاني/نوفمبر 1937، والثانية في آب/أغسطس 1938، حيث مكث هناك ثلاثة أشهر. وقد أجبر في كل مرة على تقديم مزيد من التنازلات والتعهدات: حماية حقوق الأقليات، لا سيما حقوق المسيحيين؛ وتحديد الوضع المتميز لبنك سوريا ولبنان؛ وضمان تعليم الفرنسية في المدارس السورية؛ ومنح فرنسا رخصة للتنقيب عن النفط؛ وأمور عديدة أخرى⁽¹⁾. في 1 أيلول/سبتمبر 1938، أبلغ الجنرال هنترزغر، القائد العام السابق للجيش الفرنسي في المشرق، والعضو في المجلس الحربي الأعلى، جميل مردم، بحضور وزير الخارجية جورج بونيه Georges Bonnet، بوجود إضافة فقرات جديدة إلى الاتفاق العسكري. وتنص هذه الفقرات على بقاء القوات الفرنسية في سوريا طيلة مدة المعاهدة؛ وبقاء ميزانية القوات المحلية وإدارتها في أيدي الفرنسيين؛ وتركز عملاء فرنسيين في الجزيرة والأراضي الداخلية السورية. وأكد بونيه على عدم وجود أي فرصة للتصديق على المعاهدة من دون مثل هذه التعديلات العسكرية الإضافية.

في 14 كانون الأول/ديسمبر، تحت ضغط العسكريين والجماعات اليمينية، أبلغ بونيه لجنة الشؤون الخارجية في الجمعية الوطنية أن الحكومة الفرنسية لم تعد تنوي أن تطلب من البرلمان التصديق على المعاهدين. كان ذلك بمثابة ضربة قاضية للحكومة الوطنية في دمشق، التي استند برنامجها بأكمله إلى التوصل إلى اتفاق تأمل أن يضع سوريا على طريق الاستقلال. غير أن الفقرات العسكرية الجديدة سلبت المعاهدة في الواقع من مغزاها السياسي. وقد اتضح ذلك على الفور للسياسي الوطني شكري القوتلي الذي هاجم مبدأ المعاهدة نفسه، قائلاً إنه لم يعد بالإمكان اعتبارها خطوة نحو إنهاء الانتداب.

(1) انصدر نفسه، ص 489 وما يليها.

الصراع لإخضاع الانفصاليين

واجهت حكومة جميل مردم مشكلات داخلية خطيرة، بغض النظر عن فشلها المدّمر في حمل فرنسا على التصديق على المعاهدة. وأكثر هذه المشكلات إلحاحاً الحاجة إلى إخضاع الدروز والعلويين والأقليات الإثنية والدينية في منطقة الجزيرة إلى حكم دمشق. فقد نجحت الحكومة كثيراً تقدير المشاعر الانفصالية التي شجعها ضباط المخابرات الفرنسية منذ وقت طويل في هذه المناطق. ففي سنة 1937، تمرد الأكراد الريفيون والقبائل التركمانية في الجزيرة، مطالبين بالانفصال عن سوريا والاستقلال الذاتي تحت الانتداب الفرنسي. كانت هذه المنطقة قليلة السكان بسبب انعدام الأمن المزمّن فيها، إلى أن جاء الفرنسيون "لتهدئتها". وشجّع الفرنسيون بعد ذلك ظهور تحالف كردي مسيحي، فاستقبلوا آلاف اللاجئين الأكراد من الأناضول، بالإضافة إلى السريان الكلدانيين، الذين هربوا من القمع في العراق في سنة 1933. ونتج عن ذلك، بحلول أواسط الثلاثينيات، انتقال نحو 150 ألف نسمة إلى منطقة الجزيرة من الأكراد، والشركس، والأرمن، والمسيحيين اليعاقبة والسريان، واليزيديين والتركمان. وقد اتحدت هذه المجموعات المتباينة كافة على كراهية حكومة دمشق. بل إنها أرسلت التماسات إلى عصبة الأمم تطالب فيها بالحكم الذاتي المحلي!

بعد سنتين من التحريض المناهض للحكومة، طرد جبل الدروز المسؤولين السوريين الذين أرسلوا لحكم المنطقة. بل إنه أعلن في سنة 1939 استقلاله. في منطقة العلويين، حيث لم يتمكن الحكّام السوريون قط من بسط سلطتهم خارج المدن الساحلية، اندلعت ثورة انفصالية في أوائل سنة 1939. وفي أيار/مايو، أعاد المفوض السامي الجديد، غابرييل بيو Gabriel Puaux، الذي حل محل داميان دو مارتيل في كانون الثاني/يناير 1939، نظام الحكم الذاتي الإقليمي للعلويين والدروز، وأعدّ العدة لتوسيعه إلى الجزيرة التي وضعها تحت الحكم العسكري الفرنسي.

وكان كل ذلك لم يكن كافياً، فاضطرت الحكومة الوطنية في ذلك الوقت إلى الدخول في صراع بشأن مسألة لواء الإسكندرونه في شمال غرب سوريا. فهذه المنطقة تضم أقلية تركية كبيرة، لذا منحت هذه وضعا خاصاً - بموجب اتفاق دولي - كانت تركيا طرفاً فيه. وأشار إحصاء رسمي للسكان في سنة 1933 إلى وجود 89,500

عربي، و70,800 تركي، و25,000 أرمني وكردي وشركسي من إجمالي 185,300 نسمة. ولكن بعد إبرام المعاهدة الفرنسية السورية، بدأت تركيا الادعاء أن الأتراك أصبحوا يشكلون الأكثرية، وطالبوا بمعاملة خاصة للواء. ولما كانت فرنسا تنوق إلى التوصل إلى اتفاق سياسي وعسكري مع أنقرة، فقد أعطت وزناً للادعاءات التركية التي لا أساس لها وذات الدافع السياسي. وفي اتفاق مع عصبة الأمم، اقترح نظام أساسي للواء في أيار/مايو 1937، يبقى بموجبه مرتبطاً بسوريا مع التمتع باستقلالية واسعة. لكن البرلمان السوري أحس بالخطر ورفض الاعتراف بهذا النظام الجديد المقترح.

في أثناء الاستعدادات للانتخابات التي ستجرى في اللواء، بدأ الأتراك المحليون بإثارة الاضطرابات، فعمدت السلطات التركية إلى القيام بتحركات عسكرية تهددية لمساندتهم. لكن على الرغم من هذا الضغط التركي الأخرق - وهو ما أبدت فرنسا وممثلوها المحليون سروراً في التسامح معه - فإن جداول الناحيين لم تشر إلى أي أكثرية تركية. لذا عُلّق تسجيل الناحيين عمداً ودخلت القوات التركية اللواء بمباركة فرنسا في 5 تموز/يوليو 1938. وعندئذ أظهرت الجداول فجأة أن الأتراك يشكلون 63 بالمئة من السكان!

سارعت فرنسا، بعدما تخلّت عن الأرض لصالح تركيا بطريقة غير قانونية، إلى توقيع معاهدة صداقة معها طالما سعت إليها في 4 تموز/يوليو 1938. وقد أدمج اللواء تدريجياً بتركيا، وأطلق عليه اسم محافظة هتاي Hatay التركية في حزيران/يونيو 1939. هرب نحو 20 ألف لاجئ عربي وأرمني ويوناني، إلى سوريا ولبنان، تاركين ممتلكاتهم وراءهم. وقد لاحظ المؤرخ الفرنسي أندريه ريموند André Raymond عند رواية هذه الأحداث أن إعطاء اللواء لتركيا "من الأعمال الفظيعة التي تنم على انعدام الأخلاق السياسية" لدى فرنسا. و"هو يتناقض مع رغبات أكثرية الشعب ومع الالتزامات التي أخذتها فرنسا على عاتقها تجاه سوريا باعتبارها السلطة المنتدبة"⁽¹⁾.

كان لهذه الأحداث تأثير عميق على سوريا، حيث حُملت الحكومة بطبيعة الحال مسؤولية الاغتيار السياسي والكارثة الإنسانية. فاتهمت، ظلماً إلى حدّ ما، أنها فشلت

في الدفاع عن الحقوق السورية⁽¹⁾. واتهم الدكتور الشهبندر، وهو من النقاد اللاذعين للحكومة الوطنية، جميل مردم بأنه سلم الإسكندرونه إلى الأتراك، وقدم العديد من التنازلات إلى الفرنسيين. فهُزم جميل مردم أمام الرأي العام الساخط في سوريا والحكومة الفرنسية الغادرة في باريس، فاستقال في 18 شباط/فبراير 1939. وانسحب الرئيس هاشم الأتاسي بدوره من الحياة العامة في 7 تموز/يوليو، احتجاجاً على عودة نظام الانتداب الفرنسي غير المبررة.

استغلّ المفوض السامي بيو ذريعة عدم وجود محاور سوري، فحلّ البرلمان، وعلق العمل بالدستور، وعيّن مجلس من المديرين العامين للحكم عن طريق المراسيم⁽²⁾. وزعم أن ثمة "واجباً إمبريالياً" يحتم الآن الحفاظ على النظام العام والوجود الفرنسي. فجأة، وجد معظم القادة الوطنيين أنفسهم في السجن أو المنفى ثانية. وكان عليهم تجرّع مرارة فقدان الإسكندرونه، وتقطيع أوصال سوريا ثانية، وإلقاء المعاهدة، التي بذلوا جهداً كبيراً في التفاوض عليها، في مزبلة التاريخ. لقد أعيدت عقارب الساعة إلى سنة 1920.

تبين أن كل الجهود الجبارة التي بذلها رياض الصلح وزملاؤه الوطنيون قد ذهبت أدراج الرياح، فسيطر عليهم الشعور بالفشل. ففي الثلاثينيات، لم يألُ رياض جهداً للتمهيد لتسوية مع فرنسا عن طريق المفاوضات تؤدي إلى استقلال سوريا. ورأى أن الحوار، لا النزاع المسلح، هو السياسة الوحيدة التي يمكن أن تقضي إلى نتائج. فسعى عبر الاتصالات المباشرة بالسياسيين والصحافة في فرنسا، إلى إقناع الرأي العام الفرنسي أن الانتداب - وطريقة تطبيقه الفجة - أضرّ بالمصالح الفرنسية في المنطقة بدلاً من أن يُعززها. وقد منحت زيارته المتكررة إلى باريس فهماً معمقاً لعالم السياسة الفرنسية المضطرب، حيث يتجادل اليسار واليمين، والمفكرون الأحرار ورجال الدين، والليبراليون والإمبرياليون، ويتصارعون بأساليب تذكر بالبرلمان العثماني القديم الذي عرفه والده في شبابه.

في الوقت نفسه، كان رياض الصلح رائداً في مفهوم التفاهم الإسلامي المسيحي في لبنان بغية تعبئة المسيحيين لصالح قضية الاستقلال. لقد تعلّم في طفولته أن يفتخر

(1) Mizrahi, 'La France et sa politique de mandat', pp. 64 ff

(2) Méchouy, "Le Pacte national", p. 469

بجهود جده، أحمد باشا، في مساعدة اللاجئين المسيحيين اليائسين وأنقاذهم من مذابح 1860، حيث كان متصرف عكا في ذلك الوقت. وشكّلت تلك الأعمال جزءاً أساسياً من تراث عائلة الصلح. ونتيجة ارتياد مدرسة لليسوعيين وتمضية المراحل الأولى من الشباب في بيئة إستانبول العالمية، تعلّم رياض الأساليب الغربية وعرف شيئاً عن المعتقدات المسيحية، ومخاوف الأقلية المسيحية في الشرق العربي. وكان رياض علمانياً في تفكيره، ولم تكن هناك أي إشارة إلى تعصّب إسلامي في تركيبته الشخصية، أو تعصّب في القومية العربية التي دعا الآن مواطنيه المسيحيين إلى الانضمام إليها.

لقد حقّق رياض الصلح في هذه المرحلة المبكرة قدراً من التعاون الإسلامي المسيحي في إطار لبناني. وهو تعاون يقوده بشكل أساسي تفاهم بين وجهاء الطوائف المختلفة، ويدعمه مالياً التعاون في المجتمع التجاري في بيروت بين المسلمين والمسيحيين الذين تزايدت مصالحهم التجارية المشتركة. من ناحية أخرى، أخذ يتكوّن بين المفكرين رابط من نوع آخر، بغضّ النظر عن خلفيتهم الطائفية، يقوم على التقدير المشترك لإحياء اللغة العربية في الصحافة، والتعليم العالي، والأدب والنشر. وقد جعل ذلك بيروت من أكثر المدن إثارة للاهتمام، والعاصمة الفكرية للعالم العربي من دون منافس لمدة طويلة.

بالنظر إلى هذه المواقف المتطورة - التي أسهم فيها رياض إسهاماً مهماً - لم يعد المسلمون يقدّمون أنفسهم كسكان المناطق الساحلية الذين يطالبون بالوحدة مع سوريا، بل أعضاء في الطائفة المسلمة في لبنان؛ وهي طائفة أخذت تطالب الآن بالحصول على الحقوق نفسها التي يتمتّع بها الموارنة، وبصوت مساوٍ في الشؤون العامة. وهكذا فإن رياض الصلح، كسياسي سني بارز، وقومي عربي ذي شهرة عالمية، ومسلم يدرك التركيبة العقلية للمسيحيين المحليين والعالم الغربي، كان في موقع جيّد للدعوة إلى التعايش المشترك بين التيارين القويين في حياة لبنان السياسية: القومية العربية والوطنية اللبنانية.

الفصل الثالث عشر

الهويات المتنافسة:

الصراع على عقول الناس

عندما ارتقى رياض الصلح إلى موقع قيادي في الساحتين، العربية واللبنانية في الثلاثينيات، كان سجله القومي الخالي من المثالب مصدراً مهماً من دون شك من مصادر قوته ومكانته اللتين اكتسبهما في نضاله ضدَّ العثمانيين، ثم ضد الانتدابين الفرنسي والبريطاني. وقد جعله موقفه المناهض للاستعمار، في العشرينيات والثلاثينيات، ومشاركته في المؤتمرين الإسلامي والقومي العربي اللذين عقدهما الحاج أمين الحسيني في القدس في سنة 1931، على اتصال مع كبار الناشطين والمفكرين المناهضين للاستعمار في المشرق والمغرب، بالإضافة إلى الهند وجنوب القوقاز والأرجيل الإندونيسي.

كان الصلح، في مشرق العالم العربي، عضواً في شبكة من الزعماء السياسيين الذين شغلوا مراكز السلطة في بيروت ودمشق والرياض وعمّان وبغداد والقاهرة، أو أصبحوا كذلك في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة. وقد عرفهم كلهم شخصياً، وربطته علاقات سياسية مستمرة بمعظمهم منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى. وكان أعضاء هذه الشبكة على العموم يتكلمون اللغة السياسية عينها، وينظرون إلى الساحات الإقليمية والدولية عبر عدسات متشابهة. كما أن رياض ناسب عائلة الجابري الحلبية، ما أدخله شبكة العلاقات الموسّعة لهذه العائلة المتميزة. وما من زعيم لبناني آخر تمتع بهذا المزيج الفريد من المزايا.

من مصادر قوة رياض الأخرى تضامنه مع المحرومين في أسفل الهرم الاجتماعي في لبنان. وفي حين كان يشعر أنه في بيئته عندما يخاطب الملوك والرؤساء والباشوات، فإنه كان يشعر بالراحة والرضا أكثر عند الاجتماع مع العمال والتجار والمزارعين. وذلك مما يُحسب له، ويتناقض مع سلوك كثير من الوجهاء المتعجرفين في تلك الفترة.

كان رياض يحب زيارة ناخبيه من الطبقة العاملة في منازلهم، ويحضر أفراحهم وأتراحهم، ويستقبلهم بحفاوة في منزله، ويؤمن وظائف لأولادهم، ويساعدهم في حل المشكلات الكثيرة التي يواجهونها، في بلد شديد التركيب الهرمي، من المحاكم إلى المدارس والمستشفيات والشرطة، بالإضافة إلى البيروقراطية الحكومية⁽¹⁾.

قرّب ذلك من الحركة النقابية الناشئة، والحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، الذي بدأ يكسب زخماً منذ سنة 1935 وما تلاها. أنشئ الحزب في بيروت في سنة 1930 وحقق بعض النجاح في تنظيم الإضرابات العمالية ودعم المظاهرات السياسية. ومع أن غالبية أعضائه المؤسسين كانوا من الأرمن، فقد حلّ محلهم، بعد بعض التوتر والعداء، - خالد بكداش، وهو كردي (متبحر إلى حدّ ما) درس في الاتحاد السوفياتي، وعدد من العرب، لا سيما: فرج الله الحلّو، ومصطفى العريس، وفؤاد قازان، ونقولا الشاوي، وأنطون ثابت. وقد ألهمت هذه المجموعة من الرجال المتفانين إنشاء الرابطة المناهضة للفاشية في سنة 1936، وأصدرت صحيفة صوت الشعب في سنة 1937 واستمرّ صدورها حتى اندلاع الحرب، بالإضافة إلى سيل من المنشورات والبيانات الرسمية، والترجمات للنصوص الماركسية. كما افتتحت فروع للحزب في جميع المدن الرئيسية. ومع أن الرأي السائد في الحزب كان منقسماً في البداية بشأن التعاون مع القوميين العرب على غرار رياض الصلح، فقد اتخذ الحزب قراراً سياسياً واضحاً بدعمه في سنة 1936⁽²⁾.

في تلك الفترة، كان رياض أحد الوجهاء القلائل في لبنان الذين أدركوا أن التأكيد على حقوق الطبقة العاملة - لا سيما الإضرابات ضد الشركات الفرنسية الامتيازية - جزء لا يتجزأ من الصراع ضد الاستعمار. ولا شك في أن علاقاته الوثيقة بالجبهة الشعبية في فرنسا، ومراقبته إصلاحات ليون بلوم لمصلحة الطبقة العاملة، ساعدتا في صياغة فهمه السياسي للمشكلات الاجتماعية وتعاطفه الطبيعي مع الفقراء.

(1) رسالة من الأستاذ وليد الخالدي، 3 شباط/فبراير 2007، وأنا أدين له بالفقرات الثلاث الأولى من هذا الفصل.

(2) Stephen Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon Under The French Mandate*, (2) Oxford 1958, p. 227.

عانى لبنان في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية مباشرة اضطراباً اجتماعياً كبيراً ناتجاً عن تصاعد تكاليف المعيشة، وتراجع الوضع الاقتصادي. وغالباً ما أحدثت الإضرابات شللاً في البلد. وقد دفع موقف رياض الداعم لهذه الإضرابات الفرنسيين لنفيه إلى بلدة القامشلي في أقصى شمال شرق سوريا لبضعة شهور في سنة 1935. ومن المفارقة أن تلك البلدة كانت متعاطفة مع الشيوعية لأنها تأوي فلاحين منظمين بعض الشيء، بالإضافة إلى العديد من الأقليات العرقية والدينية المسيسة. لكن بما أن هذه الأقليات ليست عربية، فإنها لم تُجذب إلى القومية العربية التي استقطبت العديد من السوريين في تلك الفترة.

فشل رياض في الوصول إلى البرلمان

ترشح رياض للانتخابات النيابية عن بيروت، في لائحة مع قيادي سني آخر هو عمر يّهم، في تشرين الأول/أكتوبر 1937، وحصل على دعم من الشيوعيين وسليم علي سلام والمجلس الإسلامي. وواجههما ائتلاف موالٍ لإدّه بقيادة عبد الله اليافي. أظهرت هاتان اللائحتان المتنافستان الانقسام السني في المناطق الساحلية اللبنانية. فهناك المناوئون المتشدّدون للانتداب، مثل عائلي الصلح وسلام في بيروت، وكرامي في طرابلس من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإن عدداً من الشخصيات السنية وقفت إلى جانب الرئيس إدّه المؤيّد لفرنسا، مثل عبد الله اليافي نفسه. ثم هناك محبي الدين النصولي، وهو من عائلة سنية معروفة في بيروت بدأ في أوائل سنة 1935 نشر صحيفة وطنية معتدلة باسم بيروت⁽¹⁾؛ ورئيس الوزراء خير الدين الأحذب، صديق رياض السابق وزميله في الصحافة، الذي أصبح الآن عني خلاف سياسي معه.

كانت فرنسا - والسلطات اللبنانية المرتبطة بها أشد الارتباط - عازمة على إسقاط لائحة الصلح - يّهم. ومع اتساع الفجوة بين الإديين والعروبيين، حاول الدستوريون من أنصار بشارة الخوري سبر إمكانية التعاون الانتخابي مع العروبيين. بيد أن المفوض السامي الفرنسي دو مارتيل حذر بشارة الخوري، بناء على تعليمات قادمة من باريس، ألا يتعاون معهم مهما كانت الظروف إذ لا بد من إبعاد العروبيين

عن البرلمان. وبدلاً من ذلك، حثّ المفوض السامي الإديين والدستوريين على الدخول في تحالف انتخابي ضد رياض الصلح. ولتحقيق هذا الهدف، أصدر دو مارثيل مرسوماً في 6 تشرين الأول/أكتوبر 1937، يمدّد فيه ولاية إده الرئاسية إلى ست سنوات، ويرفع عدد النواب إلى 63 نائباً - يُنتخب 42 منهم بالاقتراع المباشر، ويعيّن الرئيس، أو بالأحرى الفرنسيون أنفسهم، الباقين. وقد بلغت حملة السلطات على العروبيين ذروتها عندما عرض إده والأحذب التعاون على عائلي سلام وبيهم مقابل إسقاط رياض الصلح من اللائحة لصالح مرشح سهل الانقياد. فرفضت العائلتان الوطنيتان بازدياء هذا العرض الذي أوحى به فرنسا.

للتأكد بشكل قاطع من أن رياض لا يملك أي فرصة للفوز، لجأ الفرنسيون إلى التلاعب بالانتخابات. فقدّمت الوعود إلى الصحفيين البارزين بمنحهم مقاعد في البرلمان ومناصب إدارية مهمة، إذا وافقوا على مهاجمة العروبيين في كتاباتهم. ونُسخت أوراق الاقتراع، وسُجن نحو 270 مندوباً انتخابياً للعروبيين، وضايقت الشرطة الآخرين - بل حتى عاملتهم بخشونة - عند أبواب مراكز الاقتراع. نتيجة لكل هذا الغش والخداع، أصبح من الواضح أن محاولة رياض - وكذلك الشيوعيين - ستبوء بالفشل. وهكذا وجد نفسه مجبراً على الانسحاب.

حصلت اللائحة الموالية لفرنسا في بيروت على 22.671 صوتاً، فيما نال العروبيون 1608 أصوات فقط. وقد رحّب الوطنيون اللبنانيون الضيقو الأفق، والصحافة المؤيدة لفرنسا بالنتيجة باعتبارها هزيمة ساحقة للقومية العربية وانتصاراً للقضية اللبنانية. فتباهت صحيفة "لوريان" اليومية الناطقة باللغة الفرنسية التي يملكها جورج نقاش وغابرييل حجاز، بأن رياض هُزم في عقر داره في بيروت. في المقابل، هاجمت جريدة النهار العربية البارزة - أسسها جبران التويني الأرثوذكسي الأكثر انفتاحاً بكثير - الرئيس إده ورئيس الوزراء الأحذب بسبب "نزعتهما الفينيقية". وذلك مصطلح ساخر اختزالي لوصف جميع من سعوا إلى إدارة ظهورهم للعالم العربي لاتباع جدول أعمال مذهبي ضيق، يقوم على اختلاق الروايات الخرافية عن فينيقيا والفينيقيين.

عُقدت الجلسة الأولى للبرلمان الجديد في 29 تشرين الأول/أكتوبر 1937، حيث انتُخب بيار طراد رئيساً لمجلس النواب. وفي اليوم التالي، قدّم رئيس الوزراء خير الدين

الأحذب استقالته إلى رئيس الجمهورية. لكن إده رفض قبولها، وطلب منه تشكيل حكومة أخرى، وهو ما قام به بالفعل، وحصل على أكثرية كبيرة في البرلمان⁽¹⁾.

واجه رياض العديد من الصعاب بسبب العداء الفرنسي الشديد وتركيبه سلطة إده والأحذب المدعومة من فرنسا. ففي السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، وقعت السياسة الفرنسية في قبضة ائتلاف محافظ للغاية من الضباط العسكريين، والإداريين الاستعماريين، ورجال الدين، وجميعهم يحبذون استمرار الوجود الفرنسي في المشرق. وظلّوا يعتبرون لبنان الكبير جزيرة مسيحية مؤالية في بحر من المسلمين المعادين، وقاعدة للقوة الفرنسية في شرق المتوسط في مواجهة المنافسين الطموحين مثل إيطاليا.

لم تدرك السلطات الفرنسية في بيروت أن قسماً من المؤسسة السنية في لبنان أصبح الآن جاهزاً لقبول حدود لبنان التي أقيمت في سنة 1920. وأن رجالاً مثل رياض الصلح ابتعدوا في الثلاثينيات عن الرفض التام لحدود لبنان الموسعة إلى نوع من الرضوخ لها، بل حتى الاندماج في الدولة اللبنانية الجديدة. ففي النهاية، شرعت القيادات الوطنية السورية بالتفاوض على المعاهدة في باريس في سنة 1936 على أساس هذا الشعور السياسي المتطور، يحدوها أمل كبير في التمكن من تحقيق تسوية مقبولة مع الفرنسيين⁽²⁾.

غير أن الفرنسيين واصلوا ارتياحهم من حصول أي تغيير حقيقي في موقف العربيين اللبنانيين. فقد شكّ المفوض السامي داميان دو مارتيل في قبول رياض حدود لبنان الكبير واعتبره موقفاً انتهازياً وغير صادق، كما ألح في تعليق مزهوّ بالانتصار بعد الانتخابات: "النتيجة الأبرز هي هزيمة كل نزعة إسلامية وحدوية، على الرغم من أن رياض الصلح حاول حشد الأصوات... بالادعاء أنه يناصر الدولة اللبنانية المشبعة بالروح العربية"⁽³⁾. فقد بقيت القومية العربية بالنسبة إلى الفرنسيين العدو الذي يجب التصدي له، وهي نظرة شجّعهم عليها أتباعهم الموارنة المحليون. وقد أدى مثل هذا التعتّن إلى رصّ خطوط القتال بين العربيين والوطنيين اللبنانيين، وبين المسلمين والمسيحيين على نحو ينذر بالسوء.

(1) المصدر نفسه، ص 79.

(2) Méouchy, 'Le Pacte national', p. 465.

(3) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 80; Consul General Havard to Foreign Office, Beirut, 2 November 1937 (FO 371/20849).

كانت تلك مرحلة من شبه الفوضى السياسية في الشؤون اللبنانية. فعلى الرغم من أن الوطني اللبناني الماروني إميل إده انتُخب رئيساً للجمهورية في كانون الثاني/ديسمبر 1936، فإن نزاعه مع منافسه الماروني، بشارة الخوري الأكثر تسامحاً مع القومية العربية، تواصل من دون هوادة. أدى ذلك إلى انقسام الطبقة السياسية من أعلاها إلى أسفلها. وأصبحت المفاوضات التي أجرتها سوريا ولبنان للتوصل إلى معاهدة مع فرنسا مصدراً للخلاف المرير. فقد خشى المسلمون اللبنانيون - لا سيما في مدن كطرابلس، حيث الشعور الديني السني قوي جداً - من أن تُحبط آمالهم في الاتحاد مع سوريا إلى الأبد، ما دفعهم للنزول إلى الشارع في مظاهرات عنيفة.

في غضون ذلك، بعدما ماطلت فرنسا في التصديق على معاهدة 1936، أخذ الاستقلال الذي عملت الكتلة الوطنية في سوريا جاهدةً وذاقت الأمرين لتحقيقه، يتحول بسرعة إلى سراب. فقد أعيد تأكيد الاستعمار الفرنسي بوقاحة كما لو أنه لم يحدث شيء لتركيز عقول الفرنسيين خلال السبعة عشر عاماً التي مضت على الانتداب، ما جعل الوطنيين العرب يشعرون بالإحباط العميق والغضب البالغ.

في الوقت نفسه، كان الرأي العام في لبنان، وجميع أنحاء العالم العربي، غاضباً بسبب النضال غير المتكافئ الذي يخوضه الفلسطينيون ضد البريطانيين والصهاينة. وأصبح دعم الثورة الفلسطينية التي اندلعت في سنة 1936 واستمرت في نوبات متقطعة حتى سنة 1939 - وأخذتها القوات البريطانية بقسوة شديدة - من أهم السمات المميزة للعروبة. في هذه الأجواء المشحونة بالغضب، اصطدم رئيس الوزراء الأحذب بالرأي العام القومي لأنه لم يُندد بخطة بيل للتقسيم، ووافق على مشاركة لبنان في المعرض الصهيوني في سنة 1936 في تل أبيب، وهو المعرض الذي قاطعته كل الدول العربية الأخرى. وأتهم بأن لديه مصالح مالية مع بعض الشركات الصهيونية؛ وهو اتهام سعى لدحضه بطريقة خرقاء إلى حد ما، بتذكير منتقديه أنه منح ذات يوم مفتي القدس السابق، الحاج أمين الحسيني، ملاذاً في لبنان⁽¹⁾.

كان لهذه الصراعات والإحباطات المحلية تأثير مغلٍ باستقرار المجتمع المشرقي. ولعل التأثير الأكثر إثارة لاضطراب الرأي العام المحلي هو ظهور الفاشية في أوروبا في

نهاية الثلاثينيات. فنظراً إلى أن النضال الطويل ضد الانتدابات لم يحقق الكثير، والإحساس بخيانة بريطانيا وفرنسا وغدرهما، أخذ الوطنيون العرب يأملون في أن يؤدي تنامي القوة الألمانية والإيطالية في النهاية إلى كسر شوكة بريطانيا وفرنسا في المشرق. سرعان ما برزت حركات شبابية صاحبة، ومنظمات شبه عسكرية، وأحزاب أيديولوجية تحاكي مثيلاتها الأوروبية الفاشية، وذلك للتنفيس عن الإحباط من العجز السياسي للقادة. ولم تعد السياسة في لبنان في أواخر الثلاثينيات حكراً على الوجهاء فقط، كما كانت عليه الحال منذ مدة طويلة. فظهر فاعلون جدد على الساحة، ما زاد من حدة الانقسام بين الهويات القومية المتنازعة، ونقل المنافسة المتزايدة المارّة إلى الشارع.

السجال حول هوية لبنان

لم يكن موضوع الانتخابات في سنة 1937 والقضايا الاقتصادية والاجتماعية في المقام الأول، بل قام على السجال بشأن هوية لبنان الوطنية. هل لبنان دولة عربية، وجزء لا يتجزأ من العالم العربي الأوسع؟ أم أنه ذو هوية منفصلة غير عربية، شكلتها علاقاته المسيحية والغربية، وانفتاحه منذ وقت طويل على العالم المتوسطي، وتاريخه السياسي من الاستقلال الذاتي داخل الإمبراطورية العثمانية، بل حتى أصوله التاريخية القديمة؟ نشبت المعركة بين معسكرين متعارضين في الصحافة والشارع وصالونات النخبة. ولم يكن ذلك شأنًا يخص النخبة من دون عواقب تذكر؛ بل قضية حياة أو موت، تؤثر في جوهر وجوده الكثيرين، وتمهد للحرب الأهلية التي احتدمت بمرارة بعد أربعين عاماً.

لا تزال قضية الهوية الوطنية، التي ابتلي لبنان منذ إنشائه كدولة حديثة في سنة 1920، عالقة حتى اليوم إلى حد كبير. بل إنها تصبح في بعض الأحيان أكثر حدة وإثارة للانقسام من أي وقت مضى بسبب التدخل السياسي والعسكري لقوى خارجية متخصصة، تجتهد كل منها قوات محلية وكيّلة. وغالباً ما تستغل الانقسامات التاريخية وترسخ ثقافة العنف والقتل.

لاحظ ألبرت حوراني في إحدى مقالاته أن "كل الدول مصطنعة بالمعنى الحرفي، أي أنها تشكلت عبر عمليات تاريخية محددة، وأفعال بشرية داخل بيئة جغرافية محددة

خلال فترة من الزمن⁽¹⁾. ليس هناك في الواقع شيء ثابت بشأن الهويات الوطنية. فالأمم ابتكارات تطويرية معقدة، تنتج عن الاضطرابات الداخلية والتدخلات الخارجية، وعن الرسم العشوائي للحدود في الغالب، والحوادث التاريخية أو الجغرافية، والأساطير، والطريقة التي يفكر بها الناس ويشعرون نحو أنفسهم وتاريخهم، والعديد من العوامل الأخرى التي لا تقلّ الصيغ المجردة للمفكرين أهمية عنها. ففي لبنان، كما في غيره من البلدان، يتحمل المنظّرون الإيديولوجيون الأشرار "للهوية الوطنية" جزءاً كبيراً من المسؤولية.

عانى القومية العربية التي نادى بها رياض الصلح مرارة الخيبة نتيجة عدة عقود من الهزائم الأليمة. فعلى الرغم من أن المسلمين السنة مثله هم ورثة الأيوبيين والمماليك، وورثة 400 سنة من الحكم العثماني الذي امتدّ منذ سنة 1516، والثورة العربية الكبرى في سنة 1916، فقد استبعدهم الموارنة المدعومون من فرنسا عن الحياة السياسية اللبنانية في فترة ما بين الحربين العالميتين بأكملها. وبعد أن كانوا أكثرية، تقلّصوا إلى أقلية داخل لبنان الكبير الذي أوجده الفرنسيون. مع ذلك، على الرغم من هذه المحنة، ظلّت القومية العربية الإيديولوجية الوحيدة التي آمن بها رياض الصلح بحق. كانت إرثه الروحي والفكري. وتطلّع إلى تغيير مسار بلده، أي استمالة لبنان نحو قومية عربية لا طائفية، يعيش فيها المسيحيون والمسلمون في تآلف ووثام. وظلّ مقتنعاً طوال حياته أن على كل العرب، بمن فيهم اللبنانيون من جميع الطوائف، المشاركة في هدف تحرير العالم العربي. فهم جميعاً رفاق سلاح أيّاً تكن خلفياتهم، وعلى كل فرد أن يكون ملتزماً ومعنياً. فقد رأى رياض بأمّ عينيه ما حققه الصهاينة بفضل مثل هذا الالتزام والعمل الدؤوب.

لقد كان التمسك بموقفه من دون محيد يتطلّب قدراً كبيراً من الثقة بالنفس والعزيمة، في ضوء الأحداث المحيطة التي شهدناها. فقد سُجن مع أبيه في سجن عسكري تركي كئيب في عاليه، ونجوا من الإعدام بصعوبة. ولقي العديد من الوطنيين العرب الذين عرفاهم وأحباهم حتفهم بطريقة مروعة على أعواد المشانق في الساحات العامة

Albert Hourani, *Political Society in Lebanon: a Historical Introduction*, Oxford (1) 1986, p. 2

في دمشق وبيروت في سنتي 1915 و1916. وشهد رياض صراع والده، والعديد من المسؤولين المخلصين الآخرين في الإمبراطورية، وهم في منتصف العمر مع العضلات التي نستجت عن الانتقال المؤلم من النزعة العثمانية إلى العروبة، وانحياز ثرواتهم ومكاناتهم الرفيعة وامتيازاتهم بالهزيم الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى. وعندما بدا أن الحلم بالاستقلال والوحدة العربية أصبح في متناول اليد، اقتسمت بريطانيا وفرنسا السوالات العربية بما يتناسب مع مصالحهما الاستعمارية، وتلا ذلك فرض الانتدابات الاستعمارية قسراً. وتتابعت الكوارث الأخرى كوابل لا ينقطع: قمع الثورة السورية الكبرى 1925 - 1926؛ والمدّ الاستيطاني اليهودي المدعوم من بريطانيا، وقمع الثورة الفلسطينية 1936 - 1939؛ ورفض فرنسا التصديق على معاهدي 1936 وإعادة إحياء الانتداب البغيض.

لكن هذه الأحداث الكثيرة المتتالية أكّدت اعتقاد رياض الصلح المتفائل دائماً أن الاستقلال قدر الشعب العربي في نهاية المطاف، وأنه هو نفسه سيؤدي دوراً مهماً في تحقيقه.

الارتباط بجنوب لبنان

ثمة بعد آخر في قومية رياض الصلح. فعلى الرغم من أنه مسلم سنيّ، فإن جذوره تعود إلى جنوب لبنان، الذي كان ولا يزال منطقة مسلمة ذات غالبية شيعية. ولم تكن مصادفة أن جده، مالك الأراضي، أحمد باشا أصرّ، في بادرة نحو أصدقائه وأتباعه الشيعة، على أن يطلق على رياض اسم "علي" - تيمناً بعليّ بن أبي طالب (598 - 661)، ابن عم النبي محمد ﷺ وصهره، ورابع الخلفاء الراشدين. وغالباً ما وقع رياض باسم رياض علي في شبابه، على الرغم من أنه أغفل الاسم الثاني عندما أصبح شخصية عامة.

جنوب لبنان منطقة من الجبال المنخفضة الشديدة الانحدار التي تفصل كلاً منها عن الآخر وديان وممرات ضيقة عميقة، وقد أمنت هذه الأراضي الوعرة الحماية للأقليات الدينية، كالشيعة، طوال قرون. وبما أنهم تحدوا العقائد الأساسية للطائفة السنية، فقد اعتبرهم الأكثرية السنية تهديداً للنظام الديني والسياسي القائم في دمشق وبغداد. نتيجة لذلك، واجه الشيعة القمع والاضطهاد.

اتخذ الشيعة في لبنان موقفاً دفاعياً طوال تاريخهم، مع بعض الاستثناءات النادرة، حيث انعزلوا في ملحنتهم الجبلية في "جبل عامل" في أقصى الجنوب، وقد أُطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى بني عاملة، وهي قبيلة عربية ذات أصول يمانية⁽¹⁾. لم يتعرض الشيعة للاضطهاد على يد المماليك فقط - وهم العسكريون الأرقاء سابقاً الذين استولوا على السلطة في مصر وسوريا من منتصف القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن السادس عشر - أو الباشاوات العثمانيين في القرن السادس عشر وما بعده، بل على يد الخصوم المحليين أيضاً على غرار الموارنة والدروز. فقد شنت هاتان الأقليتان بعد استقرارهما في المنطقة الوسطى من جبل لبنان، غارات متكررة خارجه. وينتمي الموارنة إلى حركة مسيحية منشقة، انتقلت منذ القرن السادس وما يليه إلى لبنان من أنطاكية. وقد استفادوا، بعد عدة قرون، من موجات الاحتلال الأوروبي التي أتت على شكل حملات صليبية دامية. أما الدروز، فهم يتبعون مذهباً دينياً آخر، أسسه في القاهرة أحد تابعي الخليفة الفاطمي السادس، الحاكم بأمر الله، وظهر على الساحة اللبنانية في القرن التاسع. وخلال القرون الأربعة للحكم العثماني، حققت هاتان الطائفتان المتنافستان، الموارنة والدروز، مركزاً مسيطراً على جبل لبنان، بل شكلاً من أشكال الحكم الذاتي في بعض الأحيان، ما جعل الشيعة في الجنوب يتراجعون إلى موقع هامشي يغلب عليه الفقر وانعدام الأمن. وهكذا أصبح الشيعة "مواطني لبنان المنسيين"⁽²⁾.

غير أن الشيعة لم يُحرَموا من الدعم الخارجي تماماً. فحين جعل الشاه إسماعيل التشيع المذهب الرسمي لبلاد فارس في بداية القرن السادس عشر، استقدم علماء الشيعة من العراق والبحرين وجنوب لبنان. وهكذا نشأت روابط ازدادت وثاقة بمرور السنين، وأعيد تنشيطها بقوة في الوقت الحاضر. على سبيل المثال، سُمي مسجد ومدرسة الشيخ لطف الله العظيمان في أصفهان نسبة إلى مهاجر من قرية في جنوب لبنان. وبحسب تعبير ألبرت حوراني، "ساعدت الصلة بين الشيعة وإيران،

(1) Séguin, *Le Liban Sud: espace périphérique, espace convoité*, Paris, 1989, pp. 29-

46؛ انظر أيضاً M. Jaber, *Pouvoir et société au Jabal Amel de 1749 à 1920 dans la conscience des chroniques chiïtes et dans un essai d'interprétation*, Paris, 1978;

.Chibli Mallat, *Shi'i Thought from the South of Lebanon*, Oxford, 1988

.Tamara Chalabi, *The Shi'is of Jabal Amel*, p. 2 (2)

على غرار الصلة بين الموارنة والبابوية، في تحديد الفضاء الذي يعيش ويتحرك فيه لبنان⁽¹⁾.

تركزت التغيرات الجيوسياسية التي طرأت على جنوب لبنان أثراً بالغاً في حظوظ عائلة الصلح. فقبل إنشاء طريق دمشق - بيروت في ستينيات القرن التاسع عشر، كانت سلسلتا جبال لبنان الشرقية والغربية تشكلان حاجزاً هائلاً بين الأراضي السورية الداخلية والبحر المتوسط. ولم يكن من السهل تسلق القمم أو عبور الممرات الجبلية. وبالتالي، كانت التجارة بين دمشق والأراضي الداخلية السورية والساحل تلتفت حول السلاسل الجبلية من الجنوب لبلوغ صيدا عبر جزين أو النبطية. فتمت صيدا، باعتبارها المحطة الطرفية الوحيدة للطريق "السهل" الوحيد بين دمشق والبحر المتوسط، لتصبح مركزاً تجارياً مزدهراً والمرفأ المتوسطي الأساسي لسوريا. وبلغت أوج نجاحها في العقود الأولى من القرن السابع عشر، في عهد الأمير فخر الدين الدُرزي. فقد جعل من صيدا عاصمته السياسية والتجارية، ما فتح جبل لبنان على العالم المتوسطي الغربي. لذا فإن الأهمية التجارية لصيدا نقلت، لبعض الوقت، مركز الثقل الجغرافي السياسي للمنطقة باتجاه الجنوب.

بسط فخر الدين، من إقطاعته في منطقة الشوف في جبل لبنان، نفوذه شرقاً باتجاه دمشق وجنوباً باتجاه صفد في فلسطين. ولتأمين طريق دمشق - صيدا، أسكن عائلات من الفلاحين الشيعة والموارنة من أقاصي جنوب جبل لبنان على طول هذا الطريق. ولا تزال قرى مسيحية كثيرة في المنطقة شاهدة حتى اليوم على هذا الاستقرار القديم. وقد ازدهرت صيدا كثيراً في عهده بحيث افتتحت فيها قنصلية لفلورنسا في سنة 1630.

لكن امتداد نفوذه بدأ يُقلق الباب العالي. فوجد فخر الدين أن من الحكمة اللجوء مدة من الوقت عند أصدقائه آل ميديتشي Medici في فلورنسا (وقد أعجب بالمباني والحدائق التي شاهدها هناك فحاول أن ينسج على منوالها في وطنه عند عودته). غير أن السلطان العثماني لم يتركه وشأنه؛ إذ غضب من انتعاش ثروات الأمير، فأمر

(1) Albert Hourani, "From Jabal أيضاً؛ انظر أيضاً Hourani, *Political Society in Lebanon*, p. 6
'Amil to Persia," in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*,
University of London, 49, 1986

باعتقاله في سنة 1635 وإحضاره إلى إستانبول حيث أعدم شنقاً بعد سجنه لمدة طويلة. بعد عدة سنوات من وفاته، أنشأ الباب العالي ولاية عثمانية جديدة جاعلاً صيدا عاصمة لها، وضمت وسط لبنان وشمال فلسطين وجعل على رأسها ولاية سوريين تعينهم إستانبول مباشرة. هكذا، ارتدّ جنوب لبنان تدريجياً إلى منطقة هامشية، تقع في منتصف الطريق بين مصر وتركيا، خاضعة دائماً لجبل لبنان في الشمال، أو الباشاوات العثمانيين في سوريا - فلسطين في الجنوب.

تلقي ازدهار صيدا الضربة القاضية عند شقّ طريق بيروت - دمشق، الذي سلب صيدا معظم الحركة التجارية بين الأراضي السورية الداخلية والساحل. وبات هذا التحول في نمط التجارة أكثر وضوحاً عند إنشاء سكة الحديد في سنة 1895، ما نقل مركز الثقل في لبنان على نحو حاسم نحو الشمال. وتركز النشاط التجاري منذ ذلك الوقت في بيروت وجبل لبنان وطائفته المسيحية. حلّت بيروت محل صيدا كعاصمة تجارية لسوريا، وهو تفوّق تمكنت إلى حدّ كبير من الحفاظ عليه خلافاً للاحتمالات المذهلة. وتراجعت مكانة صيدا لتصبح "بلدة صغيرة"، بعدما خسرت الدور السياسي والاقتصادي الذي أدته حين كانت لا تزال المحطة الطرفية للطريق الطبيعي من الأراضي الداخلية إلى البحر المتوسط⁽¹⁾.

لا شك في أن هذه التطوّرات هي التي دفعت جدّ رياض، أحمد باشا، وعم والده عبد الرحيم إلى الانتقال من صيدا إلى بيروت في أواسط القرن التاسع عشر. غير أنهما لم يقطعا صلاتهما بالجنوب، الذي استمر في تأدية دور كبير في حياتهما. ففي النهاية، بقي بيتهما هناك، وممتلكاتهما وأصدقائهما وبقية أفراد عائلتهما.

عند عودة عائلة الصلح إلى لبنان من إستانبول في سنة 1913، أمضى رضا ورياض الصلح وقتاً طويلاً في جنوب لبنان في إجراء مباحثات مع عبد الكريم الخليل والوجهاء المحليين الآخرين هناك. والخليل شاب قومي، يبدو أنه كان الملهم الرئيسي "لحركة ثورية عربية" غامضة في صيدا. وقد اعتقلت السلطات التركية هؤلاء القوميين وسجنتهم في عاليه. نجح رضا ورياض الصلح من الإعدام، بينما شُنق الخليل. وعندما هُزم الأتراك وأنشأ الأمير فيصل حكمه في دمشق، أصبح رضا الصلح وزيراً للداخلية،

بينما أرسل رياض، الذي كان يبلغ من العمر في ذلك الوقت 24 عاماً، لإدارة صيدا بالنيابة عن الأمير فيصل.

استنكرت فرنسا الروابط بين سكان جنوب لبنان وحكومة دمشق، وبذلت ما في وسعها لقطعها. أغضب ذلك الشيعة فردّوا بعنف، إذ هاجمت عصابات مسلّحة القرى المسيحية، وناوشت القوات الفرنسية. أمّد الفرنسيون بعد ذلك المسيحيين بالأسلحة، ما أدى إلى وقوع اشتباكات بين القرى الشيعية والمسيحية في أيار/مايو 1920. وفي النهاية فصل الفرنسيون بين المتحاربين وأرسلوا قوات لاحتلال قرى جنوب لبنان و"تهدتها".

على غرار السكان السنّة في طرابلس وغيرها من المدن الساحلية، عارض سكان الجنوب الشيعة بشدة الاندماج في "لبنان الكبير" الذي أنشأته فرنسا. فبعدما عانوا من سطوة الحكام العثمانيين السنّة، واستُثوا من الازدهار الاقتصادي في بيروت، عارضوا إلحاقهم بمجبل لبنان، مخافة أن يؤدي ذلك إلى خضوعهم لهيمنة الموارنة والدروز. فلجأ بعضهم إلى السلاح، لكن سرعان ما أخضعهم الفرنسيون. وأمل كثير منهم أن تسمح لهم دولة قوية وكبيرة ذات نزعة قومية بالحفاظ على هويتهم الطائفية والتخلص من الدونية السياسية والإهمال الاقتصادي اللذين عانوا منهما في الماضي. لكنّ ذلك لم يتحقّق. مع ذلك، انتُخب رياض الصلح في النهاية نائباً في البرلمان في سنة 1943 عن جنوب لبنان، وكانت تلك خطوته الأولى نحو رئاسة الحكومة والنضال لتحقيق استقلال لبنان.

صعود الوطنية اللبنانية

تُناقض الوطنية اللبنانية التي كان على رياض أن يقنع بها كل ما آمن به وناضل من أجله. فهي تعارض تماماً مع الوحدة السورية والقومية العربية، وتخاف أن يتلعبها المسلمون، وتتعلّق أشدّ التعلّق بفرنسا واللغة الفرنسية، وتطلّع إلى باريس لحمايتها من الأراضي الداخلية العربية. كانت تنادي بالدفاع عن الكيان اللبناني - أي "لبنان الكبير" بحدوده التي وسّعها الفرنسيون - وهو الكيان نفسه الذي يأمل الوطنيون العرب بتفكيكه. والأهم من ذلك أنها مسيحية أساساً، وتعتبر لبنان "وطناً قومياً" للمسيحيين اللبنانيين من جميع الطوائف، بقيادة الموارنة.

لعبت الكنيسة المارونية، على مدى عدة قرون، دوراً حاسماً في تشكيل هوية لبنان. فقد نشأت الروابط بينها وبين أوروبا المسيحية في زمن الحملات الصليبية، حين وجدت أقلية من مسيحيي سوريا من يشبهها في عدد من الجيوب الصليبية التي أُقيمت في أواخر القرن الحادي عشر، وأهمها مملكة القدس، ومقاطعة طرابلس. وفي بداية القرن الثاني عشر، اتصلت الكنيسة المارونية بالبابوية وقبلت المذهب الكاثوليكي. أما بالنسبة إلى الصلة مع فرنسا، فقد بدأت منذ سنة 1553، عندما منح العثمانيون باريس حق بسط الحماية الفرنسية لتشمل المسيحيين اللاتين والمؤسسات الكاثوليكية داخل الإمبراطورية، وتوسّع هذا الترتيب بعد ذلك بشكل غير رسمي ليشمل المسيحيين المحليين أيضاً. وأصبحت السياسة الفرنسية في المشرق تُعني بحماية الكنيسة المارونية منذ عهد لويس الرابع عشر.

غير أن فكرة "لبنان الكبير" لم تظهر وترسّخ إلا في بداية القرن العشرين. ففي سنة 1908، نشر م. جوبلان^(*) M. Jouplain مجلداً كبيراً في باريس بعنوان *La question du Liban: étude d'histoire diplomatique et de droit international* دعا فيه إلى إنشاء "لبنان الحقبة العظمى" الذي أطلق عليه تحديداً اسم "لبنان الكبير" داخل ما دعاه حدوده الطبيعية والتاريخية. وبعد أحد عشر عاماً، في آب/أغسطس 1919 تحديداً، نشرت "المجلة الفينيقية" *La Revue Phénicienne* في بيروت مقالة بعنوان "القضية اللبنانية" *La Question du Liban* التي اعترفت فيها كاتبها بولس نجيم أنه هو من كتب الكتاب المذكور أعلاه. لكن ما هي تلك "الحدود الطبيعية والتاريخية" التي أشار إليها نجيم؟ وكيف قام بتحديدوها؟

يُعتقد أن الإشارة هي لحدود الأراضي التي اقتطعها فخر الدين أولاً، ثم بشير الثاني، وأدخلت لاحقاً في خرائط الأركان العسكرية للقوة الفرنسية التي أرسلت إلى سوريا في أعقاب مجازر 1860. وكما رأينا سابقاً، كان الأمير فخر الدين المعني الحاكم الدرزي للشوف، وتمكّن من بسط سلطته، في النصف الأول من القرن السابع عشر على قسم كبير مما أصبح لاحقاً لبنان وسوريا. أما بشير الثاني (1788-1840) فهو

(*) صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب عن الأهلية للنشر والتوزيع والطباعة في بيروت في سنة 1995 بعنوان القضية اللبنانية - المترجم.

الأمير الكبير في الأسرة الشهابية، وقد استطاع بدوره، بسط حكمه على كل جبل لبنان من الشمال حتى الجنوب في أوائل القرن التاسع عشر.

يعتبر الوطنيون اللبنانيون هذين الحاكمين مؤسسي الأمة اللبنانية. وكان نجيم مفتوناً، بشكل خاص، بفخر الدين الذي، حسبما كتب، "صنع دولة قوية وجيدة التنظيم يوجد لبنان في مركزها... فلم تعد مقاطعة تركية، بل دولة لها حياة خاصة بها، تشبه البلدان المتحضرة في أوروبا الغربية أكثر مما تشبه ولاية تابعة للباب العالي. وقد شهدت بقيادة مستبد مستنير روعة النهضة الإيطالية".

ثمة كثير من التعلّل بالآمال في هذه الرواية. فمع أن فخر الدين أحرز من دون شك قدراً من الاستقلالية عن استانبول لفترة محدودة، فإن من استعملوه لاحقاً لاختراع أسطورتهم التأسيسية بالغوا في سلطته. فقد كتب ألبرت حواري عنه: "لقد أنشأ دولة خاصة لم تعبّر عن نفسها بالمؤسسات ولم تدم طويلاً"⁽¹⁾. وعندما هُزم وتوفي، أعادت استانبول تأكيد سيطرتها المركزية، إنما بشكل أقوى من ذي قبل. وقد ضُخّم كذلك دور الأمراء الشهابيين كثيراً أيضاً. صحيح أنهم نجحوا في جمع الموارد والدروز معاً تحت حكم واحد، لكن من المشكوك فيه أنهم تمكنوا من إنشاء كيان لبناني منفصل ومتميز عن باقي سوريا في القرن الثامن عشر.

مع انقضاء القرن، تحوّل جزء من الأسرة الشهابية، تدريجياً، من الإسلام السني إلى المسيحية المارونية، ونتيجة جزئية لذلك انتقلت الهيمنة من الدروز إلى الموارنة. وفي الوقت نفسه، عزّزت الكنيسة المارونية مركزها باتفاق رسمي مع البابا في سنة 1736. وقد بلغت هذه التطوّرات أوج ازدهارها في القرن التاسع عشر، خلال الحكم الطويل لبشير الثاني، الذي قوى جيشه، وبسط سلطته وبني قصر بيت الدين. لكن على غرار فخر الدين من قبله، لم تدم إنجازات بشير الثاني وأخفق كسلفه.

في سنة 1830، غزا إبراهيم باشا، ابن حاكم مصر محمد علي، سوريا واحتل الجبال اللبنانية. فارتكب بشير الثاني خطأً استراتيجياً بالوقوف إلى جانبه ضد العثمانيين. وقد حقق الانتصار بعض الوقت. لكن المصريين استخفوا بالتماسك الاجتماعي للطوائف المحلية. وعندما حاولوا فرض التجنيد الإلزامي، اندلعت ثورة.

وعندما أعلن السلطان العثماني الحرب على محمد علي، أيدته القوى الأوروبية ما عدا فرنسا. وفي سنة 1840، أُجبر إبراهيم باشا على الانسحاب من سوريا، وهُزِمَ العثمانيون حليفه، بشير الثاني، في السنة التالية. فالتحرت إمارته اللبنانية ومات في المنفى.

استعيد الحكم العثماني وأحلّ الباب العالي مكان النظام الشهابي غير الموالي نظاماً من كانتونين، أحدهما درزي، والآخر ماروني؛ وقد سُمّي بنظام القائم مقاميتين لسنة 1842. لكن سرعان ما اندلعت الاضطرابات والمواجهات العنيفة بين الطائفتين على اقتسام السلطة، وبلغت ذروة همجيتها في الحروب الطائفية في سنة 1860، حين دُبح المسيحيون في الجبال اللبنانية وامتدت أعمال القتل إلى دمشق، ما دفع فرنسا لإرسال قوّة عسكرية إلى المشرق بقيادة الجنرال بوفور دوتبول Beaufort d'Hautpoul.

عقد المسؤولون العثمانيون والممثلون الأوروبيون مؤتمراً في بيروت، وآخر في استانبول حيث أُتفق، بموجب سلسلة من القوانين العضوية في سنتي 1861 و1864، على منح جبل لبنان وضعية خاصة كمتصرفية تتمتع باستقلال ذاتي داخل الإمبراطورية. وتخضع هذه المتصرفية لحكم متصرف مسيحي غير لبناني، تعينه الحكومة العثمانية بموافقة القوى الأوروبية. ويساعد المتصرف مجلس إداري مكون من اثني عشر عضواً، يمثلون الطوائف الرئيسية الست في الجبل. وفي ظل وجود قوة شرطة ونظام قضائي خاص، نعيم جبل لبنان المتمتع بالاستقلال الذاتي، بخمسين سنة من السلام والازدهار حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. وبلغ إنتاج الحرير الطبيعي الذي كان يصدر إلى سوق ليون مثلاً أوجه في ستينيات القرن التاسع عشر.

غير أن المتصرفية الجديدة كانت أصغر من أراضي الإماراتين المعنية والشهابية، حيث اقتطع سهل البقاع ووادي التيم، بالإضافة إلى قضاء صيدا ومدينة بيروت، وأُلحقت جميعها بالولايات العثمانية المجاورة. في وقت لاحق، شنّ دعاة لبنان الكبير حملة لاسترداد هذه الأراضي المهمة.

مع ذلك يرى المؤرخ اللبناني كمال الصليبي أن هوية لبنان منحت تعريفاً قانونياً للمرة الأولى بإنشاء "المتصرفية". فأن يكون المرء "لبنانياً" يعني أن يتمتع بالمواطنة

في مقاطعة مستقلة، وما يرافق ذلك من مزايا عديدة⁽¹⁾. وقد تطور شعور بالهوية اللبنانية بين الموارنة بشكل خاص، حيث تمكنوا، خلال عقد من الزمن، 1850-1860، من الهيمنة على الجبل، ما دفع الدروز إلى تراجع غير قابل للانعكاس. وكان شيعة جنوب لبنان قد ساندوا الدروز، فشاركوهم الآن في الهزيمة والتراجع. وقد ترسّخت القوة المسيحية، إلى جانب الإحساس بالانفصالية القومية اللبنانية، مسئلة جزئياً على الأقل بروز القومية الصربية، وغيرها من القوميات المسيحية المعادية للعثمانيين في البلقان. لكن المؤرخة الفرنسية للبنان، نادين بيكودو Nadine Picaudou، لديها وجهة نظر مختلفة بعض الشيء عن وجهة نظر كمال الصليبي. بدلاً من اعتبار المتصرفية لحظة حاسمة في صياغة هوية لبنان المتميزة، رأت فيها أداة مؤسسية استخدمتها الإمبراطورية العثمانية لفرض سيطرتها من جديد في أعقاب مجازر 1860⁽²⁾. ولم يتم الترويج لأي مفهوم عن المواطنة اللبنانية يتجاوز المجتمعات الطائفية في عهد المتصرفية. بل على العكس من ذلك، أصبح الإرث الطائفي القديم أكثر رسوخاً من ذي قبل، غير أنه خضع الآن للقيادة المسيحية.

جاذبية النزعة الفينيقية

من المستغرب أن هذا الإرث من التعصّب المسيحي تعايش، في الأزمنة الحديثة، جنباً إلى جنب مع جرعة قوية من الوثنية على شكل ادعاء، قدم لأول مرة في سنة 1919، أن لبنان ليس أقل من إعادة تجسيد لفينيقياً القديمة؛ وهي نظام حكم كان قائماً قبل نحو خمسة آلاف عام على جزء من ساحل شرق البحر المتوسط، في المكان نفسه تقريباً حيث يمتد الساحل اللبناني اليوم. وقد مثل هذا الادعاء بالتحدر من الفينيقين لبعض المسيحيين اللبنانيين انفتاحاً على البحر والعالم التجاري. لكن الأهم في نظرهم أنه صلة بشيء غير عربي، بالمتصرين المسيحيين في الحرب العالمية الأولى، و"الحداثة"، بل الحضارة الغربية نفسها⁽³⁾.

Kamal Salibi, "The Lebanese Identity", in *Journal of Contemporary History*, 1971, (1) vol. 6 (1), p. 78

Nadine Picaudou, "La question libanaise ou les ambiguïties fondamentales", in (2) Khoury (ed.), *Selim Takla*, p. 44

Asher Kaufman, *Reviving Phoenicia: The Search for Identity in Lebanon*, London (3) 2004, pp. 87, 141-2

يُعتقد أن الفينيقيين وصلوا إلى شرق البحر المتوسط نحو سنة 3000 قبل الميلاد. ولا يعرف على وجه التحديد من أين أتوا، على الرغم من أن بعض العلماء يعتقدون أنهم جاؤوا من الخليج العربي. وفي القرون اللاحقة، بسطوا سلطتهم من جبيل وبيروت جنوباً إلى عكا ويافا، وعبر البحر المتوسط إلى قرطاجة (أنشئت في نحو سنة 814 ق.م)، وقبرص وحتى إلى الأندلس. ومن الواضح أنهم كانوا شعباً مميزاً. فقد طوروا أبجدية؛ وكانوا ملاحين موهوبين، يبحرون مهتدين بالنجوم؛ وعلموا الغرب المحاسبة ومسك الدفاتر اللذين تعلموهما من البابليين؛ كما كانوا تجاراً ومستعمرين، اشتهروا بالمشغولات الذهبية والمعدنية، ونفخ الزجاج، الحفر على العاج والخشب، وأصبغتهم الرائعة وأقمشتهم الملونة. ولعبوا، بطريقة أو بأخرى، دوراً مهماً في تاريخ العالم القديم. وتسيّدوا البحر المتوسط لمدة أربعة قرون، وكانوا أمة تجارية لا نظير لها بين الشرق والغرب. غير أن الآشوريين أخضعوهم في القرن التاسع قبل الميلاد، والفرس في القرن السادس قبل الميلاد، والإسكندر الكبير، قبل أن يُدمجوا أخيراً في مقاطعة سوريا الرومانية في سنة 64 ق.م.⁽¹⁾

تبنّى العديد من المسيحيين "النزعة الفينيقية" بمثابة هوية لبنانية خرافية، ويرجع ذلك إلى حدّ كبير إلى دعوة شارل قرم، وهو مفكّر لبناني روج لهذه الفكرة بشغف في أربعة أعداد من "المجلة الفينيقية"، التي أصدرها في بيروت في سنة 1919. وظل يدعو للنزعة الفينيقية من دون كلل حتى وفاته في سنة 1963. وكان رياض الصلح قد عرف شارل قرم في المدرسة، حيث جلسا على المقعد نفسه في مدرسة العازرية في عينطورة في الجبال اللبنانية.

ولد قرم في بيروت في سنة 1894 - السنة نفسها التي ولد فيها رياض - وهو ابن رسام لبناني شهير. وقد جمع ثروة كبيرة كوكيل شركة فورد للسيارات في سوريا ولبنان، قبل أن يتقاعد ليصبح شاعراً، وكاتباً، ومفكراً. في شباط/فبراير 1934، أطلق دار المجلة الفينيقية، وهي دار نشر أصبحت المصدر الرئيسي للأعمال ذات "النزعة الفينيقية" في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. وكان قرم أيضاً مؤيداً ثابتاً للرئيس إميل إده، الذي شاركه توجّهه الثقافي والسياسي المناهض للعروبة. وعلى غرار إده،

(1) انظر Dimitri Baramki, *Phoenicia and the Phoenicians*, Beirut, Lebanon, 1961.

كان قرم يرفض استخدام أي لغة غير الفرنسية في مراسلاته الخطية. (ومن المفارقات الكبيرة أن أحد أبنائه، ديفيد، تزوج حفيدة الزعيم الفلسطيني العربي المسلم الحاج أمين الحسيني).

أُعطيت للنزعة الفينيقية فرصة جديدة للعيش بنشر ثلاثة عشر عدداً من مجلة "فينيقيا" *Phénicia* في بيروت بين كانون الثاني/يناير 1938 وتموز/يوليو - آب/أغسطس 1939؛ وكان ميشال شبحا، شقيق زوجة بشارة الخوري، الخصم الماروني للرئيس إده، أحد أبرز المساهمين فيها. أمضى شبحا والخوري ثلاث سنوات في الإسكندرية خلال الحرب العالمية الأولى، فتوطدت عرى الصداقة بينهما. وأصبح شبحا لاحقاً نصير فكرة أن لبنان في جوهره دولة متوسطة ترتبط (حسب قوله) بالغرب اللاتيني، وبخاصة فرنسا، "هوية الروح والفكر". وبصفته مسيحياً لبنانياً - وأمين سر اللجنة التي صاغت دستور 1926 - كان مسؤولاً بشكل كبير (وكارثي كما تبين في ما بعد) عن طبيعة الترتيبات الدستورية في لبنان. وقد بنى شبحا سمعته، كأحد أهم المنظّرين الإيديولوجيين السياسيين في البلد، عبر افتتاحيات صحيفة "لو جور" *Le Jour* اليومية الناطقة بالفرنسية التي أسسها في آب/أغسطس 1934. وانضم إليه المصري هنري فرعون الذي شاركه فلسفته وذكاءه المالي، وأسساً معاً بنك فرعون وشبحا⁽¹⁾.

في أعقاب الحرب العالمية الثانية، واصلت الفكرة الفينيقية كأساس لهوية لبنان الوطنية اكتساب المتحمسين، كما تبين من سلسلة من المحاضرات التي كانت تلقى بين الحين والآخر في بيروت من سنة 1946 حتى أواسط السبعينيات، والتي نُشرت لاحقاً في كتاب بعنوان "محاضرات الندوة" *Les Conférences du Cénacle*. وكان الموضوع الضمني للعديد من هذه المحاضرات، وجوب اعتبار لبنان الشريك الطبيعي والتميّز للغرب، نظراً إلى تعدّد لغاته، وريادته الأعمال، وتوجهه نحو السوق، وموقعه على الساحل المتوسطي على غرار فينيقيا من قبله.

لكن صيغة النزعة الفينيقية تجاهلت عنصراً أساسياً آخر للهوية اللبنانية عبر ادعائها أن لبنان صنعة العالم المتوسطي، وهو هوية جبل لبنان كمعقل مغلق على

نفسه وملجأ للأقليات، حيث حافظ الموارد والدروز على بقائهم قروناً من الزمن، وتعايشوا معاً وإن لم يكن في انسجام دائم.

استبعدت غالبية الناس، وخصوصاً المسلمون، النزعة الفينيقية باعتبارها هراء مثيراً للسخرية. وكما لاحظ المؤرخ كمال الصليبي، فإن السّنة أَدَانُوا في وقت مبكر النزعة الفينيقية واعتبروها مؤامرة استعمارية فرنسية على القومية العربية. وكانت الفكرة مشبوهة فكرياً على أي حال لأنها تتجاهل التراث العربي للبلاد. فقد كتب الصليبي: "لا يمكن أن تكون أيّ نظرية عن القومية اللبنانية صالحة ما لم تأخذ في الحسبان الارتباط التاريخي والثقافي الأساسي بين لبنان والعروبة"⁽¹⁾.

وقد أثار عالم الاجتماع اللبناني أحمد بيضون الفكرة نفسها في مقال نُشر في باريس في سنة 2000، وفيه حلّل تأثير الفكرة الفينيقية على العقول المسيحية اللبنانية، منذ سنة 1919 وحتى السبعينيات⁽²⁾. أوضح بيضون أن أولى أولويات شارل قرم في سنة 1919 كانت إبعاد سوريا عن الأمير فيصل وفلك الحجاز، الذي رأى أنه يشكل تهديداً مميتاً للمجتمع المشرقي المتغرب الشديد التعلّق باللسان الفرنسي. فقد تساءل قرم في إحدى مقالاته: "ما الذي يجمع بيننا وبين البدو؟ اللبنانيون والسوريون ليسوا عرباً"⁽³⁾. وفي مرحلة لاحقة، بلغ حدّ السعي إلى فصل لبنان عن أراضيه الداخلية السورية.

بيد أن النموذج الفينيقي، كما أشار بيضون، كان يعاني من عيين: الجبل والإسلام. فقد رفض الجبل الاعتراف بالساحل كمركز هوية لبنان، بينما يصعب تجاهل ثلاثة عشر قرناً من الإسلام في البلاد باعتبارها مجرد مرحلة عابرة. وكان على من يعتبرون أنفسهم "متوسطين" التصالح مع التأثيرات القومية العربية والسورية التي لا تتوافق البتة مع النزعة الفينيقية. فالبحث اللبناني عن أسلاف فينيين يفتقر إلى أي

(1) Kamal Salibi, "The Lebanese Identity", p. 84.

Ahmad Beydoun, "Extrême Méditerranée: Le libanisme contemporain à l'épreuve de la mer", in Elias Khoury and Ahmad Bydoun, *La Méditerranée libanaise*, Paris 2000.

(3) Charles Corm, 'Méditations nationalistes', in *La Revue phénicienne*, no. 3 (September 1919), pp. 174, 175, 178, quoted in Beydoun 'Extrême méditerranée', p. 34.

أساس في الوقائع التاريخية أو الإقليمية. بعبارة أخرى، النزعة الفينيقية أسطورة أغرت بعض الأشخاص، إنما تبقى أسطورة. ولا يزال بعض اللبنانيين المعاصرين يشعرون، مثل أجدادهم الفينيقين المزعومين، أنهم مدعوون أيضاً إلى أداء دور الوسطاء الثقافيين بين الشرق والغرب. ولعل ذلك أبعد ما يمكن أن تنتهي إليه هذه المقارنة التاريخية.

كان رياض الصلح يدرك تماماً أنه لا يستطيع أن يواجه بصورة مباشرة تيار القومية اللبنانية القوي بعناصره المختلفة - المارونية والفرنسية والكيانية والمتوسطية والفينيقية، بالإضافة إلى تبجيل فخر الدين وبشير الثاني، الأميرين المؤسسين للأمة اللبنانية على ما يُزعم. وبما أنه لا يمكن إلحاق الهزيمة بالقومية اللبنانية، فإنه يجب استمالتها واستيعاها بدلاً من ذلك. لذا فإن لبنان المستقل الذي تصوّره رياض، وتمكّن من تحقيقه في نهاية المطاف رغم الصعاب الهائلة، لا بدّ أن يقوم على الشراكة المسيحية - الإسلامية بكل ما للكلمة من معنى.

الفصل الرابع عشر

سياسة الشارع

واجهت كل من القومية العربية ووطنية "لبنان الكبير"، وهما الإيديولوجيتان السياسيتان الرئيسيتان في ذلك الوقت، تحدياً على الساحة اللبنانية - السورية من حركة سياسية أخرى تعارضهما بشدة⁽¹⁾. هذه الحركة هي الحزب القومي السوري بزعامة أنطون سعادة. لم يكن سعادة يعترف بوجود لبنان الكبير منفصلاً عن سوريا، ولا بالشخصية السورية العربية كجزء لا يتجزأ من العالم العربي الأوسع. وتقوم عقيدته المركزية على أنّ "الأمة السورية" ليست عربية البتة، بل كياناً مستقلاً بذاته تأثر عبر آلاف السنين بمحيطه الجغرافي الفريد. ورأى سعادة أن هناك "ارتباطاً عضوياً" بين الأمة السورية ومحيطها الطبيعي. واستبعدت هذه الآراء الجذرية أي مساومة أو تعاون مع الحركات والإيديولوجيات الأخرى.

التحدي الذي فرضته قومية أنطون سعادة السورية

كتب سعادة أن "الوحدة العضوية" للمجتمع السوري لا تقوم على العرق أو الدم، بل إنها نتيجة "تاريخ طويل لكل الأقسام الذين استقروا في هذه الأرض، وتفاعلوا حتى أصبحوا شعباً واحداً. بدأ الأمر مع شعوب الفترة النيوليتية... واستمرّ مع الأكاديين والكنعانيين، والآشوريين، والآراميين، والعموريين، والحثيين⁽²⁾. وقد حدّد البيئة الطبيعية للأمة السورية بأنها تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب شاملة شبه

(1) ترجم الفرنسيون كلمة "قومي" خطأً بلفظة populaire، أي شعبي، لذا عرف اسم الحزب بالفرنسية باسم Parti populaire syrien.

(2) أنطون سعادة، مبادئ الحزب القومي الاجتماعي السوري (من دون تاريخ)، ص 14. انظر Patrick Seale, *The Struggle for Syria: A Study of Post-War Arab Politics*, Oxford 1965 (new edn London and New York 1986), pp. 64-72

جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري في الغرب شاملة جزيرة قبرص، إلى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق. ويعبر عنها بلفظ عام: الهلال السوري الخصيب ونجمته جزيرة قبرص⁽¹⁾.

كان إيمان أنطون سعادة بالتحتمية الجغرافية يتسم بنوع من الروحانية (أو الغموض كما يقول بعضهم). وفي مقابلة أجريت مع المؤلف في أوائل الستينيات، اختصر ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث والخصم المرير للحزب القومي السوري، حزب سعادة كما يلي:

الحركة بمحملها مزيج غريب من الحداثة، والعلمنة، مع شيء قديم جداً بل أثري؛ وهي إحياء للماضي المحلي وأحقاد مضي عليها ألف سنة. ومن بين الحركات الكثيرة للانبعاث العربي، أجهضت هذه الحركة نفسها وتاهت في رومانسية سقيمة، ربما لأن تفكير سعادة كان موجّهاً نحو الماضي بشكل أساسي⁽²⁾.

لم يكن سعادة مجرد منظر بعيد عن الممارسة العملية، بل بنى حركة سرية ذات تسلسل هرمي صارم، موحدة حول تقديس الزعيم، ومجهزة بذراع شبه عسكرية كان لها تأثير مقلق في السياسة اللبنانية والسورية قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها. ولد أنطون سعادة في الأول من آذار/مارس 1904 في عائلة أرثوذكسية من ضهور الشوير في جبل لبنان. درس والده خليل سعادة الطب في الجامعة الأميركية في بيروت وهاجر إلى مصر أولاً، حيث اشتهر كمؤلف لقاموس إنكليزي - عربي يقع في مجلدين. ثم انتقل إلى البرازيل تاركاً عائلته في لبنان. حمل معه إلى أميركا اللاتينية إيماناً قوياً بالقومية السورية التي كانت رائجة في الشرق الأدنى في نصف القرن السابق، منذ أن أعيد تسمية ولاية دمشق باسم ولاية سوريا في سنة 1864.

تأثر خليل سعادة، مثل كثيرين غيره في ذلك الوقت، بعالم الجغرافيا الفرنسي إليزيه ركلو Elisée Reclus كذب في مؤلفه "جغرافية العالم الحديث" *Nouvelle Géographie*

(1) سعادة، مبادئ، ص 22. لم تذكر قبرص وأدرج لمر دجلة في تحديد الحدود الجغرافية للوطن السوري في سنة 1930 لكن ذلك تغير عام 1947 ليشمل قبرص والعراق. انظر سعادة، التعاليم السورية القومية الاجتماعية، الطبعة الرابعة (1947)، ص 18. انظر أيضاً سعادة، نشوء الأمم، الجزء 1، وهو كتاب بدأ كتابته في السجن ونشر في بيروت في سنة 1938.

(2) Patrick Seale, *The Struggle for Syria*, p. 68.

Universelle، المنشور في باريس في سنة 1884، عن وجود عرق سوري داخل الحدود الجغرافية السورية وتميّزه تماماً عن العرق العربي⁽¹⁾. وفي البرازيل أسس الدكتور سعادة مجلة عبّرت عن هذا النوع من الأفكار.

الستحق أنطون الشاب بوالده في ساو باولو في أوائل العشرينيات وعمل في مجلته مدة من الزمن. لم يتمكن أنطون من إنهاء دراسته النظامية في لبنان لأسباب مادية. ولعله اختلف مع أبيه، لأنه غادر البرازيل بعد بضع سنوات وتوجه إلى أوروبا في نهاية ذلك العقد، حيث أمضى نحو سنة في ألمانيا. عاد أنطون إلى الشرق الأدنى في تموز/يوليو 1930 وهو في السادسة والعشرين من عمره، كان وضعه المادي متقلباً. وجد عملاً في سوريا في صحيفة في دمشق تدعى الأيام. لكن سوريا تحت الحكم الفرنسي كانت تعاني من الكبت الفكري فضلاً عن الفقر، فغادر إلى بيروت حيث الجو أكثر ملاءمة. لم يكن يملك مالاً أو وظيفة، فأعال نفسه بإعطاء دروس خاصة في اللغة العربية والألمانية في عززال (بيت مبني على الشجر) أقامه على أرض تمتلكها العائلة في ضهور الشوير.

كانت الجامعة الأميركية مركزاً ثقافياً في بيروت. وعلى الرغم من أن سعادة لم يلتحق رسمياً بها، فإنه غالباً ما كان يتوجّه إلى قاعة الأساتذة حيث يقدّم الشاي في الساعة الرابعة بعد الظهر. كان ذا لحية طويلة كالكاهن، وعاد عليه دفاعه عن آرائه بإصرار وعناد ببعض السخرية. ويبدو أن فكرة إنشاء منظمة سياسية سرية ترسّخت في ذهنه في ذلك الوقت، ما بين سنتي 1931 و1932. كان يتحدث ساعات في قاعة الأساتذة، ويذهب للسباحة مع الطلاب، فتمكّن من أن يجمع حوله بعض المريدين. ولعله تأثر أيضاً بأفكار الكاهن اليسوعي هنري لامنس Henri Lammens، أستاذ في الدراسات الشرقية في جامعة القديس يوسف في بيروت، الذي نشر في سنة 1921 عملاً في مجلدين بعنوان "سوريا: موجز تاريخي" *La Syrie: précis historiques* رأى فيه أن السوريين كشعب موجودون قبل وقت طويل من مجيء العرب، وأن لديهم إمكانية التطور ليصبحوا أمة قائمة بذاتها⁽²⁾.

(1) Kaufman, *Reviving Phoenicia*, p. 8

(2) Kamal Salibi, *A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered*, London 1988, p. 132

بحسب وثائق الحزب الداخلية، تأسس حزب أنطون سعادة رسمياً في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1934، لكن لم تلاحظه السلطات الفرنسية إلا بعد عام، في تشرين الثاني/نوفمبر 1935. ففي ذلك الوقت اكتشف الأمن العام الفرنسي أن ثمة شركة تجارية عادية، الجمعية السورية للتجارة، توجد مكاتبها في أحد شوارع بيروت الرئيسية هي في الواقع مقرّ حركة سياسية ثورية يبدو أنها تعدّ للإطاحة بالحكومة. حاولت الحكومة أن تقمع الحزب بعد اكتشافه، فألقي القبض على سعادة في 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1935 مع عشرة من رفاقه وحكم عليهم في أوائل كانون الثاني/يناير 1936 بالسجن ستة أشهر ودفع غرامة مقدارها 25 ليرة لبنانية. وصدر حكم بالسجن مدة قصيرة أيضاً بحق مساعده الرئيس نعمة ثابت لانتهاكه النظام العام.

اجتذبت المحاكمة اهتماماً إعلامياً كبيراً بالحزب. لم يبد سعادة ندماً البتة في المحكمة: عندما نودي عليه باسم أنطوان سعادة لم يُجبب إلاّ عندما استبدل الاسم السرياني أنطون بالاسم الفرنسي أنطوان. وعندما أتم بالتأمر على الدولة، ردّ سعادة على النائب العام قائلاً إنّ الفرنسيين هم المتآمرون الحقيقيون لأنّهم وقّعوا اتفاقية سايكس - بيكو مع بريطانيا. فُتشت منازل أعضاء الحزب ووُجد فيها مستندات قيل إنّها تجرّم أصحابها، بما في ذلك خرائط للمطار العسكري في رياق ومواقع الثكنات والذخيرة في مناطق مختلفة من البلاد. كشفت المستندات أنّ أنطوان سعادة هو القائد الأعلى، أو الرئيس، لحزب شبه سرّي يضم نحو خمسة أو ستة آلاف عضو في سوريا ولبنان موزعين على أقسام وأقسام ثانوية. ولم يكن سوى رؤساء الأقسام الثانوية على معرفة بهوية الأعضاء في القسم الأعلى منهم.

كانت تعاون سعادة لجنة مركزية مكوّنة من اثني عشر عميداً، يحملون ألقاباً مثل عميد الداخلية، والمالية، والدفاع... إلخ. وأقرّ عميد الدفاع خلال التحقيق بأنّ برنامج الحزب يدرك ضرورة إقامة ميليشيا قادرة على المحافظة على الأمن بعد انتهاء الانتداب⁽¹⁾. كان أعضاء الحزب موجودين في مدن المشرق الكبرى - بيروت، وطرابلس، ودمشق، وحلب. لكنهم تواجدوا بصورة رئيسية أيضاً في أوساط الأقليات

في المناطق البعيدة - في مرجعيون والمتن، موطن عدد كبير من الأرثوذكس - وبين الدروز في الشوف، والعلوين على الساحل السوري في طرطوس وصافيتا؛ وفي منطقة الكورة، جنوب شرق طرابلس.

مكّن الانضباط الشديد، المبني على مثال الفاشية - بالقمصان الرصاصية والمبادئ الصارمة والولاء للزعيم - الحزب السوري القومي الاجتماعي من تنظيم مواكب مثيرة للإعجاب، وإبداء الرأي في مختلف المناسبات، لكن لحق به الضعف بسبب قمع الحكومة وانشقاق بعض أبرز أعضائه بين سنتي 1937 و1938، والسجن المتكرر لزعيمه. لم تبد غالبية السكان اكرتاً بعقائد سعادة الغامضة، لكن ربما أعجبت بتنظيم الحزب الذي تمكّن في أوقات الأزمات الاقتصادية من تأمين الخدمات العامة وعدد كبير من الوظائف (مثلما فعل حزب الله في وقت لاحق). منذ البداية، منح سعادة الأولوية لتأسيس منظمة شبه عسكرية، حيث وُجد خلال عمليات التفتيش مستندات بخطط يده تعود إلى سنة 1935 وتحتوي على تفاصيل عن "الشؤون العسكرية".

اعتُقل سعادة مرة ثانية بعد الإفراج عنه بوقت قصير في سنة 1936، عندما قام أعضاء من حزبه بضرر صحافيين لبنانيين كتبوا مقالات نقدية عن الحركة. مع ذلك صدر مرسوم حزب في 30 كانون الثاني/يناير 1936 سمى الرئيس قائداً عاماً لقوات الحزب، يساعده مجلس حربي. وبعد مرور سنة تقريباً، في 21 شباط/فبراير 1937، سار نحو أربعمئة عضو في الحزب في مسيرة لاستعراض القوة في بكفيا في لبنان، ولكن الدرك فرّقهم بعد صدام قصير. وفي تشرين الثاني/نوفمبر من تلك السنة، قام سعادة بجولة دعائية في سوريا ولبنان لقيت ترحيباً كبيراً من أتباعه. ففي طرطوس على الساحل السوري، اصطفت وحدات تابعة لمليشياته على الطريق التي مرّ بها، بعضهم على الأقدام وبعضهم الآخر على الجياد.

اشتدّ ضغط الحكومة على الحزب عندما قدّم سعادة التماساً إلى المفوض السامي الفرنسي في آذار/مارس 1936 يطالب فيه بالوحدة السورية اللبنانية. فسُجن مع بعض مساعديه بضعة أسابيع، وأدّى التحقيق الرسمي في نشاطات الحزب إلى تجدد اضطهاده. ووجه ذلك بمعارضة عنيفة من أعضاء الحزب الذين ترايدت أعدادهم بسرعة، ولم يقتصر على اللبنانيين فقط. اعتُقل سعادة مرة ثالثة في 7 آذار/مارس 1937، لكن

أطلق سراحه بعد شهرين عندما سعت حكومة خير الدين الأحذب إلى الحصول على دعم حزبه لللائحة الحكومية في الانتخابات تلك السنة، ويبدو أنها نجحت في ذلك. غير أن سعادة رأى بعد التهديد باعتقاله في سنة 1938 أن من الأفضل أن يغادر البلاد بسرعة، وقد تمكّن من الحصول على تأشيرة إلى قبرص من القنصلية العامة البريطانية في فلسطين. أصدر الحزب بياناً بليغاً في 15 آب/أغسطس 1938 أوضح فيه أن زعيمه غادر على عجل لإطلاع الرأي العام الدولي على القضية السورية وتطوّراتها وتنظيم المهجر السوري ليكون على استعداد للعمل المتضامن مع النظام القومي في الوطن. وانتهى البيان بالكلمات التالية: "لنستعدّ لليوم الذي ينادينا فيه زعيمنا إلى ساحة الحرية والشرف. ولترافق قلوبنا البطل القومي في أسفاره، ونؤيده في كل لحظة بأفكارنا ومشاعرنا". لكن بعد مغادرة سعادة دخل الحزب في مرحلة جمود نسبي حيث احتلت مكاتبه، واعتُقل قاداته في خريف 1939 بتهمة الولاء للألمان.

توجّه سعادة من قبرص إلى برلين حيث اجتمع مع مجموعة حزبه في تلك المدينة، ويعتقد أن النازيين استقبلوه بحرارة. ثم مرّ ببودابست وبيرن، وتحدّث إلى الإذاعة من كلتا المدينتين، قبل توجّهه إلى روما. وتوجّه بالسفينة من إيطاليا إلى أميركا اللاتينية في نهاية سنة 1938. في سنة 1939، أصدر في البرازيل إعلاناً لا يقلّ عن الدعوة إلى الثورة، وقد اعتبره كذلك الفرنسيون والموالون للحزب في لبنان وسوريا. وجّه سعادة نداءه إلى "ذوي الألبسة الرصاصية"، مشيراً إلى ميليشياته، وإلى "رجال الزوبعة الحمراء" الذين يشكّلون نخبة رجاله. كتب سعادة: "تدرس الحكومة الفرنسية اليوم مشروعاً جديداً يقتضي بتجزئة سورية بتجزئة جديدة بحيث تقسّم الدولة الشامية إلى أربع مناطق يديرها مستشارون فرنسيون بواسطة "حكام" سوريين من المستعدين دائماً لبيع مصالح الشعب السوري". وأكد على الحاجة إلى:

حمل الأمم والدول على الاعتراف بأمتنا ودولتنا، على الاعتراف بحقنا في العيش ومركزنا بين الأمم والدول... العالم يتجه بسرعة نحو موقف فاصل... وليتأهب كل منكم تأهباً تاماً ليقوم بواجبه على أكمل وجه حينما تصدر الإشارة. وأنتم تفهمون جيداً ما أعني... إن الظروف المحيطة الآن بأمّكم هي ظروف فاصلة. إنها ظروف صراع بين الحياة والموت...

أيها السوريون القوميون، منذ الساعة يتدنى عملكم العظيم. إن سياسة الصبر والاحتمال قد انتهت. فكونوا في أماكنكم مستعدين⁽¹⁾.

كانت طباعة هذا النداء على شكل منشور إحدى التهم التي وجهتها محكمة عسكرية فرنسية في 3 تشرين الأول/أكتوبر 1939 إلى اثنين وأربعين شخصاً (واحد وثلاثين لبنانياً وأحد عشر سورياً). وفي آب/أغسطس التالي صدرت أحكام على المتهمين تراوحت بين السجن لمدة عام وعشرين عاماً مع الأشغال الشاقة، وحظر الإقامة في البلاد الخاضعة للانتداب الفرنسي. وحُكم على أنطون سعادة غيائياً، وعلى مساعده نعمت ثابت بالسجن عشر سنوات. أصبح الحزب السوري القومي الآن خطراً حقيقياً على الدولة اللبنانية، لكن الأحكام لم تؤدّ إلى انقطاع نشاطات الحزب تماماً، فأصدر منشوراً متحدياً في 28 آب/أغسطس 1940 جاء فيه: "ظنت السلطات أنّ اعتقال بعض قادة الحزب سيشلّ نشاطه ويُرهب أعضائه، لكن الحزب ناشط في قلب الأمة... ستكمل اللجنة التنفيذية العليا المعينة حديثاً... النضال حتى تحقيق النصر النهائي".

بعد اندلاع الحرب، كتب سعادة مقالة مؤيدة للنازيين في 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1939 في صحيفة "سوريا" Diario Syrio في ساو باولو. وبعد بضعة أيام، 16 تشرين الثاني/نوفمبر، كرّست الصحيفة بأكملها للحزب، حيث ظهرت صورة سعادة في الصفحة الأولى تحت صورة نسر. عاد سعادة إلى الشرق الأدنى بعد الحرب العالمية الثانية، حيث كان لحركته تأثير مضرّ، ومدمرّ في نهاية المطاف، في حياة رياض الصلح وعمله السياسي.

متحدّو سعادة: الكتائب والنجّادة

واجهت حركة سعادة في لبنان تحدياً كبيراً في سنتي 1936-1937 من قبل عدد من حركات النهضة الشبابية المنافسة، أهمّها الكتائب دعاء القومية اللبنانية، ونظراؤها المسلمون في النجّادة. كان الكتائبون بقيادة الشاب الماروني بيار الجميل يعارضون القومية العربية والقادة الستة كرياض الصلح، وزعيم القوميين السوريين أنطون سعادة،

(1) MAE Fond Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61. 13 Septembre 1940

وكل ما يهدد كيان لبنان الكبير الذي شكّله الفرنسيون في سنة 1920. اعتمد الكتائب شعار "الله، العائلة، والوطن" وأشار تنظيمه شبه العسكري أنّه أكثر من نادٍ رياضي كما كان يدعي⁽¹⁾.

كان حزب النجادة، وهو في الأصل حركة كشفية إسلامية أسسها محي الدين النصولي، أقلّ فعالية بكثير وأقصر عمراً. وقد اتخذ من منطقة البسطة في قلب بيروت الإسلامية مقراً له، وأدى توجّهه القومي العربي إلى مناوشات متكررة مع الكتائب. وكان بيار الجميل، مؤسس الكتائب، وحسين سجعان زعيم النجادة في سنة 1939، قد حضرا الألعاب الأولمبية في برلين في سنة 1936، فتأثراً كثيراً بتنظيم النازيين الألمان وانضباطهم وقوميتهم المفرطة⁽²⁾.

شكّلت هذه الحركات اعتراضاً شبايياً على القادة المستّين، لكنها تنافست في ما بينها، واتبعت نموذج الأنظمة الفاشية في إيطاليا وألمانيا بلباسها ومواكبها وتحية القائد وتقديسه⁽³⁾. ويوحى ظهورها في سوريا ولبنان بين سنتي 1934 و1937 أنّها تشبع حاجة نفسية معيّنة لدى العديد من الشبان في ذلك الوقت. توجّه حزبا الكتائب والنجادة، على غرار الحزب السوري القومي، إلى شباب طبقات المجتمع الوسطى والفقيرة الذين كانوا في الغالب عاطلين عن العمل ومحيطين وتواقين إلى تحسين مكانتهم والحصول على أي نوع من العمل. فجذبتهم الفرق المنظمة لهذه الحركات شبه العسكرية.

غير أن بعض الأعضاء لم تجذبهم مواكب هذه الحركات وملابسها، وإنما أفكارها وبرامجها السياسية، وذلك نتيجة انتشار التعليم العام بين الحريين العالميتين، ونشاط الصحافة الصاخبة. عكست هذه التشكيلات الحداثة السياسية الجديدة في الثلاثينيات، وما يصاحبها من مخاوف بشأن مصير المنطقة العربية في عالم مهدد بالحرب⁽⁴⁾. وقد أشارت على أي حال إلى دخول جيل جديد معترك الحياة السياسية مستعداً لقطع

(1) S.H. Longrigg, *Syria and Lebanon*, p. 226

(2) John p. Entelis, *Pluralism and Party Transformation in Lebanon - Al-Kata'ib 1936-* 1970, Leiden 1974, p. 46

(3) S.H. Longrigg, *Syria and Lebanon*, p. 225.

(4) Méouchy, 'Le Pacte national', pp. 470. 473

العلاقة مع شبكات الأتباع التي رعاها الوجهاء الأكبر سناً للمحافظة على قاعدتهم السياسية. وسرعان ما أدرك هؤلاء الوجهاء أن الحركات الشبابية سيطرت على الشارع. لم يحدث انتقال واضح من شكل إلى آخر من أشكال التنظيم السياسي بطبيعة الحال. وعلى غرار الكتل البرلمانية التابعة لإميل إده وبشارة الخوري، استفادت هذه الحركات الجديدة من التحالفات وشبكات الأتباع في أحياء محددة من المدينة.

يمكن ملاحظة الظاهرة نفسها تقريباً في بلدان عربية أخرى. فتلك حقبة المتظاهرين المتعدّدي الألوان والاتجاهات: ذوي القمصان الخضراء والزرقاء في مصر (كانت القمصان الزرقاء على سبيل المثال فرقة شبان وطنيين نشطت في القاهرة على وجه الخصوص)؛ وذوي القمصان الرمادية والبيضاء في سوريا؛ وذوي القمصان الكاكية في العراق؛ وقمصان سعادة الرصاصية في لبنان. وكان الحزب الشيوعي على خصام مع كل هذه المنظمات الشبيهة بالفاشية وجميع المؤسسات الكاثوليكية.

شعر الرئيس إده بالخطر الذي تشكله هذه الحركات التي تكاثرت فجأة وعلى سلطة الدولة، فأصدر مرسوماً في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1937 حلّ فيه منظمات "القمصان الملونة" وأعلن عدم شرعية التشكيلات شبه العسكرية التي ظهرت في السنتين السابقتين. ولم يسمح بالاستمرار سوى للأندية الرياضية. أصدر بيار الجميل اعتراضاً عنيفاً على الفور في صحافة بيروت، أنكر فيه بشدة نية الكتائب أداء أي دور عسكري من أي نوع. وأعلن أن هدف حركته استئصال الفوضى من البلد، وأن أعضاءها هم "نخبة" الشباب اللبناني الذين تدفعهم الوطنية بأصدق معانيها. وإذا أرادت الحكومة أن تدمر هذا المثال، فإن عليها أن تقمع ثمانية آلاف شاب. وانتهى بيانه بعبارة "إلى الغد أيها الرفاق".

وفي اليوم التالي ظهر مئات من أعضاء حزب الكتائب فجأة في ساحة بيروت الرئيسية، كما أفاد القنصل العام البريطاني في تقريره إلى لندن، وقاوموا محاولات تفريقهم من قبل بعض رجال الشرطة. وسرعان ما وصلت تعزيزات من الشرطة والدرك، بالإضافة إلى عناصر تابعة لمجموعات أخرى من "القمصان الملونة" وكان بعضهم مسلّحاً. تبع ذلك رمي الحجارة بكثافة وإطلاق النار، وتحوّل الأمر إلى أعمال شغب لم تهدأ إلا بعد وصول وحدات من الجنود الفرنسيين المزوّدين بالأسلحة

الرشاشة. أخليت الساحة مع حلول منتصف النهار وجرت بعض الاعتقالات. وقع عدد كبير من الجرحى من الجانبيين وقتل جندي سنغالي تحت الإمرة الفرنسية بطلقة مرتدة. منعت الحكومة نشر أي معلومات عن أعمال العنف في صحف اليوم التالي. ومن نافلة القول إن الكتائبيين واصلوا الاجتماع سرّاً، وبقيت حركتهم سرية، على نحو الحركات الأخرى، حتى استقلال لبنان في سنة 1943⁽¹⁾.

"القمصان الحديدية" في سوريا

راقب زعماء الكتلة الوطنية في سوريا باهتمام قيام الحركات الشبابية في ألمانيا وإيطاليا، وكتاتهما عدوّ لفرنسا التي كانت تستعمرهم، وحاولوا نقل هذا النموذج من الانضباط إلى بلادهم. ظهرت "القمصان الحديدية" لأول مرة في دمشق في 8 آذار/مارس 1936، وهي مجموعة شبه عسكرية تابعة للكتلة الوطنية، عندما استعد الوطنيون للتفاوض على معاهدة مع فرنسا بعد رفع الإضراب العام. وسرعان ما انتشرت الفروع في كل أنحاء سوريا. وفي نيسان/أبريل، وضع برنامج القمصان الحديدية الذي يشدد على النضال من أجل الاستقلال، والاسترشاد بالتضحية والانضباط والولاء إلى الوطن. جذبت حركة القمصان الحديدية التي تدرب أعضاؤها على أيدي ضباط سابقين في الجيش التركي، الشباب السوري، مثلما اجتذبت الكتائب الشبان المسيحيين في لبنان. وأصبح لكل مدينة سورية فرق مدربة ومنظمة تظهر في كل مناسبة عامة وتسير المواكب. لكنهم واجهوا مشاكل في الغالب مع الشرطة المحلية التي يسيطر عليها الفرنسيون، ومع الفرنسيين أنفسهم. تكوّنت ملابسهم من قمصان وسراويل رمادية (حديدية اللون) وحزام وربطة عنق سوداء وقبعة السدارة (الفيصلية) التي اعتمدها الجيش العراقي. وكان شعارهم يد تحمل مشعلًا وتحتهم رفع السيد على الطريقة الفاشية. وتحوّلت صيحة النازيين الثلاثية "هايل" إلى "جهاد" تردّد ثلاثاً. كان هدف "القمصان الحديدية" العمل كأداة للكتلة الوطنية في أوساط الشباب، وتعبئة المجنّدين من أجل جيش وطني محتمل.

(1) Consul General Havard to Foreign Office, Beirut 22 November 1937 (FO 371/20849).

سَيرَت القمصان الحديدية في 29 أيلول/سبتمبر 1936 موكب احتفال بالنصر حيّوا فيه الوفد السوري لدى عودته إلى دمشق بعد المفاوضات في باريس. لكنّهم فشلوا في السيطرة على الحشد الذي رافق الوفد إلى السراي. كان القنصل البريطاني حاضراً وذُهل عندما لاحظ أن بعض شبان القمصان الحديدية في الموكب يدخّنون السجائر⁽¹⁾. ادّعت اللجنة التنفيذية للقمصان الحديدية في نهاية سنة 1936 أن لديها 15,000 مجنّد، منهم نحو 4000 في دمشق. وكان فخري البارودي رئيس فرع دمشق، حيث يتمتّع بنفوذ لا نظير له في أوساط الشبان المتعلّمين في المدينة، ويحلم بإنشاء جيش وطني، في حين تسلّم القيادة الفعلية الأمين العام منير العجلاني، أحد أنصار القومي الراديكالي د. عبد الرحمن الشهبندر وصهره (في ذلك الوقت). وكما هو الحال في لبنان، انجذب كثير من العاطلين عن العمل إلى القمصان الحديدية بغية الحصول على وظيفة أو على أمل الحصول على مركز في الدرك أو الشرطة أو أي وظيفة حكومية⁽²⁾.

كتب المؤرخ السير لويس نامير Sir Lewis Namier عن فترة زمنية مختلفة، لكنّه استطاع التعبير عن الظروف التي تولّد الحركات المستبدة. فرأى أنّها تنشأ "وسط بقايا تركيبة اجتماعية وسياسية موروثّة، في وحشة الولاءات المبعثرة؛ إنّها التحوّل اليائس للمجتمعات التي فقدت صوابها". وأعضاء هذه الحركات هم "الرجال الذين خابت آمالهم وتماوت أحلامهم، وفقدوا جذورهم وتوازئهم، تدفعهم مخاوف وعواطف شبه واعية، ويبحثون مسعورين عن ارتباطات وانتماءات جديدة. وتمحور أحلامهم وأمنياتهم حول شخصية ما... هؤلاء الأتباع هم الذين يمنحونه الأهمية والسلطة"⁽³⁾.

موقف رياض الصلح

كانت هذه بعض الأحزاب والحركات والقوات شبه العسكرية في لبنان وسوريا التي كان على سياسي بارز مثل رياض الصلح التعامل معها فيما يشقّ طريقه نحو

Acting Consul J.C. Ogden to Foreign Office, Damascus, 3 October 1936 (FO 1) 371/20066)

Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 472 ff; S.H. Longrigg, *Syria and Lebanon*, pp. 226-230

Sir Lewis Namier, in an essay on Napoleon III, 'The First Mountebank Dictator', in (3) *Vanished Supremacies*, London 1962, p. 73.

الصدارة. وفي السنوات التالية التي شهدت السياسة فيها مداً وجزراً، استفاد رياض من معظمها في أوقات مختلفة، مع أنه ربما كان أقرب إلى النجادة. لم يشكل رياض حزباً أو ميليشياً قط. ولعل تاريخه السياسي الذي يعود إلى زمن الحكم العثماني، والتزامه الدائم بقضية القومية العربية، وانتماءه إلى جيل عربي لم يعرف الأحزاب السياسية بمعناها الحديث هو السبب وراء ذلك. لم تكن الكتلة الوطنية السورية، التي ارتبط بها ارتباطاً وثيقاً، حزباً سياسياً، بل مجموعة من الشخصيات البارزة. وغالباً ما اختلفوا بعضهم مع بعض وطلبوا وساطة رياض. وفي لبنان، لم تكن كتلة بشاره الخوري الدستورية وكتلة إميل إدّه الاتحادية حزينين بالمعنى الحديث، ولكن مجرد تجمعين لرجال طموحين حول زعيمين يأملون أن يحصلوا في نهاية المطاف على بعض المكاسب السياسية أو التجارية.

مع ذلك، نظر رياض في تشكيل تجمع سياسي يساري بقيادته، متأثراً بالجهة الشعبية بقيادة ليون بلوم في باريس وعلاقاته في لبنان مع الحزب الشيوعي ونقابات العمال، لكنه لم يُقدم على ذلك. فقد كان محظوظاً بوجود ما شكّل بالفعل "حزبه" الشخصي أو مؤسسته الاستشارية، المكوّنة بشكل رئيسي من أفراد عائلته الشبان الذين تمتّع العديد منهم بالذكاء والديناميكية والفطنة السياسية والموهبة التنظيمية. ومن من بين هؤلاء تقي الدين الصلح، أصبح رئيساً للوزراء في وقت لاحق، وكاظم الصلح، أصبح سفيراً في العراق لاحقاً، بالإضافة إلى إخوانهم الأصغر سناً. شكّل هؤلاء مجموعة مترابطة تتميز بالوفاء المطلق. ومنحوه المعلومات وساعدوه في كتابة خطاباتهم الرسمية ونشر أفكاره وقدموا إليه المشورة، وأشادوا به، أو ذمّوا منافسيه في الصحافة وفي دوائر معارفهم الواسعة⁽¹⁾.

عمل كاظم الصلح رئيساً لتحرير صحيفة النداء القومي، وأدار حزباً وليداً يحمل الاسم نفسه. وكان قد شكّل مع تقي الدين ومفكرين آخرين مثل فريد زين الدين وشوقي دندشي في سنة 1935 "الحزب القومي العربي" الذي لم يكن سوى مجموعة نقاش. ولم يكن مختلفاً عن تجمع قومي آخر في ذلك الوقت، "عصبة العمل القومي" التي أسسها في سنة 1933 طلاب وأساتذة في الجامعة الأميركية في بيروت، مثل

(1) رسالة إلى المؤلف من الأستاذ الدكتور وليد الخالدي، شباط/فبراير 2007.

قسطنطين زريق وفؤاد مفرّج. وقد قدّم كل هؤلاء الرجال والمجموعات شبكة دعم قيّمة لرياض الصلح.

على الرغم من أن رياض لم يكن لديه حزب سياسي أو ميليشيا خاصة، فقد وفّر له "قبضيات" الأحياء مصدراً للقوة. وكان رياض يعرف من هم في كل حي من أحياء بيروت، وكذلك في صيدا. وقد حرص كثيراً على صداقتهم وإشباع غرورهم وتنمية ولائهم من خلال الخدمات المتبادلة، المادية والرمزية. واستعان هؤلاء القبضيات في الانتخابات النيابية - وبخاصة انتخابات سنة 1943 الحاسمة - "كمفاتيح انتخابية" لحشد الأصوات. ولم يكن هؤلاء حلفاء مهمّين فحسب، وإنما ساهموا أيضاً في فرض سلطته السياسية عند الضرورة. لقد كانوا أصدقاءه الذين يمكن التعويل عليهم للجوء إلى القوة عند الحاجة⁽¹⁾. وأظهرت دراسة أجرتها الشرطة اللبنانية في سنة 1943 وجود واحد وثمانين قبضياً في بيروت: واحد وخمسين منهم مع رياض الصلح وتسعة مع عبد الله اليافي وسبعة فقط مع أيوب ثابت⁽²⁾. هكذا كانت البيئة السياسية لرياض الصلح عشية حرب عالمية أدخلت الشرق الأوسط في فوضى مريرة، ولكنها فتحت أيضاً الطريق نحو تحقيق الاستقلال الذي طال انتظاره.

(1) المصدر نفسه.

(2) CADN, Inventaire 2, Sûreté Générale, carton 47, Information Beyrouth, 22 février 1943, quoted in Meouchy, 'Le Pacte national', p. 470, n. 23.

الفصل الخامس عشر

تغير رياح الحرب

تأثرت حياة رياض الصلح السياسية تأثراً عميقاً بالصراع الجبار بين الحلفاء وهتلر. فلم يكن في وسعه السعي إلى السلطة إلا بعدما طردت بريطانيا الألمان والإيطاليين من الشرق الأوسط، وهزمت فرنسا الفيشية في المشرق العربي. عندما كانت قوى المحور تكتسح كل ما في طريقها، التحق الكثير من العرب بركب الألمان - مثل الحاج أمين الحسيني الذي شعر بالمرارة من الدعم البريطاني الثابت للصهاينة وراهن على نصر الألمان. أما رياض فكان يمتلك الحس السياسي السليم ولم يخذل حذوهم معتقداً أن الحلفاء سينتصرون. لكن لا بد من أنه تساءل في بعض الأحيان عما إذا كان يمكن كسب أي شيء من القوى الغربية الاستعمارية العنيدة، التي هتمت بحماية مصالحها في الشرق الأوسط أكثر من اهتمامها بتحقيق آمال العرب في الاستقلال الوطني.

على الرغم من أن رياض راهن على الحلفاء، فإن نفاذ صبره على الفرنسيين لم يكن له حدود. فطالما رفضوا أن يتقبلوا واقع قومية العرب، وتعهدوا على مدى عدة عقود إحباط الطموحات السياسية المشروعة لنخبة الأكثرية السنّة التي كان رياض من أبرز أعضائها. فقسّموا المشرق العربي إلى دويلات ومناطق تتمتع بحكم ذاتي، واقتطعوا لبنان الكبير لصالح أتباعهم الموارنة. كان ذلك خطأ فرنسا الجسيم الكبير. فقد أثارت فرنسا عداوة المسلمين السنّة المستحکم بإعطائها الموارنة موقعاً مسيطراً في منطقة ذات أهمية استراتيجية قد تشكّل قاعدة يمكن السيطرة منها على الأراضي السورية الداخلية، وأعاققت فرصة قيام أي تفاهم ذي معنى بين المسلمين والموارنة.

سعت المدارس والكلّيات الفرنسية إلى أداء دور مهم في نهضة التعليم في سوريا ومصر منذ القرن التاسع عشر. لكن سرعان ما كسبت حركة بعث اللغة والثقافة العربية وإحيائهما الزخم، وبخاصة في سوريا، ما جعل الادّعاء الفرنسي بالسيطرة

الثقافية عبئاً ثقیلاً. فالعائلات المسلمة المحنكة في بيروت ودمشق، وهي التي اعتادت السفر وتقلّدت المناصب الرفيعة في الإدارة العثمانية السابقة، شعرت بالإهانة لاضطرارها إلى التعاطي اليومي مع مسؤولين فرنسيين متوسطي النوعية وفظّين ومرتشين في الغالب، ولديهم العنجهية لمعاملتهم باحتقار. كان رياض الصلح نفسه ميّالاً إلى فرنسا ويشعر بالارتياح كثيراً في باريس، ومع ذلك أصبحت علاقاته الشخصية والسياسية مع البيروقراطية المستبدّة في المفوضية الفرنسية العليا سيئة جداً.

عندما سحق الفرنسيون الثورة السورية الكبرى في سني 1925-1926، كان رياض الصلح من القوميين الأوائل الذين رأوا أنّ الوقت قد حان لتغيير الاستراتيجية. ورأى أن الحكمة تقتضي السعي إلى إقناع الجمهور الفرنسي بأن سياسات حكومته الاستعمارية مخطئة ومجحفة، بدلاً من اللجوء إلى السلاح - وهو مشروع غير مجد وانتحاري في مواجهة القوة العسكرية المتفوقة للإمبراطورية الفرنسية. فبذل جهوداً كبيرة في حملة إعلامية ودعائية لطرح قضية العرب أمام البرلمانيين والصحافيين الفرنسيين. وبدا أن جهوده أثّرت في سنة 1936 عندما وافقت حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم على التفاوض مع سوريا ولبنان، ما أعش الأمل بوضعهما على طريق الاستقلال. وكان رياض قد وضع معرفته الواسعة بالشؤون الفرنسية في خدمة الوفد السوري، وشارك في الفرحة الشعبية العارمة عندما تمّ التوصل إلى اتفاق.

لكن عندما رفضت فرنسا التصديق على معاهدي سنة 1936، تحوّل الأمل إلى مرارة ومزاج مضطرب. وفجأة فقد رياض ورفاقه في الكتلة الوطنية السورية صديقتهم، وتعرّضوا لانتقاد عنيف من القوميين المتطرفين، وبخاصة من الدكتور عبد الرحمن الشهيندر الذي لعب دوراً قيادياً في ثورة 1925. وازدادت حدّة الشعور بالفشل عندما تخلّت فرنسا بنجث عن لواء الإسكندرونه الواقع شمال غرب سوريا، للأتراك في سنة 1939، فبترت جزءاً مهماً من الأراضي السورية من دون أن تكلف نفسها عناء التشاور مع السوريين أنفسهم. فتوصّل الكثير من الوطنيين، ومن بينهم رياض، إلى الخلاصة القاسية أن الحرب بين القوى الأوروبية قد تكون فرصتهم الوحيدة للتخلّص من الحكم الفرنسي الكريه.

السياسة الاستعمارية ببريطانيا وفرنسا

أدرك رياض الصلح أن بريطانيا وفرنسا جارتان قلقتان في الشرق الأوسط. لم يخف الفرنسيون اقتناعهم أن البريطانيين يتآمرون لطردهم من سوريا وبناء إمبراطورية عربية خاضعة لسيطرتهم، بينما كان البريطانيون مقتنعين بأن فرنسا يسرّها إثارة الاضطرابات المناهضة للبريطانيين. فالتنافس البريطاني الفرنسي إحدى حقائق الحياة كما يعرف كل سياسي عربي. لكن السؤال هو: كيف يمكن الاستفادة من هذا التنافس لمصلحة العرب؟

من أسباب الشك المتبادل بين بريطانيا وفرنسا تباين مفهوميهما للسياسة الإمبريالية، كما يوضحه اختلاف ردودهما الضغط الوطني. كانت الاستراتيجية البريطانية العامة تقوم على التظاهر بالإذعان للمطالب الوطنية، على أمل أن يسمح لها ذلك بالحفاظ على النظام بأقل قدر ممكن من القوة في الأراضي التي تسيطر عليها. وكانت تحب إظهار أنها ترغب في التوفيق بين طموحات العرب واحتياجاتها الاستراتيجية، على الرغم من عدم إمكانية تحقيق ذلك بسلاسة بطبيعة الحال. فلا شك في أن السياسة البريطانية الاستعمارية المنحازة والكارثية في فلسطين هي التي مهّدت إلى سفك الدماء المستمر حتى يومنا هذا.

بالمقابل، أصرّ الفرنسيون على اعتبار القومية العربية عدوًّا يجب ضربه - بأكثر قدر ممكن من العنف. فاحتفظوا بحامية عسكرية كبيرة في سوريا خوفاً من أن يؤدي أيّ تنازل هناك إلى تشجيع الاضطراب في مستعمراتهم في شمال أفريقيا، حيث كانوا عازمين على سحق الحركات الوطنية الكبيرة كما فعلوا بوحشية في الجزائر. ووفقاً لما جاء في أحد التقارير البريطانية المعبرة عن الرضى عن النفس (والمراوغة)، "حاول البريطانيون تحويل انتداباتهم إلى تحالفات؛ فيما بدا أن الفرنسيين يحاولون على الأقلّ تحويلها إلى مستعمرات"⁽¹⁾.

حقّق موقف بريطانيا، الأكثر مرونة في الظاهر، بعض النجاحات، لإمبراطوريتها على الأقل. وأهم هذه النجاحات المعاهدتان مع العراق في 30 حزيران/يونيو 1930

(1) A.B. Gaunson, انظر أيضاً Report by F.R.P.S., 4 November 1940, FO 371/27308. *The Anglo-French Clash in Lebanon and Syria, 1940-45*, New York 1987, and Avieli Roshwald, *Estranged Bedfellows: Britain and France in the Middle-East during the Second World War*, Oxford 1990

ومصر في 26 آب/أغسطس 1936. نصّت معاهدة العراق على إقامة تحالف لمدة خمس وعشرين سنة، وتخصيص قاعدتين جويتين ل سلاح الجو الملكي - واحدة في الفرات الأوسط والأخرى في البصرة. وضمنت لبريطانيا تسهيلات عسكرية وطرق المواصلات في زمن الحرب، وأكدت على "الصيانة الدائمة لوسائل الاتصالات الأساسية لصاحب الجلالة وحمايتها". في المقابل، لم يُمنح العراق السيادة الكاملة، بل بعض الحرية الكبيرة في العمل السياسي والدبلوماسي، في الداخل والخارج. وعلى نحو مماثل، أقامت المعاهدة المصرية تحالفاً دائماً مع بريطانيا العظمى ونصّت على التمرکز المؤقت للقوات البحرية والبرية والجوية البريطانية في مصر للدفاع عن قناة السويس.

رأى الفرنسيون أن السياسة البريطانية التي تعزّز "الاستقلال" في العراق ومصر، تشكّل سابقة تزعزع استقرار الوجود الفرنسي في سوريا. وأبدوا امتعاضاً من علاقات بريطانيا الوثيقة مع الأمير عبد الله في شرق الأردن، وهو بلد يؤمن في نظرهم قاعدة للعمليات التخريبية ضدّ حكمهم في سوريا.

أدرك رياض الصلح تماماً تفوّق القوة البريطانية السياسية والعسكرية والتجارية في المنطقة - من خلال سيطرتها على مصر، وفلسطين، وشرق الأردن، والعراق والخليج العربي - لكن كان عليه التعامل مع فرنسا في كلّ من لبنان وسوريا. لذا هاله أن تبدأ فرنسا بتشديد قبضتها على المشرق العربي بدلاً من إرخائها، عندما بدت الحرب وشيكة الوقوع في 1939، مسددة بذلك ضربة أخرى لآمال سوريا بالاستقلال.

ويغان وجيش المشرق

في 25 آب/أغسطس 1939، استُدعي الجنرال المتقاعد مكسيم ويغان Maxim Weygand - الذي شغل منصب المفوض السامي الفرنسي في بيروت في سنة 1924 - على وجه السرعة من مقاطعة بريتاني Brittany لتسلّم قيادة القوات الفرنسية في شرق المتوسط. ومُنح السلطة على المفوض السامي غابريال بيو (كان سفيراً لفرنسا في فينّا في زمن ضم النمسا إلى ألمانيا)⁽¹⁾.

(1) انظر Maxime Weygand, *Mémoires*, Tom III, Rappelé au service, Paris 1950; Henry de Wailly, *Syrie 1941: La Guerre Occultée*, Paris 2006, pp. 19 ff

كان ويغان صغير البنية رشيقاً ذا نظرة حادة، في الحادية والسبعين من عمره، ويتمتع بحيوية عالية على الرغم من تقدّم سنّه. وصل إلى بيروت في 30 آب/أغسطس عبر مرسيليا، وتونس، ومالطا والإسكندرية، وانتقل جواً إلى القاهرة في اليوم التالي للاجتماع بالجنرال السير أرشيبالد ويفل Sir Archibald Wavell، القائد الأعلى للقوات المسلحة البريطانية في الشرق الأوسط. وبعد يوم واحد فقط، في 1 أيلول/سبتمبر 1939، هاجم الألمان بولندا وأعلنت الحرب.

في هذا الجوّ المحموم كانت مهمة ويغان العاجلة إعادة بناء جيش المشرق الذي يفتقر إلى اللياقة القتالية بسبب سوء التجهيز والترهل وطول سنوات الانتشار الروتيني. وكان معظم ضباطه وضباط الصف - وهم ممن قاتلوا في الحرب العالمية الأولى - متقدّمين في السن ولا يحملون النشاطات البدنية المرهقة. وبعضهم أصبح شديد السمّة بحيث لم يعد في وسعه ربط حزام الخدمة. لقد جاؤوا إلى المشرق لتفادي حياة الثكنات في فرنسا، ولم يشهدوا أيّ معارك عسكرية منذ سحق الثورة السورية الكبرى في سنة 1925. تحوّل العديد من عناصر القوات الفرنسية إلى طبّاعين وسائسي خيل وسائقين وأمناء سرّ وحراس، لا يصلحون إلا للتعامل بطريقة وقحة وعنصرية مع السوريين. وكانت زوجاتهم عدائيات أيضاً. غير أن أعدادهم بدت كبيرة على الورق: 1686 ضابطاً، و40000 عسكري. وثمة 300 ضابط آخر، 50 منهم فقط فرنسيون، يقودون وحدات مكوّنة من 15000 رجل محلي⁽¹⁾.

شكّل هذا الجيش مزيجاً غريباً متعدّد الأعراق والأديان من وحدات من مستعمرات شمال أفريقيا، والكتائب السنغالية، والقوات العربية المحلية، التي سُمّيت "قوات المشرق الخاصة". وتكوّنت هذه القوات من مجنّدين لبنانيين وسوريين، من الأقليات ذات الأصول الفلاحية. وضمت علويّين من الجبال المشرفة على اللاذقية، ومسيحيّين من أصل آشوري - كلداني من منطقة الفرات. وشكّل الفرنسيون أيضاً اثنتي عشرة سرية خيالة من الشركس والدروز والأكراد الذين يحصلون على أجر يومي

Maurice Albord, *L'Armée Française et les états du Levant, 1936-1946*, Paris 2000, (1) pp. 26-35.

وعلاوة للطعام، عندما يكونون في الميدان، لكنهم مسؤولون عن البحث عن علف لمطاياهم بأنفسهم⁽¹⁾.

استخفّ الفرنسيون الذين يقودون هذه القوى المتنافرة بواجباتهم، بعدما اعتادوا الكسل بسبب المناخ المعتدل والحياة السهلة. فكانوا يمضون معظم أوقاتهم في لعب الورق أو كرة المضرب أو في المقاهي، ويراهنون على سباقات الخيل أيام الآحاد. وساهمت معدّاتهم العسكرية القديمة والبالية في هذا الجوّ العام من الوهن. كان معظم الضباط والرقباء والعرفاء الفرنسيين متطوّعين اضطروا إلى الانتظار سنتين أو ثلاث سنوات أحياناً للحصول على هذه المناصب المريحة في المشرق، حيث يمنحون رواتب معفاة من الضريبة، ووجبات طعام مدعومة، ومساكن وعناية صحيّة مجانية، إضافة إلى العديد من المزايا والعلاوات. لذا وجد الفرنسي الذي يعيش في بيروت أو حلب أو دير الزور أنه أفضل حالاً بكثير مما لو أقام في حامية في فرنسا. تلك كانت إغراءات التعيين في المشرق بحيث أصبح هناك ميل إلى قضاء أطول فترة ممكنة في الخدمة. وأمضى بعض العسكريين مدّة خدمتهم العسكرية بأكملها في سوريا ولبنان، متمسّكين بفكرة "الحكم المباشر" للسكان الأصليين، إذ إنّ ذلك يخدم جيوبهم الخاصّة قبل كلّ شيء. غير أنه كان من النادر أن يهتم مثل هؤلاء الرجال بالتعرّف إلى أي عائلة عربيّة، ناهيك عن التفكير في تعلّم اللغة العربيّة في أثناء الخدمة.

كانت الفكرة الشائعة لدى جيش المشرق الفرنسي في ذلك الحين أن سوريا ولبنان جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية الفرنسية، ويجب الدفاع عنهما في مواجهة جميع الوافدين ومهما كان الثمن. وقد اعتبر العديد منهم أن المبدأ الذي يقوم عليه الانتداب، ورسالته المعلنة عن "إعداد" السكان المحليين للاستقلال، خيانة للمصالح الخاصّة التي زيّنت بتعبير "المهمّة التمدينية" لفرنسا. لقد كانت مرحلة ركود عميق بسبب الافتقار إلى الإرادة أو الخيال السياسي في باريس، وانحطاط مستوى التمثيل الفرنسي على الأرض⁽²⁾. وعمل الفرنسيون في الواقع على إدارة نظام استعماري في سوريا ولبنان تدعّمه القوّة العسكريّة.

(1) de Wailly, *Syrie 1941*, p. 25

(2) Raymond, "La Syrie du Royaume Arabe à l'Indépendance", p. 71

كانت مهمّة ويغان تقتضي تحويل هذه الوحدات المتباينة والعاجزة في جيش المشرق إلى قوّة قتاليّة فعّالة. وقد تمكّن من اجترّاح الأعاجيب على الرغم من الصعوبات والعقبات. فجمع في غضون ستة أشهر قوّة من 50,000 رجل يتميّزون بحسن التنظيم والتجهيز والقيادة، بعد استقدام تعزيزات وعتاد من فرنسا، وأطلق عليها اسم مجموعة القوات المتحرّكة في المشرق.

جاء كل ذلك بمثابة أنباء سيّئة جدّاً لرياض الصلح وزملائه الوطنيين. فأجبروا على الابتعاد عن الأضواء. وعندما وقعت الحرب بين فرنسا وألمانيا، علّق الفرنسيون العمل بالدستور في المشرق إلى أجل غير مسمّى، واتخذوا إجراءات صارمة ضدّ أي تلميح إلى التحريض السياسي. فوضّعت الشرطة تحت إمرة الجيش الفرنسي، وخضعت الصحافة لرقابة مشدّدة وحُدّدت بصفحة واحدة يومياً. وحظر الاستماع إلى الإذاعات الألمانية والإيطالية التي اعتاد عليها السكان المحليون تحديداً للفرنسيين، تحت طائلة السجن بين ثلاثة أشهر وثلاث سنوات، وغرامات تتراوح بين عشرين ومئتي ليرة سورية. وأطفئت أنوار الشوارع بشكل شبه كامل، وسُمح للمركبات باستعمال أضوائها الأماميّة فقط بشكل خافت⁽¹⁾. وأنشئت محكمة عسكريّة لمحاكمة معارضي الحكم الفرنسي، وكان رياض من المشتبه فيهم الرئيسيين.

في 10 أيار/مايو 1940، شنّ هتلر هجومه الصاعق على بلجيكا وفرنسا، وخلال أيام كانت فرنسا قد خسرت الحرب. في 17 أيار/مايو، استدعى بول رينو Paul Reynaud، الذي خلف إدوارد دلاديه في منصب رئيس الوزراء في آذار/مارس، الجنرال ويغان على عجل إلى باريس وبتسلّم بعد يومين المهمة المستحيلة لقيادة الوضع المنهار. سقطت دنكرك في 4 حزيران/يونيو وانهارت جبهة السوم بعد ذلك بأسبوع. وفي 14 حزيران/يونيو، سلّمت باريس - التي أنقذت من الدمار الوحشي بإعلانها مدينة مفتوحة - إلى الألمان في طقوس كئيبة في فندق كريون في ساحة الكونكورد. وقد سقط، في أقلّ من شهر واحد، 70,000 جنديّ فرنسي في محاولة يائسة لوقف الهجوم الألماني. في 22 حزيران/يونيو وقّعت فرنسا على اتفاق هدنة مع ألمانيا.

في سنة 1939، ظَلَّت فرنسا وبريطانيا تحكمان أعظم إمبراطوريتين في العالم. وبعد أشهر قليلة، هُزمت إحداهما تماماً، فيما بدا من الحتم أن تلقى الأخرى المصير نفسه. أُرهِقَت هذه الأحداث المتسارعة والدرامية ولاء العرب المشكوك في أمره تجاه الفرنسيين. وقد ذُكر في ذلك الوقت أن السوريين عندما يريدون التعبير عن تأييد هتلر، وتجاوز الرقابة الفرنسية، كانوا يسمّونه "أبو رشيد"، وكان يُعرف في لبنان باسم "أبو سعيد".

وقع الهزيمة الفرنسية

سبّبت هزيمة الجيش الفرنسي - التي تبعها على الفور اتفاق الهدنة الذي عقده المارشال فيليب بيتان Philippe Pétain - الشك والخوف والحزن لدى المجتمع الفرنسي في المشرق. حلّ بيتان، وهو بطلٌ معرّرٌ من الحرب العالمية الأولى، محلّ بول رينو في منصب رئيس الوزراء في 16 حزيران/يونيو. لم تكن بنود الهدنة التي تمكّن من تأمينها مُذَلَّة على النحو المتوقع. فمع أن فرنسا استسلمت لألمانيا، فقد كان في وسعها الاحتفاظ بأسطولها وإمبراطوريتها. وبالرغم من احتلال نصف أراضيها، كان بإمكانها الاحتفاظ بعلمها وإدارتها واستقلاليتها السياسية وممثليها الدبلوماسيين وأسطولها التجاري. لا شك في أن بنود تلك الهدنة المتساهلة نسبياً، كانت تشير إلى أنّ ذلك تدبير مؤقت، في تفكير هتلر على الأقل، فقد كان يتوقع أن تسقط بريطانيا في غضون أسابيع، وعندئذ يضع نظامه الأوروبي الجديد في مكانه.

في لبنان، صلّى الموارنة المضطربون لخلاص فرنسا في جو من الحزن العميق. بل إن النساء تخلّين عن ارتداء مجوهراتهن. وتزاحم نحو 14,000 مصطفى من مصر والبلدان المجاورة على مغادرة المنتجعات في الجبال اللبنانية والعودة إلى أوطانهم. واضطّر الكثير منهم إلى العودة برّاً عبر فلسطين، بسبب توقّف المواصلات البحرية بصورة مؤقتة. وغادر ملك العراق، الذي لا يزال طفلاً، إلى بغداد في 8 أيلول/سبتمبر مصاباً بخيبة أمل لاخطّاره إلى قطع إجازته⁽¹⁾. وبدأت المواقف من فرنسا بالتغيّر، حتى في

Consul General Havard to Foreign Office, Beirut, 13 September 1939 (FO (1)
.371/23277)

صفوف أتباعها وأشد مناصريها حماسة. فالتفت بعض الموارنة إلى الإيطاليين وبعضهم الآخر إلى الألمان بحثاً عن حامٍ جديد يضمن سلامة لبنان واستقلاله. بل إن بعضهم توجه إلى أنقرة للاجتماع بالسفير الألماني النافذ فرانتر فون بابن Frantz Von Papen. شجّع هذا التغيير الذي طرأ على المواقف الشعبية القوميين العرب فبدؤوا بتجديد نشاطاتهم، آمليين في أن يكون التحرير في متناول اليد. ونظّم رياض الصلح اجتماعات سياسية لتعبئة معارضة الفرنسيين الذين بدا وجودهم في المشرق بعد احتلال الألمان لوطنهم، غير ممكن. علّق المسلمون المحليون آمالهم على الألمان، ومنهم رياض الذي أغراه التطلّع في تلك الوجهة⁽¹⁾. وتشجّعت الأنظمة العربية الواقعة تحت السيطرة البريطانية، على اعتبار انهيار فرنسا فرصة ذهبية للقضاء على الانتدابات الفرنسية بصورة نهائية. فحثّ رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد بريطانيا على إجبار فرنسا على منح سوريا ولبنان استقلالهما على الفور، متأملًا من دون شك في جعل سوريا جزءاً من كونفيدرالية قومية عربية بقيادة بغداد. وعبر السعوديون عن خوفهم من أن تقسم إيطاليا وتركيا سوريا فيما بينهما، في ما خشي خصمهم، الأمير عبد الله في شرق الأردن، من انتهاز السعوديين فراغ السلطة في سوريا وتعيين أمير سعودي هناك⁽²⁾.

في فرنسا، سارعت حكومة بيتان الجديدة، في بوردو أولاً، ثم في فيشي، إلى تعزيز سلطتها على الإمبراطورية التي قُطع رأسها بالهيار الوطن الفرنسي. ووقع الحكّام الفرنسيون في الأماكن البعيدة كالأندلس والصين والمغرب وغرب أفريقيا في معضلة الاختيار بين شرعية المارشال بيتان أو دعوة الجنرال شارل ديغول الجريء - الذي أذيع عبر هيئة الإذاعة البريطانية في لندن في 18 حزيران/يونيو 1940 - إلى رفض الاعتراف بالهدنة الفرنسية الألمانية ومتابعة قتال ألمانيا النازية بقيادته. اختار

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 113 ff, p. 116; Raymond, "La Syrie du Royaume Arabe à l'Indépendance", p. 77.

(2) Roshwald, *Estranged Bedfellows*, p. 16. يقال إن مؤيدي ابن سعود الذين عملوا في هذا السبيل كانوا يضمون الشيخ يوسف ياسين في الحجاز، والدكتور مدحت شيخ الأرض (صهر جميل مردم) الذي أصبح طبيب ابن سعود النافذ الرأي في الحجاز، وخالد الحكيم وحسين العويني اللذين كانا يعملان في شركة بحصلي وعويني في بيروت.

معظم الحكام والضباط الكبار أن يأخذوا جانب بيتان. وكان الجنرال جورج كاترو Catroux واحداً من ثلاثة جنرالات فرنسيين فقط أيدوا ديغول. كان كاترو، الحاكم العام للهند الصينية عند سقوط فرنسا. وقد خدم مرتين في الشرق الأوسط قائداً للبعثة العسكرية الفرنسية إلى الحجاز في سنة 1919-1920، ثم رئيساً للاستخبارات في سوريا ولبنان بين سنتي 1926 و1928. وسرعان ما عاد للظهور في المشرق⁽¹⁾.

في بيروت؛ شهدت الصفوف الفرنسية لحظة ارتباك كلي. لم يكن حجم الجنرال ديغول معروفاً، ولم يسمع بيبانه الشهير سوى قلة من الفرنسيين في المشرق. وتأيدته يعني المراهنة على الحياة المهنية وتعريضها للخطر. تردّد القائد العام للقوات الفرنسية الألزاسي الضخم القامة الجنرال يوجين ديزيرييه ميتلهاوزر Eugène-Désiré Mittelhauser والمفوض السامي غابريال بيو. وفي الحالتين اصطدمت غريزة القتال بالإحساس العميق بالطاعة للقادة السياسيين. وقد صدمتهما الهدنة، ففكّرا في رفضها في البداية، وهو موقف متمرّد شجّعه الضباط الصغار، ومن بينهم رئيس هيئة الأركان العقيد إدغار دي لارمينا Edgar de Larminat، الذي تأمر لتسليم جيش المشرق بأكمله إلى البريطانيين في فلسطين.

ثم أتت الأوامر من بورديو للصمود، فانصاع لها ميتلهاوزر. فأمر بتوقيف لارمينا وحكم عليه بالسجن مدة ثلاثين يوماً في قلعة دمشق. لكن العقيد تمكّن من الهرب إلى فلسطين بمساعدة الضباط الصغار، مع عدد من الجمهوريين الإسبان ويهود من أوروبا الوسطى وهنغارين وبرتغاليين وتشيكين وآخرين في الفيلق الأجنبي الفرنسي. وسُمح للواء بولندي بقيادة الجنرال كوبانسكي Kopanski بعبور الحدود مع آلياته وكامل أسلحته، بعد أن خشي من تسليمه إلى الألمان⁽²⁾. هكذا تمكّن ما مجموعه 900 رجل، من بينهم بعض الضباط، من أصل 50,000 عسكري متمرّكين في سوريا ولبنان الخاضعين لفرنسا، من التسلّل إلى فلسطين الخاضعة لبريطانيا. وظلّ الباقون

(1) أصدرت حكومة فيشي عليه حكماً بالإعدام غيابياً في 10 نيسان/أبريل 1941. Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 14; de Wailly, *Syrie 1941*, p. 469, n. 16, and p. 470, n. 24.

(2) de Wailly, *Syrie 1941*, pp. 33 ff and 47.

موالين لحكومة فيشي. وعلى أي حال، فإن حكومة فيشي قطعت علاقاتها مع بريطانيا بعدما هاجمت البحرية الملكية الأسطول الفرنسي في المرسى الكبير [في الجزائر] في 3 تموز/يوليو 1940 - أي بعد أسبوع فقط من توقيع الهدنة - ما أسفر عن مقتل 1500 بحار فرنسي، وغرق عدة سفن فرنسية. وضع ذلك نهاية مفاجئة لمحاولة القوات الفرنسية المهرب إلى فلسطين. وأعاد الكثيرون ممن أرادوا الانضمام إلى ديغول في إنكلترا التفكير في قرارهم.

ما إن خضع بيو وميتلهاوزر لأوامر بيتان، حتى وقعا تحت ضغط اقتصادي كبير، إذ بدأت بريطانيا حصاراً للأراضي الخاضعة للسيطرة الفرنسية برّاً وبحراً، ما أدى إلى عسر كبير في سوريا ولبنان. فشهدت أسعار الأدوية والفحم والخطب ارتفاعاً كبيراً، وأصبح من الصعب جداً الحصول على السلع الأساسية، مثل السكر والأرز والبنزين والمازوت. وبدأ المنتجون السوريون يخزنون الطحين، ما أجبر عدة مخازن في بيروت على الإغلاق. لام الفرنسيون البريطانيّين علناً على مشكلات نقص المؤن⁽¹⁾. غير أن الوطنيين رأوا في هذه المشكلات مصدراً للتشجيع والتحدّي، وشعر العديدون أن الوقت قد حان لاستغلال الارتباك الحاصل في صفوف جيش المشرق، وانقسامه بين المؤيدين لبيتان والمؤيدين لديغول، والتطلع إلى بريطانيا للخلاص. لكن خاب أملهم.

لم يدرك رياض الصلح ورفاقه أن بريطانيا لم تكن راغبة في التدخل في المشرق، على الأقل في ذلك الوقت. فقد كانت لندن شديدة الحذر: فهي بحاجة إلى الاستقرار في حين تركز قواتها في أماكن أخرى لمواجهة ألمانيا في صراع حياة أو موت. وهكذا فإنها كانت راغبة في تجنّب الصدام العسكري المباشر مع فيشي، بينما تساند حركة فرنسا الحرة بقيادة ديغول، إذ لم يكن لديها قوات كافية للقتال. وانصبّ اهتمام بريطانيا الرئيسي على ضمان ألا يمنح الفرنسيون في بيروت دول المحور موطن قدم في الأراضي التي يسيطرون عليها. ولاسترضاء حكومة فيشي، قدّم البريطانيون ضمانات بأنهم لا يريدون إنشاءً واحداً من الأراضي الفرنسية لأنفسهم، وبلغوا حدّ التعهّد بإعادة الإمبراطورية الفرنسية إلى سابق عهدها عندما يتحقق النصر. في المقابل،

طُلب من حكومة فيشي إبقاء الألمان بعيدين عن القواعد الفرنسية في الخارج، وبخاصة في المشرق⁽¹⁾.

تزايدت أهمية دول المشرق لدى لندن في أعقاب حزيران/يونيو 1940، عندما ساند موسوليني في وقت متأخر هتلر، مهدداً بذلك موقع بريطانيا في المتوسط والشرق الأوسط وشرق أفريقيا. كان لدى أرشيبالد ويفل، القائد العام البريطاني في الشرق الأوسط، قوة قوامها 50,000 رجل متمركزة محلياً، بينما ناهز عدد القوات الإيطالية في ليبيا وإريتريا وإثيوبيا نصف مليون جندي، مدعومة بقوة بحرية وجوية قوية. وشكّل وجود الإيطاليين في إريتريا على وجه الخصوص تهديداً للمواصلات البريطانية الحيوية عبر البحر الأحمر مع الهند وسنغافورة وأستراليا⁽²⁾. وكانت إيطاليا قد انتزعت ليبيا من الإمبراطورية العثمانية في سنة 1911 واستعمرتها بالقوة. وبحلول سنة 1938، استقرّ 90,000 جندي إيطالي في ليبيا، وبخاصة في طرابلس وبنغازي وسهل الجفارة. وغزا موسوليني إثيوبيا أيضاً في سنة 1935 - 1936 بغية توحيدها مع إريتريا وأرض الصومال الإيطالية، والتبجح بتأسيس إمبراطورية رومانية جديدة في شرق أفريقيا⁽³⁾.

حذّرت وزارة الخارجية البريطانية حكومة الحرب من أن تمكّن قوات العدو من تأمين تسهيلات في المشرق، سيؤدي إلى الالتفاف على البريطانيين وتعريض موقفهم في الشرق الأوسط ومصر وشبه الجزيرة العربية للخطر⁽⁴⁾. واتفق رؤساء الأركان مع هذا التقييم، فكتبوا في إحدى مذكراتهم:

لا يمكن أن نسمح بحلول إدارة أو نفوذ ألماني أو إيطالي محل السلطة الفرنسية في سوريا ولبنان.

وتقتضي الضرورة القصوى بقاء سوريا ولبنان من الناحية العسكرية تحت إدارة تميل لصالحنا.

(1) Roshwald, *Estranged Bedfellows*, p. 19.

(2) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 4, 11.

(3) William Roger Louis, "The Colonial Empires of the Late Nineteenth and Early Twentieth Centuries," in W.R. Louis, *Ends of British Imperialism: The Scramble for Empire, Suez and Decolonization. Collected Essays*, London 2006, pp. 39-40.

(4) Foreign Office to War Cabinet, 9 May 1940 (FO 371/24591); Foreign Office to War Cabinet, 1 July 1940 (FO 371/24592).

لذا يجب أن تتوجّه سياستنا نحو:

- دعم الفرنسيين من أجل المحافظة على بقاء إدارتهم
- تقديم مساعدة حيوية إلى الفرنسيين في حال تداعى إدارتهم
- إحلال الإدارة البريطانية محل الإدارة الفرنسية في حال انهيارها

وأضافت المذكرة أن انقطاع خطوط المواصلات التي تمتد الفرنسيين بالمؤن والمعدات الحربية، وعدم امتلاكهم أي وسيلة لمغادرة سوريا، يدعونا إلى تشجيعهم على الاعتماد علينا⁽¹⁾.

صدم دخول إيطاليا الحرب السوريين واللبنانيين الذين استأثروا، من دون استثناء تقريباً، من غزو الإيطاليين الوحشي لليبيا واستعمارها. وقد أخذت الحرب تطرق أبوابهم. وظهرت الحاجة إلى مزيد من الاحتياطات الوقائية من الهجمات الجوية. فشُدّدت القيود على الإضاءة وظهرت الخنادق في الحدائق العامة وعلى أي أرض فارغة. وقد لاحظ مسؤول قنصلي بريطاني في دمشق بشيء من السخرية أن "الوفد الفرنسي وطاقمه نزلوا إلى الخندق الذي كان قد حُفر لهم في قطعة أرض مجاورة وأمضوا فيه نصف ساعة في الشمس الحارقة، تصحبهم الروائح الكريهة التي لم تترك أي شك في غرض استعمال هذا الخندق في الليلة السابقة"⁽²⁾.

وبما أن السياسة البريطانية تقوم على دعم النظام المحلي لحكومة فيشي، فإن العلاقات بين البريطانيين ونظرائهم الفرنسيين في المشرق بقيت جيدة نسبياً. أرسل القنصل البريطاني العام غودفري هافارد Godfrey Havard تقريراً إلى لندن في 14 تموز/يوليو 1940 يفيد فيه: "علاقتي بالسلطات لا تزال جيدة، مع أن الفرنسيين يبدوون العرقله أحياناً ويشكّون دائماً في وجود مكيدة بريطانية في سوريا، فإنهم سيواصلون على الأرجح بذل ما في وسعهم للمحافظة على جوٍّ من التعاون ما دام لديهم أمل بالحصول على مساعدة اقتصادية من حكومة جلالة الملك". وبعد أسبوعين، وصف هافارد محادثاته الصريحة والودية مع المفوض السامي بيو:

(1) Chiefs of Staff Committee to War Cabinet, 22 July 1940 (FO 371/24592)

(2) 21 June 1940 (FO 371/24591)

لم يترك لي مجالاً للشك في مواقفه الصادقة التي عبّر عنها مؤكداً أن كل مواطن فرنسي حقيقي لا يسعه إلا أن يأمل بانتصار بريطانيا. كان أيضاً صريحاً بالقول إنه سيخضع لكل الأوامر الصادرة عن حكومة فيشي. وفي الوقت نفسه أبلغني أنه سيسعى إلى التقليل ما أمكن من التعليمات الصادرة عن حكومة فيشي على أمل تركه وشأنه في إدارة هذه الأراضي من دون تدخّل غير مستحب قدر الإمكان⁽¹⁾.

لم تجلب الحرب سوى القليل من التغيرات المباشرة، إلى جانب الحصار - الذي عمد البريطانيون إلى تخفيفه بين الحين والآخر. كانت القطارات المتجهة من فلسطين إلى العراق تعبر الأراضي الخاضعة للانتداب الفرنسي، وبقيت القنصليات البريطانية في دمشق وبيروت مفتوحة، وكذا القنصلية الفرنسية في القدس. أثارت هذه السياسة البريطانية غضب الجنرال ديغول الذي يتلهّف لطرد حكومة فيشي وتأسيس حركة فرنسا الحرة في المشرق.

لم يستطع رياض الصلح والوطنيون أيضاً فهم ذلك وخابت آمالهم بشدّة. فقد رأوا أن حكومة فيشي تتعاون مع ألمانيا، وهي قوّة يحارباها البريطانيون. مع ذلك، لم يكن هناك تفسير لاستمرار العلاقات الودية بين المسؤولين البريطانيين والفرنسيين التابعين لحكومة فيشي في بيروت ودمشق. فشعر الوطنيون الذين أملوا بالتحريض بالارتباك والإحباط بسبب استمرار التضامن بين هاتين القوتين الاستعماريّتين.

حرب دول المحور الدعائية

حرص رياض الصلح على عدم الالتزام بقضية المحور، على الرغم من لقائه عدّة زوّار ألمان بارزين إلى المشرق في أواخر الثلاثينيات وأوائل سنوات الحرب. فقد أمضى سنواته التكوينية في استانبول وجنيف، لذا كانت ميوله ديمقراطية وثقافته السياسية عثمانية وفرنسية في آن معاً. وجد معظم مظاهر نظام هتلر بغیضة للغاية: تقديس القائد، والعنصرية "الآرية"، والنزعة العسكرية العدوانية، وسحق أي معارضة بوحشية. لكنه أدرك أن عليه أن يكون مستعداً للتعامل مع ألمانيا إذا ربح الحرب.

Consul General Godfrey Havard to Foreign Office and War Cabinet (1)
(FO 371/24593).

غير أنه لم يكن يتطلّع إلى ذلك الاحتمال. على أي حال، بدا له أن اهتمام ألمانيا بالعالم العربي فاطر. فقد كان اهتمام هتلر منصباً على أوروبا الوسطى والشرقية، ولم يشأ تحدي المصالح البريطانية الاستعمارية في العالم العربي ولا إثارة عداوة موسوليني وإزعاج طموحاته الكبيرة في المنطقة. غير أن البريطانيين الحريصين دائماً على حماية مصالحهم الحيوية في الشرق الأوسط - النفط وقناة السويس وخطوط المواصلات الاستعمارية مع الهند والشرق الأقصى - أبقوا أعينهم مفتوحة على الأنشطة الألمانية في المنطقة.

تبعّت زيارة البارون بالدور فون شيراش Baldur Von Schirach، أحد قادة منظمات الشبان النازية، إلى سوريا في كانون الأول/ديسمبر 1937، زيارات أخرى قام بها وكلاء الدعاية الألمانية. ففي حزيران/يونيو 1938، اختار والتر بيك Walter Beck، وهو مسؤول ألماني كبير، نحو 70 سورياً للدراسة في ألمانيا، على أن تدفع الحكومة الألمانية تكاليف الدراسة والإقامة بأكملها. وأفاد القنصل البريطاني غيلبرت ماكيريث Gilbert Mackereth في كانون الأول/ديسمبر 1938، أن البعثة الدبلوماسية الألمانية في بغداد أصبحت المركز الإداري للنشاط الألماني السياسي في سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق⁽¹⁾. في دمشق، شكّل النادي العربي مركز الدعاية الألمانية، وكان يرأسه الدكتور محمد سعيد فتّاح الإمام، المعروف بميوله الألمانية واتصاله الدائم بالقنصل العام الألماني في بيروت. وقد بقي البريطانيون في حيرة من أمر مصدر تمويله الكبير. وعندما وصل البارون فون فلوغل Von Flugel، وهو ألماني مقيم في بيروت، إلى دمشق مع الأميرة هوهنلوهي Hohenlohe في 19 كانون الثاني/يناير 1939، تولّى الدكتور فتّاح الإمام دور مرشدهما السياحي.

بدأت مثل هذه المناورات الألمانية تقلق الفرنسيين الذين ساورهم الخوف من احتمال قيام هتلر بالتخطيط لإثارة الاضطراب في سوريا ولبنان. فأغلق النادي العربي عند اندلاع الحرب، وفي 3 أيلول/سبتمبر 1939، اعتُقل بعض أعضاء الجالية الألمانية المحلية - رجال أعمال، وعلماء آثار بالإضافة إلى جواسيس معروفين. وطُرد

Consul Gilbert Mackereth to Foreign Office, Damascus, 1 December 1938 (FO (1) 371/21914)

عدد من الألمان أيضاً، ولم تُجدّد إقامات آخرين⁽¹⁾. لكن بعدما وقّع المارشال بيتان على الهدنة في حزيران/يونيو 1940، أُخلي سبيل الألمان وعاودوا نشاطاتهم على الفور. وصلت إلى لبنان لجنة إيطالية لنزع السلاح بقيادة الجنرال جورجيس Giorgis في 28 آب/أغسطس لمراقبة تسريح القوات الفرنسية، وإحصاء معدّاتهم وأسلحتهم وإلغاء مصادرة الممتلكات الإيطالية والألمانية. وقد شاع أنه عندما وصل الجنرال الإيطالي إلى مطار رياق، مدّ يده للضابط الفرنسي فرفض مصافحته. فأصرّ الإيطالي قائلاً: "أنت غير لطيف مع المنتصر عليك"، فأجاب الفرنسي عندئذ: "إنني آسف، لم أكن أعلم أنك ألماني"⁽²⁾. تخلّى الإيطاليون بعد فترة قصيرة عن أسلوب طرق الكعبين معاً وإلقاء التحية الفاشية، وبدلّاهم الأنيفة، بعدما تعامل معهم الفرنسيون والسكان المحليون بازدراء وعدائية، واختاروا بدلاً من ذلك ارتداء الملابس المدنية وعدم الظهور.

في شباط/فبراير 1941، استطاع ويفل إلحاق الهزيمة بالجيش الإيطالي وطرده من ليبيا. لكن الألمان سرعان ما قدّموا يد المساعدة إلى الإيطاليين بإرسال فرقة رومل الميكانيكية إلى ليبيا. وعندما أمرت لندن ويفل بوقف الهجوم البريطاني، وإرسال حملة عسكرية إلى اليونان بدلاً من ذلك، اغتنم رومل الفرصة. فحوّل عملية استطلاع مدرّعة إلى هجوم جريء، أسفر عن طرد البريطانيين من ليبيا. وبقيت طريق وحدها صامدة بحلول منتصف نيسان/أبريل⁽³⁾.

سرعان ما تجاوز النفوذ الألماني نفوذ الإيطاليين عندما ألحقت بعثة اتصال ألمانية باللجنة الإيطالية في بيروت. وكان أول منظميها رولاند أيلاندر Roland Eilander، وهو ألماني معروف من مواليد بيروت وذو روابط مع عدد من العائلات اللبنانية البارزة. وفي أيلول/سبتمبر 1940، وصل ضابط الاستخبارات الألمانية رودلف روزر Rudolph Roser. وقد زعم الفرنسيون، على نحو غير محتمل، أنه كان يسيطر على شبكة مكونة من 1500 عميل من غرفته في فندق متروبول. بعد ذلك بقليل، انتقل الرائد فون برات Von Prat وثلاثة ضباط ألمان آخرين إلى أبو كمال، وهي بلدة في

.Political Report: Syria. Damascus, 28 January 1939 (FO 371/23276) (1)

.Beirut Weekly Appreciation, 10 September 1940 (FO 371/24595) (2)

.Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 12 (3)

سوريا على الحدود مع العراق لدراسة الوضع على الحدود العراقية. فبدأ البريطانيون والفرنسيون يشكون في أن قوى المحور تعدّ لفتح جبهة جديدة ضدّ الحلفاء. تأكّد هذا الشك عندما قام فيرنر أوتو فون هنتغ Werner Otto Von Hentig، رئيس القسم السابع في وزارة الخارجية الألمانية، والمسؤول عن منطقة واسعة تمتدّ من تركيا إلى الهند، بزيارة إلى المشرق دامت شهراً⁽¹⁾. وكان يعتبر أفضل خبير شؤون الشرق في الاستخبارات الألمانية، إذ إنه خدم في بكين وطهران واستانبول. وكانت وزارة الخارجية الألمانية قد أرسلته في الحرب العالمية الأولى لإثارة القبائل في آسيا الوسطى ضدّ البريطانيين.

وصل فون هنتغ إلى بيروت قادماً من تركيا في 15 كانون الثاني/يناير 1941، مزوداً بتأشيرة من حكومة فيشي للقيام بمهمة "سياسية وثقافية". كان البريطانيون على قناعة بأن أهدافه الحقيقية الاتصال بالوطنيين، والاطلاع على الوضع السياسي العام، بما في ذلك العلاقات الإنكليزية الفرنسية المحلية، وبدء حملة دعائية ضدّ البريطانيين. لا شك في أن ذلك هو الدافع الذي جعل فون هنتغ يتصل برياض الصلح، ويعقد عدة جلسات مباحثة طويلة معه. كما أنه اجتمع بعمر بيهم وعمر الداعوق وعادل أرسلان. وبشرهم جميعاً بقدوم العصر الألماني. ووعدهم بمنح الاستقلال لجميع البلدان العربية إذا ربحت ألمانيا الحرب. لكن إذا ربحت بريطانيا الحرب، فإنها ستعطي سوريا الجنوبية للصهيانية، وسوريا الشمالية للأتراك. وبجذه الرسالة، بدأ يعبئ الرأي العام ضدّ بريطانيا. وفي 25 كانون الثاني/يناير 1941، نظّم في فندق متروبول عرضاً لفيلم "الانتصار في الغرب" *Sieg im Westen*، الذي يتناول بشكل تفصيلي هزيمة فرنسا، لحشد الرأي العام ضد فرنسا.

لا شك في أن زيارته أثارت حماسة كبيرة وزادت التعاطف مع ألمانيا. وربما كانت تلك ذروة التأثير الألماني في الوطنيين العرب. فقد أصبح فندق المتروبول، وفقاً لقول القنصل البريطاني التنبيهي، "مركزاً ألمانياً سيئ السمعة"، مثلما يعتبر فندق النورماندي مقرّ اللجنة الإيطالية. ووجد البريطانيون أنفسهم مهمّشين فجأة. فأمرت

Werner Otto Von Hentig, *Mein Leben. Ein Dienstreise*, Göttingen, 1962; de (1) Wailly, *Syrie 1941*, p. 469, n. 9

حكومة فيشي القنصلية العامة البريطانية أن تغادر بيروت إلى بلدة عاليه الجبلية البعيدة، حيث وُضعت تحت رقابة مشدّدة، وحُرمت من تسهيلات الحقيبة الدبلوماسية⁽¹⁾. أمضى فون هنتغ الفترة ما بين 26 و30 كانون الثاني/يناير في دمشق، حيث التقى شكري القوتلي ونبية العظمة وأديب خير وغيرهم من الوطنيين. والتقى أيضاً عدداً من السوريين الموالين لألمانيا، من أبرزهم سعدي الكيلاني، وهو وجيه من أصل أفغاني متزوّج من امرأة ألمانية كان قد أرسل، على غرار فون هنتغ، في فترة بين الحربين، لإثارة الاضطراب في أوساط القبائل في وزيرستان في شمال غرب الهند، إلى أن رشاه البريطانيون لترك المنطقة⁽²⁾.

انطلق فون هنتغ بعد ذلك، يرافقه رودلف روزر، في عدد من الرحلات في أنحاء سوريا حيث تعمّد الاجتماع بشيوخ القبائل، ورجال الدين والوجهاء الآخرين. كان يذكر باستمرار خلال حديثه عن مستقبل سوريا، أن ألمانيا ستوحّد مختلف الدول العربية (باستثناء المملكة العربية السعودية) في كونفيدرالية تحت النفوذ الألماني. كما وعد بإعادة لواء الإسكندرونه إلى سوريا وطرد الصهاينة من فلسطين. ووصف نفسه في سجل فندق في تدمر بأنه غوليتز (Gauleiter، لقب في الحزب النازي للقائد السياسي لمنطقة ما) الشرق الأدنى. وقد كُلف خياط سوري بصنع عدد كبير من الأعلام النازية للاستعمال الوشيك⁽³⁾.

على الرغم من المستقبل "الوردي" الذي رسمه فون هنتغ للعرب، لا يوجد هناك أي دليل على خروج رياض الصلح أو شكري القوتلي عن الحياد الحذر في محادثتهما معه. وقد انزعج القوتلي كثيراً من أن الألماني كان يرافقه سعدي الكيلاني دائماً، وهو الشخصية المتأمرة الذي فعل كل ما في وسعه لنشويه سمعة الكتلة الوطنية. وبتأثير من الكيلاني، نُقل عن فون هنتغ قوله إن القائد العربي الوحيد الذي يثق به الألمان هو الحاج أمين الحسيني. وقد تودّد فون هنتغ إلى رياض الصلح من دون أن يؤثر فيه. بل إن رياض رأى في أثناء زيارة هنتغ أن الحكمة تقتضي مفاتحة البريطانيين الذين يشعرون الآن بالضغط الألماني.

(1) Consulate-General Alep, Beirut Appreciation 1-12 January 1941 (FO 371/27327)

(2) Roshwald, *Estranged Bedfellows*, p. 51

(3) Consulate-General Alep, Beirut Appreciation 1-14 March 1941 (FO 371/27327)

أبلغ القنصل العام البريطاني لندن في شباط/فبراير من تلك السنة، أن بعض الوطنيين العرب اللبنانيين البارزين، مثل رياض الصلح وعادل أرسلان، يظنون أن على حكومة جلالة الملك أن تصدر تصريحاً في ما يتعلق باستقلال بعض الدول العربية مثل سوريا ولبنان بعد الحرب. فالصمت الملاحظ من قبل حكومة جلالة الملك في هذا الشأن يقودهم للاعتقاد أنها لا تكثرث لطموحات العرب. وقد استنكر رياض الصلح اللامبالاة التي تبديها حكومة جلالة الملك تجاه مستقبل العرب، لأنها فقط لجعل تملق الألمان للعرب أكثر قبولاً⁽¹⁾.

غادر فون هنتغ إلى أنقرة في 13 شباط/فبراير؛ لإبلاغ السفير فون باهن بنتائج زيارته⁽²⁾.

مؤامرات بيروت

فيما الألمان يديرون الأمور في المشرق، كان الجنرال شارل ديغول يفكر في كيفية انتزاع المبادرة في الأراضي الخاضعة للانتداب التي يريد أن يحتفظ بها لفرنسا بأيّ ثمن. ولأنه يشك دائماً في النيات البريطانية، قرّر إرسال ممثله في الشرق الأوسط، الجنرال جورج كاترو، بغية الدفاع عن مصالح فرنسا على الأرض. حطّ كاترو في القاهرة في 27 أيلول/سبتمبر 1940 متكرراً بأنه السيد شارتييه Mr. Chartier، رجل أعمال كندي يتكلم الفرنسية، لتجنّب جذب انتباه ممثل حكومة فيشي المعتمد في مصر. كانت خطته الطموحة تنطوي على حشد تأييد جيش المشرق، وإسقاط إدارة حكومة فيشي في سوريا ولبنان، وإخضاع الأراضي المنتدب عليها لديغول عن طريق انقلاب مسلح. واعتقد أن في وسعه استمالة العرب بوعدهم بالاستقلال، لذا فإن كل ما يحتاج إليه هو قليل من الدعم البريطاني.

غير أن السياسة البريطانية ظلت تتسم بالتناقض. كانت لندن ترخّب بانقلاب تنفذه فرنسا الحرة يُعيد القوّات الفرنسية إلى الحلفاء، لكنّها تخشى مع ذلك من انهيار الأمن الداخلي إذا أضعفت حكومة فيشي في المشرق. فلا يوجد قوات بريطانية متاحة

.Consulate-General Alep, 14 February 1941 (FO 371/27327) (1)

.Beirut Appreciation January 28-February 3 1941 (FO 371/27327) (2)

للتعامل مع مثل هذه النتيجة. وكانت بريطانيا تدرك أيضاً وجوب تلبية طموحات العرب بالاستقلال، ولو اسمياً، إذا أرادت إبعادهم عن الألمان. وهكذا لم تُرضِ هذه الأهداف البريطانية المتضاربة أحداً. شعر الديغوليون بالغدر، وارتابت حكومة فيشي ورأت في رعاية بريطانيا الطموحات العربية مؤامرة لإخراج فرنسا من المشرق. وشعر رياض والوطنيون بدورهم بالجزع من تردّد بريطانيا في تحدي الوضع الراهن.

غير أن تغير رياح الحرب أحدث بعد ذلك تحولاً واسعاً في الرأي العام. فنجاح سلاح الجو الملكي في معركة بريطانيا، وتأجيل عملية أسد البحر (خطة غزو الجزر البريطانية بجزراً وجواً التي كانت ألمانيا تعتزم تنفيذها)، والثورة على حكومة فيشي في بعض المستعمرات الفرنسية في وسط أفريقيا، بالإضافة إلى الرسائل العديدة الواردة من فرنسا التي تصف الوضع الشنيع تحت الاحتلال الألماني، كل ذلك أسهم في حدوث تغيير مذهش في مشاعر الضباط والمسؤولين الفرنسيين تجاه بريطانيا. وأثارت إرادة بريطانيا وقدرتها على المقاومة الإعجاب والاهتمام، وأدت إلى ارتفاع تأييد ديغول. وانحازت الآراء عند اللبنانيين والسوريين أيضاً إلى جانب البريطانيين، باستثناء بعض الموارنة الذين مالوا باتجاه الإيطاليين، وبعض المسلمين الذين علّقوا آمالاً كبيرة على ألمانيا بسبب غضبهم من الدعم البريطاني للصهاينة في فلسطين.

انتشرت الإشاعات في بيروت عن انقلاب وشيك. ولتحسين فرص هذا الانقلاب، سارع البريطانيون إلى إعادة عدد ممكن من جنود الاحتياط الفرنسيين إلى بلادهم⁽¹⁾. خشيت حكومة فيشي من انتشار الانشقاق، فأرسلت العقيد بورجييه Bourget إلى المشرق، ومنحته الصلاحيات الكاملة للقضاء على التأثيرات الديغولية في البلد. أثار بورجييه - وكان رئيس الأركان لدى الجنرال ويغان - بعيد وصوله الذعر على الفور في الجالية الفرنسية بعد إصدار قرار بإحالة جميع الضباط الفرنسيين المعروف بأن لديهم عشيقات إلى المحكمة التأديبية، سواء أكانوا متزوجين أم غير متزوجين. وقعت السيدة كوانتييه Cointet، زوجة مساعد مدير التعليم الفرنسي، ضحية استجواباته السياسية، وألقي بها في السجن مع البغايا والمجرمات العاديات، لأنه اشبه

Beirut Weekly Appreciation, Alep, 10 September 1940 (FO 371/24595); and Beirut (1) Weekly Appreciation, Alep, 17 September 1940 (FO 371/24595)

في أنها ساعدت طياراً فرنسياً مسرّحاً، النقيب بونافيه Bonafé، في الهرب عبر الحدود إلى فلسطين. ويُعتقد أنها أخذت النقيب إلى الحدود بسيارتها الخاصة متظاهرة بأنها في رحلة صيد وهمية. دفعت أساليب العقيد بورجيه التي تشبه أساليب المخابرات الألمانية، الغستابو، حركة فرنسا الحرة إلى العمل السري. وفي محاولة لحماية المتعاطفين مع ديغول، حذّر البريطانيون المفوضية العليا الفرنسية من عدم منح المرور الآمن لأي سفينة فرنسية إذا أرسل أي شخص غير الجنود المسرحين إلى فرنسا⁽¹⁾.

غير أن تغير رياح الحرب تدخل ثانية. فقد أربك تقدّم الإيطاليين في الصحراء الغربية الجالية الفرنسية المحلية، وأدّى إلى فقدان الثقة في بريطانيا، وارتفاع التعاطف مع حكومة فيشي. وبدأت صور المارشال بيتان تعاود الظهور في بيروت ودمشق في المكاتب ونوافذ الدكاكين. في ظلّ هذه الأوضاع الغامضة، عقد رياض الصلح اجتماعات مشحونة بالقلق مع مؤيديه وقبضات الأحياء لإطلاعهم على المستجدات وإعطائهم التعليمات بشأن التوجّه السياسي الذي يجب اتّباعه.

ابتهج الديغوليون عندما فصلت حكومة فيشي رئيس الأمن العام في بيروت كولومباني Colombani، وهو مسؤول فرنسي كورسيكي غادر ومتوحّش. وابتهج رياض الصلح والوطنيون أيضاً، بسبب تشدّده في مضايقتهم. وكان مبعوث مفرط الحماسة في اللجنة الديغولية في القاهرة قد عرض على كولومباني رشوة بقيمة مليون فرنك مقابل غضّ الطرف عن إعدادات الجنرال كاترو للانقلاب. لكن كولومباني على عادته خان الحركة على أمل الحصول على مكافأة أكبر.

كانت خلفية كولومباني كريمة ومنفّرة. فقد تورّط في فضيحة ستافسكي Stavisky في سنة 1934، وهي قضية نصّاب معروف يدعى ألكسندر ستافسكي، وُجد ميتاً بعدما باع سندات باطلة بملايين الفرنكات. حامت الشكوك حول جان شياب Jean Chiappe، مدير الشرطة اليميني المتشدّد في باريس الذي قيل إنه أمر بقتله لحماية أصدقائه المتنفّذين في ذلك الوقت. أدّت الفضيحة إلى سقوط الحكومة، وكان من أوائل الإجراءات التي اتخذها رئيس الوزراء الجديد إدوارد دلاديه التخلص من شياب. لكن مسيرة شياب المهنية أحييت عندما عينته حكومة فيشي مفوضاً سامياً في

بيروت بدلاً من غابريال بيو المتذبذب. غير أن كولومباني لم يكن متلهّفاً البتة للعمل مع شيايب ثانية⁽¹⁾، وأنقذ من هذه المحنة عندما أسقطت إحدى المقاتلات البريطانية طائرة الأخير وهو في الطريق إلى الشرق الأوسط⁽²⁾.

فقد كولومباني السيطرة على نفسه بعد طرده، وخلال ثلاثة أيام تعرّض للضرب من قبل مسؤولين فرنسيين كان قد سعى إلى محاكمتهم بتهمة الخيانة. واعتدى أحد الطابعين في المفوضية العليا على زوجته، التي وُصفت في تقرير قنصلي بريطاني بأنها "منتج هائل لعالم الإجرام والردائل في استانبول". كان من المفترض أن تعود العائلة إلى فرنسا بحراً، لكن كولومباني رفض الإبحار ما لم يحصل على ضمانات خطية من البريطانيين بعدم إلقاء القبض عليه في الطريق. وافقت لندن على أساس أن كولومباني في فرنسا سيكون أقلّ إزعاجاً من وجوده طليقاً في سوريا. وكان البريطانيون قد خلصوا إلى أنه عميل إيطالي معتمد. فشعر رياض الصلح بارتياح كبير لرحيل كولومباني، إذ بلغه أن الكورسيكي يعتزم اعتقاله⁽³⁾.

راقب البريطانيون تطوّر الوضع بعصبية كبيرة. فرأس السير جون شُكْبُرغ Sir John Shuckburgh لجنة وضعت في 18 تشرين الأول/أكتوبر 1940 عدداً من الخيارات أمام وزارة الحرب:

- (أ) إذا نجح الجنرال كاترو في الانقلاب، فستصبح مسألة السياسة بسيطة جداً، وربما لن نحتاج إلى الاهتمام سوى بموقف الإدارة الفرنسية الجديدة من طموحات العرب في سوريا. وقد لُفت انتباه الجنرال ديفول إلى أهمية اعتماد موقف تصالحي تجاه تطلّعات الوطنيين العرب.
- (ب) لكن إذا رأى الجنرال كاترو وجوب التخلّي عن أي محاولة للانقلاب، أو إرجائها إلى أجل غير محدّد، أو إذا فشلت محاولة الانقلاب، فسيصبح من الضروري إعادة النظر في موقفنا بأكمله من الإدارة الفرنسية في سوريا. وسيُعيّن علينا النظر في اعتماد سياسة عدائية

(1) Beirut Weekly Appreciation, Alep, 28 November 1940 (FO 371/27327)

(2) Beirut Appreciation for period 28 November-10 December 1940, Alep 11 December 1940 (FO 371/27327)

(3) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

ورعما تنطوي على احتلال سوريا، بالتعاون مع الأتراك أو من دونه، أو المحافظة على سياستنا الراحنة بتشديد الضغط الاقتصادي أو إرخائه. وتنطوي المسألة بوضوح على اعتبارات عسكرية شديدة الأهمية⁽¹⁾.

قرّرت اللجنة أن من غير الحكمة إثارة سخط العرب على الفرنسيين، ما لم يكن من الممكن دعم ذلك بالإجراء بالقوة العسكرية. في غضون ذلك، يستمر الضغط الاقتصادي على سوريا، مع توخّي الحذر لعدم دفع السلطات الفرنسية إلى اتخاذ إجراءات عدائية. وتُقيّد التجارة عبر الحدود الفلسطينية من دون منعها تماماً.

في كانون الأول/ديسمبر 1940، عيّن الجنرال هنري فرنان دنتز Henri-Fernand Dentz، القائد العام للقوات الفرنسية في المشرق، مفوضاً سامياً أيضاً. وكان يشغل منصب رئيس الاستخبارات في سوريا ولبنان في سنة 1924، وأسهم سوء قراءته لمشاعر الدروز وأتباعه النصائح الرديئة للجنرال ساراي في تفجير الثورة السورية الكبرى 1925-1926. وفي سنة 1940، اختير دنتز لتسليم باريس للألمان في فندق كريون. حاول كاترو استمالاته إلى جانب الحلفاء، لكن دنتز ثبت على ولائه لبيتان ولم يغيّر موقفه. اعتبره البريطانيون جندياً نزيهاً، وإن غمّ عليه، يُطيع أوامر حكومة فيشي بشكلٍ أعمى. قال دنتز لضباطه عند وصوله إلى بيروت: "اعلموا أن ما تدافعون عنه هنا ليس سوريا، بل شمال أفريقيا". كان مقتنعاً أن فشل حكومة فيشي في الدفاع عن المشرق ضدّ البريطانيين، سيدفع الألمان لغزو شمال إفريقيا الخاضع لفرنسا و"المنطقة الحرة" في فرنسا نفسها⁽²⁾.

ثمّ حدث تحوّل آخر في الرأي العام المتقلّب نتيجة نجاحات الجيش البريطاني في مصر. فأبدت جميع طبقات الشعب في سوريا ولبنان تأييدها للحلفاء مرة أخرى. وفي بيروت، أضفى بائعو الجرائد الشباب في بيروت جواً من التسلية بنشر خبر أسر 20,000 جندي إيطالي بصيحاتهم: "انكسار المعكرونة"⁽³⁾.

(1) Official Committee on Questions Concerning the Middle East, 18 October 1940 (FO 371/24594).

(2) de Wailly, *Syrie 1941*, p. 73.

(3) Beirut Appreciation, 11 December-20 December 1940 (FO 371/27327).

مقتل الدكتور الشهبندر

أصيب رياض الصلح ورفاقه الوطنيون بارتباك شديد إثر جريمة سياسية في دمشق أعادت خلط الأوراق في المعسكر الوطني. فقد اغتيل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في 6 تموز/يوليو 1940 في ظروف غامضة. وهو من الشخصيات البارزة في الثورة السورية الكبرى في سنتي 1925-1926، إذ انضم حزب الشعب المؤسس حديثاً بقيادته إلى زعماء الدروز في ثورتهم على الفرنسيين الذين لم يسامحوه أبداً.

كما أنه أثار أيضاً غضب جميل مردم، وسعد الله الجابري، والكتلة الوطنية ككل، بسبب حملاته المستمرة على معاهدة 1936 التي تفاوضت الكتلة على بنودها مع فرنسا، وواصل شجبها بمرارة ونعتها أنها ناقصة، بل خائنة. وعندما عاد الدكتور لفترة وجيزة إلى سوريا في أيار/مايو - حزيران/يونيو 1937 بعدما أصدر الفرنسيون عفواً عنه، حاول الوطنيون استمالته بعرض منصب رئاسة مجلس النواب عليه، ومنحه لقب "القائد الأوحّد" في احتفال في بلدية دمشق. لكن كانت للشهبندر طموحات أوسع، إذ اعتقد أن في وسعه جمع سوريا بأكملها حوله. وعندما عاد إلى القاهرة، استأنف تحجّمه على الوطنيين. فردّوا عليه بالمثل، واتهموه بمحاولة سلبهم ثمار كفاحهم الطويل، للاستقلال عن الفرنسيين.

كان الشهبندر طبيباً غير مؤمن، ذا تعليم غربي ومعتداً بنفسه وشخصية سياسية مفوّهة، فوجد العديد من الأتباع المخلصين له. وُلد في دمشق في سنة 1879، وتخرّج طبيباً في الجامعة الأميركية في بيروت، وأمضى فترة الحرب العالمية الأولى في مصر. وباعتباره عدواً متحمساً للانتداب الفرنسي، أصدرت بحقه المحاكم العسكرية الفرنسية أحكاماً متكررة، بالإعدام أولاً، ثم بالأشغال الشاقة. واحتُجز، مدة من الزمن في قلعة جزيرة أرواد مقابل الشاطئ السوري، وأعفي عنه لاحقاً. فسمح له ذلك باستعادة نشاطاته السياسية. وعندما حكم عليه بالإعدام ثانية، فرّ إلى القاهرة، وأصبح عضواً في لجنة الأمير ميشال لطف الله السورية الفلسطينية هناك، وأدار بين سنتي 1926 و1937 عيادة طبيّة ناجحة، حققت له ثروة كبيرة.

صفّى الدكتور الشهبندر أعماله في القاهرة في تموز/يوليو 1938، وعاد بصورة دائمة إلى سوريا. لكن القادة الوطنيين أعاقوه في بلدة بلودان الجبلية. ويدّو أن بعضهم

أنفق مبالغ كبيرة لإقناع سكان حارة الميدان بعدم الترحاب به في ديارهم. واحتجز بعض أنصاره وأغلقت الصحف المؤيدة له. فردّ من بلودان بمجوم عنيف على جميل مردم، خصمه السياسي الرئيسي⁽¹⁾. ولم يستطع الشهبندر التغلب على العراقيين التي وضعتها الكتلة الوطنية في وجهه ودخول دمشق إلا في تشرين الأوّل/أكتوبر.

لكن بعيداً عن الهجوم الذي واجهته الكتلة الوطنية من الشهبندر، تبين أنها أصبحت ممزقة بسبب النزاعات الداخلية. فقد واجه جميل مردم تحدياً من شكري القوتلي، الذي حاول حزب الاستقلال بقيادته إصلاح الكتلة من الداخل. وتوترت العلاقات بين الأعضاء في دمشق وحلب. فخرس العضوان البارزان في الكتلة في حلب، الدكتور عبد الرحمن الكيالي وسعد الله الجابري (صديق رياض وعمّ زوجته)، التقدير العام لأنهما فشلا في منع فرنسا من التخلّي عن لواء الإسكندرونه لتركيا. فقد خشي الشعب من تخلي فرنسا عن المزيد من الأراضي السورية، إذا مارست تركيا وضباطها الموالين للألمان مزيداً من الضغوط، وعدم تمكّن زعمائهم غير الفعّالين من منع حدوث ذلك مرة أخرى.

سقطت حكومة الكتلة في آذار/مارس 1939. واطّعت بذلك نهاية للمعاهدات. فحلّ المفوض السامي بيو البرلمان عندئذ، وضيق الخناق على الوطنيين وعيّن مجلس مديرين برئاسة بهيج الخطيب، وهو مسؤول سوري من أصل لبناني ومعارض للكتلة. كان الفرنسيون يشتبهون في أن للشهبندر روابط وثيقة مع البريطانيين، لدرجة أنهم اعتبروه رجلاً بريطانياً في سوريا. وكان صديقاً للهاشميين أيضاً، وبذل ما في وسعه ليؤمّن دعماً بريطانياً لإنشاء كوندالية تضم سوريا ولبنان، وشرق الأردن، وفلسطين تحت حكم الأمير عبد الله. وفي حزيران/يونيو 1939، ترأس الدكتور الشهبندر وفد كبيراً إلى عمان، وأعلن من جانب واحد أن "السوريين يبايعون الأمير مثلما يبايعوا الملك حسين ثم الملك فيصل من قبل"⁽²⁾، فتخطى بذلك خطأً أحمر بالنسبة إلى الفرنسيين.

تجاوز الدكتور الشهبندر منافسيه الوطنيين عندما استسلمت فرنسا لألمانيا في حزيران/يونيو 1940 بسبب تلك المناورات، وأصبح لدى البريطانيين الشخصية

MAE, Fonds Mandat Liban/Syrie, Série Beyrouth, 3^e version, no. 23/271. Service (1)
des renseignements, Bureau de Damas, 24 Nov. 1938

.MAE, Fonds Mandat Liban/Syrie, Série Beyrouth, 3^e version, no. 23/271 (2)

السياسية الأبرز في سوريا. لذا أثار اغتياله مشاعر حادة وشكوكاً محمومة بشأن من يقف وراء ذلك العمل. اتهم المناصرون للشهبندر في دمشق جميل مردم نفسه. واعتقد آخرون أن بعض الشخصيات العراقية، أو حتى الحاج أمين الحسيني، قد يكون متورطاً في ذلك. وأفاد القائم بالأعمال البريطاني في عمان في رسالة إلى وزارة الخارجية أن الحكومة العراقية قدّمت الأموال لتنفيذ عملية الاغتيال وأرسلتها إلى دمشق عبر عادل العظمة، رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين في سوريا⁽¹⁾. اتهمت الشرطة السورية خمسة أشخاص في نهاية شهر تموز/يوليو، منهم عاصم النائلي، سكرتير جميل مردم. وعرضت عائلة الشهبندر في القاهرة مكافأة مقابل تقديم أي معلومات. وقاد المحارب الدرزي المسنّ سلطان باشا الأطرش وفداً إلى دمشق تقديرًا للشهبندر وتعبيراً عن الولاء للروابط التي نشأت بينهما إبان ثورة 1925.

وصلت أرملة الشهبندر أيضاً إلى دمشق من مصر للمشاركة في الحفل التأبيني في 17 آب/أغسطس. وعمد خالد العظم، وهو سياسيّ سوريّ ثري معارض للكتلة وذو طموحات سياسية، إلى نشر إشاعات بأنّ الوطنيين قتلوا الشهبندر⁽²⁾. لكنّ عزّت قبلان، قريب الشهبندر ومساعدته السابق، أخبر القنصل البريطاني في دمشق، في 17 تشرين الأول/أكتوبر، أنّ مؤامرة اغتيال الشهبندر تمت في القنصلية العراقية في دمشق، في أثناء زيارة رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد⁽³⁾.

من المسؤول عن مقتل الشهبندر؟ رأى فيليب خوري، المؤرّخ البارز للانتداب الفرنسي، أن القتل ربما يكونون عملاء في المخابرات الفرنسية مؤيدين لحكومة فيشي أرادوا تصفية وطني متطرّف وعميل بريطاني مشبوه؛ أو عملاء إيطاليين للأسباب

(1) British Resident in Amman to Foreign Office, 17 August 1940 (FO 371/24594)

(2) خالد العظم، مذكرات، بيروت، 1973، الجزء الأول، ص 158. British Consul Gardner to

Foreign Office, Damascus, 14 August 1940 (FO 371/24593)

(3) من أبرز أعضاء حزب الشهبندر: نصوح بايل، نائب الرئيس ورئيس تحرير جريدة الأيام ودرويش العجلاني (ثري دمشقي)، وفوزي ونسيب البكري (الذين استقلا من الكتلة بعد اغتيال الشهبندر)، ومنير المحاري (ابن أخت الشهبندر)، عزت قبلان (مساعدته السابق وقريبه)، والدكتور عبد القادر زهرة (طبيب دمشقي معروف)، ورشيد بقدونس، وشفيق دياب والعديد من أفراد عائلة الأطرش بمن فيهم سلطان وزيد وعبد الغفار.

.Political Report, Syria, Damascus, 21 Oct. 1940 (FO 371/24591); (FO 371/24591, 1940)

نفسها؛ أو المفتي الذي أراد أن التصدي لمسعى الأمير عبد الله للوصول إلى العرش السوري؛ أو عملاء عراقيين أرادوا أيضاً إفشال عبد الله؛ أو قادة الكتلة المنهمكين في صراع على السلطة مع الشهبندر⁽¹⁾.

نشرت صحف دمشق في 17 تشرين الأول/أكتوبر 1940، لائحة بأسماء المشتبه فيهم وشركائهم. وضمت اللائحة أحمد عصاصة، الذي اتهم بالقتل عن سابق تصور وتصميم، والشيخ صالح معنوق وأحمد الطرايشي وعزت الشماخ وعاصم النائلي وفوزي القباني - وقادة الكتلة الثلاثة أيضاً، جميل مردم ولطفي الحفار وسعد الله الجابري! اضطر الثلاثة الأخيرون إلى الهرب إلى العراق في 18 تشرين الأول/أكتوبر، نتيجة لهذه الوصمة، ويبدو أنهم تلقوا معلومات عن قرب توجيه الاتهام إليهم في المحاكم التي تسيطر عليها فرنسا.

كانت بغداد مركزاً للتحركات القومية العربية، لكنها كانت ملجأً أيضاً للذين فقدوا الشعور بالأمان في سوريا ولبنان الخاضعين للاحتلال الفرنسي في سنوات 1939 و1940. فقد فر مفتي القدس فحاة من لبنان إلى العراق في تشرين الأول/أكتوبر 1939 عندما علم أن البريطانيين يمارسون ضغطاً على الفرنسيين لاعتقاله. وكان المقاتل المخضرم من أجل الحرية فوزي القاوقجي أيضاً في بغداد مع بعض الفلسطينيين المقربين من المفتي. كما فر كاظم الصلح، ابن عم رياض، إلى بغداد من لبنان مثلما فعل فريد زين الدين من سوريا. وانضم إليهم قادة الكتلة الثلاثة⁽²⁾. كان مناصرو الشهبندر واثقين من أن المسؤولين الفرنسيين متورطون في عملية الاغتيال، لكنهم اعتقدوا أيضاً أنهم سمحوا لجميل مردم والآخريين بالفرار لأن التخلص من القادة الوطنيين البارزين ملائم لهم.

على الرغم من أن الشهبندر اغتيل في تموز/يوليو 1940، فإن محاكمة المشتبه بهم لم تبدأ إلا في 9 كانون الأول/ديسمبر. وانتهت في 7 كانون الثاني/يناير 1941، بعد إرجائها عدة مرات (بغية التشاور مع سلطة الانتداب الفرنسي). جرت المحاكمة التي

(1) Beirut Weekly Appreciation, انظر Khoury, Syria and the French Mandate, p. 588 ff (1) Ale, 22 Oct. 1940 (FO 371/24595) and Beirut Weekly Appreciation for the period 28 ..November - 10 December 1940, Ale, 11 December 1940 (FO 371/27327)

Raghd el-Solh, Lebanon and Arabism, p. 111. (2)

ترأسها فرنسي في جوٍّ من التوتر الشديد. ولم يُسمح بالاستئناف ضدَّ حكمها. وأبدى المدَّعي العامُّ انخيازاً صريحاً لمصلحة عاصم النائلي، سكرتير جميل مردم، بالرغم من انتشار أخبار تفيد أنه الوسيط بين القادة الوطنيين والقنلة الفعلين. وفي اللحظة الأخيرة، أُسقطت التهم عن عاصم النائلي والقادة الوطنيين الثلاثة. وأفاد مسؤول قنصليّ بريطاني أن لائحة اتهام المدعي العام، التي سحبت منها التهم الموجهة ضدَّ الوطنيين، كانت قد أعدت قبل الاستماع إلى التُّهم بالكامل.

رفضت المحكمة السماح بطرح أي سؤال يتعلّق بالأوجه السياسيّة والدينيّة للقضيّة، وبخاصة الادّعاء أن الشهبندر كان جاسوساً بريطانياً. وعندما حاول محامي الدفاع أن يعلّل سبب مقتل الشهبندر بكونه "عدواً للإسلام"، أبرز مناصرو الشهبندر بياناً كتبه أبرز علماء دمشق يدحض هذه التهمة بشدّة. خلصت المحكمة إلى أن الدافع الوحيد المحتمل للجريمة هو "الحماسة الدينية الخاطئة"⁽¹⁾. وصدر حكم بالإعدام على أحمد عصاصة وثلاثة آخرين ونفّذ الحكم في 4 شباط/فبراير. وعلّق العقيد غاردنر A.J. Gardiner، القنصل العامّ البريطاني، على ذلك: "أميل إلى الاتفاق مع وجهة نظر نزيه بك المؤيد، صهر الضحية، الذي يعتبر أن الجريمة خطط لها الحاج أمين الحسيني وأتباعه في بغداد، وربما بموافقة إيطاليا. ولا شك في أن البلد الأخير أبدى اهتماماً كبيراً بالقضية"⁽²⁾. وقد اعتُقد على نطاق واسع أن إيطاليا هي التي أمنت المال لدفع أتعاب محامي الدفاع.

لم يُكشف عن الجريمة بالكامل. وعلى أي حال، لم يرضَ مناصرو الشهبندر وعائلته البتة عن نتيجة المحاكمة. وعندما وضع شكري القوّتلي إكليلاً على قبر الشهبندر، كإيماءة عزاء ومصالحة، أمر ابن الشهبندر بإزالته على الفور، معلناً أن المحاكمة لم تكشف عن قنلة والده الحقيقيين.

ماذا كانت النتائج المحليّة لمقتل الشهبندر؟ انتهى الأمر بجميل مردم وزملائه في بغداد، بعيدين كلّ البعد عن المسرح السياسي السوري في دمشق. وهكذا تمكّن

.Note by Vice-Consul R A Beaumont, Damascus, 11 January 1941 (FO 371/27330) (1)

Consulate-General Alep: Beirut Weekly Appreciation January 1-12, 1941 (FO 371/27327) (2)

شكري القوتلي من تولي قيادة حركة الاستقلال الوطنية⁽¹⁾. فدعا إلى تشكيل حكومة وطنية في بيان رسمي أصدره في آذار/مارس 1941. وعلى غرار القوتلي في دمشق، أصبح رياض الصلح في بيروت أبرز قيادي وطني يسعى الألمان للتودّد إليه، واضطرّ الفرنسيون والبريطانيون إلى التعامل معه في نهاية المطاف.

الوطنيون يقدّمون عرضهم

اعتبر رياض الصلح، كمعظم زملائه في الحركة الوطنية، أنّ الفرنسيين انتهوا. وخطّط لإجبارهم على تقديم تنازلات بالتحريض على ثورة شعبية، معتقداً أنّ القوات الفرنسية الضعيفة لن تتمكّن من إخمادها. بدت الظروف مواتية، نظراً إلى تملل الشعب في سوريا ولبنان من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الكئيبة. فقد ارتفعت تكلفة المعيشة، وتزايد ثمن الخبز أربعة أضعاف. ولم يعد بالإمكان الحصول على السكر والأرز والبارافين، وشحّ البنزين كثيراً. وتوقّفت عجلة التجارة تماماً بسبب الحصار البريطاني، ولم يعد كثير من العمّال قادرين على إطعام عائلاتهم. وبلغ عدد العاطلين عن العمل في دمشق خمسين ألفاً على ما زُعم. ولم يعد في وسع العمّال السوريين الوصول إلى فلسطين للعمل المؤقت مثلما اعتادوا أن يفعلوا عندما تتأزّم الأوضاع الاقتصادية. في 10 كانون الثاني/يناير 1941، أبلغ دنتر باريس: "عليّ أن أربح معركة الطحين، لكن الجميع يقفون ضديّ... الشعب... والتجار... والبريطانيون... والألمان بطبيعة الحال"⁽²⁾.

غير أنّ اهتمام دنتر الحقيقي تركّز على أمر آخر. فقد كان لديه شكوك عميقة في البريطانيين، وعلى قناعة أنهم يخطّطون لإخراج الفرنسيين من سوريا والاستيلاء عليها. ولعله أضمر هذه الشكوك منذ كان مركزه في دمشق في أثناء ثورة 1925-1926. وأصبح الآن يخشى أن يكون الاجتياح البريطاني وشيكاً. فشدد الإجراءات بدلاً من تشكيل حكومة وطنية - كما حثّه بعض مستشاريه - ومنح سلطات واسعة للمكتب الثاني، أو شعبة الاستخبارات العسكرية الكريهة. وساد جوّ الغستابو⁽³⁾.

(1) Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 590

(2) de Wailly, *Syrie 1941*, p. 94

(3) Beirut Appreciation for the period 28 November - 10 December 1940, Aley 11 (3) December 1940 (FO 371/27327)

عندئذ قرّر رياض في بيروت وشركاؤه الوطنيون في دمشق الدعوة إلى إضراب عام في البلدين. كانت الاضطرابات السياسية قد تأججت بسبب الوضع الاقتصادي البائس. بدأت التظاهرات احتجاجاً على أزمة الغذاء في دمشق، وسرعان ما وصلت إلى حمص وحلب. وأعلن الإضراب العام في سوريا في نهاية شهر شباط/فبراير وامتد إلى بيروت وطرابلس وصيدا في أوائل آذار/مارس. استدعى دنتز المركبات المدرعة. قُتل عدّة متظاهرين في دمشق ومدن سورية أخرى. وفي بيروت، تحولت مظاهرة للنساء والأطفال المسلمين الجوع في 1 نيسان/أبريل، إلى أعمال شغب. أطلقت الشرطة الفرنسية النار فقتلت شخصين وجرحت ستّة آخرين. فاحتجّ مجلس المديرين اللبناني الذي عيّنه الفرنسيون وقدم استقالته. وسادت مخاوف من حدوث ثورة جديدة على غرار ثورة 1925. وعندما نُشرت القوات الاستعمارية السنغالية المخيفة في الشوارع، ندّد إمام المسجد الكبير في حلب بشدّة بالقمع الاستعماري الفرنسي. تبع ذلك مزيد من الصدمات أدّت إلى سقوط مزيد من القتلى في كلّ من حلب ودمشق.

فيما كان رياض الصلح يدير الاضطرابات في بيروت، برز شكري القوتلي كقائد للانتفاضة في دمشق. وأعلن أن الانتداب لم يعد شرعياً، ودعا إلى إعادة العمل بمعاهدة 1936⁽¹⁾. وأبلغ القنصل العام الأميركي أن الوطنيين يعتمرون الضغط من أجل الاستقلال التام والفوري، بعدما فقدوا الثقة بأن الفرنسيين سيمنحوهم الاستقلال بعد الحرب.

في لندن، حفزت هذه الاضطرابات إعادة النظر في الحصار الاقتصادي المضروب على دول المشرق. وأوصى الجنرال أرشيبالد ويفل والسير مايلز لامبسون Sir Miles Lampson، السفير البريطاني في القاهرة برفع الحصار وإحلال اتفاقات تخليص جمركي مع فلسطين ومصر محله. وافقت القنصلية العامة في بيروت على ذلك، مخافة أن يؤدي استمرار الحصار إلى دفع الفرنسيين إلى أحضان الألمان، ومن ثم تحويل سوريا إلى قاعدة عسكرية لقوى المحور⁽²⁾.

في 25 آذار/مارس، أعلن الجنرال دولوم Delhomme، القائد العسكري الفرنسي، عن "حالة حصار": مُنعت الاجتماعات العامة، وأخضعت الاجتماعات

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 117 ff

(2) Beirut Appreciation, 15-21 March 1941 (FO 371/27327)

الخاصة لموافقة عسكرية مسبقة؛ ومنع تجمع أكثر من خمسة أشخاص في الشارع، وأجبرت المقاهي على الإقفال عند الثامنة مساءً، وأوقفت البرقيات والاتصالات الخارجية بين المدن السورية، وسيطرت الشرطة على جميع مخارج دمشق ومداخلها. ومنع الجميع من السفر بالسيارات من دون إذن. وفي ليلة 25 - 26 آذار/مارس، أوقف نحو 80 وطنياً محرّضاً على الانتداب الفرنسي، معظمهم من رؤساء الأحياء، وهُذِّدوا بالإبعاد من دون محاكمة. حاول سعد الله الجابري، الذي كان قد فرّ إلى العراق بعد مقتل الشهبندر، العودة إلى سوريا في 28 آذار/مارس، لكن السلطات الفرنسية أرجعته عند الحدود⁽¹⁾.

سعى دنتر المضطرب إلى التوصل إلى اتفاق مع المضربين، لكنه لم يجد أحداً على استعداد للتعاون معه. فأصدر بياناً قال فيه إن فرنسا تتعاطف مع التطلّعات السورية، وإنها ستمنح الاستقلال "عندما يستقرّ الوضع الدولي". وأبدى استعدادة لإحلال حكومة محل مجلس المديرين، على أن يساعدوا مجلس استشاري "مكوّن من الممثلين الرئيسيين للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد، بالإضافة إلى الأجيال الأصغر سناً". ووعد بمنحها صلاحيات قانونية والإشراف على تأمين الإمدادات. كما أعلن عن برنامج اقتصادي وسياسي فوري للتخفيف من البطالة. وفي اليوم التالي، 2 نيسان/أبريل، عين خالد العظم، رئيس غرفة التجارة والصناعة في دمشق (وهو سياسي معارض للكتلة الوطنية وموالٍ للفرنسيين)، رئيساً للحكومة ووزيراً للداخلية.

هدأت هذه الخطوة المشاعر في دمشق إلى حدّ ما، لكن أعمال الشغب اندلعت في أماكن أخرى. ففي 18 نيسان/أبريل، قُتل ثلاثة متظاهرين وجرح 85 في حماة، بينما لجأت الحشود التي أغضبها استمرار نقص الخبز في حلب، إلى النهب على نطاق واسع في 22 نيسان/أبريل. فقتل مشاغبان وجرح العديدون في أسوأ أعمال شغب تشهدها المدينة.

في غضون ذلك في لبنان، استقال إميل إدّه، وعيّن مكانه القاضي الماروني ألفرد نقّاش رئيساً للدولة، مع أحمد الداعوق نائباً له⁽²⁾. وفي 18 نيسان/أبريل، انسحبت

(1) Beirut Appreciation, 22-31 March 1941 (FO 371/27327)

Beirut Appreciation, 1-12 April 1941; Raghd el-Solh, *Lebanon and Arabism*, (2)

p. 119; Raymond, "La Syrie du Royaume Arabe à l'Indépendance", p. 77

فرنسا من عصبة الأمم، الهيئة التي عهدت إليها بالانتداب في سنة 1919 - فأفقدت وجودها في المشرق من أي أساس قانوني.

اعتبر رياض الصلح وشكري القوتلي هذه الإجراءات الفرنسية باعتبارها مجرد تغييرات شكلية، ورفضاً للمشاركة في أي من الحكومتين الجديدتين. وأرسلا مذكرة إلى المفوض السامي يطالبان فيها بالعودة الفورية إلى الحياة الدستورية. لكنهما قرّرا أيضاً رفع الإضراب. وربما دفعهما لذلك عودة الشيخ تاج الدين الحسيني، رئيس الوزراء السابق المتعاون مع الفرنسيين، إلى سوريا من فرنسا الفيشية. هاجم الشيخ تاج الدين الوطنيين، فور وصوله، في اجتماع حضره 2000 شخص في حيّ الميدان، بتحريض فرنسي من دون شك. فخشي الوطنيون من أن يشكّل الفرنسيون حكومة برئاسة الشيخ تاج الدين - رجلهم الذي يُعتمد عليه - أو الحكم مباشرة من خلال بهيج الخطيب، وهو مسؤول متعاون آخر. لذا فضّلوا دعم العظم، رغم خلافهم السياسي معه، ولم يفوّتوا فرصة إظهار أنهم هم الذين يمسون بزمام الأمور السياسية⁽¹⁾.

تلك هي الحالة المضطربة التي سادت المشرق في أوائل نيسان/أبريل 1941. كان رياض الصلح والوطنيون الآخرون مشمّزين من الفرنسيين، ويشعرون بخيبة الأمل في البريطانيين، لكنّهم تشجّعوا كثيراً بالأخبار الواردة من العراق عن حدوث انقلاب مناهض للبريطانيين في تحدّ طال انتظاره للقبضة الأنكلو - فرنسية على العالم العربي.

رشيد عالي والحملة على سوريا ولبنان

في ربيع سنة 1941، توصل رياض الصلح إلى قناة أن فرنسا لن تتخلى عن سيطرتها على المشرق من دون قتال، وأن بريطانيا عازمة على دعم نظام فيشي بقيادة الجنرال هنري دنتز. فقد أدارت القوتان الإمبريالتان ظهرهما للوطنيين ولم تعودا تفكران الآن سوى بالقواعد العسكرية والحصول على النفط وتأمين المواصلات. ولم تكن في نظرهما تطلعات السكان المحليين نحو الاستقلال سوى أمر تافه في أفضل الأحوال، ووضعاً للعقدة في المنشار في تلك الأوقات العصية. ربما تكون بريطانيا وفرنسا خصمين استعماريين عادة، لكنهما ترصّان صفوفهما في حالة الطوارئ. وقد عبّر أوليفر هارفي Oliver Harvey، وهو مسؤول كبير في وزارة الخارجية البريطانية، عن ذلك في مذكراته قائلاً، "إن مصالحنا تتماثل مع مصالح الفرنسيين على المدى الطويل"، وأضاف بعد ذلك، "إذا أضعفنا الفرنسيين في سوريا، فإننا نضعف موقعنا"⁽¹⁾.

لم يكن غريباً أن يتطلع الكثير من العرب في تلك الظروف المخيبة للآمال نحو ألمانيا للخلاص من المكائد البريطانية الفرنسية. وعندما استولى المارشال رومل على بنغازي في أوائل نيسان/أبريل، وأجبر قوات ويفل على التراجع إلى مصر، ومع تقدّم الجيوش الألمانية في يوغوسلافيا واليونان بدا النصر الألماني قريب المنال. في تلك الفترة بالذات، وقع انقلاب في بغداد بدا أنه أضعف السيطرة البريطانية على العراق. فالعراق في النهاية بلد عربي رئيسي ولاعب فاعل في الحركة القومية العربية. رأى الوطنيون في سوريا ولبنان هذا الانقلاب مقدمة لتحريرهم من فرنسا. وارتفع الأمل باحتمال

⁽¹⁾ Oliver Harvey Diaries, 4 December 1943. British Library Add. MSS 56400; Oliver Harvey Diaries, 29 October 1944. British Library Add. MSS 56400. Quoted by William Roger Louis, 'The British and the French Colonial Empire: Trusteeship and Self-Interest', in W. R. Louis, *Ends of British Imperialism*, London 2006, pp. 279 ff

الإعلان عن اتحاد عراقي سوري عما قريب. فسرت بذلك قلوب الوطنيين، وفي مقدمتهم رياض الصلح.

كان رشيد عالي الكيلاني، مدبر انقلاب بغداد، وطنياً مخضرمًا يقارب الخمسين من العمر في ذلك الوقت. ولم يوافق البتة على المعاهدة البريطانية العراقية التي وقعتها حكومة نوري السعيد في سنة 1930. فقد رأى أنها تخضع العراق للسيطرة الاستعمارية البريطانية المباشرة تحت ستار في "تحالف" بين البلدين. كان نوري السعيد المسافر يؤمن بالحكم الذاتي العراقي تحت مظلة الحماية البريطانية، لكن رشيد عالي يريد الاستقلال التام المتحرر من الوجود المذل للجيش الأجنبية. ولد رشيد عالي في عائلة بارزة في بغداد سنة 1882، وهو أكبر من رياض باثني عشر عاماً، ودرس القانون مثله. تنتمي عائلته إلى الطريقة الصوفية الكيلانية التي تدير وقفاً كبيراً في بغداد. وكان جدّه نقيب الأشراف في القرن التاسع عشر، أي ممثل العائلات الدينية لدى السلطنة العثمانية - وهو منصب مماثل لذلك الذي شغلته عائلة الحصني (الحسيني) التي تزوج منها جدّ رياض، أحمد باشا.

تخرّج رشيد عالي في كلية الحقوق في بغداد في سنة 1914، وانضمّ إلى البروقراطية العثمانية في الموصل. عاد إلى بغداد بعد انهيار النظام العثماني حيث مارس القانون ودرّسه حتى عُيّن قاضياً في محكمة الاستئناف في سن السابعة والعشرين. بدأ حياته السياسية وزيراً للعدل في سنة 1924 في حكومة ياسين الهاشمي الأولى، وشكّلاً معاً حزب الإخاء الوطني الذي سعى إلى تحقيق المطالب الوطنية والحدّ من التدخل الاستعماري البريطاني في سياسة العراق الداخلية.

تسلّم رشيد عالي رئاسة الوزراء للمرة الأولى في سنة 1933 عندما أوكلت إليه مهمة الإشراف على انتقال العرش إلى الملك غازي بعد الموت المفاجئ للملك فيصل. كان غازي طائشاً ومتهوراً ومولعاً بالسيارات السريعة، خلافاً للملك فيصل الذي اتسم بالحكمة والتبصّر. وقد ساد عهده القصير الكثير من الاضطرابات. ففي 29 تشرين الأول/أكتوبر 1936 قاد الفريق بكر صدقي انقلاباً عسكرياً زعزع الحياة الدستورية في العراق. وكان هذا الانقلاب الأول في سلسلة من التدخلات العسكرية في السياسة في العالم العربي التي أدت إلى نتائج كارثية في المنطقة منذ ذلك الوقت.

أُطيح بحكومة ياسين الهاشمي وقُتل وزير الدفاع جعفر العسكري. تسرّع الملك غازي بالاعتراف بالانقلاب، لكن تجاوزات بكر صدقي نفّرت حتى مؤيديه العسكريين، فقتلته مجموعة من الضباط في آب/أغسطس 1937.

في السنة التالية، حاول الملك غازي تحقيق طموحه بضمّ الكويت إلى العراق (وهو طموح سعى صدام حسين لتحقيقه أيضاً في وقت لاحق) قبل دمجهما في اتحاد الهلال الخصيب الذي يضم سوريا وفلسطين. ولكن فيما كانت القوات العراقية تحتشد على حدود الكويت في استعراض مخيف للقوة، توفي غازي فجأة في 3 نيسان/أبريل 1939 إثر اصطدام سيارته بعمود إنارة. فخلفه ابنه فيصل الثاني، وكان طفلاً في الرابعة من العمر فقط، وتولّى الوصاية على العرش خاله الأمير عبد الإله الذي أصبح الحاكم الفعلي للعراق.

كان عبد الإله يتقاسم مع نوري السعيد الاعتقاد بالحاجة إلى الحماية البريطانية. لذا فإنّهما وجدا نفسيهما على خلاف مع الضباط الشبان في القوات المسلّحة المناهضين لبريطانيا، ومع الرأي العام العراقي على العموم الذي أثاره القمع الوحشي الذي تمارسه بريطانيا ضد الفلسطينيين. وقد ارتبط المزاج المتشدّد في بغداد بوجود مجموعة من المنفيين العرب التي تعبّر عن آرائها بقوة بقيادة مفتي القدس السابق الحاج أمين الحسيني. وسرعان ما أطاحت موجة قوية من الاحتجاجات الوطنية بنوري السعيد وحملت رشيد عالي إلى رئاسة الوزراء في سنة 1940.

دعا رشيد عالي إلى إعادة النظر في المعاهدة البريطانية العراقية على أمل تحرير العراق من السيطرة البريطانية، وفرض قيوداً على تحركات القوات البريطانية ورفض قطع العلاقات مع إيطاليا، وأرسل وزير العدل ناجي شوكت لمقابلة السفير الألماني فرانز فون بابن Franz von Papen في أنقرة لمحاولة الحصول على الدعم الألماني. أثارت هذه السياسات مخاوف نوري السعيد وعبد الإله، فأجبرا، بدعم بريطاني، رشيد عالي على الاستقالة في 31 كانون الثاني/يناير 1941. فحلّ محله الفريق طه الهاشمي الذي استدعي وزير خارجيته، توفيق السويدي، إلى القاهرة في آذار/مارس 1941، حيث أبلغه نظيره البريطاني أنتوني إيدن بصراحة أن بريطانيا تنتظر تعاوناً أكبر من العراق بالإضافة إلى قطع العلاقات مع إيطاليا. عاد السويدي إلى العراق وأقنع طه

المهاشمي بأن من الأفضل قمع الضباط المتمردين، لكن هذه الخطوة أدت إلى نتائج عكسية مدهشة.

في 1 نيسان/أبريل 1941، حاصر الجيش القصر الملكي في بغداد، وكان عبد الإله قد هرب قبل ساعات إلى القاعدة البريطانية في الحبانية ومنها إلى البصرة ثم إلى عمان. استلم رشيد عالي السلطة ثانية في 3 نيسان/أبريل بدعم من أربعة ضباط عُرفوا باسم "المربع الذهبي"، وخلع الوصي على العرش الغائب. عمد رشيد عالي، في أولى خطواته، إلى استنفاذ البريطانيين بإرسال وحدة من المدفعية العراقية لمواجهة قاعدة سلاح الجو الملكي في الحبانية. وفي الأيام التالية، نُقلت قوات برية عراقية كبيرة إلى المضربة المشرفة على القاعدة حيث تحتفظ بريطانيا بنحو 2200 جندي و12 مركبة مدرّعة و96 طائرة حربية قديمة. بمعظمها وتستخدم أساساً للتدريب. وأمر رشيد عالي بعدم تخليق الطيران البريطاني ووقف تحركات القوات.

نتائج انقلاب رشيد عالي

استقبلت هذه الأحداث الدراماتيكية في العراق باهتمام كبير في سوريا ولبنان، حيث ترأس رياض الصلح عدّة اجتماعات حماسية تضامناً مع رشيد عالي. وتظاهر الطلاب في دمشق أمام القنصلية البريطانية وحطموا نوافذها. ومما أثار غضب البريطانيين جداً أن السلطات الفرنسية سمحت للصحف اللبنانية والسورية بنشر البيانات التعبوية لرشيد عالي، فيما وزّع "الحرس العربي" التابع للمفتي منشوراً يعلن أن على العرب بأكملهم الجهاد ضد البريطانيين⁽¹⁾. أدرك المسؤولون البريطانيون المحليون في بيروت ودمشق أن الوضع في العراق يفتح نافذة واسعة لنشر الدعاية لدول المحور واستهجنوا غياب الجهود البريطانية المضادة. ورأى هؤلاء أن الوقت حان كي تصدر لندن إعلاناً يؤيد استقلال سوريا. لكن بريطانيا كانت مقيدة جداً بالسياسات المتناقضة التي تتبناها. فهي لا ترغب في إثارة الشكوك الفرنسية الجاهزة بالمكائد البريطانية، لذا ساندت ديغول، وواصلت في الوقت نفسه دعم دنتز. كما أن الجنرال ويفل كان عازماً بدوره على المحافظة على الموارد

العسكرية المتاحة للدفاع عن مصر بدلاً من تشتيتها في أي تدخل في شرق العالم العربي.

في غضون ذلك، كانت القوات الألمانية تتقدم على جميع الجبهات. واعتقد الملك فاروق أن انتصار ألمانيا أصبح وشيكاً فرفض إعلان الحرب على المحور. بدت خطوط الاتصالات البريطانية الحيوية مع مصر والخليج العربي والهند وماليزيا وأستراليا في خطر داهم. فإيطاليا تسيطر على سواحل وسط البحر المتوسط، وتهدد السيطرة التاريخية للبحرية الملكية على هذه المنطقة. ولا يوجد لبريطانيا في وادي النيل سوى 55,000 جندي و200 طائرة قديمة فقط لمواجهة القوات الألمانية في ليبيا والإيطالية في إثيوبيا وإرتريا الأفضل تسليحاً والأكثر عدداً. وفي ظل التهديد المحدق باحتمال قيام المحور بحركة كمشاة، اعتقد البريطانيون أن انقلاب رشيد عالي قد لا يكون أمراً عارضاً، بل دليلاً على خطة منسقة لإطلاق انتفاضة عربية في المنطقة بأكملها. فقد كان العراق في ذلك الوقت، كما هو اليوم، يمتلك موارد حيوية يطمع بها الغرب. فهو مورد كبير للنفط للقوات البريطانية، وجسر بري رئيسي بين معقل البريطانيين في مصر والاحتياطي الاستعماري الذي لا يستغنى عنه للمقاتلين في الهند. فخشيت بريطانيا أن تؤدي الانتفاضة في العراق إلى انكماش محيطها الاستراتيجي بأكمله أمام عينيها⁽¹⁾.

في سنتي 1940-1941 المشحونتين بالأحداث، لم يكن انقلاب رشيد عالي سوى حدث صغير فحسب مقارنة بالأحداث الكبيرة التي أثّرت تأثيراً كبيراً في عالمنا. على سبيل المثال، أدّى قرار موسوليني دخول الحرب إلى جانب هتلر إلى تغيير مسار الصراع. ولا شك في أن قرار هتلر غير المدروس بغزو الاتحاد السوفياتي قبل إلحاق الهزيمة ببريطانيا أدى إلى خسارته الحرب. كما أن إصرار تشرشل العنيد على مواصلة القتال، حتى بعدما سيطر هتلر على نصف أوروبا القارية، أنقذ العالم من السيطرة النازية، وكان ذا صلة وثيقة بالرد القوي الذي انتهجه في العراق⁽²⁾.

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 12

(2) انظر مراجعة بيتر كالفوركوري في *The Financial Times*, 4-5 August 2007، لكاتب Ian Kershaw.

Fateful Choices: Ten Decisions that Changed the World, 1940-41, London 2007

فاجأ انقلاب رشيد عالي الألمان والبريطانيين على حدّ سواء. لم يكن أي منهما على علم مسبق بالانقلاب، فسارعا إلى التفاعل معه - الألمان بتقديم الدعم العسكري والبريطانيون إلى إسقاطه. وبتقديم السلاح إلى رشيد عالي، أصبحت قوى المحور في جوار المشرق مباشرة. فرأى تشرشل أنه لا يستطيع احتمال التأخر في الردّ على هذا التهديد، وقرر العمل بسرعة.

أبلغ السفير البريطاني في العراق، السير كينهن كورنواليس Kinahan Cornwallis (وصل إلى بغداد يوم الانقلاب)، رشيد عالي أنّ بريطانيا بحاجة إلى إنزال قوات هندية في البصرة لتعزيز موقف ويفل في فلسطين. فإذا احترمت الحقوق البريطانية بموجب المعاهدة، فإن بريطانيا ستعترف بحكومته. لكن إذا رفض، فسيكون ذلك خرقاً للمعاهدة يترتب عليه ردّ عسكري حاد. وافقت الحكومة العراقية على التعاون مع الطلب البريطاني تحت هذا الضغط، وأنزل لواء المشاة الهندي العشرين في البصرة في 19 نيسان/أبريل. لكن عندما طلب رشيد عالي الإسراع في نقل تلك القوات إلى خارج العراق، تجاهله البريطانيون. فردّ برفض السماح بإنزال قافلة ثانية من القوات في البصرة، وأصبحت المعاهدة لاغية وباطلة.

بناء على تعليمات من لندن، حذّر القنصل البريطاني العام في بيروت المفوض السامي الفرنسي في 29 نيسان/أبريل من أن الألمان ربما يخططون لاحتلال القواعد الجوية السورية بقوات محمولة جواً. وكانت المخابرات البريطانية قد أبلغت عن إمكانية تمرکز 500 ناقلة جند قادرة على نقل 5000 جندي مع معداتهم في جزر دوديكان. فردّ الجنرال دنتر بأن أوامره تقضي بالدفاع عن الأراضي الخاضعة للانتداب في وجه أي اعتداء خارجي.

كان البريطانيون قلقين من أن يقنع الرايخ المارشال بيتان بعدم مقاومة الاحتلال الألماني لسوريا⁽¹⁾. فقد علموا أن الألمان، المتلهّفين لمساعدة رشيد عالي، يفاوضون حكومة فيشي على استخدام مطارات المشرق، وأنهم طلبوا أن يُسمح لطائراتهم بالهبوط في سوريا والتزوّد بالوقود والإقلاع إلى العراق. في المقابل، طلبت حكومة فيشي أن تطلق ألمانيا سراح أسرى الحرب الفرنسيين. اعتبر البريطانيون هذه

المفاوضات تطوّراً خطيراً جداً. فإذا حصل سلاح الجو الألماني على حرية استخدام المطارات السورية واللبنانية، فإن الموقف البريطاني بأكمله في مصر قد يصبح ضعيفاً من الناحية العسكرية، وقد تخسر بريطانيا قناة السويس وكل البحر المتوسط. وساد التجهّم الأجواء في لندن بعد أن اجتاحت الألمان اليونان في 30 نيسان/أبريل وأصبحت القوات البريطانية في البلقان في وضع مشابه لما حدث في دنكرك.

هكذا، بناء على أوامر عاجلة من تشرشل، وجّه البريطانيون إنذاراً لرشيد عالي يقضي بانسحاب العراقيين من المناطق المجاورة لقاعدة الحبيّانية في ساعات الصباح الأولى من يوم 2 أيار/مايو أو مواجهة العواقب. وعندما انتهت مدة الإنذار، بدأت الطائرات البريطانية بقصف القوات العراقية. وفي اليوم الثاني للقتال، وصلت مقاتلات قاذفة من طراز بلنهييم Blenheim إلى مسرح العمليات فدمّرت سلاح الجوي العراقي وقواعده الجوية. وتبع ذلك هجوم برّي أجبر العراقيين على التراجع إلى الفلوجة، ورفع الحصار عن الحبيّانية.

في 9 أيار/مايو حطّت طائرة ألمانية واحدة في مطار المزة في دمشق وعلى متنها الرائد أكسل فون بلومبرغ Axel von Blomberg مع ستة ضباط ألمان. وبعد أن أمضوا ليلتهم في فندق أورينت بالاس، انتقلوا بالطائرة إلى العراق في اليوم التالي. وفي 10 أيار/مايو، حطّت ثلاث طائرات ألمانية أخرى في حلب، إحداها مطلية بالألوان الفرنسية دون إتقان، وكان على متنها ف. غروبا F. Grobba، السفير الألماني في بغداد الذي كان عائداً إلى مركز عمله، ورودلف ران Rudolf Rahn وهو دبلوماسي ألماني خدم مع السفير أبتز Abetz في باريس، وعدداً من حكومة مبعوثي فيشي⁽¹⁾. طلب الألمان عند اجتماعهم في بيروت مع القائد الفرنسي، الجنرال دنتز، نقل مخزونات العتاد العسكري لجيش المشرق فوراً إلى مستودع سكة الحديد على الحدود التركية لنقله إلى العراق على القصور. وخلال أيام، حمّل نحو 20,000 بندقية، و200 مدفع رشاش، بالإضافة إلى خمسة ملايين طلقة، وحمولة 56 شاحنة من وقود الطيران في القطارات المتجهة إلى العراق. أرسل العراق إلى سوريا في المقابل كمّيات كبيرة من القمح

(1) انظر Rudolf Rahn's memoirs, *Rubeloses Leben* (An Agitated Life), Dusseldorf 1949, pp. 149 ff, quoted by de Wailly, *Syrie*, p. 474, n. 2.

والزيت والسمن والتمر والفاكهة والخضر، فأحدث ذلك انخفاضاً فورياً في الأسعار المحلية. وعندما دافع الجنرال دنتز عن نفسه، في أثناء محاكمته في فرنسا بعد الحرب، زعم أن معظم الأسلحة التي أرسلت إلى العراق كانت قديمة أو معيبة.

في الأسابيع التالية، انتقل المزيد من الطائرات الألمانية عبر مطارات دمشق وحلب ورياق وتدمر إلى ساحة المعركة في العراق. تعرّضت تلك المطارات لقصف متكرر من قبل سلاح الجو الملكي البريطاني ابتداءً من 14 أيار/مايو، لكن لم تضرب أي أهداف فرنسية. فقد حاول ويفل ودنتز على ما يبدو تجنّب وقوع صدام إنكليزي فرنسي. مع ذلك دار نقاش حاد في الكواليس. فقد أراد ديغول من البريطانيين مساعدة فرنسا الحرة في طرد حكومة فيشي من المشرق. ورأى أنه لا يمكن الاعتماد على دنتز في مواجهة حكومة فيشي أو الألمان - كما تبين بالفعل لاحقاً - وأن سيطرة فرنسا الحرة على المشرق هي وحدها الكفيلة بذلك. لكن ويفل الذي يريد وقف التقدم الألماني نحو مصر بأي ثمن لم يكن مستعداً بعد لتوفير الرجال والعتاد من أجل السيطرة على سوريا. ورأى وجوب الاستمرار في دعم دنتز في وجه الألمان، لذا أبلغ ديغول أنه لا يمكن تصوّر القيام بأي عملية ضد حكومة فيشي في سوريا في الوقت الراهن⁽¹⁾.

بالإجمال، عبرت أجواء سوريا مئة طائرة ألمانية وعدد أقل من الطائرات الإيطالية في أيار/مايو وحزيران/يونيو، قدّم لها على الأرض نحو 200 ميكانيكي ألماني، على الرغم من أن الحرارة والرحلة الطويلة إلى العراق أوقعت فيها العديد من الخسائر. وتمكّن المحور من شنّ عدد من الغارات على الحبانية والتعزيزات البريطانية التي تسارع في عبور الصحراء إلى العراق، لكنها لم تكن ذات أهمية عسكرية. وقد رفع دنتز تقريراً إلى فيشي يفيد فيه أن الجهود الألمانية تبدو مرتجلة وليس لها تأثير فعلي على الوضع في العراق⁽²⁾.

في غضون ذلك، انطلقت من فلسطين قوة بريطانية عربية جُمعت على عجل وأطلق عليها اسم قوة الحبانية Habforce، عبرت 500 ميل في الصحراء، ووصلت إلى الحبانية في 18 أيار/مايو. وانتقلت قوة أخرى، رتل الملك KingCol، من شرق

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 30.

(2) Wailly, *Syrie*, pp. 148, 158. وانظر Air Vice-Marshal A.G. Dudgeon, *Hidden*

Victory: The Battle of Habbaniya, London 1941.

الأردن. ووصلت قوات هندية إضافية إلى البصرة. أخرجت قوات رشيد عالي من الفلوجة، ولوحقت إلى بغداد التي سقطت في 30 أيار/مايو. أفسح ذلك المجال لإعادة الوصي على العرش، الأمير عبد الإله، إلى الحكم، فعاد إلى العراق في 1 حزيران/يونيو وشكّل حكومة موالية لبريطانيا برئاسة نوري السعيد، وبقيت القوات البريطانية في أماكنها لدعمهما.

ألقى التحرك البريطاني السريع والضاري المزعمة برشيد عالي، ولم تستطع قوات دول المحور أن تقدّم له سوى قدر محدود من المساعدة لانشغالها بالوضع في اليونان، وكريت، وليبيا. فاضطّر إلى الفرار إلى إيران في طريقه إلى ألمانيا حيث أمضى ما تبقى من سنوات الحرب في البثّ الإذاعي إلى العالم العربي. وبعد ذلك قرّر إلى المملكة العربية السعودية حيث مُنح اللجوء السياسي. وعندما أُطيح بالحكم الملكي في سنة 1958، عاد رشيد عالي إلى العراق وحاول الاستيلاء على الحكم مجدّداً، لكنّه فشل وحُكم عليه بالإعدام. وفي وقت لاحق أعفي عنه، ونُفي إلى المملكة العربية السعودية حيث توفي في سنة 1965.

شكل سقوط رشيد عالي ضربةً قوية لرياض الصلح والوطنيين العرب في المشرق. فقد كانوا يأملون أن يفتح الانتصار الوطني في العراق الطريق أمام تحقيق استقلالهم بعدما فشلوا في التحرّر من القبضة الفرنسية. بل إن بعض المتحمّسين انتقلوا إلى العراق للقتال إلى جانب رشيد عالي. عقدت اجتماعات تضامنية في منزل رياض، بما فيها اجتماع واسع جداً في 4 أيار/مايو 1941. وجمعت التبرعات لضلح "ضحايا الاستعمار البريطاني من العرب"، كما جمّعت التبرّعات في المدن اللبنانية الكبرى. لكن خيبة الأمل في سقوط رشيد عالي كانت شديدة، وأعادتنا نكأ جراح الوطنيين الذين عانوا من الفشل أيضاً في نضالهم في فترة ما بين الحربين. فقارنوا تحطّم آمالهم في العراق بالكارثة التي حلّت بالجيل السابق، عندما قضى الفرنسيون على حكومة الملك فيصل في دمشق في سنة 1920⁽¹⁾.

أثار منظر الطائرات الألمانية التي تعمل من القواعد السورية الذعر في قلوب البريطانيين، إذ بدا أن الألمان اقتربوا من تثبيت نفوذهم في العراق وسوريا ولبنان. ولو

بجحوا في ذلك، لتمكّنوا من هناك من شنّ هجمات على مصر والمواقع البريطانية الأخرى في الشرق الأوسط وما وراءه. أقنع هذا الاحتمال الخطير البريطانيين بأن وجود نظام فيشي في المشرق فيما يقاثلون الألمان في الصحراء الغربية المصرية، لم يعد أمراً محمّولاً. فقد أصبح الوضعان متنافرين تماماً، بعدما سمح دنتز للطائرات الألمانية والإيطالية بالتزوّد بالوقود في سوريا تنفيذاً لأوامر فيشي. وكان قد سمح للألمان باستخدام السكك الحديدية السورية لإرسال الوقود والأسلحة إلى العراق⁽¹⁾. تبين أنّ موقف حكومة فيشي الحيادي في الأراضي الخاضعة للانتداب ما هو إلا ادّعاء باطل، فسقطت سياسة ويفل الداعمة لدنتز وتم التخلّي عنها بسرعة. أصدرت لندن أمراً إلى ويفل بالردّ بقوة على التهديد الذي يشكّله تعاون حكومة فيشي مع المحور. وهكذا أصبح لا بد من طرد فيشي من المشرق⁽²⁾.

استخلصت بريطانيا درساً آخر من الحالة الطارئة العراقية، إذ لم يعد من الممكن تجاهل الآمال السياسية العربية. ولا بد من التصالح مع الرأي العام العربي وكسبه، حتّى لو أدى ذلك إلى توتّر العلاقات مع الفرنسيين. كما يجب أن تؤخذ القوة التعبوية للقومية العربية بالحسبان، بعدما أصبحت المشاعر الشعبية العربية المحلية فجأة مفتاحاً للأمن البريطاني.

هزيمة فيشي في المشرق

لم ينتظر تشرشل انتهاء القتال في العراق، بل أمر ويفل بالاستعداد لدخول سوريا ولبنان في أقرب فرصة وبأكبر قدر من القوة من دون المساس بأمن الصحراء الغربية⁽³⁾. وفي 27 أيار/مايو، قدّم ويفل إلى لندن خطة عمليّة المصدّر Operation Exporter. وفي اليوم نفسه أوضح أنتوني إيدن لحكومة الحرب الحاجة الملحة إلى كسب الرأي العام الوطني العربي لصالح الحلفاء. وأطلق هذا المسعى في خطاب ألقاه في المقرّ الرسمي لرئيس بلدية لندن في 29 أيار/مايو. أعلن إيدن: "يرغب كثير من المفكرين العرب في وحدة أكبر بين الشعوب العربية من تلك التي يتمتعون بها الآن... وقد قرّرت حكومة

(1) انظر Compton Mackenzie, *Eastern Epic*, London 1951, p. 107.

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 139 ff.

(3) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 31 ff.

صاحب الجلالة دعم أي مشروع يحصل على موافقتهم العامة". لا شك في أن إيدن أمل في أن تصالح هذه الكلمات الحذرة العرب من دون إثارة قلق الفرنسيين. عبرت قوات الحلفاء الحدود إلى سوريا ولبنان فجر 8 حزيران/يونيو 1941 في هجوم رباعي الشعب، وجوبهت على الفور بمقاومة عنيفة. في اليوم الأول للحرب، أصدر الجنرال جورج كاترو إعلاناً أمل في أن يضمن حياد السكان المحليين. فأعلن: "جئت أضع حداً لنظام الانتداب، ولأعلمكم وأعلنكم أحراراً مستقلين... إن الاستقلال والسيادة سيكونان مضمونين بمعاهدة تحدّد فيها علاقتنا المتبادلة..."⁽¹⁾. رحّب تشرشل بإعلان كاترو، وأوصل ديغول ذلك الترحيب إلى الكتلة الوطنية في سوريا عبر جميل مردم قائلاً: "سيصدر الإعلان الذي وافقتُ على شروطه وروحته باسمي واسم فرنسا الحرة، أي باسم فرنسا".

اقترحت بريطانيا أن تصدر ضماناً لتصريح كاترو، لكن ديغول رفض صراحة فكرة الإعلان المشترك، واعتبر الاقتراح البريطاني تدخلاً وقحاً في دائرة نفوذ فرنسا. ورأى أن "كلمة فرنسا لا تحتاج إلى ضمانة أجنبية". أجبر رفض ديغول البريطانيين على إصدار بيان يؤيد إعلان كاترو وينفي وجود أي مطامع أخرى لبريطانيا في المشرق⁽²⁾. وعشية الهجوم بعث تشرشل برسالة استرضائية إلى ديغول يعلن فيها:

تعلم أننا لا نسعى وراء أي مصلحة خاصة على حساب الإمبراطورية الفرنسية ولا ننوي استغلال موقف فرنسا المأسوي لتحقيق مكاسب لنا. لذا، أرحّب بقرارك التعهّد باستقلال سوريا ولبنان، وأعتقد أن من الضروري، كما تعلم، أن نضفي على هذا الوعد الثقل الكامل ل ضمانتنا.

غير أنه يمكن الحكم بصورة أفضل على نيات تشرشل الحقيقية من رسالة بعث بها لوزير الدولة أوليفر ليتلتون Oliver Lyttleton، الذي وصل إلى القاهرة في 5 تموز/يوليو ك ممثل لحكومة الحرب وللاهتمام بالعلاقات مع فرنسا الحرة. أكّد له تشرشل أن الهدف الرئيسي كسب تأييد العالم العربي بتثبيت استقلال سوريا في أقرب وقت

FO 371/27214/E2915; General Georges Catroux, *Dans la Bataille de la* (1)
Mediterranee, Paris 1949, p. 137 f

.Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 41-42 (2)

وبأي شكل مقبول والإعلان عنه... تقضي سياستنا بمنح الاستقلال للعرب السوريين... إن العرب يشغلون اهتمامنا أكثر مما يشغلون اهتمام فرنسا الحرة بكثير، ولا يمكن الماطلة في التفاوض على المعاهدات التي ترضيهم وتفتنهم بأنهم لم يستبدلوا مجموعة من الفرنسيين بأخرى⁽¹⁾.

الحملة السورية

وضع الجنرال هنري "جمبو" ويلسون 'Henry 'Jumbo' Wilson، قائد عملية المصدرّ Operation Exporter الخطة العسكرية لغزو سوريا ولبنان، وعرضها على الشكل التالي:

- عبور اللواء الهندي الخامس الحدود السورية من فلسطين وتوجّهه إلى القنيطرة ودرعا، فاتحاً الطريق أمام عناصر الفرقة الفرنسية الأولى للتقدّم نحو دمشق.
- انطلاق الفرقة الأسترالية السابعة من حيفا وتوجّهها على طول الطريق الساحلية إلى بيروت لفتح الطريق أمام اللواء الأسترالي الحادي والعشرين للسيطرة على المدينة. ويقدم الإسناد لهذه القوات البرية بقصف من سفن البحرية الملكية وسفن قوات البحرية الملكية الأسترالية. وفي الوقت نفسه، يهاجم اللواء الأسترالي الخامس والعشرون القاعدة الجوية التابعة لفيشي في رياق.
- تتقدم فرقة المشاة الهندية العاشرة من العراق صعداً بمحاذاة الفرات متوجهة نحو دير الزور والرقّة وحلب بغية قطع خطوط الإمداد والاتصالات التابعة لفيشي⁽²⁾.
- بعد سحق الثورة العراقية، تجمع لواء قوة الحبانة قرب حدود العراق الغربية مع شرق الأردن وتقدم نحو الشمال الغربي إلى سوريا للسيطرة على تدمر وحماية خط أنابيب النفط الممتدة من الحديثة إلى طرابلس. في غضون ذلك، أغار مظلّيون بريطانيون من فرقة الكوماندو الحادية عشرة وعناصر من البالمخ، وهي وحدة مجنّدة من الصهاينة في فلسطين، على خطوط الاتصالات

(1) المصدر نفسه، ص 53-54.

(2) Andrew Mollo, *The Armed Forces of World War II*, London 1981; de Wailly, *Syrie*, p. 68

التابعة لفيشي. وقَدِّمت وحدة البالمخ أيضاً بعض المترجمين والأدلاء الذين استخدمتهم وحدات الحلفاء. وفي أثناء ذلك، فقد موشيه دايان، الذي أصبح جنرالاً إسرائيلياً معروفاً، عينه على يد أحد قناصة فيشي.

كان جيش المشرق الخاضع لإمرة حكومة فيشي يتكوّن من نحو 35,000 جندي نظامي. ويضمّ 4 كتائب من الفيلق الأجنبي - أفضل القوات المتاحة؛ و3 كتائب من فوج المشاة الاستعماري الرابع والعشرين، الذي دُمج مع كتيبتين من القوات السنغالية الاستعمارية، بالإضافة إلى مفارز من خيالة شمال أفريقيا التي تسمّى السباهية، وتضمّ نحو 7000 عنصر. فقد كان الحصان لا يزال وسيلة مفيدة في الحرب في المناطق الجبلية. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك بضعة كتائب مشاة مجتدة محلياً تعرف باسم القوات الخاصة، وتتكوّن من العلويين بصورة رئيسية، فضلاً عن بعض التركمان والدروز والأكراد. وضمّ جيش دنتر 14 بطارية مدفعية، و90 دبابة، و70 مركبة مدرّعة، وأكثر من 250 طائرة حربية دمر معظمها على الأرض. وكان لديها ما يكفي من البنزين والذخيرة لمدة ستة أسابيع من القتال.

تبين أن حملة الأسابيع الخمسة أطول وأعنف مما توقّعه الحلفاء، وخاصة القتال المرير بين الموالين لديغول والموالين لبيتان. قاتلت قوات الجنرال دنتر بقوة، وقد برزت من المواجهات الأقل ضراوة معركة نهر الليطاني (9 حزيران/يونيو)، ومعركة جزين (13 حزيران/يونيو)، ومعركة الكسوة (15 حزيران/يونيو)، ومعركة دمشق (18 حزيران/يونيو). تُوجّ سقوط المدينة بالدخول الاحتفالي للقائدَيْن الفرنسيين، الجنرال كاترو واللواء بول لويس لجنّتليوم Paul Louis Legentlihomme برفقة الفرسان الشركس.

أبلغ القائد العام البريطاني وزارة الحرب أن فرقة فرنسا الحرة قاتلت بشكل جيد، لكن "عامل القتال بين الإخوة كان له تأثيره على القوات المتعبة ما جعلها غير مؤهلة للمزيد من المعارك الضارية". وأضاف أن قوات فرنسا الحرة لم تكن محبوبة في أوساط الجالية الفرنسية في سوريا. وواجه الضباط في جيش فيشي الفرنسيين الأحرار بعداء شديد إذ اعتبروهم خونة. أما الشعب السوري فرحب بالبريطانيين كمحرّرين، لكن هذا الموقف "يشهد تغييراً كبيراً نتيجة ما اعتبروه استبدال مجموعة من الفرنسيين بأخرى، بتغاضٍ بريطاني". وأضاف أن السوريين

"شعروا بخيبة أمل كبيرة بسبب عدم وجود أي إشارة إلى شروع الفرنسيين بتنفيذ الاستقلال الذي تعهّدوا به..."⁽¹⁾.

في أعقاب السيطرة على دمشق، وقعت اشتباكات رئيسية مثل معركة مرجعيون (19 حزيران/يونيو)، ومعركة تدمر (1 تموز/يوليو)، ومعركة دير الزور (3 تموز/يوليو)، ومعركة الدامور (5 تموز/يوليو)، ومعركة بيروت (12 تموز/يوليو). وعندما سقطت بيروت، كان دنتز قد فقد نحو 6000 جندي، بينهم 1000 قتيل تقريباً. ووقعت الغالبية العظمى من قوات دنتز في الأسر. وفي 12 تموز/يوليو فاتح مبعوثوه البريطانيين بأمر الهدنة، وتم التوقيع عليها في عكا في 14 تموز/يوليو ما وضع نهاية لتلك الحرب.

أُخِيت بنود المعاهدة إلى أن الجنرال ويلسون كان ينفر من مساندة العسكريين الديغوليين المبتدئين ضد جيش فيشي المحترف. وقد تعامل ويلسون كجندي تقليدي بشهامة مفرطة مع جيش دنتز المهزوم. بل إن وثيقة الهدنة التي صاغها لم تذكر قوات فرنسا الحرة على الإطلاق. ولم يرد ذكر للانتداب الفرنسي في الوثيقة، ولا استقلال سوريا. لم يكتفِ ويفل بعدم السماح لكاترو بالتوقيع على الهدنة، بل منعه أيضاً، في بروتوكول سري، من تجنيد قوات فيشي في صفوف الديغوليين، وأصرّ على عودتهم إلى فرنسا. ومنعت جميع الاتصالات الشخصية بين الديغوليين والبيتانيين. ولم يسمح لممثلي فرنسا الحرة سوى باستخدام المناشير ومكبرات الصوت والأجهزة اللاسلكية في محاولة لكسب الجنود وجذبهم نحو ديغول - وذلك ترتيب هزلي استبعد الخيارات الفردية الحقيقية. وهكذا وضع حدّ لتجنيد الفرنسيين الأحرار في المنطقة. وقد عادت الهدنة نقل الانتداب على سوريا ولبنان من فرنسا إلى بريطانيا، وتبيّن أن كاترو لم يكن الشخص المناسب لتمثيل ديغول في عكا.

اتفاق ليتلتون - ديغول

اعتبر ديغول ما حدث بمثابة مؤامرة، وانتقل إلى القاهرة قادماً من برازافيل وهو في قمة الغضب، وباشر فور وصوله بتعديل اتفاق عكا، متغاضياً عن موافقة مندوبه

Most secret cipher telegram from C. in C., Middle East, to The War Office. 27638, (1) 16/7/41. St. Antony's College. Middle East Library. Private Papers

المطلق الصلاحية عليها. أغضب سلوكه المتعالي البريطانيون جداً، حتى إنهم فكّروا جدياً في إبقائه خارج سوريا. واقترح منعه من استخدام الاسلحة والتلغراف، وخلعه إذا اقتضى الأمر لمصلحة كاترو، وفي تلك الحالة حبسه في سجن بريطاني! لكن لم يكن هناك حاجة إلى تلك التدابير القوية، إذ سرعان ما تبين أن ديغول أكثر انقياداً إلى حدّ ما.

بعد ثلاثة أيام من المفاوضات المكثفة، توصّل ديغول إلى اتفاق مع وزير الدولة البريطاني أوليفر ليتلتون في 25 تموز/يوليو يشكّل "تفسيراً لهدنة عكا"، فضلاً عن إضافة بندين بشأن "التعاون بين البريطانيين وسلطات فرنسا الحرة في الشرق الأوسط". وقد نصّا على تقسيم مشوش للسلطة، حيث يتولّى الفرنسيون السيطرة السياسية والإدارية على أراضي المشرق، فيما تبقى السلطة الفعلية بيد البريطانيين الذين يسيطرون على الوضع العسكري من مختلف الجوانب. لم تكن "السيادة المشتركة" مرضية البتة، بل أدت إلى نزاعات عنيفة. فقد فسّر ديغول الاتفاق على أنه اعتراف بريطاني بالسيادة الفرنسية الكاملة على دولتي المشرق⁽¹⁾. وتركزت إحدى نقاط الاختلاف الرئيسية على مقدار "الاستقلال" الذي يرى كل جانب وجوب منحه لهاتين الدولتين. هل يُتبع النموذج العراقي كما اقترح البريطانيون، أو هل يكون "الاستقلال" نسخة مقيّدة من معاهدي 1936، كما طالب الفرنسيون؟ نتج عن تفاقم الجدل نزاع مستحكم طويل وشهير بين تشرشل وديغول.

أضعفت عملية الحلفاء في سوريا ولبنان موقف فرنسا في المشرق. وبدأ ديغول بالندم على التعهّد بالاستقلال الذي قطعه. كان منزعجاً من اضطرابه إلى قتال رفاقه القدامى وتحملّ قهراً خيانة المصالح الفرنسية، ولم يرضَ عن إعادة جنود فيشي إلى فرنسا. فكتب إلى تشرشل: "لا يمكن القبول بذلك مهما كان الثمن". لكن ويفل أصرّ على إعادة جيش المشرق إلى بلاده بأسرع ما يمكن، بسبب الحاجة إلى تثبيت الاستقرار في المشرق وخفض الطلب على موارده. كما كان هناك حاجة ماسّة إلى بعض قوات الحلفاء في سوريا للقتال في الصحراء الغربية حيث انتهى هجوم ويفل الأخير (عملية فأس المعركة Operation Battleaxe بين 15-17 تموز/يوليو) إلى انسحاب

سريع من ممر حلفايا⁽¹⁾. لقد كانت بريطانيا تواجه المحور منفردة، فلم تجد الوقت مناسباً لدفع حكومة فيشي إلى مزيد من الارتقاء في أحضان هتلر. لذا تقرر إحسان معاملة جنود فيشي الأسرى. وعلى أي حال، اختار 5500 جندي فقط من أصل 35,000 جندي الانضمام إلى صفوف الفرنسيين الأحرار.

أراد ديغول تعيين كاترو مفوضاً سامياً في المشرق، لكن تشرشل أقنعه بالعدول عن ذلك. فوجه ديغول رسالة إلى كاترو يسميه فيها المندوب العام، ويأمره بالتفاوض على "معاهدتين تؤسسان لاستقلال دولتي المشرق وسيادتهما وتضمنان تحالفهما مع فرنسا وتحميان حقوق فرنسا ومصالحها"، على أن تكون نقطة انطلاق المفاوضات مع معاهدة 1936. وعلى الرغم من اللقب، فسيؤولي كاترو "جميع صلاحيات" المفوض السامي الفرنسي. وأشار ديغول إلى أن "الانتداب الذي عهدت عصبة الأمم إلى فرنسا... يجب أن يستكمل حتى النهاية".

سعى ديغول الآن إلى وضع حدود للاستقلال غير المشروط الذي تعهد به كاترو. فعليه أن يأخذ في الحسبان تأثير الانسحاب السريع على الرأي العام الفرنسي. فليس في وسع فرنسا الحرة تقديم تنازلات متهورة أو التخلي عن الانتداب إلى أن تقرر ذلك عصبة الأمم أو أي منظمة تخلفها⁽²⁾. كان ديغول يتوق إلى الوصول إلى بيروت ودمشق لإصلاح صورة فرنسا وإعادة تأكيد "مهمتها التاريخية" في المشرق، وهي مهمة يحلم أن تديرها فرنسا بمفردها، من دون تدخل بريطانيا أو الولايات المتحدة أو أي هيئة دولية. فوحدة الإمبراطورية وفرنسا العالمية من العوامل الرئيسية لاسترجاع عظمة فرنسا بالنسبة إلى ديغول. وهي دليل ملموس على مرتبة فرنسا كقوة عالمية، لذا فإنه لن يتخلى عنه البتة⁽³⁾. وقد استمرت ميوله الاستعمارية سنوات عديدة بعد ذلك، إلى أن لطخت أثمار الدماء الجزائرية ضميره.

اقتصر دور رياض الصلح والوطنيين على مراقبة الحرب من دون أن يكون لهم دور فاعل فيها، لكنهم لم يرتاحوا إلى نتائجها، وغلب عليهم التشاؤم من موقف

(1) المصدر نفسه، ص 47 وما يليها.

(2) Andre Raymond, 'La Syrie, du Royaume arabe à l'indépendance', pp. 77 ff

(3) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 29; Louis, 'The British and the French Colonial Empire', p. 285

ديغول. وسرعان ما أدركوا أنه لا يمكن الوثوق بإعلان كاترو عن "الاستقلال"، فيما يعارضه المسؤولون الفرنسيون كل يوم. كما أن المسؤولين الذين خدموا في إدارة فيشي عادوا إلى مراكزهم لخدمة فرنسا الحرة. واتضح للوطنيين بجلاء أن انتهاء المعركة بعيد. لكن من حسن حظهم أن كفة فرنسا لم تعد راجحة في المشرق كما كانت قبل الحرب. ووجد رياض الصلح بصيصاً من الأمل في شخص الجنرال إدوارد لويس سبيرز Edward Louis Spears، مبعوث تشرشل الخاص إلى الفرنسيين الأحرار.

الفصل السابع عشر

رياض بك والجنرال سبيرز

لم يكن الجنرال إدوارد سبيرز يعلم شيئاً تقريباً عن أوضاع الشرق الأوسط عندما وصل إلى القاهرة برفقة الجنرال ديغول في 1 نيسان/أبريل 1941، أي قبل يومين من انقلاب رشيد عالي في بغداد. لكنه كان قوي الإرادة غير هيّاب، وسياسياً بارعاً ذا خبرة في التعامل مع الشخصيات المهمة. أحبّ سبيرز فرنسا، وأجاد اللغة الفرنسية وكرّس نفسه للتضامن الإنكلوفرنسي (كان عضواً في البرلمان عن حزب المحافظين في كارلايل، فأطلق عليه في وستمنستر لقب "ممثل باريس" على سبيل المزاح). وقد ربطته صداقة وثيقة بونستون تشرشل، زعيم بريطانيا خلال الحرب. ويُقال إن سبيرز عرض في سنة 1922 التنحي عن مقعده في البرلمان الجديد ليمنح تشرشل فرصة أسهل للنجاح في الانتخابات الفرعية. ومع أن تشرشل رفض العرض في ذلك الوقت، فإنه لم ينسَ التفاتته الشخصية والسياسية السخية.

عمل سبيرز خلال الحرب العالمية الأولى ضابط اتصال بين الاستخبارات الفرنسية والبريطانية، وبين القيادتين العسكريتين في وقت لاحق. لذا اختاره تشرشل في أيار/مايو 1940 مبعوثاً شخصياً إلى رئيس الوزراء الفرنسي المحاصر بول رينو. وعندما انحارت فرنسا أمام الهجوم الألماني في حزيران/يونيو، تحمّل سبيرز مسؤولية الجنرال ديغول وهربته من بوردو إلى إنكلترا أمام أعين حكومة بيتان الجديدة. عيّن تشرشل سبيرز رئيساً للبعثة البريطانية إلى الفرنسيين الأحرار⁽¹⁾. وفي أثناء الخدمة في الشرق الأوسط بين سنتي 1941 و1944، تمتع سبيرز بميزة رفع التقارير إلى تشرشل مباشرة من دون المرور بوزارة الخارجية وغيرها من وزارات الدولة. وعلى أي حال، كان سبيرز يزدري وزارة الخارجية التي اعتبرها دائماً عنيدة وجبّانة. وقد قدّم هذا الجندي الدبلوماسي المتميز مثلاً على التغيير الذي يمكن أن يُحدثه التدخل الجريء لشخص

(1) Roshwald, *Estranged Bedfellows*, p. 86.

واحد في مسار الأحداث. كما أدى دوراً حاسماً في تحقيق استقلال لبنان وسوريا بالتعاون الوثيق مع رياض الصلح.

كانت زوجة سبيرز الأميركية، وهي ابنة ويليام بوردن من شيكاغو، تتمتع بجرأة مماثلة. تولّت إدارة مستشفى نقال في الحرب العالمية الأولى، وتلك مأثرة تمكّنت من تكرارها في الحرب العالمية الثانية، على الرغم من فقدانها جميع تجهيزاتها في أثناء الانسحاب الفرنسي. جهّزت بعد ذلك وحدة طبية بمساعدة أميركية، وسلّمتها إلى الجنرال ديغول، حيث رافقت الفرنسيين الأحرار إلى أفريقيا، وشاركت في الحملة على سوريا.

وصل سبيرز إلى القاهرة ديغولياً متحمساً، فقد أعجب بموقف هذا الفرنسي المتحدّي، وصمّم على بذل ما في وسعه لمساعدته في إطلاق الفرنسيين الأحرار في طريقهم إلى الانبعاث الوطني. كان سبيرز واسع المعرفة في الجغرافيا السياسية، ومن أوائل من حذّروا من الخطر الذي ستعرّض له قناة السويس، والأسطول البريطاني في الإسكندرية، وقبرص وأنابيب نفط العراق - والموقف البريطاني بأكمله في شرق المتوسط - إذا سُمح للطائرات الألمانية باستخدام المطارات اللبنانية والسورية التي لا تبعد أكثر من ساعة بالطائرة. وانضم سبيرز إلى ديغول في حثّ الجنرال أرشيبالد ويفل، القائد العام البريطاني، على طرد نظام فيشي داخل سوريا في أقرب فرصة ممكنة. لكن سرعان ما لاحظ سبيرز أن أولويات ديغول تختلف اختلافاً كبيراً عن أولوياته. فقد كان الشاغل الرئيسي لدى ديغول استرجاع السيطرة الفرنسية على دول المشرق، وشكّل ذلك أولى بؤادر الخلاف بينهما.

وفي القاهرة، اكتشف سبيرز وديغول أن بريطانيا أقامت ما يعادل حكومة إقليمية محورها أوليفر ليتلتون، الذي عيّن وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الأوسط في حزيران/يونيو 1941، بعد أن كان رئيس مجلس التجارة. شكّلت ثلاث هيئات مهمة إلى جانب ليتلتون بغية توحيد القوى البريطانية العسكرية والمدنية المبعثرة في الشرق الأوسط وهي: مجلس الحرب في الشرق الأوسط، وهو السلطة السياسية العليا؛ ومجلس الدفاع في الشرق الأوسط، وهو لجنة متفرّعة عن مجلس الحرب؛ ومركز إمداد الشرق الأوسط، الذي تطوّر إلى محور إقليمي حيوي. حدث انسحاج بين سبيرز وليتلتون.

وكانت "بعثة سبيرز" مصممة كصلة وصل بين هذه الإدارات الثلاث وديغول، بغية مساعدة الفرنسيين الأحرار في تأمين احتياجتهم العسكرية. وقد شكّلت البعثة فروعاً في مختلف المناطق التي تعمل فيها فرنسا الحرة⁽¹⁾. وكانت تعدّ في ذروة نشاطها 131 عضواً، بينهم 25 ضابطاً والباقي من رتب أخرى، و37 مدنياً. بعد احتلال سوريا ولبنان، نقلت بعثة سبيرز مقرّها الإقليمي من مصر إلى لبنان. ومع أنّها اتخذت من بيروت مركزها، فقد كان لديها ممثلون في طرابلس وزحلة وصيدا، بالإضافة إلى دمشق وحلب وحماة واللاذقية والسويداء ودير الزور والحسكة⁽²⁾.

بعد ثلاثة أيام على استسلام الجنرال دنتز في عكا، أجمل سبيرز، بأسلوبه المتين المعتاد، مهمته في لبنان وسوريا: "إنني على اتفاق تام ومطلق مع وزير الدولة ليتلتون بشأن المواضيع كافة. الجميع متفق على أن مهمة البعثة السورية تواجه أكبر الصعوبات التي يمكن تخيلها. النجاح صعب المنال، ووقوع الكارثة محتمل. إذا جرى التدخل في علاقتي مع وزير الدولة، فسأشعر أنني غير قادر على القيام بهذه المهمة الصعبة". كانت تلك إشارة مبكرة من سبيرز تستبق أي محاولة لتدخل المسؤولين في لندن.

تابع سبيرز قائلاً:

المشكلة هي:

منع اشتعال البلد.

المساعدة في جعل سوريا كتلة صلبة تشكّل قاعدة آمنة تعمل منها قواتنا المسلحة مهما كانت الظروف.

يجب أن يتحقق ذلك في بلد:

أ. غالباً ما تكون المصالح المحلية فيه متضاربة.

ب. سكانه مسلّحون إلى حد كبير.

ج. يكره الفرنسيين بكل فئاتهم.

د. يشعر فيه الفرنسيون الأحرار بغيرة شديدة من البريطانيين.

هـ. غالباً ما تكون فيه سلطات الفرنسيين الأحرار متعارضة بعضها مع بعض.

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 143 ff

(2) Eyal Zisser, *Lebanon: The Challenge of Independence*, p. 251, no. 13

و. تقل فيه أعداد المسؤولين الإداريين.

ز. ينتشر فيه عدد كبير من البريطانيين الذين لا يرتبط بعضهم ببعض ولا يثق بهم الفرنسيين ويسعى السكان المحليون إلى استغلالهم.

من هذه العوامل يجب ابتكار نظام يحافظ على طابع البلاد الفرنسي قدر الإمكان ويصون المصالح البريطانية الحيوية.

ومن الضروري قبل كل شيء تجنّب الاضطرابات المدنية التي من المرجح أن تنتشر خارج سوريا وتورطنا في استخدام القوة ضد العرب الذين نسعى إلى الحصول على ثقتهم.

هناك صعوبة أساسية إضافية هي ديغول نفسه. فسيعود إلى هنا يوم الجمعة وينوي الذهاب إلى سوريا... وقد يحاول التنكّر للهدنة إذا لم يرضَ عن شروط كسب القوات الفرنسية إلى جانبه.

يجب التعامل مع ديغول بحذر... قد تخرج البلاد عن السيطرة خلال أسبوعين إذا مُنح حرية التصرف في سوريا وفق مزاجه الحالي⁽¹⁾.

مال سبيرز عند وصوله إلى المشرق إلى التشكيك بالوطنيين العرب الذين أبلغ أنهم أصدقاء المفتي الحاج أمين الحسيني، وأنهم دعموا رشيد عالي في تحدي البريطانيين في العراق، وتودّدوا إلى ألمانيا وإيطاليا. وبما أن الأجهزة الأمنية البريطانية اعتبرت رياض الصلح وأصدقائه رجالاً خطيرين، فقد قرّر سبيرز النأي بنفسه عنهم. وقاطعت بعثته الوطنيين السوريين مدة سنة تقريباً. وعندما حاول سعد الله الجابري العودة إلى سوريا قادماً من العراق، ردّ على أعقابهِ عند الحدود. وتجنّب رياض بدوره الأنظار خوفاً من الاعتقال.

تأقلم سبيرز بسرعة مع السياسة المشرقية، واعتمد على قنصليّ بريطانيا في بيروت ودمشق، فيرلونغ Furlonge وغاردنر، بغية إطلاعه على تعقيداتهما، إذ كان لهما خبرة واسعة في الشؤون المحلية ويعرفان الشخصيات المحلية. وفي غضون ذلك، كان عليه معرفة حجم كاترو وهل بإمكانه ترويض ديغول.

General Spears to Foreign Office (via Cairo, 2252), 17 July 1941. St. Antony's (1)
College, Middle East Library, Private Papers. Spears Box 1, GB 165-0269

الزعيم المنتظر

في سنة 1941، كان رياض بك معروفاً على نطاق واسع بأنه الزعيم المسلم الرئيسي بين أبناء جيله في لبنان، وشخصية قومية عربية من الدرجة الأولى - مثلما كان معروفاً عالمياً. اعتبره الفرنسيون، فيشين كانوا أم ديغولين، خصمهم الأول، في حين أقرّوا سرّاً بمزاياه، كما يظهر في تقرير بعثته السلطات الفرنسية في بيروت إلى باريس في أيلول/سبتمبر 1941:

رياض الصلح سياسي يتمتع بنفوذ كبير في الأوساط العربية. عمل في سبيل الوحدة في السنوات العشرين الماضية. كان ثرياً جداً، لكنه أنفق ثروته على نشاطاته السياسية. لم يبدِ استعداداً قط للتعاون مع سلطات الانتداب... إنه مناور بارع وذو ازدواجية محيرة، إذ لا يمكن تحديد هل هو كاره للأجانب أو موالياً للبريطانيين أو للألمان. لقد تمكّن من إظهار هذه المواقف الثلاثة في الوقت نفسه. وهو مقرب جداً من الوطنيين السوريين والعراقيين والفلسطينيين... ويعمل للوحدة السورية نحو تحقيق الوحدة العربية⁽¹⁾.

كان رياض وزوجته فائزة مع بناتهما الخمس يعيشون في ذلك الوقت في شقة متواضعة فوق صف من الدكاكين في حيّ رأس النبع في بيروت، استأجروها من ملحم بك حمادة (هو جدّ السياسي الدرزي الحالي مروان حمادة). هناك، في شارع عمر بن الخطاب، كان يشعر رياض بارتياح، حيث يوفر له "القضايات" الحماية، ويستخدمهم في معاركه ضد الفرنسيين.

عندما تزوج رياض فائزة الجابري في سنة 1934، انتقل وزوجته للعيش مع والديه في المنزل الواقع في ميناء الحصن على واجهة بيروت البحرية، وهو المنزل الذي ورثه والدته وأمضى فيه معظم طفولته. بُني هذا البيت على طراز قصر إيطالي، واتسم بغرفته الواسعة وإطلالته الرائعة على البحر الذي يعلو وينحسر على الصخور في أسفله. أحب رياض هذا المنظر على نحو خاص. لكن عندما اتخذ الفرنسيون إجراءات

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), Serie 1994A, Carton 20, note sur Riad el-Solh, de la Delegation Générale de la France Combattante au Levant, 23 septembre 1941

ضدّه في سنة 1935، فأبعدوه إلى القامشلي بسبب دوره في إضراب سائقي سيارات الأجرة، صادروا أملاكه التي لم تبع - الأرض في جنوب لبنان والبيت في ميناء الحصن - وعرضوها للبيع القسري. فبيع البيت في بيروت إلى عائلة جويستان اليهودية الإيطالية، فهدمته على الفور وشيّدت عمارة سكنية مكانه وافتتحت نادياً ليلياً في الطابق الأرضي يدعى دومينو.

لا شك في أن زوجته شعرت بالفخر حين لمع اسمه في سماء السياسة العربية. كان يتمتع بالجادبية والذكاء والقوة السياسية. لكنها ربما لم تعيش حياتها الزوجية كما ترغب. فغالباً ما كان رياض غائباً أو منفيّاً. وفي فترة الانتداب، اعتبره الفرنسيون عدواً لهم، فقامت عائلته من جراء ذلك. كانت تمضي فترات طويلة من دون أن يجرؤ أحد على زيارتهم. وعندما يعود إلى البيت، ينشغل عادة مع مناصريه وزعماء الأحياء الإسلامية في بيروت في الطابق السفلي. كان كثير من الرجال الصالحين والخشنيين يأتون ويذهبون، بينما تعزف فائزة موسيقى شوبان في الطابق العلوي. ربّت بناتها بمفردها إلى حدّ ما، وكانت تحوّل لهنّ الثياب أو تحيطها بسبب قلة المال. كانت امرأة شجاعة ومتحفظة في إبداء مشاعرها حتى مع عائلتها⁽¹⁾.

يذكر زهير عسيران، وهو صديق رياض الصلح وجاره، أنه كان في ذلك الوقت أنيقاً دائماً، ذا شارب صغير، يعتمر الطربوش (مائلاً دائماً). كان بيتنا قريباً من بيته. وكانت المظاهرات تبدأ من بيته وتنتهي عنده. كان الزعيم الذي حارب الانتداب. لاحظت أنه يحب ركوب الخيل وقراءة التاريخ العربي. وكان يحب الشعر، وخاصة المتنبي وأمرؤ القيس، ويتذوّق الموسيقى الكلاسيكية كثيراً⁽²⁾.

لم يكن في وسع بعثة سبيرز الاستمرار في تجاهل رياض والوطنيين. وقد جرت محاولة أولى للتوسّط لصالحهم مع الحلفاء قام سياسيان عراقيان وصلا إلى السلطة برعاية البريطانيين بعد إسقاط رشيد عالي، وهما رئيس الوزراء جميل المدفعي ووزير

(1) مقابلة مع علياء الصلح، 4 - 5 تشرين الأول/أكتوبر، مونت كارلو.

(2) مقالة عن رياض الصلح كتبها هدى الحسيني، استناداً إلى ذكريات الصحافي الكبير زهير عسيران في مجلة الشراع اللبنانية، العدد 848 (7 أيلول/سبتمبر 1997).

الخارجية علي جودت الأيوبي⁽¹⁾. كان هذان الرجلان عضوين في المنظمات القومية العربية قبل الحرب العالمية الأولى وضابطين في القوات الشريفة، وقد انضموا في ذلك الوقت إلى حكومة الملك فيصل في دمشق. لذا كان لديهما اهتمام شديد بالسياسة العربية وشبكة إقليمية من المعارف والأصدقاء. في لبنان، كانا على اتصال برياض الصلح، ممثل التيار الأساسي للوطنيين العرب، بدلاً من منافسيه آل كرامي وحلفائه في بيروت من آل سلام وآل بيهم.

رحّب رياض الصلح في بيروت وشكري القوتلي في دمشق بهذا العرض للدفاع عنهما أمام بعثة سبيرز. وقد جرى التواصل مع جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي في بغداد عبر قنصلي العراق في بيروت ودمشق، بالإضافة إلى كاظم الصلح، ابن عم رياض المقيم في بغداد في تلك الفترة. قدّم كاظم في 14 تموز/يوليو 1941 مذكرة للمدفعي يبيّن فيها مطالب الوطنيين وطلب نقلها إلى البريطانيين. وهذه المطالب هي الاستقلال وإجراء انتخابات حرة في سوريا ولبنان، وامتناع فرنسا عن دعم الحركات الانفصالية والطائفية، وموافقة بريطانيا وفرنسا على دخول لبنان وسوريا في تحالف أو اتحاد عربي.

كتب رياض في ذلك الحين رسالة لكاظم كرّر فيها أن أهداف الوطنيين هي تحقيق الاستقلال والوحدة. كما عبّر عن تقديره لخطاب أنتوني إيدن الذي ألقاه في مبنى بلدية لندن وإعلان جنرال كاترو في 8 حزيران/يونيو 1941 استقلال دول المشرق، فضلاً عن ارتياحه للبيان الذي أصدرته بريطانيا وأشركت فيه نفسها بالتعهد الفرنسي. واقترح رياض إجراء استفتاء عام في لبنان حول الوحدة العربية برعاية دولية تضم العراق والمملكة العربية السعودية.

تبنت الحكومة العراقية مذكرة كاظم الصلح ونقلتها، مع بعض التعديلات، إلى السفير البريطاني في بغداد، السير كنهن كورنواليس. وقدّمت مذكرات مماثلة إلى ممثل الرئيس روزفلت والجنرال كاترو. وعرض ابن سعود الوساطة مع البريطانيين نيابة عن رياض الصلح وشكري القوتلي، لكن البريطانيين رفضوا عرضه. غير أن كل هذه النشاطات أطلعت بعثة سبيرز على آراء رياض ومواقفه.

(1) للاطلاع على القطعة التالية، انظر Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 147-151.

من الوسطاء الذين سهّلوا على رياض الصلح اكتساب ثقة بعثة سبيرز الكابتن مارون عرب، وهو مسيحي أرثوذكسي ومراقب ذكي للمشهد السياسي في لبنان. كان صديقاً لرياض ويتحدّث معه باللغة التركية. عمل مارون في السفارة البريطانية قبل الحرب حيث عمل مستشاراً في الشؤون المحلية، وانضم إلى بعثة سبيرز كمساعد لفيرلونج بعدما سيطر الحلفاء على سوريا ولبنان. وفي وقت لاحق، روت كريمة رياض الصلح، علياء، طرفة للمؤلف: "يقول إنه كابتن، وما هو بعسكري؟ ويقول إنه مارون، وما هو عماروني؟ ويقول إن اسمه 'عرب'، وما هو بعربي" (1).

تم الاتصال المباشر بوساطة يوسف سالم، وهو مساعد آخر لفيرلونج وصديق أيضاً لرياض. عندما أبلغ فيرلونج سالم بقرار سجن رياض نتيجة تعاونه مع الألمان في العراق، سارع إلى تحذيره مما يبيّت له. ثم رتب لقاء بين رياض وفيرلونج، كرّر خلاله القنصل اتّهام رياض وكتلته الوطنية في سوريا بالتعاون مع الألمان. ولكن رياض تمكّن بعد نقاش دام ثلاث ساعات من إقناع فيرلونج بأن التعاون مع الألمان لم يكن هدفه المسّ بالمصالح البريطانية، بل بغية تحرير سوريا من الفرنسيين فحسب.

قدّم رياض عرضاً للقنصل قائلاً: "فلتفق على نسيان الماضي وتحدّث عن المستقبل فقط. إذا ساعدتمونا في إنهاء الانتداب الفرنسي فسنقف إلى جانبكم". وفي اليوم التالي، طلب رياض من صديقه الصحافي حتّا غصن الذي كان يعمل في جريدة الديار أن يكتب افتتاحية بعنوان "لماذا نقف مع بريطانيا؟" يوضح فيها العلاقة الجديدة بين الوطنيين العرب والبريطانيين (2).

لم يكن رياض، مثله مثل الكثير من القوميين العرب، يثق ببريطانيا بعدما أعطت فلسطين للصهاينة وسوريا للفرنسيين، ناكثة الوعود التي قدمتها للعرب خلال الحرب. وازداد العداء الذي يكنّه لبريطانيا لأنها سحقت انتفاضة رشيد عالي في العراق، وإذلت فاروق في مصر عندما حاصرت دباباتها قصر الملك وأجبرته على تعيين زعيم الوفد النحاس باشا رئيساً للوزراء. كما أن استمرار سيطرة بريطانيا السياسية والعسكرية

(1) مقابلة مع علياء الصلح، 4 - 5 تشرين الأول/أكتوبر، مونت كارلو.

(2) هلال الصلح، تاريخ رجل وقضية: رياض الصلح 1894-1951، ص 80. يوسف سالم، خمسون

سنة مع الناس، بيروت 1975، ص 111-115.

على العراق وشرق الأردن وفلسطين ومصر تحبط تطلعات العرب إلى الاستقلال والوحدة.

مع ذلك، كان رياض الصلح سياسياً براغماتياً. أدرك أن سياسة بريطانيا العربية تظل أكثر تحرراً من السياسة الفرنسية. كما أن علاقاته الشخصية الوثيقة مع ابن سعود في شبه الجزيرة العربية، والنحاس باشا في مصر، والأمير عبد الله في شرق الأردن والوصي على العرش العراقي عبد الإله في المعسكر الهاشمي - وجميعهم تعاونوا مع بريطانيا خلال الحرب - ربما قلّلت من موقفه المعادي لبريطانيا⁽¹⁾.

تحول سبيرز من الديغولية إلى العروبة

كان الجنرال سبيرز ذا عاطفة قوية، شديد الحماسة في المحبة والكره. بعد أن كان مخلصاً لديغول، تحول خلال أسابيع من وصوله إلى المشرق إلى أحد أشد خصومه شراسة، بل إنه ألمح للندن أن من الأفضل إبعاد هذا القائد الفرنسي عن المنطقة. كان لهذا التغير المفاجئ والجذري في المشاعر أسباب عميقة ومتعددة. فقد غضب سبيرز من العداء الذي أبداه ديغول لبطله ونستون تشرشل، كما استاء جداً من فظاظته، فكتب عن "نوبات مزاج ديغول البشع"⁽²⁾. وشعر بالإهانة من الطريقة القاسية التي هاجم بها هذا الرجل الفرنسي هدنة تموز/يوليو 1941. كان سبيرز يحتقر أيضاً الأساليب الفرنسية الاستعمارية التي بدت له أنها تمثل القومية العمياء لحقبة ولّت، وتلك وجهة نظر جعلت تشرشل نفسه يوجّه إليه توبيخاً نادراً ويحذّره قائلاً: "علينا النهي عن رمي الحجارة لأن بيوتنا من زجاج"⁽³⁾. ولعل ما لا يمكن احتمالاه لوطني عنيد مثل سبيرز أن ديغول بدا أكثر اهتماماً بالمحافظة على سيطرة فرنسا في المشرق أكثر من اهتمامه بكسب الحرب. وأظهر سبيرز صراحة شديدة في وصف

Meir Zamir, 'An Intimate Alliance: The Joint Struggle of General Edward Spears (1) and Riad al-Sulh to Oust France from Lebanon, 1942-1944' in *Middle Eastern*

Studies, vol. 41 (6) (November 2005), pp. 811-832, p. 816

. Major General Sir Edward Spears, *Fulfilment of a Mission*, London 1977, p. 142 (2)

(3) نقلاً عن Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 812

هذا التحول في مشاعره: "تفاوت أمامي مسيرة عمر مليئة بالمشاعر والتعاطف مع الفرنسيين. أما الآن فلا شيء يهم سوى إنكلترا"⁽¹⁾.

بحلول خريف 1941، تحرّر سبيرز من أوهامه تجاه قائد الفرنسيين الأحرار. وقد علّق الجنرال "جمبو" ويلسون، قائد عملية السيطرة على سوريا ولبنان بسخرية: "انقلب [سبيرز] فجأة إلى مناهض للفرنسيين خلال بضعة أسابيع من توقيع الهدنة في عكا. ولم يكن لديهم شيء أفضل حتى ذاك الوقت"⁽²⁾. وفي نهاية السنة، ظهر الجنرال سبيرز الجديد. أصبح الآن يميل نحو الوطنيين، إذ رأى أن بناء علاقات جيدة مع العرب في هذه المرحلة من الحرب أكثر أهمية من تحسين العلاقات مع فرنسا الحرة. واقتنع سبيرز بأن المصالح البريطانية تقتضي منه انتزاع استقلال دول المشرق من الفرنسيين المترددين، الذين واصلوا التأكيد على أن الانتداب لا يزال صالحاً.

غضب سبيرز من أسلوب الفرنسيين الأحرار في إدارة الأمور. فقد أقاموا جمهوريتين على الورق في بيروت وسوريا، ولأنهم يفتقرون إلى القوة العاملة الإدارية، أبقوا على معظم المسؤولين التابعين لفيشي في مناصبهم وأبعدوا حفنة من المجاهدين بتعاطفهم مع المحور. بل إن سبيرز لم يجد اختلافاً بين فرنسا الحرة وفيشي في المشرق. أما الفرنسيون فقد رأوا أن قيام سبيرز بتشجيع الوطنيين المحليين محاولة بريطانية خبيثة لإخضاع سوريا ولبنان لنفوذ بريطانيا. وهكذا أصبحت بعثة سبيرز مصدراً لاحتكاك كبير بين البريطانيين والفرنسيين بدلاً من أن تكون وسيلة للتعاون بينهما⁽³⁾.

تُرك لتشرشل أمر تسكين مخاوف الفرنسيين. ففي 9 أيلول/سبتمبر 1941، عمد رئيس الوزراء إلى تحديد موقف بريطانيا في مجلس العموم تجاه مسألة المشرق، حيث أعلن:

ليس لدينا مطامع في سوريا ولا نسعى إلى الحلول محل فرنسا، أو استبدال المصالح البريطانية بالمصالح الفرنسية في أي جزء من أجزاء سوريا. إننا موجودون في سوريا لنربح الحرب فحسب. لكن عليّ أن أوضح أن

Major-General Sir Edward Spears, *Assignment to Catastrophe: The Fall of France*, (1) June 1940, Melbourne 1954, p. 48.

(2) نقلاً عن Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 66.

(3) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 143.

سياستنا، التي يشارك فيها حلفاؤنا الفرنسيون الأحرار، تقضي بإعادة تسليم سوريا للسوريين الذين سيستعيدون حقوقهم بالاستقلال والسيادة في أقرب وقت ممكن. نحن لا نقترح الانتظار حتى انتهاء الحرب لتشكيل حكومة أو حكومات سورية مستقلة، إذ يمكن قيام أكثر من حكومة واحدة. إننا ننظر دائماً في زيادة الحصة السورية في الإدارة. ولا شك في أن فرنسا ستحافظ على الموقف نفسه الذي اتخذته في سوريا قبل الحرب، لكن الحكومة الفرنسية أدركت وجوب انتهائه. ونذكر، من جهة أخرى، أن فرنسا، بين جميع البلدان الأوروبية، تتمتع بامتياز خاص في سوريا، وأن النفوذ الفرنسي سيكون الأبرز مقارنة بنفوذ أي بلد أوروبي آخر.

[أعضاء المجلس المحترمين: "لماذا؟"]

لأن هذه هي السياسة التي قررنا اعتمادها. فنحن لم نذهب إلى هناك لحرمان فرنسا من دورها التاريخي في سوريا، إلا بقدر ما هو ضروري لتنفيذ التزاماتنا ووعودنا للشعب السوري. يجب ألا يثار أي سؤال، حتى في وقت الحرب، عن إحلال مصالح الفرنسيين الأحرار محل مصالح الفرنسيين الفيشيين. يجب أن تستقل الشعوب السورية. وذلك أمر معترف به تماماً في الوثائق المتبادلة بين وزير الدولة لبلتون والفرنسيين الأحرار.

طُرح علي سؤال عن علاقاتنا مع العراق. إنها علاقات خاصة، مثل علاقاتنا مع مصر، وأعتقد أن فرنسا ستجري ترتيبات خاصة مع سوريا بالطريقة نفسها. إن استقلال سوريا هو خاصية أساسية من خصائص سياستنا⁽¹⁾.

درس الفرنسيون والوطنيون هذا البيان الغامض، ولم يُرضِ أيًا منهما. وجده العرب مزدوج المعنى. فشرشل في النهاية إمبريالي غير نادم يقوم مفهومه عن "استقلال" العرب على المعاهدات التقييدية التي وقّعها مع العراق ومصر في الثلاثينيات. فقد منحت هاتين المعاهدتين بريطانيا نفوذاً سيادياً في البلدين، بالإضافة إلى حق واضح في إقامة القواعد العسكرية. وفي الأربعينيات، لم يكن الوطنيون العرب في سوريا ولبنان مستعدين لقبول الاستقلال الاسمي الذي منحه بريطانيا للعراق ومصر.

كان بيان تشرشل متناقضاً جداً في الواقع. فهو يشير إلى حصول سوريا على الاستقلال، على أن يحتفظ الفرنسيون بموقعهم الخاص فيها. ومن شبه المستحيل دعم الآمال السورية والتمسك بموقع فرنسا المميز في آن معاً، لأن المطمح السوري الأساسي هو التخلص من الفرنسيين تماماً. ادّعت بريطانيا عدم وجود أهداف استعمارية لديها، لكن سياستها في المشرق تقوم على إيجاد "زعماء" عرب متعاونين مع الإمبراطورية "الإسلامية" الخاضعة لسيطرتها⁽¹⁾.

لتشجيع الفرنسيين على إعطاء بعض الأرض للوطنيين في المشرق - كما ظنت بريطانيا أنها فعلت في العراق ومصر - تراجعت وزارة الخارجية عن الوعود التي قدّمتها إلى السوريين واللبنانيين. فأبلغت الجنرال ديغول سرّاً أنها تقرّ بحقه في ممارسة الصلاحيات التي مُنحت إلى فرنسا بموجب الانتداب، ووافقت على إنهاء الانتداب شريطة أن تحلّ محله بعد الحرب معاهدات تربط لبنان وسوريا بالجمهورية الفرنسية! ومن الواضح أن هذا الموقف يتناقض تناقضاً صارخاً مع البيانين اللذين أصدرهما الفرنسيون الأحرار والبريطانيون في 8 حزيران/يونيو 1941⁽²⁾.

شجّع بيان تشرشل الغريب أمام مجلس العموم و"إيضاحات" وزارة الخارجية، الجنرال كاترو على إصدار إعلان عن استقلال سوريا في 27 أيلول/سبتمبر 1941، لكنه استغل التناقضات التصالحية في الموقف البريطاني واستبعد ببرودة مسألة الاستقلال بأكملها. فلن يعاد العمل بالآليات الدستورية ولن يحدث انتقال ذو مغزى للحكم إلى السوريين. وسيبقى كاترو المفوض السامي الفعلي، وإن لم يحصل على الاسم، ويحتفظ بسلطته على القوات الخاصة والأمن العام والمصالح المشتركة. وبمساعدة "المستشارين" في الوزارات، سيمارس صلاحيات التي تجعل الاستقلال مجرد ادّعاء. ولم يكن النظام الجديد الذي أقامه سوى عرض ماكر للدمى⁽³⁾.

سمّى كاترو الشيخ تاج الدين الحسيني رئيساً لسوريا، وهو معروف بخضوعه لفرنسا، وحسن الحكيم رئيساً للوزراء. وفي لبنان، منح ألفرد نقاش لقب الرئيس، وشكّلت حكومة جديدة برئاسة أحمد الداعوق في 1 كانون الأول/ديسمبر 1941. بعد

.Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 78 (1)

.Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 154(2)

.Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 80 (3)

تعيين النقاش كتب سبيرز إلى ليتلتون غاضباً: "يشعر المرء كأننا نمسك بلبنان لتغصبه فرنسا الحرة". ورأى سبيرز أن "تجسيد مثل هذه السياسة أمر كرهه جداً"⁽¹⁾. وعلى الرغم من أن البريطانيين اعتبروا أنه لم يجز التشاور معهم بالشكل المناسب بشأن هذه الترتيبات، فإنهم اعترفوا بماتين الحكومتين، ومُنح ذلك شكلاً رسمياً برسالة تهنئة طُلب من الملك جورج السادس توجيهها إلى رئيس الجمهورية السورية في 29 تشرين الأول/أكتوبر جاء فيها:

السيد الرئيس، تلقيت بسرور كبير خبر إعلان استقلال سوريا في 27 أيلول/سبتمبر 1941 وتوليكم منصب رئيس الجمهورية السورية. وبهذه المناسبة الميمونة، أرسل إليك تحاتي الحارة مع تمنياتي لك بالصحة والسعادة، والازدهار والرفاه لسوريا ومواطنيها.

وأتمنى مخلصاً أن تزداد علاقات الصداقة بين شعبينا وثوقاً ودفئاً من أجل المصالح المشتركة وتطوير المبادئ السامية المشتركة بينهما. جورج ر.إ.⁽²⁾

وأرسلت إلى الرئيس اللبناني رسالة مماثلة.

انزعج الفرنسيون من هذه المحاملات الدبلوماسية التي اعتبروها دليلاً إضافياً على محاولة بريطانيا التدخل في منطقة نفوذهم. أما الوطنيون فاعتبروا بيان كاترو وما تلاه من إجراءات غير مقبول البتة. وأرادوا أن تنفذ فرنسا ما وعدت به على الفور، بدلاً من تأجيل القضايا الرئيسية وبحثها في مفاوضات غير معروفة النتائج بعد حرب لا يمكن توقع ما ستؤول إليه.

مذكرة رياض في كانون الأول/ديسمبر 1941

في أوائل كانون الأول/ديسمبر، أبلغ الفرنسيون أن رياض يعتزم الرد على إعلان كاترو. وكما أفاد ممثلهم في بيروت في تقرير رفعه إلى ديغول:

(1) المصدر نفسه، ص 82.

(2) Annex to an Aide-Memoire handed to General de Gaulle on 28th October 1941, by the Secretary of State for Foreign Affairs. Spears Papers, St Antony's College, Middle East Library, Spears Box 1, File 4, GB 16S-0269

يقوم القائد المسلم المتطرف رياض الصلح بإعداد التماس إلى الحلفاء ينتقد فيه على ما يعتقد النظام الجديد للاستقلال اللبناني الذي يزعم أنه لا ينسجم مع البيانات والوعود التي قدّمتها بريطانيا العظمى إلى اللبنانيين والسوريين. ويقول رياض إنه استقلال منقوص إذ اختار كاترو الحكومة بدلاً من أن ينتخبها الشعب، وإن هذه الحكومة ليس لديها أي وثيقة رسمية تكرّس مبدأ الاستقلال، سوى إعلان الجنرال كاترو. ويطلب رياض الصلح أيضاً بتحقيق الوحدة السورية⁽¹⁾.

فيما كان رياض منكباً على كتابة مذكرته، غادر الجنرال سبيرز بيروت في 11 كانون الأول/ديسمبر لعرض آرائه على المسؤولين البريطانيين بأسلوبه المباشر المعهود. أكمل رياض مذكرته في أثناء غياب سبيرز، وأرسل نسخاً منها إلى المفوضيات والبعثات الدبلوماسية لبريطانيا والولايات المتحدة وتركيا والعراق والمملكة العربية السعودية ومصر. أخذت بعثة سبيرز علماً بهذه المذكرة، لأن إعلان كاترو عن استقلال لبنان كان موضع خلاف مرير بين سبيرز وديغول⁽²⁾. استلم المذكرة أحد مساعدي سبيرز، جون هاملتون John Hamilton، وأرسلها إلى وزير الدولة في القاهرة. وعلّق هاملتون عليها قائلاً: "إنها عريضة منطقية جداً وتستحق أن تحفظ في السجلات حتى يحين وقت اتخاذ مزيد من القرارات المتعلقة بمستقبل البلد"⁽³⁾.

وجّهت مذكرة رياض، المؤرخة في 20 كانون الأول/ديسمبر 1941، نقداً شاملاً لسياسات الجنرال كاترو، وعبرت بوضوح عن موقف الوطنيين العرب. ورأى رياض أن إعلان كاترو يتناقض مع التعهد بالاستقلال الذي قدّمه بنفسه، وكرّره ديغول وتشيرشل وإيدن، بالإضافة إلى إعلاني فرنسا وبريطانيا في 8 حزيران/يونيو 1941. ورفض رياض تأكيد كاترو على "الحقوق التاريخية" لفرنسا في لبنان، واقترحه أن

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth Ambassade, Carton 20, Serie 1994A, Delegation Generale de la France Combattante au Levant, 5 decembre 1941

(2) Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 816

(3) Letter from Hamilton to Minister of State with Solhi's petition attached (F0371/31469/592),

نقلاً عن Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 817. انظر أيضاً، علياء الصلح، عندما دخلوا التاريخ، بيروت 1959؛ وهلال الصلح، تاريخ رجل وقضية، ص 82-87.

تستبدل معاهدة قائمة على معاهدة 1936 اللبنانية الفرنسية بالانتداب بعد الحرب. ورأى أن أي معاهدة كهذه تسلب لبنان سيادته وتمنعه من المشاركة في تحقيق الوحدة العربية التي شجعتها الحكومة البريطانية. وبدلاً من إلغاء الطائفية والمساعدة في قيام لبنان كبلد عربي موحد، فإن النظام الذي اقترحه الفرنسيون يرسّخ الانقسامات الطائفية الإقليمية. سخر رياض من "المشاورات" التي سبقت إعلان كاترو، وأبدى أسفه لأن السلطات الفرنسية لم تسمح بإجراء انتخابات حرة. وقال رياض مخاطباً كاترو شخصياً: "لقد رفضت الاستماع لمن حاول لفت نظرك إلى الرغبات الفعلية للبلاد".

تعهد رياض في مذكرته تجنّب أي إشارة إلى القضايا المثيرة للخلاف الداخلي مثل الوحدة السورية، ومشكلة الأراضي "المتنازع عليها"، أو أي مطالب ذات طابع إسلامي. وسعى بدلاً من ذلك إلى التعبير عن روح التسوية والمصالحة التي بدأت ترسّخ في أوساط الوطنيين العرب منذ منتصف الثلاثينيات ولا تزال تتعزّز مع تغيّر ظروف الحرب⁽¹⁾.

اهتمّ رياض، منذ كان يافعاً، بتهدئة مخاوف المسيحيين في لبنان من الغرق في العالم الإسلامي الواسع. وبدأ، بعد أخذ مخاوفهم في الحسبان، يوصي في اتباع نهج ديمقراطي تدريجي لتحقيق الوحدة العربية، بدلاً من أي شيء أكثر قسراً. بدت نتائج هذا النهج الدقيق واعدة، إذ أخذ بعض الموارنة يعيدون النظر في موقفهم العدائي من القومية العربية وقلّ خوفهم من إقامة علاقات أوثق مع الدول العربية المجاورة. وأصبحت محاولات الفرنسيين الأحرار إعادة إثارة مخاوف الموارنة واستبعاد الوطنيين العرب من العملية السياسية أقلّ فعالية مما كانت عليه في الماضي. بل إن البطريك الماروني شجب مخططات كاترو في اجتماع عامّ في بركري، ودعا إلى الاستقلال الحقيقي للبنان، فأصبح الوطنيون العرب في صلب النشاط السياسية، ولم يعودوا معزولين خارجه كما كان يتمنّى الفرنسيون⁽²⁾.

Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, pp. 157-8; F0371/31469, Cairo to London, (1)

.13 January 1942, 41-57; Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 816

Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 159 (2)

حظيت مذكرة رياض بنقاش كبير، لكنها لم تُنشر في صحافة بيروت. فقد قلّصت الرقابة في أثناء الحرب ونقص الورق حجم الصحف في بيروت إلى صفحة أو اثنتين، واقتصرت أخبارها على أبناء الحرب وتقارير توزيع الحصص الغذائية ومواضيع مماثلة تحظى بالاهتمام الشعبي⁽¹⁾. كما أن الخوف من انتقام الفرنسيين منع المحررين المحليين من نشر آراء رياض. لذا اضطر رياض إلى اللجوء إلى وسائل أخرى للوصول إلى جمهور أكبر. وقد نقلت الصحافة اللبنانية هدى الحسيني، في مقالة نُشرت في مجلة الشراع في 7 أيلول/سبتمبر 1996، عن الصحافي المخضرم زهير عسيران قوله: "كان أول حدث سياسي يوطّد علاقتي مع رياض بك في سنة 1941، عندما نشر الجنرال كاترو إعلانه عن استقلال لبنان. رفض رياض الاعتراف بهذا الإعلان وصاغ ردّاً معادياً له، لكن الصحافة اللبنانية رفضت نشره. فطلب مني رياض بك الذهاب إلى فلسطين وإعطاءه لمراسل الأهرام هناك، ففعلت".

إدوارد سبيرز يعود إلى المشرق بلقب فارس

عاد سبيرز إلى بيروت في آذار/مارس 1942 حاملاً لقباً جديداً وصلاحيات أوسع، وتعززت مكانته باستمرار دعم تشرشل الشخصي له. فقد مُنح لقب فارس في لندن وأصبح يعرف باسم الجنرال السير إدوارد سبيرز. واحتفظ بمنصبه القلم كممثل بريطانيا الرئيسي لدى الفرنسيين الأحرار في المشرق، كما عُيّن مفوضاً دبلوماسياً لبريطانيا لدى الجمهوريتين السورية واللبنانية. وفي غضون أيام بعد العودة، قدّم سبيرز نفسه رسمياً إلى رئيسي البلدين، لكنه تعمّد تجاهل زيارة كاترو باعتباره ممثلاً للانتداب الفرنسي. كانت الرسالة واضحة - لم يعد سبيرز يعترف بالانتداب. أصبحت استراتيجيته الآن تقوم على تحقيق "الاستقلال" الفعلي، بل إنه طلب من كاترو الامتناع عن توسّل الانتداب لأنه "خيال قانوني". وهكذا عقد سبيرز العزم على مضايقة الفرنسيين، وتشجيع السوريين واللبنانيين في سعيهم لتحقيق الاستقلال، وجعل

(1) لا يوجد ذكر لمذكرة رياض في أي من صحيفة بيروت التي يصدرها صديقه محي الدين النصولي أو النهار أو "لوريان لوجور" أو النداء (التي أغلقت بين سنتي 1937 و1949) أو لسان الحال (أغلقت بين 1931 و1960).

المشرق ميزة حرية للحلفاء. توصل ديغول وكاترو إلى استنتاجات قائمة من هذه التطورات، واشتكى كاترو إلى ليتلتون قائلاً: "تصرف سبيرز... بطريقة فظة وخطيرة"⁽¹⁾.

بدأت العلاقات بين رياض الصلح وسبيرز تزهر في صيف 1942. فبعد عقد مزيد من الاجتماعات مع فيرلونج، برزت لهجة جديدة في المراسلات البريطانية بشأنه. ففي مذكرة مرفوعة إلى سبيرز عن الوضع داخل المجتمع المسلم، كتب فيرلونج: "رياض بك... هو الشخص الوحيد البارز بينهم"⁽²⁾. وبعد بضعة أسابيع، أفاد تقرير آخر أن رياض أصبح مقتنعاً بانتصار قوات الحلفاء في الحرب وأنه مستعد للتعاون⁽³⁾. بدأ البريطانيون يستبعدون الاتهامات الفرنسية بأن رياض تعاون مع الألمان ومنحوا ثقلاً أكبر لمقولة رياض بأن المسلمين اتهموا ظلماً بالولاء للمحور، وأنهم مالوا إلى الألمان على أمل التخلص من السيطرة الفرنسية. والتمس رياض الصلح الدعم البريطاني لمسلمي لبنان، لأن أهميتهم الاستراتيجية بالنسبة إلى بريطانيا تفوق أهمية عدد صغير من المسيحيين اللبنانيين الانفصاليين⁽⁴⁾.

أصبح سبيرز الآن يشارك الوطنيين الرأي بأن الانتداب فقد أساسه القانوني منذ نيسان/أبريل 1941، وأنه انتهى فعلياً باخزام فرنسا الفيشية، إذا لم يكن بإعلان الفرنسيين الأحرار استقلال سوريا ولبنان. كل ما بقي عمله هو نقل السلطات، لكن لا يمكن ربط ذلك بإبرام أي معاهدة، أو إخضاعه لها. فبعد العديد من التجارب المريرة، لم يعد السوريون مستعدين، لعقد مزيد من المعاهدات مع فرنسا. بل إنهم يريدون تحرير أنفسهم تماماً من أي ضغط قد يمارس عليهم بعد الحرب. شكّلت هذه الأفكار أساس التفاهم بين رياض وسبيرز، وهكذا بدأت علاقة وثيقة بينهما دامت ستين ونصف.

في غضون ذلك، غادر أوليفر ليتلتون القاهرة، وأصبح وزيراً للإنتاج في المملكة المتحدة. حلّ محله السير والتر مونكتن Sir Walter Monckton كوزير دولة لفترة

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 81 ff

(2) Furlonge to Spears, Beirut, 8 June 1942 (FO 226/233); Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 817

(3) Beirut Political Officer, 23 July 1942 (FO 226/306)

(4) Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 817

قصيرة، ثم ر. ج. كيسي R.G Casey، المفوض الدبلوماسي السابق لأستراليا في واشنطن. وأصبح الرجل الجديد الذي يتعين على سبيرز إقناعه بوجهة نظره.

سامي الصلح في رئاسة الوزارة

عندما استقال أحمد الداعوق من رئاسة وزراء لبنان في تموز/يوليو 1942، أراد سبيرز أن يخلفه رياض الصلح في هذا المنصب. لكن الفرنسيين أصرّوا على منع ذلك. كان كاترو يفضل عبد الله اليافي، وهو معروف بولائه للفرنسيين، وصهر عائلة العظم السورية الثرية. وكان اليافي قد ترأس حكومة متعاونة قبل الحرب. أرسل فيرلونج مذكرة ثانية إلى سبيرز جاء فيها:

هناك مسلم سني واحد لديه القدرة اللازمة وقوة الشخصية لقيادة حكومة تمنع الرئيس من انتهاك صلاحياتها. إنه رياض الصلح الذي يكرهه الفرنسيون وكانت تشبه به بعض أجهزتنا الأمنية في وقت من الأوقات. تشير جميع التقارير الحديثة إلى اقتناعه بانتصار الحلفاء واستعداده للتعاون معنا بإخلاص. وقد زارني للتعبير عن هذه المشاعر عندما كانت الأنباء الحديثة الواردة من مصر سيئة جداً. [كان رومل على بعد 60 ميلاً فقط عن الإسكندرية في أوائل تموز/يوليو 1942].

إنه يتميز في الوقت الحاضر بصلاته الوثيقة مع سوريا ونفوذ كبير فيها. وأعتقد أن الحكمة تقتضي منا محاولة إقناع الفرنسيين بقبوله على هذه الأسس. لكن إذا رفضوا ذلك، فإنهم لن يعترضوا البتة على تعيين ابن عمه سامي الصلح⁽¹⁾.

تم اختيار سامي الصلح الذي تخلى عن رئاسة محكمة الجنايات لتولي رئاسة الحكومة⁽²⁾. وجّه ديغول انتقاداً قاسياً إلى سبيرز لتدخله لمصلحة رياض وسامي الصلح، بل إن وزارة الخارجية البريطانية استنكرت ذلك. لم يمانع رياض تعيين ابن عمه، بل إنه أبلغ الرئيس نقاش، خلافاً لذلك، أنه وابن عمه واحد، ويكفي أن يكون

(1) Furlonge to Spears, Note for His Majesty's Minister, Beirut, 23 July 1942 (FO 2261233).

(2) سامي الصلح، أحتكم إلى التاريخ، بيروت 1970، ص 48.

أحدهما في السلطة⁽¹⁾. ولاحظ ساخرًا أمام كاترو أنه سعيد لأن الفرنسيين قرروا أخيراً، بعد عشرين عاماً، إنهاء مقاطعة آل الصلح! على أي حال، احتفظ رياض بنفوذه الكبير من وراء الكواليس. وبتأثير منه، ألح سامي على تنفيذ بعض المطالب العربية، مثل استخدام اللغة العربية بدلاً من الفرنسية في كتابة الوثائق الرسمية، وتعيين الوطنيين في المناصب القضائية والبلدية، وانتقال بعض المؤسسات الحكومية إلى السلطة اللبنانية. شهدت بيروت ارتفاعاً كبيراً في التعاطف مع الوطنيين العرب. وفي صيدا، احتفى آل الصلح وحلفاؤهم من آل عسيران بعروبة لبنان، بينما أعاد آل حيدر في البقاع إثارة الأفكار الوجودية في أوساط سكان قضاء بعلبك⁽²⁾. وقد مهدت حكومة سامي الصلح التي دامت ثمانية أشهر في سنة 1942 الطريق لترشيح رياض لتولي المنصب في السنة التالية⁽³⁾.

أزمة القمح

فيما كان السياسيون والقوى الأجنبية يتعاركون بشأن التعيينات الوزارية، تعرّض الشعب للجوع ووقع لبنان في أزمة قمح دامت مدة طويلة. فقد شحّت الغلال بسبب رداءة محصول شتاء 1941-1942، وقيام التجار الجشعين بتخزينها متوقعين ارتفاع الأسعار. لكن نقص الغذاء أمر خطير، ويهدّد بإحداث الفوضى فيما يواجه البريطانيون تهديداً وشيكاً من رومل في مصر. أدّى نجاح سبيرز في حلّ الأزمة إلى تعزيز سمعته وتقوية موقفه في خلافه مع ديغول ومنتقديه المشاكسين في لندن. كما وفّرت إطاراً مناسباً لبروز تحالفه مع رياض الصلح.

قام الحلّ الذي طرحه سبيرز على شراء القمح من المزارعين مباشرة مقابل الدفع إليهم نقداً. قدّرت الكمية الإجمالية التي توفرها كل منطقة، وحدّد سعرها الرسمي. وقد أدار مكتب القمح الذي أنشئ في أيار/مايو 1942 تنفيذ الخطة، وضّمّ مجلس إدارته ممثلين عن بريطانيا وفرنسا الحرة وسوريا ولبنان، غير أن سبيرز وكاترو احتفظا

(1) هلال الصلح، تاريخ رجل وقضية، ص 82، مجلة الحوادث بيروت، العدد 1087، (9 أيلول/سبتمبر 1977).

(2) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 166.

(3) Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 818.

بالكلمة الفصل. كانت المشكلة الرئيسية تكمن في ضمان الوفاء بالأهداف المحددة للغلال، إذ لا يمكن وقف المبيعات في السوق السوداء والتهريب عبر الحدود التركية، فضلاً عن رشوة المسؤولين المحليين. اتبع سبيرز تكتيكاً مبتكراً، فأصدر قانوناً بنفي جميع المخالفين إلى جزيرة قمران القاسية في البحر الأحمر.

وقام سبيرز بزيارة رئيس الوزراء السوري حسني البرازي، وهو مالك أراضٍ ثري وقوي، وأبلغه ضاحكاً أنه سيكون أول من يرسل إلى قمران إذا لم يتم الوفاء بالحصص المخصصة لمنطقته! وأضاف أنه وكاترو سيراقدانه في اليوم التالي إلى منطقة زراعية للوقوف بنفسيهما على وضع إنتاج القمح هناك. أدى هذا القرار إلى نتائج مذهلة، حيث تدفقت الغلال بمعدل يفوق قدرة مكتب القمح على توزيعها⁽¹⁾. لكن مشكلة تأمين إمدادات كافية من القمح ظلت تشغل بال البريطانيين والفرنسيين والسلطات المحلية حتى نهاية الحرب⁽²⁾.

زيارة ديغول المثيرة للجدل إلى لبنان

وصل ديغول إلى لبنان في 11 آب/أغسطس 1942، وصرّح أنه جاء "ليتولى بنفسه شؤون القوات والحكم... وإظهار سيطرة فرنسا"⁽³⁾. وكرّر في عدد من الخطابات الرئاسية الإعلان عن نيّته الاحتفاظ بسيطرة فرنسا في المشرق، وتباين صارخ مع المزاج السائد، سعى إلى إضعاف استقلال سوريا ولبنان، وتقوية الانتداب، وتأجيل الانتخابات العامة إلى أجل غير محدد⁽⁴⁾. أثارت تصريحات ديغول نفور الوطنيين والرأي العام بطبيعة الحال. وأدّى تأكيد المتعجرف أن فرنسا ستعيد موقعها القوي في المشرق، وإصراره على توقيع معاهدة، إلى إقناع بعض السياسيين المسيحيين، بمن فيهم الشيخ بشارة الخوري، بإعادة النظر في دعمهم لبريطانيا. بالمقابل، عمد سامي الصلح إلى التنسيق بشكل وثيق مع بعثة سبيرز طوال فترة زيارة ديغول التي دامت شهر⁽⁵⁾.

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 89-90

(2) Raghid el-Solh, *op. cit.*, p. 164ff

(3) Georges Catroux, *Dans La bataille de la Mediterranee*, p. 272

(4) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 167

(5) Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 818

في 12 آب/أغسطس 1942، شرع قائد الفرنسيين الأحرار في جولة ملكية عبر دول المشرق تعامل فيها مع الشخصيات المحلية بفخامة، بينما تجاهل بعض الموظفين البريطانيين وأهان بعضهم الآخر علناً. وانطوى خطابه الاستعماري على أن وقت الاستقلال في سوريا ولبنان "لم يحن بعد، وقد تمرّ سنوات كثيرة قبل أن يحين". وفي 14 آب/أغسطس، أرسل إلى تشرشل احتجاجاً رسمياً بشأن الأوضاع في المشرق، زاعماً أن الحكومة البريطانية أخلّت باتفاقهما بتدخلها الدائم في الشؤون الداخلية للمنطقة. وردّ عليه تشرشل في 22 آب/أغسطس بأن الحكومة البريطانية ملتزمة أمام العالم العربي بضمان تنفيذ الإعلان الفرنسي للاستقلال.

في أيلول/سبتمبر، أصبح وجود ديغول في المشرق مشكلة بحدّ ذاته، ما هدّد علاقات الحلفاء مع العرب وجعل صير تشرشل ينفذ⁽¹⁾. لذا لجأ رئيس الوزراء البريطاني إلى العقوبات المالية. كانت بريطانيا قد وافقت على دفع 300,000 جنيه للفرنسيين الأحرار في التاسع من كل شهر، و200,000-300,000 جنيه أخرى في وقت لاحق من الشهر لتغطية نفقاتهم في المشرق. طلب إيدن من الخزينة، وفقاً لتعليمات تشرشل، عدم دفع المعونة الشهرية للفرنسيين الأحرار إلاّ بعد موافقة ديغول على العودة إلى لندن⁽²⁾. وتحت هذا الضغط، وافق ديغول أخيراً على العودة إلى بريطانيا في نهاية أيلول/سبتمبر 1942، حيث تبادل رسائل مريّة مع تشرشل بشأن سياسة سبيرز المعادية للفرنسيين. ولم يتحسنّ مزاج تشرشل بعد مواجهة شخصية مع ديغول في 30 أيلول/سبتمبر، عندما خرج الزعيمان عن طوريهما وتبادلا الكلام القاسي.

أراد ديغول إبعاد سبيرز، عدوّه اللدود، عن المشرق، واعتقد أنه يوشك على تحقيق مبتغاه. واعتبر نشاطاته انتهاكاً فاضحاً للسيادة الفرنسية وسعيّاً منسقاً لإضعاف موقف فرنسا. واشتكى كاترو بدوره إلى وزير الدولة الجديد معتبراً أن سبيرز "يتولّى الآن مهمة تدمير النفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان". ونتيجة لذلك اعتقد كيسبي أن سبيرز ربما تمادى كثيراً. أما المسؤولون الهيايون في وزارة الخارجية، فكان يسرّهم التخلص من سبيرز الذي اعتبروه ذا آراء مستقلة خطيرة.

(1) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, pp. 95, 96, 97, 98, 100

(2) المصدر نفسه، ص 207، رقم 48.

كان هناك اختلاف مهم في هذا الموضوع، يتجاوز الانزعاج من استقلالية سبيرز. فالعديد من المسؤولين الكبار في وزارة الخارجية لا يعتبرون أنفسهم في حرب مع الاستعمار الفرنسي، بل يتشاركون مع ديغول الإيمان بالمهمة الاستعمارية الأوروبية. لم يكن رجال من أمثال أوليفر هانكي Oliver Hankey يريدون طرد فرنسا من المشرق، لاعتقادهم أن البريطانيين قد يحتاجون قريباً إلى قواعد عسكرية في سوريا، وهو ما يستطيع الفرنسيون تأمينه⁽¹⁾. لذا آيدت وزارة الخارجية ديغول في إصراره على استمرار صلاحية الانتداب. بل إن بعض المسؤولين رأوا أن إعلان كاترو في تموز/يوليو 1941 يعني "البدء بمسار يؤدي إلى إنهاء الانتداب وليس إلى إثمائه على الفور". وهكذا حصل ديغول على بعض الدعم في وزارة الخارجية البريطانية لرأيه أن شرعية الانتداب لم تتأثر بإعلان كاترو في تموز/يوليو 1941.

لكن كيبي حذر وزارة الخارجية قائلاً:

من الضروري المحافظة على الثقة بأننا لن نسلّم سوريا ثانية للفرنسيين بعد الحرب. إذا اهتزّت هذه الثقة، فسيزول السبب الأخير لتعلق السوريين بقضية الحلفاء. ولا يمكننا عندئذ لومهم إذا راهنوا على ألمانيا. كما أن... الوفاء بالوعد الذي قدّم لسوريا خلال الحرب سيؤثر مادياً على موقف العراق والدول العربية الأخرى.

بعبارة أخرى، رأى كيبي أنه لا يمكن التغاضي عن إعلان الاستقلال الذي أصدره كاترو والضمانة البريطانية إلا بخيانة واضحة لا تقلّ أبعادها عما حدث في سنة 1919⁽²⁾. وهكذا نجا سبيرز من الإبعاد بعد أن أكّد تشرشل أن "سبيرز دافع عن الحقوق البريطانية في سوريا بعزيمة قوية واقتدار". فأكفى ذلك حملة 1942 الرامية إلى إزاحته.

كادت المحاولة أن تفلح، لكنها أتت بنتائج عكسية في نهاية الأمر. جرح سبيرز من مساعي ديغول لإبعاده، وشعر بالمرءية من انتقادات أنتوني إيدن وغيره من مسؤولي وزارة الخارجية، فأصبح أكثر تصميماً من ذي قبل على العمل مع رياض الصلح وإجبار الفرنسيين على الخروج نهائياً من سوريا ولبنان⁽³⁾.

(1) Lewis, 'The British and the French Colonial Empire', pp. 284, 287

(2) Gaunson, *The Anglo-French Clash*, p. 104

(3) Zamir, 'An Intimate Alliance', p. 818

الفصل الثامن عشر

التحدي الانتخابي

شعر رياض الصلح في ربيع سنة 1943، قبل بضعة شهور من عيد ميلاده الخمسين، أن سنوات الجهد توشك أن تثمر، وأن الوقت حان للسعي إلى السلطة عبر الانتخابات اللبنانية. كانت لحظة سعادة غامرة له، على الرغم من أنه لم يستطع تبديد شيء من القلق من أن تحطم العراقيل الفرنسية طموحه. فهو لا يزال يذكر محاولته الأولى للوصول إلى البرلمان سنة في 1937، عندما اضطر إلى الانسحاب المذل من الانتخابات صبيحة يوم الانتخابات، عندما اتضح أن الفرنسيين سيتلاعبون بالأصوات لإسقاطه.

غير أن العديد من التطورات اجتمعت لصالحه هذه المرة، مثل سيطرة بريطانيا الكاملة في الشرق الأوسط، وتفوقها العسكري المطلق بحيث اعترف بما كمنحهم أعلى، حتى من قبل الفرنسيين المترددين. وكان وزير الدولة البريطاني في القاهرة السلطة المطلقة في المنطقة. وقد شجعت بريطانيا العديد من القوميين العرب، بمن فيهم رياض الصلح، على الاعتقاد أن نشوء وحدة عربية أو اتحاد فيدرالي عربي احتمال جدّي، بإسهامها في التكامل الإقليمي من خلال مركز تموين الشرق الأوسط في القاهرة.

بدا أن وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن يفضل شكلاً من أشكال الوحدة العربية. تجلّى ذلك من خلال بيانه الذي ألقاه في مجلس العموم في 24 شباط/فبراير 1943، وفسّر على نحو متفائل ما أطلق نشاطاً دبلوماسياً عربياً كبيراً، على الرغم من أنه جاء بصياغة أكثر حذراً من البيان الذي تلاه في مبنى البلدية في 29 أيار/مايو 1941. أعلن إيدن أن مبادرة الوحدة العربية يجب أن "تأتي من العرب أنفسهم". لكنه أضاف أنه "لم يتم التوصل بعد إلى خطة تنال الموافقة العربية العامة". مع ذلك فهم العرب من هذه الملاحظات غير الملزمة أن بريطانيا ترحّب بإقامة روابط أوثق بين

البلدان العربية، وتسعى إلى دعم تطلعات سوريا ولبنان نحو الاستقلال. غير أنهم لم يدركوا أن إيدن، وهو إمبريالي من الطراز القديم، لا يرغب في الإساءة إلى فرنسا - القوة الأوروبية الإمبريالية الكبرى الأخرى - أو تعريض التعاون البريطاني مع الفرنسيين الأحرار في المناطق التي يحتلوها في المشرق إلى الخطر.

سبيرز والقومية العربية

كان لدى الوطنيين ميزة ثمينة قريبة من بلادهم ممثلة بشخص الجنرال السير إدوارد سبيرز، الذي أصبح الآن المفوض الدبلوماسي البريطاني في دول المشرق. فقد أصبح سبيرز متحمساً للعرب ومناصباً لاستقلالهم. وبدا أن القومية العربية ملأت الفراغ الذي خلّقه ابتعاده عن مثله السابقة المؤيدة للفرنسيين. لم يستطع مقاومة طموحات السوريين واللبنانيين، الذين رأى فيهم الآن ضحايا القمع الفرنسي، وكان اقتناعه بذلك حقيقياً⁽¹⁾. غير أن دوافعه كانت معقدة، وبدا أنها تشمل ازدراء دناءة فرنسا الأخلاقية في الصراع مع المحور، والاشتمزاز من سياساتها الاستعمارية الوحشية (متناسياً، سجل بريطانيا الاستعماري البغيض المماثل)، والغضب من غطرسة الجنرال ديغول في تعاملاته مع بريطانيا التي تعتمد عليها حركة الفرنسيين الأحرار اعتماداً تاماً. بدا أن سبيرز مستمتعاً بكل نواحي البيئة المشرقية التي وجد نفسه فيها، حيث عومل كأنه أمير. كان يصطاد طيور السمّان في أراضي الوجهاء العرب، ويحتفى به في المجالس، وتبدي مضيفات المجتمع الإعجاب بكل كلمة يقولها بلغته الفرنسية الخالية من العيوب. واستحوذت عليه المكائيد المعقدة للسياسة المحلية، وتمتّع بالسلطات الكبيرة الموضوعة بتصرفه. ولعل أكثر ما سرّ سبيرز تفوقه بالحيلة على الجنرال الفرنسي جورج كاترو، وصدّ رؤسائه السياسيين في وزارة الخارجية في لندن الذين كان يحتقر حذرهم وجبنهم أيضاً. اعتاد سبيرز في تعامله المزاجي مع وزارة الخارجية أن ينفذ أولاً ويقدم التقرير لاحقاً. غير أن الابتعاد المتكرر عن الممارسة الدبلوماسية المتبعة تسبّب في غضب الحكومة. بل إن بعض المسؤولين ظنوا أنه كان ينتقم من ديغول. ودعت المذكرات الداخلية في وزارة الخارجية إلى كبح جماحه:

إذا أردنا إبقاء الجنرال سبيرز ممثلاً لنا في بيروت، فلا بد من بذل جهد كبير جداً لتحريره من استحواذ الفرنسيين الأحرار على فكره. ثمة عضو في فريق موظفيه... قال إنه لم يفهم قط معنى أن تأكل الحيوانات صغارها إلى أن رأى سير إدوارد سبيرز يلتهم حركة فرنسا الحرة⁽¹⁾. واشتكت مذكرة أخرى:

لا أعرف مثلاً يمكن القول إنه ساعد فيه [الفرنسيين الأحرار] إلا عندما يمكن استخدام هذه المساعدة لتعزيز موقعه، ويستند اهتمامه إلى الغرور الشخصي أو ميوله إلى بناء الإمبراطوريات التي بطلت منذ مئتي سنة... وقد تلقينا ملاحظة شائعة من مصدر أميركي أن هدف السير إدوارد سبيرز الحقيقي من خلال بعثته المفرطة الضخامة، هو تكرار نظام الإدارة الفرنسي ودفع الفرنسيين إلى الخروج من المشرق كما أخرجهم كلايف Clive من الهند⁽²⁾.

خلافاً لهذه التعابير المتفاخرة، تميّز سبيرز ببلغته الصريحة والمتعة. على سبيل المثال، وصف الرئيس اللبناني ألفرد نقاش في إحدى مراسلاته بأنه "بيدي شيئاً من الشجاعة الخطيرة التي تظهرها الخراف الجحونة". لم يكن سبيرز دبلوماسياً بالتأكيد، بل سياسياً جريئاً ومهماً. استطاع البقاء في مركزه المعرض للطعن بسبب اهتمام الحلفاء القوي في تحويل سوريا ولبنان إلى قاعدة حربية، أو لأنه، كما لم يسأم من تذكير لندن، ينفذ المهمة التي تعهدت بها بريطانيا في 8 حزيران/يونيو 1941، عندما قدمت ضمانات لاستقلال دول المشرق. والأهم من ذلك كله بقاءه لأنه كان يتمتع بدعم تشرشل الشخصي. رأى سبيرز أن على بريطانيا تنفيذ وعودها، إذا أرادت أن يبقى الرأي العام المحلي إلى جانب الحلفاء. وبناء على ذلك، ضغط بشدة على فرنسا وممثليها المحليين لإجراء انتخابات حرة ونزيهة في سوريا ولبنان بأسرع ما يمكن، ما أثار ارتياح رياض الصلح والوطنيين. لقد وفر التزام سبيرز بقضية العرب فرصة استغلها رياض الصلح وشركاؤه لمصلحتهم. فلا تزال ذكرى الحرب العالمية الأولى ماثلة في أذهانهم،

(1) Internal Foreign Office document, 28 June 1942 (FO 371/31473)

(2) Internal Foreign Office Memorandum, 12 August 1942 (FO 371/31474)

عندما تركت بريطانيا المشرق تحت رحمة الفرنسيين، وهم يخشون أن يتلاشى اهتمام بريطانيا بعد الحرب هذه المرة أيضاً. بل إنهم أرادوا في الواقع أن تؤدي بريطانيا دوراً نشطاً في شؤونهم مما كان سبباً مستعداً للنظر فيه.

الردّ الفرنسي

كان الفرنسيون لا يزالون حاضرين بقوة في المشرق، وقد قاتلوا بشراسة لحماية مصالحهم الحيوية على الرغم من السيطرة العسكرية البريطانية. أدى اتفاق لیتلتون - ديغول في 25 تموز/يوليو 1941 إلى تقسيم السلطة، ما منح الفرنسيين الدور الرئيسي في الإدارة المدنية في سوريا ولبنان. كان ديغول مصمماً على المحافظة على السيطرة الفرنسية على هاتين الدولتين، فسعى إلى ربطهما بفرنسا بمعاهدة، كما أوضح في جولته الملكية في آب/أغسطس 1942. واستبعد أي تفكير في الانتخابات، واعتبرها سابقة لأوانها، إذ إنه خشي من أن تؤدي الانتخابات الحرة إلى انتقال السلطة إلى حكومة مناهضة للانتداب.

اتبع الجنرال كاترو السلوك المتعجرف نفسه، فأبلغ سبيرز أن ولايات المشرق "غير مهتمة فعلاً بالحرية". واستخفّ بالبطل الوطني السوري شكري القوتلي قائلاً إنه "خطيب وديماغوجي عادي"⁽¹⁾. في ربيع 1943، كان كاترو لا يزال متردداً في إعادة الحياة الدستورية في المشرق. فقد اعتبر أن تحديد موعد لإجراء الانتخابات قد يؤدي إلى اضطرابات. وأبلغ سبيرز أن مثل هذه الانتخابات ليست ضرورية من وجهة نظر داخلية، وأن الضغط لإجرائها يرجع إلى التأثير الخارجي للعراق ومصر، اللذين يمكن تجاهلهما بأمان.

كان كاترو يميل إلى إعادة مجلس نواب 1937 الخنوع اعتقاداً منه أنه يدرأ بذلك التدخل البريطاني. وأمل أيضاً أن يوقف ما اعتبره الفرنسيون اتجاهاً مؤسفاً لدى بعض المسيحيين للتوصل إلى تفاهم مع المسلمين على أساس قبولهم بلبنان الكبير⁽²⁾. اعترض الرئيس السوري الذي عينه الفرنسيون، الشيخ تاج الدين، والرئيس اللبناني المؤيد

Record of 7 March 1942 meeting with General Catroux about Shukri al-Quwatli (1)
(FO 371/31481)

.Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", p. 409 (2)

لفرنسا، ألفرد نقاش، بشدة على إجراء الانتخابات مكرّرين موقف كاترو. بل إن الأخير تجرّأ على إبلاغ سبيرز أن الانتخابات ستلهب المشاعر المحلية وليس لها أي غاية مفيدة البتة⁽¹⁾.

مع ذلك واجه الوطنيون العرب صراعاً مضيقاً، على الرغم من دعم سبيرز لهم. ففي سنة 1943، عندما تبدّد التهديد الألماني للشرق الأوسط إلى حدّ كبير، لم يعد إيدن مهتماً باستمالة الرأي العام العربي كما كان عليه الحال في سنة 1941. وعندما انتقل القتال من الشرق الأوسط إلى أوروبا، بدأت لندن بمراجعة أولوياتها، وفجأة بدا العالم العربي أقل أهمية. أصبح على بريطانيا الآن التركيز على علاقاتها مع فرنسا بعد الحرب. وأخذ إيدن ووزارة الخارجية يميلان إلى أنه قد يكون من الأفضل الإبقاء على نظام الانتداب، وعدم إحداث اضطراب في الموقف الفرنسي في المشرق. ورأت لندن أنه يجب أن تحتفظ فرنسا بامتيازاتها المحلية، وبخاصة في لبنان. وهذا الشعور اللامبالي يتعارض مع إيمان سبيرز الشديد باستقلال العرب، ما أدّى إلى التصادم المحتوم.

في غضون ذلك، أدرك رياض الصلح أن الفرنسيين لا يزال لديهم القوة الكافية لتضييق الخناق عليه. لم يكن باستطاعته الوصول إلى السلطة إلا عن طريق الفوز في الانتخابات، لكن سيطرة فرنسا على البيروقراطية والعملية الانتخابية بأكملها يمكن أن يحول دون نجاحه. لذا لم يستطع تحمّل تبعات مواجهة الفرنسيين بشكل مباشر. وكان يرغب من دون شك في الاستفادة من تعاطف سبيرز السياسي مع القضية الوطنية، لكن بطريقة لا تُغضب الفرنسيين، لأنهم سيبدلون ما بوسعهم عندئذ لإسقاطه. وهكذا كان على رياض التحرك بمهارة بين سبيرز وكاترو. لكن قبل ذلك، عليه الدخول في إحدى اللوائح الانتخابية.

المشهد السياسي المحلي

ثمة عدد من العداوات السياسية المتبادلة التي عقّدت المشهد السياسي اللبناني. كان الرئيس نقاش يعادي البطريك الماروني القوي أنطوان عريضة، فضلاً عن الشيخ بشارة الخوري وكتلته الدستورية. وكان البطريك عريضة بدوره يعادي الجنرال

كاترو، إلى حدّ دفعه إلى إلغاء قدّاس اثنين الفصح في نيسان/أبريل 1942 تجنّباً لحضور الممثل الفرنسي العام⁽¹⁾. فقد توترت العلاقات بين البطريرك والفرنسيين منذ أزمة التبغ في منتصف الثلاثينيات، عندما سعت فرنسا لفرض الإدارة الحصرية للتبغ (الريجي).

اشتدّت الأزمة سوءاً في السنوات التالية، ووصلت إلى أوجها حين حصل تقارب رائع - هندسه رياض الصلح - بين البطريرك والقادة المسلمين في لبنان وسوريا. وفي اجتماع في مقرّ البطريرك في بركي يوم عيد الميلاد في سنة 1941، انضمّ عريضة إلى الوطنيين للمطالبة بإعادة العمل بالدستور و"الاستقلال الحقيقي" للبنان.

ضعف هذا التقارب بحلول سنة 1943، وساد الاستقطاب المذهبي ثانية. ولم يعد رياض يستطيع بعد ذلك الاعتماد على رجال الدين المسيحيين⁽²⁾. بل إن البطريرك أصبح يعارض الآن بشدّة سياسات رئيس الوزراء سامي الصلح الداعمة للمسلمين على ما يُزعم. ومن المفارقة أن سامي الصلح تعرّض أيضاً لضغوط بعض المسلمين الذين رأوا أنه فشل في حماية مصالحهم. كما أخذ بعض القادة من المسلمين الطامحين يخطّطون للحلول محلّه. باختصار، شهدت القوة السياسية لسامي الصلح تدهوراً جدياً، ولم تكن تلك أنباء سارّة لآل الصلح على العموم، ورياض على وجه الخصوص⁽³⁾.

تفاقم الوضع العام سوءاً نتيجة مشاكل غير محلولة ذات طبيعة جوهرية. هل ما زال الانتداب يتمتع بأي صلاحية شرعية أو فعلية؟ وهل كان على الوطنيين إلزام أنفسهم بالتفاوض على معاهدة جديدة مع فرنسا كشرط مسبق لإجراء الانتخابات كما طالب الفرنسيون؟ أجمع الوطنيون اللبنانيون والسوريون على رفض هذا المطلب، كما أفاد المسؤول السياسي البريطاني في بيروت، المقدم جيفري فيرلونج، وزارة الخارجية في 28 شباط/فبراير 1943.

زارني رياض بك الصلح البارحة عند عودته من دمشق... استطلع آراء الوطنيين السوريين بشأن عقد معاهدة مع الفرنسيين ووجد أنهم مجمعون على عدم إمكانية بحث

(1) Spears Mission weekly summary, Syria and Lebanon, 9 April 1942 (FO 371/3471).

(2) Ahmad Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", p. 409.

(3) Spears Mission weekly political summary, 3 February 1943 (FO 371/35174).

هذه المسألة الآن... فأول ما يجب عمله برأيهم إعادة تشكيل الحكومة الدستورية في سوريا⁽¹⁾.

وافق سبيرز على هذا الموقف. وأبلغ لندن أن "الغالبية العظمى من السكان المحليين في كلا البلدين يعارضون بشدة إبرام معاهدات من أي نوع مع الفرنسيين المقاتلين لأنهم... يأملون أن تجلب لهم نهاية الحرب التحرر الكامل"⁽²⁾.

كان هناك أيضاً مسائل أخرى مثيرة للخلاف. هل يجب إعادة مجلس النواب السابق وتسمية مجلس شيوخ، أم يجب البدء من جديد بإجراء انتخابات جديدة؟ ألح سبيرز على إجراء انتخابات جديدة، لكن كانوا يتعمد المماطلة. وهل يسمّى ثلث النواب أم يجب انتخاب النواب كافة؟ كان قانون الانتخابات اللبناني ينصّ دائماً على تسمية عدد من النواب. لقد أدخل مبدأ تسمية ثلث نواب المجلس في سنة 1927، لكن تباين العدد الإجمالي للنواب: 46 نائباً في سنة 1927، و45 في سنة 1929، و25 في سنة 1934، ورفّع العدد إلى 63 في 1937، ثلثهم معيّن كالعادة. وكانت تسمية النواب أداة الفريق الحاكم لتعزيز موقعه. فإذا وجد نفسه أقلية في البرلمان، مثلاً، حلّ المجلس وزاد عدد النواب بصورة اعتباطية، وسمى منهم ثلثاً يناسب أهدافه. ما الذي يجب عمله بشأن هذه الوصمة التي تلتصق السجلّ البرلماني؟ أيد الرئيس نقاش هذه الممارسة بطبيعة الحال حرصاً على تقوية موقعه، لكن الوطنيين ومعظم العناصر التقدمية في الدولة شعروا بعدم وجود مكان لمثل هذا النظام المثير للضحك.

تساءل رياض الصلح، بدوره، إذا كان يمكن إجراء انتخابات حرة حقاً، أم أن العادات الفرنسية القائمة على الرشوة والتهريب وتزوير الأصوات أصبحت عميقة الجذور بحيث تجعل أي تغيير حقيقي أمراً بعيد الاحتمال. في الفترة التي تسبق "الانتخابات" اللبنانية السابقة، كان من المعتاد إخضاع قطاع الخدمة المدنية بأكمله لإرهاب حقيقي. كان كل المسؤولين المشتبه بأنهم متعاطفون مع المعارضة، أو بفتور مشاعرهم تجاه الحكومة، يُصرفون بقسوة ويستبدل بهم عملاء انتخابيون للفريق الحاكم. ويقوم هؤلاء بعد ذلك بتوزيع المناصب على الفاسدين أو على نطاق شديد

(1) G. W. Furlong to Foreign Office, 28 February 1943 (FO 226/240)

(2) Spears to Foreign Office, 10 March 1942 (FO 371/35175)

الإفساد. ولم يكن الوزراء المرشّحون لإعادة الانتخاب يتورّعون عن أي شيء بغية إحباط خصومهم. وعندما تبدو الغالبية الحكومية هشة على الرغم من هذه التدابير الصارخة، فإنها تعتمد بصورة مكشوفة إلى التلاعب بأعداد أوراق الاقتراع⁽¹⁾.

على الرغم من حلول الفرنسيين المقاتلين، كما سمّي ديفول حركته، محلّ فيشي، فإن كل أنواع الإساءات بقيت منتشرة في الإدارة المحلية. كان الفساد الفرنسي، كما أفاد جيفري فيرلونج، متفشياً في حقول العدل وخدمات التمويل والشركات الامتيازية وصناديق المصالح المشتركة والأخلاق المحلية. وقد عبّر عن ذلك ببلاغة:

طالما كان الفساد الأخلاقي للسلطات الفرنسية مضرب مثل، والفرنسيون المقاتلون ليسوا أفضل من سابقيهم البتة. كما أن تأثير النساء على الترقيات والتعيينات والامتيازات واضح جداً وواسع الانتشار، بما لا يدع مجالاً للشك. في الماضي، ربما كان المثال الأكثر شهرة العلاقة بين الكونت دو مارتيل، المفوض السامي الفرنسي، وزوجة القنصل العام البلجيكي في ذلك الوقت، التي أمّنت تعيين رئيس وزراء لبناني ومنح عقد كبير لشراء القمح لاثنين من أصدقائها مقابل مبالغ مالية كبيرة. ويبدو أن الإخلاص الزوجي في أوساط الفرنسيين المقاتلين هو الاستثناء بدلاً من القاعدة في بعض الفروع، وبخاصة القوات العسكرية للفرنسيين المقاتلين الذين تعتمد ترقية ضباطهم إلى حدّ كبير على استعداد زواجهم لإرضاء رؤسائهم⁽²⁾.

ومن الأمثلة على ذلك في قمة الإدارة الفرنسية في سنة 1943، قيام جان هيلو، الذي أصبح المندوب العام بعد كاترو، بتعيين عشيقته في مكتب في السراي بعد بضعة أسابيع على وصول زوجته⁽³⁾.

ضاعفت الحالة الاقتصادية المتدهورة التوتّر العام والغموض الذي ساد لبنان في سنتي 1942 و1943، فألقى سبيرز محقاً اللوم في ذلك على "إدارة أتباع كاترو العديمة الكفاءة". ارتفعت تكلفة المعيشة، وخزّن التجار المواد الأساسية كالقمح للتلاعب بالأسعار. وفي صيف 1942، ارتفع سعر القمح في السوق السوداء إلى أربعة أضعاف

(1) G. W. Furlonge to Foreign Office, February 1943 (FO 226/240)

(2) G. W. Furlonge to Foreign Office, 4 Oct. 1942 (FO 371/31479)

(3) H.M. Chargé d'affaires, Beirut, to Foreign Office, 17 July 1943 (FO 226/240)

السعر المحدّد، ما أجبر سبيرز على اتخاذ إجراءات شديدة القسوة⁽¹⁾. في كانون الثاني/يناير 1943، أبعد عدداً من المحتكرين، أبرزهم الشيخ محمد الفرّج، شيخ قبيلة الولدة في الجزيرة لأنه لم يسلم الحصّة المفروضة على قراه من القمح. وأبلغ سبيرز لندن بأن "إجراءات مماثلة ستُتخذ بحقّ وجهاء آخرين، إذا لم يلتزموا مطالب مكتب الحبوب خلال مدّة زمنية محدّدة"⁽²⁾.

أدت هذه المشاكل والتوترات إلى خلافات في صفوف المعسكر الفرنسي الذي يعاني أصلاً من الصراع بين الديغوليين والبيتانيين. وحذّر السيد لبيسييه Monsieur Lépiessier، الأمين العام في المندوبية العامّة، سبيرز من أن ثمة عناصر فيشيّة لا تزال ناشطة في دول المشرق، ما يشكّل خطراً على الحلفاء. وأشار بإصبع الاتهام إلى بلانشيه Blanchet، رئيس الحكومة العسكرية؛ وبوغنيه Boegner، رئيس الحكومة السياسية؛ وغوتيه Gautier، رئيس الأمن العام؛ وبويس Buis المسؤول عن الأمن في دمشق، زاعماً أنّهم لا يزالون على اتصال بحكومة فيشي. وأوضح أن كاترو

وقر الدعم الكامل لهؤلاء الأشخاص، لأنهم يكيلون له المديح أولاً، وهو رجل مغرور جداً؛ وثانياً، لأنه يريد إبقاء الباب موارباً على فيشي، وذلك بفضل السيدة كاترو [غير المؤيّد لديغول بالتأكيد]... لم تتوقّف السيدة كاترو عن التهجّم بشدّة على الجنرال ديغول أمام السيدة هيللو، التي كانت مُحَرّجة جداً بطبيعة الحال⁽³⁾.

سئم أنتوني إيدن شكاوى سبيرز المتكرّرة بشأن سوء تصرّف الفرنسيين، ووبّخه لأنه أوحى لأحد الممثّلين الفرنسيين أن اتفاق ليتلتون - ديغول لم يعد صالحاً. دحض سبيرز هذه التهمة بغضب مؤكداً أن "التفسير الخاطئ والخبيث [لملاحظاته] صدر عن 'مافيا' داخل المندوبية". وأضاف أن المشكلة ناجمة عن أن "الممثّل الفرنسي الرئيسي هيللو عاجز أمام مساعديه ذوي النوايا السيئة"⁽⁴⁾. لكن ذلك لم يُقنع منتقديه في لندن.

(1) Spears to Foreign Office, 16 July 1942 (FO 371/31474)

(2) Spears to Foreign Office, 9 March 1943 (FO 371/35174)

(3) Spears to Foreign Office, 9 January 1943 (FO 371/325174)

(4) Spears to Anthony Eden, 8 Feb. 1943 (FO 371/35175)

رياض الصلح والجنرال كاترو

مع تطوّر الأوضاع، أصبح كثير من الأمور يتوقّف على تطوّر تفكير كاترو نفسه، بالإضافة إلى التعليمات التي يتلقّاها من اللجنة الوطنية الفرنسية في الجزائر، ومن ديفول نفسه. في كانون الأول/ديسمبر 1942، بدا كاترو ميّالاً إلى تقديم تنازلات للوطنيين. فقد أفاد سبيرز، على سبيل المثال، أن كاترو حرص على إظهار المودة في اجتماع قصير مع رياض الصلح وبشارة الخوري. سألهما: "ماذا تريدان؟" فأجاب رياض بابتسامة عريضة "كل شيء". ابتسم كاترو في المقابل وأشار بحركة من يده أنه لن تكون هناك صعوبة في ذلك. ولم يأت على ذكر مسألة المعاهدة⁽¹⁾. بدا أن الأمور تسير في الاتجاه الصحيح. ففي شباط/فبراير 1943، أبلغ سبيرز أن كاترو

فقد اهتمامه إلى حدّ كبير بشؤون هذه البلاد ويفكر بشكل رئيسي في شمال أفريقيا ومخططاته هناك. على سبيل المثال، قال لي كاترو وهو يتحدث عن الانتخابات إنه سئم من المسألة ككل ويريد التخلص منها. ويفترض بذلك تسهيل الأمور كثيراً، وكل ما أتمناه ألاّ تتمكن المافيا من إثارة شكوكه وهواجسه القديمة⁽²⁾.

لكن رياض عاد خائب الأمل بعد مقابلة طويلة مع كاترو في أوائل آذار/مارس 1943، وهي المرّة الثانية التي يجري معه مباحثات حقيقية. أخبر فيرلونج أنه عرض آراءه أمام كاترو بوضوح وقوة، وأبلغه أنه وشركاءه يعارضون إعادة إحياء مجلس 1937. وأنهم يريدون ضمانات بدلاً من ذلك بأن تشكّل أي حكومة مسؤولة عن إجراء الانتخابات بمشاركة من جميع الفئات المهمّة في البلد، بما في ذلك المعارضة المسلمة. فللمعارضة المسلمة الحق في التمثّل في أي مجلس لاحق، وأصرّ على أن تمنح الفرصة للتعبير عن آرائها مثل أي مجموعة أخرى.

انتقل رياض بعد ذلك إلى الهجوم، فأبلغ كاترو أن لديه إثباتاً على أن السيد برونو Pruneaud، المستشار الفرنسي في صيدا، صرّح علناً أنه يجب التصدي لترشيح رياض بكل الوسائل الممكنة، وأنه أعدّ لائحة مرشّحين يدعمها الفرنسيون. أخرج

(1) Spears to Foreign Office, reporting what Furlonge had told him, 17 December 1942 (FO 226/242).

(2) Spears to Foreign Office, 21 February 1943 (FO 371/35175).

كاترو ووعده أن يحقق في الأمر. كما أبلغ رياض كاترو أنه وشركاه يريدون الاستقلال، ويعارضون أي "تقسيم" للبلد.

شكّل ذلك تحولاً واضحاً في موقف الوطنيين، بعد أن كانوا يريدون في الماضي إعادة "الأراضي المتنازع عليها" إلى سوريا. لقد دخلوا الآن معترك السياسة اللبنانية. وأصبحوا حريصين على سلامة لبنان الكبير. ويرجع ذلك إلى أنهم أدركوا أن المناطق الوحيدة التي يمكن أن تنفصل هي المناطق ذات الغالبية المسلمة، وأي انفصال سيجعل ما تبقى من المسلمين اللبنانيين في موقف دولي سياسي يائس أمام المسيحيين.

مازح رياض الآن كاترو قائلاً إنه سمع من دون شك من ينعت به بأنه عدو خطير لفرنسا. صحيح أن لديه الكثير مما يلوم الفرنسيين عليه، لكنه يدرك أن اتفاق ليلتون - ديغول منح فرنسا مكانة مميزة في البلاد. وأبدى استعداده لمنحها مكان الصدارة الثقافية أو حتى الاقتصادية، شرط ألا ينتقص من استقلال لبنان وسيادته.

لكن رياض هاله ردّ كاترو على ملاحظاته. شعر أن "الجنرال كان يعدّ للعمل انطلاقاً من مواقف بعيدة جداً عما يمكن أن يوافق عليه الوطنيون، إذ لم يُبد أي إشارة إلى أي تعاطف حقيقي مع تطّعات اللبنانيين نحو الاستقلال"⁽¹⁾. غير أن كاترو سرعان ما قدّم للوطنيين مفاجأة سارة، على الرغم من تشاؤم رياض.

انطلاق الحملة الانتخابية

في 24 كانون الثاني/يناير، منحت اللجنة الوطنية الفرنسية في الجزائر - بضغط من بريطانيا من دون شك - كاترو الضوء الأخضر لإعادة الحياة الدستورية إلى دول المشرق⁽²⁾. وبناء على ذلك، أعلن كاترو، في بثّ إذاعي من بيروت في 18 آذار/مارس 1943، أنه أصدر ثلاثة مراسيم: الأول يقضي بإعادة العمل بالدستور، على أن يصبح نافذاً ابتداءً من اليوم الذي يُنتخب فيه مجلس النواب رئيساً للجمهورية. ينبثق المجلس نفسه عن انتخابات عامة تُجرى خلال ثلاثة أشهر. وقد عدّل ذلك لاحقاً في 25

(1) G.W. Furlonge to Foreign Office, 4 March 1943 (FO 226/240).

(2) انظر Rabbath, *La Formation Historique du Liban Politique et Constitutionnel*.

474 p. للاطلاع على بيان اللجنة الوطنية. وكتاب رباط مصدر لا غنى عنه للاطلاع على تاريخ لبنان

من العصور القديمة حتى الاستقلال.

آذار/مارس لإيضاح أن مهلة الثلاثة أشهر ليست لانتخاب البرلمان، بل لدعوة الهيئات الناجبة. لم يُحدّد تاريخ للانتخابات، ما أثار الشكوك بأن الفرنسيين ربما يسعون إلى تأخيرها ثانية.

أنشأ مرسوم كاترو الثاني هيئة انتقالية غير سياسية لإجراء انتخابات عامة، "حصينة أمام التأثيرات الخارجية، وتُجرى في جو من الحرية وحسن النظام واحترام الرأي الآخر". وسمّي المرسوم الثالث الدكتور أيوب ثابت رئيساً للهيئة الانتقالية، ومُنح لقباً رئيس الدولة ورئيس الحكومة، على أن يعاونه وزيران، جواد بولس وخالد شهاب⁽¹⁾.

ادّعى سبيرز على الفور الفضل في هذا التغيّر الفرنسي التام. فأبلغ لندن أن إعلان كاترو لا يضمّ فقط جميع النقاط التي أكّدت على أنها ضرورية أو مهمة كي يكون استقلال لبنان حقيقياً، وإنما يعبر أيضاً عن آراء ندعمها من دون تحفّظ في مناقشته الشعب وإشارته إلى الحرية التي سيحصل عليها. لقد أبدى تجاوباً كبيراً مع اقتراحاتي، وهذه النتيجة تبرّر النضال الصعب والطويل الذي خُضّته في الماضي⁽²⁾.

أثار توقّع العودة القريبة للحياة الدستورية حماسة شديدة في كل أنحاء لبنان، وارتفعاً حاداً في النشاط السياسي. فبدأت الأحزاب السياسية تحشد قواها تحضيراً للتحديات القادمة والحصول على الدعم الفرنسي والبريطاني. وسرعان ما احتدمت الحملة الانتخابية في المحافظات الخمس، حيث تنافس المرشّحون للوصول إلى المناصب.

في غضون ذلك، عُيّن جان هيلو - الذي خدم في بيروت في الثلاثينيات في عهد المفوض السامي بونسو - مندوباً عاماً ومبعوثاً كامل الصلاحية للفرنسيين المقاتلين في المشرق خلفاً لكاترو. ونُقل الأخير إلى الجزائر كمفوض للشؤون الإسلامية.

كان هيلو شديد الارتياح بالبريطانيين، لذا شكّل تعيينه نكسةً للوطنيين. ولا شكّ في أنه تأثّر بتقرير استلمه عن وقائع المجلس العربي البريطاني للشرق الأوسط الذي توصل في اجتماعه في القاهرة في 10-13 أيار/مايو إلى أن استمرار وجود فرنسا

(1) Summary of declaration by General Catroux, 18 March 1943 (FO 371/35176)

(2) Spears to Foreign Office, 19 March 1943 (FO 371/35178)

في المشرق لا يتوافق مع مصالحنا السياسية والعسكرية في الشرق الأوسط، ولا مع التطوّر السلمي للبلدان العربية ورخائها... ومن الصعب تحقيق أي شكل من أشكال الشراكة السياسية بين الدول العربية، أو حتى بين دول سوريا الكبرى، وهو تطوّر أعلنت حكومة جلالة الملك عن تعاضفها معه، ما دام لفرنسا نفوذ سياسي أو عسكري مباشر في سوريا ولبنان⁽¹⁾.

لم يعكس هذا البيان المتصلّب آراء وزارة الخارجية النضالية، بل عكس آراء سبيرز. ووزير الدولة البريطاني الجديد لشرق الأوسط ريتشارد كيسي. غير أن هلول لم يكن على علم بذلك، لذا لم يكن من المفاجئ أن يشجع رئيس الدولة المعين حديثاً، الدكتور أيوب ثابت، على اتباع نهج أكثر تأييداً لفرنسا.

وُلد أيوب ثابت في بيروت في سنة 1870، وتخرّج في الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية في بيروت لاحقاً)، ودرس الطب في الولايات المتحدة، وعاد إلى بيروت قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة. عُيّن أمين سرّ الجمعية الإصلاحية في بيروت، وحضر المؤتمر العربي في باريس في سنة 1913، وشغل عدّة مناصب وزارية بين الحربين⁽²⁾. أبلغ سبيرز وزارة الخارجية أن ثابت بروتستانت نزيه وذو فكر مستقلّ، لكنه أضاف بذكاء أنه سريع الغضب، وأظهر صعوبة في العمل معه في الماضي⁽³⁾.

وسرعان ما شاع في الأوساط السياسية اللبنانية أن الدكتور ثابت ذو طبيعة ديكتاتورية، وأنه شديد التوق إلى السلطة بحيث لن يألو جهداً لتأجيل الانتخابات كي يبقى في منصبه أطول مدة ممكنة. كما أنه أثار غضب الوطنيين باتّهامه رياض الصلح وعبد الحميد كرامي أنّهما "مناهضان للبنان". وجد هذا الاتهام أذناً صاغية لدى البطريك عريضة، الذي أصبح الآن شديد الارتياح بالسياسيين المسلمين بحيث طالب بأن يُقسم جميع المرشحين للانتخابات القادمة بيمين الولاء "للكيان"، أي لبنان الكبير⁽⁴⁾.

تبع ذلك ما هو أسوأ. ففي 17 حزيران/يونيو، أصدر ثابت مرسومين يحملان رقمي 49 و50. نصّ الأول على إدخال اللبنانيين المهاجرين الذين احتفظوا بجنسيتهم

(1) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 174.

(2) المصدر نفسه، ص 169 وما يليها.

(3) Spears to Foreign Office, 10 March 1943 (FO 371/35175).

(4) Raghid el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 173.

اللبنانية (معظمهم مسيحيون) في أي إحصاء لسكان لبنان، وزاد بالتالي العنصر المسيحي في الناحيين. وغيّر الثاني التوزيع الطائفي في المحافظات الخمس لصالح المسيحيين. رُفِع عدد النواب من 42 إلى 54 نائباً، (32 مسيحياً و22 مسلماً). وكان عشرة من النواب الاثني عشر الجُدد مسيحيين، واثنان فقط من المسلمين (سني وشيعي).

بدا واضحاً أن سلطة الانتداب الفرنسي وأتباعها المسيحيين المتشددين مصممون على ضمان أكثرية برلمانية تساند الوجود الفرنسي وتُلم الحماية الفرنسية للبنان الذي يسيطر عليه المسيحيون⁽¹⁾. أعلن ثابت بعد ذلك تأجيل الانتخابات إلى شهر أيلول/سبتمبر، وقَدّم حجة غير مقنعة أن الصيف أكثر أوقات السنة انشغالاً حيث يبلغ الموسم السياحي ذروته ويكون حصاد القمح وتربية دود القز في أوجهما. اعتبر سيرز وفيرلونج على نحو دقيق أن الخطوات التي أقدم عليها ثابت أخطاء جسيمة في التقدير السياسي.

أغرقت مراسيم ثابت الاعتبارية البلاد في أزمة طائفية مريرة. اجتمع رياض والقادة المسلمون الآخرون في منزل المفتي في 19 حزيران/يونيو، وطالبوا الفرنسيين بإلغاء مراسيم ثابت. وإذا لم يستجب لمطالبهم، فسيصرون على إجراء إحصاء جديد، وإلا فسيقاطعون الانتخابات. وأنشؤوا لجنة أرسلت احتجاجاً رسمياً إلى الممثلين الفرنسيين والبريطانيين والأميركيين والمصريين والعراقيين في بيروت. أبلغ فيرلونج لندن أن رياض الصلح، وهو الشخصية الأقوى في اللجنة، أعلن في حديث له في 20 حزيران/يونيو، أنه يشعر، في ضوء الطريقة السافرة التي ناور فيها المسيحيون في مسألة تلك المراسيم، أن المسلمين في وسعهم المشاركة في الانتخابات بطريقة مفيدة، وأن عليهم العودة إلى موقفهم السابق غير المبالي وغير المتعاون مع لبنان، والإصرار على مطالبهم بإعادة الأقضية الأربعة التي ألحقت بلبنان بعد الحرب الأخيرة إلى سوريا⁽²⁾.

في 29 حزيران/يونيو، قام رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وصائب سلام بزيارة فيرلونج، وقد بدا عليهم الغضب والتجهم، وأبلغوه أنهم خلصوا إلى أن المسلمين

(1) Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", p. 410

(2) G.W. Furlonge to Foreign Office, 21 June 1943 (FO 226/240)

لا يأملون باتفاق عادل في لبنان، لأن الفرنسيين مصرّون على دعم السيطرة المسيحية. ودعوا إلى تدخّل بريطاني متوسّلين مُثل ميثاق الأطلسي. أشار فيرلونج إلى أن ميثاق الأطلسي "لا يُمكن تطبيقه في بلد تريد فتنا سكانه الرئيسيتان العيش بطريقتين مختلفتين تماماً"⁽¹⁾.

منحت الأزمة اللبنانية حزب الوفد المصري، وزعيمه مصطفى النحاس، فرصة لإبراز دور مصر المركزي في الشؤون العربية. عندما كان الألمان يهدّدون بغزو مصر، أجبر البريطانيون الملك فاروق تكليف النحاس باشا تشكيل الحكومة، ففاز بأكثرية ساحقة في الانتخابات في آذار/مارس 1942. أبدى النحاس باشا رغبة الآن في تحسين صورة حزبه ومكانته كمدافع عن القضية الوطنية العربية. لذا سرّ بالاستجابة لدعوة رياض الصلح إلى المساعدة وتقديم خدماته كوسيط في الأزمة اللبنانية. وسارع سبيرز أيضاً إلى التدخل. فمارس أكبر قدر من الضغط على هلالو لإبطال مراسيم ثابت، وحذّر من أن الأزمة تشكّل خطراً على أمن البلاد، وبالتالي على المجهود الحربي البريطاني.

خشي كاترو من هذا التحوّل في مجريات الأحداث، فتدخّل أيضاً في النزاع. ولتهدئة مشاعر المسلمين الغاضبة، اقترح قبول الصيغة التي طرحها النحاس باشا، وتقوم على اعتماد نسبة أربعة إلى خمسة بين المسلمين والمسيحيين في المجلس، أي 29 مقعداً للمسيحيين و24 مقعداً للمسلمين. ووعد أيضاً بإجراء إحصاء عام بعد الانتخابات. وعندما لم يحظَ هذا الطرح بموافقة عامة، تدخّل سبيرز للتحكيم في المسألة. فنجحت صيغته التي تقوم على نسبة خمسة إلى ستة بين المسيحيين والمسلمين، أي 30 مقعداً للمسيحيين و25 مقعداً للمسلمين (السنة والشيعية والدروز). وظلّت هذه الصيغة نافذة إلى أن عدّل الدستور اللبناني بعد اتفاق الطائف في سنة 1989. أقنع سبيرز أيضاً هلالو بإلغاء مبدأ تسمية النواب، الذي كان يضمن حصول مؤيدي الانتداب الفرنسي على الأكثرية. وهكذا فُتح الباب على مصراعيه أمام منافسة انتخابية تؤدّي فيها بريطانيا الدور الرئيسي كمناصرة لانتخابات حرة وعادلة في لبنان، على رغم سجلّها الملتخّ في أنحاء العالم الأخرى.

حظي رياض الصلح وشركاؤه بمزيد من التشجيع، بفوز الكتلة الوطنية في الانتخابات السورية في تموز/يوليو. فقد انتصر أصدقاؤه. انتخب البطل الوطني شكري القوتلي رئيساً، فسُمي سعد الله الجابري رئيساً للوزراء. وأصبح جميل مردم وزيراً للخارجية ولطفي الحفار وزيراً للداخلية وخالد العظم وزيراً للمالية والدكتور عبد الرحمن الكيالي وزيراً للعدل. أكد سبيرز لأنتوني إيدن أن الانتخابات كانت الأكثر نزاهة في تاريخ الانتخابات السورية، وأن الغالبية الساحقة من الناخبين السوريين آيدت الكتلة الوطنية. بدا أن النتائج السورية تنبئ بنتيجة محاولة رياض الصلح الوصول إلى السلطة، وأن التحرير أصبح في متناول المشرق الذي طالعت معاناته.

جاءت نقطة التحوّل في علاقات رياض مع الفرنسيين في 14 تموز/يوليو 1943، عندما طلب كاترو، خلال زيارة قصيرة إلى بيروت، من رياض أن يزوره. أجريا محادثات طويلة وودّية على غير العادة. ووفقاً لما رواه رياض لفيرلونج في اليوم التالي، انتقد كاترو الدكتور أيوب ثابت لأنه أصدر مراسيمه المثيرة للجدل، وأجلّ الانتخابات. أثار رياض مع كاترو مسألة ترشّحه وعبد الحميد كرامي، القائد الوطني الطرابلسي. فقال إنهما يمثلان جزءاً مهماً من الرأي العام اللبناني ولا يمكن استبعادهما لأيّ سبب قانوني. أعطى كاترو الانطباع لرياض بأنه متفق معه، بل ألح إلى أن فرنسا ربما اتبعت سياسة خاطئة في لبنان، وتلك إشارة إلى حصر دعمها بالموارنة. علّق فيرلونج بسخرية: "أتت الأمور على ما يرام من منسّق الشؤون الإسلامية، وسرّ رياض بالتأكيد"⁽¹⁾. والأهم من ذلك أن كاترو انتقد هللو صراحة لأنه أساء إدارة الوضع ووضع الرأي العام المسلم أمام تحدٍّ لا مبرر له.

في 21 تموز/يوليو، أصدر جان هللو مرسوماً استبدل فيه الدكتور ثابت الذي فقد شعبيته، وعيّن بطرس (بترو) طراد رئيساً للدولة، وعبد الله بيهم أميناً لسرّ الدولة. انحدر طراد من عائلة أرثوذكسية بيروتية بارزة، وقد درس المحاماة في باريس وكان عضواً في البرلمان منذ سنة 1922. اتبع نهجاً رصيناً ومختلفاً جداً عن نهج ثابت، فساعد على الفور في تخفيف التوتر الطائفي⁽²⁾. وأعلن بعد ذلك عن

.G.W. Furlonge to Foreign Office, 16 July 1943 (FO 226/240) (1)

.Raghib el-Solh, *Lebanon and Arabism*, p. 178 (2)

إجراء الانتخابات النيابية في 29 آب/أغسطس و 5 أيلول/سبتمبر، تليها الانتخابات الرئاسية في 19 أيلول/سبتمبر.

وجّه السياسيون اهتمامهم إلى تأليف اللوائح الانتخابية. لم يكن الأمر خالياً من العقبات بالنسبة إلى رياض الصلح. فقد أبلغت بعثة سبيرز لندن: "لا يزال لدينا سبب وجيه للتخوف من التدخل الفرنسي في الانتخابات القادمة. لا شك في أن المستشارين الفرنسيين ديمانتيسيس Dementsys في شمال لبنان و برونو Pruneaud في جنوب لبنان، ناشطان في التآمر والتهديد والرشوة. ولم تسفر وعود هلالو بدعوتهما إلى الانضباط عن أي نتيجة حتى الآن"⁽¹⁾. بيد أن جهود سبيرز المستمرة لإرخاء قبضة فرنسا على الحياة السياسية في لبنان شجعت رياض الصلح. لكن كان لا بد له من اتخاذ قرارات مهمة فيما تقترب الانتخابات بسرعة.

خيار جنوب لبنان

صمّم رياض على دخول البرلمان، لكن أين يترشّح؟ هل يحاول الترشّح في بيروت، أم أن حظوظه قد تكون أفضل في جنوب لبنان؟ لم تبدُ فرصه جيدة في بيروت، حيث المسيحيون في المدينة - وهم يشكّلون نصف أعداد الناضحين - يناصبونه العداء. فقد انتهى تفاهمه الذي دام ثمانية عشر شهراً مع البطريك عريضة الذي ساند مراسيم ثابت بحماسه⁽²⁾. كما أن رياض لا يستطيع الاعتماد على دعم صُلب من طائفته السنية، لأن رجالاً من أمثال عبد الله اليافي وصائب سلام، وحتى ابن عمّه سامي الصلح، يطمحون إلى الوصول إلى رئاسة الوزراء، ولا ينتظر أن يفسح أي منهم المجال له⁽³⁾. وقد أدركوا، كما أدرك الجميع، أن رياض سيصبح زعيم العاصمة من دون منازع إذا فاز في الانتخابات في بيروت، بسبب شهرته العربية والدولية الكبيرة. ولن يكون أمام الجميع سوى الإذعان له. كان على رياض أيضاً النظر في أن صورته تطلّخت إلى حدٍّ ما بسبب الاتهامات الجارحة، التي كالمها له أعداؤه، زاعمين أنه استفاد من موقع سامي الصلح كرئيس

D.W. Lascelles of the Spears Mission to Foreign Office, 9 August 1943 (FO 1) 226/240.

.Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", p. 417 (2)

(3) المصدر نفسه، ص 419.

للوزراء. وأشاع الأمن العام الفرنسي أن بيته محاصر دائماً من قبل العاطلين عن العمل أو من لديهم دعوى أمام القضاء، الذين يأتون طلباً لتدخله لصالحهم مع السلطات، ويبدون استعدادهم لدفع المال لقاء ذلك⁽¹⁾. لهذه الأسباب، قرّر رياض أن يترك لسامي مَهْمَة تمثيل آل الصلح في بيروت. فشكّلت لائحان في العاصمة: الأولى برئاسة سامي الصلح، وتضمّ النقاش كزعيم مسيحي اسمي؛ والثانية برئاسة عبد الله اليافي، يكون زعيمها الاسمي جورج ثابت.

وفي أوائل آب/أغسطس 1943، قرّر رياض الترشّح في جنوب لبنان. فقد راقب الحملة الانتخابية هناك عن قُرب عدة أسابيع، ولاحظ أنه لم يقرّر أي من الشخصيات السنيّة ذات المكانة الوطنية الترشّح هناك. فجاء ذلك لصالحه. فللشيعة في الجنوب ستّة مقاعد تعكس وزنهم الديموغرافي، بينما يوجد مقعد واحد لكلّ من الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والموارنة والسنة. وكان على رياض الفوز بذلك المقعد السني الذي شغله الأمير خالد شهاب، من حاصبيا، بعد انتخابات سنة 1937، وهو من أوثق الداعمين المسلمين لفرنسا في إنشاء لبنان الكبير⁽²⁾.

استحوذت الشؤون العربية على اهتمام رياض طوال حياته السياسية. فلم ينغمس في تفاصيل الحياة في جنوب لبنان ولم يُقم علاقات وثيقة مع الوجهاء والعائلات المحلية - وذلك شرط أساسي للفوز. لم يكن واثقاً من تحقيق الفوز، لكن عائلته احتشدت حوله للمساعدة. بدأ ابن عمه كاظم الصلح بزيارة صيدا أسبوعياً لحشد الدعم له، وكان شقيق سامي الصلح، ممدوح، يتوقّف في المدينة للتحدّث مع السكان المحليين في طريقه إلى ممتلكاته في أرنون، قرب النبطية. وركّز رياض جهوده على صيدا، حيث حصل على دعم أقربائه من آل الجوهري الأغنياء - مثل يوسف الجوهري صيدا في مجلس مديري لبنان الكبير في سنة 1920 - ومالكي الأراضي من آل الزين وآل محجوب⁽³⁾. غير أنه بقي عليه بذل جهود مع الفرنسيين الذين كان مسؤولوهم المحليون مصرّين على إبعاد الوطنيين عن البرلمان والحفاظة على الانتداب

(1) CADN, Fonds Beyrouth, carton 21, Information, Sûreté Générale, Beyrouth 17/9/42.

(2) Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", pp. 443-4

(3) المصدر نفسه، ص 441.

باللجوء إلى التهديدات والرشاوى. بل إن بعض المسؤولين تحدّث علناً عن "لائحة مرشحين فرنسية" تحضّرها لجنة مؤلفة من السادة بايلن Baelen وبوغنير Boegner وروزيك Rozek، (جميعهم شخصيات رئيسية في المندوبية العامة).

خشى فيرلونج من أن يتكوّن لدى السكان المحليين انطباع بعدم حدوث تغيير، وأن يكون "الاستقلال" اللبناني مجرد عباءة لاستمرار السيطرة الفرنسية. وقدم تقريراً إلى لندن جاء فيه:

في جنوب لبنان، تجاوزت أنشطة المستشار الفرنسي السيد برونو كل الحدود المسموح بها. وقد شكّل لائحته التي ضمت معظمها متملقين تافهين، وهو يتشاور باستمرار مع الوجهاء، ويستعمل كل الوسائل المتاحة له للتأثير في الناخبين والزعماء بانتخاب مرشحيه، وأن المندوبية العامة، التي أعلن صراحة أنها "ستدير الانتخابات"، ستواجه كل من يترشّح ضدهم. إن الصلاحيات التي يمكنه ممارستها من خلال الشرطة والأمن، إلخ، ومن خلال التقييد على السيارات والمؤن كبيرة جداً بحيث تمكّنه من ترهيب معظم الناخبين.

لاحظ فيرلونج أن نشاط برونو موجّه ضدّ رياض الصلح على وجه الخصوص، لأنه يعتبره قائداً وطنياً خطيراً، وضد عادل عسيران الذي يعتقد أنه مؤيد للبريطانيين. وكان برونو حريصاً على ضمان عدم انضمام أحمد الأسعد، المرشّح القوي عن الجنوب والذي يخضع لنفوذه، إلى رياض الصلح أو عادل عسيران في لائحة مشتركة⁽¹⁾. وكان عادل عسيران وأحمد الأسعد القطبين اللذين على رياض الصلح أن يدير حملته حولهما واللذين يقرّران نتيجتها في نهاية المطاف.

نشوء لائحة موحّدة

ظهر عادل عسيران على ساحة جنوب لبنان خلال أزمة التبغ في الثلاثينيات. وهو ابن أخ نجيب عسيران، الوجه والعضو السابق في مجالس لبنان النيابية في عهد الانتداب الفرنسي. ساند عادل اقتراح احتكار الرنجي الذي سعى الفرنسيون إلى فرضه، وكان في ذلك الوقت تربطه علاقات وثيقة وودية بالمستشار الفرنسي

(1) G.W. Furlonge to Foreign Office, 10 February 1943 (FO 226/240)

زينوفي بيشكوف Zinovi Pechkhoff الذي حكم الجنوب كإقطاعية شخصية. أصبح بيشكوف، وهو ابن الكاتب الروسي مكسيم غوركي بالتبني، جنرالاً ديغولياً وسفيراً لفرنسا إلى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة.

لكن عادل عسيران بدّل موقفه عندما تفاقمت أزمة التبغ في سنة 1936، وأدّت إلى صدامات مسلّحة في بنت جبيل، وسقوط عدد من الإصابات وتوقيف بعض الأشخاص. فأصبح مدافعاً متحمساً عن الوحدة السورية وتحالف مع كاظم الصلح في حزب النداء القومي. وكان متزوجاً من فتاة جميلة ومثقفة من عائلة الخليل من مدينة صور الساحلية، حلفاء رياض الصلح الأقوياء في تلك المدينة الساحلية.

ألقي عادل خطاباً عنيفاً ضدّ الريجي ومؤيداً لمزارعي التبغ، فاعتقله الفرنسيون وأرسلوه إلى المخاکمة. وكانوا على قناعة أن رياض الصلح والوفد السوري، الذي كان يفاوض في ذلك الوقت على المعاهدة المشؤومة في باريس، هما المخرضان على حركة الاحتجاج على التبغ⁽¹⁾. وفي سنة 1943، أي بعد ثماني سنوات، كان الفرنسيون لا يزالون يعتبرون عادل عسيران عدوّاً لهم.

كانت قضية أحمد الأسعد مختلفة تماماً. فهو شخصية نافذة ووريث لإحدى أقوى العائلات التي تعاونت مع الأتراك ثم مع الفرنسيين في جبل عامل. وقد مثل والد أحمد الأسعد، عبد اللطيف، العائلة في البرلمان في عهد الانتداب الفرنسي. وعند وفاته في سنة 1935، تولّى أحمد زعامة العائلة، دخل البرلمان في سنة 1937 وأصبح وزيراً لفترة قصيرة في حكومة أحمد الداعوق في سنتي 1941-1942.

كان أحمد الأسعد، ابن أخ كامل الأسعد، منافس رضا الصلح في جنوب لبنان في أوائل سنوات الحرب العالمية الأولى. ومما يذكر أن كاملاً أبلغ الأتراك عن تحركات رضا الوطنية، ما أدى إلى محاكمة رضا وابنه رياض في عاليه.

ربما كان المقترض، إزاء هذه الخلقية، أن ينأى رياض الصلح بنفسه عن أحمد الأسعد، المعارض التقليدي لعائلته، ويتحالف مع عادل عسيران، رفيقه في مقاومة الانتداب الآن. لكن الأمور لم تحدث على هذا النحو. فقد قرّر رياض، بدهائه

Beydoun, "Riad el-Solh et les elections legislatives de 1943", p. 420-1; Chalabi, (1) *Shi'is of Jabal 'Amil*, p. 137-8

السياسي المتميز، أن مصلحته تقتضي عدم الانضمام إلى لائحة عسيران المعارضة للفرنسيين في العلن. وحرصاً منه على طمأنة الفرنسيين، فضّل التحالف مع الوجهة الشيعي القوي أحمد الأسعد، الذي يثق به الفرنسيون. لكن كيف يمكن تحقيق هذا التحالف الذي يبدو خلافاً للطبيعة؟

كان يوسف سالم الوسيط الرئيسي بينهما، وهو برلماني قديم انتُخب للمرّة الأولى في سنة 1925، وخبير في بناء التحالفات الانتخابية. أقنع البريطانيون في سنة 1941 أن رياض الصلح والكتلة الوطنية في سوريا ليسوا أعداء الأعداء للمصالح البريطانية. وحضّر فيرلونج على الاجتماع برياض واجتذابه إلى جانب الحلفاء، بدلاً من توقيفه كما (ذكر ذلك لاحقاً في كتابه خمسون سنة مع الناس). ونظّم يوسف سالم أيضاً لقاءات في منزله بين فيرلونج والقائدين الوطنيين السوريين، شكري القوتلي وسعد الله الجابري. كان تدبير التفاهم مع رياض الصلح سهلاً إلى حدّ ما مقارنة بالآخرين، لأن رياض، خلافاً لهما، لم يتوجّه إلى بغداد خلال انتفاضة رشيد عالي، مع أنه نظّم لقاءات لدعم الوطنيين العراقيين المشجّعين.

حاول يوسف سالم جمع رياض الصلح وأحمد الأسعد معاً⁽¹⁾. فاقترح البدء بحوار تمهيدي بغية التوصل إلى اتفاق انتخابي. وهكذا كان. لا شكّ في أن تراجع نفوذ المندوبية العامة الفرنسية، وتنامي نفوذ بعثة سبيرز اقنع أحمد الأسعد بأن حظوظ فوز لائحة انتخابية تضمّ رياض أوفر من حظوظ لائحة موالية للفرنسيين بأكملها. غير أن بعض الناجحين الشيعة قاوموا فكرة الاتفاق مع رياض، مخافة أن يؤدي ذلك إلى سيطرة سنّية. كما أنهم لم يرحّبوا سابقاً باقتراح رياض دمج مؤسسات الطائفتين السنّية والشيعة لتشكيل كتلة إسلامية قادرة على تحديّ الموارنة. بل إنهم ردّوا بتعزيز مؤسسات طائفتهم بإنشاء مجلس شيعي أعلى يرأسه أحمد الأسعد.

مع ذلك أعلن عن لائحة رياض الصلح وأحمد الأسعد في الأسبوع الأول من آب/أغسطس بعد كثير من المحادثات التمهيديّة. ووسط دهشة عامة، انضمّ عادل عسيران نفسه إلى تلك اللائحة مع ثلاثة من مؤيديه، كاظم الخليل ورشيد بيضون وعلي عبد الله، اقتناعاً منهم في الظاهر أن لا جدوى من محاربة تحالف أحمد الأسعد

ورياض الصلح القوي. كما فضّل أحمد الأسعد بدوره هذا الائتلاف على التحالف مع نجيب عسيران ويوسف الزين.

قلق المستشار الفرنسي برونو من هذا الاصطفاف غير المتوقع، وحاول يائساً تشكيل لائحة مقابلة يرأسها يوسف الزين، لكنها أتت فاقدة المضمون والصدقية. وأثمرت أنشطة رياضي الصلح السياسية عن إنشاء لائحة موحّدة، أعلن عنها رسمياً في 17 آب/أغسطس في تجمّع ضخم في الطيبة، بلدة عائلة الأسعد. وكان لقرار أحمد الأسعد دعم هذه اللائحة بكل ثقله تأثير كبير على مستقبل مسيرة رياضي الصلح السياسية في ما بعد.

رأى برونو الغاضب في تلك اللائحة الموحّدة انتكاسة خطيرة لفرنسا في جنوب لبنان⁽¹⁾. وأدرك رياضي الصلح أن برونو لا يزال خطيراً، ولا بدّ من إرضائه. فطلب المساعدة من إميل إدّه، أحد أخلص الموالين لفرنسا، الذي عمد إلى إقناع برونو والمندوبية العامة أن من الأفضل لهم البقاء على الحياد في الانتخابات المقبلة. لم يكن تدخل إدّه بدافع الإيثار فحسب. فهو يطمح منذ وقت طويل إلى إعادة انتخابه رئيساً للجمهورية مرّة ثانية، ويحتاج إلى وقوف شخصية سنّة بارزة، مثل رياضي، إلى جانبه في المنافسة مع خصمه الأساسي الشيخ بشارة الخوري. وهكذا رتب رياضي على نفسه ديناً سياسياً لإدّه، لا بدّ من إيفائه بعد بضعة أشهر.

مع اقتراب موعد الاقتراع، عمدت جميع الأطراف إلى المناورة من أجل النجاح. ولم يجرؤ الفرنسيون على معارضة رياضي علناً مخافة دفعه إلى أحضان البريطانيين. ولاسترضاء الفرنسيين، تظاهر سبيرز الماكر بأنه لا يرغب في فوز رياضي، وتظاهر رياضي بدوره بالإعلان عن أنه سيحترم المصالح الفرنسية. فقبل أسبوع من الانتخابات، عقد أعضاء اللائحة الموحّدة اجتماعاً في منزل كاظم الخليل للتباحث بشأن من سيدعمون لمنصب رئيس الجمهورية في حال الفوز. أعلن رياضي الصلح بصوت عالٍ وابتسامة تنم عن دهاء أن عليهم التصويت لمرشّح ممثّل فرنسا! فنقل ما قاله على الفور إلى المندوب العام الفرنسي، جان هيللو، وذلك مقصد رياضي بطبيعة الحال⁽²⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 433-5.

(2) المصدر نفسه، ص 429.

التصويت الحاسم

سبقت الانتخابات فترة من الحملات المكثفة، عقدت خلالها اللائحة الموحدة اجتماعات موسّعة في صيدا والخيام والطيبة وجزّين. في الطيبة - حيث غابت الأعلام الفرنسية - أعلن أحمد الأسعد أن لبنان "بلد عربي"، وهو إعلان أزعج الفرنسيين كثيراً. وبلغت حملة رياض الصلح ذروتها بخطاب ألقاه في بلدة جزّين المارونية، وكان بمثابة ردّ على البطريك عريضة ومطارنته الذين أغضبهم تسامح المندوبية العامة مع اللائحة الموحدة. صرّح رياض في خطابه أنه كان في الماضي عدوًّا للانتداب الفرنسي، لكنه أصبح اليوم مناصراً لاستقلال لبنان وصديقاً للبلدان الديمقراطية في العالم. وعبر عن أمل كبير بانتصار الحلفاء في الحرب، وبوحدة اللبنانيين في تعلّقهم بوطنهم. وكرّر قوله إنه يفضل العيش في قرية مستقلة على العيش في إمبراطورية خاضعة للسيطرة الأجنبية. ففهم من هذه الملاحظة على نطاق واسع أنه يفضل استقلال لبنان على الوحدة العربية. وكان يقصد أن يجد منتقدوه المسيحيون في هذه الكلمات إيماءة تطمين ومصالحة.

تمّ تقسيم الدوائر الانتخابية كما حصل في سنة 1937، فاعتُبرت محافظات لبنان الخمس، بيروت ولبنان الشمالي ولبنان الجنوبي والبقاع وجبل لبنان، دوائر انتخابية منفصلة. ويحتاج المرشّح للفوز إلى الحصول على أكثرية بسيطة في الدورة الأولى، في حين تأخذ الدورة الثانية الممتنعين عن التصويت في الحسبان والاتفاقات الانتخابية في اللحظة الأخيرة. وتُجدر الإشارة إلى أن عدد سكان لبنان في ذلك الوقت بلغ 1,150,000 (وعدد سكان سوريا إلى 2,700,000)⁽¹⁾.

نشر رياض في صباح 29 آب/أغسطس، يوم الدورة الأولى للانتخابات، بياناً في جريدة الديار، وهي صحيفة يملكها ويحرّرها صديقه حنا غصن، بدا كأنه برنامج حكومي. وأشارت نبرة رياض إلى أنه يتطلّع إلى رئاسة الحكومة إننا ندخل عالمًا جديداً، يتمتّع فيه الكبير والصغير، القوي والضعيف، بمزايا الحرية... إن سيادتنا الوطنية مبنية على ضمانات متينة... على ميثاق الأطلسي، هذه

Gabriel Menassa, Memorandum dealing with the Lebanese electoral problems and (1) the introduction of necessary reforms, Beirut, 16 January 1943 (FO 226/240)

العلامة البارزة في تاريخ الحضارات، وعلى ضمانات كثيرة أخرى قدمت إلينا تحديداً من الجنرال ديغول، قائد الفرنسيين المقاتلين، وكذلك من رئيس الوزراء البريطاني ورئيس الولايات المتحدة... برنامجي هو برنامج من يحبّ بلده ويعمل له بإخلاص وتفان. ليس هذا المكان المناسب للخوض في التفاصيل. يكفي أن أقول إن برنامجي سيعمل على تعزيز استقلالنا وسيادتنا الوطنية. أما بالنسبة إلى سياستنا الخارجية، فلنأتمنى إلى إدخال لبنان في دائرة البلدان التي تعمل على بناء هذا العالم الجديد القائم على الحرية والعدل والقانون والازدهار، عالمٍ يتمتع بالحرّيات الأربع التي أعلنها الرئيس روزفلت⁽¹⁾.

فازت اللائحة الموحدة بأكثر من ثلاثة أرباع الأصوات. شارك في الاقتراع 24,393 شخصاً من أصل 37,661 ناخباً مسجلاً في لبنان الجنوبي، أي أن نسبة المشاركة بلغت 66 بالمئة. حلّ عادل عسيران أولاً في اللائحة وحصل على 20,011 صوتاً، تلاه رشيد بيضون وحصل على 19,483 صوتاً، وأحمد الأسعد وحصل على 19,424 - ما أثار غضب الأسعد لأنه حلّ ثالثاً في لائحة كان له الفضل الأكبر في تشكيلها! وفاز رياض الصلح بالمقعد السني حاصلاً على 19406 أصوات. وفشل الفرنسيون فشلاً ذريعاً في تأمين النصر لمؤيّدهم الأمير خالد شهاب.

أبلى القادة المسلمون بلاءً حسناً في الأماكن الأخرى من البلاد. فانتُخب عبد الله اليافي وصائب سلام في بيروت، وعبد الحميد كرامي في الشمال. وانتُخب الوجيه الشيعي صبري حمادة في البقاع والزعيم الدرزي كمال جنبلاط في جبل لبنان. وانضمّ إليهم شخصيات بارزة من الطوائف الأخرى، مثل الكاثوليكي سليم تقلا، والموارنة الثلاثة البارزين بشارة الخوري وإميل إدّه وكميل شمعون في جبل لبنان؛ والمصري الكاثوليكي هنري فرعون في البقاع؛ والأرثوذكسي حبيب أبي شهلا، والماروني ألفرد نقاش والبروتستانتي أيوب ثابت في بيروت.

لكن هذا الدخول الظافر لرياض الصلح والمسلمين الآخرين إلى البرلمان للمرة الأولى غير ميزان القوى السياسي والطائفي في السياسة اللبنانية إلى الأبد.

MAE-Nantes, Fonds Beyrouth Ambassade, série 1994A, carton 20, Statement by (1) Riad el-Solh in *Al-Diyar*, 29 August 1943

الفصل التاسع عشر

تسوية الميثاق الوطني

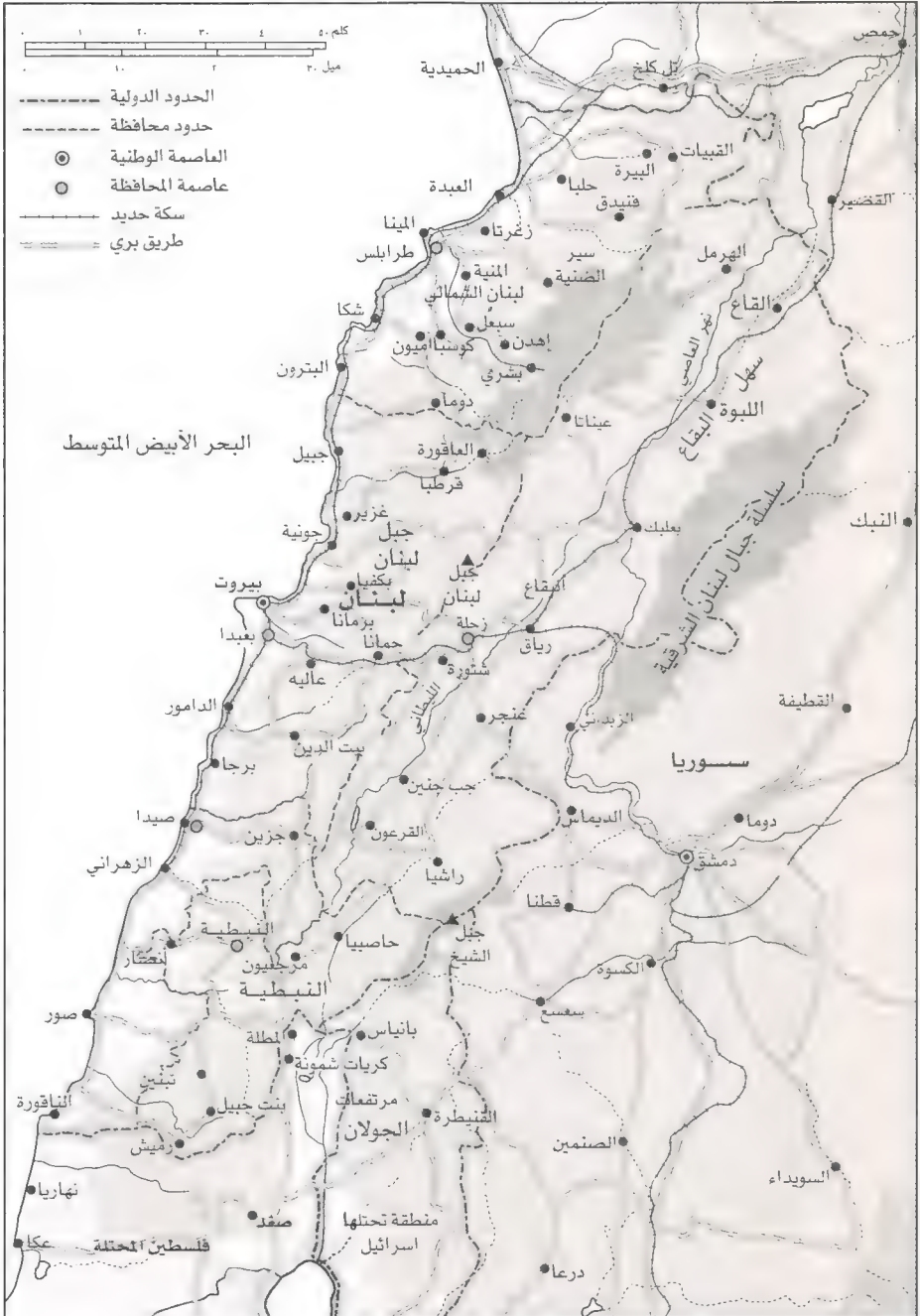
اقترح رياض الصلح بانتخابه نائباً في البرلمان اللبناني في آب/أغسطس 1943 من الوصول إلى رئاسة الوزراء. لكن ذلك المنصب بقي بعيد المنال، إذ إن رئيس الجمهورية هو الذي يعين رئيس الوزراء، بموجب الدستور اللبناني، وعلى المجلس اختيار الرئيس قبل ذلك. كان من المقرر انتخاب الرئيس في 21 أيلول/سبتمبر، وقد رأى رياض أن كل شيء يتوقف على نتيجة تلك المنافسة. لكن من المتنافسين المارونيين على المنصب الأول في الدولة يُخدم غايته على أفضل وجه؟

احتدمت المنافسة على الرئاسة بين إميل إدّه وبشارة الخوري في جانب كبير من الثلاثينيات. انتُخب إدّه رئيساً بدعم فرنسي وهزم بشارة الخوري في سنة 1936، وهي الرئاسة التي قطعها الحرب، وها هو اليوم يأمل في إعادة انتخابه. بدت حظوظ الرجلين متساوية. فهما يتمتعان بشبكة كبيرة من المؤيدين والأصدقاء والعلاقات، وكل منهما متزوج من عائلة ثرية وقوية في بيروت. كما تزعم كل منهما كتلة برلمانية: ترأس إميل إدّه الكتلة الوطنية وبشارة الخوري الكتلة الدستورية.

على الرغم من التزام الرجلين بلبنان الكبير ضمن حدود 1920 الموسعة، فإنهما اختلفا كثيراً بشأن دور فرنسا في الشؤون اللبنانية وعلاقات لبنان بجيرانه العرب. كان إدّه يريد أن تحتفظ فرنسا بنفوذها السياسي والعسكري والثقافي في لبنان لحمايته من جيرانه العرب، وبخاصة سوريا، التي يعتبرها تهديداً لكيانه. بينما أراد الخوري التحرر من السيطرة الفرنسية للسماح للبنان بشغل مكانه الطبيعي في بيئته العربية والمسلمة الأوسع. وكان إدّه فرنسي الهوى، يفضل الكتابة والتحدث بالفرنسية، في حين أن الخوري يشعر بالراحة إلى الثقافة العربية، ويتقن اللغتين العربية والفرنسية.

كان على رياض الصلح أن يحسم مسألة أي من هذين الزعيمين المارونيين يمكن أن يعينه رئيساً للوزراء، والأهم من ذلك أن يكون شريكاً ملتزماً في الكفاح لنيل الاستقلال

بالإن خاص من Cambridge University Press



الذي لا بدّ أن ينطوي على مواجهة مؤلمة مع الفرنسيين. ربما كانت مشاعر بشارة الخوري المؤيدة للعرب تجعله خيار رياض البدهي. لكن المفارقة أن رياض كان قريباً أكثر من إدّه على الصعيد الشخصي. وفي حين أن علاقاته مع الخوري اتّسمت بالمودّة، فإنه وجد نفسه أكثر انسجاماً مع إدّه. كانت رفقة إدّه مؤنسة وممتعة، لتميّزه بالذكاء والحكمة والحسّ الفكاهي واضح على غرار رياض. كما أنه صريح ومباشر: لا يحاول المراوغة أو إخفاء تعلّقه بفرنسا، بل إن المرء يعرف تماماً أين يقف معه.

على أي حال، لم يكن الأمر اختياراً بين أسود وأبيض، لأن إدّه أبدى إيماءات تصالحيّة مع المجتمع الإسلامي. بعد تولّيه رئاسة الجمهورية في سنة 1936، عيّن خير الدين الأحّدب - شريك رياض السابق في مغامرتهما الصحافيّة المشتركة - رئيساً للوزراء. وتلك المرّة الأولى التي يتولّى فيها مسلم منصباً رفيعاً تحت الانتداب الفرنسي. لكن فوجئ رياض وشعر بخيبة الأمل لأن الأحّدب لم يحقق أي رأسمال سياسي من منصبه، واختار بدلاً من ذلك التخفيف من قناعاته القوميّة العربيّة. مع ذلك، جاء تعيينه بمخاتبة دخول رسمي للمسلمين إلى أعلى درجات الحياة السياسيّة اللبنانيّة التي استبعدوا منها طويلاً.

قدّم إميل إدّه أيضاً خدمة قيّمة لرياض الصلح في الفترة التي سبقت الانتخابات النيابيّة في آب/أغسطس 1943، عندما أقنع الفرنسيين بعدم شنّ حملات علنيّة ضده. كما طمأن الفرنسيين بأن رياض الصلح ليس رجلاً بريطانياً، ولعله فعل ذلك بحث من رياض. وقد ساعد ذلك كثيراً في تبديد التحفّظات الفرنسيّة الكبيرة تجاهه.

في غضون ذلك، أبدى الفرنسيون - الذين طالبوا جميع السياسيين الموارنة بتقديم ولاء أعمى لهم - انقلاباً تاماً على بشارة الخوري. اعتبروه انتهازياً باع نفسه، حسب تقديرهم، إلى البريطانيين. كتب مسؤول فرنسي غاضب أن بشارة الخوري كان "فرنسياً عندما آمن بموقع فرنسا المسيطر في المشرق، وعربياً فور شعوره أن حكومات الجبهة الشعبيّة في فرنسا تفضّل الوطنيين، وأصبح إنكليزي الهوى عندما دخلت القوآت البريطانيّة لبنان"⁽¹⁾. وبحلول سنة 1943، أصبح الفرنسيون منزعجين جداً منه. فأبلغ مسؤول فرنسي ساخط باريس:

رأى بشارة الخوري، منذ وصول قوّات الحلفاء، أن الوقت حان للسعي إلى السلطة. فانضمّ إلى أنسابه آل فرعون - الذين أمّنوا عقوداً بريطانية ضخمة لبناء الطرقات ومدرّجات المطارات - وفتح منزله أمام الضباط البريطانيين، وأقام لهم حفلات استقبال مسرفة وأبدى اللطف مع بعثة سبيرز وأركان الجنرال ويلسن [قائد الجيش التاسع البريطاني]. إنه يتغنّى الآن بكل ما هو بريطاني ويسيء إلى سنوات الانتداب الفرنسي العشرين "المتردة". لكن عندما جال الجنرال في البلاد لتقصّي رغبات السكان في ما يتعلّق باختيار الرئيس، حرص بشارة الخوري على وجود من يهمس في أذن الجنرال أنه الشخص الأكثر شعبية وأهلية للفوز بذلك المنصب⁽¹⁾.

وإلى جانب الاستكثار الذي أبداه الفرنسيون من اتصالات الخوري بالبريطانيين، فقد استأثروا أيضاً من العلاقات الوثيقة التي أقامها مع النحاس باشا في مصر وأعضاء من الكتلة الوطنية في سوريا. فقادّة هاتين الدولتين العربيتين هم الأكثر قدرة على التأثير في الشؤون اللبنانية. لذا لا غرو أن يلقي الفرنسيون بكل ثقلهم خلف إميل إدّه كمرشّح للرئاسة.

وجد رياض الصلح نفسه أمام معضلة حادّة. فهو يفضّل إدّه على الصعيد الشخصي، لكن لديه شكوكاً خطيرة فيه على الصعيد السياسي. رأى أن إدّه ربما يبعد مسافة ما عن فرنسا، لكن إلى أي مدى يمكن أن يذهب؟ هل سيكون مستعداً للضغط من أجل الانسحاب التام للقوات الفرنسية من لبنان، وهو شرط ضروري في نظر رياض، لتحقيق استقلال حقيقي؟ وهل يقبل بفكرة "الهوية العربية" للبنان، التي كان رياض الصلح مصمّماً على توكيدها⁽²⁾؟

استشار رياض صديقه القنصل العام العراقي تحسين قدري الذي عرفه شاباً في استانبول وأصبح عميد السلك الدبلوماسي في بيروت. وقد لعب قدري دوراً مهماً في الشؤون اللبنانية بسبب علاقاته مع السياسيين البارزين، وبفضل المكانة التي يحظى بها العراق. تذكر علياء، ابنة رياض، وكانت في العاشرة من عمرها تقريباً في ذلك الوقت،

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, 20 février 1943

(2) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

أن تحسّن قدرتي قدم إلى بيتهم في أحد الأيام حاملاً معه رسالة إلى رياض. أخرج علبة سجائر فارغة من جيبه وبسطها وكتب عليها: "الشاي عند قدرتي غداً في الساعة الخامسة"، وناولها لها لتعطّيها إلى والدها. عندما ذهب رياض إلى بيت القنصل في اليوم التالي، وجد بشارة الخوري هناك. فقد أعدّ قدرتي اللقاء خصيصاً لجمعهما معاً. علّقت على الصلح مبتسمة: "كانت هذه المرة الأولى في تاريخ لبنان التي يختار فيها من سيصبح رئيساً للوزراء رئيساً لجمهورية، وليس العكس".

لقاء 19 أيلول/سبتمبر 1943

لم يكن تحسّن قدرتي الوسيط الوحيد. في مقابلة مع نصري المعلوف قبل وفاته، وهو محام ونائب سابق وصديق وثيق الصلة برياض الصلح، روى كيف تمّ التحالف بين رياض الصلح وبشارة الخوري⁽¹⁾. كان المعلوف قد التقى رياض لأول مرة في دمشق في أوائل الثلاثينيات، عندما كان الأخير في إحدى زيارته لأصدقائه الوطنيين هناك. عرف المعلوف، المتخرج للتوّ في جامعة دمشق، رياض الصلح عن طريق أستاذه في القانون والسياسي البارز فارس الخوري، الذي أقنع رياض بتوظيف معلوف الشاب في مكتبه للمحاماة في بيروت. وتعرف المعلوف بهذه الطريقة على ابني عم رياض، كاظم وتقي الدين الصلح أيضاً، وانضمّ إلى دائرة رياض الداخلية من كتبة الخطابات والمويدين والمستشارين.

في أيام النشاط المحموم بين الدورة الثانية للانتخابات النيابية في 5 أيلول/سبتمبر والانتخابات الرئاسية في 21 أيلول/سبتمبر، تساءل هؤلاء الرجال: كيف يستطيع رياض أن يفكر في تأييد إميل إدّه، وهو الرجل الذي يريد استقلالاً محدوداً عن فرنسا، في حين أن بشارة الخوري ليس لديه شريك مسلم ذو وزن، على الرغم من أنه يدعو إلى الاستقلال التام؟ كان الأمير خالد شهاب، وهو من جنوب لبنان، المسلم الوحيد ذا الشأن في كتلة بشارة الخوري الدستورية. وقد اتسم بالنزاهة، لكن سمعته السياسية تلطّخت بتعاونه مع الفرنسيين.

Nasri Maalouf. "Riad el-Solh doit être avec Béchara el-Khoury," in Khoury (ed.), (1) *Sélim Takla, 1895-1945*, pp 510-516. وأجرى فارس ساسين المقابلة مع معلوف في 12 تموز/أيلول 2002.

ناشد المعلوف رفاقه خلال اجتماع في مكتب كاظم الصلح قائلاً: "امنحوني 24 ساعة فقط كي أجتمع بأصدقاء بشارة الخوري، لكن من دون إبلاغ رياض في الوقت الحالي أو طلب أي شيء منه". عندما وافق الآخرون على هذه الخطوة، زار المعلوف سليم تقلا، أحد أقرب أصدقاء بشارة الخوري وأكثر مستشاريه احتراماً، وكان يُعرف أنه "العقل المفكر للكتلة الدستورية".

قال له المعلوف: "يتفق اللبنانيون والبريطانيون في الرغبة في استقلال لبنان. إننا ندعم بشارة الخوري تماماً في مطالبته بالاستقلال التام. غير أن رياض يفضل إميل إدّه. والمسلم الوحيد في الكتلة الدستورية، وهو الأمير خالد شهاب، يفتقر إلى الشعبية في بيروت".

سأله سليم تقلا: "ما الذي تريد أن تقوله؟" أجاب نصري معلوف: "أقول إن رياض الصلح يجب أن يتحالف مع بشارة الخوري".

ردّ سليم تقلا بحماسة: "سيكون ذلك رائعاً! أنا موافق". تابع نصري المعلوف: "جئت لأقول لك إن علينا العمل معاً لتحقيق ذلك". سأل سليم تقلا، مُشيراً إلى رياض الصلح وأنصاره: "لكن ما الذي يطلبونه؟" أجاب نصري المعلوف بثقة: "لا يعلم رياض شيئاً عن هذا الاقتراح حتى الآن. لكن إذا فتحتم من جانبكم الباب له، فأعتقد أن في وسعكم أن تجتذّبوه إليكم. وبعد ذلك نبدأ العمل من جانبنا".

رحّب سليم تقلا بتلك الفكرة. لكن كيف يتمّ تنفيذ هذه الخطّة؟ اتفق المعلوف وتقلا على أن ينقل الأخير الاقتراح إلى بشارة الخوري، اعتقاداً منهما أنه سيرحب باحتمال التحالف مع رياض. غير أن تقلا تردّد في القيام بهذه المهمة بمفرده. وشعر بالحاجة إلى مساندة شخص ماروني بارز آخر مقرّب من بشارة، مثل كميل شمعون. فرتب تقلا عقد اجتماع بين المعلوف وشمعون لاستمزاز رأيّه. فجاء جواب الأخير فورياً وحماسياً: "اذهب وتحدّث إلى رياض".

كان المعلوف محامياً يتسم بالحدّر. شكّلت صداقة رياض لإميل إدّه وولاؤه له عائقاً أساسياً أمام تحالف رياض مع بشارة الخوري. لذا رأى المعلوف أنه لا يستطيع

أن يفتح رياض الصلح بهذا الشأن قبل أن يقرّ معسكر بشاره الخوري فكرة التحالف بينهما بصورة رسمية. لكن شمعون قدّم في ذلك الوقت تأييده للمبادرة، وحثّ المعلوف على عدم إضاعة الوقت لأن الانتخابات الرئاسية تقترب بسرعة.

وهكذا رتب المعلوف، في البداية، عقد لقاء بين رياض وسليم تقلاً، وعندما جاءت النتائج مبشرة، عمد تقلاً وشمعون بعد ذلك إلى تعزيز الروابط بين المعسكرين السياسيين. وقال المعلوف لاحقاً: "عندما أخبرنا رياض أننا باشرنا العمل من دون علمه، استمع بصمت، ولم يعلّق"⁽¹⁾.

مهّدت هذه اللقاءات الأولية المعقّدة الطريق للقاء ثنائي تاريخي بين رياض الصلح والشيخ بشاره الخوري في 19 أيلول/سبتمبر في منزل صديق مشترك في بلدة عاليه الجبلية الباردة، (حيث انتظر رضا ورياض الصلح في الماضي محاکمتهم على نشاطاتهما المناهضة لتركيا). لا يوجد أي سجل عن مضمون اللقاء. فلم يكتب رياض شيئاً عنه، وورد ذكره بإيجاز في مذكرات بشاره الخوري. وتبيّن في ما بعد أنهما توصّلا إلى اتفاق غير مكتوب يقضي أن يعيّن بشاره الخوري، إذا انتُخب رئيساً، رياض الصلح رئيساً للوزراء. كما اتفقا على تقاسم السلطة بغية وضع برنامج سياسي متين يسعيان من خلاله إلى الاستقلال عن فرنسا.

كتب بشاره الخوري في مذكراته: "قرّرت أن أعهد بمنصب رئاسة الوزارة إلى رياض الصلح، وهو رجل حادّ الذكاء ذو شجاعة نادرة، ويحظى باحترام كبير في لبنان والبلدان العربية. اجتمعنا معاً قبل يومين من الانتخابات الرئاسية واتفقنا على هذه النقطة...". وأضاف الخوري أن "الاجتماع بقي سرّياً ولم أبلغ أحداً، حتى أقرب الأشخاص إليّ، عما أعتزم القيام به".

وهكذا وضع المبدأ العريض لاستقلال لبنان على قاعدة العيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين. وتجسّد التفاهم بين الرجلين بعد بضعة أيام في أوّل بيان يدي به رياض الصلح أمام البرلمان بعد تولّيه منصب رئيس الوزراء، وهو برنامج الحكومة الذي عُرف في ما بعد بالميثاق الوطني. غير أن الغموض يلفّ كيفية عقد الاتفاق بين بشاره ورياض، وما تبادلاه من أحاديث في اللقاء الحاسم.

(1) بشاره الخوري، حقائق لبنانية، الجزء 2، ص 17.

خلفية الميثاق وأهميته

لا شك في أن التسوية السياسية بين الموارنة والمسلمين السّنة، متجسّدة في الميثاق الوطني، هي من صنع هذين الرجلين. فقد تمكّن رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء معاً من تحقيق استقلال لبنان، ووضع حدّاً لقمع النظام الاستعماري المستحكم، بعد نضال مرير مع فرنسا. وقد تحقّقت شراكهما معاً بفضل معطياتهما الاستثنائية. أدرك رياض هواجس المسيحيين وتعاطف شخصياً معهم منذ نعومة أظافره، بينما تمتّع بشارة الخوري باستقلال فكري ليدرك أنه بحاجة إلى البحث عن الدعم خارج مجتمعه الماروني الضيق. فسمح له ذلك بإدراك فائدة تحالفه مع رياض الصلح، الرعيم السنّي الذي اكتسب نفوذاً عظيماً لدى المسلمين في لبنان والبلدان العربية. شكّل الميثاق نمطاً جديداً للعيش المشترك، ارتقت فيه الرعامة الإسلامية السّنية المدنية إلى موقع المشاركة الكاملة في السلطة مع الموارنة، الذين سيطروا في السابق على الساحة السياسية. فأدخل ذلك تحوّلًا جذرياً على تركيبة السلطة التي وضعها الفرنسيون.

لم يتحالف رياض مع بشارة الخوري فحسب، بل مع الحزب الدستوري ومناصريه الأقوياء، مثل هنري فرعون وميشال شبحا، وهما دعامتا الحياة الاقتصادية والثقافية في لبنان. فقد أدرك هؤلاء الأثرياء، على مضض، أن الوقت قد حان للتوصّل إلى تسوية مع المسلمين في بلدهم، إذ لم يعد بإمكان الفرنسيين أن يضمّنوا لهم موقع الصدارة المسيحية. وأصبحوا جاهزين الآن للابتعاد قليلاً عن الفرنسيين والاقتراب من العالم العربي. بيد أن بشارة الخوري وأصدقائه كانوا يخشون من أن يصل منافسهم إميل إدّه إلى السلطة، وتتمتع حاشيته وحدها بالغنائم، إذا استعاد الفرنسيون سيطرتهم على لبنان.

ما كان التحالف بين رياض الصلح وبشارة الخوري يمكن أن يتمّ، ويعطي النتائج التي أعطاهما لو لم يدعمه الجنرال سبيرز. فقد عقد هذا الوزير البريطاني القوي المفوّض في دول المشرق العزم على جعل فرنسا تقي بتعهداتها منح الاستقلال إلى سوريا ولبنان، وهو تعهّد ضمنته بريطانيا. وكان رياض الصلح والجنرال سبيرز قد توصّلا في السنة الماضية إلى تفاهم سياسي ودرجة من الاتفاق الاستراتيجي الذي وجدا أن من غير الحكمة الإفصاح عنه تماماً.

تجلّت حنكة رياض في انتهاز اللحظة المناسبة للسعي إلى الوصول إلى السلطة وتحديّ الفرنسيين. فقد مكّنته سنوات المنفى العديدة في سويسرا وفرنسا من إدراك السياسات الأوروبية أكثر من العديد من معاصريه اللبنانيين والسوريين. بل جعلته يستوعب كيف يمكن وضع ميزان القوى الدولي في خدمة لبنان. والأهم من ذلك أنّها ساعدته في فهم كيفية التعامل مع الجنرال سبيرز ومستشاره الرئيسي جيفري فيرلونج الذي كان رياض يلتقيه يومياً تقريباً في ذلك الحين. كما أدرك رياض جيداً أن مناصرة سبيرز القوية وغير العادية لقضية استقلال لبنان وسوريا، واستعداده العنيد لمواجهة الجنرال ديغول ووزارة الخارجية البريطانية، ميزة مهمة يجب استغلالها إلى أقصى حدّ وبسرعة.

ثمة عناصر أخرى في المعادلة بطبيعة الحال. لقد تشجّع رياض بانتصار أصدقائه الوطنيين في سوريا في الانتخابات، وساعده ذلك في المقابل في تحقيق التقارب مع بشارة الخوري. فقد قدم وفد سوري برئاسة لطفي الحفّار إلى بيروت لإقناع وجهاء السنة بدعم ترشّح بشارة الخوري، ووضع حدّ لطموحات إميل إدّه. وأيد النحاس باشا، رئيس وزراء مصر، انتخاب الخوري، وأعطى تعليماته للقنصل المصري في بيروت، أحمد رمزي، للتأثير في الرأي العام المسلم لصالح الخوري. وكان هناك تصميم رياض على أن يلقي في المعركة بمكانته وشعبيته ومؤهلاته القومية العربية التي راكمها بدأب على مرّ السنين.

كانت المسألة السياسية التي واجهها رياض الصلح وبشارة الخوري تتعلق بمقدار التسوية التي يستطيع كل منهما الإقدام عليها لتشارك السلطة⁽¹⁾. وقد استند تفاههما إلى قبول المسلمين بلبنان الكبير وحدود 1920 الموسّعة، وقبول المسيحيين بانتماء لبنان إلى الأسرة العربية. وبعد ذلك لم يعد المسلمون يقدّمون أنفسهم أنّهم سكّان المناطق التي يطالبون بإعادة توحيدها مع سوريا، بل أعضاء في الطائفة الإسلامية اللبنانية، وهي طائفة تطالب الآن بحقوق متساوية، أو شبه متساوية، مع الموارنة⁽²⁾. ذلك هو الموضوع المركزي في الميثاق الوطني. لقد عبّر عن موافقة رياض الصلح على أن استقلال لبنان

.Zisser, *Lebanon*, p. 56 (1)

.Méouchy, "Le Pacte national", p. 468 (2)

الكبير هو الهدف المباشر، وأنه حلّ محلّ فكرة الوحدة مع سوريا. وحيث إن الاستقلال عن فرنسا كان الهدف، فقد وافق بشار الخوري بدوره على أن يتخلّى المسيحيون عن الحماية والامتيازات التي طالما منحها لهم الرعاية الفرنسية.

قدّم الطرفان تنازلات كبرى. تخلّى السّنّة عن فكرة تفكيك كيان لبنان الكبير، صنيعة فرنسا المناهض للعرب، واعترف المسيحيون أن لبنان في الأساس بلد عربي، أيّاً تكن ارتباطاتهم الثقافية والسياسية والتجارية مع الغرب. فهنا يكمن مستقبلهم. وهكذا قدمت الإجابة عن السؤال "الوجودي" الذي شغل لبنان الكبير منذ بداياته: هل الدولة الموسّعة ظاهرة مؤقتة، أم ستستمرّ في المستقبل المنظور ضمن هذه الحدود؟ وأصبح التزام المسلمين والمسيحيين الطوعي بلبنان الكبير، كما جسده الميثاق الوطني، ضماناً لتحوّله إلى دولة عصرية دائمة⁽¹⁾.

منح تأييد رياض الصلح هذا "الحلّ اللبناني" ثقلاً سياسياً للتعاون المتنامي بين التجّار والممولّين والوسطاء السياسيين المسيحيين والمسلمين. ففي النهاية، لم ينبثق الميثاق الوطني من فراغ، ولم يكن مجرد تسوية أعدّها رجلان طموحان فحسب. بل مثّل التقارب التدريجي على مدى عدّة سنوات بين عدد من الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، محلياً وعالمياً، وأهمّها تنامي إدراك النخب المسلمة والمسيحية في لبنان أن القواسم المشتركة بينهم تفوق كثيراً ما كانوا يرغبون في افتراضه. فهم ينتمون إلى العالم نفسه، على الصعيد الاجتماعي على الأقل.

لقد بدؤوا يقتربون بعضهم من بعض منذ الثلاثينيات، عندما أدركوا تدريجياً عدم وجود تناقض حقيقي بين ارتباطات السّنّة التجارية مع العالم العربي وارتباطات المسيحيين مع شركائهم الغربيين. بل يمكن جمع هاتين المجموعتين من العلاقات معاً لتحقيق المزيد من المنافع للطبقة الوسطى المشتركة. وسيتوقّف ازدهارها في المستقبل على نجاح تطوّر بيروت إلى مركز تجاري ومصرفي، في موقع استراتيجي بين الأسواق العربية والغربية. لقد عبّر الميثاق الوطني، إلى حدّ كبير، عن هذه المصالح المالية المشتركة المغربية⁽²⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 463.

(2) Johnson, *Class & Client*, pp. 26, 117-118.

ووفقاً لتعبير غسان تويني، رئيس تحرير جريدة النهار المخضرم والشخصية السياسية البارزة على الساحة اللبنانية منذ أكثر من نصف قرن، فإن مشاركة النخب السنّية في قيادة لبنان أدّت إلى تحوّل المصالح الاقتصادية للتحالف الحاكم الجديد، وأهدافه وتوقعاته الاجتماعية، بل حتى سياساته الاقتصادية الداخلية والخارجية.

حصل تغير هائل، وإن كان بطيئاً في بعض الأحيان، نقل لبنان عام 1943 بعيداً عن الاقتصاد القائم حصرياً على السياحة والخدمات والتجارة والحرف والزراعة التي شكّلت صورته المتواضعة في ظل الانتداب الفرنسي. فولدت طبقة وسطى جديدة، وسرعان ما أصبحت، إلى جانب طبقتي المهنيين والمتقنين المتنامية، الأساس الاجتماعي الحقيقي للديمقراطية الجديدة⁽¹⁾.

استمدّ الطرفان ضمانات أساسية من الترتيب الجديد. لم يعد المسيحيون بحاجة إلى ضمانات من الفرنسيين لقيام دولتهم. وتجرّؤوا أخيراً على الخروج من قوقعتهم المذهبية الضيقة ومدّ يدهم إلى العالم العربي الواسع، بعد التخفيف من شعورهم بالاختلاف عن المسلمين. ولم يعد مسلمو لبنان، في المقابل، يشعرون أنهم أقلية دخيلة ومحتقّرة في دولة يسيطر عليها المسيحيون، بل حقّقوا أخيراً مكانة المواطنين الكاملين.

ضمن هذا الاتفاق بين النخب قوى ومجموعات ضغط على المستوى الشعبي، لا سيما الحركات شبه العسكرية التي ظهرت في المشرق في أواخر الثلاثينيات. وقد عبّرت هذه الحركات عن حاجات الجيل الصاعد الجديد وخيبات أمله. وعندما أصبحت المعركة مع فرنسا مشروعاً مشتركاً، أخرجت هذه الحركات الشبابية أعضاءها في مظاهرات جريئة ضدّ سلطة الانتداب. بل إنّها انتزعت السيطرة على الشارع من السلطات الحاكمة. وأصبحت الكتائب اللبنانية بقيادة بيار الجميل والسنجادة السنّية، منذ سنة 1943، وسيطين بين الشبان والوجهاء المتقدّمين في السن، المسيحيين والمسلمين، الذين سيطروا تقليدياً على الساحة السياسية من خلال شبكات الرعاية التي يديرونها.

من المثير للدهشة أن هاتين الحركتين الشباييتين المتنافستين بدأتا التعاون معاً في سنة 1941 لتقدّم المؤن إلى السكان المعسرّين. وبعد ذلك بدؤوا بإرسال وفود إلى

المظاهرات التي تسيرها كل منهما، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك في سنة 1943، من خلال العمل السياسي المشترك. فعرض جميل مكاوي من النجادة، على بيار الجميل الاشتراك معاً في مساندة بعض المرشحين لانتخابات آب/أغسطس النيابية، وهو تحالف أثمر عن نتائج إيجابية جداً. ولولا قوة هاتين الحركتين الشبابيتين المؤيدتين للميثاق الوطني في الشارع، لما نجح اختبار القوة القادم مع الفرنسيين⁽¹⁾. أمّن الميثاق الوطني الحجر الأساس لترشيح بشارة الخوري للرئاسة. وأسفرت المساومات الكثيفة بين النواب ورجال الدين والقادة السياسيين البارزين عن التغلب بالمكر على الفرنسيين في نهاية المطاف. فقد استُدرج الفرنسيون إلى الاعتقاد أن البريطانيين يريدون أن ينتخب كميل شمعون رئيساً، وهو معروف بتعاطفه القوي معهم. فدفعت هذه الإشاعات - التي لا أساس لها - الفرنسيين لتحويل تأييدهم عن إميل إدّه ومنحه إلى بشارة الخوري، الذي اعتقدوا أنه "مرشح التسوية" الوحيد القادر على إبعاد شمعون عن الرئاسة. وهكذا انخرم إميل إدّه قبل إجراء الانتخابات، وساهمت في هذه الهزيمة سلطة الانتداب نفسها التي محضها ثقته الكاملة.

في 21 أيلول/سبتمبر، انتخب مجلس النواب اللبناني الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية. وعند أداء القسم، أشار بوضوح إلى السياسات التي يعتزم اتباعها. وأعرب عن تقديره مبدأ التضامن العربي معلناً نيته تدشين عهد جديد من الحرية والسيادة الوطنية. وفي اليوم التالي، عين رياض الصلح رئيساً للوزراء.

(1) Méouchy, "Le Pacte national". pp. 471-2, 480



رياض الصلح في الثلاثين من العمر تقريباً، مع والده، رضا الصلح، في بيروت أو ربما في صيدا، نحو سنة 1924.
(بإذن من معالي السيدة ليلي الصلح حمادة)



رياض الصلح في سن الثامنة، في سنة 1902،
مع شقيقتيه بلقيس وعلياء.
(بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



رياض الصلح في سن الرابعة،
في سنة 1898.
(بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



رياض الصلح في سن الثامنة عشرة، في سنة 1912،
وكان في ذلك الوقت يدرس الحقوق في استانبول.
(بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



رياض الصلح في سن السادسة والعشرين، في سنة 1920، مع مجموعة من مؤيدي الأمير فيصل الشبان في دمشق.
يظهر في الصف الخلفي، الثالث من اليسار (بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



الأمير عبد القادر الجزائري، مرتدياً وسام جوقة الشرف الأكبر الذي منحه إياه نابليون الثالث لدوره
في إنقاذ حياة المسيحيين خلال المجازر التي وقعت في سنة 1860 في دمشق.
وفي ذلك الوقت نشأت صداقة بينه وبين أحمد باشا، جد رياض الصلح.



الأمير سعيد الجزائري في المنزل في دمشق في سنة 1935، تحت صورة لجدّه الأمير عبد القادر الجزائري.



الاجتماع الأول للبرلمان العثماني في 18 آذار/مارس 1877. في أعقاب هزيمة العثمانيين أمام روسيا في سنة 1877-78، السلطان عبد الحميد يحل البرلمان ويعلق العمل بالدستور، ويمارس حكماً أوتوقراطياً طوال ما تبقى من عهده.



أحمد مدحت باشا (1822-84)، الصدر الأعظم والمصلح العثماني الذي ساعد في إعادة الاعتبار لأحمد باشا، جذ رياض الصلح، وإعادته إلى الخدمة الحكومية. أثارت شهرة مدحت باشا شكوك السلطان عبد الحميد، فنفاه إلى الطائف في شبه الجزيرة العربية، حيث قُتل في 8 أيار/مايو 1884، ربما بأوامر من السلطان.



أحمد أبو خليل القباني (1836 - 1903)،
مؤسس المسرح الموسيقي العربي الحديث
في سوريا ومصر. (بإذن من الدكتور صبح
قباني. التقط الصورة جولز لبيند في بيروت
نحو سنة 1880)



الإمبراطور الألماني فلهم الثاني في دمشق في سنة 1898. في الطريق من القدس إلى دمشق، تناول الإمبراطور طعام
العشاء في صيدا إلى مائدة أحمد باشا، جد رياض الصلح. لتعزيز التحالف مع الإمبراطورية العثمانية، أولت ألمانيا دعابة
كبيرة لجولة الإمبراطور في الولايات العربية، وقد سجلها المصور الفوتوغرافي الأرمني كريت كريكوريان (1847-1920).
(من مجموعة عائلة أوتراكجي على الموقع الإلكتروني www.creativesyria.com)



سالونيك في أوائل القرن العشرين، عندما أمضى رضا الصلح سنة متصرفاً هناك، وحيث غرق ابنه أحمد.
في سنة 1908، كانت سالونيك القاعدة التي ثارت فيها تركيا الفتاة على السلطان عبد الحميد.
(بإذن من مكتبة الوثائق الدولية المعاصرة، باريس)



شاطئ سالونيك في سنة 1912، عندما سقطت البلدة بأيدي اليونانيين.
(بإذن من مكتبة الوثائق الدولية المعاصرة، باريس)



أحمد باشا عزت، سوري حظي بنفوذ في بلاط
السلطان عبد الحميد، وصاحب فكرة سكة حديد
الحجاز التي تربط دمشق بالمدينة. وقد صدر
الأمر السلطاني ببناء سكة الحديد في 2 أيار/مايو
1900. (بإذن من الدكتور صباح قباني)



السلطان عبد الحميد في عربته، قبيل خلعته في سنة 1909.

Villa Allatini — Lieu d'internement de l'ex-sultan

سرك يادگاري

Souvenir de Salonique



فيلا اللاتيني في سالونيك، حيث احتجزت تركيا الفتاة السلطان عبد الحميد المخلوع. أرسلت هذه البطاقة البريدية من سالونيك إلى مدينة نيويورك في 22 حزيران/يونيو 1912، وتذكر البطاقة: "السلطان السابق يخضع لمراقبة شديدة هنا ولا يسمح باقتراب أحد إلى المنزل. يغير الحرس كل شهر لتجنب الرشوة". توقيع مونتي.
(من مجموعة عائلة أوتراكجي على الموقع الإلكتروني www.creativesyria.com)



ضحايا المجاعة التي قتلت نصف مليون نسمة في لبنان في سنة 1915.

(بإذن من جوزيف ج. الشامي *The Book of Syria: Photos from Syrian Life, Damascus 2005*)



الشريف الحسين بن علي (1845-1931)،
آخر الحكام الهاشميين للحجاز. بوصفه
شريعاً وأميراً لمكة، 17-1908، دعا
إلى الثورة على العثمانيين في سنة 1916،
واتخذ لقب ملك الحجاز. طُرد من الحجاز
في سنة 1925 في أعقاب هزيمته أمام
عبد العزيز بن سعود، مؤسس المملكة العربية
السعودية. توفي في عمان ودفن في القدس.



قاد البطريرك الماروني إلياس الحويك وفداً من المطارنة في سنة 1919 إلى مؤتمر السلام في باريس،
حيث دعا إلى توسيع جبل لبنان إلى حدود سنة 1861. (بإذن من غسان تويني وجريدة النهار)



بعد أن خدم ضابطاً في الجيش العثماني، التحق يوسف العظمة (1883-1920) بالثورة العربية وأصبح وزيراً للدفاع في حكومة الأمير فيصل. استشهد في معركة ميسلون، على بعد 18 كيلومتراً غرب دمشق، في 4 تموز/يوليو 1920، عندما هُزم جيشه الصغير من المتطوعين أمام الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال هنري غورو. (بإذن من سامي مبيض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory.com)

الأمير فيصل في سنة 1919 في مؤتمر السلام في باريس. يعتقد أن زوجة الرئيس الأميركي وودرو ويلسون التقطت هذه الصورة الفوتوغرافية. (بإذن من مجلس أمناء مركز أمناء ليدل هارت للأرشيف العسكري، كنغز كولدج، لندن)



ونستون تشرشل، وزير المستعمرات في ذلك الوقت، وزوجته كليمنتين، في القدس في سنة 1921، مع الأمير الهاشمي عبد الله، حاكم شرق الأردن. (بإذن من متحف الحرب الإمبراطوري)



تتويج الأمير فيصل ملكاً على العراق في سنة 1921. من اليسار إلى اليمين، السير بيرسي كوكس، المندوب السامي البريطاني؛ تحسين قدري، مساعد الملك (صديق رياض الصلح منذ أيام استانبول، والسفير العراقي النافذ في بيروت في وقت لاحق)؛ والملك فيصل؛ والسير أيلمار هالدين، القائد العسكري البريطاني؛ وسيد حسين أفنان، الأمين العام لمجلس الوزراء. (بازن من أرشيف الشرق الأوسط في كلية سانت أنطوني، أكسفورد. المصور الفوتوغرافي: كريم)



من 1919 إلى 1931، كانت ساحة بيروت الرئيسية تسمى ساحة المدافع، إذ إن القوات الفرنسية التي أرسلت إلى لبنان في أعقاب مجازر سنة 1860 عسكرت هناك بمدافعها الثقيلة. ثم أطلق عليها اسم ساحة الشهداء تكريماً لذكرى الوطنيين الذين شنعهم جمال باشا هناك. دُمّرت الساحة في سنوات 1975 - 1990. (بازن من غسان تويني، ودار النهار، ناشرة كتابه "البرج").



ساحة المرجة في دمشق في أواخر العشرينيات.
أقيم العمود للاحتفاء بإنشاء الاتصالات التلغرافية بين سوريا والمدينة ومكة في الحجاز.
(بإذن من عامر بدر حسون وناشر كتابه *Book of Syria, Damascus 2005*)



المؤتمر السوري الفلسطيني في أثناء انعقاده في جنيف سنة 1921. كان أول احتجاج عربي منظم على الانتداب. في الطاولة المركزية العليا يجلس الأمير ميشال لطف الله، رئيس المؤتمر؛ وعن يمينه الشيخ رشيد رضا، نائب الرئيس. وفي الطرف البعيد للطاولة الجانبية إلى يمينهما، جلس الأمير شبيب أرسلان، الأمين العام للمؤتمر. يجلس رياض الصلح إلى الطاولة المقابلة، الثاني من اليمين عند الطرف القريب. وجلس إلى الطاولة الصغيرة في الوسط علي الغاياتي، الصحافي الوحيد الذي سمح له بمتابعة وقائع المؤتمر من داخل قاعة الاجتماع. (من مجموعة عائلة أوتراكجي على الموقع الإلكتروني www.creativesyria.com)



الأمير الدرزي شبيب أرسلان (1869-1946)، وهو ناشط سياسي إسلامي وأديب بارز. نفاه الفرنسيون من لبنان، وأمضى معظم سنوات ما بين الحربين في الضغط في عصبة الأمم في جنيف لصالح القضيتين الإسلامية والعربية. ومن زملائه المقربين إحسان الجابري، رئيس ديوان الأمير فيصل سابقاً، ورياض الصلح.



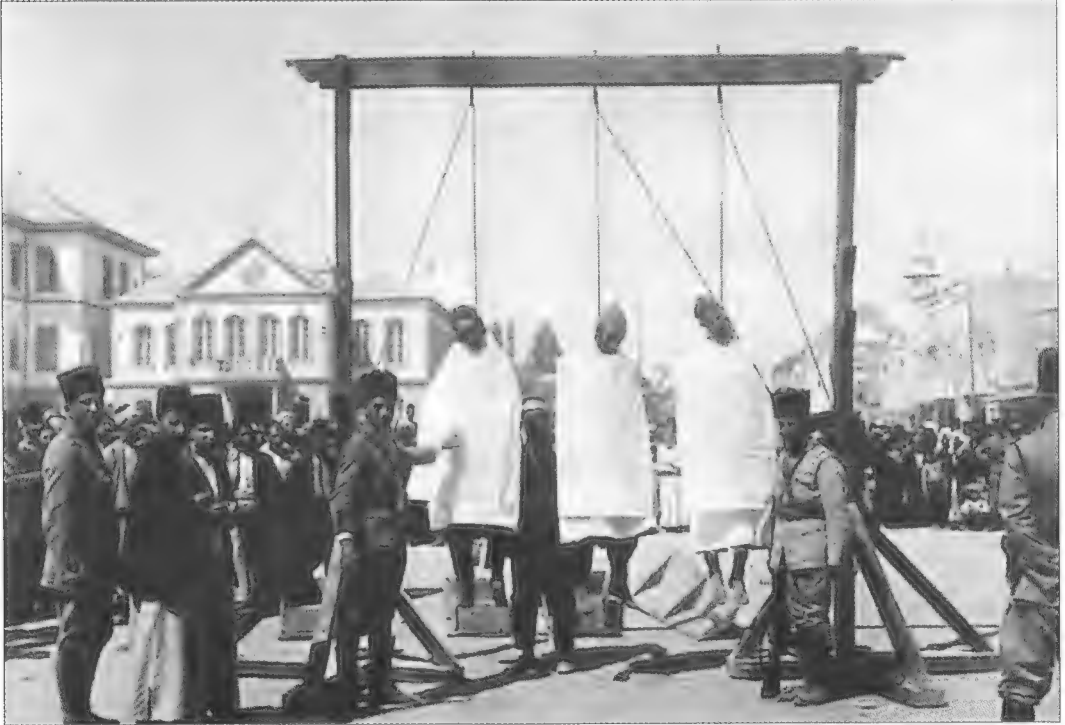
الجنرال موريس ويغان (1856-1929)، المفوض
السامي الفرنسي الذي حاول إدخال إصلاحات ليبرالية
في سوريا، لكنه انتهى إلى إصدار الأوامر بقصف
دمشق في سنة 1925. (بإذن من سامي المبيض
على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory.com)



الزعيم الدرزي سلطان باشا الأطرش (1891-1982)،
في المنفى القاسي بعد أن أحمَد الفرنسيون الثورة
السورية الكبرى (1925-27)، التي ألهمها وقادها.
(بإذن من دائرة التصوير الفوتوغرافي في المستعمرة
الأميركية في القدس)



الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (1880-1940)، طبيب ووطني
سوري بارز ذو آراء متشددة، انضم إلى سلطان باشا الأطرش
في الثورة السورية الكبرى في سنة 1925، وساعد في نشرها
من جبل الدروز إلى بقية المناطق السورية. سجن في جزيرة
أرواد على الساحل السوري. اغتيل في سنة 1940 في ظروف
غامضة. (بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني
(www.syrianhistory.com



الفرنسيون يشنقون ثلاثة وطنيين في ساحة المرجة في دمشق خلال الثورة السورية الكبرى (1925-27). غالباً ما كانت
الجثث تترك معلقة لترهيب السكان. (بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني (www.syrianhistory.com



فوزي القاوقجي (1890-1977)، وطني عربي متحمس، قاتل الفرنسيين في سوريا في سنوات 1925-27، والبريطانيين في فلسطين في سنوات 1936-39، والبريطانيين في العراق في أثناء انقلاب رشيد عالي الكيلاني في سنة 1940. في الحرب العربية الإسرائيلية في سنة 1948، قاد جيش الإنقاذ المكون من المتطوعين العرب وشارك في هزيمة العرب. (بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory.com)



الشيخ تاج الدين الحسيني (1885-1943)،
سياسي سوري مؤيد للفرنسيين، وقد خدمهم
مراراً بصفته رئيساً للوزراء ورئيساً مؤقتاً
للدولة في سنوات 1928-31، ورئيساً لسوريا
في سنوات 1941-43. ندد به الوطنيون، لا سيما
رياض الصلح الذي تربطه به صلة قرابة بعيدة.
(بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني
(www.syrianhistory.com



فوزي الغزي (1891-1929)، محام وسياسي
بارز مناهض للفرنسيين، كسب شهرة واسعة
بصياغة دستور في أعقاب انتصار الوطنيين في
انتخابات نيسان/أبريل 1928. وبما أن مشروع
الدستور الذي صاغه لا يذكر الانتداب، فقد
رفضه الفرنسيون غاضبين. وبعيد ذلك قُتل
الغزي مسموماً. اتهمت زوجته بقتله وحكم
عليها بالسجن مدة طويلة، لكن الجريمة نسبت
إلى عملاء فرنسيين (بإذن من الدكتور صباح
قباتي)



رياض الصلح في دمشق نحو سنة 1932، مع حلفائه السياسيين المقربين من قادة الكتلة الوطنية السورية.
الصف الأول من اليسار: سعد الله الجابري، فارس الخوري، إبراهيم هنانو، هاشم الأتاسي، رياض الصلح،
شخصان غير معروفين، جميل مردم بك. الصف الثاني من اليسار: سعيد الغزي، عبد الرحمن الكيالي،
شخص غير معروف. الصف الثالث من اليسار: شخص غير معروف، نجيب الرئيس، فايز الخوري،
شخص غير معروف، زكي الخطيب، توفيق الشيشكلي، نصوح بابيل، مظهر رسلان، نعيم أنطاكي،
إحسان الشریف، شكري القوتلي. (بإذن من الدكتور صباح قباني)



رياض الصلح في الحبس المنزلي في سنة 1935 في القامشلي، وهي مدينة في شمال شرق سوريا نفاه إليها المفوض السامي الفرنسي داميان دو مارتيل بسبب دعمه نقابات العمال الوليدة (بإذن من غسان تويني وجريدة النهار)



رياض الصلح (مرتدياً قبعة في أقصى اليسار)، مع الوفد السوري الذي قدم إلى باريس في سنة 1936 للتفاوض على إبرام معاهدة مع فرنسا. (من مجموعة عائلة أوتراكجي على الموقع www.creativesyria.com)



التوقيع على المعاهدة الفرنسية السورية المشؤومة في 9 أيلول/سبتمبر 1936 في قاعة الساعة في وزارة الخارجية الفرنسية. تكون الوفد السوري من أدمون حمصي ومصطفى القصري، بالإضافة إلى أربعة من القادة الوطنيين البارزين: سعد الله الجابري، وجميل مردم بيك، وفارس الخوري، وهاشم الأتاسي (وقع على الوثيقة). إلى جانبه بيار فياتو، وزير الدولة في وزارة الخارجية، الذي أجرى المفاوضات مع السوريين. وعن يسار فياتو، يجلس رئيس الوزراء الفرنسي ليوم بلوم، رئيس وزراء الفرنسي وزعيم الجبهة الشعبية الفرنسية. (بإذن من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية)



لعب الحاج أمين الحسيني (1895-1974)، مفتي القدس الأكبر بين سنتي 1921 و1948، دوراً بارزاً في مواجهة الصهيونية. وقف إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الثانية اعتقاداً منه أن الانتصار الألماني سيوقف تدفق الهجرة اليهودية إلى فلسطين. (أعيد نشرها من الموقع الإلكتروني www.passia.org بإذن من محمد أبو رميلة، مدير الموقع)



إميل إده (1884-1949)، محام وسياسي ماروني مؤيد للفرنسيين، شغل منصب رئيس لبنان بين سنتي 1936 و1941. انتخب منافسه اللدود بشارة الخوري رئيساً في سنة 1943، فعين رياض الصلح رئيساً للوزراء (التقط الصورة جون فيلبس لمجلة "لايف"، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 1943، حقوق النشر شركة تايم)



قائد الجنرال هنري فرناتد دنتر، المفوض السامي الفرنسي على سوريا لحكومة فيشي، القوات التي قاتلت البريطانيين والفرنسيين الأحرار في الحرب المريعة في سنة 1941. (بإذن من سامي المبيض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory.com)



الجنرال ديغول متفقد القوات القبلية في أثناء جولته الملكية على سوريا في سنة 1942. (بإذن من مكتبة الوثائق الدولية المعاصرة، باريس)



الرئيس اللبناني بشارة الخوري مع أعضاء حكومة رياض الصلح الأولى في سنة 1943. من اليمين إلى اليسار:
عادل عسيران، كميل شمعون، حبيب أبي شهلا، الرئيس بشارة الخوري، رياض الصلح، سليم تقلا، الأمير مجيد أرسلان.
(بإذن من غسان تويني ودار النهار، ناشرة كتاب *Le Livre de l'indépendance*)



رياض الصلح يحيي الحشود من الشرفه عند عودته إلى بيروت في سنة 1943، بعد أن اعتقله الفرنسيون في قلعة راشيا.
(بإذن من معالي السيدة ليلي الصلح حمادة)



الجنرال السير إدوارد سبيرز والجنرال شارل كاترو في بيروت في سنة 1943. كان سبيرز من مؤيدي ديفول المتحمسين، ثم أصبح مؤيداً متحمساً للقضية الوطنية العربية، وقدم لرياض الصلح دعماً كبيراً في نضاله من أجل استقلال لبنان. (بإذن من سامي مبيض على الموقع الإلكتروني www.syrianhistory.com)



حاييم وايزمان (1874-1952)، الزعيم الصهيوني وأول رئيس لدولة إسرائيل. (التقط الصورة برنارد هوفمان، 1943، لمجلة "لايف"، حقوق النشر شركة تايم)



ديفيد بن غوريون (1886-1973)، تحت صورة تيودور هرتزل (مؤسس الحركة الصهيونية)، يتلو بيان إعلان الاستقلال في 14 أيار/مايو، في متحف في تل أبيب. قاد بن غوريون إسرائيل إلى الانتصار في حرب 1948، وترأس الحكومة الإسرائيلية بين سنتي 1948 و1963، باستثناء سنتي 1954-1955. (المصور زلتان كلوغر)



الرئيسان السوري واللبناني
شكري القوتلي وبشارة
الخوري، يحيط بهما رئيسا
الوزراء جميل مردم ورياض
الصلح، في اجتماع في كانون
الثاني/يناير 1947 للاحتفال
بجلاء القوات الفرنسية عن
المشرق. وقد اختاروا موقعاً
تاريخياً عند نهر الكلب، حيث
كان الفاتحون يتركون آثارهم.
(بإذن من غسان تويني ودار
النهار، ناشرة كتاب *Le Livre*
(de l'indépendance)



رياض الصلح مع ضباط لبنانيين في الأربعينيات (بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



رياض الصلح مع سعد الله الجابري (1891 - 1948)، صديق عمره وعم زوجته. شغل سعد الله الجابري منصب رئيس وزراء سوريا بين آب/أغسطس 1943 وتشرين الأول/أكتوبر 1944، وبين تشرين الأول/أكتوبر 1945 وكاتون الأول/ديسمبر 1946. وقد فتحت وفاته المبكرة في سنه السابعة والخمسين الطريق أمام شكري القوتلي لقيادة الوطنيين. (بإذن من معالي السيدة ليلى الصلح حمادة)



انتخب شكري القوتلي (1891-1967) رئيساً لسوريا في سنة 1943، ثم أعيد انتخابه في سنة 1948. وقد أطاح به العقيد حسني الزعيم في انقلاب عسكري في آذار/مارس 1949. ويظهر في الصورة توفيق القباني، التاجر السوري الوطني من حي الشاغور، ووالد الشاعر نزار قباني (بإذن من الدكتور صباح قباني)



الرئيس بشارة الخوري
ورياض الصلح مع العقيد
حسني الزعيم، قائد أول
انقلاب عسكري في سوريا في
سنة 1949. وقد أطاح ضابط
آخر بالزعيم نفسه وقتله بعد
أربعة أشهر ونصف الشهر.
(بإذن من معالي السيدة ليلى
الصلح حمادة)



أنطون سعادة (1904-1949)، مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي وقائده، في قاعة المحكمة في بيروت قبيل إصدار حكم الإعدام بحقه بتهمة التمرد في سنة 1949. وقد أعدم بعد ساعات قليلة رمياً بالرصاص. (بإذن من غسان تويني وجريدة النهار)



الرئيس بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح في بيروت في أواخر الأربعينيات.
(بإذن من معالي السيدة ليلي الصلح حمادة)



الملك عبد العزيز آل سعود ورياض الصلح، في أثناء زيارة قام بها الأخير إلى المملكة العربية السعودية في الأربعينيات. (بإذن من حفيدهما، صاحب السمو الملكي الوليد بن طلال)



رياض الصلح في سن السادسة والخمسين، في سنة 1950، رئيساً لوزراء لبنان.



رياض الصلح في السابعة والخمسين من العمر، مع ثلاث من بناته الخمس
(من اليمين إلى اليسار، علياء ولمياء ومنى)، قبيل وفاته.

المعركة الحاسمة

في 21 أيلول/سبتمبر 1943، أي يوم انتخاب بشارة الخوري رئيساً للجمهورية اللبنانية، توجه رياض الصلح للاجتماع بجيفري فيرلونج، مستشار سبيرز السياسي. كان يعلم مسبقاً أنه سيعين رئيساً للوزراء في اليوم التالي، وأراد إطلاع فيرلونج على رؤيته للأوضاع، بالإضافة إلى السياسات التي ينوي اعتمادها. وليس هناك أفضل من هذا المثال لإيضاح علاقات العمل التي أقامها رياض مع بعثة سبيرز الدبلوماسية. فقد اعتاد رؤية فيرلونج أو مساعده الكابتن مارون عرب كل يوم تقريباً، بالإضافة إلى عقد اجتماعات منتظمة مع سبيرز. كما تحالف الرجال معاً في الإعداد للمعركة الحاسمة لكسر قبضة الفرنسيين على المشرق، وتشاركاً معلوماًهما ونسقاً استراتيجيتهما.

أبلغ رياض فيرلونج أنه ينوي التحرك بسرعة للحصول على أكبر قدر من التنازلات الفرنسية في أقصر وقت ممكن. فالفرنسيون أضعف مما كانوا عليه في أي وقت مضى، لكن لا يمكن توقع استمرار المزاج القتالي لمجلس النواب اللبناني أكثر من بضعة أشهر. لم يكن يريد أن يملي عليه الفرنسيون أسماء الوزراء، لكنه يعتزم اتباع سياسة حازمة منذ البداية وأن يشكل حكومة تمتاز بأكبر قدر ممكن من استقلالية الرأي⁽¹⁾. سرّ سبيرز عندما تأكد تعيين رياض، وكتب إلى هارولد ماكميلان، الممثل البريطاني في لجنة ديغول للتحرير الوطني في الجزائر: "لا شك في أنه الأفضل بين عدد محدود جداً من المسلمين السنة". كان سبيرز يدرك أن رياض الصلح أبغض شخص إلى نفس ديغول، وأنه العدو الذي تجرأ على تحدّي الوجود الفرنسي في المشرق. لذا أراد تزويد ماكميلان بالدخيرة المناسبة لمواجهة الاعتراضات الفرنسية على تعيين رياض⁽²⁾.

.G.W. Furlong to Spears, 21 September 1943 (FO 226/241) (1)

.Spears to Resident Minister, Algiers, 24 September 1943 (FO 660/36) (2)

في 25 أيلول/سبتمبر، شكّل رياض حكومته، وتكوّنت منه رئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للمالية، ومن حبيب أبي شهلا (روم أرثوذكس) نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للعدلية والتربية الوطنية. كان أبي شهلا عضواً في الكتلة الوطنية التي يتزعمها إميل إده، ولكنه يحمل أفكاراً تقدمية أكثر مما يحمله إده بشأن موضوع الوحدة العربية المهم والمثير للجدل. أما الوزراء الأربعة الباقون فهم: سليم تقلا (كاثوليكي)، وزيراً للخارجية والأشغال العامة؛ وكميل شمعون (ماروني)، وزيراً للداخلية والبريد والبرق؛ والأمير مجيد أرسلان (درزي)، وزيراً للدفاع والصحة والإسعاف العام؛ وعادل عسيران (شيوعي)، وزيراً للإعاشة والتجارة والصناعة والاقتصاد الوطني. وهكذا تم تمثيل جميع الطوائف الرئيسية. أبلغ سبيرز وزارة الخارجية أن الحكومة الجديدة "قوية ومتجانسة". وأضاف أن "تعيين شمعون وزيراً للداخلية خطوة ممتازة ومحسوبة جيداً، بالنظر إلى نزاهته الشديدة، للقضاء على نظام المحسوبية الإدارية الذي أدى إلى انعدام الكفاءة في الماضي". كان شمعون من السياسيين اللبنانيين المفضلين لدى سبيرز. فهو وزوجته يبدوان بريطانيين جداً، كما كان سبيرز يحب القول مازحاً. ولكنه في الواقع كان يعتمد على شمعون "للقضاء على الشبكة السرية التي أوقع الفرنسيون البلد في أشراكها"⁽¹⁾.

لم يخف سبيرز ارتياحه لتشكيل حكومة رياض الصلح، ولا إحساسه أنها من إنجازاته الشخصية. وهنأ نفسه لأنها ثمرة جهده الشخصي إلى حدّ كبير. فكتب إلى ريتشارد كيسسي، وزير الدولة البريطاني في القاهرة (وحليفه ضد مؤيدي فرنسا المترددين في وزارة الخارجية)، في 28 أيلول/سبتمبر:

إن تعيين حكومة رياض الصلح يعني أن كل شيء انتهى إلى أفضل بكثير مما كنت أحرؤ على الأمل به. كنت أشعر طوال الوقت أنني أنني بيتاً من ورق اللعب، وأن إضافة ورقة أخرى يمكن أن تهدم البناء بأكمله، مع ذلك لا يتحقق شيء قبل وضع الطبقة الأخيرة في موضعها.

من المثير للاهتمام مراقبة حجم الإرباك الفرنسي التام في لبنان. لم يتفهم المال الذي أنفقوه، والضغط الذي مارسوه، والغش العلني في الانتخابات...

لديّ انطباع أن الفرنسيين يشعرون بجدوء شديد وأنهم يتبادلون التّهم بشأن المناورات الخاطئة. أما نحن فنجلس مطمئنين في هذه الأثناء⁽¹⁾.

خطاب رياض التاريخي

حظي البيان الوزاري الذي ألقاه رياض الصلح في 7 تشرين الأول/أكتوبر بترحيب البرلمان والبلد بشكل عام، وكرّس سمعته أنه مهندس الاستقلال اللبناني. كان خطاباً طويلاً ومكتوباً بعناية، وأعطاه رياض نبرة جدّية بإعلانه منذ البداية بأن "العهد الذي دخله لبنان اليوم، عهد دقيق خطير، لم يستقبل مثله من قبل". فشكّل ذلك تنبيهاً إلى أن المعركة مع الفرنسيين توشك أن تبدأ. وقال إن الانتخابات جعلت الشعب اللبناني المصدر الحقيقي للسلطة لأول مرة منذ عشرين عاماً، وبالتالي مهّدت الطريق للاستقلال الحقيقي.

قال رياض، "إننا نريد هذا الاستقلال استقلالاً صحيحاً، ونريد سيادتنا الوطنية كاملة، نتصرف بمقدّراتنا كما نشاء وكما تقتضي مصلحتنا الوطنية دون سواها. هذا هو عنوان سياسة هذه الحكومة التي كان لي الشرف بتأليفها ورئاستها".

وتابع رياض الصلح ملخصاً التغييرات الأساسية التي يعتزم القيام بها. ومنها إصلاح الدستور لإزالة البنود التي لا يتفق وجودها مع قيام الاستقلال، وفيها ما يجعل لغير الشعب اللبناني - أي الفرنسيين - سلطة في تسيير شؤونهم. وأن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة بدلاً من اللغتين الفرنسية والعربية. واقترحت حكومته، بالاتفاق مع سوريا، أن تتولى إدارة ما يعرف باسم المصالح المشتركة التي سعت فرنسا جاهدة للاحتفاظ بها؛ وهي مجموعة أنشطة منتجة للإيرادات وذات أهمية حيوية للبنان وسوريا - إدارة الجمارك، والسكك الحديدية، وإدارة حصر التبغ والتبّاك، والموانئ، وشبكة الهاتف، ومصلحة الآثار.

كرّر رياض لفظة "الاستقلال" ثلاثين مرة تقريباً في خطابه. لم يطلب الاستقلال أو ينتظر موافقة فرنسا عليه، أو أن تمنحه القوى الكبرى، بل أجمل الخطوات المحددة لتحقيقه وهذا ما ميّز الخطاب⁽²⁾.

(1) Spears to R.G. Casey, Minister of State, Cairo, 28 September 1943 (FO 226/241)

(2) Ghassan Tuéni, *Le Livre de l'Indépendance*, Beirut 2002, p 30

كان مجلس النواب متلهّفاً لسماع ما سيقوله رياض بشأن علاقة لبنان بالعالم العربي، لأنها طالما كانت مصدراً رئيسياً للخلاف بين المسلمين والمسيحيين، ولم يحب ظنه. أعلن رياض أن موقع لبنان الجغرافي "ولغة قومه وثقافته وتاريخه وظروفه الاقتصادية تجعله يضع علاقاته بالدول العربية الشقيقة في طليعة اهتمامه". لكنه أضاف: "وستُقبل الحكومة على إقامة هذه العلاقات على أسس متينة تكفل احترام الدول العربية لاستقلال لبنان وسيادته التامة وسلامة حدوده الحاضرة، فلبنان وطن ذو وجه عربي يستسيع الخير النافع من حضارة الغرب".

استُقبلت العبارة الأخيرة بالكثير من الترحيب في المجلس لأنها تحمل التسوية التاريخية بين المسلمين والمسيحيين وتقع في صلب الميثاق الوطني. تابع رياض قائلاً: إن إخواننا في الأقطار العربية لا يريدون للبنان إلا ما يريده أبنائهم الأباة الوطنيون، نحن لا نريده للاستعمار مُستقراً، وهم لا يريدونه للاستعمار إليهم ممرّاً، فنحن وهم إذن نريده وطناً عزيزاً مستقلاً سيداً حراً.

لقد كانت رسالة ذكية لطمأنة الطوائف اللبنانية المتعددة والبلدان العربية المجاورة على حدّ سواء.

يحدّث رياض عن كثير من الموضوعات الأخرى. وعد بإصلاح قانون الانتخاب وإجراء إحصاء عام للسكان (وهو موضوع متفجّر دائماً في لبنان، حيث تمسك المسيحيون بالمحافظة على أكثريتهم المتزايدة المشاشة). ودعا إلى معالجة الطائفية التي تقيد التقدم الوطني وتشوّه سمعة لبنان، وتسمّ روح العلاقات بين الجماعات الروحية المتعددة التي يتألف منها الشعب اللبناني. وتحدّث عن الإصلاح الإداري وأكد على استقلال القضاء. وقال إنه سيسعى إلى تأمين المقادير اللازمة من الحبوب، ومعالجة تكلفة المعيشة، وتحسين المواصلات ودعم الزراعة. كما أمل بتأمين العدالة الاجتماعية، ودعم المرأة، وتحسين الصحافة والنظام التعليمي، بالإضافة إلى التواصل مع المغتربين اللبنانيين وتحرير جميع المعتقلين السياسيين. وقال: "ومن أعرف مني بما يقاسيه المعتقلون، من بؤس وألم وما يكابدونه من عناء وسقم، وأنا الذي قضى من حياته في المعتقلات شطراً وفي المنافي شطراً... ونحن لن نغضب لنا عيون حتى يعود آخر معتقل إلى وطنه وأهله".

وأبدى رياض ارتياحه إلى اعتراف مصر بلبنان دولة مستقلة، وهو قرار ذو منفعة كبيرة للبنان، وعبر عن شكره "للشقيقة مصر" حكومة وشعباً. أما مع فرنسا، "التي تربطنا وإياها روابط الصداقة" ومع الدول الخليفة مثل بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، فإن حكومته ستتابع أحسن الصلات المبنية على الودّ والاحترام.

منح البرلمان الثقة لرياض الصلح بأغلبية كبيرة. كان ذلك انتصاراً شخصياً هائلاً له. امتنع نائب واحد، وهو ألفرد نقاش، عن التصويت، وحجب الدكتور أيوب ثابت الثقة عن الحكومة، وغادر قبل أن تطرح الثقة على المجلس. وقد حرص رياض على عدم إثارة الفرنسيين، فلم يذكر في خطابه الأمن العام أو ضباط القوات الخاصة المكروهين أو المحاكم المختلطة أو الشركات الامتيازية التي أراد مؤيدوه الأكثر حماسة أن يهاجمها.

حاولت المعارضة إرجاء التصويت على الثقة في النقاش المطول الذي تبع خطاب رياض، لكن اقتراحها سقط وتم التصويت. علّق بلغريف، المسؤول السياسي البريطاني بالوكالة، قائلاً إن الجلسة التاريخية "أثبتت قدرة البرلمان الفتي على الكلام، وعلينا أن نتنظر لنعرف مقدار قدرته على المشي"⁽¹⁾. سارع سبيرز إلى تمثنته رياض على خطابه الأول - وكان قد اطلع على موضوعاته الرئيسية من قبل - وتلقّى رداً فورياً من رياض عبر فيه عن تقديره الكبير للمساعدة القيّمة التي قدّمها سبيرز، واعتماده على دعمه في المستقبل. "إنني أعتد في تنفيذ المهمة التي اضطلعت بها على دعم جميع أصدقاء لبنان، وأنت في مقدمتهم".

الجولة الأولى

استشاط الفرنسيون غضباً من الخطاب. وبعد مرور خمسة أيام على إلقائه، اضطر جان هيلو، المندوب العام، ومستشاره الرئيسيان، شاتنيو وبوغنير، إلى تناول العشاء مع بشارة الخوري ورياض الصلح. لم يكن غضب الفرنسيين قد هدا بعد ولم يكن العشاء ودياً. وعندما أثار بشارة مسألة التنازلات التي يتوقع من الفرنسيين تقديمها بغية تحقيق الاستقلال، ردّ هيلو - بناء على أوامر ديغول التي نقلها شاتنيو العائد حديثاً من الجزائر - أنه لا يمكن منح أي شيء إلى أن ينتهي الانتداب بتوقيع معاهدة.

Squadron Leader R. Belgrave, Acting Political Officer, to Foreign Office, 8 (1)
October 1943 (FO 226/241)

بإذن خاص من Cambridge University Press



الشرق الأوسط المعاصر.

احتج رياض على الفور بأن الفرنسيين أنفسهم أعلنوا استقلال لبنان سنة 1941، قبل ورود أي حديث عن معاهدة لإنهاء الانتداب. لم يستطع هيلو إنكار الأمر، لكنه أصرّ على عدم انتقال السلطة خلال الحرب. فسأل رياض: "ما علاقة الحرب بذلك؟" ففي النهاية، لن يؤثر توقيع المعاهدة على موقف لبنان في ما يتعلق بالحرب التي تدور رحاها. بدأت تظهر عندئذ علامات الانزعاج والإحراج على هيلو، وكرّر أن الفرنسيين مستعدون لتوقيع معاهدة على الفور. لكن رياض أجاب بأن اللجنة الفرنسية في الجزائر لا تستطيع توقيع معاهدات باسم فرنسا، فاعترض هيلو بأنه والجنرال ديغول يقسمان بشرفهما أن فرنسا ستصدق لاحقاً على أي وثيقة توقع الآن. سارع رياض إلى تذكيره أن البرلمان الفرنسي لم يعترف بمعاهدة 1936، على الرغم من توقيع الحكومة الفرنسية عليها، فكيف تستطيع اللجنة الفرنسية تقديم مثل هذه الضمانات؟ لم يتمكن هيلو من الإجابة عن هذا السؤال الواضح.

أكّد بشارة ورياض الصلح لهيلو أنهما وطنيان ملتزمان أمام شعبيهما بتنفيذ برنامجهما الوطني. وسيصرّ البرلمان على الوفاء بالتزاماتهما أو الاستقالة، لذا فإن التنازلات الفرنسية ضرورية. لم يجد هيلو ما يقوله سوى إن عليهما "اتباع الحكمة في الحكم". غضب بشارة ورياض من اعتزازه بعدم إبداء المرونة فأعلنا أنهما يفضلان أن تقطع بينهما على توقيع أي معاهدة مع الفرنسيين! وانتهى العشاء الصعب بهذا التحدي.

روى رياض على مسامع سبيرز المأزق الذي وصل إليه مع الفرنسيين، وهو في حالة قريية من اليأس. وأبلغه أن الفرنسيين يتهمون بريطانيا بأنها العقبة الحقيقية أمام استقلال لبنان. ففي أثناء نقاش رياض وبشارة مع هيلو، أحمك بوغوير، الجالس في الجانب البعيد من مائدة العشاء، في إبلاغ وزير لبناني أن بريطانيا تسعى إلى تحقيق استقلال لبنان بغية السيطرة على المشرق لنفسها. وتوقع إلغاء استقلال لبنان في ما بعد بالتأكيد⁽¹⁾!

بدأ سبيرز يخشى من عدم قدرة رياض الصلح على البقاء في المواجهة المباشرة مع الفرنسيين. وأبدى بعض المسؤولين البريطانيين قلقهم لأن رياض يتحرك بسرعة مفرطة. وخشي بلغريف، المسؤول السياسي الحذر، من احتمال أن تؤدي سرعة رياض

المفرطة إلى "سقوط السيارة اللبنانية الجديدة في الهاوية"⁽¹⁾. لكن رياض أصّر بعناد على تعديل الدستور بسرعة. حذر سبيرز، ذو البصيرة النافذة، لندن من أن الفرنسيين سيواجهون معارضة صلبة من الحكومتين اللبنانية والسورية إذا أصروا على "موقفهم المتصلّب غير المبرّر البتة". فليس لدى الحكومتين أي استعداد للانخداغ بعروض المعاهدة؛ كما أن الرأي العام اللبناني ثائر في هذا الشأن. حثّ سبيرز لندن على محاولة إقناع رينيه ماسيغلي Rene Massigli، مفوض الشؤون الخارجية لدى ديغول، بأن الفرنسيين مُقدمون على "كارثة كبرى" في المشرق إذا واصلوا مسارهم الحالي.

أرسل د. و. لاسلس D.W. Lascelles، وهو أحد أعضاء بعثة سبيرز، تقريراً من دمشق بأن العشاء السوري الفرنسي لم تكن نتائجه أفضل من ذلك الذي عقد في بيروت. فقد أصّر هِللو مع السوريين، كما فعل مع اللبنانيين، على عدم تقديم أي تنازلات فرنسية إلا بعد توقيع معاهدة⁽²⁾.

الجولة الثانية

ازدادت العلاقات الفرنسية اللبنانية سوءاً عندما كتب هِللو، في 22 تشرين الأول/أكتوبر، رسالة إلى بشارة الخوري تنصّ صراحة على أن فرنسا لن توافق على التعديلات الدستورية التي سيجريها رياض الصلح، لأن "التعهد الدولي" لا يمكن أن يُلغى بقرار من جانب واحد! وأكد أن الانتداب لا يزال قائماً قانونياً لأن عصبة الأمم لم تُعفى فرنسا منه. وهدّد بحدوث "عواقب وخيمة" إذا نفّذت التعديلات المقترحة. ردّ رياض على هذا التهديد غير اللائق بحزم بالطلب من إيف شاتنيو، نائب هِللو، الحصول على صلاحية من رؤسائه لسحب الرسالة. وفي الوقت نفسه سلّمه رسالة رسمية تحتوي على ثلاثة مطالب محددة:

1. تحويل التدويية العامة إلى بعثة دبلوماسية "تتوافق مع استقلال لبنان".
2. إناطة ممارسة جميع مظاهر السيادة على الأراضي اللبنانية بالسلطات الدستورية اللبنانية فحسب.

(1) British Consulate General, Beirut, to Foreign Office, 1 October 1943 (FO 226/241)

(2) D.W. Lascelles to Spears 21 October 1943 (FO 226/241)

3. تولّى الحكومة اللبنانية إدارة جميع المصالح والهيئات التي تديرها المندوبية العامة حالياً باسم لبنان. واتفاق سوريا ولبنان على إدارة عائدات المصالح المشتركة في ما بينهما.

اتّسمت الرسالة بالحزم، لكنها صيغت بلغة لطيفة. وتماشياً مع الخطوة اللبنانية، أرسلت الحكومة السورية رسالة مماثلة إلى هللو. اعترف شاتنيو بعدم معرفته بوجود رسالة هللو التهديدية، وتعهّد بإثارة المسألة معه قبل مغادرته إلى الجزائر صباح 28 تشرين الأول/أكتوبر. وفي مساء 27 تشرين الأول/أكتوبر، أبلغ رياض أن رسالة هللو لن تُسحب. فردّ رياض بأنه سينشر الرسالة في هذه الحالة، بالإضافة إلى ردّ حكومته عليها.

توصّل رياض إلى قناعة بأن الفرنسيين يحاولون كسب الوقت على أمل وقوع حدث غير متوقع، أو احتمال أن تؤدي نهاية الحرب إلى تقوية موقفهم. وأدرك أن المندوبية تبذل قصارى جهدها لتقويض سلطته بإثارة مخاوف المسيحيين التقليديّة. مع ذلك، أخبر سبيرز أنه مصمّم على السير قدماً بالرغم من المكائد الفرنسية. حدّد رياض يوم الخميس 28 تشرين الأول/أكتوبر موعداً لمناقشة رسالة هللو وردّ حكومته عليها في مجلس النواب. عندئذٍ بعث شاتنيو برسالة عاجلة إلى رياض يطلب منه عدم عرض الرسالتين أمام البرلمان قبل عودة هللو من الجزائر⁽¹⁾.

عندما نُقلت رسالة شاتنيو إلى رياض، ردّ مصحوباً بعرض للألعاب النارية الوطنية:

إنني مصمّم على تنفيذ برنامجي حتى النهاية، بغض النظر عما يحدث، ولو بقيت بمفردي في الميدان. قلت بالأمس إنني كرّست دمي للاستقلال قبل سن البلوغ، وكاد دمي أن يسفك وأنا فتى [إشارة إلى محاكمته من قبل الأتراك]. لن أوفّر دمي الآن وقد أصبحت كهلاً...

أنا لست بمجرّد سياسي، بل أنا محارب! سأنفذ برنامجي، وسأقرأ الرسالتين [في مجلس النواب] وسأفضح كل شيء، إذا ومتى وجدت ذلك ضرورياً...

Spears to Foreign Office, 28 October 1943 (FO 371/35183); Belgrave to Spears 29 October 1943 (FO 226/241) (1)

أنا فخور بأنني أوقدت في قلوب اللبنانيين شعلة الاستقلال التي لن
تخمد أبداً. وأنا فخور لأنني جمعت المسلمين والمسيحيين تحت راية
الاستقلال⁽¹⁾.

الجولة الثالثة

ظهر يوم الجمعة في 5 تشرين الثاني/نوفمبر، دعي الصحفيون في بيروت إلى
السفارة الفرنسية حيث سلّمهم م. غولمييه Goulmier، رئيس الدائرة الصحفية في
المندوبية، بياناً شديداً للهجة صادراً عن اللجنة الفرنسية في الجزائر. وقد نصّ البيان
على أنه لا يمكن إجراء تعديلات على الدستور من دون موافقة السلطات الفرنسية
الصريحة ما دام الانتداب قائماً. وسلّم المسيو دافيد، من المنذوبية في لبنان، الحكومة
نسخة من البيان نفسه.

دعا رياض الوزراء إلى الاجتماع على الفور. فقرّروا أن إدخال تعديلات على
الدستور يقع ضمن صلاحية الحكومة بموجب المادة 76 من الدستور نفسه. ثم وزّعت
التعديلات المقترحة على النواب ظهر السبت في 6 تشرين الثاني/نوفمبر، وحدّد موعد
جلسة مجلس النواب بعد ظهر الاثنين في 8 تشرين الثاني/نوفمبر. غير أن المسيو دافيد
نقل صباح الاثنين رسالة شفوية إلى بشارة الخوري من هِللو في الجزائر يطلب منه
بجدية تأجيل النظر في التعديلات حتى عودته إلى بيروت.

عند تسلّم الرسالة، وجه بشارة دعوة إلى رياض والوزراء للحضور إلى مكتبه.
فقرّروا بالإجماع أن طلب هِللو لا أساس له، وطلبوا من المسيو دافيد الحضور إلى مقر
الرئاسة عند الساعة الثالثة من بعد الظهر لتلقّي الردّ. بعد قراءة بياهم، عبّر دافيد عن
مزيج من الألم والغضب. وقال إنه فشل في مهمته، وسيقدّم استقالته في اليوم التالي.
(لكنه لم يفعل ذلك). وأعلن بحدّة أن التصويت في البرلمان لن يكون حراً، عندما
يتعرّض النواب إلى الضغط الجماهيري. فاقترح رياض عليه بمُدوء أن يقوم بجولة حول
البرلمان للوقوف بنفسه على المدوّء التام في المدينة. بل يمكنه أيضاً حضور المناقشات
للحكم على الجو الذي تجري فيه.

اجتمع مجلس النواب اللبناني عند الثالثة والنصف بعد الظهر وأقرّ التعديلات الدستورية بإجماع ثمانية وأربعين نائباً (امتنع نائبان فقط عن التصويت وانسحب اثنان قبل إجراء التصويت). استقبل رياض الصلح بحفاوة شديدة، وجرت الجلسة بانتظام تام. وأبقت الشرطة اللبنانية الحشود خارج البرلمان تحت السيطرة.

فرض الفرنسيون على الفور حظراً على ذكر المناقشات أو التصويت في الصحف المحلية، ومنعوا صدور أي برقية حول الموضوع⁽¹⁾. شعر رياض بالحاجة إلى الدعم الخارجي في هذه اللحظة الحرجة، فلجأ إلى سبيرز على الفور. وسأل عما إذا كان يمكن طرح سؤال في مجلس العموم لاستصدار بيان من الحكومة البريطانية يدعم التعديلات الدستورية. وقال إن الفرنسيين يبلغون اللبنانيين باستمرار أن البريطانيين سيتخلّون عنهم، لذا فإن أي دليل على العكس سيلقى ترحيباً كبيراً⁽²⁾.

الجولة الرابعة

أدى عناد الجنرال ديغول إلى وضع هلالو في موقف صعب. فهو ضعيف الشخصية ومعتاد على شرب الكحول. ومن المعروف أنه ينسلّ، في لحظات التوتر، لشرب كأس صغير من الويسكي. غير أن ديغول استثار شجاعته، فوصل إلى بيروت يوم الثلاثاء في 9 تشرين الثاني/نوفمبر مستعداً للقتال. كانت خطوته الأولى، وهي صغيرة بحدّ ذاتها، إلغاء الدعوات التي وجهتها المندوبية إلى الوزراء والنواب اللبنانيين لحضور عرض يوم الحدنة، احتفالاً بذكرى انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى في 11 تشرين الثاني/نوفمبر، بالإضافة إلى الحفل المقام في النادي الفرنسي مساء اليوم نفسه. عندما علم بشارة الخوري بهذا الإلغاء الخارج على الأعراف الدبلوماسية، أبلغ المندوبية أنه لن يحضر أيضاً.

دعا سبيرز إلى اجتماع للسلك الدبلوماسي في المفوضية البريطانية عملاً بنصيحة الوزير الأميركي المفوض في بيروت، جورج وادسورث George Wadsworth، حيث

(1) Spears to Foreign Office, 9 November 1943 (FO 371/35183)

R. Belgrave, Consulate General, Beirut, to D.W. Lascelles, British Le-gation, (2) Beirut, 9 November 1943 (FO 226/241)

تقرّر عدم حضور الدبلوماسيين الأجانب الاحتفالات، واقتصار حضور العرض العسكري على الملحقين العسكريين لأنه احتفال بذكرى انتصار الحلفاء. وانتشرت شائعات في بيروت تفيد أن هلالو يعدّ للقيام بانقلاب⁽¹⁾.

في صباح 10 تشرين الثاني/نوفمبر، وجد سبيرز نفسه مع هلالو في أثناء انتظارهما معاً في مطار بيروت لاستقبال ملك يوغوسلافيا الذي يزور لبنان تلبية لدعوة الفرنسيين. تبادلا بضع كلمات، أبدى هلالو الودّ ولم يشر إلى الأزمة. وكان من المنتظر أن يلتقيا ثانية ليلاً في حفل العشاء الذي أقامه سبيرز على شرف الملك، ودعي إليه وزير الخارجية اللبناني سليم تقيلا. أجلس سبيرز الملك إلى يمينه وهلالو إلى يساره. وتمت مناقشة الشأن اللبناني. انتهر سبيرز الفرصة ليسأل هلالو عن نيّاته في ظل الشائعات المقلقة المنتشرة في بيروت، واطمأن عندما تعهّد هلالو بعدم اتخاذ أي تدابير عنيفة قد تخلّ بالنظام العام. وكرّر هلالو تعهده عدة مرات.

عندما غادر الضيوف الرئيسيون، نقل سبيرز ما قاله هلالو إلى تقيلا، فأبلغ تقيلا بدوره بشارة الخوري بأمر الرسالة في الليلة نفسها. وقام الخوري بدوره بإبلاغ رياض الصلح. وهكذا توجه الجميع إلى الفراش مطمئنين⁽²⁾. أمضى زعيم المعارضة إميل إدّه ليلته بمشاهدة مسرحية فرنسية في قاعة الوست هول في الجامعة الأميركية في بيروت. بدا أنه غير مستمتع، وأشار أحد المراقبين إلى أنه كان شاحب اللون ومضطرباً، كما لو أنه يعاني من وعكة صحية⁽³⁾.

الجولة الخامسة

قبل فجر الخميس 11 تشرين الثاني/نوفمبر، داهمت قوّة مشتركة من البحرية الفرنسية والقوات السنغالية الاستعمارية وعملاء من الأمن العام منازل كل من رئيس الجمهورية اللبنانية بشارة الخوري، ورئيس وزرائه رياض الصلح، ووزيري الداخلية كميل شمعون والخارجية سليم تقيلا واعتقلتهم. واعتقل الوزير عادل عسيران في عاليه في وقت لاحق من ذلك اليوم.

(1) Spears to Foreign Office, 10 November 1943 (FO 371/35183).

(2) Spears to Foreign Office 11 November 1943 (FO 226/241).

(3) Tuéni, *Le Livre de l'Indépendance*, p. 36.

اعتُقل بشارة الخوري بوحشية كبيرة. تغلبت القوات الفرنسية على الحراس واقتحموا بيت الرئيس وأخذوا يفتشون الغرف. سمع الرئيس وزوجته ركلات الجنود على الأبواب وضرباتهم بأعقاب البنادق عليها، فحاولوا التحصن في الداخل بدفع سريرهما المعدني خلف الباب. لكنهما عندما سمعا صراخاً آتياً من غرفة ابنتهما البالغة اثني عشر ربيعاً، فأسرعت والدتهما إلى الحمام المحاذي للغرفة لتجد جنديين من البحرية الفرنسية، أحدهما يحمل مسدساً والآخر بندقية تبتت عليها حربة، يسألانها عن مكان والدها. أجابت هوغيت خوري (التي ستصبح رسامة مشهورة في ما بعد) أن والدها نائم في غرفته. صاح الجندي بفظاظة: "هذا ليس صحيحاً. إنه في الطابق العلوي". أجابته الفتاة أن الطابق العلوي ليس له.

في غضون ذلك، فتح باب غرفة الرئيس بالقوة وامتألت الغرفة بالجنود. وصفتهم زوجة الرئيس غاضبة أنهم جناء ومتوحشون، وقالت إن الغستابو ليس بهذه الوحشية. أخرج الضابط المسؤول أمراً موقّعاً من جان هيلو باعتقال الرئيس. لم يكن بشارة الخوري يحمل نظارته، فقرأت زوجته مذكرة التوقيف، ومُنح خمس دقائق ليجهّز نفسه تحت تهديد السلاح. ثم اقتيد بالقوة إلى سيارة متوقفة في الخارج، وما لبثت أن ابتعدت تحت جناح الظلام.

طلب الجنود من زوجة الرئيس أن تفتح لهم الخزانة في غرفة النوم، وإلا فتحوها بالقوة. فاستولوا على بعض الأوراق، ثم قلبوا المنزل رأساً على عقب، وحطموا مقتنيات ثمينة، وخلعوا الأبواب، وقلبوا الأرائك. وعندما غادروا، جاء الخادم باكياً، وقال إنهم سرقوا مذكراته وقدرها 1695 ليرة.

أُجبر ابن الرئيس، خليل، على النزول إلى قبو مظلم، وضُرب بأعقاب البنادق وشُتم. أبقى هناك تحت الحراسة حتى الساعة الخامسة صباحاً. وعندما أطلق سراحه، توجه على الفور إلى الجنرال سبيرز لإيقاظه.

تكرر الأمر نفسه تقريباً في منزل رياض الصلح الذي اقتحمه ثلاثون جندياً، معظمهم سنغاليون. اعتقد رياض وزوجته أنهما سيقتلان. أجبرت فائزة الصلح، وهي امرأة متديّنة لم تخرج يوماً من دون حجاب، على السير حافية في ثياب النوم. واقتيد رياض من فراشه ودُفع به في إحدى السيارات⁽¹⁾.

في اليوم التالي، اقتحم الجنود الفرنسيون والسنغاليون منزل رياض الصلح ثانية، شاهرين أسلحتهم على زوجته وبناته الخمس وقتلوا المنزل. لم يتضح إذا كانوا يبحثون عن شيء محدد أو يضايقون العائلة فقط. بعد هذه الحادثة، انتقلت السيدة فائزة وبناتها إلى مقر إقامة صديق العائلة، القنصل العراقي العام تحسين قدري⁽¹⁾.

فجر 11 تشرين الثاني/نوفمبر، اقتحمت القوات السنغالية بقيادة ضباط فرنسيين منزل عبد الحميد كرامي في طرابلس أيضاً، حيث يعيش مع أخيه وعائلتهما. اقتحم الجنود غرف النوم، وأرهبوا النساء والأطفال بتوجيه أسلحتهم إليهم. جال جنود آخرون في أنحاء المنزل وسلبوا الشوك والملاعق، وضربوا الخدم وسرقوا مذكراتهم. وأمسكوا بعمر بن عبد الحميد الذي لا يزيد عمره على سبع سنوات، صوبوا مسدساتهم على رأسه، وهدّدوا بقتله إذا لم يخبرهم عن مكان والده.

اتفق أن عبد الحميد كرامي كان قد ذهب في اليوم السابق ليتفقد ممتلكاته الجبلية. وعندما عرف الجنود مكان وجوده، توجهوا إلى القرية التي قصدوا. خلعوا باب المنزل الذي ينام فيه، وأيقظوه برؤوس الحراب. عندما عرف أنه سيُعتقل، انحنى لياخذ طقم أسنانه فاصطدم بماسورة بندقية جندي سنغالي، وأصيب بجرح في رأسه. عاث الجنود فساداً في المنزل، وسرقوا كل ما له قيمة، بما في ذلك نظارة كرامي وما وجدوه من نقود. وسُلب مبلغ 28 جنيهاً استرلينياً من أحد خدمه، وهو ثروة صغيرة بالنسبة إليه. اقتيد كرامي، الزعيم والنائب الوطني البارز، بملابس النوم حاسر الرأس - وتلك إهانة لهذا المفتي السابق. وترك مقيد اليدين حتى وصل إلى قلعة راشيا التي تبعد أكثر من 100 كيلومتر جنوب شرق بيروت⁽²⁾.

حاول سبيرز الاتصال بجورج وادسورث، بعدما أيقظه خليل بشارة الخوري بعيد الخامسة صباحاً، لكنه وجد خطه الهاتفية مقطوعاً. سارع إلى مكتبه وتمكّن من الاتصال بريتشارد كيسي، وزير الدولة في القاهرة، عند الساعة السابعة صباحاً وأخبره عما عرفه عن أحداث الليلة السابقة. كان سبيرز غاضباً من العنف الذي مارسه هاللو، فطلب من كيسي منحه صلاحية إعلان الأحكام العرفية، واقترح أن تستولي بريطانيا على الحكم.

(1) Spears to Foreign Office, 15 November 1943 (FO 226/241)

(2) Spears to Foreign Office 29 November 43 (FO 226/242)

غير أن كيسي الأكثر حذراً خشي من احتمال حدوث مواجهة بين الجنود البريطانيين والفرنسيين، فطلب من سبيرز تحذير هلالو من احتمال فرض الأحكام العرفية، والتأكيد على أن اعتقال الرئيس ووزرائه يشكل تهديداً للمصالح البريطانية الاستراتيجية⁽¹⁾.

في الساعة 8 صباحاً، بثت إذاعة بيروت خطاباً لهلالو أعلن فيه أن الوقت قد حان لوضع حدٍّ "لنظام رياض الصلح الديكتاتوري". وأن رياض الصلح صديق للألمان الذين امتدحوه باعتباره زعيماً كبيراً وصفقوا للإجراءات التي اتخذها ضد الفرنسيين. وأشار هلالو إلى أن الصلح أصبح زعيماً وطنياً لبنانياً منذ ستة أسابيع فقط، بعد أن أمضى العشرين عاماً الماضية في التآمر على لبنان. أما وقد أزيح عن الطريق، فإن المحادثات ستبدأ اعتباراً من هذا اليوم في "جو من الصداقة والتعاون" بشأن تنفيذ الوعد الفرنسي بمنح الاستقلال للبنان.

قام الفرنسيون ببيت النشيد الوطني الفرنسي وبيانين رسميين عبر الإذاعة. أعلن في الأول أن التعديلات الدستورية التي أدخلت في 8 تشرين الثاني/نوفمبر تنتهك الدستور والاتفاقات الدولية ولن يُعترف بها، وتُعتبر لاغية من تلك اللحظة. وعُلّق عمل مجلس النواب ووُعد بإجراء انتخابات جديدة. كما وُضعت السلطة التنفيذية بيد رئيس الدولة ورئيس الحكومة الذي سيحكم بموجب مراسيم. وعهد البيان الثاني لإميل إده، الموالي للفرنسيين، باستلام المنصب المزدوج.

سرعان ما اتضح أن هذه التدابير أُتخذت في 8 تشرين الثاني/نوفمبر لأن البياتيين اللذين أذيعا في الحادي عشر مؤرخان في 10 تشرين الثاني/نوفمبر. وشوهد إميل إده، رجل فرنسا في لبنان، في 9 تشرين الثاني/نوفمبر وهو يدخل قصر الصنوبر (لا يزال حتى اليوم المقر الرسمي للسفير الفرنسي) ولم يعد إلى منزله إلا بعد منتصف الليل.

عبر سبيرز عن اشمئزازه مما حصل، وأبلغ وزارة الخارجية أن الشعب بأكمله يعتبر إميل إده خائناً، فطالما ائتمر بأمر فرنسا، وكان عندما تسلّم الرئاسة آخر مرة "فاسداً جداً" ويشته به بأنه يقوم بتهريب المخدرات، على الرغم من عدم ثبوت ذلك قطعاً. لذا لا يمكن الاعتراف به بأي حال من الأحوال⁽²⁾.

(1) Minister of State, Cairo, to Foreign Office, 11 November 1943 (FO 226/241)

(2) Spears to Foreign Office, 11 November 1943 (FO 226/241)

الجولة السادسة

في صباح 11 تشرين الثاني/نوفمبر، قبيل إذاعة بيان هلالو عند الثامنة صباحاً، اجتمع نفر من الرجال في منزل سبيرز. حضر كل من وادسورث وحييب أبي شهلا، نائب رئيس الوزراء، والأمير مجيد أرسلان، وزير الدفاع، وتحسين قدري، القنصل العراقي العام، وكبار المسؤولين البريطانيين. أعلن أبي شهلا الذي بُحا من الاعتقال في تلك الليلة، أنه مصمّم على متابعة القتال، وعبر الأمير مجيد أرسلان - وهو يتميّز بشاربيه المفتولين إلى أعلى اللذين يسهمان في المظهر العسكري لهذا الزعيم الدرزي - عن الشعور نفسه قائلاً إن رجاله في الجبل مستعدّون للقتال.

في اليوم التالي، غادر أبي شهلا وأرسلان العاصمة بيروت وتوجّها إلى قرية بشامون الجبلية المجاورة، وقد اختيرت لموقعها الاستراتيجي القريب من العاصمة، واتصالها بالطرق المؤدية إلى الجنوب والشمال ووادي البقاع. وهو موقع جيد لمقاومة أي هجوم. وهناك شكلاً حكومة مؤقتة، واتخذوا من منزل حسين الحلبي، أحد أعيان المنطقة، مقراً لهما. سُمّيت غرفة صغيرة في أحد جناحي المنزل بالسراي، أي المقر الجديد للحكومة، وقام شابان بحراستها ومنع غير المصرّح لهم بدخولها. واستخدم جناح المنزل الآخر قاعة استقبال لسيل المؤيدين في النهار، ومنامة للوزيرين في الليل. وكانا ينامان على فراش على الأرض. شكّل "حرس وطني" بقيادة الصحافي السابق نعيم مغبغب، وتوافد المسلحون من كل أنحاء الجبل للالتحاق به.

في غضون ذلك، حاول صبري حمادة، رئيس مجلس النواب، عقد جلسة طارئة للمجلس في بيروت بحضور بضعة نواب تمكنوا من الوصول إلى البرلمان بعد خرق الحصار الذي ضربته القوات الفرنسية حوله. وتسَلّق النائب سعدي المنلا الجدار الخارجي وتسَلّل إلى المبنى من خلال نافذة خلفية⁽¹⁾. أرسلت مذكرة احتجاج إلى القوى الخليفة رفعها رئيس المجلس وستة نواب: سعدي المنلا (شمال لبنان) وهنري فرعون (البقاع) وصائب سلام (بيروت) ومارون كنعان، ومحمد الفضل، ورشيد

(1) Tueni, *Le Livre de L'Indepence*, p. 16. انظر أيضاً جريدة الديار اللبنانية، 25 تشرين

الثاني/نوفمبر 1943.

بيضون (جنوب لبنان). عبّرت المذكرة عن "الخوف والاشمئزاز" من "الإجراء الشائن" الذي أقدم عليه الفرنسيون بمنع النواب الشرعيين من دخول المجلس.

التفت النواب بعد ذلك إلى وضع علم جديد. كان العلم اللبناني القديم هو العلم الفرنسي نفسه المؤلف من ثلاثة ألوان مع وجود أرزة خضراء في الشريط الأبيض الأوسط. قرروا إبقاء الأرز في الوسط الأبيض لكن أحاطوها بشريطين أحمرين (عندما علم سبيز بالأمر لاحقاً، سارع بالإشارة إلى أهمية العلم كرمز للبنان الجديد الذي تحرر الآن رمزياً من عقود من الهيمنة الفرنسية).

دخل ضابط فرنسي وأمر النواب بمغادرة المجلس، فقرروا متابعة الجلسة في مكان آخر. فكّروا في البداية في التوجّه إلى منزل رئيس الجمهورية في محلة القنطاري، لكن اكتشفوا أنه محاصر أيضاً. فتوجّهوا إلى منزل صائب سلام في المصيطبة (وهو المنزل نفسه الذي ترأس فيه سليم علي سلام، والد صائب، مؤتمر الساحل في سنة 1936). وفي اليوم التالي، في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، تمكّن ما لا يقل عن 33 نائباً من الوصول إلى هناك ومنحوا الثقة للحكومة المؤقتة في بشامون.

كما قرّروا ما يلي: عدم دفع المال من الخزينة إلى حكومة إدّه، وامتناع بنك سوريا ولبنان عن الاعتراف بأي مستند يوقعه إدّه، وإصدار أمر إلى جميع الموظفين بعدم التعاون معه. منعت هذه التدابير إدّه من تشكيل إدارة، بل إنه لم يجرؤ على الذهاب إلى مكتبه من دون مرافقة من عربات مصفحة!

شكّل نحو 400 شخصية بارزة من بيروت "مجلساً وطنياً" بقيادة ميشال فرعون ورئيس الوزراء السابق أحمد الداعوق لتنظيم حركة مقاومة سلبية. كما شكّلت لجان فرعية لجمع المال لتعويض التجار المتضررين من الإضراب، وتأمين الإسعافات الأولية للمصابين في المواجهات مع الفرنسيين، وجمع المعلومات السياسية، والاتصال بالدبلوماسيين الأجانب والحكومة المؤقتة في بشامون.

في غضون ذلك، عم الغضب كل أنحاء المدينة، فقلّبت عربات الترام وأضرمت فيها النيران، وخرّبت المركبات الفرنسية. وأنزلت صورة كبيرة للجنرال ديغول عن سطح مبنى في شارع اللنبي، ومزّقت عند سقوطها وقطعت بعض الأسلاك، فتوقّف إرسال إذاعة بيروت مؤقتاً. أُلقيت الحجارة على العساكر الفرنسيين، فردّوا بإطلاق

النار وجرحوا عدداً من المتظاهرين وقتلوا اثنين منهم. واحتشد الدبلوماسيون ورجال الدين في منازل الرئيس والوزراء المعتقلين تعبيراً عن دعمهم لهم. زارت السيدة سبيرز زوجة الرئيس بعد ظهر ذلك اليوم فوجدت السلام الخارجية مُلَطَّخة بالدماء. فقد كانت القوات السنغالية تطلق النار من أسطح المنازل على نوافذ البيت، وأصابوا عدداً من الأشخاص. دعيت السيدة خوري للانتقال مع عائلتها إلى منزل سبيرز، لكنها قررت بشجاعة البقاء في منزلها⁽¹⁾.

الجولة السابعة

من الأوجه البارزة لهذه الأزمة التحالف المفاجئ بين الكتائب المسيحيين والنجادة المسلمين، حيث أنزلا مناصريهما إلى الشارع تحدياً للفرنسيين، وأعلنوا الإضراب العام سيراً لمظاهرات مشتركة أمام البرلمان. شكّل زعيم الكتائب بيار الجميل مع زعماء النجادة، جميل مكاي وأنيس الصغير وعدنان الحكيم، قيادة عليا برئاسة الجميل، بل انخرط ثلاثئة شاب مسلم تحت راية الكتائب⁽²⁾!

كانت هاتان الحركتان الشبابيتان تتمتعان بقوة كامنة كبيرة. فقد قيل إن عدد الكتائبين وصل إلى 35,000 عضو في بيروت والبقاع بشكل أساسي، ووصل عدد المنتسبين إلى النجادة إلى 10,000 عضو⁽³⁾. وعكس تحالفهما الميثاق بين الرئيس المسيحي ورئيس الوزراء المسلم. أفادت الاستخبارات الفرنسية أن رياض الصلح قد أعطى الجميل 50,000 ليرة لبنانية للقيام بالتزاماته الجديدة، ووعدته بمليون ليرة أخرى عندما تتولّى حكومته إدارة المصالح المشتركة⁽⁴⁾. لكن أُلقي القبض على بيار الجميل بعد ظهر 23 تشرين الثاني/نوفمبر عند خروجه لمراقبة الدبابات والأسلحة الفرنسية في ساحة الشهداء، وتصوير القتلى والجرحى. تطلّب القبض على الجميل الرياضي وتكبيله واحتجازه - على طريقة أفلام هوليوود - 12 جندياً فرنسياً. وأوقف أيضاً إلياس ربابي، محرر صحيفة العمل الكتابية.

(1) Spears to Foreign Office, 11 November 1943 (FO 226/241).

(2) Méouchy, "Le Pacte National", p. 480.

(3) المصدر نفسه، ص 481.

(4) M 484. CADN, Inventaire 2, Sûreté Générale, Beyrouth, carton 81, Information du

.14 novembre 1943

الجولة الثامنة

عندما سمعت إحدى بنات عمّ رياض نبأ اعتقاله في صباح ذلك اليوم، سارعت إلى نقل الخبر إلى نجلاء صعب، رئيسة الاتحاد النسائي. بدأت نجلاء، على الرغم من أنها حامل في شهرها السابع، بحشد السيدات البارزات الأخريات من مختلف المجتمعات والطوائف. وفي صباح اليوم التالي، توجه إلى المفوضية البريطانية 200 سيّدة من سيّدات بيروت البارزات، برفقة 300 شاب بالإضافة إلى عدد من القادة السياسيين ورجال الأعمال. ثمّ زار وفد من السيدات اللبنانيات الجنرال سبيرز⁽¹⁾. شكّلت هذه الخطوة الجريئة خروجاً كبيراً عن التقاليد بالنسبة إلى سيدات المجتمع العربيات. وفي طريقهن إلى المفوضية البريطانية، تعرّضن إلى الإهانة من قبل القوات السنغالية الذين تلقوا أوامر بإطلاق أشنع النعوت عليهنّ. وقد أبلغن سبيرز أنهن يتطلّعن إلى البريطانيين لإيقاف قتل أبنائهن. فأجاب سبيرز أن البلد الذي يخرج مثل هؤلاء النساء المميزات يستحق الحرية⁽²⁾.

توجهت النساء مع مرافقيهن - نحو 500 شخص - بعد ذلك إلى المفوضية الأميركية، حيث زار الوفد الصغير نفسه جورج وادسورث. وتجمّعت النساء الأخريات أمام المبنى على السلام وفي حديقة المفوضية وفي الشارع، حيث كانت إحدى النساء تلقي كلمة بين الحين والآخر. قدّم وادسورث في وقت لاحق تقريراً إلى واشنطن:

وصلت شاحتان عسكريتان فرنسيّتان تنقل كل منهما 16-20 جندياً من القوات السنغالية واثنين أو ثلاثة من ضباط الصفّ الفرنسيين. وكانوا جميعاً مزوّدين بالرشاشات والبنادق ذات الحربات والمسدسات. فاحتشد النساء خلف حائط الحديقة ورحن يشتمن الجنود ويصقن عليهم ويصرّخن بأن السنغاليين سيطلقون النار، وأخلى الشارع في نهاية المطاف.

(1) ضم الوفد السيدات: إفلين بسترس، ليندا سرسق، شفيقة دياب، آنا ثابت، جاكلين ثابت، أليس عشو (حماة سليم تقلا)، روز زكور، رينيه تقلا (زوجة سليم تقلا)، زلفا شعون (زوجة كميل شعون)، زوجة النائب وديع نعيم، ابتهاج قدورة، كلودا ثابت، زوجة النائب إميل الحود، زوجة جورج كفوري، وزير سابق في حكومة سامي الصلح.

(2) مقابلة مع يسر الصلح، لندن، كانون الثاني/يناير 2004.

تلا ذلك مزيد من الحوادث العنيفة. في 13 تشرين الثاني/نوفمبر، أطلقت مفرزة من البحرية الفرنسية النار من مسافة قريبة على مجموعة من الطلاب، لا سيما من الجامعة الأميركية في بيروت، الذين تجمعوا أمام المفوضية البريطانية. أبلغ سبيرز لندن أن "قسماً من الحشد لاذ بالفرار، فيما انبطح الآخرون على الأرض. أطلق ما لا يقل عن 40 طلقة، وأفرغ أحد جنود البحرية رصاص بندقيته من طراز هوشكيس على الحشد مباشرة. قُتل المصابون إلى مستشفى الجامعة. وكان أحدهم مصاباً بجراح بليغة"⁽¹⁾.

في صيدا، أطلقت القوات الفرنسية النار على مجموعة من المتظاهرين من طلاب المدارس على العموم، فجرحوا نحو ستين منهم. وأفاد سبيرز أن "الحشد تجمّع حول بوابات المستشفى البريطاني للاحتماء داخله. وعندما تقرر السماح باستقبال المصابين فقط، لطّخ كثير من الأشخاص أنفسهم بالدماء كي يتمكنوا من الدخول. سقط أربعة قتلى، أحدهم فتاة في السابعة من العمر. تطوّع الجنود البريطانيون للتبرّع بالدم فجمع نحو تسع عشرة وحدة أنقذت حياة سبعة من الطلاب المصابين، استناداً إلى الضابط الطبيب". كان سبيرز على يقين أن برونو، المستشار الفرنسي سيئ السمعة في جنوب لبنان، هو من أمر بتفرقة الحشد بهذه الطريقة الوحشية. في طرابلس، أطلق الفرنسيون النار على حشد من مسافة قريبة فأصابوا أحد عشر شخصاً، من بينهم سبعة أطفال توفي ثلاثة منهم في طريقهم إلى المستشفى⁽²⁾.

الجولة التاسعة

كانت سيارة الرئيس بشارة الخوري أولى السيارات الواصلة إلى قلعة راشيا في ساعات الصباح الباكر من 11 تشرين الثاني/نوفمبر. احتُجز في غرفة القائد العسكري للقلعة، الذي تنازل عنها مُظهرًا ولاءه للرئيس. لم تكن الغرفة كبيرة جداً، لكنها تحتوي على سجادة على الأرض وأريكة وكرسي مواجه للسرير، فضلاً عن أنها جيّدة التدفئة. كان رياض الصلح أقلّ حظاً، إذ حصل على غرفة واسعة لكنها متسخة ولا

(1) Spears to Foreign Office, 13 November 1943 (FO 371/35185)

(2) Spears to Foreign Office, 13 November 1943 (FO 371/35185); Spears to Foreign Office, 3 December 1943 (FO 226/242)

تحتوي على أثاث من أي نوع. وحُشر الوزراء الثلاثة، أي شمعون وتقلا وعسيران، في زنزانة صغيرة تضم أربعة أسرة لا يوجد فراغ بينها. تساءلوا عن هوية الشخص الرابع، لم يكن عليهم الانتظار طويلاً ليعرفوا من هو. فقد شاهدوا من نافذة زنزانتهم شخصاً نصف عارٍ وحافياً وملطخاً بالدماء، يتقدم نحوهم متميلاً فيما يدفعه الجنود السنغاليون وينخزونه بحراب بنادقهم. لم يعرف الوزراء أنه عبد الحميد كرامي، الزعيم الطرابلسي الكبير، إلا بعد دخوله الزنزانة.

اتفق أن رقيباً في غرفة الحراسة لمح الرئيس والوزراء عند وصولهم، فظنّ أنهم في زيارة رسمية، فسارع إلى الاتصال بقائد الدرك في راشيا الذي اتصل بدوره بالقائم مقام. وسارع كلاهما إلى القلعة للترحيب بالضيوف. لكنهما سرعان ما اكتشفا الخطأ. وعوقب الرقيب بالسجن ونُقل إلى بيروت.

لم يُسمح للرئيس ورئيس الوزراء بالتواصل معاً، ولكن رياض الصلح تمكّن خلال بضعة أيام من تشكيل شبكة من المخبرين من بين حراس السجن. وعلم منهم عن الإضرابات وحكومة بشامون المؤقتة والمجلس الوطني وردود الأفعال الدولية على الأزمة. أمضى المحتجزون الأربعة الآخرون وقتهم بلعب النرد واحتساء القهوة والتدخين. وتدبروا على نفقتهم إحضار طبّاخ من القرية لإعداد الطعام لهم، بإشراف كميل شمعون الذي عيّن نفسه "طباخاً رئيسياً". وقد حظيت خدماته المطبخية بتقدير كبير. غير أن كرامي، الذي سرق الجنود أسنانه الاصطناعية، لم يكن قادراً على مضغ شيء. فاضطر إلى العيش على قليل من الشوربة والعصير طوال فترة اعتقاله.

لم يكن هؤلاء السجناء الوحيدون في راشيا. فقد شعر 35 سجيناً آخرين بفرح شديد عند مشاهدة الواصلين الجدد، إذ إن ذلك كسر رتابة حياتهم في السجن. ومعظمهم موجود هناك بسبب إثارة المشاكل ضد الفرنسيين، ومن بين هؤلاء السجناء السياسيين الصحافي السوري نجيب الرئيس صاحب جريدة القبس السورية، ذو التاريخ الطويل في مقاومة الانتدابين الفرنسي والبريطاني. وكان آخرون ينتمون إلى الحزب القومي السوري بزعامة أنطون سعادة، ومن بينهم نعمة ثابت وزكريا لباييدي وأنيس الفاخوري⁽¹⁾.

الجولة العاشرة

بعث سبيز في اليوم التالي للاعتقالات، برسالة استنكار رسمية إلى جان هيلو، لم يُخفَ فيها غضبه من أعمال المندوب الفرنسي.

السيد جان هيلو، سفير فرنسا والمندوب العام،

12 تشرين الثاني/نوفمبر 1943.

سعادة السفير،

طلب مني وزير الدولة في القاهرة، الذي كنتُ على اتصال هاتفي به، إبلاغك أنه علم بقلق واشتزاز بالغين بالتدابير التي اتخذتها السلطات الفرنسية فجر هذا اليوم، ومنها اعتقال رئيس الجمهورية المنتخب شرعياً وغالبية أعضاء الحكومة اللبنانية، وإغلاق الجنود الفرنسيين الأفارقة مجلس النواب بالقوة. وقد نفذت بعض هذه الاعتقالات - خاصة اعتقال الرئيس - بطريقة تثير الرأي العام لا في تلك الدول فحسب بل في العالم المتحضّر بأسره.

وأود أن أذكّر سعادتكم بأني أصررت أمامكم قبل منتصف الليلة الماضية على أهمية تجنّب القيام بأي شيء يخلّ بالاستقرار والسلام. وقد أعطيتني كلمة شرف، وكررت عدة مرات أنه لن تُتخذ أي تدابير تخلّ بالنظام العام أو تؤثر على المجهود الحربي.

يُترك للآخرين الحكم على تفسير هذا التعهّد الذي قدّمته قبل بضع ساعات من خرقه. من الصعب تخيل إجراءات يمكن أن تهدّد السلام وتؤثر على المجهود الحربي في هذه البلدان وتعيقها أكثر من تلك التي اتخذتها. فوفقاً لما وردني من معلومات موثوقة، قتل حتى الآن ثلاثة أشخاص على الأقل، بينهم طفل، في المظاهرات التي حصلت خارج مبنى البرلمان. إن هذه الإجراءات التي اتخذها رؤوسوك لم تثر أشدّ الغضب بين سكان هذه الدول فحسب، بل إنما ستثير فزع العالم العربي بأسره وغضبه. وقد عبّر رجال الدين المسيحيون والمسلمون لي ولزملائي الدبلوماسيين عن سخطهم بأشدّ العبارات.

أترك لك أن تتخيل تأثير هذه الإجراءات الديكتاتورية غير المقبولة التي تُتخذ بحق شعب صغير أعزل، على الرأي العام المستنير في الديمقراطيات العظمى التي أعلنت محاربة هذا النوع من التدابير.

ردّ هللو على هذه الرسالة مدافعاً بلغة إنكليزية ركيكة:

رسالتك اليوم صيغت بأسلوب غير مهذب، ويشرفني إبلاغك أنني اعتبرها كأنها لم تصل.

لا أحتاج إلى مواعظ في ما يخص شرقي. كما أن كل ما تنسبه إليّ من أقوال وأفعال غير دقيق⁽¹⁾.

في الجزائر، زار روجر ماكينز Roger Makins، وهو عضو في مكتب الاتصال بالفرنسيين، الجنرال ديغول ورينيه ماسيغلي بناء على طلبهما مساء 12 تشرين الثاني/نوفمبر. وجدهما هادئين ولكن غير مستعدين لتقديم أي تنازلات. فاستنتج ماكينز أن هللو يتصرف بناء على تعليمات ديغول نفسه.

قال ديغول إنه يدرك ضعف الموقف الفرنسي، إذ لا يمكنهم تحريك سفينة أو جندي من دون موافقة الحلفاء. لكنه أضاف مشاكساً، إذا فرضت بريطانيا حلاً للقضية، سيصدر أوامر بسحب جميع القوات الفرنسية من المشرق ومراقبة الأحداث ونشر القضية الفرنسية في العالم. واحتفظ ديغول بانتقاداته القاسية لصديقه السابق، الجنرال السير إدوارد سبيرز، الذي أصبح الآن ألد أعدائه. رفض ديغول اعتبار سبيرز مساوياً لجان هللو، مندوب فرنسا العام المطلق الصلاحية في المشرق، ورأى أنه لا يحق له التدخل في الشؤون اللبنانية.

أصرّ ديغول بعناد على أن الموقف الفرنسي يستند إلى الانتداب الذي لا يمكن إنقاؤه قانونياً خلال الحرب. في سوريا، احترم التعهد، وفي لبنان أجريت الانتخابات. لكن الحكومة التي انبثقت عن الانتخابات استغزت الفرنسيين عندما قرروا التفاوض على أساس معاهدة 1936. إزاء هذه الاستفزات، لم يجد الفرنسيون خياراً سوى ممارسة الصلاحيات التي منحها لهم الانتداب. وقرّر ديغول إرسال الجنرال كاترو إلى المشرق مع التعليمات المناسبة، لكنه لم يفصح عن تلك التعليمات⁽²⁾.

(1) Spears to Foreign Office, 12 November 1943 (FO 371/35184)

(2) R. Makins, Algiers to Foreign Office, 12 November 1943 (FO 226/241)

عندما وصل كاترو إلى بيروت في 16 تشرين الثاني/نوفمبر، تبين أن تعليماته تقضي بدعم إميل إدّه ومواجهة رياض الصلح، وإزاحته من منصبه إذا أمكن ذلك.

الجولة الحادية عشرة

تمكّن صبري حمادة، رئيس مجلس النواب، من التسلّل من بيروت والانضمام إلى الحكومة المؤقتة في بشامون، حيث جمع الأمير مجيد أرسلان نحو مئتي مقاتل درزي مسلّحين بالبنادق والقنابل اليدوية. وتوافد مزيد من المسلّحين المسيحيين والدروز إلى القرى المجاورة كالشوفيات وعين عنوب، بالإضافة إلى التلال المحيطة.

هاجمت قوّة فرنسية القرية في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر، لكنها أُجبرت على التراجع تحت وابل من الرصاص. وعندما عاود الفرنسيون هجومهم بعد عدة أيام، قتل أحد عناصر الحرس المحلي، سعيد فخر الدين، فيما كان يحاول رمي قنبلة على دبابة فرنسية. كان عضواً في الحزب القومي السوري. مُنحت عائلته مبلغ خمسة آلاف ليرة لبنانية. وتبرّعت زوجة الرئيس، لور الخوري بمبلغ خمسمئة ليرة لبنانية، لدى زيارتها الحكومة في بشامون. كذلك زارت زوجة رياض الصلح، ترافقها السيدة سبيرز، القرية دعماً للمقاتلين⁽¹⁾.

أرسل كاترو الميسيو بارت Bart، المندوب الفرنسي الجديد في لبنان، بغية التفاوض مع أعضاء الحكومة المؤقتة. حاول أن يستخفّ بالأزمة وتساءل عن سبب رفضهما المحييء إلى بيروت، إذ ليس هناك من يريد اعتقالهما. أجابا أنهما يتعاملان بجديّة قصوى مع هذه الحادثة التي توجّهت خمسة وعشرين عاماً من الحكم الفرنسي. وعندما سألهما عن شروطهما، أجابا أن لا مجال للتفاوض قبل إطلاق سراح جميع الوزراء وصرف جميع المسؤولين الفرنسيين الذين أراقوا دماء اللبنانيين. دعا بارت الحكومة المؤقتة إلى زيارة كاترو في بيروت. رُفضت دعوته بحجة عدم الثقة بسلوك الفرنسيين. وعندما اقترح بارت الاجتماع بكاترو في عاليه، أُجيب بأن عليه القدوم إلى بشامون إذا كان لديه ما يقوله لهما⁽²⁾.

(1) Tueni, *Le Livre de L'Indépendance*, p. 50

(2) Spears to Foreign Office, 17 November 1943 (FO 371/35187)

أجرى سبيرز عندئذ محادثات مطوّلة مع كاترو وذكّره أن الحكومة البريطانية توقّعت إطلاق سراح الوزراء المسجونين قبل أربع وعشرين ساعة على الأقل. فأجاب كاترو أنه يجهل وجود أي مهلة زمنية، وما كان ليأتي لو علم بوجود إنذار. أجابه سبيرز أن الفرصة لا تزال متاحة أمام الفرنسيين لاستعادة موقعهم، إذا أمر بالإفراج عن الحكومة على الفور وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل 11 تشرين الثاني/نوفمبر. وبخلاف ذلك، فإن فرنسا ستخسر موقعها، من وجهة نظره على الأقل⁽¹⁾. أصرّ سبيرز على عدم تساهل الحكومة البريطانية في موضوع الإفراج الفوري عن الوزراء المعتقلين وإعادة النظام الدستوري: كلما طال التأخير، تعاظمت الضربة التي تتعرّض لها مكانة فرنسا. والطريقة الوحيدة المتاحة أمام كاترو للمحافظة على موقعه الشخصي، وموقع فرنسا، هي إلقاء اللوم على هيلو وإعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل 11 تشرين الثاني/نوفمبر.

أثارت ملاحظات سبيرز الصريحة الذعر في بعض أقسام وزارة الخارجية. ووجّه إليه رئيس الدائرة الشرقية انتقاداً شديداً:

يلاحظ كيف تجاوز ممثلنا المميّز تعليماته في كلّ منعطف في ما يفترض أن يكون حواراً مهماً.

أعطي كاترو الانطباع أننا طلبنا منه العمل تحت إنذار مهلة زمنية محددة. المهلة الزمنية الوحيدة التي وضعناها عند بداية هذه المسألة قولنا إننا نتوقّع وصول كاترو إلى بيروت قبل يوم الاثنين فوصل يوم الثلاثاء.

لقد حثّه سبيرز على إعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل 11 تشرين الثاني/نوفمبر. ولم يكن لديه إذن لتقدم مثل هذا الطلب. إعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل 11 تشرين الثاني/نوفمبر تعني: (أ) إحياء مجلس النواب فوراً وهو أمر قلنا تحديداً إننا لا نطلبه و(ب) إعادة تثبيت الحكومة وصلاحياتها، وهو أمر اتفقنا على وجوب تأجيله قليلاً.

قال سبيرز لكاترو إن حكومة صاحب الجلالة لن تتساهل "في مسألة الإفراج الفوري عن الوزراء المعتقلين وإعادة النظام الدستوري". وتلك

طريقة أخرى لقول الشيء نفسه وجعل كاترو يتخذ قراره دون أن يدرك تماماً ما المطلوب منه.

وجوهر الأمر، بالطبع، أن من غير العملي إعادة النظام الدستوري، أو توقع أن يقسوم الفرنسيون بإعادته، قبل إيجاد تسوية مؤقتة بين ذلك النظام والفرنسيين⁽¹⁾.

أظهرت هذه الآراء انخياز بعض المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية إلى جانب الفرنسيين وازدراءهم للعربي للطموحات اللبنانية. وبدا أنهم غير مستعدين لإدراك أن ثمة اختباراً للقوة في لبنان وأن فرنسا هي الطرف الخاسر. كما بدا أنهم غير قادرين على استيعاب أن سبيرز لن يسمح بأن يظل بعض المسؤولين الجبناء في لندن الجهود الهائلة التي بذلها في الستين الماضيتين.

حاول الجنرال كاترو بعد اجتماعه مع سبيرز، إجراء مفاوضات للخروج من المأزق بعقد اجتماعات سرّية منفصلة مع بشارة الخوري ورياض الصلح. اصطحب الرئيس إلى بيروت للاجتماع بكاترو ليل الخميس في 18 تشرين الثاني/نوفمبر، وتلاه رئيس الحكومة رياض الصلح في اليوم التالي. لم يكن أي منهما يعلم شيئاً عن رحلة الآخر. من الواضح أن كاترو كان يأمل بإحداث شرح انسجاماً مع الصيغة التي وضعها ديغول. وهي تقضي بإعادة بشارة الخوري إلى القصر الجمهوري - فهو في النهاية رجل تعامل معه الفرنسيون في الماضي - وإبعاد رياض الصلح عن الحكم تماماً. كان ديغول يعول على أن يتغلب مؤيدو فرنسا في وزارة الخارجية على المسؤولين الراديكاليين مثل سبيرز وكيسي وغيرهما من المسؤولين الآخرين في الشرق الأوسط. لكن المخطط فشل عندما رفض بشارة الخوري بشهامة الانفصال عن رياض الصلح.

اقتنع كاترو بعد اجتماعه معهما بعدم وجود حل للأزمة سوى بإعادة الثنائي بشارة ورياض إلى السلطة⁽²⁾. فأمر بتحسين ظروف سجنهما في راشيا على أمل التخفيف من استيائهما من فرنسا. وسُمح للسجناء بالتحدّث بعضهم مع بعض والخروج من الزنزانات ساعة واحدة في الصباح وأخرى بعد الظهر.

(1) Maurice Peterson, 8 November 1943 (FO 371/35187).

(2) Tuéni, *Le Livre de l'Indépendance*, p. 118.

الجولة الثانية عشرة

سرعان ما واجه كاترو موقفاً أشدَّ خطورة. فقد وصلت أخبار إلى لندن عن وجود خطة لنقل السجناء من راشيا إلى الجزائر. عندئذ أدرك الجميع، حتى المواليون لفرنسا في وزارة الخارجية، أن هذا الأمر يمكن أن يُشعل انفجاراً في الشرق الأوسط، ما يُجبر الجيوش البريطانية التي تمر بظروف صعبة على التدخل لإعادة النظام. طلبت لندن من ريتشارد كيسي وضع القوات البريطانية في مصر في حالة تأهب. ثم اتُخذ قرار بإيصال الأمور إلى حدِّ الأزمة عن طريق توجيه إنذار إلى كاترو.

بعد ظهر يوم 19 تشرين الثاني/نوفمبر، دُعي كاترو إلى منزل سبيرز حيث سلّمه كيسي مذكرة صارمة: إذا لم تتلقَّ الحكومة البريطانية قبل الساعة 10 من صباح 22 تشرين الثاني/نوفمبر رداً مواتياً على طلبها استبدال هلالو وإطلاق سراح الرئيس والوزراء اللبنانيين، فإنها ستعلن الأحكام العرفية لضرورات عسكرية صارمة. وعندئذ ستقوم القوات البريطانية بتحرير السجناء وسيسيطر قائد الجيش التاسع على البلاد⁽¹⁾.

وجد كاترو نفسه عالقاً بين سندان إنذار بريطانيا ومطرقة تغت ديجول المتواصل، فتولّد لديه إحساس بالذل والعجز. وقال في ما بعد إن الكلمة التي خطرت بباله عندما أعطاه كاترو المذكرة هي "فاشودا" (اسم قرية في أعالي النيل، حدثت فيها معركة إرادات بين القوات البريطانية والفرنسية في سنة 1898 في أثناء تزامهما على استعمار أفريقيا. وقد تغلبت بريطانيا آنذاك، ما أغضب فرنسا). ذهب كاترو لمقابلة سبيرز مرة أخرى في 20 تشرين الثاني/نوفمبر على أمل التفاهم مع كيسي، لكن الأخير كان قد غادر إلى القاهرة. اعترف كاترو المُتعب لسبيرز إنه كان من الأفضل توجيه الإنذار إلى ديجول بدلاً منه. فليس لديه صلاحية استلامه، ولا القدرة على اتخاذ قرار بشأنه. لقد خرجت الأزمة الآن عن نطاق سيطرته.

قام الفرنسيون بمحاولة أخيرة في 21 تشرين الثاني/نوفمبر عندما أرسل ماسيغلي بياناً رسمياً إلى ماكميلان لنقله إلى كيسي. وقد نصّ البيان على أن اللجنة الوطنية الفرنسية لا ترى أن من الصواب إعادة رياض الصلح وأعضاء حكومته إلى السلطة في

الوقت الحالي. وإذا كانت ثمة حاجة إلى مؤتمر لتنظيم العلاقات بين فرنسا ولبنان، فإنه يجب أن يكون لبنانياً فرنسياً - أي من دون مشاركة بريطانية. كما أن اتفاقات ليتلتون وديغول سنة 1941 لا تعطي القيادة البريطانية حق إعلان الأحكام العرفية. وإذا نفذت الحكومة البريطانية تهديدها، فإن عليها أن تتحمل المسؤولية كاملة عما قد ينجم عن ذلك، وتأثيره على مستقبل العلاقات الفرنسية البريطانية⁽¹⁾.

علم سبيرز بأمر البيان الرسمي الفرنسي، فخشى من احتمال تغير موقف المواليين لفرنسا في لندن. شعر للوهلة الأولى بخطر هذه الحيلة واحتمال ضياع جهوده سدى. وغضب من الخطوة الفرنسية، وأرسل كتاباً إلى وزارة الخارجية جاء فيه: "أترك لكم أن تتخيّلوا ماذا سيعتقد سائر العالم إذا تغاضينا عن هذه المهزلة الكثيرة التي يجلس فيها الحمل بمفرده مع الذئب على طاولة المفاوضات". ولزيادة الضغوط، أبلغ لندن أن آلاف اللبنانيين أخذوا يتحدثون الآن القرار الفرنسي الذي يمنع التجوّل. إن أصوات الحشود الضخمة في بيروت وصخبها يُسمع في كل أنحاء المدينة. لا بد أن يُدعن الفرنسيون وإلا قد يخرج الوضع عن السيطرة.

في تلك الليلة، جاء كاترو لمقابلة سبيرز وكان يعاني من عدم القدرة على اتخاذ قرار. لم يتلقَ رداً من الجزائر على رسائله العاجلة، فهل يأخذ الأمور على عاتقه؟ كان يميل إلى إعادة الحكومة اللبنانية إلى السلطة ما لم يتلقَ رفضاً مطلقاً من اللجنة الوطنية الفرنسية. ذكره سبيرز أن ليس عليه، وفقاً لنص القانون، إعادة الحكومة اللبنانية إلى السلطة لأنها حلّت بصورة غير قانونية. وما لم تُلغ مقررات هلالو الصادرة في 11 تشرين الثاني/نوفمبر، فإن بريطانيا ستجبر على إعلان الأحكام العرفية في اليوم التالي. وحثّ كاترو على أن يحرّر السجناء، ويطلب من إميل إده الانسحاب، ويُبعد هلالو عن المشرق. فأذعن كاترو المهزوم والمتعب لمقترحات سبيرز، إذ لم يكن لديه خيار آخر بالنظر إلى الصمت المطبق من الجزائر، وضغط سبيرز المستمر⁽²⁾.

في غضون ذلك، واصل سبيرز زيادة الضغط على لندن لضمان عدم تراخي الموقف البريطاني. وأفاد عن أن وفداً كبيراً من النواب زار المفوضية لإبلاغها "عدم

(1) British Legation, Beirut, to Foreign Office, 22 November 1943 (FO 226/242).

(2) Spears to Foreign Office, 21 November 1943 (FO 226/242).

إمكانية السيطرة على الحشود في الغد" إذا أصرّ الفرنسيون على أن يتفاوض كاترو على إعادة الحياة الدستورية مع بشارة الخوري بمفرده - أي استبعاد رياض الصلح. وحذّر من أن زعماء في البقاع الشمالي مستعدون "للقّاتال حتّى الموت"، وأن عائلة واحدة فقط حشدت 400 رجل مسلّح. وفي البقاع الجنوبي، نظّم الدروز صفوفهم تحت قيادة زعمائهم، وهم على اتصال مع وزير الدفاع الأمير مجيد، ولديهم نحو 500 بندقية على الأقل، ومستعدّون للثورة عن آخرهم عندما تصدر الإشارة. وفي صيدا، يخطط الأعيان لتفجير ثكنات البحرية الفرنسية ومنزل المستشار الفرنسي. وثمة تخطيط لقيام انتفاضات منظمة في جميع أنحاء لبنان تستهدف في المقام الأول مستودعات الذخيرة والأسلحة الفرنسية. ويقوم زعماء المجتمعات الريفية بتنظيم قواتهم للتحرك باكراً إذا رفض الفرنسيون إعادة الوضع إلى ما كان عليه. وأضاف بدهاء أن الغاية من كل ذلك خلق وضع يجبر البريطانيين على فرض سيطرتهم العسكرية. وكان سبيرز يدرك جيداً أن المقولة الأخيرة ستدقّ نواقيس الخطر في لندن⁽¹⁾. وفي تلك الليلة، سُمعت عدة انفجارات في بيروت، وكان منزل إميل إده أحد أهدافها، ففرّ في الساعات الأولى من 22 تشرين الثاني/نوفمبر في مركبة فرنسية صغيرة إلى مكان مجهول.

الجولة الثالثة عشرة

ليل يوم الأحد في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، بثّت هيئة الإذاعة البريطانية خبر قرب الإفراج عن الوزراء المعتقلين، فعمّ الفرح كل أنحاء لبنان. وبدأت حشود ضخمة، تقدّر بعشرات الآلاف، تتحرك في المدينة. وكان قسم كبير منهم مسلّحين. وتواصل إطلاق النار في الهواء بكثافة. واستمرت التظاهرات الواسعة حتّى اليوم التالي. حملت الجماهير السواب على الأكتاف وتوجهت إلى البرلمان، فمزّق العلم اللبناني القدم ورفّع العلم الجديد. وتكرر المشهد نفسه عند السراي وبلدية بيروت. لزم الجنود الفرنسيون والسنغاليون ثكناتهم، فلم تقع أي أحداث عنيفة. واقتصرت أعمال التحديّ على تمزيق الأعلام الفرنسية والدّوس عليها.

(1) Spears to Foreign Office, 22 November 1943 (FO 226/242).

صباح الاثنين 22 تشرين الثاني/نوفمبر، توافد الناس إلى منازل رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة والوزراء الآخرين المعتقلين في انتظار وصولهم من راشيا. أفرج عن السجناء نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً، وتوجهوا إلى بيروت برفقة المندوب الفرنسي المسيو دافيد، وقائد الدرك اللبناني العقيد نوفل. وفي الثانية بعد الظهر، استقل بشارة الخوري ورياض الصلح، بطالا الاستقلال، السيارة جنباً إلى جنب وجالا في شوارع بيروت وسط الجماهير المبهجة. أراد المسيو دافيد أن يجلس إلى جانب الرئيس في الرحلة من راشيا - على أمل استعادة بعض الاعتبار لمكانة فرنسا - لكن الرئيس حرص على صدّه، وأبلغه أن الغوغاء سيعدمونه بالتأكيد إذا شاهدوهما يدخلان بيروت معاً.

حملت الجماهير المبهجة الرئيس على سَلم منزله في القنطاري. وأوصلت السيارة نفسها رياض الصلح إلى منزله في رأس النبع، حيث خاطب الجماهير المحتفلة من شرفة منزله. ثم شقّ طريقه عبر الحشود عائداً إلى منزل الرئيس. وصل الجنرال كاترو إلى هناك بعد بضع دقائق. ولكن المنزل كان يغصّ بالمهتّين بحيث لم تكن هناك غرفة فارغة. فأخذ إلى غرفة نوم الرئيس حيث استقبل "برودة"، ودامت المواجهة نحو ساعة. كان كاترو يأمل بإنقاذ شيء من حطام السياسة الفرنسية، لذا بدأ بالإصرار على أن يعدّ الرئيس لاستقالة حكومة رياض الصلح. فقد رأى أن الضرورة تقتضي أن يقدم بشارة الخوري إيماءة مصالحة ويظهر تقديراً للمشاعر الفرنسية. رفض الرئيس ذلك رفضاً قاطعاً، وقال إن الرأي العام لن يقبل ذلك حتى لو كان على استعداد لتقديم هذه الإيماءة. وعلى أي حال، لا يمكن تقديم أي خطوة تصالحية إلى فرنسا في ذلك الوقت.

بدا كاترو قلقاً ومكتئباً، فطلب بعد ذلك انضمام رياض الصلح إلى النقاش. قال لهما: "بما أنكما ترفضان حلّ الحكومة، أرجو على الأقل أن تمنحاني الوقت لأرسل برقية إلى الجزائر لتلقّي تعليمات جديدة. وسأوصي بشدة أن يُسمح لك، يا رياض، بالبقاء في منصبك. وآمل أن أتلقي الردّ غداً".

طلب كاترو أن ينزل الرئيس وحده إلى السراي غداً، وعدم تسليط الضوء على الحكومة "في الأيام القليلة التالية". أجاب بشارة الخوري أن ذلك مستحيل، وأنه كان

يسنوي الذهاب إلى السراي مع جميع وزرائه، لكنهم متعبون. ولا يرجع ذلك إلى المعاملة السيئة التي عانوها في راشيا، وإنما إلى فرحة الاستقبالات التي شهدوها في بيوتهم عند عودتهم. مع ذلك فإنه قرر أن يذهب وزيران فقط إلى السراي في اليوم التالي - كميل شمعون وسليم تقلا على الأرجح - على أن يتوجه صباح الأربعاء بشكل رسمي مع جميع الوزراء وأن يستعرض حرس الشرف. وأكد أنه لن يغير خطته بغض النظر عن الرد الذي سيأتي من الجزائر، وبذلك فشلت مساعي اللحظة الأخيرة التي بذلها كاترو.

في هذه الأثناء، تضايق الوزراء المحررون جداً من المؤيدين بحيث اضطروا إلى اللجوء إلى منزل هنري فرعون للحصول على بعض الطعام والراحة اللذين يحتاجون إليهما⁽¹⁾. عاد عبد الحميد كرامي إلى طرابلس حيث استقبلته حشود غفيرة أيضاً. وعاد حبيب أبي شهلا من بشامون إلى بيروت، لكن قرر الأمير مجيد إرسال البقاء هناك يوماً آخر كتدبير احترازي حتى يتأكد من انجلاء الأمور بالشكل المناسب. بعد ذلك توجه أبي شهلا وسليم تقلا وعادل عسيران إلى بشامون لاصطحابه إلى بيروت. قدم إرسال بصحبة عدد كبير من المسلحين المؤيدين مرتدياً لباس الميدان الدرزي التقليدي - كوفية، وبنطال أبيض واسع عند الفخذين، وحزمة عالية، ومسند في حزامه، وحزام من الذخيرة على صدره - وشق طريقه إلى السراي⁽²⁾.

في 24 تشرين الثاني/نوفمبر، قام كاترو بزيارة رسمية إلى السراي وسلم الرئيس رسالة تؤكد أن اللجنة الوطنية في الجزائر ألغت قرارات هلولو. أخيراً تراجع ديغول، وعاد الوضع إلى ما كان عليه في 10 تشرين الثاني/نوفمبر.

تجدر الإشارة إلى حبكة ثانوية مشبوهة. فقد علم رياض الصلح، عشية يوم الإفراج عن المعتقلين، بوصول فرقة قناصة فرنسية بقيادة العقيد بواسو Boisseau إلى راشيا، بغية اختطافهم وقتلهم بدلاً من السماح بإطلاق سراحهم. ولم يقتنع بمغادرة القلعة إلى بيروت إلا بعدما تأكد من صدور الأمر من الجنرال ديغول شخصياً. من ناحية أخرى، سمع بشارة الخوري عن مؤامرة يعد لها فرنسيون متطرفون لاختطاف كاترو من منزله في شرق بيروت، وذلك لمنع من تحرير السجناء.

(1) المصدر نفسه.

(2) Spears Mission to H. M. Minister, 23 November 1943 (FO 226/242).

عُيِّن إيف شاتنيو مندوباً عاماً بدلاً من هيللو. غير أن الصحف الخاضعة لفرنسا في الجزائر نشرت رسالة بعثها ديغول إلى هيللو، وجاء فيها: "سينقل إليك الجنرال كاترو قرار اللجنة إعادتك إلى الجزائر بغية التشاور. إنني مهتم شخصياً بسماع تقريرك، وإلى ذلك الحين لك مني خالص الود".

شعر سبيرز - اليد الخفية وراء هذه الأحداث المثيرة - بالارتياح لذهاب من يعتبرهم أعداءه في المندوبية إلى الجزائر، وخاصة بايلن وبوغنير، وكتب إلى لندن مازحاً، "أنا الآن بأمان".

الجولة الأخيرة

ليل 22 تشرين الثاني/نوفمبر، ذهب رياض الصلح لزيارة حليفه الجنرال سبيرز على الرغم من شعوره بالإرهاق، ودامت زيارته ساعة تقريباً. لا بد أنهما احتفلا بانتصارهما الكبير، مع أن سبيرز أحجم عن إفادة لندن بذلك. فقد اكتفى بالإشارة إلى أن رياض الصلح كان هادئاً وقوياً. ووصف الطريقة السيئة التي عومل بها رياض في راشيا. كانت غرفته رطبة، وسريره متسخاً، و"الصرف الصحي" رديء لدرجة تفوق الوصف. وكان يحرسه أشد الجنود خشونة. وعلى الرغم من التدابير الاحترازية الفرنسية، فإنه تمكن من الاطلاع على ما يجري في الخارج. وكان منسجماً تماماً مع الرئيس الذي لا يسعه أن يفقه حقه من الثناء على ثباته وإخلاصه. ولاحظ سبيرز أن الحكومة اللبنانية لن تقبل أي تدخل فرنسي في استقلالها التام⁽¹⁾.

في 23 تشرين الثاني/نوفمبر، قام سبيرز بزيارة الرئيس بشاره الخوري. كان البيت مكتظاً بالوفود من الوجهاء إلى ممثلي أصحاب الدكاكين الصغيرة والعديد من الوفود النسائية. استمع سبيرز إلى بعض خطاباتهم، ولاحظ أنها تطالب بالاستقلال التام والناجز. وسمع الكثير من الترحيب ببريطانيا العظمى، ف شعر بأنه أنصف وغمرته السعادة والرضا.

أجر رياض الصلح والجنرال سبيرز فرنسا على الاعتراف باستقلال لبنان، وأظهرا جرأة ومهارة وعزيمة. شكّل ذلك بالنسبة إلى رياض تعويضاً مرضياً عن اللطمات

والنكسات وخيبات الأمل العديدة التي عانى منها هو والوطنيون من أبناء جيله: الشهداء الأوائل الذين أعدمهم جمال باشا، وهزيمة جيش سوريا الناشئ أمام الفرنسيين في ميسلون، وتقسيم سوريا الكبرى، وسحق الثورة السورية الكبرى بوحشية، وتحطّم الآمال العربية عندما قضت بريطانيا على الثورات الفلسطينية في السنوات 1936-1939، وتخلّي فرنسا الإجرامي عن لواء الإسكندرونة للأتراك، ومحنة الانتداب الطويلة والمريرة، بالإضافة إلى الكثير من الأحداث الأخرى. وأمل رياض أن ينقلب مجرى الأحداث الآن. لقد رأى مهارة الصهاينة في الاستفادة من بريطانيا دعماً لقضيتهم، وتمكّن أيضاً من كسب دعم حاكم إداري بريطاني بارز لقضيته الوطنية.

كان لأحداث تشرين الثاني/نوفمبر 1943 المثيرة أهمية كبرى في مستقبل لبنان. فقد وضعته على طريق الاستقلال الحقيقي - أو على الأقل الاستقلال الذي يستطيع أن يتوقّع بلد صغير وضعيف الحصول عليه، بالنظر إلى موقعه الاستراتيجي ومواطن ضعفه الداخلية الكثيرة، وهي ما جعلت جيرانه والقوى الكبرى تعتبره ساحة تنقّال فيها. يقول المؤرخ ألبرت حوراني إن أحداث تشرين الثاني/نوفمبر 1943 "ترك وراءها إحساساً هشاً بالوحدة والانتصار، استطاع لبنان المستقل وحكومته أن يستمداً منهما شيئاً من الشرعية الثورية التي هي أساس الدول القومية الحديثة"⁽¹⁾.

شعر سبيرز بحاجة إلى تقديم شرح مسهب لأسباب ما قام به - بل تبريرها - في رسالة وجهها إلى وزارة الخارجية في 25 تشرين الثاني/نوفمبر. وقد جاء فيها أن المساهمة الفرنسية في حملة سنة 1941 كانت صغيرة جداً، وأن بريطانيا هي التي انتزعت المشرق من حكومة فيشي. أما ادعاء الفرنسيين الأحرار أنهم ورثوا موقع فرنسا الانتدابي السابق، فإنه مشكوك في شرعيته. على أي حال، لقد تعهّدوا علناً بإخلاء نظام الانتداب، وقدمت بريطانيا ضماناً لهذا التعهد. لكن الفرنسيين الأحرار رفضوا بعناد احترام ما وعدوا به.

هنا، لم يستطع سبيرز أن يقاوم امتداح نفسه:

A. Hourani, 'Lebanon: Development of a Political Society,' in Hourani, *The* (1) *Emergence of the Modern Middle East*, p. 138

بعد نحو ستين من الضغوط الدبلوماسية، تمكنا بصعوبة كبيرة من إقناعهم أخيراً باتخاذ الخطوة الأولى في ذلك الاتجاه والسماح بعودة الحياة الدستورية والبرلمانية. وكانت النتيجة انبثاق حكومة وبرلمان وطنيين لبنانيين، على الرغم من التدخلات والضغوط الفرنسية، فباشرا التأكيد على حقهما غير المشكوك فيه بتعديل الدستور. وقد أدت هذه الخطوة إلى حدوث أزمة 11 تشرين الثاني/نوفمبر.

وخلص إلى أن التدابير التي نفذها الفرنسيون "غير مبررة وفقاً لأي أساس قانوني يمكن تصوّره، ولا تتوافق مع روح ميثاق الأطلسي... لقد عرّضت هذه التدابير المجهود الحربي للحلفاء للخطر في المشرق". ولو لم يجبر البريطانيون الفرنسيين على إبطالها، لوقعت ثورة شعبية، وتشوّشت خطوط مواصلات الحلفاء، وتعرّض الفرنسيون لمذبحة واسعة النطاق⁽¹⁾.

شكّلت هذه الرسالة تبريراً سياسياً قوياً لسياسة ذات دوافع شخصية نتجت عن عدااء سبيرز للمفاجئ للفرنسيين وتحوّله إلى مؤيد متحمّس للقومية العربية. غير أن سبيرز لم يستطع الإفلات من العقوبة. لم يكن أنتوني إيدن يريد إذلال الفرنسيين. فدعا إلى اجتماع لمراجعة الأوضاع في السفارة البريطانية في القاهرة في 7 كانون الأول/ديسمبر حضره ريتشارد كيسبي، وزير الدولة البريطاني في المشرق الأوسط؛ والجنرال السير إدوارد سبيرز، الوزير البريطاني المفوض في دولتي المشرق؛ واللورد كيليرن Killearn (السير مايلز لامبسون سابقاً)، السفير البريطاني في القاهرة؛ وهارولد ماكميلان، الممثل البريطاني في لجنة التحرير الوطني بقيادة ديغول؛ وشخصيات بريطانية كبيرة أخرى، عسكرية ومدنية. ترأس إيدن الاجتماع، وأبدى استياءه من نتائج الأزمة اللبنانية. قال بلهجة استعمارية متعالية إنه يجب عدم السماح للشعوب الخاضعة للانتداب بإثاء التدابير الانتدابية من دون اتفاق مناسب مع السلطة المنتدبة. فذلك يشكل سابقة قد تتكرّر في مكان آخر من الشرق الأوسط. غير أن ما فعله سبيرز هو إثاء الانتداب الفرنسي. كان يدرك أنه حقّق ما يريد على الرغم من معارضة الآخرين، لكنه حرص على ألا يتباهى بذلك. أصرّ إيدن على

A Note of the Reasons for British Action in the Lebanese Crisis, British Legation, (1) Beirut, 25 November 1943 (F0226/242)

وجوب عدم منح اللبنانيين الانطباع بأن بريطانيا تدعم كل خطوة يقومون بها، ولكن ذلك بالضبط هو الانطباع الذي أعطاه سبيرز على الدوام. لم يستطع سبيرز احتمال المزيد، فردّ دون تفكير أنه كان واثقاً من إصرار اللبنانيين على التخلص من الفرنسيين في المشرق بعد انتهاء الحرب. لكن إيدن رفض ذلك، وقال إن تعليماته تقضي باستخدام النفوذ البريطاني لدى اللبنانيين بغية تحسين علاقتهم بفرنسا وإنقاذ ماء وجه الفرنسيين قدر الإمكان. لم يكن إيدن العنيد قادراً على فهم أن مثل هذه السياسة وطريقة التفكير قد تجاوزتهما الأحداث⁽¹⁾. بل إن هذه المحدودية الفكرية أدّت لاحقاً إلى سقوطه في أزمة قناة السويس سنة 1956.

لم يكن الاجتماع مُرضياً البتة. فقد أغضب سبيرز عدداً كبيراً من النافذين في لندن، بمن فيهم أنتوني إيدن نفسه، وأجبر على دفع ثمن تجاوزاته. حتى إن صديقه القديم ونستون تشرشل لم يستطع إنقاذه الآن. مع ذلك، كانت مغامرة رائعة!

(1) Memorandum of Meeting held at British Embassy, Cairo, at 4.30 p.m. on 7 December 1943 to discuss the question of Syria and Lebanon (FO 226/242)

الفصل الحادي والعشرون

الصحوة المؤلمة

لم يكد بشارة الخوري ورياض الصلح يعودان من سجنهما في راشيا حتى بدأت الأحوال تسوء. فسرعان ما تبين أنّ الفرنسيين عازمون على الردّ، ولم يعد من الممكن الاعتماد على الدعم البريطاني للوطنيين. إضافة إلى ذلك، فإنّ نار الطائفية في لبنان لم تخمد، ولم تكن الوحدة العربية، أو حتى التضامن العربي - اللذان طالما نادى رياض بهما - سوى سراب. وكانت خطابات القادة العرب المثيرة بمجرّد غطاء لخصوماتهم وكراهياتهم المتبادلة. لذا واجه رياض الصلح وحكومته صحوة مؤلمة.

في الجزائر، استشاط الجنرال ديغول غضباً لأنّ "استفزازات" رياض الصلح مرّت من دون عقاب. كيف يجرّو هذا الوطني المسلم المتمرد على إزالة أي ذكر للانتداب من الدستور اللبناني، ووضع حدّ للامتيازات التي تمتعت بها فرنسا قروناً طويلة في المشرق؟ ألقى ديغول اللوم على البريطانيين، وخاصةً صديقه المزيّف، السير إدوارد سبيرز، الذي لم يعد يكتفٍ إلاّ العداوة اللدودة. وجّه ديغول تعليمات إلى الجنرال كاترو لإرغام اللبنانيين والسوريين على توقيع معاهدة مع الفرنسيين الأحرار، تعيد موقع فرنسا البارز في البلدين. وهو الموقع البارز الذي لم يكفّ ديغول عن تكرار الإشارة إلى أن البريطانيين أنفسهم أقرّوه في مراسلات ليتلتون - ديغول في سنة 1941.

عاد كاترو إلى بيروت في 16 كانون الأول/ديسمبر 1943 وبدأ التفاوض مع الحكومتين اللبنانية والسورية بمساعدة المندوب العام إيف شاتنيو، والمندوب الجديد في لبنان الكونت ستانيسلاس أستروروغ Stanislas Ostrorog الذي انشقّ مؤخراً عن فيشي. اتبع كاترو أسلوب تقدم بعض التنازلات، والسعي في الوقت نفسه إلى المحافظة على السيطرة على مقاليد السلطة الحقيقية، إذ لم يكن في وسعه اتباع طريق آخر بالنظر إلى الحماسة الوطنية في بيروت ودمشق. وهكذا، في 12 كانون الأول/ديسمبر، تمّ التوصل إلى اتفاقية في دمشق على نقل المصالح المشتركة، من حيث المبدأ، إلى

الحكومتين المحليتين على أن يتم التفاوض والاتفاق على كلّ منها على حدة. أعقب ذلك في 3 كانون الثاني/يناير، نقل إدارة الجمارك، وإدارة حصر التبغ والتبناك بنجاح، وهو إنجاز استُقبل بفرح عظيم محلياً. وقُدّم الشكر إلى رياض الصلح في البرلمان. لكن النقل لم يكن حقيقياً إلى حدّ كبير، لأن الاتفاق لن ينفذ إلا بعد سنتين، وسيبقى العديد من المسؤولين الفرنسيين في مراكزهم في مختلف الإدارات.

لم يتحقق أي تقدّم يذكر بشأن تسليم اللبنانيين والسوريين الأمن العام والحرس السيّار، والقوات الخاصة؛ وهي القوات التي جندتها الفرنسيون من السكان المحليين، وشكّلت عصب القوة الفرنسية. وسرعان ما تبيّن أنّ القوات الخاصة هي الأداة التي يريد الفرنسيون استخدامها للضغط على الحكومتين المحليتين لتوقيع المعاهدتين اللتين يطالبان بهما. كان لدى الفرنسيين عدة أوراق يلعبونها. فهم يدركون أن العديد من اللبنانيين والسوريين في القوات الخاصة، وكثير منهم من الأقليات، يفضلون البقاء تحت القيادة الفرنسية. كانوا يخشون من انخفاض رواتبهم وتدهور أوضاعهم إذا نقلوا إلى إمرة الحكومتين المحليتين. ففي تلك الحال ستقع الحكومتان تحت ضغط تأمين الأموال للقوات الخاصة، حتى لو وافق الفرنسيون على تسليمها. وفي حين طالب الشعبان بإنشاء "جيشين وطنيين"، كانت الحكومتان تدركان عجزها عن تلبية هذا المطلب. وعندما قدّمت حكومة رياض الصلح موازنتها الأولى إلى مجلس النواب في آذار/مارس 1944، حصل الدفاع الوطني على مبلغ 22,000 ليرة سورية (نحو 2000 جنيه إسترليني) من أصل أربعة وثلاثين مليون ليرة سورية، ما يعني عدم إمكانية تخصيص أموال للجيش الوطني تتجاوز راتب وزير الدفاع وموازنة صغيرة لمكتبه.

في 10 آذار/مارس، وصل الجنرال بول بينيه Paul Beynet لتولي المنصب بدلاً من شاتنيو الذي شارفت مدة خدمته على الانتهاء. أراد الفرنسيون تعيين بينيه في منصبه المندوب العام والقائد العام للقوات الفرنسية في المشرق. لكن الحكومة اللبنانية اعترضت على الفور: لم يعد هذان المنصبان منسجمين مع وضع لبنان كبلد مستقل. ورأت أن على الفرنسيين تعيين سفير، بالاتفاق معها، بحسب المعايير الدبلوماسية. فاضطر بينيه إلى القبول بلقب المندوب العام، وحاول أن يقدم نفسه بطريقة مقبولة فيما تُحاك المؤامرات الفرنسية الشريرة في الخفاء.

كان سبيرز مقتنعاً أن الفرنسيين يخططون لانقلاب عسكري. وبدأ ذلك مؤكداً بوصول عدد من الضباط العسكريين الفرنسيين - الذين وصفهم بأنهم ذوو "ميول يمينية متطرّفة" - ومن تقارير تفيد بنقل أعداد كبيرة من القوات الاستعمارية السنغالية من شمال أفريقيا إلى المشرق⁽¹⁾. بدأ أن المخطط يقضي بإحداث اضطرابات في الداخل لجعل التدخل الفرنسي ضرورياً⁽²⁾. أفاد سبيرز أنه وفقاً لمصدر سرّي في المندوبية، سيكون المسؤول عن تنظيم الاضطرابات العقيد جوتو Jouteau، قائد المدرسة الحربية الفرنسية التي أنشئت حديثاً؛ والجنرال مونتكلا Montclar، و"هو محارب سيئ السمعة"؛ والعقيد فرمولين Vermeulen، قائد القوات الخاصة؛ والعقيد أنجين Angen الذي "اتبع نجحاً متشدداً بعد أزمة تشرين الثاني/نوفمبر".

كان شاتنيو، الذي تناول سبيرز العشاء معه في 9 آذار/مارس، "علي علم بوجود مخطط فرنسي قيد الإعداد". فأبلغ سبيرز أن "مجموعة من 147 ضابطاً فرنسياً ذري ميول يسارية تشكّلت لمواجهة الزمرة العسكرية الفاشية النافذة". بدأ شاتنيو متأكداً من أن ديجول على علم بنشاطات المتطرّفين. لكن منتقدي سبيرز في وزارة الخارجية في لندن - بقيادة هانكي R.M.A. Hankey، رئيس الدائرة الشرقية - تحكّموا على "زوبعة المخاوف" التي أثارها سبيرز بشأن تحركات القوات الفرنسية ولم يأخذوا مخاوفه على محمل الجد. وكتب هانكي في آذار/مارس ملاحظة ساخرة: "يتضح مجدداً عدم إمكانية الوثوق بسبيرز في ما يخص الفرنسيين"⁽³⁾.

غير أن وقوع حادثة خطيرة في 27 نيسان/أبريل برّر مخاوف سبيرز. في ذلك اليوم قدم يوسف كرم، النائب المنتخب حديثاً عن شمال لبنان، إلى بيروت لشغل مقعده في مجلس النواب. عُرف كرم بولائه للفرنسيين، لكنّه تخلى عن دعمهم عشية الانتخابات، تماشياً مع المناخ السائد. مع ذلك، انضمّ عدد كبير من عناصر المعارضة الموالين للفرنسيين إلى موكبه لدى وصوله إلى بيروت، وكان العديد منهم يحملون الأسلحة ويرفعون الأعلام الفرنسية على سياراتهم. عندما دخل كرم مبنى مجلس النواب، حاول قسم من هذا الحشد الدخول معه عنوة. تسلّق عريف يرتدي زياً فرنسياً البوابة

(1) Spears to Foreign Office, 9 March 1944 (FO 371/40311)

(2) Commander-in-Chief Middle East to War Office, 14 March 1944 (FO 371/40311)

(3) Minute by R. M. A. Hankey, March 1944 (FO 371/40300)

الحديدية الرئيسية ورفع علماً فرنسياً عليها، فأطلق أحد المحتشدين عليه النار على الفور وأصابه. في وقت لاحق، أصدر الفرنسيون مذكرة توقيف بحق نعيم مغيب، بناء على تهمة ملفقة بمحاولة القتل. وكان مغيب قائد قوة صغيرة قامت بحماية الحكومة المؤقتة في بشامون في أثناء أزمة تشرين الثاني/نوفمبر، فاستحقّ كره الفرنسيين. كما وقعت مشاحنة أمام مبنى البرلمان وألقيت قبلة يدوية أدت إلى جرح الرجل الثاني في قيادة الشرطة اللبنانية وعشرين آخرين ومقتل أربعة مدنيين ودركي. ذكر سبيرز أن "ثمة دليلاً كافياً يُثبت أن للأمن العام صلة بهذه المسألة". لكن لم يتضح إذا كانت تلك محاولة خرقاء للإطاحة بالحكومة أو مجرد بالون اختبار.

شعر رياض الصلح بقلق شديد، وتعهد باستخدام القوة لقمع المشاغبين. واستهجن علناً وجود "مجموعة من الخونة" المستعدين لانتهاك حرمة مجلس النواب وكل ما يمثلته. لكنه أضرمر قلقه هو وزملاؤه من النيات الفرنسية. وخوفاً من الاعتقال - وربما تكرار أحداث تشرين الثاني/نوفمبر - أمضى الوزراء ليلة 4-5 أيار/مايو بعيداً عن منازلهم. وتعليقاً على هذه الأحداث، أرسل سبيرز تقريراً إلى لندن ذكر فيه:

إن الفرنسيين يتبعون سياستين مختلفتين منذ تشرين الثاني/نوفمبر الفائت. السلطات العليا، أي كاترو وشاتيو وبينيه، تنتهج سياسة نقل السلطة بشكل حقيقي. لكن عدداً من المسؤولين والضباط الفرنسيين وعناصر الأمن العام يعملون سراً بخلاف ذلك بالضبط، وينفقون مبالغ طائلة لهذه الغاية، مركزين على إثارة مخاوف المسيحيين. واجهت السلطات السورية مشكلات مماثلة لتلك التي واجهها اللبنانيون. عندما طلبت 1000 بندقية لقوى الدرك غير المجهزة، عرض الفرنسيون بيعهم 400 بندقية مستعملة من طراز 1904 مقابل 400 ليرة سورية للبندقية الواحدة، أي ما يعادل خمسة أضعاف ونصف ثمن بندقية لي إنفيلد جديدة. وكانت الذخيرة التي عرضها الفرنسيون من صنع سنة 1884 بسعر 147 قرشاً (3 شلنات و4 بنسات) للطلقة. فقال سبيرز ثائراً: "من الواضح أن الفرنسيين لا يرغبون في أن تتولّى الحكومتان المحليتان المسؤولية عن حفظ الأمن الداخلي بكفاءة. ويبدو أن سياسة الجزائر تقضي بجعل هذا الأمر مستحيلاً"⁽¹⁾.

شكّل تحرير باريس من الألمان، وكانت هيئة الإذاعة البريطانية أول من أعلن عنه في 23 آب/أغسطس 1944، مناسبة احتفل بها الفرنسيون في المشرق، وأثارت قلق الحكومتين المحليتين. في بيروت، حضرت الجالية الفرنسية قدّاس شكر في كنيسة مار أنطونيوس، بينما ألقت طائرات فرنسية مظلات تتدلى منها الأعلام الفرنسية. ووزعت أعلام فرنسية أخرى على المدنيين خلال الاحتفالات. وفي دمشق، أقيم حفل استقبال صاحب في نادي الضباط في دمشق وأضيء صليب اللورين Croix de Lorraine [رمز قوات الفرنسيين الأحرار] وسط شارة النصر (V) على جبل قاسيون الذي يطلّ على المدينة ذات الغالبية المسلمة. من نافلة القول إن الفرنسيين لم يلغوا الحكومة السورية ولم يطلبوا موافقتها على ذلك. تصرّف الضباط الفرنسيون على طريقة: نحن الأسياء اليوم! استقلالكم غير قائم، وكل ما يفعله البريطانيون هو محاولة الحلّ محلنا.

في 24 آب/أغسطس، بعد يوم واحد من تحرير فرنسا، أرسل مفوض الشؤون الخارجية لدى ديغول، رينيه ماسيغلي، رسالة شديدة اللهجة إلى أنتوني إيدن يشتكي فيها من تعديّ البريطانيين على موقع فرنسا في المشرق⁽¹⁾. وطالب بإصدار تعليمات إلى الممثلين البريطانيين بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لسوريا ولبنان. وقال إنّ بعض المسؤولين البريطانيين، قاصداً سبيرز بالطبع، يعتقدون أن سوريا ولبنان دولتان مستقلتان تماماً ولا يوجد سبب لإنهاء الانتداب بموجب معاهدة. وبعد أن عرض الشكوك الفرنسية المعتادة تجاه النيات البريطانية، زعم أن هذا الوضع يتيح لبريطانيا الاستفادة من الموقف الفرنسي "الدوني المؤقت". وألح ماسيغلي على أن يعلن إيدن أن بريطانيا تدعم إبرام معاهدة بين فرنسا ودولتي المشرق.

رفض إيدن تهمة التعديّات البريطانية. وكتب رداً عليه أن من الطبيعي، والمحتم، أن يكون الممثلون البريطانيون على علاقة وطيدة مع الحكومتين المحليتين. ورفض بحزم "الإيحاء غير المبرّر" أن بريطانيا تسعى للحلول محلّ النفوذ الفرنسي في المشرق. لكنه ارتكب بعد ذلك خطأ كبيراً في التقدير. ففي تنصّل تام من كل سياسات سبيرز وتوصياته - التي أزعجته بقدر ما أزعجت الفرنسيين - أبلغ إيدن ماسيغلي أن الحكومة البريطانية "ترحب بعقد اتفاق بين فرنسا ودولتي المشرق للتوصّل بحرية إلى

(1) Rene Massigli's note of 24 August 1944 and Anthony Eden's reply (FO 371/40302)

المعاهدتين اللتين أشار إليهما إعلاننا الاستقلال، باعتبارهما الطريقة الملائمة لتحديد مستقبل العلاقة".

كان إيدن يقول الآن إن بريطانيا تدعم المطلب الفرنسي بتوقيع معاهدة، بينما نقل سبيرز إلى لندن مراراً وتكراراً أن الحكومتين اللبنانية والسورية لا تنويان توقيع معاهدة مع فرنسا أو إعطاءها امتيازات خاصة في بلديهما. أدت سياسة لندن المتناقضة، التي تقوم على دعم فرنسا فيما تظهر الاعتراف باستقلال دولتي المشرق، إلى إضعاف رياض الصلح والجنرال سبيرز، وسببت الكثير من المشكلات في وقت لاحق. بناء على تعليمات مشددة من إيدن، كان على سبيرز (محاولاً إخفاء حرجه وغضبه الكبيرين) السفر إلى سوريا لإبلاغ الرئيس شكري القوتلي أن الوقت قد حان لعقد اتفاقية مع الفرنسيين. وقال إن سوريا ستحتاج إلى الدعم الاقتصادي والمادي ولن تحل بريطانيا مكان فرنسا في أي مجال. أثارت هذه المقولة المعاكسة لكل ما دعا إليه سبيرز في السابق، غضباً شديداً. أدان السوريون هذا الموقف باعتباره "خيانة تامة". وكانوا يدركون أن استقلالهم يعتمد على التوازن بين البريطانيين والفرنسيين: إذا سحب البريطانيون دعمهم فسيخسر السوريون. وجد القوتلي الغاضب نفسه مضطراً إلى كتابة رسائل إلى تشرشل وروزفلت وستالين يشجب فيها مراسلات إيدن - ماسيغلي، ويقارنها بالاتفاقات السرية التي حصلت في الحرب العالمية الأولى، وأدت إلى الانتداب الكريه الذي فرض على سوريا. وأضاف القوتلي أن أي مفاوضات مع الفرنسيين ستكون غير مجدية، لأن سوريا "لا تريد منح فرنسا أي امتياز ثقافي، أو مادي، أو سياسي، أو عسكري". وأنها ترغب في التعامل مع جميع الدول، وبخاصة القوى العظمى، على أساس المساواة⁽¹⁾.

لا أوهام على الجبهة العربية

فيما كانت هذه المواجهات قائمة مع الفرنسيين، انشغل لبنان وسوريا أيضاً بالعلاقات بين العرب. كان رياض، باعتباره شخصية قومية عربية، على وفاق منذ عقود مع جميع الحكام العرب الرئيسيين. وأصبح واحداً منهم بصفته رئيس وزراء

(1) Spears to Foreign Office, 23 September 1944 (FO 371/40203).

لبنان، وسطع نجمه بانتصاره في مواجهة تشرين الثاني/نوفمبر مع الفرنسيين. فالتهمت عليه الدعوات والتهاني من كل أنحاء المنطقة.

سلّطت الأضواء على لبنان منذ انتخابات آب/أغسطس 1943، وشغل الصفحات الأولى للصحف العالمية خلال أزمة تشرين الثاني/نوفمبر. وأصبح لبنان، على صغر حجمه، حقل اختبار لسلسلة من الأفكار المثيرة. ضمت هذه الأفكار حق الدول الصغيرة بالاستقلال والديمقراطية، وصدق أهداف الحلفاء في الحرب، وميثاق الأطلسي - الإعلان الشهير لروزفلت وتشرشل في آب/أغسطس 1944 الذي أكّدا فيه "حق جميع الشعوب في اختيار شكل الحكومة التي تحكمهم". وقد حاول رياض الصلح مراراً الإشارة إلى ميثاق الأطلسي في خطابه، لتبرير مطالبة لبنان بالاستقلال عن فرنسا.

قام رياض بعد استلامه رئاسة الحكومة، بعدة زيارات إلى البلدان المجاورة، وكانت ترمز إلى الانبعاث العربي. بدأ بزيارة القاهرة في كانون الثاني/يناير 1944، حيث حلّ ضيفاً على الملك فاروق، وأجرى محادثات مع رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا. تلت هذه الرحلة زيارتان إلى حيفا ودمشق، في نيسان/أبريل وأيار/مايو إلى بغداد والرياض أيضاً. استقبل رياض الصلح والوفد المرافق بخفاوة كبيرة حيثما حلّ، وضمّ الوفد وزير الخارجية اللبناني سليم تقيلا، وموسى مبارك، مدير مكتب الرئيس بشارة الخوري.

تمحور الموضوع الرئيسي للمباحثات في هذه الرحلات حول احتمال الوحدة العربية. فقد برز هذا الموضوع إلى الواجهة مع النهاية الوشيكة للحرب. نظرياً، كان جميع الزعماء العرب يريدون الوحدة العربية، لكن الأمر مختلف من الناحية العملية. فكل زعيم يخشى أن تحلّ الوحدة من حرّيته في التصرف، أو تضعه تحت رحمة خصومه. وكان رياض الصلح يعرف كل الأسرار والخصومات والحواس الجغرافية السياسية لمختلف زعماء العرب، نظراً إلى تمرّسه في السياسة العربية.

عرف رياض، على سبيل المثال، كما علم كل عربي يُعنى بالسياسة، أن الملك السعودي عبد العزيز ابن سعود في خصومة مريّة مع الهاشميين. وهذا الصراع يعود إلى سنة 1925 عندما سيطرت قوات ابن سعود على مكّة، وأخرجت الشريف حسين من

الحجاز إلى المنفى في قبرص. فأخذ ابن سعود لقب ملك الحجاز وأضافه إلى لقبه أمير نجد. ثم حصل على اعتراف رسمي من بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي، بالإضافة إلى اعتراف المسلمين بدوره الجديد كحامي المدينتين الإسلاميتين المقدستين. على الرغم من هذه النجاحات، واصل ابن سعود ارتيابه بالهاشميين، وبخاصة بعدما أصبح عبد الله، أحد أبناء الشريف، أميراً على شرق الأردن (وفي ما بعد ملكاً). وأصبح ابنه الآخر، فيصل، ملكاً على العراق. نتيجة لذلك، قرر ابن سعود النأي بنفسه عن كل مخططات الوحدة العربية، واعتبارها توسعاً هاشمياً ليس إلا على حدود مملكته.

كان الجميع يعرف أن الأمير عبد الله يطمح إلى تولي عرش سوريا، ثم دمج ذلك البلد مع شرق الأردن وفلسطين ولبنان في اتحاد سوري كبير. وقد عُني عبد الله بهذا المطمح منذ أن تسلم شقيقه الأصغر، فيصل، عرش العراق، وهو البلد الذي خصه به المؤتمر السوري الأول المنعقد في دمشق في آذار/مارس 1920. ثابر عبد الله طوال عقود على التخطيط لاجتذاب سوريا إلى فلكه، لكن دون نجاح. وتجددت آماله بعد موت فيصل في سنة 1933، ما جعله رأس العائلة الهاشمية، وهو مركز أمل أن يعزز فرصه في نيل عرش سوريا. في تموز/يوليو 1938، اقترح عبد الله على هارولد مكمايكل، المندوب السامي البريطاني في فلسطين وشرق الأردن، إمكانية حل المسألة الفلسطينية التي تزداد صعوبة بإقامة مملكة عربية تضم شرق الأردن وفلسطين. وفي صيف 1939، أطلق خطة مماثلة واضعاً نصب عينه ضم سوريا ولبنان إلى مملكته المقترحة⁽¹⁾.

بيد أن اعتماد عبد الله مالياً على بريطانيا والاشتباه بتعامله مع الصهاينة، أضعفا حجته كثيراً. فقد اعتُبر أنه يسعى لتحقيق طموحات عائلية أنانية، بدلاً من الأهداف القومية الكبرى. وقد عارضه الفرنسيون وابن سعود والوطنيون السوريون، بل إن بريطانيا، البلد الذي يرعاه ويساند، لم تكن متحمسة لطموحاته. وحثته على الاكتفاء بإقطاعه الصحراوية التي تخدم المصالح البريطانية، وتشكل قاعدة للجيش العربي الذي كان يقوده ضباط بريطانيون.

واجهه عبد الله منافسة شرسة من بغداد أيضاً. فقد رأى الوصي على العرش عبد الإله، ابن أخيه، ونوري السعيد، رجل الدولة العراقي البارز، أن العراق مؤهل أكثر من شرق الأردن لقيادة أي وحدة عربية مقترحة. ولدى العراق عائدات نفط متزايدة، وجيش متوسّع، وعضوية في عصبة الأمم، وأيديولوجية قومية ذات جاذبية خارج حدوده. غير أن هذين المخططين الهاشميين اصطدما بمعارضة قوية من الرياض وباريس ولندن، فضلاً عن القاهرة.

في العشرينيات والثلاثينيات، لم تكن مصر مهتمة كثيراً بشؤون البلدان العربية الأخرى. والاستثناء الوحيد لذلك هو السودان الذي طالما اعتبرته امتدادها الطبيعي، لأن أمن نهر النيل من الأمور الأساسية التي تشغل اهتمام المصريين. لكن عندما تسلّم النحاس باشا، زعيم الوفد، السلطة في سنة 1942، سعى إلى تعزيز موقع مصر الإقليمي ومركزه الشخصي بأداء دور رائد في النقاش المتنامي بشأن الوحدة العربية. فدعا وفوداً من البلدان العربية إلى القاهرة للتباحث، تحضيراً لمؤتمر أمل أن ينتج عنه إجماع بشأن الشكل الذي ستتخذه الوحدة العربية.

كان النحاس والملك فاروق يعرفان أن طموحات الهاشميين - سواء تلك التي يسعى إليها الأمير عبد الله أو عبد الإله ونوري السعيد لإنشاء سوريا الكبرى أو وحدة الهلال الخصيب - تتعارض مع مصالح مصر في دورها الطموح الجديد باعتبارها القوة العربية الأبرز. ونشوء كتل كبير في البلدان العربية الآسيوية يشكل تحدياً للنفوذ المصرية في شرق المتوسط. وهكذا أصبح منع حدوث مثل هذا التطور من المبادئ الدائمة للسياسة الخارجية المصرية.

اتّبعت مصر بعد ذلك سياسة معارضة أي شكل من أشكال الوحدة بين دولتين أو أكثر من الدول العربية. واقترحت بدلاً من ذلك شيئاً أكثر تواضعاً: عائلة ممتدة من الدول العربية المستقلة التي تتجمّع حول "الشقيقة الكبرى" مصر. ويمكن بعد ذلك تعبئة هذا التجمّع في الأوقات الملائمة دعماً للأهداف الوطنية المصرية. وقد بلغت هذه السياسة أوجها عندما دخل عبد الناصر في صراع مع القوى الغربية في الخمسينيات والستينيات. وكانت الوحدة التي أقامها عبد الناصر مع سوريا (1958-1961) ابتعاداً وجيزاً عن هذه السياسة، وانحرافاً ندم عليه لاحقاً. فقد فرضتها عليه القيادة العسكرية

السورية الحاكمة في ذلك الوقت، لأنها شعرت بحاجة إلى حماية عبد الناصر المحبوب جماهيرياً، بالإضافة إلى المنظرين الإيديولوجيين لحزب البعث.

إلى جانب الاختلافات الاستراتيجية الواسعة بين الدول العربية الرئيسية، تدهورت العلاقات بين تلك الدول بسبب الكراهيات الشخصية، التي كان على رياض أن يأخذها في الحسبان في اتصالاته مع العرب. كان الملك فاروق يكره النحاس باشا، الذي فرضه عليه البريطانيون عندما وصل رومل إلى حدود مصر. وعندما زار رياض الوفد اللبناني مصر، وصف أحد رجال حاشية الملك فاروق النحاس باشا بأنه "إميل إده مصري" لأنه استلم منصبه "بقوة مدافع الدبابات البريطانية".

من لحظات السرور النادرة التي شعر بها رياض في أثناء زيارته القاهرة سنة 1944 لقاءه بصديقه مكرم عبيد ثانية. كان عبيد محامياً قديراً تخرج في أكسفورد وشخصية لامعة في الطائفة القبطية. وقد تفاوض على معاهدة 1936 البريطانية المصرية بوصفه الأمين العام لحزب الوفد. ولكنه انسحب من الوفد بعد خلافات مع بعض معاوني النحاس، وأنشأ "الكتلة الوفدية" قبل سنة من زيارة رياض. غير أنه ظل متمسكاً باعتقاده الذي جذب رياض الصلح، وهو أن المصريين عرب وأن الوحدة العربية والتضامن العربي هما الشرطان الأساسيان للنهضة العربية في العصر الحديث⁽¹⁾.

كانت هناك عداوات مماثلة في العراق، حيث عبد الإله ونوري السعيد يكره أحدهما الآخر. مع ذلك، فإن كلا منهما بحاجة إلى الآخر لاستعادة السيطرة على العراق، بعد قضاء بريطانيا على ثورة رشيد عالي في سنة 1941. ولم تكن هناك مودة بين نوري السعيد العراقي والنحاس باشا المصري، فقد تنافس كل منهما على فرض رؤيته على العالم العربي بشأن الشكل الذي تتخذه الوحدة.

ظل ابن سعود، الشخصية القوية في شبه الجزيرة العربية، ينظر إلى خطط الوحدة بارتياح كبير. لم يكن متحمساً للمؤتمر العربي الذي أراد النحاس باشا عقده. كان لديه بعض الشخصيات التي يفضلها في العالم العربي. فقد أحب رياض الصلح

(1) أحمد غسان جودة، المكرمات، القاهرة، لا تاريخ، ص 147 - 150، نقل عن Anouar Abd el-Malek, *Anthologie de la littérature arabe contemporaine*. 2 vols. Paris 1965, vol.

والرئيس السوري شكري القوتلي وقدّر شجاعتهم ووطنيتهم. لكنه لم يكن يثق بوزير الخارجية السوري جميل مردم، واعتقد أنّه متأثر بنوري السعيد. كأن الخلافات البينية العربية لم تكن كافية، فواجه رياض وضعا داخليا لا يبعث على الرضى في المشرق. وشعر بالإحباط من انقسام أصدقائه السوريين - قادة الكتلة الوطنية الذين عمل معهم عن قرب طوال عقود - بسبب الصراعات الشخصية وتنافس المصالح بين مدينتي حلب ودمشق. وغالبا ما سعى للتوسط في ما بينهم. كما كانت وساطته مطلوبة في فلسطين، حيث استمر الاقتتال بين الحسينيين والنشاشيبيين، وغالبا ما أوقع قتلى في صفوفهم. وقد أدى هذا الانقسام المفجع إلى جعل الفلسطينيين فريسة سهلة للصهاينة.

جدّد رياض معلوماته عن العديد من هذه العداوات والخصومات في الزيارات العربية التي قام بها في سنة 1944. في مصر، ذكر بالتوتر الشديد بين الملك فاروق والنحاس باشا، على الرغم من أنهما بالغا في الترحيب به. كما أنه لاحظ أن المصريين لم يكونوا في ذلك الوقت مهتمين كثيرا بالمسألة الفلسطينية. فدافع رياض عن القضية الفلسطينية في اجتماعاته الرسمية مع النحاس، ورأى أن على الدول العربية الاتصال بالزعماء الفلسطينيين، واعتماد الحلول التي يوصون بها، ومحاولة منع المزيد من الهجرة اليهودية وشراء الأراضي، والمساعدة في تشكيل حكومة وطنية فلسطينية. وأبلغ رياض السفير البريطاني، لورد كيليرن Lord Killearn، أن "المباحثات بشأن الوحدة العربية غير مجدية إذا لم يستطع الممثلون الفلسطينيون المشاركة فيها"⁽¹⁾. كما لاحظ رياض أن اهتمام مصر لم يكن يتركز على فلسطين بالدرجة الأولى، بل على إحباط قيام أي ائتلاف عربي في القسم الآسيوي من العالم العربي، لأنها تخشى من وقوعه تحت سيطرة القيادة العراقية.

في طريق العودة من مصر، توقف الوفد اللبناني المكوّن من رياض الصلح وسليم تقلا وموسى مبارك في حيفا للاجتماع بالقادة الفلسطينيين. وقد فوجئوا عندما علموا بوجود نوري السعيد الذي كان يعالج في مستشفى هناك. فاعتنق الفرصة ليشرح لهم خطته بشأن وحدة "الهلال الخصيب" التي ستمتد من العراق إلى سوريا، ومن لبنان إلى

فلسطين من دون عوائق حدودية. وقال إنَّها ستكون وحدة تريد أن تؤدّي بغداد دوراً أساسياً فيها. فلم تلقَ هذه الأفكار ترحيباً من الوفد اللبناني، الذي كان حريصاً على المحافظة على الاستقلال المشّ الذي جاهدوا لتحقيقه.

لم تحقّق زيارات رياض إلى القاهرة وحيفا وبغداد والرياض أي نتائج ملموسة. وفي أثناء زيارة دمشق، تعهّد رياض لأصدقائه الوطنيين ألا يوقع لبنان أي معاهدة مع فرنسا، أو يوافق على إقامة قاعدة عسكرية فرنسية في لبنان، قد تشكّل تهديداً لسوريا. ولعل ذلك هو ما عناه في بيانه الحكومي في العبارة التي طالما كرّرها، بأنّ لبنان لن يكون "ممرّاً للاستعمار" إلى البلدان العربية المجاورة.

في كل تلك العواصم العربية، ذكّر رياض ثانية بالحدود التي لن يتجاوزها الزعماء العرب في ما يتعلّق بالوحدة العربية. لا شك في أنه شعر بخيبة الأمل بصفته قومياً عربياً قديماً، لكن ذلك ربما يلائم مصالح بلده بصفته رئيساً لوزراء لبنان. ولأنه يدرك خوف المسيحيين في لبنان من الغرق في المحيط الإسلامي، أشار بخفاء إلى أن الخطة المصرية المفرطة في التواضع لإنشاء اتحاد فضفاض بين الدول العربية هي ما يمكن إقناع المسيحيين في بلده بقبوله.

تطوّر موقف رياض بشكل ملحوظ منذ الثلاثينيات. ففي شبابه، كان يعلم بتحقيق الوحدة السورية كخطوة أولى نحو الوحدة العربية الأوسع. لكن عندما دخل المعتزك السياسي في لبنان، ووضع الوصول إلى السلطة في بيروت نصب عينيه، اضطر إلى تعديل موقفه ليأخذ في الحسبان الرأي العام المحلي الذي يتضمّن الرأي المسيحي إلى حدّ كبير. ودُعي الآن إلى تحقيق الأهداف اللبنانية بدلاً من الأهداف القومية العربية. وما ظنّ أنه مجرد محطة على الطريق، بدأ يبدو كأنه وجهة نهائية. لذا فإنه دعا الآن إلى استقلال لبنان بحدوده الموسّعة في سنة 1920 بصفته وطنياً لبنانياً. وأصبح التحدي الذي يواجهه اجتذاب مسلمي لبنان لدعم الدولة اللبنانية الجديدة.

لاحظ رياض باكراً أن السعي إلى تحقيق استقلال لبنان يجب أن يقوم على تقاسم السلطة بين المسلمين والمسيحيين⁽¹⁾. وشكّل الميثاق الوطني الذي صاغه مع بشارة الخوري تعبيراً عن هذا التفاهم الذي بنى عليه برنامجه السياسي. وللمحافظة على تأييد

(1) انظر شهادة نصري المعلوف في 510 ff. Khoury (ed.), *Salim Takla*.

المسيحيين، لم يكن لديه خيار سوى معارضة الخطط الساعية لتحقيق وحدة عربية إقليمية، والدفاع عن السيادة والاستقلال وسلامة أراضي دولة لبنان الكبير. وباستطاعة لبنان التعاون بحرية مع الدول العربية الأخرى ضمن هذه الحدود الصارمة، وكانت هذه الصيغة الحذرة الطريق الوحيد للإبقاء على الائتلاف الداخلي.

لم يقتنع بعض المسيحيين بصدق دفاع رياض الصلح عن لبنان. واستاء بعض المسلمين اللبنانيين والعديد من أصدقائه في الكتلة الوطنية السورية من موقفه الجديد. فاتهموه بالتخلي عن مثله القومية من أجل السلطة. ومع ذلك لم تكن أي دولة عربية مستعدة للتخلي عن سلطاتها السيادية من أجل وحدة عربية واسعة أو اتحاد فيدرالي. ولم يكن لبنان استثناء في رغبته في حماية استقلاله بالطريقة نفسها تقريباً. فقد استبعدت الشكوك المستوطنة التي يكتنّها الزعماء العرب بعضهم لبعض أي احتمال لتحقيق الوحدة العربية.

بروتوكول الإسكندرية

في آب/أغسطس 1944، ألقى رياض الصلح خطاباً في مؤتمر المحامين العرب في دمشق عبّر فيه عن آرائه بقوة.

لبنان بلد عربي، كما أعلنت حكومته في بيانها الوزاري الذي أجمع عليه كل اللبنانيين وأصبح ميثاقه الوطني.

لن يكون لبنان إقطاعية للاستعمار، أو يكون ممراً لقوى الاستعمار إلى الدول العربية الأخرى - إلى بلدكم مثلاً!

سيذهب لبنان المستقل الذي اعترفتم باستقلاله إلى الحد الذي تذهبون إليه أنتم أنفسكم...

أقول إنّ على لبنان والعرب والشعوب الأخرى الاستماع إلى ما سأقول... من وجهة نظري، إن الوحدة العربية هي الضمانة لاستقلال كل بلد يعتنقها ضمن الحدود التي يضعها لنفسه. ينغمس بعض الناس في إعداد المؤامرات، ويقال إن سوريا والعراق اتفقا على ابتلاع لبنان. هذا كذب وافتراء. لا يحصل شيء من هذا النوع ولن يحصل...

خلال حملتي الانتخابية قلت لإخواني الذين يشاركونني الرأي: لبنان ليس على المسار الذي نرغبه. يتبع المسلمون والمسيحيون مسارات مختلفة، ومن واجبنا أن نوحّد مسارهم تحت راية الاستقلال.

لقد قمت بحملتي على هذا الأساس، وقبلت برئاسة الحكومة، وعملت مع إخواني من أجل استقلال لبنان. حققنا هدفنا ورفعنا العلم الوطني عالياً، ومنحنا المرتبة الأولى للغة العربية التي أصبحت لغة البلاد الرسمية الوحيدة، وحررنا الدستور من جميع الشوائب...

دعوني أخطب الشعب اللبناني... اعترف إخواني في الدول العربية باستقلالكم، شرط أن يتعاون لبنان مع الدول العربية - ضمن إطار استقلاله وحدوده وسيادته. سأجد نفسي، من دون شك، في موقف صعب في الكفاح مع زملائي الذين يعتقدون أنني أصبحت "إقليمياً". لكن يجب أن أقول الحقيقة اليوم وهي أن جميع الدول العربية تفهم الوحدة كما يفهمها لبنان. هذه هي الحقيقة⁽¹⁾.

بين 25 أيلول/سبتمبر و7 تشرين الأول/أكتوبر 1944، اجتمعت الوفود العربية، بدعوة من مصر، في الإسكندرية فيما عُرف باللجنة التحضيرية للمؤتمر التأسيسي لجامعة الدول العربية⁽²⁾. ترأس رياض الصلح الوفد اللبناني إلى مؤتمر الإسكندرية، وألقى سليم تقلا كلمة لبنان.

ناقشت الوفود ثلاثة أشكال مختلفة للتعاون: وحدة مركزية، ووحدة فيدرالية، ووحدة كونفيدرالية. رفض رياض الصلح أي نوع من الفيدرالية، لأنها ستقسم لبنان، فيما تضغط فرنسا لتوقيع معاهدة تضمن لها الامتيازات التي طالما تمتعت بها. وقد تمكّن لبنان من مقاومة هذه الضغوط بفضل التحالف بين وطنيه العرب والكتلة الدستورية بقيادة بشارة الخوري. لكن إذا ضغط الوطنيون العرب على لبنان للقبول بحل فيدرالي، فستسحب الكتلة الدستورية من هذا التحالف على الفور. وسيفتح ذلك الطريق إلى معاهدة مع باريس تعزّز النفوذ الفرنسي في المشرق، وتشكل خطراً كبيراً على سوريا.

(1) البشير (دمشق)، 17 آب/أغسطس 1944. تقرير عن خطاب رياض الصلح في مؤتمر اخامين العرب.
(2) Raghd el-Solh, 'Selim Takla et la Creation de la Ligue Arabe', in Khoury (ed.), 341-3.
..Salim Takla, pp. 341-3

سرعان ما اتضح أن اجتماع الإسكندرية سيحقق أهدافاً محدودة فقط. ولم يجمع هذا الاجتماع سوى على إنشاء رابطة للدول فضفاضة أكثر من اتحاد كونفدرالي. ذلك هو المعنى الحقيقي لبروتوكول الإسكندرية الذي وقع في نهاية الاجتماع. وبعد إجراء مزيد من التعديلات، وتخفيف الأهداف الوحشية، أسهم هذا البروتوكول في إنشاء جامعة الدول العربية في القاهرة في آذار/مارس 1945.

الفرنسيون يردّون

ردّ الفرنسيون، ومؤيدوهم المسيحيون المتشدّدون في لبنان، بعنف على نتائج مؤتمر الإسكندرية، على الرغم من تواضعها الشديد. تشجّع الجنرال بينيه، المندوب العام الفرنسي، برّد إيدن على ماسيغلي، وهو الرّد الذي دعمت فيه بريطانيا الطلب الفرنسي بإبرام معاهدة، فافتعل أزمة مع الحكومة اللبنانية بإرسال ملاحظة متهورّة وقطعية إلى الرئيس بشارة الخوري. ادعى أن بروتوكول الإسكندرية يقيد لبنان، ويحول دون احتمال إبرام معاهدة مع فرنسا. ونتيجة لذلك، فإن الفرنسيين يعتبرون إعلان كاترو استقلال لبنان وسوريا في سنة 1941 لاغياً.

كان هذا الموقف مبالغاً فيه حتّى للبريطانيين ذوي العقلية الاستعمارية. فسارعت وزارة الخارجية في لندن بإعطاء تعليمات لسفارتها في باريس لمناقشة الأمر مع وزير الخارجية الفرنسي الجديد جورج بيدو Georges Bidault⁽¹⁾. كتب القائم بالأعمال البريطاني في فرنسا هولمان A. Holman إلى بيدو: "إن حكومة صاحب الجلالة، لا ترى في قرارات بروتوكول الإسكندرية ما يمكن اعتباره إضعافاً لاستقلال الدول المعنية. وإن حكومة صاحب الجلالة لا يمكنها في أي حال من الأحوال قبول الاقتراح الذي تنطوي عليه رسالة بينيه إلى الرئيس اللبناني والذي يقضي بإعادة النظر في استقلال دولتي المشرق"⁽²⁾.

(1) Foreign Office to Paris, 20 October 1944 (FO 371/40112).

(2) A. Holman, British Chargé d'Affaires to M. Georges Bidault, Minister of Foreign Affairs, 24 October 1944 (FO 371/401123).

طالب اللبنانيون بسحب مذكرة بينيه على الفور، وأدلى رياض ببيان حماسي في مجلس النواب:

لقد أصبحنا مستقلين لأننا أردنا الاستقلال، ولأن الدول العربية وقوات الحلفاء قد اعترفت باستقلالنا. هذا واقع لا يقبل التحدي...

ستتمسك باستقلالنا وندافع عنه مهما كان الثمن. تشرين الثاني/نوفمبر بالنسبة إلينا هو شهر حافل بالأحداث. لقد خرجنا من تشرين الثاني/نوفمبر الماضي سالمين غانمين، وستخطى تشرين الثاني/نوفمبر الحالي سالمين غانمين أيضاً.

أما بالنسبة إلى توقيع المعاهدة مع فرنسا، فقد قلت، وقالت الحكومة اللبنانية، إن لبنان لا ينوي توقيع أي معاهدة مع أي سلطة أو دولة. نحن عازمون على الذهاب إلى مؤتمر السلام متحررين من أي وعود أو معاهدات... لا يوجد سبب للخوف. فصفق النواب طويلاً لهذا البيان.

يتضح لأي مراقب شهد الحماسة الوطنية في دولتي المشرق، وتوق غالبية السكان العظمى للتخلص من الفرنسيين، أن أنتوني إيدن ارتكب خطأ فادحاً عندما شجع الفرنسيين على الضغط على دولتي المشرق لإبرام معاهدة. وكانت الحكمة تقتضي منه إبداء اهتمام بالتقارير التي يرسلها سبيرز أكثر من آراء المسؤولين المتحيزين في لندن وغرائزهم المعادية للعرب. وكان سبيرز قد اقتبس عن رياض الصلح قوله إن الحكومة اللبنانية لم تعترف ولن تعترف به قط. كما اقتبس عن رئيس الوزراء السوري سعد الله الجابري قوله أمام البرلمان السوري، "لا للمعاهدة! لا للانتداب".

لكن أعداء سبيرز أخذوا يحشدون قواهم في لندن الآن. كما عمل على تقويض سياساته كبار المسؤولين في الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية، وخاصة هانكي الذي كتب في كانون الأول/ديسمبر 1943 ما يلي:

تكمن المشكلة في إصرار السير إ. سبيرز على إخراج الفرنسيين بصورة تامة من المشرق، بغض النظر عن مفهومنا في لندن للمصالح البريطانية، أو تعليمات وزير الخارجية أو رئيس الوزراء. لقد أصبح من غير المجدي إرسال تعليمات إلى سبيرز، ولا

شك أنه سيحطّم مفاوضات الحلّ المؤقت [وتلك عبارة تلطيفية للإشارة إلى مفاوضات المعاهدة التي يريدّها الفرنسيون] إلا إذا استدعيناها. هذه هي نصيحتي⁽¹⁾.
ومما يؤسف له أن أنتوني إيدن قرّر الأخذ بهذه النصيحة.

المشاكل التي واجهها رياض في رئاسة الوزراء

لم تكن مهمة رياض الصلح سهلة في رئاسة الحكومة. فإلى جانب الصراع الطويل مع الفرنسيين، حاول رياض إدارة بلد صغير ذي موارد محدودة، وطبقة سياسية مشاكسة، وفساد كبير، وشكوك عميقة بين المسلمين والمسيحيين. وبعد بضعة أشهر من استلامه المنصب، واجهت حكومته احتجاجاً شاملاً على سوء الإدارة. تأخّر إقرار الميزانية وعدم النجاح في فرض ضرائب جديدة، وارتفاع تكلفة المعيشة والنفقات الحكومية، الحكومة، وتضخّم الوزارات بالتعيينات السياسية - كان الموظفون جهلة وقليلي الخبرة في أغليبيتهم، وانهماك الوزراء ومدراء الدوائر بما يُطلب منهم من خدمات. كان الوجهاء الصغار يشعرون أن من حقهم دخول أي مكتب حكومي في أي وقت. وانتشر جوّ عام بأن الحكومة لا تنجز سوى القليل.

كانت بعض هذه المشاكل مستفحلة داخل النظام، حيث تمنح الوظائف على أساس الطائفة بدلاً من الكفاءة. ويرجع ذلك إلى الطائفية المترسّخة في البلد، وهي التقليد الذي يقضي بأن تكون كل طائفة ممثلة بحصة وفقاً لعددّها في كل الوظائف العامة. فلا تزال الصراعات الطائفية حديثة في الذاكرة للسماح للبناني العادي بالتخلّي عن حقوقه الطائفية لمصلحة حقوقه كمواطن لبناني.

يتحمّل رياض الصلح جزءاً من الملامة أيضاً. فقد كان الصوت البليغ الذي يدعو إلى التحرر، والمنظّر الاستراتيجي السياسي المميّز، لكن لم يكن لديه حس إداري. فحوّل جميع الشكاوى الاقتصادية والمالية إلى عادل عسيران، وزير الإعاشة، الذي أصبح موضع النقد العام. وكان رياض يقول باستخفاف إنه لا يستطيع "القتال على جبهتين"، أي ضد الفرنسيين والمشكلات الداخلية.

استقالت الحكومة في 1 تموز/يوليو 1944 لتخفيف الضغط الشعبي. فطلب الرئيس بشارة الخوري من رياض الصلح تشكيل حكومة جديدة، كما كان متوقعاً. تولّى رياض حقيقيّ الداخلية والتموين، وقدم ضمانات أنه يعتزم إصلاح الإدارات، والاهتمام بالشؤون الداخلية بشكل صارم. وعيّن حميد فرنجية وزيراً للمالية، وهو زعيم ماروني بارز من زغرّتا. وغادر كميل شمعون الحكومة ليستلم منصبه سفيراً للبنان في لندن، وحلّ محمد الفضل، وهو شخصية شيعية شابة غير معروفة من جنوب لبنان، محلّ عادل عسيران.

ربما تمكّن رياض من الاحتفاظ برئاسة الوزراء في ذلك الوقت بسبب صعوبة إيجاد شخصية سنية بديلة ملائمة. فمنافسه الرئيسي، زعيم طرابلس عبد الحميد كرامي، يعتبر قليل الخبرة والثقافة، ويفتقر إلى ثقة المسيحيين؛ ولم يكن عبد الله اليافي راغباً في المنصب، وأدرك سامي الصلح أن بريق ابن عمّه سيطنغي عليه دائماً، وكان يُعتقد أن صائب سلام ليس جاهزاً تماماً لتولّي رئاسة الحكومة بسبب صغر سنّه، على الرغم من أنه مرشح ممتاز لحقيبة وزارية.

لكن الأمور لم تتقدّم بسلاسة. واجه رياض معارضة من داخل مجلس النواب وخارجه من ثلاث جهات: مجموعة نواب موالين لإميل إده بقيادة الدكتور أيوب ثابت وألفرد نقاش، وعدد من نواب جنوب لبنان بقيادة أحمد الأسعد، الذي أعاد إحياء المنافسة بين آل الصلح وآل الأسعد، وفئة معارضة صاخبة بقيادة توفيق عوّاد، الذي قيل إنه تلقى مبلغاً من الفرنسيين لافتعال الفوضى.

يعتقد أن إميل إده عقد سلسلة اجتماعات مع "عملاء فرنسيين" لم تعرف أسماءهم⁽¹⁾. لا شك في أن كيفية التعامل مع إميل إده شكّلت صداماً حقيقياً لرياض الصلح. أراد بعض النواب محاكمته بتهمة الخيانة العظمى بسبب تواطئه مع الفرنسيين في أحداث تشرين الثاني/نوفمبر. وأراد آخرون أن تصدر الحكومة قراراً بفصله من مجلس النواب. لكن رياض كان حريصاً على استرضاء مؤيدي إده بدلاً من إثارة غضبهم، كما كان مديناً لإده لأن الأخير أقنع الفرنسيين بعدم معارضته علناً في

G. W. Furlonge, British Consulate-General, to British Legation, Beirut, 10 August (1) 1944 (FO 226/252).

انتخابات آب/أغسطس 1943. سدّد رياض ذلك الدّين بالمحاجة بأن قضية إدّه تدرج تحت مادّة في قانون الانتخابات لسنة 1934 تنص على إقالة نائب، إذا وافق على تسلّم "منصب مدفوع الأجر" في الكنيسة أو الدولة. خسر إدّه منصبه لأنّه وافق على استلام منصب من الفرنسيين في 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1943، وحماه ذلك من تهمّة الخيانة العظمى.

في الوقت نفسه، ضغط الفرنسيون، الراغبون في تأكيد سيطرتهم الثقافية، على الحكومة اللبنانية لتوقيع اتفاقية ثقافية، واعتماد المنهج الفرنسي في المدارس اللبنانية. وكانت فرنسا تحاول فرض شهادة البكالوريا وإقناع الحكومة اللبنانية بعدم الاعتراف بشهادات المدارس الأميركية أو البريطانية. وذلك يعني استبعاد كل من لم يحصلوا على مؤهل تعليمي فرنسي من الوظائف العامة. ويشمل هؤلاء عشرات آلاف المسلمين اللبنانيين تعلّموا بالعربية أو الإنكليزية. وكان استبعاد هؤلاء السبب الحقيقي للخطوة الفرنسية من دون شك.

توتّر الوضع كثيراً حتى إن رياض الصلح بدأ يخشى على سلامته الشخصية. فارتفع عدد رجال الدرك الذين يحرسون مسكنه من أربعة إلى اثني عشر دركياً، كما وضع أربعة حراس مسلحين بالبنادق والرشاشات في أعلى أحد الأبنية المجاورة، وزوّدوا بتعليمات بمؤازرة رجال الدرك عند حدوث أي طارئ. وعند اقتراب نهاية السنة، زار ضابط في البحرية الفرنسية، الأدميرال أوبوينو Auboyneau، رياض الصلح في مكتبه في السراي، ودعاه إلى حضور حفلة على متن سفينته إميل بيرتن Emile Bertin. فأجابه رياض بمزاحاً: "أقبل الدعوة شرط أن نبقى على البرّ. في المرة السابقة نقلت إلى راشيا، هذه المرة قد يكون المكان أبعد بكثير".

سقوط إدوارد سبيرز

إذا وضعت مثل هذه المخاوف الشخصية جانباً، فإن مشكلة رياض السياسية الكبرى أن البريطانيين نأوا بأنفسهم عنه الآن، بعدما كانوا عوناً كبيراً له. ففي حين حاول الفرنسيون تحريض المسيحيين على المسلمين، ونشروا شائعات أن المسيحيين معرّضون لخطر الذوبان في تكتل إسلامي بإيحاء من البريطانيين، وأن الفرنسيين

وحدهم يستطيعون إنقاذهم منه، فقد التزم البريطانيون صمتاً مريباً. توجه سبيرز إلى لندن لإجراء محادثات صعبة في وزارة الخارجية. وفي غيابه، اتبع جيلبرت ماكيرث، القائم بأعمال المفوضية البريطانية، نهجاً معادياً صراحة لسياسة سبيرز. وعندما اشتكى رياض الصلح لفيرلونج من أن الفرنسيين يشجعون خصومه بالمال والسلاح والحملات الدعائية، نقل ماكيرث إلى هانكي أننا "نسمع عن هذه الأمور باستمرار - وهي سلسلة من الأخبار غير الواقعية وغير المدعومة بما يشتهر عن أنشطة الفرنسيين"⁽¹⁾.

عند عودة سبيرز إلى بيروت في نهاية شهر آب/أغسطس 1944، قرر أنتوني إيدن أن يضع حداً نهائياً لعمله في المشرق. لم يكن سبيرز بالنسبة إلى إيدن وبعض المسؤولين في وزارة الخارجية موفداً محباً للعرب لا يمكن إصلاحه فحسب، وإنما مبعوثاً شديد الاستقلالية أيضاً. كان يسعى إلى تحقيق أهداف سياسية شخصية، ويرفض اتباع النهج السياسي الرسمي الذي احتقره لأنه خاطئ وجبان. وفي 1 أيلول/سبتمبر، بعث إيدن برسالة باردة ومزعجة إلى سبيرز، لا يمكن تفسيرها سوى أنها رسالة صرف من عمله.

أما وقد أوشكت الحرب على النهاية، من المهم جداً أن نبذل قصارى جهدنا لتمهيد الطريق للتوصل إلى اتفاق بين دولتي المشرق والفرنسيين، ما سيسمح لهم بإقامة العلاقات المستقبلية بينهم على أسس دبلوماسية عادية. لم أستطع إقناع نفسي بأن أي اتفاق رسمي أقل من معاهدة يمكن أن يحقق هذا الهدف.

لذا لن نحمّل أي فرصة لإقناع الحكومتين المحليتين أننا لا ننظر إلى أن إبرام اتفاق مع الفرنسيين هو الطريقة الفضلى فحسب لتأمين استقلال تام غير متنازع فيه، بل ربما الطريقة الوحيدة. ويجب أن تبذل أيضاً ما في وسعك لتحقيق حل مؤقت بين الدولتين والفرنسيين يمهّد الطريق لتوقيع مثل هاتين المعاهدتين...

سأتصل بك وبالوزير المقيم في القاهرة، بعد فترة قصيرة، للتحقق من تقليص بعثة سبيرز إلى حد كبير، عن طريق استيعابها في المفوضية، أو ضمّ ضباطها إلى القيادة العسكرية، أو إلغائها ببساطة، بحيث تصبح في نهاية

الحرب في وضع يمكننا من إقامة علاقتنا مع دولتي المشرق على أساس لا تختلف عن العلاقات الدبلوماسية العادية⁽¹⁾.

انتظر سبيرز بضعة أسابيع قبل الردّ على هذا التنصّل الفاحش مما عمل جاهداً على تحقيقه على مرّ السنين. ف شعر أن من واجبه طمأنة أصدقائه، مثل رياض الصلح، إلى أن الأمور ليست سيئة كما تبدو عليه في الواقع، وتوديعهم، وتسوية أموره بعد أن أمضى أربع سنوات كاملة في بيروت. وفي 4 كانون الأول/ديسمبر، أعلنت وزارة الخارجية البريطانية أن سبيرز يريد استئناف واجباته كعضو في البرلمان البريطاني، لذا تقدّم بطلب الاستقالة من منصبه وزيراً مفوضاً لصاحب الجلالة في دولتي المشرق، وستصبح نافذة اعتباراً من 15 كانون الأول/ديسمبر.

في 8 كانون الأول/ديسمبر، بعث سبيرز برسالة أخيرة إلى أنتوني إيدن كرر فيها وجهة نظره بقوة ودافع عن أعماله.

يطغى شعور واحد لدى كل الطبقات في البلدَيْن وهو كراهية الفرنسيين جملة وتفصيلاً. وهو ليس شاملاً، لأن فئات معيّنة من المسيحيين، لا سيما رجال الدين الموارنة في جبل لبنان وأتباعهم المقيمين، بالإضافة إلى الأقليات في شمال وشرق سوريا، تشربوا الثقافة الفرنسية ولديهم خوف موروث لا يمكن السيطرة عليه من سيطرة المسلمين، ما يدفعهم إلى الاعتقاد أن استمرار السيطرة الفرنسية أفضل من الاستقلال... لكن المسلمين، الذين يشكلون 75 بالمئة من السكان، وقسماً كبيراً من المسيحيين اللبنانيين مصممون، عاجلاً أم آجلاً، على التخلص من الفرنسيين بأي طريقة. من الضروري التأكيد على هذه النقطة لأنها جوهرية. ولا تستطيع أي حكومة منتخبة بحرية في أي من الدولتين أن تقيم سياستها، في الحالة الحاضرة، على أساس مغاير لذلك.

... تدلّ جميع المؤشرات على أن الفرنسيين مصممون على استغلال النفوذ الذي ما زالوا يحتفظون به إلى أقصى حدّ، فضلاً عن فرض معاهدتين على الدولتين، بأي وسيلة متاحة، تضمنان سيطرة فرنسية فعلية تفوق تلك التي

مُنحت لنا في العراق قبل اثني عشرة سنة... من الصعب إيجاد مسؤول فرنسي أو مواطن لديه أدنى تعاطف مع قيام الدولة السورية أو اللبنانية⁽¹⁾. بعد ذلك، أوجز سيرز شكاوى السكان العرب المحليين من البريطانيين: استيائهم من التخلي عنهم أمام الفرنسيين في سنة 1920؛ وغضبهم من السياسة البريطانية المحايية للصهيونية في فلسطين؛ وصدمتهم في سنة 1941 من فرض الفرنسيين الأحرار عليهم، وهم لا يختلفون في نظرهم عن نظام فيشي البغيض؛ وخيبة أملهم من عدم قيام البريطانيين بإجبار الفرنسيين على تنفيذ تعهدهم بمنح الاستقلال بعد أن ضمنته بريطانيا. وأشار سيرز أيضاً إلى وجود نقص شديد في القمح، وإلى ارتفاع أسعار السلع. وتابع سيرز: "بذلت وفريقي جهداً كبيراً لتحسين الوضع غير المواتي. في البداية لم تتمكن من السيطرة على أخطاء نظام الفرنسيين الأحرار البديل والمرئجل وعجزه بسبب اتفاقات ليتلون - ديغول". ثم وصف كيف تمكن من تنظيم إمدادات القمح وتفاذي حصول مجاعة. أما بالنسبة إلى الوضع السياسي، فإن "ضغط حكومة صاحب الجلالة المتواصل على الفرنسيين الأحرار هو الذي أقتنعهم بالموافقة على إعادة العمل بالدستور وإجراء الانتخابات". وعندما وقع الصدام بين اللبنانيين والفرنسيين نتيجة تصميم الحكومة اللبنانية الجديدة على إتمام استقلالها، فإن الإجراءات البريطانية وحدها، كما زعم، هي التي أنقذت لبنان من خسارة كل ما كسبه. راجع سيرز بعد ذلك المشكلات الكبيرة التي تواجه سوريا ولبنان قبل أن يختم قائلاً:

إن موقف الفرنسيين هو صلب المشكلة. لقد مضى الوقت الذي كان في وسعهم الحصول فيه على معاهدتين تفضيليتين في سنة 1937، حين رفضوا إقرار معاهدي 1936، وعندما سمحوا لتركيا بضمّ هاتاي [الإسكندرونة سابقاً] أظهروا عجزهم عن تأمين الحماية للدولتين... إن اتجاه السياسة الفرنسية بأكمله... يقود إلى نهاية محتملة واحدة. فقيام

المنذوبية العامة بتضخيم مطالب الأقلية المسيحية الخاضعة لنفوذها من خلال أبواقها الدعائية، سيطلق، عاجلاً أم آجلاً، الدعوة إلى "حماية المسيحيين في المشرق" كذريعة للمطالبة بتعزيز قواتهم العسكرية، وستطالبون بعد ذلك بمعاهدتين تقومان على شروط معاكسة للطموحات المشروعة للسوريين.

إذا تصرفت فرنسا على هذا النحو، ووقفت بريطانيا جانباً، فستطلب سوريا المساعدة من الدول العربية والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وسيختفي النفوذ البريطاني بذلك إلى غير رجعة.

وختم سبيرز قائلاً:

من ناحية أخرى، إذا كنا على استعداد للاستمرار بدعم الدولتين المشرقيتين حتى نحقق أهدافهما، فإنني على يقين من أننا ستمكن من الاستفادة من حسن النية الذي حققناه لبناء موقع ثابت لنا يعزز نفوذنا في الشرق الأوسط ككل.

لقد استرشدت طوال فترة عملي بمديفين رئيسيين، وعلى ممثلي صاحب الجلالة في الشرق الأوسط عدم إغفالهما: النجاح في متابعة الحرب، والمحافظة على موقعنا الاستراتيجي. سأترك للآخرين الحكم على مقدار نجاحي أو فشلي، لكن الأهداف لا يمكن التشكيك فيها، والسياسة التي أجملتها في الفقرات السابقة هي الأفضل لتحقيقها.

تجاهل إيدن رسالة سبيرز القائمة على المعرفة تجاهلاً تاماً. لقد أصدر حكمه أن سبيرز مثير للمشاكل. لذا أصدر تعليمات إلى ترانس شون Terence Shone، خليفة سبيرز في المشرق، بتسهيل إبرام "اتفاق رسمي بين دولتي المشرق وفرنسا... ولا أرى أن هناك حلاً أفضل للوضع الحالي". وأضاف إيدن كاشفاً عن دوافعه الداخلية، "أن المصالح الفرنسية والبريطانية في المشرق غير متعارضتين في الجوهر... لكن هناك تراثاً طويلاً من العلاقات السيئة بين فرنسا وبريطانيا العظمى في المشرق. وإنني أتوق لإنهاء هذا الوضع"⁽¹⁾.

تلقي إيدن بعد فترة قصيرة ضربةً من اللورد كيلين، السفير البريطاني في القاهرة، عندما بعث برسالة أكثر قساوة من رسالة سبيرز. حذر كيلين من السياسات التي يتبعها إيدن، فجاء ذلك بمثابة دعم لسبيرز:

يبدو أننا نتبع سياستين متناقضتين في الوقت نفسه. نحن نشجع الوحدة العربية من جهة، وندعم الحركة الصهيونية في فلسطين والهيمنة الفرنسية في سوريا من جهة أخرى. ويبدو من المؤكد أن سياساتنا المتصلة بسوريا وفلسطين والوحدة العربية ستتعارض معاً عما قريب.

في ما يتعلق بسوريا ولبنان، أدرك أن سياستنا هي الضغط على هاتين الدولتين لتوقيع معاهدة مع فرنسا تعطي الأخيرة موقعاً مميزاً وقواعد عسكرية. ولن تقبل سوريا ولبنان هذه السياسة إلا بالإكراه، بغض النظر عن الانقسامات الداخلية التي قد تتمكن فرنسا من افتعالها.

لقد وقع اللبنانيون على بروتوكول يمنعهم من توقيع أي معاهدة مع فرنسا قبل جعل لبنان رأس جسر لفرنسا ضد سوريا، ولن يتجرؤوا على معاداة العالم الإسلامي بالإخلال بهذه الاتفاقية والوقوف إلى جانب فرنسا...

إذا دعمنا فرنسا في مسألة المعاهدة، فسيباشر الفرنسيون تنفيذ ذلك بحماسة، وإذا واجهتها معارضة، فمن المرجح أن يعمد ديغول، بما عرف عنه من ميل إلى الإجراءات العنيفة، إلى استخدام القوة ضد لبنان على الأقل، لفرض المعاهدة، ما لم نمنعه من القيام بذلك. لن تلزم قوة كبيرة في لبنان، يكفي القيام باستعراض للقوات البحرية...

ستتورط في صراع مع تسعين بالمئة من العالم العربي، وسيتهي بنا الأمر إلى خسارة الشرق الأوسط، عاجلاً أو آجلاً...

يوجد في الشرق الأوسط جميع أنواع المشكلات الوطنية. وسيتعين علينا أن نتعامل مع العديد من الصدمات المباشرة مع الوطنيين، حتى من دون وجود عيبي فرنسا والصهيونية الثقيلين...

إنني أعتقد أن من المناسب إرسال هذه الملاحظة التحذيرية في ضوء مؤشرات على العدوانية الفرنسية... وقد تشكل زيارة السفينة الفرنسية

إلى بيروت الخطوة الأولى لحملة فرنسية تهددية قد تنتهي إلى العنف⁽¹⁾.

تجاهل إيدن هذه النصيحة الحكيمة أيضاً، مثلما تجاهل تحذيرات سبيرز. وكرّر في ردّه على كيليرن صيغته العنيدة والبالية: "ليس لدي في الوقت الحاضر بديل مرضٍ عن سياسة تسهيل التوصل إلى اتفاق بين الفرنسيين ودولتي المشرق، على الرغم من أن ترتيب ذلك صعب ويتطلّب وقتاً"⁽²⁾.

كيف يمكن تفسير موقف إيدن؟ أظهرت أزمة السويس بوضوح بعد عقد من الزمن، أن موقفه نابع من كراهية العرب بالإضافة إلى شعور بالزمالة الإمبريالية مع فرنسا؛ وهي قوة ممانلة لبريطانيا، لكن تعاني مؤقتاً من سوء الحظ. وكان التقدير الفطري الذي يكتّه إيدن لفرنسا أكبر بكثير من أي اهتمام أو تعاطف يشعر به تجاه اللبنانيين والسوريين الذين يتسمون بالبعد وإثارة الاضطرابات وعدم الأهمية النسبية. لقد تحرّرت باريس للتوّ وانتقل اهتمام لندن إلى أوروبا ما بعد الحرب، وتقلّص العالم العربي إلى استعراض ثانوي وتافه.

لم تستطع الحكومتان اللبنانية والسورية إخفاء حزنها على رحيل سبيرز. فمُنحتاه تكريماً لم يحظَ به أي أجنبي من قبل. أنعم عليه بلقب مواطن شرف في سوريا ولبنان على حدّ سواء. وقّله الرئيس السوري شكري القوتلي وسام الأموين، وقّله الرئيس اللبناني بشارة الخوري وسام الأرز. وقد صرّح سبيرز، في عشاء وداعي أقامه رياض الصلح على شرفه في فندق النورماندي، أنه ربما يكون فريداً في العالم لأنه مواطن شرف في دولتي المشرق. ورأى أن منح هذا التكريم لرجل واحد دليل عظيم على المشاعر الأخوية التي يكتنّها لبنان وسوريا أحدهما للآخر، وذلك أكثر ما يبعث على سعادته.

تابع سبيرز بعد عودته إلى لندن الدفاع عن سوريا ولبنان في مجلس العموم ضد الفرنسيين. وصرّح في مقابلة مع صحيفة "صنداي إكسپرس" في 24 كانون الثاني/يناير 1945، أن سنوات الانتداب العشرين قد جعلت سوريا ولبنان مصممين على "عدم

(1) Cairo to Foreign Office, 25 December 1944 (F0371/114174)

(2) Foreign Office to Cairo, 5 January 1945 (FO 37 1/40307)

تعريض نفسيهما للخطر ثانية". لقد صمّمَا على عدم منح أي موقع مسيطر لأي قوة. وأضاف في انتقاد أخير لصديقه السابق الجنرال ديغول: "ما المبدأ الذي نقاتل من أجله ونحوّلنا فرض معاهدة عليهما؟"

أشارت مغادرة سبيرز المشرق إلى نهاية حقبة من الزمن. استقال رياض الصلح في 9 كانون الثاني/يناير 1945 بسبب اتساع الشكاوى من ارتفاع كلفة المعيشة، وعدم كفاءة الحكومة، وتخوّف المسيحيين من أن يضعهم بروتوكول الإسكندرية تحت سيطرة المسلمين، وهو البروتوكول الذي وقّعه سبع دول عربية في 7 تشرين الأول/أكتوبر 1944. كلّف الرئيس بشارة الخوري عندئذ عبد الحميد كرامي بتشكيل الحكومة، وهو المنافس السّيّ الرئيسي لرياض وأحد الزعماء السياسيين الثلاثة الذين تولّوا رئاسة الحكومة قبل عودة رياض إلى السلطة في 14 كانون الأول/ديسمبر 1946. ابتهج الفرنسيون برحيل السير إدوارد سبيرز ورياض الصلح. وأرسل الجنرال بينيه المغتبط تقريراً إلى جورج بيدو ذكر فيه أن "كراهية رياض الصلح المعلنة لفرنسا هي سبب سقوطه وخزيه... فقد منح الجنرال سبيرز هذا المسلم القومي سلطات كاملة لقيادة طابور خامس بغية إثناء الموطن المسيحي الأخير في المشرق"⁽¹⁾.

قصف دمشق

تبَيّن أن تحليل بينيه لم يكن أفضل من تحليل إيدن. وسرعان ما تصرف ديغول بطريقة وحشية كما توقع سبيرز وكيلين. ففي أوائل كانون الثاني/يناير 1945، نُقلت الدبابات الفرنسية إلى دمشق، بينما وجّه المندوب الفرنسي العقيد أوليفيا روجيه Oliva-Roget رسالة تهديدية إلى الحكومة السورية وقطع المفاوضات بشأن نقل القوات الخاصة. ردّت الحكومة معبرة عن دهشتها تجاه اللهجة الفرنسية ومعددة الإجراءات العديدة التي اتخذها الفرنسيون ضد السوريين في الأشهر السابقة. علم البريطانيون في نهاية شباط/فبراير أن الفرنسيين يخططون لنقل ثلاث كتائب من القوات الاستعمارية إلى المشرق على متن طرادين "لإراحة القوات الفرنسية

MAE, Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Général p. Beynet à (1)
M. Georges Bidault, 12 Janvier 1945

وتعزّيزها". وصل أحد الطرّادين إلى بيروت في 5 أيار/مايو، وعلى متنه 800 جندي سنغالي. أقلقّت هذه الخطوة القائد العام للقوات البريطانية فأبلغ القائد الفرنسي، الجنرال هبلو Humblot أنّه لن يأذن بدخول هذه التعزّيزات "إلا إذا عُرض عليه تفسير لأسباب مجيئها"⁽¹⁾. في 30 نيسان/أبريل، حذّر السفير البريطاني في باريس، داف كوبر Duff-Cooper، الجنرال ديغول من المخاطر على الأمن العام إذا وصلت التعزّيزات الفرنسية إلى بيروت، فيما المباحثات الفرنسية السورية توشك أن تستأنف. ردّ ديغول مشككاً، وأبدى عدم استعداده لتقليص عدد الجنود الفرنسيين في المشرق بسبب وجود القوات البريطانية هناك. ثمّ كرّر اللازمة المعتادة أن السياسة البريطانية تسعى إلى إضعاف موقع فرنسا في سوريا بهدف الحلول محلّها هناك.

في 8 أيار/مايو، كشف الجنرال بينيه الشروط الفرنسية للمعاهدة المقترحة: تبقى القوات الخاصة تحت الإمرة الفرنسية إلى أجل غير محدد، ولن يتم نقل قيادتها، وإجلاء القوات الفرنسية إلا بعد أن تبرم سوريا اتفاقيات ثقافية وعسكرية واقتصادية ودبلوماسية مع فرنسا. وبطبيعة الحال، رفضت الحكومتان اللبنانية والسورية التفاوض على هذا الأساس. في 14 أيار/مايو 1945، علمت الحكومة اللبنانية أن القوات الفرنسية أبحرت من تونس متوجهة إلى بيروت، حيث نزلت بعد عدة أيام.

بعد ذلك بوقت قصير، اجتمع الممثلون اللبنانيون والسوريون مع الموفدين الفرنسيين في دمشق وسط جوٍّ من الإضرابات والاضطرابات في المدينة. كرّر الفرنسيون مطالبهم القاسية وغير المنطقية، فرفض لبنان وسوريا الدخول في مفاوضات، وأدانا نزول القوات الفرنسية. اندلعت مظاهرات عنيفة، ووقعت صدامات دامية بين المتظاهرين والقوات الفرنسية في كل من دمشق وبيروت. وعمّت الفوضى جميع الأراضي الخاضعة للانتداب. وخلال عشرة أيام، انهار القانون والنظام أحياناً تاماً.

في 27 أيار/مايو، أبلغت الحكومة السورية المسؤول السياسي البريطاني في دمشق، تريفور إيفانس Trevor Evans، أن الأوضاع أخذت تخرج عن السيطرة، وأن تشكيل

حكومة ثورية تعلن الحرب على فرنسا قد أصبح احتمالاً حقيقياً. والحل الوحيد هو تسليم القوات الخاصة إلى السلطة السورية، وسحب القوات الفرنسية من المدن. في غضون ذلك، ترك عشرات السوريين القوات الخاصة، وانحازوا إلى جانب الحكومة.

انتاب التوتر الشديد القيادة العسكرية الفرنسية في دمشق في ذلك الوقت. فقرر الفرنسيون اللجوء إلى القوة بناء على أوامر وجهها ديغول إلى الجنرال بينيه. في 29 أيار/مايو، قامت وحدة مدفعية فرنسية متمركزة في المزة بقصف القلعة القديمة، وهي المركز الرئيسي للدرك، أي القوة الوحيدة الموضوعة في تصرف الحكومة السورية. سقط عدد من القتلى والجرحى في صفوف نحو 150 دركياً متمركزين هناك، ولاذ الباقون بالفرار. وأصاب شظية قائدهم الأرمني، المقدم هرانت. فقتل ذلك عملياً على فعالية الدرك. بعد ذلك قصفت طائرة حربية فرنسية الموقع نفسه، فأصاب السجن المدني الموجود في القلعة إصابة مباشرة، وقُتل اثنان وثلاثون سجيناً. فُتحت أبواب السجن وُسِّح للسجناء الآخرين بالحرب. ويُعتقد أن الفرنسيين أرادوا التخلص من بعض السجناء المحتجزين هناك لقتلهم فوزي الغزي، بغية التغطية على تورطهم المحتمل في الجريمة قبل عدة سنوات. بعد إصابة المقدم هرانت، لم يبقَ في دمشق سوى الزعيم عبد الغني القضماني الذي يقود قوة من ستين عنصراً في السراي. وسرعان ما تعرّضوا للهجوم.

لم يعتقل الفرنسيون الرئيس السوري شكري القوتلي أو أعضاء حكومته، ربما لأنهم تعلموا من أزمة تشرين الثاني/نوفمبر 1943 في لبنان. ويبدو أنّ هدفهم الرئيسي كان ترويع المدينة وإرغام الحكومة على الاستقالة أو الحرب. وبعد ذلك يمكنهم تعيين حكومة تابعة. وهدد الفرنسيون بتدمير أي حي يثور عليهم من أحياء المدينة.

استؤنف إطلاق النار الكثيف نحو منتصف الليل. وقصف الفرنسيون بعد مرور ساعة، أي نحو الأولى من صباح يوم 30 أيار/مايو، مبنى البرلمان السوري وسيطروا عليه. وقتلت حاميته التي يبلغ عددها 65 دركياً أو اعتقلوا، وتناثرت دماؤهم على الجدران في الداخل والخارج. وبعد ذلك قام الجنود الفرنسيون بنهب المبنى الأنيق. ووقع المزيد من القصف المدفعي في ذلك الصباح، وقصفت قلعة دمشق في وقت متأخر من بعد الظهر.

وفي ليلة 30-31 أيار/مايو، قصفت قلعة دمشق مرة ثالثة، وكانت قذائف المدفعية تصفر فوق المدينة كل ثلاث أو أربع دقائق، وتَسبَّب في اندلاع الحرائق. دَمَّرت قذيفة قطاراً للصليب الأحمر البريطاني في محطة سكة حديد الحجاز، وقُتل طبيب سوري يدعى الدكتور مسلم البارودي، عندما أطلق الفرنسيون النار على سيارته التي كانت تنقل المدنيين الجرحى إلى مستشفى فكتوريا التي كانت بإدارة إرسالية طبية بريطانية في القصّاع. وقد أرسل بعض المصايين بجروح خطيرة إلى المستشفى العسكري البريطاني خارج المدينة.

استمرّ تساقط قذائف المدفعية والمهاون صباح 31 أيار/مايو، بينما جابت العربات المدرّعة الفرنسية الشوارع، وأخذت تطلق النار بصورة عشوائية. سيطر الفرنسيون بعد ذلك على المركز الرئيسي للشرطة في دمشق. أخلى المدنيون البريطانيون والتابعون لدول الحلفاء من المدينة خلال هدنتين وجيزتين تم التفاوض عليهما في 30 أيار/مايو واليوم التالي، لكن الفرنسيين خرقوا الهدنتين. وقامت القوات الفرنسية بعمليات نهب واسعة، في حضور ضباطهم في الغالب.

في 31 أيار/مايو، أعلن أنتوني إيدن في مجلس العموم أن رئيس الوزراء ونستون تشرشل بعث في تلك الليلة بالرسالة التالية إلى الجنرال ديغول:

في ضوء الحالة الخطيرة التي نشأت بين قواتك ودولتي المشرق، والقتال العنيف الذي اندلع، اضطرتت بأسف شديد إلى إصدار أمر للقائد العام في الشرق الأوسط بالتدخل لوضع حدّ لإراقة الدماء من أجل المصالح الأمنية للشرق الأوسط بأكمله، وهي تشمل الاتصالات الخاصة بالحرب ضدّ اليابان. ولتجنّب وقوع أي صدام بين القوات البريطانية والفرنسية، نطلب منك إصدار أمر فوري إلى القوات الفرنسية بوقف إطلاق النار والانسحاب إلى ثكناتها. وعندما يتوقّف القصف ويعود النظام، سنكون على استعداد لبدء محادثات ثلاثية في لندن.

عند الساعة الخامسة تقريباً من بعد ظهر 1 حزيران/يونيو، دخل رتل مدرّع بريطاني دمشق ففرح السكان المتعبون. أخلى الجنود الفرنسيون الشوارع، وتولّى البريطانيون الحكم العسكري بصورة مؤقتة إلى أن تستطيع الحكومة السورية استئناف

القيام بمهامها الطبيعية. وفي مجلس العموم، سأل سبيرز، المستعد دائماً للدفاع عن دولتي المشرق وإحراج أنتوني إيدن، إذا كان في وسع الحكومة تقديم عدد الإصابات التي وقعت في صفوف العرب. فجاء الرد الذي نقله رئيس الوزراء في 5 حزيران/يونيو كما يلي: قُتل 80 دركياً و400 مدني، وأصيب 500 بجروح بالغة، بالإضافة إلى 1000 جريح. وقدّر محافظ دمشق الخسائر المادية بنحو 25 مليون ليرة سورية. ومن المباني التي تضررت كثيراً البرلمان والقلعة والسراي وفندق أورينت بالاس ومسجد جنكيز، والمئات من المصانع الصغيرة والمؤسسات والمحال التجارية. كان بين المصابين عدد قليل من البريطانيين، بينهم الرائد سكوت - نيكلسون Scott-Nicholson الذي قتل برصاصة بندقية أمام فندق أورينت بالاس، والسيدة غراي، التي قتلت بسقوط شظية على سطح منزلها، وهي زوجة السيد غراي Grey، وكيل كنيسة الجيش الذي رفض بشجاعة أن يتم إجلاؤه.

في مؤتمر صحفي عقد في 2 حزيران/يونيو في باريس، لم يُبدِ الجنرال ديغول ندماً على ما حدث. وادّعى أن المؤسسات العسكرية والمدنية الفرنسية تعرّضت للهجوم، فاضطرت القوات الفرنسية إلى الرد لإعادة النظام. وألقى مسؤولية ما حصل على "الموقف الذي اتخذته الحكومة البريطانية على أعلى مستوى، أو اتخذته العملاء البريطانيون على مستوى منخفض". إن فرنسا ترغب في حماية مصالحها الثقافية والاقتصادية والعسكرية، لكنه قال بمرارة، "ثمة مصالح تتعارض مع مصالحنا بشكل لا يمكننا القبول به". أما بالنسبة إلى رسالة تشرشل التي فضّل عدم الرد عليها، فإنها "لم تغبّر ولن تغبّر شيئاً" في الأوامر التي سيصدرها إلى القوات الفرنسية.

لم يخجل الجنرال بينيه من القصف الإجرامي للمناطق المدنية في دمشق. وأبلغ الوفد البريطاني أنه من الطبيعي إخضاع السكان المحليين لبعض العيارات النارية، إذا أثاروا المشاكل! من السخافة التكلم عن "الرأي العام السوري" لأنه غير موجود. لقد انتهت المسألة الآن، خرج الفرنسيون ودخل البريطانيون كما خططوا دائماً⁽¹⁾.

(1) Report by Mr. Donald Mallett, Regional Press Officer at His Majesty's Embassy in Paris, on his visit to Syria and the Lebanon, 7 July 1945 (FO 371/45576); General deGaulle's account of the Syrian crisis in his *Mémoires de guerre: Le salut*, 1944-1946, Paris 1959, pp. 186-96

سبب القصف الفرنسي لمدينة لا تستطيع الدفاع عن نفسها مرارة كبيرة في المشرق. وبلغت مشاعر الكراهية للفرنسيين حدودها القصوى. أبلغ الرئيس شكري القوتلي، صاحب التاريخ الكبير الطويل والمشرف في مقاتلة فرنسا، الوزير البريطاني ترانس شون عن تصميمه الذي لا يلين على التخلّص من النفوذ الفرنسي في بلاده إلى غير رجعة.

ما كانت الأمور لتأخذ هذا المنحى لو اتبع وزير الخارجية البريطانية أنتوني إيدن نصيحة الجنرال سبيرز، وقدم دعماً ثابتاً لدولتي المشرق في استقلالهما الحديث العهد، بدلاً من تشجيع الفرنسيين على حماية "موقعهم المسيطر" بفرض معاهدة لا يمكن أن يقبلها أي سوري يحترم نفسه.

الفصل الثاني والعشرون

وداعاً للفرنسيين

شكّلت الانتدابات البريطانية والفرنسية، التي فرضت على الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية عند تقسيمها بعد الحرب العالمية الأولى، كارثة مستمرة. ففي فلسطين، نتج عن الانتداب البريطاني، إذا نظر إليه بعيون عربية، ظهور دولة إسرائيل في قلب المنطقة، وطردها معظم السكان العرب الفلسطينيين الأصليين بلا رحمة، ما أدى إلى عواقب رهيبة ومستمرة على الاستقرار الإقليمي والسلام الدولي. وفي سوريا ولبنان، اعتُبر الانتداب الفرنسي كارثة سياسية وأخلاقية كبيرة. وعانى الشعب، طوال عشرين عاماً، من القمع الوحشي الذي توج بقصف مدينة دمشق القديمة في سنة 1945، وكان بمثابة العرض الأخير لإفلاس السياسة الاستعمارية الفرنسية.

شكّل قصف دمشق جريمة مروّعة، ونوبة عنصرية لسلطة استعمارية مهزومة. وقضى ذلك، إلى غير رجعة، على الطموح الفرنسي بالبقاء "قوة مهيمنة" في المشرق، والاحتفاظ بالامتيازات الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية بموجب معاهدة. لم يغادر الفرنسيون عن طيب خاطر بعد إخماد الحرائق الأخيرة، التي شرّدت العديد من العائلات، بمن فيها عائلات عريقة ومهمة، وأفقروها. بل استغرق الأمر نحو سنتين أو أكثر من المفاوضات المريعة قبل مغادرة آخر جندي فرنسي جواً من بيروت، في 31 كانون الأول/ديسمبر 1946.

كان على اللبنانيين والسوريين الاعتماد على أنفسهم أخيراً، لكنهم لم يكونوا مستعدين تماماً لحكم أنفسهم وغير قادرين البتة على الدفاع عن أنفسهم. وعلى الرغم من الخطابات الحماسية التي يلقيها الزعماء، مثل رياض الصلح وشكري القوتلي، فإن وضع بلديهما الفعلي كان مثيراً للشفقة. لقد أصّر الفرنسيون على إدارة معظم نواحي الحكم بأنفسهم، لذا لم يُتَح سوى لعدد قليل من الأفراد المحليين اكتساب أي خبرة إدارية ذات معنى. كان هناك نقص كبير في الرجال المدربين، وغياب تام للنساء

المدرّبات، ما حال دون سدّ الحاجة في الوظائف الرئيسية. وعشية الحرب العالمية الثانية، لم يكن هناك سوى 356 طالباً فقط في الدراسات العليا في سوريا⁽¹⁾.

باختصار، لم يترك الفرنسيون وراءهم إرثاً كبيراً يُحمدون عليه في سوريا ولبنان. ربما وسّعت شبكة الطرقات بعض الشيء، وفتحت أراضي واسعة للزراعة في منطقة الجزيرة السورية، وحدث تقدّم قليل في التعليم الابتدائي والخدمات الصحية. غير أن إحدى النقاط المضيئة هي إنشاء جامعة دمشق، أول مؤسسة للتعليم العالي في البلد، في العشرينيات، بمبادرة من الدكتور رضا سعيد ومجموعة من الأطباء والأكاديميين من ذوي العقليات المتماثلة. وقد أصبح الدكتور سعيد أول رئيس لها.

غير أن الإرث الفرنسي كان مفجعاً على العموم. اتسم بالتلاعب الفرنسي بالانتخابات، والفساد والرشوة، واللغظ الدستوري والتغيير المستمر للحدود الإدارية، والنظام البرلماني الذي أفسده تعيين قسم من النواب والحلّ المتكرر للمجلس بأكمله كلما فشل الفرنسيون في تمرير مطالبهم. استعملت القوة للاحتفاظ بالبلدين وخاصة في سوريا في سنتي 1925 و1926، عندما سُحقت الثورة الكبرى بوحشية. وفي لبنان، جرّ الرئيس المنتخب في تشرين الثاني/نوفمبر 1943 والعديد من أعضاء حكومته من أسرّتهم في منتصف الليل، ووُضعوا في السجن لتجرّتهم على تطهير الدستور من كلّ ما له علاقة بالانتداب المكروه (كما فعل فوزي الغزي في سوريا، ولعل من شبه المؤكّد أنه دفع حياته ثمناً لذلك).

بالإضافة إلى ثورات الغضب هذه، أثار ترهيب السكان المستمرّ باستخدام القوات الاستعمارية السنغالية استياءً كبيراً، لا سيما أن أوامرهم كانت تقضي بإرهاب السكان، والتصرّف بأكبر قدر ممكن من الوحشية وانتهاك كل المحرمات الاجتماعية مثل دخول أجنحة النساء في المنازل، وترويع وإذلال النساء والأطفال. شكّلت هذه التصرفات مؤشراً بشعاً على فساد أساليب الإمبراطورية: استعمال شعب مستعمر، (أفارقة مسلمين في هذه الحالة) لإخضاع وترهيب شعب آخر. لم تستطع النخب اللبنانية والسورية، وكثير منها على قدر عالٍ من العلم والرقّي، تحمّل الإذلال اليومي للخضوع لحكم صغار الموظفين الفرنسيين الذين يتسمون بالجهل والغباء.

عسكرياً، تُرك لبنان وسوريا من دون أي قوات مسلحة تذكر. كان جيشاهما ضعيفين من دون المعدات الفرنسية والضباط الفرنسيين، فواجهتا صعوبة في حفظ الأمن الداخلي، ناهيك عن خوض معركة بعد عامين مع الدولة اليهودية الجيدة التسليح والتدريب. كان الجيش اللبناني مكوناً من 2000 عنصر فقط في سني 1945 - 1946. وبدلاً من تعزيز الجيش السوري وتجهيزه وإعداده للحرب الوشيكة في فلسطين، فقد تقلّص عدده بين سني 1946 و 1948 من 7000 إلى 2500 عنصر بسبب نقص الأموال⁽¹⁾. ولعل السبب الآخر لتقليص قوة الجيش أن السياسيين السوريين الذين تسلّموا السلطة غداة الاستقلال - وجميعهم ينتمون إلى عائلات مرموقة من دمشق وحلب وحمص وحماة - شعروا محقّقين بالارتياح من الولاءات السياسية والطبقية للعناصر التي خدمت تحت العلم الفرنسي، ومعظمهم شبان ريفيون ينتمون إلى الأقليات. فقد ملأ الفرنسيون القوات الخاصة بمثل هؤلاء الجنود، وبذلوا أقصى جهدهم لإبعادهم عن القومية العربية وتعزيز الروح الانفصالية لديهم بحيث لا يكون ما يجمعهم مع الإيديولوجية السائدة بين صفوف وجهاء المدن.

الأخطاء التي ارتكبتها الفرنسيون

فشل الفرنسيون في سياساتهم بسبب ارتكابهم عدداً من الأخطاء الكبيرة. أولاً، لم تأخذ باريس التزاماتها بموجب الانتداب على محمل الجد. بنيت الانتدابات بعد الحرب العالمية الأولى على مبادئ ويلسون، وكان يفترض أن تقوم على أن تسترشد الولايات العثمانية السابقة بالمساعدة والنصح الذي تسديه لها البلدان الأكثر تقدماً. غير أن الفرنسيين استبدلوا السيطرة بالرعاية، وفرضوا أنظمة استعمارية مشابهة لتلك التي فرضوها بقسوة في شمال أفريقيا. وكان الفرنسيون، طوال سنوات الانتداب، متردّدين في تليين حكمهم المباشر في المشرق، مخافة أن يؤدي ذلك إلى تفويض قبضتهم الحديدية على مستعمراتهم في شمال أفريقيا.

في بيروت، أدار المفوض السامي الفرنسي، يساعده أمين عام، ما كان في الواقع إدارة مؤهّلة. فتولّى مندوبو المفوضية العليا الإدارات المحلية، ووضع "المستشارون"

الفرنسيون في المكاتب الوزارية، بينما تولّى الضباط السياسيون "للشؤون المحلية" الحكم في المناطق النائية. وأحكم الجيش الفرنسي السيطرة على البلاد، تساعد القوات الخاصة المجتدة من السكان المحليين ذات التوجه الاستعماري. واحتفظ الفرنسيون طوال فترة الانتداب بالسيطرة التامة على الخدمات الاقتصادية المشتركة بين الدولتين - أي ما يسمى المصالح المشتركة، وخاصة إدارة الجمارك - على الرغم من أن المسؤولين الذين تولوا إدارتها كانوا في الغالب فاسدين أو غير أكفاء أو الاثنين معاً.

عمدت السياسة الفرنسية، منذ إعلان دولة لبنان الكبير، إلى دعم الأقليات ضدّ الأكثرية، بناء على افتراض أن الأقليات ستكون أكثر ولاء لفرنسا، وتوفّر الدعامة المحلية للحكم الفرنسي. وفي سوريا - بتأثير أشخاص مثل روبير دو كيه، الأمين العام في المفوضية العليا خلال سنوات الانتداب الأولى - مُنح الدروز في الجنوب والعلويون في الشمال الغربي، بالإضافة إلى مجموعة من الأقليات في محافظة الجزيرة في أقصى الشمال، أفضلية خاصة على الأكثرية السنية المسلمة. وشجّعوا على تطوير المشاعر الانفصالية الموجودة لديهم، وزيّن لهم النظر إلى مسلمي دمشق والمدن الأخرى بمثابة أعداء لهم.

في لبنان، حابى الفرنسيون الموارنة، وأثاروا لخب العداوة بين المسيحيين والمسلمين لإيجاد مبرر لوجودهم. لم يخترع الفرنسيون التنوع العرقي والديني في هذين البلدين بطبيعة الحال، لكنهم فاقموه واستغلوه لتحقيق أهدافهم. فأثاروا مخاوف المسيحيين اللبنانيين من أن يتناحهم "جحافل المسلمين" الآتية من الأراضي الداخلية السورية، وهو مصير لا ينفذهم منه سوى الحماية الفرنسية. وغدّوا الرُهاب المسيحي لقطع الطريق على التعاون الإسلامي المسيحي. وأصبحت الطائفية التي أنتجتها السياسة الفرنسية جزءاً لا يتجزأ من النظام السياسي اللبناني، والسوري أيضاً، ولو بدرجة أقل.

من نتائج هذه السياسات المؤسفة عدم تمكن لبنان وسوريا من تطوير هوية وطنية متماسكة يعتنقها جميع المواطنين طواعية. لقد كانت الدولة اللبنانية التي استلمها بشارة الخوري ورياض الصلح أبعد ما تكون عن مجتمع سياسي موحد. لذا فإن التحدي الأكبر الذي واجهاه هو كيف يمكن دمج مختلف الطوائف في أمة واحدة، وكيف

يمكن ابتكار نظام يسمح للفئات السكانية الرئيسية بالعيش معاً، في ود إيجابي لا سلبي فحسب. وعد رياض الصلح بإنهاء النظام الطائفي الذي وصفه بالسّم عندما تولى رئاسة الوزراء لأول مرة في سنة 1943. لكنه لم يستطع القيام بذلك، ربما لأن الطائفية أصبحت عميقة الجذور. ولا يزال لبنان يعاني حتى اليوم من التناقض بين المجتمع القائم على العصبية القديمة والدولة الوطنية المبنية على هوية وطنية مشتركة. لم تكن المشكلة تقتصر على العلاقات الإسلامية المسيحية في لبنان، بل شملت سوريا أيضاً. ويرجع ذلك إلى أن الفرنسيين اعتبروا لبنان، منذ البداية، رأس جسر عسكري يسيطرون من خلاله على الأراضي الداخلية السورية. لكن ذلك يطرح معضلة محيرة: من الضروري عدم وجود أي قوة أجنبية في لبنان لكي تشعر سوريا بالاستقلال والأمن. غير أنه إذا لم يكن هناك قوة أجنبية في لبنان - أو لم تكن في وضعية تمكنها من التدخل على الأقل - فإن المسيحيين، أو الفئات الأخرى المناهضة لسوريا، سيشعرون بأنهم مهددون. لا تزال هذه الأحجية تضايق زعماء البلدين حتى اليوم.

كان النهج الذي اتبعه الفرنسيون في فترة ما بين الحربين معيماً لأنهم رفضوا الإقرار - أو لم يدركوا - أن القومية العربية ليست مجرد اختراع للمفكرين الحضريين المتعلمين في الغرب، وإنما انبثقت من الإيديولوجية الأوسع انتشاراً والأكثر تجذراً في تلك الفترة. وهي ذات قدرة كبيرة على التعبئة، لا سيما في صفوف المسلمين، ولكن لم تقتصر عليهم بأي حال من الأحوال. اعتبر 75 بالمئة من سكان المشرق أن الانتداب غير شرعي، ورفضوا فكرة الانتداب على العموم، والانتداب الفرنسي على الخصوص. وكانت النتيجة حدوث جفاء تام بين الفرنسيين والوطنيين.

شكل رُهاب الإنكليز المستمر لدى العديد من المسؤولين الفرنسيين عاملاً مساهماً أيضاً، لأنهم كانوا ينسبون الحماسة الوطنية إلى المكائد البريطانية. وقد ظلّ الفرنسيون حتى آخر أيام الانتداب يظنون أن البريطانيين يسعون إلى الاستفادة من ضعفهم في فترة الحرب للحلول محلهم، وبسط النفوذ البريطاني على الشرق الأوسط بأكمله. كانت تلك اللازمة التي طالما كرّرها الجنرال ديغول. هذه القناعة الفرنسية الراسخة أن البريطانيين يستغلون القومية العربية، أدّت إلى تغافل الفرنسيين عن تطوّرات مهمة ربما

كانت لصالحهم. ومنها، على سبيل المثال، تطوّر تفكير عدد من الشخصيات الوطنية العربية البارزة، وفي مقدّمها رياض الصلح، وتحوّلها من الرفض التام لدولة لبنان الكبير ضمن الحدود التي وسّعها الفرنسيون، إلى قبول الاندماج بالدولة اللبنانية الجديدة⁽¹⁾.

كانت المشكلة تكمن في باريس بقدر ما تكمن في المشرق الخاضع للإدارة الفرنسية، وترجع إلى حدّ كبير إلى خطأ مجموعات الضغط الفرنسية الاستعمارية والعسكرية والدينية. فقد كان في وسع هؤلاء ممارسة نفوذ كبير لأن الحكومات الفرنسية في الجمهورية الثالثة افتقرت إلى سياسة استعمارية واضحة. ولم تكن تدرك ما هي المصالح الفرنسية التي يجب الحفاظ عليها وما هي التي يمكن التخلي عنها بأمان. لذا خسر الفرنسيون المشرق بأكمله، لأنهم سعوا إلى الاحتفاظ به بالقوة الغاشمة.

من أسطع الأمثلة على أخطاء السياسة الفاحشة عدم التصديق على معاهدة 1936 - حيث كان في وسع الفرنسيين تأمين امتيازات وافقت عليها الحكومتان الوطنيتان من دون مقابل - بالإضافة إلى تسليم لواء الإسكندرونة السوري للأتراك في سنة 1939 بصورة غير شرعية، ما يتناقض مع التزام فرنسا بموجب الانتداب بحماية سلامة الأراضي التي عهّدت إليها. ومن الأخطاء الفاحشة الأخرى محاولة "حماية حقوق فرنسا ومصالحها بإرغام سوريا ولبنان على توقيع معاهدتين في خرق لتعهّدها غير المشروط بمنحهما الاستقلال الذي قدّمته لهما في سنة 1941. ولا شك في أن هزيمة فرنسا في سنة 1940، وما تلاه من نزاع بين مؤيدي ديغول ومؤيدي بيتان، أدّى إلى تعقّد العلاقة بين فرنسا وسوريا ولبنان. فلم يكن في وسع ديغول، الحريص على كسب تأييد الرأي العام، احتمال اتّهامه بتصفية الإمبراطورية الفرنسية.

تكمن جذور العديد من هذه المشكلات في اقتسام سوريا الطبيعية أو الجغرافية بين فرنسا وبريطانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى. كانت سوريا تحت الحكم العثماني حيّزاً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً واحداً يتنقل فيه الناس وتُنقل البضائع بحرية، على الرغم من إدارتها كعدة ولايات منفصلة. في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني،

قُسِّمَت هذه الولايات السورية لأول مرة عندما منح جبل لبنان وضعية مستقلة في سنة 1861، بضغط كبير من الدول الغربية، وأصبحت القدس أولاً وبيروت في ما بعد مركزين لولايتين مستقلتين في العقود اللاحقة. لكن ذلك لا يقارن بعمليات البتر التي أدت بعد الحرب العالمية الأولى إلى أن تخسر سوريا الموصل لمصلحة العراق وكيليكييا لمصلحة تركيا. وفي وقت لاحق قسّم ما تبقى من سوريا إلى وحدات سياسية متباينة أصبحت في ما بعد جمهوريتي سوريا ولبنان، ومملكة الأردن، ودولة إسرائيل - والأراضي الفلسطينية المحتلة التي لا تزال محتلة وتنزف حتى اليوم.

تشكّلت هذه الدول الأربع ذات السيادة - والخامسة لا تزال في طور التكوين - من النسيج نفسه. فقد كانت جميعها جزءاً من منطقة عرفها الجيل السابق باسم سوريا أو بلاد الشام. ولا تزال تقيم علاقة بعضها مع بعض، رغم أن كلاً منها طوّرت إيديولوجيات وهويات وطنية مميزة. لكن ثمة شعور أنه ما من دولة منها تستطيع الحرب من البيئة المشتركة مهما ثمنى هذا الطرف أو ذاك القيام بذلك.

لا يزال السوريون على وجه الخصوص يعانون من شعور بأن بلادهم صارت أصغر مساحة مما يجب أن تكون عليه. وأحدثت عمليات البتر المتكررة في القرن الماضي حيناً للانضمام إلى وحدة أكبر. أدت الرغبة الملحة بالحروب من الفضاء السوري المصطنع إلى نشوء مبدئين متنافسين في النصف الأول من القرن العشرين: مبدأ القومية السورية وفقاً لمفهوم أنطون سعادة، الذي سرعان ما كان له تأثير مدمر على حياة رياض الصلح ومسيرته المهنية، ومبدأ القومية العربية لحزب البعث، الذي كان له تأثير عميق، غير حميد دائماً، على السياسة في سوريا والعراق.

لكن من بين جميع العلاقات المشرقية المعقدة، لا توجد علاقة أكثر حميمية وأكثر تنافراً من تلك التي بين سوريا ولبنان. فالبلدان يرتبطان ارتباطاً راسخاً من خلال التاريخ والصلات العائلية والتجارية، والبيئة الجغرافية المشتركة. مع ذلك طوّر البلدان تحت الانتداب هويتين ومصالح مستقلة نتيجة السياسة الفرنسية المثيرة للاضطرابات. ومن المشاكل الرئيسية التي ورثها رياض الصلح عن الفرنسيين العلاقة الشائكة مع سوريا - ولا تزال حتى اليوم مشكلة مركزية في السياسة اللبنانية.

بدايات الخلاف مع سوريا

عمل رياض، طوال حياته، على تحقيق الوحدة السورية كخطوة أولى لتحقيق الوحدة العربية. فسوريا الكبرى موطنه، وقد صاهر هو وجدّه أحمد باشا عائلتين سوريّتين بارزتين. وكان زعماء الكتلة الوطنية السورية أصدقاءه السياسيين المقرّبين، ويشعر بالارتياح في دمشق وحلب، مثلما يشعر في بيروت وصيدا. لذا من المفارقة المريرة أن يجد نفسه في نهاية المطاف مضطراً للدفاع عن المصالح اللبنانية الضيقة في وجه مصالح جيرانه السوريين. ولم يكن ذلك بالتأكيد مقصده عندما بدأ حياته السياسية.

وهكذا خلال أربع وعشرين ساعة من تشكيل حكومته الأولى في أيلول/سبتمبر سنة 1943، أسرع رياض إلى دمشق، وشكّل جبهة مشتركة ضدّ الفرنسيين مع صديقه القلم ورفيق السلاح الرئيس السوري شكري القوتلي، ومع رئيس الحكومة سعد الله الجابري، عمّ زوجته. وفي تشرين الأول/أكتوبر، قام بزيارات متكررة إلى سوريا لتنسيق استراتيجيتهما المشتركة. وفي 4 كانون الثاني/يناير 1944، وقّع رياض ووزير المالية السوري خالد العظم اتفاقاً مع الفرنسيين انتقلت بموجبه بعض المصالح المشتركة إلى حكومتيهما، لا سيما إدارة الجمارك وإدارة حصر التبغ والتبّاك. وتقرّر أن يبدأ المجلس الأعلى للمصالح المشتركة، الذي شكّل في وقت سابق، عمله في الشهر نفسه⁽¹⁾.

لكن رياض الصلح اصطدم على الفور بمعارضة شديدة من المسيحيين الوطنيين اللبنانيين - لا سيما من البطريرك الماروني أنطوان عريضة وألفرد نقاش وآخرين - الذين هاجموا المجلس الأعلى باعتباره "حكومة داخل حكومة"، وزعموا أنه يمهد الطريق للوحدة مع سوريا، وهو ما كان المسيحيون الوطنيون اللبنانيون يتخوفون منه أكثر من أي شيء آخر.

اضطر رياض إلى القيام بزيارة طويلة للبطريرك، ليطمئنه إلى عدم وجود ما يتجاوز حدود الوطن بشأن المجلس الأعلى، وإلى أن السلطة التشريعية على الشؤون الاقتصادية ستبقى في أيدي البرلمان اللبناني، وأنه لن يكون لأي مؤسسة سورية لبنانية مشتركة

(1) انظر Youssef Chaitani, *Post Colonial Syria and Lebanon*, London 2007 للاطلاع على

دراسة مفصلة للعلاقات السورية اللبنانية بعد الحرب العالمية الثانية.

سلطات تنفيذية مستقلة. ولكن بقيت المشكلات الأساسية قائمة بسبب اختلاف طبيعة الدولتين، فيما تسعيان إلى التطور ضمن الحدود المصطنعة التي فرضها عليهما الفرنسيون. كان تقسيم عائدات الجمارك المشكلة الأولى التي واجهها البلدان. تم التوصل إلى اتفاق مؤقت قضى بحصول كل دولة على 40 بالمئة من العائدات، على أن تتوزع نسبة 20 المتبقية على أساس الاستهلاك الفعلي للواردات في كل دولة. لكن بما أن الخدمات الجمركية ومرافق التخزين السورية لم تكن على قدر جيد من التطور، فقد تحول قسم كبير من تجارة الدولتين إلى بيروت، حيث مرافق الميناء أفضل تنظيمًا وتجهيزًا. وكان التجار اللبنانيون يسعون في الغالب إلى شراء رخص نظرائهم السوريين عند استنفاد رخص الاستيراد الخاصة بهم. وعندما تصل البضائع عبر الجمارك اللبنانية، تحتسب الضرائب الجمركية عليها لمصلحة الحساب السوري، لكنها تحول بعد ذلك إلى بيروت وتستهلك هناك. بدأ المسؤولون اللبنانيون يخشون من أن تؤدي إساءة استعمال رخص الاستيراد إلى حصول سوريا على حصة الأسد من نسبة العشرين في المئة من العائدات التي يتم تقاسمها. وبناء على ذلك، عدل توزيع العائدات في كانون الأول/ديسمبر 1945 بحيث يحصل لبنان على 44 بالمئة وسوريا على 56 بالمئة. ولكن ذلك لم يؤدِّ إلى حل المشكلات المتنامية بين البلدين.

كان العامل الأساسي للنزاعات بين البلدين يكمن في الاختلاف العميق بين اقتصاديهما. كانت سوريا بلدًا منتجًا للأغذية بالدرجة الأولى، وبلدًا صناعيًا ناشئًا على نطاق صغير. فشعرت بالحاجة إلى فرض الضرائب على الواردات وخصص الاستيراد لحماية إنتاجها الزراعي والصناعي، وبخاصة الحبوب والطحين والفواكه المعلبة والمجففة والزيت النباتي والسمن والجوز والقطن وخيوط الغزل والمنسوجات. أما لبنان، فإن إنتاجه قليل، لذا فضّل اتباع سياسة حرية الاستيراد من أجل تأمين سلع زهيدة السمن لسكانه الذين يعانون من ضائقة مالية. وهكذا أصبح تضارب المصالح محتومًا، لأن سياسة المبالغة في الحماية المفرطة التي اتبعتها سوريا أدت إلى ارتفاع الأسعار في لبنان، وخاصة أسعار المواد الأساسية كالحبوب.

كان التباين في الأسعار صارخاً. ففي سنة 1945-1946، بلغ سعر كيلو الخبز 125 قرشاً في بيروت مقابل 80 قرشاً فقط في دمشق و50 قرشاً في فلسطين.

ولذلك اضطر العديد من الأسر اللبنانية من الطبقة العاملة إلى إنفاق أجرها اليومي بأكمله لشراء مقدار وجبة واحدة من الخبز. فطالب لبنان بحرية استيراد القمح من السوق الدولية، بينما أصرت سوريا على التزام لبنان بالاتفاقية التي تقضي باستيراد القمح من سوريا فقط، حتى وإن كانت الأسعار أعلى بكثير من الأسعار العالمية.

كان هناك العديد من النزاعات السياسية والاقتصادية الأخرى. فقد أصّر لبنان على أن بيروت هي الميناء الطبيعي للبلدين، والتجار اللبنانيين هم المستوردون الطبيعيون. لكن تزايد الضغط في سوريا من أجل تطوير ميناء اللاذقية وتحرير التجار السوريين من الاعتماد المادي والاقتصادي على بيروت. وقال عارف اللحام، عضو غرفة التجارة السورية، باستياء: "نعيش سوريا في بيت ذي باب واحد مفتاحه في لبنان". وكان يكمن وراء هذه النزاعات التوتر السياسي المعهود بين المسيحيين اللبنانيين الذين لا يثقون بسوريا، والسوريين الغاضبين من عداء المسيحيين اللبنانيين للقومية العربية. ومما يؤسف له أن هذا الخلاف استمرّ في السنوات العديدة التالية، ما أضرّ بعلاقات رياض الصلح التاريخية مع شركائه السياسيين التاريخيين في دمشق وحلب.

بشارة الخوري ورياض الصلح

منح النظام اللبناني الذي صاغه الفرنسيون صلاحيات لرئيس الجمهورية أكبر بكثير من صلاحيات رئيس الحكومة، وهي صلاحيات مشابة لتلك التي يتمتع بها المفوضون الفرنسي السامون تحت الانتداب. وبينما ينتخب رئيس الجمهورية لمدة ست سنوات - ما يمنح منصبه استقراراً كبيراً - فإن رئيس الوزراء يعين وفقاً لرغبة رئيس الجمهورية ويمكن إقالته في أي وقت. وكان على رؤساء الحكومة الضعفاء العيش في خوف دائم من أن يقالوا من مناصبهم.

وفي وسع رئيس الجمهورية حلّ المجلس النيابي، وتعيين كبار الموظفين الإداريين، ورفض التشريعات، أو الحكم عن طريق المراسيم. وكان للرئيس السلطة المطلقة أيضاً في توزيع رعاية الدولة الرسمية، وهو امتياز مهم جداً في بلد تعتمد فيه

الحركة السياسية على تبادل الخدمات⁽¹⁾. غير أن قدرة الرئيس على ممارسة هذه الصلاحيات تعتمد على قوة شخصيته وعلى علاقته برئيس الوزراء. كان واضحاً أن شخصية رياض الصلح أقوى من شخصية بشار الخوري. فقد منحته تجربته السياسية الطويلة ثقلاً سياسياً كبيراً. بالطبع، وما كان رياض ليتولّى رئاسة الحكومة في عهد بشار الخوري إلا لأن الأخير لم يكن رئيساً مسيطرًا.

غادر رياض الصلح منصبه في 9 كانون الثاني/يناير 1945، بعد سنتين من الشراكة الوثيقة مع الرئيس بشار الخوري. ولا شك في أنه شعر بالحاجة إلى الاستراحة بعد الصراع الطويل مع الفرنسيين. وفي السنتين التاليتين، شغل منصب رئيس الوزراء كل من عبد الحميد كرامي، وسامي الصلح، وسعدي المنلا - وكان عليهم تحمّل انتقادات رياض المتواصلة من موقعه في المعارضة. وغالباً ما اشتكى كرامي قائلاً: "لن يتركني صديقنا رياض الصلح بسلام ولو ليوم واحد".

مع أن رياض كان خارج السلطة في سني 1945 و 1946 - استعاد منصبه رئيساً للوزراء في 14 كانون الأول/ديسمبر 1946 - فإنه بقي إلى جانب بشار الخوري طوال الوقت، يساعده في اختيار الوزراء، وتوزيع الحقائق الوزارية، وتقديم المشورة السياسية العامة. فقد خرج رياض الصلح من الأزمة مع فرنسا نشيطاً، في حين خرج بشار الخوري منهكاً، ولم يكن في صحة جيدة. في منتصف كانون الأول/ديسمبر 1944، سقط الرئيس في الشارع وكُسرت يده. وفيما كان يكابد الأرق الناتج عن الألم، اضطرّ إلى تحمّل مزيد من الإجهاد بسبب استقالة رياض الصلح وتشكيل حكومة جديدة برئاسة عبد الحميد كرامي. لازم الرئيس غرفته، بناء على أوامر الطبيب، غير قادر على متابعة الشؤون الحكومية أو استقبال وزرائه. ثم تلقى صدمة نفسية قوية بالموت المفاجئ لصديق عمره ومعاونه الأقرب سليم تقلا في 11 كانون الثاني/يناير. وأشيع في بيروت أن الرئيس يعاني نوعاً حاداً من السوداوية التي تؤثر على تفكيره⁽²⁾.

كان بشار الخوري يعاني من انهيار عصبي. فإلى جانب الإجهاد السياسي الذي يتعرّض له، أصيب بضيق شديد عند انتحار ابنة أخت زوجته، ماجدة، التي

(1) Johnson, *Class & Client*, p. 120

(2) Syria & Lebanon Weekly Political Summary, 31 January 1945 (FO 371/45553)

كانت بمثابة ابنة لهما. وهي ابنة ماري شيحا حدّاد، شقيقة لور شيحا زوجة بشارة، وميشال شيحا صديقه وسنده الوفي. كان ميشال شيحا مصرفياً ومفكراً بارزاً وناشر الصحيفة اليومية الناطقة بالفرنسية "لوجور". وقد ساندت هذه الصحيفة بشارة في ارتقائه سلم السلطة، خلافاً لصحيفة "لورينت" *L'Orient* التي يصدرها جورج نقاش، والتي دعمت إميل إده وسياسته الداعية إلى الارتباط الوثيق بفرنسا.

أصر رياض عليّ زيارة الرئيس بشارة الخوري المريض على الرغم من عدم السماح لأحد برؤيته، خوفاً من إزعاجه. فقام بزيارة قصيرة له، روى في ما بعد ما دار بينهما: "حيث أنه لم يُجب. سأله طبيبه (د. بعقلين): هل تعرّفت إليه؟ فحرك رأسه، وقال: 'نعم، إنّه رياض الصلح'. لكن ما إن تفوه بهذه الكلمات حتى أجهش بالبكاء، فطلب مني طبيبه أن أنسحب".

تقرر أن يغادر بشارة الخوري بيروت إلى طبرية في فلسطين، على أمل أن تفيده ينابيعها الساخنة. عالج في حيفا الدكتور هرمان زوندك Hermann Zondek، وهو طبيب نفسي يهودي ألماني⁽¹⁾. وقد زاره رئيس الحكومة عبد الحميد كرامي في شباط/فراير، وقال إن حالته في تحسّن. بعد بضعة أسابيع، في آذار/مارس 1945، أصبح بشارة الخوري في وضع جيد يسمح له بالعودة إلى لبنان واستئناف مهامه. فوقف رياض إلى جانبه ثانية، وقدم له الدعم. وفي 11 تشرين الثاني/نوفمبر، قام الرجلان بزيارة إلى قلعة راشيا، حيث سجننا معاً قبل عامين.

عانى بشارة الخوري من سوء تصرفات أفراد عائلته إلى جانب معاناته الصحية. فقد أساء ابنه خليل الخوري إلى الرأي العام المحلي المحافظ. بمرافقة راقصة ملهى سيئة السمعة واصطحبها بصورة متكررة في المقعد الخلفي للسيارة الرئاسية - وهي من طراز لنكولن ذات غطاء قابل للطي. وأثار سليم الخوري، أحد أشقاء الرئيس، مشكلة أكبر باستغلاله منصب أخيه صراحة لتحقيق مكاسب سياسية ومالية. وكان صاحب نفوذ عظيم، وأطلق عليه لقب "السلطان سليم". ولم يكن سامي الخوري، وهو شقيق آخر لبشارة الخوري، عضواً تفخر به العائلة. في 5 تشرين الأول/أكتوبر 1945، عُيّن

MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Sûreté aux Armées, (1)
Beyrouth, 30 Janvier 1945

بحسب مرسوم جمهوري سفيراً للبنان إلى البلاط المصري. وكان مديراً للعدلية بين سنتي 1926 و1939، وتسلم بعد ذلك رئاسة مجلس الدولة، ثم عين مديراً في وزارة الخارجية. وفي كل مرة حظي بمنصبه بفضل نفوذ أخيه لا مهاراته الشخصية. وقد وصف تقرير فرنسي سامي الخوري بأنه "بليد التفكير ومنعزل، تنقصه روح المبادرة والثقافة العامة. لم يُظهر في وزارة الخارجية أي شغف بالعمل مفضلاً الجلوس إلى طاولة القمار حتى الفجر. ومن غير المرجح أن يسعفه تكلفه ورعوثه وافتقاره إلى مهارات التواصل في البروز في الدوائر الدبلوماسية، أو في الأوساط اللبنانية في مصر"⁽¹⁾. وعلى الرغم من هذه الأعباء والالتزامات المزعجة، استمر رياض الصلح في الميل إلى بشارة الخوري. وسعى إلى دعمه في خطابهاته، حيث كان يصفه دائماً بأنه "الزعيم الوطني" الذي قاد البلد إلى الاستقلال⁽²⁾.

جلاء الفرنسيين

في أعقاب قصف دمشق في أيار/مايو 1945، عقدت الحكومتان السورية واللبنانية العزم على السيطرة على القوات الخاصة المثيرة للمشاكل، سواء أحبّ الفرنسيون ذلك أم كرهوه. وفي مواجهة هذا القرار الذي اتخذته الحكومتان، وتحت ضغط دولي كبير في أعقاب الحماقة التي ارتكبتها الفرنسيون، وافقت فرنسا أخيراً على نقل قيادة تلك القوات، ونفّذت ذلك في الأشهر التالية. غير أن تمويل القوات الخاصة أثار مشكلة للسوريين واللبنانيين. بل إن فرنسا حاولت، سعياً للانتقام منهما، إلى حملهما على دفع 50 مليون ليرة سورية أنفقت على حدّ زعمها على القوات الخاصة خلال السنوات الماضية لقمع السكان المحليين.

برزت مصاعب في نقل مصالح أخرى خاضعة للسيطرة الفرنسية، مثل مصلحة الهاتف، ومحطة الإذاعة المحلية، راديو أوريان، حيث طلب الفرنسيون من اللبنانيين مبالغ طائلة مقابل استلامها. كما أغضب الفرنسيون اللبنانيين بتأخيرهم في تسليم المباني

(1) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Sous-Délégation du Liban Sud, Saida, 13 Juin 1946

(2) MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20 ملاحظة حول عائلة بشارة الخوري في أرشيف نانث الفرنسي.

الحكومية الأساسية كالسراي الكبير، الذي كانت الحكومة اللبنانية بحاجة إليه ليضمّ شتات إدارتها المبعثرة.

طفت على هذه النزاعات مشكلة إخراج الجنود الفرنسيين من المشرق، وهي ما اعتبرها اللبنانيون والسوريون شرطاً أساسياً لتحقيق الاستقلال الحقيقي. لكن فرنسا لم تكن تتعجّل الانسحاب، وبدأت ألها تعزّز قواتها بدلاً من ذلك. اشتبهت الحكومة اللبنانية - والسلطات العسكرية البريطانية أيضاً - في أن الفرنسيين يريدون تعزيز قبضتهم على المطارين الرئيسيين في المشرق، مطار رياق في لبنان ومطار المزة في سوريا، بجلب المزيد من القوات الجوية.

في غضون ذلك، واصلت السفن الفرنسية نقل المزيد من القوات الاستعمارية. ادّعى الفرنسيون أن ذلك تبديل روتيني للقوات الموجودة، لكن اللبنانيين استغربوا انهمالك الفرنسيين في استئجار منازل جديدة لعائلات ضباطهم. وبدأ كما لو أنهم لا ينوون الجلاء على الإطلاق. فقال الرئيس بشارة الخوري للسفير البريطاني في بيروت، ترانس شون، مازحاً: "إنهم يحبوننا كثيراً"⁽¹⁾.

تلك كانت خلفية قرار الحكومتين اللبنانية والسورية السعي للحصول على مساعدة منظمة الأمم المتحدة، التي أنشئت حديثاً، في تحقيق جلاء القوات الأجنبية عن بلديهما. كانت لندن مكان انعقاد اجتماع أول جمعية عامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن في كانون الثاني/يناير 1946. لاستضافة هذا الاجتماع الدولي، منحت الكنيسة الميثودية الحكومة البريطانية حق استخدام قاعة اجتماعاتها الكبيرة، قاعة وستمنستر المركزية. تكوّن الوفد اللبناني الذي أرسل إلى لندن من وزير الخارجية حميد فرنجة، يعاونه رياض الصلح ويوسف سالم (وهو سياسي كاثوليكي من صور ذو مشاعر وطنية عربية قوية، كان له دور مهم في التحالف بين رياض الصلح وبشارة الخوري في انتخابات 1943). كما حضر مع الوفد اللبناني كميل شمعون، السفير اللبناني في لندن. أنزل الوفد في فندق مايفير، الذي كان دافئاً نسبياً على الرغم من التقنين الحاد في الوقود.

لم يعتد رياض الصلح كتابة يوميات منتظمة، لكنه دوّن في هذه المناسبة بعض الملاحظات، ربما لأهميتها، بدءاً من رحلته من بيروت إلى القاهرة، ثم من القاهرة إلى لندن.

(1) Beirut to Foreign Office, 13 February 1946 (FO 371/52479)

3 كانون الثاني/يناير 1946

وصلنا إلى القاهرة. كانت طائرتنا تحمل اسم بيت الدين. أشعر أن هذه الرحلة ستوصل النضال الذي خضته من أجل الاستقلال السياسي إلى متناه، الذي لن يتم إلا بالجللاء. لكن هل بلغنا حقاً نهاية النضال؟

5 كانون الثاني/يناير 1946

سافرت اليوم في الطائرة من القاهرة إلى لندن. إنها أول رحلتي الطويلة جواً. عندما أقلعت الطائرة، ظننت أن قلبي سيتوقف عن الخفقان. لكن عندما ارتفعت الطائرة شعرت بثقة أكبر من بعض الآخرين. هكذا نحن: نخاف من الشيء قبل حدوثه. هل يخاف الإنسان الموت لأنه لم يجتبره؟ أَلن نتوقف عن الخوف من الموت بعد أن نموت؟

9 كانون الثاني/يناير 1946

اجتمعنا، نحن مندوبو 51 دولة، عند الساعة 4 من بعد الظهر في قاعة وستمنستر المركزية الواسعة لافتتاح جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة. شعرت أن لبنان يدخل لأول مرة مؤتمراً دولياً من الباب الرئيسي. في المؤتمرات السابقة [العصبة الأمم]، كان على لبنان البقاء في الخارج. كنا نتوسّل إلى المندوبين الأجانب التوقف لنشرح لهم قضيتنا، فيرفض معظمهم ذلك ويديروا لنا ظهورهم. وكان بعضهم يطلب منا المغادرة بتهذيب، ولا يتوقف إلا القلة القليلة للاستماع إلى ما نقول.

هذه المرة، استوقفني أحد ممثلي الشعوب المضطهدة. توقفت لسماع ما لديه إذ انتابني شعور أنني أستمع لنفسي. فقبل وقت قصير، كنا في الموقف المؤسف نفسه⁽¹⁾. رحّب الملك جورج السادس بالوفود في خطاب مشجّع. فأعلن "مزهواً بالانتصار التغلب على أعظم الصراعات في جميع العصور وأشدّها خطورة. لقد انخرم أعداؤنا لكن مسؤولية إعادة الإعمار تقع على المنتصرين، أي الأمم المتحدة. علينا نحن وضع الأسس لعالم جديد يستحيل فيه وقوع مثل هذا الصراع". وأقام الملك في تلك

(1) مقتطفات من يوميات رياض الصلح نشرت في جريدة أخبار اليوم المصرية بتاريخ 30 آذار/مارس 1946.

الليلة مأدبة رسمية للوفود في قصر سانت جيمس. وقّدت صحيفة "التايمز" الوصف التالي له:

جلس الملك بالزّي الرسمي لقائد الأسطول إلى وسط طاولة مستطيلة، تتصل بها أربع طاولات أخرى على شكل حدوة حصان. أضيئت شموع طويلة مثبتة في شمعدانات من الذهب الخالص على كل طاولة، فألقت ضوءاً لطيفاً على الأغذية البيضاء، والتمتع المزهريات الذهبية الكبيرة المليئة بالأقحوان الزهري اللون والسحليات الزهرية والبيضاء⁽¹⁾.

دعي رياض الصلح إلى حفل العشاء، على الرغم من أن الدعوة مخصصة لرؤساء الوفود من حيث المبدأ. فقد حظي رياض باهتمام خاص باعتباره من أبرز رجال الدولة في لبنان، وسرعان ما وجد أن العديد من الأشخاص يريدون الاجتماع به. وشارك بنشاط في الاتصالات التي جرت بين الوفود العربية والأميركية الشمالية والترتيب لتقديم الدعم المتبادل في ما بينها. وكان السير إدوارد سبيرز حاضراً للاهتمام برياض وإطلاعهم على تعقيدات السياسة البريطانية. وكان رياض معتاداً في السابق على العالم الناطق باللغة الفرنسية في باريس وجنيف وبيروت. في لندن، تعجّب رياض من انضباط الشعب البريطاني الذي تقبل التخفيض الذي أجري على الحصص الغذائية الضئيلة أصلاً. وأعجب بحسّهم السياسي في انتخابات تموز/يوليو 1945، حين أسقطوا في الاقتراع ونستون تشرشل، البطل الذي انتصر في الحرب ضد هتلر، وانتخبوا زعيم حزب العمال كليمنت أتلي. فقد رأى الناحيون أن أتلي أكثر ملاءمة لمهمة إعادة الإعمار بعد الحرب وتحسين الأوضاع المعيشية للطبقة العاملة، التي وصفت صراحة في تقرير بفردج Beveridge Report الشهير في سنة 1942.

المذاق الأول للحرب الباردة

تعرّز اهتمام رياض ببريطانيا الآن، بعد أن رعاها سبيرز في أثناء وجوده في بيروت⁽²⁾. فتعرّف وزملاؤه عن كثب على بريطانيا التي كانت تناضل للنهوض من

(1) The Times, 10 January 1946

(2) Report by G.W. Furlonge, Beirut, 4 April 1946, on his conversations with Riad el-Solh and Yusuf Salem (FO 371/52480)

ركام الحرب، وعلى أجواء العلاقات الدولية المتوترة بعد الحرب. شكّل المشرق أحد الميادين الدبلوماسية الأولى للمنافسة بين الحلفاء السابقين، وهو ما أصبح يعرف في ما بعد بالحرب الباردة. وشاهد رياض المبارزات بين شخصيات دولية مثل الموفد السوفياتي أندريه فيشنسكي Andrei Vychinsky ووزير الخارجية البريطاني إيرنست بيفن Ernest Bevin.

بذلت وزارة الخارجية البريطانية جهداً كبيراً لمساعدة الوفدين اللبناني والسوري في صياغة الرسالة التي بعثا بها إلى الأمين العام للأمم المتحدة في 4 شباط/فبراير، واشتكوا فيها من أن وجود القوات الفرنسية والبريطانية على أراضيها يعتبر انتهاكاً لسيادتهما الوطنية. وطالبا مجلس الأمن، بموجب المادة 34 من ميثاق الأمم المتحدة، بإلزام القوات الأجنبية بالانسحاب التام والمتزامن. غضب الفرنسيون، وعبر وزير الخارجية جورج بيدو عن شعوره "بالأسى والدهشة" لأن لبنان اختار المشاركة في مذكرة الاحتجاج السورية.

وصل الأمين العام الجديد للمندوبية العامة الفرنسية في بيروت، الكونت ستانيسلاس أستروورغ، إلى لندن في 1 شباط/فبراير، يحذوه الأمل ببدء التفاوض مع اللبنانيين قبل أن يستمع مجلس الأمن إلى مطالبهم. لكن حميد فرنجية رفض الدخول في مفاوضات مع أستروورغ أو مع جورج بيدو نفسه، كما أخبر السير ألكسندر كادوغان، رئيس الوفد البريطاني، إلا إذا قدّم له الفرنسيون منذ البداية ضمانات بالانسحاب المبكر لجنودهم، بالإضافة إلى تاريخ محدّد لانتها هذا الانسحاب⁽¹⁾.

في 14 شباط/فبراير، درس مجلس الأمن الشكوى السورية اللبنانية. وفي اليوم التالي عرض رئيسا الوفدين قضيتيهما على المجلس، وامتدت المناقشات إلى 16 شباط/فبراير. قدّم عضو مجلس الشيوخ الأميركي، آرثر فاندنبرغ Arthur Vandenberg (جمهوري من ولاية ميشيغن)، الذي شهد ما حدث، تقريره إلى مجلس الشيوخ:

التمست اثنتان من "أحدث البلدان وأصغرهما الخلاص من اثنتين من القوى العظمى". فأعلن إيرنست بيفن أنه على استعداد لسحب القوات البريطانية على الفور، بحيث اضطر وزير الخارجية الفرنسية جورج إلى أن يحذو

حذوه. اقترح الموفد الأميركي إدوارد ستيتينيوس Edward Stettinius بعد ذلك إصدار قرار يلحظ هذه التعهدات البريطانية والفرنسية، وعبر عن ثقته بانسحاب الجيوش الأجنبية من سوريا ولبنان "بأسرع ما يمكن عملياً". وقرّر الأطراف بدء المفاوضات من دون تأخير⁽¹⁾.

بدا أن المسألة قد حلت على الفور وبصورة ملائمة. وقال فاندنبرغ إن "حماسة السلام حطّت على النافذة، لكنها سرعان ما طارت ثانية"، لأنّ المفوض السوفياتي، السيد فيشينسكي، لم يكن راغباً في تحقيق السلام بسهولة. فأصرّ على تعديل الاقتراح الأميركي - وهو ما رأى معظم أعضاء المجلس أنه غير مبرّر - وأسفر ذلك عن يومين إضافيين من "المنافشات العقيمة" قبل إجراء التصويت. طالب فيشينسكي بأن تمتنع بريطانيا وفرنسا عن التصويت لأنهما طرفان في النزاع. قبلت الدولتان الامتناع عن التصويت، وأسقط التعديل السوفياتي بالتصويت، حيث لم يؤيده سوى واضعه. حظي القرار الأميركي بموافقة الأصوات السبعة المطلوبة بموجب الميثاق. لكن فيشينسكي أصر على عدم الإذعان واستعمل حق النقض لرفض الاقتراح بأكمله. ومن الواضح أنه لم يكن مهتماً بمساعدة سوريا ولبنان بقدر اهتمامه بمضايقة فرنسا وبريطانيا.

أضاف فاندنبرغ: "أعاد ذلك لبنان وسوريا الصغيرين إلى نقطة البداية. لكن بلغت الأمور ذروة مثيرة للاهتمام في ما بعد. فقد أكد مثلاً بريطانيا فرنسا، بيفن وبيدو، أنهما يوافقان طواعية على شروط الحلّ. وشعرت بالفخر بالديمقراطية الغربية في تلك الليلة". ثم تساءل ببعض الأسى: "ما الذي ترمي إليه روسيا؟" وظل هذا السؤال الأميركي يتكرّر بغضب وإصرار طوال العقود الخمسة التالية.

اقترح الفرنسيون إجراء المفاوضات بين الأطراف في باريس. فجاء هذا الاقتراح بمشابة صدمة للوفدين السوري واللبناني. كان السوريون، على وجه الخصوص، متردّدين في الذهاب إلى عاصمة الدولة التي قصفت عاصمتهم منذ عهد قريب. نصّحهم إيرنست بيفن بشدة بالذهاب، لكن سبيرز - المعادي جداً للفرنسيين والذي لا يزال يشعر بالألم من معاملة وزارة الخارجية البريطانية له - حثّهم على عدم القيام بذلك. وبتأثير من سبيرز، أرسل كميل شمعون برقية إلى الحكومة اللبنانية ينصح فيها

بعدم الذهاب إلى باريس، إذ لا يمكن الوثوق في أن الفرنسيين سيتصرفون بنية حسنة على أرضهم. وقال إن من الأفضل التفاوض معهم في بيروت أو في لندن.

نشأ بعد ذلك وضع محرج. تردّد رياض الصلح نحو أسبوع، رغبة منه في عدم الإساءة إلى صديقه سبيرز. لكنه قرر أخيراً أن من الأفضل اتباع نصيحة الحكومة البريطانية بالذهاب إلى باريس. فذلك سيوفر الوقت، ويسمح للسوريين واللبنانيين بالاتفاق مباشرة مع رئيس الوزراء ووزير الخارجية الفرنسيين، بدلاً من مرؤوسيهما في لندن أو بيروت. شعر سبيرز بالانزعاج، وبعث على الفور برسالة شكوى إلى الرئيس بشاره الخوري، لكنها زادت الأمور سوءاً لأنها أثارت استياء الموفدين.

في 28 شباط/فبراير 1946، توجه الوفد اللبناني إلى باريس، حيث بدأ رياض الصلح العمل فوراً على إعادة تنشيط علاقاته السياسية والصحافية. فتواصل مع أعضاء الحزب الشيوعي الفرنسي من خلال الزعيم الشيوعي اللبناني نقولا الشاوي. فطمأنه الحزب إلى أن سياسته تقضي بمنع استخدام القوات الفرنسية في مغامرات استعمارية.

وعندما بدأ الخبراء العسكريون البريطانيون والفرنسيون، في 1 آذار/مارس، المحادثات بشأن إجلاء جنودهم، تبين أن البريطانيين مستعدون لسحب قواتهم خلال بضعة أشهر، بينما طالب الفرنسيون بأكثر من سنة، أي حتى نيسان/أبريل 1947. رأى الفرنسيون إن في وسع القوات البريطانية التوجه جنوباً إلى فلسطين، لكن الجنود الفرنسيين سينقلون بحراً. لذا فإن ثمة حاجة إلى السفن وهي نادرة جداً في ذلك الوقت. افترض العديد من اللبنانيين أن الفرنسيين يسعون لكسب الوقت من أجل تأمين ضمانات لتحقيق "الموقع المميز" الذين سعوا إليه منذ فترة طويلة. خشيت الحكومتان اللبنانية والسورية من أن تواجهها الفرنسيين بمفردهما، إذا انسحبت القوات البريطانية أولاً، كما حدث في سنة 1920 - وأن تتعرضاً للخطر ثانية. لذا طالبتا بالجللاء المتزامن للفرنسيين وللبريطانيين.

خلافاً للوضع في لندن، حيث قامت الحكومة البريطانية بدفع نفقات وفدي المشرق، لقي اللبنانيون في باريس قليلاً من الاهتمام ولم يكونوا ضيوف الحكومة الفرنسية (على الرغم من وضع سيارة واحدة تحت تصرفهم). خلافاً للانضباط الوطني الذي أعجب به الوفدان في لندن، فإنهما وجدا الروح المعنوية منخفضة في باريس في

أعقاب صعوبات الاحتلال الألماني وإهاناته، وتجارة السوق السوداء منتشرة في كل مكان.

لم تكن الاتصالات الأولية التي أجراها الوفد في وزارة الخارجية الفرنسية مرضية، إذ كرّر جورج بيدو أن السلطات الفرنسية "قررت" عدم إتمام الانسحاب، قبل 1 نيسان/أبريل 1947. فرد اللبنانيون أنهم أتوا لمناقشة الوضع السياسي الذي لا يحتمل مثل هذا التأجيل، أيّاً يكن الوضع العسكري. واشتدّت مخاوفهم عندما علموا أن المندوبية العامة في بيروت أرسلت، طوال فترة المحادثات، سيلاً من البرقيات التي تثير فيها ذرائع جديدة للتأجيل. تبين بعد عدد من الاجتماعات أن جورج بيدو مستعد لإبداء مرونة بشأن تاريخ رحيل القوات الفرنسية، في حين أن الكونت أستوروغ ومستشاريه - لا سيما الجنرال بينيه، الذين سارعوا من بيروت إلى باريس - يعارضون بشدة أي "انسحاب مستعجل".

عندما لم يتحقق أي تقدم، اجتمع الرئيسان اللبناني والسوري في 10 آذار/مارس 1946، وقررا إصدار تعليمات إلى الوفد اللبناني في باريس، بالتوجّه إلى نيويورك على الفور، إذا رفض الفرنسيون الانسحاب، وعرض القضية على مجلس الأمن في جلسته التالية في 21 آذار/مارس.

لكسر الجمود، وضع رياض الصلح خطة - كوميديا سياسية في قسم منها، ومناورة قاسية في القسم الآخر - لإخراج أستوروغ المتشدد الذي أصبح تصلّبه العائق الرئيسي الذي يحول دون التوصل إلى اتفاق. جرى التمرّن على الخطة مع الأعضاء الآخرين في الوفد اللبناني، قبل تنفيذها خلال عشاء يقيمه جورج بيدو لهم. عندما أنهى الضيوف عشاءهم، اقترب وزير الخارجية اللبناني المسيحي حميد فرنجيّة من الكونت أستوروغ مبتسماً وقال: "أتمنى يا سيدي الكونت ألا تنسى فرنسا دورها التقليدي في بلدي، على الرغم من خلافاتنا، لا سيما مهمتها التاريخية والثقافية تجاه مسيحيّ لبنان".

صاح الكونت مبتهجاً: "يا لها من فرحة! هذا ما كنت أنتظر سماعه. كن مطمئناً يا صاحب المعالي، ستفعل فرنسا كل ما في وسعها للدفاع عن مسيحي لبنان. لا يوجد أي شك في ذلك".

كان رياض يقف خلف أستورروغ من دون أن يراه. فردّ بغضب عند سماعه هذه الكلمات، "ماذا سمعتك تقول يا سيدي الكونت؟ ستدافع فرنسا عن مسيحيي لبنان؟ إذاً ما الذي أفعله أنا في هذا المكان؟"

فوجئ أستورروغ، وحاول تقديم الأعذار، لكن رياض الصلح أدار له ظهره قائلاً: "هذا أمر لا يحتمل! سأغادر على الفور، وأعود إلى بيروت غداً". وغادر رياض القاعة في حركة مسرحية تاركاً وراءه القلق والارتباك.

أراد بيدو معرفة ما حصل، وعندما أخبره فرنجية عن ما حدث، أبدى يبدو استغرابه قائلاً: "أنا رئيس الوفد الفرنسي وليس أستورروغ. أنا فقط أتحدث باسم فرنسا. أرجو أن تخبر السيد الصلح أنني أريد زيارته في الفندق غداً صباحاً لتقديم اعتذارى". وفي اليوم التالي، زار بيدو رياض الصلح لإبلاغه أن أستورروغ لم يعد عضواً في الوفد الفرنسي، وأنه أعيد إلى بيروت. ورجا الوفد اللبناني استئناف المفاوضات في جوٍّ من الصداقة والثقة المتبادلة⁽¹⁾.

استؤنفت المفاوضات في 17 آذار/مارس، واختتمت في 23 منه بتبادل الرسائل بين جورج بيدو وحמיד فرنجية. وافق الفرنسيون على سحب قواتهم من لبنان قبل 31 آب/أغسطس، باستثناء ثلاثين ضابطاً و300 فني يشرفون على نقل الذخيرة والمعدات الأخرى، على أن يغادروا قبل 31 كانون الأول/ديسمبر 1946.

عاد رياض الصلح ويوسف سالم إلى لبنان، عبر مصر، في 30 آذار/مارس، حيث استقبلوا استقبالاً كبيراً هناك. ثم سلكا الطريق البري، واستقبلوا بالاحتفالات في صور وصيدا، وفي أحياء بيروت الإسلامية. أما حميد فرنجية فكان في روما وتبعهم بعد بضعة أيام.

بدأ رياض الصلح التخطيط لتسلم السلطة ثانية فور عودته. فأعرب عن اعتقاده أن لبنان لم يعد يحتمل أن يرأس حكومته ابن عمه سامي الصلح، الذي اعتبره سريع التقلب، أو إلى أي رئيس وزراء غيره. كان خصمه الرئيسي هنري فرعون الذي يحظى بتأييد كبير في المجلس النيابي. كما كان لديه ارتباطات سياسية وعائلية بيشارة

(1) يوسف سالم، خمسون سنة مع الناس، بيروت، 1975، نقلاً عن هلال الصلح، رياض الصلح: تاريخ رجل وقضية، القسم 3، الفصل 2.

الخوري، لكنه، خلافاً له، يعارض تماماً ما اعتبره سياسات رياض المؤيدة للمسلمين وجامعة الدول العربية.

خشى رياض الصلح ويوسف سالم من أن يؤدي موقف فرعون إلى إحياء الطائفية المقيتة. فأبدى الاعتقاد أن من الضروري التخلص من النظام الطائفي بصورة نهائية، وبناء دولة مستقرة بعدما أصبح لبنان مستقلاً. غير أن الرئيس بشارة الخوري حرص على إبقاء سامي الصلح في منصبه مدة أطول قليلاً. كان يرغب أن يقوم رياض بإجراء انتخابات 1947، ويخشي ألا يتمكن من البقاء في السلطة حتى ذلك الوقت إذا تسلّم المنصب على الفور.

أعلن سامي الصلح أنه سيطلب ثقة المجلس في 18 أيار/مايو. ولكن عندما استقال اثنان من وزرائه، أحمد الأسعد، وسعدي المنلا، سقطت حكومته. طلب الرئيس من سعدي المنلا تشكيل حكومة عندما اتضح أن معارضة هنري فرعون ستجعل من الصعب على رياض الصلح الحصول على الأكثرية المطلوبة. استمر رياض في عدائه المستحكم لفرعون، وحاول إضعافه بحث الرئيس على حلّ الكتائب شبه العسكرية التي يتزعمها بيار الجميل، وتقدّم لهنري فرعون الدعم المادي، إن لم يكن شبه العسكري.

لبث الأمر كذلك حتى 14 كانون الأول/ديسمبر، عندما حصل تقارب تكتيكي، إن لم يكن حذراً، بين رياض الصلح وهنري فرعون وعبد الحميد كرامي، فتمكن بشارة الخوري من تكليف رياض الصلح بتشكيل حكومة جديدة. وقد فعل ذلك في اليوم نفسه. وبعد أسبوعين، أي في 31 كانون الأول/ديسمبر، غادر آخر جندي فرنسي الأراضي اللبنانية. سجّل رياض هذه الحادثة في يومياته:

31 كانون الأول/ديسمبر 1946،

أقلعت اليوم طائرة عسكرية فرنسية عند الساعة 3 بعد الظهر حاملةً آخر جندي أجنبي من بلادنا. بعد نصف ساعة نقلتُ الخبر إلى مجلس النواب. كانت لحظة مهمة، وشعرت بالفخر والتأثر عندما أعلنت: "لقد تم الجلاء".

ارتجفت يداي عندما حملت نصراً خطابي، وارتجف صوتي. وتمكّنت بصعوبة من لفظ الكلمات التي تدربت عليها طوال حياتي.

"الجللاء!" هذه الكلمة الجميلة التي ردّدها في مظاهراتنا، ونادى بها شهداؤنا عندما سقطوا برصاص المحتل...

في تلك اللحظة، استعدت في ذهني الملحمة بأكملها من البداية إلى النهاية. كانت تاريخ ربع قرن من الاحتلال، أو بالأحرى قرناً طويلاً من الكفاح ضد الاستعمار. لقد بكينا من أجل الحرية، لكننا لم نستحقها إلا بعدما بذلنا الدماء من أجلها. تذكرتُ يوم عدّلنا الدستور لإلغاء المواد التي تقيّد استقلالنا. فكّرت في أشياء، حيث تمكّن الفرنسيون باحتجازنا من إسكات أصواتنا الضعيفة، لكنهم سمعوا صوت البلاد الأكثر قوة. تذكرت يوم ذهبنا إلى مجلس الأمن وكيف سيطرنا على أعصابنا للذهاب إلى باريس.

وددت لو كان رفاقنا الشهداء معنا اليوم. رأيت روح والدي سعيداً ومبتسماً. فملأني الفرح لأنني لا أزال حياً لأشهد هذا اليوم⁽¹⁾.

لكي تترفع الحكومة اللبنانية عن الصغائر، فقد قدّمت وسام الأرز من رتبة ضابط كبير للكونت أستروروغ. وغادر الكونت بيروت بعد ذلك بفترة قصيرة لكي يعمل سفيراً لفرنسا في دبلن، حيث يعتقد أنّه لا يستطيع إيذاء أحد.

(1) مقتطفات من يوميات رياض الصلح نشرت في جريدة أخبار اليوم المصرية بتاريخ 11 كانون الثاني/يناير 1947.

الفصل الثالث والعشرون

سيد الساحة المحلية

في 14 كانون الأول/ديسمبر 1946، تولّى رياض الصلح رئاسة الوزراء ثانية في لبنان، وهو منصب احتفظ به لمدة أربع سنوات وشهرين اثنين من دون انقطاع. وظلّ الشخصية المسيطرة على الساحة السياسية اللبنانية طوال تلك المدة، بعد أن أثقن اللعبة السياسية المحلية. وبقي، حتى استقالته في 14 شباط/فبراير 1951، بعيداً عن سهام النقد، وأظهر مهارة كبيرة في التفوّق على خصومه والحرص على تحالفه مع الرئيس بشارة الخوري، وهو الشرط الضروري لبقائه في السلطة.

كان بروز رياض الصلح في أوساط السياسيين المسلمين، وبشارة الخوري في أوساط السياسيين المسيحيين - واستمرار شراكتهم المتينة - من أهم معالم السياسة اللبنانية في سنتي 1947 و1948. وشكّل رياض الصلح، بالنسبة إلى المراقبين الأجانب، أقرب من أنتجه لبنان إلى رجل الدولة ذي المكانة الدولية. فقد كان - ولا يزال حتى اليوم - بطل الاستقلال، والزعيم الذي خلّص بلاده من الاحتلال العسكري الأجنبي، وحقّق ذلك قبل دول عربية كبرى مثل مصر والعراق، ناهيك عن بلاد أخرى مثل الأردن، ومشيخات الخليج، وعدن وجنوب الجزيرة العربية، وليبيا، وشمال أفريقيا الفرنسية. وهي بلدان تحرّرت في وقت لاحق.

كان الأستاذ وليد الخالدي، المؤرخ الفلسطيني البارز - الذي صاهر والده عائلة سلام السياسية البيروتية البارزة - في موقع يُمكنه من مراقبة رياض الصلح في ذلك الوقت، فكتب:

شهدت سنتا 1947 و1948 ذروة سلطة رياض بك وعنفوان شخصيته المتألّقة. سيطر هو وبشارة الخوري على الساحة السياسية اللبنانية، وكان الركيزة الثانية للبناء اللبناني. وقد استمدّ الميثاق الوطني شرعيته في نظر المسلمين من موافقته الشخصية عليه. وبناء على ذلك، نظر إليه الموارنة بشيء من الخشية.

كنت معجباً به وأنا شاب: مظهره، ولغة جسده، وأسلوبه المميز. كان متوسط الطول، قويّ البنية، جليل المظهر، وممتلئ الجسم من دون بدانة. كان ذا بشرة بيضاء، وعينين واسعتين، وخدين ممتلئين، وشعر مائل إلى البياض، وابتسامة تنم عن دهاء، وطربوش حاضر دائماً بزاوية مائلة وشرابة متدلّية، وصوت جهوري وأمر، أجشّ من دون خشونة.

كان خطيباً مفوهاً، يتقن العربية وإن لم يكن من دون عيوب. كان أقرب إلى الدماغوجية منه إلى شيشيرون، حادّ الذهن وحاضر البديهة، وسريع الخطى. كان يفيض صحة وطاقة وثقة بالنفس. استطاع بسحره وجاذبيته وشخصيته الجذابة أن يتفوق على نظرائه السنّة الآخرين بسهولة - عبد الحميد كرامي، وسامي الصلح، وعبد الله اليافي، وصائب سلام، وسعدي المنلا، وحسين العويبي. فقد قامت مكانته وسمعته بقوة على أساس مقاومة الفرنسيين طوال عقدي العشرينيات والثلاثينيات⁽¹⁾.

كانت أولى أولويات رياض عند عودته إلى السلطة وضع الأساس القوي للدولة اللبنانية الناشئة التي نالت حريتها منذ عهد قريب. عندما تولّى رئاسة الوزراء للمرة الأولى في سنة 1943، كان شاغله الشاغل انتزاع الاستقلال من فرنسا، لكن بناء الدولة أصبح همّه الرئيسي في سنة 1947. وعقد العزم على "بناء الوطن"، كما جاء في بيانه الوزاري. لم يكن ذلك مهمة سهلة لأنه اصطدم بالنظام الطائفي اللبناني كالعادة. فقد أدّت السياسات الفرنسية التقسيمية إلى نشوء مجموعة من الهويات المتضاربة. وفي حين كان رياض يتمتع بتأييد كبير في أوساط المسلمين، فإن كثيراً من المتشددّين المسيحيين نظروا إليه بتحفظ، واعتبروا انتماءه إلى لبنان تصنعاً وأنه يضمّر طموحاً لدمج البلاد في كيان عربي واسع، يغرقون فيه وسط غالبية مسلمة. لتهدئة هذه المخاوف، بذل رياض الصلح جهوداً كبيرة لإبراز شخصيته اللبنانية، وإظهار نفسه بأنه من أشدّ المدافعين عن حدود لبنان الجديدة حماساً. لقد شعر أن عليه الذهاب بعيداً في هذا الاتجاه، ما جعل العديد من أصدقائه والمعجبين به في المنطقة يأسفون على ما ظنّوه تراجعاً في التزامه بأهداف القومية العربية.

(1) رسالة إلى المؤلف من الأستاذ وليد الخالدي.

مطامح بشارة الخوري

ما من شك في أن الرئيس بشارة الخوري كان يشترك مع رياض الصلح في السعي إلى بناء دولة قوية ومستقرة في لبنان، وإيجاد الشعور المشترك بالمواطنة بعدما أنكرته السياسات الفرنسية. لكن أولويات الرئيس الفورية لم تكن متطابقة مع أولويات رياض الصلح. فقد عمد الرئيس إلى إعادة رياض الصلح إلى السلطة في كانون الأول/ديسمبر 1946 من أجل هدف أساسي واحد: إجراء الانتخابات في ربيع 1947 - وهي انتخابات تكتسب أهمية شخصية بالنسبة إلى بشارة الخوري. فعلى الرغم من أن مدة رئاسته البالغة ست سنوات تنتهي في سنة 1949، فإنه كان عازماً على الفوز بولاية ثانية. ويحلم بالاستمرار في السلطة وإخراج منافسه القدامى، إميل إده، من الساحة السياسية تماماً. ولكن الدستور لا يسمح لرئيس الجمهورية بولاية ثانية. لذا كان بشارة الخوري بحاجة إلى مجلس نواب مطيع يوافق على تعديل الدستور قبل نهاية مدة رئاسته، ويعرف أن رياض الصلح هو رئيس الوزراء المسلم الوحيد القادر على تأمين انتخاب مثل هذا النوع من المجلس.

وهكذا وجد رياض الصلح نفسه عند اختيار زملائه في الحكومة مرغماً على الاهتمام برغبة بشارة الخوري في الفوز في الانتخابات القادمة، أكثر من الاهتمام بشروطه الخاصة لاختيار رجال ذوي كفاءة وقادرين على المساعدة في بناء الدولة. لكن كان عليه أن يحرص أيضاً على عدم تمكّن الشخصيات التي يستبعدّها عن الحكومة من تشكيل تكتل قوي يمكن أن يؤثر على نتائج الانتخابات. وهكذا فإن الحكومة التي شكّلها في كانون الأول/ديسمبر 1946 كانت ائتلاً يجمع بين شخصيات رئيسية من جميع الطوائف - الأصدقاء بالإضافة إلى الأعداء. ولم يكن من المفارقة أن توصفت تلك الحكومة أنها "حكومة الكبار".

عند تشكيل هذا الائتلاف، كان على رياض الصلح أن يرضي غرور العديدين وطموحاتهم الفردية، ويحدّد الخصومات المستمرة بين الأحزاب والمذاهب والمناطق، والتوفيق بين التيارات المختلفة في مجلس النواب، والتعامل مع تدخّلات القوى الخارجية الحقيقية أو المفترضة. وعلى الرغم من المكانة الشخصية التي يتمتّع بها رياض ومهاراته السياسية الأكيدة، فإنه أُجبر على تقديم تنازلات كبيرة إلى خصومه والنأي بنفسه عن

أكثر مؤيديه ولاء. اضطر إلى ممارسة اللعبة بما يتوافق مع النظام السياسي الذي يعاني من عيوب عميقة بمقتها بشدة. في ذلك الوقت، كانت الطائفية متفشية وغير قابلة للإصلاح، وزعماء العائلات وكبار رجالات البلد ووجهاء المدن يتصارعون على السلطة - ومغائنها - غافلين عن العاصفة التي تحتشد في المنطقة حولهم.

لم يستطع رياض الصلح، على سبيل المثال، أن يستبعد من حكومته خصمه الرئيسي، القطب الكاثوليكي هنري فرعون، فأعطاه وزارة الخارجية. وكان فرعون قد شغل منصب وزير الخارجية من قبل في سنة 1945، ونجح عند إنشاء جامعة الدول العربية في التخفيف من مضمون مقترحات بروتوكول الإسكندرية المتواضعة أصلاً، لمنع أي إشارة إلى طغيان القومية العربية على استقلال لبنان. كما كان فرعون شخصية بارزة على الصعيد الاجتماعي ومن أكبر مالكي ميدان سباق الخيل، بالإضافة إلى تمتعه بثقل انتخابي كبير. وقد قامت قوته على ثروته الكبيرة وشخصيته المنفتحة وعلاقاته الواسعة من جهة، وعلى دعم الزعيم الدرزي كمال جنبلاط في جبل لبنان، والكتائب اللبنانية بزعامة بيار الجميل في بيروت من جهة أخرى. وكانت هاتان الفئتان تناصبان حكومة رياض الصلح السابقة العداء، مثلها مثل هنري فرعون.

باختصار، سيطرت شخصيتان قويتان على الحكومة الجديدة: رياض الصلح وهنري فرعون. وعلى الرغم من عدم ثقة أحدهما بالآخر، فقد قررا أن يحسنا علاقتهما في سبيل الفوز في الانتخابات. رحّب الفرنسيون بتعيين فرعون. فهم لم ينسوا الاهتمام الذي أبداه نحو مصالحهم في الفترة الحرجة بين أيار/مايو وحزيران/يونيو 1945، عندما أثار قصفهم مدينة دمشق مشاعر معادية لفرنسا في لبنان.

ولتوفير مزيد من الارتياح إلى الرأي العام المسيحي، أنشأ رياض حقبة جديدة للاهتمام بالمغتربين اللبنانيين وعهد بما إلى فرعون أيضاً. لم يكن الشتات اللبناني الواسع في أميركا الشمالية والجنوبية، والجالية اللبنانية في غرب أفريقيا، راضين عن فكرة دخول لبنان فلك السياسة العربية، بل يريدانه منفتحاً على العالم. ويمتلك هذا الشتات مقدّرات مالية كبيرة يمكن أن تكون مؤثرة خلال الانتخابات.

في تنازل آخر، عيّن رياض الصلح ثلاثة من حلفاء فرعون في مناصب وزارية: الزعيم الدرزي كمال جنبلاط وزيراً للاقتصاد الوطني والزراعة، وأعطى كذلك وزارة

الشؤون الاجتماعية التي أنشئت حديثاً لمحاربة الفقر وتخفيض البطالة؛ وعبد الله اليافي المحامي السنّي المؤيد لفرنسا، والذي لم يكن محبوباً بين المسلمين، وزيراً للعدل؛ وعين الزعيم الشيعي صبري حمادة في منصب وزير الداخلية الحساس.

كان صبري حمادة زعيم إحدى أبرز العائلات الشيعية في البقاع، ويُقال إنها تستحوذ على تأييد 60 ألفاً من المناصرين. وقد شغل منصب رئيس مجلس النواب في سنّي 1943 و1944 وكان الفرنسيون، والسلطات اللبنانية في ما بعد، حريصين على إرضائه بسبب قدرته على إثارة المشكلات في منطقة البقاع الشمالي البعيدة. وقد أدى تعيينه وزيراً للداخلية إلى جعله نائباً لرئيس الوزراء من الناحية العملية. وهكذا كسر رياض التقليد بجعل مسلمين على رأس الحكومة - هو وصبري حمادة، أحدهما سنّي والآخر شيعي.

كان الرئيس بشارة الخوري راغباً في أن يملأ رياض الحكومة بأعضاء من الحزب الدستوري، لكن رياض لم يوافق على ذلك. فقد تراجع حزب الرئيس، الحزب الدستوري، في جبل لبنان بعد تولّي السلطة، وتلطّخت سمعته بسبب سوء تصرفاته الكثيرة. كما أن كثيراً من الأشخاص الواردة أسماؤهم في لائحة الشيخ بشارة قد فقدوا صديقتهم. ولو دخلوا الحكومة لأناروا معارضة كبيرة في الانتخابات، ولأنتى ذلك بعكس النتيجة المرجوة. لذا اقتصر رياض على ثلاثة أسماء من الحزب الدستوري: الماروني كميل شمعون وزيراً للمالية، والأمير الدرزي مجيد أرسلان وزيراً للدفاع والصحة، والماروني الدكتور الياس خوري وزيراً للتربية. كان الدكتور خوري صهر الدكتور بعقلين، طبيب رئيس الجمهورية الخاص. ويمكن الاعتماد عليه لإبقاء بشارة على علم بكل حركة يقوم بها رياض.

لم يكن كميل شمعون، وهو محامٍ قدير وطموح من بلدة دير القمر المارونية، ينتمي إلى الحزب الدستوري إلا بالاسم فقط، إذ إن ذلك سيساعده في تحقيق طموحه بالحلول يوماً ما محل بشارة الخوري في رئاسة الجمهورية. وقد تعزّزت مكانته بعد أن ألقى مهمته سفيراً للبنان في لندن. وربما جاء تعيينه وزيراً في الحكومة بمثابة إيماء صداقة نحو بريطانيا، لأن الفرنسيين اعتبروه جاسوس بريطانيا في الحكومة. كان بشارة الخوري يدرك أن شمعون وفرعون خصمان محتملان له في الرئاسة في المعسكر المسيحي، لذا عقد العزم على إضعافهما إذا أمكنه ذلك.

استطاع رياض أن يحقق إنجازاً كبيراً بإدخاله الزعيمين الدرزيين المتنافسين، كمال جنبلاط والأمير مجيد أرسلان في الحكومة نفسها. على الرغم من أن جنبلاط، الذي كان في التاسعة والعشرين من العمر فقط، أظهر ذكاء وطموحاً، فإنه أثر العزلة واتسم بالخلج إلى حدٍّ ما. كان لا يزال خاضعاً لسيطرة والدته، الست نظيرة جنبلاط، ذات الشخصية القوية. أما الأمير مجيد أرسلان، فهو بطل بشامون، ولا يمكن تجاهله.

كان كل هؤلاء الرجال يناورون لتعزيز مكانتهم. انضم كميل شمعون على الفور إلى كمال جنبلاط في الهجوم على الإدارة التي اتهمها بالفساد، وبالتالي هاجم رئيس الجمهورية نفسه بطريقة غير مباشرة. غير أنه في سعيه لتحسين حظوظه السياسية، ارتكب خطأ إهمال الحصول على الدعم الإسلامي المناسب. تجنّب هنري فرعون هذا الشّرك بتحالفه الوثيق مع رئيس الوزراء السابق عبد الحميد كرامي، لكنهما ارتكبا معاً خطأً تكتيكياً كبيراً. ففي سعيهما لتخويف خصوم كرامي في طرابلس - عائلة المقدّم - أبرزوا مكانة المحارب الوطني فوزي القاوقجي الذي وصل إلى طرابلس في 5 آذار/مارس 1947، وحظي باستقبال الأبطال.

كان القاوقجي يتمتع بشعبية كبيرة كمحارب جسور ضد الاستعمار. فقد شارك في الثورة على الفرنسيين في سوريا في سنة 1925، وفي الثورة العربية في فلسطين في سنة 1936، وثورة رشيد عالي الكيلاني على البريطانيين في العراق في سنة 1941 (وأصيب في وجهه خلال غارة جوية بريطانية). بعد ذلك هرب إلى ألمانيا حيث أمضى الفترة الأخيرة من الحرب هناك وتزوج بسيدة ألمانية. وفي أعقاب الحرب، حقق مائرة كبيرة أخرى بتمكنه من الحرب من ألمانيا الشرقية، التي احتلتها روسيا، إلى باريس ثم إلى لبنان (عبر أحد المطارات في فلسطين حيث كاد البريطانيون أن يقبضوا عليه). غير أن الاحتفالات الصاخبة المرحبة بعودته إلى طرابلس سرعان ما تحولت إلى معركة بالأسلحة النارية بين مناصري آل كرامي ومناصري آل المقدّم. لقي أربعة عشر شخصاً مصرعهم وجرح الكثيرون غيرهم. فوجّه هذا الحادث البشع ضربة كبيرة إلى مستقبل عبد الحميد كرامي السياسي.

اختير خمسة وزراء في الحكومة، المكوّنة من تسعة وزراء، من جبل لبنان، في حين لم يتم اختيار أي وزير من شمال لبنان. بدا من المؤكد أن يمثل حميد فرنجية، صديق

رياض القدم، شمال لبنان في الحكومة، لكنه أضرّ بحظوظه عندما ابتعد عن عبد الحميد كرامي (الذي كان عضواً معه في لائحة انتخابية مشتركة في سنة 1943) واقترب من عائلة المقدم. كما أبدى هنري فرعون، حليف كرامي، معارضة شديدة لتعيين فرنجية في الحكومة. لذا فضّل عدم تعيين أحد من شمال لبنان على أن يختار واحداً من اللائحتين المتنافسين في تلك المنطقة. وكانت مكانته الشخصية تتيح له اتخاذ مثل هذا القرار المثير للخلاف من دون التعرّض لعواقب وخيمة.

لم يكن تماسك حكومة رياض قائماً على أي مبادئ أو أهداف مشتركة، وإنما على الرابطة القوية بين المصالح الشخصية الانتخابية لأعضائها. وقد أدرك رياض ذلك، لذا استمع بازدياد إلى الانتقادات التي وجّهت إلى بيانه الوزاري في مجلس النواب في 21 كانون الأول/ديسمبر 1946. مع ذلك، كان على يقين من حصوله على تأييد جماعي، لأنه سيجري انتخابات يتوقّف عليها كثير من المسارات المهنية السياسية والمالية.

انتخابات 1947 المعيبة

سيطرت الانتخابات على المشهد السياسي اللبناني الداخلي في قسم كبير من سنة 1947، وطغمت على تطوّرات إقليمية حاسمة مثل قرار بريطانيا إحالة مشكلة فلسطين إلى الأمم المتحدة، بعد فشل مؤتمر لندن بشأن فلسطين. اهتمك رياض تماماً في الانتخابات التي وصفها بأنها "استفتاء على النظام". جرت الانتخابات على مرحلتين في 25 أيار/مايو و1 حزيران/يونيو. انتخب 17 نائباً عن جبل لبنان من إجمالي 55 نائباً. لم يكن جميع هؤلاء من الصف الأول، لكن رياض بذل جهداً لإرضاء جميع الأطراف هناك تكريماً لمنطقة الجبل التي يعتبرها المسيحيون معقل الاستقلال اللبناني.

جاءت تركيبة حكومة رياض الصلح بمثابة ضربة موجعة إلى إميل إده. اتّضح أن بشارة الخوري تجاوزه في السباق السياسي بتحالفه مع رياض الصلح. بذل إده أقصى ما لديه للردّ، لكن من دون جدوى. وعندما أبدى المونسنيور أغناطيوس مبارك، وهو مطران بيروت الماروني ووطني لبناني متحمس، دعمه لإده، استخدم بشارة الخوري كل الوسائل القانونية وغير القانونية لإسكات منافسه. أرسل أعداداً كبيرة من الدرك

إلى جبل لبنان للتغلب على مناصري إده. وعندما جاءت الانتخابات الفعلية في ربيع 1947، لم يتردد في التلاعب بها في مراكز التصويت⁽¹⁾.

فاز 47 مرشحاً من الأحزاب المؤيدة للحكومة من بين ما مجموعه 55 مقعداً. هُزم إميل إده وكتلته. واحتفظ فرعون وشمعون بمقعديهما، لكنهما عادا إلى المجلس بمجردين من العديد من مؤيديهما. وفي طرابلس، رفض عبد الحميد كرامي الترشح للانتخابات من الأساس بعدما جرى التغلب عليه بالحيلة والمكر. نجح شمعون في استبعاد "السلطان" سليم الخوري المثير للخلاف من لائحة الدستوريين الرسمية في جبل لبنان، لكنه لم يستطع منعه من تأليف لائحة ثانية والفوز بمقعد في المجلس. وكان هذا التفرق في صفوف الدستوريين مسؤولاً إلى حد كبير عن المخالفات التي شابَت الانتخابات في جبل لبنان وأدت إلى استقالة كمال جنبلاط، وإصرار شمعون على إنشاء لجنة تحقيق.

أقصيت المعارضة إلى حد كبير من مجلس النواب، فاتهمت الحكومة بإصدار لوائح مقترعين مزورة ووضع رجالها في مراكز الاقتراع وتزوير النتائج. كانت الضغوط الحكومية منتشرة بالفعل، بالإضافة إلى حرية استخدام النقود من قبل المرشحين المحتملين لشراء معارضيتهم. حاول المرشحون الخاسرون إجبار الحكومة على إلغاء نتائج الانتخابات وإجراء انتخابات جديدة، لكن بشارة الخوري ورياض الصلح رفضا ذلك بشدة.

عندما أصبح رياض الصلح رئيساً للوزراء في تشرين الأول/أكتوبر 1943، وعد بإصلاح قانون الانتخابات المعقد، الذي يقوم على نظام اللوائح. لكنه لم يستطع القيام بذلك ربما لأن النضال ضد الفرنسيين لم يترك له ما يكفي من الوقت والطاقة للقيام بأي شيء آخر. لكنه في سنة 1947، بدلاً من الإقدام على إصلاح قانون الانتخابات الذي تأخر مدة طويلة، استغلّ وحكومته هذا القانون للمجيء بمجلس النواب المطيع الذي يريده الرئيس بشارة الخوري - إلى حد تقرير من سيكون أعضاؤه قبل إجراء الانتخابات! شعر رياض بالألم من اتهامه بتزوير الانتخابات، فاستقال بعد الانتخابات على الفور، غير أن الرئيس كلّفه بتشكيل حكومة جديدة على الفور. اعترف الرئيس

(1) MAE-Nantes Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Armand de Chayla, Ministre de France, à Georges Bidault, Ministre des Affaires Étrangères, 21 mai 1947

لاحقاً في مذكراته بحدوث مخالفات، حيث أزال بعض المسؤولين أسماء الناخبين المتغيّين من لوائح الشطب، وحشوا صناديق الاقتراع بأصوات يزيد عددها على أعداد الناخبين. وقد اعترف آسفاً عند استذكار تلك الأحداث أن ذلك لم يكن قانونياً وألحق به الضرر، وأنه كان في وسعه الفوز من دونه⁽¹⁾.

على أي حال، حقّقت الانتخابات المعيبة النتائج التي أرادها الرئيس. في 9 نيسان/أبريل 1948، وقّع 46 نائباً عريضة لتعديل الدستور وتمكين بشارة الخوري من الترشح لولاية ثانية. وفي 21 نيسان/أبريل أقرّ مجلس النواب التعديل الدستوري. وفي 27 أيار/مايو، في جلسة خاصة لمجلس النواب، وافق الأعضاء آل 46 الحاضرون على إعادة انتخاب الرئيس بالإجماع. لم يشارك في الجلسة تسعة نواب، بينهم شمعون وفرعون وجنبلاط. كان الدور الذي لعبه رياض الصلح في هذه الوقائع شديد الأهمية. كان يدرك أنه يرتكب خطأ سياسياً فادحاً، لكنه اعتاد على العمل مع بشارة الخوري، ولم يكن راغباً في تعكير علاقتهما الطويلة الأمد. حاول ميشال شيحا جاهداً إقناع بشارة الخوري، صهره، بعدم الإقدام على محاولة التجديد لأن الرأي العام سيعارض ذلك بطبيعة الحال. لكن الرئيس لم يقنع بالعدول عن ذلك.

وهكذا حصل بشارة الخوري على ما أراد من انتخابات 1947، وتوطّدت مكانة رياض الصلح. فتمكّن من ترؤس أربع حكومات متتالية خلال السنوات الأربع التالية، وكانت حكومات "الرجل الواحد" بفضل تفوّقه الشخصي.

الخلاف بشأن مصبّ التابلاين

انشغل رياض الصلح طوال سنة 1947 بنزاع طويل ومرير مع سوريا بشأن موقع مكان مصبّ خط لأنابيب النفط⁽²⁾. ففي نهاية سنة 1946، بدأت شركة أرامكو الأميركية التشاور مع بعض الحكومات العربية بشأن خطة التابلاين (شركة خط

(1) بشارة الخوري، حقائق لبنانية، الجزء 3، ص 30.

(2) هذه الرواية عن النزاع السوري اللبناني بشأن مشروع التابلاين والاتفاق النقدي مع فرنسا مستقاة إلى حدّ كبير من Youssef Chaitani, *Post-Colonial Syria and Lebanon*, London 2007, Chapters 3 and 4.

أنابيب الزيت الخام عبر البلاد العربية) لبناء خط بطول 1000 ميل يمتد من الخليج العربي إلى البحر المتوسط.

لم يوافق السوريون على مرور هذا الخط عبر أراضيهم إلا إذا بني المصب على الساحل السوري في اللاذقية. غضب اللبنانيون لأنهم خافوا من أن يدفع العناد السوري أرامكو إلى البحث عن مكان آخر، ومدّ الخط عبر الأردن وفلسطين بدلاً من ذلك. لكن السوريون موقفهم بعد ذلك، واقترحوا مصباً على الحدود السورية - اللبنانية قرب طرابلس، لكن المهندسين الأميركيين رفضوا الاقتراح. وعندما أشارت بيروت إلى أن من غير المنطقي بناء مرفأً جديد، إذ إن هناك عدة مرافئ مجهزة في لبنان، وافق السوريون على أن يكون المصب في لبنان.

أثار السوريون بعد ذلك مسألة رسوم الترانزيت التي أصروا على تقاضيها ذهباً. كما أرادوا أن تزودهم شركة أرامكو بـ 400000 طن من النفط بأسعار تفضيلية - الميزة نفسها التي أعطتها شركة أرامكو للملك عبد العزيز ابن سعود عندما منحها امتيازاً في المملكة. أشارت أرامكو إلى أن هنالك فرقاً كبيراً بين امتياز التنقيب واتفاقية الترانزيت لكنها مستعدة لتلبية بعض المطالب السورية، وضغطت في الوقت نفسه على الحكومة السورية للموافقة على الاتفاقية حتى يمكن العمل بأقصى سرعة ممكنة. وفي لبنان، خشيت الدوائر السياسية والاقتصادية من أن تؤدي التأخيرات السورية إلى انهيار مشروع التابلاين بأكمله. بل إن ابن سعود عبّر عن انزعاجه من التأخير السوري أمام صديقه الرئيس شكري القوتلي.

عندما هدّد الأميركيون بالتخلي عن المشروع، قام رياض الصلح برحلات مكوكية بين مختلف الأطراف المختلفة خلال شهري تموز/يوليو وآب/أغسطس، في محاولة للتوفيق بين المطالب السورية ومصالح شركة أرامكو. وقد أثمرت جهوده في آخر الأمر. ففي نهاية آب/أغسطس وقّعت سوريا وأرامكو اتفاقية تبعثها اتفاقية معدلة بين لبنان وأرامكو في أيلول/سبتمبر، تأخذ في الحسبان الامتيازات التي حصلت عليها سوريا من الشركة. وبحلول كانون الأول/ديسمبر 1947، كانت العقبة الوحيدة المتبقية تصديق سوريا على الاتفاقية. غير أن ذلك واجه مشكلة جدية. فقد أثار الدعم الأمريكي لتقسيم فلسطين عاصفة من المشاعر المعادية للولايات المتحدة، فتعذّر على الحكومة السورية المضي قدماً في المشروع.

لم يكن ذلك النزاع الوحيد الذي أفسد العلاقات بين بيروت ودمشق. فثمة مسألة أساسية أخرى أكثر أهمية هي علاقتهم مع فرنسا. عندما نال لبنان استقلاله، ووجّه رياض الصلح اهتمامه على بناء الدولة، قرّر إصلاح العلاقة مع الدولة المنتدبة السابقة. فبعدما تغلب على الفرنسيين في تشرين الثاني/نوفمبر 1943، وأقصى أصدقاءهم المحليين مثل إميل إده، وأجبر قواتهم على الجلاء عن البلاد، وجد أنه لا حاجة إلى إثارة مزيد من العداوة معهم. بل خلافاً لذلك، شعر أن لبنان بحاجة إلى حلفاء غربيين، وأن فرنسا يمكن أن تكون من بينهم. فقد خرجت فرنسا ضعيفة من الحرب العالمية الثانية، لذا تراجعت قدرتها على فرض إرادتها على العرب، وهذا ما جعلها أكثر جاذبية في نظر رياض. وخلافاً للسوريين - الذين ما زالوا غاضبين من الوحشية الفرنسية - قدّم رياض إيماءات ودّية نحو باريس. وسرعان ما ظهر ميله إلى فرنسا على السطح، وقرّر حلّ كل المشاكل العالقة مع الفرنسيين بروح تصالحية. ففي النهاية، العلاقات الحسنة مع فرنسا شرط مسبق للسلم الداخلي في لبنان، لا سيما أن العديد من اللبنانيين ظلّوا مؤيدين لفرنسا. غير أن السوريين لم يشاركوه في هذا الموقف. فبقيت علاقاتهم مع باريس مشوبة بالعداء والشك العميق بسبب ما تعرّضوا له على يد الفرنسيين - لا سيما قصف دمشق وإحراقها، وسقوط خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات.

حظي نمج الصداقة الذي اتبعه رياض بتقدير كبير من سفير فرنسا الجديد في بيروت، أرماند دو شايلا Armand de Chayla، الدبلوماسي المحترف الذي أرسل إلى بيروت عندما اعترفت فرنسا رسمياً باستقلال لبنان وسيادته في 8 تموز/يوليو 1946. فعمد على الفور إلى التحدّث بلهجة مختلفة جداً عن اللهجة التسلّطية التي استخدمها المفوضون السامون والمندوبون العامون الفرنسيون في الماضي. وفي تقرير أرسله إلى باريس عن حكومة رياض الصلح الجديدة كتب دو شايلا:

لا حاجة بي إلى وصف نائب جنوب لبنان ذي الشخصية القوية المعروفة في باريس بقدر ما هي معروفة هنا. لقد ظلّ داعية للقومية العربية طوال أكثر من خمسة وعشرين عاماً. إنه محرّض للجماهير متميّز وشجاع... لكنه لا يضمّر ذلك الحقد الشخصي الذي يمكن أن يجعل منه عدواً صغيراً. وغالباً ما يستعيد مناقشاته القديمة مع

الأمن العام الفرنسي، لإثارة الضحك. وعند ذكر مثل هذه الحوادث، فإنه يعتمد عادة إلى إقحام كلمة عن الصداقة مع فرنسا اليوم، وهو ما يثير الدهشة - وينم عن صدق واضح - لأن ذلك كان يلي عادة الإشارة إلى أنه كان عدواً صلباً للانتداب. إنه يجب الإشارة إلى صداقته مع رجال اليسار، واحتفاظه بذكريات قوية عن اتصالاته مع قادة الحزبين الاشتراكي والشيوعي الفرنسيين قبل الحرب، ويعلن أنه لا يزال يعتمد عليهم لتقديم الدعم.

ما الأهداف التي يسعى إليها رياض الصلح على المدى الطويل، خلف هذه الواجهة المرضية؟ إن هذا الزعيم السني لا يتسم بكره الأجانب أو التطرف. لكنه أخذ من دينه وعرقه صفتي إخفاء المشاعر والصبر الرائعتين... وبغض النظر عما يقوله، فإن حلمه لا يمكن أن يظل محصوراً ضمن حدود لبنان. سياسته التي تشدد على استقلال لبنان ما هي إلا ما يعتبره ضرورياً في هذه المرحلة. إن قامته كبيرة جداً كي يمتد طموحه، بطريقة أو بأخرى، إلى مشروع الوحدة العربية الكبيرة⁽¹⁾.

على الرغم من علاقات رياض الجديدة الودية مع فرنسا، فقد بقيت بعض مجالات التوتر التي يتصل معظمها بمسائل غير محسومة تتعلق بفترة الانتداب. ومن أهم هذه الأمور مسألة الضمانات الفرنسية بعدم خفض قيمة الفرنك الذي يشكل غطاء العملتين السورية واللبنانية. رأى الفرنسيون أن التزامهم بموجب الاتفاق المالي لسنة 1944 قد جرى تنفيذه بدفع مبلغ من المال، قبل مدة من الوقت، ذي صلة بالتخفيض السابق لقيمة الفرنك. لكن الحكومتين السورية واللبنانية رفضتا هذه المقولة. ورأنا أن ذلك يعني انسحاب فرنسا من جانب واحد من الاتفاقية، تاركة عملتيهما واقتصاديهما عرضة للتقلبات المضرة، كما كان الأمر في السابق. لإعادة فتح المفاوضات، زار وزير الخارجية اللبناني الجديد حميد فرنجية - الذي حل محل هنري فرعون في تعديل وزاري أجري في حزيران/يونيو 1947 - باريس في أيلول/سبتمبر من ذلك العام.

على الرغم من عدم التوصل إلى اتفاق نهائي، فإن الفرنسيين أبدوا استعدادهم لضمان جزء كبير من غطاء العملة، وجعل الرصيد متوفراً على شكل صادرات فرنسية

MAE-Nantes Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, Armand de Chayla, (1) Ministre de France, à Léon Blum, Premier Ministre et Ministre des Affaires Étrangères, 26 Décembre 1946

أو بعمالات أجنبية، ما عدا الدولار. رأى اللبنانيون أن هذا العرض معقول، لكن السوريين، الذين لا يزالون مرتابين بفرنسا، لم يميلوا إلى القبول به. أدى هذا الاختلاف في الرأي إلى إذكاء التوتر ثانية بين بيروت ودمشق وفاقم النزاعات القائمة بشأن الرسوم الجمركية والتعريفات، والسياسة الاقتصادية بصورة عامة. فقد واصلت سوريا تفضيل سياسة حماية زراعتها وصناعاتها، بينما فضّل لبنان التجارة الحرة، معتقداً أن تلك هي الوسيلة الفضلى للجم الأسعار في بلد يعاني بشدة من التضخم الجامح في مرحلة ما بعد الحرب. كان الشغل الشاغل للحكومتين محاربة ارتفاع تكلفة المعيشة، الذي لام كل منهما الآخر بشأنه.

في لبنان، كان الشعب يطالب بخفض سعر الخبز، ويحثّ السياسيين على تعديل اتفاق الحبوب السوري اللبناني. واعتبر الوطنيون اللبنانيون أن الوحدة الاقتصادية مع سوريا غير طبيعية ومصطنعة، وأن الفرنسيين أقاموها لخدمة مصالحهم الذاتية ومصالح سوريا. غير أن السوريين شعروا أن بلادهم كلها، بما في ذلك دمشق، تقلّصت لتصبح مجرد منطقة مقاصّة جمركية خاضعة لبيروت. وطالب التجار السوريون النافذون زعماءهم بالتشدد مع لبنان وتسريع تطوير مرفأ سوري في اللاذقية.

شكّلت بيروت مصدر بعض الحسد للسوريين الذين كانت البنية التحتية لديهم من مرافئ وفنادق ومطارات وسكك حديدية لا تزال ضعيفة. كان المسافرون يسرون بأن يبدؤوا رحلتهم من أوروبا إلى العراق وإيران والهند في بيروت، حيث يلقون استقبالا جيدا ويشعرون بالراحة. لكن لم يكن هناك ما يربط بيروت بدمشق سوى طريق رديء الصيانة أنشئ في ستينيات القرن التاسع عشر وخط سكة حديدية يصلح لنقل الفحم والأحجار أكثر مما يصلح لنقل المسافرين. في محاولة لحل الخلافات مع سوريا، بذل رياض الصلح كثيراً من الوقت والجهد متنقلاً بين اجتماعات وزارية مكوكية في دمشق وبيروت، بالإضافة إلى شتورة، في سهل البقاع عند منتصف الطريق بين البلدين. لكن الخلافات استمرت، وكذلك المشاعر العدائية لدى الجانبين التي توجّتها الصحافة في البلدين.

كانت المفاوضات مع الفرنسيين مستمرة منذ تشرين الأول/أكتوبر 1947، لكنها تأزّمت بإجراء تخفيض جديد لقيمة الفرنك، وقيام باريس بتحديد 31 كانون

الثاني/يناير 1948 آخر موعد لتلقي ردي حكومتي لبنان وسوريا على اقتراحاتهما. طلب رياض نصيحة كبار رجال الأعمال والمصرفيين. أجمع رأي هؤلاء على أن فصل العملتين - الليرة السورية عن الليرة اللبنانية - لن يكون قاتلاً ولن يؤدي بالضرورة إلى تدمير الوحدة الجمركية السورية اللبنانية. لذا أعلن رياض الصلح قبول الاقتراحات الفرنسية، بينما رفضتها سوريا. رحّب المسيحيون بقراره، وكان يمكن أن يرفضه المسلمون لولا دفاعه المقنع عنه⁽¹⁾. كان رياض مقتنعاً أن قراره صائب، بينما عبّر خالد العظم، وزير المالية السوري، عن قناعته أن رياض ارتكب غلطة اقتصادية وسياسية فادحة.

في 6 شباط/فبراير 1948، وقّع حميد فرنجية، وزير الخارجية اللبناني، اتفاقاً مالياً في باريس مع وزير الخارجية الفرنسي، جورج بيدو. استشاط السوريون غضباً، واعتبروا الاتفاق خيانة للقضية الوطنية العربية. اتُهم رياض أنه تخلى عن تعهده الشهير ألا يكون لبنان للاستعمار مقراً ولا ممراً إلى سوريا. كتبت جريدة القبس اليومية التي كان يرأس تحريرها نجيب الرئيس، أحد رفاق رياض في النضال القومي العربي غاضبة: "كنا نستوقع أن تفعل فرنسا كل ما في وسعها ضد بلادنا، لكننا فوجئنا جداً أن تشارك في لبنان حكومة برئاسة رجل مثل رياض الصلح في هذه المؤامرة"⁽²⁾.

آلمت مثل هذه الانتقادات رياض الصلح كثيراً، وهو الذي كرّس جل حياته في سبيل القضية الوطنية العربية والوفاق السوري اللبناني على وجه الخصوص. وكان الحكام الوطنيون في دمشق أقرب حلفائه السياسيين طوال عقود. فغضب مما اعتبره محاولة غير عادلة لخلط الوطنية بالاقتصاد. دعا السوريون لبنان إلى التخلي عن الاتفاق مع فرنسا أو المخاطرة بالانفصال عن سوريا. ردّ رياض الصلح على الاتهامات السورية المؤلمة بعبارات عربية مفرطة التضخيم: "ليقطع لساني إذا قلت شيئاً لا يعبر عن الصداقة مع السوريين، ولتقطع يدي إذا وقعت أي اتفاق يتعدى على سيادة لبنان أو سوريا"⁽³⁾.

(1) Beirut Political Summary, January 1948 (FO 371/68489)

(2) القبس، دمشق، 4 شباط/فبراير 1948.

(3) النهار، بيروت، 6 شباط/فبراير 1948.

يبد أن الخلاف تجاوز، في هذا الوقت، الأمور الاقتصادية كثيراً وأثر في كل ناحية من نواحي العلاقة بين لبنان وسوريا. رحبت الصحف الموالية لفرنسا في بيروت بقرار سوريا الخروج من منطقة الفرنك لأنه كما يعتقدون يعني أن لبنان قد انفصل عن سوريا أخيراً، وهذا ما كانوا يرغبون فيه دائماً. لذا تُركت العملة السورية، التي كانت حتى ذلك الوقت مدعومة بالفرنك الفرنسي، من دون دعم.

أعلن السوريون في شباط/فبراير أنهم ينوون إصدار عملة جديدة ومستقلة. ونتيجة لذلك، توقفت كل الأنشطة التجارية في لبنان حيث حاصر اللبنانيون المصارف وهم يحاولون، من دون جدوى، استبدال عملتهم السورية. أغلقت الحدود أكثر من أسبوعين، من 2 إلى 19 شباط/فبراير، أمام مرور البضائع والعملات. فأحدث ذلك نقصاً فورياً في المواد الغذائية في لبنان - وخاصة الخضراوات التي تأتي تقليدياً من سوريا - وارتفعت الأسعار نحو 50 بالمئة في بضعة أيام.

لاح خطر قطع العلاقات بين البلدين الشقيقين. أرسل ابن سعود رسالتين عاجلتين إلى رئيسي جمهوريتي البلدين حثهما فيهما على تجنب مثل هذا الاحتمال. ودعا رياض الصلح إلى تحكيم تجريه جامعة الدول العربية. وقال إنه سيقبل حكمها، أيّاً يكن هذا الحكم، وسيستقيل إذا كان لغير صالحه. عقدت مفاوضات رأسها عزام باشا، الأمين العام لجامعة الدول العربية، في القاهرة وبيروت، وبعد كثير من الحدة والمرارة، تمّ التوصل إلى اتفاقات قصيرة الأجل في شباط/فبراير وآذار/مارس 1948، إلى أن طغت نكبة فلسطين على هذا النزاع التعييس.

علاقات رياض الصلح ببريطانيا

كان رياض الصلح معجباً ببريطانيا، مثله مثل كثير من العرب من أبناء جيله، ويميل إلى المبالغة في تقدير قوتها وذكائها. وذلك ليس أمراً مفاجئاً، إذ إن بريطانيا بسطت سيطرتها على الشرق الأوسط منذ عقود عديدة، وأثبتت حضورها الفاعل في جميع أنحاء المنطقة. كان البريطانيون يمتلكون قواعد عسكرية في العراق، ومصر وفلسطين، وعدن، وجنوب شبه الجزيرة العربية، والخليج العربي، وقيرص، والعديد من الأماكن الأخرى، ويمارسون هيمنة عليها. وثمة طرفة عربية أن الزوج إذا تشاجر

مع زوجته فإن البريطانيين سيعلمون بذلك. على الرغم من أن قليلاً من الوطنيين العرب تحولوا نحو ألمانيا في الحرب العالمية الثانية بسبب نفورهم من السياسة البريطانية في فلسطين العربية، فإنه لم يكن من المفاجئ جداً لمعظم العرب أن تتمكن بريطانيا من الانتصار على هتلر في النهاية. ولا شك في أن معظم السوريين كانوا يفضلون أن يعيشوا تحت الانتداب البريطاني بدلاً من الانتداب الفرنسي في فترة ما بين الحربين. ويرجع ذلك إلى أن بريطانيا، خلافاً لفرنسا، تميل إلى منح العرب بعض الحرية في إدارة شؤونهم المحلية - شرط انقيادهم لها في الشؤون الاستراتيجية والخارجية. على سبيل المثال، تمتع نوري السعيد، رجل بريطانيا في العراق، باستقلالية واحترام كبيرين تحت المظلة البريطانية الواقية.

لكن فلسطين كانت الاستثناء الصارخ. كانت المنطقة التي رأى العرب أن بريطانيا خانتهم فيها تماماً. لم يستطع رياض الصلح مثلاً أن يفهم البتة كيف وقعت بريطانيا على وعد بلفور، منبع كل العلل من وجهة نظره⁽¹⁾. مع ذلك - إذا وضعنا أحداث فلسطين جانباً - فإن رياض الصلح أصبح عند نهاية الحرب العالمية الثانية مؤيداً لبريطانيا. ويعود ذلك إلى حد كبير إلى صداقته مع الجنرال السير إدوارد سبيرز وامتنانه للدعم غير العادي الذي قدمه إليه هذا البريطاني الغريب الأطوار والقوي الشكيمة في النضال للاستقلال عن الفرنسيين. كان رياض يدرك أنه لولا وجود سبيرز في بيروت - ولولا شجاعته الكبيرة ومهاراته السياسية - لكان تحقيق استقلال لبنان أكثر صعوبة بكثير، هذا إذا تحقق. لكن ما لم يدركه رياض تماماً أن سبيرز هو الاستثناء، لا القاعدة، بين المسؤولين البريطانيين، وأن المسؤولين الأقوياء في بريطانيا اعتبروه ذا ميول مستقلة خطيرة، وظلوا يطالبون برأسه إلى أن حققوا مرادهم في نهاية الأمر.

أحدثت زيارة لندن، المثقلة بجراح الحرب وذات الروح المعنوية العالية، فور نهاية الحرب، أثراً عميقاً في نفس رياض، عندما حضر الاجتماع الأول للجمعية العامة للأمم المتحدة. وسحره الاستقبال اللطيف الذي لقيه من السير ألكسندر كادوغان، المندوب البريطاني في الأمم المتحدة، بالإضافة إلى اهتمام سبيرز الذي جال به في مجلس العموم ودعاه إلى العشاء في نادي المجلس.

(1) مقابلة مع علياء الصلح، باريس، شباط/فبراير 2006.

في سنة 1947، كان رياض الصلح على دراية تامة باحتمال استيلاء الشيوعيين على الحكم في اليونان وتركيا، واندفاع الاتحاد السوفياتي عبر إيران والعراق باتجاه البحر المتوسط - لا شك في أنه اطلع على ذلك من السفراء والمبعوثين الآخرين البريطانيين الذين التقى بهم. كان قريباً جداً من الحزب الشيوعي اللبناني في الثلاثينيات، عندما أصبح صديقاً لقادته، مثل نقولا الشاوي، وحاول استمالتهم إلى قضيته الوطنية. كان من أوائل السياسيين العرب الذين استوعبوا أن نضال العمال من أجل تحسين أجورهم وظروف عملهم مع الشركات الامتيازية الفرنسية جزء لا يتجزأ من النضال السياسي في سبيل الاستقلال. وفي سنة 1945 - عندما كان في باريس يتفاوض على جلاء القوات الفرنسية - عرفه الشاوي على قادة الحزب الشيوعي الفرنسي في محاولة للحصول على دعمه في إحداث تحوّل في الرأي العام الفرنسي.

غير أن تعاطف رياض الصلح مع الشيوعيين لم يتجاوز تلك الفترة. فعندما أصبح رئيساً للوزراء، أخذ ينظر إلى الحزب كقوة مثيرة للفضاضة. في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1947، على سبيل المثال، عندما هاجم متظاهرون في زحلة، وهي مدينة في سهل البقاع، مخزناً للقمح احتجاجاً على نقص الطحين، استدعى رياض الجيش. أطلق الجنود النار على الحشود، فقتل ثلاثة أشخاص وجرح العديد غيرهم. دافع رياض عن نفسه في مجلس النواب، وأدان الشيوعيين لأنهم حرّضوا على الاضطرابات، وأرسل الأمير فريد شهاب - وهو ضابط شرطة ذو تدريب فرنسي أمضى بعض الوقت في لندن لدراسة أساليب الشرطة البريطانية - لتقدم تقرير عن نشاطات الشيوعيين في منطقة البقاع. من الواضح أن ما علمه رياض لم يكن مطمئناً، لأنه قرّر اتخاذ تدابير قاسية ضد الحزب، كما أبلغ السفير البريطاني في بيروت، وليم هوستن - بوزوال William Houstoun-Boswall. في أوائل سنة 1948، أقفل المقر الرئيسي للحزب الشيوعي، وجمعية الصداقة اللبنانية السوفياتية، ونقابات العمال التي يقودها الشيوعيون برئاسة مصطفى العريس - الذي كان يعتبر محرّضاً على الإضرابات المتكررة⁽¹⁾. من الواضح أن قيام رياض الصلح باتخاذ مثل هذه التدابير القمعية غير المعهودة، يظهر تأثيره بمناخ الحرب الباردة في ذلك الوقت.

غير أن الأزمة المتفاقمة بسرعة في فلسطين طغت على اهتماماته العديدة الأخرى، ومنها جمود مشروع التابلاين، والنزاع مع سوريا بشأن الاتفاق المالي مع فرنسا، وتنامي العداء بين المسلمين والمسيحيين في لبنان. ففي نهاية سنة 1947، أيدت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تقسيم فلسطين بين العرب واليهود الأوروبيين. ومن المفارقة أن بريطانيا بدت الآن الصديق الوحيد بين الدول الكبرى الذي يستطيع العرب اللجوء إليه في ذلك الوقت العصيب. ويرجع ذلك إلى أن الضعف البريطاني الفعلي لم يكن ظاهراً في العالم العربي بسبب استمرار تواجدها في المنطقة، والزيارات المتكررة التي تقوم بها سفنها الحربية المثيرة للإعجاب، مثل زيارة حاملة الطائرات أوشن Ocean إلى بيروت وغيرها من موانئ البحر المتوسط. كما جذب زواج الأميرة إليزابيث في سنة 1947 اهتمام العالم، وعزز من مكانة بريطانيا. وقادت مظاهر الأبهة والمراسم الاحتفالية البريطانية العرب إلى الاعتقاد أن بريطانيا لا تزال في موقف يمكنها من فرض "التسوية العادلة" التي يتوقون إليها في فلسطين.

الفصل الرابع والعشرون

الحرب غير المرغوبة

من سوء حظ رياض الصلح أن سنة 1947، السنة الأولى لتوليهِ رئاسة الوزراء في لبنان، هي السنة التي استيقظ فيها العرب على الحقيقة القاسية للقوة الصهيونية في فلسطين. لم يكد لبنان وسوريا يتخلّصان من الحكم الفرنسي، حتى واجها قيام دولة يهودية، بدأ العمل على إنشائها بنشاط ومنهجية منذ عقود - إن لم يكن منذ سنة 1897، حين عقد تيودور هرتزل المؤتمر اليهودي العالمي في بازل، سويسرا، بغية إنشاء وطن لليهود، على الرغم من أن مكانه لم يكن قد تقرر في ذلك الوقت.

كان هناك تباين كبير بين نجاحات رياض السياسية في وطنه، وعجزه في الساحة الفلسطينية. وقد أدرك بنفسه هذا التباين. ونظراً إلى أنه انهمك في الشؤون الفلسطينية منذ أوائل العشرينيات، فقد شارك الفلسطينيون همومهم وآلامهم. كان الفلسطينيون يفقدون بلادهم شيئاً فشيئاً بسبب انقسامهم، والصراعات الداخلية في ما بينهم، ومواجهتهم القوة الفائقة المشتركة البريطانية والصهيونية. ولم يكن في وسع الزعماء العرب، مثل رياض الصلح، فعل الكثير حيال ذلك.

أدرك رياض بحلول سنة 1947 - ربما أكثر من معظم العرب - وجود مجتمع أوروبي يهودي منظم في فلسطين يضم ما يزيد على 600,000 نسمة، له مؤسساته وقواته المسلحة الخاصة، وربما يتعين إيجاد مكان له، بطريقة أو بأخرى، ضمن حدود فلسطين التاريخية. لكن الرأي العام العربي كان يعارض بشدة الوافدين اليهود الجدد - ولا يعرف شيئاً عما استطاعوا تحقيقه بالفعل - بحيث يرفض رفضاً قاطعاً أي فكرة تدعو إلى منحهم كياناً سياسياً خاصاً بهم. وأصرّ العرب على بقاء فلسطين دولة عربية.

حاول رياض منذ العشرينيات استكشاف إمكانية عقد نوع من اتفاق سياسي براغماتي مع الصهاينة. لكنه أدرك في منتصف الثلاثينيات، أن الطموحات الصهيونية أكبر بكثير مما يمكن توفيقه مع ما قد يكون العرب على استعداد للتخلي عنه. وفي

الأربعينيات، انغمس رياض كثيراً في النضال الذي خاضه وطنه للاستقلال عن الفرنسيين، فلم يستطع تكريس كثير من الوقت للمأساة التي بدأت تظهر فصولها في فلسطين المجاورة. وعلى أي حال، كان يدرك بأسى أن موارد لبنان قليلة جداً بحيث لا يستطيع التأثير في مجريات الأمور.

في سنة 1945، عندما توجه رياض إلى باريس للتفاوض على الاتفاق النهائي لجلاء الجيوش الفرنسية، علم أن المفتي السابق للقدس، الحاج أمين الحسيني، يعيش في مكان قريب من العاصمة الفرنسية. فقد تدبر المفتي بطريقة ما الوصول إلى فرنسا، بعدما أمضى قسماً كبيراً من فترة الحرب في ألمانيا - ولحقه عار التحالف مع هتلر. احتجزه الفرنسيون، مع أربعة من أفراد عائلته، في قصر ريفي خارج باريس، في ما يشبه الإقامة الجبرية. وهناك اجتمع به رياض الصلح. كان الرجلان قد اختلفا سياسياً عندما راهن المفتي على النازيين، لكن رياض احتفظ ببعض التعاطف الشخصي مع المفتي نظراً إلى الصداقة القديمة التي جمعت بينهما - ونضالهما، كل على طريقته، من أجل قضية التحرر العربي. لاحظ رياض في يومياته أن المفتي لا يزال شجاعاً ووطنياً كما كان دائماً. وتحدث بلهجة مؤثرة عن الاحترام الذي أظهره له لبنان في ما مضى. غير أن القصر المنيف الذي ينزل فيه "ليس سوى قفص، لأن المفتي مسجون فيه"⁽¹⁾. لم يكن في وسع رياض مساعدته، فلديه ما يكفيه من المشاكل مع الفرنسيين.

بدا في ذلك الوقت أن العرب كافة يحاربون القيود والمظالم التي فرضتها عليهم القوى الأجنبية. كان لبنان في سنة 1947 كياناً هشاً مثلما هو حال سوريا. فكلاهما يعانيان من مشاكل الأمن الداخلي، وساد العلاقات بينهما توتر شديد ناجم عن العديد من النزاعات السياسية والاقتصادية. ولم يكن لدى البلدين قوات مسلحة تذكر، باستثناء بعض الدرك وبقايا القوات الخاصة التي يبلغ عددها نحو 2000 عنصر في كل بلد، مسلحين بما خلفه الفرنسيون وراءهم من عتاد عديم الجدوى. لم يكن لديهما الأموال لإعادة تجهيز ترسانتيهما. لم يكن الجيش اللبناني يمتلك سوى أسلحة خفيفة متفرقة، ولا يزال يعتمد في مواصلاته على الجياد!

(1) مقتطفات من مذكرات رياض الصلح التي نشرت في صحيفة أخبار اليوم المصرية، في 30 آذار/مارس

كان انعدام الأمن في الريف متفشياً نتيجة انتشار الأسلحة الشخصية، وقوة الزعماء المحليين، وانتشار قطاع الطرق الذين سَتُوا قانوناً خاصاً بهم. وغالباً ما كان الطريق بين بيروت ودمشق غير آمن في الليل. وكان الحشيش يزرع على نطاق واسع في سهل البقاع، ما شكّل فضيحة مكشوفة، إذ في وسع المسافرين إلى دمشق رؤية حقول الحشيش وهم على الطريق. لم يكن باستطاعة الدرك فعل الكثير بهذا الشأن بسبب انتشار الفساد في صفوفهم، والنفوذ السياسي الكبير الذي يتمتع به كبار ملاك الأراضي. عَيّن رياض الصلح الأمير فريد شهاب رئيساً للأمن العام مكان إدوار أبو جودة، الذي اعتُبر عدم الكفاءة وغير مستقيم. لكن مهمة استعادة القانون والنظام كانت صعبة للغاية.

كان الوضع في سوريا أكثر سوءاً. فلم يكن على الحكومة التعامل مع مشاكل الطرقات غير الآمنة، وقطاع الطرق، والصراعات بين العائلات في الأراضي الداخلية القبليّة فحسب، وإنما أيضاً إخضاع مناطق البلاد التي تَعَمّد الفرنسيون أن يغرسوا فيها بذور النزعة الانفصالية. ففي جبال العلويين، على سبيل المثال، شجّع الفرنسيون الزعيم المحلي سليمان المرشد على التمرد على الكتلة الوطنية في دمشق. كان سليمان مشعوذاً وأمياً ادعى القداسة، فأنشأ فرقة دينية سياسية جذبت عشرات الآلاف من الأتباع غير المتعلمين في القرى العلوية. أرسلت القوات الحكومية لجلبه، ولم يُقبض عليه إلا بعد اشتباك مسلّح، وأعدم في وسط مدينة دمشق في تشرين الثاني/نوفمبر 1946. بعد ذلك بعام، أُجبرت الحكومة على إرسال القوات مرة أخرى لوضع حدّ للتمرد في جبل الدروز، حيث كانت عشيرة الأطرش النافذة تهدّد بالانفصال والانضمام إلى الأردن.

ورث الوطنيون في كل من سوريا ولبنان، عن الفرنسيين، بلدين ضعيفين غير مستقرين وفقيرين، يسودهما الانقسام وفقاً للاتجاهات الطائفية والمناطقية، ويفتقران إلى المؤسسات الفعّالة. لم يكونوا مستعدين للقيام بأعباء هذه المهمة الشاقّة، بعد صراعاتهم الطويل مع الانتداب. لذا لم يكن من المفاجئ عدم تمكّن أي من البلدين من فعل الكثير عند اندلاع الحرب في فلسطين.

وكانت مصر، البلد العربي الأهم، منشغلة في النضال لتحرير نفسها من بقايا الحكم البريطاني، لا سيما الحامية البريطانية الكبيرة المنتشرة على طول قناة السويس.

طلبت مصر بالسيادة على السودان، وانسحاب القوات البريطانية من القناة، لكن بريطانيا رفضت تلبية أي من المطالبين. وخضع العراق لقيود مشاهمة، حيث احتفظ البريطانيون بقواعد جوية هناك، وأداروا سياسته الخارجية. وعندما حاول رشيد عالي التحرر في سنة 1941، سحقت بريطانيا حركته، ومنحت السلطة السورية لولي العهد عبد الإله ونوري السعيد اللذين رضيا بعد ذلك بالحكم في ظل الحماية البريطانية، والاسترشاد ببريطانيا في مسائل السياسة الخارجية. في المملكة العربية السعودية، لم يعان ابن سعود من الاحتلال العسكري البريطاني، لكنه كان يدرك المصالح البريطانية ومواطني القوة البريطانية حول مملكته الصحراوية، فحرص على عدم تحديها. وفي شرق الأردن، كان الأمير عبد الله الحاكم الاسمي، لكن السلطة الفعلية في يد السير ألك كركبرايد Sir Alec Kirkbride، السفير البريطاني الذي عمل فترة طويلة في عمان، والسير جون غلوب Sir John Glubb، (أو غلوب باشا كما كان يحب أن يدعى)، قائد الفيلق العربي الخاضع لإمرة ضباط بريطانيين. على أي حال، كان عبد الله على اتصال مع الصهاينة منذ سنة 1921.

عانى العرب الفلسطينيون من ظروف أسوأ من تلك التي يعانيها إخوانهم، إذ لم يعبر البريطانيون، ولو على سبيل الادعاء، عن الرغبة في مساعدتهم في تحقيق الاستقلال. وكان الصهاينة، لا العرب، هم الذين وعدوا بالحصول على وطن بدعم بريطاني. وعندما ثار العرب بين سنتي 1936 و1939 على تدفق المهاجرين اليهود، سحق الجيش البريطاني ثورتهم، وتعرض زعمائهم السياسيون والعسكريون للقتل أو النفي. ولم يتعافوا قط بعد تلك الهزيمة أمام القوة الاستعمارية الكبرى.

باختصار، هناك اختلاف جوهري بين التجربة الانتدابية للصهاينة في فلسطين والعرب في دولتي المشرق. التزمت بريطانيا بتعهداتها في إعلان بلفور، ودعمت المشروع القومي الصهيوني طوال ربع قرن، وهيأت الظروف المناسبة للهجرة اليهودية على نطاق واسع وبناء الدولة الفعلية. بالمقابل، بذلت فرنسا ما في وسعها لخلق الحركة الوطنية العربية منذ سيطرتها على سوريا ولبنان. فخرج اليهود منتصرين من تجربة الانتداب، فيما خرج العرب خاسرين.

في نهاية الحرب العالمية الثانية، اقترب اليهود الأوروبيون في فلسطين من إنجاز العناصر الرئيسية للدولة. كان المستدروت، الذي أنشئ في سنة 1920، أكثر من مجرد

اتحاد عام لنقابات الطبقة العاملة اليهودية، إذ شارك في العديد من أنشطة بناء الدولة، كإنشاء مصرف وشركات أشغال عامة، وتوزيع المنتجات الزراعية للمستوطنات الزراعية (الكيبوتز)، والتأمين الصحي للمهاجرين، والإسكان، والتعليم، والثقافة والصحف، والعديد من الأمور الأخرى. وكان ديفيد بن غوريون، رئيس المستدروت، قد تولى في سنة 1935 أعلى منصب في الوكالة اليهودية، وهي بمثابة حكومة في كل شيء عدا الاسم، حيث ضمت دوائر متعددة مسؤولة عن الشؤون السياسية والمالية والهجرة والاستيطان والأمن وسواها. كان بن غوريون القائد الأعلى، يساعد العديد من القادة ذوي القدرات المميزة، مثل موشي شرتوك (شاريت لاحقاً)، وغولدا مايرسون (مائير لاحقاً).

وكان في وسع المجتمع اليهودي التباهي بمجموعة من الأحزاب السياسية المنخرطة في نقاشات حادة؛ وبالصندوق الوطني اليهودي، الذي تأسس عام 1901 لتمويل شراء الأراضي الفلسطينية وتوطين المهاجرين اليهود؛ وأجهزة دبلوماسية واستخباراتية متنوعة، حصلت على معلومات مفصلة عن البلدان العربية المجاورة، نتيجة عمل السكان اليهود المحليين الأوفياء والمخبرين العرب المأجورين. وكان يتمتع أيضاً بقاعدة علمية وصناعية واسعة وعدد من مراكز التعليم المميزة، مثل معهد وايزمان للعلوم، والجامعة العبرية على جبل المشارف. والأهم من كل ذلك، كان لديه جيش سري، الهاغاناه، أنشئ منذ العشرينيات بمساعدة بريطانيا، واستفاد بعد الحرب العالمية الثانية من تدفق المقاتلين اليهود المتمرسين بعد أن خدموا في جيوش الحلفاء. كما تمتع المجتمع اليهودي في فلسطين بميزة مهمة جداً، وهي الدعم السياسي والمالي الذي يقدمه عشرات الآلاف من الأصدقاء الأثرياء الملتزمين والنافذين في الخارج، لا سيما في الولايات المتحدة.

بالإضافة إلى كل تقدم، كان هناك دافع واحد طاغ بجرّك الصهانية. فقد ولدت الإبادة الجماعية التي ارتكبتها هتلر ضدّ ملايين اليهود الأوروبيين لدى من نجوا عزيمة لا تليّن للحؤول دون تعرّض الشعب اليهودي لثل هذا المصير ثانية. وأصبح من المعتقدات الرئيسية لديهم أن الدولة اليهودية هي وحدها التي يمكن أن تؤمّن لهم الحماية المطلوبة. وقد توصّل بن غوريون إلى قناعة أن استخدام القوة مع العرب أمر ضروري لإنشاء

مثل هذه الدولة على أكبر مساحة من فلسطين التاريخية يمكن إخلالها من المواطنين العرب. فانكبّ على إعداد العدة لمثل هذا العمل العسكري منذ منتصف الثلاثينيات. وفي اجتماع شهير عُقد في فندق بلتمور في نيويورك في سنة 1942، طالب بدولة يهودية على جميع الأراضي الفلسطينية الخاضعة للانتداب. واضطر في النهاية إلى القبول بأقل من ذلك.

وهكذا تميّز الصهاينة بقيادة ذات عقلية واحدة وقادرة، وبالتنظيم، والموارد، والقوة البشرية المدربة، والدافع القوي. ولم يكن لدى العرب سوى قليل من هذه المزايا. استاء الرأي العام العربي مما يجري في فلسطين، لكنه كان يفتقر إلى الوسائل والتنظيم للقيام بشيء حياله. وكانت المنافسة بين العرب والصهاينة غير متوازنة، كما وثّقها العديد من المؤرخين البارزين في السنوات القليلة الماضية. ومن أبرزهم العالمان الفلسطينيان وليد الخالدي ونور مصالحة، والعلماء الإسرائيليون سيمحا فلابان Simha Flapan، وبينى مورس Benny Morris وآفي شلايم Avi Shlaim وإيلان بايه Ilan Pappé. أحدثت الأبحاث المهمة لهؤلاء ثورة في التفكير في السياسات الصهيونية قبل حرب 1948 وخلالها وبعدها، وبدّدوا الخرافة الصهيونية الرومانسية الكاذبة بأن "داود" الإسرائيلي حارب وانتصر بأعجوبة على "جالوت" العربي المتمثل في خمسة جيوش عربية.

بالإضافة إلى المعوقات السياسية والاقتصادية واللوجستية العديدة، عانى العرب أيضاً من آفة الفتوى القاتلة التي لم يشفوا منها حتى اليوم. انشغل العرب بمحاربة بعضهم بعضاً بقدر اهتمامهم بمحاربة الصهاينة، نتيجة انقساماتهم المريعة التي تذكّوها الصراعات والعداوات والطموحات المتعارضة. وعندما واجهوا خطراً يهدّدهم جميعاً، وجدوا أنفسهم عاجزين عن العمل معاً. وهكذا لم يتمكنوا من حماية فلسطين العربية من الهجوم الصهيوني الكاسح. وفي أعقاب الهزيمة العربية وقيام دولة إسرائيل، دخل العرب فترة طويلة من الاضطراب الذي سقط رياض الصلح ضحية له في النهاية.

طموحات الملك عبد الله السورية

كانت أشدّ الخصومات العربية الداخلية خطورة تلك التي نشأت بين الهاشميين وأعدائهم. يعود هذا الصراع المرير إلى العشرينيات، لكنه اكتسب أهمية كبيرة في

أواخر الأربعينيات، عندما واجه العرب اتخاذ قرار بشأن فلسطين. بعدما أفاق العرب من سباتهم مذعورين في أواخر سنة 1947 أمام ضخامة التهديد الصهيوني، تبين أن إرادتهم في القتال المشترك قد ضعفت نتيجة الشكوك المتبادلة في ما بينهم. ولعل ذلك السبب الأهم لعدم تمكنهم من إنقاذ فلسطين العربية. يقال (بلا مبالغة) إن حرب 1948 كانت بالدرجة الأولى صراعاً داخلياً بين العرب - بل حرباً أهلية عربية - وحرباً ضد اليهود الأوروبيين الذين يستولون على فلسطين في الدرجة الثانية⁽¹⁾.

يمكن إرجاع أصل الخلاف العربي الداخلي إلى خيبة الأمل التي مني بها الشريف حسين في مكة بعد الحرب العالمية الأولى على يد البريطانيين. فقد أمل في أن تؤدي ثورته على الأتراك العثمانيين، التي شجّعها البريطانيون ومولوها من أجل إسقاط الإمبراطورية العثمانية، إلى إقامة مملكة عربية مستقلة برئاسته. وكان مقتنعاً أن البريطانيين وعدوه بذلك وتراجعوا عن التزامهم - ولعلهم فعلوا ذلك. لكن عندما تبين بعد الحرب العالمية الأولى أن الفرنسيين والبريطانيين لا ينوون مغادرة المنطقة، حيث لديهم مصالح اقتصادية واستراتيجية كبيرة، سعى الشريف وأبناؤه عندئذ إلى عقد اتفاق لإنقاذ ما يستطيعون من المخططات الاستعمارية للقوى الكبرى.

أملوا أن يخلف علي، ابن الشريف البكر، والده ملكاً على الحجاز وأن يصبح عبد الله، ابنه الثاني، ملكاً على العراق، وفيصل، ابنه الثالث، ملكاً على سوريا. لكن هذا المخطط العائلي انهار عندما أخرج الفرنسيون الأمير فيصل من سوريا في سنة 1920، وبعدها أخرج عبد العزيز آل سعود الشريف حسين وابنه علي من الحجاز بعد ذلك ببضع سنوات⁽²⁾. بيد أن البريطانيين منحوا الأمير فيصل فرصة ثانية باختياره، في مؤتمر السلام في باريس، مرشحاً لهم لعرش العراق. فتوج فيصل ملكاً في بغداد في سنة 1921.

(1) أطلق هنري لورنس، المؤرخ الفرنسي الكبير لفلسطين، على الفصل الذي يتحدث عن الفترة المؤدية إلى حرب 1948 "الحرب الأهلية الفلسطينية"، Henry Laurens, *La Question de Palestine*, vol. III, 1947-1967, *L'Accomplissement des prophéties*, Paris 2007. Landis, 'Syria in the 1948 Palestine War: Fighting King Abdallah's Greater Syria Plan,' in Eugene Rogan and Avi Shlaim (eds.) *The War for Palestine: Rewriting the History of 1948*, Cambridge 2001, pp. 178-205.

(2) انظر Sir Alec Kirkbride, *A Crackle of Thorns*, London 1956; Seale, *The Struggle for Syria*, chapter 1.

لم يسامح عبد الله أخاه الأصغر على قبوله عرش العراق، وهو العرش الذي يفترض أن يكون من نصيبه. فمنح البريطانيون عبد الله جائزة ترضية بتعيينه أميراً على شرق الأردن في عمان، لكن هذه المنطقة الفقيرة الراكدة لم تُرض رغباته. فأضمر في نفسه قناعة وسواسية أن مملكة فيصل المفقودة يجب أن تعود إليه. ذلك هو الأصل الذي تستند إليه حملته الطويلة والمستمرة لإقامة "سوريا الكبرى" - أو لتوحيد سوريا، ولبنان، وشرق الأردن وفلسطين تحت عرشه.

لم يستطع فيصل، بدور، أن ينسى أنه كان ملكاً على دمشق، العاصمة العربية العريقة والعظيمة، التي طرده منها الفرنسيون بشكل غير لائق. وشكّلت فترة حكمه هناك، التي دامت عشرين شهراً، مبرراً لمخطّط وحدة الهلال الخصيب، وهو المخطّط الذي تبناه لاحقاً رجل الدولة العراقي الموالي للبريطانيين، نوري السعيد. وهكذا كان يوجد في المنطقة تياران متنافسان للطموح الهاشمي المحبط، أحدهما يتدفق من عمان والآخر من بغداد.

أعلن بصورة رسمية عن مخطّطي الهلال الخصيب لنوري السعيد، وسوريا الكبرى للأمير عبد الله، لأول مرة خلال الحرب العالمية الثانية. كان مخطّط نوري السعيد أكثر طموحاً، وقد حقّق إنجازاً مهماً بتمكّنه من إعطاء مضمون - على شكل وثيقة رسمية - للتطلّعات العربية الغامضة، المتداولة منذ عدة سنوات، إلى وحدة الدول العربية في الهلال الخصيب. وقد شجعه سقوط فرنسا المبكر في الحرب على الاعتقاد أن البريطانيين سيدعمون العرب في تحقيق أهدافهم القومية، فعرض هذه الفكرة على ريتشارد كيسبي، وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الأوسط، عندما التقى به في القاهرة في أوائل سنة 1942. طلب كيسبي من نوري تقديم اقتراحه خطياً، فكانت النتيجة "مذكرة عن القضية العربية مع إشارة خاصة إلى فلسطين واقتراحات لتسوية دائمة". قدّمت هذه المذكرة إلى كيسبي، ووُزعت سرّاً على الدوائر الأخرى المهمة⁽¹⁾.

اقترح نوري خطة من مرحلتين: أولاً، توحيد سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن في دولة واحدة، مع شبه استقلال ذاتي للأقلية اليهودية في فلسطين. بموجب ضمانات دولية، بالإضافة إلى توفير الحماية للمسيحيين في لبنان. ثانياً، بعد إنشاء

(1) نوري السعيد، استقلال العرب ووحدتهم، بغداد، 1943.

"سوريا الكبرى"، تتحد هذه الدولة مع العراق في إطار اتحاد الهلال الخصيب، وتستطيع الدول العربية الأخرى الانضمام إليه إذا شاءت. كانت خطة عبد الله محدودة أكثر، وتقتصر على توحيد الأقطار الأربعة التي تشكل "سوريا الكبرى" تحت قيادته. ورأى أن مشكلة اليهود في فلسطين يمكن حلها بمنحهم استقلالاً ذاتياً إدارياً. وإذا تعذر توحيد الأقطار الأربعة على الفور، يمكن البدء بتوحيد سوريا وشرق الأردن، والنص على ضم لبنان وفلسطين إليها لاحقاً لتشكيل اتحاد على نمط الولايات المتحدة الأميركية أو الاتحاد السويسري. وهكذا فإن الدمج الفوري لسوريا وشرق الأردن يشكل لب مقترحات عبد الله، ومحتواها العملي الوحيد. هذه هي الخطة التي تمسح لها عبد الله وقدمها، مع بعض التغييرات الطفيفة، في الخطابات والمذكرات الرسمية والاتصالات الشخصية مع السياسيين السوريين، وفي التعليمات المرسلة إلى ممثليه في مشاورات الوحدة العربية التي دعا رئيس الوزراء المصري، النحاس باشا، الدول العربية إليها في سنة 1944، ونتج عنها ميثاق جامعة الدول العربية في سنة 1945⁽¹⁾.

بعد تأمين الاستقلال الاسمي - إن لم يكن الحرية الحقيقية - عن بريطانيا في 28 آذار/مارس 1946، أعلن الأمير عبد الله نفسه ملكاً على مملكة شرق الأردن الهاشمية (المملكة الأردنية في ما بعد). وبدأ العمل بعد ذلك على ترويج طموحاته التوسعية بنشاط. أعلن عن فكرة "سوريا الكبرى" بمثابة مبدأ أساسي في سياسته الخارجية. ولم يدع أي مناسبة تمر من دون التأكيد على هذه القضية. صرح لجريدة الأهرام المصرية⁽²⁾: "لا يوجد سوريا كبرى أو صغرى. هناك بلد واحد فقط هو سوريا، يحده البحر من الغرب وتركيا من الشمال والعراق من الشرق والحجاز من الجنوب". ومن نافلة القول إن هذه التصريحات والتحركات الأحادية الجانب جوهت برفض تام من القاهرة وبيروت ودمشق والرياض. في زيارة إلى دمشق في كانون الأول/ديسمبر 1946، أبلغ مستشار ابن سعود، الشيخ يوسف ياسين، القائم بالأعمال البريطاني أنه "إذا أصرّ الملك عبد الله على خطته لإقامة سوريا الكبرى، فقد تضطرّ الجامعة العربية إلى طرد الأردن منها"⁽³⁾.

(1) انظر، الكتاب الأردني الأبيض: الوثائق القومية في الوحدة السورية الطيعية، عمّان 1947.

(2) الأهرام، القاهرة، 31 آب/أغسطس 1946.

(3) Syria and Lebanon Weekly Political Summary, for the week ending 17 December 1946 (FO 371/62119).

لم يحقق عبد الله نجاحاً أكبر مع دولة العراق الهاشمية المجاورة. ففي سنتي 1945 و1946، بحث مطوّلاً مع ابن أخيه الوصي على العرش، عبد الإله، فوائد الوحدة بين العراق وشرق الأردن. قضى اقتراح عبد الله أن يتولى عبد الله عرش البلدين الموحد مدى الحياة، وأن يؤول العرش بعد مماته إلى الملك فيصل الصغير، وليس ورثته. وقُدّم اقتراح آخر يقضي بأن يصبح عبد الإله ملكاً على شرق الأردن وفلسطين، وعبد الله ملكاً على العراق مدى الحياة، ويرث الملك فيصل العرش عند مماته. لكن الخطتين ولدتا ميّتين، فقد استقبلتا باحتجاج شديد من سوريا التي اتبعت النظام الجمهوري - بالإضافة إلى مسيحيي لبنان الذين رأوا فيهما خطوة أولى نحو مشروع سوريا الكبرى، الذي طالما أثار غضبهم وقلقهم. وعارضت المملكة العربية السعودية بشدة أي توسع للسلطة الهاشمية، كما عارضته مصر على نحو أقل. أما القوميون العرب في الأقطار الأخرى، فقد كانت لديهم شكوك عميقة تجاه علاقة عبد الله القوية ببريطانيا، والشائعات بشأن تعامله مع الصهاينة.

في 4 آب/أغسطس 1947، سعى عبد الله لحسم الأمور بالدعوة إلى مؤتمر سوري عام في عمان لمناقشة خططه الوحديّة، على غرار المؤتمر السوري العام في سنة 1920، الذي انتخب أخاه فيصل ملكاً على سوريا الكبرى قبل أكثر من عقدين. عبّر الزعماء العرب عن دهشتهم واستيائهم من إصرار عبد الله غير اللائق. لم تلقَ قضيته الدعم اللازم بسبب الاعتقاد العام أنه لا يسعى وراء عرش سوريا لأهداف وطنية، وإنما لتحقيق طموحات وسواسية شخصية فحسب. للقضاء على مشروعه، قررت كل عاصمة عربية معنية إعادة توكيد تمسّكها بميثاق جامعة الدول العربية، مع ما يُقدمه من ضمانات لاستقلال كل دولة من الدول الأعضاء.

كان الرئيس السوري شكري القوتلي أشدّ الزعماء العرب صلابة في معارضة عبد الله. فقد أنفق، على غرار رياض الصلح في لبنان، ميراثه بأكمله، وعانى من النفي والسجن، وكسّر حياته لتحقيق استقلال سوريا عن تركيا أولاً، ثم عن فرنسا. وكانت معركة صعبة بلغت أوجها بقصف الفرنسيين مدينة دمشق في سنة 1945. ولم يكن مستعداً لتعرض استقلال بلده للخطر نتيجة طموحات عبد الله التوسعية، التي رأى فيها اليد الاستعمارية البريطانية والمباركة الصهيونية. فسعى إلى القضاء على

النفوذ الهاشمي في سوريا بإغلاق القنصلية الأردنية في دمشق، ومراقبة الحدود، وإلقاء القبض على الداعين البارزين إلى إقامة سوريا الكبرى.

هكذا أجبرت مُثل الوحدة العربية، في لبنان وسوريا، على التراجع أمام المشاعر الخصوصية البراغمية. ومثلما أجبر انقسام الشعب اللبناني - لا سيما خوف المسيحيين من طغيان المسلمين عليهم - رياض الصلح على التركيز على الأهداف اللبنانية الضيقة، وتأجيل طموحاته القومية العربية إلى وقت لاحق، وجد شكري القوتلي نفسه، وهو أيضاً من الذين ناضلوا طوال حياتهم في سبيل القومية العربية، في موقف غير مريح يضطره إلى الدفاع عن المصالح السورية الصرف في وجه تهديدات عبد الله المشكوك في أهدافها.

فيما اتجهت الدول العربية نحو الحرب مع الصهاينة - وهي حرب لم تكن لديهم الوسائل اللازمة لخوضها - خشي القوتلي من احتمال توجه عبد الله شمالاً نحو دمشق لتحقيق حلمه بإنشاء سوريا الكبرى، إذا تمكن من السيطرة على أجزاء من فلسطين. رأى العديد من الزعماء العرب أن عبد الله يشكل خطراً داهماً على سلامة أراضي سوريا واستقلالها. ولعل الخوف من احتمال استيلاء عبد الله على نصف فلسطين العربي، واستخدامه نقطة انطلاق لفتوحاته الإضافية، شكّل سبباً آخر للمعارضة الشديدة لفكرة تقسيم فلسطين.

هذا هو الخطر الذي دفع القوتلي إلى محاولة إبرام حلف دفاعي مع مصر والمملكة العربية السعودية. فقد أقلقته المعاهدة التي وقّعها عبد الله مع تركيا في سنة 1947، وأبدى فيها استعداداته للتخلي عن المطالبة العربية بلواء الإسكندرون، إذا دعمت تركيا خطته لإقامة سوريا الكبرى. وفي تلك السنة أيضاً، وقّع عبد الله معاهدة "أخوة وتحالف" مع العراق الخاضع للسيطرة البريطانية، فرأى فيها القوتلي أيضاً خطراً على موقف سوريا الاستراتيجي.

تحدّي التقسيم

على الرغم من انشغال القادة العرب بمشاكلهم الداخلية الملحة - وهي كثيرة - فإنهم واجهوا في سنة 1947 موقفاً لا يمكنهم تجاهله في فلسطين. ففي شباط/فبراير،

قرّرت بريطانيا إحالة المشكلة إلى الأمم المتحدة، فشكّلت الأمم المتحدة لجنة (لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين) للتحقق من الأوضاع على الأرض. على الرغم من موقف العرب المعادي لتلك اللجنة، فقد ربّ رياض الصلح أن تقوم اللجنة بزيارة إلى لبنان في تموز/يوليو وتجتمع بممثلين عن الدول العربية هناك. وفي 8 أيلول/سبتمبر، تلقى العرب صدمة سياسية كبيرة عندما أصدرت اللجنة تقريراً يوصي بتقسيم فلسطين إلى دولتين، عربية ويهودية، ولكن بشروط مواتية أكثر للمصالح الصهيونية من تلك الصادرة في سنة 1937.

اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في بيروت في وقت لاحق من ذلك الشهر، ونظرت في توقيع عقوبات اقتصادية على بريطانيا والولايات المتحدة. ولكن رياض الصلح، الذي ترأس الاجتماع، تمكّن من إقناع اللجنة الغاضبة بعدم متابعتها. فقد كان مقتنعاً أن ليس في وسع العرب فعل الكثير لصدّ المدّ الصهيوني، لذا فإن رهاقهم الأفضل يكمن في محاولة استمالة بريطانيا إلى جانبهم. افترض رياض، مثله مثل كثير غيره في ذلك الوقت، أنه إذا حدث مزيد من التدهور في الأوضاع في فلسطين، فإن بريطانيا ستضطرّ إلى التدخل وفرض تسوية. ألم يعدّ الكتاب الأبيض الذي قدمته بريطانيا في سنة 1939 بدولة فلسطينية واحدة؟ ألم يقترح تقييد الهجرة اليهودية وشراء الأراضي، ونصّ على إنشاء حكومة ذات أكثرية عربية؟

بالرجوع إلى السوراء، من السهل معرفة لماذا ارتكب العرب خطأ هائلاً في حساباتهم. لم يكن لدى العرب أي وسيلة ليعلموا أن فلسطين فقدت معظم أهميتها الاستراتيجية في التخطيط الاستراتيجي البريطاني، بعد انسحاب بريطانيا من ائند في سنة 1947، وما تلا تقسيم ذلك البلد من فوضى وأعمال قتل طائفية رهية. لم تعد حماية الطريق البحري إلى ائند شغل بريطانيا الشاغل كما كان لمدة قرنين من الزمن تقريباً. كما أن المحجمات الإرهابية التي شنّها اليهود على البريطانيين في فلسطين، بغية إخافتهم وإخراجهم منها لترك الساحة مفتوحة أمام الصهاينة، أدّت إلى نفور الرأي العام البريطاني من الانتداب في فلسطين. ففي الفترة الواقعة بين آب/أغسطس 1945 وأيلول/سبتمبر 1947، قتل الإرهابيون اليهود 388 مسؤولاً بريطانياً، مدنيين وعسكريين، داخل فلسطين وخارجها. بينما بلغ عدد اليهود الذين قتلهم البريطانيون

في تلك الفترة نحو 44 - وهي "نسبة إصابات بين المتمردين وسلطة استعمارية... فريدة من نوعها في حوليات التمرد" بحسب المؤرخ الفلسطيني وليد الخالدي الذي أشار إلى تساهل بريطانيا مع المجرمين الصهاينة المذنبين⁽¹⁾.

فشل العرب في إدراك سلوك بريطانيا، في ذلك الوقت، كما اليوم. فقد تخيلوا أن هذه القوة الاستعمارية الجبّارة ستقمع الصهاينة الجاحدين الذين يقتلون قوّاتهم ومسؤوليها، مثلما قمعت بوحشية العديد من الثورات العربية. لم يدركوا مقدار الضعف الذي لحق ببريطانيا بسبب الحرب، ومقدار اعتمادها على الولايات المتحدة. على أي حال، قام المرشح الرئاسي الأميركي، هاري ترومان باختطاف السياسة البريطانية في فلسطين. وفي محاولة لاجتذاب الأصوات اليهودية الأميركية المؤثرة، وعد بإرسال 100,000 يهودي أوروبي مشرد إلى فلسطين، إذا انتُخب رئيساً، وبالتالي عكس السياسة البريطانية التي قيّدت الهجرة اليهودية بنحو 15,000 مهاجر سنوياً. في أثناء الانتداب، وبخاصة في سنواته الأخيرة ما بعد الحرب، عجزت بريطانيا عن السيطرة على تدفق المهاجرين غير الشرعيين إلى فلسطين، وقد قُدّر مجموعهم بنحو 120.000 مهاجر⁽²⁾.

في أيلول/سبتمبر 1947، لم يستطع العرب تصديق ما سمعوه عندما أعلنت بريطانيا عن عزمها إنهاء الانتداب والانسحاب من فلسطين في منتصف ليل 14 أيار/مايو 1948. ظنّ العرب أن بريطانيا لا تزال قوية بوجود قواعدها العسكرية ونفوذها السياسي في المنطقة، وواصلوا الاعتماد عليها للتوصل إلى "تسوية عادلة" - وهو الوهم الذي حافظوا عليه حتى النهاية. وفي وقت لاحق، نقلوا آمالهم اليائسة نفسها إلى الولايات المتحدة، ليعانوا من خيبة أمل أقسى في يومنا الحاضر.

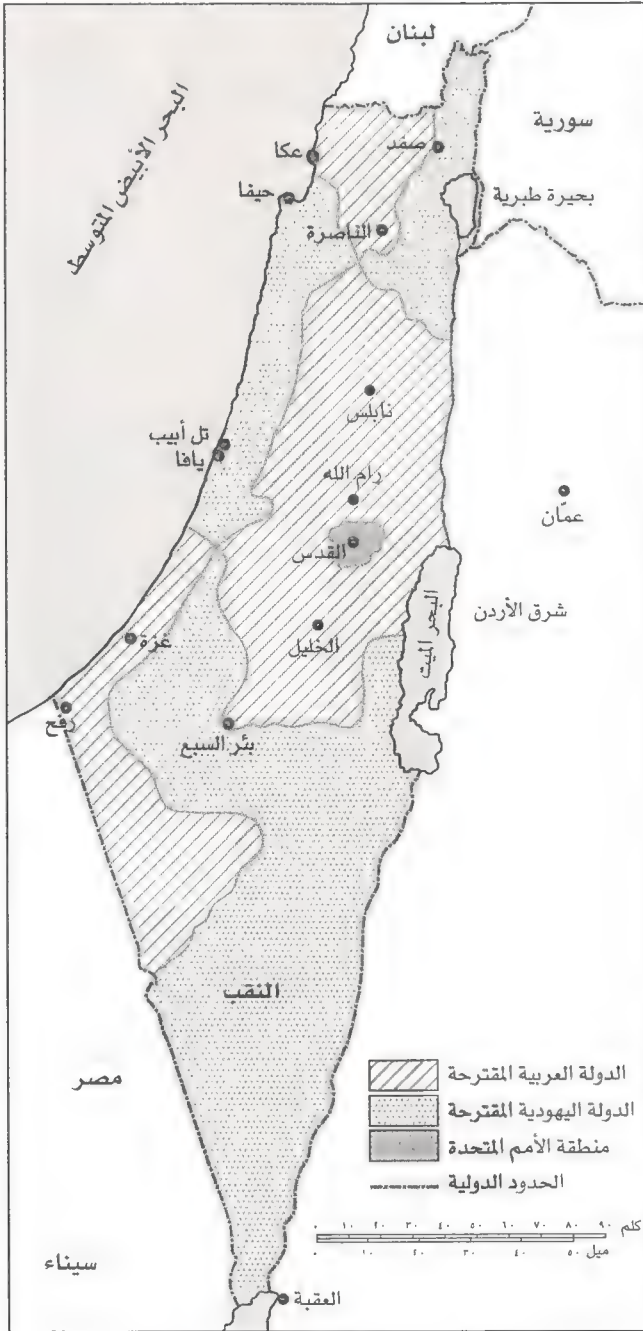
جاء نداء الاستيقاظ المرتفع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1947، عندما صوّتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، المجتمعة في باريس، على تقسيم فلسطين بأكثرية الثلثين. منحت هذه الخطوة، التي دعمتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، الصهاينة أكثر

Walid Khalidi, 'Illegal Jewish Immigration to Palestine under the British Mandate', (1) in *Journal of Palestine Studies*, 35(4) (Summer 2006), p. 66, quoting Nicholas

Bethell, *The Palestine Triangle*, London 1979, p. 397

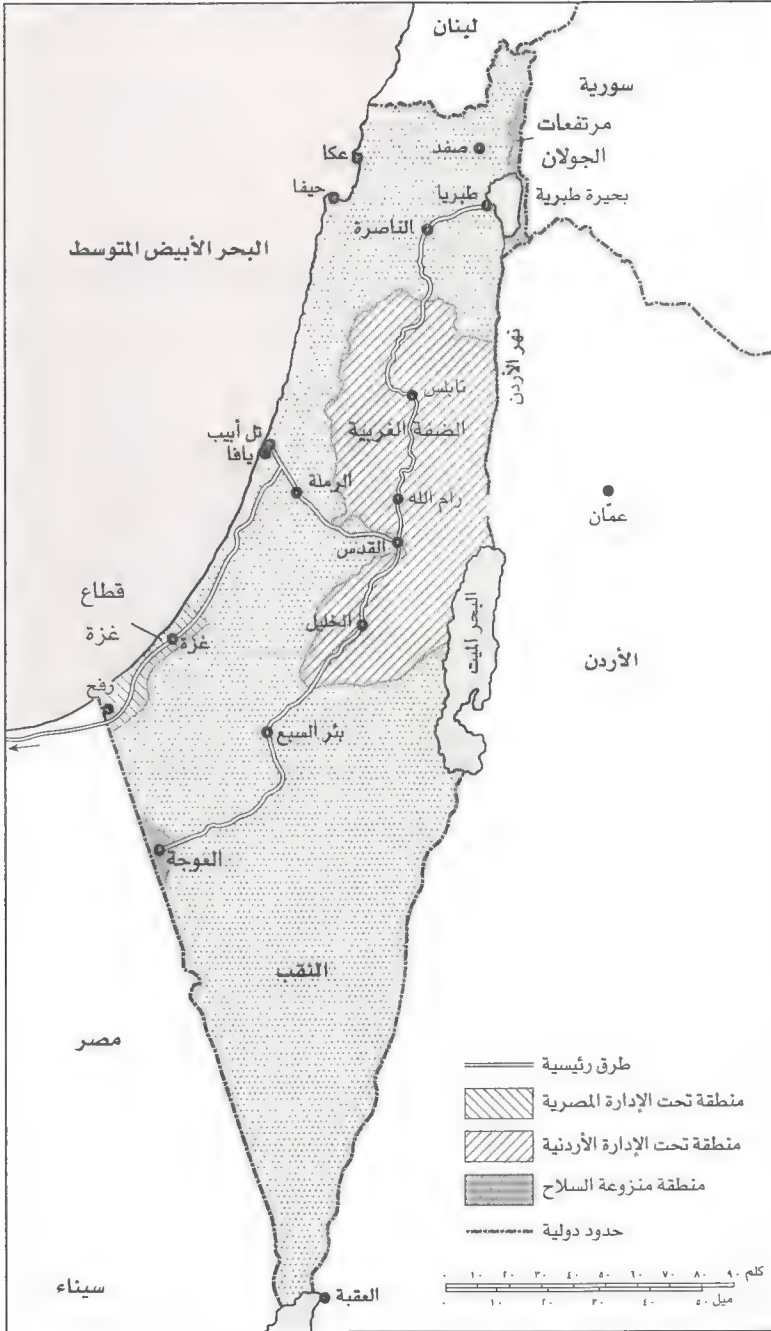
.Walid Khalidi, 'Illegal Jewish Immigration', p. 64 (2)

بإذن خاص من Cambridge University Press



خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين في 1947.

باين خاص من Cambridge University Press



دولة إسرائيل بعد اتفاقات الهدنة عام 1949.

من 50 بالمئة من فلسطين على الرغم من أنهم كانوا يشكلون ثلث السكان فقط في ذلك الوقت، ولا يمتلكون قانونياً سوى 7 بالمئة من الأرض. ابتهج اليهود وغضب العرب بشدة. أفلت بيروت، ونزل الطلاب إلى الشوارع في احتجاجات غاضبة. وانفجرت قنابل في الحي اليهودي، قرب المفوضية الأميركية، وفي المقر الرئيسي للحزب الشيوعي، إذ اعتبر الاتحاد السوفياتي مسؤولاً إلى حد كبير عما جرى. وألحق رماة الحجارة أضراراً في مكاتب شركة التابلاين في بيروت ودمشق. وخرّبت المدارس البريطانية والأميركية في العراق. وفي فلسطين، دعت الهيئة العربية العليا إلى إضراب عام لمدة ثلاثة أيام.

وقعت مناوشات بين اليهود والعرب في القدس، بينما هاجم إرهابيون يهود من عصابتي شتيرن والإرغون الأحياء العربية في كانون الأول/ديسمبر، ففجروا سيارات وشاحنات ملغومة وأطلقوا بذلك دوامة من العنف المتبادل. وفي كانون الأول/ديسمبر 1947 فقط، قُتل 208 من العرب، و204 من اليهود، و17 بريطانياً⁽¹⁾.

أثارت خطة الأمم المتحدة الانقسامات بين الهاشميين وخصومهم العرب، أي مصر والمملكة العربية السعودية وسوريا. وفي لبنان، حاول رياض الصلح الحفاظ على علاقات جيدة مع الطرفين على الرغم من ميله إلى أصدقائه عاهلي مصر والمملكة العربية السعودية والرئيس السوري. كان يشك في وجود اتصالات بين عبد الله والصهاينة منذ سنوات، لكنه لم يكن لديه سبيل إلى معرفة أن عبد الله توصّل في تشرين الثاني/نوفمبر 1947، بعد أكثر من عشرين عاماً من الاتصالات السرية، إلى اتفاق واضح وصريح مع الصهاينة لتقسيم فلسطين بينهما. فقد زارت غولدا مايرسن (مائير في ما بعد)، رئيسة الدائرة السياسية للوكالة اليهودية في ذلك الوقت - دائرة الدبلوماسية والجناسوسية - عبد الله سرّاً "وعادت بما يعادل اتفاق عدم اعتداء"⁽²⁾.

كانت بريطانيا، التي ترأّقت عن كسب اتفاقات عبد الله الخارجية، على اطلاع جيّد على ما يجري. ومع أن تقسيم فلسطين المقترح يقوّض سياسات كتابها الأبيض

(1) Henry Laurens, *La Question de Palestine*, p. 47

(2) Avi Shlaim, *The Politics of Partition: King Abdallah, The Zionists and Palestine*, 1921-1951, Oxford 1990, pp. 99-100. هذه نسخة مختصرة عن عمل شلايم *Collusion Across the Jordan*

الصادر في سنة 1939، فإنها لم تبدِ انزعاجها منه. ربما تصوّرت وزارة الخارجية البريطانية أن مساعدة الأردن في الحصول على الجزء المخصّص للعرب من فلسطين، سيقيد الحدود المقترحة للدولة اليهودية نوعاً ما، ويحافظ على موقع بريطانيا في المنطقة. وقد رأى بعض المسؤولين في لندن، بالإضافة إلى غلوب باشا، القائد البريطاني للفيلق العربي في الأردن، مشروع سوريا الكبرى الذي ينادي به عبد الله حصناً محتملاً يوفر الحماية للمصالح البريطانية الاستراتيجية في الشرق الأوسط. وكما أوضح غلوب للحكومة البريطانية: "لن نكون واهمين إذا تصوّرنا الفيلق العربي بمثابة نواة لجيش سوريا الكبرى في المستقبل"⁽¹⁾. بل إن بعض المسؤولين اعتقدوا أن من مصلحة بريطانيا إقامة اتصال برّي بين شرق الأردن وغزة، وبالتالي قطع الطريق على أي دولة يهودية في المستقبل إلى البحر الأحمر. على أي حال، لم يكن سوى قلة يتوقعون أن تتعرّض الخطة الملائمة لتقسيم فلسطين "سليماً" بين الأردن والصهاينة للخطر بسبب التحريض العسكري (غير الفعال) من قبل جامعة الدول العربية.

في لبنان، استجاب مجلس النواب اللبناني للأزمة في 5 كانون الأول/ديسمبر باتخاذ قرار بفرض ضريبة على السلع الكمالية. فقد كان هناك شعور بأن المال أكثر أهمية من الرجال في الدفاع عن فلسطين. ووافق الوزراء والنواب على المساهمة براتب شهر لصندوق فلسطين. وفي نهاية كانون الأول/ديسمبر، جمع الصندوق مبلغاً كبيراً بلغ 120,000 ليرة لبنانية (15,000 جنيه إسترليني) في بيروت، و29,000 ليرة لبنانية (نحو 2000 جنيه إسترليني) في طرابلس. تقرر أيضاً حظر المزيد من المظاهرات والإضرابات. وطُلب من 19 طالباً يهودياً فلسطينياً كانوا يدرسون في الجامعة الأميركية في بيروت مغادرة البلد من أجل سلامتهم.

بعد أسبوع من تصويت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين، توجه رياض الصلح - يرافقه الحاج أمين الحسيني، الذي وصل فجأة إلى بيروت في تشرين الأول/أكتوبر - إلى القاهرة للمشاركة في اجتماع رؤساء الوزراء العرب. أدان الاجتماع خطة الأمم المتحدة للتقسيم، وتعهّد بالمحافظة على وحدة فلسطين وعروبته. لكن ذلك كان مجرد

General G. B. Glubb, 'A note on the Future of the Arab Legion', quoted in Maan (1) Abu Nawar, *The Struggle for Independence, 1939-1947: A History of the Hashemite Kingdom of Jordan*, 2001, p. 305

خطاب فارغ للاستهلاك المحلي. لم يكن أي زعيم عربي يمتلك الوسائل للدفاع عن الفلسطينيين العرب. ولم يكن هناك أي خطة عربية لمحاربة اليهود، لكن ليس من الممكن الاعتراف بذلك لأن الشعب العربي، خلافاً لزعمائه، أعمته حمى الحرب.

قام العميد جيلبرت كلايتن Gilbert Clayton، مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية في مصر (الذي عمل ككبير مستشاري ألنبي السياسيين ويعرف العالم العربي جيداً)، بزيارة رياض الصلح في القاهرة في 11 كانون الأول/ديسمبر، فوجده "محبطاً جداً من الوضع القائم". أبلغه رياض أن القتال في فلسطين أمر محتم، لأن العرب لن يقبلوا بالتقسيم. فالرأي العام العربي ملتهب جداً، ومن المستحيل منع المتطوعين من المسارعة إلى مساعدة العرب الفلسطينيين. وستسقط على الفور أي حكومة تحاول منعهم. أرسل كلايتن تقريراً إلى لندن جاء فيه: "لدي انطباع أنه يريد وسيلة لتفادي مخاطر الوضع، لكنه يشعر أن المسألة خرجت عن سيطرته". وأضاف أن رياض الصلح لم يذكر شيئاً عن المخططات العربية بعد انتهاء الانتداب - ولم يكن هناك ما يقوله بالطبع⁽¹⁾.

قرّر الزعماء العرب لإرضاء الرأي العام - وتبرئة أنفسهم من مهمة عسكرية مستحيلة - تشجيع المتطوعين العرب على دخول فلسطين ومحاربة الصهاينة. ففتح مركز للمتطوعين في بيروت، على سبيل المثال، ولم يكن لبنان الاستثناء في هذا المجال. فقد فضّل كل الزعماء العرب في ذلك الوقت ترك القتال للمتطوعين الشجعان - وللفلسطينيين أنفسهم - بدلاً من إلزام جيوشهم الضعيفة في المعركة. كانت الفكرة ترمي إلى إثمك القوات اليهودية بالعمليات الفدائية. أدرك شكري القوتلي، مثل رياض الصلح في لبنان، أن الجيش السوري غير فعال كقوة قتالية. فجيشه المكوّن من ألفي جندي سيّئ التدريب ويفتقر إلى الذخيرة والدروع والمؤن. بل إن البلد كان مفلساً فعلياً بعد جلاء الفرنسيين، ولا يستطيع احتمال شراء الأسلحة الباهظة الثمن من الخارج. على أي حال، لم يكن هناك أحد في سوريا في ذلك الوقت يعرف كيف يحصل على هذه الأشياء، إذ لم يظهر "تجار السلاح" إلا مع الانقلابات العسكرية اللاحقة. كان قلق القوتلي المعقول منصباً على حماية ما يسمّى خطأً "جيشاً" من هزيمة

تامة في فلسطين، ويخشى أن يترك ذلك بلده عرضة للهجوم. وخشيت حكومات عربية أخرى من الهزيمة العسكرية أيضاً، لأن ذلك سيدينهم في أعين رعاياهم ويعرضهم لخطر السقوط.

المتطوعون العرب

تشكلت قوتان من المتطوعين العرب في أواخر سنة 1947 وأوائل سنة 1948، وهما "جيش الإنقاذ" و"جيش الجهاد المقدس". القوة الأولى أنشأتها جامعة الدول العربية، وقادها في الميدان المحارب الفدائي المخضرم فوزي القاوقجي. وتشكلت القوة الثانية بمبادرة خاصة من الحاج أمين الحسيني، الذي رفض تسليم قيادة مؤيديه إلى القاوقجي. وأصرّ على أن فلسطين ليست بحاجة إلى جيش من المتطوعين وعلى وجوب إرسال الأموال المجموعة من أجلها - عن طريق جامعة الدول العربية والتبرعات الخاصة - إليه مباشرة. تسلّم عبد القادر الحسيني، ابن عم الحاج الحسيني، قيادة جيش الجهاد المقدس في وسط فلسطين، بينما تسلّم حسن سلامة قيادة القوات غير النظامية في المنطقة الساحلية من فلسطين. لذا شاب العلاقات بين جيش الإنقاذ وقوات المفتي شيء من العداء.

تشكّل جيش الإنقاذ بتوصية من اللواء إسماعيل صفوت، وهو رئيس أركان عراقي سابق عينته جامعة الدول العربية في القاهرة على رأس لجنة تقنية لتقويم الوضع في فلسطين. وقد تغيّر اسم هذه اللجنة التقنية ليصبح اللجنة العسكرية ونقلت إلى دمشق. وأوكلت إلى لجنة فلسطين، برئاسة رئيس الوزراء السوري جميل مردم، إدارة الوضع العام. بعد ذلك عيّن جميل مردم العميد طه الهاشمي، وهو رئيس وزراء سابق للعراق اختار سوريا منفى له بعد إسقاط رشيد عالي، قائداً أو مفتشاً عاماً لجيش التحرير العربي.

تدفّق المتطوعون الشجعان من سوريا والعراق والأردن ومصر. وكانوا مسلمين ومسيحيين، عرباً وأكراداً وشركساً وأشوريين - بلغ مجموعهم نحو 3500 رجل شجاع. قدّم لكل منهم بندقية، وبضع مئات من الطلقات، وثلاثة أيام من التدريب الأولي في معسكر الجيش السوري في قطنة، قرب دمشق، قبل إرسالهم إلى فلسطين من

دون أي تجهيزات إضافية أو مؤن كافية. ربما كان جميل مردم ولجنته العسكرية يأملون أن يتمكن هؤلاء من وأد طموحات عبد الله التوسعية في مهبها، إلى جانب محاربة الصهاينة. لذلك أرسل العديد من هؤلاء المتطوعين إلى المناطق التي ينوي عبد الله ضمها إلى الأردن.

عارض عبد الله هذه القوى غير النظامية بطبيعة الحال. وأصرّ على وجوب وضع أي قوة عربية تحت قيادته. كان يدرك تماماً أن الدعم السوري لجيش الإنقاذ يهدف أيضاً إلى القضاء على آماله بضم القسم العربي من فلسطين إلى مملكته. لذا بدأ بتسليح مؤيديه هناك. في 5 آذار/مارس، دعي القاقجي إلى عمان حيث اتفق مع الملك عبد الله على معارضتهما المشتركة للمفتي وأتباعه. في غضون ذلك، انتشرت "المليشيات" الفلسطينية المحلية المكوّنة من المزارعين الخائفين والضعيفي التسليح في مختلف القرى من دون تنسيق فيما بينها، لمواجهة القيادة الصهيونية المركزية. وسرعان ما تعرضوا لهزيمة مأسوية.

رياض الصلح يطلب المساعدة من بريطانيا

كان رياض الصلح يدرك جيداً الوضع الكارثي الذي وجد العرب أنفسهم فيه. لم تكن الحكومات العربية تمتلك أي خيار عسكري معقول: كانت جيوشها النظامية ضعيفة جداً لا تقوى على الذهاب إلى فلسطين لمحاربة اليهود. وعلى أي حال، لم يكن في وسعها القيام بذلك من الناحية التقنية قبل أن تنسحب بريطانيا في 14 أيار/مايو، لتجنّب مخاطر الاشتباك مع القوات البريطانية. لكن تواصل تسلّل مجموعات صغيرة من المتطوعين عبر الحدود. ربما ساهم المتطوعون في تنفيس الغضب الشعبي قليلاً، لكن لم يكن في وسعهم مواجهة الصهاينة الأفضل تسليحاً وتدريباً. بل ربما شكّلوا خطراً أكبر على الوضع العربي، بإعطاء اليهود ذريعة ممتازة للهجوم.

فكّر رياض في هذه النتائج الكئيبة، وبحث بقلق متزايد عن مخرج من هذا الطريق المسدود. كان القرار الذي اتخذته جريئاً. وبالنظر إلى علاقاته الودية مع البريطانيين في ذلك الوقت - ولأنه يحب الاعتقاد أنه يعرف كيف يفكرون - قرّر القيام بمحاولة أخيرة لدفع بريطانيا إلى وقف انزلاق فلسطين إلى الهاوية. كانت الخطة التي وضعها

تقضي بعرض صفقة شاملة على بريطانيا - "تسوية شاملة" كما أسماها - تعزّز النفوذ البريطاني في المنطقة من خلال عقد حلف دفاعي بين بريطانيا والدول العربية. وتشمل أيضاً التزاماً عربياً بمحاربة الشيوعية - كان رياض يعلم في ذلك الوقت أن ذلك أصبح من الأمور الرئيسية التي تشغل الغرب. ويتعيّن على بريطانيا، في المقابل، حلّ مشكلتي فلسطين ومصر بما يرضي العرب. في فلسطين، ثمة حاجة إلى تسوية عادلة تحتوي الصهاينة وتحمي الحقوق العربية، بينما يتعين على بريطانيا في مصر الموافقة طوعاً على الانسحاب من قناة السويس، لفتح الطريق أمام حقبة جديدة من التعاون والصداقة.

استغل رياض الصلح كل فرصة ممكنة - في الفترة الممتدة بين تصويت الأمم المتحدة على التقسيم في تشرين الثاني/نوفمبر 1947 ونهاية الانتداب في منتصف ليل 14 أيار/مايو 1948 - لعرض اقتراحه "للتسوية الشاملة" على كل مسؤول بريطاني كبير اجتمع به، بالإضافة إلى الزعماء العرب. ورأى أن هذا التفاهم الشامل يصبّ في مصلحة البريطانيين والعرب على حدّ سواء. ارتاح رياض عندما وجد أن ثمة ميلاً لدى الزعماء العرب للموافقة على آرائه. وتشجع كثيراً بعد عودته من القاهرة إلى لبنان حين أخبره السفير البريطاني في بيروت، وليام هوستن بوزوال، أن وزارة الخارجية البريطانية أوعزت إليه ليقول إن "أفكاره تتطابق على العموم مع أفكار حكومة جلالة الملك"⁽¹⁾.

دُفع رياض إلى الاعتقاد أنه يحرز تقدماً جدياً، لكن لندن لم تقم بأي خطوة. في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير 1948، أشار رياض تكراراً إلى خطته في محادثات جديدة مع هوستن بوزوال في بيروت وجلبert كلايتن في القاهرة. أبلغ هوستن بوزوال أنه يريد "مباحثات صريحة ومتكثمة" بين بريطانيا والدول العربية، يقدّم فيها كل جانب مطالبه. وأكد أن هذه المباحثات ستسهّل التوصل إلى تفاهم بين بريطانيا ومصر⁽²⁾. وأضاف أنه عقد العزم على العمل مع زملائه العرب لإقناعهم بفوائد خطته. وعندما عمّت العراق مظاهرات عنيفة احتجاجاً على معاهدة بورتسموث البريطانية العراقية في 15 كانون الثاني/يناير 1948 - وقّعها صالح جبر، الذي تسلّم

.Beirut Political Summary, December 1947 (FO 371/68489) (1)

.Beirut to Foreign Office, 6 February 1948 (FO 371/68384) (2)

رئاسة الوزراء بدلاً من نوري السعيد في آذار/مارس 1947 - سارع رياض إلى إبلاغ هوستن بوزوال أنه كان من الممكن تفادي هذه المصاعب لو أن المعاهدة قد وقعت تحت غطاء تفاهم عام بين البريطانيين والعرب⁽¹⁾. بدلاً من ذلك، اضطرّ الوصي على العرش العراقي إلى التخلي عن المعاهدة، وسقطت حكومة جبر في 27 كانون الثاني/يناير.

بعد بضعة أيام، على هامش اجتماع مجلس جامعة الدول العربية الذي عُقد في القاهرة بين 7 و24 شباط/فبراير، وكُرّس بأكمله تقريباً لموضوع فلسطين، أعاد رياض مناقشة الموضوع مع كلايتين. ونقلًا عن كلايتين:

بدأ رياض بالحديث عن أهمية توصّل حكومة جلالة الملك إلى تسوية عامة مع العرب. لكنه ذكر أن من غير المجدي محاولة التوصل إلى أي شيء قبل تسوية المسألة المصرية. وواصل تكرار ذلك مشدداً على أهميته في نظر البلدان العربية. ورأى وجوب تسوية ذلك قبل انسحابنا من فلسطين إذا أمكن. ويمكن تسوية الأمر إذا تغلبنا على مصاعب الجلاء. ونسب رياض الأحداث في العراق إلى المشاعر الشخصية المناوئة لصالح جبر، والأهم من ذلك إلى المسألتين الفلسطينية والمصرية⁽²⁾.

في آذار/مارس، واصل هوستن بوزوال تذكير لندن، مبدئياً بأسه إلى حدّ ما الآن، أنه "يقوم منذ بضعة أشهر بإرسال تقارير عن جهود رئيس الوزراء اللبناني للتوصّل إلى تفاهم معقول بين حكومة جلالة الملك والدول العربية". لكن لندن لم ترسل أي رد مرة أخرى. وفي أوائل نيسان/أبريل، أرسل هوستن بوزوال تقريراً أن رياض الصلح ذهب إلى حدّ منح بريطانيا تسهيلات عسكرية محدّدة في إطار اتفاقية دفاعية عامة. وقال رياض إن مثل هذه التسهيلات "تنبثق بصورة طبيعية من التفاهم العام". وأوضح أن العرب يشاركون بريطانيا في أهداف مقاومة العدوان السوفياتي. وإذا قام السوفيّات بمهاجمة إيران أو العراق، فإنه على استعداد للسماح للقوات البريطانية بالنزول في لبنان. لكنه أضاف أن للعرب هدفاً إضافياً هو تصفية الخلافات العالقة بينهم وبين الغرب، لا سيما بشأن فلسطين ومصر. وأكد "أن من المهم أن تقدّر حكومة جلالة الملك أن العزة الوطنية أصبحت واقعاً لدى العرب".

(1) *Beirut Political Summary*, February 1948 (FO 371/68489)

(2) *Beirut to Foreign Office*, 27 March 1948 (FO 371/68385)

لم يكن رياض الصلح يدرك أن الأمر قد قُضي من وجهة نظر لندن، وأن الأوان قد فات لإبداء الاهتمام بخبطه الطموحة. فبريطانيا المنهكة ستغادر فلسطين؛ وسيحصل الصهاينة على دولتهم؛ وعلى العرب الاكتفاء بما يستطيعون الحصول عليه. والنتيجة الأفضل وفقاً لقرار المسؤولين البريطانيين - وخاصة أولئك الذين لم يعملوا في العالم العربي وليسوا على اطلاع على ما يحدث على أرض الواقع - هي تقسيم فلسطين بين عبد الله والصهاينة.

في غضون ذلك، واصل القادة العرب العيش في عالم الخيال. فبعد اجتماع اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في بيروت بين 16 و 21 آذار/مارس، صدرت تعليمات إلى الوفود العربية في الأمم المتحدة - كانت تعقد جلستها في ليك سكسس Lake Success قرب نيويورك في ذلك الوقت - تفيد أن العرب على استعداد للمحافظة على الأمن في فلسطين إذا أبعد الإرهابيون الصهاينة، وحُلَّت الهاغاناه، وحُظرت الهجرة اليهودية!

اشتباكات ما قبل الحرب

في نهاية آذار/مارس 1948، كانت الهاغاناه تضمّ 22,000 رجل وامرأة تحت السلاح، من أصل السكان اليهود الذين يقدرّون بنحو 645,000 نسمة، بينهم 284,000 (أو 44 بالمئة) في سن تسمح لهم بحمل السلاح. وبلغ عدد القوات العربية 12,000 مقاتل، بمن فيهم المتطوعون من البلدان الأخرى، من أصل السكان الفلسطينيين الذين يبلغ عددهم 1,357,000 نسمة⁽¹⁾. لكن السكان الفلسطينيين يضمّون نساء لا يقمن بأي دور عسكري، والعديد من الأطفال. كما أن معظمهم ريفيون وغير متعلّمين. وكان من يمتلك المال أو لديه علاقات من سكان المدن الفلسطينيين من الطبقة الوسطى، قد بدؤوا منذ بضعة أشهر بالانتقال إلى الخارج، إلى لبنان بصورة خاصة، أو إرسال عائلاتهم حرصاً على سلامتهم، بعد سلسلة من الاعتداءات الإجرامية على المدنيين التي نفذتها عصاباتا شتيرن والإرغون.

كان هدف الصهاينة مهاجمة قواعد العدو وخطوط إمداداته، وتدمير القرى العربية وطرد سكانها، والسيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي. وقضت الخطة

بشَن حرب شاملة لكسر إرادة العرب الفلسطينيين والدول العربية المجاورة. فقد رأى إسرائيل غاليلى، قائد الهاغاناه، أن الحدود الموضوعة بموجب خطة التقسيم لا معنى لها، وأن القوة وحدها هي التي سترسم حدود الدولة اليهودية القادمة.

في 5 نيسان/أبريل 1948، زار قائد جيش الجهاد المقدس، عبد القادر الحسيني، دمشق لطلب المساعدة، ورجا القوتلي واللجنة العسكرية تزويده بالسلاح والمدفعية. وحذّر من أن المقاومة الفلسطينية ستنهيار إذا اخترق الصهاينة القدس. لكن القوتلي كان عاجزاً عن تقديم المساعدة في هذه اللحظة الأخيرة. فقد رفض الحاج أمين منذ البداية التعاون مع القاوقجي وجيش الإنقاذ، وفات الأوان الآن. خرج عبد القادر الحسيني من الاجتماع غاضباً. وبعد أربعة أيام، استُشهد وهو يدافع عن قرية صغيرة على قمة تلة عند مداخل القدس⁽¹⁾.

كان نيسان/أبريل شهراً رهيباً على العرب. ففي 9 نيسان/أبريل، هاجم إرهابيو الإرغون وشتيرن دير ياسين، وهي قرية صغيرة غرب القدس. أطلقوا النار بصورة عشوائية، فقتلوا نحو 245 رجلاً وامرأة وطفلاً. ووفقاً لرواية المؤرخ آفي شلايم من جامعة أكسفورد:

أُخذ بعض القرويين في شاحنة عبر شوارع القدس في "موكب للنصر" قبل إعادتهم إلى القرية حيث قتلوا رمياً بالرصاص. انتشرت أخبار المذبحة كالنار في الهشيم موقعة الذعر في قلوب العرب. وأدت، أكثر من أي حادثة أخرى، إلى تحطيم معنويات السكان المدنيين وإطلاق النزوح الجماعي للعرب من فلسطين⁽²⁾.

في 13 نيسان/أبريل، استولت البلماخ، وهي القوة الضاربة في الهاغاناه، على صفد في الجليل. وقُتل عشرات المساجين الفلسطينيين الشبان بدم بارد، انتقاماً لليهود الذين قُتلوا في صفد قبل نحو عقدين، في سنة 1929. كما تم الاستيلاء على العديد من القرى العربية الأخرى ونهبها وتدميرها، واضطر سكانها إلى الهرب. وبينما كانت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية مجتمعة في القاهرة في نيسان/أبريل، وصلت أخبار عن

(1) Landis, 'Syria in the 1948 Palestine War', quoting Walid Khalidi (ed.) 'Selected Documents on the 1948 Palestine War', in *Journal of Palestine Studies*, 27(3) (1998), p. 75.

(2) Avi Shlaim, *The Politics of Partition*, p. 136.

سقوط حيفا في أيدي القوات الصهيونية. انتهى الاجتماع بعد أن ساد الارتباك. كان هناك تواطؤ بريطاني في سقوط حيفا، إذ لم يبلغ العرب بالقرار البريطاني بالانسحاب من المدينة إلا قبل بضع ساعات. وسقطت يافا بعد ذلك بوقت قصير. هرب مئات الآلاف من اللاجئين المضطربين والمعدمين والخائفين وبدؤوا بالتدفق عبر الحدود الفلسطينية إلى البلدان المجاورة. في لبنان، بلغ عدد اللاجئين 20,000 لاجئ في نهاية نيسان/أبريل، وبعد أسابيع، ارتفع العدد إلى 60,000، ثم إلى 85,000، ثم إلى 140,000. ووصلت أعداد أكبر بكثير إلى سوريا والأردن وعزة.

أنكرت الهاغاناه مسؤوليتها عن مذبحه دير ياسين. لكن كما بين الباحث الإسرائيلي إيلان بايه في كتابه *The Ethnic Cleansing of Palestine* (التطهير العرقي في فلسطين)، كان بن غوريون ومجموعة صغيرة من رفاقه قد وضعوا مخططاً، عُرف باسم خطة دالت، لطرد الفلسطينيين بصورة منهجية من مساحات كبيرة من البلاد - وهو مشروع للتطهير العرقي أوسع بكثير وأقل وحشية إلى حد ما مما جرى في دير ياسين. اقتضى ذلك تخطيطاً طويلاً ودقيقاً لتجنيد شبكة من المتعاونين العرب الذين ساعدوا في جمع "ملفات القرى" - أي سجل مفصل عن جميع القرى العربية في فلسطين: موقعها الطبوغرافي، والطرق المؤدية إليها، ونوعية الأرض، ونباتات المياه، والمصادر الرئيسية للدخل، والانتماءات الدينية، وأسماء زعماء القرى وأصحاب المحال، ومتوسط مساحة الأرض التي تملكها كل عائلة، وأعمار سكانها الذكور، وكثير من التفاصيل المماثلة، بالإضافة إلى عدد الحراس في حال وجودهم، (معظم القرى لم يكن فيها حراس) وكمية الأسلحة التي تملكها كل قرية ونوعيتها. وتم التركيز بشكل خاص على الأشخاص المتهمين بقتل اليهود في الثورة التي امتدت بين سنتي 1936 و1939، أو من لهم صلة بالمفتي. وقد ساعد المخبرون في تشكيل لائحة هؤلاء الرجال "المطلوبين"⁽¹⁾.

في آذار/مارس 1948، تلقى كل من قادة ألوية الهاغاناه الاثني عشر لائحة بالقرى الموجودة في منطقته والتي يجب احتلالها، وإحراقها وتدميرها، وطرد سكانها، والتواريخ

Ilan Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine*, Oxford 2006; and an article by him (1) on the same subject, 'The 1948 Ethnic Cleansing of Palestine', in *Journal of Palestine Studies*, 36(1) (Autumn 2006), pp. 6-20

المحددة لتنفيذ ذلك. كانت تلك أوامر عمليات محددة وواضحة. زُرعت الألغام بين الأنقاض لمنع السكان من العودة. وعند استيلاء القوات اليهودية على قرية ما، يُصَفَّ الرجال للتعرف إلى الأشخاص "المطلوبين" الذين غالباً ما كانوا يقتلون على الفور. تلك هي الخطة التي خيضت حرب 1948. بموجبها، كما كتب باييه. نُهت المنازل وأُعدم العديد من الأسرى الشبان القادرين على القتال. وألقي باللاجئين على الطرقات آخذين معهم ما استطاعوا حمله فحسب.

سعت إسرائيل في العقود الستة اللاحقة للقضاء على جميع أشكال المقاومة الفلسطينية، وإجهاض أي تحرك نحو إقامة دولة فلسطينية، ربما لأنها تدرك أن الجرائم الهائلة التي ارتكبتها عند قيامها لا يمكن نسيانها أو غفرانها بسهولة.

الجيش العربية تنضم إلى القتال

فتحت المذابح وعمليات الطرد الجماعي أُعْثِن العرب على تفوق قوة الصهاينة، وعدم قيام زعمائهم بالاستعداد الكافي، فاهتمتهم الصحافة - التي كانت أكثر تحراً مما هي عليه اليوم - بالغباء وبأنهم أدوات في أيدي الآخرين، أو بالتضحية بفلسطين على مذبح طموحاتهم. واتضح بصورة تبعث على الألم أن القوات العربية غير النظامية غير كافية للتعامل مع قوات الهاغاناه العالية التدريب. ومع بلوغ حمى الحرب ذروتها، تعالت الدعوة العامة إلى تدخل الجيش العربية النظامية. غير أن قرار مجلس الأمن الدولي رقم 46، الصادر في 17 نيسان/أبريل، وجّه ضربة قاسية للعرب، إذ فرض حظراً تاماً على تسليم الأسلحة إلى الشرق الأوسط. بالمقابل، استمر الصهاينة في تلقي الأسلحة والمعدات سرّاً من الكتلة السوفياتية وفرنسا.

في دمشق في 9 أيار/مايو، اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، في حالة من الملح، لمحاولة وضع خطة للعمليات العسكرية. اقترح أن يقوم الجيشان اللبناني والسوري في الشمال، يدعمهما جيش الإنقاذ، بالزحف على حيفا؛ وأن يزحف الجيش المصري من الجنوب على يافا؛ وأن يتقدم الجيشان الأردني والعراقي إلى نقطة على البحر المتوسط شمال تل أبيب، وبالتالي شطر المناطق التي يسيطر عليها اليهود إلى نصفين. لكن سرعان ما أُلقي عدم توفر الوسائل، والمشاجرات التافهة ظلالاً من الشك

في القدرة على تنفيذ هذا العمل المنسّق. واجه الزعماء العرب معضلة كبرى: فقد حثّهم البريطانيون على عدم التدخل قبل 15 أيار/مايو - وقرّروا بالفعل عدم القيام بذلك - لكنهم يدركون أن اليهود سيسيطرون، في غضون ذلك، على النقاط الاستراتيجية الحيوية في المناطق العربية.

فيما كان العرب يتخبّطون، قام رياض الصلح بجولة سريعة في المنطقة، في مبادرة لصياغة نوع من الهدف العربي الموحد. في أوائل أيار/مايو، أقنع الوصي على العرش العراقي عبد الإله بمرافقته إلى القاهرة في محاولة لتأمين تدخل الجيش المصري. كان هناك وهم عربي كبير أن باستطاعة مصر الدفاع عن فلسطين. لكن كانت تساور الملك فاروق شكوك عميقة بشأن مخطّطات عبد الله، وأراد النأي بنفسه عن المقاتلين العرب غير النظاميين، سواء أكانوا بقيادة المفتي أم القاوقجي. وبعد مباحثات طويلة وتردّد كبير، وافق على المشاركة في الحرب - قبل أربعة أيام فقط من نهاية الانتداب البريطاني والبداية الرسمية للقتال في 15 أيار/مايو.

وفي 6 أيار/مايو، رافق رياض الصلح أيضاً جميل مردم إلى الرياض لتأمين موافقة ابن سعود على مقرّرات اللجنة السياسية. وبحضّ من رياض، اجتمع الرئيسان اللبناني والسوري، بشاره الخوري وشكري القوتلي، مع الملك عبد الله عاهل الأردن في درعا، على الحدود السورية الأردنية، في 20 أيار/مايو، لوضع اللمسات الأخيرة على التعاون المؤقت (والمحدود جداً) في ما بينهم. أدى نجاح رياض الظاهري في التنسيق بين مختلف الخطط العربية للتدخل العسكري إلى تعزيز مكانته كثيراً في أوساط المسلمين في لبنان والعالم العربي. وأصبح يُنظر إلى الحرب في فلسطين بمثابة جهاد للدفاع عن الوجود. في أعقاب تراجع العرب على الأرض في أواخر نيسان/أبريل وأوائل أيار/مايو، وتفكّك جيش الإنقاذ، التفت الرأي العام إلى الملك عبد الله على أمل أن يتمكن والفيلق العربي من تقديم بعض الأمل بالإنقاذ. أبدى رياض الصلح، البرغماتي على عادته، استعداداً لمنح عبد الله فرصة الاستفادة من قرينة الشك. كانت هناك شكوك واسعة بشأن اتصالات عبد الله بالصهاينة، لكن لم يكن أحد يعرف مقدار تواطئه الفعلي. ولم يكن أحد يعرف شيئاً بالتأكيد عن اتفاقه السري مع اليهود على اقتسام فلسطين. واجه عبد الله في ذلك الوقت بعض الصعوبات: كان بحاجة إلى مواصلة

الدعوة إلى القتال لُيُثبِت للعرب أنه ليس خائناً؛ وفي الوقت نفسه الاستمرار في إبلاغ اليهود، عن طريق رسائل سرية، أنه لا يعتزم مهاجمتهم. بل إنه وافق على ذلك صراحة. وقد وُفِّر هذا الخطاب المزدوج الذريعة للصهاينة - عندما يلائمهم ذلك - على الاستيلاء على أراضٍ في المناطق التي يأمل في ضمّها إليه، بالإضافة إلى إشراك الفيلق العربي في القتال في مناسبات عديدة، وبخاصة حول اللطرون، للسيطرة على الطريق المؤدية إلى القدس، التي كانت ذات أهمية حيوية للقيادة الصهيونية.

إعلان دولة إسرائيل

عند الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة في 14 أيار/مايو، قبيل بدء عطلة السبت، أعلن ديفيد بن غوريون قيام دولة إسرائيل من تل أبيب. اعترفت الولايات المتحدة بحكومته المؤقتة كسلطة فعلية للدولة، لكن الاتحاد السوفياتي تفوّق على هذا الإعلان بمنح إسرائيل اعترافاً شرعياً، وإقامة علاقات دبلوماسية معها على الفور.

عبر الجيش المصري الحدود إلى فلسطين في 15 أيار/مايو ووصل بصعوبة إلى أشدود التي تبعد 32 كيلومتراً عن تل أبيب. وقام رتل آخر يتكوّن أساساً من عناصر من الإخوان المسلمين وبعض الجنود المصريين النظاميين بعبور النقب ودخول الخليل في 20 أيار/مايو، لكن لم يستطع التقدّم إلى أبعد من ذلك لعدم توفر الإمدادات. حاول العراقيون عبور نهر الأردن عند نقطة التقائه مع اليرموك، لكنهم توقّفوا أمام مستوطنة غيشر اليهودية. وبعد اجتماع مجلس الحرب بين الملك عبد الله والوصي على العرش العراقي، دخل العراقيون إلى الضفة الغربية عبر جسر أَللنبي وبلغوا نابلس في 21 أيار/مايو وطولكرم في 23 منه. وفي نهاية أيار/مايو لم يكن يفصلهم عن البحر المتوسط سوى 11 كيلومتراً. عندئذ هاجمهم القوات الإسرائيلية من الشمال في قطاع جنين، حيث وقعت معارك ضارية في أوائل حزيران/يونيو.

دخل الفيلق العربي التابع للملك عبد الله فلسطين رسمياً في 15 أيار/مايو، وكانت أوامره تمنعه من تخطي حدود التقسيم، ما أغضب ضباطه العرب. لكن لم تكن ذخيرته تكفي أكثر من ثلاثة أسابيع، وثار غضبه عندما صادر المصريون سفينة أسلحة في المياه المصرية كانت في طريقها إلى الأردن. كان هدف الفيلق احتلال وسط

فلسطين من أريحا إلى رام الله تاركاً للعراقيين السيطرة على الشمال. وسيطر الفيلق أيضاً على المرتفعات القرية من القدس، بما في ذلك طريق يافا - القدس قرب اللطرون.

تجمّع نحو 2000 مقاتل عربي للدفاع عن القدس. وهم أعضاء في ميليشيات القرى، ورجال شرطة، ومجموعة من الإخوان المسلمين السوريين بقيادة مصطفى السباعي، بالإضافة إلى عناصر من جيش الإنقاذ والجهاد المقدس، وجميعهم غير مسلحين جيداً ومن دون قيادة عامة. لكنهم تمكّنوا من التصدي للهجمات الإسرائيلية المتكررة على المدينة القديمة في منتصف أيار/مايو، ولم يفقدوا سوى حيّ الشيخ جراح. وعندما تعرّضت المدينة القديمة لخطر التطويق، قدّم الملك عبد الله وغلوب المساعدة إلى المدافعين، بتردد كبير، لإدراكهما أن ذلك يمكن أن يؤدي إلى حرب مفتوحة مع إسرائيل. في 19 أيار/مايو، احترق رتل مكون من 300 جندي من الفيلق العربي الطوق واستعاد حيّ الشيخ جراح، ما أكسب عبد الله الثناء بوصفه منقذاً للقدس. وبعد قتال عنيف، سُمح لنحو 800 من سكان الحي اليهودي بالمغادرة، وأسر 350 آخرين من الذين بلغوا سن القتال ونُقلوا إلى السجون في الأردن.

غضب الإسرائيليون لاشتباههم أن تدخل الفيلق العربي أملت بريطانيا لإحباط الطموحات التوسعية للدولة اليهودية. صدّت الهجمات الإسرائيلية المتكررة للسيطرة على طريق القدس، وألحقت بها خسائر كبيرة. قتل ميكى ماركوس، القائد الإسرائيلي العام في هذه الجبهة، خطأً، من قبل حارس لا يعرف اللغة الإنكليزية. وكان ماركوس ضابطاً يهودياً أميركياً سارع إلى إسرائيل للمشاركة في القتال، وقد حاز على رتبة جنرال - وهو أول من حصل على هذه الرتبة في الجيش الإسرائيلي الجديد.

فشل وساطة الكونت برنادوت

مع انزلاق فلسطين إلى العنف وخروجه عن السيطرة، قرر تريغفي لي Trygve Lie، الأمين العام النرويجي للأمم المتحدة، تعيين وسيط في محاولة لوقف القتال. وقع اختياره على الكونت فولك برنادوت Folke Bernadotte، أحد أحفاد ملك السويد ومسؤول كبير في الصليب الأحمر السويدي. في 29 أيار/مايو، صوت مجلس الأمن على وقف

إطلاق النار لمدة أربعة أسابيع، وطلب من الوسيط تنفيذ القرار بمساعدة فريق من المراقبين العسكريين. تم الاتفاق على هدنة في 11 حزيران/يونيو ونفذت تدريجياً، على الرغم من العديد من الانتهاكات الإجرامية.

سعى الجانبان إلى تعزيز موقعهما، لكن في حين أن العرب - الذين يعانون كالمعتاد من الفرقة، ونقص الأموال، والموردين المستعدين لخرق حظر الأسلحة - لم يفعلوا سوى القليل لإعادة تجهيز قواتهم، فإن إسرائيل انتهزت الفرصة لتسليح قواتها وإعادة تنظيمها في وحدات أكبر. كانت الهاغاناه تتوقع الحرب مع العرب منذ وقت طويل، وشرعت منذ سنة 1945 في شراء الأسلحة على نطاق واسع واستقدام الرجال الذين يجيدون استعمالها. فوّرت الهدنة زخماً جديداً لهذه الجهود. ومن خلال شركات وهمية - بالتعاون مع بعض دول أميركا اللاتينية حيث أقام الصهاينة علاقات قوية - تم شراء الأسلحة والمعدات من إدارة المخزونات الحربية الأميركية التي كانت تعمل على التخلص من فائض المعدات العسكرية لديها بعد الحرب العالمية الثانية. نقلت تلك الأسلحة سرّاً إلى فلسطين، ومن بينها ثلاث طائرات حربية من نوع بي 17 (القلاع الطائرة)⁽¹⁾. وفي حزيران/يونيو، قصفت الطائرات الإسرائيلية خط الجبهة السورية، بالإضافة إلى دمشق، حيث شاعت الأقمار أن تصيب منزل الملحق الجوي الأميركي وتدمره. وكانت تشيكوسلوفاكيا - بموافقة روسيا - من المصادر الرئيسية للأسلحة، مثل فرنسا. وخلافاً للعرب الذين تنقصهم الأموال، كان في وسع إسرائيل طلب مساهمات كبيرة بالدولارات النادرة، من داعميها الأميركيين الموالين.

كان المراقبون المرافقون لبرنادوت قلبي العدد ومتناثرين، فلم يتمكنوا من مراقبة تدفق الأسلحة، أو التحقق من الانتهاكات العديدة للهدنة. تابعت إسرائيل تفريغ القرى العربية وقتل سكانها أو طردهم. ورفضت بعناد السماح لأي من اللاجئين بالعودة. وكان كل من يحاول ذلك يُقتل فور مشاهدته. وشكّلت لجنة إسرائيلية في نهاية أيار/مايو بقيادة يوسف وايتز Yosef Weitz لإدارة طرد السكان العرب، واعتبرت الهدنة فرصة لحل "المسألة العربية" بصورة نهائية.

(1) انظر Ricky-Dale Calhoun, "Arming David: The Haganah's Illegal Arms Procurement Network in the United States, 1945-49", *Journal of Palestine Studies*, 36(4) (Summer 2007), pp. 22-32.

كانت إسرائيل مصممة على إفشال مساعي برنادوت، فشنت هجمات على جبهات متعددة. شنت عملية ديكل لتدمير قوات القاوقجي في الجليل الغربي. سقطت الناصرة في 16 تموز/يوليو، وأجبر جيش الإنقاذ على التراجع شمالاً بشكل غير منظم. ونفذت عملية داني، بقيادة إيغال ألون وإسحق رابين، بغية إخلاء مدينتي اللد والرملة العربيتين من سكانهما ومهاجمة اللطرون. أجبرت أعداد كبيرة من اللاجئين على الخروج إلى الطرقات في الحر الشديد، ما أدى إلى وفاة الكثير من الأطفال والمسنين. لم يتدخل الفيلق العربي ما دفع بعض ضباطه العرب للتملل، ووجهت إلى عبد الله أول تهمة بالخيانة.

استدعى برنادوت مراقبيه بعد فشله في جعل القدس منطقة منزوعة السلاح، أو حتى وضع الخطوط العريضة لتسوية سياسية يقبلها الجانبان. وفي 12 تموز/يوليو، توجه إلى الأمم المتحدة في ليك سكسس سعياً لتحقيق هدنة غير محدودة تدخل حيز التنفيذ في 18 تموز/يوليو. سارعت إسرائيل، بدعم من الاتحاد السوفياتي، إلى قبولها، لكن العرب طالبوا بانسحابها إلى خطوط 29 أيار/مايو. عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعاً في بلدة عاليه اللبنانية في 17 تموز/يوليو، ووقف حائراً بين الوضع العسكري الخطير، والرأي العام الذي يطالب بالتدخل العسكري الفوري، دون أن يدرك الكارثة الوشيكة. في ذلك الوقت، كان القادة العرب لا يزالون يخافون من ردود فعل شعوبهم، ولم يكن في وسعهم سحقهم من دون محاسبة.

الجبهة اللبنانية

كان رياض الصلح رئيس وزراء بلد تردّد بعض سكانه في خوض حرب ضدّ الصهاينة. بل إن بعض المسيحيين اعتبروهم حلفاء محتملين ضدّ الأكثرية الإسلامية في العالم العربي⁽¹⁾. ولم يتورّع المونسنيور أغناطيوس مبارك، مطران الموارنة في جبل لبنان، عن الكتابة إلى لجنة الأمم المتحدة الخاصة لفلسطين مقترحاً إقامة "وطن قومي مسيحي" في لبنان في وقت متزامن مع إنشاء "وطن قومي يهودي" في فلسطين! وفي

(1) اعتمدت في روايتي عن الحرب على الجبهة اللبنانية Matthew Hughes, 'Lebanon and the 1948 War', in *Journal of Palestine Studies*, 34 (2) (Winter 2005), pp. 1-18.

أواخر سنة 1947، وصل إلى حدّ تحدي الحكومة اللبنانية بإصدار كتيّب يدعو القوات المسلحة إلى التمردّ والسكان إلى العصيان المدني. وقد أمره الفاتيكان (بضغط من الحكومة اللبنانية من دون شك) بمغادرة لبنان في نيسان/أبريل 1948. وبعد شهرين، أعفى البطريك الماروني أنطون عريضة، الذي يؤيد آراء مبارك، من مهامه أيضاً.

ومن المعروف أن إميل إده، المرشح الرئاسي الموالي للفرنسيين - الذي يضمّر حقداً كبيراً على بشارة الخوري ورياض الصلح - كان يسعى أيضاً إلى إنشاء "وطن قومي مسيحي" إلى جانب الوطن اليهودي. وبلغ به التهور حدّ إثارة احتمال قيام ثورة مسيحية في بيروت إذا دخلت إسرائيل جنوب لبنان. وفي كانون الأول/ديسمبر 1947، قام ثلاثة أعضاء من فريقه بزيارة عمّان، ما أثار شكوكاً كبيرة في الصحافة الوطنية. وخلافاً لهؤلاء المسيحيين، لم يكن هناك غبار على موقف بشارة الخوري. فقد عمل خلال الحرب بتنسيق وثيق مع رياض الصلح. لكن ما من شك في أن خيارات لبنان كانت محدودة في سنة 1948، بسبب معارضة قسم من المسيحيين المشاركة في أي حرب في فلسطين⁽¹⁾. وقد شكّل ذلك عبئاً إضافياً تحمّله رياض الصلح.

حذّر السفير البريطاني في بيروت، وليام هوستن - بوزوال، لندن من خطر وقوع حرب أهلية إذا استُدرج لبنان إلى الحرب. وكتب أن حكومة رياض الصلح لا تستطيع الاعتماد على التعاون الصادق من رجال الدين الموارنة. "إن الخطر المصاحب للالتزام بالقضية الفلسطينية هو توقّع حدوث اضطرابات طائفية خطيرة لا تستطيع الحكومة السيطرة عليها إذا شاركت القوات اللبنانية الضعيفة وتعرّضت للهزيمة (وهي نتيجة حتمية إذا شاركت في القتال بصورة جدية)⁽²⁾."

لم يكن الجيش اللبناني، بقيادة الأمير فؤاد شهاب، جاهزاً عند اندلاع الحرب في 15 أيار/مايو، إذ لا يزال منشغلاً بالمهمة الصعبة التي تقتضي تحويل بقايا القوات الخاصة إلى قوة قتالية. وثمة كثير من الترتيبات التي يتعيّن القيام بها، لأن القوات الخاصة جتّدت في لبنان وسوريا من الأقليات بصورة رئيسية، وغادر معظم ضباطها السوريين للانضمام إلى الجيش السوري فور جلاء الفرنسيين. على أي حال، كانت أربع كتائب

(1) المصدر نفسه، ص 2-3.

(2) Beirut to Foreign Office 26 June 1948 (FO 371/68495)

مشاة لبنانية، تضم كل واحدة منها 500 عنصر، منشغلة بعمليات مكافحة اللصوص وقطاع الطرق، ولعلها قوة شرطة أكثر مما هي قوة عسكرية. وقد أدى نقص الأموال، بالإضافة إلى الحظر المفروض على وصول الأسلحة الغربية، إلى تعذر حصول لبنان على أسلحة ومعدات جديدة لتحل محل الأسلحة القديمة التي خلفها الفرنسيون. ورفض البريطانيون طلباً تقدّم به رياض الصلح وفؤاد شهاب للحصول على مدفعية وطائرات حربية. لم يكن هناك من تخشاه القيادة الصهيونية العليا في الجليل، لأنّها تدرك أن الجيش اللبناني لا يستطيع مهاجمة المستوطنات اليهودية الحدودية.

كتب ماثيو هيوز Matthew Hughes في روايته عن الحرب على الجبهة اللبنانية: "لا شك في أن طبيعة الجيش الطائفية، إلى جانب ضعف التنظيم القتالي، يعوقان القيام بعمليات عسكرية فعالة". وهكذا كان دور لبنان في الحرب متواضعاً جداً، واقتصر على احتواء القوات اليهودية على طول الحدود. أَرْضَى ذلك إلى حدّ ما رغبة المسلمين في بالتدخل، ولم يثر في الوقت نفسه استياء في صفوف المسيحيين الذين عارضوا قيام الجيش بأي عملية خارج الحدود اللبنانية. في 15 أيار/مايو 1948، تمّرس الجيش اللبناني ضمن جانبه من الحدود، بدلاً من التقدّم على طول الساحل من رأس الناقورة إلى عكا، كما عُهد إليه، والانضمام إلى الجيوش السورية والأردنية والعراقية لفصل الجليل وتطوير إسرائيل استراتيجياً. كان رياض الصلح يريد قيام الجيش بشنّ هجوم⁽¹⁾، لكن شهاب رأى أن من الأفضل أن يقتصر دور لبنان على الدفاع عن حدوده.

غير أن الصهاينة لم يقفوا مكتوفي الأيدي في ما يتعلق بلبنان. قبل بضعة أيام من 15 أيار/مايو، ألحقت كوماندو يهودية أضراراً بجسر على نهر الليطاني وفي 23 أيار/مايو، نسفت منزل أحمد الأسعد في بلدة الطيبة، ما أثار غضبه وغضب مؤيديه الشيعة في جنوب لبنان، فضغطوا على الحكومة للردّ. وفي 28 أيار/مايو، أضرمّت دوريات يهودية النار في مركبتين مدرعتين لبنانيتين قديمتين قرب الحدود، فيما قصفت طائرة حربية قريّتي بنت جبيل وتبنين الحدوديتين. أجبرت هذه الغارات عبر الحدود شهاب على الرد، ولو للمحافظة على مكانة لبنان في جامعة الدول العربية. نتج عن ذلك اشتباك مع الصهاينة عند قرية المالكية في 5-6 حزيران/يونيو، حين ساند الجيش

(1) عارف العارف، النكبة، بيروت، 1956؛ صادق الشرع، حروبنا مع إسرائيل، عمان، 1997.

البناني 250 عنصراً من جيش الإنقاذ، من بينهم كتيبة بقيادة المقدم أديب الشيشكلي الذي سيصبح رجل سوريا ورئيسها، وهو منصب حصل عليه في انقلاب عسكري. في ذلك الوقت، أعاد جيش الإنقاذ نشر قواته في الجليل بعد انتقاله من منطقة القدس - يافا - نابلس عبر سوريا⁽¹⁾.

المالكية قرية تبعد نحو 700 متر عن الحدود اللبنانية داخل الأراضي الفلسطينية. وفي تلك الفترة تبدلت القوى التي تسيطر عليها عدة مرات. سيطر عليها الإسرائيليون في 13-14 أيار/مايو، لكن كتيبة الشيشكلي طردتهم منها بعد بضعة أيام. وأعاد الإسرائيليون السيطرة عليها في 28-29 أيار/مايو بعد أن هاجموا قاموا من الخلف عبر الأراضي اللبنانية. وتمكنت كتيبة من الجيش اللبناني في 5 حزيران/يونيو من إخراج الإسرائيليين من المالكية ودخول قرية قدس المجاورة. قُتل ثمانية جنود إسرائيليين وجنديان لبنانيان. غير أن الجيش اللبناني لم يهاجم مستوطنة راموت ناقتالي اليهودية المجاورة ولم يحاول الانضمام إلى القوات السورية.

أقام اللبنانيون عرضاً عسكرياً في بنت جبيل في 9 حزيران/يونيو احتفالاً بالانتصار الذي حققوه في المالكية، وقد حضره الرئيس بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح ووزير الدفاع مجيد أرسلان وقائد الجيش فؤاد شهاب. استعرض الجنود اللبنانيون، ووزعت الأوسمة والثققت الصور التذكارية. ومُنح فوزي القاوقجي وسام الأرز تقديراً لدور جيش الإنقاذ في المعركة. بعد ذلك سَلَّم الجيش اللبناني المالكية وقَدَسَ لجيش الإنقاذ، وعاد إلى الجانب اللبناني من الحدود. ختم هيوز روايته قائلاً، "في 9 حزيران/يونيو، انتهت الحرب التي بدأت في 5 حزيران/يونيو بالنسبة للجيش اللبناني"⁽²⁾.

انتقلت مسؤولية قتال إسرائيل في الجليل إلى جيش الإنقاذ، وكان يعاني من ضعف في التدريب ونقص في العتاد، وسرعان ما دحرته الهاغاناه في سلسلة من الهجمات بين نيسان/أبريل وتشرين الثاني/نوفمبر 1948. في حزيران/يونيو 1948، قلّصت جامعة الدول العربية حجم جيش الإنقاذ لضمان حصول كل عنصر على

(1) Hughes, 'Lebanon and the 1948 War', pp. 5-6.

(2) المصدر نفسه، ص 10.

بندقية. وفي تموز/يوليو، قلّصت عدده إلى النصف إذ لم تعد قادرة على دفع الرواتب لكل رجاله⁽¹⁾. "واجه جيش الإنقاذ نقصاً في الأغذية والمعدات والمسكن وأمراضاً مثل الخناق، فأخذ رجاله يهجرونه جماعياً، ويطلقون النار لإفراغ أسلحتهم، ويضايقون المسؤولين الزائرين"⁽²⁾.

كان القاقجي يدرك تماماً الشكوك والعداء المتبادلين اللذين حالاً دون القيام بأي عمل عسكري عربي منسق، وحرماً جيش الإنقاذ من الدعم السياسي والمادي. فكتب في مذكراته: "كانت كل دولة عربية تخشى مما يدعى شقيقتها، وتستهي أراضى شقيقتها، وتتآمر مع الآخرين ضدّ شقيقتها"⁽³⁾.

لمحة سريعة عن رياض الصلح خلال الحرب

سُحّت الفرصة للمؤرخ الفلسطيني وليد الخالدي لزيارة رياض الصلح في منزله في حزيران/يونيو 1948، خلال الهدنة في حرب فلسطين. أراد أن ينقل لرئيس الوزراء عرضاً سرياً، قدّمه طيار في سلاح الجو الملكي البريطاني، لمساعدة لبنان في الحرب. (أدى غضب العديد من الجنود البريطانيين من الهجمات اليهودية الإرهابية على أهداف بريطانية إلى تطوّعهم للقتال مع العرب). نصحه صائب سلام، وهو نسيب الخالدي عن طريق المصاهرة، أن يقدم العرض إلى رياض الصلح شخصياً. واتصل سلام برياض لترتيب المقابلة التي حدّد موعدها عند الساعة الثامنة صباحاً. في ما يلي رواية الأستاذ الخالدي عن الاجتماع:

كان رياض بك وعائلته يقيمون في شقة مستأجرة فوق بعض المتاجر في وسط شارع البسطة الرئيسي، مقابل أحد المساجد. ثمة درج قصير متسخ يقود من الشارع إلى المدخل يفتح على قاعة بسيطة عديمة النوافذ على الطراز التقليدي، وفيها أبواب مغلقة تؤدي إلى الغرف على الجانبين وفي الجانب البعيد. كان أثاث متفرّق، معظمه

(1) المصدر نفسه، ص 11.

(2) المصدر نفسه، ص 12.

(3) خيرية قاسية، (محررة)، فلسطين في مذكرات فوزي القاقجي، الجزء 2، ص 135-6. أنظر أيضاً

Laila Parsons, "Soldiering for Arab Nationalism: Fawzi al-Qawuqi in Palestine"

.Journal of Palestine Studies, 36(4) (Summer 2007), pp. 33-48

كراسٍ ذات مقاعد من القش مصفوفة على طول الحائط. وهناك عدد من الرجال الذين يشبهون القضايات، بعضهم يرتدون القمباز الدمشقي ويضحكون ويتبادلون الحديث مع رياض بك شخصياً، الذي لا يزال بملابس النوم، فيما يخلق له الحلاق ذقنه. عرفني وأشار إلي بالجلوس. وما لبث أن وقف واصطحبني إلى إحدى الغرف الجانبية، وكانت غرفة نوم. بعد إغلاق الباب، قال إن صائب بك أوضح له المسألة. المشكلة الوحيدة أن لبنان ليس لديه سلاح جوي! فكّر قليلاً ثم قال: "سوريا تمتلك سلاحاً جوياً. سأعطيك بطاقة تنقلها إلى جميل بك [جميل مردم، رئيس وزراء سوريا]. وبإمكانك أن تشرح له الأمور وتقدم إليه الرجل الإنكليزي". ثم أخرج بطاقة زيارة وكتب عليها: "الرجاء السماح لحاملها ومرافقه بالمرور. إنهما في مهمة رسمية"، ووقع عليها. ناولني البطاقة وقال: "أبرزها على الحدود وسيسمحون لك بالمرور". وبعد ذلك صافحني وربّت على كتفي، وتثنّى لي التوفيق وهو يودّعني⁽¹⁾.

الدور السوري في الحرب

أدى الجيش السوري دوراً محدوداً في الحرب. وقدّر أنه تمكن من حشد نحو 2500 رجل - نشر 1000 منهم داخل فلسطين و1500 على الجانب السوري من الحدود. بعد ستة أيام من بدء العمليات العسكرية في 15 أيار/مايو، دخل السوريون فلسطين، لكنهم صدّوا عند قرية سمخ، ومستعمري ديغانيا أوب جنوبي بحيرة طبريا، وسقط 300 جندي سوري بين قتل وجريح نتيجة القصف المدفعي الإسرائيلي. بعد هذه الخسارة الكبيرة في الأرواح، استقال وزير الدفاع أحمد الشرباتي، وتسلم رئيس الوزراء جميل مردم حقيبة الدفاع.

أقال الرئيس القوتلي قائد الأركان، العميد عبد الله عطفة، وعيّن مكانه العقيد حسني الزعيم، قائد الدرك، وهو قرار سيندم عليه بعد ذلك. تمكّنت القوات السورية بقيادة الزعيم من احتلال شريط ضيق من الأراضي الفلسطينية على طول الحدود، بالإضافة إلى ثلاثة جيوب صغيرة في المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية من حدود سنة 1923. وفي أعقاب هدنة 1949 بين سوريا وإسرائيل، أصبحت هذه الجيوب

(1) رسالة إلى المؤلف من الأستاذ وليد الخالدي.

مناطق منزوعة السلاح. وأدى الخلاف بشأن إدارة هذه المناطق إلى نشوب حرب 1967، وما زالت مناطق متنازع عليها حتى اليوم.

رأى رياض الصلح أن الجيشين السوري واللبناني لعبا دوراً فاعلاً في تقييد 15,000 جندي إسرائيلي في شمال فلسطين، وبالتالي تسهيل مهمة المصريين في الجنوب والفيلق العربي في الوسط. لكن سلبية الجيش اللبناني وعجز جيش الإنقاذ ومحدودية عمليات القوات السورية، منحت الإسرائيليين ميزة استراتيجية كبيرة. وبما أن العرب كانوا يفتقرون إلى القدرة الأساسية على التنسيق العسكري، فقد تمكنت إسرائيل من التعامل مع كل جبهة عربية على حدة، ونقل القوات في الأوقات الحرجة لتحقيق التفوق الموضعي.

المرحلة النهائية

اهتمّ الكونت برنادوت، بعد عودته إلى المنطقة في أوائل أيلول/سبتمبر، بمصير اللاجئين وتدويل القدس. ولكي يؤسس مبدأ، أراد أن تسمح إسرائيل بعودة 250,000-300,000 فلسطيني إلى حيفا ويافا بشكل رئيسي، بالإضافة إلى التخلي عن النقب مقابل الجليل. لكن إسرائيل أرادت النقب والجليل معاً، ورفضت رفضاً قاطعاً السماح بعودة أي لاجئ. أصبح برنادوت هدفاً لحملة صحفية إسرائيلية حاكمة، اتهم فيها بمحاباة العرب ومعاداة السامية والعمالة للاستعمار البريطاني. وفي 17 أيلول/سبتمبر، اغتاله في القدس فريق من قتلة عصابة شتيرن، بينهم ناثن يالين - مور، وإسحاق شامير (رئيس وزراء إسرائيل لاحقاً) وإسرائيل إلداد.

وصل عدد الجنود الإسرائيليين في تشرين الأول/أكتوبر إلى 90,000 جندي، مسلّحين جيداً ويخضعون لقيادة واحدة، وأصبح بإمكانهم الآن نشر وحدات كبيرة. بالمقابل، لم تتجاوز القوات العربية مجتمعة 20,000-25,000 رجل متناثرين بحالة يرثى لها ويأتمرون بقيادة غير مبالية. خشيت إسرائيل من احتمال سعي الأمم المتحدة إلى فرض تسوية جغرافية وعودة اللاجئين، فعمدت إلى الهجوم. في 14 تشرين الأول/أكتوبر، أي اليوم الذي كان مجلس الأمن سيناقش فيه مقترحات برنادوت المغدور، شنت إسرائيل عملية يوآف على القوات المصرية، وبعد قتال عنيف تمكّنت

من دخول النقب. وبحلول 21 تشرين الأول/أكتوبر، سيطرت على بئر السبع، عاصمة النقب، وأجبرت 200,000 لاجئ على الهرب إلى قطاع غزة. لم يفعل الأردن شيئاً لتخفيف الضغط عن المصريين، ما أدى إلى تردي العلاقات بينهما.

ظهر عجز العرب الواضح في 29 تشرين الأول/أكتوبر، عندما شنت إسرائيل عملية هيران لتدمير ما تبقى من القوات العربية والوصول إلى الحدود اللبنانية. فسيطرت إسرائيل على منطقة الجليل التي منحتها الأمم المتحدة للعرب بموجب قرار التقسيم في سنة 1947، وأجبر عشرات الآلاف من الفلسطينيين على مغادرة بيوتهم. تمت السيطرة على المنطقة دون قتال تقريباً. وذكرت صحيفة "فلسطين بوست" *Palestine Post* أن إسرائيل خسرت عشرة رجال فقط خلال سيطرتها على 500 ميل مربع من الأراضي. وللمحافظة على زخم الهجوم، عبرت القوات الإسرائيلية إلى لبنان واحتلت أربع عشرة قرية لبنانية وأفرغتها من سكانها. أوقف بن غوريون تقدم القوات الإسرائيلية عند نهر الليطاني، على الرغم من أن قائد العمليات في الجبهة الشمالية ألح في طلب منحه اثني عشرة ساعة إضافية للوصول إلى بيروت. استمر الاحتلال الإسرائيلي لبعض مناطق جنوب لبنان حتى سنة 1949، واستعمل للمساومة في مفاوضات الهدنة التي اختتمت في 23 آذار/مارس 1949، ووضعت حداً للأعمال العدائية بين لبنان وإسرائيل⁽¹⁾.

أدت عمليتا يوأف وهيران إلى نزوح ما بين 200,000 و230,000 عربي⁽²⁾. وفي 22 كانون الأول/ديسمبر، شنت إسرائيل عملية هوريف ضد مواقع القوات المصرية المتبقية في غزة ورفح والعوجة، ثم عبرت إلى سيناء عند أبو عجيلة والعريش والفالوجة. وعندما وضعت بريطانيا قواتها في حالة تأهب، تنفيذاً لالتزامها بالدفاع عن الأراضي المصرية بموجب المعاهدة البريطانية المصرية لسنة 1936، وأرسلت ست طائرات استطلاع من طراز سيبت فاير لمراقبة ميدان القتال، قامت إسرائيل بإسقاطها. استمرت الهجمات الإسرائيلية والهجمات المضادة حتى آذار/مارس 1949، عندما أوصلت عملية أخيرة في الجنوب قواتها إلى قرية أم الرشراش على البحر الأحمر، التي أصبحت تعرف باسم إيلات. وهكذا وصلت الحرب إلى نهايتها.

(1) Hughes, 'Lebanon and the 1948 War', p. 13

(2) Laurens, *La Question de Palestine*, vol. III, p. 175

خسرت إسرائيل أكثر من 6000 قتيل. وخسرت القوات العربية، النظامية وغير النظامية، 3700 رجل، من بينهم ما يزيد على 1000 مصري. وبلغت الخسائر الفلسطينية 13,000 قتيل، معظمهم من غير المقاتلين⁽¹⁾.

لم تتفوق إسرائيل في ساحة القتال فحسب. فقد تمكنت استخباراتها من اختراق عدد من البلدان العربية وجمع معلومات وافية عن أوضاعها الداخلية. وصف آفي شلام كيف أنشأ القسم العربي في الدائرة السياسية للوكالة اليهودية شبكة تجسس واسعة في العالم العربي يديرها أشخاص يتقنون اللغة العربية مثل إلياس ساسون وياكوف شيموني. ولد ساسون في دمشق في سنة 1902 ونشأ بين العرب، تولّى رئاسة القسم العربي من سنة 1937 حتى سنة 1948، وتمكن في هذه الفترة من الاتصال بمئات الشخصيات العامة الفلسطينية والأردنية والسورية واللبنانية والعراقية والمصرية، وكان قد التقى ببعضهم لأول مرة عندما كان طالباً في بيروت أو عضواً في النادي العربي في دمشق. من عملائه المأجورين محمد الأنسي، الذي أصبح وزيراً للداخلية ونائباً لرئيس الوزراء في الأردن. ووفقاً لشلام، زوّد الأنسي "الوكالة اليهودية بمعلومات قيمة عن الأردنيين والفلسطينيين والشؤون العربية الداخلية لمدة تزيد على خمسة عشر عاماً"⁽²⁾. وثمة عميل إسرائيلي مأجور آخر، عمر الدجاني، كانت لديه صلات على مستوى عالٍ، لا في العالم العربي فحسب، وإنما في جنيف ونيويورك أيضاً. وهو فلسطيني عربي من عائلة معروفة، وكان يديره ساسون وياكوف شيموني⁽³⁾.

هناك خبير صهيوني آخر في شؤون العالم العربي يدعى يهوشوع بالمون. بعد أن عمل في أثناء الحرب العالمية الثانية عميلاً سرياً في سوريا، أصبح من أقدر ضباط الاستخبارات في الهاغاناه ومستشار بن غوريون للشؤون العربية⁽⁴⁾. وقد استفاد هؤلاء الجواسيس الكبار وعملاؤهم بمهارة من الخصومات العربية والاختلافات الطائفية. بالمقابل، لم يكن لدى القادة العرب سوى فكرة مبهمّة عن قدرات الصهاينة أو خططهم الحربية أو نياهم النهائية.

(1) المصدر نفسه، ص 194.

(2) Shlaim, *The Politics of Partition*, pp. 67-8.

(3) المصدر نفسه، ص 85-6.

(4) المصدر نفسه، ص 131.

جهود رياض الصلح الأخيرة في الحرب

بعد نشوب الحرب، ظل رياض الصلح متمسكاً ببصيص أمل في إمكانية إقناع بريطانيا بإنقاذ فلسطين، أو على الأقل قسم كبير منها، لصالح العرب. في أوائل حزيران/يونيو، اتصل بموستن - بوزوال مجدداً، واقترح السفر إلى لندن لعقد اجتماع طارئ مع وزير الخارجية إيرنست بيغن. نقل هوستن - بوزوال الرسالة مع توصية شخصية إيجابية. وأشار إلى أن رياض الصلح يتسم بالذكاء وطيب الطباع ويمكن أن يفيد البريطانيين. لكن بيغن لم يستطع المخاطرة، في ظل الضغط الأمريكي والصهيوني الكبير. ردّ بيغن قائلاً: "أقدر جداً موقف رياض الصلح الودي والمتعاون، ولو كانت الظروف مختلفة لرحّبت باقتراحه ودعوته إلى زيارة لندن على الفور. لكن الوضع الفلسطيني الحرج يجعل من المستحيل أن أدعوه لزيارتي في الوقت الحالي إذ سيساء تفسير زيارته هنا وفي الولايات المتحدة"⁽¹⁾.

أصيب رياض الصلح بخيبة أمل كبيرة، وكان عليه الاعتراف أخيراً بفشل خطته الطموحة لتحقيق تسوية شاملة بين العرب والبريطانيين. تبعت ذلك صدمات أخرى، استاء كثيراً عندما قتل الكونت برنادوت في القدس في 17 أيلول/سبتمبر، ورأى في تلك الجريمة دليلاً إضافياً على سياسة إسرائيل الإرهابية. وكان قد اجتمع برنادوت في بيروت قبل مقتله بيوم.

في غضون ذلك، تدفق إلى لبنان، مثله مثل الدول العربية الأخرى، أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين المعدمين. وقد بلغ مجموع الفلسطينيين الفارين أو المطرودين من بلدهم نحو 750,000 فلسطيني. في أيلول/سبتمبر، أرسل البريطانيون إلى لبنان، في بادرة رمزية، 2500 خيمة من مخازنهم في منطقة قناة السويس. نصبت 500 خيمة في صور لإيواء أكثر من 5000 لاجئ من بنت جبيل والجليل.

أمضى رياض الصلح معظم تشرين/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر 1948 في باريس لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة حيث أمل أن يؤمّن الدعم للقضية العربية. لكنه تلقى درساً قاسياً في سياسة القوة. فقد قدّمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الدعم لإسرائيل، بينما وجد العرب أنفسهم وحيدين تماماً. اجتمع رياض في

(1) Beirut to Foreign Office, 4 June 1948 (FO 371/68386)

5 تشرين الأول/أكتوبر مع وزير الخارجية الأميركي جورج مارشال George Marshall، ولم يسفر الاجتماع عن أي نتيجة. مع ذلك، كان رياض مصمماً على مقاومة خسارة فلسطين. وأبلغ أحد الدبلوماسيين البريطانيين أنه كلما تعاضم النجاح اليهودي، ازداد إصرار العرب على المقاومة، حتى لو احتل اليهود فلسطين بأكملها.

أبرمت اتفاقيات هدنة بين إسرائيل والدول العربية المجاورة لها في بداية سنة 1949، وتم التوافق على الحدود. أمنت إسرائيل السيطرة على أكثر من ثلاثة أرباع فلسطين التاريخية. ووضعت مصر تحت إدارتها قطاعاً من الأرض، مليئاً باللاجئين، يمتد على طول الساحل الجنوبي من غزة إلى الحدود المصرية. وضّم الملك عبد الله ما تبقى من فلسطين إلى مملكته. قسمت القدس بين الأردن وإسرائيل، على الرغم من أن هذا التقسيم لم يعترف به بوضوح أو على نطاق واسع.

أجبر رياض على الاعتراف بالهزيمة العربية المفجعة. ولم يعد هناك الآن سوى محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما كان فلسطين العربية. وفيما كان رياض يتأمل في حطام بلد عرفه جيداً، فترسّخ في ذهنه أن إقامة "حكومة في غرفة واحدة" - في المنفى عند الضرورة، على غرار الحكومات الخليفة في لندن في أثناء الحرب العالمية الثانية - قد تكون الآن الملاذ الأخير، وتوفّر نقطة بؤرية للمقاومة العربية. وقد ذكر رياض هذا التشبيه في الغالب في محادثاته مع الدبلوماسيين الأجانب⁽¹⁾. ومن باريس، بعث برسالة إلى لبنان نُشرت في صحيفة بيروت في 11 تشرين الثاني/نوفمبر، وأعلن فيها استعداداه للاستقالة وقيادة "حملة جديدة" ضدّ الصهاينة.

الفصل الخامس والعشرون

التحدي الذي فرضه الثوار

من الصعب المبالغة في تقدير الأثر المفجع الذي أحدثه قيام دولة إسرائيل في العرب في سنة 1948. فقد هُزمت الجيوش العربية، ودُحر المتطوعون، وأصيبت الحكومات العربية بالوهن. وانكشف ستر الدول العربية، وأُتهم زعمائها بالعجز أو الخيانة. وفقدت القومية العربية صدقيتها، وتبين أن جامعة الدول العربية الحديثة، التي أنشئت حديثاً تعبيراً عن الرغبة في التعاون الوثيق والوحدة، مجرد مكان للكلام غير المجدي، وغير قادرة على رأب الصدع الناتج عن الخلافات العربية، وعاجزة تماماً عن إدارة عمليات عسكرية مشتركة.

دُمّر المجتمع العربي في فلسطين، وسويت نحو 450 قرية عربية بالأرض. وأفرغت العديد من المدن من سكانها بوحشية. وأخرج ثلاثة أرباع المليون نسمة من ديارهم بقوة السلاح، مخلفين وراءهم كل ما يملكون. أُجبروا على الفرار طلباً للنجاة، إلى حياة مليئة بالمعاناة والهوان والفقر عبر الحدود. لم تكن البلدان التي استضافتهم مهيئة لاستقبالهم، لأنها فقيرة وغير مستقرة، نالت استقلالها حديثاً أو لا تزال تناضل لنيل حريتها، لذا فإنها انزعجت من تدفقهم عليها. نظر لبنان إلى الوصول المفاجئ للاجئين الفلسطينيين، وغالبيتهم من المسلمين، بقلق عظيم. فهو بلد صغير مكتظ، وحريص جداً على المحافظة على التوازن الطائفي بين المسلمين والمسيحيين. وكان يتطلع إلى عودتهم إلى ديارهم، على الرغم من أنه لم يعد لديهم وطن يعودون إليه، أو مكان آخر على الأقل ينتقلون إليه.

وكان للهزيمة تأثير مخيف على صعيد الجغرافيا السياسية. فقد أزيلت فلسطين عن الخريطة، وهي الجسر البري الذي يربط بين آسيا العربية وأفريقيا العربية. وتمكنت قوة أجنبية معادية وتوسعية زُرعت في قلب المنطقة، من التغلب على العرب. فشكّل ذلك صدمة هائلة للنظام السياسي والعسكري العربي. وضربت المنطقة هزة كبيرة،

أصبحت بعد ذلك زلزالاً اجتماعياً وإيديولوجياً، أسفر عن اضطرابات عنيفة في الأشهر والسنوات والعقود التالية. فقد كان لقيام إسرائيل تداعيات عديدة مثل الانقلابات والاعتقالات والحروب، والمذابح وترحيل السكان؛ وتوسّع الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية؛ وقيام حركات مقاومة عنيفة؛ والتأثير على دول غير مجاورة لإسرائيل مباشرة، مثل العراق وإيران؛ وظهور الإسلاميين المتشددّين الذين حملوا الغرب (خاصة أميركا وبريطانيا) المسؤولية عن مصير فلسطين المروّع؛ واللجوء إلى الإرهاب، سلاح اليائسين والمضطهدين والغاضبين، الذي كان الصهاينة أوّل من استخدمه. كل هذا نشأ بسبب قيام دولة إسرائيل، ورافقه الكثير من البؤس الإنساني الهائل، ولا يزال الصراع العربي الإسرائيلي، مع ما يصاحبه من بؤس إنساني هائل، يتخذ من المنطقة - والعالم - رهينة حتى يومنا هذا.

في سنتي 1948 و1949، عانى الرأي العام العربي انخياراً في المعنويات، وإذلالاً عميقاً، بالإضافة إلى شعور حادّ بالضعف الشديد. وتخوّف العرب من وقوع المزيد من الاعتداءات الإسرائيلية. وساد الاقتناع أن العرب تعرّضوا للخيانة من قبل قادتهم، بالإضافة إلى القوى الخارجية. لقد خرج الاستعمار من الباب، لكنه عاد من النافذة. وأدّت هذه المشاعر مجتمعة إلى خلق إحساس بالظلم والغضب العارمين. هذه هي الخلفية التي خرج الثوريون من رحمها. ومن هؤلاء الثوريين أنطون سعادة.

الحزب السوري القومي في غياب سعادة

في 2 آذار/مارس 1947، عاد مؤسس الحزب السوري القومي إلى الشرق الأوسط بعد مرور يوم واحد على عيد مولده الخامس والأربعين، وسط ابتهاج أتباعه وتكليفهم. جاء من أميركا اللاتينية إلى بيروت عبر القاهرة، لم ينسَ مؤيدوه ولا أعداؤه، على الرغم من غيابه عن الشرق الأوسط مدة تسع سنوات حافلة بالأحداث. استقبل بنوع من التبجيل الذي يُفرد للمرشدين الروحيين عادة، وليس للقادة السياسيين. ولا غرو في ذلك، لأن سعادة لم يكن يمتلك أيّاً من الصفات التي يتمتّع بها السياسيون الناجحون: لم يكن يتسم بالمكر، والبراغماتية والقدرة على تقييم الأوضاع بواقعية،

وروح التسوية. بل كان منظراً إيديولوجياً متقدّ المشاعر وعقدياً، تستحوذ عليه فكرة من ابتكاره إلى حدّ كبير. واجتمعت هذه العقيدة النظرية مع مزاج تسلّطي، وثقة غير محدودة بمهمته كقائد. كان لديه استخفاف بأعدائه، وموهبة مميزة في الخطابات الساخرة والساحرة. وما من شك في أن هذه الصفات تفسّر جاذبيته المميّزة، لكنها أضافت أيضاً إلى مواطن ضعفه الشديدة.

أسس سعادة حزبه في لبنان في سنة 1934، وأنشأ جناحاً شبه عسكري وفقاً للاتجاهات الفاشية المنسجمة تماماً مع أجواء تلك الفترة⁽¹⁾. وسرعان ما رأت السلطات أن حركته، التي اجتذبت مؤيدين في البلدان المجاورة أيضاً، تشكّل خطراً على النظام العام. فأدى ذلك إلى الزجّ به مع كبار مساعديه فترات قصيرة في السجن في لبنان في سنوات 1935، و1936، و1937. وعندما واجه سعادة خطر الاعتقال مرة أخرى في سنة 1938 بسبب تودّده إلى ألمانيا النازية، قرّر مغادرة بيروت فجأة، وتوجّه إلى أميركا اللاتينية، حيث يوجد لديه أصدقاء وعائلة ومعجبون في الأرجنتين والبرازيل.

كان يسترشد بمبدأ فرادة الشعب السوري التي تشكلت عبر آلاف السنين من خلال البيئة الجغرافية السورية الفريدة. وحدّد هذه البيئة الجغرافية بأنها الأراضي الواسعة التي تمتدّ من جبال طوروس في الشمال إلى شبه جزيرة سيناء في الجنوب، ومن البحر المتوسط في الغرب إلى الصحراء في الشرق. وقد جعله هذا المبدأ على خلاف مع جميع الآخرين في المنطقة تقريباً - مع دعاة القومية مثل رياض الصلح، بالإضافة إلى من يدعون إلى الوحدة العربية؛ ومع اللبنانيين ذوي التوجّهات الوطنية الضيقة، مثل رجال الدين الموارنة والكتائب اللبنانية بقيادة بيار الجميل؛ ومع الشيوعيين المؤمنين الداعين إلى الأممية؛ ومع بنية الدولة بأكملها التي تشكلت بعد الحرب العالمية الأولى. أراد سعادة إعادة رسم خارطة المشرق، بدمج سوريا ولبنان، والأردن وفلسطين، بالإضافة إلى جزيرة قبرص، في كيان سوري واحد؛ وذلك مشروع طموح لا يمكن إلا أن يثير عدواة مختلف سلطات الدول المعنية.

(1) انظر الفصل الرابع عشر عن تاريخ الحزب القومي الاجتماعي منذ نشوئه عام 1934 إلى فترة اندلاع الحرب العالمية الثانية.

تجدر الإشارة إلى أن سعادة كان علمانياً، على الرغم من خلفيته الأرثوذكسية، يريد كنس المواجهات الطائفية اللبنانية ورميها في مزبلة التاريخ - وذلك هو الأمر الأكثر جاذبية في برنامجه. كما أن "الدولة السورية الجامعة" التي يدعو إليها لا صلة لها بمشروع "سوريا الكبرى" الذي نادى به الملك عبد الله، على الرغم من التداخل الجغرافي للمشروعين. ففي حين كان عبد الله يحلم باستعادة ملكه وحظوظ الهاشميين من خلال اعتلائه عرش دمشق، فإن سعادة كان صاحب مشروع حالم يقضي بإقامة وحدة جغرافية سياسية مثالية. ولعل القاسم المشترك بينه وبين عبد الله هو الإصرار على تحقيق أهدافهما بعيدة الاحتمال.

هكذا كان أنطون سعادة الذي جاء إلى بيروت، في 2 آذار/مارس 1947 لاسترداد حربه. ففي حين أمضى فترة الحرب في أميركا اللاتينية، في شيء من الأمن والراحة، واجه أتباعه في لبنان أوقاتاً عصيبة - بقيادة نعمة ثابت، أول مردييه وأكثرهم ولاء. فقد اعتقلوا بتهمة تأييد ألمانيا في سنة 1940، لكن نظام فيشي أطلق سراحهم. وعندما دخل البريطانيون والفرنسيون الأحرار سوريا ولبنان في سنة 1941 وهزموا قوات فيشي، لوحق نشطاء الحزب السوري القومي واعتقلوا. سُجن نحو سبعين من أعضاء الحزب المهمين، من بينهم نعمة ثابت، في ظروف قاسية في السجن اللبناني في بلدة المية ومية وفي قلعة راشيا.

تمكّن أسد الأشقر، الرجل الثالث في الحزب بعد نعمة ثابت، من تجنّب الاعتقال وأمضى سنة فاراً، لكنه سلّم نفسه في سنة 1942 للقائد أوبوا Aboire، وهو ضابط في الجهاز الاستخبارات الفرنسي الخاصة. أبلغ الأشقر الضابط أنه تعلّم في مدارس فرنسية، وأن عائلته قد عبّرت عن تعلّقها بفرنسا مرات عدة، وأنه مؤيد للفرنسيين بوضوح. وطلب الأشقر من البطريك أنطوان عريضة التدخل لمصلحته. في 22 كانون الأول/ديسمبر، استدعاه غوتيه، مدير الأمن العام، من سجن المية ومية لإجراء حديث خاص معه. وعُقد اجتماع سري ثانٍ معه في 9 كانون الثاني/يناير 1943. لكن لم يؤدّ هذان الاجتماعان إلى أي نتيجة، على الرغم من أن الأشقر أتبعهما بعدة رسائل إلى غوتيه، يطلب فيها الاعتراف بالحزب حليفاً لفرنسا.

رأى الأشقر في إحدى الرسائل أن "مبدأ وحدة الأمة السورية هو عقيدة ومثال، وليس هدفاً مباشراً [لحزبنا]. وأن استقلال لبنان مبدأ سياسي يجب تنفيذه على الفور،

وتوسيعه في المستقبل حتى تحقيق الاندماج [مع سوريا والأردن إلخ]". وفي 8 حزيران/يونيو 1943، بعث نعمة ثابت بدوره برسالة إلى المندوب العام هـللو، في أعقاب إعادة العمل بالدستور في دولتي المشرق. كتب ثابت:

في السنوات الثماني الماضية، انتقلنا من فترات تعاون مع فرنسا إلى فترات رفض... وقدّمنا خدمات لفرنسا ولبلدنا كلما كنا أحراراً... نعلم أنك مشغول الآن بمسألة مهمة جداً، ألا وهي المسألة اللبنانية. وبما أننا الحزب القومي السوري، فرما تتساءل إذا كان في وسعنا حصر أنفسنا ضمن الساحة اللبنانية. أريد أن أؤكد أنني أنا وزملائي مخلصون لاستقلال لبنان أكثر من أي وقت مضى. ويبقى مثالنا الأعلى السوري مثلاً. لكن ليتحقق، لا بد أن نحلّ حضارة مكان الأخرى... إن لبنان وسوريا ليسا في الوقت الحالي على المستوى الذي يتيح لهما تشكيل دولة واحدة، أو كيان اجتماعي واحد... لذلك نرجو منكم أن تحلّوا مشكلتنا، وتقتنعوا أننا حزب من الشبان ذوي القيم، وأن هؤلاء الشبان يريدون الوقوف إلى جانب فرنسا لتأدية رسالتها في المشرق⁽¹⁾.

لكن الفرنسيين واصلوا تردّدهم. كانوا ملتزمين جداً بالحفاظ على سلامة الأراضي اللبنانية، ويدركون جيداً أن الحزب السوري القومي يريد ضم لبنان إلى سوريا، بغض النظر عما تقوله قيادته. وتأكدت الشكوك الفرنسية في الانتخابات النيابية في سنة 1943 عندما أيدت تسعة من عشرة أعضاء في المجلس الأعلى للحزب من السجن لائحة بشاره الخوري الدستورية، بدلاً من لائحة إميل إدّه الموالية للفرنسيين. بدا أن الحزب يحاول التحرك باتجاه جميع الأطراف. على سبيل المثال، لم يقطع الحزب علاقاته بالبريطانيين في أثناء محادثاته مع الفرنسيين. كان الحزب السوري القومي يسعى جاهداً لتحرير قاداته من السجن، واستعادة أنشطته. لذلك كان على استعداد للقيام بأي شيء لتحقيق تلك الغاية. فقد كان للانتصارات التي حققها الحلفاء، وفقدان الأمل تماماً في انتصار المحور، دور في إجبار الحزب على تغيير اتجاهه - فضلاً عما عاناه

MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté aux Armées, Beyrouth, (1)
le 19 juin 1944

أعضاؤه من مصاعب، والنقاشات التي أجراها زعماءه في السجن، والاتصالات التي أجروها مع الفرنسيين والبريطانيين.

تفوق البريطانيون على الفرنسيين دهاء وحيلة، فانتهزوا الفرصة لإطلاق سراح أعضاء الحزب السوري القومي واجتذاهم إلى جانبهم. أطلق سراحهم في سنة 1944 كميل شمعون، وزير الداخلية ذو الميول البريطانية، بعد حملة مكثفة لمصلحتهم. كان الفرنسيون على قناعة أن شمعون عميل بريطاني، وأنه أفرج عن أعضاء الحزب بطلب من بعثة سبيرز "التي تغلب رغبتها في محاربة الشيوعية على أي اعتبار آخر"⁽¹⁾. وفي وقت لاحق، اتهم رياض الصلح شمعون بإطلاق سراح ناشطي الحزب السوري من دون استشارته، وذلك في أثناء وجوده في الحجاز في زيارة للملك عبد العزيز ابن سعود.

وداد ناصيف وكلودا ثابت

استفاد أنطون سعادة من النفوذ الذي يتمتع به العديد من أصدقائه. وكانت له علاقات، في مراحل مختلفة من حياته، مع سيدتين مثقفتين ومقدمتين: وداد ناصيف المولودة من أم أيرلندية وأب لبناني، وابنة خالتها الشابة كلودا ثابت. وقد أثارت هاتان السيدتان الجميلتان والجريئتان ضجة كبيرة في المجتمع اللبناني في ذلك الوقت. أحب سعادة وداد ناصيف في سنة 1934، عندما أطلق حركته. وكانت قد درست الرسم في إيطاليا، حيث أمضت بضع سنوات مع أمها وأختها، قبل زواجها القصير من دون حب من أحد أقاربها في سنة 1926. لكنها سرعان ما قرّرت استعادة حياة الحرية التي تمتعت بها سابقاً، واستقرت في قرية المختارة الدرزية، في منزل تمتلكه السيدة نظيرة جنبلاط. لكن اختلفت هاتان السيدتان القويتان في نهاية المطاف، وغادرت وداد المختارة لتعيش في فندق نيو رويال في بيروت (لم يعد موجوداً اليوم). ولعلها تعرّفت في تلك الفترة إلى أنطون سعادة عن طريق ابن خالتها نعمة ثابت، شقيق كلودا.

يُعتقد أن العلاقة بين وداد ناصيف وأنطون سعادة دامت نحو سنتين، حتى عام 1936 عندما ضيّقت السلطات الخناق على حركته السرية. حتته وداد على الفرار معها

MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Général Paul Beynet, Délégué (1) Général et Plénipotentiaire de France au Levant à M René Massigli, Commissaire aux Affaires Etrangères, Alger. Beyrouth, le 28 juin 1944

إلى فلسطين، لكن أوقفتها دورية للشرطة. اعتُقل سعادة فيما أطلق سراحها، فاتهما منتقدوها - لا سيما العضوات في الحزب - بخيانة سعادة. على أي حال، أدت الحادثة إلى افتراق الحبيين.

نعمة وكلودا ثابت هما ابنا قسطنطين ثابت، مراسل جريدة "التيمز" في بيروت، الذي اعتقد الفرنسيون أنه عميل للاستخبارات البريطانية. وأمهما إيفا شكور خالة وداد ناصيف. كانت إيفا ووداد شديدي التعلق إحداهما بالأخرى، وقد تشاركتا العيش في منزل في عين زحلثا، حيث آل شكور من أصحاب الأملاك المسيحيين البارزين فيها. تمكنت كلودا من تأمين الإفراج عن الناشطين في الحزب السوري القومي وإعادة تأهيل الحزب في سنة 1944، عن طريق صلات والدها قسطنطين بالبريطانيين في أوائل الأربعينيات، بالإضافة إلى تدخل قريبها كميل شمعون. في أوائل 1941، بدأ الرائد موسغريف Musgrave، ضابط الاتصال البريطاني مع الأمن العام الفرنسي، محادثات مع نعمة ثابت بوساطة شقيقته كلودا وكميل شمعون. وتمكنت كلودا أيضاً من حماية سعادة لدى عودته إلى لبنان في سنة 1947.

قدّمت هذه الشبكة من العلاقات - وداد ناصيف في الثلاثينيات، ثم نعمة وكلودا ثابت، وكميل شمعون بعد عقد من الزمن - مساعدة كبيرة لأنطون سعادة، وأدّت دوراً فاعلاً في منح الحزب السوري القومي عمراً جديداً في الأربعينيات⁽¹⁾. وضعت الاستخبارات الفرنسية هذه العلاقات تحت المراقبة، نظراً إلى شكوكها الدائمة بالمكائد البريطانية. في آذار/مارس 1944، أفادت هذه الاستخبارات أن الجنرال سبيرز وزوجته تناولا الغداء قرب صيدا مع السيد والسيدة شمعون، والسيدة كلودا ثابت، والقاضي الدرزي ملحم حمدان، الذي كان ابنه عادل حمدان رفيق الجنرال سبيرز في رحلات الصيد. وصف التقرير كلودا ثابت بأنها "سيدة جميلة تتردد على الأوساط التي تحب المرح. ويقال إنها تحاول إقناع البريطانيين بدعم الحزب السوري القومي كقوة موازنة لحزب الكتائب الموالي للفرنسيين"⁽²⁾.

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté Générale, Beyrouth, le 10 novembre 1940

(2) MAE Fonds Beyrouth, Série B, Carton 5, Dossier 61, Sûreté aux Armées, le 31 mars 1944.

شرع نعمة ثابت، رئيس المجلس الأعلى للحزب، بعد إطلاق سراحه من السجن، بتكليف الحزب مع الظروف الجديدة للاستقلال اللبناني. فأصدر بياناً في شباط/فبراير 1944، يعلن فيه حذف كلمة سوري من اسم الحزب ليصبح الحزب القومي. وأعلن أن الحزب قرّر العمل في إطار لبناني صرف، تاركاً مهمة العودة إلى سوريا والأردن وفلسطين إلى وقت لاحق. وقد عُرف ذلك في الحزب باسم "سياسة المراحل"⁽¹⁾.

استأنف الحزب أنشطته في وقت واحد في بيروت ودمشق في 1 آذار/مارس 1944، في يوم ذكرى ميلاد زعيمه. في دمشق، اجتمع نحو خمسين حزبياً، معظمهم من الأساتذة والطلاب، المسيحيين والمسلمين، في بيت أحدهم لسماع رسالة من نعمة ثابت قال فيها:

ربما تسألون عن موقفنا من الحكومة الحالية في لبنان. أجيبكم أن العناصر التي تشكل منها تلك الحكومة هي الوحيدة القادرة اليوم على شلّ الحركة الرجعية في البلد، ووضع حدّ للمناورات الإجرامية التي كادت تُفشّل استعداداتكم للمعركة الحاسمة.

وربما تسألون عن موقف الحلفاء منكم، وجوابي هو التالي: لقد توطدت الصداقة مع قوى الحلفاء التي عملنا من أجلها مدة طويلة - وسعى أعداؤنا إلى منعها عبر الدعاية التي تخدم أغراضهم - والفضل في ذلك يرجع إلى اتصالاتنا بسلطات الحلفاء. إنهم يدركون الآن حسن نياتنا تجاههم، بالإضافة إلى تعلّقنا بمصالح بلدنا وحقوقه. ويمكن القول إننا بدأنا الآن مرحلة من التعاون مع الحلفاء، ستستمرّ وتتعزّز دائماً⁽²⁾.

في 2 أيار/مايو 1944، عقدت قيادة الحزب اجتماعاً قرّرت فيه دعم حكومة رياض الصلح، شرط أن يحميها من الاعتقال من قبل السلطات البريطانية والفرنسية. وفي اليوم التالي، زار أسد الأشقر ومأمون أياس رئيس الوزراء لإبلاغه بالقرار. قال له إن الحزب يضمّ 3000 عضو لكنه يفتقر إلى السلاح. سرّ رياض الصلح (بحسب

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté aux Armées, le 29 février 1944

(2) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Délégation de Syrie, Damas, le 2 mars 1944

الاستخبارات الفرنسية). بموقف الحزب منه ووعد بتأمين كل ما يلزمه⁽¹⁾. أشار الحزب في إعلامه إلى أن لبنان أجبر على التخلي عن سياسة العزلة التي يدعو إليها الوطنيون اللبنانيون، وأخذ يقترب من العرب. فالطبيعة هي التي تملي على لبنان الاتحاد مع جيرانه لإنشاء دولة "سورية" قوية وفاعلة⁽²⁾.

غضب الحزب الشيوعي من قرار شمعون السماح بعودة الحزب القومي إلى الظهور، ودعا إلى حظره. وفي 26 حزيران/يونيو، عقد اجتماع ضمّ نحو 300 ناشط في الحزب الشيوعي حضره قادة الحزب - فرج الله الحلو ونقولا الشاوي وطانيوس دياب ومصطفى العريس وحسن قريطم - في مكاتب صحيفة صوت الشعب الناطقة باسم الحزب للتخطيط لحملة المناوئة للحزب السوري القومي. وأرسل أنطوان ثابت، رئيس العصبة المناهضة للفاشية والنازية، برقية شديدة اللهجة إلى رئيس الوزراء:

في هذه اللحظة الحاسمة، فيما يشهد العالم نضال الشعوب الحرة ضدّ الفاشية، وفيما تضحّي قوات الحلفاء بدمائها للقضاء على خطر الفاشية والنازية، سمح وزير الداخلية في الحكومة اللبنانية بإعادة إحياء الحزب السوري القومي، وهو حزب أنشأته الفاشية، وكان قاداته وما زالوا عملاء لمتلر في بلدنا، وأعداء لقضيتنا الوطنية، وأعداء للنظام الديمقراطي والدستوري، وأعداء لسلامة الأراضي اللبنانية، وأعداء لفكرة القومية العربية.

إن العصبة المناهضة للفاشية والنازية تحتجّ بقوة على هذا التدبير وتطلب إلغاء وإلغاء الحماية التي يمنحها وزير الداخلية لعبيد الفاشية في هذا البلد⁽³⁾.

تقلبت علاقة رياض الصلح بالحزب السوري القومي ما بين مدّ وجزر. لم يستطع أعضاء الحزب معاداته بشدة لأن وزير الداخلية في حكومته هو الذي سمح بإطلاق سراحهم، على الرغم من أن بعض الأصوات والمظاهرات على مستوى قاعدة الحزب جعلت رياض الصلح يدعو نعمة ثابت ومأمون أبياس وأسد الأشقر ويطلب منهم تعليق

(1) .MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté des Armées, le 6 mai 1944

(2) .MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté aux Armées, le 16 mai 1944

(3) .MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, le 27 juin 1944

اجتماعات حزبهم. لكنه سمح في الشهر التالي، فيما يشبه التعويض عن ذلك، بتنظيم احتفال للحزب القومي السوري لصالحه في ضهور الشوير، وذلك ليظهر أن حكومته تحظى بموافقة غالبية السكان المسيحيين. قدّمت وزارة الداخلية إلى مختار القرية، عادل مجاعص حبيقة، مبلغ 5000 ليرة لبنانية لتعليق الأعلام والتزيين للمناسبة. وقد حضر رياض الاحتفال يرافقه الأمير مجيد أرسلان⁽¹⁾.

في الشهر نفسه، زار وفد من كبار أعضاء الحزب رياض الصلح للتعهّد بالولاء لحكومته، والمطالبة بعودة أنطون سعادة إلى لبنان. وقد نجحت مساعيهم في نهاية المطاف.

عودة الزعيم

عندما عاد أنطون سعادة إلى بيروت في 2 آذار/مارس 1947، استقبلته أعداد كبيرة من مؤيديه الفرحين، بينها وفود قدمت من سوريا والأردن وفلسطين. اصطُحب على الفور إلى منزل أحد أتباعه في ضاحية الغبيري، حيث وقف على الشرفة وخطب الحشد الذي اجتمع لسماعه:

أيها القوميون الاجتماعيون!

إن هذا اليوم هو أسعد يوم رأيته في حياتي حتى اليوم. إذ أعود بعد تسع سنوات اغتراب عنكم، لأنضمّ إلى هذه الجموع النامية التي تمثل أمة أبت أن يكون قبر التاريخ محلاً لها. بعد خمس عشرة سنة من جهاد نظامي عزّ نظيره في العالم كله، نقف اليوم أمة حيّة منتصرة على الإرادات الأجنبية التي أرادت أن تبقىها ممزقة بين الطوائف والمذاهب الدينية التي مرجعها سماء واحدة، أتت تعاليمنا القومية ديناً واحداً موحداً ليرفع هذه الأمة إليها، إلى الخلود فيها.

اليوم تحفّق أعلام لنا وليس إلى جانبيها أعلام أجنبية مختلة تحفّق. وإذا كانت أعلامنا هي وحدها تحفّق اليوم فيعود الفضل في ذلك إلى تعاليمكم، إلى إيمانكم، إلى عملكم، وإلى نضالكم الموحد.

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Sûreté aux Armées, le 30 août 1944

نحن اليوم في حالة استقلال لا نظن أنه الحد الأخير لتقدمنا في الحياة. هو خطوة من هذه الخطوات التي تبتدئها هذه الأمة العظيمة.

حيًا سعادة الروح القتالية لأتباعه، وذكر المستمعين أن الشهيد الوحيد الذي سقط وهو يحارب الفرنسيين في بشامون في تشرين الثاني/نوفمبر 1943 كان عضواً في حزبه. وصرّح سعادة أن الاستقلال اللبناني قد أخرج الأمة من السجن داخل البناية الذي أعده لها الاستعمار، ولكنها لا تزال ضمن السور الكبير، الذي يرمي إلى منعها من دمج مصيرها بمصير بقية الأمة السورية.

في 5 آذار/مارس 1947، ردّ بيار الجميل، زعيم الكتائب اللبنانية، على خطاب سعادة بلهجة هجومية في صحيفة العمل:

بين لبنان و"سوريا الجغرافية" يجب الاختيار. وقد اختار اللبنانيون. بين الوطنية اللبنانية "والقومية السورية الجغرافية الاجتماعية" لا مجال للالتباس أو التسوية.

اتخذ السيد سعادة بحرية موقفاً ضد الأمة اللبنانية. وعلى الأمة أن تردّ. وسترّد. وعلى الدولة والحكومة والمدافعين عن الوطن القيام بواجباتهم أيضاً. لا بدّ أن السيد سعادة وزملاءه قد قدّروا نتيجة أفعالهم: وعليهم الآن أن يتحمّلوا المسؤولية عن النتائج.

لا يمكن أن تغيّر الدقّة اللغوية أو الحوار البيزنطي الأمور بعد الآن. إن الذين يعرفهم اللبنانيون باسم "القوميين" لا يؤمنون بالوطن اللبناني. إنهم يناضلون ضدّ الوطن اللبناني. لم يعد الأمر مسألة حرية الرأي أو المعتقد: إنّها مسألة جريمة ضدّ الدولة والوطن. ولا يمكن أن تكون هناك حرية للجريمة.

في 6 آذار/مارس، قال وزير الخارجية حميد فرنجية في مجلس النواب: "لم يتعلّم هذا الرجل [أنطون سعادة] شيئاً. لقد نسي أن النظام الحالي نشأ من الميثاق الوطني لعام 1943 وأن لبنان كيان لا يمكن العبث به. ولن يُسمح لأحد بالعبث به!" وفي الجلسة نفسها، تكلم رياض الصلح قائلاً:

لقد طلب من السيد سعادة الحضور إلى الأمن العام لتقديم تفسير لما أدلى به. فلم يفعل، لكنه توارى. وذلك بحذ ذاته يشكل قحمة ضده. إن عليه أن

يوضح ذلك عاجلاً أم آجلاً. كونوا مطمئنين أننا لن نتردد في سحق كل من يتجرأ على القيام بخطوة ضدّ ميثاق 1943 واستقلال لبنان.

نُشر خطاب سعادة في 5 آذار/مارس في جريدة صدى النهضة الناطقة باسم الحزب القومي السوري، في اليوم نفسه الذي ردّ فيه الجميل في صحيفة العمل. لم تنشر الصحف الصادرة باللغة الفرنسية الخطاب، لكنها شنت حملة على سعادة في 7 آذار/مارس. أجبرت الحملة الصحافية المتصاعدة الحكومة على التدخل ضد "فئة كانت تعمل على تقسيم البلد وإلغاء هويته". في 12 آذار/مارس، علّق صدور صحيفة الحزب القومي، صدى النهضة. كما أوقف إصدار جريدة صوت الشعب الشيوعية لمدة تسعة أيام، بعد أن شنت هجوماً شديداً على سعادة⁽¹⁾.

في 13 آذار/مارس، أصدر المدّعي العام مذكرة توقيف بحق أنطون سعادة، بعدما رفض الاستجابة لاستدعاء مدير الأمن العام. بدا كأن الحكومة تريد الردّ بقوة على التهديد الذي يشكّله على سيادة لبنان وسلامه أراضيّه - وهما أمران حساسان جداً ومثيران للجدل - فيما ييدي الملك عبد الله عامل الأردن، والوصي على العرش العراقي رغبتهما في إعادة رسم خريطة المشرق.

لكن لم يُلَقَ القبض على أنطون سعادة، ما أثار دهشة الجميع. كان يُعرف أنه يقيم بسلام في فيلا السيدة كلودا ثابت بالقرب من بيروت⁽²⁾. وتمكن مراسل وكالة الصحافة الفرنسية من إجراء مقابلة معه، وتبعه مراسل صحيفة القبس في دمشق. طرح عليه مراسل القبس السؤال التالي: "ماذا تقول في تدابير الحكومة ضدّكم؟" أجاب سعادة قائلاً: "أقول إنها غير مبررة وإنها ذات صفة استبدادية. وأكرر القول إنه لا يوجد في خطابي مهاجمة للكيان اللبناني، ولا يوجد عمل من قبلي يوجب اتخاذ تدابير كالتّي لجأت إليها الحكومة. إن حرية الرأي وحرية القول هما حريتان أساسيتان وكل حكومة تلجأ إلى خنقهما تنافي في عملها مبادئ الديمقراطية".

(1) MAE Fonds Beyrouth, série B, carton 5, dossier 61, Note de l'attaché militaire à la Légation de France à Beyrouth, le 18 avril 1947

(2) MAE Fonds Beyrouth (Amb.), carton 48, Légation de France, Note pour Monsieur le Ministre, Beyrouth, le 25 mars 1947

بدا للكثيرين أن الحكومة لا تجرؤ على توقيفه. وسألت صحيفة صوت الشعب، لسان حال الحزب الشيوعية، "إلى متى سيبقى الجاسوس أنطون سعادة طليقاً؟" اعتقد بعض الأشخاص أن البريطانيين - أو أعضاء الحكومة المحيين لهم، مثل كميل شمعون - يقدمون له الحماية لأنهم يعتقدون أن في وسع الحزب القومي كبح التهديد الشيوعي للبلد. ورأى آخرون أنه منح الحصانة لأن مختلف السياسيين يأملون في اجتذاب أعضاء الحزب البالغ عددهم 8000 عضو إلى جانبهم في الانتخابات القادمة. واعتقد آخرون أيضاً أن سوريا مارست ضغوطاً على لبنان لمصلحة سعادة، لأن برنامجه يتماشى مع الطموحات السورية. وكان الفرنسيون على يقين من أن البريطانيين يحكون مؤامرة لمنع توقيف سعادة. وبعد بضعة أسابيع، غادر سعادة فيلا كلودا ثابت وانتقل إلى بشامون، حيث قيل إنه "بحماية" الأمير مجيد أرسلان. وكثير من أعضاء الحزب ينتمون إلى الطائفة الدرزية.

سعادة يصرح بعقيدته مجدداً

عندما عاد سعادة إلى لبنان، بادر إلى حلّ المجلس الأعلى للحزب وتعليق عضوية نعمة ثابت وأسد الأشقر ومأمون أياس وجورج عبد المسيح وغيرهم من أركان الحزب الذين قدموا تضحيات كبيرة للحفاظ على استمرارية الحركة في أثناء غيابه. لا شك في أن سعادة أراد، بصرفهم بهذه الطريقة الفظة، إعادة تأكيد سيطرته الكاملة على الحزب، وإظهار سلطته من دون منازع. غير أنه أراد أيضاً التعبير عن رفضه التنازلات والتسويات التي اضطر هؤلاء إلى تقديمها في أثناء غيابه. لذا فإن عودته دمرت كل ما قاموا به من جهود تصالحية.

لم يضع سعادة الوقت للإعلان عن نيّته تنفيذ برنامجه حزبه بأكمله في أقرب وقت ممكن، "بإقامة سوريا الطبيعية من طوروس إلى العريش". وقال إنه ليس للبنان ميل خاص للاستقلال، لأن وجوده ليس سوى أثر اصطناعي لمذابح العام 1860 وفترة الانتداب بين الحربين. وهدف الحزب هو أن يفرض، بكل الوسائل الممكنة، دولة سوريا الكبرى العلمانية التي لا تشغل بالأكثرية السنية أو الأقلية المسيحية. ونشر في بيروت في العام نفسه مبادئ الحزب في كتاب بعنوان كتاب التعاليم السورية القومية

الاجتماعية. وقد أشار فيه إلى أن الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري، وقد نتجت عن تاريخ طويل يعود إلى أزمنة ما قبل التاريخ⁽¹⁾.

وفيما غرقت المنطقة في اضطرابات الصراع الفلسطيني، تابع سعادة تحدي الشرطة اللبنانية التي كان لديها تعليمات بتوقيفه. هدّد أتباعه باختطاف قائد الشرطة إذا استمر في السعي لتنفيذ أوامر الحكومة. لذلك بقي سعادة طليقاً، من دون أن يخضع للمراقبة تقريباً. وقد أبلغ السفير الفرنسي باريس أن سعادة طلب مقابلة السفير في مقره الصحفي في عاليه "وهو ما لم أوافق عليه بطبيعة الحال"⁽²⁾. وفيما كان العرب سائرون نحو الهزيمة، شكك سعادة في عدد من المقالات النارية بالعروبة ووصفها أنها مبدأ فاشل وأنها مسؤولة عن هزيمة الجيوش العربية في فلسطين⁽³⁾.

لم يشغل سعادة نفسه بالبقاء في بيروت سرّاً، بل سافر في أرجاء سوريا بحرية. في تشرين الثاني/نوفمبر 1948، نقل القنصل الفرنسي العام في حلب أن سعادة أمضى بضعة أيام في فندق بارون، وهو أحد المعالم التاريخية في المدينة، حيث استقبل عدداً من الزوار، وأجرى مقابلات، وحضر حفلات استقبال أقيمت على شرفه، قبل أن يقرّر الذهاب إلى اللاذقية في جولة لتفقد فروع الحزب. وأبلغ سعادة الصحافة أن على العرب القبول بتقاسم فلسطين مع إسرائيل كأمر واقع. في ذلك الوقت، كانت هذه العبارة مثيرة للغضب. ورأى بعض الأشخاص أنها تؤكد صلة سعادة بالبريطانيين. وكان الفرنسيون، على سبيل المثال، على قناعة أن سعادة مدين للبريطانيين بحرية التحرك والتعبير التي تمتع بها. ألم يكن كمال نخولي، رئيس فرع الحزب في حلب، مسؤولاً عن الصحافة في القنصلية البريطانية⁽⁴⁾؟ لكن من المرجح على ما يبدو أن سعادة كان يستفيد من ضعف الحكومة بعد الهزيمة في فلسطين.

(1) أنطون سعادة، كتاب التعاليم السورية القومية الاجتماعية، بيروت 1947، ص 17.

(2) MAE, Fonds Beyrouth, (Amb.), série B, carton 48, Situation politique, Beyrouth, le 13 août 1948.

(3) Labib Zuwiyya Yamak, *The Syrian Social Nationalist Party: An Ideological Analysis*, Cambridge 1966, p. 65.

(4) MAE, Fonds Beyrouth, (Amb.), série B, carton 48, M. Charles Clair, Consul-Général de France à Alep, à M Jean Serres, Ministre de France en Syrie, Alep, le 26 novembre 1948.

يجب ألا يغيب عن البال أن سعادة كان يعمل في فترة تميزت بالاضطراب الشديد - في عقول الناس على الأقل. فقد أدى قيام دولة إسرائيل عن طريق العنف إلى إعادة رسم خريطة المنطقة. وأحييت طموحات عبد الله السياسية والجغرافية، وقيامه بضمّ ما تبقى من فلسطين العربية، الجدل الصاحب بشأن سوريا الكبرى. واستبدّ الضعف بالأنظمة العربية، وفقدت صدقيتها. وأحدثت الضربة التي وُجّهت إلى القومية العربية، بالإضافة إلى المشاحنات الصغيرة بين القادة العرب أنفسهم، شعور بأن كل شيء متاح الآن لمن يأخذه. ويبدو أن سعادة أحسّ أن اللحظة التاريخية حانت لتنفيذ مشروعه بإقامة سوريا الكبرى.

في بيروت، راقب رياض الصلح هذه التطوّرات التصعيدية بشيء من الكآبة. فهناك كثير من الصفات التي لا تعجبه في سعادة. فهو ديمقراطي بالفطرة، ويؤمن بالتعددية السياسية، في حين أن سعادة مجبول على السلطوية. في المفاوضات، كان سعادة صلباً لا يقبل التسوية، فيما يحاول رياض دائماً تفهّم وجهة نظر الطرف الآخر للتوصّل إلى تسوية. وقد أدّى استخفاف سعادة المعلن بالاستقلال اللبناني، واعتباره ظاهرة مؤقتة واصطناعية، إلى إغضاب رياض لأنه يقلّل من قيمة الإنجاز الذي حققه بانتزاع حرية لبنان من الفرنسيين. بل إن دعوة سعادة الروحانية والغامضة إلى القومية السورية برّزت الوحدة السورية التي آمن بها رياض طوال حياته واحتفظتها. وفي حين أن رياض نظر إلى الوحدة السورية دائماً بمثابة خطوة أولى نحو تحقيق الوحدة العربية الأكبر، فإن سعادة جعلها هدفه الأسمى وغير العربي. لذا لم يكن من الممكن جسّر الهوة الإيديولوجية التي تفصل بينهما. وثمة مجالات أخرى اقترب سعادة فيها كثيراً من سلب مثل رياض التي يتمسك بها. فقد دعا سعادة إلى إنهاء النظام الطائفي وقيام الأمة السورية الكبرى على أساس المواطنة المشتركة لا على أساس الانتماء الديني أو العرقي. وذلك هدف وضعه رياض نصب عينه في لبنان، لكنه لم يستطع تحقيقه في ذلك الوقت. في غضون ذلك، بدأت بيانات سعادة الاستفزازية، وقيام أتباعه باستعراض قوّتهم تشكّل تهديداً لأمن الدولة اللبنانية ووجودها.

الدخول العنيف لثوري آخر

هكذا كان الوضع عندما ظهر ثوري آخر على الساحة. استولى رئيس أركان الجيش السوري، العقيد حسني الزعيم على السلطة في دمشق في 30 آذار/مارس 1949،

موجهاً ضربةً قاضيةً للنظام البرلماني من خلال الإقحام الغاشم للجيش في السياسة - في سوريا أولاً. ألقى القبض على شكري القوتلي، القائد الوطني المخضرم وأبو الاستقلال، في المستشفى حيث كان يتلقى علاجاً لتقرّح في المعدة بالإضافة إلى عارض في القلب. وفي بيروت، تابع رياض الصلح وبشارة الخوري هذه التطورات بقلق وانزعاج شديد. وتبيّن الآن أن حسني الزعيم يشكّل تهديداً أكبر لاستقلال لبنان المهشّ من تهديد سعادة وحزبه القومي.

تلقّى حسني الزعيم مساعدة في التخطيط لانقلابه وتنفيذه من شخصين سطع نجمهما في الساحة السياسية السورية، وهما المقدم أديب الشيشكلي وأكرم الحوراني، وكلاهما معروفان بصلاتهما بالحزب السوري القومي. وقد رأت بيروت نذير شؤم في ذلك. الشيشكلي هو الضابط السوري الذي سيطر في أوائل حرب 1948 على قرية المالكية، الواقعة على الجانب الآخر من الحدود اللبنانية، لكن الإسرائيليين أعادوا احتلالها لاحقاً. أما الحوراني، فهو زعيم شعبي من حماة، عباً الفلاحين لمحاربة كبار ملاك الأراضي في السهل السوري الأوسط. وقد أدّى قربهما من الزعيم إلى ارتفاع التهديد الذي يشكّله. وعندما زار أنطون سعادة دمشق ورحب به الديكتاتور العسكري الجديد، أصبح الخطر كبيراً على لبنان.

لم يكن يُعرف الكثير عن حسني الزعيم سوى أنه ذو شخصية تميّز بالقسوة والنشاط وسرعة الكلام. رآه الرئيس القوتلي ليصبح رئيساً للأركان بعد هزائم الجيش السوري في حرب فلسطين. وقد كان أداؤه معقولاً، بالنظر إلى عدم كفاية الموارد المتاحة له، عدّة وعديداً. وهو من الأقلية الكردية، تتحدّ بداية في القوات الخاصة الفرنسية مثل كثير من الرجال من مختلف الأقليات في سوريا. وربما رأى الفرنسيون في انقلابه فرصة لاستعادة شيء من نفوذهم الذي فقدوه في سوريا وإلحاق الهزيمة بالرئيس القوتلي، الذي حاربهم وحارب نفوذهم مدة طويلة. وكان من اللافت أن يقوم السفير الفرنسي بزيارة هذا الرجل القويّ يومياً.

لكن سرعان ما تبين أن للزعيم ماضياً متقلباً. فعلى غرار كثير من العسكريين في القوات الخاصة خلال الحرب العالمية الثانية، اضطر إلى التأقلم بسرعة مع التغيرات السريعة والمفاجئة في السلطة السياسية الفرنسية - من انتداب ما قبل الحرب، إلى

فيشي، إلى الجنرال ديغول - وتبديل الولاءات بسلاسة. في سنة 1941، أصدرت له سلطات فيشي تعليمات بتشكيل مجموعة من المقاتلين غير النظاميين لمضايقة جيش الحلفاء الذي كان دخوله إلى سوريا متوقّعا في أي لحظة. أُعطي مبلغاً كبيراً من المال وفتحت له السجون ليختار المجرمين المعروفين لضمهم إلى مجموعته. ولكن بدلاً من مقاتلة الحلفاء، احتفظ الزعيم بالمال ومارس "البلطجة". استخدم مجموعة المجرمين لابتزاز الأموال من أصحاب الأراضي والتجار في دمشق والمناطق المجاورة. بل إنه أعدّ عملية إعدام وهمية لأحد ملاك الأراضي، عمر القوادري، لإجباره على الدفع. لكن عندما هزم البريطانيون والفرنسيون الأحرار قوات فيشي وتسلموا السلطة، ألقي القبض على الزعيم وحوكم وصدر بحقه حكم بالسجن عشر سنوات.

ألح على الفرنسيين الأحرار في التماس العفو، فأطلق سراحه من السجن ووضعه تحت الإقامة الجبرية في لبنان. وقد سُمح له بالعودة إلى سوريا في نهاية المطاف. فتظاهر أنه ضحية لتغيّر رياح الحرب، وتمكّن من إقناع السلطة بمراجعة الحكم الصادر بحقه. لم يكن جميع الفرنسيين سعداء بهذه التغيرات. ففي سنة 1944، كتب العقيد أوليفا - روجيه Oliva-Roget، ممثل الجنرال بينيه في دمشق، إلى السلطات القضائية في الجيش الفرنسي في المشرق لَحْثها على عدم العفو عن الزعيم أو السماح بعودته إلى القوات الخاصة. وحذّر أوليفا - روجيه من أن أي خطوة كهذه ستظهر الفرنسيين بمظهر الضعف والعجز، وستعرّض الضباط الذين شهدوا ضدّ الزعيم لخطر انتقامه⁽¹⁾. لكن لم يكثرث أحد بهذه التحذيرات، واستعاد الزعيم رتبته، وسرعان ما تمكّن من استعراض قوته بتدبير انقلابه العسكري في آذار/مارس 1949.

سقوط النظام القديم

كان الزعيم وزملاؤه الضباط يعتقدون أن لديهم شكاوى محقة على الحكومة السورية، حيث أهملت تجهيز الجيش، وأثبتت عدم استعدادها لمواجهة التحدي

MEA-Nantes, Fonds Beyrouth, série B, carton 5, le Colonel Oliva-Roget, (1) représentant en Syrie le Général d'Armée, Délégué Général et Plénipotentiaire de la France au Levant, à Monsieur le Commissaire du Gouvernement auprès du 2e Tribunal Militaire du Q. G. des Troupes du Levant, Damas, le 31 août 1944

الصهيوني. لا شك في أن الكتلة الوطنية السورية التي تميّز بالجرأة وحسن النية، والتي خاضت معركة دامية في فترة ما بين الحربين للاستقلال عن الفرنسيين، فيما كان أمثال الزعيم يعملون على خدمة الفرنسيين ويقبضون الرواتب منهم، لم تكن في أفضل أحوالها لتحمل عبء الحكومة. فقد واجهت ظروفاً صعبة بين آب/أغسطس 1943 وسنة 1947، ورفض الفرنسيون التخلي عن السلطة قبل توقيع معاهدة مع الحكومة السورية لتأمين مصالحهم الاقتصادية والاستراتيجية والثقافية. ولم ينتهِ هذا التجاذب إلا بعد استعراض دموي للقوة.

وعانت الكتلة الوطنية من ضربة أخرى في 20 حزيران/يونيو 1947 بوفاة سعد الله الجابري، عم زوجة رياض الصلح، فائزة. كان الجابري زعيماً شجاعاً في الكتلة، وأحد الرجال القليلين الذين لم تتأثر سلطتهم أو سمعتهم بمتغيرات السنوات السابقة. أضعفت وفاة الجابري الكتلة، لكنها قوّت موقف الرئيس القوتلي، لأن الجابري كان يعارض بشدة رغبة القوتلي في تعديل الدستور للسماح بإعادة انتخابه لولاية رئاسية ثانية تمتد خمس سنوات - وهو طموح يشبه إلى حد كبير طموح بشاره الخوري في لبنان. أجريت الانتخابات في سوريا في تموز/يوليو 1947، تقدّمت على إثرها الحكومة بمشروع قانون لتعديل الدستور، ما أدى إلى إعادة انتخاب القوتلي في نيسان/أبريل 1948. رأى كثيرون أن التمديد منع قيام حركة إصلاحية سياسية واجتماعية في البلاد عندما كان الأمر ممكناً بالطرق السلمية. وربما ساهم التمديد في إسقاط النظام البرلماني في سوريا بعد ذلك بسنة.

في غضون ذلك، انقسمت الكتلة الوطنية إلى قسمين: الحزب الوطني ومركزه دمشق، حيث يوجد مؤيدو القوتلي وجميل مردم وفارس الخوري ولطفي الحفار وصبري العسلي؛ وحزب الشعب ومركزه حلب، بقيادة رجال مثل رشدي الكيخيا وناظم القدسي ومصطفى برمدا. وكان حزب الشعب يمثل المصالح التجارية في شمال سوريا، ذات الروابط التقليدية مع العراق. غير أنه حصل أيضاً على تأييد عائلة الأتاسي النافذة التي تمتلك أراضي واسعة في حمص، وتعارض احتكار السلطة من قبل السياسيين في دمشق.

حكم شكري القوتلي، الذي بالغ في الثقة بمساعديه - ومن المدهش أن حسني الزعيم هذا حذوه - بلداً تتآكل أسسه بتضخم الأسعار، وفشل المحاصيل بسبب

الجفاف، وتعالى فيه أصوات الاحتجاج من نقابات العمال الناشئة. وسرعان ما أثرت صدمة فلسطين على السياسيين المخضرمين المنهكين، الذين استنفدت طاقتهم في صراع دام عقوداً مع الفرنسيين؛ ومؤسسات الدولة التي تفتقر إلى الخبرة؛ والجيش الفتي الذي يفتقر إلى التدريب والتجهيز. وعلى هذه الخلفية، جاء انقلاب حسني الزعيم في آذار/مارس 1949⁽¹⁾.

لم يكن تمرد الزعيم ظاهرة معزولة، بل عارضاً من أعراض الاضطراب العام الذي أصاب المنطقة في أعقاب الهزيمة العربية. وقد توالى الاهتزازات الارتدادية بسرعة وكثافة في السنوات اللاحقة. في مصر، قتل عضو من الإخوان المسلمين رئيس الوزراء النقراشي باشا في كانون الأول/ديسمبر 1948. وشنت حرب فدائية على الحاميات البريطانية في منطقة قناة السويس. وكشفت خيانة الملك عبد الله للقضية العربية، وخسر كل أمل في تحقيق مشروع سوريا الكبرى. واغتيل في سنة 1951. وفي القاهرة، انفجر الغضب الوطني العارم في كانون الثاني/يناير 1952، وتحول إلى أعمال قتل وتدمير عُرفت باسم "السبت الأسود" - بعد أن حاصر البريطانيون مركزاً للشرطة المصرية في الإسماعيلية وقصفوه، ما أسفر عن مقتل 41 شرطياً وجرح نحو 72 آخرين. كانت الأهداف التي هاجمتها الحشود - من بينها فندق شيرد، وبنك باركليز، ونادي سباق الخيل البريطاني - ترمز إلى التحالف الكريه بين الأجانب والباشوات المصريين.

وفي صيف 1952، استولى "الضباط الأحرار" بقيادة جمال عبد الناصر على السلطة وخلعوا الملك فاروق عن العرش، بسبب غضبهم من تقصير حكومتهم في الاستعداد للحرب في فلسطين. وفي سنة 1954، توصلوا إلى اتفاق مع بريطانيا على سحب قواتها العسكرية من مصر. لكن في سنة 1956، غزت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل مصر، في محاولة لكسر حكومة عبد الناصر المستقلة والرد على تأميم شركة قناة السويس، لكن الولايات المتحدة أجبرتهم على الانسحاب بشكل مخز. أُجبر أنتوني إيدن، رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت، على الاستقالة، وتلقى النفوذ البريطاني في المنطقة ضربة لم يتعاف منها قط. تمكن النظام الهاشمي من البقاء في العراق حتى سنة

(1) لرواية مفصلة عن الأحداث، انظر كتاب باتريك سيل، "الصراع على سوريا"، الطبعة الثانية 1986،

1958، عندما أطيح بالحكم الملكي، وقتلت العائلة المالكة، وأعدمت الجماهير نوري السعيد صديق البريطانيين الوفي.

حسني الزعيم وأنطون سعادة

يبدو أن انقلاب حسني الزعيم في دمشق في آذار/مارس 1949 قد حفز أنطون سعادة على التفكير في الاستيلاء على السلطة في لبنان، ربما كخطوة أولى نحو الاتحاد مع سوريا. وكان العديد من السياسيين المعارضين في لبنان يسعون تقليدياً إلى الحصول على دعم دمشق ضد حكومتهم، فسلك سعادة الآن الطريق الخاطئ نفسه. استقبله الديكتاتور السوري، وبحث معه خطط الانقلاب في لبنان. وقد أمل كل منهما في الاستفادة من الآخر: رأى الزعيم في سعادة وسيلة لإسقاط رياض الصلح، حليف القوتلي، والرجل الذي يشكّ الزعيم، المصاب برهاب الارتياب، في أنه يكنّ له الاحترار ويتمنى سقوطه. وكعربون على الصداقة، قدّم الزعيم مسدساً فظياً إلى سعادة. وربما رأى سعادة، بدوره، أن الزعيم وسيلة مؤقتة يحقق عن طريقها طموحه، ويتخلى عنه لاحقاً عندما يحين الوقت للسيطرة على سوريا بأكملها.

تردّدت الحكومة اللبنانية مدة ثلاثة أسابيع - من 30 آذار/مارس إلى 23 نيسان/أبريل - قبل الاعتراف بحكومة الزعيم. فقد غضب بشارة الخوري ورياض الصلح من تجرؤ هذا الديكتاتور العسكري على سجن القوتلي. وها هو الآن يستقبل أعضاء في المعارضة اللبنانية، وييدي عداً واضحاً للدولة اللبنانية. في المقابل، انزعج الزعيم من معاملته بجفاء والنظر إليه باحتقار. في 4 نيسان/أبريل، اتهم رياض الصلح بتشجيع الصحافة اللبنانية على شنّ هجمات عليه، وفي 14 نيسان/أبريل، وجّه رسالة إلى الرئيس بشارة الخوري يتهم فيها رياض بالتآمر لقتله بالتعاون مع أحمد شرباتي، وزير الدفاع السوري السابق الذي لجأ إلى بيروت. ردّ الزعيم على هذه الاتهامات التي لا أساس لها، بمنع تصدير اللحوم السورية إلى لبنان، ما أدى إلى ارتفاع أسعارها في الأسواق اللبنانية، إلى جانب أسعار السمن والحليب والزيت والفاكهة والخضر. بدا كأن سوريا ولبنان يتجهان ثانية إلى مواجهة جديدة.

كان لانقلاب الزعيم تأثيرات تتجاوز لبنان. فقد أعاد سوريا إلى دائرة الصراع الإقليمي بين الهاشميين في الأردن والعراق، وخصومهم في مصر والسعودية. أراد الجميع أن يعرف الجانب الذي سيميل هذا العقيد الحديث العهد بالنعمة. بدأ الزعيم يتطلع إلى العراق للحصول على الدعم، بل إنه اقترح توقيع اتفاق عسكري فوري مع بغداد، اعتقاداً منه أن ذلك ربما يقوّي موقفه في مفاوضات الهدنة مع إسرائيل. لكن نوري السعيد - على غرار رياض الصلح - رأى أن الزعيم مغامر خطير، فتح الباب على الانقلابات العسكرية العنيفة في الشرق الأوسط. لذا لم يبدِ نوري السعيد ميلاً إلى المسارعة في عقد شراكة معه.

لا شك في أن الزعيم، الذي يتسم بحدة الطباع وعدم التوازن، استاء من ذلك كثيراً. فابتعد فجأة عن العراق وتوجه نحو مصر. واستسلم لمحاولات الملك فاروق، بعد قيامه بزيارة سرية له في 21 نيسان/أبريل في عزبته في أنشاص. كان فاروق مسرفاً وكرماً، بقدر ما كان نوري السعيد حذراً وحريصاً. فأعلن الزعيم باندفاع أنه يهوى كل ما هو مصري. وطمأن الملك فاروق بشأن نيّاته السلمية تجاه لبنان، ومعارضته المطلقة لجميع المشاريع الهاشمية. ثم جال الملك فاروق مع الزعيم على المزارع الملكية في أنشاص قبل أن ترافق طائرة حربية مصرية الزعيم في رحلة العودة إلى دمشق.

بدأ الزعيم رجلاً مختلفاً بعد هذا اللقاء الملكي، واطلعه على فخامة الدولة المصرية وعظمتها. فراجع عن الاتهامات التي وجهها إلى رياض الصلح، وسرعان ما استقبل عدداً من المبعوثين الرسميين اللبنانيين - وزير الخارجية حميد فرنجية، ورئيس القسم العربي في وزارة الخارجية محمد علي حمادة، ومدير الأمن العام الأمير فريد شهاب. وبعد مضي بضعة أيام على زيارته، اعترفت مصر والمملكة العربية السعودية ولبنان بنظامه. وفي 24 نيسان/أبريل، توجه رياض الصلح إلى دمشق، مجبراً على إخفاء انزعاجه، للاجتماع بالزعيم. لم يكن اللقاء ودياً، ولكن صحيحاً. نبّه رياض مضيفه من التورط في مكائد المعارضة اللبنانية، وشدد على ضرورة أن تحترم سوريا استقلال لبنان الإقليمي والسياسي. وحصل رياض على وعد بإطلاق سراح شكري القوتلي من سجنه في دمشق والسماح له بالمغادرة إلى المنفى في القاهرة مع أسرته. وفي أثناء الزيارة، هاجم الزعيم الملك عبد الله ونوري السعيد، وأدان مشروعيهما التوأمين:

"سوريا الكبرى" و"الهلال الخصيب". وسرعان ما قام الزعيم بإقفال الحدود السورية مع الأردن وحشد القوات عسكرية في مواجهة العراق.

عادت الآن حركة الاتصالات بين سوريا ولبنان. في 26 نيسان/أبريل، قدم إلى بيروت حسن جبارة، رئيس الوفد السوري إلى المجلس الأعلى للمصالح المشتركة، من أجل التفاوض. وأدى ذلك إلى عودة الحركة التجارية إلى طبيعتها. وافقت دمشق على تصدير 20,000 رأس من الماشية إلى لبنان، بالإضافة إلى العديد من منتجات الزراعة. لكن هذه العلاقات الدافئة تعرّضت لضربة قاسية في منتصف أيار/مايو، عندما قامت مجموعة سورية بعبور الحدود اللبنانية واغتيال مواطن لبناني من أصل سوري، كامل حسين اليوسف، في منزله قرب حاصبيا، بناء على ادعاءات أنه يرسل معلومات استخبارية إلى الإسرائيليين. كانت المجموعة تتكوّن من جنود في الجيش السوري بقيادة النقيب أكرم طيارة. تمكّن الدرك اللبناني من إلقاء القبض على المجموعة. فطالب السوريون على الفور بإعادة طيارة ورجاله. وعندما رفض لبنان تسليمهم، أقفلت سوريا الحدود. وتحوّل النزاع إلى اختبار شخصي للقوة بين حسني الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي من جهة، وبشارة الخوري ورياض الصلح من جهة أخرى.

حاولت مصر والمملكة العربية السعودية التوسّط. فاعترفتا بحق لبنان في محاكمة طيارة ورجاله، لكنهما طلبتا تسليمهم إلى سوريا للمحافظة على حسن العلاقات بين البلدين. يقول الأمير عادل أرسلان في مذكراته، وكان آنذاك عضواً في الحكومة السورية، أنّ كامل حسين اليوسف - الذي وصفه "بالجاسوس المقتول" - قدّم للزعيم رشوة قدرها 50,000 ليرة سورية من أموال الصهاينة، عندما كان قائداً للجبهة السورية في سنة 1948. لذا اضطر الزعيم إلى قتل اليوسف لدفن هذا السر⁽¹⁾. في أوائل

(1) الأمير عادل أرسلان، مذكرات، الجزء الثاني، بيروت 1983، ص 843-831، 877. يقتبس أرسلان بيان زعيم عشيرة في الجولان، الأمير فاعور فاعور. وللاطلاع على رواية بشارة الخوري عن الأزمة انظر مذكراته، حقائق لبنانية، الجزء الثالث، ص. 222-225. هذا المقطع مأخوذ من دراسة Beydoun, "Riad el-Solh et les Elections Legislative de 1943", p. 452, n. 176. وعن تأثير هذا الموضوع على العلاقات الاقتصادية بين سوريا ولبنان، انظر Youssef Chaytani, *Post-Colonial Syria and Lebanon*, pp. 134, 137-38.

حزيران/يونيو، أعيد طيارة ورجاله إلى سوريا ليحاكموا هناك، لكن سرعان ما أطلق سراحهم. وبعد تسليمهم عادت التجارة بين سوريا ولبنان إلى طبيعتها. لو كان الزعيم قد أخذ رشوة من الصهاينة خلال الحرب، وهو أمر محتمل جداً، فيجب ألا ينظر إلى الأمر بمثابة مثال على جشع الزعيم فحسب، بل دليلاً إضافياً على عمق تغلغل إسرائيل داخل جيرانها العرب. بعد مرور فترة قصيرة على تسلم الزعيم الحكم، عرض سراً على إسرائيل سلاماً تاماً، مع تبادل فوري للسفراء، وعلاقات اقتصادية طبيعية، وتوطين 300,000 لاجئ فلسطيني في سوريا. في المقابل، طلب الزعيم أن توافق إسرائيل على نقل الحدود السورية إلى منتصف بحيرة طبريا. ولكن بن غوريون رأى أن الأمر لا يستحق العناء. ولا شك في أنه وجد أن اتفاقيات الهدنة - التي لا تنطوي على تقدم أي تنازلات للعرب أو التخلي عن أي شبر من الأرض - تلبّي احتياجات إسرائيل الضرورية كالاقراراف بكيانها وأمنها أكثر من العرض غير العادي الذي قدّمه الزعيم⁽¹⁾.

الاشتباكات المشؤومة الأولى

في هذه الفترة بالذات، اتخذت خلافات سعادة مع لبنان منحى سيئاً. بدأ الأمر مصادفة، باشتباك بين الحزب القومي والكتائب اللبنانية في الجمّيزة في بيروت، حيث توجد مطبعة الحزب القومي. وكان العداء بين الطرفين قد تصاعد في الشهور الثلاثة السابقة، واحتدمت المشاعر لدى الطرفين. كانت الجمّيزة معقلاً للكتائب، لكن القوميين اختاروا أن يعقدوا فيها اجتماعاً في أوائل حزيران/يونيو، ألقى خلاله سعادة خطاباً هجومياً وجه فيه نقداً لاذعاً للكتائب.

بعد يوم أو اثنين، في ليلة 9-10 حزيران/يونيو، عقد الكتائبون بدورهم اجتماعاً في الجمّيزة، قرب المقهى الذي عقد فيه القوميون اجتماعهم، على مرمى حجر من المطبعة التي يطبع فيها الحزب مجلة الجليل الجديد. كان الكتائبون قد اتفوا اجتماعهم للتوّ، عندما خرج سعادة من المطبعة وانطلق بسيارته، فتعالت هتافات مؤيديه "يعيش

(1) للاطلاع على رواية كاملة عن تعاملات الزعيم مع إسرائيل، انظر Itamar Rabinovich, *The Road not Taken: Early Arab-Israeli Negotiations*, Oxford 1991.

الزعيم". ردّ الكتائبيون بمخافتات "يعيش لبنان" و"يعيش بيار الجميل". وكما نقلت صحافة بيروت في وقت لاحق، أطلق بعض القوميين النار على الكتائبين الذين ردّوا بالمثل. أصيب سبعة من القوميين في الاشتباك المسلح الذي تلا، واحتمى الآخرون في المطبعة. هُوجمت المطبعة بعد ذلك وأضرمت فيها النار. وعندما وصلت الشرطة، كان بالإمكان رؤية ألسنة النار تتصاعد من المبنى. في غضون ذلك، تمكّن الكتائبون من أسر ثمانية عشر عنصراً من القوميين، فقاموا بتسليمهم للشرطة⁽¹⁾.

بدأ التحقيق في الحادث عند الساعة الحادية عشرة من الليلة نفسها، واستمر في اليوم التالي. ترأس التحقيق مدّعي عام الاستئناف شخصياً، يساعده المدير العام لوزارة الداخلية، ومدير الأمن العام وقائد الدرك. وخلال أربع وعشرين ساعة، تم توقيف 150 عنصراً من القوميين في بيروت والمناطق المجاورة، وأوقف 100 آخرون في اليوم التالي. كذلك، وأوقف 50 عنصراً من الكتائبين⁽²⁾. عثرت الشرطة في المطبعة على متفجرات وأسلحة من بينها رشاشان، وعُثر على أسلحة وقنابل يدوية في منازل القوميين في بيروت وضواحيها. وقالت الشرطة إنهما عثرت على مستندات تدلّ على أن الحزب لا يتأمر على الكتائب فحسب، بل على الدولة أيضاً. اعتُبر الحزب خارجاً على القانون، لكن سعادة تمكّن من الهرب. اشتبه في أنه مخبئ في منزل أحد أعضاء الحزب في منطقة بيروت⁽³⁾.

الهجوم على الدولة

تصاعدت الأزمة بعد ذلك، وأصبحت أخطر بكثير من مجرد تبادل لإطلاق النار بين حركتين شبه عسكريتين متنافستين. شنّ القوميون سلسلة من الهجمات المسلحة في وقت واحد، فاعتُبر ذلك محاولة لإسقاط الحكومة. اهتمّ سعادة كثيراً بما سُمّاه "الشؤون العسكرية"، منذ بداية حركته. وشكّلت فرقه التي ترتدي زيّاً رسمياً - وتخبّ المسيرات، وإلقاء التحية، والاستعراض مرتدية زيها - العمود الفقري لحزبه. كانت

(1) *Le Jour*, Beirut, 11 June 1949

(2) Beirut to Foreign Office, 11 June 1949 (FO 371/75320)

(3) Beirut to Foreign Office, 11 and 22 June 1949 (FO 371/75320). Légation de France, Beyrouth, le 13 juin 1947

الأداة التي يجتذب بها الشباب الغاضب، ويُرهّب بها خصومه. عرض حسني الزعيم في دمشق على سعادة السلاح والرجال على الفور إذا تعهّد بإسقاط حكومة رياض الصلح، فظهر على حقيقته كمغامر عسكري ومعاد للديمقراطية. قبل سعادة السلاح - الذي أخذه الزعيم بلا استحياء من مخازن الدرك السورية - لكنه رفض الرجال، رغبة منه في عدم منح الزعيم فرصة ليفرض عليه شروطه في لبنان. لكن تبين أن الهجوم الذي سارع إلى شتّه على الدولة اللبنانية يتسم بالحماقة الشديدة، ويظهر عدم كفاءة سعادة في إدارة العمليات العسكرية.

بدأت العملية بسلسلة من الهجمات غير المنسقة على مراكز الدرك اللبناني قرب الحدود السورية وفي الجبال قرب بيروت. في ليلة 2-3 تموز/يوليو، تجمع فصيل من أعضاء الحزب القومي في المتن. كانوا يعتزمون مهاجمة مركز الدرك المحلي. وفي وقت لاحق من تلك الليلة، أرسلت مجموعة أخرى لمهاجمة مركز الدرك في حارة حريك. لم تكن هذه الهجمات فتاة، لكنها نبّهت قائد الدرك إلى أن ما يجري أكبر من مجرد أعمال اللصوصية الشائعة في تلك المناطق. فوضعت جميع مراكز الدرك والشرطة في حالة تأهب. لذا لم تفاجأ عندما هاجم سعادة ثانية بأعداد أكبر في ليلة 4-5 تموز/يوليو.

تجمّع تلك الليلة أكثر من مئة حزبي في دمشق ونقلوا بالحافلات إلى منطقة تبعد نحو عشرة كيلومترات عن الحدود اللبنانية، حيث كان سعادة ومساعداه العسكري، عساف كرم، بانتظارهم. ألقى فيهم سعادة خطاباً حماسياً، ووزّع عليهم الأسلحة والذخيرة. توجهت مجموعة إلى راشيا، وأخرى إلى مشغرة.

قبل منتصف الليل، أوقفت دورية للدرك المجموعة الأولى التي تلوّح بالبنادق والرشاشات. اندلع اشتباك دام نحو ساعة، قبل أن يتمكن القوميون من التراجع إلى سوريا، مخلفين آثاراً من الدماء. اعتقل مساعد سائق إحدى الحافلات، وهو سوري يدعى عبد السلام معكوك. يبدو أن هذه المجموعة كانت تعتزم السيطرة على قلعة راشيا، بقيادة الأمير زيد حسن الأطرش، وهو أحد أعضاء الحزب الدروز. وكانت تتكوّن أساساً من دروز سوريين وفلسطينيين.

تمكنت المجموعة الثانية، التي ضمت نحو ستين رجلاً، من الوصول إلى مشغرة من دون أن يلحظها أحد. توزّع عساف كرم ورجاله في المغاور القريبة وفي طاحونة

مهجورة، حيث استراحوا قليلاً قبل محاصرة مركز الدرك ومهاجمته عند منتصف الليل. جرح عنصران من الدرك بالرصاص، أسرعوا وحدة من الجيش اللبناني إلى مساعدة المركز، فهزمت المهاجمين وطاردتهم حتى بلدة مجاورة، حيث قُتل عساف كرم في اشتباك مسلح عنيف، واستسلم جميع مرافقيه.

فجر 5 تموز/يوليو، علم الدرك أن سيارة مشبوهة شوهدت على جسر فوق نهر الليطاني. أُقفلت الطريق المؤدية إلى الجسر على الفور وأوقفت المركبة وفُتشت. وجد في داخلها ثلاثة سوريين ولبنانيين، بحوزتهم 5000 منشور لأنطون سعادة يعلن فيها الحرب على الحكومة اللبنانية من "مقرّ قيادة أول ثورة قومية اجتماعية"⁽¹⁾. في وقت لاحق من ذلك اليوم، استسلم اثنان من الذين هاجموا مركز المتين وقدّما الاعترافات التي تدين عناصر أخرى في الحزب.

علم النقيب توفيق شمعون، قائد الدرك في منطقة عاليه، بعد أن تنبّه تماماً إلى الخطر الذي شكّله الحزب القومي، أن أعداداً كبيرة من المسلّحين تعسكر في غابة سرحمول. عندما اقترب من المكان، وجد أن عددهم أكبر مما توقّع. عاد إلى مقرّ قيادته وطلب إرسال تعزيزات. وصلت وحدة عسكرية إلى المكان واستعدّت للاشتباك. تقدّم النقيب شمعون معها، لكن عندما توقف لاستطلاع المسلّحين بمنظاره، أصيب برصاصة في رأسه ومات على الفور.

حوصرت مجموعة القوميين في نهاية الأمر، واستسلمت للجيش. أثارت وفاة النقيب الشجاع الشاب مشاعر كبيرة في البلد، وبخاصة لدى الطائفة المارونية التي ينتمي إليها، وإن لم يقتصر ذلك عليها. بحلول 7 تموز/يوليو كان قد قبض على نحو 900 عضو حزب أنطون سعادة ومتعاطف معه. لم تتسع السجون لكل هؤلاء، فحوّلت ثكنة للجيش في ضواحي بيروت إلى مركز احتجاز. أعلن غبريال المر، نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، في تصريح للصحافة أن الحزب حاول الاستيلاء على السلطة عن طريق انقلاب عسكري، لتنفيذ مشروعه "سوريا الكبرى" الذي يدعو إليه⁽²⁾.

(1) Le Jour, Beirut, 6 July 1949

(2) Le Jour, 7 July 1949

في غضون ذلك، انشغلت الخطوط الهاتفية بين بيروت ودمشق - بين قيادي الدرك والجيش على جانبي الحدود، والأهم من ذلك، بين رئيس الوزراء اللبناني والرئاسة السورية. لم يعرف أحد ما قاله رياض الصلح الحسني الزعيم، لكن ربما حدّده. وفقاً لحنا غصن صاحب الديار - وهي جريدة تعكس آراء الحكومة في الغالب - قال رياض الصلح للزعيم إن لبنان سيهاجم سوريا بمساعدة عسكرية عراقية وتركية، ما لم يسحب الزعيم دعمه للحزب السوري القومي⁽¹⁾. وقال آخرون إن رياض "اشتري" سعادة من الزعيم مقابل مبلغ كبير من المال. ويعتقد أن رئيس وزراء الزعيم، محسن البرازي - وكان معروفاً بأنه يكره سعادة - قد ساهم في إقناع العقيد بتسليم سعادة إلى السلطات اللبنانية. وتلقّى الزعيم اتصالات من القاهرة والرياض تحثّه على التعاون مع السلطات اللبنانية. وفي وقت لاحق، أبلغ رياض الصلح السفير البريطاني في بيروت، هوستن-بوزوال، أن الزعيم مؤلّ الحزب القومي وزوده بالسلاح. لكن عندما أدرك أن تصرفه قد يدفع الحكومة اللبنانية إلى أحضان الهاشميين، تخلى عن الحزب بسرعة، وسلّم زعيمه على الرغم من إدراكه أن سعادة سيعدم⁽²⁾.

بعد ساعات من الاتصالات المكثفة بين بيروت ودمشق، بدأت السلطات السورية بإلقاء القبض على أعضاء الحزب القومي في سوريا. وتمكّنت من القبض على الأمير حسن الأطرش، الذي قاد الهجوم الفاشل على راشيا، ووعدت اللبنانيين بتسليمه للمحاكمة. قُبض على زوجة سعادة، جوليت المير وبناتها الثلاث - لا يزيد عمر أصغرهن عن بضعة شهور - في منزل عضو في الحزب قرب اللاذقية. توجه عدد من ضباط الشرطة اللبنانيين إلى دمشق، حيث ساعدوا في القبض على نحو 30 سورياً ولبنانياً من أعضاء الحزب في اللاذقية وطرطوس وصافيتا وبانياس وجبله. واقتيد هؤلاء إلى بيروت، وأودعوا في السجون.

(1) بيان أدلى به حنا غصن في حفل خاص في بيت مري في 9 تموز/يوليو 1949. أقام الحفل نقيب الصحافة اللبنانية ألكسندر رياشي بمناسبة ميلاد ابنته. كان بين الضيوف حسني البرازي وكميل شمعون وألفرد ثابت وسعدي المنلا وعدد من الصحفيين.

(2) British Commonwealth Relations Office. Outward Telegram, 25 July 1949 (FO 371/75320).

في غضون ذلك في دمشق، دعا حسني الزعيم سعادة إلى القصر الرئاسي، وبعدها استقبل بلباقة، اعتُقل ثم نُقل تحت الحراسة إلى الحدود اللبنانية في ليل 6-7 تموز/يوليو. وهناك سَلِمَ إلى الأمير فريد شهاب، المدير العام للأمن العام - "شرط" أن يُقتل في أثناء رحلته إلى بيروت. كانت شروط الزعيم تقضي أن يُقتل سعادة عند "محاولة الهرب"⁽¹⁾، لحماية العقيد، من دون شك، من تهمة الخيانة، وإخفاء تفاصيل أسرار تعاملاته معه.

يروي الرئيس بشار الخوري في مذكراته أنه استيقظ في تلك الليلة للردّ على مكالمات هاتفية عند الساعة الثانية والنصف صباحاً. كان المتصل رياض الصلح الذي أبلغه أن السلطات اللبنانية تسلّمت أنطون سعادة من سوريا وأوقفته. فوجئ الرئيس لأنه اعتقد أن الزعيم سيستخدم سعادة لشن هجوم على لبنان ولن يتخلّى عنه بهذه السهولة. ارتدى بشار الخوري ملابسه بسرعة وذهب لاصطحاب رياض الصلح في طريقه إلى مكتبه. عندئذ أطلع رياض الصلح على أن الأمير فريد شهاب اتصل لنقل شروط الزعيم، أي قتل سعادة على الطريق. وأبلغ رياض الرئيس أنه أمر شهاب بتجاهل تلك الشروط، وجلب قائد الحزب القومي إلى بيروت، واحتجازه في ثكنة عسكرية.

بحث الرئيسان بعد ذلك ما يجب عمله. استدعى قائد الجيش الأمير فؤاد شهاب للاستماع إلى رأيه. كان بشار الخوري يخشى من قيام الزعيم برد فعل عنيف عندما يعرف أن سعادة لم يُقتل كما اشترط. لذا اتصل الشيخ بشار عند الخامسة صباحاً بالقصر الرئاسي في دمشق لإيضاح الأمر، لكن لم يجب أحد. أخيراً، أجاب حسني الزعيم بنفسه عند السادسة صباحاً. شكره بشار الخوري على الدعم الذي قدّمه للبنان ثم أخبره أن سعادة سيحاكم بعد وقت قصير أمام محكمة عسكرية بتهمة الخيانة وفقاً لقانون البلاد. أجاب الزعيم فجأة، "هذا جيّد". وأنهى الحديث، ما أثار دهشة المسؤولين اللبنانيين وأراحهم⁽²⁾.

بعد مرور فترة قصيرة في ذلك الصباح، اجتمعت الحكومة اللبنانية في جلسة استثنائية وقررت، مخطئة من دون شك، محاكمة سعادة بموجب حالة الطوارئ التي

(1) Beirut to Foreign Office, 7 July 1949 (FO 371/75320)

(2) بشار الخوري، حقائق لبنانية، الجزء الثاني، ص 240-41.

أعلنت في 14 أيار/مايو 1948، عند بداية حرب فلسطين. صدرت أوامر بالتعتيم التام على الموضوع. وجّهت الاتهامات إلى سعادة على عجل، وعقدت المحكمة العسكرية جلساتها عند الساعة الواحدة بعد الظهر. ترأس المحكمة الرائد أنور كرم، يعاونه النقيب سمراي، والملازم الأحذب، والقاضي غابريال باسيلا، بالإضافة إلى المدعي العام يوسف شربل ونائبه ميشال تلحمة. طلب إميل لحود، محامي الدفاع عن سعادة، تأجيل الجلسة 48 ساعة لدراسة القضية، لكن رفض طلبه. لذا تنحى عن الدفاع، وحلّ محله الملازم إلياس رزق الله.

عقدت المحاكمة وراء أبواب مغلقة ولم يحضرها سوى وزير الدفاع وعدد من كبار الضباط. وأقفل الشارع خارج قاعة المحكمة - شارع فؤاد الأول. لم يُسمح بدخول الصحافة سوى لفترة قصيرة خلال توقف المرافعات عند الساعة الخامسة بعد الظهر. جلس سعادة في قفص الاتهام مهدوء، لكن بدا عليه الإرهاق والاكتئاب.

قرئت لائحة الاتهام بعد ذلك، اتهم أنطون خليل سعادة بمحاولة الاستيلاء على السلطة، وقلب النظام بالقوة المسلحة، ومهاجمة مراكز الدرك، بالإضافة إلى مراكز الجيش والضباط وعسكريين من رتب أخرى، وقتل النقيب توفيق شمعون، ومحاولة قتل عناصر أخرى من قوى الأمن. ثم تكلم سعادة مدة ساعتين دفاعاً عن نفسه شارحاً فلسفة حركته السياسية بإسهاب إلى حدّ ما. وذكر المضايقات التي تعرّض لها أعضاء حزبه منذ حادثة الجميزة، فلم يكن أمامهم من خيار سوى الردّ. أنكر أي صلة له بالمشورات التي تدعو إلى الثورة. بعد ذلك، استدعي سبعة شهود سوريين وفلسطينيين ولبنانيين. فأكدوا جميعاً أن سعادة وزّع السلاح على أعضاء الحزب ودعاهم إلى الثورة على الحكومة. وطالب المدعي العام بإنزال عقوبة الإعدام.

عند الساعة الثامنة مساءً في 7 تموز/يوليو، أصدرت المحكمة العسكرية حكم الإعدام على سعادة بموجب المادة 79 من قانون القضاء العسكري. أرسل الملف إلى لجنة العفو التي أكدت الحكم. بعد سماع دفاع المدان، وقبل اتخاذ قرار بشأن مصير سعادة، دعا الرئيس بشارة الخوري إلى اجتماع حضره رياض الصلح والأمير فريد شهاب، بالإضافة إلى حبيب أبي شهلا وغبريال المر، وهما مسؤولان بارزان من الطائفة الأرثوذكسية نفسها التي ينتمي إليها سعادة. وفقاً لملاحظة دوتما الأمير فريد شهاب،

قال رياض الصلح إنه لا يحب الإعدام. ولاذ الرئيس الخوري بالصمت، لكن أبي شهلا والمر أيدا إعدامه. لا شك في أنهما اعتبرا أن سعادة يشكّل خطراً على موقعهما المسيطر في طائفتهم. ظلّ هذا الجانب من ظروف إعدام سعادة مجهولاً لمدة تزيد على نصف قرن، ولم يكشف عنه إلا بعد نشر أوراق الأمير فريد شهاب في سنة 2006⁽¹⁾.

وقّع بشارة الخوري على مرسوم تنفيذ الحكم. عند الساعة الثالثة من صباح 8 تموز/يوليو، انفراد رجل دين أرثوذكسي بضع دقائق مع سعادة، الذي طلب فنجان قهوة وسيجارة بينما كان يكتب وصيته وشهادته. وعند الثالثة والنصف صباحاً، اقتاده الجنود إلى مكان تنفيذ الإعدام داخل الثكنة. كانت عيناه معصوبتين ويدها مربوطتين خلف ظهره. ووفقاً لتعليمات الجيش، جعلوه يركع على الأرض ورُبط إلى وتد. وعند الساعة الثالثة وأربعين دقيقة صباحاً، أصدر ضابط الأمر بإطلاق النار. وهكذا لم تمض أربع وعشرون ساعة بين اعتقال سعادة وإعدامه⁽²⁾.

اتصل جاك بار Jacques Barre، مراسل وكالة الصحافة الفرنسية في بيروت، بباريس ناقلاً خبر إعدام سعادة في 8 تموز/يوليو. كتب بار: "عرف سعادة بين أتباعه بالزعيم، وهو شخص غير عادي أراد أن يصنع لنفسه مكاناً بين الدكاتوريين العظماء". في 9 تموز/يوليو، أعلنت الإذاعة اللبنانية عن مكافأة بقيمة 10,000 ليرة لبنانية (وهي ثروة في ذلك الوقت) لمن يقدم معلومات تؤدي إلى القبض على جورج عبد المسيح، أحد أوائل أتباع سعادة وأكثرهم إخلاصاً، وخليفته في قيادة الحزب. وهو قائد المجموعة التي قتلت النقيب توفيق شمعون في غابة سرحول. وكانت الشرطة تبحث عن أسد الأشقر وعدد من عناصر الحزب.

في 9 تموز/يوليو، نشر غسان تويني، رئيس تحرير جريدة النهار، مقالاً مفاجئاً بعنوان "سعادة، المجرم الشهيد"، تسبب بدخوله السجن ثلاثة أشهر. وكان تويني عضواً سابقاً في الحزب القومي، ولا يزال يحتفظ ببعض التعاطف نحوه. أدان تويني في مقاله إعدام سعادة الفائق السرعة:

(1) أحمد أصفهان، (محرر)، أنطون سعادة والحزب السوري الاجتماعي في أوراق الأمير فريد شهاب، بيروت، 2006.

(2) Beirut to Foreign Office, 8 July 1949 (FO 371/75320)

وَفَقَّ المسؤولون في اعتقال أنطون سعادة، والتحقيق مع أنطون سعادة، ومحاكمة أنطون سعادة، والحكم على أنطون سعادة بالموت، والتصديق على الحكم، ثم إعدام أنطون سعادة، بسرعة ذهول لها الناس، وصرعوا. فعجزت العقول عن استيعاب الحدث، وعجزت عن أدراك مغزاه، وكأنها رزحت تحت عبء النبأ، بل تحت عبء الفاجعة، لا تعرف كيف تبدي رأياً. حتى الإنسان الذي يكره سعادة ومبادئه ما كان يقول قولاً غير ذلك القول: يا للهول... وهو يكاد لا يعرف ماذا يقول!

وكان الناس لا يعرفون ما إذا كان أنطون سعادة قد أعدم أم قتل، وإذا كان الذي جرى محاكمة أم مؤامرة! لقد حوكم أنطون سعادة بتهمة إثارة الفتنة والشغب والاعتداء على القوات العامة، والقيام بأعمال التخريب والقتل، وهي تهمة يصح أن توجه إلى رئيس عصاة... ولكن أنطون سعادة لم يثر فتنة لمجرد الفتنة، ولم يقم بأعمال شغب لمجرد المشاغبة، بل إنه لم يثر ويعتد ويقتل لمجرد الثورة والاعتداء والقتل. إن أنطون سعادة رجل عقيدة وصاحب رسالة، إنه زعيم حزب سياسي منظم. ولكن المحكمة أغفلت ذلك كله.

ولئن تكن الحكومة قد شاءت التخلص من الرجل بأسرع وقت، خوفاً من أن يقلب عليها الأرض، ويطبق عليها السماء، قبل أن تتمكن من قتله، فإننا نقول لها إنها قد بنت بأيديها مارداً جباراً يفوق أنطون سعادة قوة وجبروتاً. إنها جعلت أنطون سعادة شهيداً لا في نظر أعضاء حزبه فحسب، بل في نظر الكثيرين ممن كانوا لا يتمنون له غير تلك النهاية⁽¹⁾.

حوكم 68 عنصراً من الحزب القومي في 16 تموز/يوليو 1949 في المحكمة العسكرية اللبنانية. اتُهموا بالمشاركة في المحجمات على مراكز الدرك في حارة حريك والمتين وسرحمول ومشغرة. حكم على 12 منهم بالإعدام، وعلى 53 بالسجن مع الأشغال الشاقة ما بين ثلاث سنوات والسجن المؤبد. نفذ حكم الإعدام في ستة من

(1) MAE Fonds Beyrouth (Amb.), serie B, carton 48، ترجم من العربية من قبل قسم المعلومات في المفوضية الفرنسية في بيروت في الحادي عشر من تموز/يوليو 1949.

الاثني عشر المحكوم عليهم بالإعدام في 21 تموز⁽¹⁾، أما الستة الآخرون فخُفّف حكمهم إلى السجن المؤبد. كان 800 من أعضاء الحزب في الحجز بانتظار المحاكمة. أما جورج عبد المسيح الذي اعتُبر أحد أخطر معاوين سعادة فبقي طليقاً⁽²⁾.

في 17 تموز/يوليو، أي بعد يوم من المحاكمة، حظي رياض الصلح باستقبال حافل في دمشق من قبل حسني الزعيم، الذي رقى نفسه إلى رتبة مشير. قبل أسبوع من زيارة رياض الصلح، أي في 8 تموز/يوليو، وقّع لبنان وسوريا اتفاقية مالية وتجارية، وسوّي الخلاف الطويل بين البلدين. عندما عاد رياض الصلح إلى بيروت، أُطلع بشارة الخوري على أنّه اضطر لكبح دموعه وهو يدخل القصر الرئاسي الذي تردّى وأصبح غريباً، بعدما طُرد منه صديقه الوطني شكري القوتلي قبل فترة قصيرة⁽³⁾.

في الوقت نفسه، ألقت الحكومة القبض على أعضاء في الكتائب اللبنانية. اعتُقل ثلاثة عشر عضواً من بين أكثر من 20,000. وحُلّت الحركة، وأُغلقت مكاتبها، وصودرت أسلحتها. وحُلّت حركة النجادة شبه العسكرية الإسلامية أيضاً. في أعقاب هذه التدابير، قرّرت الكتائب والنجادة التحوّل إلى حزبين سياسيين.

نتائج قضية سعادة

لماذا قرر رياض الصلح وبشارة الخوري التخلص من أنطون سعادة بهذه السرعة؟ الجواب الواضح هو اعتقادهما أنه يشكل خطراً حقيقياً على لبنان، لا سيما في ضوء تحالفه مع حسني الزعيم الذي لا يوثق به. بعد الهزيمة في فلسطين، لاحت أجواء الثورة العنيفة، وفتح لها الزعيم الطريق. لقد رفع سعادة السلاح في وجه الدولة، وقاد تمرداً مسلحاً. هاجم مراكز الدرك، وسقط عدد من القتلى والجرحى. كان الرئيس اللبناني ورئيس الوزراء على قناعة أن حسني الزعيم اتفق مع سعادة على التخلص منهما، وهو أمر حدث فعلاً. زوّد الزعيم سعادة بأسلحة رشاشة جديدة وصلت من فرنسا مؤخراً.

(1) عباس عبد السرؤوف حماد، سني فلسطيني؛ محمد إبراهيم شلبي، سني فلسطيني؛ محمد أحمد

الزغبى، سني سوري؛ عبد الحفيظ علمي، لبناني شيعي؛ معروف محمد موفق، لبناني درزي؛ أديب

سمعان جدع، روم كاثوليك فلسطيني.

(2) *The Times*, London, 18 July 1949

(3) بشارة الخوري، مرجع سابق، ص 218.

اعتقد أن سعادة خطط لاحتلال سهل البقاع وحاصبيا وراشيا وجنوب لبنان، وأخيراً محاصرة العاصمة، وبالتالي ضمّ لبنان إلى سوريا تحقيقاً لمبدئه الجيوسياسي. لم يكن سعادة يقبل النقاش. فهو منظر إيديولوجي لا يؤمن بأي تسوية. لقد ارتكب خطأ مزدوجاً بمهاجمة الوطنية اللبنانية والقومية العربية في آن معاً، فوحد كثيراً من الآراء المتحمّسة ضده. وساد اعتقاد في بيروت أنه ديماغوجي وثورّي خطير يجب التخلص منه. وخشي بشارة الخوري ورياض الصلح من احتمال انتشار الأفكار الثورية إلى القوى الأمنية في لبنان. لذا أرادوا أن يُخمدوا - وبسرعة - أي إغراء قد يكون لدى ضباط في الجيش اللبناني للسير على خطى نظرائهم السوريين.

حرص كميل شمعون - وهو الآن خصم مرير لبشارة الخوري، يطمح إلى الفوز بالرئاسة - على إظهار أن سعادة أعدم لأسباب أكثر وضاعة من المذكورة أعلاه. فأبلغ عدداً من السياسيين والصحافيين في اجتماع خاص في 9 تموز/يوليو⁽¹⁾ - أي في اليوم التالي على إعدام سعادة - أن زعيم الحزب القومي حوكم سراً وأعدم على الفور لإخفاء صلاته مع سليم و خليل الخوري، وهما أخو الرئيس بشارة الخوري وابنه الفاسدان. وادعى شمعون أن سعادة شوهد على مائدة سليم وفي بيت خليل. وفي انتخابات 1947، اعتمد سليم على دعم الحزب القومي للفوز بمقعد لم يكن ليأمل به بخلاف ذلك. كما أن سليم الخوري اشترى المطبعة الشهيرة في الجمّيزة للحزب، وهي الآن تطبع صحيفته الخاصة، نداء الوطن. وعن الاتفاق الاقتصادي مع سوريا، قال شمعون إنه وقّع فور إعدام سعادة لحماية مصالح فؤاد الخوري الاقتصادية، وهو شقيق آخر كان يعرف باسم "ملك الإسمنت" في لبنان. لكن لم يتضح إذا كان أي من اتهامات شمعون الجريئة يقوم على غير الخصومة السياسية.

من المؤكّد أن التهديد الذي شكّله سعادة لم يكن معروفاً تماماً. هل كان على اتفاق مع الملك عبد الله، كما اعتقد العديد من العرب؟ ما مقدار خطورة مؤامراته مع حسني الزعيم؟ هل كان هناك ثوريون آخرون متورطين في هذا المخطط؟ عندما عاد

(1) في الخفلة الخاصة نفسها في بيت مري المذكورة في الملاحظة 27، والتي أقامها إسكندر رياشي.

سعادة إلى لبنان في 2 آذار/مارس 1947، قدم بالطائرة من القاهرة مع فوزي القاوقجي، قائد المتطوعين المخضرم. وفي وقت لاحق من تلك السنة، عيّن القاوقجي قائداً ميدانياً لجيش الإنقاذ العربي، الذي كان ينقصه السلاح والمون، فتحوّل القاوقجي إلى أحد أكثر الثوّار إحساساً بالمرارة.

ادّعى طه الهاشمي - رئيس وزراء العراق السابق الذي عيّنه جميل مردم لإدارة جيش الإنقاذ - في مذكراته أن القاوقجي خطط مع أعضاء الحزب القومي، ومع الملك عبد الله أيضاً، للإطاحة بنظامي بشارة الخوري في بيروت وشكري القوتلي في دمشق. ويبدو أن قادة جيش الإنقاذ أبلغوا الهاشمي أن القاوقجي يخطط للزحف برجاله على لبنان لقلب الحكومة، بمساعدة الحزب القومي. ثم خطط للسيطرة على سوريا وتوحيد سوريا ولبنان مع العراق والأردن⁽¹⁾ لمصلحة الملك عبد الله. لذا لم يكن من المفاجئ، بوجود كل هذه التهديدات الثورية، التخلص من سعادة بسرعة، حيث سقط ضحية أوهامه والاضطراب الخطير في ذلك الوقت.

في 14 آب/أغسطس 1949، وقع انقلاب على حسني الزعيم، بعد أربعة أشهر ونصف الشهر من استيلائه على السلطة، وقاد الانقلاب العقيد في الجيش السوري سامي الحناوي. قام أحد الانقلابيين، فضل الله أبو منصور، بدخول القصر الرئاسي بقوة السلاح، فوجد الزعيم في لباس النوم في الصالة، وصفعه على وجهه. ومن الملفت أنه اتهمه بخيانة أنطون سعادة. اقتيد الزعيم مع رئيس وزرائه محسن البرازي في مركبة مدرّعة، ثم أخرجوا منها وقتلاً. تلقى الملك فاروق في مصر خبر الانقلاب على الزعيم بفزع، بل إن البلاط أعلن الحداد لمدة ثلاثة أيام! لكن الملك عبد الله ونوري السعيد أرسلوا التهاني والموفدين إلى العقيد الجديد في سوريا. في دمشق، طلب من حزب الشعب، الذي يميل إلى العراق صراحة، تشكيل الحكومة. ما إن ظهرت بوادر قيام علاقات قوية بين سوريا والعراق، حتى قام عقيد سوري ثالث، أديب الشيشكلي، بالإطاحة بالحناوي في 19 كانون الأول/ديسمبر، وأعاد سوريا إلى المعسكر المؤيد لمصر. وتمكن الشيشكلي من البقاء في السلطة حتى عام 1954.

(1) طه الهاشمي، مذكرات طه الهاشمي، جزءان، تحرير خلدون ساطع الحصري، بيروت 1978، الجزء الثاني، ص 234.

حافظ الحزب القومي على وجوده السري، على الرغم من محاكمة عدد كبير من أعضائه وسجنهم، وذلك بفضل انضباطه وتنظيمه الصارم. حشد جورج عبد المسيح، من مخبئه، الأعضاء الأوفياء وتعهد بالانتقام للزعيم المقتول. كان من المعروف أن رياض الصلح مستهدف على وجه الخصوص. فقد اعتبر مسؤولاً عن إقناع الزعيم بتسليم سعادته. ولكن ثمة سبب آخر أيضاً: كان رياض الزعيم اللبناني الذي يمثل الوطنية اللبنانية أفضل تمثيل في الميثاق الوطني، وأحد أبرز القادة الوطنيين العرب من أبناء جيله. لهذين السببين كان عدواً للدودا للقوميين السوريين.

مع ذلك، دعا حبيب أبي شهلا، أحد زملاء رياض الصلح السابقين في الحكومة، عصام المحاييري، أحد قادة الحزب القومي، إلى الغداء في شترة في سهل البقاع في محاولة لعقد مصالحة بين رياض الصلح والحزب. لكن عندما اكتشف المحاييري عند وصوله أن رياض الصلح سيكون حاضراً، رفض البقاء للغداء وعاد مباشرة إلى دمشق. وقال إنه ليس في موقع يتيح له أخذ مثل هذه المبادرة نيابة عن حزبه⁽¹⁾.

في 9 آذار/مارس 1950، كان رياض الصلح هدفاً لمحاولة اغتيال في بيروت. فعندما خرج من سيارته في شارع فردان في وقت متأخر من بعد الظهر لحضور حفل استقبال أقامته عائلة الغلاييني على شرفه، أطلق رجل مختبئ خلف شجرة نخيل عليه ثلاث طلقات من مسافة قريبة. تقدم رياض بشجاعة نحو المعتدي محاولاً القبض عليه، لكنه هرب مطلقاً بضع طلقات إضافية. أصيب ثلاثة أطفال في الحادث بالإضافة إلى رجل كان يقف على مسافة قريبة. توفي اثنان من الأطفال في الطريق إلى المستشفى. اخترقت رصاصة كمّ سترة رياض من دون أن تجرحه، على الرغم من شعوره بألم حاد في مرفقه لاحقاً. أطلق الحارس الشخصي لرئيس الوزراء، عبد العزيز عرب، النار على ساقبي المعتدي وأوقعه أرضاً. اتضح أن المهاجم يدعى توفيق حمدان، وهو درزي في الثالثة والعشرين من العمر، وعضو في الحزب القومي المنحل. كان حمدان قريب أحد أعضاء الحزب الذين أعدموا في تموز/يوليو، في أعقاب انقلابهم الفاشل. وربما قام

(1) انظر البند 2/62 وما يليه في الأوراق الخاصة للأمير فريد شهاب، المدير العام للأمن العام، في أرشيف الشرق الأوسط في كلية سانت أنتوني، أكسفورد.

بمحاولته بدافع الثأر العائلي. تظاهر رياض الصلح بالهدوء، وحضر الحفل بالإضافة إلى ارتباطاته الأخرى في تلك الليلة.

أثارت محاولة الاغتيال غضباً كبيراً في البلاد. سارعت المعارضة بأكملها، باستثناء الزعيم الدرزي كمال جنبلاط، إلى تهنئة رياض الصلح بالسلامة. كما جاءت حشود من مؤيديه ووفود من جميع أنحاء البلد إلى منزله لتهنئته على النجاة. وفي 13 آذار/مارس، استقبل بتصفيق حار في البرلمان، وألقى العديد من نواب الموالاة والمعارضة خطابات التهنية. لكن كمال جنبلاط شدّ عن الإجماع. وأعلن قائلاً: "خلافًا لجميع أصدقاء الحكومة وأعدائها، لم أزر رياض الصلح ولم أهتبه ولن أهتبه قبل أن أتأكد أنه لن يستغل الحادثة الفاشلة لتحقيق مآرب شخصية. أنا أشعر بالأسى على بناته فقط"⁽¹⁾. أغضبت الملاحظة الأخيرة رياض الصلح وأفقدته رباطة جأشه، فردّ قائلاً: "تربّت بناتي على العزة والكرامة، وليس في أحضان المستعمرين!" وكانت تلك إشارة جارحة مقصودة إلى العلاقة التي أشيع أن والدته جنبلاط، الست نظيرة، أقامتها مع مفوض سام فرنسي. خرج جنبلاط من مجلس النواب غاضباً وقال إنه لن يعود إليه إلا على رؤوس الحراب. وعندما عاد جنبلاط ليشغل مكانه اليوم التالي، تساءل رياض ساخراً "أين هي الحراب"⁽²⁾؟ على أي حال، حرص رياض على العفو عن الرجل الذي حاول قتله.

وبعد بضع سنوات، سُمح بإقامة نصب تذكاري لأنطون سعادة في العرزال في ضهور الشوير.

(1) William Houstoun-Boswall, Beirut, to Foreign Office, 20 March 1950 (FO 371/82268).

(2) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

الفصل السادس والعشرون

جريمة في عمان

كان رياض الصلح القائد الأكثر نشاطاً، بين جميع القادة العرب، في محاولة كسب الدعم للعمل العسكري العربي المشترك خلال حرب فلسطين. لكن جهوده لم تكلل بالنجاح. في البداية، اعتقد أنه لا يزال في الإمكان حماية المصالح العربية. لكنه لم يستطع التغلب على العداوة والشكوك العميقة التي تفرقت بين الدول العربية. نتيجة لذلك، تمكنت إسرائيل من هزيمة العرب بسهولة، ما أحدث تمللاً شعبياً في جميع أنحاء المنطقة. سقطت صدقية الملوك والرؤساء والباشاوات والبيكوات والممثلين الآخرين للنظام الحاكم القديم، بينما ظهرت قوى ثورية من الطبقات الاجتماعية الدنيا. فتحت سوريا الطريق بسلسلة من الانقلابات العسكرية العنيفة التي أسقطت الوطنيين القدامى وتقاذفت البلاد مرات بين الهاشميين وأعدائهم. لم تكن الثورة تعتمل بين الجنود المعدمين من الريف فحسب، وإنما أيضاً بين معلّمي المدارس الدمشقيين مثل ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار مؤسسي "حزب البعث". وفي مصر، ألهمت الهزيمة الساحقة جمال عبد الناصر والضباط الأحرار بإسقاط حكم الملك فاروق المتهاوي.

ساد الجزع في كل أنحاء المنطقة من عجز القادة العرب أو ضعفهم، والشعور بالمرارة العظيمة من الطريقة التي تسابقت بها الدول الكبرى للمساعدة في إنشاء الدولة اليهودية ثم الاعتراف بها. عندما اندلعت الحرب الكورية في سنة 1950، رفض الرأي العام العربي أن يفهم لماذا اعتبر مجلس الأمن الدولي العدوان الشيوعي تهديداً للسلم العالمي، ولم يعتبر العدوان الصهيوني على فلسطين كذلك. وثار غضب بالغ في لبنان عندما أسقطت مقاتلة إسرائيلية طائرة مدنية لبنانية في رحلة لها من القدس إلى بيروت، من دون أن تصدر كلمة احتجاج واحدة من أي عاصمة غربية.

في هذا الوضع المضطرب، حاول رياض، رغم يأسه المتزايد، إنقاذ ما يمكن إنقاذه من حطام القوة والكرامة العربيتين. لم يكن لديه جيش خاص يزجّ به في المعركة، لكنه

حاول جاهداً، مستخدماً دبلوماسيته الشخصية، جمع العرب للقيام بهجوم أخير على الجبهة الفلسطينية، بغية استعادة قسم من الأرض التي انتزعت بسرعة مذهلة.

الخيار العراقي

في آب/أغسطس 1948، زار رياض الصلح عمّان لإجراء محادثات مع الملك عبد الله. كان يريد أن يعرف بالضبط لماذا جاء أداء "الفيلق العربي" ضعيفاً جداً - وهو الذي هُمل له باعتباره أفضل الجيوش العربية وأقواها، وعُلفت عليه آمال كبيرة. كان يعرف أن الأردن رفض تنفيذ خطة الهجوم التي وضعتها جامعة الدول العربية. هل أوقفها البريطانيون؟ هل تقع المسؤولية على غلوب باشا؟ لم يعمد "الفيلق العربي" إلى الاشتباك مع الهاغاناه إلا عندما تعرض للهجوم من قبل القوات الصهيونية في مدينة القدس وحوّلها. لم يكثر الأردن، في الواقع، بشأن ما يحصل على الجبهات الأخرى، وكان أدأؤه ضعيفاً بشكل لا يمكن تبريره بالنسبة إلى رياض. ويبدو أن اهتمام عبد الله الوحيد كان محصوراً في الاستيلاء على ما يستطيع الاستيلاء عليه من فلسطين العربية لضمه إلى مملكته.

كان رياض يشبه بوجود اتصالات بين الحين والآخر بين عبد الله والصهاينة في الماضي، مثله مثل العديد من العرب الآخرين، بمن فيهم هو نفسه. لكن لم تكن لديه أي فكرة عن مقدار ابتعاد حاكم الأردن عن أي نوع من الإجماع العربي، وتخلّيه عن أي إحساس بالولاء لإخوانه العرب في سبيل طموحاته الشخصية. لم يكن رياض يعرف أن عبد الله والصهاينة كانوا على اتصال وثيق منذ سنة 1921، وأنهم توصلوا إلى اتفاق سرّي لتقسيم فلسطين بينهما، وأن عبد الله قد استفاد على مرّ السنين من معونات صهيونية كبيرة. ويلاحظ أي قارئ لكتاب آبي شلايم الموثّق عن علاقات عبد الله وغيره من العرب البارزين مع الصهاينة، مقدار تكرّر عبارة "تبادل الأموال"⁽¹⁾.

كانت خطة رياض الصلح، في الذهاب إلى عمّان، تقضي بإقناع الملك بدمج "الفيلق العربي" مع الجيش العراقي الذي لم يهزم بعد، بحيث يتمكنان من استئناف

(1) Shlaim, *The Politics of Partition*, pp. 424-5. لمزيد من المعلومات، انظر النسخة الطويلة لهذا

العمل Shlaim, *Collusion Across the Jordan*.

القتال معاً. كان يعتقد أن الأردن والعراق مجتمعين، ربما لا يزالان يستطيعان إنقاذ الموقف. وإذا لم يستطيعا هزيمة إسرائيل، فرمما يتمكنان من احتوائها على الأقل، واستعادة الأراضي التي فقدت بعد هدنة حزيران/يونيو. ذلك هو المشروع الذي شغل تفكيره والاقتراح الذي قدّمه للملك. غير أن مهمته كانت محكومة بالفشل قبل أن تبدأ. لم يبدِ عبد الله أي ترحيب بمحاولته تعبئة العراق للتحرك ضد إسرائيل - بالإضافة إلى جهوده الحثيثة لتعبئة أعضاء الجامعة العربية على القتال - كما لم تُرضِ أصدقاءه الإسرائيليين. فهي تشكّل خطراً مباشراً على هدفها المشترك تقسيم فلسطين بينهما.

بعد إجراء محادثات محبّطة مع الملك عبد الله في عمان، أرسل رياض مذكرة حملها مندوب خاص إلى رئيس الوزراء العراقي مزاحم الباجه جي بعنوان "حاضر الدول العربية وشعوبها". كانت المذكرة تعبّر عن تقديره المتشائم للوضع⁽¹⁾. ومن المفيد هنا نقل أجزاء مفصلة منها لأنّها تلقي الضوء على تفكير رياض خلال حرب فلسطين وما بعدها على الفور. ولم يتأخّر الملك عبد الله والإسرائيليون في الحصول على نسخة منها.

مذكرة رياض الصلح

طلب إليّ جلالة الملك عبد الله أن أقابله في عمان، وكرّر الطلب وأراد أن يكون هذا الاجتماع قبل العيد. فرأيت من واجبي أن ألبّي رغبته، وذهبت إلى عمان يوم الأربعاء في 4 آب/أغسطس [1948] واجتمعت إليه اجتماعاً طويلاً لم يحضره غير دولة توفيق أبو الهدى رئيس وزارة شرق الأردن. وكان خلال الاجتماع حكيماً كعادته موفور الكياسة واللباقة كعهده دائماً. فدار الحديث أولاً حول تقصير الجامعة العربية نحو مملكة شرق الأردن وعدم برّها بوعدّها بدفع ما كانت قررت دفعه لتجنيد جنود

(1) أعيد نشر هذه المذكرة في كتاب عبد الرحمن محمود الحصى، رياض الصلح، بيروت 1951، ص 18-29.

لم تنشر هذه المذكرة في ذلك الوقت، لكنها نشرت في سنة 1951 بعد اغتيال رياض. مزاحم الباجه جي هو رئيس وزراء العراق من حزيران/يونيو 1948 إلى كانون الثاني/يناير 1949.

يقاتلون إلى جانب الجيش الأردني ولابتياح أسلحة. وطلب إليّ بهذه المناسبة أن أسهل له إيصال أسلحة تعاقد مع بعضهم على ابتياعها. وشكا جلالته شكاية مرة من استيلاء مصر على الذخيرة التي كانت واردة إليه على إحدى البواخر أثناء مرورها بالمياه المصرية. وقد أجبت جلالته قائلاً: إنني أحد الموقعين على القرار المعهود بدفع المبلغ الذي عيّن له وأن تنفيذ ذلك القرار علّق على شرطين رئيسيين هما: أولاً، عدم دفع البريطانيين للإعانة المعلومة؛ ثانياً، متابعة القتال. وقلت: إن هذين الشرطين لم يتحققا، ومع ذلك فأنا على استعداد لمعاونة جلالته لدى الجامعة إذا ما تحققت أنه ينوي استئناف القتال.

وأضفت إلى ذلك قائلاً: إن الصراحة قد أصبحت ضرورة جداً، فإن سمعة الملك عبد الله قد تأثرت كثيراً عند وقف القتال. وذكرت له أن ممثلي شرق الأردن أبلغونا، قبل قرار مجلس الأمن وعند الاجتماع في عاليه، أن شرق الأردن لا يمكنه أن يرفض قرار هذا المجلس حتى ولو رفضته جميع دول الجامعة العربية.

ثم قلت له إن من الأفضل لجلالته، إن كان لا يمكنه استئناف القتال وإخراج الضباط الإنكليز من جيشه، أن يصارح البلاد العربية بذلك تمام المصارحة. ومصارحتها بذلك أكرم له، وأفضل بكثير وأحفظ للمصلحة من أن تبقى الحالة الحاضرة كما هي من الإهمال والغموض. وإن الدول العربية عند ذلك تقيم حسابها على أساس آخر فتخرج منه شرق الأردن. وإن شئت أن تستأنف القتال استأنفته على هذا الأساس. أما إذا بقيت هذه الحالة وبقي هذا الإهمال وعُدنا إلى عدم المصارحة، فإن مسؤولية جلالته تكون أخطر كثيراً. وقد عدت فألححت كثيراً على جلالته أن يكون جوابه لي قاطعاً فاصلاً وأن لا يترك في ما يقوله لي احتمالاً لأي شك أو تأويل.

وقد أجباني بأن شرق الأردن لا يمكنه استئناف القتال إلا إذا أخرجت الأمة العربية جميع قواها وألقت ثقلها كله في الميدان، وأنه لا يمكنه إخراج القواد الإنكليز من جيشه. وحجته في عدم استئناف القتال أن ذلك يحتاج إلى

أسلحة وذخيرة واستعداد كاف. وأما في عدم إخراج أولئك الضباط، فقد أورد لي عدة حجج: أولها أنه لم يلحظ عليهم أية خيانة، والثانية أنه لا يمكنه تغيير سرج فرسه أثناء المعركة، والثالثة أنه ليس بين ضباط جيشه العرب من لديه الكفاءة ليحل محل أولئك الضباط الإنكليز.

وهناك حجة رابعة، لها مغزاها، أوردتها جلالته وهي أنه حريص على أن يظل الروح العسكري سائداً في جيشه. فإن تبديل الضباط الإنكليز بضغط التدمير الذي أبدي ضدهم والنقد الذي وجه إليهم يُفسد ذلك الروح. وهو لا يريد أن يجعل جيش شرق الأردن كجيش العراق يتدخل في الشؤون السياسية. وإذا انتفض اليوم على ضباطه الإنكليز فإنه غداً ينتفض على الملك عبد الله نفسه...

وبعد هذا سألت جلالته ألا يمكن تسليم جيشه برمته إلى الجيش العراقي، فيستولي كل شؤونهم كأنه جزء من جيش العراق؟ فأجاب جلالته بأن سمو الوصي كان قد عرض عليه هذا العرض ولكنه لم يرَ تحقيق ذلك الاقتراح ممكناً لأسباب عديدة. ولقد بلغني بعد أن غادرت شرق الأردن أنه يفكر في هذا الموضوع ولكنني أرى أن التطبيق العملي لهذا المشروع صعب المنال. وبعد، فلقد خرجت من تلك المقابلة، وبعدما سمعت من أحاديث جلالته، وأنا مقتنع تمام الاقتناع أن شرق الأردن لا يمكن أن يستأنف القتال، وأن يشترك مع بقية الدول العربية إذا هي أقدمت على عمل مثل هذا. وإني إنصافاً للحقيقة أقول إنني لم أشعر أن جلالة الملك عبد الله يقدم على هذه الخطوة وهو راغب فيها، ولكنه يتصرف تصرف الرجل المضطر الذي ليس في يده حيلة أكثر مما فيها. فإني لا أعتقد أنه من الطبيعي والمعقول أن الرجل الذي بلغ في خلال أسابيع من السمعة الطيبة في جميع البلاد العربية ما بلغه جلالته يهون عليه أن يخسر ذلك ويضيعه عن رضى.

أما وهذا هو حال شرق الأردن، فعلى الحكومات العربية أن تضع سياسة جديدة على ضوء هذه الحقيقة وأن تعيد النظر في حساب قواها وفي تنظيم خططها... ثم إن أخشى ما أخشاه أن يستولي على الأمة العربية، إذا أخذها

حكامها بعدم استئناف القتال، ما استولى على أهل فلسطين أنفسهم من روح التخاذل والانحزام وعدم الثقة بالنفس، وهو شر ما يصيب الشعوب من ضروب الضعف والوهن...

وأما الحجة لاستئناف القتال فلن نعدمها، وهؤلاء هم اليهود يقدمون لنا كل يوم بخرقهم الهدنة حجة جديدة وسبباً مبرراً لاستئنافه، وإني لا أستبعد أن نفاجأ في يوم قريب يحدث يعرض القدس للخطر والضياع. ألفت إليه نظركم منذ الآن.

إنه من البديهي أن أول ما علينا القيام به استعداداً لاستئناف القتال السريع هو سد الثغرة التي تحدث بانسحاب شرق الأردن من الميدان تحت الضغط السياسي الواقع عليه.

إن وقف القتال هذه المرة لم يكن كما تعلمون في الحقيقة خوفاً من مجلس الأمن وعقوباته، ولم يكن كذلك خوفاً من تسلح اليهود، فهم يتسلحون سراً وعلناً قبل الهدنة وبعدها، وفي حالة الخطر أو رفعه، ولكن وقف القتال كان لأن حكومة شرق الأردن أعلنت قبيل قرار مجلس الأمن أنه لا يمكنها متابعة القتال لعدم وجود عتاد لديها (ولا أعتقد أن إعادة جميع العتاد الذي استولت عليه مصر إلى شرق الأردن يمكن أن تعيد شرق الأردن إلى القتال).

وقد أعلنت القيادة العراقية عندئذ أن الجيش العراقي في حالة انسحاب الجيش الأردني ينسحب هو أيضاً من الميدان، دون ريب. ولما بلغ هذا الحكومة المصرية أثار قلقها الشديد فبادرت إلى إيفاد معالي عزام باشا لعمان لعله يتدارك الأمر...

ولقد بلغني أن حكومة مصر كانت متأثرة بهذا الوضع عندما أعلنت قبولها لقرار مجلس الأمن، وإن جلالة ملك مصر تلقى بتأثر شديد نبأ موقف شرق الأردن والمحضر الذي وُضع في عمان حول هذا الموضوع، ولم يكن يكفي يومئذ أن نقول عن ممثلي العراق وسوريا ولبنان إننا نرفض وقف القتال لنستمر فيه جميعاً بينما كان يكفي أن يعلن مندوب شرق الأردن أنه لن

يرفض قرار مجلس الأمن لكي نضطر للتوقف جميعاً، ذلك أن وقف القتال يكون معلقاً على قرار دولة من الدول.

وكنت أتمنى لو لم يعلن هذا عندكم أن العراق رفض قرار مجلس الأمن وإن يكن ميالاً في أثناء المناقشات ميلاً صريحاً إلى عدم القبول، كما كان ميلي وميل جميل بك مردم وعزام باشا. ولم يخف عليكم ما كان لهذا الإعلان من أثر غير مستحب في مصر إذ أظهرها بمظهر المنفردة في إرادة الكف عن القتال، وصورها بصورة المتوانيئة المتخاذلة دون سواها من شقيقتها أعضاء الجامعة. والحقيقة أنها لم تكن هي السبب في قبول قرار وقف القتال. وهذا فضلاً عن أن العبرة في القرارات نفسها لا في المناقشات التي تسبقها. وأما الأثر الذي تركته هذه الأمور في مصر فشديد عميق على ما عرف، وأنتم أدرى بما بذلته مصر سعياً وحرباً في سبيل فلسطين، وأنتم أعلم بإخلاصها وتجردها لما بذلت، كما أنكم تعلمون أهمية نصيحتها في هذا الجهاد في الماضي والمستقبل وخطورة منزلتها في كل ما تباشره الجامعة من الشؤون العربية القومية المشتركة الشاملة، وما لجلالة مليكتها من مكانة عظيمة وضعها في خدمة هذه الشؤون.

ولقد كان بإمكانني أن أتبع أثر العراق لأني لم أقبل وقف القتال إلا بعد غيري، ولكنني أردت أن لا تبقى مصر منفردة في هذا المظهر الذي يخالف حقيقة الواقع المسطورة.

والآن بعد ما ذكر عن موقف شرق الأردن والوضع العسكري بفلسطين وحالة الأمة العربية، أعود فأقول مرة ثانية إنه لا مناص من القتال إن لم يكن إلا لاسترداد ما استولى عليه اليهود في مرحلة القتال الثانية، وإلا للجهامة الموقف المقبل ونحن أكثر تضامناً وأكثر قوة في الواقع. وبعد أن أبدى العراق عرشاً وحكومة وشعباً من الحماسة البالغة، ومن التصميم على استمرار الجهاد في سبيل إنقاذ فلسطين ما يثلج صدر كل عربي.

لا بد من أن يكون للعراق خطة محكمة وتدابير تهيأ بدقة. ولأجل تحقيق هذا يهمننا أن نقف عليها ليدرك كل منا قسطه ونصيبه من المرحلة المقبلة

القريبة، كما وإنه لا بد من توحيد القيادة وقد زال السبب الذي كان يحول دون تحقيقها توحيداً صحيحاً كاملاً، بحيث توضع جميع الجيوش والأسلحة والأعتدة، فضلاً عن الخطط، تحت إمرة قائد واحد يتصرف فيها حسب ما ترتبي القيادة وحسب ما تقتضي غاية تأمين الظفر للعرب.

واسمحوا لي أن أقول لكم إن مفتاح القضية أصبح الآن في يد العراق، بعد أن كان في بدء القتال في يد شرق الأردن، وبعد أن انتقل منها إلى يد مصر عند قبولنا الهدنة الأولى في اجتماع اللجنة السياسية بعمّان. وإني أرى أن الخطورة الأولى هي مما ذكرته من تبادل الرأي والمعلومات بيننا وبين العراق وبعدئذ نخابسر مصر، ثم نجتمع وتبحث، وأما قبل ذلك فلا أرى من داع يستحق دعوة اللجنة السياسية للاجتماع.

وأما الثغرة التي يتركها شرق الأردن بانسحابه، فأولى من يسدها العراق لأسباب عديدة. فأولاً بالنظر إلى الصلات الخاصة التي بين المملكتين يكون أيسر عليهما كليهما أن تأخذ الواحدة منهما عن الأخرى ما كان على عاتقها وأن تحل محلها، وثانياً أن الوضع العسكري قد جعل طريق العراق إلى فلسطين شرق الأردن، وهو مركز تمويه ومواصلاته مع ميادين القتال.

على أنه من الضروري على كل حال، أن تبقى جيوش شرق الأردن مرابطة في مراكزها للدفاع مع خروجها من الميدان كقوة مهاجمة، وتلك هي نية الملك عبد الله. فإنه عندما كان يطلب أن يحصل على السلاح والعتاد، واعتُرض بأنه لا حاجة به إلى ذلك لأنه لن يستأنف القتال، أجاب بأنه لا بد له من الدفاع، فإن اليهود لا يبعد أن يتقدموا من إحدى الثغرات يفتحونها لاقتحام شرق الأردن. وكان دائماً هدفاً لهم يريدون الاستيلاء عليه. وثالثاً لن يكون العراق مطمئناً ليستأنف القتال إلا بتوليته سد الثغرة بنفسه، وبقوات تتألف تحت إشرافه وإشراف الجامعة من مناضلين فلسطينيين وأردنيين، خصوصاً كما سبق له أن فعل في جنين ويكون العراق قد حصل أيضاً على الاطمئنان التام، فضلاً عن أن جيشه أقدر الجيوش على هذا العمل. على أنه يخيل إلي أن هذا الأمر يحتاج إلى

الاحتياطات الدقيقة حتى يتم بإحكام، كما إنه يجب أن يتم بروح من الألفة والمودة المطلقة، لأن وجود غير مقاتلين إلى جانب جنود مقاتلين أمر يحتاج إلى كثير من الدقة، وحكمتكم كفيلة بمثل هذا الأمر.

هذا ما رأيته أن أكتبه إليكم بعد مقابلتي لجلالة الملك عبد الله في الموضوع الذي يستوقف عليه لا مصير فلسطين فحسب، بل مصير العرب جميعاً، والذي هو بلا ريب شغلهم الشاغل، رأيته أن أضمنه رأيي الشخصي فيه وأخاطبكم فيه بتمام الكتمان. وقد كتبت إليكم ما كتبت وأنا سعيد بأن يكون على رأس الحكم في العراق رجل يقدر هذه الشؤون حق قدرها ويوفيهما حقهما من الاهتمام. كما إني سعيد بأنكم تسترشدون بالروح الوطنية العالية والحكمة الكاملة وصفات الإقدام والعزم التي تحلّى بها سمو الوصي المعظم والتي تجلّت بأجلى مناظرها. وإني أنتظر ردكم السريع لتبادر كل حكومة إلى اتخاذ التدابير والخطوات المناسبة. وفقكم الله وألهمنا جميعاً بما فيه خير الأمة العربية وفلاحها. والسلام عليكم.

المشاكل على الجبهة الداخلية

ضاعفت المشاكل الخطيرة التي واجهها رياض في لبنان المخاوف التي تساوره بشأن فلسطين. فقد بدأت شراكته مع الرئيس بشارة الخوري، وهي شراكة استمرت أكثر من خمس سنوات، بالتداعي فور انتهاء حرب فلسطين. فتعكّر صفوها، بل أصبحت عدائية، ما أدى إلى فقدان رياض سيطرته على الآلية الحكومية، قبل أن يخسر منصبه في شباط/فبراير 1951.

بدأت شراكته مع الشيخ بشارة في سنة 1943، عندما وضعاً معاً "الميثاق الوطني". وهو مجموعة مبادئ غير مكتوبة لتقاسم السلطة بين المسلمين والمسيحيين، ترمي إلى التأثير في سياسات لبنان الداخلية والعربية. انتخب الشيخ بشارة رئيساً - متغلباً بسهولة على منافسه إميل إده المؤيد للفرنسيين - فدعا على الفور رياض الصلح إلى تشكيل الحكومة. وقد خاضاً معاً معركة الاستقلال ضد فرنسا التي بلغت ذروتها في أزمة تشرين الثاني/نوفمبر 1943. نجحت شراكتهم لأن رياض الصلح كان شريكاً

مسيطرًا، ثمكّن من رسم السياسة الداخلية والاستفادة من شهرته الكبيرة في الساحة العربية. لكن الرئيس لم يستسغ أن يطغى عليه رئيس وزرائه، فتزايد استياؤه حتمًا. كان بشارة الخوري يدرك دائماً أن إبقاء رياض الصلح على رأس الحكومة طوال ولايته التي تمتد ست سنوات أمر مثير للمشاكل. فلا بدّ في النهاية من تداول السلطة بين الحين والآخر، لأن هنالك مرشحين سنيين آخرين يطمحون إلى رئاسة الوزراء. وقد قبل رياض ذلك، وإن على مضض. فهو يدرك تماماً أن رئيس الجمهورية يمتلك سلطة دستورية تتيح له تغيير رئيس وزرائه في أي وقت. غير أن ما أفسد علاقتهما هو شعور رياض أن بشارة الخوري لم يُنصفه. فقد عمل رياض جاهداً لضمان تجديد ولاية الرئيس. بل إنه فقد الكثير من شعبيته في هذه العملية، وجلب على نفسه عداوة الزعماء الموارنة الآخرين الذين يطمحون إلى الرئاسة. لكن ما إن أيقن بشارة الخوري من تجديد ولايته ست سنوات أخرى، حتى سعى على الفور إلى إرضاء الطامحين السنّة الآخرين على حساب رياض.

أضف إلى ذلك، أن التوتّرات الحادة الناتجة عن حرب فلسطين بدأت في إضعاف مبادئ الميثاق الوطني وإعادة إحياء الولاءات الطائفية. كان المسلمون - وعلى رأسهم رياض الصلح - يريدون أن يؤدي لبنان دوراً أقوى في مساندة فلسطين العربية. غير أن المسيحيين عارضوا نشر قوات بلدهم المتواضعة خارج حدودهم. وكان تحفظهم مبرراً، بطريقة ما، لأن الجيش اللبناني صغير الحجم يُستخدم للحفاظ على الأمن الداخلي بصورة رئيسية، ويفشل في ذلك في معظم الأحيان. لذلك شعر رياض الصلح، في جامعة الدول العربية والأوساط السياسية العربية العليا الأخرى، بمعدلة ترؤس الوزراء في بلد منقسم على نفسه، وبخاصة بلد لم يؤدّ إلا دوراً صغيراً جداً في الحرب.

بدأت التغييرات تفعل فعلها على الساحة اللبنانية، وبخاصة داخل الكتلتين البرلمانيتين الكبيرتين - الكتلة الدستورية التي يرأسها بشارة الخوري والكتلة الوطنية التي يرأسها إميل إده - وكتلتاهما تسيطران على الحياة السياسية اللبنانية منذ مدة طويلة. وكانت هاتان الكتلتان تجمعان تقليدياً رجالاً من خلفيات دينية مختلفة، في تحالفات تكتيكية حول قائد معين. لكن ضغط الأحداث أدى إلى انقسام هاتين الكتلتين إلى

بمجرد حزين طائفين. وعندما واجه رياض الصلح انبعاث الطائفية، بدا حلمه بإنشاء دولة موحدة يدين لها كل المواطنين بالولاء - بدلاً من تجمّع من الطوائف المتصارعة - بعيداً أكثر من أي وقت مضى.

في غضون ذلك، ازدادت حدة الهجمات المبررة على أداء الحكومة، وقد شنّها العديد من السياسيين البارزين، لا سيما كميل شمعون الماروني وكمال جنبلاط الدرزي، اللذين انتقدا سوء إدارة الشؤون العامة والتأخّر في تطبيق الإصلاحات. وقد هاجما بشدة الانتخابات غير القانونية و"المزورة" التي جرت في سنة 1947، وتمديد ولاية بشارة الخوري في رئاسة الجمهورية بصورة منافية للدستور. كما تصاعدت الانتقادات القاسية بشأن التسرّع في إعدام زعيم الحزب القومي، أنطون سعادة - وهو إعدام وصفه بعض معارضي الحكومة أنه اغتيال سياسي. ساهمت كل هذه الضغوط في حدوث جفاء بين رياض الصلح وبشارة الخوري، وتخاصم الرجلان بعد أن كانا من أوثق الأصدقاء.

الخلاف مع سليم الخوري

من الأسباب الإضافية للخلاف بين الرجلين - ولعله من الأسباب الرئيسية - عدم رغبة بشارة الخوري في السيطرة على أخيه الأصغر سليم الخوري الذي كان يلقب على نطاق واسع "بالسلطان"، أو عجزه عن ذلك. وقد رأى رياض الصلح وكثير غيره أن تسامح الرئيس مع إساءات أخيه الكثيرة يوحى بأن الشيخ بشارة واقع تحت تأثيره. وأدت خلافات رياض الصلح المتزايدة الحدة مع سليم الخوري إلى التأثير في علاقته بالرئيس.

تعاظم نفوذ سليم الخوري السياسي والتجاري كثيراً، وأصبح تدخّله في شؤون الدولة واضحاً جداً، حتى إنه بدا في بعض الأحيان أقوى من الحكومة نفسها. فقد كان يدير ما يمكن تسميته عملياً، شبكة حماية مسؤولة عن معظم التجاوزات المستشرية. وكان كل يوم تقريباً يكشف عن أدلة فساد مثيرة في المناصب العليا. في سنة 1950، على سبيل المثال، اجتذبت حالتان اهتماماً خاصاً - حالتا باسيل طراد، المدير العام لوزارة الاقتصاد الوطني، ومحمد زوين، المدير العام لوزارة الزراعة. على

الرغم من أنهما موظفان مشهود لهما بالتميز، فإنهما رفضا الحضور إلى مكتيهما، بل قدما استقالتيهما احتجاجاً على ضغوط سليم الخوري لتعيين موظفين في وزارتيهما من دون أن تكون لتلك التعيينات أي مبررات. شكّا طراد من أنه فوجئ عند تعيينه مديراً عاماً بوجود سبعين موظفاً على الأقل في وزارته من دون عمل على الإطلاق، ولا يأتون إلى الوزارة إلا لقبض رواتبهم. لكنه لم يستطع طردهم، لأنهم يتمتعون بحماية عليا. وآثر زوين الابتعاد عن وزارته للأسباب نفسها.

أظهرت هذه الحالات أعراض الاضطراب والقلق المتفشية بين كبار الموظفين في الخدمة المدنية. فقد انتشر الموظفون الذين يحميهم سليم الخوري في كل مكان - في إدارات الحكومة، ومجلس النواب، والحكومة نفسها. ومما زاد الطين بلة وجود عدد كبير من "المحميين" الذين يشغلون مناصب تكتيكية في قوى الأمن. ومنهم قائد الشرطة نفسه ناصر بك رعد.

وقعت حادثة في حزيران/يونيو 1950 تورط فيها ناصر رعد، وكادت تتحول إلى معركة مكشوفة - بل اشتباك مسلح - بين مؤيدي رياض الصلح ومؤيدي سليم الخوري. بدأت المشكلة عندما استدعى رياض الصلح، بصفته وزيراً للداخلية (إلى جانب رئاسة الوزراء) قائد الشرطة ناصر رعد للاستفسار عن سبب استجوابه سعيد فريجة، رئيس تحرير مجلة الصياد الشهير (وصديق مقرب إلى رياض) بشأن مقال نُشر في 1 حزيران/يونيو 1950. لم يرضَ رياض الصلح عن إجابة ناصر رعد، وأبلغه أن عليه قبل الإقدام على استجواب صحافي - وهي مهمة يقوم بها عادة قاضٍ في محكمة المطبوعات - أن يستشير وزير الداخلية. إذا وضعنا الصداقة جانباً، فإن رياض كان يسعى إلى حماية الصحف من فرط الرقابة، حتى الصحف المناوئة له.

وتعبيراً عن الاستياء، طلب رياض من قائد الشرطة أن يأخذ إجازة لمدة شهر. وأصدر مرسوماً بتعيين عزت بك خورشيد، مدير المراسم في وزارة الخارجية في ذلك الوقت (كان مسؤولاً سابقاً في الشرطة)، قائداً للشرطة بالوكالة في أثناء غياب رعد. استشاط سليم الخوري غضباً من "معاقبة" محميّه، وهدّد بإنزال مناصريه الموارنة للتظاهر ضدّ رئيس الوزراء. ردّ رياض الصلح بالتهديد بإنزال أنصاره السنّة إلى الشارع. وخوفاً من حدوث مجاهدة بين الطرفين، تدخل رئيس الجمهورية ونجح في

إقناع أخيه بالتراجع عن المواجهة. وقد قدمت أعداد كبيرة من مؤيدي سليم الخوري من الجبال وتجمعوا خارج منزله في فرن الشباك، إحدى ضواحي بيروت. لكن مؤيدي رياض لم يظهروا لتحديهم، ففترقوا من دون وقوع أي حادث.

غير أن الأزمة لم تنته عند هذا الحد. فقد طالب سليم الخوري بإعادة محميه، ناصر رعد، إلى منصبه على الفور. بل إنه ألح على أخيه بإقالة رياض الصلح وتعيين رئيس وزراء آخر. وحاول مراراً إحداث أزمة وزارية بالضغط على الوزراء للاستقالة، وغضب عندما رفض وزيران رئيسيان - فيليب تقلا والأمير مجيد أرسلان - القيام بذلك. وضعت الكراهية المريرة المتبادلة بين رياض الصلح وسليم الخوري رئيس الجمهورية في موقف صعب. لم يكن راغباً في حدوث قطيعة كاملة مع رياض، ولا يريد الإساءة إلى أخيه صاحب النفوذ القوي. فهو بحاجة إلى دعمه في الانتخابات المقبلة، وبخاصة في جبل لبنان، حيث يحظى سليم بنفوذ كبير⁽¹⁾.

حدث تطوّر آخر في هذه القضية. فقد حرص رياض الصلح، قبل أن يسمح لناصر رعد باستئناف مهامه، على إصدار مرسوم يحتوي على مادة تنصّ على وضع الشرطة في المستقبل تحت المسؤولية المباشرة لرئيس الوزراء، لا وزير الداخلية. أحدث ذلك المزيد من الصخب لأن أنيس صالح، المدير العام لوزارة الداخلية، أحد "رجال" سليم الخوري، في حين أن ناظم عكاري، المدير العام لمكتب رئيس الوزراء، يتبع رياض الصلح.

عندما لم يحضر ناصر رعد إلى مكتبه، اتصل به رئيس الجمهورية وأمره بالعودة إلى مزاولة عمله على الفور، خوفاً من أن يقلبه رياض الصلح إذا لم يفعل. فردّ ناصر رعد بفظاظة أن سليم الخوري غير مستعد لقبول المرسوم الجديد. فأصدر بشارة مرسوماً آخر يلغي المرسوم السابق، ولكنه يمدّد إجازة رعد شهراً آخر.

في مواجهة هذا المأزق، قرّر الخصمان تجاوز المشكلة وتجميد صراعهما الذي طال أمده. استأنف ناصر رعد مهامه في 2 أيلول/سبتمبر، لكنه حرص على إنزال عقوبة شديدة بسعيد فريجة. حُكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر وغرّم 200 ليرة لبنانية. ومنعت مجلته من الصدور ستة أشهر. وحُكم على كاتب المقال بالسجن لمدة شهر واحد وغرّم 100 ليرة لبنانية.

لم يكن الحكم بحذ ذاته مهماً، بقدر تأثير هذه الحادثة البائسة على تضامن الفريق الحاكم، وعلى العلاقات بين الأشخاص المعنيين. ما من شك في أن هذه الحادثة لم تعزّز سمعة النظام أمام الشعب، الذي تابع الموضوع باهتمام. تراجعت مكانة رياض الصلح بسبب هذه الفضيحة الصغيرة، بل طالبت بعض الصحف باستقالته من منصبه⁽¹⁾.

القطيعة مع سوريا

لم تكن المجاهدة مع سليم الخوري أكبر مشاكل رياض الصلح. فقد انزعج جداً من الانقلابات العسكرية التي أطاحت بأصدقائه الوطنيين القدامى في دمشق. واعتقد أن الانقلابات هي ثمرة مؤامرات تحاك لإجبار العرب على الخضوع لإسرائيل. ولم يشعر بالاطمئنان عندما أصبح خالد العظم رئيساً للوزراء في 27 كانون الأول/ديسمبر 1949، بعدما انقلب العقيد أديب الشيشكلي على سامي الحناوي. كان رياض يكره خالد العظم وعائلته (التي كاد أن يصاهاها ذات يوم) التي تبادلته الكراهية. لم ينضمّ العظم إلى الكتلة الوطنية أو يشارك في النضال ضد الفرنسيين. بل كانت علاقته جيدة معهم، حتى إنه شغل منصب رئيس الوزراء في سنة 1941 تحت حكم فيشي. وكان غنياً جداً ومتعلماً، لكنه شخصية رديئة، إذا قيس بمقياس الوطنية.

كان رياض الصلح يحب أن يقول إن الله هو الذي صنع العلاقات بين سوريا ولبنان، وإنما باقية في قلوب أبناء البلدين. لكن يبدو أن ذلك لم يحلّ دون حدوث تدهور حاد في العلاقات الاقتصادية بينهما. أراد التجار السوريون أن تفرض حكومة العظم سياسة حمائية على لبنان، أو تقطع العلاقات الاقتصادية معه تماماً، إذا فشل ذلك. وكان اللبنانيين شكواويهم أيضاً. وللضغط على لبنان، كانت سوريا تهدد دائماً بوقف تصدير الحبوب إليه، بينما تبعتها إلى تركيا والمملكة العربية السعودية. وللتحرّر من الاعتماد على بيروت، دعت سوريا عدّة شركات أجنبية للتقدم بعطاءات لتطوير ميناء اللاذقية الواقع على البحر المتوسط. ووضع خالد العظم بنفسه حجر الأساس لبناء الميناء في 14 شباط/فبراير 1950. كما عمدت سوريا إلى تطوير شبكة السكة الحديد ونظام الري، ووضعت على العموم حواجز أمام استيراد البضائع من لبنان.

في أواخر شباط/فبراير، ترأس العظم اجتماعاً لرجال الأعمال والصناعيين السوريين وبعد يومين من المداولات، أوصوا أن تقيم سوريا وحدة نقدية وجمركية واقتصادية كاملة مع لبنان، أو أن تفرض الانفصال التام والفوري عنه. وصل إنذار سوري إلى جانب هذه التوصية إلى بيروت بعد أيام قليلة. ومُنح لبنان مهلة حتى 20 آذار/مارس للرد. تألم رياض الصلح من سياسة "ليّ الذراع" - وهو ما لم يعهده البتة من شكري القوتلي الذي تميّز بالتهذيب والدبلوماسية - وهاجمتها الصحف اللبنانية. مع ذلك، ردت الحكومة اللبنانية بتعقل على الإنذار السوري في 10 آذار/مارس، وأوضحت أن مبدأ الوحدة الاقتصادية الكاملة ليس مقبولاً، بالنظر إلى تعارض مصالح البلدين. لكنها أملت في حلّ الخلافات العالقة بطريقة ودية.

في 13 آذار/مارس، ألغى العظم المتعجرف الوحدة الجمركية بين البلدين من طرف واحد، متجاهلاً تماماً الموقف اللبناني المرن. جاءت هذه الخطوة القاسية بمثابة مفاجئة كريمة للشعب اللبناني والمسؤولين في الإدارة اللبنانية على حدّ سواء. وقد بذل الآخرون ما يستطيعون للحفاظ على رزانتهم، وتجنّب أي تدابير يمكن أن تفاقم الخلاف. لكن نتج عن الخطوة السورية المتصلّبة مضاعفات أخرى. أقيمت مراكز للشرطة والجمارك السورية على الحدود ومُنع السوريون من زيارة لبنان من دون إذن خاص. ونُشرت كتّيب مشاة سورية على طريق دمشق بيروت، وأخرى على الحدود شمال طرابلس. توقفت حركة البضائع بين البلدين، واضطر لبنان إلى إنشاء إدارة خاصة به للجمارك على عجل⁽¹⁾.

وسط هذه الأزمة، كان على رياض الصلح التوجّه إلى مصر للاشتراك في اجتماع للجنة السياسية لجامعة الدول العربية. وفي حفل شاي دعت إليه الجالية اللبنانية في القاهرة على شرفه، سئل عن الخلاف مع سوريا، فأجاب: "أرفض أن أصف خلافاً أنه انخيار، وأتمنى أن يزول قريباً. فمصالح البلدين تقتضي ذلك... علينا إصلاح الأمور. السوريون يمرون بأوقات عصيبة. وعلينا أن نحب لمساعدتهم لأنهم

(1) للاطلاع على رواية مفصلة عن الخلاف، انظر Chaitani, *Post-Colonial Syria and Lebanon*, pp. 145-158 أيضاً British Legation, Beirut, to Foreign Office, Lebanon Political Summary, March 1950 (FO 371/82266).

إخواننا في الأوقات الحلوة والمرة"⁽¹⁾. لكنه لم ينكر كرهه الشديد للأنظمة العسكرية التي تسيطر الآن على دمشق، ولخالد العظم المتواطئ معها. في 13 أيار/مايو، أبلغ رياض دبلوماسياً فرنسياً في القاهرة أن سوريا ستسير نحو الفوضى، إذا لم يعد الرئيس القوتلي إلى الحكم قريباً، ما سيلحق ضرراً بالغاً بالعالم العربي⁽²⁾.

في تشرين الأول/أكتوبر، قام رياض الصلح بزيارة شكري القوتلي، صديقه ورفيقه الوطني، في المنفى في القاهرة. وكان رياض قد توجه إلى هناك برفقة زوجته لإدخال اثنتين من كريماته، علياء ومنى، في مدرسة البنات الإنكليزية في الإسكندرية. وعند عودته إلى بيروت، وجد أن الصحافة السورية تتهمه أنه يتآمر في القاهرة لقلب النظام السوري. كرّر أكرم الحوراني هذه المزاعم في البرلمان السوري، وشنّ هجوماً شخصياً مريراً على رياض الصلح⁽³⁾. تلك كانت بعض مشاكل رياض الصلح عندما اضطرت المنطقة بأكملها بظهور إثباتات على علاقات الملك عبد الله الودية الصريحة مع إسرائيل.

"دبلوماسية" الملك عبد الله

بلغ غضب رياض الصلح من سلوك الملك عبد الله ذروته عندما نشرت وثائق في الصحافة المصرية، في آذار/مارس 1950، تكشف تعاون عبد الله سرّاً مع إسرائيل، حتى خلال أكثر الفترات حرجاً في الحرب. كان مصدر الوثائق المقدم عبد الله التلّ، وهو ضابط في الفيلق العربي بقيادة غلوب باشا، فرّ من الأردن في شهر كانون الثاني/يناير السابق و لجأ إلى مصر. كان التلّ قومياً عربياً ذا آراء قوية، شعر بالامتعاض من دبلوماسية عبد الله السرية والتنازلات المفرطة التي قدّمها إلى إسرائيل، وقرار غلوب باشا منع الفيلق العربي من الاشتباك مع القوات الصهيونية.

MAE-Nantes Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, M. Charles Lucet, (1) Chargé d'affaires, à M Robert Schuman, Ministre des Affaires Etrangères, le Caire, 4 Avril 1950)

MAE-Nantes Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, M. Maurice Couve (2) de Murville, Ambassadeur de France en Egypte, à Son Excellence M. Robert Schuman, Ministre des Affaires Etrangères, le Caire, 16 Mai 1950

.Lebanon Political Summary, October 1950 (FO 371/82266) (3)

تميّز عبد الله التّلّ في حرب فلسطين في ثلاث مناسبات على الأقل. في 4 أيار/مايو 1948، شنّ هجوماً على مستعمرة كفار عصيون الصهيونية، لكن غلوب أمره بالعودة إلى قاعدته. لجأ التّلّ إلى الحيلة لإجبار غلوب على تغيير أوامره. فقد أمر أحد مساعديه سراً أن يفتعل اشتباكاً مع كفار عصيون ثم يطلب المساعدة من غلوب بذريعة غير صحيحة عن وقوع وحدة تابعة للفيلق العربي في كمين صهيوني. وكما توقع التّلّ، أمر غلوب بإرسال تعزيزات سريعة لإنقاذ الوحدة تلك. وفي 12 أيار/مايو، قاد التّلّ شخصياً القوة التي سحقّت المستعمرة، وأوقعت بها إصابات كثيرة، وساق 350 أسيراً إلى عمّان⁽¹⁾.

المناسبة الثانية حدثت في 12 آب/أغسطس، عندما نسف التّلّ، بالاشتراك مع ضباط وطنيين آخرين، محطة ضخ قرب اللطرون تزوّد اليهود في القدس بالماء. وكان الهدف تخريب التعاون المتزايد الذي اشتبهوا بوجوده بين تل أبيب وعمّان. وكانت المناسبة الثالثة في تشرين الأول/أكتوبر، عندما شنّ التّلّ هجوماً على القوات الإسرائيلية في منطقة القدس لمساعدة القوات المصرية. كان هدفه إجبار الإسرائيليين على نقل جزء من قواتهم من النقب - حيث اخترقوا الجبهة المصرية - إلى القدس. لكن الملك عبد الله لم يكن راغباً في مساعدة المصريين ولا في استفزاز الإسرائيليين. وكان يعارض تماماً مبادرات التّلّ الشخصية والوطنية، على الرغم من أنه لم يجرؤ على الاعتراف بذلك.

في أعقاب ذلك، اتخذ الملك عبد الله قراراً مفاجئاً يعهد فيه إلى التّلّ بمهمة التفاوض مع إسرائيل للتوصل إلى وقف إطلاق النار في القدس، ربما في محاولة لإسكاته. كان الهدف الحقيقي للملك التوصل إلى تسوية بعيدة الأثر على الأراضي مع إسرائيل، مع أنه لم يستطع أيضاً الاعتراف بذلك أمام ممثله⁽²⁾. في 30 تشرين الثاني/نوفمبر، وقّع التّلّ ونظيره الإسرائيلي، المقدم موشي دايان، اتفاقاً رسمياً "لوقف كامل وصادق لإطلاق النار" يشمل منطقة القدس بأكملها⁽³⁾.

(1) Shlaim, *The Politics of Partition*, p. 168.

(2) المصدر نفسه، ص 253-62.

(3) المصدر نفسه، ص 254.

في 13 كانون الثاني/يناير 1949، افتتحت محادثات الهدنة بين إسرائيل ومصر في جزيرة رودس، فمنحت الملك عبد الله الزخم لتحقيق مقاصده الحقيقية في إقامة سلام مع إسرائيل. دعا موسى دايان وإلياس ساسون إلى قصره الشتوي في الشونة، حيث نقل إليهما رغبته الصادقة في إجراء محادثات سلام. وأعلن أن لا شأن له بجامعة الدول العربية، وأنه مصمّم على العمل بمفرده، وأن مصير فلسطين يجب أن يكون مسألة للمباحثات الثنائية بين إسرائيل وشرق الأردن⁽¹⁾. وفي اجتماع آخر في الشونة، بعد أسابيع قليلة، أشار والتر إيتان، وهو دبلوماسي إسرائيلي مشارك أيضاً، إلى أن عبد الله التلّ "احتفظ بموقفه المرتاب طوال المداولات، على الرغم من أنه ساعد بفاعلية في إبرام الاتفاق. بدا خائب الأمل تماماً - من العرب، والبريطانيين وكل شيء - وكان يتحدث عن الملك، حتى بحضوره، بطريقة لا يمكن وصفها إلا أنها تنمّ عن الاحتقار"⁽²⁾. في ذلك الاجتماع، في 23 آذار/مارس، وافق الملك عبد الله، تحت الضغط الإسرائيلي، على تسليم شريط من الأرض في وسط فلسطين بعمق 5 كيلومترات وطول 60 كيلومتراً، ما فصل سكان طولكرم وقلقيلية عن أراضيهم وطرد 15,000 فلسطيني من ديارهم.

يبدو أن هذه الجريمة كانت نقطة التحول النفسية الحاسمة التي دفعت التلّ إلى الفرار⁽³⁾. وقد جاء قراره في ظلّ تنامي الغضب الشعبي من سياسة الملك المسائرة لإسرائيل. وفي وقت لاحق، وصف عبد الله التلّ الغضب المعتمل في نفوس الفلسطينيين وهم يشاهدون زوال وطنهم أمام أعينهم، فيما يقدمه الحكام العرب، قطعة بعد قطعة، للذئاب.

قبل فرار التلّ، وربما أملاً في تأمين ولائه، عينه الملك في اللجنة الخاصة المنبثقة عن اتفاقية الهدنة مع إسرائيل. قدّم دايان تقريراً إلى بن غوريون ذكر فيه إن الضابط الأردني يشعر بمرارة شديدة الآن. فقد أبلغه أن اليهود وحدهم هم الذين استفادوا من الاتفاقيات التي أبرمت حتى الآن⁽⁴⁾. وعندما فرّ عبد الله التلّ إلى مصر، قضى على احتمالات التوصل إلى أي اتفاق في اللجنة الخاصة.

(1) المصدر نفسه، ص 271، 279.

(2) المصدر نفسه، ص 300.

(3) المصدر نفسه، ص 310-11.

(4) المصدر نفسه، ص 336.

على الرغم من التماسات الملك وتنازلاته المفجعة، لم يبد بن غوريون استعداداً للاعتراف بضم عبد الله الجزء العربي من فلسطين، أو تقديم أدنى تنازل له في سبيل السلام. بل إنه لم يكن مقتنعاً قط أن السلام في مصلحة إسرائيل. وفي ضوء قوة إسرائيل وضعف العرب، ساورت بن غوريون فكرة الاستيلاء على صحراء سيناء بأكملها حتى قناة السويس، والضفة الغربية حتى نهر الأردن. ورأى أن السلام مع الأردن قد يعوق هذا التوسّع المغربي.

بعد الفشل في استدراج الإسرائيليين إلى اتفاق سلام كامل، اقترح الملك عبد الله، في شباط/فبراير 1950، فكرة اتفاق عدم اعتداء لمدة خمس سنوات مع الدولة اليهودية الجديدة. لكن الإسرائيليين سرّبوا الخطة، ما زاد من ارتباكهم. في 1 آذار/مارس، نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" تقريراً على الصفحة الأولى يفيد أن الحكومة الإسرائيلية تنظر في اقتراح أردني لعقد مثل هذا الاتفاق. لكن المفاوضات انتهت من دون التوصل إلى نتيجة، ولم تسفر جهود الملك عبد الله عن شيء يذكر. واضطر الملك، الذي أصيب بخيبة أمل كبيرة، إلى الاكتفاء بالوضع القائم بموجب اتفاقية الهدنة. وقدم له الإسرائيليون مبلغ 10,000 جنيه إسترليني كجائزة ترضية⁽¹⁾.

هذا هو الوضع الذي كان قائماً عندما نشرت جريدة أخبار اليوم المصرية وثائق عبد الله التلّ التي تقدّم تفاصيل عن تعامل الملك مع إسرائيل. ومن بين هذه الوثائق ما قيل إنه النص الكامل لمعاهدة سلام مع إسرائيل سعى عبد الله إلى التوصل إليها. وظهرت ترجمة فرنسية لهذه الوثيقة في جريدة "لو سوار" *Le Soir* في بيروت. وفي مقابلات مع الصحافة المصرية، شنّ عبد الله التلّ هجوماً عنيفاً على الملك عبد الله وغلوب باشا. سخر من الملك باعتباره مجرد تابع لبريطانيا والصهاينة، وخائن للقضية العربية، ووصف غلوب أنه أداة للسيطرة الاستعمارية البريطانية على شرق الأردن. وقال إن غلوب تواطأ مع الصهاينة لمنع إقامة دولة فلسطينية، ودعا التلّ جامعة الدول العربية إلى إرسال لجنة إلى عمّان للتحقيق في خيانة السلطات الأردنية والفيلق العربي⁽²⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 392.

(2) المصدر نفسه، ص 150، 386.

شاركت كل الصحف اللبنانية الصادرة بالعربية تقريباً في حملة مريرة على الملك. وقدمت تغطية واسعة لبيان العقيد عبد الله التل الذي يدعو إلى تنحي الملك عبد الله لصالح ابنه، وإلغاء المعاهدة البريطانية الأردنية وإنهاء المساعدة المالية البريطانية، وتعديل الدستور الأردني، ووضع إدارة البلاد في يد العناصر "الليبرالية"⁽¹⁾. ونقلت العديد من الصحف اللبنانية قول جريدة المصري القاهرية: "اقطعوا هذا العضو الفاسد من جسم الأمة العربية".

توجه رياض الصلح إلى القاهرة في آذار/مارس 1950 لحضور اجتماع لمجلس الجامعة العربية. لم يكن غياب الأردن مفاجئاً في ضوء الضجة المثارة ضده. اقترح رياض الصلح، بوصفه رئيساً للوفد اللبناني، إحالة تغيب الأردن عن الاجتماع إلى اللجنة السياسية للجامعة العربية. وبناء على ذلك، اجتمعت اللجنة - المؤلفة في تلك المناسبة من رؤساء الوفود - في 27 آذار/مارس واتخذت قراراً بالإجماع ينص على "أن مسألة فلسطين همّ جميع الدول الممثلة في جامعة الدول العربية، وأن أي مفاوضات سلام تجريها أي دولة عضو في الجامعة، بمعزل عن الدول الأخرى، انتهاك ميثاق الجامعة يترتب عليه طرد الدولة المنتهكة من الجامعة"⁽²⁾.

عبر رياض الصلح عن مشاعره تجاه الأردن في حفل أقامته على شرفه الجالية اللبنانية في القاهرة في 31 آذار/مارس:

تجربني الحقيقة على القول إن جامعة الدول العربية أصيبت بانتكاسة كبيرة: لم تتمكّن من التغلب على كل المصاعب التي تواجهها، وتحديدًا ما يتعلق بفلسطين. لكن يجب أن تستمر الجامعة، كمنظمة، لأنها ضرورية لجميع الدول العربية.

على أن إحدى هذه الدول تجري مفاوضات مع عدونا المشترك. وقد قرأتم، كما قرأت، نص الاتفاقية التي ينتظر أن ترم بين البلدين. إنكم تدركون الخطر الذي تشكّله على الجامعة وعلى جميع الدول العربية: ولعلكم لاحظتم أن إقامة تبادل تجاري بين البلدين وجعل حيفا ميناء حراً يأتي في مقدّمة الاتفاق.

(1) Beirut to Foreign Office, 23 March 1950 (FO 371/82708)

(2) British Middle East Office, Cairo, to Foreign Office, 28 March 1950 (FO 1018/71)

كلّنا على قناعة أن من مصلحتنا الاستمرار في حصار إسرائيل اقتصادياً. لكن البضائع الصهيونية ستغرق أسواقنا للأسف، بسبب غلطة بلد عربي واحد⁽¹⁾.

أشار رياض الصلح أيضاً إلى محاولة اغتياله، بالإضافة إلى مسألة استقلال لبنان ووحدته، ووصفه أنه "بلد يعيش فيه المسيحيون والمسلمون في وفاق تام". بيد أن ذلك كان مجرد تعلّل بالآمال، وليس وصفاً واقعياً لعلاقاته المضطربة مع الرئيس بشارة الخوري والطائفة المارونية على العموم.

زار رياض القاهرة ثانية في أيار/مايو، لحضور اجتماع للجنة السياسية للجامعة العربية. وقد فاجأ فيه الوفود الأخرى في الجلسة الافتتاحية بمجموعه الشديد على الملك عبد الله. وأعلن أنه يجب طرد الأردن من الجامعة على الفور من دون أي مناقشة إضافية⁽²⁾. وهكذا، أصبحت عمان تعتبر رياض الصلح الآن عدواً للمملكة.

استقالة رياض الصلح من رئاسة الوزراء

كان من المتوقع على نطاق واسع أن يستقيل رياض عند عودته من اجتماع جامعة الدول العربية في القاهرة. فالانتخابات اللبنانية سُحّرى في نيسان/أبريل، وقد أعلن الرئيس بشارة الخوري أنه يرغب في تعيين حكومة تكنوقراطية للإشراف عليها. ولا شك في أنه كان يفكر منذ شهور في التخلص من رياض الصلح، بعد أن تدهورت العلاقات بينهما. أما رياض، فإنه فقد كل احترام يكتّنه للرئيس بسبب سلوك شقيقه "السلطان سليم"، وعدم قدرته على وقفه عند حدّه، أو عدم رغبته في ذلك. وكان رياض مستاء بصورة خاصة من تمكّن سليم الخوري من إحكام سيطرته على الأمن والإدارات الحكومية على حدّ سواء، ما أعطاه سلطة واسعة غير مقوّضة عن طريق الانتخاب.

MAE-Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, M. Charles Lucet, (1) Chargé d'affaires, à M Robert Schuman, Ministre des Affaires Etrangères, le Caire, 4 Avril 1950

MAE-Nantes Fonds Beyrouth (Amb.), série 1994A, carton 20, M. Maurice Couve (2) de Murville, Ambassadeur de France en Egypte, à Son Excellence M. Robert Schuman, Ministre des Affaires Etrangères, le Caire, 16 Mai 1950

ثمة عامل مهم آخر هو العلاقات بين لبنان وسوريا. ففي دمشق، كان الديكتاتور العسكري، العقيد أديب الشيشكلي، ينظر إلى رياض الصلح بارتياح، ويتهمه بالتآمر لإعادة شكري القوتلي إلى السلطة. ولإرضاء الشيشكلي، المعروف بعلاقاته الوثيقة مع الحزب السوري القومي، قرّر بشارة الخوري إزاحة رياض من منصبه بأسرع ما يمكن. كان الرئيس يتوجّس خيفة من الحزب القومي - الذي سُمح له بأن ينشط علناً في سوريا - ويخشى من أن يوجه سهامه نحوه. وفُسّرت الدوائر السياسية اللبنانية هجمات رياض العلنية على بشارة الخوري في العديد من الصحف - ورفضه تلبية دعوة الرئيس لحضور مأدبة عيد الفطر التقليدية - بمثابة إعلان حرب.

كان عامل الصراع الطائفي كامناً تحت هذه الخلافات السياسية، وبدأ أنه يمكن أن يتأجج في أي لحظة، وبخاصة أن لبنان يواجه مشكلة كيفية التعامل مع تدفّق نحو 150,000 فلسطيني على أراضيهِ. وتفاقمت مشاكل الحكومة بحدوث ارتفاع حاد في أسعار الخبز والمواد الغذائية الأخرى، ما أثار غضب الشعب. في هذه الظروف التي يكتنفها القلق ويخيش فيها الاضطراب، أعلن بشارة الخوري عن اعتزازه تعيين حسين العويني على رأس حكومة "حيادية" من ثلاثة وزراء لإدارة الانتخابات القادمة. لم يكن لدى رياض من خيار سوى التنحي، فاستقال في 13 شباط/فبراير 1951⁽¹⁾.

كان عبد الله اليافي، وسامي الصلح، وصائب سلام، وسعدي المنلا من المرشحين الذين يأملون في الحلول مكان رياض الصلح في رئاسة الوزراء بعد إجراء الانتخابات. توقّع العديدون أن يترك رياض الساحة للآخرين ليتسابقوا، ثم يندفع بأقصى سرعة للوصول قبلهم عند خط النهاية. لكن بالنظر إلى تردّي علاقته مع الرئيس، فقد أثر التريث الآن، على أمل العودة إلى السلطة في وقت لاحق.

رحلة رياض الأخيرة

في أيار/مايو 1951، بعد مرور ثلاثة أشهر على استقالة رياض الصلح، زار الملك عبد الله بيروت، وأبدى رغبته في الاجتماع به. لكن رياض قرّر عدم الاجتماع به، لظهور دليل على تواطؤ الملك مع إسرائيل، وسلبية الفيلق العربي في حرب 1948.

ولتحتب عبد الله، غادر رياض بيروت وتوجّه إلى قرية غمرة في جنوب لبنان. وبعد أسبوع أو اثنين، أرسل الملك إلى رياض رسالة تدعوه إلى عمان. اعتذر رياض ثانية بحجة وجود أمور ملحة توجب بقاءه في بيروت.

توقفت الأمور عند هذا الحدّ في نهاية حزيران/يونيو، لكن الملك نجح أخيراً في الاتصال هاتفياً برياض الصلح - متحدثاً بالتركية كي يتجنب التنصّت من دون شك. جدّد دعوته بإلحاح كبير، وقال إنه بحاجة إلى التشاور مع رياض بشأن "مسألة في غاية الأهمية". كان هذا الرجاء هو الذي أقنع رياض المتردّد بالتوجّه جواً إلى عمان يوم الجمعة 13 تموز/يوليو 1951. لا بد أنه كان يتمسّك ببصيص أمل في أن يكون عبد الله قد ندم وغيّر رأيه، ويرغب الآن في العودة إلى الصفّ العربي بطريقة أو بأخرى.

رافق رياض الصلح في هذه الرحلة طبيبه الخاص، الدكتور نسيب الربير؛ وحارسه الشخصي عبد العزيز العرب، وهو ضابط شرطة سابق؛ وصحافيان - محمد شقير، رئيس تحرير جريدة النداء، وبشارة مارون مالك ورئيس تحرير جريدة الرواد. لم يكن رياض يحب السفر جواً. وقد لاحظ محمد شقير أن رياض كان يتوتّر كلما تعرّضت الطائرة لاضطراب جوي، ويمنع الفريق المرافق له من مغادرة المقاعد. حل رياض ربطة عنقه، وخلع حذاءه، وبدا أنه يتنفس بصعوبة. وكان يتساءل باستمرار، "ما الذي يريده الملك عبد الله مني؟"⁽¹⁾.

حطّت طائرة رياض في قاعدة المفرق العسكرية الجوية قرب عمان، وكان في استقباله سمير الرفاعي، رئيس الوزراء الأردني، وسليمان النابلسي، وزير المالية، وفرحان شبيلات، سفير الأردن في لندن. ومن هناك توجّه بالسيارة إلى قصر بسمان، حيث كان الملك في انتظاره للترحيب به. ثم غادر إلى فندق فيلادلفيا، أفضل فنادق عمان في ذلك الوقت، ليعود لاحقاً إلى القصر للعشاء. انتهت المأدبة بصورة ودية، تبارى خلالها الملك ورياض بالشعر، على الطريقة العربية القديمة. وفي أعقاب العشاء اجتمعوا على انفراد لمدة ساعة. بدا رياض مرتاحاً بعد الاجتماع، لكنه لم يذكر شيئاً عما دار فيه. وعُقدت ثلاثة اجتماعات إضافية بين صباح السبت ومساء الأحد.

(1) سليم اللوزي، "لماذا قتلوا الزعيم؟" الحوادث، العدد 837 (24 تشرين الثاني 1972).

في يوم السبت، تناول رياض طعام الغداء في السفارة اللبنانية، وحلّ في يوم الأحد ضيفاً على حفل استقبال دعت إليه السفارة السعودية. اتصل بزوجته هاتفياً في تلك الليلة وقال لها: "ستجتمع غداً وستسمعين أموراً تسرّك. سأحمل أخباراً تملأ قلب كل عربي بالسرور والفخر". فهمت زوجته، التي لم تكن تريده أن يتوجّه إلى عمان، أن ذلك يعني أن الملك عبد الله وافق على قتال إسرائيل ثانية⁽¹⁾.

ذهب محمد شقير إلى غرفة رياض الصلح في فندق فيلادلفيا مساء الأحد، ووجده بلباس النوم. كان متشوقاً جداً إلى معرفة ما قاله الملك. قبل أن يجيبه رياض، استحلفه على المصحف ألا ينشر شيئاً مما يطلع عليه. قال له الملك:

ألححت عليك بالهجيء إلى عمان، على الرغم من أنني أعرف تماماً أنك لا تحبني، وأنتك هاجمتني مرات عدة. سأمحك الله! لكنني بحاجة إلى رجل مثلك للقيام بأمر يراودني. أنت الوحيد، من بين جميع الشخصيات العربية، من تمتلك خصائص القائد، لا في بلدك فحسب، وإنما في الخارج أيضاً. وأنت تحظى بثقة الجميع.

إنني أفكر في ما سيؤول إليه أمر الأردن بعد رحيلي. وأنت تعلم وضع ابني طلال [كان يتلقى العلاج بسبب مرض عقلي]، وتعلم أيضاً أن أخاه، نايفاً، لا يصلح لشيء. وحفيدي، الحسين، الذي أحبه، لا يزال صغيراً. إنني قلق من أن تسقط مملكتي ضحية لأطماع جيرانها.

لذا فكّرت في إقامة نوع من الاتحاد بين الأردن والعراق، يرأسه ابن أختي، عبد الإله، بعد وفاي. وبهذه الطريقة أحمي عرش الأردن وأخطو خطوة نحو تحقيق حلم والدي. لقد اخترتك لإقناع العرب بهذا المشروع⁽²⁾.

يوم الاثنين، 16 تموز/يوليو، تناول رياض الصلح ومراققوه الغداء في نادي عمان بدعوة من صاحبه اللبناني الأصل، قبل أن يبدأ رحلة العودة إلى بيروت. كان السفير الفرنسي في الأردن، دومرغاي Dumargay، جالساً إلى جوار رياض. وقد أرسل إلى باريس تقريراً ذكر فيه "أنه بدا منشغل البال طوال الغداء. وأبلغني أنه نادم لأنه لم

(1) مقابلة مع علياء الصلح، باريس، شباط/فبراير 2006.

(2) Eyewitness account of Muhammad Shuqayr (Choucair), Amman to Foreign Office, 17 July 1951 (FO 371L91434).

يغادر عمان في الصباح بدلاً من قبول دعوة الغداء"⁽¹⁾. بعد انتهاء المأدبة، قام رياض بزيارة أخيرة إلى القصر لوداع الملك، ثم عاد إلى فندق فيلادلفيا لاصطحاب رفاقه قبل التوجه إلى المطار. كان يريد العودة إلى بيروت عن طريق البر، لكن الملك أصرّ على أن يذهب جواً، واستأجر طائرة خاصة لنقله.

غادر رياض غرفته بعد ظهر ذلك اليوم ونزل إلى جو الفندق، حيث كان الأردنيون ينتظرون لوداعه. فجأة، تقدّم رجل إلى الأمام ليصافحه. نزع رياض نظارته الشمسية، وتراجع ماداً إليه يده. وبعدما ذهب الرجل سأل "هل تعرفونه؟" لم يتمكن أحد من تحديد هويته. انطلق الوفد بعد ذلك نحو المطار في سيارتين. جلس رياض في المقعد الخلفي للسيارة الأولى وإلى جانبه الدكتور اليرير. وجلس باقر بك، الضابط المساعد من القصر الملكي، على المقعد الأمامي إلى جانب السائق. لم يكن هناك أي مرافقة أخرى. واستقلّ الصحفيان، شقير ومارون، السيارة الثانية مع حارس رياض الشخصي عبد العزيز العرب.

عند الساعة 3:45 بعد الظهر تقريباً، مع بلوغ السيارتين تقاطع طرق قرب محطة السكة الحديدية في عمان، انطلقت سيارة همدسون تسير بسرعة فائقة من طريق جانبي، فتجاوزت السيارة الثانية، واقتربت من السيارة الأولى. أثار ذلك على الفور شكوك عبد العزيز العرب. فأمر السائق باللاحاق بها. لكن قبل أن يستطيع التدخل، تمكّنت سيارة الهدسون من مجازاة السيارة الأولى على الطريق المفتوح. شاهد شقير ورفاقه يداً تحمل مسدساً وهي تمتدّ خارج نافذة الهدسون وتصبّ نحو سيارة رياض الصلح. وسُمع دوي ست طلقات. توقّفت سيارة رياض، بينما ابتعدت سيارة الهدسون بسرعة كبيرة. قفز شقير ومارون من سيارتهما لرؤية رياض والدكتور اليرير، بينما انطلق عبد العزيز العرب وباقر بك وراء سيارة الهدسون. لم تكن جراح الدكتور اليرير خطيرة، لكن رياض أصيب في قلبه. لا بد أنه استدار لمواجهة قاتله. نقل الرجلان على عجل إلى المستشفى الإيطالي في عمان، لكن رياض فارق الحياة قبل وصولهما إلى هناك، ولم يكن يتجاوز السابعة والخمسين.

في هذه الأثناء، انضمت سيارة شرطة قرب المطار إلى عبد العزيز العرب وباقر بك في مطاردة سيارة المهندسون. وعندما أوشكوا على اللحاق بها، قفز ثلاثة رجال منها وركضوا في اتجاهات مختلفة. وقع تبادل لإطلاق النار، فقتل أحد المهاجمين على الفور، وأطلق مهاجم آخر النار على نفسه. وتمكّن المهاجم الثالث، سائق المهندسون، من الفرار - على الرغم من ورود تقارير غير مؤكدة لاحقاً تفيد أنه قبض عليه. أصيب عبد العزيز العرب بجرح طفيف في ساقه برصاصة طائشة.

عممت الشرطة في ما بعد أسماء المهاجمين الثلاثة وهم: ميشال غبريال الديك، مسيحي لبناني من طرابلس، وقد قُتل في أثناء تبادل إطلاق الرصاص، وهو الرجل الذي صافح رياض الصلح في الفندق يُعرّف المتأمرين الآخرين إليه؛ ومحمد عبد اللطيف الصلاحي، مسلم من حيفا، وقد أُلقي القبض عليه، ونقل إلى المستشفى، واستُجوب، لكنه توفي بعد ذلك بقليل؛ وسائق السيارة، سيرو وديع نقولا (أو إسبيريدون) وهو مسيحي أردني من أصول لبنانية، وقد ظل طليقاً وفقاً لجميع الروايات. كان الثلاثة، أعضاء في الحزب السوري القومي الاجتماعي.

وفقاً لعضو سابق في الحزب القومي⁽¹⁾، فإن الأمر باغتيال رياض الصلح جاء مباشرة من جورج عبد المسيح، وهو من أتباع أنطون سعادة المتعصبين، وقد تعهد بالانتقام له عند توليه رئاسة الحزب على إثر إعدامه. ويُعتقد على نطاق واسع أن القتلة ما كانوا يُقدموا على فعلتهم من دون أوامر شخصية منه. وقد سعى كبار أعضاء الحزب في ما بعد لكبح عبد المسيح، وأبلغوه أن الحزب لا يستطيع تحمل مزيد من الجرائم. لكن ذلك - إذا استطرنا في الرواية - لم يردع عبد المسيح من إصدار الأوامر باغتيال العقيد عدنان المالكي في سنة 1955. كان المالكي من الضباط البعثيين البارزين في الجيش السوري، وقد قتله رقيب في الشرطة العسكرية السورية ينتمي إلى الحزب القومي⁽²⁾. في ذلك الوقت، كان حزب البعث، المدعوم من الشيوعيين، يخوض صراعاً مريراً على السلطة مع الحزب السوري القومي.

(1) مقابلة هاتفية أجراها المؤلف مع محمد بعلبكي، نقيب الصحافة اللبنانية، وعضو سابق في الحزب السوري القومي، بيروت 13 كانون الثاني/يناير 2009.

(2) للاطلاع على تفاصيل عن قضية المالكي، انظر Seale, *The Struggle for Syria*, pp. 283-246.

ويقال إن الحزب القومي كان يحظى بدعم سرّي من القوى الغربية، ومن الولايات المتحدة على وجه التحديد. في أعقاب اغتيال المالكي، حُظر الحزب السوري القومي، وألقي القبض على عدد كبير من أعضائه، وطُرد المتعاطفون معه من الجيش السوري والوظائف الحكومية المدنية. اتُهم الحزب القومي بالتآمر مع قوة خارجية للإطاحة بالحكومة. ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه، قام الحزب بطرد جورج عبد المسيح للاشتباه بأنه عميل بريطاني.

هاجس علياء الصلح

أمضت ابنتان من بنات رياض الصلح الخمس، علياء ومنى، سنة 1950 - 1951 في مدرسة البنات الإنكليزية في الإسكندرية، حيث اشتركتا في السكن مع سلمى مردم، ابنة السياسي السوري البارز جميل مردم. كانت علياء تحب والدها كثيراً وتقدر بطولته، لذا شُغفت بدراسة اللغة الإنكليزية كي تصبح سكرتيرة. وفي نهاية السنة الدراسية، سافرت منى إلى لبنان، فيما بقيت علياء في الإسكندرية لأداء امتحان الشهادة الثانوية (التركوليشن).

بعد محاولة اغتيال رياض الصلح في آذار/مارس 1950 - وذبوع خبر تعهد الحزب السوري القومي باغتياله - لم يكن من المفاجئ أن تتأجبا كوايس، تتخيل فيها أنه تعرض لإطلاق النار. ليل 15 تموز/يوليو 1951، حلمت أنها رأت العنوان الرئيسي لجريدة الأهرام في صدر الصفحة الأولى: "مقتل رياض الصلح". فاستيقظت مذعورة، وفي الصباح اتصلت هاتفياً بروبير خلاط، القنصل اللبناني في الإسكندرية، ورجته أن يخرجها من المدرسة. فوبّخها قائلاً: "إنك تحاولين التهرب من الجلوس للامتحان بعد ظهر اليوم". لكنه قدم إلى المدرسة لطمأننتها. أخبرها أن أباه في زيارة رسمية إلى عمان.

بعد الغداء في اليوم التالي، ذهبت علياء إلى غرفتها واستغرقت في نوم عميق، لتستيقظ وهي تصرخ عند الساعة 3:45 بعد الظهر. كان هاجس وفاة والدها شديداً. مرة أخرى، استدعي القنصل ثانية. فأخذها في نزهة بالسيارة ليخفف عنها ويشجّعها، ثم أعادها إلى المدرسة، حيث عادت إلى فراشها ونامت.

في اليوم التالي، 17 تموز/يوليو، استيقظت عند الساعة السادسة صباحاً لأداء صلاة الفجر. وما كادت تفرش سجادة الصلاة حتى دخلت الأنسة بلوكسهام الغرفة بقامتها الطويلة.

صرخت علياء: "مات، أليس كذلك؟"

"ارتدي ثيابك فوراً، وانزلي إلى القاعة".

كان القنصل هناك وعيناه منتفختان. ألقت بنفسها بين ذراعيه. بكى الجميع.

اغتيال رياض الصلح في الساعة 3.45 بعد ظهر 16 تموز/يوليو.

أُرسلت طائرة من بيروت لإعادة علياء إلى الوطن. كان مصطفى وعلي أمين، قطبا الصحافة المصرية، قد علما بالاغتيال في الليلة السابقة. فأرسلوا صحافياً شاباً، محمد حسنين هيكل، لمرافقتها في الطائرة. حاول التقاط صورة لها، لكن الكاميرا انزلقت ووقعت على الأرض. جلست علياء إلى جانب القنصل، بينما جلس هيكل على المقعد على الطرف الآخر من ممر الطائرة. فتح هيكل جريدة الأهرام، فلمحت العنوان الرئيسي: "مقتل رياض الصلح في عمان". كان العنوان نفسه بالضبط الذي رأيته في كابوسها، ولكن بإضافة "في عمان". وصلت إلى لبنان في الوقت نفسه الذي وصل إليه جثمان والدها.

من قتل رياض الصلح؟

سُجّي جثمان رياض طوال الليل في الديوان الملكي. وألقى الملك خطاباً طويلاً في تأييد الزعيم المتوفى. أرسلت اللجنة بطائرة خاصة يرافقها الأمير نايف، ابن الملك عبد الله، إلى بيروت صباح يوم 17 تموز/يوليو، وعاد الأمير فوراً إلى عمان على متن الطائرة نفسها. وشكلت لجنة أردنية خاصة للتحقيق في الجريمة، تتكوّن من المدعي العام والنائب العام وقائد الشرطة⁽¹⁾.

هكذا قضى أحد أبرز شخصيات العالم العربي. لم يكن رياض الصلح قائداً من قادة الحركة الوطنية العربية منذ أيامها الأولى، ومهندس استقلال لبنان فحسب، وإنما رجل دولة أيضاً يثير إعجاب الصديق والعدو على حدّ سواء واحترامه.

للموهلة الأولى، يبدو اغتياله كأنه قضية ثأر واضحة. تمكن الحزب السوري القومي من الثأر لزعيمه كما وعد. لكن ثمة جوانب عديدة غير عادية تثير الشكوك في وجود ما هو أكبر من ذلك. أبدى دومرغاي، السفير الفرنسي في عمان، دهشته من عدم قيام الشرطة بتقديم الحماية لرياض الصلح في طريقه إلى المطار. الملك عبد الله نفسه لا ينتقل إلى أي مكان من دون مرافقة سيارتين مصفحتين. كما أن سمير الرفاعي سافر جواً من عمان تحت حماية شديدة بعد ظهر اليوم نفسه، أو قبل ساعة واحدة تقريباً من موعد إقلاع طائرة رياض. لكن قوى الأمن المكلفة بحمايته سُحبت عندما سلك رياض الصلح الطريق نفسه بعد فترة قصيرة. كما أن مقولة عدم وجود ما يرّر تواجد الشرطة غير العادي لأن زيارة رياض شخصية، مقولة واهية لا تصمد أمام الحجة. فقد كان الملك يدرك تماماً أن حياة رياض في خطر، كما أنه في زيارة رسمية، على أي حال، لأنه جاء إلى عمان بدعوة من الملك.

ومن المعروف على نطاق واسع في الأوساط الدبلوماسية - ولدى الشرطة الأردنية أيضاً - أن للحزب السوري القومي وجوداً راسخاً في الأردن في العديد من نواحي الحياة. وقد ذكر دومرغاي في تقرير أرسله إلى باريس أن الملك عبد الله كان يمنح اللجوء في الأردن بانتظام إلى معارضي الأنظمة العربية المجاورة - وبخاصة أعضاء الحزب السوري القومي الذين يأمل في اجتثاثهم إلى فلك الهاشميين. كما أن حلم أنطون سعادة بإقامة الأمة السورية الكبرى يشبه إلى حدٍ كبير طموحات الملك نفسه في "سوريا الكبرى".

ويعتقد، وفقاً لدومرغاي، أن أحد القتلة، عبد اللطيف الصلاحي، عضو في الشرطة السرية الأردنية وفي الحزب القومي أيضاً. وقد أكد ووكر M.T. Walker، السكرتير الأول والقنصل في السفارة البريطانية في عمان، لوزارة الخارجية أن الصلاحي "رقيب في قسم المخابرات السياسية في قيادة الفيلق العربي". غير أنه أضاف أن "الفيلق العربي يحاول تفادي الإعلام في هذه النقطة"⁽¹⁾.

خلص السفير الفرنسي إلى أن السلطات الأردنية مذنبه بالإهمال الملحوظ، إن لم يكن بالسلوك الإجرامي الفعلي. ورأى أن هذه التهمة يجب أن توجه إلى غلوب باشا

أيضاً لأن الشرطة الأردنية جزء من الفيلق العربي الذي يخضع لقيادته. وحتى لو لم يكن الملك عبد الله متأمراً في قتل رياض الصلح، فإن حكومته تعتبر مسؤولة بشكل مباشر.

لا شك في أن نظريات المؤامرة كثيرة. كانت علياء، ابنة رياض، تعتقد أن سمير الرفاعي، رئيس الوزراء الأردني، دبر الاغتيال، وغادر عمان جواً في اليوم نفسه كي يكون في الخارج وقت حدوث الجريمة. فهو بصفته مستشار الملك وكاتم أسرار، ضالع في تعاملات الملك عبد الله مع إسرائيل، ومعروف أنه يعارض بشدة أفكار رياض الصلح القومية. وكانت علياء على قناعة أيضاً أن سائق سيارة والدها ضابط في الفيلق العربي، وقد طلب منه إبطاء السيارة حتى تستطيع سيارة المهدسون الاقتراب منها وتصبح بمحاذاها⁽¹⁾. وهناك إشاعات واسعة الانتشار، وإن كانت غير مؤكدة، أن سبيرو وديع نقولا فرّ إلى معسكر للفيلق العربي، وقام البريطانيون بتفريجه منه إلى أميركا اللاتينية عبر إسرائيل. هذا ما يعتقد أحدهم أحفاد رياض الصلح، رياض الأسعد، وقد عبّر عن رأيه في برنامج بثته قناة "الجزيرة" في 1 تموز/يوليو 2005. وذكر أن الحزب القومي هو الأداة التي اغتالت رياض الصلح، لكن للجريمة بعداً يتجاوز لبنان. وقال صراحة: "إنني أعتقد أن الدوائر المخبرية البريطانية ساهمت في عملية الاغتيال".

على أي حال، ثمة ما يثير الريبة بوضوح بشأن إلحاح عبد الله المتكرر على رياض للقدوم إلى عمان، فضلاً عن محاولته طلب مساعدته في إقامة وحدة أردنية عراقية. كان الملك يعرف أن رياض الصلح يتوق إلى توحيد الجيشين العراقي والأردني لتمكين العرب من استئناف القتال ضد إسرائيل في 1948-1949. لذا ربما فكّر، أن رياض ستستهويه فكرة المبادرة إلى العمل على الوحدة العراقية الأردنية. لكن اقترح عبد الله كان زائفاً تماماً. فالوحدة بين الأردن والعراق كانت آخر ما يبغيه عبد الله في ذلك الوقت أو يسمح به أصدقاؤه الإسرائيليون.

كانت الوحدة مع العراق أحد مشاريع عبد الله فعلاً في أوائل الأربعينيات، لكن الأحداث تجاوزتها في سنة 1951. وبدلاً من الرغبة في جلب القوات العراقية إلى فلسطين، كان عبد الله والإسرائيليون يرغبون في إبعادها ما أمكن عن ميدان

(1) مقابلة مع علياء الصلح، باريس، شباط/فبراير 2005.

المعركة⁽¹⁾. بل إن عبد الله، بتشجيع من إسرائيل، أقنع العراقيين بإخلاء الجيب الذي كانوا يسيطرون عليه في فلسطين والعودة إلى بلادهم⁽²⁾. وكانت إسرائيل تعارض بشدة أي تدخل عراقي إضافي في الحرب⁽³⁾، وطالما اعتبر عبد الله الجيش العراقي قوة راديكالية خطيرة⁽⁴⁾. وقد وصف بن غوريون العراق أنه "أشد أعداء إسرائيل حقارة بين الشعوب العربية"⁽⁵⁾. وآخر ما يريده القائد الإسرائيلي إقامة صلة بين الأردن الوديعة وعراق قوي يجهر بالتحدي.

لم يكن عبد الله يسعى إلى الوحدة مع العراق في ذلك الوقت، فهو يعتبره عدوه، وعلى قدم المساواة مع مصر⁽⁶⁾. خلاصة القول، في حين كان رياض الصلح يريد إعادة العراق إلى المعركة، فإن إسرائيل والأردن كانا يريدان إبعاد كل القوات العربية؛ وفي حين كان رياض يريد استمرار المواجهة مع إسرائيل، فإن عبد الله كان يسعى بحماسة لوضع نهاية تامة لها. وكان يسعى قبل كل شيء لإبرام معاهدة سلام شاملة مع إسرائيل، من دون تدخل أي دولة عربية أخرى، حتى يتمكن من ضم ما تبقى من فلسطين العربية واستئناف "علاقته الخاصة" المربحة مع الصهاينة⁽⁷⁾. بل كان مستعداً لتحدي العالم العربي بأكمله في هذا الصدد⁽⁸⁾. أما القوى الغربية، فإن جل همها هو تثبيت استقرار الوضع في الشرق الأوسط بعد الحرب. ومع استعار الحرب في شبه الجزيرة الكورية، كان شغلها حماية مصالحها في العالم العربي والعمل على احتواء الشيوعية.

تلك هي خلفية زيارة رياض الصلح إلى عمان. من الواضح أن عبد الله لم يكن يرغب في مصادقته واكتساب ثقته، بل كان يكرهه ويخشاه. ولم يكن عبد الله يسعى إلى الحصول على مساعدته في إقامة اتحاد أردني عراقي، بل يرغب في التخلص منه.

(1) Shlaim, *The Politics of Partition*, p. 280.

(2) المصدر نفسه، 314.

(3) المصدر نفسه، 352.

(4) المصدر نفسه، 289.

(5) المصدر نفسه، 376.

(6) المصدر نفسه، 364.

(7) المصدر نفسه، 331.

(8) المصدر نفسه، 416.

كان حاقداً على رياض لأنه أدانته بالخيانة علناً وطالب بطرد الأردن من الجامعة العربية، ويخاف منه لأن دعوته إلى استمرار مقاطعة إسرائيل، والاستعداد لاستئناف الحرب، يمكن أن تحرّب مقاضات عبد الله السرية مع إسرائيل.

لذا، توحى الأدلة بأن الدعوة التي وجهها عبد الله إلى رياض الصلح لزيارة الأردن لم تكن سوى شرك. وإذا لم يتأمر عبد الله فعلياً لاغتيال رياض، فلا بد من اعتباره شريكاً فيها لأنه سمع بارتكابها في بلده. ربما نفذ أعضاء الحزب القومي الجريمة، لكن عبد الله - وغلوب باشا من دون ريب - هما اللذان وفرا الوسائل والفرصة لارتكابها.

في يوم الجمعة 20 تموز/يوليو 1951، بعد مرور أربعة أيام على اغتيال رياض الصلح، اغتيل الملك عبد الله نفسه عند مدخل المسجد الأقصى في مدينة القدس القديمة. كان قاتله مصطفى شكري عشو، وهو خياط شارك في الهجمات ضد البريطانيين والصهاينة في فلسطين خلال الثورة العربية في الثلاثينيات. وتبين في ما بعد أن عبد الله جاء للصلاة في القدس يوم الجمعة لأنه على موعد مع اجتماع سري آخر مع الإسرائيليين في اليوم التالي. لقد ظلّ همه، حتى اللحظة الأخيرة - الحفاظ على علاقاته الحميمة مع إسرائيل⁽¹⁾.

قبل ذلك بشهرين، في 17 أيار/مايو، أبلغ السير أليك كيركبرايد - ممثل بريطانيا في الأردن منذ فترة طويلة، والرجل الذي يعرف البلد ومكائده أكثر من أي بريطاني آخر - وزارة الخارجية أن الحكومة العراقية تلقت معلومات "من مصدر موثوق" أن عبد الله التلّ في دمشق، وأنه يتأمر لاغتيال الملك عبد الله وغلوب باشا، فيما تغصّر المخابرات السورية الطرف عنه. وأضاف كيركبرايد أن التل نفسه كان يخشى أن تغتاله السلطات الأردنية⁽²⁾.

أُتهم عشرة أشخاص بالتآمر لاغتيال الملك عبد الله. وفي رسالة طويلة إلى وزارة الخارجية يوم 24 أيلول/سبتمبر 1951 - كُتبت بعد محاكمتهم والنطق بالأحكام - خلص السفير كيركبرايد إلى أن "الرأي القائم على المعلومات يلقي المسؤولية عن فكرة

(1) المصدر نفسه، 417.

(2) Sir A. Kirkbride, Amman, to Foreign Office, 17 May 1950 (FO 371/82775)

الاغتيال والتخطيط لها على عبد الله التلّ. كما أن موسى الحسيني، ابن عم المفتي، ضالع في المؤامرة أيضاً، لكن المفتي، وفقاً لرأي كبير كبرايده، "لا يمكن أن يوافق على مثل هذه المؤامرة الخرقاء، ولا استخدام ابن عمه الغبي إلى حدّ ما، وهو يكرهه ولا يثق فيه، عميلاً رئيسياً في تنفيذها"⁽¹⁾.

أحدث اغتيال الملك عبد الله اضطراباً في الأردن. فألمى ذلك السلطات عن الاهتمام في التحقيق في ظروف مقتل رياض الصلح. ويبدو أن التحريات الجدية التي أجريت قليلة جداً. ولم ينجلِ الغموض المريب الذي اكتنف مصر "الرجل الثالث" - سبيرو وديع نقولا، سائق سيارة المهندسون - أمام الرأي العام على الأقل. ولا يكشف تفحص الأرشيف البريطاني سوى القليل عنه. تفيد رسالة عاجلة بتاريخ 18 كانون الأول/ديسمبر 1951 إلى البعثة البريطانية في بيروت من البعثة البريطانية في عمان بما يلي:

لإكمال الملف، ربما يهتمكم أن تعلموا أن سبيرو وديع نقولا، أحد الرجال الثلاثة الذين اغتالوا رياض بك الصلح في تموز/يوليو الماضي (كان سائق السيارة الذي هرب) حوكم في عمان غيباً يوم 17 تشرين الثاني/نوفمبر. أنشئت محكمة خاصة بموجب القانون رقم 88 لسنة 1951 (وهي أيضاً أساس سلطة المحكمة التي أصدرت الأحكام على قتلة الملك عبد الله). وُجد سبيرو وديع نقولا مذنباً وصدر الحكم بإعدامه بموجب المادة 1/322 من القانون الجنائي الأردني رقم 8 الصادر سنة 1951 (اختلف الحكم هذا عن الأحكام التي صدرت على قتلة الملك عبد الله حيث إن الجريمة وقعت في فلسطين وتخضع للقانون الجنائي الفلسطيني الصادر في سنة 1936 بموجب المادتين 23/214 و24)⁽²⁾.

في 31 كانون الأول/ديسمبر، أتبتت هذه الرسالة العاجلة بمذكرة داخلية صادرة عن وزارة الخارجية كتبت بخط اليد ولم تتجاوز عدة أسطر، وقد كتبها إيان هنتر Ian Hunter، وجاء فيها:

(1) Sir A. Kirkbride to Mr. Younger, 24 September 1951 (FO 371/91839)

(2) Amman to Foreign Office, 18 December 1951 (FO 371/91434)

الرجاء مراجعة الملف رقم EL 1016/53 بشأن المحاكمة التي جرت في 17 تشرين الثاني/نوفمبر التي حكم بموجبها على آخر قتلة رياض الصلح. لو كان لممثلينا أي نفوذ لكان يجب أن تُحل المحكمة الآن. إذا وجهنا سؤالاً إلى الحكومة الأردنية بشأنها ثانية، فقد تشعر بالإساءة، لكن إذا أهملناها فربما نبدو غير جادين منذ البداية. من الأفضل استشارة السير وُوكِر [السكرتير الأول للسفارة في عمان] أولاً⁽¹⁾.

يبدو أن الملف EL 1016/53 قد أزيل من الأرشيف كما أزيلت حقاً عدة وثائق تتعلق بالقضية. على أي حال، لم يستطع المؤلف ومساعدته إيجادها. لكن يمكننا أن نستنتج من هذه الرسائل، أن سيبرو وديع نقولا، "آخر قتلة رياض الصلح"، تمكن من الهرب - ولا يعرف إذا حدث ذلك بتواطؤ بريطاني أم لا. ولا يمكن تفسير سبب اهتمام البريطانيين بحل المحكمة التي حاكمته غيباً بسرعة⁽²⁾.

لقد قرّرت السلطات البريطانية، في ذلك الوقت، والآن، حجب كل المعلومات التي لديها عن القضية. ولا يزال ضلوعها المحتمل، أو المعلومات التي لديها بشأن هرب سيبرو وديع نقولا، أو الظروف الأخرى المحيطة باغتيال رياض الصلح، سرّاً من الأسرار المحفوظة بعناية.

صلة إسرائيلية محتملة

هل كان لإسرائيل يد في اغتيال رياض الصلح؟ لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال، لا سيما أن إسرائيل خططت لقتله قبل ثمانية عشر شهراً في شتاء 1949. كانت وزارة

(1) Internal Foreign Office memo by Ian (?) Hunter, 31 December 1951 (FO 371/91839).

(2) قوبلت الطلبات المتكررة التي قدمها المؤلف إلى وزارة الخارجية والكونغولث، بموجب قانون حرية المعلومات، لتحرير الوثائق المتعلقة باغتيال رياض الصلح، برفض قاطع. وكب السيد ميشال كير، من مجموعة إدارة المعلومات، إلى المؤلف في 11 نيسان/أبريل 2008 يخبره أن الوثائق التي طلبها تخضع للمادة 23 من قانون حرية المعلومات. وأوضح أن "هذا الاستثناء يشمل المعلومات التي وفرها هيئات تُعنى بالمسائل الأمنية أو تتعلق بها، وتنطبق على جميع السجلات بغض النظر عن تاريخها. إن المادة 23 توفر استثناءً مطلقاً وبالتالي فإنها لا تخضع للمصلحة العامة". وأضاف السيد كير، "إنني أقرّ بأهمية كتابك القادم، وقد أخذت بالحسبان مرور الوقت منذ أحداث 1951. لكن بعد مراجعة هذه القضية بالتحديد واستشارة المعنيين، فإننا نتمسك بقرارنا بالاحتفاظ بالمعلومات ذات الصلة بموجب المادة 23 من القانون".

الخارجية الإسرائيلية، برئاسة موشي شاريت في ذلك الوقت، تريد التخلص منه. فقد اعتبرته أكثر الزعماء العرب "تطرفاً وخطورة"، لأنه لعب دوراً بارزاً في دفع جامعة الدول العربية للتدخل في فلسطين، ودافع عن القضية العربية في الأمم المتحدة. وبناء على ذلك، أرسلت الأوامر إلى العميل الإسرائيلي السري في بيروت، ياكوف كوهين، بتنفيذ الاغتيال عن طريق تفجير سيارة رياض الصلح عند توجهه من البيت إلى مجلس النواب. وقد كشف عن هذه المؤامرة في كتاب يوسف أرغمان Yosef Argaman، الظل: 25 قضية استخباراتية وأمنية في إسرائيل الصادر عن وزارة الدفاع الإسرائيلية بالعبرية في سنة 2007.

كان ياكوف كوهين، الرجل الذي اختير للقيام بالمهمة، عضواً في خلية إسرائيلية من الناطقين بالعربية في بيروت. وُلد في القدس من أبوين إيرانيين، وكان عميلاً إسرائيلياً سرياً مخضرمًا، عمل سراً لصالح إسرائيل في العديد من البلاد العربية، بما في ذلك سوريا ولبنان ومصر. وكان معروفاً على نطاق واسع في دوائر الاستخبارات الإسرائيلية بلقب ياكوبا. وقد تمكن أرغمان من معرفة تفاصيل العملية في مقابلة أجراها معه قبل وفاته في سنة 2003.

أبلغ كوهين أرغمان، أنه بعد أن درس تحركات رياض، لاحظ أن حمايته ضعيفة جداً. كان يرافق سيارته دراجان في بعض الأحيان، بينما يجلس حارسان معه في السيارة في أحيان أخرى. ويستغرق انتقال رياض من البيت إلى مجلس النواب سبع دقائق. ولا تتيح هذه الفترة القصيرة المجال الكافي لزرع المتفجرات اللازمة لنسف سيارة رياض وتفجيرها. اقترح رؤساء كوهين في تل أبيب أن تقوم الخلية بحشو جثة كلب ميت بالمتفجرات وإلقائها في طريق سيارة رياض. مع ذلك، كيف يجهزون جثة الكلب ويضعونها في المكان الملائم لتفجيرها في هذا الوقت القليل المتاح؟ كانت الآلية التي لديهم مصنوعة في بريطانيا في الحرب، وهي تتطلب فترة زمنية أطول تتراوح بين عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة.

نقد صبر المسؤولين عن كوهين في تل أبيب. فغيروا الخطة، وطلبوا منه تحديد مكان مناسب تستطيع أن تسقط فيه طائرة خفيفة، تحلق على ارتفاع منخفض،

الأجهزة التي تحتاج إليها الخلية. كان مطار بيروت قيد الإنشاء في ذلك الوقت في منطقة خلدة، عند مشارف المدينة. وفي أثناء النهار يجري تمهيد المدرج، لكن المكان يصبح مقفراً في الليل. أعدت الخلية الترتيبات اللازمة لإرشاد الطائرة بواسطة الأنوار، وانتظرت وصول إشارة من إسرائيل.

غير أن تل أبيب تأخرت في إرسال التعليمات لسبب ما. لذا قرّر كوهين التصرف من تلقاء نفسه، لأن الأمر الأساسي الذي تلقاه بقتل رياض مؤكّد، ولا يحتاج إلى "توكيد إضافي". كانت خطته تقضي بتعبئة حقيبة بالمتفجرات، وانتظار أن تبطئ سيارة رياض من سرعتها عند أحد تقاطعات الطرق، ثم القفز نحوها وإصاق الحقيبة بها، وتفجير العبوة، والتواري خلال الثواني القليلة التي تسبق الانفجار. لكن عندما أبلغ أعضاء الخلية إسرائيل بالخطّة، صدرت أوامر صارمة بإلغاء العملية، واعتُبرت شديدة التهوّر.

إزاء هذه الخلفية، من المعقول الاعتقاد أن إسرائيل - التي خشيت من جهود رياض الصلح لحشد العرب بعد هزيمتهم - ربما قرّرت في سنة 1951 القيام بمحاولة أخرى للتخلص منه. لكن بدلاً من المخاطرة باستخدام عميل إسرائيلي مستر، كان أعضاء الحزب القومي، بقيادة جورج عبد المسيح، جاهزين للقيام بالمهمة - ربما بالتواطؤ مع الملك عبد الله وغلوب باشا أيضاً. ربما تفسر مثل هذه المؤامرة المشبوهة رفض مجموعة إدارة المعلومات البريطانية التابعة لوزارة الخارجية والكونغولث، على أسس "أمنية"، الإفراج عن الوثائق المتعلقة بالقضية. وربما تكشف عند فتحها في النهاية حقيقة من كان متورطاً في عملية القتل⁽¹⁾.

ما بعد اغتيال رياض الصلح

انتشر خبر مقتل رياض الصلح في بيروت قبيل الساعة الثامنة من مساء 16 تموز/يوليو، عندما بثته إذاعة بيروت. خرجت الحشود في حي البسطة الذي يقيم فيه

(1) Yosef Argaman, *Milchemet Ha' Tz'alim: 25 parshiot modi'in uvitachon be-israel*, Tel Aviv 2007, pp. 209- 214. أنظر أيضاً البرقية التي أرسلت من حيفا عن الموضوع نفسه

بقلم فراس خطيب في جريدة الأخبار في بيروت في 12 شباط/فبراير 2008.

على الفور تعبيراً عن الحزن والغضب. وجابت مجموعات من المتظاهرين الشوارع، وأخذت تقلب السيارات، وتحطم نوافذها. اكتفت الشرطة بالمراقبة، إلى أن استدعت السيارات المصفحة للقيام بدوريات في الشوارع⁽¹⁾.

دُفن رياض الصلح في اليوم التالي. وبينما كانت الجنازة تشق طريقها إلى المسجد، اصطفت حشود هائلة، يقارب عددها نصف مليون نسمة - لم تشهد البلد مثيلاً لها من قبل، وفقاً لما ذكرته الصحافة - على الطرقات والنوافذ والشرفات وأسطح الأبنية تحية للرجل الذي ارتبط اسمه، أكثر من أي رجل آخر، باستقلال لبنان. أعلنت السلطات الحداد الرسمي الوطني لمدة ثلاثة أيام. ونشرت جميع الصحف كلمات رثاء تشيد برياض الصلح، بل إن أكثر أعدائه خصومة أشادوا بشخصيته القوية، وخصائصه العظيمة كرجل دولة، وبالدور الرائع الذي لعبه لا في لبنان فحسب، وإنما في المشرق بأكمله.

كان رد الفعل في أوساط الرئيس بشارة الخوري مكبوتاً. وقد لاحظ أرماند دو شيلا، الوزير الفرنسي المفوض:

يمكن الافتراض أن الشيخ بشارة الخوري يشعر بشيء من الارتياح للتخلص من رجل تخاصم معه عندما كان رئيساً للوزراء، ويمكن أن يشكل خطراً أكبر كزعيم للمعارضة. ولا شك في أن رد الفعل الثاني هو الخوف. فاعتبال رياض الصلح يثبت أن الحزب القومي لم يتخلّ عن سلاحه، وأنه مصمم على الانتقام لزعيمه، أنطون سعادة - الذي يعتبر حسني الزعيم ورياض الصلح و... بشارة الخوري مسؤولين عن مقتله⁽²⁾.

في دمشق، وقف أعضاء مجلس النواب السوري، في جلسته المنعقدة في 17 تموز/يوليو، دقيقة صمت حداداً على رياض الصلح. لكن نائب الحزب السوري القومي، عصام المحاييري، وأكرم الحوراني، زعيم الحزب الاشتراكي العربي - كان

(1) Amman to Foreign Office, 18 December 1951; Chapman Andrews, Beirut, to Foreign Office, 16 July 1951 (FO 371/91434).

(2) MAE-Nantes MAE-Nantes Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, M. Armand de Chayla, Ministre de France au Liban, à Son Excellence M. Robert Schuman, 18 Juillet 1951.

عضواً في الحزب القومي سابقاً ولا يزال متعاطفاً معه - خرجا من القاعة⁽¹⁾. بعد بضعة أيام على الجنازة، زار الوزير البريطاني المفوض في بيروت، تشابمان أندروز Chapman Andrews، بشارة الخوري في منزله. أبلغه الرئيس أن اغتيال رياض الصلح والملك عبد الله يدلان على حالة التوتر الخطيرة وعدم الاستقرار في الشرق الأوسط. وأضاف أن أسس الاستقرار نفسها قد اهتزت⁽²⁾.

جرى إحياء الذكرى الأولى لاغتيال رياض الصلح في بيروت في 16 تموز/يوليو 1952 عند ضريحه في ضاحية الأوزاعي، عند مدخل بيروت الجنوبي. ووضعت الزهور على قبره. احتشد أكثر من 10,000 شخص بعد الظهر في الملعب البلدي للاستماع إلى أكثر من عشرة خطباء أشادوا بعقيدة رياض السياسية وعروبته المتقدمة، بما تميّز به العربية من فصاحة وفخامة. أفلت المتاجر وأوقف السائقون سياراتهم لمدة عشر دقائق في جميع أنحاء البلد. ربما كان بشارة الخوري يفضل التقليل من أهمية المناسبة، لكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن آرائهم من دون أن الإساءة إلى المسلمين في لبنان.

أرسلت عدة بلدان عربية ممثلين عنها، لكن لم يأت أحد من الأردن، ما يشير إلى دلالات بلا ريب. جاء أكثر من عشرين شخصية من الكتلة الوطنية في سوريا - لكن لم يمثل أحد نظام أديب الشيشكلي. ومن العراق، ترأس صديق رياض الصلح القديم، نوري السعيد، وفدأ يضم أكثر من عشر شخصيات بمن فيهم جميل المدفعي، رئيس مجلس الشيوخ. وكان أبرز المصريين الحاضرين محمد صلاح الدين باشا، وزير الخارجية في الحكومة الوفدية. وقد شنّ في خطابه هجوماً شديداً على الوجود الأجنبي في البلاد العربية، ما أثار حماسة الحاضرين وهتافاتهم. ساد شعور، في أثناء إلقاء كلمته، أن مصر، التي كانت تناضل في ذلك الوقت لإجلاء القوات البريطانية عن أراضيها، أخذت تقترب من المحور القومي العربي. وقد نبّه السفير البريطاني في بيروت منظمي المهرجان اللبنانيين إلى عدم السماح بالتهجم على بريطانيا، لكن لم يكن هناك من يستطيع إسكات صلاح الدين باشا، أو يرغب في ذلك. من المغرب، الذي كان لا

(1) British Legation, Damascus, to Foreign Office, 23 July 1951 (FO 371/91434)

(2) Chapman Andrews, Beirut, to Foreign Office, 23 July 1951 (FO 371/91434)

يزال تحت السيطرة الفرنسية، جاء صديق رياض، علال الفاسي، رئيس حزب الاستقلال، فألقى قصيدة امتدح صفات رياض العديدة، وتلا إعلاناً عاطفياً عن الإيمان بالوحدة العربية. وقد أثار السفير الفرنسي الابتعاد عن الحفل للتعبير عن استيائه من حضور الفاسي. ربما أصبح الاستعمار الأوروبي في وضع دفاعي في ذلك الوقت، لكنه لا يزال بعيداً عن الهزيمة التامة⁽¹⁾.

الإطاحة ببشارة الخوري

لم يتمكن بشارة الخوري من إكمال ولايته الرئاسية الثانية. في حزيران/يونيو 1952، أنشأ تسعة نوّاب بزعامة كمال جنبلاط، رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، حركة معارضة أطلقت على نفسها اسم الجبهة الوطنية الاشتراكية. وقد ضمت حزب الوطنيين الأحرار بزعامة كميل شمعون، وإميل إده رئيس الكتلة الوطنية، وحزب المنشاق الأرمني، والحزب السوري القومي. وحظيت الجبهة أيضاً بدعم إميل البستاني، وهو مليونير عصامي، ورجال أعمال بارزين آخريّن. أعلنت الجبهة الجديدة حرباً مفتوحة على النظام وهاجمت إساءاته - وبخاصة تلك المتعلقة بأبناء الرئيس وشقيقه - ودعت إلى القضاء على المحسوبية والفساد، وإنهاء الطائفية، وإدخال إصلاحات جذرية على طريقة حكم لبنان. حاول بشارة الخوري سحق الثورة بإسكات الصحافة المعارضة. أوقف صدور 12 صحيفة وحوكم رؤساء تحريرها لأنهم هاجموا رئيس الدولة، لكن من دون جدوى.

في 17 أيار/مايو 1952، دعت الجبهة الوطنية الاشتراكية إلى مهرجان شعبي في دير القمر، بلدة كميل شمعون، حضره 50,000 مواطن. وهدد الخطباء، الواحد تلو الآخر، بالتمرد على الحكومة إذا لم يستقل الرئيس. وفي 23 تموز/يوليو، قدّمت الكتائب اللبنانية بقيادة بيار الجميل الدعم للجبهة بإعلانها الوقوف إلى جانب المعارضة. وعندما دعت الجبهة إلى إضراب عام في 11 أيلول/سبتمبر لإجبار الرئيس على التخلّي عن منصبه، توقفت الحركة في المدن الرئيسية. أمر بشارة الخوري الأمير

(1) MAE-Nantes Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, M. Georges Balay, Ministre de France au Liban, à Son Excellence Monsieur Robert Schuman, Ministre des Affaires Étrangères, Beyrouth, le 25 juillet 1952

فؤاد شهاب، قائد الجيش، بكسر الإضراب، لكن شهاب رفض التدخل بحكمة. فاضطر بشارة الخوري إلى الاستقالة في 18 أيلول/سبتمبر، وانتُخب مرشح الجبهة، كميل شمعون، رئيساً بالإجماع تقريباً.

في 21 نيسان/أبريل 1953، قرّر مجلس بلدية بيروت إقامة تمثال لرياض الصلح في وسط المدينة، وخصص مبلغ 65,000 ليرة للمشروع. وضع الفنان ليون مورادوف نموذجاً أقرّته لجنة مكوّنة من أربعة أشخاص هم: عادل الصلح، ووليم حاوي، والدكتور فوزي الداعوق، والدكتور بشارة الدهان. أُعيدت تسمية ساحة في وسط المدينة كانت تعرف باسم ساحة عالسور، وأصبحت تعرف باسم ساحة رياض الصلح⁽¹⁾.

خاتمة

سيبقى رياض الصلح دائماً شخصية تتسم بشيء من المفارقة في الساحة السياسية اللبنانية، لأنه طالما اعتبر نفسه عربياً. كانت رؤيته تشمل المنطقة بأكملها، ولم يقيد نفسه في السياسة الضيقة لبلد صغير على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، حيث اتفق أنه وُلد. لم يكن مجرد سياسي محلي، وإنما قامت مكانته على نزعته الدولية المتعمدة. فأصبح شخصية مألوفة جداً في العديد من عواصم العالم بحيث سارعت القنصليات الغربية إلى متابعة كل تحركاته.

كان طوال عمره داعية إلى استقلال العرب، فجاب كل أنحاء العالم العربي وما وراءه. وعلى الرغم من أنه اضطرّ في أوقات مختلفة، ولأسباب مختلفة، إلى التركيز على الشؤون اللبنانية، فإن ميوله الفطرية وولاءاته بقيت عربية. هكذا كانت سمعته، تلك هي اهتماماته، وصدقاته، وأفعاله السياسية.

على الرغم من أنه هيمن على الساحة السياسية طوال عقود، فإنه لم يكن مرتاحاً للسياسة اللبنانية. كان يكره كل الأسس التي أقام عليها الفرنسيون نظام بلده - أي النظام الطائفي - ويؤمن أن الطائفية نقيض الحرية. رأى رياض الصلح أن لجوء المرء إلى هويته الطائفية يمثّل بناء حاجز حول نفسه وضدّ جاره. وكان يقول، مُظهراً الضيق، إنه يرغب بشدة في ألا يسمع ثانية بكلمتي "مسيحي" و"مسلم" الثقلتين بالمعاني، ويفضّل كلمة "مواطن"، بل "مواطن عربي". فالطائفية تؤدي إلى استثناء الفساد. وسرعان ما يُحجر كل من يحصل على نفوذ، أيّاً كان صغيراً، على مساعدة أبناء طائفته. ويتمّ ذلك بغض النظر عن نزاهتهم أو أهليتهم أو قدرتهم: إخراجهم من السجن، مثلاً، أو منحهم وظيفة حكومية، أو السعي إلى التحايل على القانون بطريقة أو بأخرى لصالحهم. الطائفية، في نظر رياض الصلح، دسّت السمّ في الحياة العامة اللبنانية.

أعلن رياض "أن عصر الطائفية ولّى في أوروبا. الأمم الحديثة تُبنى على أساس القومية، والاستقلال، والأهلية. ما أهمية أن يشغل هذه الوظيفة أو تلك هذه الفئة أو تلك من الأشخاص؟ لو كان جميع المسؤولين في الدولة ينتمون إلى طائفة واحدة، فإنني سأكون أول من يقبلها"⁽¹⁾.

دعا المسلمون والمسيحيين إلى التسوية والتسامح والتضحية المتبادلة من أجل الصالح العام. وحثهم على نبذ خلافاتهم والانضمام بعضهم إلى بعض للدفاع عن وطنهم. وتوقع أن يؤدي الخلاف الطائفي، إذا لم يُكبح، إلى حرب أهلية، كما حدث خلال سنوات 1975-1990 الرهيبة. ولا يزال يُخيم على لبنان، حتى اليوم، احتمال حدوث جولة أخرى من سفك الدماء لأسباب طائفية.

كان رياض الصلح مسلماً سنياً، لكن ليس بالمعنى الطائفي. لم يكن يؤمن في استبعاد الطوائف أو الأديان الأخرى أو رفضها. وسعى دائماً إلى أن يضع نفسه في حياته السياسية فوق النزاع الطائفي. ونظراً لأن جذور عائلته من جنوب لبنان، فقد اكتسب معرفة واسعة عن الطائفة الشيعية، التي كانت مهملة ومحرومة في حياته وقبلها، وتعاطف معها. لكن هذه الطائفة شغلت بعد وفاته مكاناً بارزاً في الحياة السياسية في لبنان. ويرجع ذلك إلى عوامل عديدة، منها المقاومة الشيعية لاعتداءات إسرائيل المتكررة، وغاراتها، واحتلالها الطويل للجنوب، ومؤخراً الدعم السياسي والعسكري والمالي الكبير الذي تلقته من النظامين السوري والإيراني.

كان رياض متفاهماً مع المسيحيين من جميع الطوائف - بالإضافة إلى فهمه الجيد للمسيحية - ربما لأنه نشأ في مدينتي استانبول وبيروت العالميتين، والتحق بمدارس إرسالية يسوعية. لم تكن لدى أي سياسي مسلم بارز آخر من أبناء جيله حساسية أكبر مما لديه لمخاوف المسيحيين الشرقيين في تعايشهم القلق مع الأغلبية الدينية في العالم العربي. ولم يدرك أحد أفضل منه أن المسيحيين في لبنان بحاجة إلى الاطمئنان دائماً، إذا أريد منهم أن يؤيدوا قضية القومية العربية.

(1) كلمة ارجالية تكريماً لحنا غصن، رئيس تحرير صحيفة الديار أقيت في حفل أقامه سعيد فريجة، صاحب دار الصياد، MAE, Nantes, Fonds Beyrouth (Amb.), série 199A4, carton 20, .al-Diyar, 15 April 1946

على الرغم من أن رياض نشأ على كره الصهيونية والخوف منها، واعتبرها امتداداً للاستعمار الأوروبي الذي قاتله بشدة، فإنه لم يكن يضمّر عداوة شخصية لليهود، ولم يكن معادياً للسامية بالتأكيد. ربما راودته أفكار في الحرب العالمية الثانية أن ألمانيا قد تساعد العرب في طرد الحكم الاستعماري البريطاني والفرنسي، لكنه خشي النظريات العرقية النازية ورفضها رفضاً مطلقاً. تعاطف مع الفظائع التي عانى منها اليهود في أوروبا التي سيطر عليها النازيون. لذا تمكّن من فهم عقلية الآباء المؤسسين للصهيونية في إصرارهم العنيد على إنشاء دولة يهودية بأي ثمن.

قام بمحاولات متكررة على مرّ السنين للتوصّل إلى اتفاق مع الصهاينة، بل عرض حشد الدعم العربي لإقامة كانتون يهودي في كيان عربي واسع. لكنه أدرك في أواخر الثلاثينيات أن الهجرة اليهودية الواسعة، والاستمرار في شراء الأراضي الفلسطينية، وإحياء اللغة العبرية، والدعم القوي الذي يقدمه الأوروبيون والأميريكيون الأثرياء، جعل الوجود اليهودي في فلسطين أمراً واقعاً لا يمكن التخلص منه بالأمان. وتبيّن أن الطموحات الصهيونية أكبر مما يتصوره رياض الصلح - أو أي سياسي عربي آخر - أو يرغب في الإقرار فيه.

تمكّن هذا المجتمع الصغير الذي يقلّ تعداده عن مليون نسمة، ومعظمهم من بقايا يهود أوروبا المضطّهدين، من تحويل نفسه إلى قوة عسكرية متفوّقة في الشرق الأوسط، هزمت جميع الدول العربية التي أضعفتها خلافاتها الداخلية الزمنية. وتمكّنت، بالتواطؤ مع بريطانيا والملك عبد الله، من الاستيلاء على قسم كبير من فلسطين، وقتل وتشريد ثلاثة أرباع مليون فلسطيني. كان وقع هذه النكبة رهيباً على رياض الصلح. ولربما أودت به تأثيراتها الارتدادية.

كان الاستعمار الغربي - وبخاصة الاستعمار الفرنسي - عدوّ رياض الصلح طوال حياته، ولم يقاتله في سوريا ولبنان فحسب، وإنما في شمال أفريقيا أيضاً. تضامن مع العديد من مقاتلي الحرية المناهضين للاستعمار - مع علال الفارسي، زعيم حزب الاستقلال المغربي (ومؤلف كتاب الحركات الاستقلالية في المغرب العربي)⁽¹⁾؛

(1) نقله إلى الإنكليزية حازم زكي نسيبة، Hazem Zaki Nuseibeh, *The Independence Movements in Arab North Africa*, Washington, DC 1954.

ومع موصلي الحاج في الجزائر؛ ومع الحبيب بورقيبة في تونس؛ ومع بشير السعداوي في ليبيا؛ ومع طريف بن الأفريقي في أرتريا. ونشط في مراسلة بعضهم سنوات عديدة. لكن على الرغم من أن رياض قاتل الاستعمار الأوروبي طوال حياته، فإنه لم يكن كارهاً للأجانب. فقد أحبّ باريس، واللغة الفرنسية، والثقافة الفرنسية، وميراث فرنسا الثوري العظيم. وكانت مأساته أنه ما كاد ورفاقه العرب يتمكنون من التخلص من الحكم الفرنسي في المشرق، حتى واجهوا التهديد الذي أحدثه بروز إسرائيل في قلب منطقتهم.

كان رياض الصلح يتحلّى بخصائص عظيمة - الشجاعة، والجاذبية والدهاء، وسرعة البديهة، والبراغماتية، والحلم - لكنه في جوهره مثالي وحالم ومناضل من أجل الحرية، وليس سياسياً تقليدياً. كما تحلّى بشيء من سمات المعلم الملهم. كان يريد تحرير العرب من السيطرة الأجنبية، ثم إرشادهم إلى أفضل السبل ليعتصموا حريتهم السياسية. وطالما أحب أن يصف لبنان بأنه "مختبر" يمكن تعلّم هذا الدرس فيه.

رأى رياض أن الانفتاح على العالم عبر البحر المتوسط، والحماية الفعلية التي توفرها الجبال، وتراث المهجرة الطويل للبنانيين الذين اغتربوا بالملايين وظلّوا يحتفظون بصلاتهم بوطنهم، تساعد في جعل لبنان أكثر ملاءمة للديمقراطية من البلدان العربية الأخرى. وذلك من المثلّ العظيمة التي رغب في التمسك بها. لكنه من الناحية الأخرى لم يكن لديه الوقت الكافي أو الميل لأعمال الإدارة البيروقراطية الحكومية. لم يكن يطبق فتح الملفات الوزارية، ويملّ الموازنات - موازنته الشخصية وموازنة الدولة على حدّ سواء. وعلى الرغم من أنه ورث ثروة كبيرة، فإنه أنفقها على القضايا السياسية. لم يكن يهتم بالملكات أو المظاهر الدنيوية الأخرى - خلافاً لبعض الحكام العرب الجشعين اليوم - وكان قانعاً في العيش في شقة مستأجرة متواضعة. ولم يتمكن من شراء منزل قط. وقد ظل مديناً معظم فترات حياته، ومات مفلساً. وتلك من الخصائص الجذابة التي ميّزته عن معظم السياسيين العرب الآخرين في عصره - باستثناء صديقه العزيز شكري القوّتلي، الشخصية الوطنية البارزة وأول رئيس لسوريا، الذي أنفق ثروته على القضية السياسية لبلده.

كان إسهام رياض الصلح في الحياة السياسية العربية شديد الأهمية، وقد برز ذلك في خمسة مجالات متميزة. أولاً، ناضل من دون هوادة من أجل استقلال العرب - عن الأتراك، وعن الفرنسيين، وعن الصهاينة. وحقق أعظم إنجازاته في مواجهة الفرنسيين، فحجز مكانه في التاريخ بوصفه المهندس الرئيسي لاستقلال لبنان. ثانياً، كان شديد الحماسة للوحدة العربية - أو التضامن العربي على الأقل - باعتبارها الطريقة الوحيدة التي تمكن العرب من تحقيق احترام الذات وتحمل الآخرين على احترامهم. لكنه هُزم في هذا الصدد أمام الخصومات التافهة والعميقة الجذور بين مختلف القادة العرب، والخصومات داخل لبنان ومجتمعة المنقسم.

ثالثاً، كان ديمقراطياً، يسعى بالفطرة إلى الإجماع والسماح للآخرين بالتعبير عن آرائهم. تألق في البرلمان، حيث أحب المجمات المتبادلة في المناقشات، وبرع فيها. كما أحب الصحافة الحرة وآمن بها. في سنة 1943، عندما أصبح رئيساً للوزراء لأول مرة، أعلن أنه "بما أننا تسلمنا السلطة في ظل حكم ديمقراطي، فمن واجبنا ضمان حرية الصحافة... إننا ندرك جيداً أن الصحافة الحرة تعني أن علينا أن نبرّر تصرفاتنا. إننا بحاجة إلى من ينبهنا إلى أخطائنا، أكثر من حاجتنا إلى المديح والثناء".

إن تعلق رياض بالديمقراطية يعكس تأثره العميق بما شهدته في استانبول في شبابه، والجلسات العاصفة للبرلمان العثماني في سنوات الإمبراطورية الأخيرة. كما تأثر بإقامته في أوروبا، لا سيما في سويسرا، حيث تعيش مجموعات عرقية مختلفة، تتحدث لغات مختلفة، معاً بحرية وانسجام. ألا يمكن نقل هذا النموذج السويسري، الذي طالما حظي بالإعجاب، في لبنان المكوّن من العديد من الطوائف والهويات الوطنية؟

رابعاً، كان يؤمن إيماناً عميقاً بالتفاهم المسيحي الإسلامي، كأساس لا بد منه للمواطنة والدولة اللبنانية. وقد وضع الأساس لهذا التفاهم أكثر من أي شخص آخر في الميثاق الوطني لسنة 1943، ولا يزال هذا الميثاق حتى اليوم حجر الزاوية للمجتمع السياسي اللبناني. تحوّل في منتصف مسيرته السياسية إلى قضية استقلال لبنان ضمن حدوده الموسّعة، كخطوة أولى ضرورية لتكامله مع العالم العربي. ففي الثلاثينيات، أدرك رياض أنه لا بد من التوصل إلى تفاهم بين الطموحات والإيديولوجيات والهويات المتخاصمة للمسيحيين والمسلمين، كي يتحقّق استقلال لبنان عن فرنسا

ويؤدي دوره كاملاً في العالم العربي الذي ينتمي إليه. ودعا المسيحيين والمسلمين إلى تقديم التنازلات والتوصل إلى تسوية. لكن رسالته لم تلقَ آذاناً صاغية دائماً مثلما يريد. وقال بحزن قبل مقتله، "لقد جئت إلى السلطة لأبني دولة، لكنهم منعوني من تحقيق ذلك".

خامساً، كان رياض داعية متحمساً لعلاقة قائمة على الثقة بين لبنان وسوريا، الدولتين الشقيقتين اللتين قدّر لهما، بغض النظر عن خلافاتهما العديدة، أن يعيشا ويعملا معاً بحكم الطبيعة والتاريخ وروابط القرى الكثيرة والاعتماد المتبادل. كما حرص على ألا يسمح لبنان لأي قوة أجنبية معادية لسوريا بإنشاء موقع مسيطر لها في بيروت، وألا يوفر لبنان قاعدة لشن عمليات تخريبية على جارتها سوريا.

لو كان حياً اليوم، لأقرّ من دون شك أن هناك الكثير مما لا يزال ينبغي عمله في هذه المجالات الخمسة. ولا بد أن تكون مهمة الجيل العربي الحالي التقدّم بجرأة على الطريق التي ارتادها.

أحبّ رياض الصلح البحر. وطالما افتقد المنظر الرائع الذي كان يتمتع به من منزل والدته عند واجهة بيروت البحرية في عين المريسة. فكّرت زوجته فائزة أن تبني له منزلاً قرب الشاطئ على قطعة أرض قريبة من بيروت. وقد اجتذبتها بسبب مظهرها على البحر، ولوجود مسجد قديم هناك أحبّت خطوطه الخارجية. اليوم أصبحت المنطقة مبنية ومكتظة بالسكان، لكنها كانت كثباناً رملية في تلك الأيام. اشترت قطعة الأرض وبدأت ببناء المنزل ببطء، وتمويل أعمال البناء ببيع بعض الأراضي التي ورثتها قرب حلب. توفي رياض قبل اكتمال البناء، ولم يقدر له أن يعيش فيه.

في الذكرى السنوية الأولى لوفاة رياض الصلح، في تموز/يوليو 1952، قرّر الملك عبد العزيز استكمال البناء، وأعطى أوامره ببناء المنزل على نطاق أوسع بكثير مما خططت له فائزة. وعندما أنجز، أصبح بمثابة مجمّع عائلي، لا مسكناً واحداً فقط. وقد عاشت فيه بنات رياض الخمس مع أطفالهن في بعض الأحيان. كان رياض الصلح وابن سعود يقدر أحدهما الآخر ويحترمه، وليس من قبيل المصادفة أن يتزوج أحد أبناء الملك، طلال، إحدى بنات رياض، منى.

بعد وفاة رياض الصلح، ارتدت أرملته ثياب الحداد ولم تخلعها قط. لكنها أبقت المنزل مفتوحاً أمام أصدقائه ومؤيديه حتى وافتها المنية في 13 نيسان/أبريل 1970، ولم تكن تتجاوز السادسة والخمسين. بقيت متحفظة ومحفوظة بخصوصياتها طوال حياتها. وبعدها توفيت، اكتشفت بناتها في خزانها طقم مائدة جميلاً من قماش الأورغاندي، صنعه بنفسها، لكنها لم تتمكن من استخدامه قط. فتلك الفتاة اليتيمة التي كانت تريد زوجاً يتناول العشاء معها بمفردها، ويكون حاضراً ليمسك بيدها، أو يأخذها إلى السينما، لم تكد تنال ما تمنته. فقد كان رياض الصلح أكثر تعلقاً بالقضية العربية من تعلقه بأي شخص آخر⁽¹⁾.

(1) مقابلة مع علياء الصلح، مونت كارلو، 4-5 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

الجدول الزمني للأحداث

- 1810: ولادة أحمد ياشاء، جد رياض الصلح، في صيدا.
- 1839: السلطان عبد المجيد الأول يدخل التنظيمات (إعادة تنظيم المؤسسات العثمانية).
- 1848: انتخاب لويس - نابوليون بوناپرت رئيساً للجمهورية الفرنسية.
- 1852: لويس - نابوليون بوناپرت يتخذ لقب نابليون الثالث.
- 1855: استقرار الأمير عبد القادر الجزائري، الأمير الجزائري الثائر، في مدينة دمشق مع عائلته بعد محاربته الفرنسيين ودخوله السجن ونفيه.
- 1856: صدور المرسوم السلطاني، المعروف باسم الخط الهمايوني، في 18 شباط/فبراير، وقد نصّ على المساواة الكاملة بين جميع الرعايا العثمانيين بغض النظر عن دينهم.
- السلطان عبد المجيد الأول يوسع للتنظيمات.
- 1860: الحرب الشرسة بين الموارنة والدروز في جبال لبنان تؤدي إلى خسائر بشرية كبيرة ونزوح آلاف اللاجئين، معظمهم من المسيحيين. وشتتال المجزرة إلى الأحياء المسيحية في دمشق.
- 1861: على أثر المذبحة التي تعرّض لها المسيحيون في جبال لبنان، القوى الأوروبية تستحصل من الباب العالي على وضع مميّز لجبل لبنان. أصبح متصرفية ذات استقلال ذاتي بإدارة متصرف عثماني كاثوليكي (غير لبناني) يعاونه مجلس إداري يمثل ست طوائف دينية رئيسية في الجبل.
- (أو ربما 1863): ولادة رضا الصلح، والد رياض.
- 1863: انتهاء العمل بأول طريق برّي للعربات بين بيروت ودمشق.
- 1866: إنشاء الكلية الإنجيلية السورية (أصبحت لاحقاً الجامعة الأميركية في بيروت).
- 1869: الافتتاح للرسمي لقناة السويس - حلم فرديناند دي ليسبس بممر مائي يصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط - بحضور الإمبراطورة للفرنسية لوجيني والعديد من الأمراء ورجال الدولة والقادة العسكريين والسفراء الأوروبيين وشخصيات رسمية أخرى.
- 1876: اعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني، السلطان العثماني الرابع والثلاثون، العرش في عمر الثالثة والثلاثين.
- 1877-1878: روسيا تلحق هزيمة ساحقة بالجيش العثماني.

- 1878: في أعقاب الهزيمة العثمانية أمام روسيا، السلطان ينهي التجربة الدستورية الوجيزة، ويحلّ البرلمان، ويعزّز حكمه الشخصي.
- 1878-82: الإمبراطورية العثمانية تفقد في أربع سنوات صربيا والجبل الأسود ورومانيا والبوسنة والهرسك وقبرص وتونس ومصر.
- 1880: تعيين رضا الصلح، وهو في التاسعة عشرة، "كاتباً أول" في مكتب حكومي في اللاذقية. وقد شكّل ذلك بداية مساره المهني كإداري في الخدمة العثمانية.
- 1883: وفاة الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق.
- 1884: اغتيال مدحت باشا، الصدر الأعظم العثماني السابق والوالي العثماني الممتنور، في السجن في مدينة الطائف، بأوامر من السلطان على الأرجح.
- 1887-88: الباب العالي يجعل بيروت عاصمة لولاية جديدة مسلوخة عن سوريا الجغرافية.
- 1894: ولادة رياض الصلح في بيروت في 17 آب/أغسطس.
- 1895: بيروت ودمشق تتصلان بخط للسكك الحديدية.
- 1898: القيصر فلهم الثاني، إمبراطور ألمانيا، يقوم بزيارة تمتد شهراً كاملاً إلى الإمبراطورية العثمانية (ويتناول العشاء إلى مائدة أحمد باشا في صيدا).
- 1900: السلطان يصدر في 2 أيار/مايو أمراً سلطانياً ببناء سكة حديد الحجاز.
- 1902: وفاة أحمد باشا في بيروت.
- تعيين رضا الصلح متصرف سنجق. كان آخر منصب له هو متصرف بريفيزا، وهي مرفأً ألباني في القسم الأوروبي من الإمبراطورية.
- انعقاد مؤتمر تركيا الفتاة الأول
- 1905: التحاق رياض كطالب في الكلية العثمانية الإسلامية (أنشأها الشيخ أحمد عباس الأزهري في بيروت عام 1895). التحق بعد ذلك بمدرسة العازاريين في عينطورة ثم بالكلية اليسوعية.
- 1907: انعقاد مؤتمر تركيا الفتاة الثاني في باريس.
- 1908: في 23 تموز/يوليو، أعضاء تركيا الفتاة في جمعية الاتحاد والترقي يثرون على السلطان باسم البرلمان والدستور.
- انتخاب رضا الصلح عضواً في مجلس المبعوثان، البرلمان العثماني في إستانبول.
- عائلة الصلح تزور إستانبول قبل بضعة أسابيع من الثورة. ورضا الصلح يشغل مقعده في البرلمان الذي عقد أولى جلساته في 17 كانون الأول/ديسمبر.
- 1909: في 12 - 13 نيسان/أبريل، وقوع انقلاب سلطاني معاكس على جمعية الاتحاد والترقي، وفشله في 25 نيسان/أبريل. السلطان يستسلم ويخلع عن العرش. وفي 27 نيسان/أبريل ينقل هو وعائلته بقطار خاص إلى سالونيك، حيث يوضع في الإقامة الجبرية.

- في 14 تشرين الثاني/نوفمبر، أنشأ خمسة طلاب عرب في باريس جمعية العربية الفتاة في باريس، بغية استقلال العرب الذاتي داخل الإمبراطورية العثمانية.
- عزيز المصري، وهو ضابط مصري من أصول شركسية، ينشئ جمعية سرية أخرى، القحطانية، في استانبول.
- 1910: رياض الصلح يلتحق بكلية الحقوق (مكتبي حقوق) في استانبول في سن السادسة عشرة.
- 1911: إيطاليا تشن الحرب على طرابلس، آخر ولاية أفريقية للإمبراطورية العثمانية.
- 1912: في تشرين الثاني/نوفمبر، بدء حرب البلقان، عندما أعلن الجبل الأسود، ثم بلغاريا واليونان، الحرب على الإمبراطورية العثمانية.
- في 8 تشرين الثاني/نوفمبر، اليونانيون يستولون على سالونيك موجّهين ضربة نفسية عميقة لجمعية الاتحاد والترقي، حيث إن سالونيك كانت مقرهم الأم.
- في نهاية السنة، إنشاء حزب اللامركزية الإدارية العثماني في القاهرة، باعتراف تام من الحكومة العثمانية
- 1913: في 23 كانون الثاني/يناير، ضباط جمعية الاتحاد والترقي يهاجمون الباب العالي، ويقتلون وزير الحربية ويجبرون السلطان على تعيين وزارة جديدة برئاسة محمود شوكت باشا كصدر أعظم. يؤدي هذا إلى ظهور أنور وجمال وطلعت كثلاثي الاتحاد والترقي القوي الذي حكم الإمبراطورية حتى انهيارها في الحرب العالمية الأولى.
- في تشرين الأول/أكتوبر، عزيز المصري، مؤسس الجمعية القحطانية، ينشئ جمعية سرية أخرى، العهد، وهي الجناح العسكري للفتاة، في استانبول.
- رضا الصلح يغادر استانبول إلى بيروت.
- 1914: في 14 شباط/فبراير، يتقاعد من خدمة الإمبراطورية العثمانية، ويحال إلى المعاش.
- اندلاع الحرب العالمية الأولى بين الدول الأوروبية في شهر آب/أغسطس.
- 1914: الإمبراطورية العثمانية تعلن في 29 تشرين الأول/أكتوبر دخول الحرب إلى جانب التحالف الثلاثي المكوّن من ألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية النمساوية المجرية.
- في 1 تشرين الأول/أكتوبر، الباب العالي يعلن إلغاء الامتيازات، وهي الامتيازات التجارية وغيرها التي مُنحت للدول الأوروبية وعملائها المحليين، وكان العثمانيون يمتقونها لأنها تعبّر عن السيطرة الغربية.
- إيفاد جمال باشا، وزير البحرية، في كانون الأول/ديسمبر، إلى دمشق والياً على رأس الجيش الرابع الذي يضمّ 100 ألف جندي.
- 1915: جمال باشا يشنّ في شباط/فبراير 1915 هجوماً فاشلاً على قناة السويس.
- 1915: البحريتان البريطانية والفرنسية تشنان هجوماً على الدردنيل ويتم إنزال قوات في غاليبولي في نيسان/أبريل.

- 1915-16: جمال باشا يعتقل المئات من الشخصيات العربية البارزة، ويشنق العديد منهم في بيروت ودمشق، وينفي العديدين إلى أملكن بعيدة في الأناضول.
- الحسين، شريف مكة، والسير هنري مكماهون، المندوب السامي البريطاني في القاهرة، يتبادلان عدداً من الرسائل التي تمهد للثورة العربية. ووالشريف حسين وأبناؤه يعلنون الحرب على تركيا.
- 1916: في كانون الثاني/يناير، البريطانيون والفرنسيون يتخلّون عن عمليتهم في الدردنيل بعد مواجهة مقاومة تركية شرسة.
- في 5 حزيران/يونيو، الشريف حسين وأبناؤه يهجمون الحاميات التركية في جدة ومكة والطائف.
- 1916-18: رضا ورياض الصلح يتجوان من المشنقة، لكنهما يُنفيان إلى إزمير حيث يمضيان العامين الآخرين من الحرب.
- 1917: في 9 تشرين الثاني/نوفمبر، الصحف البريطانية والمصرية تنشر نص وعد بلفور الذي تتعهد فيه بريطانيا ببذل "غاية جهدهما" لتسهيل "إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين".
- في 11 كانون الأول/ديسمبر الجنرال السير إدmond أللنبي يدخل القدس راجلاً، بعد يومين من احتلال المدينة وانتزاعها من الأتراك.
- 1918: في 23 أيلول/سبتمبر، سقوط حيفا.
- في 1 تشرين الأول/أكتوبر، القوات العربية والحليفة تكحل دمشق فيما تتراجع القوات العثمانية إلى الشمال.
- في 3 تشرين الأول/أكتوبر، الأمير فيصل يدخل دمشق ويلقى ترحيباً عارماً.
- في 8 تشرين الأول/أكتوبر، سقوط بيروت.
- في 23 تشرين الأول/أكتوبر، سقوط حلب.
- في 30 تشرين الأول/أكتوبر، توقيع هدنة بين الإمبراطورية العثمانية والحلفاء على متن سفينة حربية بريطانية.
- في 31 تشرين الأول/أكتوبر، توقّف الأعمال العدائية.
- 1918-19: في نهاية سنة 1918، أرسل رياض الصلح، وهو في الرابعة والعشرين من العمر، لحكم صيدا، بلدة عائلته في جنوب لبنان. غير أنه أُجبر على التخلي عن منصبه عندما وصل الجنرال هنري غورو إلى لبنان على رأس جيش فرنسي في سنة 1919.
- فيصل يجتمع في لندن مع اللورد بلفور والزعيم الصهيوني الدكتور حاييم وايزمن. ويقدم مذكرة بشأن آمال العرب إلى مؤتمر السلام في فرساي. لكنه يصل تدريجياً إلى اعتناع أن بريطانيا وفرنسا والصهيانة مطامع في سوريا الطبيعية، ما قيّد المطالب العربية إلى درجة كبيرة.

1919:

المجلس الأعلى للدول المنتصرة يتخذ قراراً في 25 آذار/مارس بناءً على اقتراح الرئيس الأميركي ويلسون بإرسال لجنة تحقيق إلى سوريا للوقوف على آراء سكانها. بريطانيا وفرنسا تمتنعان عن الاشتراك في اللجنة، فتتشكل من شخصيتين أميركيتين، هما الدكتور هنري كنغ وشارلز كرين، وتمضي أكثر من شهرين خلال ذلك الصيف في سوريا وفلسطين.

مؤتمر السلام يقرر في 28 نيسان/أبريل وضع الولايات العربية السابقة في الإمبراطورية العثمانية تحت انتداب الدول الأوروبية.

انعقاد المؤتمر السوري العام في دمشق في تموز/يوليو للضغط على لجنة كنغ - كرين والمطالبة بالاستقلال السياسي التام لسوريا.

لجنة كنغ - كرين توصي في 28 آب/أغسطس بالإبقاء على وحدة سوريا بما يتفق مع العرائض النزيهة للأغلبية العظمى من سكان سوريا. وأن مصلحة لبنان، تتحقق في أن يكون عضواً تأسيسياً في الدولة (السورية) لا في استقلاله عنها؛ وأن المطالبة الصهيونية بأرض فلسطين "بقاء على احتلالها قبل ألفي سنة لا يمكن أخذها بجديّة". لكن هذا التقرير المهم وضع جانباً بعد إصابة الرئيس ويلسون بسكتة دماغية في تشرين الأول/أكتوبر 1919.

1920:

عودة المؤتمر السوري العام للانعقاد في دمشق في 8 آذار/مارس. والمؤتمر يعلن استقلال سوريا "ضمن حدودها الطبيعية" ويرفض مشروع الوطن القومي لليهود في فلسطين وينادي بالأمير فيصل ملكاً على سوريا.

المجلس الأعلى للحلفاء يقرّر في اجتماعه في سان ريمو في 24-25 نيسان/أبريل تكليف فرنسا بالانتداب على سوريا ولبنان وتكليف بريطانيا بالانتداب على العراق وفلسطين.

رياض الصلح، في سن الخامسة والعشرين، يقنع سبعة أعضاء من مجلس إدارة لبنان بتعديل موقفهم من مساندة فرنسا إلى مساندة فيصل. الفرنسيون يلقون القبض عليهم ويرسلونهم إلى المنفى. رياض يفرّ إلى دمشق.

هزيمة قوة عسكرية سورية صغيرة في 24 تموز/يوليو أمام الجيش الفرنسي الكبير في ميسلون، التي تبعد 30 كيلومتراً عن دمشق. مقتل يوسف العظمة، وزير الدفاع المقدم. القوات الفرنسية تدخل دمشق يوم 25 تموز/يوليو. فيصل يغادر المدينة على متن قطار خاص متوجّهاً إلى فلسطين. ورياض الصلح و70 من الرجال الوطنيين يلحقون به في قطار ثان.

محكمة فرنسية في دمشق تحكم في 9 آب/أغسطس على رياض الصلح وعشرات آخرين بالإعدام غيابياً بسبب تأييدهم نظام فيصل.

الجنرال غورو يعلن في ١ أيلول/سبتمبر إنشاء دولة لبنان الكبير ضمن حدود موسعة. وتقسيم سوريا في السنين التالية إلى عدد من الدويلات والمقاطعات ذات الاستقلال الذاتي.

محكمة فرنسية أخرى تحكم في بيروت في 29 تشرين الأول/أكتوبر على رياض الصلح بالسجن لمدة خمس سنوات وغرامة تبلغ ١,4 مليون فرنك فرنسي بسبب محاولته تعبئة أعضاء من مجلس إدارة لبنان ضد الفرنسيين.

الجيش الفرنسي يخسر 6722 رجلاً في سوريا، بين قتيل ومفقود، ويتكبد نفقات عسكرية تبلغ 2500 مليون فرنك. 1920-25:

في مؤتمر عقد في القاهرة في شهر آذار/مارس، ونستون تشرشل، وزير المستعمرات في ذلك الوقت، يرسم سياسة إنشاء دول عربية تابعة يديرها قادة محليون وتحفظ أمنها جيوش محلية يمكن الاعتماد عليها لحماية المصالح البريطانية. تنصيب الأمير فيصل على عرش العراق في حزيران/يونيو. 1921:

السير هربرت صموئيل، المفوض السامي البريطاني في فلسطين، يعين الحاج أمين الحسيني، في سن الرابعة والعشرين، مفتياً أكبر للقدس.

في 25 تموز/يوليو، رياض الصلح يحضر الاجتماع التأسيسي للمؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف. كان المؤتمر من بنات أفكار الأمير ميشال لطف الله، وهو أول تعبير منظم عن الاحتجاج العربي على الانتداب.

في تشرين الثاني/نوفمبر، رياض الصلح يسافر إلى لندن لعرض خدماته على موسى كاظم الحسيني، رئيس بلدية القدس السابق، في محادثاته التي أجريت بإشراف بريطاني مع الزعيم الصهيوني الدكتور حاييم وايزمن. وفي 7 تشرين الثاني/نوفمبر، رياض يجتمع بالدكتور وايزمن لمعرفة إذا كان يمكن تعبئة النفوذ الصهيوني لمنع تصديق عصبة الأمم على الانتداب على سوريا ولبنان.

في آذار/مارس، رياض وشخصيات عربية أخرى بارزة تعقد محادثات مع الصهاينة في القاهرة من دون أن تسفر عن شيء. 1922:

في وقت مبكر من هذه السنة، رياض الصلح ينتظر في فلسطين كي يسمح له الفرنسيون بالعودة إلى لبنان، فيعقد اجتماعاً آخر مع الدكتور وايزمن في القدس. وقد سعى رياض في العشرينيات وقسم كبير من الثلاثينيات إلى إيجاد صيغة للتعايش بين العرب والصهاينة، لكن الطموحات الصهيونية كانت كبيرة جداً تحول دون أن يقبلها هو أو أي عربي. 1924:

حدوث ثورة على الفرنسيين - تعرف بالثورة السورية الكبرى - في جبل الدروز وانتشارها إلى دمشق وسواها. 1925-26:

1925:

اللورد بلفور يزور دمشق في 8 نيسان/أبريل 1925 ويلقى استقبالا عذائياً.
حزب الشعب، بزعامة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، يعقد اجتماعاً تأسيسياً يحضره
أكثر من ألف شخص في دمشق.
في تموز/يوليو، قوة عشائرية درزية بقيادة سلطان الأطرش تنصب كميناً لقوة فرنسية
قوامها ثلاثة آلاف جندي بقيادة الجنرال روجيه ميشو وتهزمها وتغنم 2000 بندقية.
في 23 آب/أغسطس، سلطان باشا الأطرش يوجه دعوة للثورة في دمشق "إلى السلاح!
إلى السلاح يا أحفاد العرب الأمجاد...".
الشهبندر ينضم إلى الثورة وفي 24 آب/أغسطس قوة مشتركة من الدروز والعشائر
الأخرى تزحف على دمشق. غير أن الخيالة الفرنسيين يجبرونها على الفرار.
في 9 أيلول/سبتمبر، الشهبندر يعلن في جبل الدروز ثورة سورية عامة وإقامة حكومة
وطنية. والمتمردون يدخلون دمشق في 18 تشرين الأول/أكتوبر ويضرمون النار في
قصر العظم.
في 18-20 تشرين الأول، المفوض السامي الجنرال ساري يأمر بقصف دمشق.
تدمير أحياء بأكملها ومقتل نحو 1500 شخص.

1925-26:

بعد فترة من الهدوء في المناطق التي شهدت الثورة، رياض الصلح يتوجه إلى جنيف
للاتضمام إلى الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري في الوفد الدائم للمؤتمر السوري
الفلسطيني الذي أعيد تفعيله. ومعاً يقومون بممارسة ضغوط في عصبة الأمم لصالح
القضية السورية.
مفوض سام جديد يتولى منصبه في بيروت في كانون الأول/ديسمبر 1925 ويتعهد بعدم
إعدام الثوار إذا استسلموا بحلول 6 كانون الثاني/يناير 1926. لكن القتال العنيف استمر
طوال تلك السنة، حيث عمد الفرنسيون إلى تنفيذ إعدامات جماعية ونسف المنازل
وغير ذلك من العقوبات الجماعية. ودفع آخر الثوار إلى عبور الحدود إلى شرق
الأردن بحلول سنة 1927. وانتهت الثورة.

1926:

اعتماد دستور جديد للبنان في 23 أيار/مايو، خلال فترة الثمانية أشهر التي أمضاها دي
جوفنيل مفوضاً سامياً. وهو ينص على انتخاب رئيس ومجلس تمثيلي، لكنه بعيد جداً
عن الاستقلال الحقيقي الذي يطالب به الوطنيون. كما أنه يرسخ الطائفية في الحياة
العامة اللبنانية باشتراط توزيع الحقائق الوزارية ووظائف القطاع العام على أساس
طائفي "منصف".

الفرنسيون يلقون القبض على رياض الصلح في أثناء زيارة إلى بيروت، بموجب حكم
صادر بتاريخ 27 حزيران/يونيو ويسجنونه في قلعة في جزيرة أرواد قبالة الشاطئ
السوري. لكنه يتمكن من الهرب والانضمام ثانية للوفد في جنيف.

1927: رياض الصلح ينهك في نشاط محمود في سبيل القضية السورية في باريس وجنيف وبروكسل وبيروت. بدلاً من محاولة هزيمة الفرنسيين بقوة السلاح، فإنه يدعو إلى استراتيجية وطنية أكثر براغماتية تميل إلى إقناع الرأي العام الفرنسي بحمالة السياسة الفرنسية.

في 27 تشرين الأول/أكتوبر، اجتماع الوطنيين من عدة مدن سورية في بيروت في أول مؤتمر للكتلة الوطنية السورية. وبحلول سنة 1928، أصبحت هذه الكتلة القوة السياسية الرئيسية في سوريا. ورياض الصلح ينضم إليها لاحقاً كعضو مشارك.

1928: رياض الصلح يعود إلى لبنان في 20 أيار/مايو، إلى بيت والده في صيدا، بعد أن وافق المفوض السامي الفرنسي الجديد هنري بونسو (الذي حل محل دو جوفنيل صيف 1926) على السماح له بالعودة إلى البلاد.

الوطنيون اللبنانيون ينشئون في بيروت مؤتمر الساحل بغية إعادة الأراضي "المتنازع عليها"، التي ضمها الفرنسيون إلى جبل لبنان لإقامة لبنان الكبير، إلى سوريا.

في 20 أيار/مايو، رياض الصلح يعود إلى لبنان - إلى منزل والده في صيدا - بعد أن وافق المفوض السامي الفرنسي الجديد هنري بونسو (الذي حل محل دو جوفنيل في صيف 1926) على عودته إلى لبنان.

في 20 حزيران/يونيو رياض الصلح يدخل دمشق مظفراً في قافلة من عدة مئات من السيارات. ويكرم في الأسابيع التالية بحفلات استقبال كبيرة.

في 23 أيلول/سبتمبر، الصهاينة يطالبون بحائط اليراق في القدس، بوضع حجاب لفصل الرجال عن النساء. وتلك يخالف حكماً للأوقاف الإسلامية بعدم القيل بأي شيء قد ينظر إليه أنه إنشاء لكنيس يهودي. والحاج أمين يعرض حكماً عثمانياً صادراً في سنة 1012، يمنع اليهود من إحصار أي شيء إلى الحائط.

1929: في آب/أغسطس، وقوع صدامات عنيفة بين اليهود والعرب تؤدي إلى سقوط قتلى من الجانبين في القدس والخليل وصفد وحيفا. وتبتدئ كل الأوهام المتبقية بإمكانية الحل السلمي بين اليهود الأوروبيين والعرب في فلسطين.

في سن الخامسة والثلاثين، رياض الصلح يكتسب سمعة دولية كمتناضل ضد الوجود الفرنسي والبريطاني في المشرق، وداعية مفوهة إلى التحرر العربي.

في تشرين الثاني/نوفمبر، رياض يقوم بزيارة أخرى ناجحة أخرى إلى سوريا، إلى حلب هذه المرة. لقد أصبح الآن من أبرز الشخصيات الإسلامية في لبنان وسوريا.

1930: رياض الصلح يدرك أن محاولة التأثير في عصبة الأمم لن يجدي نفعاً. فيقرر مغادرة جنيف والعودة إلى بيروت.

رياض يـزـوج قاتـرة الجابري، ابنة الراحل نايف باشا الجابري من حلب. كانت في السابعة عشرة من العمر، وقد أنجبت له خمس بنات.

في 30 حزيران/يونيو، توقيع المعاهدة الإنكليزية العراقية التي تنص على تحالف مدته خمس عشرة سنة بين البلدين، وتخصّص قاعدتين جويتين ل سلاح الجو الملكي، وتضمن تولد القوات البريطانية وتسهيل تحركها في زمن الحرب.

في تموز/يوليو، أنطون سعادة يعود إلى الشرق الأدنى بعد أن أمضى بعض السنين في البرازيل وألمانيا، وقد كان في السابعة والعشرين في ذلك الوقت.

بروز الفاشية في أوروبا يحدث تأثيراً مقلّماً في الرأي العام في سوريا ولبنان، لا سيما بعد فشل الثورة الفلسطينية 1936-39، بالإضافة إلى عدم التصديق على معاهدتي 1936، وإعادة تشنّد الانتداب الفرنسي. وظهور حركات شبيبية تقلّد الحركات الفاشية الأوروبية.

الحاج أمين ورياض الصلح يتوصّلان إلى فكرة عقد مؤتمر إسلامي للفت انتباه المسلمين إلى فلسطين، حيث الهجرة اليهودية تحدث وضعاً متفجراً. في 7 كانون الأول/ديسمبر، افتتاح المؤتمر الإسلامي العام في القدس واستمرار انعقاده لمدة عشرة أيام.

رياض يفتح مكتباً للمحاماة في بيروت لكن السياسة وتأييده للفاعل لحركة نقابات العمال لم يترك له سوى القليل من الوقت لممارسة المحاماة. في كانون الثاني/يناير، كثير من العرب يرحّبون بتسلّم هنتر السلطة، ويأملون أن تشكّل ألمانيا قلاً موازناً لبريطانيا وفرنسا.

في 6 آذار/مارس، جمعية تعاضد السوّاقين تدعو إلى إضراب عام يلتزم به 8000 سائق في لبنان وسورية. والحركات المطالبة تمتدّ إلى مختلف الطبقات العاملة. الطهارة والسندلاء وعمال حياكة الحرير والتجارون وصيادو الأسماك وموظفو المصارف والمحامون والأطباء والصيادلة يبدؤون في تنظيم أنفسهم في أوائل الثلاثينيات. في أيلول/سبتمبر، وفاة الملك فيصل، عاهل العراق، في سويسرا، ما وجّه ضربة إلى آمال الوطنيين بعقد مؤتمر عربي في بغداد.

رشيد عالي الكيلاني يصبح رئيساً لوزراء العراق. ويتولّى مهمة الإشراف على انتقال العرش إلى الملك غازي.

في شباط/فبراير، المفكر اللبناني شارل قـرم ينشئ داراً للنشر للترويج لأن جذور الهوية اللبنانية تعود إلى الفينيقيين قبل ثلاثة آلاف سنة من ميلاد المسيح. واللبنانيون الذين يعتقدون أن الهوية اللبنانية تكمن في الجبل، لا البحر المتوسط، وأنه لا يمكن تجاهل ثلاثة عشر قرناً من التاريخ الإسلامي يعارضون الفكرة الفينيقية.

في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، إنشاء حزب سعادة، الحزب السوري القومي سراً، لكن السلطات تلاحظ أنشطته بعد ذلك بعام، في تشرين الثاني/نوفمبر 1935.

1934-36: ديفيد بن غوريون يقرّر عقد مباحثات مع عدد من القادة العرب لدعم الدولة اليهودية في فلسطين وشرق الأردن. وعدد اليهود يرتفع إلى 400,000 نسمة بحلول سنة 1934. بن غوريون يعقد سلسلة من الاجتماعات مع موسى العلمي، ورياض الصلح، وعوني عبد الهادي، والأمير شكيب أرسلان، وإحسان الجابري، وجورج أنطونيوس.

1935: في 15 نيسان/أبريل، المفوض السامي الفرنسي، الكونت داميان دو مارتيل، يأمر بإغلاق مكتب نقابة السائقين وإبعاد رياض الصلح إلى القامشلي، شمال شرق سوريا حيث يوضع قيد الإقامة الجبرية.

في 30 حزيران/يونيو، في أعقاب عاصفة من الاحتجاج، دو مارتيل يتراجع ويأمر بإعادة رياض إلى بيروت.

عز الدين القسام، وهو عالم دين سوري حارب الفرنسيين، يهرب إلى حيفا حيث يجتذب مجموعة من الشبان لمقاتلة الصهيونية والبريطانيين والمتعاونين العرب. في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، يستشهد في معركة مع الشرطة. وتحول جنازته إلى مظاهرة سياسية ضخمة.

في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، وفاة إبراهيم هنانو، زعيم الكتلة الوطنية السورية من دون منازع. وقد كان من قادة الثورة السورية الكبرى. ورياض الصلح يشارك في جنازته على رأس مجموعة كبيرة من اللبنانيين.

في 5 تشرين الثاني/نوفمبر، اعتقال سعادة مع عشرة من رفاقه، وصدر حكم عليه بالسجن ستة أشهر ودفع غرامة صغيرة في كانون الثاني/يناير 1936. وقد أُلقي القبض عليه في وقت لاحق من تلك السنة.

1936: في 10 كانون الثاني/يناير - بعد وفاة هنانو بأربعين يوماً - وقعت مظاهرات ضخمة في سوريا، أعقبها إضراب عام.

في 20 كانون الثاني/يناير، إميل إدّه الموالي للفرنسيين ينتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية، ويهزم بشارة الخوري.

في 28 كانون شباط/فبراير - اليوم الأربعين من الإضراب العام في سوريا - الوطنيون ينظمون مظاهرات عارمة. والفرنسيون يطلقون النار ويقتلون عدداً من المتظاهرين.

في 1 آذار/مارس، المفوض السامي الفرنسي الكونت داميان دو مارتيل يتعهد بإعادة العمل بالدستور، بعد أن واجه الأزمة. فيجيز لوفد سوري السفر إلى باريس للتفاوض على معاهدة معها.

في 10 آذار/مارس، شخصيات مسلمة بارزة من المدن الساحلية اللبنانية تعقد "مؤتمر الساحل" في بيروت للمطالبة بأن تعاد مدن بيروت وطرابلس وصيدا إلى سوريا، بالإضافة إلى الأقضية الأربع التي ألحقت بلبنان في سنة 1920، ما يسمى "الأراضي المتنازع عليها". لم يحضر رياض الصلح المؤتمر. ولم يعد في ذلك الوقت يعتقد أن تفكيك لبنان هدفاً معقولاً.

كاظم الصلح، ابن عم رياض، يحدث صدمة في المؤتمر عندما أعلن أن الدعوة إلى تفكيك لبنان لا تخدم قضية الوطنيين العرب. ورأى أن الحكمة تقتضي إقناع الموارنة بالانضمام إلى المسلمين في النضال من أجل استقلال لبنان. وقد نشرت آراء كاظم الصلح في جريدة النهار في آذار/مارس، ثم في كراس في نيسان/أبريل 1937.

في 12 آذار/مارس، رياض الصلح يصل إلى باريس قبل وصول الوفد السوري، الذي سيقدم له المشورة خلال المفاوضات مع الفرنسيين. ويعقد اجتماعاً مع ناحوم غولدمان، مؤسس المؤتمر اليهودي العالمي ورئيسه.

الجبهة الشعبية - ائتلاف الجناح اليساري الذي يضم الاشتراكيين الراديكاليين، والاشتراكيين، والشيوعيين - يفوز في الانتخابات العامة الفرنسية. وفي 4 حزيران/يونيو، الزعيم الاشتراكي ليون بلوم يشكل الحكومة، وفي 7-8 حزيران/يونيو يتوصل إلى اتفاق تاريخي مع أصحاب العمل ونقابات العمال - اتفاقات ماتينيون - التي غيرت حياة الطبقات العاملة.

في 26 آب/أغسطس، المعاهدة البريطانية المصرية تنشئ "تحالفاً دائماً" بين البلدين، وتتص على بقاء القوات البريطانية مؤقتاً في مصر للدفاع عن قناة السويس.

في 9 أيلول/سبتمبر، التوقيع بالأحرف الأولى في وزارة الخارجية الفرنسية على معاهدة "صداقة وتحالف" فرنسية سورية لمدة خمس وعشرين سنة. والاحتفاء بالمعاهدة كانتصار كبير للكتلة الوطنية، ولرياض الصلح نفسه.

في 29 أيلول/سبتمبر، الوفد السوري يعود إلى بلاده حيث يلقي استقبالا حافلاً. في 29 تشرين الأول/أكتوبر، تعطل الحياة الدستورية في العراق بانقلاب عسكري يقوده الفريق بكر صدقي.

في 21 كانون الأول/ديسمبر، زعيم الكتلة الوطنية السورية هاشم الأتاسي ينتخب رئيساً للجمهورية السورية.

وصول لجنة بيل إلى فلسطين "للتحقيق في أسباب الاضطرابات".

1936-37: الكتائب اللبنانية، وهي حركة شبابية مسيحية، والنجادة، وهي نظيرتها المسلمة، تحتحيان حركة سعاددة.

1937:

في كانون الثاني/يناير، الرئيس اللبناني إميل إته يعين خير الدين الأحذب رئيساً للوزراء، وهو أول مسلم يتولى هذا المنصب الرفيع.

في 7 آذار/مارس، سعادة يعتقل للمرة الثالثة، لكن يطلق سراحه بعد شهرين.

في 21 حزيران/يونيو، ليون بلوم يستقيل بعد أن فقد الأغلبية في مجلس الشيوخ. ويعود إلى السلطة بعد ثمانية أشهر، في 13 آذار/مارس 1938، ليترك المنصب نهائياً خلال أقل من شهر. وانهيار الجبهة الشعبية يقضي على المعاهدة الفرنسية السورية ويقوّي كل يرغب في إدامة الانتخاب.

في 7 تموز/يوليو، نشر تقرير لجنة بيل، الذي خلص إلى أن الانتخاب على فلسطين غير ناجح وأوصى بتقسيم البلد إلى دولة عربية ودولة يهودية، ومنطقة صغيرة خاضعة للانتداب البريطاني.

العنف يتدلج ثانية في فلسطين، واستمرار التقارير عن تهريب الأسلحة وتشكيل مجموعات مسلحة في الريف.

في 8 أيلول/سبتمبر، 400 مندوب تقريباً من جميع أنحاء العالم العربي يحضرون الجلسة الافتتاحية لمؤتمر مخصص للقضية الفلسطينية عقد في قرية بودان السورية. ورياض الصلح يقود مجموعة كبيرة من السياسيين اللبنانيين السنّة المشاركين فيه.

في انتخابات تشرين الأول/أكتوبر، رياض الصلح يترشح لعضوية مجلس النواب، لكنه ينسحب عشية الاقتراع، بعدما أوضح الفرنسيون أنهم سيتلاعبون في الانتخابات لإسقاطه.

ليلة 13-14 تشرين الأول/أكتوبر، الحاج أمين الحسيني يهرب من الحرم القدسي حيث كان مختبئاً، متكرّراً بلباس بدوي، وينتقل في قارب صيد إلى الساحل اللبناني. والفرنسيون يسمحون له بالإقامة لإزعاج البريطانيين، لكنه ينتقل إلى بغداد في تشرين الأول/أكتوبر 1939.

في 29 تشرين الأول/أكتوبر، انعقاد الجلسة الأولى لمجلس النواب اللبناني الجديد. ورئيس الحكومة خير الدين الأحدي يقّم استقالته، لكن الرئيس إميل إته يطلب منه تشكيل حكومة ثانية.

سعادة يقّم التماساً إلى المفوض السامي الفرنسي من أجل الوحدة السورية اللبنانية. في 10 أيلول/سبتمبر

في تشرين الثاني/نوفمبر (وفي آب/أغسطس 1938)، رئيس الوزراء السوري جميل مردم يتوجّه إلى باريس مرتين في محاولة يائسة لإقناع المعاهدة الفرنسية السورية. ويقّم مزيداً من التنازلات إلى فرنسا.

في 18 تشرين الثاني/نوفمبر، الرئيس إته يصدر مرسوماً ينص على أن جميع الحركات الشيعية شبه العسكرية غير قانونية.

- 1937-39: اندلاع العنف في فلسطين بضرارة تفوق ما حدث في تشرين الأول/أكتوبر 1937، حيث تهاجم مجموعات مسلحة للقوات البريطانية والمستوطنات الإسرائيلية. والقتال يستدور ليصبح صراعاً فلسطينياً داخلياً دامياً. للبريطانيون يردون بحملة وحشية من الإرهاب المضاد. والثورة وقمعها يدمران الاقتصاد الفلسطيني. مقتل أكثر من 5000 عربي وجرح 14,000 آخرين. في أثناء قمع الثورة العربية بوحشية، الهاغاناه تنمو، بمساعدة البريطانيين، لتصبح جيشاً سرياً كبيراً قوامه 15,000 رجل وامرأة.
- 1937-41: عدة مسؤولين وعملاء دعاية للمان يزورون المشرق ويحاولون تأجيج المشاعر المناهضة للبريطانيين والفرنسيين.
- 1938: سعادة يغادر لبنان بعد للتهديد باعتقاله، ويتوجه إلى قبرص وبرلين وروما والبرازيل، حيث يوجه منها نداء إلى أعضاء الحزب للتمرد في لبنان.
- في 3 تموز/يوليو، فرنسا وتركيا تتوصلان إلى اتفاق بشأن مستقبل لواء الإسكندرونة. في 5 تموز/يوليو، القوات التركية تدخل لواء الإسكندرونة، بمباركة فرنسية، للإشراف على الاستفتاء العام. وترتيب الجدول الانتخابية لجعل الغالبية تركية. وإبماج اللواء بتركيا وإعادة تسميته هاتاي. و20,000 لاجئ تقريباً يهربون إلى سوريا ولبنان.
- في 14 كانون الأول/ديسمبر، وزير الخارجية الفرنسي جورج بونيه يبلغ الجمعية الوطنية أن الحكومة الفرنسية لم تعد تعترف أن تطلب من البرلمان التصديق على المعاهدة الفرنسية السورية.
- 1939: في 18 شباط/فبراير، استقالة رئيس الوزراء السوري جميل مردم بعد تعرضه لانتقادات حادة من الرأي العام.
- في آذار/مارس، سقوط حكومة الكتلة الوطنية، ما قضى تماماً على المعاهدة الفرنسية السورية التي اتفق عليها في سنة 1936.
- في 3 نيسان/أبريل، وفاة الملك العراقي غازي في حادث سيارة. وعمره عبد الإله يصبح وصياً على العرش.
- في 17 أيار/مايو، الحكومة البريطانية تنشر كتاباً ليبيض يبدو كأنه يوجه ضربة خطيرة للطموحات الصهيونية بإعلان أن تحويل فلسطين إلى دولة يهودية ليس جزءاً من السياسة [البريطانية]. لكن اقتراحات الكتاب الأبيض لم يكن لها صلة بما يجري على الأرض.
- في 7 تموز/يوليو، الرئيس السوري هاشم الأتاسي ينسحب من الحياة العامة.
- في 25 آب/أغسطس، استدعاء الجنرال مكسيم ويغان، وهو مفوض سام سابق في بيروت، من التقاعد لتولي قيادة القوات الفرنسية في شرق المتوسط. وكانت مهمته تقضي بإعادة بناء الجيش في المشرق. وقد وصل إلى بيروت في 30 آب/أغسطس.
- وفي 1 أيلول/سبتمبر، ألمانيا تهاجم بولندا وإعلان الحرب.

في 3 تشرين الأول/أكتوبر، محكمة عسكرية فرنسية تصدر أحكاماً على اثنين وأربعين عضواً في الحزب السوري القومي. والأحكام تتراوح بين السجن سنة وعشرين سنة. والحكم على نعمة ثابت، أقرب المساعدين إلى سعادة، لمدة عشر سنوات.

:1940

موجة من الاحتجاجات الوطنية تطيح برئيس الوزراء العراقي نوري السعيد المؤيد للبريطانيين وتحمل رشيد عالي الكيلاني إلى رئاسة الوزراء. والكيلاني يدعو إلى تعديل المعاهدة البريطانية العراقية.

في 10 أيار/مايو، هتلر يشن حرباً خاطفة على بلجيكا وفرنسا، والبلدان يخسران الحرب خلال أيام.

في 16 حزيران/يونيو، المارشال فيليب بيتان يصبح رئيساً لوزراء فرنسا ويبرم هدنة مع فرنسا.

في 18 حزيران/يونيو، الجنرال شارل ديغول يوجه نداء عبر هيئة الإذاعة البريطانية من لندن يدعو فيه الفرنسيين إلى مواصلة القتال ضد ألمانيا النازية بقيادته.

في حزيران/يونيو، إيطاليا تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا، وتهتد موقف بريطانيا في البحر المتوسط، والشرق الأوسط، وشرق أفريقيا.

في 3 تموز/يوليو، البحرية الملكية تهاجم الأسطول الفرنسي في المرسى الكبير، وتقتل 1500 بحار وتغرق وتغطف السفن الفرنسية. وفرنسا تقطع علاقاتها مع بريطانيا.

في 6 تموز/يوليو، اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وهو من الشخصيات البارزة في الثورة السورية الكبرى 1925-1926، في دمشق، ما أحدث فوضى في صفوف الوطنيين.

الجنرال ديغول يرسل الجنرال كاترو إلى الشرق الأوسط للدفاع عن المصالح الفرنسية. كاترو يصل متكرراً إلى القاهرة في 27 أيلول/سبتمبر حاملاً خطة طموحة للإطاحة بإدارة فيشي في سوريا ولبنان، وإدخال تلك الأراضي تحت سيطرة ديغول عن طريق انقلاب عسكري.

في كانون الأول/ديسمبر، حكومة فيشي تعين الجنرال هنري فرناند دنتز، القائد العام للقوات الفرنسية في المشرق، مفوضاً سامياً.

:1941

في 31 كانون الثاني/يناير، رشيد عالي يُجبر على الاستقالة بضغط من الوصي على العرش والبريطانيين.

في شباط/فبراير، الوطنيون يدعون إلى إضراب عام في دمشق. والإضراب ينتشر إلى المدن السورية الأخرى، ثم إلى لبنان.

في 25 آذار/مارس، الجنرال ديولوم، القائد العسكري الفرنسي، يعلن "حالة لحصار". واعتقال العديد من الوطنيين وتهديدهم بالنفي.

في 1 نيسان/أبريل، قبل يومين من انقلاب رشيد عالي في بغداد، الجنرال ديغول والجنرال إدوارد سبيرز، رئيس البعثة البريطانية إلى فرنسا الحرة، يحطّان في القاهرة. في 1 نيسان/أبريل، الجيش العراقي يحاصر القصر الملكي في بغداد. وفرار الوصي على العرش.

في 2 نيسان/أبريل، الجنرال دننز يعيّن خالد العظم - وهو سياسي ورجل أعمال بارز معارض للكتلة الوطنية - رئيساً للحكومة السورية ووزيراً للداخلية.

في 3 نيسان/أبريل، رشيد عالي يستولي على السلطة في العراق، مدعوماً من أربعة ضباط يعرفون باسم "المربع الذهبي"، ويحرك القوات العراقية لمواجهة قاعدة سلاح الجو الملكي البريطانية في الحبانية.

بناء على تعليمات من ونستون تشرشل، البريطانيون يوجّهون إنذاراً إلى رشيد عالي: على القوات العراقية الانسحاب من الحبانية في 2 أيار/مايو وإلا هوجمت. وعند انتهاء الإنذار، الطائرات البريطانية تقصف القوات العراقية. وهجوم بري يرفع الحصار عن القاعدة.

في 18 نيسان/أبريل، فرنسا تنسحب من عصبة الأمم، وهي الهيئة التي عهدت إليها في سنة 1919 بالانتداب على سوريا ولبنان.

في 9 أيار/مايو، هبوط أول طائرة ألمانية في دمشق في طريقها إلى العراق. ومجموع الطائرات الألمانية التي عبرت سوريا في أيار/مايو وحزيران/يونيو يبلغ نحو مئة طائرة.

في 18 أيار/مايو، رتل بريطاني يجتاز 500 ميل عبر الصحراء من فلسطين ويصل إلى الحبانية. ورتل آخر ينتقل من شرق الأردن.

في 30 أيار/مايو، سقوط بغداد والوصي على العرش يستعيد السلطة. تشكيل حكومة مؤيدة للبريطانيين برئاسة نوري السعيد. ورشيد عالي يهرب إلى إيران ثم إلى ألمانيا. في 27 أيار/مايو، بناء على أوامر تشرشل، ويفلّ يقدّم إلى لندن مخطط "عملية إكسبورت" - الهجوم على سوريا ولبنان وإلحاق الهزيمة بقوات فيشي. والجنرال هنري "جمبو" ويلسون يضع خطة المعركة.

في حزيران/يونيو، تعيين أوليفر ليتلتون، رئيس مجلس التجارة، وزير دولة بريطاني لشؤون الشرق الأوسط.

في 8 حزيران/يونيو، قوات الحلفاء تجتاز الحدود وتدخل سوريا ولبنان وتواجه مقاومة شرسة من قوات الجنرال دننز. وفي اليوم نفسه، الجنرال كاترو يصدر إعلاناً يتعهد فيه بمنح دولتي المشرق الاستقلال والسيادة. استمرار الحملة خمسة أسابيع.

في 14 تموز/يوليو، انتهاء المعركة بتوقيع هدنة في عكا.

في 14 تموز/يوليو، كاظم الصلح، ابن عم رياض، يقدم مذكرة إلى رئيس الوزراء العراقي جميل المدفعي - ومنه إلى البريطانيين - يعلن فيها مطالب مطالب الوطنيين في المشرق بالاستقلال وإجراء انتخابات حرة.

في 20 تموز/يوليو، ديقول الغاضب يصل إلى القاهرة بغية الاحتجاج على شروط الهدنة.

في 25 تموز/يوليو، ديقول ولينتون، وزير الدولة البريطاني للشرق الأوسط، يتوصلان إلى اتفاق بشأن اقتسام السلطة بين البريطانيين وفرنسا الحرة.

في 9 أيلول/سبتمبر، ونستون تشرشل يعلن في مجلس العموم، ليس لنا مطامع في سوريا... لا نريد الطول محل فرنسا في سوريا... إننا في سوريا من أجل الانتصار في الحرب.

في 27 أيلول/سبتمبر، الجنرال كاترو يصدر بياناً باستقلال سوريا يترك جميع السلطات الفعلية بأدي الفرنسيين. ويسمي الشيخ تاج الدين الحسيني رئيساً للوزراء.

في 20 كانون الأول/ديسمبر، رياض الصلح يعمم مذكرة على للبعثات الدبلوماسية الرئيسية في المشرق يعلن فيها أن بيان كاترو يناقض التعهد بالاستقلال الذي أعلنه كاترو نفسه، وكرره تشرشل وديقول.

أحمد الداعوق يستقيل من رئاسة الوزراء في لبنان، وسامي الصلح، ابن عم رياض ورئيس المحكمة الجنائية، يحل محله

في أواخر السنة، الجنرال سبيرز يخيب أمله بالجنرال ديقول، ويتحول من مؤيد للفرنسيين إلى مناهض لهم.

وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن يعبر عن دعم متحفظ للوحدة العربية في بيانين - واحد في دار البلدية في لندن في 29 أيار/مايو، والآخر في مجلس العموم في 24 شباط/فبراير 1943. لكن إيدن يحرص على عدم الإساءة إلى الفرنسيين أو تعريض التعاون مع ديقول للخطر.

في آذار/مارس، سبيرز يعود إلى بيروت من لندن بصلاحيات أوسع ولقب جديد، بعد منحه لقب سير. ويوضح أنه لم يعد يعترف بالانتداب الفرنسي.

في أوائل الصيف، العلاقات بين رياض الصلح وسبيرز تبدأ في التحسن.

الجنرال سبيرز يضع خطة للتعامل مع أزمة القمح تقضي بجمع القمح من المزارعين على الفور مقابل الدفع نقداً. ومكتب القمح الذي أنشئ في أيار/مايو يدير الخطة.

في 11 آب/أغسطس، الجنرال ديقول يصل إلى لبنان "ويقوم بجولة ملكية في دولتي المشرق، لكن تصريحاته تنفر الرأي العام الوطني - وتنفذ تشرشل صبره. وعندما تقدم وزارة الخارجية الدعم لديقول في التأكيد على استمرار صلاحية الانتداب، سبيرز

يقرّر - بالتعاون مع رياض الصلح - إجبار الفرنسيين على الخروج من سوريا ولبنان من غير رجعة.

1942-43: للوضع الاقتصادي الكئيب يفاقم الغموض السياسي في لبنان. وسبيرز يلقي اللوم على الفرنسيين وعملاتهم المحليين.

1943: إيدن لم يعد مهتماً بكسب الرأي العام العربي بعد انحسار التهديد الألماني عن الشرق الأوسط. ويرى أن من الأفضل بقاء نظام الانتداب.

في 17 كانون الثاني/يناير، وفاة رئيس الوزراء السوري تاج الدين الحسيني، الأداة في يد الفرنسيين، والوطنيون لا يأسفون لوفاته.

في 24 كانون الثاني/يناير، اللجنة الوطنية الفرنسية في الجزائر تعطي الجنرال كاترو الضوء الأخضر لإعادة العمل بالدستور في دولتي المشرق.

في 18 آذار/مارس، كاترو يصدر مراسيم إعادة العمل في الدستور، وإجراء الانتخابات العامة، وانتخاب رئيس للجمهورية من قبل مجلس النواب الجديد. والانتخابات ستجريها سلطة مؤقتة غير سياسية برئاسة أيوب ثابت.

في 17 حزيران/يونيو، ثابت يصدر مرسومين: الأول يحسب المغتربين اللبنانيين (معظمهم من المسيحيين) في تعداد السكان اللبنانيين، والآخر يزيد عدد النواب من اثنين وأربعين إلى أربعة وخمسين، بزيادة اثني عشر نائباً من عشرة منهم مسيحيون واثنان مسلمون.

في 19 حزيران/يونيو، القادة المسلمون يجتمعون لمطالبة الفرنسيين بإلغاء مرسومي ثابت، ويهددون بمقاطعة الانتخابات إذا لم ينفذ مطلبهم.

سبيرز يقترح نسبة 6:5 لتحديد عدد النواب المسيحيين والمسلمين، وهي صيغة تحظى بقبول واسع وتمنح ثلاثين مقعداً للمسيحيين وخمسة وعشرين للمسلمين في مجلس النواب الجديد.

في 21 تموز/يوليو، جان هالو - المندوب العام للفرنسيين الأحرار الذي حل محل كاترو - يصدر مرسوماً يزيج فيه أيوب ثابت ويعين بترو طراد رئيساً للدولة. والإعلان عن إجراء الانتخابات في 29 آب/أغسطس و5 أيلول/سبتمبر، تليها الانتخابات الرئاسية في 19 أيلول/سبتمبر.

في أوائل آب/أغسطس، رياض الصلح يقرّر خوض الانتخابات على المقعد السني الوحيد في جنوب لبنان. وتشكيل لائحة موحدة، تضم رياض الصلح وأحمد الأسعد وعادل عسيران، وفوزها بثلاثة أرباع الأصوات في جنوب لبنان. والقادة المسلمون الآخرون ينجحون أيضاً، ما يغيّر التوازن الطائفي في السياسة اللبنانية.

في آب/أغسطس، رياض الصلح يُنتخب نائباً في مجلس النواب اللبناني.

في 19 أيلول/سبتمبر، اجتماع تاريخي ثنائي بين رياض الصلح وبشارة الخوري في بلدة عاليه، ويتفقان على تقاسم السلطة بغية السعي للاستقلال عن فرنسا. في 21 أيلول/سبتمبر، مجلس النواب اللبناني ينتخب بشارة الخوري رئيساً للجمهورية. وفي اليوم التالي يعين رياض الصلح رئيساً للوزراء. ويصبح الميثاق، الذي عبر عنه بيان رياض الصلح الوزاري، معروفاً باسم الميثاق الوطني. وفيه يتخلى السنّة عن فكرة تفكيك لبنان الكبير، في حين يعترف المسيحيون أن لبنان ذو وجه عربي. في 25 أيلول/سبتمبر، رياض الصلح يشكل أول حكوماته، ويتولّى وزارة المالية إلى جانب رئاسة الوزراء.

في 7 تشرين الأول/أكتوبر، رياض الصلح يدلي بالبيان الحكومي في مجلس النواب. في 22 تشرين الأول/أكتوبر، جان هلو يكتب إلى بشارة الخوري رافضاً التعديلات الدستورية التي يريد رياض الصلح إدخالها. ويزعم أن الانتداب لا يزال قائماً. ورياض يطالب بسحب رسالة هلو.

في 5 تشرين الثاني/نوفمبر، السفارة الفرنسية تسلّم الصحافة في بيروت بياناً شديد اللهجة صادراً عن اللجنة الوطنية الفرنسية في الجزائر: لا تعديلات على الدستور من دون موافقة صريحة من فرنسا.

في 8 تشرين الثاني/نوفمبر، مجلس النواب اللبناني يقرّ التعديلات الدستورية بالإجماع.

قبل فجر 11 تشرين الثاني/نوفمبر، اعتقال الرئيس بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح وبعض الوزراء في منازلهم، بالإضافة إلى الزعيم الطرابلسي عبد الحميد كرامي أيضاً، وسجنهم في قلعة راشيا.

في الساعة 8 من صباح 11 تشرين الثاني/نوفمبر، جان هلو يذيع بياناً يعلن فيه أن الوقت قد حان لوضع حد لنظام رياض الصلح الديكتاتوري. ويلغي التعديلات الدستورية ويسلم السلطة التنفيذية إلى إميل أده الموالي للفرنسيين، ويسميه رئيساً للدولة والحكومة.

في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، نائب رئيس الوزراء حبيب أبي شهلا ووزير الدفاع الأمير مجيد أرسلان ينشآن "حكومة مؤقتة" في بشامون بعد إفلاتهما من الاعتقال. وثلاثون نائباً يجتمعون في منزل الزعيم السني البارز صائب سلام، حيث يمنحون الحكومة المؤقتة الثقة. وتشكيل لجنة وطنية لتنظيم المقاومة السليبية. وسقوط قتلى في صفوف المتظاهرين برصاص القوات الفرنسية

في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، الجنرال سبيرز يبعث برسالة رسمية إلى هلو يعبر فيها عن غضبه من إجراءات المندوب العام.

في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، الجنرال ديغول يبلغ روجر ماكينز، العضو في مكتب الاتصال البريطاني بالفرنسيين في الجزائر، أن الانتداب لا يمكن إنهاؤه في أثناء الحرب.

في 13 تشرين الثاني/نوفمبر، الكتائب اللبنانية والنجادة ينزلان أعضاءهما إلى الشارع تحدياً للفرنسيين. واعتقال زعيم الكتائب بيار الجميل، ووقوع صدامات عديدة في أنحاء مختلفة من لبنان.

في 16 تشرين الثاني/نوفمبر، الجنرال كاترو يصل إلى لبنان قادماً من الجزائر، حاملاً تعليمات بدعم إميل إدو وإبعاد رياض الصلح عن منصبه. والقوات الفرنسية تهاجم قرية بشامون لكنها تردّ على أعقابها.

في 18 تشرين الثاني/نوفمبر، كاترو يعقد اجتماعات منفصلة سرية مع الرئيس بشارة الخوري ورياض الصلح بعد إحضارهما من راشيا إلى بيروت للاجتماع بهما. ونتيجة لهذه الاجتماعات، كاترو يقتنع بعدم إمكانية حل الأزمة من دون إعادة هذين الرجلين إلى السلطة.

في 19 تشرين الثاني/نوفمبر، ريتشارد كيس، وزير الدولة البريطاني للشرق الأوسط، يسلم كاترو إنذاراً في منزل سبيرز. إذا لم يستبدل هالو ويطلق سراح السجناء في العاشرة من صباح 22 تشرين الثاني/نوفمبر، فستعلن بريطانيا الأحكام العرفية وتحرر الرئيس والوزراء.

ليلة الأحد في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، هيئة الإذاعة البريطانية تعلن عن قرب الإفراج عن الوزراء المعتقلين، ونوبة من الفرح تجتاح لبنان.

في صباح 22 تشرين الثاني/نوفمبر، الإفراج عن المعتقلين وقدمهم إلى بيروت، حيث يلقون استقبلاً شعبياً حافلاً. وفي وقت مبكر من ذلك اليوم، إميل إدو يهرب في سيارة فرنسية إلى مكان مجهول.

في 24 تشرين الثاني/نوفمبر، كاترو يزور السرايا ويعلن إلغاء مراسيم هالو. وعودة الوضع إلى ما كان عليه في 10 تشرين الثاني/نوفمبر.

في 7 كانون الأول/ديسمبر، وزير الخارجية أنتوني إيدن يرأس اجتماعاً لكبار المسؤولين البريطانيين في القاهرة، ويبدى استيائه من تصرفات سبيرز، ويطلب منه حفظ ماء وجه الفرنسيين.

في 16 كانون الأول/ديسمبر، الجنرال كاترو يعود إلى بيروت قادماً من الجزائر، حاملاً تعليمات من ديغول تقضي بإجبار الحكومتين السورية واللبنانية على توقيع معاهدة تعيد إلى فرنسا موقعها البارز في المشرق. ويدخل في مفاوضات مع الحكومتين بمساعدة إيف شاتنيو، المندوب العام الجديد.

في 22 كانون الأول/ديسمبر، للتوصل إلى اتفاق على نقل المصالح المشتركة إلى سوريا ولبنان.

في 3 كانون الثاني/يناير، اتفاق كانون الأول/ديسمبر يستتبع بنقل إدارة الجمارك وإدارة حصر التبغ والتبأك، لكن الانتقال يظل وهمياً لأن الفرنسيين يحتفظون بمناصبهم.

في كانون الثاني/يناير، رياض الصلح يقوم بجولة في البلدان العربية يرافقه، وزير الخارجية، وموسى مبارك، مدير مكتب الرئيس بشارة الخوري.

في آذار/مارس، حكومة رياض الصلح تقدم ميزانيتها الأولى إلى مجلس النواب. الميزانية لا تلحظ تخصيص اعتمادات للجيش الوطني.

في 1 آذار/مارس، السماح للحزب السوري القومي باستئناف أنشطته في دمشق وبيروت.

في 10 آذار/مارس، الجنرال بول بينيه يصل إلى بيروت للحلول محل شاتتيو. وظهور شائعات عن مخططات فرنسية لإزاحة رياض الصلح عن منصبه.

في 2 أيار/مايو، الحزب السوري القومي يقرّر دعم حكومة رياض الصلح.

في 23 آب/أغسطس، هيئة الإذاعة البريطانية تعلن عن تحرير باريس، والفرنسيون في المشرق يحتفلون بذلك.

في 24 آب/أغسطس، رينيه ماسيغلي، مفوض الشؤون الخارجية لدى ديغول، يرسل مذكرة قاسية إلى أنتوني إيند يشكو فيها من التعديلات البريطانية على موقع فرنسا البارز في المشرق. وإيند يرفض التهم، لكنه يدعم إبرام معاهدين بين فرنسا وكل من سوريا ولبنان - خلافاً لتوصية سبيرز.

في أواخر آب/أغسطس، أنتوني إيند يقرّر وضع نهاية لعمل سبيرز في المشرق، وفي 1 أيلول/سبتمبر، يبعث برسالة إلى سبيرز تعادل صرفه من الخدمة.

من 25 أيلول/سبتمبر إلى 7 تشرين الأول/أكتوبر، الوفود العربية تجتمع في الإسكندرية للإعداد للمؤتمر التأسيسي لجامعة الدول العربية. ورياض الصلح يرأس الوفد اللبناني.

الجنرال بينيه يتسبب في حدوث أزمة مع الحكومة اللبنانية بإرسال مذكرة إلى الرئيس بشارة الخوري. وفيها يزعم أن بروتوكول الإسكندرية أبطل إعلان استقلال لبنان وسوريا الذي أصدره الجنرال كاترو في سنة 1941 لأنه يستبعد احتمال إبرام معاهدة مع فرنسا. البريطانيون يحتجون. واللبنانيون يطلبون من بينيه سحب مذكرته. ورياض الصلح يقول في مجلس النواب: "سنتمسك باستقلالنا وندافع عنه مهما كان الثمن".

في 7 تشرين الأول/أكتوبر، سيع دول عربية توقع على بروتوكول الإسكندرية.

في 8 كانون الأول/ديسمبر، سببرز يردّ على إيدن ويدافع عن سياساته وأفعاله. ويحصل على لقب مواطن شرف من سوريا ولبنان.

في أواسط كانون الأول/ديسمبر، الرئيس بشارة الخوري يسقط في الشارع ويكسر نراعه. ثم يعاني من انهيار عصبي ويذهب إلى فلسطين للعلاج.

في 9 كانون الثاني/يناير، رياض الصلح يستقيل من رئاسة الوزراء. والفرنسيون يحتفلون لسقوط رياض الصلح ورحيل سببرز.

1945:

في أوائل كانون الثاني/يناير، الدبابات السورية تتحرك إلى دمشق. والعقيد أوليفا - روجيه، المندوب الفرنسي، يرسل تهديداً إلى الحكومة السورية، ويقطع المفاوضات بشأن نقل القوات الخاصة. ونزول القوات الاستعمارية الفرنسية في بيروت.

في 22 آذار/مارس، إنشاء جامعة الدول العربية في القاهرة، وتضم ستة أعضاء في البداية: سوريا وشرق الأردن (سمي الأردن في سنة 1946) والعراق ولبنان ومصر والمملكة العربية السعودية.

في 30 نيسان/أبريل، دوف كوبر، السفير البريطاني في باريس، يحذر ديغول من المخاطر على الأمن العام إذا وصلت التعزيزات الفرنسية إلى بيروت في أثناء المفاوضات الفرنسية السورية.

في 5 أيار/مايو، اليمن ينضم إلى الجامعة العربية.

في 8 أيار/مايو، الجنرال بينيه يكشف عن شروط قاسية في المعاهدتين المقترحتين مع سوريا ولبنان. والحكومتان السورية واللبنانية ترفضان التفاوض على هذا الأساس وتدينان نزول القوات الفرنسية في بيروت. ووقوع مظاهرات عنيفة في دمشق.

في 29 - 31 أيار/مايو، المدفعية الفرنسية تقصف أهدافاً في دمشق، منها القلعة ومبنى البرلمان، وتحدث دماراً كبيراً وخسائر في الأرواح.

في 31 أيار/مايو، أنتوني إيدن يعلن في مجلس العموم أن رئيس الوزراء ونستون تشرشل أرسل رسالة إلى ديغول يبلغه فيها أن القوات البريطانية ستنتحلّ لمنع إراقة الدماء، ويطلب منه أن يأمر القوات الفرنسية بوقف إطلاق النار والاتسحاب إلى تكتاتها.

في 1 حزيران/يونيو، رتل بريطاني مدرّع يدخل دمشق. وبريطانيا تتولى السيطرة العسكرية إلى أن تستأنف الحكومة السورية مهامها العادية.

في أعقاب قصف مدينة دمشق، الفرنسيون يوافقون بضغط دولي على البدء بنقل القوات الخاصة.

1946:

في كانون الثاني/يناير، انعقاد الاجتماع الأول للأمم المتحدة التي أنشئت حديثاً في لندن. ورياض الصلح يسافر إلى بريطانيا مستشاراً للوفد اللبناني برئاسة وزير الخارجية حميد فرنجية.

في 4 شباط/فبراير، الوفدان اللبناني والسوري يبعثان برسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة يشكون فيها من وجود القوات الفرنسية والبريطانية في أراضيها، ويطلبان انسحابهما التام والمتزامن.

في 14 شباط/فبراير، الوفد اللبناني يغادر إلى باريس لاستئناف المفاوضات مع الفرنسيين، ويعلم أن السلطات العسكرية الفرنسية لا تعترف سحب قواتها بأكملها من لبنان قبل 1 نيسان/أبريل 1947.

في 28 شباط/فبراير، مجلس الأمن الدولي يدرس الشكاوى السورية واللبنانية. وفي 15 شباط/فبراير، رئيسا الوفدين السوري واللبناني يعهدان بقضيتيهما إلى المجلس.

الرئيسان السوري واللبناني يجتمعان ويقرران إصدار تعليمات إلى وفديهما بالسفر إلى نيويورك لعرض قضيتيهما على مجلس الأمن الدولي في جلسته القادمة في 21 آذار/مارس، إذا لم تلتزم فرنسا موقفها.

في 17 آذار/مارس، استئناف المفاوضات السورية اللبنانية في باريس، بعد أن تمكن رياض الصلح من التغلب على ستانيسلاس أستوروغ المتصلّب، الأمين العام للمنوبية العامة الفرنسية في بيروت.

في 23 آذار/مارس، الفرنسيون يوافقون على سحب قواتهم بحلول 31 كانون الأول/ديسمبر 1946.

في 28 آذار/مارس، الأمير عبد الله يحصل على استقلال اسمي عن بريطانيا ويعلن نفسه ملكاً على مملكة شرق الأردن الهاشمية (الأردنية لاحقاً)، ويشرع في الترويج لإنشاء سوريا الكبرى تحت حكمه.

في 14 كانون الأول/ديسمبر، رياض الصلح يكلف ثانية برئاسة الوزراء.

في 21 كانون الأول/ديسمبر، رياض الصلح يلقي البيان الحكومي أمام مجلس النواب اللبناني.

في 31 كانون الأول/ديسمبر، جلاء آخر جندي فرنسي عن لبنان.

1946-1951: رياض الصلح يتولّى رئاسة الحكومة من 14 كانون الأول/ديسمبر 1946 إلى 14 شباط/فبراير 1951، أي لمدة أربع سنوات وشهرين.

1947: في 2 آذار/مارس، أنطون سعادة، مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، يعود إلى الشرق الأوسط قادماً من أميركا الجنوبية، ويلقى ترحيباً كبيراً من مؤيديه.

في 5 آذار/مارس، بيار الجميل، زعيم الكتائب اللبنانية يهاجم سعادة بعنف في صحيفة العمل.

في 13 آذار/مارس، المدعي العام اللبناني يصدر مذكرة اعتقال بحق أنطون سعادة. لكن سعادة يبقى طليقاً ويتحدى الشرطة اللبنانية أن توقيه.

إجراء الانتخابات النيابية اللبنانية على دورتين، في 25 أيار/مايو و 1 حزيران/يونيو. وفوز الأحزاب الموالية للحكومة بسبعة وأربعين مقعداً من أصل خمسة وخمسين مقعداً. المعارضة تتهم الحكومة بتزوير النتائج. رياض الصلح يستقيل نتيجة اتهامه بتزوير الانتخابات، لكن الرئيس بشارة الخوري يكلفه بتشكيل حكومة جديدة.

في 20 حزيران/يونيو، الكتلة الوطنية في سوريا تتلقى ضربة موجعة بوفاة سعد الله الجابري، أحد أبرز أعضائها. وفي غضون ذلك، الكتلة تنقسم إلى الحزب الوطني وحزب الشعب.

في 4 آب/أغسطس، الملك عبد الله يدعو إلى مؤتمر سوري في عمان - على غرار المؤتمر السوري العام الذي عقد في سنة 1920 - لبحث خطته الوحدية. وطموحاته تثير رفض القادة العرب الآخرين، لا سيما الرئيس السوري شكري القوتلي. في أيلول/سبتمبر، بريطانيا تعلن أنها ستنتهي انتدابها على فلسطين وستسحب من البلد في 14 أيار/مايو 1948.

في 29 تشرين الثاني/نوفمبر، الجمعية العامة للأمم المتحدة تصوت بأغلبية الثلثين، في اجتماعها المنعقد في باريس، على تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. ومنح اليهود 50 بالمئة من البلد مع أنهم يشكلون ثلث السكان فقط، ولا يملكون قانونياً سوى 7 بالمئة من الأرض. واليهود يحتفلون فيما يغضب العرب.

في كانون الأول/ديسمبر، الإرهابيون الصهاينة من عصاباتي شتيرت والإرغون يهاجمون الأحياء العربية في القدس، ويطلقون دورة العنف.

48-1947: في أواخر سنة 1947 وأوائل سنة 1948، في أواخر سنة 1947 وأوائل سنة 1948، تشكيل قوتين عربيتين من المتطوعين: جيش الإنقاذ العربي، بقيادة فوزي القاوقجي، وجيش الجهاد المقدس، بمبادرة شخصية من الحاج أمين الحسيني، بقيادة ابن عمه، عبد القادر الحسيني.

في الأشهر الفاصلة بين التصويت في الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين في تشرين الثاني/نوفمبر 1947 ونهاية الانتداب على فلسطين في 14 أيار/مايو 1948، رياض الصلح يقترح اقتراحات متكررة إلى البريطانيين من أجل "سوية شاملة". لكن بريطانيا لا تردّ بالإيجاب. فلندن ترى أن بريطانيا الواهنة ستغادر فلسطين، وسيحصل الصهاينة على دولتهم، وعلى العرب الاكتفاء بما يمكنهم الاحتفاظ به.

1948: في 6 شباط/فبراير، وزير الخارجية اللبناني حميد فرنجية يوقع اتفاقاً مالياً في باريس ينص على ضمان فرنسا خفض قيمة تغطية العملة اللبنانية بالفرنك الفرنسي. سوريا ترفض التوقيع على اتفاق مماثل، ما يؤدي إلى انفصال العملتين السورية واللبنانية، وإلى توتر خطير في العلاقات بين البلدين.

في آذار/مارس، قادة ألوية الهاغاه الاثني عشر يتلقون قوائم بالقرى الفلسطينية التي يؤمر كل منها بحرقها وتدميرها وطرد سكانها.

في 9 نيسان/أبريل، ستة وأربعون نائباً يوقعون على عريضة لتعديل الدستور بما يسمح لبشارة الخوري بالترشح للرئاسة مرة ثانية. وإقرار التعديل في 21 نيسان/أبريل، وإعادة انتخاب بشارة الخوري في 27 أيار/مايو.

في 9 نيسان/أبريل، إرهابيون من عصابتي شتيرن والإرغون يرتكبون مجزرة في قرية دير ياسين يذهب ضحيتها 254 رجلاً وامرأة وطفلاً.

في 17 نيسان/أبريل، مجلس الأمن الدولي يصدر القرار رقم 46 الذي يفرض حظراً شاملاً على إرسال الأسلحة إلى الشرق الأوسط. العرب يتأثرون جداً بهذا القرار، فيما يواصل الصهاينة تسلّم الأسلحة سراً من الكتلة السوفياتية وفرنسا.

في 9 أيار/مايو، اللجنة السياسية للجامعة العربية في دمشق لوضع خطة للعمليات العسكرية. ورياض الصلح يحاول حشد القادة العرب للمشاركة في الحرب.

في 14 أيار/مايو، ديفيد بن غوريون يعلن من تل أبيب إنشاء دولة إسرائيل.

في 15 أيار/مايو، الجيش المصري يعبر الحدود إلى فلسطين ويصل إلى أشدود، على بعد 32 كيلومتراً من تل أبيب.

في 15 أيار/مايو، الفيلق العربي الأردني يدخل فلسطين، لكنه لا يتجاوز خطوط التقسيم.

في 21 أيار/مايو، القوات العراقية تدخل الضفة الغربية عابرة جسر أَللنبي وتصل إلى نابلس، وطولكرم في 23 أيار/مايو.

في 29 أيار/مايو، مجلس الأمن الدولي يصوت على وقف لإطلاق النار مدته أربعة أسابيع ويكلف الكونت برنادوت بالإشراف على تنفيذه. لكن إسرائيل تواصل ترحيل الفلسطينيين من قراهم وقتل كل من يحاول العودة إليها.

في أيار/مايو - حزيران/يونيو، الجيش اللبناني والصهاينة يشتبكون في قرية المالكية، وتبادل الاستيلاء على القرية عدة مرات.

في آب/أغسطس، رياض الصلح يزور عمان ليستعلم من الملك عبد الله عن سبب الأداء الضعيف للفيلق العربي في حرب فلسطين. هل أعاقه البريطانيون؟ وهل غلب باشا المسؤول؟ لم يكن رياض يعرف مقدار ابتعاد الملك الأردني عن الإجماع العربي في تعاملاته السرية مع الصهاينة. وفي أعقاب المحادثات مع الملك، رياض يرسل مذكرة كنيبة بعنوان "حاضر الدول العربية وشعوبها" إلى رئيس الوزراء العراقي مزاحم الباجه جي.

في 17 أيلول/سبتمبر، عصابة شتيرن تغتال الكونت برنادوت في القدس.

1948-49: القوات الإسرائيلية تنفذ سلسلة من العمليات بين تشرين الأول/أكتوبر 1948 وأذار/مارس 1949 تسفر عن هزيمة العرب التامة واستيلاء إسرائيل على الكثير من الأراضي. 750,000 لاجئ فلسطيني يتنقون على الدول العربية. والرأي العام العربي يعاني من انهيار المعنويات والإحساس بالمهانة من جراء الهزيمة في فلسطين.

1949: في 13 كانون الثاني/يناير، محادثات الهدنة تفتتح في رودس بين إسرائيل ومصر. في اتفاقيات الهدنة التي أبرمت في وقت باكر من السنة، إسرائيل تؤمن الاستيلاء على أكثر من ثلاثة أرباع فلسطين التاريخية. ورياض الصلح يجبر على الاعتراف بنكبة الهزيمة العربية.

في 30 آذار/مارس، العقيد حسني الزعيم يستولي على السلطة في دمشق، ويطيح بالنظام البرلماني والوطنيين المخضرمين. اعتقال الرئيس القوطني في المستشفى. وانقلاب الزعيم يحفز سعادة على التفكير في الاستيلاء على السلطة في لبنان. وسعادة يبحث خططاً للانقلاب في لبنان في أثناء زيارة إلى دمشق.

في 21 نيسان/أبريل، الزعيم يقوم بزيارة سرية إلى الملك المصري فاروق ويستسلم لإطراءات الملك.

في 23 نيسان/أبريل، الحكومة اللبنانية تعترف بحكومة حسني الزعيم، بعد ثلاثة أسابيع من التردد.

في 24 نيسان/أبريل، رياض الصلح يسافر إلى سوريا للاجتماع بحسني الزعيم ويخفي استيائه من تدخل الجيش السوري في السياسة.

في أواسط أيار/مايو، وحدة من الجيش السوري تجتاز الحدود اللبنانية سراً وتقتل كامل حسين يوسف، وهو مواطن لبناني من أصل سوري. واليوسف مشتبه بأنه عميل إسرائيلي زعم أنه قتم رشوة من أموال صهيونية إلى حسني الزعيم، عندما كان الأخير قائداً للجبهة السورية في سنة 1948.

ليل 9-10 حزيران/يونيو، الكتائب ومؤيدو أنطون سعادة يصطدمون في الجيزة في بيروت. وإضرام النار في مطبعة الحزبي السوري القومي. واعتقال عند كبير من أعضاء حزب سعادة في اليوم التالي.

ليل 2-3 تموز/يوليو، مسلحون من الحزب السوري القومي يهاجمون مراكز الدرك اللبناني. واعتقال 900 عضو من الحزب بحلول 7 تموز/يوليو، بتمية محاولة الاستيلاء على السلطة في انقلاب عسكري لتنفيذ مشروع سرري الكبري الذي يدعو إليه سعادة.

الزعيم يستخرج سعادة إلى قصر الرئاسة في دمشق، حيث يعتقله ويسلمه إلى السلطات اللبنانية، شرط قتله في الرحلة إلى بيروت.

سعادة يحاكم خلف أبواب مغلقة أمام محكمة عسكرية ويصدر عليه حكم بالإعدام في 7 تموز/يوليو. وتنفيذ حكم الإعدام فجر اليوم التالي.

في 16 تموز/يوليو، محاكمة ثمانية وستين عضواً في الحزب السوري القومي أمام محكمة عسكرية. أعدم منهم ستة. واحتجاز 800 آخرين بانتظار المحاكمة.

في 17 تموز/يوليو، استقبال رياض الصلح رسمياً في سوريا.

في 14 آب/أغسطس، بعد أربعة أشهر ونصف على استيلاء حسني الزعيم على السلطة، العقيد سامي الحناوي ينقلب عليه، وإعدام الزعيم ورئيس وزرائه.

في 27 كانون الأول/ديسمبر، العقيد أديب الشيشكلي ينفذ انقلاباً على العقيد سامي الحناوي في سوريا ويعين خالد العظم رئيساً للوزراء.

في 14 شباط/فبراير، خالد العظم يضع حجر الأساس لبناء ميناء اللاذقية السوري على البحر المتوسط. 1950:

في 9 آذار/مارس، شاب في الحزب السوري القومي يحاول اغتيال رياض الصلح.

في 13 آذار/مارس، خالد العظم يحل الاتحاد الجمركي السوري اللبناني.

في آذار/مارس، الصحافة المصرية تنشر وثائق زودها بها المقدم عبد الله التل تكشف عن تعاون الملك عبد الله سرّاً مع إسرائيل. وترغم أم إحدى الوثائق تحتوي على النص الكامل لمعاهدة السلام المقترحة. والصحف العربية في لبنان تشارك في شن حملة مريرة على الملك.

في زيارة إلى القاهرة في آذار/مارس لحضور اجتماع اللجنة السياسية للجامعة العربية، رياض يقترح قراراً بإحالة الأردن إلى اللجنة لامتناعه عن حضور الاجتماع. واللجنة تقترح طرد الأردن من الجامعة بسبب مفاوضات السلام التي يجريها مع إسرائيل.

في زيارة إلى القاهرة في أيار/مايو لحضور اجتماع آخر للجنة السياسية للجامعة العربية، رياض يشنّ هجوماً عنيفاً على الملك عبد الله. وفي الزيارة نفسها، يبلغ دبلوماسياً فرنسياً أن سوريا ستغرق في الفوضى إذا لم يعد الرئيس شكري القوكلي إلى السلطة عما قريب.

تراجع مكانة رياض الصلح نتيجة خلافه مع "السلطان" سليم، شقيق بشاره الخوري الأصغر.

وفاة نظيرة مفتي زادة، والددة رياض، في بيروت. 1951:

في 13 شباط/فبراير، رياض الصلح يستقيل من رئاسة الوزراء.

في أيار/مايو، الملك عبد الله يبدي رغبة في الاجتماع برياض الصلح، في أثناء زيارته إلى بيروت، لكن الأخير يرفض. وفي مكالمات هاتفية لاحقة، عبد الله يلح على رياض بالمجيء إلى عمان للتباحث في "مسألة مهمة جداً".

في 13 تموز/يوليو، رياض الصلح يتوجّه بالطائرة إلى عمان، بصحبة طبيبه، وحارس شخصي واحد، وصحافيين.

عصر 16 تموز/يوليو، بعد عقد عدة اجتماعات مع الملك عبد الله، رياض الصلح يتوجّه بالسيارة إلى المطار للعودة إلى بيروت، حيث يعترضها ثلاثة أعضاء في الحزب السوري القومي، حزب سعادة، ويطلقون النار عليه فيقتلونه.

في 17 تموز/يوليو، نقل جثمان رياض الصلح لدفنه في بيروت. وما يقرب من نصف مليون نسمة يصطفون في الشوارع تكريماً له.

في 20 تموز/يوليو، بعد مرور أربعة أيام على مقتل رياض الصلح، اغتيال الملك عبد الله في القدس، عند باب المسجد الأقصى.

في 16 تموز/يوليو، إحياء الذكرى الأولى لوفاة رياض الصلح في بيروت في احتفال أقيم عند ضريحه. 1952:

في 18 أيلول/سبتمبر، إضراب عام يجبر الرئيس بشارة الخوري على الاستقالة من منصبه. وانتخاب كميل شمعون رئيساً مكانه.

في 21 نيسان/أبريل، بلدية بيروت تقيم تمثالاً لرياض الصلح في وسط المدينة. 1953:

صدر كتاب يوسف أرغامن "الحرب الخفية" عن وزارة الدفاع الإسرائيلية. وفيه يروي 2007:

المؤلف شهادة العميل الإسرائيلي السري ياكوف كوهين في بيروت التي يذكر فيها أنه كُلف بقتل رياض الصلح في سنة 1947 لأن إسرائيل اعتبرته أخطر القادة العرب. وتثير هذه الشهادة احتمال أن تكون إسرائيل ضالعة في مقتل رياض الصلح في سنة 1951.

مصادر مختارة (باللغة العربية)

- إبراهيم أبو شقرا، الحاج أمين الحسيني منذ ولادته حتى ثورة 1936، اللاذقية 1998.
- عادل أرسلان، مذكرات الأمير عادل أرسلان، 3 أجزاء، بيروت 1983.
- عبد الرحمن الشهنندر، الثورة الوطنية، دمشق 1933.
- علي زين، من أوراق، بيروت، لا. ت.
- محمد عزة دروزة، مذكرات، الجزأين الأول والثاني، بيروت 1993.
- محمد علي فرحات، (محرر)، أهل الصلح، بيروت 1891.
- محمد جميل بيهم، لبنان بين المشرق والمغرب 1920-1969، بيروت 1969.
- حسن علي حلاق، مذكرات سليم علي سلام 1868-1938، بيروت 1982.
- نخالة العظم، مذكرات، 3 أجزاء، بيروت 1993.
- أمين الحسيني، مذكرات الحاج أمين الحسيني، دمشق 1999.
- أكرم الخوراني، مذكرات أكرم الخوراني، القاهرة 2000.
- باسم الجسر، ميثاق 1943: لماذا كان ولماذا سقط؟ بيروت 1978، الطبعة الثانية، 1997.
- بشارة الخوري، حقائق لبنانية، 3 أجزاء، بيروت 1960.
- فارس الخوري، أوراق فارس الخوري، (حررتها كوليت الخوري)، جزأين، دمشق 1989 و 1997.
- خيرية قاسمية، (محرر)، الحكومة العربية في دمشق بين 1918-1920، بيروت 1971.
- خيرية قاسمية، (محرر)، الرعيل الأول: حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة، لندن 1991.

- سعيد مراد، الحركة الوحدوية في لبنان بين الحربين العالميتين 1914-1946، بيروت 1986.
- زهير عسيران، زهير عسيران يتذكر المؤامرات والانقلابات في دنيا العرب، بيروت 1998.
- أنطون سعادة، نشوء الأمم، الجزء الأول، 1938.
- سعادة، التعاليم السورية القومية الاجتماعية، الطبعة الرابعة، 1947.
- محمد جابر آل صفاء، تاريخ جبل عامل، بيروت، لا. ت.
- عبد الرحمن محمود الحص، رياض الصلح، بيروت 1951.
- يوسف السودا، في سبيل الاستقلال، بيروت 1967.
- يوسف يزبك، أوراق لبنانية، 3 مجلدات، بيروت.
- يوسف سالم، خمسون سنة مع الناس، الطبعة الثانية، بيروت 1998.
- فاطمة قدورة الشامي، عارف بك النعماني: وثائق حول العلاقات اللبنانية السورية الفرنسية، بيروت 1999.
- ساطع الحصري، يوم ميسلون، بيروت 1964.
- سامي الصلح، لبنان: العبث السياسي والمصير المجهول، بيروت 2000.
- عادل الصلح، سطور من الرسالة: تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة 1877، بيروت 1966.
- هلال الصلح، تاريخ رجل وقضية: رياض الصلح 1894-1951، بيروت 1994.

مصادر مختارة (باللغات الأوروبية)

- Feroz Ahmad, *The Young Turks*, Oxford 1969.
- Fouad Ajami, *The Vanished Imam: Musa al-Sadr & the Shia of Lebanon*, London 1986.
- Maurice Albord, *L'Armée Française & les Etats du Levant 1936-1946*, Paris 2000.
- Denise Ammoun, *Histoire du Liban Contemporain 1860- 1943*, Paris 1997.
- Meropi Anastasiadou, *Salonique, 1830- 1912: Une ville ottomane à l'âge des réformes*, Leiden 1997.
- George Antonius, *The Arab Awakening*, London, 1951.
- Gérald Arboit, *Aux sources de la politique arabe de la France: le Second Empire au Machrek*, Paris 2000.
- Yosef Argaman, *The Shadow War: Twenty-five Intelligence and Security Cases in Israel* (in Hebrew), Ministry of Defense Publications Department, Israel 2007.
- André Raymond, 'La Syrie du Royaume Arabe à l'Independence,' in André Raymond (ed.) *La Syrie d'Aujourd'hui*, Paris 1980.
- Jean-Luc Arnaud, *Damas: Urbanisme et Architecture, 1860- 1925*, Paris 2006.
- Uri Bar Joseph, *The Best of Enemies: Israel and Jordan in the War of 1948*, London 1987.
- Dimitri Baramki, *Phoenicia and the Phoenicians*, Beirut 1961.
- David Ben-Gurion, *My Talks with Arab Leaders*, New York, 1973.
- Serge Bernstein, *Léon Blum*, Paris 2006.
- Ahmad Beydoun, *Identité confessionnelle et temps social chez les historiens libanais contemporains*, Beirut 1984.
- Ahmad Beydoun, *Le Liban, itinéraires dans une guerre incivile*, Paris 1993.
- Ahmad Beydoun, 'Extrême Méditerranée: Le libanisme contemporain à l'épreuve de la mer' in Elias Khoury & Ahmad Beydoun, *La Méditerranée libanaise*, Paris 2000.
- Ahmad Beydoun, 'Riad el-Solh et les élections législatives de 1943,' in Gérard D. Khoury (ed.), *Sélim Takla, 1895-1945*, Paris and Beirut 2004.

- Edwin Black, *The Transfer Agreement, the Dramatic Story of the Pact between the Third Reich & Jewish Palestine*, Washington 1984. New ed. 1999.
- Hamit Bozarslan, *Histoire de la Turquie Contemporaine*, Paris 2004, 2007.
- Fouad L. Boustany, *Introduction à l'histoire politique du Liban moderne*, Paris 1991.
- Marwan R. Buheiry (ed.), *Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939*, Beirut 1981.
- Marwan R. Buheiry, *Beirut's Role in the Political Economy of the French Mandate 1919-1939*, Centre for Lebanese Studies, Oxford (n.d.).
- Sir Reader Bullard, *Britain and the Middle East: From earliest times to 1951*, London 1952..
- S. Tufan Buzpinar, 'The Question of Citizenship of the Algerian Immigrants in Syria, 1847-1900,' in Moshe Ma'oz et al (eds.) *Modern Syria: From Ottoman Rule to Pivotal Role in the Middle East*, Brighton 1999.
- Neil Caplan, *Futile Diplomacy*, 2 vols., London 1983.
- G. Carbillet, *Au Djebel Druze*, Paris 1929.
- Richard Casey, *Personal Experience, 1939-1946*, London 1962.
- General Georges Catroux, *Deux Missions en Moyen- Orient, 1919-1922*, Paris 1958.
- General Georges Catroux, *Dans la Bataille de Méditerranée*, Paris 1949.
- Neil Caplan, *Futile Diplomacy*, vol 1, *Early Arab-Zionist Negotiation Attempts 1913-1931*, London 1983.
- Youseef Chaitani, *Post-Colonial Syria and Lebanon*, London 2007.
- Tamara Chalabi, *The Shi'is of Jabal 'Amil and the New Lebanon: Community and Nation State, 1918-1943*, London 2006.
- Dominique Chevalier, *La Société du Mont Liban à L'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe*, Paris 1971.
- Michel Chiha, *Le Liban d'Aujourd'hui*, Beirut 1942.
- Youssef M. Choueiri (ed.) *State and Society in Syria and Lebanon*, Exeter 1993.
- William L Cleveland, *Islam against the West, Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism*, University of Texas Press, Austin 1985.
- Vincent Cloarec, *La France et la question de Syrie, 1914-1918*, Paris 1988.
- W.B. Cohen, 'The Colonial Policy of the Popular Front,' in *French Historical Studies*, 7, Spring 1972.
- Jacques Couland, *Le Mouvement syndical au Liban 1919-1946*, Paris 1970.
- George Corm, *Le Liban Contemporain*, Paris 2005.
- Raphael Danziger, *'Abd al-Qadir and the Algerians*, New York, 1977.
- C. Ernest Dawn, *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism*, University of Illinois, Chicago 1973.

- Inès- Leila Dakhli, *Les intellectuels syro-libanais dans la première moitié du XXe siècle (1908-1940)*, doctoral thesis presented at Université Aix-Marseille I.
- Djemel Pasha (Jamal Pasha), *Memories of a Turkish Statesman, 1913-1919*, New York 1922.
- Carla Eddé, 'La mobilization 'populaire' à Beyrouth à l'époque du Mandat, le cas des boycotts des trams et de l'électricité' in Nadine Méouchy (ed.) *France, Syrie et Liban 1918-1946: les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire*, Damas 2002.
- Henri Eddé, *Le Liban d'où je viens*, Paris 1997.
- William A Eddy, *FDR meets Ibn Saud*, New York, 1954.
- Laura Zittrain Eisenberg, *My Enemy's Enemy: Lebanon in Early Zionist Imagination 1900-1948*, Detroit 1994.
- Marcel Emerit, 'La crise syrienne et l'expansion économique française en 1860,' in *Revue historique*, Paris, Janvier-Mars 1952.
- John P. Entelis, *Pluralism and Party Transformation in Lebanon: Al-Kata'ib 1936-1970*, Leiden 1974.
- Bruno Etienne, *Abdelkader*, Paris 1994.
- Leila Tarazi Fawaz, *An Occasion for War: Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860*, London 1994.
- Kais Firro, *Inventing Lebanon, Nationalism and the State under the Mandate*, London 2003.
- Antoine Fleury, 'Le mouvement national arabe à Genève Durant l'entre-deux-guerres,' in *Relations Internationales*, no 19, automne 1979.
- Pierre Fournié, 'Le Mandat à l'épreuve des passions françaises: l'affaire Sarraïl (1925),' in Nadine Méouchy, *France, Syrie et Liban, 1918-1946, les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire*, Damas, 2002.
- Geoffrey Furlonge, *Palestine is my Country: The Story of Musa Alami*, London, 1969.
- A.B. Gaunson, *The Anglo-French Clash in Lebanon and Syria 1940-45*, New York 1987.
- Amine Gemayel, *Peace and Unity*, Gerrards Cross 1984.
- Irene L. Gendzier, *Notes from the Minefield: United States Intervention in Lebanon and the Middle East, 1945-1958*, Oxford 1999.
- François Georgeon, *Abdülhamid II*, Paris 2003.
- Basil C. Gounaris, 'Thessaloniki, 1830-1912: History, Economy and Society,' in I.K. Hassiotis (Ed.), *Thessaloniki*, Athens 1997.
- I.K. Hassiotis (Ed.), *Thessaloniki: History and Culture*, Athens 1997.

- Werner Otto von Hentig, *Mein Leben, Ein Dienstreise*, Geottingen 1962.
- Joseph Heller, *The Stern Gang: Ideology, Politics and Terror, 1940-1949*, London 1995.
- David Hirst, *The Gun and the Olive Branch, The Roots of Violence in the Middle East*, London 1977; revised and expanded edition, New York 2003.
- Philip K. Hitti, *The Origins of the Druze people and Religion, with extracts from their sacred writings*, New York 1928.
- Philip K. Hitti, *Lebnon in History*, London 1957.
- Frederic C. Hof, *Galilee Divided: The Israeli- Lebanon Frontier, 1916- 1984*, Boulder and London, 1985.
- Frederic C. Hof, *Beyond the Boundary: Lebanon, Israel and the Challenge of Change*, Washington (n.d.)
- Albert Hourani, *Syria and Lebanon: A Political Essay*, Oxford 1946.
- Albert Hourani, *Minorities in the Arab World*, London 1947.
- Albert Hourani, *A Vision of History*, Beirut 1961.
- Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798- 1939*, Oxford 1962.
- Albert Hourani, 'Lebanon from Feudalism to Modern State,' in *Middle Eastern Studies*, April 1966.
- Albert Hourani, 'Ideologies of the Mountain and the City,' in Roger Owen (ed.), *Essays on the Crisis in Lebanon*, London 1976.
- Albert Hourani, *The Emergence of the Modern Middle East*, London 1981.
- Albert Hourani, 'From Jabal 'Amil to Persia,' in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 49, 1986.
- Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples*, London 1991.
- Albert Hourani, *Political Society in Lebanon: a Historical Introduction*, Centre for Lebanese Studies, Oxford (n.d.)
- Albert Hourani, Philip S. Khoury & Mary C. Wilson (eds.), *The Modern Middle East*, London 1993.
- Michael C. Hudson, *The Precarious Republic: Political Modernization in Lebanon*, New York 1968.
- J.C. Hurewitz, *The Struggle for Palestine*, W.W. Norton & Co. New York 1950.
- J.C. Hurewitz, *Diplomacy in the Near and Middle East*, Vol. 2, Princeton 1956.
- P. Huvelin, *Que vaut la Syrie?* Paris 1921.
- Zahida Darwiche Jabbour, (ed.) *Les Villes Cosmopolites Arabes 1870-1930: Beyrouth, Alexandrie, Alep*, Beyrouth 2004.
- M. Jaber, *Pouvoir et société au Jabal Amel de 1749 à 1920 dans la conscience des chroniques chiïtes et dans un essai d'interprétation*, Paris 1978.

- Richard L. Jasse, 'Great Britain and Abdullah's Plan to Partition Palestine: A "Natural Sorting Out,"' in *Middle Eastern Studies*, vol. 22, 1986.
- Michael Johnson, *Class & Client in Beirut: The Sunni Muslim Community and the Lebanese State 1840- 1985*, London 1986.
- M. Joupain, *La Question du Liban*, Paris 1908.
- Aykut Kansu, *Politics in Post-Revolutionary Turkey 1908- 1913*, Leiden 2000.
- Samir Kassir, *Histoire de Beyrouth*, Paris 2003.
- Asher Kaufman, *Reviving Phoenicia: The Search for Identity in Lebanon*, London 2004.
- Hasan Kayali, *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism and Islamism in the Ottoman Empire, 1908- 1913*, Berkeley 1997.
- Samir Khalaf, *Heart of Beirut: Reclaiming the Bourj*, London 2006.
- Rashid Khalidi, 'Abd al-Ghani al-'Uraisi and al-Mufid,' in Marwan R. Buheiry (ed.) *Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939*, Beirut 1981.
- Rashid Khalidi, Lisa Anderson, Muhammad Muslih, Reeva S. Simon (eds.), *The Origins of Arab Nationalism*, New York, 1991.
- Walid Khalidi, *From Haven to Conquest*, Beirut 1971.
- Walid Khalidi, *Conflict and Violence in Lebanon: Confrontation in the Middle East*, Cambridge, Mass, 1979.
- Walid Khaïlidi, 'Illegal Jewish Immigration to Palestine under the British Mandate,' in *Journal of Palestine Studies*, no. 140, Vol. XXXV, No. 4, Summer 2006.
- Gérard D. Khoury, *La France et l'Orient Arabe: Naissance du Liban Moderne 1914-1920*, Paris 1993.
- Gérard D. Khoury (ed), *Sélim Takla, 1895-1945*, Paris 2004.
- Gérard D. Khoury, *Une tutelle Coloniale, Le Mandat Français en Syrie et au Liban: Ecrits politiques de Robert de Caix*, Paris 2006.
- Philip S. Khoury, 'Factionalism Among Syrian Nationalists During the French Mandate,' in *International Journal of Middle Eastern Studies*, 13, 1981.
- Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism 1920-1945*, Princeton 1987.
- Philip S. Khoury, 'Syrian Urban Politics in Transition,' in Hourani, Wilson, Khoury (eds.) *The Modern Middle East*, London 1993.
- John King, 'Abd al-Qadir and Arab Nationalism,' in John Spagnolo (ed.) *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective: Essays in Honour of Albert Hourani*, Reading 1992.
- Sir Alec Kirkbride, *A Crackle of Thorns*, London 1956.

- Sir Alec Kirkbride, *From the Wings: Anuman Memoirs, 1947-1951*, London 1976.
- Jean Lacouture, Ghassan Tuéini, Gérard D. Khoury, *Un siècle pour rien: Le Moyen-Orient arabe de 'Empire Ottoman à l'Empire américain*, Paris 2002.
- Henry Laurens, *La Question de Palestine, Tome premier, 1799- 1922, L'Invention de la Terre Sainte*, Fayard, Paris 1999 ; Tome deuxième, 1922-1947, *Une mission sacrée de civilisation*, Fayard, Paris 2002 ; Tome troisième, 1947-1967, *L'accomplissement des prophéties*.
- Henry Laurens, *L'Orient Arabe: Arabisme et Islamisme de 1798 à 1945*, Paris 1993.
- Hugh Leach, 'Lawrence's Strategy and Tactics in the Arab Revolt,' in *Journal of the Royal Society for Asian Affairs*, London, November 2006.
- Wm. Roger Lewis, *The British Empire in the Middle East, 1945-1951*, Oxford 1984.
- Wm. Roger Lewis, *Ends of British Imperialism*, Collected Essays, London 2007.
- Stephan Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon under the French Mandate*, Oxford 1958.
- Pierre- Jean Luizard, *La vie de l'Ayatollah Mahdi al-Khalisi*, Paris 2005.
- Callum A MacDonald, 'Radio Bari, Italian Wireless Propaganda in the Middle east and British Countermeasures, 1934-38,' in *Middle Eastern Studies*, XII, 1977.
- A. Mahafzah, ' La France et le mouvement nationaliste arabe de 1914 à 1950,' in *Relations Internationales*, no.19, Automne 1979.
- Ussama Makdisi, *The Culture of sectarianism: Community, History, and Violence in Nineteenth- Century Ottoman Lebanon*, Berkeley 2000.
- Chibli Mallat, *Shi'i Thought from the South of Lebanon*, Centre of Lebanese Studies, Oxford 1988.
- Neville Mandel, *The Arabs and Zionism before World War I*, Berkeley 1976.
- Moshe Ma'oz, Joseph Ginat, Onn Winckler, (eds.) *Modern Syria: from Ottoman Rule to Pivotal Role in the Middle East*, Brighton 1999.
- Farouk Mardam-Bey et Elias Sanbar, *Etre Arabe*, Paris 2001.
- Salma Mardam Bey, *Syria's Quest for Independence 1939-1945*, Reading, 1994.
- Philip Mattar, *The Mufti of Jerusalem, Al-Hajj Amin al-Husayni and the Palestine National Movement*, New York 1988.
- Mark Mazower, *Salonica, City of Ghosts, Christians, Muslims and Jews*, London 2004.
- Antoine Nasri Messarra, *Le Modèle Politique Libanais et sa Survie*, Beirut 1983.
- Nadine Méouchy (ed.), *France, Syrie et Liban 1918-1946: les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire*, Damas 2002.
- Nadine Méouchy and Peter Sluglett, *The British and French Mandates in Comparative Perspectives*, Leiden 2004.

- Franck Mermier, *Le Livre et la Ville: Beyrouth et l'édition arabe*, Paris 2005.
- Sabrina Mervin, *Un Réformisme Chiite: Ulémas et lettrés du Jabal 'Amil de la fin de l'Empire ottoman à l'indépendance du Liban*, Paris 2000.
- Jean-David Mizrahi, 'La France et sa politique du Mandat en Syrie et au Liban, 1920-1939,' in Nadine Méouchy (ed.), *France, Syrie et Liban: les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire*, Damas 2002.
- André Miquel, *L'Islam et sa Civilisation*, Paris 1991.
- Elisabeth Monroe, *Britain's Moment in the Middle East*, London 1981.
- Marie-Renée Mouton, 'Le Congrès syrio-palestinien de Genève (1921),' in *Relations Internationales*, no. 19, automne 1979.
- Muṣāfir, *Notes sur la Jeune Turquie*, Paris 1911.
- Muhammad Muslih, 'The Rise of Local Nationalism in the Arab East,' in Rashid Khalidi et al (eds.), *The Origins of Arab Nationalism*, New York 1991.
- Sir Louis Namier, *Vanished Supremacies*, London 1962.
- Jacques Nantet, *Pierre Gemayel*, Paris 1986.
- Albertos Nar, 'Social Organization and Activity of the Jewish Community in Thessaloniki,' in I.K. Hassiotis, *Thessaloniki*, Athens 1997.
- Nasser-Eddin Nashashibi, *Jerusalem's Other Voices, Ragheb Nashashibi and Moderation in Palestinian Politics, 1920-1948*, Exeter 1990.
- James Nicholson, 'The Hejaz Railway,' in *Journal of the Society for Asian Affairs*, London, November 2006.
- Francis R. Nicosia, *The Third Reich and the Palestine Question*, Austin, Texas, 1985.
- Roger Owen (ed.), *Essays on the Crisis in Lebanon*, London 1976.
- Ilan Pappé, *The Making of the Arab-Israeli Conflict 1947-1951*, London 1994.
- Ilan Pappé, *A History of Modern Palestine: One Land, Two Peoples*, Cambridge 2004.
- Ilan Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine*, Oxford 2006.
- Ilan Pappé, 'The 1948 Ethnic Cleansing of Palestine,' in *Journal of Palestine Studies*, 141, Vol. XXXVI, No. 1, Autumn 2006.
- Laila Parsons, 'Soldiering for Arab Nationalism: Fawzi al-Qawuqji in Palestine,' in *Journal of Palestine Studies*, 144, Vol. XXXVI, No. 4, Summer 2007.
- Elizabeth Picard, *Liban, état de discord: des foundations aux guerres fratricides*, Paris 1988.
- Elizabeth Picard, *Lebanon: A shattered Country*, London 2002.
- Nadine Picaudou, *La Déchirure Libanaise*, Paris 1989.
- Nadine Picaudou, *La décennie qui ébranla le Moyen-Orient 1914-1923*, Paris 1992.
- Y. Porath, *The Emergence of the Palestinian- Arab National Movement, 1918- 1929*, Frank Cass, London 1974.

- Michael Provence, 'An Investigation into the Local Origins of the Great Revolt,' in Nandine Méouchy, *France, Syrie et Liban, 1918- 1946, les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire*, Damas 2002.
- Michael Provence, *The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism*, Austin 2005.
- Edmond Rabbath, *L'Evolution politique de la Syrie sous mandate*, Paris 1928.
- Edmond Rabbath, *La Formation Historique du Liban Politique et Constitutionnel*, Beirut 1973, (new edition 1986).
- Itamar Rabinovich, *The Road not Taken: Early Arab-Israeli Negotiations*, Oxford 1991.
- Andrew Rathmell, *Secret War in the Middle East: The Covert Struggle for Syria 1949- 1961*, London 1995.
- André Raymond (ed.), *La Syrie d'Aujourd'hui*, Paris 1980.
- Eugene Rogan and Avi Shalim (eds.) *Rewriting the Palestine War: 1948 and the History of the Arab-Israeli Conflict*, Cambridge 2001.
- P.Rondot, *Les Institutions Politiques du Liban*, Paris 1947.
- P.Rondot, 'L'Expérience du Mandat français en Syrie et au Liban,' in *Revue Générale de Droit International Public*, Paris 1948.
- Aviel Roshwald, *Estranged Bedfellows: Britain and France in the Middles East during the Second World War*, Oxford 1990.
- Nawaf Salam, *La Condition Libanaise: Communautés, citoyen, Etat*, Beirut 1998.
- Nawaf Salam (ed.), *Options for Lebanon*, London 2004.
- Kamal S. Salibi, *Beirut under the Young Turks as Depicted in the Political Memoirs of Salim Ali. Salam*, Beirut 1974.
- Kamal S. Salibi, 'The Lebanese Identity,' in *The Journal of Contemporary History*, vol. 6, no.1, 1971.
- Kamal S. Salibi, *Lebanon and the Middle Eastern Question*, Centre for Lebanese Studies, Oxford 1988.
- Kamal S. Salibi, *A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered*, London 1988.
- Elias Sanbar, *Figures du Palestinien*, Paris 2004.
- General M. Sarraïl, *Mon Commandement en Orient, 1916- 1918*, Paris 1920.
- Yazid Sayigh, *Armed Struggle and the Search of State: The Palestine National Movement, 1949- 1993*, Oxford 1997.
- Linda Schatkowski-Schilcher, *Families in Politics: Damascus Factions and Estates of the 18th and 19th Centuriues*, Stuttgart 1985.

- Marius Schattner, *Histoire de la droite en Israélienne de Jabotinsky à Shamir*, Brussels 1991.
- Kirsten E. Schulze, *Israel's Covert Diplomacy in Lebanon*, London 1998.
- Patrick Seale, *The Struggle for Syria: A Study of Post-War Arab Politics 1945- 1958*, Oxford 1965 (New edition London 1986).
- Patrick Seale, *Asad of Syria: The Struggle for the Middle East*, Berkeley, 1988.
- Jacques Séguin, *Le Liban Sud: espace périphérique, espace convoité*, Paris 1989.
- Philippe Séguin, *Louis Napoléon le Grand*, Paris 1990.
- Samir Seikaly, 'Shukri al-'Asali: A Case Study of a political Activist,' in Rashid Khalidi et al (eds.) *The Origins of Arab Nationalism*, New York 1991.
- Samir Seikaly, 'Damascene Intellectual Life in the Opening Years of the 20th Century: Muhammad Kurd' Ali and the Muqtabas,' in Marwan R. Buheiry (Ed.), *Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939*, Beirut 1981.
- Avraham Sela, 'Transjordan, Israel and the 1948 War: Myth, Historiography and Reality,' in *Middle Eastern Studies*, vol. 28, no. 4 1992.
- Nourreddine Séoudi, *La Formation de l'Orient Arabe Contemporain 1916-1939: Au miroir de la Revue des Deux Mondes*, Paris 2004.
- Robert Wilson Seton-Watson, *The Rise of Nationality in the Balkans*, London 1917.
- Avi Shlaim, 'Husni Za'im and the Plan to Resettle Refugees,' in *Journal of Palestine Studies*, vol. XV, no.4, 1986.
- Avi Shlaim, *The Politics of Partition: King Abdullah, the Zionists and Palestine 1921-1951*, Oxford 1990.
- Avi Shlaim, *The Iron Wall: Israel and the Arab World*, London 2000.
- Elizabeth Sirriyeh, *Sufi Visionary of Ottoman Damascus: 'Abd al-Ghani al-Nabulsi, 1641-1731*, London 2005.
- Peter Sluglett, 'Will the Real Nationalists Stand up? The Political Activities of the Notables of Aleppo, 1918-1946,' in Nadine Méouchy (ed.), *France, Syrie et Liban, 1918- 1946: les ambiguïtés et les dynamiques de la relation mandataire*, Damascus 2002.
- Hilal- el-Solh, *Lebanon and Arabism: National Identity and State Formation*, London 2004.
- Raghid el-Solh, 'Sélim Takla et la Création de la Ligue Arabe,' in Gérard D. Khoury (ed.), *Sélim Takla 1895-1945*, Paris 2004.
- Edward Spears, *Assignment to Catastrophe*, London 1956 (*Combining Prelude to Dunker and The Fall of France*, 1954.)
- Major-General Sir Edward Spears, *Fulfilment of a Mission: Syria and Lebanon 1941-1944*, London 1977.

- Michael W. Suleiman, *Political Parties in Lebanon: The Challenge of a Fragmented Political Culture*, New York 1967.
- Christopher Sykes, *Cross Roads to Israel*, London 1965.
- Ahmad Tarabein, 'Abd al-Hamid al-Zahrawi: The Career and Thought of an Arab Nationalist,' in Rashid Khalidi et al (eds.), *The Origins of Arab Nationalism*, New York 1991.
- Eliezer Tauber, *The Formation of Modern Syria and Lebanon*, London 1995.
- Shabti Teveth, *Ben Gurion and the Palestinian Arabs*, Oxford 1985.
- Igor Timofeev, *Kamal Joumblatt et le destin tragique du Liban*, Beirut 2000.
- Fawwaz Trabulsi, *A History of Modern Lebanon*, London 2007.
- Charles Tripp, *A History of Iraq*, Cambridge 2000.
- Ghassan Tueini, *Une Guerre pour les autres*, Paris 1985 (3rd ed. 2006).
- Ghassan Tueini (Ed.), *Le livre de l'Indépendance*, Beyrouth 2002.
- Henri de Wailly, *Syrie 1941: La Guerre Ocultée, Vichystes contre Gaullistes*, Paris 2006.
- Keith David Waterpugh, *Being Modern in the Middle East: Revolution, Nationalism, Colonialism and the Arab Middle Class*, Princeton 2006.
- N. Weinstock, *Le Sionisme Contre Israel*, Paris 1969.
- Maxime Weygand, *Mémoires*, Tome III, *Rappelé au Service*, Paris 1950.
- Ann Williams, *Britain and France in the Middle East and North Africa 1914- 1967*, London 1968.
- Meir Zamir, 'Emile Eddé and the Territorial Integrity of Lebanon,' in *Middle Eastern Studies*, May 1978.
- Meir Zamir, *The Formation of Modern Lebanon*, New York, 1985.
- Meir Zamir, *Lebanon's Quest: The Road to Statehood 1926-1939*, London 1997.
- Zeine N. Zeine, *Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism*, Beirut 1958.
- Zeine N. Aeine, *The Emergence of Arab Nationalism*, Beirut 1966.
- Hanna Ziadeh, *Sectarianism and Intercommunal Nation-Building in Lebanon*, London 2006.
- Nicolas Ziadé, 'Beyrouth, des années soixante du XIXe siècle à 1908,' in Eyal Zisser, *Lebanon: The Challenge of Independence*, London 2000.
- Labib Zuwiyya Yamak, *The Syrian Social Nationalist Party: An Ideological Analysis*, Harvard Univ., Center for Middle East Studies, 1966.

الفهرس

386، 374، 359، 355، 344، 342	إبراهيم، جافز، 80
501، 500، 498، 435، 402، 399	أبكار يوس، ج، 30
509، 508، 506، 505، 504، 503	أبو الهدى، توفيق، 703
540، 536، 527، 524، 514، 512	أبو بكر، الخليفة، 127
611، 607، 592، 566، 558، 541	أبو جودة، إدوار، 625
710، 709، 669، 654، 615، 612	أبو منصور، فضل الله، 698
739	أبي شهلا، حبيب، 528، 514، 500، 361،
أدهم باشا، 97	543، 693، 699
أديب باشا، أوغست، 236، 343	أبي شهلا، حبيب، 528، 514، 500، 361،
أرامكو، 613، 614	543، 693، 699
أرسلان، أمين، 158، 159، 165، 166، 240	الأتاسي، عدنان، 226
أرسلان، الأمير مجيد، 514، 528، 536، 541	الأتاسي، هاشم، 125، 153، 154، 156، 231،
543، 610، 674، 677، 713، 766	237، 240، 256، 338، 339، 355،
أرسلان، الأمير محمد، 71	366، 358
أرسلان، عادل، 159، 188، 421، 423، 686	أنلي، كليمنت، 596
أرغامن، يوسف، 735	إثيوبيا، 416، 441
إرغون، 638، 645، 646	الأحذب، الملازم، 693
الأرمن، 56، 61، 63، 72، 73، 81، 83،	الأحذب، خير الدين، 164، 165، 166، 194،
110، 176، 201، 234، 272، 361،	195، 225، 231، 344، 371، 372،
370، 364	396، 503
أزمة السويس، 545، 570، 675	الأخوة العربية العثمانية، 64
أزمة القمح، 473	أدرنة، 70، 71، 86
الأزهري، الشيخ أحمد عباس، 51، 52، 108	إده، أميل، 229، 230، 238، 243، 340،
إسبانيا، 287	

122، 123، 133، 147، 148، 160، 182، 185، 260، 529، 640، 650	أستوروغ، ستانيسلاس، 549، 597، 600، 601، 603
ألمانيا	إسرائيل
ضم النمسا، 326، 408	مصادقات الهدنة بين إسرائيل ومصر، (1949)، 718
الحرب الفرنسية البروسية (1870)، 140	اتفاقات الهدنة (1949)، 637
اتفاقية هافارا، 299	الأسعد، أحمد، 495، 496، 497، 498، 499، 500، 566، 602، 655
غزو الاتحاد السوفياتي، 441	الأسعد، خليل بك، 60
آلون، إيغال، 653	الأسعد، رياض، 730
أم محمد، 164، 165	الأسعد، عبد اللطيف، 496
الإمام يحيى، 339	الأسعد، علي بك، 32
الإمام، الدكتور محمد سعيد فتاح، 419	الأسعد، كامل بك، 60، 83، 108، 110، 130، 169، 496
الإمبراطور فلهلم الثاني، 34، 116، 259	الإسكندر الكبير، 386
الإمبراطورة أوجيني، 27	الإسكندرونة، 113، 123، 176، 270، 320، 335، 339، 356، 364، 366، 406، 422، 429، 545، 570، 586
الإمبراطورية العثمانية	إسماعيل شاه، 378
الانتخابات (1912)، 84	الأشقر، أسد، 668، 672، 673، 677، 694
الإمبراطورية النمساوية المجرية، 94، 101	الإضراب العام (1941)، 400، 434، 530
الأمم المتحدة، 594، 595، 597، 611، 620، 634، 636، 638، 639، 643، 645، 653، 659، 660، 735	الأطرش، حسن، 220، 689، 691
الأمير برهان الدين (1819-93)، 65	الأطرش، زيد حسن، 689
الأمير زيد، 138، 149، 150، 250، 689	الأطرش، سلطان، 200، 202، 204، 205، 210، 219، 220، 238
الأمير صباح الدين، 57، 73، 74	الأطرش، سليم، 200، 202
الأمير فخر الدين، 199، 379، 382	الأفريقي، طريف بن، 744
الأمير نايف، 728	ألبانيا، 45، 74، 84، 86
الأميرة إليزابيث، 622	إلداد، إسرائيل، 659
الأميرة هوهنلوهي، 419	الأنبي، الجنرال إدموند، 116، 117، 121،
الأميري، ممدوح، 226	
إميل لحود، 531، 693	
أمين، علي، 728	
أمين، مصطفى، 728	

- أنجين، العقيد، 551
 أندروز، تشابمان، 738
 أندروز، لويس، 322
 الأنسي، محمد، 661
 أنطاكي، نعيم، 338
 أنطونيوس، جورج، 303، 309، 311
 الإنكليزي، عبد الوهاب، 93، 109
 أنور بك، 87
 أوبوا، الكومندان، 668
 أوبوينو، الأميرال، 567
 أورغا، عرفان، 118
 أورمسي غور، ويليام، 316، 326
 أوليفا روجيه، العقيد، 574
 أياس، مأمون، 672، 673، 677
 إيتان، والتر، 718
 إيدن، أنتوني، 326، 439، 446، 461، 476،
 477، 485، 492، 546، 547، 553
 564، 565، 568، 569، 577، 578
 579، 683
 إيران، 102، 130، 136، 140، 296، 328،
 378، 445، 617، 621، 644، 666
 735
 أيرلندا، 148
 إيزابيلا، ملكة قشتالة، 16
 إيطاليا
 الشهبندر، 432
 إيفانس، تريفور، 575
 أيلاندر، رولاند، 420
 الأيوبي صلاح الدين، 35، 129، 292
 الأيوبي، عطا بك، 129
 الأيوبي، علي جودت، 461
 ابن سعود، الملك عبد العزيز، 40، 163، 219،
 250، 555، 614، 670
 الاتحاد السوفياتي، 370، 441، 556، 571،
 621، 622، 635، 638، 650، 653
 662
 اتفاق ديفول ليتتون، 450، 480، 485، 587
 اتفاق سايكس بيكو (1916)، 116، 124،
 139، 140، 221، 394
 اتفاقية سان ستيفانو (1878)، 42
 اتفاقية هافرا، 299
 أرتريا، 441، 744
 استانبول، 55
 الامتيازات، 57، 101، 133، 134، 135،
 171، 264، 362، 484، 510، 562
 581، 614
 الانتداب اللبناني
 دستور (1926)، 236، 333، 341، 343
 المعاهدة الفرنسية - اللبنانية، 359
 أزمة القمح، 473
 الانتداب على فلسطين
 الثورات العربية (1936-1939)، 312،
 329، 554
 الخيانة، 620
 تغير المسار، 325، 329
 السياسة الحزبية، 301، 302، 305، 311
 المصالح الاستعمارية، 122، 133، 135،
 136، 137، 138
 الصهيونية ما بين الحربين، 279، 280،
 281، 282، 283، 284، 285، 286

البرازي، حسني، 235، 236، 474، 691
 البرازي، محسن، 686، 691، 698
 البربير، الدكتور نسيب، 723
 بركات، صبحي، 238
 برمدا، مصطفى، 682
 برنادوت، كونت فولك، 190، 651، 652،
 653، 659، 662
 بروتوكول الإسكندرية 561، 563، 574، 608
 بروفس، مايكل، 204، 219
 بريان، أريستيد، 193
 بريفيزا، 45
 البستاني، إميل، 739
 بشير الثاني، الأمير، 382، 383، 384، 389
 بعقلين، الدكتور، 609
 بكداش، خالد، 370
 البكري، عطا بك، 127
 البكري، فوزي، 106، 211، 223
 البكري، نسيب، 127، 200، 210، 220، 238،
 267، 336
 بلغاريا، 42، 85، 129، 206
 بلغريف، قائد سرب، 517، 519
 بلفور، اللورد، 139، 140، 141، 147، 201
 بلوم، ليون، 289، 290، 310، 320، 352،
 354، 370، 402، 406
 بلوميرغ، الرائد أكسل فون، 443
 بن آفي، إيتامار، 282
 بن زفي، إسحاق، 281
 بن غوريون، ديفيد، 280، 288، 303، 310،
 627، 650
 بنتويش، نورمان، 294

287، 288، 289، 290، 291، 292
 293، 294، 295، 296، 297، 298
 299، 300، 301، 302
 الحرب العالمية الثانية، 407، 419
 تقرير بيل (1937) 317، 318، 319،
 320
 إنهاء الانتداب، 581، 635، 640
 الأمم المتحدة، 611
 الانتدابات
 نهاية الانتداب الفرنسي (1946)، 581
 البابا بيوس الحادي عشر، 214
 ب
 بابين، فرانز فون، 413، 423، 439
 البابيدي، زكريا، 533
 بابيل، نصوح، 430
 بابيه، إيلان، 628، 647
 الباجه جي، مزاحم، 703
 بار، جاك، 694
 البارودي، الدكتور مسلم، 577
 البارودي، فخري، 210، 213، 247، 267،
 302، 336، 401
 باسلان، حجي، 46، 47، 49
 باسلان، صفوت، 46، 48
 باسلان، فريدة (جدة رياض الصلح)، 46، 47،
 49، 635، 667
 باسيلا، القاضي غابريال، 693
 باقر بك، 725، 726
 بالمون، يهوشوع، 661
 بايزيد الثاني، السلطان، 41
 برانت، الرائد فون، 420

بيفن، إيرنست، 597، 598، 662
 بيك، والتر، 419
 بيكودو، نادين، 385
 بينفيل، جاك، 354
 بينيه، الجنرال بول، 550، 553، 574، 575،
 576، 578، 600، 681
 بهيم، أحمد مختار، 99
 بهيم، صلاح، 349
 بهيم، عبد الرحمن، 240، 256
 بهيم، عبد الله، 273، 492
 بهيم، محمد علي، 93، 97
 بيو، غابرييل، 364
 ت
 تايريل، اللورد، 263
 تركيا الفتاة، 55، 56، 57، 59، 62، 63، 64،
 66، 67، 73، 74، 78، 87، 89، 92، 93،
 128، 184، 185، 186، 187، 281
 تركيا، 30، 40، 47، 55، 56، 57، 59، 62،
 63، 64، 65، 66، 67، 73، 74، 78،
 82، 83، 86، 87، 89، 92، 93، 94،
 102، 105، 108، 112، 117، 118،
 128، 178، 180، 181، 184، 185،
 186، 187، 209، 214، 281، 342،
 364، 365، 380، 413، 421، 429،
 468، 507، 570، 587، 621، 631،
 632، 633، 714
 ترومان، هاري، 635
 تشانسلر، جون، 293، 294
 تشرشل ونستون، 171، 181، 455، 463،
 547، 577، 596

بو خاطر، عبد الله، 230
 بواسو، العقيد، 543
 بوتساريس، ماركوس، 43
 بوتقليقة، عبد العزيز، 31
 بوجو، الجنرال توماس، 19
 بوردن، ويليام، 456
 البوسنة والهرسك، 17
 بوفور دوتبول، الجنرال، 384
 بول باينلوف، 208
 بولس، جواد، 488
 بونافيه، الكابتن، 425
 بونسو، هنري، 226، 232، 234، 237، 238،
 244، 249، 264، 269، 270، 271،
 272، 273
 بونيه، جورج، 363
 بويانجيان، هيكازون، 264
 بيتان، المارشال فيليب، 202، 412
 بيدو، جورج، 563، 574، 597600، 601،
 618
 بيرتلو، فيليب، 150، 152
 بيروت
 عاصمة دولة لبنان الكبير، 175
 لجنة بيروت للإصلاح، 346
 بيري، غابرييل، 259
 البيسار، عبد اللطيف، 241، 302، 359
 بيشكوف، زينوفي، 496
 بيشون، ستيفان، 135
 بيضون، أحمد، 12، 388
 بيضون، رشيد، 497، 500، 529
 البيطار، صلاح الدين، 701

- 289، 311، 336، 377، 406، 409
427، 428، 545
الثورة العربية (1916)، 112، 113، 115،
121، 125، 135، 171، 184، 186،
200، 231، 277، 315، 376، 610،
732
ج
جابر، محمد حسن، 32
الجابري، إحسان، 126، 159، 186، 192،
193، 197، 209، 214، 215، 220،
225، 226، 248، 256، 257، 258،
292، 296، 300، 303، 307، 339،
353
الجابري، سعد الله، 77، 126، 155، 213،
231، 239، 240، 252، 256، 274،
338، 358، 361، 428، 429، 431،
435، 458، 492، 497، 564، 588،
682
الجابري، فائزة، انظر الصلح، فائزة (زوجة
رياض)، 253، 275، 459
الجابري، نافع بك، 63، 70، 74، 75، 77،
84، 155، 186، 253، 275
جابر تيسكي، فلاديمير، 319
جامعة الدول العربية، 562، 563، 602، 608،
619، 631، 632، 634، 639، 641،
644، 645، 646، 648، 655، 656،
665، 702، 710، 715، 718، 719،
720، 721، 735
جاهيد، حسين، 81
جاويد بك، 74، 76، 77، 81
تشمبرلين، نيفيل، 327
تشيكوسلوفاكيا، 652
تقرير بفردج (1942)، 596
تقرير شكبرغ (1940)، 426
تقلا، سليم، 500، 506، 507، 514، 524،
543، 555، 559، 562، 591
تقلا، فيليب، 713
التل، العقيد عبد الله، 716، 717، 718، 719،
720، 732، 733
تلحمة، ميشال، 693
التنظيمات، 58، 59، 68
توريه، ساموري، 131
توفيق باشا، 71، 72، 74
تونس، 17، 154، 172، 226، 250، 258،
409، 575، 744
تويني، جان، 361
تويني، غسان، 12، 511، 694
ث
ثابت، ألفريد، 260، 261
ثابت، أنطون، 370
ثابت، الدكتور أيوب، 99، 403، 488، 489،
492، 500، 517، 566
ثابت، قسطنطين، 671
ثابت، كلودا، 670، 671، 676، 677
ثابت، نعمة، 394، 533، 668، 669، 670،
671، 672، 673، 677
الثورة السورية الكبرى (1925)، 180، 196،
199، 200، 207، 221، 223، 224،
225، 230، 231، 234، 237، 244،
245، 247، 249، 254، 268، 287

530، 602، 608، 667، 675، 688،
739
جنبلط، كمال، 500، 608، 610، 612، 700،
739، 711
الجندي، حسني، 51
الجنرال جوفر، 206
الجنرال كوبانسكي، 414
الجنرال همبلو، 575
جواد باشا، 72
جوبلان، م.، 382
جورج السادس، 467، 595
جورج بيكو، فرانسوا، 150
جورجيس، الجنرال، 420
الجوهري، يوسف، 494
جيش الإنقاذ، 641، 642، 646، 648، 649،
651، 653، 656، 657، 659، 698
ح
حائط البراق، 34، 292
الحاج، موصلي، 744
حازم باشا، 97، 98
حاوي، ويليم، 740
الحبيب بورقبيّة، 744
حبيقة، عادل مجاعص، 674
حداد، ماري شيحا، 592
الحرب الباردة، 597، 621
حرب البلقان، 85
الحرب العالمية الثانية، 298، 328، 369،
371، 373، 387، 392، 397، 456،
496، 582، 615، 620، 626، 627،
630، 652، 661، 663، 680، 743

جبارة، حسن، 686
جبر، بشير، 239
جبر، صالح، 643، 644
جبر، كمال، 239
الجبل الأسود، 17
جبل عامل، 16، 108، 130، 154، 175،
341، 378، 496
الجبهة الشعبية، 310، 352، 353، 358، 360،
362، 370، 402، 406، 503
الجزائر، 17، 18، 19، 20، 21، 25، 26،
31، 226، 407، 415، 486، 487، 488،
513، 517، 519، 521، 522، 535،
539، 540، 542، 543، 544، 549،
552، 744
الجزائري، الأمير عبد القادر، 18، 23، 25،
27، 28، 31، 121، 212
الجزائري، سعيد، 212
الجزائري، محي الدين، أمير مسكرة، 18
جلال الدين باشا، دلاماد محمود، 57
جمال باشا (السفاح)، 91، 104، 106، 107،
108، 109، 110، 111، 112، 115،
118، 121، 123، 127، 129، 183،
221، 222، 281، 545
الجمعيات السرية، 93، 94، 128
جمعية الاتحاد والترقي، انظر تركيا الفتاة، 56،
65، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 74، 76،
77، 78، 79، 80، 81، 82، 83، 84، 85،
86، 87، 91، 92، 93، 94، 97، 99،
100، 103، 117
الجميل، بيار، 397، 398، 399، 511، 512،

- الحرب الفرنسية البروسية (1870)، 140
 حرب القرم (1853-56)، 22
 الحرب الكورية، 701
 حروب البلقان، 100، 102
 حزب الاتحاد السوري، 184، 191، 283
 الحزب السوري القومي، 395، 397، 398، 666، 668، 669، 670، 671، 673، 680، 722، 726، 727، 729، 737، 739، 758
 الحزب الشيوعي، 264، 370، 399، 402، 599، 621، 673، 677
 حزب اللامركزية الإدارية العثماني، 95، 98
 حزب الله، 395
 الحسن، محمد عارف، 241
 الحسين (حفيد النبي صلى الله عليه وسلم)، 17
 الحسين، تامر بك، 32
 الحسيني، الحاج أمين، 255، 277، 301، 329، 369، 374، 387، 405، 422، 430، 432، 439، 458، 624، 639، 641
 الحسيني، الشيخ تاج الدين، 237، 239، 273، 337، 436، 466، 480
 الحسيني، سعيد، 79
 الحسيني، عبد القادر، 312، 641، 646
 الحسيني، موسى كاظم، 281، 304، 312
 الحسيني، هدى، 460، 470
 الحصري، ساطع، 126، 161
 الحصني، حسن نقي الدين، 17
 الحفار، لطفي، 217، 235، 236، 245، 267، 431، 492، 509، 682
 حقوق العمال، 263
 حقّي باشا، إسماعيل، 83
 الحكيم، حسن، 466
 الحكيم، عننان، 530
 الحكيم، هاشم، 245
 الحكيم، وحيد، 246
 الحلبي، عارف، 337
 الحلبي، توفيق، 114
 الحلبي، حسين، 528
 حلمي باشا، الأمير سعيد، 85
 حلمي باشا، حسين، 70، 71، 74، 75
 حلمي، الخديوي عباس، 104
 الحلو، فرج الله، 370، 673
 حمادة، صبري، 500، 528، 536، 609
 حمادة، محمد علي، 685
 حمادة، مروان، 459
 حمادة، ملحم بك، 111، 459
 حمدان، توفيق، 699
 حمدان، عادل، 671
 حمدي باشا، 31
 حمصي، إدمون، 252، 338
 الحناوي، العقيد سامي، 698، 714
 حنتش، فؤاد، 96
 الحوراني، أكرم، 680، 716، 737
 حوراني، ألبرت، 375، 378، 545
 الحويك، البطريك إلياس، 156
 الحويك، سعد الله، 158
 حيدر، سعيد، 241
 حيدر، صبحي، 229
 خ
 الخازن، الشيخ يوسف الخازن، 261

692، 693، 694، 696، 697، 698،
709، 710، 711، 721، 722، 737،
738، 739، 740
الخوري، جورج، 230
الخوري، جوزيف، 51
الخوري، خليل، 592، 697
الخوري، سامي، 343، 592، 593
الخوري، سليم، 592، 612، 697، 711، 712،
713، 714، 721
الخوري، فؤاد، 697
الخوري، فارس، 114، 126، 210، 213،
217، 231، 235، 236، 239، 240،
256، 336، 338، 358، 505، 682
الخوري، فايز، 336، 338
خوري، فيليب، 221، 430
الخوري، لور، 536
الخوري، هوغيت، 525
خولي، كمال، 678
الخيانة البريطانية، 183، 186، 200، 221،
629
خير، أديب، 422
د
دادا نقاحة، 49، 50
الداعوق، أحمد، 225، 243، 247، 435، 466،
472، 496، 529
الداعوق، الدكتور فوزي، 740
الداعوق، عمر، 122، 361، 421
داف كوبر، الفاكونت ألفرد، 575
داود أفندي، 24
دايان، موسي، 717، 718

الخالدي، روجي، 79
الخالدي، وليد، 12، 605، 628، 635، 657
خباز، غابرييل، 372
الخدوي إسماعيل، 46، 165
الخراط، حسن، 211، 245
خطة بيل (1937)، 19، 320، 325، 326،
374
خطة دالت، 647
الخطيب، بهيج، 429، 436
خلاط، روبير، 727
ال خليفة الحاكم، 199
ال خليفة عبد الملك، 278
ال خليل، عبد الكريم، 108، 109، 110، 380
ال خليل، كاظم، 497، 498
خنجر، أدهم، 202
خورشيد، عزت، 712
خوري، إميل، 283
خوري، الدكتور إلياس، 609
الخوري، بشارة، 236، 340، 342، 343،
344، 361، 371، 374، 387، 399،
402، 474، 481، 486، 498، 500،
501، 503، 504، 505، 506، 507،
508، 509، 510، 512، 513، 517،
520، 522، 523، 524، 525، 526،
532، 538، 541، 542، 543، 544،
549، 555، 560، 562، 563، 566،
573، 574، 584، 590، 591، 592،
593، 594، 599، 602، 605، 607،
609، 611، 612، 613، 649، 654،
656، 669، 680، 682، 684، 686

- دياس، شارل، 226، 238، 260، 272، 273،
341
الدجاني، عمر، 661
درزي، 199
الدروبي، علاء الدين، 126، 162، 180
دروزة، عزة، 317، 321، 323
درومند، إريك، 226
دلاديه، إدوار، 353، 362، 411، 425
دلبوس، إيفون، 354
الدمرداشي، قوت القلوب، 167
دمشق
قصف دمشق، 574، 581، 593، 615
دمشقية، أحمد، 196
دننتر، الجنرال هنري فرنان، 427، 433، 434،
435، 437، 440، 442، 443، 444
446، 449، 450، 457
الدندشي، شوقي، 347
الدهان، الدكتور بشارة، 740
دو جوفنيل، هنري، 234، 235، 236، 237،
269، 289
دو روتشيلد، جايمس، 282
دو شايلا، أرماند، 615، 737
دو كيه، روبير، 152، 160، 172، 173، 177،
251، 253، 269، 332، 584
دو مارتيل داميان، 267، 268، 273، 290،
335، 364، 373
دوشانيل، بول، 152
دولوم، الجنرال، 434
دومال، الدوق، 19
دومرغاي، ج.، 724، 729
- دي شامبور، الكونت، 50
دي لارمينا، العقيد إدغار، 414
دي ليسبس، فرديناند، 26
دياب، طانيوس، 673
ديغول، شارل، 413، 423
الديك، ميشال غبريال، 712
ديكسون، جون، 30
ديلاتو، برنارد، 31
ديلاهي، دومينيك، 172
الرائد سكوت نيكلسون، 578
ر
رابين، إسحق، 653
رامسي، ويليام، 46
ران، رودولف، 443
رباط، إيمون، 252، 338
رحيم خان، أمين، 47، 50
رحيم خان، شريف، 47
رحيم كول، محمد، 47
رزق الله، إلياس، 693
رشاد، السلطان محمد، 99
رضا باشا، علي، 70، 71، 123، 124، 154
رضا بك، أحمد، 57، 66، 67، 71، 72
رضا، الشيخ رشيد، 80، 187، 189، 192،
213، 223، 277، 283
رعد، ناصر بك، 712
الرفاعي، سمير، 723، 729، 730
الركابي، علي رضا باشا، 123، 124، 154
ركلو، إليزيه، 392
رمزي، أحمد، 509
روب، غراهام، 18

ساسون، إلياس، 661، 718
 سالم، يوسف، 462، 497، 594، 601،
 602
 سالونيك، 40، 41، 42، 43، 44، 45، 56،
 59، 67، 71، 72، 73، 80، 81، 82،
 86، 134، 206
 سالينغرو، روجيه، 362
 السباعي، مصطفى، 651
 سبيرز، الجنرال إدوارد لويس، 453
 سجعان، حسين، 398
 السردوك، أبو علي، 196
 سرسق، لودي، 343
 سرسق، يوسف، 93، 97
 سعادة، أنطون، 391، 392، 394، 397، 533،
 587، 666، 668، 670، 671، 674،
 675، 676، 677، 680، 684، 690،
 692، 695، 696، 698، 700، 711،
 726، 729، 737
 سعادة، الدكتور خليل، 392
 السعد، حبيب باشا، 273
 السعداوي، بشير، 744
 السعدي، الشيخ فرحان، 324
 سعيد باشا، 27، 82، 83، 84، 85
 سعيد، الدكتور رضا، 582
 السعيد، نوري، 94، 95، 125، 150، 160،
 171، 315، 316، 318، 321، 413،
 430، 438، 439، 445، 557، 558،
 559، 620، 626، 630، 644، 684،
 685، 698، 738
 سكاف، إيلي، 229

روزر، رودولف، 420
 روزفلت، فرانكلين، 461، 500، 554، 555
 روسيا، 17، 22، 28، 34، 42، 46، 48، 56،
 58، 78، 101، 103، 110، 116، 117،
 140، 280، 286، 598، 610، 652
 رومانيا، 17، 125، 206
 رومل، المارشال إروين، 420، 437، 472،
 473، 558
 الريس، نجيب، 210، 221، 231، 261، 533،
 618
 ريموند، أندريه، 365
 رينو، بول، 411، 412، 455
 ز
 زريق، قسطنطين، 403
 الزعيم، العقيد حسني، 88، 658، 679، 680،
 682، 683، 684، 686، 689، 691،
 692، 696، 697، 698، 737
 زكور، ميشال، 196
 زكي بك، 80
 الزهراوي، عبد الحميد، 64، 74، 77، 79،
 82، 83، 93، 98، 99، 109
 زونتك، الدكتور هرمان، 592
 زوين، محمد، 711
 زين الدين، فريد، 347، 402، 431
 زين، زين، 159
 الزين، يوسف، 498
 زيني، عمر، 252
 زينية، خليل، 99

س

ساراي، الجنرال موريس، 203، 205، 218

- 550، 551، 552
 شاريت، موشي، انظر شرتوك، موسى، 280،
 627، 735
 شاطئ العاج، 131
 شامير، إسحاق، 659
 الشاوي، نقولا، 370، 599، 621، 673
 شبيلات، فرحان، 723
 شرباتي، أحمد، 684
 شرباتي، أحمد، 684
 الشرباتي، عثمان، 210
 شربل، يوسف، 693
 شرتوك، موسى، 280، 286، 288
 شرق الأردن، 123، 163، 168، 178، 180،
 181، 182، 202، 209، 219، 244
 284، 285، 286، 288، 291، 295
 299، 301، 304، 305، 307، 308
 309، 310، 311، 313، 316، 318
 319، 322، 327، 408، 413، 419
 429، 448، 463، 556، 557، 626
 630، 631، 632، 639، 703، 704
 705، 706، 707، 708، 718، 719
 شركة النفط البريطانية الإيرانية، 102
 شريف باشا، 74، 77
 الشريف، إحسان، 231
 شقير، محمد، 723، 724
 الشقيري، الشيخ أسعد، 100، 108
 شكور، إيفاء، 671
 الشماع، عزت، 431
 الشمالي، فؤاد، 264
 الشمعة، رشدي، 64، 74، 110
 سكة حديد الحجاز، 62، 115، 117، 128،
 178، 284، 296، 336، 577
 سلام، سليم علي، 98، 99، 111، 146، 230،
 241، 346، 359، 361، 371، 529
 سلام، صائب، 490، 493، 500، 528، 529،
 566، 606، 657، 722
 سلامة، حسن، 641
 سلطان زنجبار، 50
 السلطان عبد الحميد الثاني، 28، 46، 73، 86،
 126
 سمات، و. أ.، 203
 سمراني، النقيب، 693
 السودان، 557، 626
 سوريا،
 المؤتمر السوري، 145، 146، 153، 154،
 158، 160، 174، 187
 الكتلة الوطنية السورية، 348، 402، 406،
 561، 588، 682
 المؤتمر السوري الفلسطيني (1921)، 188،
 189، 216، 219، 220، 225، 233، 287
 السويدي، توفيق، 321، 439
 سويسرا، 214، 220، 228، 297، 509،
 623، 745
 سيانو، الكونت غالتزو، 166
 سيتون واتسون، ر. و.، 56
 السيد ليببسييه، 485
 السيد هول هول، 250
 السيدة غراي، 578
 ش
 شانتير، إيف، 517، 520، 521، 544، 549،

- شمعون، النقيب توفيق، 690، 693، 694
شمعون، كميل، 500، 506، 512، 514، 524،
533، 543، 566، 594، 598، 609،
610، 670، 671، 677، 697، 711،
740، 739
شهاب، الأمير فؤاد، 654، 692
شهاب، الأمير فريد، 621، 625، 685، 692،
693، 694
شهاب، خالد، 488، 494، 500، 505، 506
الشهابي، الأمير مصطفى، 338
الشهابي، بهجت، 231
الشهبندر، الدكتور عبد الرحمن، 127، 148، 154،
185، 187، 191، 209، 210، 211، 212،
216، 220، 222، 223، 225، 238، 254،
358، 366، 401، 406، 428، 429، 430،
431، 432، 435
شوكت، محمد بن رفعت باشا، محمد، 75
شوكت، محمود، 71، 72، 73، 74، 75، 77،
80، 81، 82، 84، 87، 88، 91، 93،
99، 102
شوكت، ناجي، 439
شون، ترائس، 571، 579، 594
شياب، جان، 425، 426
شيحا، لور، انظر الخوري، لور، 343، 592
شيحا، ميشال، 343، 387، 508، 592، 613
الشيخ عبيد الله، 79
الشيخ لطف الله، 378
شيراش، بالدور فون، 419
الشيشكلي، المقدم أنيب، 656، 680، 698،
714، 722، 738
شيموني، ياكوف، 661
ص
صادق بك، العقيد، 81، 83
صالح، أنيس، 713
صدام حسين، 439
صدقي، الفريق بكر، 438
صربيا، 17، 85
صعب، نجلاء، 531
الصغير، أنيس، 530
الصفا، محمد جابر، 32، 109
صفوت بك، 48
صفوت، الفريق إسماعيل، 641
صلاح الدين باشا، محمد، 738
الصلاحى، محمد عبد اللطيف، 726
الصلح، أحمد (جد رياض)، 331، 380،
438
الصلح، أحمد (شقيق رياض)، 15، 16، 21،
23، 25، 26، 27، 28، 29، 31
الصلح، بلقيس (شقيقة رياض)، 43، 54، 127،
164، 259
الصلح، تقي الدين، 265، 402، 505
الصلح، حسيب، 261، 262
الصلح، درويش (شقيق رياض)، 43، 54، 74،
112
الصلح، رياض،
عودته إلى سوريا (1918)، 117
الحكم عليه بالإعدام (1920)، 162، 164،
376، 380
عودته إلى سوريا (1924)، 166، 168،
169، 193

الوطنية اللبنانية، 331، 332، 333، 334، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353، 354، 355، 356، 357، 358، 359، 360، 361، 362، 363، 364، 365، 366، 367، 745، 746 زواجه، 64، 155، 253، 254، 274 275، 276، 331، 369، 460 التفاهم المسيحي الإسلامي، 366، 367 تسميته، 377 مواقفه السياسية، 183، 185، 187، 188، 259، 402، 403، 679، 743، 744 علاقته بوالده، 233، 262 دراسته، 51، 52، 77 محاولة اغتياله (1950)، 699، 700 محاولة الانقلاب (1949)، 688، 689، 690، 691، 692، 693، 694، 695، 696، 697، 698، 699، 700 بروتوكول الإسكندرية (1944)، 561، 562، 563، 574، 608 سياسته الطائفية، 584، 585، 710، 721، 741، 742 علاقاته مع الفرنسيين، 615، 616، 617، 618، 619 علاقاته العربية، 554، 555، 556، 557، 558، 559، 560، 561 شراكته مع بشارة الخوري، 590، 591، 592، 605، 612، 613، 709، 710، 711، 712، 713، 714	الصلح، رياض، الحملات الوطنية (1930)، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 276 نفيه 1935، 111، 118، 267، 345، 371 انتخابات (1937)، 371، 372، 373، 374، 375 مذكرته (1941)، 467، 468، 469، 470 انتخابات (1943)، 403، 477، 478، 481، 483، 484، 487، 488، 489، 490، 491، 492، 493، 494، 495، 496، 497، 498، 499، 500 القومية العربية، 131، 146، 188، 375، 376، 377، 378، 379، 380، 381، 741 مولده، 48 طفولته، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 43، 44، 45، 46، 47، 48، 49، 50، 51، 52، 53، 54 عائلته، 459 مشاكل العائلة، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 282، 283، 284، 285، 286، 287، 288، 289، 290، 291، 292، 293، 294، 295، 296، 297، 298، 299، 300، 301، 302، 303، 304، 305، 306، 307، 308، 309، 310، 311، 312، 313، 314، 315، 316، 317، 318، 319، 320، 321، 322، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 329، 330، 331، 332، 333، 334، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353، 354، 355، 356، 357، 358، 359، 360، 361، 362، 363، 364، 365، 366، 367، 368، 369، 370، 371، 372، 373، 374، 375، 376، 377، 378، 379، 380، 381، 382، 383، 384، 385، 386، 387، 388، 389، 390، 391، 392، 393، 394، 395، 396، 397، 398، 399، 400، 401، 402، 403، 404، 405، 406، 407، 408، 409، 410، 411، 412، 413، 414، 415، 416، 417، 418، 419، 420، 421، 422، 423، 424، 425، 426، 427، 428، 429، 430، 431، 432، 433، 434، 435، 436، 437، 438، 439، 440، 441، 442، 443، 444، 445، 446، 447، 448، 449، 450، 451، 452، 453، 454، 455، 456، 457، 458، 459، 460، 461، 462، 463، 464، 465، 466، 467، 468، 469، 470، 471، 472، 473، 474، 475، 476، 477، 478، 479، 480، 481، 482، 483، 484، 485، 486، 487، 488، 489، 490، 491، 492، 493، 494، 495، 496، 497، 498، 499، 500، 501، 502، 503، 504، 505، 506، 507، 508، 509، 510، 511، 512، 513، 514، 515، 516، 517، 518، 519، 520، 521، 522، 523، 524، 525، 526، 527، 528، 529، 530، 531، 532، 533، 534، 535، 536، 537، 538، 539، 540، 541، 542، 543، 544، 545، 546، 547، 548، 549، 550، 551، 552، 553، 554، 555، 556، 557، 558، 559، 560، 561، 562، 563، 564، 565، 566، 567، 568، 569، 570، 571، 572، 573، 574، 575، 576، 577، 578، 579، 580، 581، 582، 583، 584، 585، 586، 587، 588، 589، 590، 591، 592، 593، 594، 595، 596، 597، 598، 599، 600، 601، 602، 603، 604، 605، 606، 607، 608، 609، 610، 611، 612، 613، 614، 615، 616، 617، 618، 619، 620، 621، 622، 623، 624، 625، 626، 627، 628، 629، 630، 631، 632، 633، 634، 635، 636، 637، 638، 639، 640، 641، 642، 643، 644، 645، 646، 647، 648، 649، 650، 651، 652، 653، 654، 655، 656، 657، 658، 659، 660، 661، 662، 663، 664، 665، 666، 667، 668، 669، 670، 671، 672، 673، 674، 675، 676، 677، 678، 679، 680، 681، 682، 683، 684، 685، 686، 687، 688، 689، 690، 691، 692، 693، 694، 695، 696، 697، 698، 699، 700، 701، 702، 703، 704، 705، 706، 707، 708، 709، 710، 711، 712، 713، 714، 715، 716، 717، 718، 719، 720، 721، 722، 723، 724، 725، 726، 727، 728، 729، 730، 731، 732، 733، 734، 735، 736، 737، 738، 739، 740، 741، 742، 743، 744، 745، 746، 747، 748، 749، 750، 751، 752، 753، 754، 755، 756، 757، 758، 759، 760، 761، 762، 763، 764، 765، 766، 767، 768، 769، 770، 771، 772، 773، 774، 775، 776، 777، 778، 779، 780، 781، 782، 783، 784، 785، 786، 787، 788، 789، 790، 791، 792، 793، 794، 795، 796، 797، 798، 799، 800، 801، 802
--	---

- علاقته بابنه، 52، 229، 230، 232، 262
الحرب العالمية الثانية، 103، 104، 107،
108، 109
المؤتمر السوري، 145، 153
الصهيونية، 79، 80، 281
الصلح، زهية، 49، 50
الصلح، سامي، 54، 127، 164، 169، 259،
260، 262، 472، 473، 474، 482
493، 494، 566، 591، 601، 602،
606، 722
الصلح، عادل، 26، 740
الصلح، عبد الرحيم، 16، 127، 259
الصلح، عفيف، 231، 240، 338، 361
الصلح، علياء (ابنة رياض)، 11، 49، 51،
106، 111، 130، 194، 462، 504
505، 716، 727، 728، 730
الصلح، علياء (شقيقة رياض)، 43، 54، 166
الصلح، عماد، 261
الصلح، فائزة (زوجة رياض)، 64، 155،
253، 526، 536، 746
الصلح، كاظم، 261، 346، 347، 402، 431،
461، 494، 496، 506
الصلح، كامل، 92، 96، 111
الصلح، محمود، 15
الصلح، ممتاز، (ابن عم رياض)، 259، 260
الصلح، ممدوح، 494
الصلح، منح (عم رياض)، 17، 34، 347
الصلح، منى (ابنة رياض)، 727
الصلح، نظيرة (والدة رياض)، 37، 43، 46،
47، 48، 49، 50، 53، 55، 65، 111،
- الصلح، رياض،
فلسطين، 623، 624، 638، 639، 640،
642، 643، 644، 645
استقالته (1945)، 574، 591
استقالته (1951)، 721، 722
صلاته بجنوب لبنان، 377، 378، 379،
380، 381
جولاته الناجحة (1928-29)، 242، 243،
244، 245، 246، 247، 251، 252،
253، 254، 275، 276
شبابه، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61،
62، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 69،
70، 71، 72، 73، 74، 75، 76، 77،
78، 79، 80، 81، 82، 83، 84، 85،
86، 87، 88، 89
مولده، 17، 37
الصلح، رضا (والد رياض)، 37، 48
نفيه إلى إزمير، 111، 112، 119
فريق فيصل، 121، 122، 123، 124،
125، 126، 127، 128، 129، 143،
154، 155، 156
ضمانته لولده، 169، 193، 233
مرضه، 251
سجنه، 107، 109، 376، 380، 496
زواجه، 48
وطنيته، 131
عمله في الإدارة العثمانية، 38، 39، 40،
41، 42، 43، 44، 45، 76، 129
حياته البرلمانية، 55، 60، 61، 62، 63،
64، 65، 66، 67، 69، 76، 77، 78،
84، 91، 118

طراد، حبيب، 361	112، 167، 194، 195، 262، 610،
طعمه، فريد، 264	670، 700
طلعت بك، 59، 74، 77، 79، 81، 87	الصلبي، كمال، 384، 385، 388
الطبيبي، الشيخ سليم، 245	صمونيل، هربرت، 168، 278، 284، 287
ع	الصندوق القومي اليهودي، 289
العائدي، عبد الكريم، 245	الصهيونية، 41، 67، 78، 79، 80، 88، 96،
عائلة أرسلان، 341	115، 124، 141، 142، 143، 144،
عائلة الجابري، 186، 275، 300، 331، 369	146، 147، 168، 190، 277، 280،
عائلة الحسيني، 280، 286، 301	281، 283، 284، 285، 286، 288،
عائلة الصلح، 12، 35، 40، 84، 94، 95،	289، 293، 297، 300، 301، 303،
101، 108، 112، 146، 260، 341،	305، 315، 316، 317، 323، 325،
367، 379، 380	327، 374، 572، 623، 628، 632،
عائلة العظم، 212، 274، 472	634، 642، 647، 650، 655، 702،
عائلة المدرس، 238	716، 717، 721، 743
عائلة النشاشيبي، 301	صيدا، 15، 16، 26، 34، 39، 106، 108،
عائلة اليوسف، 179	109، 129، 130، 131، 146، 156،
عائلة جنبلاط، 341	166، 173، 175، 229، 230، 232،
عائلة كنج، 238	242، 279، 331، 333، 336، 345،
عائلة لطف الله، 185	347، 349، 355، 379، 380، 381،
عائلة مردم، 68	384، 403، 434، 457، 473، 486،
العابد، محمد علي، 245	494، 499، 532، 541، 588، 601،
عبد القادر الثاني، 121	671
عبد الله، علي، 497	ض
عبد الله، ملك الأردن، 628، 631، 642، 649،	ضم النمسا (1938)، 326، 408
650، 651، 663، 668، 676، 683،	ط
685، 697، 698، 702، 703، 704،	طيارة، أحمد، 99
705، 708، 709، 716، 717، 718،	طيارة، أكرم، 686
719، 720، 721، 722، 723، 724،	طرابلسي، أحمد، 431
728، 729، 730، 732، 733، 736،	طراد، بطرس (بترو)، 492
738، 743، 746	طراد، بيار، 372

- 566، 565، 543، 524، 514، 500
 عسيران، نجيب، 498، 495
 عشو، مصطفى شكري، 732
 عصابة شتيرن، 659
 عصاصة، أحمد، 432، 431
 عصابة الأمم، 127، 144، 148، 172، 185،
 188، 189، 190، 191، 192، 193،
 197، 213، 214، 215، 219، 226،
 227، 243، 246، 253، 256، 257،
 268، 269، 270، 271، 282، 283،
 293، 356، 364، 365، 436، 452،
 520، 557، 595
 العظم، حقي بك، 176
 العظم، خالد، 430، 435، 492، 488، 618،
 714، 716
 العظم، شفيق مؤيد، 76، 77
 العظم، عبد القادر مؤيد، 127
 العظم، محمد فوزي باشا، 100، 128
 العظم، نزيه مؤيد، 210، 220
 العظمة نبيه، 231، 422
 العظمة، عادل، 302، 350، 430
 العظمة، يوسف، 138، 154، 160، 161
 عفلق، ميشيل، 392، 701
 العقيد جوتر، 551
 عكاري، ناظم، 713
 العلمي، موسى، 300، 303، 304، 305، 306،
 314
 علوية باشا، 321
 العلي، الشيخ صالح، 180
 العمري، عز الدين، 261
 عبد المجيد الأول، السلطان، 58
 عبد المسيح، جورج، 677، 694، 696، 699،
 726، 727، 736
 عبد الناصر، جمال، 683، 701
 عبد الهادي، عوني، 301، 303، 306
 عبده، محمد، 88، 92، 185، 187
 عبيد، مكرم، 558
 العجلاني، منير، 401
 العراق
 المعاهدة الانكليزية- العراقية، العراق، 270
 انقلاب عسكري (1936)، 316
 عرب، الكابتن مارون، 462، 513
 العرب، عبد العزيز، 723، 725، 726
 العريس، مصطفى، 370، 621، 673
 العريسي، عبد الغني، 96، 98، 110
 عريضة، البطريرك أنطون، 266، 267، 346،
 481، 588، 654، 668
 عزام باشا، 619، 706، 707
 عزت باشا العابد، أحمد، 15، 32، 34، 35،
 37، 48، 50، 11، 127، 259، 331،
 347، 367، 377، 380، 438، 588
 عزت باشا، 24
 عزمي بك، 61، 201
 العسكري، جعفر، 171، 439
 العسلي، شكري، 64، 77، 78، 79، 83، 93،
 98، 109
 العسلي، صبري، 682
 عسيران، راشد، 130
 عسيران، زهير، 460، 470
 عسيران، عادل، 346، 495، 496، 497،

654، 214، الفاتيكان،	عملية المصدر، 448، 446
346، الفاخوري، ناجي،	عملية المصدر، 448، 446
فاروق، ملك مصر، 47، 441، 491، 555،	عملية غاليلوي (1915)، 105
557، 558، 559، 649، 683، 685،	عمون، داود، 143، 156، 158، 174
698، 701،	العهد الجديد، 194، 195، 196، 225، 231،
الفاسي، علل، 739،	251، 252، 344
الفاشية، 259، 321، 326، 327، 341، 374،	عواد، توفيق، 566
375، 395، 398، 399، 400، 420،	غ
551، 667، 673،	غارندر، أ. ج.، 432، 458
فاندنبرغ، أرثر، 597، 598،	غازي، بن فيصل، ملك العراق، 438، 439
فخر الدين، سعيد، 536،	غاليلي، إسرائيل، 646
فخري بك، 234،	غاملان، الجنرال موريس، 218، 235
فرانكو، الجنرال فرانيسكو، 341، 354،	غانم، شكري، 143
الفرج، الشيخ محمد، 485،	الغاياتي، علي، 192
فرحات، محمد علي، 32،	غبريس، أمين، 32
فرديناند، ملك أرغون، 16،	غروبا، فريتز، 298، 443
فرعون، ميشال، 529،	الغزي، الشيخ بشير، 83
فرعون، هنري، 344، 361، 387، 500، 508،	الغزي، فوزي، 210، 213، 231، 239، 240،
528، 543، 601، 602، 608، 610،	242، 244، 245، 249، 250، 269،
611، 616،	337، 576، 582
فرمولين، العقيد، 551،	غصن، حنا، 462، 499، 691
فرنجية، حميد، 566، 594، 597، 600، 601،	غلوب باشا، 626، 639، 702، 716، 719،
610، 616، 618، 675، 685،	729، 732، 736، 772
فريال، الأميرة، 46، 47،	غوركي، مكسيم، 496
فريجة، سعيد، 712، 713، 742،	غورو، الجنرال هنري، 130، 427، 437،
فريد باشا، داماد، 83،	448
الفضل، محمد، 528، 566،	غولمان، ناحوم، 310
فلابان، سيمحا، 628،	ف
فلاندان، بيير إتيان، 349،	فؤاد الأول، ملك مصر، 46، 693
	فؤاد باشا، 24

القباني، أحمد أبو خليل (1836-1903)، 29
 القباني، توفيق، 240، 245
 القباني، فوزي، 431
 القباني، نزار، 240
 قبة الصخرة، 34، 278، 279، 293، 306، 314
 قبرص، 17، 101، 386، 392، 396، 456
 556، 619، 667
 القضايات، 403، 459، 658
 قبلان، عزت، 430
 قدري، أحمد، 126
 قدري، تحسين، 504، 505، 526، 528
 القدسي، ناظم، 226، 252، 682
 للقرم، 17
 قرم، ديفيد، 387
 قرم، شارل، 52، 386، 388
 قريطم، حسن، 673
 القسام، عز الدين، 312
 القصاب، كامل، 148، 160، 283
 القضماني، عبد الغني، 576
 قضية دريفوس، 41
 القمصان الحديدية، 400، 401
 قناة السويس، 25، 27، 104، 136، 391،
 408، 419، 443، 456، 547، 625
 643، 662، 683، 719
 القنصل ميد، 270
 قوادري، عمر، 681
 القوتلي، شكري، 126، 188، 189، 191،
 210، 238، 240، 246، 256، 267
 358، 363، 422، 429، 432، 433
 434، 436، 461، 480، 492، 497

فلسطين

تقسيم 1947، 633، 634، 635، 636
 637، 638، 639، 640، 641، 642
 643، 644، 645، 646، 647، 648
 حرب 1948، 648، 649، 650، 651
 652، 653، 654، 655، 656، 657
 658، 659، 660، 661، 662، 663
 الثورة العربية وبريطانيا، 112
 اللاجئين، 647، 652، 659
 رياض الصلح، 623، 626، 634، 640
 642، 645
 فلوغل، البارون فون، 419
 فهمي أفندي، حسن، 70، 76
 فون هنتغ، فيرنر أوتو، 421، 422، 423
 فيتز موريس، جيرالد، 81
 فيرلونج، جيفري، 458، 462، 471، 472
 482، 484، 486، 490، 491، 492
 495، 497، 509، 513، 568، 462
 471، 472، 482، 484، 486، 490
 491، 492، 495، 497، 509، 513
 568
 فيشنسكي، المفوض، 597
 فيصل الثاني، ملك العراق، 439
 فيغريل، الكولونيل، 131
 فينو، بيار، 354
 ق
 قازان، فزاد، 370
 القارقجي، فوزي، 219، 221، 238، 298
 313، 316، 323، 431، 610، 641
 656، 698

كرد علي، عادل، 196	554، 559، 573، 576، 579، 581
كرد علي، محمد، 96، 128	588، 614، 632، 633، 640، 649
كرم، أنور، 693	680، 682، 685، 696، 698، 715
كرم، عساف، 689، 690	716، 722، 744
كرم، يوسف، 551	القومية العربية، 52، 89، 97، 110، 114،
كريت، 86	143، 150، 159، 182، 188، 191،
كرين، تشارلز، 144	197، 221، 222، 255، 279، 294،
الكساد العظيم، 255	296، 305، 324، 334، 340، 341،
كلايتن، جيلبرت، 640	347، 361، 362، 367، 371، 373،
كلية الحقوق في استانبول، 77	374، 376، 381، 388، 389، 391،
كليمنصو، جورج، 139، 149، 206، 207،	397، 402، 407، 431، 437، 461،
212	469، 478، 503، 509، 560، 583،
كمال، الجنرال مصطفى (أتاتورك)، 149، 154،	585، 587، 606، 608، 633، 665،
160، 181، 187، 191، 209، 246،	673، 679، 697، 742
285	ك
كنعان، مارون، 528	كاترو، الجنرال جورج، 414، 423، 447،
كنغ، هنري، 144	478
كورنواليس، كنهن، 461	كادوغان، ألكسندر، 597، 620
كوزميس، بنتليون، 76	كاريله، النقيب غابرييل، 202، 203
كوف دو مورفيل، موريس، 716	كاشين، مارسيل، 259
كوكس، بيرسي، 175	كالفارسكي، أ. ن.، 285، 291
كوليت، 216	كامل باشا، الصدر الأعظم، 70، 85، 86، 87
كوهين، ياكوف، 735، 736	كاندياني، كلارا، 213
الكويت، 102، 313، 439	الكتائب اللبنانية، 511، 608، 667، 675، 687،
الكيالي، الدكتور عبد الرحمن، 209، 252،	696، 739
256، 338، 358، 429، 492	كرامي، عبد الحميد، 239، 241، 256، 302،
كيخيا، أحمد، 93	341، 346، 489، 490، 492، 500،
كيخيا، رشدي، 682	526، 533، 543، 566، 574، 591،
كيخيا، رغيد، 274	592، 602، 606، 610، 611، 612
كير، ميشال، 734	كرامي، عمر، 526

كيركير ايد، الك، 732، 733

كيرنسكي، ألكسندر، 137

كيسي، ريتشارد، 489، 514، 526، 539،

630، 546

الكيلاني، رشيد عالي، 328، 437، 438، 439،

440، 441، 442، 443، 445، 455،

458، 460، 462، 497، 558، 610،

626، 641

الكيلاني، سعدي، 422

الكيلاني، محي الدين، 93

كيليرن، اللورد، 546، 559، 572، 573، 574،

546، 559، 572، 573، 574

كيليكيا، 140، 148، 149، 150، 154، 160،

178، 187، 587

ل

لاسل، د. و.، 520

لامبسون، مايلز، انظر اللورد كيليرن، 546

لامنس، هنري، 393

لايارد، هنري، 30

لبنان

تدخل فرنسا العسكري (1860)، 134

حرب 1860، 21، 22، 23، 24

انتخابات 1947، 602، 611، 613، 697

لجنة الدفاع الوطني، 148، 160

لجنة كنف كرين، 147

لجناتليوم، اللواء بول لويس، 449

اللحام، عارف، 590

لطف الله، الأمير ميشال، 185، 188، 189،

209، 216، 222، 233، 254، 428

لطف الله، جورج، 188، 191

لطف الله، حبيب باشا، 184

لطفني أفندي، 75

اللغة العربية، 65، 69، 78، 93، 96، 97، 98،

128، 142، 151، 194، 280، 326،

339، 344، 367، 393، 410، 473،

515، 661

اللورد روتشيلد، 142

اللورد كيرزون، 147

اللورد هاردنج، 182

لورنس، الكولونيل ت.، 115، 117، 121،

122، 138، 139، 140، 141، 200

لورنس، هنري، 12، 296، 629

لويد جورج، ديفيد، 139، 140، 141، 147،

148، 153

لويس الرابع عشر، 135، 382

لي، تريغفي، 651

ليبيا، 37، 57، 82، 92، 95، 416، 417،

420، 441، 445، 605، 744

ليتلتون، أوليفر، 447، 451، 456، 471

م

المؤتمر الإسلامي (1928)، 293

المؤتمر الإسلامي (1931)، 295، 296، 301،

321

المؤتمر الاشتراكي (1928)، 259

مؤتمر الساحل، 241، 345، 346، 347، 348،

349، 529

المؤتمر العربي العام (1913)، 98، 99، 100،

108، 127، 346، 489

مؤتمر المحامين العرب (1944)، 561، 562

المؤتمر اليهودي العالمي (1897)، 310، 623

مدام كاترو، 484	مؤتمر باريس (1919)، 108، 127، 346
مدام كوانتيه، 424	مؤتمر بلودان (1937)، 321
مدحت باشا، الصدر الأعظم أحمد، 28، 29، 30، 31، 58	مؤتمر رابطة الشعوب المضطّدة (1927)، 225
المدفعي، جميل، 460، 461، 738	مؤتمر سان ريمو (1920)، 153، 154، 156، 174، 190، 208
مدويان، أرتين، 264	مارشال، جورج، 663
المر، غبريال، 690، 693	ماركوس، ميكي، 651
مردم، جميل، 94، 196، 210، 213، 240، 256، 267، 336، 338، 358، 361، 363، 364، 366، 428، 429، 430، 431، 432، 447، 492، 559، 641، 642، 649، 658، 682، 698، 727	مارلو، جون، 324
مردم، سامي باشا، 129	مارون، بشارة، 723
مردم، سلمى، 727	ماسيغلي، رينيه، 520، 535، 553
المرسى الكبير، 415	ماسينيون، لويس، 150
المرشد، سليمان، 625	ماكميلان، هارولد، 513، 546
مسألة لينش، 75	ماكيريث، جيلبرت، 357، 419، 568
المسجد الأقصى، 278، 292، 306، 732	ماكينز، روجر، 535
مسلم، أولغا، 194	المالكي، العقيد عدنان، 726
المسيو بارت، 536	مايرسون (مائير لاحقاً) غولدا، 627، 638
المسيو بايلن، 495، 544	مبارك، المونسنيور إغناطيوس، 266، 611، 653
المسيو برونو، 486، 495، 498، 532	مبارك، موسى، 353، 555، 559
المسيو بوغنير، 495، 517، 519، 544	المتطوعون العرب، 313، 641
المسيو دافيد، 522، 542	المجاعات، 118
المسيو ديمانتسيس، 493	المجموعة الدستورية، 402
المسيو روزيك، 495	محاسن، سعيد، 248
المسيو غوثيه، 485، 668	المحايري، عصام، 699، 737
المسيو غولميه، 522	محمد علي، 32، 93، 168، 196، 245، 295، 383، 384، 685
المسيو فيلغاس، 226	مختار، الغازي أحمد، 85، 99
المسيو كولومباني، 322، 425، 426	مدارس الأليانس الإسرائيلية، 41، 42
	مدام بونسو، 260

- مكماهون، هنري، 113، 135
مكمايكل، هارولد، 327، 556
الملازم برانيه، 181
ملحمة، سليم، 74
ملحمة، نجيب باشا، 62، 74
ملك العراق، فيصل الأمير، 286، 412
ممتاز بك، 122
المملكة العربية السعودية، 40، 317، 422،
445، 461، 468، 626، 632، 633،
638، 685، 686، 714
المنلا، سعدي، 528، 591، 602، 606، 722
مورانوف، ليون، 740
مورس، بيني، 628
موسغريف، الرائد، 671
موسولينى، بينيتو، 166، 258، 259، 326،
341، 416، 419، 441
الموصل، 95، 116، 139، 140، 438، 587
مونتكلار، الجنرال، 551
مونكتن، والتر، 471
ميتلهاوزر، الجنرال يوجين ديزيريه، 414، 415
ميثاق الأطلسي، 491، 499، 546، 555
الميثاق الوطني (1943)، 501، 507، 508،
509، 510، 512، 516، 560، 605
675، 699، 709، 710، 745
ميشو، الجنرال روجيه، 204
ميلران، ألكسندر، 152، 153، 175
ن
النائلي، عاصم، 430، 431، 432
النابلسي، سليمان، 723
نابليون الثالث، 20، 23
المصالح المشتركة، 264، 466، 467، 484،
515، 521، 530، 549، 584، 588
مصالحة، نور، 628
مصب التابلاين، 613
مصر
المعاهدة البريطانية المصرية، 315، 338،
660
الانتخابات (1942)، 491
المصري، عزيز علي، 94، 95، 105
معاهدة برلين (1878)، 42
معاهدة فرساي (1919)، 145، 185
معنوق، الشيخ صالح، 431
معركة لولبرغاز (1912)، 85
معركة ميسلون (1920)، 138، 161، 185،
225، 311، 545
معركة ميسولونغي (1823)، 43
معكوك، عبد السلام، 689
المعلوف، نصري، 505، 506، 560
معهد وايزمان للعلوم، 627
مغيب، نعيم، 528، 552
المغرب، 154، 172، 202، 226، 250، 279،
287، 369، 413، 738، 743
المغربي، عبد الله، 165
مفتي زادة، نظيرة، انظر الصلح، نظيرة، 47
مفرج، فؤاد، 403
المقدم هرائنت، 576
مقدونية، 42، 43، 85
مكاوي، جميل، 512، 530
مكدونالد، رامزي، 295
مكدونالد، مالكولم، 327

439	ناصر، وداد، 670، 671
هافارد، الجنرال غودفري، 417	ناظم باشا، 70، 71، 87
هاملتون، جون، 468	نامي بك، أحمد، 234، 236
هانكي، أوليفر، 476	نامير، لويس، 401
هانكي، موريس، 139، 551، 564، 568	النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) // 17، 48،
هاتلر، أدولف، 258، 298، 328، 329، 341،	69، 105، 278، 301، 377
418، 416، 412، 411، 405، 353	نجا، الشيخ مصطفى، 333
419، 441، 452، 596، 620، 624	النجادة، 397، 398، 402، 511، 512، 530،
627، 673	696
هرتزل، تيودور، 623	نجيم، بولس، 382
هريوت، انوار، 207، 208، 209	النحاس، مصطفى، 231، 491، 555
الهستروت، 626، 627	الفرقة الفينيقية، 385، 386، 387، 388،
هللو، جان، 484، 485، 488، 489، 491،	389
492، 493، 498، 517، 519، 520	النصولي، محي الدين، 398، 470
521، 522، 523، 524، 525، 526	نظام الملة، 68
527، 528، 534، 535، 537، 539	نظيف بك، 87
540، 543، 544، 669	النعمان، عارف، 158، 159، 239
همفريز، ف. هـ، 270، 271	نقابات العمال، 256، 263، 264، 354، 402،
هنانو، إبراهيم، 180، 209، 231، 240، 244،	621، 683
252، 253، 256، 334	نقاش، ألفرد، 435، 466، 479، 481، 500،
هنتر، إيان، 733	517، 566، 588
هنتزيفر، الجنرال شارل، 336، 363	نقاش، جورج، 372، 592
الهند، 15، 102، 136، 148، 173، 178،	نقولا، سيبير، 726، 730، 733، 734
285، 296، 317، 326، 369، 413	نور، الدكتور رضا، 74
416، 419، 421، 422، 441، 479	نوفل، العقيد، 542
617، 634	هـ
هوغارث، د. ج، 137	هاردنغ، اللورد، 182
هول، إ.، 244، 249، 250، 251	هارفي، أوليفر، 437
هولمان، أ.، 563	الهاشمي، العميد، 439، 641، 698
هيكل، محمد حسنين، 728	الهاشمي، ياسين، 161، 297، 316، 438،

ي

ويغان، الجنرال مكسيم، 408
 ويفل، الجنرال أرشيبالد، 409، 416، 434،
 456
 ويلسون، وودرو، 133، 140، 143، 145،
 146، 147
 وينغيت، أورد، 325
 وينغيت، ريجينالد، 137
 ياسين، الشيخ يوسف، 413، 631
 اليافي، عبد الله، 371، 403، 472، 493،
 494، 500، 566، 606، 609، 722
 ياكوبا، 735
 يالين مور، ناثن، 659
 يزبك، يوسف، 233
 اليمن، 16، 57، 58، 83، 308، 327، 339،
 299
 اليهود
 انظر أيضاً الصهيونية، 289
 اليهود في سالونيك، 41
 اليوسف، عبد الرحمن، 64، 77، 79، 93،
 100، 105، 180، 238
 اليوسف، كامل حسين، 686
 يوغوسلافيا، 437، 524
 اليونان، 42، 43، 45، 61، 85، 206، 420،
 427، 443، 447، 621

هيوز، ماثيو، 655، 656

هيوستون بوزوال، وليم، 621، 643، 644،
 654، 662

و

وادمورث، جورج، 523، 526، 531
 واكبوب، أرثر، 295، 299، 300، 303،
 313، 316، 327
 والكر، م. ت.
 وايتز، يوسف، 652
 وايزمان، حايم، 281، 285، 288، 293،
 310، 352
 وحدة الهلال الخصيب، 557، 630
 وحنّي، درويش، 74
 وعد بلفور، 114، 124، 137، 141، 142،
 170، 190، 191، 201، 221، 279،
 281، 287، 288، 294، 321، 620
 الوكالة اليهودية، 285، 291، 293، 327،
 328، 627، 661
 الولايات المتحدة، 33، 114، 136، 140،
 145، 147، 158، 452، 468، 489،
 500، 517، 571، 622، 627، 631،
 634، 635، 650، 662، 683، 727
 وولف، هنريش، 298
 ويسلون، الجنرال هنري، 130، 427، 437،
 448، 450

لم نستطع الاتصال ببعض المصورين أو ورثتهم بالرغم من محاولتنا القيام بذلك.
إلا أن المؤلف سيحترم حقوق أي شخص يستطيع تقديم دليل على أنه، أو أنها، يحمل حقوق نشر أية
صورة فوتوغرافية ظهرت في هذا الكتاب.
